جون جوليوس نورويش

الأبيض المتوسط

تاريخ بحر ليس كمثله بحر

ترجمة طلعت الشايب

الأبيض المتوسط

تاريخ بحر ليس كمثله بحر

تأليف
جون جوليوس نورويش

ترجمة
طلعت الشايب

هنداوي

الأبيض المتوسط

جون جوليوس نورويش

The Middle Sea

John Julius Norwich

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٤١٧ ٥

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٦.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ طلعت الشايب.

المحتويات

مقدمة الأعمال الكاملة للكاتب والمترجم طلعت الشايب	٧
مقدمة	٩
١- البدايات	١٥
٢- اليونان القديمة	٣١
٣- روما - الجمهورية	٤٥
٤- روما – الإمبراطورية الباكرة	٦٥
٥- الإسلام	٩٧
٦- إيطاليا العصور الوسطى	١١٣
٧- الهجوم المسيحي المضاد	١٤١
٨- الشتاتان	١٧٥
٩- أعجوبة الدنيا	١٨٩
١٠- نهاية الشرق اللاتيني	٢١٣
١١- نهاية العصور الوسطى	٢٣٣
١٢- سقوط القسطنطينية	٢٥٩
١٣- الملوك الكاثوليك والمغامرة الإيطالية	٢٨٣
١٤- المَلِك والإمبراطور والسلطان	٣٠٩
١٥- البربر وآل بربروسا	٣٣١
١٦- مالطة وقبرص	٣٥٥
١٧- ليبانتو والمؤامرة الإسبانية	٣٧٧
١٨- كريت والبيلوبونيز	٣٩٩

١٩- حروب الخلافة ٤٢٣

٢٠- حصار جبل طارق ٤٥٧

٢١- نابوليون الصغير ٤٧٧

٢٢- حاشية عن نابولي ٥٠٣

٢٣- مصر بعد نابوليون ٥١١

٢٤- التسوية الأوروبية ٥٢٥

٢٥- الحرية لليونان ٥٣٩

٢٦- محمد علي وشمال أفريقيا ٥٧٥

٢٧- الـ «كوارانتوتو» The Quarantotto ٥٨٥

٢٨- الـ «ريزورجيمنتو» The Risorgimento ٥٩٧

٢٩- المِلكات والكارليون ٦٢٧

٣٠- مصر والقناة ٦٤١

٣١- حروب البلقان ٦٤٩

٣٢- الحرب العظمى ٦٦٩

٣٣- السلام ٦٩١

قائمة المراجع ٦٩٧

ملحق ٧٠٧

الخرائط ٧١٣

ملحق الصور ٧٢٥

مقدمة الأعمال الكاملة للكاتب والمترجم طلعت الشايب

حينما طلبَت مني دار النشر «هنداوي» كتابةَ مقدمةٍ لأعمال والدي الكاملة وإسهاماته في مجال الترجمة، قفزَت إلى ذهني مُباشَرةً صورتُه في جلسته الدَّءُوبة ساعاتٍ طويلة في غرفة مكتبه مُحاطًا بعشرات الكتب والمَراجع والقواميس.

كان أبي قارئًا نَهِمًا ومُتابِعًا دقيقًا لكل الإصدارات الحديثة لمعظم الكُتاب والمُفكرين والأُدباء العرب والأجانب، لكنَّ أمتعَ لحظاته على الإطلاق تلك التي يَقضيها في ترجمةِ عملٍ ونقله من لُغته الأم إلى اللغة العربية. ينشغل أيامًا للعثور على التعبير المناسب أو الكلمة الدقيقة أو المقابل اللغوي الصحيح الذي يَنقل روحَ النص وليس المعنى الحرفي؛ مهمةٌ لم تكن قَطُّ سهلة، خاصةً عند ترجمة الشعر أو الأدب اللذين كان مُولَعًا بهما في الأساس.

احترف أبي الترجمةَ من وحي احترافه القراءةَ والنقد في زمنٍ لم تكن فيه مصادرُ البحث عبر الإنترنت متوافرةً كما هي الآن؛ بكبسةِ زرٍّ تستطيع العثورَ على مصطلحاتٍ أو معلومات أو تفاصيل عن حدَثٍ تاريخي.

كان عليه البحث في المَراجع والكتب أيامًا للعثور على مُرادفٍ له مدلولٌ ثقافي أو معلومات عن حدثٍ تاريخي ورَدَ في كتابٍ يقوم بترجمته.

وتنتهي رحلةُ ترجمة الكتاب بشراء عشرات الكتب الأخرى التي استعان بها في أثناء الترجمة.

كان يصف ترجمةَ الشعر والأدب بالمُغامَرة المحفوفة بالمخاطر. المهمة هنا أشد صعوبةً لأنك لا تنقل أفكارًا أو معلومات، بل أحاسيس ومشاعر وأجواء وروح نص لأعمال مثل: «اتَّبِعي قلبك»، و«أصوات الضمير»، و«بقايا اليوم»، و«هوس العمق»، و«الخوف من المرايا»، و«فتاة عادية»، وغيرها.

عليك، بصفتك مُترجِمًا، مهمة الحفاظ على روح الكاتب الأصلي وموسيقى النص ليصل المعنى بدقةٍ إلى القارئ، وكأنه يقرأ العمل بلُغته الأصلية، وكأن العمل له كاتبان: الكاتب الأصلي والمُترجِم.

في أعوامٍ لاحقة اقترب أبي من التكنولوجيا أكثر، واستخدم الإنترنت التي اختصرَت عليه عمل أيام وشهور، لكنه لم يَتنازل قَطُّ عن استعمال أقلام الرصاص لنقل ما بذهنه على الورق. ترقد الأقلامُ مصفوفةً أمامه بعضها إلى جوارِ بعضٍ على المكتب مَبريَّة وجاهزة للكتابة، وكأنها سلاحه الأمين.

يكتب بسرعةٍ بخط جميل مُنمَّق على أكثر من مرحلة لم تكن إحداها قَطُّ الكتابة على الكمبيوتر. كان يُفضِّل المسوَّدات الورقية، وإدخال التعديلات بالأسهم أو الشطب على الكلمة وكتابة غيرها؛ لتظل أمامه مراحلُ التفكير في الكلمات واستبدالها بأخرى.

يقول لي: أُحب أن تظل أمامي الكلمات «تخايلني»، ربما أعود لها مرة أخرى. لا أُفضل الإلغاء التام أو المسح النهائي الذي توفره أجهزة الكمبيوتر. المسوَّدة بكل هوامشها هي عمليةُ ولادةِ النص المُترجَم.

أبي كان راهبًا في مِحراب الترجمة، شغوفًا برحلته مع كل كتاب، تلمع عيناه في نهاية يومِ عملٍ شاقٍّ بما اكتشفه في رحلته من أفكارٍ وثقافات يَتحدَّث عنها بحماسةِ وسعادةِ مَن يُعيد اكتشاف ذاته كلَّ مرة.

وتبقى الجملة الأجمل بالنسبة إليه عندما يَلتقيه قارئٌ ويُخبره أنه لم يشعر قَطُّ أنه أمامَ عملٍ مُترجَم لسلاسة الترجمة وانسيابية الكتابة.

هذه دعوة للغوص في مجموعةٍ من أهم ما قدَّمه مُفكرون ومُؤرخون وشُعراء ومجالات أخرى متنوعة تناسب كلَّ الأذواق، من بينها كُتبٌ غيَّرت مجرى التاريخ، مثل: «صدام الحضارات»، و«الحرب الباردة الثقافية»، و«فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي»، و«الاستشراق الأمريكي»، وغيرها من الأعمال الهامة.

رحلة عبْرَ ترجماتِ والدي، المُترجِم والكاتب «طلعت الشايب»، وأَعِدُكم بمتعةٍ تضاهي متعةَ قراءةِ العمل الأصلي بلُغته الأم.

منى الشايب

مقدمة

عندما تلقيت اقتراحًا قبل خمس أو ست سنوات تقريبًا، بأن أكتب تاريخَ البحر الأبيض المتوسط، غاص قلبي في قدمي. بدا الموضوع ضخمًا والفترة الزمنية طويلة جدًّا؛ فكيف يمكن ضغط ذلك كله في كتاب واحد؟ من أين يبدأ وأين ينتهي؟ وما دام لا بد من أن يكون انتقائيًّا، فكيف ينبغي أن يكون الانتقاء؟ المثير للدهشة، أن هذه الأسئلة، وغيرها التي ظهرت في أثناء العمل، كانت تحمل إجاباتها. في لحظةٍ ما فكَّرت في كتابة فصل يكون بمثابة مقدِّمة تتناول نشأة البحر، تلك اللحظة المهيبة، عندما ارتطمت مياه الأطلنطي بالحواجز التي هي الآن مضايقُ جبل طارق، لتغمر الحوض الهائل الذي تشغَله منذ ذلك الحين. كان يمكن أن يمضيَ ذلك الفصل ليصف ذلك الجيَشانَ المزلزل — المفاجئ بالقدْر نفسه — الذي فصل أوروبا عن آسيا في الجانب الشمالي الشرقي، واصلًا البحر الأبيض بجاره البحر الأسود، القريب مكانيًّا والبعيد كلَّ البعد في طبيعته، إلا أنني لست عالم جيولوجيا، وبدلًا من أن أبدأ قصتي من ملايين الأعوام، قرَّرت أن أبدأ بالبشر ... وليس بالصخور والماء.

لن أبدأ بالبشر الأوائل على أية حال، وذلك لسببٍ بسيط وهو أن البشرَ الأوائل كانوا بشرَ ما قبل التاريخ، ودائمًا ما كنت أجد ما قبل التاريخ مضجِرًا (إذ لو حاول مؤلِّف أن يكتب عن موضوع مضجِر بالنسبة له، فلا بد من أن تكون متأكدًا من أن قرَّاءه سوف يصابون بالضجر كذلك). ارتأيت أنه سيكون أكثر معقوليةً أن أبدأ بمصر القديمة، وهي الثقافة التي خلبَت لبَّ الغرب منذ اكتشاف حملة نابوليون لها في ١٧٩٨–١٧٩٩م. هنا ستكون أرضية ننطلق منها مرورًا بكريت Crete ومسيني Mycenae وحرب طروادة إلى اليونان وروما القديمة ... لنمضيَ بعد ذلك.

كان السؤال المهم الثاني هو أين أتوقَّف، وكانت تلك مشكلة لم أواجهها من قبل. سبق أن قمتُ بكتابة تاريخِ مملكةٍ وجمهوريةٍ وإمبراطوريةٍ ... وكان كلٌّ من هذه التواريخ يصل إلى نهاية محدَّدة. وحيث إننا يمكن — بكل ثقة — أن نتوقَّع أن يبقى البحر الأبيض المتوسط ملايين أخرى من السنين على الأقل، كان من الواضح لي أنه ينبغي عليَّ أن أختار نقطةً ما أتوقف عندها حتى وإن بدَت تعسُّفية. بعد تردُّد طويل اخترت أن أتوقَّف عند نهاية الحرب العالمية الأولى. يمكن أن نظل في جدال لا ينتهي حول ما إذا كانت هذه الحرب قد غيَّرت عالمَ الغرب أكثرَ مما فعلت الحرب العالمية الثانية، إلا أنني أعتقد أن ذلك هو ما حدث بالفعل. لقد أسقطت ثلاث إمبراطوريات قوية، وعليه كانت خلافتها حتمية. إلا أنَّ أمرًا آخرَ أكثرَ عمليةً كان لا بد من أخذه بالاعتبار، لو أنني واصلت القصةَ في أثناء سنوات الحرب وصولًا إلى العام ١٩٤٥م لأصبح هذا الكتاب أكثرَ ضخامةً، ولو أنني مضيت إلى ما هو أبعد من ذلك — إلى إنشاء دولة إسرائيل في ١٩٤٨م مثلًا — لبدأ التاريخ يختلِط بالشأن الحاضر، ولو حدث ذلك فلربما انتهت ما تمنيت أن تكون رحلةً بحرية سعيدة هادئة ... بغرق السفينة.

لقد بذلت قصارى جهدي في الفصول الثلاثة والثلاثين التالية لكي يكونَ البحر الأبيض المتوسط نفسه هو بؤرة اهتمامي؛ ومرةً أخرى حاولت قدْر المستطاع تجنُّب الجغرافيا الطبيعية. أرجو ألا يتصورَ أحد أنني أقلِّل من أهمية عوامل المد والجزر والرياح والتيارات المائية وغيرها من الظواهر الخاصة بالمحيطات والأنواء؛ فتلك العوامل كلُّها هي التي شكَّلت وطوَّرت فن الملاحة وحدَّدت لنا طرقَ التجارة وحسمت نتائجَ الكثير من المعارك البحرية. بالرغم من ذلك كله، لن تجدَ لها مكانًا على هذه الصفحات. كل ما حاولت أن أفعله هنا هو أن أتتبَّع المصائرَ السياسية الرئيسية لأراضي البحر الأبيض المتوسط بقدْر تأثُّر تاريخها بالظروف والأحوال المحيطة بها؛ وربما يعني ذلك بدوره اختلافَ درجات التأكيد على نقاطٍ بعينها قد تبدو مثيرةً للدهشة. فرنسا على سبيل المثال دولةٌ متوسطية دون شك، ولكن مركزها السياسي بعيدٌ هناك في الشمال، ومن ثَم لن تجد سوى ذكرٍ هامشي للثورة الفرنسية، ولن تجد ذكرًا بالمرة لـ «جان دارك Joan of Arc» ولا إلى مذبحة «سانت بارتولوميو St Bartholomew». إن مقاطعة «بروفنس Provence» مع مدينة «مرسيليا Marseille» الكبيرة وميناء «طولون Toulon» الرائع، أكثرُ أهمية بالنسبة لنا من باريس.

لعل إسبانيا حالةٌ خاصة. «فرديناند Ferdinand» و«إيزابيلا Isabella» لهما أهميةٌ كبيرة لعدة أسباب: تدميرهما مملكة «غرناطة Granada»، طردهما المسلمين واليهود

بالجملة؛ الأمر الذي كان له أثره على ديموغرافية أوروبا الغربية، ولا يقلُّ عن ذلك أهمية رعايتهما لـ «كولومبس Columbus» التي كانت أولَ خطوة في تقليص أهمية البحر الأبيض، كذلك فإن مشكلات الأُسر الإسبانية الحاكمة شديدةُ الارتباط بموضوعنا؛ فهي التي ألقت بجزء كبير من القارة في خِضم فوضى عارمة. من ناحية أخرى، فإن حربَ شبه الجزيرة التي تركَّزت أساسًا في الجزء الشمالي الغربي من إسبانيا، وفي البرتغال، ليست من بين اهتماماتنا هنا.

لم يكن هناك أيُّ شكٍّ أو تردُّد بالنسبة للقسطنطينية Constantinople. ربما تكون أهمية المدينة في أنها تشرف على البوسفور Bosphorus وبحر مرمرة Marmara فحسب، إلا أنها كانت عاصمةً لإمبراطوريتين متعاقبتين (البيزنطية والعثمانية)، كانتا تحتلان في أوقاتٍ مختلفة أكثرَ من نصف خط شاطئ المتوسط، وعليه فكلتاهما جزءٌ لا يتجزأ من قصتنا. كذلك لا بد من أن نضعَ في اعتبارنا الجزرَ التاريخية المهمة؛ صقلية وقبرص ومالطة وكريت. الأولى كانت جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية على مدى عدة قرون (كما كانت عاصمتها لفترة قصيرة).[1] الجزر الثلاث الأخرى عانت من عمليات حصار مروِّعة بواسطة الأتراك العثمانيين، كان من بينها عمليتان ناجحتان. مالطة وحدها، بقيت دون غزوٍ حتى مجيء نابوليون.

الدولتان اللتان يمكن وصفهما بالمتوسطتين بمعنى الكلمة هما إيطاليا واليونان. لن يدهش قارئ هذا الكتاب للأهمية التي نعطيها للأولى؛ حيث إن إيطاليا كانت بعبارة «مترنخ Metternich» قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر «مجردَ تعبير جغرافي»، واقعة بين «سافوي Savoy» في الشمال وصقلية في الجنوب، كانت شبه الجزيرة أشبهَ بكاليدوسكوب دائمِ التغيُّر بين ممالك ومعتمديات ودوقيات وجمهوريات ومدن — دول، كانت كلُّها عرضةً لغزواتٍ وعملياتِ احتلال رئيسية أو ثانوية من جيرانهم الإيطاليين أو سواهم: الفرنسيون والإسبان وكذلك البريطانيون، إن كان لنا أن نعتبرَ أسطول «نلسون Nelson» غزوًا. لقد حاولتُ في الفصول الخاصة بإيطاليا أن أحتفظَ بالقضايا بسيطة قدْر الإمكان، ولأن التاريخ مراقِبٌ قاسٍ لا يرحم، لم يكن أمامي سوى أن أدفعَ بسببٍ قاهر (force majeurs). كان بمزيدٍ من الارتياح، أن وصلت إلى الـ «ريزورجيمنتو Risorgimento» — البعث — وتوحيد إيطاليا؛ وهو الهدف الذي كنت أتوق إليه مثل «ماتزيني Mazzini» تمامًا. حينذاك أدركت أن عملي قد وصل إلى نهايته.

على عكس ذلك، تظهر اليونان أربع مرات فحسب في هذا الكتاب، وبالتحديد في الفصول: الثاني والثامن والثامن عشر والعشرين، وليس من الصعب اكتشاف السبب. على

مدى خمسة قرون تقريبًا كانت اليونان، مثل باقي أوروبا الشرقية، تحت الحكم التركي؛ وهكذا كان محكومًا عليها منذ الفتح العثماني أن تكون دولة شبه راكدة، وبقيت كذلك تقريبًا حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر عندما استيقظت الروح اليونانية. لم يكن القتال الذي نشب من أجل الاستقلال ملحمةً بطولية مستمرة كما يوصف أحيانًا إلا أنه نجح، كما أن الاستيلاء على «سالونيكا Salonica» بكل نتائجه هو الذي أسفر عن اليونان كما نعرفها اليوم.

ويتبقى شمال أفريقيا أو معظمه، أما مصر فهي حالةٌ خاصة، وذلك — لدرجة كبيرة — بفضل نهر النيل، ولو كانت هناك مجارٍ مائية أخرى في الجزء الغربي بمثلِ أهمية نهر النيل لاختلف تاريخُ المنطقة كلِّها اختلافًا كبيرًا. لذا فإن الدول المطلة على المتوسط في الجانب الجنوبي منه معظمها صحارٍ، بصرف النظر عن المدن والبلدات الموجودة على امتداد شريط ساحلي ضيق، ونحن معنيون بالتأكيد بهذا الشريط، الذي كان له تاريخ مميز في سالف العصور. منذ القرن السادس ق.م.، كانت هناك فيما يُعرف بـ «قيرنايكا Cyrenaica» شرقي ليبيا، عدةُ مدن إغريقية منتعشة: «قورينة Cyrene» وميناؤها في «أبولونيا Apollonia» كانت إحدى المدن الأكثر ازدهارًا في العالم. بعد مائة عام، كانت «قرطاج Carthage» — فيما يُعرف الآن باسم تونس — تسيطر على أكثرَ من نصف الساحل الأفريقي الشمالي وتمثِّل خطرًا على روما؛ بينما بحلول القرن الثالث الميلادي امتدت أفريقيا الرومانية من ساحل الأطلنطي إلى «تريبوليتانيا Tripolitania» التي كانت عاصمتها «ليبتس ماجنا Leptis Magna» مسقط رأس «سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus» أحدِ أباطرة الروم الأكثرِ تميزًا فيما بعد.

أبعد من ذلك قليلًا في اتجاه الغرب، أخشى أن تكون الجزائر ومراكش قد حظيتا باهتمامٍ أقلَّ نسبيًّا. التاريخ الجزائري — كما هو متوقَّع — جزءٌ منه روماني وجزء منه «وندالي Vandal»،[٢] ثم بيزنطي، ثم أموي، ثم مرابطي،[٣] ثم موحِّدي،[٤] ثم عثماني حتى مجيء الفرنسيين في عام ١٨٣٠م. في مراكش كان الوضع مشابهًا تقريبًا في القرون الباكرة، أما فيما بعدُ فكان هناك فارق مهم: كانت مراكش هي الدولة الوحيدة في شمال أفريقيا التي لم تخضع للسيطرة العثمانية وظلت تحت حكم حكَّام محليين حتى القرن التاسع عشر. هذه الحقيقة البسيطة كان لها تأثير غير عادي في طبيعة ذلك البلد الذي يتمتع بصفاتٍ شرقية وغربية إلى حدٍّ ما في العالم الإسلامي الحديث، وهو في الواقع بلدٌ أطلنطي أكثرُ منه متوسطيًّا.

إلا أنني أشعر كذلك ببعض الذنب بسبب بلدٍ متوسطي آخرَ أغفلتُه، ربما دون وجه حق؛ فإمارة «موناكو Monaco» التي ربما لا تزيد مساحتها عن ميلٍ مربع، يمكن أن تدعي أنها كانت دولة مستقلة منذ القرن الخامس عشر تحت حكم بيتٍ مَلكي (الجريمالد The Grimaldis) الذي هو الأقدم في أوروبا حيث يعود إلى عام ١٢٩٧م، وربما إلى ما قبل ذلك. كانت «موناكو» تستحق الذكر، إلا أن ذلك لم يحدث. وفي لحظةٍ ما، فكَّرت في إضافة بعض الصفحات الجزْلة عن تطوُّر «الريفييرا The Riviera» أعطي فيها هذه المعتمدية حقَّها، إلا أنني أدركت أنها ستكون خارجةً عن السياق فتغاضيت — من أسف — عن الفكرة. أتمنى أن تكون هذه الكلمات معبِّرة عن تقديري لأهل «موناكو» مؤكدة أنه لم يتمَّ إغفالهم تمامًا.

والآن إلى كلمةٍ عن أسماء الأعلام. في كتابٍ من هذا النوع ليس هناك قواعدُ ثابتة؛ إذ يبدو لي أنه يمكن التضحية بذلك بغيةَ الاتساق؛ ولذا سمحت لنفسي أن أسترشدَ بما هو مألوف. الأسماء اليونانية كتبتُها باللاتينية (Comnenus بدلًا من Komnenos)، الاسم الأول الذي يسبق اسم الأسرة كتبتُه بالطريقة الإنجليزية (William of Sicily بدلًا من Guglielmo)، كما بَسَّطت الأسماءَ العربية قدْر المستطاع (سوف تجد Saladin مثلًا بدلًا من صلاح الدين). ولتفادي إرباك القارئ، كانت هناك — من ناحية أخرى — عدةُ استثناءات؛ فسوف تجد Lewis وLouis وLudwig؛ كما ستجد Francis وFrançois وFranz؛ وستجد Isabella وIsabel, Peter وPedro، وCaterina وCatherine. أبقيت على الأماكن التي لها أسماءٌ بالإنجليزية كما هي، ثم رحتُ أستخدم الاسم الجديد بعد تغييره (أدريانوبل Adrianople إلى أدرنة Edirne، وزانته Zante إلى زاكينتوس Zakynthos)، إلا أنني كنت أضع الاسمَ القديم بين قوسين. ربما يكون ذلك غير علمي، ولكنني كما أشرت في كل كتبي الأخرى، لست عالِمًا.

هناك مشكلة خاصة بالنسبة للقسطنطينية. نظريًّا، كان لا بد من أن ترِد باسمها التركي «إسطنبول Istanbul» بعد الغزو التركي في سنة ١٤٥٣م. بالرغم من ذلك فإن الحكم البريطاني يشير إليها باسمها القديم Constantinople وربما حتى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ أما بالنسبة لي فأنا أستخدم الاسمَ المناسب حسَب السياق. كثيرون مَن لا أستطيع أن أوفيَهم حقَّهم من الشكر، إلا أنني لا بد من أن أنوِّه بدَين خاص أسجِّله هنا. بعد أن بدأت في العمل في هذا الكتاب بوقت قصير، حدث أن كنت وزوجتي ضيوفًا على العشاء بالسفارة الإسبانية؛ وأثناء الحديث أبلغت صديقي العزيز السفير «سانتياجو دي تامارون Santiago de Tamaron» بأنني بالرغم من إلمامي المعقول بالحوض الشرقي

للمتوسط (حيث كنت قد كتبت تاريخ بيزنطة)، فإنني، للأسف أجهل الحوض الغربي؛ لأنني لم أكن أعرف الكثيرَ عن التاريخ الإسباني، ولا أتحدث الإسبانية. كان تعليقه «حسنًا! أعتقد أننا يمكن أن نفعل شيئًا بهذا الخصوص». بعد أسابيعَ قليلة كانت هناك دعوة لي ولزوجتي لقضاء عشرة أيام في إسبانيا ضيوفًا على «مؤسسة كارولينا Fundacion Carolina»، نذهب فيها إلى حيث نشاء. كانت لتلك الأيام — التي نحن مَدينان بها شاكران لها — أهميةٌ بالغة حتى بالرغم من نقص ثقافتي الإسبانية، وظني أنني بفضلها لم أخذل أصحابَ الدعوة.

أما ابنتي «أليجرا هيوستن Allegra Huston» فقد قامت بنسخ وتحرير هذا الكتاب في مقر إقامتها في نيومكسيكو، لتضعني في ظروفٍ بالغة القسوة، لم أمرَّ بمثلها من قبل، لكي أنتهيَ منه. أنا مَدين لها بالشكر، وكذلك لـ «بني هور Penny Hoare» و«ليلي ريتشاردز Lily Richards» في «شاتو Chatto». كل كلمة تقريبًا على الصفحات التالية وعلى صفحات كتبي السابقة، كتبتها في قاعة المطالعة بمكتبة لندن. شكري الجزيل لكل العاملين بها على مساعدتهم البالغة وكلٍّ ما قدَّموه لي بنبل وشهامة، فما كان لي أن أنجزَ شيئًا بدونهم.

جون جوليوس نورويش
John Julius Norwich

هوامش

(١) انظر الفصل الرابع: روما – الإمبراطورية الباكرة.

(٢) Vandal: نسبة إلى الوندال، وهي قبيلة جرمانية اجتاحت فرنسا وإسبانيا وشمال أفريقيا في القرن الخامس الميلادي. (المترجِم)

(٣) نسبة إلى المرابطين Almoravid. (المترجِم)

(٤) نسبة إلى الموحِّدين Almohad. (المترجِم)

الفصل الأول

البدايات

- مصر القديمة.
- الفينيقيون.
- كريت والمينويون.
- مسيني وطروادة.
- طروادة وحرب طروادة.
- العبرانيون.

* * *

البحر الأبيض المتوسط معجزةٌ. عند رؤيته على الخريطة، ربما للمرة المليون نأخذه على عِلَّاته، أما عند النظر إليه نظرةً موضوعية نكتشف فجأةً أن هناك شيئًا فذًّا ... فريدًا، وكأن هذا الكيانَ المائي قد صُمم عمدًا، وبتأنٍّ، وعلى نحوٍ لا نظير له على الكرة الأرضية؛ ليكون مهدًا للثقافات. تحيط به اليابسةُ من كل الجوانب تقريبًا، إلا أن مضايق جبل طارق تعصم ماءه من الركود. أعمدة هرقل القديمة تلك، تحميه كذلك من عواصف الأطلنطي لتحافظَ على مياهه طازجةً وغيرَ ملوَّثة — حتى السنواتِ الأخيرة على الأقل. الأبيض المتوسط يصل بين ثلاثٍ من قارات العالم الست. مناخه، في معظم العام، من أجمل المناخات التي يمكن أن تجدها في أي مكان.

لا عجب كبيرًا إذن أن يحتضن المتوسط ثلاثًا من أكثر حضارات العالم إبهارًا، ويشهد ميلاد ثلاثة أديان كبرى وخروجها إلى حيِّز الوجود. ليس ذلك فحسب، بل إنه وفَّر وسائل الاتصال الرئيسية. في العصور القديمة لم يكن هناك طرق، وكانت وسيلة الانتقال الوحيدة المؤثرة عن طريق الماء، مع ميزتها الإضافية وهي القدرة على نقل أحمال ثقيلة لا تستطيع

أيُّ وسيلة أخرى تحريكها. لعل فن الملاحة كان ما زال في بداياته، ولكن البحَّارة الأوائل كان يمكنهم الإبحارُ من ميناء إلى آخرَ في معظم الحوض الشرقي منه دون أن تغيب اليابسة عن أبصارهم، حتى في الحوض الغربي كان هناك مجرًى مباشر تقريبًا يضمن الوصولَ إلى شاطئ صديق في غضون أيام قليلة.[١] المؤكَّد أن حياة البحر كانت لها مخاطرها؛ رياح الميسترال mistral التي تعوي باتجاه وادي الرون Rhône لتضرب خليج ليون Lyons بقسوةٍ أقربَ إلى الجنون، رياح البورا Bora في الأدرياتيكي التي تجعل من الصعب السير في شوارع تريستا دون مساعدة، رياح الجريجالي Gregale في البحر الأيوني، التي دمَّرت أكثرَ من رحلة شتوية. كل تلك الرياح التي كانت نذيرًا بالهلاك بالنسبة لغير المتمرسين. حتى رياح الملتيمي meltemi المعتدِلة في بحر إيجه، التي كثيرًا ما كانت نعمة بالنسبة للسفن الشراعية، كان يمكن أن تتحول فجأةً إلى وحشٍ هائج يدفعها لترتطم بالصخور. صحيح أنه ليس هناك أعاصيرُ في الأطلنطي ولا عواصف عاتية في الباسيفيكي، وأن الإبحار فيها كان سهلًا في معظم الأوقات — مع قدْر من الحذر — إلا أنه لم يكن هناك ما يدعو للمخاطرة؛ ولذا كان قُدَامى بحَّارة وملاحي المتوسط يجعلون رحلاتهم قصيرة قدْر الإمكان.

كان إبحارهم بالقرب من الشاطئ الشمالي قدْر الإمكان. بالنسبة لمعظمنا اليوم تبدو خريطة الأبيض المتوسط مألوفة، لدرجةِ أننا لم نَعُد ننظر إليها بموضوعية. وبالرغم من ذلك، لو أننا كنا نراها للمرة الأولى، لأصابتنا الدهشة لذلك التناقض بين المناطق الساحلية في الشمال والجنوب. المناطق الشمالية عامرةٌ بالكثير من الظواهر بسبب شبه الجزر الإيطالية والبلقانية التي تحيط بها ثلاثة بحار (التريني والأدرياتيكي والإيجي)، ثم تلك البنية غير العادية للركن الشمالي الشرقي؛ حيث يؤدي الدردنيل إلى بحر مرمرة الصغير الذي تقع مدينة إسطنبول على حافته الشرقية، مشرفة على مدخل البوسفور ومن ثَم البحر الأسود. الساحل الجنوبي، على النقيض من ذلك؛ فهو بلا ملامحَ محدَّدة تقريبًا مع قدْر من التضاريس التي تجعل المرء يشعر دائمًا — حتى في المدن الرئيسية — بأن الصحراء ليست بعيدة.

أحد أسئلة التاريخ القديم التي لم نجد لها إجابة هو: لماذا بعد ألفياتٍ عديدة من السنين على وجود إنسان الكهف، كان أن ظهرت الومضات الأولى للحضارة في مناطقَ متفرقة بعيدة عن بعضها، وفي الوقت نفسه تقريبًا؟ بالنسبة للمناطق حول المتوسط كان هذا الوقت هو سنة ٣٠٠٠ق.م. تقريبًا. صحيح أن «بيبلوس Byblos» (جبيل الحديثة التي تبعد نحو خمسة عشر ميلًا شمالي بيروت) التي أعطت اسمها للإنجيل (Bible) — الكلمة

تعني البردي — كانت مأهولةً في العصور الحجرية القديمة (Palaeolithic Times)، ويعتقد كثيرون أنها أقدمُ من ذلك؛ والحقيقة أنها ربما تكون أقدمَ مكان بقي مأهولًا في العالم. ولكنْ بقايا أكواخ قليلة كلٌّ منها عبارة عن صخرة واحدة، وصنم أو اثنان، من الصعب أن تعتبر حضارة؛ وهناك كما في أي مكان آخرَ لم تحدُث أشياءُ كثيرة حتى قدوم العصر البرونزي (Bronze Age) في مطلع الألفية الثالثة ق.م. وأخيرًا تبدأ الأمور في التحرُّك. هناك بعض المقابر الضخمة (كلٌّ منها صخرة واحدة) في مالطة، تعود إلى ذلك الوقت تقريبًا، وأخرى في صقلية وسردينيا، إلا أننا لا نعرف شيئًا عمن بنوها. أما الثقافات الثلاث الكبرى التي ظهرت آنذاك، فأصولها موجودة على مسافة أبعد ناحية الشرق: في مصر وفلسطين وكريت.

لم يبقَ من عجائب الدنيا السبع المعروفة إلى اليوم سوى أقدمِها: أهرام مصر؛ وهناك قدْر من الشك في احتمال بقائها خمسةَ آلاف سنة أخرى. يُعتقدُ أن هرم سقارة المدرَّج (وهو أكثرها مهابةً وجلالًا) يعود إلى العام ٢٦٨٦ق.م.، أما هرم الفرعون «خوفو Khufu» المعروف لهيرودوتس ولنا بـ Cheops — وهو أكبر حجمًا وأكثر فخامةً — فيعود إلى قرنٍ بعد ذلك. طول العمر هذا ينبغي ألا يدهشنا؛ فشكلها وحده كافٍ ليضمن لها الخلود. لا يوجد أيُّ بناء آخر في العالم أقل ثِقلًا عند القمة. حتى الزلازل لا يمكن أن تهزَّها. التحديق فيها يصيب المرء بالذهول أمام عظمة الإنجاز وحجمه الضخم والطموح الذي كان وراءه: ذلك أن إنسانًا، قبل نحو خمسة آلاف سنة، يقرِّر أن يبنيَ جبلًا وينجح في ذلك. بعد خمس وعشرين سنة فحسب، بنى خفرع (Chefren)، ابن خوفو، هرمًا آخرَ متصلًا بقاعةٍ ضخمة من المرمر والجرانيت الأحمر، يصطف على امتداد جدرانها ٢٣ تمثالًا له في وضع الجلوس. ثم كان أبو الهول. لعله صورة له، إلا أن المؤكَّد أنه أول قطعة آثار منحوتة — فهو حفر في بروز صخري هائل على سطح الأرض — عرفها الإنسان.

مصر التي بدأت باكرًا هكذا، كان تغيُّرها بطيئًا. خوفو وخفرع ينتميان للأسرة الرابعة. بالنسبة للأسر الثلاث الأولى، لا نعرف شيئًا عنها سوى أسماء بعض حكامها. الأخيرة، كانت الأسرة الحادية والثلاثون التي انتهت في ٣٣٥ق.م. بغزو الفرس للبلاد: بعد ثلاث سنوات طردهم الإسكندر الأكبر، الذي لم يتردَّد — كعهده دائمًا — وواصل زحفَه على بلاد الرافدين والشرق الأقصى. بعد وفاته في ٣٢٣ق.م. انتقلت مصر إلى جنراله السابق بطليموس (Ptolemy)، الذي سوف تستمر سلسلة نسبه (اليونانية أكثر منها مصرية) ثلاثة قرون أخرى. وهكذا من البدايات الضبابية مع الأسرة الأولى إلى موت كليوباتره في

٣٠ق.م. تمتد فترة طولها ثلاثة آلاف سنة؛ وعليه فالعين غير الخبيرة التي تحدق بسوء نية في النقوش البارزة على جدران المعابد أو على الأعمدة التي لا نهاية لها من الهيروغليفية، تجد صعوبةً بالغة في تمييز فن ألفية من فن تلك التالية لها. بالرغم من ذلك تبقى بعض الأسماء العظيمة الأخرى في الذاكرة؛ فالملكة حتشبسوت على سبيل المثال، التي كانت وصية على تحتمس الثالث ابن زوجها وابن عمها، أكملت بناءَ معبد الكرنك وأقامت به مسلتَين لتخليد اللحظة، وزيَّنت المعبد الجرانيتي الرائع، معبدَ الدير البحري في طيبة الذي تظهر على جدرانه في هيئة رجل؛ وهناك تحتمس نفسه الذي أمر عند موتها في ١٤٦٩ق.م. فيما يبدو أنه كان نوبةَ ضغينة انتقامية، بتشويه كل رسم لها وتخريب كل نقش يحمل اسمها؛ إلا أنه هو نفسه الذي وسَّع حدود مملكته إلى أعالي الفرات، وأثبت من خلال مواهبه المتعدِّدة كقائد عسكري ومشرِّع وبنَّاء وراعٍ للفنون، أثبت أنه أحد أعظم فراعنة مصر؛ وهناك أمنحتب الرابع المشهور ﺑ «إخناتون» (١٣٦٧–١٣٥٠ق.م.)، الذي يمكن التعرُّف عليه في لمح البصر من وجهه الطويل المدبَّب وانحناءة ظهره، وفخذيه الكبيرتين؛ والذي كان شخصًا متعصبًا من الناحية الدينية؛ إذ حظر عبادةَ آمون إلهِ الشمس في طيبة، وكرَّس بدلًا منه قرص الشمس آتون الذي تنتهي أشعته بأيدٍ صغيرة ممتدة لكي تبارك (أو تلعن)؛ وهناك بالطبع ابنُ زوجته وخليفته الثاني الملك الصبي توت عنخ آمون (١٣٤٧–١٣٣٩ق.م.) الذي ارتد إلى الدِّين القديم، والذي لولا اكتشاف «هوارد كارتر Howard Carter» لمقبرته في ٥ نوفمبر ١٩٢٢م لظل مجهولًا، ولبقي تابوته الحجري تحت أكداس الكنز الذهبي، مفخرة المتحف المصري إلى اليوم؛ وهناك رمسيس الثاني العظيم (١٢٩٠–١٢٢٤ق.م.) المهووس بجنون العظمة، الذي أقام تماثيل لنفسه في كل أنحاء مصر وبلاد النوبة، وربما كان هو فرعون الخروج، رغم أن العلماء ما زالوا مختلفين بهذا الخصوص وأحسبهم سوف يستمرون هكذا لسنوات قادمة. وأخيرًا وليس آخرًا، لا بد من ذكرٍ خاص لملكة إخناتون، نفرتيتي، التي يؤكد تمثالها النصفي الذي تم اكتشافه في تل العمارنة — عاصمة زوجها — أنها كانت واحدة من أكثر نساء العالم سحرًا وجمالًا.[٢] لا الإغريق ولا الرومان ولا — حتى — عظماء النحَّاتين في عصر النهضة الإيطالي، استطاعوا تقديمَ نظيرٍ لهذا التمثال، ولو لم تُنتج مصر القديمة عملًا فنيًّا آخرَ سواه، لكفى ذلك تلك الألفيات الثلاث.

هناك سببٌ آخر لخلود مصر الغريب وهو جغرافيتها المدهشة؛ فهي تبدو لمن ينظر إليها من الجو مثلما تبدو خريطتها تمامًا، امتداداتٍ واسعة من اللون الأصفر، خطًّا أخضرَ يميل إلى الزرقة يتسلل رفيعًا من الجنوب، وشريطًا ضيقًا من الخضرة على امتداد كلا

الجانبين قبل أن يظهر الأصفر مرةً أخرى. النيل بالنسبة لمصر مثل الشمس: ضرورة لاستمرار الحياة على نحوٍ لم يحقِّقه أيُّ نهر آخر في الوجود، ضرورة مثل أنبوبة تنفُّس لغواص في بحر عميق. في ظروفٍ كتلك، ليس هناك فرصة كبيرة للتغيُّر؛ خارج القاهرة والإسكندرية ومدينة أو اثنتين من المدن الكبرى، تسير الحياة في معظم أرجاء مصر كما كانت دائمًا. متعة كبيرة أن تستقل قطار النوم من القاهرة إلى الأقصر وتستيقظ في الصباح الباكر لتجد نفسك تتحرَّك بمعدل عشرة أميال في الساعة تقريبًا، على امتداد شاطئ النهر، بينما تتوالى المناظر في إثر بعضها يغمرُها ضوء الشمس خلف النافذة، كأنها خارجة من كتاب جغرافيا فيكتوري.

منذ الأزمنة الباكرة كان المصريون حالةً فريدة خاصة ومتجانسة. يبدو أن معاصريهم الفينيقيين لم يحاولوا قط أن يخلقوا مثل تلك الحالة؛ وبالرغم من أنهم كانوا رحَّالة مجبرين على التَّرحال، كان موطنهم فلسطين؛ وهناك ذِكر في العهد القديم The Old Testament لشعب صور وصيدا وبيبلوس وأرواد. (تقع الأخيرة بالقرب من الساحل مقابل الشاطئ الجنوبي لقبرص تقريبًا). نشأت هذه المجتمعات الأربعة كلُّها حوالي سنة ١٥٥٠ق.م.، وكانت كلها مرافئ؛ حيث كان الفينيقيون شعبًا بحريًّا. نقرأ في سِفْر الملوك الأول كيف أن «حيرم» ملك صور أرسل الحرفيين والأخشابَ إلى الملك سليمان لبناء المعبد في أورشليم، ولكنه ورعاياه كانوا يبقون على الشريط الساحلي الضيق بين جبال لبنان والبحر. لقد أنشئوا وطوَّروا صناعةً محلية جديرة بالذكر، وهي جمْع أصداف «المريق Murex»، وهو حيوان بحري رخوي يشبه الحلزون والأخطبوط، يفرز صبغًا أرجوانيًّا يساوي أكثرَ من وزنه ذهبًا.[٣] إلا أن اهتمامهم الرئيسي كان دائمًا بتلك الأراضي ناحية الغرب، التي كانوا يتعاملون معها باعتبارها تجمعاتٍ تجارية أكثرَ منها أشباه دول.

عندما نتذكر الفينيقيين في أيامنا هذه، فنحن نتذكرهم باعتبارهم كانوا — قبل كل شيء — ملاحين، أبحروا في كل أرجاء الأبيض المتوسط، وكثيرًا ما كانوا يبحرون إلى ما وراءه. يخبرنا هيرودوتس بأنهم في حوالي سنة ٦٠٠ق.م.، وبأمرٍ من الفرعون «نيخو Necho»، أبحروا مطوفين حول أفريقيا؛ ولو كان هيرودوتس محقًّا في قوله (أو تقريبًا كذلك) لكان ذلك إنجازًا لم يتكرَّر على مدى أكثر من ألفي عام (أما إذا كان مخطئًا، فكيف تسنَّى له أن يعرف، أو يعتقد، أنه كان بالإمكان الطواف حولها؟). هناك بعض شكٍّ على أية حال في أن يكون «حيرم» و«سليمان» قد شاركا في رحلات بحرية أحيانًا من «إزيون-جيبر Ezion-Geber» (بالقرب من إيلات الحالية) إلى «أوفير Ophir» الأسطورية، التي كانت

على الساحل السوداني أو الصومالي، رغم أن ذلك ليس مؤكدًا. في مراحلَ أخرى كان التجار الفينيقيون قد أقاموا تجمعاتٍ تجارية في «موزيا Mozia» (في صقلية) و«أيبيزا Ibiza» (في جزر باليريا) وعلى امتداد شواطئ شمال أفريقيا. بعد ذلك عبروا مضايقَ جبل طارق لاستكشاف مرافئ الأطلنطي في إسبانيا ومراكش، والمؤكَّد أنه كان لهم مخفر أمامي على قنة[4] جبل «قادش Cadiz»، تحميه المستنقعات والأراضي السبخة المحيطة به؛ كما نعرف — حتى — أن شخصًا ما يُدعى «هيميلكو Himilco»، كان قد عبر القنال الإنجليزي ورسا على الساحل الجنوبي لبريطانيا (ربما كورنوول Cornwall) بحثًا عن القصدير. ظل الفينيقيون قوةً ضاربة مهمة في الأبيض المتوسط حتى نهاية القرن الثامن عشر ق.م.، عندما بزَّتهم — أولًا — قوة «آشور Assyria»، ثم قوة الإغريق فيما بعد.

كان الفينيقيون قوةً حضارية كذلك، وتشهد على ذلك سلعُ الترف التي جاءوا بها؛ فمن موطنهم الليفانتي (المشرقي) وكذلك من قبرص ومصر والأناضول ووادي الرافدين، جاءوا بالعاج والأخشاب النادرة وأواني الشراب المصنوعة من الذهب والفضة، وكئوس الزجاج والمرمر والأختام والجُعل المصنوعة من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة؛ إلا أن الهدية الكبرى التي قدَّموها للأجيال التالية، لم تكن شيئًا له علاقة بالتجارة أو الملاحة. المؤكَّد أنهم كانوا أول مَن وضع أبجدية. كانت الهيروغليفية، بالأسلوب المصري، شيئًا جيدًا، إلا أنها كانت بطيئة في الكتابة ومربِكة في القراءة غالبًا ولا تستطيع أن تعكس ظلال المعاني. كانت خطوة متقدمة أن يتم اختراع نظام يمكن بواسطته تمثيلُ كلمة منطوقة بمجموعة صغيرة من الحروف؛ ولا شكَّ كبيرًا في أن تلك الخطوة قامت بها، بداية، مجموعةٌ من الشعوب الناطقة بالسامية على الشاطئ الشرقي للمتوسط. أولُ نقش أبجدي واضح قابل للقراءة اكتُشف في بيبلوس، يعود إلى القرن الحادي عشر ق.م. تقريبًا؛ ولكن الأشكال البدائية من الأبجدية — المكوَّنة كلها من حروف غير صائتة — كانت مستخدمةً قبل ذلك بعدة قرون، وإذا قلنا إن الاختراع الأصلي يعود إلى سنة ١٧٠٠ق.م. أو ١٥٠٠ق.م.، فلن نكون بعيدين كثيرًا عن الصواب. بعد فترة قصيرة سوف يتم تطوير هذه الأبجدية، ثم يتبنَّاها الإغريق، وبذلك يمكن اعتبارها سلفًا للغتنا.

عندما كان المصريون يبنون الأهرام، كانت هناك كذلك حركة نشطة في كريت. كان الناس هناك يشتغلون بالنحاس والبرونز، والأهم من ذلك أنهم كانوا يعملون بصناعة السكاكين البدائية من الزجاج البركاني الداكن المعروف بـ «السبج Obsidian» وهو زجاج أقربُ شبهًا

بالفحم وعندما يتشظى تصبح حوافُّه حادةً كالموسى. كان السبج يُستورد من الأناضول، والاستيراد يعني التجارة؛ وقد وجد الأركيولوجيون موادَّ أخرى (مثل العاج والكريستال الصخري والأحجار شبه الكريمة) تعود إلى أزمنةٍ بعد ذلك بقليل. يبدو أن كريت كانت قد أصبحت بحلول عام ٢٠٠٠ق.م. مفترقَ الطرق التجارية في الحوض الشرقي للمتوسط، ونحن نعرف ذلك من مصادرَ ثقةٍ لا تقل عن أوديسيوس نفسه،[٥] وهو أن رياح بحر إيجه في فصلي الربيع والصيف كانت تساعد على قطع المسافة من كريت إلى مصر في خمسة أيام على الأكثر، وأن القصرين العظيمين على الجزيرة (في كنوسوس Knossos وفايستوس Phaestos) كانا تحت الإنشاء.

قلعة «وندسور Windsor Castle» في كريت هي قصر كنوسوس؛ حيث بدأت أعمال الحفر والاستكشاف الأولى على يد سير «آرثر إيفانز Sir Arthur Evans» في ١٨٩٩م. «إيفانز»، الذي كان ضئيل الحجم، داكن البشرة، قوي الجسم، أعطى أجملَ سنوات عمره للقصر، وهو قصر شديد التميز بالفعل: يغطي مساحةً كبيرة تصل إلى عشرة آلاف متر مربع وربما أكثر، ترتفع أجزاءٌ منه إلى ثلاثة أو أربعة طوابق، أما شبكة أنابيب المياه فتبدو أفضلَ من أي شيء آخر قد تكون عرفته أوروبا قبل القرن التاسع عشر. المشكلة أن علم الآثار كان ما زال في بداياته في أيام «إيفانز»، فأطلق الرجل العِنان لخياله الفني، إلى درجةٍ تترك زائر اليوم للمكان في حالة دهشة بالغة. لو تخيَّلنا الملك «مينوس Menos» يدخل القصر اليوم فلن يتعرَّف بسهولة على بعض ما تبقَّى به من معمار وأثاث — العرش الجصي مثلًا (الذي ما زال مسموحًا بالجلوس عليه)، وتلك الأعمدة الغريبة الشكل في باحة القصر — ولكن هل سيمكنه التعرُّف على محاولات سير آرثر لإعادة إنتاج ديكوراته الداخلية: الألوان القرمزية المتوهِّجة، الألوان الصفراء الأشبه بلون الزبد، ملامح الفن الحديث التي لا تخطئها عين، أو ما هو أكثر مدعاةً للانبهار: الجداريات؟ إلا أن هناك سؤالًا لا بد من أن نطرحه. هل الملك مينوس شخصية حقيقية؟ بحسب «هومر Homer»، كان مينوس ابن «زيوس Zeus» و«أوروبا Europa»، ولكن «ديدوريوس سيكولوس Didorus Siculus»، الذي كان يكتب بالأجريجنتو Agrigento في القرن الأول ق.م.، يعطيه نَسبًا أقلَّ قدرًا، ويروي كيف أنه في صراع على ملك كريت، كان يصلي لـ «بوسيدون Poseidon»[٦] ليرسل له ثورًا من البحر يضحِّي به. استجاب الإله، إلا أن الثورَ كان جميلًا لدرجةٍ أن مينوس فضَّل ألا يضحيَ به، واستبقاه لنفسه. انتقامًا منه، جعل بوسيدون زوجةَ مينوس «باسيفاي Pasiphae» تقع في حب الحيوان. أسفر الزواج غير الطبيعي بينهما عن المينوتور Minotaur (نصف إنسان

ونصف ثور) الذي حبسه الملك في متاهةٍ من تصميم «ديدالوس Daedalus». لا شيء من ذلك كله، بإقرار الجميع، يوحي بشخصياتٍ تاريخية؛ إلا أن «ثيوسيديديس Thucydides»، من ناحية أخرى، وهو المؤرِّخ الثقة، يُرجع الفضل لـ «مينوس» باعتباره أولَ مَن أنشأ بحريةً عظيمة في المتوسط، وأخضع جزر «السيكلاديس Cyclades»، ونظَّف البحر إلى حدٍّ كبير، من القراصنة وعيَّن حكامًا على بعض جزر بحر إيجه. أما بالنسبة للمتاهة، فليس هناك أفضلُ منها وصفًا لقصر كنوسوس؛ فزائره الذي لا يرافقه مرشد لا بد من أن يحسُد «ثيسيوس Theseus» الذي وجد أمامه خيط «أريادن Ariadne» ليُخرجه إلى الحرية بعد أن ترك المينوتور ميتًا وراءه. وأخيرًا هناك الثور؛ فهو يمكن رؤيته أو على الأقل هناك ما يدُل عليه في كل مكان من القصر؛ وهناك لوحة جصية رائعة — لعلها تبدو أصليةً أكثر من معظم الأشياء الأخرى — يظهر فيها حيوانٌ في حالة هجوم، وبطل رياضي صغير يتشقلب فوق قرنيه. المعروف أن الثور يلعب دورًا رئيسيًّا في عقيدة المينويين.[٧]

هذه الحضارة غير العادية — الموهوبة المثقفة شديدة الثراء — حكمت إمبراطوريةً كانت تغطي معظم جزر إيجه، ومارست حتى سنة ١٤٠٠ق.م. تقريبًا نفوذًا قويًّا على كل الحوض الشرقي من المتوسط، وخلَّفت آثارًا وصلت إلى ترانسلفانيا والدانوب إلى جانب سردينيا وجزر أيوليا Aeolian Islands القريبة من الساحل الشمالي الشرقي لصقلية. لا بد أنه كان جميلًا أن تكون من أبناء تلك الحضارة. ما تركه المينويون وراءهم يعطي انطباعًا جيدًا عن ذلك الشعب المسالِم السعيد الخِلْو من الهم، الذي كان يشعر بالأمان لدرجةِ أن مدنه كانت بلا أسوار؛ كما أن اختراع عجلة صنْع الفخار جعلهم يتفننون في صنع أواني الشرب والأباريق وجِرار التخزين بأشكالٍ بالغة الدقة والجمال ويزينونها بتصميمات وأشكال تجريدية لطيور وأسماك وزهور. كانت ملابسهم كذلك متطورة — وغريبة أحيانًا — بها مساحاتٍ عارية كبيرة من أعلى ومزينة بتخريم وتثقيب مبهر. كانوا يتمتعون كذلك بدرجة من الرفاهية غير مسبوقة في التاريخ، لم يوجد لها مثيل حتى في أيام المجون والخلاعة إبان الإمبراطورية الرومانية. كانت حياتهم سهلة ومناخهم مبهجًا. كانوا يرتابون في كلِّ ما هو عسكري. كانوا يصنعون الحُب وليس الحرب.

وكما كان يحدث دائمًا عاجلًا أو آجلًا … كانت الكارثة! ما حدث بالضبط ليس واضحًا. يقال إنه كانت هناك عملية غزو من عدوٍّ حاقد، وفي مثل تلك الحال كان لا بد من أن يكون هذا العدو هو مسيني Mycenae؛[٨] وهناك تفسير آخر مرجَّح (وإن كان لا يستبعد فكرةَ الغزو)، وهو ذلك الفوران البركاني الهائل الذي حدث نحو ١٤٧٠ق.م.

على «سانتوريني Santorini» (ثيرا Thira الحديثة) على نحو ستين ميلًا شمالًا. في نفس الوقت كانت موجةٌ عنيفة من الزلازل قد ضربت كنوسوس، واجتاحت موجةٌ عاتية الساحلَ الشمالي من كريت لتغرق كل المرافئ على امتداده. يضاف إلى ذلك أن ثوران البركان أرسل سحابةً رهيبة من الرماد البركاني مثل ذلك الذي سيدفن «بومبي Pompeii» بعد ثلاثة عشر قرنًا (يقال إن الرماد وصل إلى الأناضول والمنطقة الموجودة فيها إسرائيل الآن)، وبعد أن أصبحت المدينة مهجورة وبلا أي دفاعات كان يمكن أن تصبح فريسةً سهلة للغزاة الأجانب. انتهت الحضارة المينوية.

لا نعرف على وجه الدقة كيف أصبحت حضارةُ مسيني الإغريقية الوريثَ والخليفة لحضارة كريت. كان هناك أناسٌ يعيشون في ذلك الحصن الجبلي الصغير منذ الألفية السادسة ق.م.، إلا أنهم لم يكونوا يتميزون بشيءٍ ما. ثم جيلًا وراء جيل، أصبحوا في سنة ١٥٠٠ق.م. تقريبًا أكثرَ ثراءً وتقدمًا؛ مقابرهم العمودية على الأكروبولوس كانت مليئة بالحلي والمتاع المصنوع من الذهب. الغريب في الأمر أن لا شيء من ذلك كلِّه يبدو عليه تأثير الحضارة المينوية، هل حدث مثلًا أن كان المسينيون يعملون كمرتزقة لفراعنة الأسرة الثامنة عشرة، وعادوا حاملين معهم الاعتقادَ المصري في الحياة بعد الموت، وعادةَ ملءِ مقابرهم بالحياة الأخرى وظاهرة أقنعة الموت الذهبية؟ إن أحد هذه الأقنعة هو الذي جعل «هينرش شليمان Heinrich Schliemann»، أثناء قيامه بالتنقيب في مسيني يبرِق لملك بروسيا: «لقد حدَّقت في وجه أجاممنون Agamemnon.[٩] كم سيكون جميلًا أن نتصوَّر أنهم فعلوا ذلك، إلا أننا — من أسف — لن نعرف».

بعد ذلك، وعلى نحوٍ سريع — وقبل ثوران البركان — سادت الأفكار المينوية فجأة، وفي كل أنحاء مسيني: الفئوس المزدوجة وقرون التكريس وسائر العلامات المميزة لـ «كنوسوس»، فهل كان ذلك نتيجةَ زيجة سلالية مهمة أم أكثر من زيجة؟ ربما؛ حيث من الصعب التفكير في أي تفسيرٍ آخر. على أية حال مرَّت مسيني بتربية سريعة، وعندما كان المينويون يعانون من كسوفهم الغامض، كان خلفاؤهم جاهزين. في حوالي سنة ١٤٠٠ق.م. كان نفوذهم الثقافي قد انتشر في جزر البيلوبونيز The Peloponnese مع علاقاتٍ تجارية قد امتدت إلى ما هو أبعد من ذلك. في إيطاليا، التي يبدو أنهم كانوا قد وصلوا إليها قرب نهاية القرن الخامس عشر ق.م.، كانت هناك مستوطنات مسينية على امتداد الساحل الجنوبي للأدرياتيكي، وخليج تارانتو Taranto، وحتى إلى سردينيا

وإسكيا Ischia وخليج نابولي. في مسيني نفسها، الجدران الهائلة الحجم المحيطة بالأكروبولوس وبوابة الأسد الشهيرة في الجانب الشمالي الغربي تعود إلى سنة ١٣٠٠ق.م.، كما كان هناك ذهب وبرونز بكميات كبيرة، وكانت هناك براعةٌ حرفية متقدمة لإنتاج المرْكبات الحربية القديمة المهيبة التي اشتهرت بها المدينة طويلًا. كانت مسيني آنذاك في أوج قوَّتها. كانت مستعدة لحرب طروادة.

تقع طروادة في الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى. المدينة اليوم، أو ما بقي منها، تبدو مستوطنةً صغيرة جدًّا، والحقيقة أن الحرب نفسها، التي يقال اليوم عادةً إنها وقعت في منتصف القرن الثالث عشر ق.م. … هذه الحرب ربما لم تكن ذات أهمية تاريخية كبيرة. إلا أنها، من الناحية الثقافية كانت واحدةً من أهم الحروب؛ فهي التي وفَّرت موضوعَ أكبرِ الملاحم الشعرية في العالم. إليادة Iliad «هومر»، التي كُتبت في القرن الثامن ق.م. تروي قصةَ حصار طروادة الذي استمر عشر سنوات، أما الأوديسا Odyssey التي جاءت بعدها، فهي تتتبع جولات أوديسيوس Odysseus بطل الحرب، قبل أن يعود إلى مملكته إيثاكا في النهاية. هنا كانت بداية الشعر — وربما التاريخ كذلك — كما نعرفه اليوم.

القصة معروفة لنا جميعًا. باريس، ابن بريام Priam ملكِ طروادة يخطف هيلين Helen زوجةَ مينيلاوس Menelaus ملكِ إسبرطة، التي كانت في الوقت نفسه فقسَ بيضةٍ وضعتها ليدا Leda بعد مغامرتها مع زيوس Zeus متنكرة كبجعة — أجمل امرأة في العالم. ثأرًا لذلك، سوف تعلِن رابطةٌ من المدن الإغريقية الحربَ على طروادة وترسل ضدها أسطولًا ضخمًا، يحمل جيشًا قويًّا تحت قيادة أجاممنون شقيقِ مينيلاوس. سوف يستمر حصار المدينة عشر سنوات، وفي النهاية يستولون عليها بواسطة الحصان الخشبي. الحصان وجمال هيلين «الوجه الذي أطلق ألف سفينة»، وربما هيلين نفسها يمكن نسبتهم إلى الأسطورة، ولكن الإليادة كلها فكرةٌ رمزية، خرافة. عندما ذهب هينريش شليمان إلى موقع طروادة لأول مرة في ١٨٦٨م كانت هناك آراءٌ كثيرة بأن المدينة لم يكن لها وجود أصلًا، ومعظم مَن كانوا يصدِّقون كانوا يفضِّلون موقعًا مختلفًا تمامًا، وهو مكان يسمَّى بونار باشي Bunarbashi؛ كان شليمان أول مَن حدَّد هيزارلك Hisarlike، الواقعة على بُعد ستة أميال شمالًا تقريبًا، واعتبرها المكانَ الصحيح بموجبِ ما جاء في الإليادة من دلائلَ جغرافية. أحد الأسباب التي جعلته يرفض بونار باشي، هو أنها كانت تقع على بُعد مسيرة ثلاث ساعات من الساحل: هومير يقول، تحديدًا، إن اليونانيين كانوا يستطيعون الذهابَ

والعودة عدةَ مرات في اليوم الواحد بين سفنهم والمدينة المحاصَرة. وهناك سبب آخر وهو شدة انحدار الميل:

> تركت دليلي مع الحصان على القمة، وهبطت على الجرف الذي كان مائلًا في أوله بزاوية حوالي ٤٥ درجة، ثم بزاوية حوالي ٦٥ درجة، لدرجةِ أني كنت مضطرًّا للنزول على يدي ورجلي. استغرقني الوقت نحو خمس عشرة دقيقة، وخرجت مقتنعًا بأنه لم يكن بإمكان أي كائن حي النزول على منحدرٍ يصل ميله إلى ٦٥ درجة، ولا حتى الماعز، وأن هومير، وهو الدقيق دائمًا في طبوغرافيته لم يكن بإمكانه أن يقنعنا بأن هيكتور وأخيل هبطا هذا المنحدر المستحيل ثلاث مرات.

أما في هيزارلك فكان الوضع مختلفًا تمامًا:

> المنحدرات التي على المرء أن يعبرها حول المدينة سهلة، لدرجة أنه يمكن النزول عليها بسرعة ودون مخاطرة بالسقوط، وبالجري حول المدينة ثلاث مرات يكون هيكتور وأخيل قد قطعا خمسة عشر كيلومترًا.

لسوء الحظ، فإن هومير يقول — بوضوح تام — في الإلياذة إنه كان هناك نبعَا ماء في طروادة، أحدهما ساخن والآخر بارد. أما في هيزارلك فلم يكن هناك شيء من ذلك. من ناحيةٍ أخرى كان الوضع في بونار باشي أكثرَ اختلافًا: وجد شليمان ما لا يقل عن أربعة وثلاثين نبعًا — كانت درجات حرارتها كلها متساوية تقريبًا بحسب الترمومتر الذي كان يحمله — وفيما بعد، اكتشف أنه كانت هناك ستة أخرى كان قد غفل عنها. تغلَّب شليمان على هذه الصعوبة بأن افترض أن المجاري المائية تحت الأرض كانت قد تغيَّرت بفعل الزلازل التي ضربت المنطقة، والمحتمل أن يكون ذلك قد حدث بالفعل.

توجد كذلك دلائلُ تاريخية على حرب طروادة أو على شيء قريب الشبه بها. السجلات التي تركها الحيثيون Hittites [١٠] الذين عاشوا في الأناضول تشير إلى حملةٍ عسكرية مسينية كبيرة على آسيا الصغرى في القرن الثالث عشر ق.م.؛ يضاف إلى ذلك أن المدينة التي اكتُشفت في الطبقة الأركيولوجية السادسة من الطبقات التسع المكتشفة في موقع هيزارلك — التي يوجد إجماعٌ الآن أنها تنتمي إلى طروادة هومير — كانت تحمل دلائلَ كثيرة على النهاية العنيفة التي آلت إليها. سوف نقتنع بذلك، وليس لأن شليمان بالطبع كان مقتنعًا به. قام شليمان بالحفر نزولًا إلى الطبقة الثانية ليجد أمامه في اليوم قبل الأخير كميةً كبيرة من الذهب، ثم أعلن بعدها للعالم أنه قد اكتشف مجوهرات هيلين طروادة، بل إنه حتى التقط

صورةً لزوجته اليونانية الجميلة وهي تتقلَّدها. الآن، نعرف أن هذا الكنز كان يعود إلى فترةٍ سابقة تقدَّر تقريبًا بألف عام قبل الملك بريام. مسكين السيد شليمان: لم يعرف قط أنه كان مخطئًا.[١١]

لم تعرف القرون الثلاثة أو الأربعة التالية لحرب طروادة حضارةً بارزة من النوع الذي نتناوله هنا. كانت فترة تحوُّل وانتقال حفلت بغزوات من قِبل القبائل الدورية[١٢] Dorian Tribes من الشمال، وارتحالات سكانية وتنقُّلات تضمَّنت إقامة مستوطنات يونانية جديدة في آسيا الصغرى. لم تستقر الأمور مرةً أخرى إلا في سنة ٨٠٠ق.م. تقريبًا، عندما اتَّحدت الأراضي المتاخمة لبحر إيجه بلغةٍ واحدة وثقافة واحدة. حتى ذلك الحين كان لا يمكن أن تجد مدينةً واحدة أو بلدة واحدة قد بزَّت غيرها أو تقدَّمت أكثرَ منها بين تلك المجتمعات الإقطاعية الكثيرة المعزولة عن بعضها، التي صنعت العالَم اليوناني. ولكن التجارة عادت وعاد الاتصال، والأهم من ذلك كلِّه أنه تم إحياء الأبجدية وتحسينها بإدخال الحروف الصائتة. هكذا إذن كان المسرح معدًّا لبدايات الأدب، وجاء ظهور هومير في موعده عام ٧٥٠ق.م. ولو أن هومير كان قد وُلد قبل ذلك لما كانت ملحمتاه. ربما ما كانت اللغة لتكون جاهزةً له، ولربما كان هو نفسه قد بقي أميًّا. (يجادل كثير من الباحثين بأنه كان بالفعل أميًّا؛ فالعملان يحملان سمات الأدب الإنشائي الشفاهي، وكلتاهما لا تخلو من عدم ترابط واتساق، وكثيرًا ما يبدو فيهما الشاعر متناقضًا مع نفسه).[١٣] وحتى لو أنها كُتبت هكذا في الأصل، فنحن نعرف بكل تأكيد أنها دوِّنت لأول مرة لتصبح طبعةً حقيقية، تحت حكم «بيزيستراتوس Peisistratus» حوالي ٥٤٠ق.م.

أيًّا كانت طريقة كتابتها فإن هومير كان ينشد عن عصرٍ ذهبي، عصرِ آلهة وأبطال لا يوجد شيء مشترك بينهم وبين عالَم أيامه الرتيب؛ إلا أن ذلك العصر بالنسبة له، مهما كان مختلفًا، ما كان ليبدو بعيدًا جدًّا. كان الشاعر يكتب بعد نحو خمسمائة عام من الأحداث التي يصفها — فترة أقصر من تلك التي تفصلنا عن «حروب الورد Wars of the Roses»، ولو أنه كان أيونيًّا Ionian، كما هو متَّفق عليه،[١٤] فإن طروادة نفسها لم تكن بعيدة جدًّا.

نعرف كذلك شاعرًا مهمًّا آخرَ يبدو أنه كان معاصرًا لهومير تقريبًا. يخبرنا «هزيود Hesiod» أن عائلته كانت من سلالة يونانية برغم أن والده كان قد استقرَّ في «بويتيا Boetia» فترةً قصيرة قبل أن يُولد. لعل أهم أعماله هو «مولد الآلهة Theogony». في هذا العمل يروي الأحداث التي أدَّت إلى ميلاد وسلسلة نَسب زيوس: إخصاء «أورانيوس Oranus» بواسطة «كرونوس Cronus»، وانقلاب آلهة الأولمب على كرونوس.

والتيتان The Titans.[١٥] ترك هزيود عدةَ قصائد أخرى طويلة (موجودة إما كاملة أو أجزاء منها)، لعل من أهمها «أعمال وأيام Works and Days»، وهي عملٌ مختلف عن «مولد الآلهة». عمل أقرب إلى الوعظ منه إلى أي شيء آخرَ، كتبه قسٌّ إنجليزي في أواخر القرن السابع عشر يتغنَّى بفضائل الأمانة في أداء العمل ويستنكر الكسلَ والإهمال، كما يحتوي على نصائحَ عملية في موضوعاتٍ مختلفة مثل الزراعة واتباع الدين والسلوك القويم. المثير للدهشة أن هزيود ليس مقروءًا اليومَ على نطاق واسع، رغم أهمية قصائده. اللافت أن يكتب ذلك في ذلك الوقت، إلا أنه لم يكن لديه شيء من دافعية هومير ... لا شيء من حيويته ... لا شيء من خياله الجسور.

ربما تكون قد حدثت واحدةٌ من أهم الهجرات في التاريخ بعد نحو عشر أو خمس عشرة سنة من حرب طروادة: هجرة العبرانيين بقيادة موسى الذي خرج بشعبه من مصر إلى أرض كنعان المعروفة لنا بـ «فلسطين». أما إذا كانت المسافة، القصيرة نسبيًّا، التي قطعوها — نحو ٤٠٠ ميل على الأكثر — قد استغرقت أربعين سنة بالفعل كما يخبرنا الكتاب المقدس، فذلك أمرٌ مشكوك فيه. المؤكَّد أكثر من ذلك، أن وجودهم لم يكن مقبولًا من الفلسطينيين والآخرين الذين كانوا يسكنون ما يعتبره شعبُ إسرائيل أرضَهم الموعودة Promised Land. كانت قبائلهم الاثنتا عشرة الأصلية، مضطرةً من ثَم للاتحاد واختيار ملوكٍ يعيشون تحت عروشهم حياةً قومية أكثرَ استقرارًا. كان «شاءول Saul» الذي حكم من ١٠٢٥ق.م. إلى ١٠١٠ق.م.، أولَ أولئك الملوك؛ ولكن تحت خليفته داود وابنه سليمان كان أن وصلت المملكة إلى ذروتها. كان داود هو الذي أباد الفلسطينيين وأخضع كلَّ القبائل المجاورة واختار مدينةَ أورشليم الواقعة على التل عاصمةً له. هنا سيبني سليمان قصرًا رائعًا، وأول هيكل — أكثر روعةً — ويطوِّر مرفأ «إزيون–جيبر Ezion-Geber» على البحر الأحمر، صانعًا بذلك صلةً مباشرة بين المملكة وأفريقيا.

إلا أن ذلك لم يستمر. انشقَّت المملكة بعد موته إلى مملكة إسرائيل في الشمال، ومملكة يهوذا Judah في الجنوب. النزاع والخلاف المستمر بين الخَصمين المتنافسين أضعفهما وجعل منهما فريسةً سهلة لأعدائهم؛ ففي حوالي منتصف القرن الثامن ق.م. غزاهم الآشوريون، وفي سنة ٧٢٢ق.م. دُمرت إسرائيل تمامًا. أما يهوذا، فبقيت تحت حكم ملِكها «حزقيا Hezekiah» منيعةً مؤقتًا ... لمدة عشرين سنة فحسب. في أواخر القرن سيهجم الملك الآشوري «سنحاريب Sennacherib» على أسوار أورشليم «هجوم الذئب على قطيع خراف»، بكلمات بيرون Byron، ويطلب استسلام المدينة. بتشجيع من النبي

«أشعيا Isaiah»، تحدَّاه حزقيا. تقول السجلات الآشورية إن سنحاريب كان مضطرًّا آنذاك للعودة مسرعًا إلى بلاده بسبب بعض المشكلات المحلية، ومن ناحيةٍ أخرى فإن أشعيا يزعم — ويؤيده في ذلك إلى حدٍّ ما هيرودوتس — أن وباءً معجِزًا أصاب جيشَ الغزاة. المهم أن أورشليم نجت.

إلا أن النجاة لم تكن لفترة طويلة؛ إذ بعد قرن تقريبًا، في ٥٦٨ق.م.، سيقوم «نبوخذ نصر Nebuchadnezzar» بتدمير المدينة تمامًا وسمْل عينَي الملك «صدقيا Zedekiah» بعد إجباره أولًا على أن يشهدَ موت أبنائه، وبعد ذلك سيحمله مع عشرة آلاف من كبار أعوانه بمن فيهم النبي «حزقيال Ezekiel» إلى الأسرِ في بابل. في سنة ٥٣٨ق.م. فحسب، بعد أن يستوليَ «قورش الكبير Cyrus the Great» على بابل، سيسمح للمنفيين، أو اليهود كما نطلِق عليهم الآن بالعودة، ليقيموا دولةً عبرية جديدة ويستعيدوا الهيكلَ ويعيدوا الطقوس القديمة كما هي في أسفارهم، وتنتهي متاعبهم مؤقتًا.

هوامش

(١) ربما باستثناء واحد بالطبع وهو أوديسيوس: Odysseus، عشر سنوات بين طروادة وإيثاكا، لا بد من أن يكون رقمًا قياسيًّا، حتى في أيامه.

(٢) رغم تمنياتي بأن يقوم أحدٌ بإصلاح عينها اليسرى.

(٣) في عهد الرومان، كان الإمبراطور نيرون Nero قد أصدر مرسومًا يقصر فيه ارتداءَ الأرجوان على نفسه، وبقي الأرجوان لونًا إمبراطوريًّا (ملكيًّا) — لدرجة أنه يقال إن بعض الملوك أو الأباطرة قد «وُلدوا في الأرجوان» — حتى سقوط الإمبراطورية البيزنطية في ١٤٥٣م، وحتى يومنا هذا بقي محتفظًا ببعض مكانته السابقة. العيب الوحيد في صناعة الـ Murex كان تلك الرائحة الكريهة الناتجة عنها؛ فكانت أكوام الأصداف المكسورة توضع دائمًا خارج المدينة وباتجاه الريح.

(٤) قنة الجبل: الجزء الناتئ منه والداخل في البحر. (المترجِم)

(٥) الأوديسا – الكتاب الخامس.

(٦) إله البحر في الميثولوجيا اليونانية.

(٧) المينويون Minoans: أصحاب حضارة جزيرة كريت القديمة (٣٠٠٠–١٠٠٠ق.م.). (المترجِم)

(٨) كانت مدينة مسيني القديمة في جنوب اليونان؛ حيث ازدهرت الحضارة الإيجية (١٤٠٠–١١٠٠ق.م.). (المترجِم)

(٩) كان ملكًا على مسيني. (المترجِم)

(١٠) لم يكن أحدٌ يسمع بهم قبل نهاية القرن التاسع عشر تقريبًا، لكن المعروف الآن أن الحيثيين The Hittites أقاموا مملكةً قوية في الألفية الثانية ق.م.، وتنسب حضارتهم لأعالي الأناضول أكثرَ مما هي للبحر الأبيض المتوسط.

(١١) هذا الكنز نهبه الجيش الروسي في الحرب العالمية الثانية من متحف برلين، ولعدة سنوات ساد اعتقادٌ بأنه قد ضاع إلى الأبد — كأن يكون بعض الجنود الروس قد قاموا بصهره. مؤخرًا — فحسب — أعلن الروس أنهم محتفظون به في مكانٍ آمن.

(١٢) الدوريون The Dorians قبائل إغريقية قديمة غزت اليونان حوالي سنة ١١٠٠ق.م. (المترجِم)

(١٣) لا بد من الاعتراف بأن التناقض الذاتي ليس أمرًا غريبًا في الأدب الحديث كذلك. كلُّ ما في الأمر هو أن مَن قام بتحرير أعمال هومير كان ضعيفًا.

(١٤) يقال إنه ربما كان من مواليد سميرنا Smyrna (أزمير الحالية) أو خيوس Chios.

(١٥) أسرة الجبابرة التي حكمت العالم قبل آلهة الأولمب. (المترجِم)

الفصل الثاني

اليونان القديمة

- الحروب الفارسية: (٥٥٩–٤٨١ق.م.).
- هيرودوتس: ٤٨٤ق.م. – العصر الذهبي: القرن الخامس ق.م.
- أفلاطون وأرسطو: القرن الرابع ق.م. - الإسكندر ٣٣٤ق.م.

* * *

شهدت القرون التالية لـ «هومير» سقوطَ ما يمكن أن نطلِق عليه «حضارات القصور» في العصر البرونزي المتأخِّر، لكي تحلَّ محلها أنظمةٌ أكثر انفتاحًا وأكثر عددًا وديمقراطية نسبية. كانت الحضارة التي قامت في مدينة «كورنتة Corinth» إحدى تلك الحضارات الأولى الأكثر قوة، وقد نمَت بسرعة لتصبح قوةً بحرية هائلة في اليونان. كان الكورنتيون يتباهون بالموقع الجغرافي المتميز لمدينتهم الرابضة على البرزخ الذي يحمل اسمها — برزخ كورنتة — الذي يمكِّنهم من الوصول إلى البحر الأيوني وبحر إيجه؛ ولذا فقد تحكَّموا في طرق التجارة المؤدية إلى إيطاليا وأنشئوا المستوطنات التي امتدَّت إلى «سيراكوزا Syracuse» في صقلية، و«أبولونيا Apollonia»، في ليبيا اليوم، وإلى جزيرة «كورفو Corfu»، وذلك بعد أول معركة بحرية سجَّلها التاريخ اليوناني. (حدثت هذه المعركة في سنة ٦٧٠ق.م. تقريبًا وتحقَّق فيها الانتصار بفضل السلاح السري الجديد لكورنتة، وهو السفينة ثلاثية المجاذيف. إلا أن تفوُّق كورنتة كان قصير المدى نسبيًّا.) بحلول القرن السادس ق.م.، كان نجم أثينا قد بدأ في الصعود بسرعة. في ذلك الوقت كان اليونانيون قد احتلوا كلَّ الحوض الشرقي من البحر الأبيض حتى صقلية غربًا. (كانت مجموعة من مدينة فوكايا Phocaea في آسيا الصغرى قد ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك وأنشأت مستوطنةً في إمبوريون Emporion (إمبيوريس Empuries الآن) على ساحل قطالونيا،

وهي المستوطنة اليونانية الوحيدة في إسبانيا، التي يوجد بها أثرٌ يدل عليها). حملوا إليها الحضارة، بما كان لديهم من فنٍّ ومعمار وآداب وفلسفة وعلوم ورياضيات، إلى جانب مهاراتهم الصناعية. لا بد من أن نكون ممتنِّين لهم كذلك لإدخالهم النبيذَ الفاخر وطقوس تناوله والممارسات الاجتماعية المصاحِبة من حفلاتٍ وولائم. إلا أن اليونانيين لم يكونوا — قط — إمبراطوريةً بالمعنى الذي ستكون عليه روما فيما بعد.

سياسيًّا، كانوا مجرَّد عدد كبير من الدول-المدن، كما كانوا معظم الوقت في حالة حرب مع بعضهم البعض. كانوا أحيانًا يشكِّلون روابطَ وتحالفات مؤقتة، إلا أن تلك الدول-المدن كانت مستقلة بالضرورة. في تلك الأيام لم تكن أثينا عاصمةً بأي معنًى، أكثر من «هاليكارناسوس Halicarnassus» في آسيا الصغرى مثلًا؛ حيث وُلد هيرودوتس، أو سيراكوزا في صقلية، مسقطِ رأس «أرشميدس Archimedes»، أو جزيرة «ساموس Samos» موطن «فيثاجوراس Pythagoras». كان القديس بولس (سان بول St Paul) يتباهى بأنه مواطن روماني، ولم يكن بالإمكان أن يقال مثلُ ذلك عن اليونانية التي — لا تختلف عن اليهودية اليوم — كانت مفهومًا أكثرَ منها جنسية. لم يكن هناك تعريفٌ دقيق. إذا كنت تشعر بأنك يوناني وتتحدَّث اليونانية، فأنت إذن يوناني.

إحدى نتائج هذا الشتات الكبير، وجودُ كثير من المواقع اليونانية في إيطاليا وصقلية وحول السواحل الغربية والشمالية لآسيا الصغرى مثلما على البر الرئيسي لليونان. ربما كان للبارثينون Parthenon[1] مستواه الفريد الذي لا يضارَع،[2] إلا أن الشيء نفسه يمكن أن يقال عن التحف المعمارية في «أولمبيا Olympia» و«باساي Passae». غير أن تفكير المرء سوف يذهب إلى المعابد العظيمة في «بايستم Paestum» جنوبي نابولي، أو تلك في «سيجستا Segesta» و«أجريجنتو Agrigento» في صقلية، أو فيما وراء بحر إيجه، وإلى المسرح اليوناني الكبير في «إفسيوس Ephesus»، وتلك المعابد الصغيرة المطلة على البحر في «سيد Side» و«كاس Kas»، أو الآثار المثيرة للعواطف والذكريات في «برين Priene»، إحدى المدن اليونانية القليلة من بين مدن الساحل التي نجت من «الرومنة Romanizaton» أو إضفاء الطابَع الروماني عليها، أو البوليتريون (قاعة الاجتماعات) الصغير؛ حيث كان ممثلو الشعب المختارون يجتمعون لإدارة شئون المدينة. ربما لا يكون ذلك كله هو «اليونان» بمنظورنا الحالي لمعنى «دولة»، ولكنه العالَم اليوناني ... الأكثر أهمية.

كان هناك كذلك عدد من الممالك الصغيرة في آسيا الصغرى التي رغم تأثُّرها المتزايد بالثقافة اليونانية حتى أصبحت هيلينية تمامًا، كان لها جذورٌ قديمة قبل أن يسمع أحدٌ

باليونانيين: «برجامم Pergamum» على سبيل المثال، التي كانت مزارًا للحج عدة قرون بسبب وجود «أيسكلابيوس Aesculapius»، إلهِ الشفاء بها، قبل أن تكون لها السيادة السياسية في القرنين الثاني والأول ق.م.؛ أو «فريجيا Phrygia» التي حكمَ ملِكها الشهير «ميداس Midas» — صاحبُ اللمسة الذهبية الأسطورية — في القرن الثامن ق.م.[٣] أو «ليديا Lydia» التي حكمها في القرن السادس ق.م. الملكُ «كرويسوس Croesus» الأغنى حتى اليوم، وهو الذي اخترع عمليةَ سك النقود، ولعْب القمار! (ربما في الوقت نفسه). هذه المملكة — ليديا — سيكتب هيرودوتس عن سكانها: «لولا أنهم يدفعون بناتهم دفعًا للعَهْر والبِغاء، لاعتبرنا أخلاقَ أهلها مثلَ أخلاقنا إلى حدٍّ بعيد».

كان افتقاد الوحدة السياسية هذا مفيدًا تمامًا لتطور الفن والثقافة والفكر اليوناني. هذا الغياب شجَّع التنوع، كما كان سببًا في ظهور قدرٍ كبير من المنافسة الصحية، إلا أنه كشف في الوقت نفسه عن ضَعف شديد وخطير في وجه قوةٍ إمبراطورية هائلة كانت تتزايد على مدى معظم سنوات القرن السادس ق.م. كانت الإمبراطورية الفارسية من صنع «قورش الأكبر Cyrus the Great»، الذي استطاع خلال حكمه الذي استمر ثلاثين عامًا (٥٥٩–٥٢٩ق.م.) أن يجمع ويوحد عددًا من القبائل المتباينة في دولةٍ واحدة ويجعلها أقوى دولة على وجه الأرض. كان الفرس جنودًا بارعين ومقاتلين مهرةً يمكنهم أن يمطروا أعداءهم، دون توقُّف، بوابل من السهام: بفضل هؤلاء الجند والخيَّالة المهرة تمكَّن قورش من هزيمة كرويسوس سنة ٥٤٦ق.م. وبسط سلطانه على ساحل الأناضول إلى «كاريا Caria» و«ليسيا Lycia». هكذا بضربة مفاجئةٍ أصبحت فارس قوة متوسطية. تحت «داريوش Darius» العظيم، الذي اعتلى العرش في سنة ٥٢٢ق.م. بعد أن قتل «قمبيز Cambyses»، أصبحت فارس قوةً أوروبية تقريبًا. قام داريوش بأول حملة كبيرة على اليونان في ٤٩٠ق.م.، عندما أرسل أسطولًا ضخمًا يحمل ما لا يقل عن خمسة عشر ألف جندي بقيادة «داتيس Datis»، ابنِ أخيه. عبرت الحملة بحرَ إيجه لتشن هجومًا كاسحًا على أثينا. في محاولة للتصدي لها، قام الجنرال اليوناني «ملتيادس Miltiades» فورًا بحشدٍ من مدينة «بلاتيا Plataea» الصغيرة، وانتظمهم متراصين في خطٍّ طويل عبْر سهل ماراثون خارج المدينة بنحو اثنين وعشرين ميلًا. لم يتمكَّن جيش إسبرطي من الظهور في الوقت المناسب ولم ينتظره ملتيادس. حُسمت المعركة سريعًا. نجحت القوات اليونانية في اختراق الفرس واندفعت متقدمة لكي تطوِّق الوسط. استدار جيش داتيس ولاذ بالفرار أمام اليونانيين الذين كانوا يطاردونه. بلغت خسائر الفرس نحو ٦٤٠٠ قتيل وفقد الأثينيون ١٩٢ جنديًّا وأسروا خمس سفن فارسية في تلك المواجهة.[٤]

كسبت أثينا معركة، ولكنها لم تكسب الحرب. كان كلُّ ما كسبته هو «فضاء للتنفُّس» لكي تستعد للهجوم التالي. كان قائدها «ثيميستوكليس Themistocles»، المنتخَب حاكمًا ورئيسًا شرفيًّا للمدينة في ٤٩٣ق.م.، كان مقتنعًا بأن أفضلَ أملٍ لها هو أن يكون لها قوة بحرية ... وشرع في بناء أسطولٍ بحري. بضربة حظ غير عادية، كان قد تم اكتشاف عِرقٍ سميك من الفضة في مناجم «لوريوم Laurium» القريبة، وعليه لم يكن التمويل مشكلة. لحسن الحظ، كذلك، أن الفرس كانوا مشغولين بإخماد تمردٍ في مصر، كما أن موت داريوش في ٤٨٦ أَخَّرهم أكثرَ من ذلك. وأخيرًا، على أية حال، انطلقت حملةٌ جديدة قوامها مائة ألف مقاتل بقيادة «خشيرشاي Xerxes» ابن داريوش وخليفته. عبرت الحملة «هيلزبونت Helleespont» (الدردنيل) على جسرٍ من القوارب، وتقدَّمت نحو «تراقيا Thrace» إلى «تيسالي Tessaly»، ويقال إن الحشد كان ضخمًا لدرجةِ أن الرجال ودواب حمْل العتاد والمؤن شربوا مياه البحر حتى جف. الأثينيون، القلقون، استشاروا الكهنةَ في «دلفي Delphi»، فنصحوا أن يضعوا ثقتَهم في جدرانهم الخشبية، ولكن أحدًا لم يكن يعرف ما إذا كان ذلك إشارةً إلى تحصينات الأكروبولوس أو إلى السفن الحربية، ولم تُجدِ النصيحة. الأثينيون تجاهلوها على أية حال، فتقدموا شمالاً لملاقاة العدو، مصحوبين هذه المرة بفرقةٍ متوسطة الحجم من إسبرطة تحت قيادة الملك الإسبرطي «ليونيداس Leonidas».

قرَّروا أن يتخذوا مواقعهم عند ممر «تيرموبايلاي Thermopylae» الضيق الذي يعتبر بوابةً إلى «بويتيا Boetia» و«أتيكا Attica». قاتل الأثينيون والإسبارطيون ببسالة جنبًا إلى جنب لمدة ثلاثة أيام، ثم أرشد أحدُ الأدلاء المحليين «خشيرشاي» إلى ممرٍّ ضيق عبر الجبال يمكنه أن يهاجم منه الإسبارطيين من الخلف. بينما كانت القوة الرئيسية لليونانيين تتقهقر في اتجاه الشمال، كان ليونيداس ونحو ثلاثمائة مقاتل يخوضون حربًا يائسة في المؤخرة، كان أن قضوا فيها كلهم. الآن كان الطريق إلى أثينا قد أصبح مفتوحًا. قام «ثيميستوكليس» بإخلاء المدينة ووضع قيادة على جزيرة «سالاميس Salamis» المجاورة واستدعى كلَّ السفن المتاحة (وصل عددها إلى ٣٧٨ سفينة) لتتجمع في خليج «سارونيك The Saronic Gulf»، وبمجرد أن وصلت السفن وجدوا أنفسهم محاصرين بواسطة الأسطول الفارسي الذي كان قوامه نحو ستمائة سفينة. إلا أنهم بدلًا من محاولة فك الحصار، انسحبوا ببراعة في المياه الضيقة في سالامس مما أغرى الفرس بمطاردتهم. في القتال المتلاحم الذي دار، كانت السفن اليونانية ثلاثية المجاذيف أكثرَ سرعة وكفاءة،

وأكثر قدرة على المناورة من السفن الشراعية الفارسية الثقيلة. كانت السفن اليونانية تدقُّ السفن الفارسية دون رحمة، بينما خشيرشاي — غاضبًا — جالس على عرشٍ أقدامُه من الفضة تحت مظلةٍ مذهَّبة، يراقب سيرَ الاشتباك من شاطئ أتيك. عندما انتهت المعركة كان اليونانيون قد أغرقوا نصف سفنه تقريبًا، بينما خسروا أربعين من سفنهم. سيعود خشيرشاي إلى عاصمته في «سوسا Susa» ولن تطأ قدمُه اليونان مرة أخرى. ترك في تيسالي جيشًا قوامه نحو ثلاثين ألف مقاتل تحت قيادة جنرالٍ يُدعى «ماردونيوس Mardonius»، لقي هو الآخر هزيمةً في العام التالي في معركة «بلاتيا Plataea»، وفي اليوم نفسِه كان هناك اشتباكٌ آخر بالقرب من «كيب ميكالي Cape Mycale» في آسيا الصغرى؛ حيث تم تدميرُ ما كان قد تبقَّى من السفن الفارسية. هكذا انتهت الحرب بانتصار اليونانيين.

كانت نتيجة الحرب — بالتأكيد — تعتبر انتصارًا للحرية الغربية على الأوتوقراطية والاستبداد الشرقي: الملك العظيم بكل آلته العسكرية الهائلة لم يكن قادرًا على تدمير حَفنة من المدن-الدول اليونانية؛ وهنا قد يعنُّ لنا أن نسأل: ولماذا حَفنة؟ كانت أثينا وبلاتيا وإسبارطة والمدن القليلة الأخرى التي تشكِّل الرابطة البيلوبونيزية بقيادة إسبارطة، كانت تتميز بأنها أسمى منزلة، ولكن ماذا عن المدن الأخرى؟ الحقيقة أن أحدًا من معظم المدن اليونانية الأخرى لم يرفع إصبعًا. بعضها تعاون مع الفرس بدافعٍ من الخوف، وبعضها، بكل بساطة، قبِل البقاء دون مبالاة تحت «مرزبان Satrap»[٥] ربما متسامح أو غير مستبد؛ برغم كل ذلك كانت مدن الساحل الأيوني الكبرى — برجامم وإفيسيوس وميليتوس وبرين — قد عاشت تحت راية الملك العظيم على مدى الأربعين سنة السابقة دون شكوى. كان هناك الكثير من اليونانيين من أبناء الطبقة العليا المحافظة في كل منطقة بحر إيجه، الذين يخشون الخطوات الراديكالية نحو الديمقراطية الشعبية التي كانت قد نشأت في القرن السابق — في أثينا قبل غيرها على يد مصلحين مثل «سولون Solon» و«كليستينيس Cleisthenes» — وكانوا يفضِّلون النظام القديم صراحة. ولأنه لم يكن لهم جنسية حقيقية، لم يكونوا ضد أي سيادةٍ أجنبيةٍ ما دامت ودية ومعتدلة.

كانت «هاليكارناسوس Halicarnassus» (بودروم Bodrum الحديثة) كذلك تحت السيطرة الفارسية عندما وُلد هيرودوتس في ٤٨٤ق.م. عندما كان في العشرين تقريبًا، عارض استبداد المرزبان الفارسي «ليجدامس Lygdamis» ونجا بصعوبة من حكمٍ بالإعدام. بعد طردِه من الإمبراطورية أقام في «ساموس Samos» التي أصبحت مستقرَّه

الرئيسي حتى تورُّطه في الاحتلال الأثيني لـ «توري Thurii» جنوبي إيطاليا في ٤٤٤ق.م. يبدو أنه كان دائمَ الترحال طوال حياته، والمؤكَّد أنه أمضى فترةً في أثينا — حيث أصبح صديقًا مقربًا من «سوفوكليس Sophocles»، وتنقَّل في أرجاء اليونان وآسيا الصغرى ولبنان وفلسطين، كما أخذته رحلاتٌ أخرى إلى «قورينة Cyrene» في ليبيا وبابل في بلاد الرافدين وعلى النيل إلى أسوان في مصر العليا. أينما حلَّ هيرودوتس، كان يطرح الأسئلة، وليس عن التاريخ فحسب. كان يسأل عن الجغرافيا والميثولوجيا والعادات الاجتماعية … وكلِّ ما يعنُّ له.

التاريخ الذي كتبه — أول عمل أدبي أوروبي مهم كُتب نثرًا — سجَّله في أواخر حياته، وبعد موته تم تقسيمه إلى تسعة كتب، كل منها على اسم إحدى الإلهات Muses.[٦] وبالرغم من أنه كتبها قبل ألفيتين ونصف الألفية، تبقى مثيرةً للدهشة إلى اليوم عند قراءتها لامتلائها بالاستطرادات العديدة والنوادر الطريفة والمعلومات التي جمعها أثناء أسفاره، وتضفي عليها حيويةً شديدة. العمل كله يرفده حبُّ استطلاع شديد ودهشةٌ وافتتان بجمال العالم وتنوُّعه من حوله. وهكذا فإن هيرودوتس يوناني قلبًا وقالبًا. إنه يجسِّد الروح الإغريقية تمامًا مثل التراجيديات الإغريقية في القرن الخامس، وربما مثل هوميروس.

لقد نشأنا كلنا ونحن ننظر إلى القرن الخامس ق.م. في أثينا باعتباره عصرًا ذهبيًّا، عصرًا لم يشهد تقدمًا غير مسبوق في العلوم والفنون كما في الفلسفة والنظرية السياسية فحسب، بل إنه كذلك، في حالات كثيرة، حقَّق في هذه المجالات نفسها مستوًى من الإتقان لم يتجاوزه عصرٌ آخر إلى الآن. يمكن أن يكون ذلك بشكل عام؛ إذ إننا نرى بدايةَ الظاهرة قبل ذلك بمائة عام تقريبًا، أما أصحابها فكانوا كلهم أثينيين فحسب. كان في أيونيا أن تنبأ «تاليس Thales» (من ميليتوس Miletus) بكسوف الشمس ٥٨٥ق.م. وصدق توقُّعه. كان أرسطو يعتبره أولَ فيلسوف طبيعي. وكان في أيونيا كذلك أن أنتج زميله «أنكسماندر Anaximander» أولَ خريطة للعالم المأهول. بعد نصف قرن، وعلى جزيرة ساموس سينتج «فيثاجوراس Pythagoras» نظريتَه عن المثلثات قائمة الزوايا. ولكن كان في أثينا أن بدأ «بيزيستراتوس Peisistratus» معبد زيوس الأولمبي في ٥٤٠ق.م. عندما كان فن الفخار في ذروته. وكان في أثينا أيضًا أن اجتمع كلُّ هذا الإبداع والتفوق والتألق — بعد انتهاء الحرب الفارسية — في حالة عبقرية واحدة جاءت بموجة هائلة من الثقة والتفاؤل. كان يبدو أن الإنسان قد حرَّر نفسَه من الخرافات البدائية التي كانت

ملازمةً للماضي، بدأ أخيرًا يفهم الكونَ من حوله ويدرك أنه — بالتأكيد — سوف يتمكَّن من السيطرة عليه. في الوقت نفسه كان يكتشف الحقائقَ الأساسية للفلسفة السياسية التي علَّمته كيف يعيش في المجتمع الذي وُلد فيه؛ وبواسطة هذا المزيج من القوة والمعرفة، لن يستمتع بعصره الذهبي فحسب، وإنما سيجعله مستمرًّا إلى الأبد.

كانت الروح المهيمنة على ذلك كلِّه هي روح «بيركليس Pericles» التي سادت أثينا منذ ٤٦١ق.م.، عندما كان في الرابعة والثلاثين، حتى وفاته بالطاعون في ٤٢٩ق.م. كل شيء قاله أو فعلَه كان من وحي وإلهام حبٍّ شديد لمدينته الأم. كان قد بذل كلَّ ما في وُسعه لكي يجعلها جميلة، وبشتى الوسائل؛ بتجديد المعابد التي هدمها الفرس وتنظيم بناء أخرى جديدة على الأكروبوليس؛ حيث كان مسئولًا مسئوليةً مباشرة عن «البروبلاي Propylaea» والأوديون والإرخثيوم والبارثينون نفسه؛ إلا أن بيركليس كان كذلك قائدًا عسكريًّا وإمبراطوريًّا لا يُشق له غبار؛ إذ ينبغي ألا نفترض أن القرن الخامس ق.م. كان زمن سلام في أثينا. على العكس، كان هناك تقريبًا قتالٌ مستمر مع إسبارطة، كما هو مع دول يونانية أخرى رافضة أو مقاوِمة لسياسات أثينا التوسعية. هذه الظروف الضاغطة كانت آخذةً في التصاعد حتى ٤٣١ق.م. لكي تنفجرَ في حرب البيلوبونيز. كان أحد الأسباب الرئيسية لتلك الحرب التي استمرت لفترةٍ تزيد عن ربع القرن الخامس المجيد، هو إصرار كل طرف على التحكم في طرقِ التجارة التي تصل اليونان بالبحر الأدرياتيكي؛ ومَن يريد أن يعرف قصة هذه الحرب كاملة فعليه أن يقرأ ثيوسيديديس. أما هنا فكلُّ ما يمكن قوله أنها انتهت بحصارٍ شتوي طويل لأثينا (٤٠٥–٤٠٤ق.م.)؛ حيث ضاق الخناق على المدينة وتضورت جوعًا … فاستسلمت. ولكن العصر الذهبي لم يكن عصرَ سياسة فحسب، ولعل وصفه بالذهبي يأتي لعلاقته بالفن والفكر. في مجال الأدب بشكلٍ عام، والدراما على نحوٍ خاص، وهي موضع قوة اليونان، كان الاسم العظيم الأول هو اسم «أيسخيلوس Aeschylus» المولود في ٥٢٥ق.م.، ولا بد أن يكون قد حارب في «ماراثون Marathon»، وربما في «سالاميس Salamis» و«بلاتيا Plataea» كذلك. كتب على مدى حياته الطويلة أكثرَ من ثمانين مسرحية، بقيت منها سبع بما فيها الثلاثية الإغريقية الوحيدة الباقية: «أورستيا Oresteia». كان أيسخيلوس رائدًا في أمورٍ عدة. كانت تراجيدياته هي الأولى التي تستكشف الشخصية الإنسانية، والأولى كذلك التي تستخدم ممثلًا ثانيًا، وبذلك تقلِّل من أهمية «الكورس Chorus» إلى حدٍّ ما. قام أيسخيلوس بزيارتين طويلتين لجزيرة صقلية — كانت حتى ذلك الحين جزءًا لا يتجزأ من العالم اليوناني — وكان أن مات

هناك في ٤٥٦ق.م. (قُتل على نحوٍ مؤسف عندما ظن نسرٌ رأسَه الأصلع صخرةً فأسقط عليها سلحفاة لكي يكسر ظهرها العظمى).

«سوفوكليس Sophocles»، الأصغر سنًّا من أيسخليوس بنحو ثلاثين عامًا، كان أكثرَ إنتاجًا. كتب ١٢٣ مسرحية لم يصلنا منها كذلك سوى سبع تراجيديات، بما في ذلك ثلاث تتناول أسطورة «أوديب Oedipus». بصرف النظر عن هذه المسرحيات الثلاث: «عقدة أوديب Oedipus Rex» و«أنتيجون Antigone» و«أوديب في كولونوس Oedipus at Colonus»، فإن تحفته هي «إلكترا Electra»، التي تروي قصة قيام إلكترا وشقيقها «أورستيس Orestes» بقتل أمِّهما «كلايتمنسترا Clytemnestra» — زوجةِ أجاممنون — وعشيقها «أيجستوس Aegisthus». كان سوفوكليس كذلك مبدعًا كبيرًا. يخبرنا أرسطو بأنه أضاف ممثلًا ثالثًا، ووجد الوقت، إلى جانب ذلك كله لكي يشاركَ في الحياة العامة في أثينا. خدم مرتين في المجلس العسكري الذي كان مكونًا من عشرة جنرالات وكان قسًّا في «هالون Halon» وأشبه بإلهٍ آخرَ للشفاء. مات سنة ٤٠٦ق.م. وكان في التسعين من العمر. قبل وفاته بفترةٍ قصيرة أخذه أبناؤه إلى المحكمة للحجْر عليه على أساس أنه كان قد بلغ من العمر عتيًّا، ولم يَعُد قادرًا على إدارة شئونه بسبب ظروف الشيخوخة. كان ردُّه أن قام بتلاوةِ مقطعٍ طويل — من الذاكرة — من أحدثِ مسرحياته «أوديب في كولونوس»، وخسر أبناؤه القضية.

ثالث وآخر كُتَّاب التراجيديا العظام هو «يوربيديس Euripides» المولود في ٤٨٤ق.م. كان إذنْ أصغرَ من سوفوكليس باثني عشر عامًا ومات قبله بأشهر قليلة في سنة ٤٠٦ق.م. (في مهرجان ديونيسيوس Dionysus في ذلك العام، جعل سوفوكليس الكورس والممثلين يرتدون السواد إحياءً لذكراه). في العصور التالية سيكون الاحتفال بـ«يوربيديس» باعتباره من رجال النهضة. إلى جانب الكتابة المسرحية كان رسامًا رائعًا وموسيقيًّا بارعًا، وكانت مكتبته واحدةً من أفضلِ مكتبات أثينا. يعتقد أنه كتب ٩٢ مسرحية بقي منها تسع عشرة من بينها: «أندروماك Andromache»، و«هيبولتيوس Hippolytus»، و«ميديا Medea»، و«نساء طروادة The Trojan Women»، وهي تتناول الأساطير القديمة نفسَها التي استخدمها سابقوه، ولكنها تأخذ منحًى معاصرًا وغير متوقَّع.

كاتب الدراما الوحيد الآخر في تلك الأيام، الجديرُ بالذكر هنا بنفس الاطمئنان مثل الثلاثة السابقين، لم يكن كاتبَ تراجيديات وإنما كوميديات، أكثر المسرحيات سخريةً في ذلك الزمان، «أريستوفانيس Aristophanes» المولود — تقريبًا — في ٤٤٥ق.م.،

كان أصغر من يوربيديس بجيل، وكما يمكن أن نتوقَّع ما يزال أكثر واقعية. كتب نحو ٥٤ مسرحية وصلَنا منها إحدى عشرة، رسم فيها — بلا أدنى شفقة — صورًا كاريكاتورية للشخصيات السياسية والثقافية والاجتماعية الرئيسية في أثينا بمن فيهم سقراط (في مسرحية: «السُّحب The Clouds»)، وكليون Cleon (في مسرحية: «الفرسان The Knights»)، ولاماخوس Lamachus أحدُ أبرز جنرالات أثينا في حرب البيلوبونيز (في مسرحية: «الأخارنيون The Acharnians»). في مسرحية: الضفادع يهبِط ديونيسيوس — إله المسرح — إلى حادس،[٧] ليأتيَ ب «يوربيديس»، وبعد مشهد محاكمةٍ هزلي يأتي ب «إيسخيلوس» بدلًا منه. لعل «ليسيستراتا Lysistrata» هي أشهر مسرحياته، التي تمتنع فيها نساء المدن اليونانية عن معاشرة أزواجهن جنسيًّا إلى أن يعود السلام.

لعل سقراط وحده من بين فلاسفة أثينا العظماء، هو الذي يمكن أن يقال إنه ينتمي إلى القرن الخامس ق.م. عاش سقراط من ٤٦٩ق.م. إلى ٣٩٩ق.م. لم يكتب شيئًا؛ لأنه بكل بساطة كان يزعم أنه لا يعرف شيئًا؛ ولذلك لم يكن يشعر بأنه يمكن أن يكون معلِّمًا. كان بدلًا من ذلك يناقش كلَّ شيء وأيَّ شيء: الخير والشر، والحقيقة والعدل، والفضيلة والدين، وكان الموضوع الأخير هو سبب سقوطه. في مطلع ربيع ٣٩٩ق.م. اتُّهم بالعقوق؛ لأنه — كما قيل — قدَّم آلهةً غريبة لا تعترف بها الدولة؛ واتُّهم إلى جانب ذلك بأنه كان يغوي الشبان رغم أنه كان له زوج «زانتيبي Xanthippe» ولديه منها ابنان. اتهامان كانا كافيين لإدانته قضيا بإعدامه. عرض أصدقاؤه عليه تقديمَ رشوة لسلطات السجن لتهريبه، ولكنه رفض لأسباب أخلاقية. بعد شهر تجرَّع — علنًا — كأسًا من السُّم ومات.

أفلاطون الذي كان ليخلده، كان في الثامنة والعشرين عندما شهد محاكمته وتأثَّر بشدة لموته، الذي قضى بعده عدة سنوات في مصر وإيطاليا وصقلية. على خلاف صديقه كتب كثيرًا، وكثيرًا ما كان يفصِّل نظرياته الفلسفية في شكل حوارات درامية يلعب فيها سقراط دورًا مهمًّا؛ وبالرغم من أنه كان يجادل بذكاء شديد، لم يكن يلزم نفسه بمبدأ خاصٍّ به. في مرحلةٍ ما من ثمانينيات القرن الرابع ق.م.، أسَّس مدرسةً خارج أثينا عُرفت بالأكاديمية Academy، وهي الكلمة التي تبنَّتها فيما بعد كلُّ لغات أوروبا تقريبًا.

تلميذ أفلاطون اللامع — الذي كان يصفه بعقل المدرسة — كان شابًّا يونانيًّا أيونيًّا من تراقيا Thrace يُدعى أرسطو، من مواليد «ستاجيرا Stagira» بالقرب من تيسالونيكا في ٣٨٤ق.م. عندما استقرَّ في «أسوس Assos» في آسيا الصغرى أسَّس مدرسةً هو الآخر.

في ٣٤٢ق.م. تلقى دعوةً من «فيليب الثاني المقدوني Philip II Macedon» ليكون معلِّمًا خاصًّا لابن الملك الشاب، الإسكندر، البالغ من العمر أربعة عشر عامًا، وهي الوظيفة التي بقي فيها لمدة عامين. بعدها سيعود أرسطو إلى أثينا ليؤسِّس مدرسةً أخرى خاصة به — هذه المرة في بستانٍ كان مكرَّسًا لعبادة «أبوللو ليكيوس Apollo Lykeios» مما أعطاها اسم «الليسيوم Lyceum». كان أرسطو أكبرَ من مجرد فيلسوف، آثاره الباقية تضم أعمالًا في الأخلاق والتاريخ والعلم والسياسة والنقد الأدبي والمسرحي والطبيعة والميتيورولوجيا (الظواهر الجوية) والأحلام وعلم الحيوان، أما المجال الأخير فكان اهتمامًا شخصيًّا منه. باختصار ... كان أرسطو موسوعيَّ الثقافة، ولعله الأول في التاريخ. ترك وراءه أولَ مكتبة حقيقية، مجموعة واسعة من المخطوطات والخرائط كانت النموذج البدئي لمكتبات «برجامم Purgamum» والإسكندرية وكل المكتبات العامة القديمة الأخرى.

بعد انتهاء حرب البيلوبونيز، حكمت إسبرطة الطائر اليوناني بضع سنوات، إلا أن الأضواء تحوَّلت في مطلع القرن التالي إلى مكانٍ آخرَ غير مألوف، غير متوقَّع. في تلك الأيام القديمة لا بد أن مقدونيا كانت تبدو مثلما كانت اسكتلنده بالنسبة لإنجليز العصور الوسطى: أرض برابرة بدائيين، همج وأجلاف، منقسمين إلى جماعات متحاربة، لا يضاهي فقرَهم الثقافي سوى قدرة مذهلة على تعاطي الكحول. كان ذلك يصدُق تمامًا على النِّجاد المقدونية، أما الأراضي المنخفضة التي كانت تضم مدينة «بيللا Pella»، التي خرجت منها أسرةٌ تُعرف بـ «الأرجيد Argeads»، فقد ملكت زمام الحكم والسيطرة على البلاد كلها، على الأقل من الناحية النظرية.

بالنسبة لنا هنا فإن القصة تبدأ بالملك «فيليب الثاني King Philip II» الذي اعتلى العرشَ بعد موت أخيه في ٣٥٩ق.م. كان البلد الذي ورِثه فقيرًا ومفككًا فقام من فوره بتكوين جيش احترافي أخضعه لتدريبٍ شامل وأبقاه في حالة تعبئةٍ على مدار العام وليس في الصيف فقط كما كانت العادة. في غضون عشرين عامًا، أصبحت مقدونيا أقوى دولة في شرق أوروبا، وقلبَ فيليب الثاني موازينَ القوى في العالم اليوناني بكامله. في سنة ٣٣٨ق.م. قاد جيشه في اتجاه الجنوب ليجبر الدول-المدن في جنوب اليونان — التي كانت تقودها أثينا وطيبة Thebes — على الدخول في تحالف سريع معًا. أرسلوا جيشًا لمواجهته حيث تلاقت القوى المتنافسة في الرابع من أغسطس في «كايرونيا Chaeronea» في «بويتيا Boetia». أسفرت المعركة عن انتصار حاسم للملك فيليب.

كان الإسكندر ابن فيليب، أحدَ السفراء الذين أرسلهم إلى أثينا لعرضِ شروط التسوية، ورغم أنه كان ما زال في الثامنة عشرة، كان الأمير الصغير قد أظهر بسالةً كبيرة

في القتال في كايرونيا حيث كان قائدًا لخيالة ميسرة الجيش. منذ طفولته، كان يتم إعداده لكي يكون خليفةً لوالده. كان معلِّمه أرسطو ينمي فيه شعورًا غريبًا وقويًّا بحقه المقدَّس في أن يحكم، وكان يشتطُّ في نصحه له لدرجةِ أنه كان يريده أن يكون «قائدًا لليونانيين ومستبدًّا مع البرابرة، أن يعامل اليونانيين كأصدقاء وأقارب، والآخرين كما لو كانوا نباتات أو حيوانات». التهمَ الطموح الصبي. كان متعجلًا لتولي مقاليد الأمور لدرجةِ أن فيليب بدأ يشك في وجود مؤامرة عليه. ربما كان محقًّا في ذلك؛ ففي سنة ٣٣٦ق.م. أثناء الاحتفالات المقامة بمناسبة زواج شقيق زوجته من أخته (أخت شقيق الزوجة نفسه)، تم اغتيال الملك بيد أحد حراسه.

هل كان الإسكندر متورطًا في الجريمة؟ لم يثبُت ذلك، إلا أن الدلائل تشير إليه وإلى أمه «أولمبياس Olympias» التي كان فيليب قد طلَّقها قبل فترة قصيرة. المهم أن اغتيال الملك جاء في لحظةٍ مواتية تمامًا. بموافقةٍ إجماعية من الجيش تولَّى الإسكندر الحكمَ بعد أبيه. وبعد أن انتظر حتى ينتهيَ من حملة سريعة على طيبة — التي لم يترك فيها حجرًا فوق الآخر — عبَر هيلزبونت (الدردنيل) ليبدأ حملته الكبرى التي سوف تشغَل ما بقي من حياته القصيرة المدهشة: حملة شنَّها بهدف تحرير المدن اليونانية في آسيا الصغرى من السيادة الفارسية، وإقامة إمبراطورية عظيمة له بعد ذلك في المشرق. وبينما كان ما يزال في البحر الأبيض انتصر على الملك الفارسي «داريوش الثالث Darius III» في معركتين تاريخيتين؛ الأولى على نهر جرانيكوس Granicus على بُعد نحو ثلاثين ميلًا شرقي طروادة، والثانية في العام التالي على هضبة إيسوس Issus بين ألكساندريتا Alexandretta وأنتيوك Antioch (الإسكندرية ثم أنطاكية على التوالي). بعد ذلك لم يكن أمامه سوى مقاومة قليلة وهو يقود جيشه جنوبًا على امتداد ساحل فلسطين، وعبر شمال شبه جزيرة سيناء إلى مصر، حيث أمضى شتاء ٣٣٢–٣٣١ق.م.؛ ثم انطلق شرقًا مرة أخرى مع مقدَم الربيع: إلى صور أولًا، ثم عبر الجبال إلى دمشق، وهنا سيخرج من قصتنا.

مات الإسكندر في بابل في ١٣ يونيو ٣٢٣ق.م. وهو في الثانية والثلاثين، مخلفًا وراءه فوضى عارمة. ابنه الحي الوحيد «هيراكليس Heracles» كان غير شرعي، وعندما مات كانت زوجته «روكسان Roxane» حاملًا، إلا أن المولود كان يمكن أن يكون أنثى، ولم يكن أحد مستعدًّا للانتظار ستة أسابيع أخرى حتى تتم الولادة. نشب قتال عنيف بين كبار ضباطه ونبلاء المقدونيين الذين كانوا يشكِّلون بلاطه، وسرعان ما اتسع نطاق الصراع

وامتد إلى المتوسط، وقبل مرور وقت طويل كان كل العالم اليوناني قد أصبح ممزقًا بسبب جشع المتنافسين. كان كل شيء يمضي في مساره الحتمي، فكان لا يمكن أن تستمر إمبراطورية الإسكندر. كانت مترامية الأطراف ومن الصعب السيطرةُ عليها فسقطت سريعًا. كان المغامر الشاب الذي افترسه طموحه الشخصي لا يفكر سوى في الزحف والتوسع، ولم يفكر قط في تثبيت دعائم إمبراطوريته وتماسكها. تشظِّي الإمبراطورية بعد موته جعل اندثارها حتميًّا.

كان الإرث الثقافي الذي تركه الإسكندر أهمَّ من إمبراطوريته قصيرة العمر. المدى الذي وصلت إليه الثقافة اليونانية حتى أفغانستان ووادي الإندوس Indus، وامتزاجها بتراث فارس وإن كان ذلك خارج نطاق هذا الكتاب، إلا أن تأثير المرحلة الهلنستية Hellenistic[٨] كان كبيرًا في أرجاء المتوسط. ظهرت هناك كذلك مدنٌ على شاكلة المدن اليونانية، بمعابدَ وساحات عامة ومسارحَ ومنشآت للألعاب الرياضية، ولكن معظم تلك المدن لم تبقَ مدنًا-دولًا مستقلة كما كان شأنها في الماضي. الآن كانت قد أصبحت جزءًا من دولة كبيرة أقوى وأغنى، قادرةٍ على أن تطلق مشروعات لبناء السفن على نطاقٍ لم يكن ليخطر على بالِ أحد في القرون الماضية. كانت، فوق ذلك كلِّه، تمهِّد التربة لانتشار دين جديد ينبثق من قلب اليهودية، بينما لا يعترف بشيء من حصريتها. كان هذا الدين الجديد هو المسيحية كما نادى بها وطوَّرها «سان بول St Paul».

بعد أن انقشع دخان إمبراطورية الإسكندر المحتضرة — بعد عشرين سنة تقريبًا — انبعثت ثلاث قوى من بين الرماد. كانت الأولى هي مملكة مقدونيا القديمة التي لم تَعُد سيدًا على غرب آسيا إلا أنها كانت تسيطر على شمال اليونان، فكانت قوة كبيرة في العالم اليوناني؛ وكانت القوة الثانية هي الإمبراطورية التي بناها «سيليوكوس Seleucus» (جنرال الإسكندر — القائد السابق لحملة التروس وقائد حرس الشرف الشخصي) بدءًا بـ «بابل» ثم سرعان ما بسط نفوذه على ما بين النهرين وسوريا، إلى أن امتدَّ ملكه من عاصمته في أنتيوك Antioch (أنطاكية) إلى الحدود الشرقية للخليج الفارسي. استمرَّت سلسلة الملوك السلوقيين Seleucid التي بدأها نحو أربعة قرون إلى أن محتها روما في عام ٧٢م.

القوة الثالثة كانت مصر؛ حيث قام صديقٌ للإسكندر (عسكري ومؤرِّخ) يُدعى «بطليموس Ptolemy» ليعلن نفسه ملِكًا. أظهر بطليموس تفوقًا كبيرًا. كان يحكم من الإسكندرية التي بناها الإسكندر — مدينة أعظم مكتبات العصور القديمة، المدينة التي

كان يوجد بها أكبر مجتمع يهودي سيقرأ التوراة بانتظام ... ليس بالعبرية وإنما باليونانية — ومن مدينةٍ أخرى بناها في مصر العليا (مدينة Ptolemais). هذا المقدوني المخادع، انتحل شخصية — وسلطة — الفراعنة القدامى، وخلال فترة حكمٍ دامت نحو أربعين سنة امتدت ممتلكاته إلى فلسطين وجنوب سوريا وقبرص وآسيا الصغرى وجزر السيكلاديس. بدأ هو الآخر سلسلةً من حكام لمصر شملت ما لا يقل عن خمسة عشر من أسرة واحدة، وهو عدد لافت لأن كلَّ واحد منهم — تقريبًا — كان يتزوج أخته أو أخته غير الشقيقة أو ابنة أخيه أو ابنة أخته. كان بطليموس الرابع عشر Ptolemy XIV الذي اعتلى العرش في عام ٤٧م، هو الذي تزوَّج شقيقته كليوباتره التي كانت في الحادية والعشرين من عمرها.

رغم أن البطالمة، ربما، كانوا من أصولٍ يونانية، فإن العالَم الذي عاشوا فيه، وخاصة الأجيالَ المتأخرة منهم، كان عالَمًا رومانيًّا. والآن، أعتقد أنه قد حان الوقت لكي نعودَ القهقرى قرنًا أو قرنين لنتحرى كيف تسنَّى لمدينة إيطالية صغيرة عديمة الأهمية، أن تجعل من نفسها سيدةً على العالم المتحضِّر في فترة وجيزة.

هوامش

(١) هيكل الإلهة أثينا في مدينة أثينا.

(٢) بالرغم من أن المهندس المعماري هاري جودهارت–رندل Hary Goodheart-Randel قال لأوسبرت لانكستر Osbert Lancaster عندما رآه لأول مرة: حسنًا. لا أعتقد أننا يمكن أن نعتبره إنجازًا كبيرًا.

(٣) سباق الماراثون الحديث ومسافته ٢٦ ميلًا و٣٨٥ ياردة يقوم على قصة الرسول فيديبيديس Pheidippeds الذي يقال إنه قطع تلك المسافة ركضًا لتوصيل خبرِ الانتصار إلى أثينا. إلا أن هذه القصة بدورها مبنيةٌ على فكرة خطأ. يروي هيرودوتس — وهو المصدر الثقة الوحيد — أن فيديبيدس قطع المائة والأربعين ميلًا من أثينا إلى إسبرطة لكي يطلبَ النجدة، كما يقال إنه قطعها في يومين.

(٤) كان أحد أولئك المزربانات «موسولوس Mausolus»، حاكم مقاطعة «كاريا Caria» من ٣٧٧–٣٥٣ق.م.، الذي بنت له أخته/ زوجته، المقبرةَ العظيمة في هاليكارناسوس Halicarnasus، وهي الضريح الذي كان أحدَ عجائب الدنيا السبع.

في أواخر القرن الخامس عشر قام فرسان سان جون بإزالة بقاياه لبناء قلعةٍ تشرف على الخليج، إلا أن تمثال موسولوس بقي، وهو موجود الآن في المتحف البريطاني.

(٥) كان أحد أولئك المزربانات «موسولوس Mausolus»، حاكم مقاطعة «كاريا Caria» من ٣٧٧–٣٥٣ق.م.، الذي بنَت له أخته/ زوجته، المقبرة العظيمة في هاليكارناسوس Halicarnasus، وهي الضريح الذي كان أحدَ عجائب الدنيا السبع. في أواخر القرن الخامس عشر قام فرسان سان جون بإزالة بقاياه لبناء قلعةٍ تشرف على الخليج، إلا أن تمثال موسولوس بقي، وهو موجود الآن في المتحف البريطاني.

(٦) بنات زيوس كبير آلهة الإغريق (أو رب الأرباب) من عشيقته منيموزين Mnemosyne إلهةِ الذكاء. عدد بنات زيوس تسع ويُعرفن بالموزاي Musae أو ربات الفنون التسع: أورانيا ربة الفلك، وكليو ربة التاريخ، ويوتيربي ربة الموسيقى، وتيرسيخوي ربة الرقص، وميلبوميني ربة شعر البكائيات والمراثي، وبوليمنيا ربة الشعر الغنائي، وكاليوبي ربة الشعر الحماسي، وتاليا ربة الكوميديا. (المترجِم)

(٧) حادس Hades، مثوى الأموات في الميثولوجيا اليونانية.

(٨) «الهلنستية» هي الكلمة التي تُطلق عادةً على الفترة التي تلت موت الإسكندر مباشرةً.

الفصل الثالث

روما - الجمهورية

- هانيبال (٢١٨–٢١٦ق.م.).
- محو قرطاج (١٤٦ق.م.).
- كراسوس وبومبي (٧٣–٧٠ق.م.).
- يوليوس قيصر (٦٠ق.م.).
- ديكتاتور بومبي (٥٢ق.م.).
- قيصر في مصر والشرق (٤٧ق.م.).
- «عيدس» مارس ٤٤ق.م.
- أنطونيو وكليوباتره (٣١–٣٠ق.م.).

* * *

كان نهوض روما يعود قبل أي شيء إلى طبيعة وخصال الرومان أنفسهم. كانوا شعبًا بسيطًا، مستقيمًا، أمينًا، مطيعًا للقانون. مع شعورٍ قوي بقيم الأسرة، مستعدًّا لقبول النظام، منضبطًا عندما يتطلب الأمر ذلك — مثلما كانوا، بكل تأكيد في سنة ٥١٠ق.م. عندما طردوا «التاركين The Tarquins»، تلك السلالة من ملوك «الإتروسك Etruscan» الذين كانوا قد حكموهم على مدى القرن السابق،[١] وأسَّسوا جمهوريتهم. كانت مدينتهم، كما كانوا يزعمون، قد سبقت المدن الإتروسكية بعدة قرون، وكان مؤسِّسها هو الأمير الطروادي «أيناس Aeneas» الذي كان قد شقَّ طريقه إلى إيطاليا بعد أن دمَّر اليونانيون مدينته. هكذا كانت روما وريثة طروادة القديمة.

في ٢٨٠ق.م. رسا «بيروس Pyrrhus»، ملكُ «إبيروس Epirus» (إحدى الدول الهلنستية شمال غرب اليونان) بجيشٍ قوامه نحو ألف مقاتل في «تارنتوم Tarentum»

(تارانتو الحديثة). قابله الجيش الروماني عند «هيراكليا Heraclea» ليُلحِق به هزيمةً فادحة؛ ولأن خسائر بيروس كانت عظيمة مثلها مثل خسائر الرومان: كان أن ظهر مفهوم «الانتصار البيروسي»! على مدى السنوات الخمس التالية سيواصل الملك إثارةَ القلاقل وإن بنجاحٍ أقل، وفي آخر الأمر عاد إلى إبيروس في ٢٧٥ق.م. بعد أن فقد أكثرَ من نصف جيشه. وهكذا هَزمت روما، التي كانت لا تزال جمهورية مغمورة في وسط إيطاليا، ملكًا هلنستيًّا، وفي موكب النصر الذي سيطوف بالعاصمة سوف تظهر فيلة بيروس المأسورة، وهي المرة الأولى التي يظهر فيها هذا الحيوان (الفيل) في إيطاليا.[٢]

ولكن عدو روما الأقوى والألد لم يكن سوى «قرطاج Chartage»، التي كانت في الأصل مستوطنةً للفينيقيين Phoenicians تحتل جزءًا من الموقع الذي تشغَله مدينة تونس الحديثة. كان القرطاجيون دائمًا شوكةً في جنب الرومان على مدى أكثرَ من مائة عام (من ٢٦٤–١٤٦ق.م.)، كان الرومان خلالها مجبرين على خوض حربين منفصلتين هي «الحروب البونيقية Punic Wars»،[٣] قبل أن يتمكنوا من محوِ قرطاج من الوجود. هاتان الحربان هما اللتان ألقتا بـ «روما» في قلب المسرح المتوسطي بعد أن أصبح من الواضح أن قرطاج لا يمكن هزيمتها على البر فحسب، فجعلت الحربان من روما قوةً بحرية رئيسية. الحرب الأولى التي انتهت في ٢٤١ق.م. كان لها نتيجة واحدة سعيدة بالنسبة لروما؛ فقد ضمت الجزء الأكبر من صقلية، الذي سيكون اعتبارًا من ذلك الوقت بمثابة مخزن القمح الرئيسي لها. (بعد ثلاث سنوات سوف تتبعها كورسيكا وسردينيا). إلا أن روما كان لديها سببٌ أهمُّ للقلق طوال السنوات الثلاث والعشرين التي مرَّت قبل أن تبدأ الحرب الثانية؛ لأن قرطاج أثناء تلك الفترة كانت قد نجحت في إقامة إمبراطورية جديدة تمامًا — هذه المرة في إسبانيا.

كان الفينيقيون قد وصلوا إلى شبه جزيرة أيبيريا لأول مرة نحو عام ١١٠٠ق.م.، عندما أنشئوا مرفأ قادش. كانت في تلك الأيام جزيرة وكانت نموذجًا للمستعمرات الفينيقية بعدها، التي كانوا يقيمونها فيما بعدُ على الأجزاء الناتئة من الجبال أو الجزر البعيدة عن الشاطئ، وغالبًا عند مصبَّات الأنهار لكي يكونوا بعيدين عن أهالي تلك المناطق. من بين أولئك الأهالي كان الأيبيريون الأكثر تقدمًا، وهم شعبٌ غامض، لغتاه — مثل الإتروسكية — ليستا هندو-أوروبية، وعلى خلاف الإتروسكية ما زالت محيرة بالنسبة لنا. كان الأيبيريون يمارسون تجارةً نشطة مع الفينيقيين، ويبدو أنهم كانوا يعيشون معًا في مودة وسلام. بعد بضعة قرون كانت لهم حضارتهم الخاصة التي اشتهرت قبل كل شيء بتماثيلها التي

يوجد بعضها الآن في المتحف الأركيولوجي في مدريد. بعضها يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وهي من أجمل وأروع المنحوتات القديمة التي يمكن أن يراها المرء في أي مكان.

نحو عام ٢٣٧ق.م. انطلق «أملكار باركا Hamilkar Barca» جنرالُ قرطاج الأشهر (أو الأدميرال حيث يبدو أنه كان سيدًا على البر والبحر على السواء) نحو شبه جزيرة أيبيريا مصطحبًا ابنَه الصغير «هانيبال Hannibal» الذي كان في التاسعة من عمره آنذاك. وهنا على شبه الجزيرة، وفي غضون ثماني سنوات فحسب سوف يضع كلَّ البنى التحتية لدولةٍ مزدهرة مع جيش ضخم للدفاع عنها. بعد أن غرق بالمصادفة في ٢٢٩ق.م.، خلفه صهره «هاسدروبال Hasdrubal»، الذي أسَّس العاصمة الدائمة لإسبانيا القرطاجية التي يسميها الرومان «قرطاج الجديدة» ونسميها نحن «قرطاجنة Cartagena». هاسدروبال، بدوره، فعل الكثير لتطوير فن التعدين، ويقال إن منجمًا واحدًا هو منجم «بايبيلو Baebelo»، كان ينتج نحو ثلاثمائة رطل من الفضة يوميًّا. عندما اغتيل هاسدروبال في ٢٢١ق.م. بيد عبدٍ أيبيري، أخذ مكانه هانيبال الذي كان قد بلغ السادسة والعشرين.

أثبت هانيبال أنه أعظمُ قائد عسكري عرفه العالَم بعد الإسكندر، وربما كان بالفعل واحدًا من أعظم القادة في التاريخ. كان والده قد غرس فيه — كما هو متوقَّع — العِداء والحقد الشديدين على روما، فكان مصرًّا من لحظة اعتلائه العرشَ على الثأر لهزيمة بلاده قبل عشرين عامًا، كما كان واثقًا من أن الممتلكات الإسبانية الجديدة، بمصادرها الهائلة من الثروة المادية والبشرية، سوف تمكِّنه من تحقيق ذلك. انطلق من إسبانيا في ربيع ٢١٨ق.م. على رأس جيشٍ قوامه نحو أربعين ألف مقاتل، سالكين الطريقَ على امتداد الساحل الشمالي لفرنسا أعلى وادي «الرون Rhone»، ثم شرقًا إلى «بريانكون Briancon» والممر الضيِّق إلى «مونت-جينيفر Mont-Genèvre». كان معظم جنوده المشاة من الإسبان رغم أن ضبَّاطهم كانوا قرطاجنيين، أما جنود الخيالة فكانوا من إسبانيا وشمال أفريقيا، وكان معهم سبعة وثلاثون فيلًا. كان اجتيازه الشهير لجبال «الألب The Alps» في بدايات الخريف، وتبِعه معركتان انتصر فيهما. بنهاية العام كان يسيطر بالفعل على كل شمال إيطاليا. ثم بدأ الفشل بعد هذا الزَّخم. كان هانيبال يعوِّل على حدوثِ تمرُّد عام في المدن الإيطالية القلِقة بسبب نمو قوة روما، إلا أن أمله خاب. حتى الانتصار الثالث الذي حقَّقه في أبريل ٢١٧ق.م.، عندما استدرج الجيش الروماني إلى فخٍّ ممرٍّ ضيق بين بحيرة «تراسيمين Trasimene» والتلال المحيطة، حتى هذا الانتصار أثبت عدم جدواه. لم يكن زحفه على روما ذات الأسوار الدفاعية المنيعة مجديًا، ولم يكن

لديه عتادٌ يعوِّل عليه لمحاصرتها. قام، بدل ذلك، بالدوران عن طريق «أبوليا Apulia» و«كالابريا Calabria»؛ حيث كان ذلك العدد الكبير من الأهالي اليونانيين يكرهون الرومان؛ ولذا كان يعتقد أنهم سوف ينضمون إليه.

هذه المرة، أيضًا، كان مخطئًا. بدلًا من الحلفاء المتعاطفين الذين كان يمنِّي نفسَه بوجودهم، وجد نفسه مرةً أخرى في مواجهة جيشٍ روماني أكبرَ وأفضلَ تسليحًا وعتادًا من جيشه، قام بمطاردته في اتجاه الجنوب؛ وفي الثالث من أغسطس عام ٢١٦ق.م. كانت المعركة عند «كاناي Cannae»، (بجوار نهر «أوفانتو Ofanto» على بُعد نحو عشرة أميال جنوب شرق بارلتا Barletta الحديثة). كانت نتيجة المعركة انتصارًا هائلًا لـ «هانيبال»، لعله الأعظم في حياته، وهزيمةً ساحقة للرومان لعلها الأكثر فداحةً في تاريخهم كذلك. بفضل براعته في القيادة وجدت القوات الرومانية نفسها مطوَّقة من كل جانب، فتم تدميرها في مواقعها. بنهاية اليوم كان قد سقط منهم نحو خمسين ألف قتيل، أما خسائر هانيبال فكانت ٥٧٠٠ جندي.

كان هانيبال الآن قد دمَّر كل قوات روما المقاتلة ما عدا أولئك الذين كانوا داخل المدينة يدافعون عنها، إلا أنه لم يكن قريبًا من هدفه النهائي وهو تدمير الجمهورية. كانت قوات الخيَّالة، بعد أن نفقت كلُّ الأفيال بسبب البرد والرطوبة، تقف بلا حول ولا قوة أمام أسوار المدينة، إلا أنه كان ما زال مصرًّا على خطَّته، يحدوه الأمل في أن يجمع أخوه (هاسدروبال آخر) جيشًا ويَلحق به بعد تجهيزه بمعدات الحصار اللازمة؛ إلا أنه فوجئ في «كامبانيا Campania» (المقاطعة الإيطالية جنوبي روما ومركز نابولي) بوجود درجةٍ من التأييد الشعبي الذي كان مفتقدًا في شبه الجزيرة. زحف بجيشه عبر الجبال إلى «كابوا Capua» (التي كانت ثاني أكبر المدن الإيطالية آنذاك)؛ حيث أقام مركزَ قيادته واستقر منتظرًا.

طال انتظاره. كان لدى هاسدروبال مشاكله الخاصة. كان الرومان قد سارعوا، مستغلين غيابَ هانيبال، وقاموا في غضون شهرين باحتلال إسبانيا بقوةٍ مكوَّنة من فيلقين وخمسة عشر ألف مقاتل من القوات الحليفة بقيادة جنرالٍ شابٍّ يُدعى «جنايوس كورنيليوس شيبيو Gnaeus Cornelius Scipios»، الذي سرعان ما انضم إليه شقيقه «ببليوس Publius». كانت النتيجة الفورية لهذا الغزو صراعًا طويلًا بين القوات الرومانية والقوات القرطاجنية مع وجود أيبيريين محليين يحاربون مع كلا الطرفين. انتهى الأمر بوجودٍ روماني في شبه الجزيرة سوف يستمر أكثرَ من ستة قرون. بعد موت الأخوين

شيبيو في عام ٢١١ق.م.، حلَّ محلهما أحدُ أقربائهما كان اسمه — أيضًا — ببليوس الذي استولى على قرطاجنة بعد حصارٍ قصير. بعد الاستيلاء على عاصمتهم، فقدَ القرطاجنيون روحهم بسرعة، وبحلول العام ٢٧٦ق.م. كان آخرهم قد غادر شبه الجزيرة.

بينما كان هناك أملٌ في الانتصار على الرومان في إسبانيا، لم يكن لدى هاسدروبال فرصةٌ لتنظيم حملة دعم لأخيه. في عام ٢٠٦ق.م. فقط، عندما علم أن أخاه قد هُزم بدأ يفكر في ذلك، وعندما قاد جنوده بدوره عبر جنوب فرنسا وعبر جبال الألب كان يسير نحو كارثة: على نهر «ميتوارس Metaurus» بالقرب من أنكونا، واجه جيشًا رومانيًّا ولقي هزيمة ساحقة. لم يعرف هانيبال بهذه الأخبار إلا عندما وصل رأس شقيقه المقطوع إلى معسكره في «كابوا Capua». بقي في إيطاليا أربعة أعوام أخرى، وفي مكان آخر من المتوسط كان الشاب ببليوس كورنيليوس شيبيو يستعد للهجوم.

في عام ٢٠٤ق.م.، رسا ببليوس وجيشه على الساحل الشمالي الأفريقي بالقرب من أوتيكا التي تقع على مسافة أقل من عشرين ميلًا غربي قرطاج، حيث حشدوا عشرين ألف مقاتل من المحليين وأنشئوا موقعًا على خليج تونس كان يهدِّد المدينة نفسها. في ربيع ٢٠٣ق.م.، عاد هانيبال مسرعًا إلى قرطاج في حالة انزعاج شديد، ليقود في العام التالي جيشًا مكوَّنًا من سبعة وثلاثين ألف مقاتل وثمانين فيلًا، ضد الغزاة الرومان. التقى الجمعان أخيرًا بالقرب من قرية «زاما Zama»؛ حيث لقي هانيبال الهزيمة الكبرى الوحيدة في حياته بعد معركة طويلة طاحنة. كان في زاما، كما نعرف، أن اكتشف الرومان كيف يتعاملون مع سلاح القرطاجنيين التكتيكي المفضَّل ... الأفيال. في البداية يقومون بإطلاق نوبة مفاجئة من الأبواق العالية المزعجة تجعل راكبيها يفقدون السيطرة عليها، ثم يفتح الرومان صفوفهم لتنطلق الحيوانات بينها مذعورة. كان الانتصار الروماني تامًّا، وهكذا انتهت الحرب البونيقية الثانية. كانت إسبانيا هي جائزة روما على انتصارها. كل الإدارة العسكرية والمدينة القرطاجنية التي كان قد جرى إعدادها بعناية انهارت. كان الإخوة شيبيو حريصين على ذلك — والآن لم يكن أمام قرطاج سوى أن تتخلَّى عن شبه الجزيرة رسميًّا لغزاتها. هانيبال نفسه، الذي كان قد نجا من الموت بصعوبة في زاما، عاش حتى سنة ١٨٣ق.م.، عندما تجرَّع السمَّ لكيلا يقع في يد أعدائه الذين كان يكرههم بشدة؛ أما بالنسبة لشيبيو المنتصر، فقد كوفئ من مواطنيه بلقب «أفريكانوس Africanus» الذي كان يستحقه عن جدارة. كان هو الذي أكَّد، أكثرَ من سواه من بني وطنه، أن روما، وليست قرطاج، هي التي ستكون سيدةَ المتوسط في القرون التالية.

ولكن الحروب البونيقية كان لها آثارها المؤلمة. لقد أوصلت الإمبراطورية الرومانية أكثرَ من مرة إلى شفا الكارثة، وفقدت فيها أرواح ما يقرُب من مائتين أو ثلاثمائة ألف من أبنائها. بالرغم من ذلك كانت قرطاج ما زالت هناك رابضةً على الجانب الآخر من البحر بسكانها غير المسلَّحين يعملون بنشاط ودأب. كانت قرطاج تتعافى من هزيمتها الأخيرة بسرعة مخيفة؛ كانت تذكِرة لكل روماني وطني بالخزي وتمثل خطرًا دائمًا. لم يكن مسموحًا لها — بالقطع — أن تنجوَ من الكارثة. «لا بد من محو قرطاج من الوجود» Delenda est Carthago، كانت تلك عبارة «كاتو الكبير elder Cato»، التي ينهي بها كلَّ كلمة له أمام مجلس الشيوخ إلى أن أصبحت شعارًا، ولكن السؤال الآن كان: كيف يتم ذلك؟ وأخيرًا وجدوا مبررًا في ١٥١ق.م. عندما هبَّ القرطاجنيون للدفاع عن مدينتهم أمام عمليات السلب والنهب التي كان يقوم بها أحد الرؤساء المحليين. تعاملت روما مع ردِّ الفعل الطبيعي هذا باعتباره ذريعةً للحرب casus belli، وفي ١٤٩ق.م. أرسلت مرةً أخرى جيشَ غزو. هذه المرة سوف يستسلم القرطاجنيون، إلا أنهم سيعودون للمقاومة بعد أن روَّعتهم شروط روما: تدمير المدينة تمامًا وعدم السماح لسكانها بإعادة بناء منازلهم إلا على بُعد عشرة أميال من البحر. كانت النتيجة حصارًا رهيبًا استمرَّ قرابة العامين، وبعده (في ١٤٦ق.م.) حدث التدمير الذي هدَّدوا به. هكذا تحقَّق شعار كاتو وتم محو قرطاج من الوجود.

كان يمكن ألا يكون لمملكة «بونتس Pontus» (وهي دولة كانت تقع على الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود) مكانٌ في تاريخٍ يُكتب عن البحر الأبيض المتوسط. وبالفعل لم يكن لها مكان، لولا ملِكها الشاب «مترداتس السادس Mithridates VI» الذي كان الشوكة الرئيسية في جنب الإمبراطورية الرومانية على مدى خمس وعشرين سنة. بالرغم من أنه كان — هو ورعاياه — من أصولٍ فارسية، كان يتصور نفسه يونانيًّا ويفضِّل أن يبدوَ في هيئة بطل من أبطال «الهيلينية Hellinism» الملهمين لكل المدن اليونانية لكي تثور على حكامها الطغاة من اللاتين. في سنة ٨٨ق.م. قام بغزو الإقليم الروماني من آسيا،[٤] وأعدَّ لثورةٍ انتهت بمذبحةٍ راح فيها ثمانون ألفًا من الإيطاليين المقيمين؛ ثم متشجعًا بما حقَّقه من نجاح، عبَر بحر إيجه واحتل أثينا، وسقط عدد كبير من المدن في يده.

كان لا بد من أن تتحرَّك روما، واختار مجلس الشيوخ الروماني نبيلًا رومانيًّا في الخمسين من عمره يُدعى «لوكيوس كورنيليوس سولا Lucius Cornelius Sulla» قائدًا عامًّا لقوة الحملة. كان سولا صاحب سجلٍ عسكري رائع، وعلى معرفة وثيقة بآسيا. وهو

على وشْك الرسو على الشاطئ، قرَّر الجناح الديمقراطي في المجلس — ونجح في ذلك — أن يحلَّ محله جنرال عجوز متهالك كان قد خدم تحته من قبل، هو «جايوس ماريوس Gaius Marius». كان ذلك قرارًا كارثيًّا رفضه سولا رفضًا قاطعًا، فزحف بجيشه على روما حيث صفَّى أعداءه، وانطلق دون ضجة في اتجاه اليونان. هجم على أثينا ودمَّر ميناءها (ميناء بيرايوس Piraeus)، وحقَّق انتصارين حاسمين في ساحة القتال، ثم عقد في النهاية معاهدةَ سلام مع متريداتس، رغم أن شروطها كانت — في نظر الكثيرين — متساهلةً بدرجةٍ مدهشة. فعل سولا ذلك كلَّه دون إذنٍ من روما، وكان «الحزب الماري Marian Party» قد وصل إلى السلطة أثناء غيابه.

عاد سولا مسرعًا إلى العاصمة ليواجههم للمرة الثانية واتخذ دورَ الدكتاتور، فأصدر أوامره دون تردُّد بمذبحةٍ جماعية لنحو عشرة آلاف من خصومه السياسيين، بمن فيهم أربعون نائبًا في مجلس الشيوخ ونحو ألف وستمائة فارس. بعد ذلك أصدر سلسلةً من القوانين شديدة الرجعية أعادت عقاربَ الساعة إلى الوراء … نحو نصف قرن على الأقل! في آخر الأمر، بعد أن نجح في إتمام ذلك، تخلَّى عن السلطة وعاد إلى موطنه كامبانيا. هنا، سيعيش حياةَ فسق وفجور، ملقيًا الرعبَ في قلوب عبيده الكُثُر، الذين سيصدر حكمًا بإعدام واحد أو اثنين منهم من وقت لآخر، مع حرصٍ على مشاهدة التنفيذ بنفسه؛ وذات يوم من عام ٧٨ق.م. عندما كان يشاهد عملية إعدام خنقًا، أصيب بأزمة قلبية مفاجئة مات على إثْرها.

كانت السيطرة في السنوات الأربعين التالية لثلاثة من القادة العسكريين الذين سيتركون بصماتهم على الجمهورية الرومانية أكثرَ من سولا. الثلاثة هم «جنايوس بومبيوس (المعروف بـ «بومبي»)»، و«ماركوس ليكينيوس كراسوس Marcus Licinius Crassus»، و«جايوس جوليوس سيزر Gaius Julius Caesar». كان بومبي قد حقَّق انتصارات لصالح سولا — الذي كان متزوجًا من ابنة زوجته — في صقلية وشمال أفريقيا، ثم منحه بسببها امتياز موكب النصر.[٥] على خلاف معظم نبلاء الرومان في عصره، لم يكن بومبي شديد الاهتمام بالمال، كما كانت السياسة مضجرةً بالنسبة له. أكثر ما كان يستهويه هو السلطة والنفوذ. كان جنديًّا بمعنى الكلمة … جنديًّا شديد الطموح.

لم يكن كراسوس — ثاني العمالقة الثلاثة — مختلفًا بدرجة كبيرة. وُلد ثريًّا، وجعل نفسه أكثرَ ثراءً من خلال عمله في سوق العقارات الرومانية بمهارة شديدة … إن لم يكن باستخدام كل الوسائل غير المشروعة والمجردة من كل المبادئ الأخلاقية. كان — كذلك —

جنديًّا من الطراز الأول، عندما يريد. ولكن بينما كان بومبي يجد من الوسائل ما يرسِّخ من شهرته العسكرية ويسرع بها، كان كراسوس يحبِّذ البقاءَ في روما يتآمر من خلف الستار لتحقيق مآربه السياسية والمالية الخاصة. كان إنجازه العسكري الوحيد هو إخماده لثورة العبيد في ٧٣ق.م. بعد أن طارد قائدها «سبارتاكوس Spartacus» في البداية عبر كالابريا، ولحِق به في أبوليا حيث أعدمه فورًا، وصلب ستة آلاف من العبيد الثوار.

بومبي، الذي كان غائبا في إسبانيا — التي أسَّس فيها مدينة «بامبلونا Pamplona» وأعطاها اسمه — عاد في وقت عملية الصلب ليشارك فيها بحماسة، وحاول بالطبع أن تنسب إليه وأن يكون له الفضل فيها. غضب كراسوس بشدة كما كان متوقعًا. كلاهما كان وراءه جيشٌ جرار، وللحظةٍ كانت الجمهورية تبدو على شفا حرب أهلية، إلا أن المتنافِسَين نجحا في التوصل إلى تفاهم اللحظة الأخيرة: سيتقدم الاثنان لانتخابات القنصلية في عام ٧٠ق.م. الحقيقة أن كليهما لم يكن مؤهلًا للترشُّح؛ إذ لم يقُم أيهما بتسريح جيشه كما كان من المفترض، باعتبارهما متقدِّمين لانتخابات القنصلية. يضاف إلى ذلك أن بومبي — وكان ما يزال في السادسة والثلاثين — لم يكن — حتى — قد حصل على عضوية مجلس الشيوخ؛ ولكن المجلس لم يكن لديه الشجاعة للوقوف ضد رجلين مثلهما ... وتم انتخابهما. أمضيا عامهما في الحكم، يعملان بكل جهد — ودقة — على إبطال تشريعات سولا.

في السنوات التالية، بينما بقي كراسوس في روما مشغولًا — كان في شجار مستمر مع مجلس الشيوخ حول جمع الضرائب في آسيا — كان بومبي يزداد قوةً ونفوذًا يومًا بعد يوم؛ وفي عام ٦٨ق.م. استطاع بواسطة مائة وعشرين ألف مقاتل وخمسمائة سفينة أن يقضيَ تمامًا على القراصنة الذين طويلًا ما أزعجوا البحر الأبيض. لم يستغرق ذلك الأمر منه أكثرَ من ستة أيام، بعدها أصبح البحر آمنًا على مدى معظم سنوات الألفية التالية. ثم أرسل إلى الشرق حيث كان ملك بونتس قد عاد إلى حيَله القديمة. لسوء حظ بومبي، انتحر متراداس قبل نشوب المعركة، إلا أنه كانت هناك مهامٌّ أخرى ينبغي إنجازها في الأراضي الشرقية قبل أن يعود إلى البلاد. ودون أن يفكر في استشارة مجلس الشيوخ قام بضم بونتس وزحف بجيشه جنوبًا إلى سوريا وطرد آخر ملوك السلوقيين وجعل منها أيضًا إقليمًا تابعًا، وبذلك حصل لروما على مدينة أنطاكية العظيمة. وأخيرًا تقدَّم في اتجاه يهوذيا Judaea حيث استولى على أورشليم سامحًا لمِلكها بالبقاء على عرشه وكيلًا لروما. أنجز ذلك كلَّه في غضون أربع سنوات، ولن يكون من المبالغة أن نقول إنه غيَّر فيها وجه الشرق الأدنى على نحوٍ جذري، أكثرَ من أي وقت آخر، حتى مجيء الإسلام.

عاد بومبي إلى روما في ٦٢ق.م. ليُستقبل استقبالَ الأبطال الفاتحين. حصل على امتياز موكب النصر الثاني، وكان أكثر روعةً من الأول. كان الخوف يساور الكثيرَ من الرومان الذين كانوا يسترجعون عودةَ سولا قبل عشرين عامًا، ولكن القائد المنتصر قام بتسريح قوَّاته، ولم يطلب شيئًا سوى إقرار كلِّ ما فعله في الشرق والتصديق عليه، ومنحه هِبةً من الأرض يمكن أن يعيش عليها جنوده. كان المطلبان يبدوان معقولين. بالنسبة للمطلب الأول: إذا كان قد تصرَّف دون تفويض بذلك، إلا أن بطء وسائل الاتصال في تلك الأيام لم تترك بديلًا أمامه. كانت مكاسب روما هائلةً على أية حال، ولم يكن لدى الرومان أسبابٌ كثيرة للاعتراض.

ولكنهم فعلوا. كان كراسوس أحدَ كبار المعارضين لأعمال وتصرفات بومبي، وكان من الواضح أن ما يحرِّكه هو الحقد الشخصي على منافسه القديم. الآن كان أقوى رجلين في روما في خلاف وخصام مع الحكومة ... وكلاهما مع الآخر.

الآن يظهر على المسرح ثالث وأعظم المنتصرين الثلاثة. في عام ٦٢ق.م. كان جايوس جوليوس سيزر في الثامنة والثلاثين من عمره ومتزوجًا من «بومبيا Pompeia»[٦] حفيدة سولا (طلَّقها في العام التالي). كان معروفًا في روما كمثقَّف وخطيب مفوَّه في مجلس الشيوخ، يهوى إقامة الحفلات والولائم ويعيش حياةً متهتكة، ودائمًا ما يقع في الديون. كانت علاقاته الجنسية الماجنة (سواء مع الرجال أو النساء) لا تُعَد ولا تُحصى، إلا أنه بالرغم من ذلك انتُخب حَبرًا أعظم Pontifex Maximus رئيسًا لكهنوت الدولة الرومانية ... كان موهوبًا، صاحبَ شخصية آسرة، ولكن لا يُعتمد عليه. عاد من إسبانيا في عام ٦٠ق.م.؛ حيث كان حاكمًا عليها؛ وبعد أن حقَّق بعض الانتصارات ضئيلة الأهمية، وعدُوه بموكب نصر، ولكن ظهرت مشكلة. كان مصرًّا على أن يحصل على القنصلية، ولكي يعلن ترشُّحه كان لا بد من أن يظهر في روما قبل ترتيب موكب النصر بوقتٍ طويل، وهو ما يجعله يفقد حقَّه فيه. حاول أن يحل المشكلة بأن طلب بشكل رسمي أن يتم إعلان ترشُّحه بالوكالة؛ وعندما رُفض طلبه لم يتردَّد طويلًا. أُلغيت فكرة موكب النصر. جاء من فوره إلى روما. كانت السلطة والنفوذ أهمَّ عنده من المجد. الآن، كانت هناك عقبةٌ أخرى، كانت العادة قد جرَت منذ أيام روما القديمة على تخصيص مقاطعات للقناصل المحتملين حتى من قبلِ أن يشغلوا المنصب، لكي يحكموها بعد انتهاء فترتهم في القنصلية؛ ولأن مجلس الشيوخ كان يعلم أنه لن يستطيع أن يمنع انتخابَ سيزر، صمَّم أن يُحَجِّمه على

الأقل، فلم يخصِّص له مقاطعات مهمة، وإنما بعض الغابات والمراعي الإيطالية. كان ذلك بالتأكيد زجرًا واضحًا له، أو هكذا فهمها.

كان مجلس الشيوخ الآن قد نجح في استعداء أقوى رجال روما، وحيث إن سيزر كان قد بقي على وفاق ممتاز مع كلٍّ من بومبي وكراسوس، لم يكن مفاجئًا أن يتقدَّم للرجلين باقتراحِ تحالف بينهم. في مقابل دعمهما سيعطي كليهما كلَّ ما يريد ما دام لم يعترض، وبشرط أن يحجما كذلك عن النزاع معًا، وكان سيزر عند كلمته. صِنوه القنصل المدعو ببليوس Bibulus (وكان شخصية تافهة مثيرة للسخرية) انسحب إلى منزله «يستطلع السماء»، ولكن سيزر تجاهله. كافأ محاربي بومبي بالأرض التي طلبوها، وأكَّد التصديقَ على الإنجازات التي حقَّقها في الشرق، وكان سعيدًا عندما طلب بومبي يد ابنته جوليا Julia، وكان قد طلَّق زوجته الأولى. كما تمَّت تسوية مسألة جمع الضرائب، وكان ذلك أمرًا مهمًّا بالنسبة لـ «كراسوس». في الوقت نفسه، وبمساعدة حلفائه الجدد خصَّص سيزر لنفسه مقاطعتين «حقيقيتين» لكي يكون حاكمًا عليهما بعد انتهاء فترة قنصليته: هما «سيسالباين جول Cisalpine Gaul»[٧] (في شمال إيطاليا) و«إيليركم Illyricum» (دالماتيا)؛ وعندما وصلت الأخبار عن الموت المفاجئ لحاكم ترانسلباين جول Transalpine Gaul،[٨] التي كانت تغطي معظم فرنسا الحديثة، كانت فرصة أخرى قد لاحت له، فانتهزها كذلك.

بعد انتهاء فترة قنصليته، سيغادر سيزر فورًا إلى الغال حيث سيبقى ثماني سنوات، وعندما يعود إلى روما سيكون قد غزا الدولة كلَّها. يقدِّر «بلوتارك Plutarch» عدد مَن قُتلوا من الغال The Gauls بمليون نسمة، كما تم استعباد مليونين آخرين. كان الأكثر أهمية بالنسبة لـ «سيزر» هو أنه حقَّق شهرةً عسكرية كبيرة طمست شهرةَ بومبي، ليبرُز هو كواحد من أعظم قادة العصر. كان لذهنه سرعة البرق، ويستطيع أن يتأقلم فورًا مع الموقف المتغيِّر، كما كانت حساباته وتقديراته للوقت سليمة دائمًا. جسديًّا، كان لديه طاقة استثنائية وقوة تحمُّل هائلة، يستطيع أن يقطع مئات الأميال في عربةٍ خفيفة في يوم واحد، رغم وعورة الطرق وسوء الأحوال الجوية.

بعد عودته إلى روما، كانت سلطات كراسوس وبومبي تزداد ضعفًا بالرغم من أنهما كانا ما زالا مسئولين، وذلك بسبب مكائد ودسائس ببليوس كلوديوس بلشر Publius Clodius Pulcher، الذي كان قد تسلَّل إلى حفل طقوس بونا ديا كما أسلفنا (انظر الهامش رقم ٦ في آخر الفصل). كان كلوديوس قد كشف عن نفسه كديماجوجي راديكالي

شديد الخطورة، كما كانت أنشطته تمثِّل خطرًا على الدولة. مصرين على الاحتفال بهم وتكريمهم كمنتصرين، التقى القادة الثلاثة في لوكا Lucca في سنة ٥٦ق.م.، المدينة الواقعة داخل منطقةِ ما وراء الألب، كان سيزر على علمٍ بأن بعض المخالفات التي حدثت أثناء فترة قنصليته قد تجعله عرضةً للمحاكمة إذا وضع قدمه على الأرض الرومانية. وهكذا وجدوا أن تقسيم العالم الروماني إلى مناطق نفوذ ثلاث — الشرقية لـ «كراسوس»، والوسطى لـ «سيزر»، والغربية لـ «بومبي» — سيكون من الأفضل بالنسبة لهم لكي يحقِّقوا طموحاتهم. سوف يتقدَّم بومبي وكراسوس للقنصلية، للمرة الثانية، في العام التالي؛ بعد ذلك سوف يقوم كراسوس (الذي كان قد بدأ يساوره الشعور بأن الاثنين الآخرين كانا يضعانه في الظل، ويريد أن يثبت قدراته في ميدان القتال) بحملة وراء الفرات ضد الإمبراطورية «البارتية Parthian Empire»[٩] التي كانت الدولة الوحيدة المتماسكة، في أي مكان في العالم، يمكن أن تواجه روما. بومبي سوف يضطلع بمسئولية إسبانيا لمدة خمس سنوات، معظمها من خلال معاونين تابعين، لكي يظل هو في روما كأحد أصحاب الكلمة العليا في الإدارة. أما بالنسبة لـ «سيزر» فسوف يمتد حكمه على الغال لمدة خمس سنوات أخرى، حتى يتسنَّى له أن يوسِّع ويدعم فتوحاته.[١٠]

إلا أن توترات الشراكة التي قامت بينهم وما خلَّفته من ضغوط كانت قد بدأت تتزايد. في ٥٤ق.م. ماتت جوليا وهي تلد، وكانت قد بذلت كلَّ جهدها للإبقاء على أبيها وأمِّها معًا. بموتها افترقا. بعد ذلك سيلقى جيش كراسوس هزيمةً ساحقة في الشرق على أيدي البارتيين رماةِ السهام، عند كارهاي Carrhe (حران الحديثة جنوب شرق تركيا). من بين الستة آلاف مقاتل، لقي خمسة آلاف وخمسمائة حتفَهم، وعندما ذهب كراسوس للتفاوض … قتلوه. بقي بومبي وسيزر وحيدين. شيئًا فشيئًا كان كلاهما يدرك أن روما لم تكن كبيرة بما يكفي لأيهما؛ وعندما رفض بومبي عرْضَ سيزر بزواجٍ آخرَ بين الأسرتين، واتخذ لنفسه زوجةً ثالثة هي ابنة «ميتيليوس شيبيو Metellus Scipio» عدوِّ سيزر الذي جعله قنصلًا، كان واضحًا أن الدُّمل امتلأ بالصديد، وأن الأزمة كانت في اتجاهها إلى الذروة. بالإضافة إلى ذلك كان لدى بومبي ميزةٌ أخرى مرجحة؛ وجوده في روما.

ولكن روما كانت تنحدر سريعًا نحو الفوضى؛ وبالرغم من أن بومبي كان يتمتَّع بسلطات أكبرَ من أي شخص آخر، كان له أعداء كثيرون يشغَلون مواقعَ مهمة مثل سيزر، وتدريجيًّا كان يصبح أقلَّ قدرةً على السيطرة على أتباع كلوديوس المناوئين، وعلى خَصمه

الرئيسي «ميلو Milo» الذي قسم الشارع بينهما. في ٥٢ق.م. قُتل كلوديوس وأصبح بومبي قنصلًا وحيدًا، مع صلاحيات طوارئ خاصة تمكِّنه من إعادة النظام للمدينة، وبعد عامين كانوا يتناقلون في مجلس الشيوخ آراءً حول ضرورة إعفاء سيزر من القيادة. إلا أن هذا التحرُّك توقَّف فورًا بواسطة مُدافع شاب عن الحقوق العامة يُدعى «كيوريو Curio»، كان من أشدِّ مؤيدي سيزر، ومع ذلك بقي الطريق مسدودًا والموقف مجمدًا. بعدها اقترح كيوريو أن يتقدَّم سيزر وبومبي بالاستقالة من منصبيهما، وعندما تم رفض هذا الاقتراح أيضًا، دعا أحد القناصل بومبي لتولي قيادة كلِّ قوات الجمهورية، بما يعني أن يكون له سلطات دكتاتورية. قبِل بومبي الدعوةَ بشرط — وضعه هو — وهو ألا يكون هناك بحثٌ عن أسلوبٍ أفضل، وتولَّى على الفور قيادةَ فيلقين تصادف أن كانا في العاصمة.

هُرع كيوريو من فوره بالأخبار إلى مقر قيادة سيزر في «رافينا Ravenna»، ثم عاد إلى روما مكملًا رحلةَ المائة والأربعين ميلًا في ثلاثة أيام، حاملًا معه رسالةً من سيزر كتب فيها، بالتفصيل، الخدمات التي قدَّمها للدولة، مصرًّا على أنه إذا كان لا بد من أن يتخلَّى عن القيادة فلا بد، كذلك، من أن يفعل بومبي الشيء نفسه. مجلس الشيوخ، الذي رفض مجردَ قراءة الرسالة، دعم اقتراحًا من ميتيليوس شيبيو «Metellus Scipio» (هو الآن حمو بومبي)، مُفاده إما أن يستقيل سيزر وحده، وإما أن يُعلن عدوًّا عامًّا. هكذا قُضي الأمر كما أعلن سيزر نفسه؛ ففي ليلة العاشر من يناير ٤٩ق.م. قام هو والفيلق الوحيد الذي كان قد أخذه معه بعبور نهر «رابيكون Rubicon» الصغير الذي كان يمثِّل الحد الجنوبي الشرقي للجزء المتاخم للألب من الغال، وبهذا الفعل يكون قد خرق القانون الروماني عمدًا؛ حيث كان يُحظر على أي حاكم أن يقود جيشًا خارج إقليمه، وإلا اتُّهم بالخيانة. من الآن فصاعدًا سيكون اختبار قوة ... وستكون حربٌ أهلية.

ستكون هذه الحرب على عدة جبهات. في إيطاليا كان سيزر يواجه معارضةً هينة، كانت المدن تفتح له أبوابَها واحدةً تلو الأخرى دون مقاومة؛ إذ إن قوَّاته التي كانت قد خبرت المعارك كانت أكبرَ من ندٍّ لأي قوة يمكن أن تقف ضدها. بعد شهرين فقط من عبور نهر رابيكون فرَّ قنصلان إلى دالماتيا حيث لحِق بهما بومبي نفسه بعد وقت قصير. لم يقُم سيزر بمطاردتهم حيث كانوا في حماية الأدرياتيكي، فانطلق برًّا إلى إسبانيا، المنطقةِ الرئيسية لقوة بومبي في الغرب. توقَّف في طريقه لفترة قصيرة عند مدينة «ماسيليا Massilia» الحرة (مرسيليا Marseille) وعندما وجد أهلها موالين لـ «بومبي» وضعها

تحت الحصار، ثم عبَر «البرانس Pyrenees» بجيشٍ قوامه نحو أربعين ألف مقاتل. كان في مواجهته ما لا يقل عن سبعين ألفًا تحت قيادة ثلاثة من جنرالات بومبي، ولكنه تغلَّب عليهم دون مشقة بفضل قدرته على المناورة، وعندما وجدوا أنفسهم مطوَّقين من كل جانب استسلموا دون مزيد من المقاومة؛ وعندما عاد إلى ماسيليا كانت المدينة قد استسلمت هي الأخرى، وهكذا بات مستعدًّا للجولة الأخيرة من الصراع.

مع تشتُّت شملِ أعدائه، لم يكن لدى سيزر صعوبةٌ في أن يتم انتخابه قنصلًا مرةً أخرى في ٤٨ق.م. بعد ذلك راح يطارد بومبي الذي كان قد وصل آنذاك إلى اليونان. فشلت محاولتُه لحصار قاعدة بومبي الرئيسية ورأس الجسر عند «ديراكيوم Dyrrachium» (الآن ديورس Durres في ألبانيا)، إلا أن الجيشين تقابلا مرةً أخرى على بُعد مائتي ميل في اتجاه الشمال الغربي، على الهضبة شديدة الحرارة والرطوبة في «فارسالوس Pharsalus» في «تيسالي Thessaly». كانت المواجهة في التاسع من أغسطس من عام ٤٨ق.م. هنا سيحقِّق سيزر، الذي كان يعاونه القائد الشاب «مارك أنتوني Mark Antony»، انتصارًا سهلًا. كان بومبي، كما عرفنا، من أوائل مَن انسحبوا. هرب إلى الساحل، ومن هناك إلى مصر حيث زوَّدها ملكُها الصبي ونصيره القوي «بطليموس الثالث عشر Ptolemy XIII» بسفنٍ ومؤن. إلا أن بطليموس كان يريد أن يكون إلى جانب المنتصِر، وعندما وصل سيزر إلى الإسكندرية في مطاردةٍ محمومة لعدوِّه، وجد أن بومبي كان قد تم اغتياله.

من ناحية أخرى، لم تكن رحلة سيزر بلا جدوى. كان بطليموس قد نفى كليوباتره (٢١ سنة) أختَه غير الشقيقة وزوجه وشريكته في الحكم، وكان لا بد من تحكيمٍ عاجل بينهما. أخذ الأمر شكلًا غير معتاد في مثل تلك الظروف؛ عادت كليوباتره إلى مصر سرًّا لكي تدافع عن قضيتها حيث أغواها سيزر — كان ما زال في الثانية والخمسين من العمر — وأخذها إلى قصره خليلةً له. بطليموس مغضبًا، حاصر القصرَ إلا أن قوةً رومانية جاءت مسرعة لتهزم المصريين في مارس ٤٧ق.م. هرب بطليموس وغرق في النيل — كان جزاءً وفاقًا — وقام سيزر بتثبيت كليوباتره على العرش مع أخيها الأصغر بطليموس الرابع عشر حاكمًا مشاركًا، وأصبحت مصر دولةً تابعة لروما. كان لدى سيزر نفسه مهمةٌ أبعد قبل أن يعود إلى العاصمة وهي تأديب «فارناسس Pharnaces» ابنِ مترداتس صانع المتاعب القديم، الذي كانت كل الدلائل تشير إلى أنه كان يسير على خطى أبيه. انطلق سيزر بسبعة فيالق شمالًا عبر سوريا والأناضول إلا أن الحملة كانت على شفا كارثة تقريبًا؛ ففي الثاني من أغسطس وعندما كان الجيش الروماني يقيم معسكره عند

زيلا Zela (زيل Zeil الحديثة في وسط الأناضول) — هاجم فارناسس فيالقَ سيزر على حين غِرة، ولم ينقذهم سوى انضباطهم وما كان لديهم من خبرة. آنذاك، كما يخبرنا بلوتارك — كان أن نقل سيزر أخبار انتصاره لروما بالكلمات التي أصبحت معروفة لكل تلميذ إنجليزي: «جئت ... رأيت ... غزوت Vici وVidi وVeni».[١١]

مات بومبي وبقي ابناه دون هزيمة، وكانت هناك حملتان أخريان — الأولى في شمال أفريقيا، والثانية في إسبانيا قبل أن تصل الحرب الأهلية إلى نهايتها. كان سيزر الآن، وكما هو الحال دائمًا يواجه مشكلة، وهي أن يجد أرضًا يقيم عليها الفيالق التي خدَمته وحاربت معه ببسالة. أقام عدة مستوطنات في إيطاليا — حيث لم تكن هناك أراضٍ كافية في شبه الجزيرة لإيواء كل رجاله — وأقام نحو أربعين مستوطنة أخرى فيما وراء البحار، كان من بينها كورنتة Corinth وقرطاج. وحيث إن تلك المستوطنات لم تكن من أجل المحاربين القدامى وحدهم، فقد أرسل إليها نحو ثمانين ألفًا من الرومان العاطلين للحاق بهم. هكذا وُضعت بذور الرومنة Romanisation بعيدة المدى لساحل المتوسط، الذي ما زال يحمل الكثيرَ من الملامح الرومانية إلى اليوم.

الآن، كان جوليوس سيزر،[١٢] قد أصبح الأسمى والأعلى منزلة. ملأ مجلس الشيوخ بتسعمائة من أتباعه لكي يؤيدوه ويدعموه، كان معظمهم مدينًا له بخدمات وأفضال وكلهم محل ثقته. في الوقت نفسه كانت ظاهرة «عبادة الشخصية Cult of Personality» تنمو لأول مرة في روما من حوله.

انتشرت تماثيله النصفية في كل مكان في إيطاليا وخارجها، ظهرت صورته على العملة، ولم يكن أحدٌ قد سمع بشيء مثل ذلك من قبل. ولكن لا شيء من ذلك أضاف إلى شعبيته. بكل السلطات التي كان يجمعها في يديه كان الطريق مغلقًا أمام السياسيين الشبان الطموحين الذين كان رفضهم لصلفه يتزايد، وكذلك بسبب تقلباته وثروته الطائلة. كانوا رافضين لغيابه الطويل في الحملات التي كانوا يعتبرونها غيرَ ضرورية وغير مسئولة. كان فوق ذلك كله في السادسة والخمسين من العمر، ومعروف أنه مصاب بالصرع، وكان ينبغي أن يترك المستقبل لجنرالاته. الحقيقة أن سيزر كان يكره العاصمة بما فيها من مؤامرات ودسائس، ولم يكن يشعر بالسعادة إلا في حملاته وبين جنوده، الذين كانوا يحبونه لدرجة العبادة ويمنحونه كلَّ الولاء والوفاء؛ وربما كان ذلك، أكثر مما هو لأي سبب آخر، أنه في أوائل سنة ٤٤ق.م. كان قد أعلن عن حملة جديدة في الشرق لينتقم لموت كراسوس ويلقِّن البارتيين درسًا. سيقود هذه الحملة بنفسه، وسينطلق في الثامن عشر من مارس.

بالنسبة للنبلاء، كان أمرًا سيئًا أن يحكمهم دكتاتور، أما احتمال أن يتركهم تحت حكم معاونيه وسكرتاريته لعامين قادمين أو يزيد، فكان أمرًا بالغَ السوء ولا يمكن تحمُّله. هكذا راحت المؤامرات الكبرى تتشكل. بدأها «جايوس كاسيوس لونجينيوس Gaius Cassius Longinus» الذي قد دعم بومبي حتى فارسالوس وصفح عنه سيزر فيما بعد. كان مع كاسيوس زوج شقيقته «ماركوس بروتس Marcus Brutus». كان بروتس صنيعةَ سيزر الذي عيَّنه حاكمًا على سيسالباين جول، ولكنه لم يكن يستطيع أن ينسى قط تحدُّره المظنون من البطل القديم «جونيوس بروتس Junius Brutus»، الذي كان قد طرد الملك الإتروسكي «تاركين» من روما (تأثرًا لاغتصاب «لوكريشيا كولاتينا Lucretia Collatina» وانتحارها فيما بعد)؛ ولذلك كان يُعتبر مهندس الحرية الجمهورية. عندما اختير سيزر في فبراير ٤٤ق.م. حاكمًا أبديًّا مطلقًا dictator in perpetuo، يبدو أن بروتس شعر بأن الوقت كان قد حان للقيام بتوجيه ضربة أخرى لنفس السبب. جمع مع كاسيوس نحو ستين متواطئًا، وفي الخامس عشر من مارس كانوا مستعدين.

في ذلك اليوم، قبل ثلاثة أيام من الموعد المحدَّد لانطلاقه شرقًا، ذهب سيزر لحضور اجتماع لمجلس الشيوخ في القاعة الكبرى المجاورة لمسرح بومبي، فدسَّ يوناني (كان من العاملين في قصر بروتس من قبل) في يده مذكرةَ تحذير عندما اقترب، ولكن سيزر لم يشغَل نفسه بقراءتها ومضى في سبيله. كان المتآمرون قد رتَّبوا أن يشغل أحدهم نائبه الرئيس مارك أنتوني بحديثٍ جانبي، لم يكن مواليًا تمامًا لصديقه فحسب، وإنما كان يتمتَّع بقوة بدنية هائلة كذلك. كانوا قد رتَّبوا أيضًا أن يكون بالقرب منهم جماعةٌ من المجالدين الجاهزين للتدخل في حال نشوب قتال، إلا أن هذا الإجراء الاحترازي لم يكن ضروريًّا. يبدو أن بيلوس كاسكا كان أول مَن قام بالهجوم فطعن الدكتاتور بخنجره في حلقه، وفي لحظاتٍ كان المتآمرون يحيطون بـ «سيزر» يطعنه كلٌّ منهم بجنون في كل مكان من جسده، بينما كان يحاول الدفاع عن نفسه قدْر استطاعته دون جدوى، فسقط وهو يغطي رأسه الدامي على القاعدة المربعة لتمثال بومبي.

عندما رأوه ميتًا تملَّك الرعبُ المفاجئ الجميعَ ففروا من المبنى تاركين الجثةَ ملقاة في مكانها. مرَّ وقت قصير قبل أن يأتيَ ثلاثة من العبيد بنقالة حملوه عليها إلى بيته — يقال إن إحدى ذراعيه كانت تُجرجر على الأرض؛ وعندما فحصه الأطباء وجدوا ثلاثة وعشرين جُرحًا في جسده، كان واحدًا منها فقط هو الذي أودى به.

في الثالث عشر من سبتمبر عام ٤٥ق.م.، أي قبل موته بستة أشهر فحسب، كان جوليوس سيزر قد قام بتبنِّي «جايوس أوكتافيوس Gaius Octavius» حفيدِ أخيه كابنٍ له؛ وبالرغم من أن أوكتافيان (كما كان يُعرف بشكل عام في سنواته قبل الملكية) كان ما زال في التاسعة عشرة، كانت تجري تهيئته للنجومية منذ فترة. عندما كان في السادسة عشرة عُين حَبرًا أعظم، كما أنه كان قد حارب ببراعة إلى جانب سيزر في إسبانيا. وهكذا كان متوقعًا أن يتسلَّم السلطة بعد مصرع عمِّه الكبير، ولكن مارك أنتوني، قائد حرس سيزر لم يضيِّع الوقت فتحرَّك بسرعة — لم يتردَّد في تزييف بعض أوراق سيده المقتول — فأمسك بزمام الأمور في الدولة وسيطر عليها. إلا أن أوكتافيان لم يسكت، وتمكَّن بفضل تأييد ومناصرة «شيشرون Cicero» أن يحصل على أغلبيةٍ في مجلس الشيوخ. (كان شيشرون واحدًا من أعظم الخطباء في التاريخ، وكان يكره الطغاةَ بشكل عام، وأنتوني بخاصة، وألقى عددًا من الخطب المدهشة ضده).

وهكذا مرة أخرى، كانت روما مستقطَبة وعلى شفا حفرةٍ من حرب أهلية، بل إن معركة صغيرة نشبت بالفعل بالقرب من «مودينا Modena» انتهت بانتصار أوكتافيان. ولكن بحلول شهر نوفمبر ٤٣ق.م.، كان الاثنان قد توصَّلا إلى تسويةٍ صعبة مع «ماركوس إميليوس ليبيدوس Marcus Aemilius Lepidus» — أحد جنرالات سيزر الآخرين — وشكَّلوا من ثلاثتهم حكومةً رسمية لمدة خمس سنوات تكون مهمتها مساعدة الحكومة لتقف على قدميها. على رأس الأولويات، كان تعقُّب الرجلين المسئولين عن مصرع سيزر. كان بروتس وكاسيوس قد فرَّا مع الموالين لهما من جنودهما عبر الأدرياتيكي تاركين روما في عهدة ليبيدوس. قام أوكتافيان وأنتوني بمطاردتهم حتى فيليبي في مقدونيا، وفي معركتين متتاليتين، بينهما ثلاثة أسابيع، لحِقت الهزيمة بالجيش المتمرد وقُتل قائداه؛ وباتفاق متبادل تم إبعاد ليبيدوس إلى موقعٍ ثانوي. الآن سيُقسِّم القائدان المنتصران العالَم الروماني بينهما. النصف الشرقي لـ «أنتوني»، والغربي لـ «أوكتافيان».

لعل أشهرَ ما تُعرف به اليوم مدينة «طرسوس Tarsus» الصغيرة في «كيليكيا Cilicia»، هو أنها كانت مسقطَ رأس «سان بول St Paul»، إلا أنها قبل نحو أربعين عامًا من مولده كانت مسرحَ حدثٍ آخر ما زال أثرُه على العالم كما نعرفه اليوم. في وقتٍ ما من صيف عام ٤١ق.م.، كان أن رأى مارك أنتوني الملكة كليوباتره السابعة لأول مرة في طرسوس. قبل ست سنوات كان جوليوس سيزر قد مكَّنها من عرش مصر مع بطليموس الرابع عشر الرجلِ الذي كان أخاها وابن أخيها، وحسب ذلك التقليد الغريب للبطالمة

أصبح كذلك زوجًا لها. حتى هذه العلاقة الثلاثية فشلت في أن تقرِّبها منه فقتلته في عام ٤٤ق.م. كانت كليوباتره الآن تحكم منفردةً، ولكنها كانت في حاجة إلى حامٍ روماني، وكانت قد جاءت إلى طرسوس وهي تعرف أنها ستجد بُغيتها هناك.

بالرغم من شهادة شيكسبير وإشارة «باسكال Pascal» إلى أنفها الذي لو كان أطولَ قليلًا فلربما كان تاريخ العالم كله قد تغيَّر، يبدو أن كليوباتره كانت جذابة أكثرَ منها جميلة بالمفهوم الكلاسيكي. ولكن ذلك لم يمنعها من إغواء مارك أنتوني وإيقاعه في حبائلها كما حدث مع سيزر نفسِه من قبل، لدرجةِ أنها أقنعته بتدبير قتلِ أختها «أرسيون Arsionë»، التي لم تصفح عنها قط؛ لأنها كانت قد أقامت حكمًا مناوئًا في الإسكندرية (كانت أرسيون آخرَ أخواتها الخمس اللائي متن ميتةً عنيفة، اثنتان منهن على الأقل اختفتا بإيعازٍ من كليوباتره). كان أنتوني سعيدًا بأن يوافق، وكمكافأة له دعته لقضاء الشتاء في الإسكندرية. كانت النتيجة توءمًا. بعد ذلك لم يرَ الاثنان أحدهما الآخرَ لمدة ثلاث سنوات، ولكن أنتوني دعاها في سنة ٣٧ق.م. لتلحق به في أنطاكية عاصمته الشرقية، وكانت علاقة دائمة نتج عنها ابنٌ آخر في العام التالي.

كانت العلاقة بينهما أشبهَ بأغنية رعوية تقطعها حملات أنتوني وكأنها علامات الترقيم في نص أدبي … ولم تستمر. في روما، استشاط أوكتافيان — زميله في الحكومة الثلاثية — غضبًا لتصرُّف صهره (كان أنتوني قد تزوَّج من شقيقته أوكتافيا حديثًا)، وأغضبه أكثرَ قوةُ ونفوذ كليوباتره عليه، وفي سنة ٣٢ق.م. أعلن أخوها الحربَ — رسميًّا — على مصر. في الثاني من سبتمبر ٣١ق.م. تقابل الأسطولان المتنافسان عند «أكتيوم Actium» بالقرب من الحافة الشمالية لجزيرة «لوكاس Leucas»، ليحقِّق أوكتافيان انتصارًا حاسمًا ويطارد الثنائي المهزوم وهما مرتدَّان إلى الإسكندرية. مرَّت سنة تقريبًا قبل أن ينتهيَ الفصل الأخير في هذه الدراما. لم يدخل أوكتافيان المدينةَ حتى الأول من أغسطس ٣٠ق.م. حيث أصدر أوامره بضرورة أن تكون مصر في المستقبل إقليمًا رومانيًّا، وأن تظل تحت حكمه الشخصي مباشرة. أما كليوباتره فحبست نفسها في ضريحها الخاص وأذاعت أنها انتحرت، وعندما سمِع أنتوني بالخبر حاول الانتحار هو الآخر، إلا أنه عرف بعد ذلك أن الأخبار لم تكن صحيحة. حملوه إليها، وكان للاثنين حوارٌ أخير — كما يقول بلوتارك — ثم مات.

ليس معروفًا على وجه الدقة كيف ماتت كليوباتره. المؤكَّد أنها انتحرت بالسُّم … ولكن كيف كان ذلك؟ بلوتارك يروي قصة الأفعى مثلما كتب شيكسبير، إلا أنه يضيف أن

«لا أحد يعرف الحقيقة الأكيدة ...» بالرغم من ذلك فإن الجدال حول لدغة الحية كبير. كانت الكوبرا المصرية — رمز آمون رع الإله الشمس — كانت رمزًا ملكيًّا منذ الفراعنة الأوائل الذين كانوا يضعون رسمها إكليلًا على تيجانهم، ولم يكن أحدٌ يتصور أسلوبًا أكثرَ فخامةً يليق بالملوك أكثرَ من ذلك. إلا أن رواية «سيوتونيوس Suetonius» تظل أكثرَ إقناعًا من كل ذلك. يقول إن أوكتافيان أذاع فيما بعدُ أنه بعد علمِه بانتحار كليوباتره استدعى سحرة الثعابين وأمرهم بأن يمتصوا السُّم من الجُرح؛ ولكن إذا افترضنا أنهم جاءوا بالفعل فلا بد من أنهم كانوا قد جاءوا متأخرين جدًّا.

هوامش

(١) كان الإتروسك، بحسب رواية هيرودوتس، قد جاءوا إلى إيطاليا من ليديا في آسيا الصغرى نحو أواخر القرن التاسع ق.م. تم فك شفرة لغتهم (التي لم تكن حتى هندو-أوروبية) حديثًا، ولكن الوثائق الإتروسكية القليلة لا تعطينا سوى معلومات قليلة؛ أما الأدلة الأكثر حيوية فتقدِّمها لنا أعمالهم الفنية الباقية ومنحوتاتهم (وبخاصة تلك الموجودة على المقابر) ورسومهم ومجوهراتهم. المؤكَّد أنهم كانوا، من الناحية الفنية، أكثرَ موهبةً من الرومان الذين طردوهم.

(٢) هذه الأفيال، ومن بعدها أفيالُ هانيبال كانت أفريقية تقريبًا، ويقال إن الأفيال الأفريقية — على خلاف الهندية — غير قابلة للترويض. هل كان بيروس وهانيبال يعرفان شيئًا لا نعرفه؟!

(٣) punic، مشتقة من كلمة poeni اللاتينية، التي لها نفس الجذر مثل Phoenician.

(٤) كانت روما قد ورِثت هذه المنطقة من آسيا الصغرى في ١٣٣ق.م. من الملك أتالوس Attalus III ملكِ برجامم.

(٥) كان امتياز موكب النصر (Triumph) التكريمي عبارة عن موكبٍ رسمي للقائد الروماني المنتصر إلى مقبرة جوبيتر في الكابيتول، وكان يتم بناءً على تصويت خاصٍّ من الشعب وتوصية مجلس الشيوخ. كان القائد المنتصر (Triumphator) يحضُر على عربة حربية تجرُّها أربعة خيول وخلفه مجموعةٌ من أسرى الأعداء (ربما الذين سيتم إعدامهم) وأسرى الرومان المحرَّرين والغنائم الرئيسية التي تم الاستيلاء عليها وجنود الجيش ... وفي آخر الموكب كانت تسير الحيوانات التي سيتم ذبحها كأضحيات.

(٦) كانت بومبيا هي المسئولة عن طقوس «بونا ديا Bona Dea» كانت هذه الإلهة تُعبد في طقس ديني سنوي يتم ليلًا يُحظر فيه حضور الرجال. في ديسمبر ٦٢ق.م. تسلل شخصٌ يُدعى «ببليوس كلوديوس بلشر Publius Clodius Pulcher»، متنكرًا كامرأة لكي يكون مع بومبيا في غياب زوجها كما قيل. سيزر الذي كان يحب كلوديوس، أعلن براءة كليهما إلا أنه طلَّق بومبيا باعتبارها «ليست فوق مستوى الشك».

(٧) منطقة الغال المتاخمة لجبال الألب. (المترجِم)

(٨) منطقة الغال وراء جبال الألب. (المترجِم)

(٩) نسبة إلى «البارت Parthes» وهي إحدى القبائل المترحلة التي استولت على السهول الممتدة شمالي تلال خراسان بعد أن أجلوا عنها سكانها في ٢٥٠ق.م.، واقتطعوا الإمبراطورية السلوقية Seleucids وأقاموا دولة البارت. (المترجِم)

(١٠) كان أن غزا بريطانيا في العام التالي، ثم في عام ٥٤ق.م.، ومكث هناك ثمانية عشر يومًا وثلاثة أشهر على التوالي. لم يحقِّق إنجازاتٍ كبيرة باستثناء استعراض القوة الذي قام به.

(١١) بحسب «سيوتونيوس Suetonius»، كان سيزر سعيدًا بتلك العبارة لدرجةِ أنه طلب نقشها على رايةٍ استعدادًا لموكب النصر في روما.

(١٢) «يوليوس قيصر» في معظم الترجمات العربية. (المترجِم)

الفصل الرابع

روما – الإمبراطورية الباكرة

- الرسالة المسيحية.
- الرومان.
- شرائع ديوقليتيان: ٣٠٦ق.م.
- جسر ميلفيو: ٣١٢ق.م.
- الهرطقة الأريوسية.
- تأسيس القسطنطينية: ٣٣٠م.
- القوط ينهبون روما: ٤١٠م.
- الوندال ينهبون روما: ٤٥٥م.
- صعود جستنيان: ٥١٨م.
- بيليزاريوس يدخل روما: ٥٣٦م.
- تولي توتيلا: ٥٤١م.
- نارسيس يزحف على إيطاليا: ٥٥٢م.
- القوط في إسبانيا: ٥٥٥م.
- إمبراطورية جستنيان.

* * *

أسفرت معركة أكتيوم عن نتيجتين هائلتين؛ النتيجة الأولى هي أنها أكَّدت بقاء الضوء السياسي مركزًا بشدة على إيطاليا والغرب. كانت الأراضي الواسعة شرق المتوسط، التي تتحدَّث اليونانية في معظمها، مِلكًا لمارك أنتوني بحسب الاتفاق الذي كان قد توصَّل إليه مع أوكتافيان وفيلبي؛ وإذا كان قد انتصر فسوف يستمر في محاباتهما بكل الوسائل.

كانت روما، تحت حكم أوكتافيان، ما زالت صاحبةَ السيادة، وسوف تظل كذلك على مدى القرون الثلاثة التالية، إلى أن يغادرها «قسطنطين الكبير Constantine the Great» في ٣٣٠ق.م. إلى عاصمته الجديدة، القسطنطينية. النتيجة الثانية هي أن أكتيوم كرَّست أوكتافيان، بينما كان ما يزال في الثانية والثلاثين من العمر، أقوى رجل على وجه الأرض، سيد العالم المعروف بلا منازع. كانت مشكلته الآن هي كيف يمكن أن يقويَ وضعه على أفضل وجه. كانت الجمهورية ميتةً بالفعل، وكانت هناك أمور كثيرة واضحة، إلا أن أوتوقراطية جوليوس سيزر الصريحة ثبَت أنها كانت قاتلة بالنسبة له، وكان حفيد أخيه مصرًّا على ألا يرتكب الخطأ نفسه. بالرغم من ذلك، كان لا بد من مراعاة بعض الأعراف الجمهورية القديمة، ولو مظهريًّا ولبعض الوقت. في كل سنة من ٣١ إلى ٢٣ق.م. كان أوكتافيان يشغَل القنصلية، ولكن اتخاذه اللقب الجديد «أوجسطس Augustus» في ١٥ يناير ٢٧ق.م.، كان مؤشرًا واضحًا على اتجاه الأحداث.

هكذا، يكون من المستحيل أن نحدِّد تاريخًا معينًا لتأسيس الإمبراطورية الرومانية. كانت عملية تدريجية، ولعله كان من الأفضل أن تسير الأمور على هذا النحو. في شبابه كان أوجسطس متعطشًا للسلطة، وبمجرد أن امتلك زمامها ثمِل بها وأصبح رجلَ دولة. إنجازاته الأخرى لا تُعد ولا تُحصى. أعاد تنظيم الإدارة والجيش، وأنشأ قواعدَ بحرية دائمة على ساحل شمال أفريقيا ... وحتى على البحر الأسود. أصبحت الآن روما سيدةَ البحر الأبيض التي لا يجرؤ أحد على تحدِّيها، وبين ٢٠٠ق.م. و٢٠٠م كانت تشهد حركةً تجارية كثيفة أكثرَ منها في أي وقت من الألفية التالية.[١] في ٢٦ و٢٥ق.م. قام بنفسه بإخماد تمرُّد القبائل في شمال إسبانيا، وأنشأ ما لا يقل عن اثنتين وعشرين مستوطنة، كان كل سكانها من الرومان، وفيما بعدُ ضاعف — أو بالأحرى جنرالاته — مساحةَ الأراضي الرومانية. الأهم من ذلك كله هو أنه وضع الجمهوريةَ القديمة في القالب الجديد الذي فرضه اتساعُها الشاسع، ونجح إلى حدٍّ ما في استمالة كل طبقات المجتمع الروماني وحشدهم لدعم نظامه الجديد. يقال إنه وجد روما مدينةً من القرميد وتركها مدينةً من المرمر، إلا أنه فعلَ ما هو أكثر من ذلك: وجدها جمهوريةً وتركها إمبراطورية.

كانت هذه الإمبراطورية تضم إقليم سوريا الذي كان قد تم الاستيلاء عليه في الحروب مع الملك متريداتس في أوائل القرن الأول ق.م. لم يكن هذا الإقليم يعتبر مهمًّا من وجهة نظر مَن يديرون شئونه، ولكن كان هناك أثناء حكم أوجسطس — ربما في القرن الخامس أو السادس ق.م.[٢] — أن وُلد في بيت أحد اليهود الأتقياء، الرجلُ الذي سوف يعيد تشكيل العالم جذريًّا أكثرَ مِن سواه قبله أو بعده. في غضون ثلاثين عامًا، كان سان بول أول،

وربما، أعظم مبشِّر مسيحي قد حمل الرسالة الجديدة، رسالةَ السيد المسيح، عبر الحوض الشرقي للمتوسط. وفي غضون ثلاثمائة عام، كما سنرى بعد قليل، كانت الإمبراطورية نفسها تتبنى العقيدةَ التي كان يبشِّر بها.

ماذا حقَّقت الجمهورية الرومانية في سنوات وجودها الذي دام نحو خمسمائة عام؟ أول ما نتذكَّر هو أن الرومان كانوا يرون أنفسهم دائمًا ورثةَ الإغريق. كانت الحضارتان قائمتين جنبًا إلى جنب في شرق المتوسط منذ القرن الثاني ق.م.، وبالرغم من أنهما كانتا تتخذان أشكالًا سياسية مختلفة، كان الرومان يحبِّذون — ثقافيًّا — أن يعتبروا أنفسهم يواصلون الإرثَ الإغريقي. في الأدب على سبيل المثال، نجد أن أعظم كاتِبين رومانيين، («فيرجل Virgil» و«هوراس Horace»)، كان كلاهما، بالمصادفة، صديقًا شخصيًّا لـ «أوكتافيان»، كما كانا يُقرَّان صراحةً بدَينهما لأسلافهما الإغريق. ملحمة فيرجل الضخمة، «الإنيادة Aeneid»، تستلهم هومير (رغم أن الأسلوب واللغة أكثر تطورًا)، وتجسِّد الأسطورة المهمة لعلاقة المدينة بطروادة من خلال البطل الطروادي «أينياس Aeneas»، الذي هرب زمن الغزو الإغريقي، وبعد تَجوال طويل شقَّ طريقه إلى إيطاليا حيث أسَّس «رومولوس Romulus» و«ريموس Remus» (وهما من سلالته) روما. كما أنَّ أناشيد الرعاة Eclogues والقصائد التي تتناول الموضوعات الخاصة بالزراعة Georgics، حتى إن كان من المتعذِّر تتبُّعها، عائدان إلى هزيود؛ فإنها تتبع الأسلوب الإغريقي في شعر الرعاة. هوراس، المولود في ٦٥ق.م. (أي بعد فيرجل بخمس سنوات)، كان قد درس بالفعل في أكاديمية أثينا، قبل أن يحارب إلى جانب بروتس وكاسيوس في فيلبي. كانت أملاك عائلته في أبوليا قد صُودرت من قِبل القائد المنتصر، ولكن صديقه «ماكيناس Maecenas» (الذي كان فيرجل قد قدَّمه إليه)، وكان صاحب ثروة أسطورية وبالغَ الكرم، توسَّط له لدى أوكتافيان فأعطاه المزرعةَ القائمة على تلال سابابن Sabine Hills حيث عاش سعيدًا بقيةَ حياته. كان هنا أن كتب هوراس غنائياته الشهيرة Odes[٣] التي كان يفاخر بأنها جاءت على نهج الأغاني الرعوية الإغريقية لشعراء مثل «ألكايوس Alcaeus»، و«بندار Pendar»، و«سافو Sappho». كان كُتاب النثر مقيَّدين بحقيقةِ أن فن الرواية لم يكن معروفًا بعد، إلا أنه كان هناك كُتاب أدب على درجة كبيرة من البراعة مثل «بليني Pliny»، وخطباء مفوَّهون مثل «شيشرون Cicero»، وبالإضافة إلى كل هؤلاء مؤرِّخون عظام مثل «ليفي Livy»، و«تاكيتوس Tacitus»، وأخيرًا وليس آخرًا جوليوس سيزر نفسه.

يمكن أن نجد التأثيرَ نفسَه في مجال الفنون البصرية. كان إعجاب الرومان شديدًا بالنحت الإغريقي لدرجةٍ أن الأباطرة والنبلاء كانوا يملئون قصورهم وحدائقهم بنسخٍ من التماثيل التي صنعها «فيدياس Phidias» و«براكسيتيليس Praxiteles»، كما أن الكثير من الأعمال الإغريقية المعروفة اليوم، لم تُعرف إلا عن طريق النُّسخ الرومانية. إلا أن النحت الروماني الأصلي، رغم روعته، لم ينجح تمامًا في الإمساك بروح الإغريق؛ فلا يوجد نموذج روماني يضاهي رخاميات إلجن Elgin Marbles، ناهيك عن أعظم قطعة من النحت الكلاسيكي في الوجود المعروفة بـ «ناووس الإسكندر Alexander Sarcofagus»، الموجودة في المتحف الأركيولوجي في إسطنبول.[٤] أما في فن التصوير فربما تكون المقارنة العادلة أكثرَ صعوبة، حيث لم يتبقَّ سوى نماذجَ إغريقية قليلة، بصرف النظر عن تلك الرسوم الموجودة على المزهريات، من بين الرسوم الرومانية — إن كان لنا أن نعتبرها كذلك — لعل لوحات وجوه الفيوم (التي اكتُشفت في منطقةٍ تبعُد نحو ثمانين ميلًا جنوب غرب القاهرة، والتي تعود إلى القرنين الأول والثاني ق.م.)، هي الأكثر إدهاشًا؛ فهي أروع مجموعة من الصور التي وصلتنا من العالم القديم.

ولكن الإنجازات الرومانية امتدت إلى ما هو أبعد من مجال الفنون. كان الرومان مشرِّعين وعلماء ومعماريين ومهندسين ... وبالطبع مقاتلين بارعين، وكان في المجالين الأخيرين أن بنَوا شبكةَ الطرق المدهشة بطول أوروبا وغربها، بهدفٍ أوَّلي، وهو أن يتمكَّن الجيش من الوصول إلى مقصده في أقصر وقت ممكن؛ وإذا كان لا بد من أن تكون الطرق صالحةً للمرور عليها في جميع الأجواء، كان لا بد كذلك من أن تكون ممهَّدة جيدًا، ومن نافل القول أن تكون في خطوطٍ مستقيمة. أول امتداد لطريق الأبيان The Appian Way انتهى في ٣١٢ق.م.، كما شهد عام ١٤٧ق.م. استكمالَ الطريقِ المارِّ بـ «بوستوميا Via Postumia» الممتدِّ من البحر إلى البحر — من جنوة على البحر التيريني إلى «أكيليا Aquileia» على الأدرياتيكي. مثل هذه المجتمعات وغيرها — التي لا حصر لها — في الأيام الباكرة للجمهورية كانت أكبرَ من أن تكون مجرد مستوطنات، كانت قد أصبحت مدنًا مزدهرة يوجد بها المعابدُ والمنشآت العامة بأحجام ومساحات تفوق التصوُّر في ذلك الزمن.

ربما كان ذلك كلُّه قد أصبح ممكنًا بفضل الاكتشاف الأهم في تاريخ العمارة. لم تكن القنطرة the arch معروفةً بالنسبة للإغريق. كانت كل مبانيهم تعتمد على الأسلوب البسيط، وهو وضع عرقة lintel أفقية على أعمدة رأسية، وبالرغم من أنهم كانوا

قادرين على استخدام هذا الأسلوب في تشييد منشآت جميلة، كانت تلك الأبنية محدودة سواء في الارتفاع أو القدرة على حمل أوزان ثقيلة. مع اختراع القنطرة وتطوُّرها وصولًا إلى القبة، انفتحت أمامهم إمكانيات واسعة؛ وحسبنا فقط أن ننظر إلى «الكولوسيوم Colosseum»،[٥] أو تلك التكوينات المعمارية الرائعة بالقرب من «نيمس Nimes»، أو القناة المائية الهائلة ذات المائة والتسع عشرة قنطرة في «سيجوفيا Segovia» إسبانيا، لنعرف حجم ونِسب العمارة التي كان الرومان قد أصبحوا متمكنين منها.

بالرغم من ذلك، تثير ذكريات الكولوسيوم تداعياتٍ أقلَّ سعادة. لقد كان الرومان موهوبين وأكفاء ومجدين، قدموا كُتَّابًا وفنانين بارعين، ونشروا حضارتهم المائزة في أنحاء كثيرة من العالم المعروف. لماذا إذن كان ذلك الولع المجنون بالعنف؟ لماذا كانوا يذهبون بعشرات الألوف لمشاهدة مباريات المجالدين الدموية التي كانت تنتهي بأن يلقى حتفه فيها واحد على الأقل من المشاركين؟ لماذا كانوا يهتفون ويصيحون لمرأى الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال، بينما تمزِّقهم الحيوانات المفترسة إربًا، أو لمرأى تلك الحيوانات نفسها وهي تواجه الموت البطيء البشع؟ هل أظهر أيُّ شعب أوروبي آخر قبلهم، أو منذ ذلك الحين، مثل تلك الدرجة من الوحشية والسادية؟ لا نتحدَّث هنا عن العامة أو الدهماء فقط، وإنما عن الأباطرة أنفسهم كذلك، على الأقل في القرنين الأولين من حياة الإمبراطورية، مرارًا وتكرارًا كانوا ينحدرون إلى مستويات من الفساد والفسوق، التي ربما كان لها نظيرها في أماكنَ أخرى، إلا أنها كانت تفوق كلَّ ما عداها.

يخبرنا المؤرِّخ «سيوتونيوس Suetonius» — طربًا — عن لواطة «تيبيريوس Tiberius» الذي كان يدرِّب أثناء سنوات تقاعده في «كابري Capri» بعضَ الصبية على السباحة وهم يقرضون أجزاءَ جسدِه الحسَّاسة تحت الماء، وعن نَهَم «فيتيلليوس Vitelleus»، الذي بحسب «جيبون Gibbon» «أنفق على الأكل ستة ملايين من أموالنا في حوالي سبعة أشهر»[٦] وعن وحشية «كاليجولا Caligula» — لقبُه يعني الحذاء الصغير — الذي لم يكتفِ بغشيان إحدى أخواته، بل إنه كان، على نحوٍ منتظم، يقدِّم الأخريات «للاغتصاب بواسطة غلمانه الشواذ»،[٧] وأنشأ مبغًى عامًّا في القصر الإمبراطوري، وكان يتسلَّى بمشاهدة أبرياء يتم تقطيعهم أمامه بمنشار وهو يتناول غداءه.

إلا أنه كان هناك أباطرة جيدون كذلك. امتد العصر الذهبي للإمبراطورية من ٩٨–١٨٠م، عندما «شملت الإمبراطورية الرومانية الجزءَ الأفضل من الأراضي والقسم الأكثر تحضرًا من البشرية».[٨] بدأ ذلك بـ «تراجان Trajan» الذي وسَّع حدود الإمبراطورية لتغطي

«داشيا Dacia» (التي تضم تقريبًا أراضي رومانيا الحالية)، و«بترايا العربية Arabia Petraea»، التي كانت ممتدة من فينيقيا في الشمال نزولًا إلى شواطئ البحر الأحمر. كما أثرى عاصمته ببعض المباني الرائعة، وأدار إمبراطوريته الشاسعة بحكمةٍ وكياسة وإنسانية، وهي صفات نادرًا ما نراها في روما في القرنين الأول والثالث. استمرَّ الحال كذلك مع خليفته وصنوه الإسباني «هادريان Hadrian»،[٩] الذي ربما كان أكثرَ الأباطرة الذين جلسوا على العرش مقدرةً، والذي أمضى الكثيرَ من فترة حكمه (استمر واحدًا وعشرين عامًا) يزور كلَّ ركن من إمبراطوريته الكبيرة بما في ذلك بريتني؛ حيث أمر في سنة ١٢٢م ببناء السور الأعظم الممتد من «سولواي Solway» إلى «تايني Tyne»، والذي ما زال يحمل اسمه إلى اليوم. بعد موت هادريان جاء الأنتونيون؛ جاء أولًا «أنتونينوس بيوس Antoninus Pius» الذي أعطت فترةُ حكمه، الطويلة الخالية من الاضطرابات، الرومانَ فرصةً لالتقاط الأنفاس بعد الإجهاد الطويل في عهد سلفَيه، وأخيرًا الإمبراطور الفيلسوف «ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius»، الذي يُعتبر عمله «تأمُّلات Meditations»[١٠] (المكتوب باليونانية ربما خلال حملاته الطويلة ضد القبائل الجرمانية المتمردة)، العمل الوحيد الموجود الذي يمكننا من التعرُّف على عقل حاكم قديم. ولكن، من أسفٍ أن هذا العصر الذهبي انتهى فجأةً مثلما بدأ، بخلافة «كومودوس Commodus» ابن ماركوس أوريليوس الذي — بحريمه وغلمانه (ثلاثمائة من كل فصيل) — أعاد روما إلى أسوأ أيام التفسُّخ الإمبراطوري.

قصة الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث ليست مادةً للقراءة الرفيعة. هناك رواياتٌ كثيرة للمؤرخين عن شهوة الدم عند «كاراكاللا Caracalla» الذي أُعلِن قيصرًا وهو في الثامنة، والذي أمر في ٢١٥م، بناءً على نزوة، بمذبحة كبيرة في الإسكندرية راح ضحيتَها ألوفُ الأبرياء من المواطنين؛ كما يحكون عن الازدواجية الجنسية لخليفته «إيلاجاباليوس Elagabalus» الذي أخذ اسمه من إله الشمس عند السوريين (وكان يتشبه به لدرجة التماهي)، ودخل روما في ٢١٩م في موكبٍ احتفالي والأحمر على شفتيه ووجنتيه، مزينًا بالجواهر، متقلِّدًا الذهب والأرجوان. وهو الذي كتب عنه «جيبون Gibbon» يقول: «ركبٌ من المحظيات، وسلسلةٌ متعاقبة من الزوجات كانت أحداهن عذراء من المكرَّسات لخدمة فيستا،[١١] أُخذت عَنوةً من الحَرم المقدَّس، ولم يكن ذلك كافيًا لإشباع عجزه الجنسي. كان سيد العالم الروماني مولعًا بارتداء ملابس النساء والتشبُّه بطباعهن، كان يفضِّل الجانب النسوي على الصولجان، وأهان كرامته الإمبراطورية بتوزيع ألقابها على عشيقاته؛

فقد خلع — علنًا — على إحداهن لقبَ وسلطة الإمبراطور، أو كما كان يصف نفسه بزوج الإمبراطورة.»

بحكامٍ مثل هؤلاء، كان لا بد من أن ينتشر الفساد في أوصال المجتمع الروماني لدرجةِ تدمير القانون والنظام تمامًا، وأن تعمَّ الفوضى في نظام الحكم؛ وكان الإمبراطور «سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus» الذي مات في «يورك York» في سنة ٢١١م، آخرَ إمبراطور روماني لمدة ثمانين عامًا، يموت في فراشه.

بعد خمسة وتسعين عامًا، شهدت هذه المدينة نفسها (يورك) موتًا إمبراطوريًّا آخر، كانت عواقبه أكثرَ أهميةً بالنسبة لتاريخ العالم. كان الإمبراطور الذي يحكم آنذاك هو «ديوقليتيان Diocletian» الذي سرعان ما وجد إمبراطوريته عبئًا كبيرًا لضخامتها وكثرة أعدائه وطول خطوط الاتصال بين أرجائها، ومن الصعب السيطرة عليها بواسطة عاهل واحد. قرَّر ديوقليتيان أن يقسم السلطةَ الإمبراطورية إلى أربعة. سيكون هناك أوجستان، هو نفسه ورفيق سلاح قديم محبوب اسمه «مكسيميان Maximian» — وحاكمان يحملان لقب «قيصر» الأدنى قليلًا في المرتبة، سيمارسان سلطاتهما العليا في المناطق المخصَّصة لهما، وفيما بعدُ يصبح كلاهما أوجست. أعطى السلطة العليا في شمال غرب أوروبا — مع مسئولية إعادة فرض الحكم الروماني في بريتني المتمردة — لواحدٍ من أكثر جنرالاته نجاحًا: «كونستانتيوس كلوروس Constantius Chlorus» الذي كان أحدَ أول قيصرين. القيصر الثاني كان «جاليريوس Galerius» وكان عسكريًّا محترفًا من «تراقيا Thrace»، معروفًا بالغلظة والقسوة، وتولى مسئولية البلقان.

بعد ذلك، وقع في ٣٠٥م حدثٌ ليس له مثيل في تاريخ الإمبراطورية الرومانية؛ التخلي الطوعي عن العرش. كفى! هكذا قرَّر دوقليتيان. انزوى في القصر الكبير الذي كان قد بناه لنفسه في «سالونا Salona» (سبليت Split الحديثة) على ساحل «دالماتيا Dalmatia»، وأجبر مكسيميان — الذي كان متردِّدًا — على التخلي كذلك. وهكذا بين عشية وضحاها وجد كونستانتيوس كلوروس نفسه الأوجسطس الأعلى، إلا أنه لم يستمتع بهذا الإرث طويلًا. بعد أشهرٍ قليلة مات في يورك (٢٥ يوليو ٣٠٦م) بينما كان ابنه «كونستانتين Constantine» (قسطنطين) يقف إلى جوار فراشه. ما كاد النفَس الأخير يغادر صدره، حتى نادى صديقه وحليفه «كروكس» بـ «كونستانتين» ليكون أوجسطس مكان والده، وسرعان ما تلقَّفت الجماهير النداء فشبكوا التوجا[١٢] الإمبراطوري الأرجواني حول كتفيه وحملوه على تروسهم وهتفوا باسمه.

في ذلك الوقت كان كونستانتين في بداية الثلاثينيات من عمره. من ناحية الأب، يمكن أن يكون سليل حسبٍ نبيل، أما من ناحية أمه (هيلينا Helena)، فقد كانت من نسل صاحب نُزل متواضع في «بيتينيا»،[١٣] بصرف النظر عن محاولات بعض الكُتاب إقناعنا بأنها كانت ابنةَ «كويل Coel» مؤسِّس كولشستر. (هناك مؤرِّخون أقلُّ شهرةً يبالغون فيقولون إنها — كفتاة — كانت إحدى وسائل الترفيه في نُزل أبيها، وإنها كانت متاحةً لمن يريد من الزبائن مقابل مبلغ إضافي بسيط.) في وقتٍ متأخر من حياتها، عندما وصل ابنُها إلى موقع السلطة العليا، كانت قد أصبحت أرفعَ النساء منزلةً وأكثرهن جلالة ومهابة في الإمبراطورية؛ في ٣٢٧م، وكانت قد جاوزت السبعين من العمر، قامت هذه المتحوِّلة إلى المسيحية بالحج إلى الأرض المقدسة، وهناك — على نحوٍ معجِز — تخرج الصليب الحقيقي من باطن الأرض وتكتسب من جراء ذلك مكانةً شريفة في سجل القديسين … فتصبح «القديسة هيلانة».

عودة إلى «كونستانتين». أول ما يمكن أن يقال عنه إنه لا يوجد حاكمٌ في التاريخ كله — لا الإسكندر ولا ألفريد ولا تشارلز ولا كاترينا ولا فردريك ولا حتى جريجوري — كان أكثرَ استحقاقًا منه للقب «الكبير» أو «الأكبر»؛ حيث إنه في غضون الفترة القصيرة التي تقدَّر بنحو خمسة عشر عامًا اتخذ قرارين، كان أيهما بمفرده كفيلًا بتغيير مستقبل العالم المتحضِّر. كان القرار الأول هو تبنِّي المسيحية دينًا رسميًّا للإمبراطورية الرومانية، وكان الثاني هو نقل عاصمة الإمبراطورية من روما إلى المدينة الجديدة التي كان يبنيها في موقع المستوطنة الإغريقية القديمة «بيزنطة»، والتي ستُعرف باسمه: «كونستانتينوبل»[١٤] (أي مدينة كونستانتين Constantinople). هذان القراران معًا، وما تمخَّضا عنه من نتائجَ، يعطيانه الحقَّ في أن يعتبر أكثرَ الرجال تأثيرًا على مدى التاريخ، باستثناء يسوع المسيح والنبي محمد وبوذا.

فور إعلانه والهتاف باسمه رئيسًا، كان من الطبيعي أن يرسل كونستانتين كلمةً إلى جاليريوس، الأوجسطس المشارك الذي كان آنذاك يحكم من «نيقوميديا Nicomedia» (إزميت Izmit الحديثة) عبر البوسفور؛ إلا أن جاليريوس، بينما كان متردِّدًا في الاعتراف به كقيصر رفض بشدة الاعترافَ به كأوجسطس، بعد أن كان قد عين بالفعل «فاليريوس ليسينيانوس Valerius Licinianus» (يُدعى ليسينيوس Licinius) أحد رفاق الشراب القدامى. لم يُبدِ كونستانتين أيَّ انزعاج لذلك. ربما لم يكن قد شعر بعدُ بأنه جاهز للسلطة العليا؛ فبقي على أية حال في الغال Gaul وبريتني Britain ست سنوات أخرى يحكم

المقاطعتين بحكمة وتعقُّل. بعد موت جاليريوس في ٣١١م، بدأ يستعد لتحقيق مآربه، وفي صيف ٣١٢م عبَر الألب لمحاربة أول وأخطر منافسيه الألداء، صهره «ماكسنتيوس Maxentius» ابن زميل ديوقليتيان القديم الإمبراطور مكسيميان.[١٥]

التقى الجيشان في ٢٨ أكتوبر ٣١٢م عند «فيافلامينيا Via Flaminia»، على بُعد سبعة أو ثمانية أميال شرق روما؛ حيث يوجد جسر بونت ميلفيو القديم[١٦] على نهر التيبر. ما زال الناس يتذكَّرون معركة جسر ميلفيو إلى اليوم بسبب الأسطورة التي رواها الأسقف «إيوسيبيوس Eusebius» (أسقف قيصرية Caesarea ومعاصر كونستانتين)، الذي يزعم أنه كان قد سمِعها من الإمبراطور نفسه، وهو أنه:

> بعد منتصف النهار تقريبًا، والشمس تتأهَّب للمغيب، رأى بأم عينه آثارَ صليب من الضوء في السماء فوق الشمس، عليه نقشٌ يقول «افتح بهذا hoc vinci». تملَّكه الذهول، وكذلك كل جيشه، أمام ذلك المنظر.[١٧]

يقال إن كونستانتين الذي أذهلته هذه «الرؤية» وكانت إلهامًا له، هزم جيش صهره هزيمةً ساحقة، وجعله يفرُّ جنوبًا صوب الجسر القديم. كان ذلك الجسر ضيقًا جدًّا، وكان ماكسنتيوس قد بنى — متوجسًا شرًّا — جسرًا أوسعَ إلى جواره محمولًا على عوامات، يمكن الانسحاب فوقه بشكل منظم، ثم كسره في المنتصف لمنع العدو من مطاردة قواته. فوق هذا الجسر فرَّت فلول جيشه المهزوم مذعورة، وكان يمكن أن يتم كل شيء على ما يرام، لو لم يفقد مهندسو الجسر صوابهم ويسحبوا الرِّتاجات بسرعة. فجأةً، انهار البناء كله ليسقط المئات في الماء الجارف. هُرع مَن كانوا ينتظرون دورهم للعبور إلى الجسر الحجري القديم، إلا أن الكارثة الكبرى تكرَّرت، كان ضيقًا فانسحق كثيرون وماتوا، ودهست الأقدام كثيرين، بينما سقط غيرهم في الماء؛ وكان بين هذه الفئة الأخيرة ماكسنتيوس نفسه، الذي وجدوا جثته على الشاطئ فيما بعد. في اليوم التالي، عندما دخل كونستانتين روما، كان رأس ماكسنتيوس المقطوع مرفوعًا على سن رمح أمام موكبه.

الانتصار الذي حقَّقه كونستانتين عند جسر ميلفيو جعل منه سيدَ العالم الغربي من الأطلنطي إلى الأدرياتيكي بلا منازع، من سور هادريان إلى جبال أطلس؛ أما إذا كان قد جعله يتحول إلى المسيحية فذلك ليس مؤكدًا؛ إلا أن ذلك الانتصار كان نقطةً بدأ من عندها ليكون حاميًا وراعيًا نشطًا لرعاياه المسيحيين. عندما عاد إلى روما قدَّم، من ماله الخاص، إعاناتٍ لخمس وعشرين كنيسة كانت موجودة بالفعل، ولعدد كبير من الكنائس

الجديدة، كما أهدى البابا «ملكيادس Melchiades»، المنتخَب حديثًا، المنزل القديم لعائلة «لاتيراني Laterani» على تل «كويلي Coeli»، ليظل قصرًا بابويًّا لمدة ألف عام أخرى؛ كما أمر بأن تُبنى إلى جواره — على نفقته الخاصة كذلك — أول «باسيليقا basilica»[١٨] رومانية عظيمة (باسيليقا سان جون لاتيران) التي ما زالت إلى اليوم كاتدرائيةَ المدينة. من المثير للدهشة كذلك أن نجد عملاته لمدة اثنتي عشرة سنة أخرى تربط بينه وبين العقيدة الشائعة في تلك الأيام، الإيمان بـ «الشمس التي لا تُقهر» Sol Invictus، وليس بينه وبين المسيحية، كما أنه رفض المعموديةَ المسيحية التي راح يؤجلها إلى أن أصبح على فراش المرض بعد ذلك بربع قرن.

بادرة الحذرِ هذه نفسها، نجدها واضحةً في «مرسوم ميلان Edict of Milan»، الذي أصدره كونستانتين بالاشتراك مع زميله الأوجسطس (الذي كان قد أصبح صهرًا آخرَ له)[١٩] «ليكينيوس Licinius» في ٣١٣م واصفًا الهدف منه بأنه:

> ضمان الاحترام والتوقير للمعبود، تحديدًا بمنْح المسيحيين وسواهم من اتِّباع أسلوب العبادة التي يريدونها، بمعنى أنه أيًّا كان الإله الموجود في السماء، ينبغي أن يكون مقبولًا وأثيرًا بالنسبة لنا ولكل مَن يعيش في كنفنا.

ربما يكون الأوجستان الاثنان قد تكلَّما بصوتٍ واحد عن التسامح الديني، إلا أنهما لم يكونا متفقَين في أشياءَ كثيرة أخرى، فكان لا بد من عشر سنوات أخرى من الحرب الأهلية قبل أن يستطيع كونستانتين التخلُّص من آخرِ منافسيه. لم يتمكَّن من إرساء السلام في أرجاء الجمهورية سوى في عام ٣٢٣م عندما كان يحكم منفردًا.

كان كونستانتين الآن يبدو مسيحيًّا في كل شيء ما عدا اسمَه، ولكن الكنيسة المسيحية انقسمت وشهدت أكبرَ شِقاق في تاريخها. كان ذلك نتيجة اجتهاد لشخصٍ يُدعى «آريوس Arius»، شيخ كنيسة الإسكندرية الذي كان يؤمن بأن يسوع المسيح لم يكن شريكًا في الأزلية ومن نفس مادة الآب الإله، وإنما كان من خلقِه هو في زمنٍ ما وأداته لخلاص العالم. وهكذا، بالرغم من كونه إنسانًا كاملًا، لا بد أن يكون الابن دائمًا تابعًا لـ «الآب»؛ حيث إن طبيعته بشرية وليست إلهية. سرعان ما أصبح الخلاف الناجم دعوى مثيرةً للرأي العام، عقد كونستانتين العزم على حسمها، وبهذا الهدف دعا أولَ مجمع عام للكنيسة للانعقاد بين ٢٠ مايو و١٩ يونيو ٣٢٥م في «نيقية Nicaea» (إزنك Iznik الحديثة) حيث شارك فيه ثلاثمائة أسقف. افتتح الإمبراطور نفسه الجلسة وكان هو الذي اقترح إدخال

الكلمة الرئيسية «homoousios» التي تعني بالإنجليزية Consubstantial — من مادة واحدة — لوصف علاقة الابن بـ «الآب». كان إدخال هذه الكلمة بمثابة إدانة «للآريوسية Arianism»، وكانت قدرة الإمبراطور على الإقناع قوية، لدرجةِ أنه بنهاية جلسة المجمع لم يكن هناك سوى ١٧ أسقفًا فقط باقين على اعتراضهم، وهو العدد الذي انخفض إلى اثنين في النهاية خشيةَ النفي والحِرْم الكنسي excommunication المحتمل.

إلا أن آريوس استمر في الصراع حتى سنة ٣٣٦م، أثناء تحقيقٍ أخيرٍ في معتقداته عندما:

> دخل متجاسرًا بفضل حماية أتباعه في حوارٍ أحمقَ إلى أن اضطُر بدعوة من الطبيعة إلى التراجع، وفي الحال، كما هو مكتوب «سقط على رأسه لينفجر جسده في الوسط وتخرج أحشاؤه».[٢٠]

لا بد من أن نعترف أن هذه القصة خطَّها قلم «أثناسيوس Athnasius» أسقف الإسكندرية خَصم آريوس الرئيسي، ولكن ظروف موته الغريبة متَّفق عليها من قِبل كُتَّاب معاصرين، وتُعزى، حتمًا، لعقابٍ إلهي؛ فالإشارة الكتابية هنا تشبه إلى حدٍّ ما، مصيرَ يهوذا الإسخريوطي Judas Iscariot.

لم يتحقَّق حُلم كونستانتين بالتوافق الروحي في كل أنحاء العالم المسيحي في حياته، والحقيقة أننا ما زلنا ننتظره إلى اليوم.

عندما رأى كونستانتين بيزنطة لأول مرة، كان عمر المدينة بالفعل نحو ألف عام؛ وحسب التقاليد كانت قد أُنشئت في ٦٥٨ق.م. على يد «بيزاس Byzas» كمستعمرة لـ «ميجارا Megara»، ويمكن أن يكون هناك قدرٌ من الشك في وجود مستوطنة إغريقية صغيرة مزدهرة، في هذا المكان نفسه في مطلع القرن السادس ق.م. أما ما لا شك فيه، فهو أن الإمبراطور كان موفقًا في اختياره لها لتكون عاصمته الجديدة. منذ زمن طويل، كانت روما مكانًا منعزلًا، ولم يكن أيٌّ من حكام المقاطعات يتصوَّر أنه يمكن أن يقيم هناك. كانت الأخطار الرئيسية على أمن الإمبراطورية مركزةً الآن على الحدود الشرقية: «الصرماط The Sarmatians»[٢١] حول الدانوب الأسفل، و«القوط الشرقيون The Ostrogoths» شمال البحر الأسود، ثم «الفرس The Persians»، وهم الأكثر خطرًا وتهديدًا من الجميع، وكانت إمبراطوريتهم الساسانية العظيمة ممتدةً في ذلك الوقت من المقاطعات الرومانية السابقة

في أرمينيا وبلاد الرافدين إلى «هندوكوش Hindu Kush». إلا أن أسبابَ الانتقال لم تكن استراتيجية فحسب. كانت بؤرة الحضارة قد انتقلت بشكلٍ نهائي إلى الشرق. كانت روما تبتعد أكثرَ وأكثر عن الفكر الجديد المتقدِّم للعالم الهلنستي، ولم تَعُد الأكاديميات والمكتبات تضاهي مثيلاتها في الإسكندرية أو برجامم أو أنطاكية. من الناحية الاقتصادية، كذلك، كانت الثروات الزراعية والمعدنية أكثرَ جذبًا منها في شبه الجزيرة الإيطالية؛ حيث كانت الملاريا تنتشر وعدد السكان يتضاءل. وأخيرًا، لم يكن للتقاليد الجمهورية الرومانية والوثنية القديمة مكانٌ في إمبراطورية كونستانتين المسيحية الجديدة. كان الوقت قد حان لبداية جديدة.

كانت مميزات بيزنطة، كموقع استراتيجي، عن كل جيرانها الشرقيين واضحة كذلك. بموقعها على عتبة آسيا، واحتلالها قمةَ النتوء الجبلي المثلَّث في أقصى الشرق، وجانبها الجنوبي الذي تغسله مياه «البروبونتس Propontis» (الذي نطلِق عليه بحر مرمرة)، وذلك الجون الواسع العميق الصالح للملاحة البالغ طوله نحو خمسة أميال في الجزء الشمالي الشرقي منها (المعروف منذ القدم بـ «القرن الذهبي Golden Horn»)، كل ذلك جعل الطبيعة تشكِّل منها مرفأً رائعًا وحصنًا منيعًا لا يحتاج إلى تقوية رئيسية سوى في جانبه الغربي. حتى أيُّ هجوم من البحر سيكون شديد الصعوبة؛ حيث إن بحر مرمرة محميٌّ بمضيقين طويلين؛ البوسفور في الشرق، وهيلزبونت Hellespont (أو الدردنيل) في الغرب. لا عجب إذن أن يُضرب بشَعب «خلقدونيا Chalcedon» المَثل في الحماقة؛ حيث كانوا قد أقاموا مدينتهم قبل نحو سبعة عشر عامًا على الشاطئ المسطَّح المقابل، الذي لا يحمل أيَّ ملامح.

لم يدَّخر كونستانتين وُسعًا لكي يجعل عاصمته الجديدة جديرةً باسمها. كان عشرات الألوف من العمال المهرة والحرفيين يعملون ليل نهار. في أحد المواقع على الأكروبولس القديم — كان يشغَله في السابق هيكل لأفروديت — قامت أول كنيسة كبرى في المدينة، كنيسة «سان إيرين St Irene»، مَنذورة، ليس لأي قديسٍ أو شهيد، وإنما «لسلام الله المقدَّس». بعد سنوات قليلة لحِقت بها — وفاقتها — جارتُها الأكبر والأروع كنيسة «الحكمة المقدَّسة» أو «سان صوفيا St Sophia». على مسافة ربع الميل في اتجاه مرمرة، كان مسرح الاحتفاليات الهائل Hippodrome؛ حيث يوجد لمقصورة الإمبراطور مدخلٌ مباشر إلى قصره القائم خلفه. كل المدن الكبرى في أوروبا وآسيا، بما في ذلك روما نفسها، تم تجريدها من تماثيلها ونُصُبها التذكارية وتُحَفها الفنية ونقلها لتجميل وإثراء

كونستانتينوبل (القسطنطينية). وأخيرًا، بعد أن أصبح كلُّ شيء معدًّا على خير وجه، حضر الإمبراطور قداسًا في كنيسة سان صوفيا يوم الإثنين الموافق الحادي عشر من مايو ٣٣٠م، نذر فيه المدينة — رسميًّا — للسيدة العذراء. في ذلك اليوم، وُلدت الإمبراطورية البيزنطية.

لم يكن هناك في الواقع أيُّ تغيُّر حقيقي. بالنسبة لرعاياها، كانت ما زالت هي الإمبراطورية الرومانية، إمبراطورية أوجسطس وتراجان وهادريان. وكانوا ما زالوا رومانيين، كلُّ ما في الأمر أن عاصمتهم انتقلت، ولم يحدُث أيُّ شيء آخر. وحيث إنهم كانوا قد عاشوا على مدى قرون محاطين بالعالم الإغريقي، كان حتمًا أن يتخلوا عن اللغة اللاتينية بالتدريج لصالح اليونانية، إلا أن ذلك لم يُحدِث أيَّ فرق أيضًا. كانوا — بكل كبرياء — يصفون أنفسهم بأنهم رومان طيلةَ وجود الإمبراطورية، وعندما سقطت بعد ١١٢٣ عامًا من تأسيسها، كان أن ماتوا، كذلك، كرومان.

من هذه الفترة، كان أن عاش كونستانتين سبع سنوات أخرى، ثم وهو مريض في ربيع ٣٣٧م، سافر إلى «هيلينوبولس Helenopolis»، تلك المدينة التي كان قد شيَّدها تخليدًا لذكرى أمه، لعل حمَّامها الصحي الساخن يشفيه من علَّته. من أسفٍ أن ذلك لم يحدث، وفي طريق عودته إلى العاصمة ساءت صحَّته وتدهورت، فكان من الواضح أنه لن يستطيع إكمال الرحلة. كان في نيقوميديا، وليس في كونستانتينبول، أن حصل ذلك الرجل الاستثنائي، الذي كان لسنوات أسقفًا زائفًا للكنيسة المسيحية، على المعمودية. بعد انتهاء المراسم، كما يخبرنا «إيوسيبيوس Eusebius» «ارتدى رداءً كهنوتيًّا فخمًا أبيضَ اللون كان يشعُّ مثل النور، واستلقى على حشيةٍ ناصعة البياض، رافضًا ارتداءَ الأرجوان ثانية».

ربما نتساءل: ولماذا أخَّر معموديته طويلًا هكذا؟ إلا أن الإجابة المرجَّحة هي الأكثر بساطةً: هذا السر المقدَّس يمنح غفرانًا كاملًا لكل الخطايا، ولكن من أسفٍ أن الاحتفال بذلك لا يتم إلا مرةً واحدة. كان من المنطقي أن يطول إرجاؤه لتقليل فرصة السقوط في الخطيئة مرةً أخرى. ولعل ذلك المثال كان نهايةً مناسِبة لحكم كونستانتين الذي دام واحدًا وثلاثين عامًا، انتهت ظهر الأحد، الثاني والعشرين من مايو ٣٣٧م، وهي أطول فترة حكم لإمبراطورٍ روماني منذ أوجسطس. دُفن في كنيسة الرُّسل القديسين التي كانت قد استُكملت حديثًا؛ وبموجب هذا التكريس «أمرَ بوضع اثني عشر ناووسًا (تابوتًا حجريًّا) في هذه الكنيسة مثل الأعمدة المقدَّسة، تكريمًا وإحياءً لذكرى عدد القديسين، يتوسطها تابوته وستة على كل جانب».

لم يستمر حكم كونستانتين غير المقسم طويلًا. عندما مات الإمبراطور «ثيودوسيوس الأكبر Theodosius the Great» في سنة ٣٩٥م انقسمت الإمبراطورية مرةً أخرى، وبالرغم من أن السلطة العليا كانت مركَّزة في كونستانتينبول فإن سلسلة من الأباطرة، أشباه الدُّمى، كانوا يحكمون في إيطاليا (وبخاصة في رافينا Ravenna) على مدى معظم قرن آخر. أثناء هذه الفترة حدثت تحولاتٌ في شبه الجزيرة الإيطالية، وفي معظم أوروبا الغربية في الحقيقة؛ أحدثتها تلك الشعوب التي كان مواطنو الإمبراطورية يعرفونهم — بازدراء — بالبرابرة. من بين هذه الشعوب يهمنا قبيلتان في هذه المرحلة من تاريخنا: «القوط The Goths»، و«الهون The Huns». لم تكونا مختلفتين في الكثير. في أواخر القرن الرابع، كان القوط شعبًا متحضرًا نسبيًّا، وكان معظمهم من المسيحيين الآريوسيين. وبينما كان القوط الغربيون Visigoths ما زال يحكمهم شيوخُ قبائل من المحليِّين، كان الشرقيون Ostrogoths قد تطوَّروا ليصبحوا مملكةً أوروبية مركزية، متحدة ومزدهرة. من الناحية الأخرى كان الهون جماعةً من الهمج البدائيين: قبيلة وثنية غير متحضِّرة، من أصول مغولية، جاءت من سهول آسيا الوسطى مخلِّفة الخرابَ والدمار في طريقها. كلاهما، القوط والهون، كانا يشكِّلان خطرًا على الإمبراطورية في أوقات مختلفة، ولعله من المثير للدهشة أن يكون القوط هم الذين هجموا أولًا.

في السنوات الأخيرة من القرن الرابع، كان «ألاريك Alaric» شيخُ قبيلة القوط الغربيين قد نشر الرعبَ والإرهاب من أسوار كونستانتينبول (القسطنطينية) إلى جزر البيلوبونيز الجنوبية، وفي ٤٠١م قام بغزو إيطاليا. استطاعت الإمبراطورية أن توقفه — إلى حدٍّ ما — في الخليج وحافظت على هذا الوضع بضع سنوات، إلا أنها وقعت في أسرِ فكرتين خاطئتين إلى حدٍّ كبير: الأولى هي أن كل البرابرة كانوا سواء؛ جماعات همج غير منضبطة، ولن يكونوا ندًّا لجيشٍ إمبراطوري منظَّم جيد الترتيب. هذا الوهم لم يدُم طويلًا. الفكرة الخطأ الثانية — وهي أن ألاريك كان يريد إسقاط الإمبراطورية — من أسفٍ أنها استمرت طويلًا، بينما كانت الحقيقة على عكس ذلك تمامًا. لم يكن ألاريك يقاتل لكي يدمِّر الإمبراطورية، وإنما لكي يؤسسَ وطنًا دائمًا لشعبه بداخلها، يتمتعون فيه باستقلالٍ ذاتي، ويحصل هو نفسه على مرتبة إمبراطورية عالية باعتباره شيخًا للقبيلة؛ ولو أن الإمبراطور الغربي «أونوريوس Honorius» — الذي كان موجودًا في رافينا — ومجلس الشيوخ الروماني استطاعوا أن يفهموا ذلك، لكانوا قد تجنَّبوا الكارثة النهائية؛ ولكنها كانت حتمية، بسبب عدم فهمهم.

حاصر ألاريك روما ثلاث مرات ما بين ٤٠٨، ٤١٠م. الحصار الأول جعلها تتضور جوعًا، واضطُر الرومان لدفع فدية كبيرة تضمَّنت خمسة آلاف رطل من الذهب، وثلاثين ألفًا من الفضة. الحصار الثاني انتهى بعد أن وافقوا على خلع الإمبراطور؛ الثالث، وكان قد بدأ عندما رفض أونوريوس التنازلَ وتحصَّن في رافينا، انتهى بسلب ونهب المدينة. حتى آنذاك، كان يمكن أن تكون الأمور أكثرَ سوءًا: ألاريك، باعتباره مسيحيًّا ورِعًا كما كان، أمر بعدم المَساس بأية كنيسة أو مبنًى ديني، وبمراعاة حرمة كل المقدَّسات. إلا أن السلب والنهب هما السلب والنهب، ولم يكن القوط برغم مسيحيتهم قديسين بأي حال. بعد انتهاء الأيام الثلاثة المسموحِ فيها بجمع الغنائم، زحف ألاريك جنوبًا، ولكنه لم يكن قد ابتعد كثيرًا عن «كوسنزا Cosenza» عندما سقط صريعَ حمَّى شديدة — ملاريا على الأرجح — ليموت في غضون أيام قليلة. كان في الأربعين. حمل أعوانه جثمانَه إلى نهر «بوسنتو Busento» الذي سدُّوه وحرَّفوه عن مجراه الطبيعي ودفنوا قائدهم في مهدِه، ثم عادوا فكسروا السدَّ لتنهمر المياه مرةً أخرى وتغطيه.

الهون، الذين كانوا — على خلاف القوط — برابرةً بأكثرَ مما يوحي به الاسم، كانوا قد شقُّوا طريقهم اقتحامًا في أوروبا في ٣٧٦م ودمَّروا المملكةَ القوطية الشرقية، إلا أن هذا الاحتكاك الأول لهم بالعالم المتحضر لم يكن له تأثيرٌ كبير فيهم. كانت الأغلبية الساحقة منهم ما زالوا يعيشون وينامون في العراء، يزدرون زراعةَ أي شيء، حتى الطعام المطهو — رغم أنهم يحبون أن يطروا اللحم النيئ بوضعه بين أفخاذهم وخواصر خيولهم وهم يركبونها. أما بالنسبة للملبس فكانوا يفضِّلون السترات القصيرةَ المصنوعة من جلد فئران الحقول، المخيطة في بعضها على نحوٍ فجٍّ. كانوا يرتدون هذه السترات دون أن يخلعوها حتى تتآكل وتسقط عن أجسادهم من تلقاء نفسها. كانت سروج الخيل بيوتهم، لا يبرحون صهوةَ الفرس حتى للأكل أو النوم. كان «أتيلا Attila» نفسه نموذجًا لجنسه: قصير القامة، داكن اللون، أخنس، العينان خرزيتان تموران ببريق الجشع، مثبتتان في رأس كبير الحجم لا يتناسب مع جسده، له لحيةٌ قليلة الشعر منتشرة في غير نظام. في غضون سنوات قليلة من ارتقائه العرش، أصبح معروفًا في أوروبا بـ «سوط الله The Scourge of God»؛ ولعله كان أكثرَ مَن يخشاه الناس من الرجال قبل ومنذ ذلك الوقت؛ ربما باستثناء نابوليون.

لم يُطلِق جيشه على إيطاليا إلا في ٤٥٢م. أضرم النار في كل المدن الفينيسية. «بافيا Pavia»، و«ميلانو Milano»، ثم نهبهما بعد الاستيلاء عليهما. بعد ذلك زحف جنوبًا على

روما، ثم توقَّف فجأةً دون سبب معلوم. لماذا؟ يظل السبب مجهولًا. يرجع الفضل في ذلك، كما يقال، للبابا «ليو الأكبر Leo the Great»، الذي سافر من روما للقائه على ضفاف نهر «منسيو Mincio» (ربما في مكانٍ يقع بالقرب من «بسكييرا Peschiera»؛ حيث ينبع النهر من بحيرة «جاردا Garda») وأقنعه بألا يواصل تقدُّمه.[٢٢] ولكن يبدو من الصعب أن يكون الهون قد أطاعوا البابا — وهم وثنيون — احترامًا لمقامه فقط. لا بد من أن يكون قد طلب إتاوةً كبيرة في المقابل. هناك آراءٌ كثيرة على أية حال في هذا الشأن. هناك ما يجعلنا نعتقد أن أتباعه لم يكن لديهم مئونة كافية من الطعام، بعد أن كانوا قد دمَّروا كل المناطق المحيطة، وأن الأمراض كانت قد بدأت تتفشَّى في صفوفهم. في الوقت نفسه كانت هناك قواتٌ قد بدأت تصل من القسطنطينية لدعم القوات الإمبراطورية المحلية. وأخيرًا؛ حيث من المعروف أن أتيلا كان ممن يؤمنون بالخرافات، هل يمكن أن يكون ليو قد ذكَّره بالطريقة التي مات بها ألاريك في غضون أسابيع من تخريب روما ونهبها، وقال له إن مصيرًا مماثلًا كان في انتظار أيِّ غازٍ يعتدي على المدينة المقدسة؟ لسنا متأكدين. كلُّ ما نعرفه هو أنه إذا كان ملك الهون قد ظن أنه بالإبقاء على روما كان يبقي على حياته، فإنه يكون قد أخطأ. بعد عام، وفي الليلة التالية لزواجه، وكان له زوجاتٌ كثيرات بالفعل، كان الإجهاد الشديد سببًا في نزيف مفاجئ. وبينما كان دم الحياة يسيل منه، كانت أوروبا كلها تتنفس مرةً أخرى — رغم أن ذلك، كما اتضح سريعًا، لم يستمر لفترة طويلة.

مقارنةً بالقوط والهون، فإن الوندال The Vandals، آخرَ الشعوب البربرية الكبرى الذين ألقَوا بظلالهم على القرن الخامس التَّعس، كان تأثيرهم المباشر على الإمبراطورية أقلَّ، ولكن تأثيرهم في البحر الأبيض كان أكبرَ من تأثير الشعبين الآخرين مجتمعين. هؤلاء القبليون الجرمان، بعقيدتهم الآريوسية المتعصِّبة، كانوا قد فرُّوا غربًا أمام الهون قبل نصف قرن تقريبًا، ثم استقروا في إسبانيا في سنة ٤٠٩م، بعد غزو وتخريب مساحة كبيرة من بلاد الغال Gaul. بقُوا هناك حتى سنة ٤٢٨م عندما قاد الملك «جايسيريك Gaiseric» — وكان قد توِّج حديثًا — شعبَه بالكامل (نحو مائة وثمانين ألف رجل وامرأة وطفل) عبْر البحر الأبيض المتوسط متجهًا إلى شمال أفريقيا. بعد أحد عشر عامًا فقط استولى على قرطاج،[٢٣] آخرِ حصنٍ إمبراطوري على الساحل، وجعلها بالفعل مركزًا للقرصنة. كان الآن قد بنى لنفسه أسطولًا قويًّا — الحاكم الوحيد الذي فعل ذلك — وخاصة بعد أن غزا صقلية في ٤٧٠م تقريبًا، ليصبح بذلك سيد البحر الغربي بلا منازع.

في أوائل صيف ٤٥٥م، أطلق جايسيريك حملتَه الأكثر قوةً ضد روما نفسها. كان ردُّ الفعل هناك ذعرًا شديدًا. الإمبراطور المسن «بترونيوس مكسيموس Petronius Maximus» القابعُ في قصره، أصدر على غير المتوقَّع نداءً يدعو فيه كلَّ القادرين جسديًّا، أن يهبُّوا للدفاع عن الإمبراطورية ويعلن في الوقت نفسه أن أي شخص يريد أن يغادر، كان له أن يفعل. لم يكن رعاياه ينتظرون الإذن بذلك. كان الرومان المذعورون بالفعل يرسلون زوجاتهم وبناتهم إلى أماكنَ آمنة، وكانت الطرق المؤدية إلى الشمال مختنقة بالمرْكبات؛ حيث كانت الأسر الأكثر قدرة تتدفق خارجةً من المدينة حاملةً معها كلَّ نفيس وغالٍ تخشى عليه من الوندال. في ٣١ مايو تمرَّد حرس القصر الإمبراطوري وقتلوا بترونيوس وقطعوا أوصاله وألقَوا بأجزائه في التيبر. للمرة الرابعة في أقل من نصف قرن — ولولا البابا ليو الخامس لكانت الخامسة — يقف جيشٌ بربري على أبواب روما.

مرةً أخرى، كان البابا الذي طالت معاناته يفعل ما في استطاعته. لم يكن قادرًا على إيقاف جايسيريك نهائيًّا، إلا أنه استطاع أن يحصل منه على وعدٍ بألا يكون هناك قتلٌ متعمَّد أو تدمير للمنشآت العامة أو الخاصة، وبناءً على هذا التفاهم فُتحت أبواب المدينة ودخل البرابرة مدينةً لا تقاوم. لمدة أربعة عشر يومًا قاسية، كان يتم تجريد المدينة من كنوزها: الذهب والفضة من الكنائس، التماثيل من القصور، الأواني المقدَّسة من المعبد اليهودي، حتى السقف النحاسي المذهَّب — أو نصفه — من معبد جوبيتر كابيتولينيوس. تم نقلُ كل شيء إلى «أوستيا Ostia» ثم تم تحميله على السفن المنتظِرة وأخذوه إلى قرطاج. كانوا عند كلمتهم ... فتركوا الناس والمنشآت ولم يمسوهم بسوء. هذه المرة تصرفوا كقطاعِ طرقٍ بالتأكيد، وليس كوندال.

قد يتبادر إلى الذهن أن الوندال ربما يكونون قد اكتفَوا بذلك، إلا أنه تصوُّر خاطئ. على مدى السنوات القليلة التالية كانوا يقومون بسلب ونهب «كامبانيا Campania» على نحوٍ منظَّم، واحتلوا جزر الباليري Balearic Islands وكورسيكا وسردينيا. ثم جاء الدَّور على صقلية التي نهبوا بعدها الشواطئ الغربية لليونان.

كانت الإمبراطورية الرومانية، كما تصوِّر هذه القصة الحزينة بكل وضوح، مريضةً إلى درجة الموت؛ ولذا لن يدهشنا تخلي آخرِ أباطرتها عن العرش في ٤٧٦م، ذلك الطفل المثير للشفقة، المكوَّن اسمه من صيغتي تصغير: «رومولوس أوجستولوس Romulus Augustulus». أسقطه بربري جرماني آخرُ يُدعى «أودوآكر Odoacer»،[٢٤] رفض نظام

تعدُّد الأباطرة القديم، ولم يعترف سوى بسلطة الإمبراطور «زينو Zeno» في القسطنطينية. كلُّ ما طلبه من زينو هو منْحه لقب «شريف Patrician»، واقترح أن يحكم إيطاليا تحت هذا اللقب وباسم الإمبراطور.

قبل خمس سنوات، كان شابٌّ في السابعة عشرة من العمر تقريبًا، اسمه «تيودوريك Theodoric»، قد خلف والده كقائد أعلى للقوط الشرقيين في سنة ٤٧١م. بالرغم من أنه لم يكن قد تلقى تعليمًا كافيًا خلال السنوات العشر الأولى من طفولته التي أمضاها كرهينة في القسطنطينية (يقال إنه كان يوقِّع باسمه طوال حياته بطريقة الاستنسل بواسطة شريحة ذهبية مثقبة)، كان قد فهِم البيزنطيين وأساليبهم بالغريزة، وهو ما أفاده كثيرًا فيما بعد. كان هدفه الرئيس من اعتلاء العرش، مثل كثيرين من زعماء البرابرة قبله، هو أن يجد ويضمن وطنًا دائمًا لشعبه. ومن أجل هذا الهدفِ كرَّس معظم السنوات العشرين التالية: يحارب أحيانًا من أجل الإمبراطورية وأحيانًا أخرى ضدها، يناقش ويساوم ويهدِّد ويداهن، إلى أن توصَّل في ٤٨٧م إلى اتفاقٍ ما مع زينو. سيقود تيودوريك شعبه كله إلى إيطاليا ويخلع أودوآكر ويحكم البلاد كمملكة قوطية شرقية تحت سيادة إمبراطورية. وهكذا باكرًا، كان الخروج الكبير في ٤٨٨م: رجال ونساء وأطفال بخيولهم وحيواناتهم التي تحمل أمتعتهم ... تحركوا جميعًا ببطء عبْر سهول أوروبا الوسطى بحثًا عن مراعٍ أكثرَ خضرة وسلامًا. قاتلهم أودوآكر، إلا أن جيشه لم يكن ندًّا لجيش القوط، فانسحب إلى رافينا؛ حيث حاصره تيودوريك أكثرَ من عامين، إلى أن رتَّب الأسقف المحلي هدنةً بينهما. تم الاتفاق آنذاك على أن يحكم الرجلان إيطاليا معًا، وأن يتشاركا القصر الإمبراطوري. كان يبدو ذلك حلًّا كريمًا من قِبل تيودوريك، إلا أنه اتضح بعد قليل أنه كان يريد تهدئةَ خَصمه وجعله يشعر بالأمان مؤقتًا. لم يكن لديه أي نية للحفاظ على وعده. في ١٥ مارس ٤٩٣م، دعا أودوآكر وزوجه وابنه وكبارَ ضباطه إلى وليمةٍ كبيرة، وهناك بعد أن اتخذ الرجل مكانه كضيف شرف تقدَّم تيودوريك ليشق جسده حتى الفخذين بضربة واحدة من سيفه. أما الحراس فتكفَّلوا بالضيوف الآخرين ... وبالأسلوب نفسه. أُلقي بزوجة أودوآكر في السِّجن حيث ماتت جوعًا، أما ابنه الذي كان قد سلَّمه للقوط الشرقيين، فأُرسل إلى الغال ليُعدم هناك. وأخيرًا، خلع تيودوريك الجلودَ والفِراء التي كانت الرداء الرسمي لبني جنسه وارتدى — كما لم يفعل أودوآكر — الأرجوان الإمبراطوري، واستقر ليحكم روما.

كان أن قام بذلك بهدوء وكفاءة على مدى الثلاث والثلاثين سنة التالية، ويرمز الضريح الذي بناه لنفسه، بعظمته المعمارية التي تجمع بين الكلاسيكية والبربرية إلى أنه كان يهيمن على حضارتين. هذا الضريح غير العادي ما زال موجودًا في الضاحية الشمالية الشرقية من رافينا. لا يوجد قائدٌ جرماني آخرُ أقام عرشه على أطلال الإمبراطورية الغربية كان يمتلك ذرةً من حُنكة تيودوريك ورؤيته السياسية. بموته في ٣٠ أغسطس ٥٢٦م، فقدت إيطاليا أعظمَ حكامها في العصور الوسطى. لم يكن له مثيل حتى أيام «شرلمان Charlemagne».

كان المسرح الآن معدًّا لظهور — ربما — أعظمِ أباطرة البيزنطيين بعد كونستانتين (قسطنطين) نفسه. «جستنيان Justinian»، من مواليد ٤٨٢م في قرية صغيرة من قرى تراقيا. ينتمي إلى أصولٍ متواضعة. كان في السادسة والثلاثين من العمر عندما خلف عمُّه «جستن Justin» الإمبراطورَ «أناستاسيوس Anastasius» (٨٧ سنة) على عرش القسطنطينية. كان جستن عسكريًّا على قدرٍ محدود من التعليم، استطاع على نحوٍ ما أن يصبح قائدًا لقوة من قوات القصر. أما كيف استطاع الوصول إلى العرش وخلافة أنستاسيوس فيظل أمرًا مجهولًا. يبدو أنه كان هناك انقلابٌ ما، والأكثر ترجيحًا أن يكون لابن أخيه يدٌ في ذلك.

لا بد أن يكون جستنيان قد جاء إلى القسطنطينية طفلًا، وإلا لما عُرف عنه أنه كان على علمٍ وثقافةٍ من المتعذر تحصيلهما خارج العاصمة. كان عمُّه سعيدًا بأن يذعن لذكائه الخارق وبأن يسمح له بأن يحكم الإمبراطورية بالفعل باعتباره صفيَّه ومحلَّ ثقته (his eminence grise). كان جستنيان يقوم بذلك بمقدرةٍ تامة على مدى عامين أو ثلاثة قبل أن يلتقيَ «تيودورا Theodora» زوجَ المستقبل. لم تكن — مع الترفُّق في وصفها — كفئًا له بأي درجة. كان أبوها سائسَ دببة، وأمُّها لاعبةً في السيرك. كانت هي نفسها تبذل جهدًا كبيرًا لتحسين درجة تقبُّلها في المجتمع الراقي. مفاسدها الكثيرة التي رواها معاصرها «بروكوبيوس Procopius» في كتابه «التاريخ السري Secret History» يمكن — كما نتمنى — أن نتناولها بالتفصيل،[٢٥] إلا أنه ليس هناك شكٌّ في أنها، على الأقل في شبابها، «لم تكن أفضلَ مما كان ينبغي لها أن تكون» كما يقول أجدادنا.

عندما خطفت عين جستنيان من أول نظرة، كانت في منتصف الثلاثينيات من عمرها، كانت جميلة وذكية، وعلى درجةٍ من التعقل والنضج كانا مفتقدين في السنوات

الأولى. هذه العقبات في طريق الزواج سرعان ما تم التغلب عليها، وفي سنة ٥٢٥م، أعلن البطريرك[٢٦] زواج جستنيان وتيودورا. عندما مات جستين بعد عامين، وجدا نفسيهما الحكام الوحيدين والأعلى للإمبراطورية الرومانية. كان الجمع أو الشراكة بينهما مهمة. كان لا يمكن أن تكون تيودورا مجرد إمبراطورة مرافقة Empress Consort، ونزولًا على إصرار زوجها كذلك كانت تحكم «معه» وتتخذ قرارات باسمه وتشارك في الشئون العليا. كان لا بد من أن يكون ظهورها المستقبلي على المسرح العام مختلفًا عنه في الماضي.

لعل ذلك الصراع الرائع الذي خلَّفه جستنيان: الكنيسة الثالثة، أيا صوفيا (سان صوفيا St Sophia) هي أهم ما يذكِّرنا به اليوم، كانت الأخريان اللتان شيَّدهما في خمس سنوات بين ٥٣٢ و٥٣٧م، قد التهمتهما الحرائق.[٢٧] من إنجازاته المدهشة كذلك كان جمْع وتصنيف القوانين الرومانية وتنقيتها من كل التناقضات والتأكُّد من عدم وجود أي تعارض مع العقيدة المسيحية وتوخِّي الدقة والوضوح في الصياغة؛ على أن ما يهمنا هنا هو أن أعظم إنجازاته كان استعادته إمبراطورية الغرب. كان من الواضح جدًّا بالنسبة له أن إمبراطورية رومانية بدون روما، سيكون ضربًا من العبث، وكان من حسن حظه أن يكون أداته لذلك أبرع جنرالات التاريخ البيزنطي كله، كان مِثله من أبناء تراقيا وأصبح رومانيًّا، اسمه «بيليزاريوس Belisarius».

كانت المنطقة الأولى التي تم اختيارها لإعادة إخضاعها هي «مملكة الوندال Vandal Kingdom» في شمال أفريقيا. تلقَّى بيليزاريوس الأمر، وانطلقت الحملة في أحد أيام صيف ٥٣٣م: خمسة آلاف جندي خيَّالة، وعشرة آلاف جندي مشاة — كان نصفهم على الأقل مرتزقة من البرابرة معظمهم من قبيلة الهون — حملَتهم خمسمائة ناقلة في حراسة اثنتين وتسعين درومونة.[٢٨] قاومهم «جيلمر Gilmer» ملِك الوندال ورجاله ببسالة، إلا أن الخيَّالة الهون — الهمج والأكثر شراسة — كانوا أقوى منهم. في معركتين منفصلتين قام جنود الخيَّالة بالهجوم، وفي المرتين كان الوندال يتقهقرون ويلوذون بالفرار؛ وفي يوم الأحد ١٥ سبتمبر ٥٣٣م، دخل بيليزاريوس قرطاج. جيلمر نفسه لم يستسلم على الفور. ظلَّ شاردًا في الجبال على مدى ثلاثة أشهر في عز الشتاء، وعندما اكتشف في يناير ٥٣٤م أنه كان محاصرًا أرسل يطلب ضمادةً ورغيفَ خبز وقيثارة. شرح رسوله الأمر بأنه كان يحتاج الضمادةَ لعينه المقروحة، والرغيف لأنه كان في حاجة إلى خبز «حقيقي» بعد أسابيع من العيش على «عجين» المزارعين غير الخامر، أما بالنسبة للطلب الثالث «القيثارة»، فاتضح أنه كان قد كرَّس وقته أثناء هربه لتأليف لحنٍ حزين يندُب فيه حظه ومآله. لم يسلِّم جليمر نفسه إلا في شهر مارس.

والآن كان دور إيطاليا القوطية الشرِقة. بجيش حجمه أصغر نسبيًّا — ٧٥٠٠ جندي بينهم عدد كبير من الهون — أبحر بيليزاريوس إلى صقلية التي استولى عليها دون مقاومة. بعد ذلك عبَر مضايق مسيني متغلغلًا دون مقاومة حتى وصل إلى نابولي، التي — عندما استسلمت في النهاية — كانت قد دفعت ثمنًا كبيرًا لبطولتها. كان القتل والسلب والنهب الذي حدث بعد ذلك مرعبًا، حتى بمقاييس ذلك الزمان. لم يكن الهون الوثنيون يشعرون بوخزة ضمير واحدة وهم يقومون بإحراق الكنائس التي كان الضحايا يلجئون إليها. سرعان ما انتقلت الأخبار إلى روما؛ حيث دعا البابا «سلفيريوس Silverius»، على الفور، بيليزاريوس لاحتلال المدينة، وفي ٩ ديسمبر ٥٣٦م زحف الجيش البيزنطي عبْر «بورتا أسيناريا Porta Asinaria» بالقرب من «سان جون لايتران St John Lateran»، بينما هرب القوط عن طريق «بورتا فلامينيا Porta Flaminia».

ولكن لو أن سلفيريوس كان يريد بذلك إنقاذَ روما من حصار آخر، فإن أمله يكون قد خاب. بيليزاريوس نفسه كان يعرف جيدًا أن القوط سيعودون، وشرع من فوره في بناء دفاعاته، وكان ما فعله أمرًا جيدًا؛ حيث اتخذ الجيش القوطي مواقعَه حول أسوار المدينة في مارس ٥٣٧م. الحصار الذي حدث — وبدأ بقطع جميع القنوات المائية، وبذلك وجَّه لروما ضربةً لم تُفِق منها على مدى ألف عام — استمرَّ عامًا وتسعة أيام، وكان يمكن أن يستمر أطول من ذلك، لو لم تصل تعزيزاتٌ مهمة من القسطنطينية في الوقت المناسب. حتى ذلك الحين لم يكن الصراع قد انتهى. القوط رفضوا الاستسلام تمامًا، ولمدة ثلاث سنوات أخرى كانت الحرب مستمرةً على شبه الجزيرة والدمار والخراب ينتشران من أقصاها إلى أقصاها.

جاءت النهاية على نحوٍ، يقول كثيرون فيه إن جزءًا منه كان الفضل فيه يعود إلى بيليزاريوس. كان قد اقترب ببطء من رافينا — التي كانت الآن العاصمة القوطية مثلما كانت العاصمة البيزنطية — وبحلول ربيع عام ٥٤٠م كان قد تم تطويق المدينة، برًّا بواسطة الجيش، وبحرًا بواسطة الأسطول الإمبراطوري. وذات ليلة، وصل رسول سري من البلاط القوطي يحمل عرضًا غريبًا: سوف يقومون بتسليم التاج لـ «بيليزاريوس»، على تفاهم مُفاده أن يعلن نفسه إمبراطورًا على الغرب. كان الكثير من الجنرالات الإمبراطوريين يمكن أن ينتهز مثل هذه الفرصة؛ وكان من المحتمل أن يؤيده معظم جيشه، وبوجود القوط وراءه كان يمكن أن يكون أكثرَ قدرةً على التعامل مع أي حملة تأديبية من القسطنطينية. لم يهتزَّ ولاء بيليزاريوس، ولكنه وجد على الفور وسيلةً لكي يصل بالحرب

إلى نهاية سريعة وظافرة. لوَّح بما يعني أن العرض قد تم قبوله، وزحف الجيش الإمبراطوري ليدخل المدينة.

ولأن النبلاء القوطيين كانوا قد وقعوا في الأسر، فلا بد أنهم كانوا يشعرون بمرارةٍ شديدة بسبب غدر الجنرال الذي خانهم. من ناحيةٍ أخرى لم يتأثر بيليزاريو؛ فقد كان عرْض القوط نفسه غادرًا وخائنًا. أفلم يكونوا كلهم متمردين على السلطة الإمبراطورية؟! الحرب هي الحرب، وباحتلال رافينا — كما فعل — فقد تجنب حمَّامَ دم في كلا الجانبين. في مايو ٥٤٠م حملَته سفينة إلى البوسفور، يمكن أن نكون واثقين من أنه كان يشعر في قرارة نفسه بالرضا عن عملٍ قام به على خير وجه. بعد أن فرغ من شمال أفريقيا، كان الإمبراطور قد أنعم عليه بموكب نصر رائع. ماذا كان يمكن أن يتوقَّع هذه المرة بعد أن سلَّم شبه الجزيرة الإيطالية كلها، بما في ذلك رافينا وروما نفسها ليدَي جستنيان؟

من أسف أنه لم يكن هناك أي شعور بالانتصار في أجواء القسطنطينية عندما عاد إليها. لا جستنيان ولا رعاياه كانوا في حالةٍ تسمح بالاحتفال. في يونيو ٥٤٠م، وبعد أسابيعَ قليلة من سقوط رافينا، غزت قوات الملك الفارسي «خوسرويس Chosroes»[٢٩] الإمبراطورية ودمَّرت أنطاكية وذَبحت معظم أهلها وأسَرَت الآخرين عبيدًا. كان حضور الجنرال مطلوبًا على وجه السرعة، ليس في الهيبودروم، وإنما على الجبهة الشرقية. لحسن الحظ، اتضح أن الملك الفارسي كان قد خرج للسلب والنهب أكثرَ منه للغزو، وفي مقابل خمسين رطلًا من الذهب ووعْدٍ بمثلها سنويًّا، عاد سعيدًا إلى فارس. حتى بالرغم من ذلك لم يتلقَّ بيليزاريوس مكافأته. كان سيئ الحظ بما يكفي؛ فقد كان مكروهًا من الإمبراطورة «تيودورا Theodora» كذلك. في ٥٤٢م، عندما كان جستنيان بين الحياة والموت مريضًا بالطاعون، أعفته من قيادته للشرق وسرَّحت جيشه وصادرت كلَّ ثروته. في العام التالي، بعد أن استعاد الإمبراطور عافيته بدرجةٍ ما ليعيد تأكيد سلطاته، تم العفو عن بيليزاريوس وأصبح مرضيًّا عنه تقريبًا، إلا أنه كان قد أصبح أكثرَ حزنًا ... وحصافة. لم يكن قد وصل إلى الأربعين من العمر عندما عاد إلى إيطاليا في مايو ٥٤٤م.

وجد أن كل أعماله هناك كانت معطَّلة. من الواضح أن جستنيان كان قد أحيط علمًا بعرض القوط العرشَ على بيليزاريوس، وكان يخشى أن يَضعف أحد خلفاء الجنرال أمام نفس الإغراء، وبناءً على ذلك عَهد بحكم إيطاليا إلى ما لا يقلُّ عن خمسة جنرالات دون أن يَمنح أيًّا منهم سلطةً على الآخرين، وعندما وجدوا أنفسهم هكذا قاموا باقتسام المنطقة

فيما بينهم وتفرَّغوا لنهبها. في غضون أسابيعَ قليلة كانت معنويات الجيش البيزنطي قد أصبحت في الحضيض، وأصبح الطريق خاليًا أمامَ صعود أكثر حكام القوط جاذبيةً شخصيةً وأعظمهم بعد تيودوريك. كان اسمه «بوديلا Baduila» بحسبِ ما كان مكتوبًا على العملة، ولكن يبدو أنه طوال حياته كان معروفًا بـ «توتيلا Totila»، وبهذا الاسم سيدخل التاريخ.

عندما اعتلى توتيلا العرشَ القوطي في سنة ٥٤١م، كان ما يزال في أوائل العشرينيات من عمره، إلا أنه كان أكبر من سنه عقلًا وإدراكًا. لم ينسَ قط أن غالبية رعاياه لم يكونوا من القوط وإنما كانوا إيطاليين. في أيام تيودوريك وخلفائه كانت العلاقات بين الإيطاليين وديةً ووثيقة، ومنذ انتصارات بيليزاريوس كانت الأرستقراطية الإيطالية قد ألقت بكل ثِقلها مع الإمبراطورية. كان مَيل الحاكم الشاب الجديد إذن إلى الفئات الأدنى من المجتمع الإيطالي — الطبقة المتوسطة وبروليتاريا المدن والمزارعين — فوعدهم بإنهاء الظلم البيزنطي وتحرير العبيد وتفكيك الإقطاعيات والعِزب وإعادة توزيع الأراضي، وألا تكون الضرائب التي يدفعونها من أجل بلاط كبير فاسد، ولا من أجل بناء قصور كبيرة بعيدة، أو لدفع أموال حماية لقبائل بربرية بعيدة لم يسمع بها أيُّ إيطالي من قبل. كان ذلك كله ضربًا على الوتر الحسَّاس. في غضون ثلاث سنوات — ليس أكثر — كانت شبه الجزيرة كلها قد أصبحت تحت سيطرته، وفي يناير ٥٤٤م كان كل الجنرالات الإيطاليين في مختلف مواقعهم قد استسلموا له. بكل أدب واحترام أبلغوا الإمبراطور أنهم لن يدافعوا بعد ذلك عن الإمبراطورية في إيطاليا. كانت رسالتهم هذه — بالتأكيد — هي التي جعلت جستنيان يعيد بيليزاريوس.

فعل بيليزاريوس كلَّ ما كان في وُسعه أن يفعله. أدرك من فوره أنه كانت هناك انشقاقات كثيرة بين القوات الإمبراطورية — كان كثيرون لم يتسلموا رواتبهم منذ أكثر من عام — كما أدرك أن القوط لم يكونوا وحدَهم المعادين للإمبراطورية. كان معظم المواطنين كذلك. كان يعرف أنه يستطيع أن يحافظ على وجود إمبراطوري في إيطاليا بواسطةِ ما لديه من قوات، لكنه كان يعرف كذلك أنه لا يستطيع أن يغزوَ شبه الجزيرة كلها. في مايو ٥٤٥م كتب إلى الإمبراطور شخصيًّا:

> سيدي. لا بد من إبلاغكم بأن الجزء الأعظم من جيشك قد تمت استمالته، وأنهم يخدُمون الآن تحت راية العدو. إذا كان مجرد إرسال بيليزاريوس إلى إيطاليا هو كل ما يلزم، فإن استعداداتك للحرب تكون بارعة، أما إذا كنت تريد أن

تقهر أعداءك، فلا بد من أن تقوم بما هو أكثر من ذلك؛ فالجنرال لا يساوي شيئًا دون ضبَّاطه. أولًا، وقبل كل شيء، لا بد من أن ترسل إليَّ حرسي الخاص سواء الخيَّالة أو المشاة، ثانيًا: عددًا كبيرًا من الهون والبرابرة الآخرين، ثالثًا: الأموال التي لا بد من دفعها لهم.

لم يأتِ ردٌّ من القسطنطينية. في العام التالي، وبعد حصار طويل استولى توتيلا على روما، وأرسل من فوره سفراء إلى الإمبراطور يعرض السلام على أساس التوزيع القديم كما كان تحت تيودوريك، إلا أن جستنيان رفض أن يسمع ذلك. لو فعل، لكان ذلك يعني حذف عشر سنوات من الحملات العسكرية والسماح بهزيمة طموحاته وليس جيوشه فقط. من ناحية أخرى، لن يعطيَ جنراله ما كان يريده من دعم.[٣٠] هكذا تدهور الوضع في إيطاليا، ووصل إلى طريق مسدود، وفي أوائل ٥٤٩م صدرت الأوامر إلى بيليزاريوس، المحبط خائب الأمل، بأن يعود.

عاد ليجد الإمبراطور في حالةٍ من الحزن الشديد واهن العزيمة. كانت تيودورا قد ماتت بالسرطان قبل أشهرٍ قليلة، وكان على زوجها أن يعيش الحِداد عليها حتى آخر العمر. كانت هناك أزمة لاهوتية رئيسية بين يديه كذلك — من النوع الذي ظهر كثيرًا في بيزنطة — وبينما كان ما زال مصرًّا على إعادة غزو إيطاليا لم يكن الآن قادرًا على أن يعطيَ الأمر ما يستحقه من اهتمام. في سنة ٥٥١م فقط حفزته الأخبار القادمة من شبه الجزيرة على العمل. أعاد توتيلا إحياءَ الألعاب التقليدية في المسرح المدرَّج الكبير، وكان يشرف على ذلك بنفسه من المقصورة الإمبراطورية. في الوقت نفسه كان أسطوله يخرِّب كلًّا من إيطاليا وصقلية، وكان قد عاد مؤخرًا إلى روما محملًا بالغنائم. كانت هذه الإهانة المزدوجة أكثرَ مما يحتمل. أخيرًا استقر جستنيان على أن يكون هناك جهد واحد كامل. ليس مؤكدًا أن يكون قد عرض على بيليزاريوس قيادةَ حملة ثالثة؛ فمثل هذا العرض ليس مسجلًا في أي مكان، والاحتمال الأكبر أنه كان سيرفض. كان بيليزاريوس قد فاض به الكيل. وقع اختيار الإمبراطور على «جيرمانوس Germanus»، أول أبناء عمِّه، ولكن جيرمانوس مات بالحمى قبل أن يبحر. اختياره الثاني كان أكثرَ مدعاة للدهشة: خصي أرميني في السبعين يُدعى «نارسيس Narses».

لم يكن نارسيس عسكريًّا. كان قد أمضى معظم حياته في القصر؛ حيث صعد ليصبح قائدًا للحرس الإمبراطوري، ولكن تلك كانت وظيفةً مدنية أكثر منها عسكرية. ثم كان أن أرسله جستنيان إلى إيطاليا في ٥٣٨م على رأس قوات لتدعيم الجيش البيزنطي أثناء

محاصرة القوط لروما. كان ذلك هو السبب الظاهر، إلا أن السبب الحقيقي كان بهدف وضع عينيه على بيليزاريوس الذي كان ذكاؤه وطموحه مصدرَ قلق للإمبراطور. هناك، أثبت نارسيس قدرةً على التنظيم وقوة الإرادة والحزم، وبعد ثلاثة عشر عامًا لم يكن قد فقد شيئًا من طاقته أو قدراته. كان نارسيس، بالإضافة إلى ذلك، يفهم إمبراطوره أكثرَ من أي شخص آخر، فأقنعه بسهولة أن يكوِّن جيشًا أكبرَ مما كان ينوي بالنسبة لجيرمانوس: خمسة وثلاثون ألف جندي على الأقل معظمهم من البرابرة، كما يضم عددًا من الفرس الذين كان قد تم أسرهم في الحرب الأخيرة مع خوسرويس (كسرى).

حتى أوائل صيف ٥٥٢م لم يكن نارسيس قد بدأ زحفه على إيطاليا. كان ما زال ينقصه السفن اللازمة لنقل جنوده، فاضطُر لاتخاذ طريق البر متقدمًا حول رأس الأدرياتيكي إلى رافينا، وهناك أعطى ما كان قد تبقَّى من القوات المحلية رواتبَهم المتأخرة. بعد ذلك قادهم جنوبًا عبر الأبنين نزولًا إلى فلامينيا في اتجاه روما، بينما كان توتيلا يتقدَّم شمالًا على الطريق نفسه لكي يعترض مروره. التقى الجيشان بالقرب من قرية «تاجينيا Taginae» الصغيرة لتكون المواجهة الحاسمة في حرب كاملة. تم تطويق الجيش القوطي ودحره، وبينما كانت الشمس تميل نحو الغروب كان جنوده قد فروا هاربين. توتيلا نفسه هرب مع الآخرين مثخنًا بالجراح القاتلة ليموت بعد ساعات قليلة.

الآن، كانت كل آمال القوط قد تبدَّدت إلا أنهم لم يستسلموا. بالإجماع، أعلنوا «تيا Teia» — أحد أشجع جنرالات توتيلا — خليفةً له، وواصلوا الصراع. في الوقت نفسه كان نارسيس يواصل تقدُّمه جنوبًا لتفتح المدن أبوابها أمام الغزاة واحدةً تلو الأخرى. روما نفسها سقطت بعد حصارٍ قصير — وهكذا كانت تنتقل من يد إلى يد للمرة الخامسة منذ بداية حكم جستنيان — إلا أن الخصي العجوز كان مستمرًّا في زحفه. كان توتيلا — كما نما إلى علمه — قد أودع احتياطاتٍ ضخمة من الكنوز وسبائك الذهب وجدائل الفضة في «كوماية Cumae» على خليج نابولي، وكان نارسيس مصمِّمًا على أن يضع يده عليها قبل غيره. تيا، بالمثل، كان مصرًّا على أن يوقف زحفه. في آخر أكتوبر، وعلى بُعد ميل أو ميلين من مدينة بومبي المنسية في وادي «سارنو Sarno»، التقى الجيشان للمرة الأخيرة. سقط تيا قتيلًا برمحٍ محكَم التصويب، ولكن حتى بعد أن حمل خصومه رأسَه على حربةٍ لكي يراه الجميع، لم يكن هناك تراجع، استمر رجاله في القتال حتى مساء اليوم التالي. بموجب شروط الاتفاق الذي تم التوصُّل إليه، تعهَّد

القوط بمغادرة إيطاليا، وبألا يشنوا حربًا أخرى ضد الإمبراطورية. أخيرًا تحقَّق طموح جستنيان الكبير.

لا يقدِّم لنا التاريخ سوى أمثلة قليلة لحملاتٍ سريعة وحاسمة مثل حملة نارسيس الناجحة، التي قادها جنرال في منتصف السبعينيات من العمر — وبالتأكيد ليس في ذلك أيُّ محاولة للدفاع عن الإخصاء. إلا أنه — وهذا مما يكاد لا يصدِّقه عقل تقريبًا — أثناء ما كان الأرميني العجوز يزحف بجيشه على إيطاليا في ربيع ٥٥٢م، كانت قوات حملة بيزنطية أخرى أصغر حجمًا تحت جنرالٍ أكبرَ سنًّا، قد رست في إسبانيا؛ كان اسمه «ليبيريوس Liberius»، ويقول تاريخه الشخصي إنه كان «واليًا إمبراطوريًّا Praetorian Prefect» على إيطاليا قبل ستين عامًا في أيام تيودوريك. في ذلك الوقت الذي نتحدَّث عنه، من المحتمل ألا يكون عمره إذن أقلَّ من خمس وثمانين سنة.

كانت إسبانيا آنذاك في أيدي القوط الغربيين Visigoths الذين وصلوا إلى هناك أولًا — بعد قبائل بربرية أخرى كثيرة — في عام ٤١٦م، والذين عقدوا حلفًا مع روما في ٤١٨م، وافقوا بموجب شروطه على الاعتراف بسيادة الإمبراطورية. كان الوضع في إسبانيا مثل ذلك في إيطاليا تحت حكم تيودوريك. أرستقراطية رومانية مالكة للأراضي تعيش في إقطاعياتها في دَعةٍ، راضية تمامًا بالأوضاع مثلما هي — دون شك — ممتنة لبُعد المسافة التي تفصلهم عن القسطنطينية مما يقلل التدخل الإمبراطوري، ربما لدرجة عدم الإدراك. بالنسبة لهم ولسادتهم من القوط الغربيين، كان أول إنذار بالعاصفة القادمة قد جاء مع تخليص بيليزاريوس شمال أفريقيا من الوندال في ٥٣٣م وطرد حامية القوط الغربيين من ميناء سبتم Septem (كيوتا Ceuta الآن) في العام التالي. كانت محاولة «تيودس Theodis» ملكِ القوط الغربيين استعادتها في ٥٤٧م قد انتهت بكارثة. تعلُّله بأن الرومان قد خانوهم بقيامهم بالهجوم يومَ أحدٍ بينما كان يصلي في الكنيسة، لا يغيِّر شيئًا من حقيقة أن جيشه هُزم تمامًا. هو نفسه لقي حتفه على يد أحد الحشاشين بعد وقت قصير.

في ٥٥١م، وجد الملك «أجيلا Agila» (الخليفة الثاني لـ «تيودس») نفسَه أمام تمرُّد بقيادة «أثيناجلد Athenagild» (أحد أقاربه)، الذي لجأ للإمبراطور لكي يساعده. هنا تحديدًا كانت الفرصة التي كان جستنيان يتحيَّنها. أمر باقتطاع قوة صغيرة من جيش نارسيس — ألف أو ألفا جندي على الأكثر — وإرسالها إلى إسبانيا تحت قيادة ليبيريوس.

واجهت القوة مقاومةً بسيطة؛ تم شقُّ جيش القوط الغربيين من المنتصف، وقبل وقت طويل كان ليبيريوس يسيطر على المساحة كلها جنوب خط ممتدٍّ من «فالينسيا Valencia» إلى كاديز (قادش) Cadiz، بما في ذلك «قرطبة Cordova». في ٥٥٥م قُتل أجيلا بيد جنوده، واعتلى أثيناجلد العرش دون معارضة.

لو أن الملك الجديد كان قد وافق على أن يحكم كتابع إقطاعي إمبراطوري، فلربما كانت الأمور كلها قد سارت على ما يرام. لم يكن ذلك في نيته، وجعل من الواضح لـ «ليبيريوس» أنه كان يتوقَّع انسحابه هو وجيشه بمجرد أن يكون ذلك مناسبًا. القائد العجوز، الذي كان من الواضح أنه دبلوماسي جيد مثلما هو جنرال جيد، وافق من حيث المبدأ؛ إلا أنه استطاع أن يقنع أثيناجلد — تدريجيًّا — بأن يتفاوض، وفي النهاية توصَّل الاثنان إلى تفاهمٍ احتفظت بموجبه الإمبراطورية بجزء كبير من الأراضي التي غزتها. ولكن لم يكن هناك جنود على مسافةٍ قريبة لتشكيل حامية، كما أن خطوط الاتصال كانت طويلة على نحوٍ خطِر، وسرعان ما كان جستنيان مضطرًّا للاعتراف بأن نحو ٨٠٪ من شبه جزيرة أيبيريا كان خارج نطاق سيطرته. من ناحيةٍ أخرى، كان يحتفظ بجزر الباليري Balearic Islands، التي كانت توفِّر له مع كورسيكا وسردينيا (التي أُعيد غزوها على التوالي بواسطة بيليزاريوس ونارسيس) قاعدةً قوية في الحوض الغربي من المتوسط، وكان يستطيع أن يباهيَ بأن إمبراطوريته كانت الآن قد أصبحت مرةً أخرى ممتدة من البحر الأسود إلى الأطلنطي.

كان ذلك صحيحًا، ولكنَّ القوط الغربيين استمروا يلوِّحون بقوَّتهم. استطاع أثيناجلد، الذي كان يحكم الآن من طليطلة هو وحلفاؤه أن يبسطوا نفوذهم من خلال سلسلة من الحملات الناجحة على المزيد والمزيد من البلاد إلى أن تم، في النهاية، تصفيةُ آخر مقاطعة إمبراطورية متمركزة في قرطاج في أوائل القرن السابع. بنهاية القرن نفسه، كانت الجماعتان المنفصلتان، الرومان والقوط، اللتان كانتا تميزان إسبانيا على مدى الثلاثمائة سنة الأخيرة، لم يَعُد لهما وجود. في سنة ٧٠٠م، كان هناك شعبٌ قوطي نسبيًّا، هو الذي يعيش في شبه جزيرة أيبيريا؛ ولكن ما كاد يمر عَقد واحد من القرن الجديد حتى دعا هذا الشعب لمواجهة عدو جديد ... مرعب.

يعتقد أن جستنيان كان آخرَ إمبراطور بيزنطي يستطيع أن يتحدَّث اللاتينية أسهل مما يتحدَّث اليونانية، بالرغم من إتقانه اللغتين. بعد قرنين من قيام كونستانتين الكبير

(قسطنطين الكبير) بغرسِ إمبراطوريته في العالم اليوناني كان تحويل الإمبراطورية إلى الهلنستية قد تم تقريبًا. منذ تأسيس الإمبراطورية على يدِ أوجسطس، كانت تتبنى كلتا الحضارتين: اللاتينية واليونانية، ومع الوقت بدأت الحضارتان في التباعد لتتخذ كلتاهما مسارها الخاص. اليونانيون على سبيل المثال، بعد نجاتهم من أسوأ الغزوات البربرية، تفوَّقوا على اللاتين في المعرفة وكذلك في الثقافة الرفيعة، وكانوا يشعرون بهذا التفوُّق إلى حدٍّ كبير. ولعلهم بالجدل والخلاف جعلوا الكنيسة الشرقية في حال اختمار مستمر، مما أدَّى إلى نمو كثير من الهرطقات والبِدع الخطِرة. كذلك فإن البطارقة المتوالين كانوا يفعلون ذلك مع قدرٍ من النفور، هذا إن كانوا يعترفون بسلطة البابا أصلًا. باستثناء البابوية، من المؤكَّد أن الإمبراطورية البيزنطية كانت أكثرَ دولة ذات توجُّه ديني في تاريخ المسيحية. كان القديس «جريجوري النيسوي St Gregory of Nyssa» قد كتب بالفعل في القرن الرابع:

> إذا سألت شخصًا عن التغيير فسيردُّ عليك بقطعة من الفلسفة، وإن سألت عن ثَمن رغيف خبز، فسيردُّ «الآب أعظم والابن أدنى منزلة»، وإن سألت إن كان الحمَّام جاهزًا فستكون الإجابة أن الابن جاء من اللاشيء!

في السنوات التالية لم يكن هناك ما يشير إلى أن هذه النزعة كانت في طريقها للانحسار، والحقيقة أن هناك مَن يرى أن البيزنطيين ما كان لهم أن يطوِّروا فنَّهم الروحي العميق الذي عرفه عالَم البحر الأبيض، دون تلك النزعة. الجدل البيزنطي. لقد تعلَّم فنانوهم كيف يصوِّرون روح الله؛ ربما تكون مهمة عسيرة، ولكنهم كانوا يعبِّرون عنها في أيقوناتهم وفسيفسائهم ورسومهم على الجدران والسقوف مرةً تلو الأخرى.

عالم البحر الأبيض الذي كان موجودًا تحت حكم جستنيان، كان مختلفًا عنه تحت حكم أباطرة القرنين الأول والثاني، يشهد على ذلك كونستانتين الكبير والغزوات البربرية. إلا أن الكثير من البيزنطيين ربما يعترضون ويؤكدون العكس. لم يكن في إمبراطوريتهم الرومانية سوى القليل المشترَك مع إمبراطورية أوجسطس ومَن جاءوا بعده. كانت القوة والسلطة والنفوذ قد غادرت روما نفسها منذ أمد؛ أما القسطنطينية فلم تكن لتستطيع بسبب موقعها الجغرافي وحده، أن تسيطر على الحوض الغربي من المتوسط كما كانت روما. لم يَعُد البحر الأبيض المتوسط ولا الأراضي المحيطة به عرضةً لقوة منفردة، لم يَعُد بالإمكان وصفه بأنه بحيرةٌ رومانية، ولا بـ «بحرنا mare nostrum»، حتى بعد إعادة

غزو جستنيان لإيطاليا. مثل هذه المزاعم الملتبسة، بهذا الخصوص، في القرن السادس، كان لا بد من إعادةِ النظر فيها سريعًا، وعلى نحوٍ جذري.

هوامش

(١) من المثير للدهشة أن الاسم اللاتيني الأكثر شيوعًا للبحر الأبيض كان mare nostrum؛ أي «بحرنا». لم يسبق أن كانت هناك قوةٌ سابقة لديها القدرة على إعلان هذه الزعم، كما لم تستطِع أي قوة أن تدَّعي ذلك منذ تلك الأيام.

(٢) المعروف أن الملك «هيرود Herod» مات في القرن الرابع ق.م.

(٣) ربما لا تكون الكلمة الإنجليزية Odes دقيقةً في هذا السياق، ولعل الكلمة اللاتينية Carmina أكثرُ ملاءمةً لوصف هذا الجنس الأدبي.

(٤) يُعتقد أن هذا العمل الفني الرائع الذي اكتُشف في سنة ١٨٨٧م في مقابر صيدا كان لحفظ جسد «أبدالونيموس Abdalonymous» آخر ملوك المدينة، الذي عيَّنه الإسكندر في ٣٣٢ق.م.، ويوجد على جوانبه رسومٌ تصوِّر الإسكندر في السِّلم والحرب.

(٥) المسرح المدرَّج الكبير، ويرجع تأريخه إلى أواخر القرن الأول الميلادي، ويغطي شكله البيضوي أرضًا مساحتها ستة أفدنة تقريبًا، ويسع خمسين ألف مشاهد. يتناثر حول محيطه نحو ثمانين بوابة معقودة. (المترجِم)

(٦) ويضيف: «ليس من السهل وصفُ رذائله وخطاياه بأسلوبٍ مهذَّب.»

(٧) عبارة «فيلمون هولاند Philemon Holland» الملهِمة، الذي ترجم سيوتونيوس في ١٦٠٦م.

(٨) جيبون، مرةً أخرى، من الجملة الأولى من كتابه: The Decline and Fall.

(٩) كان هادريان محلَّ سخرية طوال حياته بسبب لكنته الإسبانية.

(١٠) يقال إن ذلك كان إلهامًا لـ «سيسل رودس Cecil Rhodes» على نحوٍ خاص.

(١١) الربة فستا إلهة النار. (المترجِم)

(١٢) الثوب الروماني الفضفاض. (المترجِم)

(١٣) Bithynia: مقاطعة بيزنطية ممتدة من الشاطئ الآسيوي للبوسفور على الساحل الجنوبي للبحر الأسود.

(١٤) Constantinople: القسطنطينية في الترجمة العربية. (المترجِم)

(١٥) في سنة ٣٠٧م، كان كونستانتين قد تخلَّى عن زوجته الأولى ليتزوج «فوستينا Faustina» ابنةَ مكسيميان.

(١٦) ما زال الجسر القديم موجودًا بعد أن تم تجريده أكثرَ من مرة وبقي يحمل الكثير من ملامح القرن الثاني.

(١٧) Di Vita Constantini, I, 28 القصة ليست دقيقة كما قد تبدو؛ هناك رواية أخرى يقدِّمها الباحث «لاكتانتيوس Lactantius» تثير عدةَ نقاط مخادعة، وقد قمت بتقصي الأمر على نحوٍ أكثر تفصيلًا في كتابي: Byzantium: The Early Centuries, pp. 38: 43.

(١٨) مبنًى فخم على الطراز الروماني مستطيل الشكل، يوجد في أحد طرفيه محرابٌ أو جزء ناتئ نصف دائري. (المترجِم)

(١٩) كان ليكينيوس متزوجًا من «كونستانتيا Constantia» أختِ كونستانتين غير الشقيقة.

(٢٠) Acts, i, 18.

(٢١) شعبٌ من أصلٍ إيراني قام في أواخر القرن الثالث ق.م. ومستهل القرن الثاني بغزو جنوب روسيا، وطرد سكان المنطقة غربًا. (المترجِم)

(٢٢) هذا المشهد صوَّره «فيردي Verdi» على نحوٍ رائع في أوبرا «أتيلا»، بالرغم من عدم ظهور شخصية البابا ليو صراحةً، وإنما في هيئة مواطن روماني طاعن في السن، كما اقتضت الرقابة.

(٢٣) بعد تدميرها في سنة ١٤٦ق.م. بقيت قرطاج مهجورةً بالفعل أكثرَ من قرن من الزمان، إلى أن اتخذها أوجسطس عاصمة لمقاطعته الرومانية في أفريقيا في القرن التاسع والعشرين ق.م.

(٢٤) يُعرف أحيانًا بـ «أودوفاكار Odovacar» كان Scyrian (أحدُ أبناء قبيلة جرمانية مغمورة لن تزعجنا مرةً أخرى).

(٢٥) «كانت أثناء أدائها ترقد على ظهرها ممدَّدة على الأرض ويقوم مجموعةٌ من العبيد بنثر حَفنة من الشعير على أعضائها الحميمة، ثم تأتي مجموعةٌ من الأوز المدرَّب فتلتقط حبَّات الشعير بمناقيرها» وهذا مجرد مثال.

(٢٦) منذ أوائل القرن السادس كان لقب بطريرك يُمنح لأساقفة الكراسي المسيحية الرئيسية الخمسة: روما والإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية وأورشليم. ولكونه بابا،

كان أسقف روما نادرًا ما يستخدمه، إن كان قد استخدمه على الإطلاق. وفي الأزمنة الحديثة أصبح اللقب يُمنح كذلك لرؤساء كنائس أرثوذوكسية معينة (روسيا – صربيا – رومانيا – بلغاريا)، وكذلك لأسقف فينيسيا بسبب الارتباط التاريخي بين المدينة وبيزنطة.

(٢٧) كان حينذاك قد بنى بالفعل الكنيسةَ الصغيرة الرائعة كنيسةَ سان سرجيوس وسان باخوس أسفل الطرف الجنوبي للهيبودروم، وكانت نموذجًا لكنيسة سان فيتالي في رافينا. وهي الآن مسجد صغير معروف بـ «سان صوفيا الصغير» أو «كشك جامع أيا صوفيا».

(٢٨) الدرومون Dromon هي أصغر أنواع سفن الحرب البيزنطية، وتشتهر بخفَّتها وسرعتها، طاقم الدرومون مكوَّن من نحو عشرين فردًا يقومون بالتجذيف.

(٢٩) نعرفه في المصادر العربية المترجَمة بـ «كسرى الأول» أو «خسرو أنوشروان». (المترجِم)

(٣٠) كان موقف الإمبراطور من بيليزاريوس ملتبسًا دائمًا. كان للغَيرة دورها بالتأكيد، وللشك كذلك. لم يكن جستنيان يثق به رغم كلِّ ما كان يبديه من مظاهر الولاء. رواية Count Belisarius التي كتبها «روبرت جريفز Robert Graves» تلقي الضوءَ على حياة الاثنين؛ ولذا هي جديرةٌ بالقراءة.

الفصل الخامس

الإسلام

- العرب يزحفون: ٧٣٢م.
- النبي محمد: ٦٣٤م.
- العرب في شمال أفريقيا: ٧٥٠م.
- إسبانيا الإسلامية: ٧٢٦م.
- الخلافة الإسبانية: ٩٢٩م.
- صعود المرابطين: ١٠٨٦م.
- إسبانيا الإسلامية.

* * *

حتى الربع الثاني من القرن السابع، كانت الجزيرة العربية أرضًا مجهولة بالنسبة للعالَم المسيحي. ولأنها كانت منعزلة وذات طبيعة قاسية وغير منتجة لأي شيء يغري تجَّار الغرب، لم يكن لها أيُّ إسهام في الحضارة ولم يكن يبدو أنها ستكون كذلك. وعلى قدرِ ما كان معروفًا عن شعبها، كان من المتصوَّر أن يكون أرقى قليلًا من الهمج، يقتل بعضهم بعضًا من وقت لآخر في صراعاتٍ قبَلية عنيفة، وينقضُّون دون رحمةٍ على أي رحَّالة يجرؤ على المجازفة بالتجارة معهم، كما أنهم لم يقوموا بأي محاولة للاتحاد أو حتى قيام حكم مستقر. وبصرف النظر عن عدد قليل من المستوطنات اليهودية حول الساحل وفي المدينة، ومجتمع مسيحي صغير في اليمن، كانت الأغلبية العظمى تمارس عبادةَ عدة آلهة بدائية، كانت تبدو في مدينة مكة — مركزهم التجاري — مركزة على الحجر الأسود، الكعبة القائمة في معبدهم الرئيسي. لم يكونوا مهتمين بالعالم الخارجي ولم يكن لهم أي تأثير، والمؤكد أنه لم يكن يمثل أيَّ خطر عليهم.

ثم — في لمحة بصر — تغيَّر كل شيء. في سبتمبر ٦٢٢م، هاجر النبي محمد وأتباعه من مكة المعادية له إلى المدينة المرحِّبة به، وكانت تلك نقطة البداية للعهد الإسلامي كله؛ فبعد خمس سنوات لا غير، في ٦٣٣م، مبدين انضباطًا ووحدةَ هدف لم تكن تبدو عليهم من قبلُ أيُّ دلائل لها فاجأت خصومهم تمامًا، تدفَّق أتباعُه خارجين من الجزيرة العربية. بعد عام، عبَر جيش عربي الصحراء وهزم الإمبراطورَ البيزنطي «هيراكليوس Heraclius» (هرقل) على ضفاف نهر اليرموك؛ بعد ثلاث سنوات استولوا على دمشق، وبعد خمسٍ على أورشليم، وبعد ثمانٍ كانوا يسيطرون على كل سوريا وفلسطين ومصر. وفي غضون عشرين سنة، كانت كل الإمبراطورية الفارسية، حتى «أوكسس Oxus»، قد سقطت أمام السيف العربي، وفي خلال ثلاثين سنة أخرى كانت أفغانستان ومعظم البنجاب.

بعد فترة قصيرة حوَّل الغزاة اهتمامهم نحو الغرب لتثبيت أقدامهم؛ ولأن الإمبراطورية البيزنطية، لم تكن عقبةً هينة — لم يحاولوا التقدُّم في آسيا الصغرى — سلكوا الطريقَ الأطول — ولكن الأسهل — على امتداد الساحل الجنوبي للمتوسط. لم يستغرق غزو مصر سوى عامين، من ٦٣٩–٦٤١م، ثم تباطأ حيث كانت إدارة مصر بعد الغزو تمثل مشكلاتٍ كثيرة، ولولا مساعدة السكان المحليين — الأقباط واليهود والسامريين واليونانيين — لما استطاع العرب غير المحنَّكين أن يفرضوا سلطانهم.

وهكذا لم يتمكنوا من الوصول إلى الأطلنطي قبل نهاية القرن؛ وفي ٧١١م فقط، كانوا قد أصبحوا قادرين على عبور مضايق جبل طارق إلى إسبانيا؛ إلا أنهم بحلول عام ٧٣٢م، بعد أقل من قرن من خروجهم من وطنهم الصحراوي، شقوا طريقَهم فوق جبال «البرانس Pyrenees»، واندفعوا — بحسب الرواية — إلى «تورس Tours»؛ حيث أوقفهم الملك الفرنجي «شارل مارتل Charles Martel» على بُعد مائة وخمسين ميلًا فقط من باريس، في معركةٍ ألهمت «جيبون Gibbon» واحدة من أشهر شطحات خياله:

> انتشر خط زحفٍ منتصر على ألف ميل من صخرة جبل طارق إلى شواطئ «اللوار Loire»؛ كانت مسافة مماثلة يمكن أن تحمل «العرب المسلمين (السراسنة) The Saracens» إلى تخوم بولندا ونِجاد اسكتلنده؛ «الراين The Rhine» ليس أكثر وعورةً من النيل أو الفرات، وكان يمكن أن يبحر الأسطول العربي في مصب «التيمز The Thames» دون قتال بحري. ربما كنا لنجد تفسير القرآن يدرَّس الآن في مدارس أكسفورد، وتلاميذها يشرحون لشعبٍ مختتنٍ قدسيةَ وصدق الوحي الذي نزل على محمد.

يسارع المؤرخون المحدَثون للإشارة إلى أن موقعة تورس نادرًا ما يذكرها المؤرخون المعاصرون أو شبه المعاصرين، وإن ذكروها فإن ذلك يكون باعتبارها حدثًا ضئيلَ الأهمية نسبيًّا؛ كما أن أدلة أولئك الكُتاب توحي بأن العرب الذين واجههم شارل مارتل، كانوا مجرد جماعةٍ قامت بإغارة أمام الجيش الرئيسي بمئات الأميال، وأن ما يُطلق عليه «موقعة» لم يكن في حقيقةِ الأمر أكثرَ من مناوشة استطالت إلى حدٍّ ما. على أية حال، فإن نظرة على الخريطة ستبيِّن لنا أن الخطر الإسلامي الحقيقي على أوروبا سيكون من الشرق، وهو الطريق الأقصر والأسرع بالنسبة لجيشٍ كان بالفعل قد هزم المشرق هزيمةً ساحقة. لم يكن الفضل لـ «شارل» ومَن معه من الفرنجة، وإنما للمدافعين الشجعان عن القسطنطينية تحت كونستانتين الرابع في ٦٧٤–٦٧٨م، وليو الثالث في ٧١٧–٧١٨م، الذين حافظوا على كلٍّ من المسيحية الشرقية والغربية.

بالرغم من ذلك، فإن التاريخ يقدِّم لنا نظائرَ قليلة لمثل قصة الغزو أو التأسيس الهائلة هذه؛ إذ في أقلِّ من مائة عام كانت هناك إمبراطورية تمتد من الهملايا إلى البرانس. بالنسبة لهذه الظاهرة، فإن التفسير المعتاد هو أن العرب كانت تحملهم موجةُ حماسة دينية عارمة؛ ومن الجدير بالذكر أن هذه الحماسة لم يكن يشوبها أيُّ اندفاعات تبشيرية. لم يكن القادة المسلمون يعتبرون أنفسهم، قط، مختارين لغزو العالم باسم الإسلام. القرآن أحل القتال دفاعًا عن النفس، ولكنه لم يُقرَّه كهدفٍ في حد ذاته، أضف إلى ذلك أنه نصَّ بوضوح على أن «لا إكراه في الدين»؛ فاليهود والمسيحيون كذلك «أهل كتاب».

ما جاء به الدين الجديد كان، قبل كل شيء، الشعورَ بالأخوة والوحدة. في السابق، كانت القبائل العربية المختلفة في حالة قتال مع بعضهم البعض. الآن كلهم «عباد الله»، وهذا بدوره جمع بينهم برباطٍ قوي من الثقة بالنفس. كانوا مقتنعين تمامًا بأن الله معهم، حتى لو كانت مشيئته أن يموتوا في القتال، فسوف يَلقَون جزاءهم الفوري في الجنة — وهي جنة حسية، مُتَعُها الموعودة — لا بد من أن نعترف — أكثرُ إغراء من نظيرتها في المسيحية. ومن ناحية أخرى، كانوا مستعدين لأن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا معيشةَ زهدٍ وتقشُّف لم يعهدوها من قبل، مع طاعة تامة تتجلى في الصلاة والصيام واجتناب الخمر.

لم يقُم مؤسِّس دينهم بقيادة حملة خارجية قط. محمد، المولود في ٥٧٠م تقريبًا، الذي عاش اليتمَ في طفولته ثم تزوَّج أرملةً غنية أكبرَ منه سنًّا، كان مزيجًا نادرًا من

الصوفي الحالم ورجل الدولة الذكي بعيد النظر. بصفته الأولى، نادى أولًا بوحدانية الله، وثانيًا بأهمية خضوع البشرية التام والإسلام له ولمشيئته. لم تكن تلك عقيدة جديدة تمامًا — كلاهما، اليهود والمسيحيون كانوا يتبعونها على مدى قرون — ولكنها كانت تبدو كذلك لأولئك الذين كانوا يسمعون بها لأول مرة؛ فقد كانت براعة محمد في تقديمها في شكل جديد شعبي، في ثوب من الحكمة وتراث ومعارف الصحراء وبلاغة موسيقية، وكل ذلك في مجموعة من الإلهامات التي عُرفت بعده بـ «القرآن». كان بالغ الذكاء لأسلوبه الذي ربط بينه وبين اسمه وشخصه والعقيدة التي جاء بها، بالرغم من أنه كان يعتبر نفسه مصلحًا أكثرَ منه ثائرًا؛ ليس بإسباغ الألوهية على نفسه كما فعل المسيح، وإنما بتقديم نفسه كآخر وأعظم الأنبياء من قبله، بمن فيهم المسيح.

أن يكون نبيًّا، لم يكن يعني أن يكون لاهوتيًّا؛ ولعل الفارق البيِّن بين محمد والمسيحيين الذين كانوا أتباعه ليغزوا أراضيهم بعد وقت قصير، كان عدم اكتراثه بالتأمُّل اللاهوتي. كان يجد المجادلة حول الأفكار الجامدة المستغلقة (مثلما كان يفعل الإغريق) أمرًا غير مجدٍ، وذلك بالأساس لأن صدْقها أو زيفها كان من المستحيل إثباته. الإسلام كما يصفه «إي. إم. فورستر E. M. Forster»: «ترك ذلك كلَّه باعتباره سَقَط متاع غير ضروري، لا يؤدي سوى إلى إبعاد المؤمن الحقيقي عن ربه.» كان الأهم من ذلك كله أسلوب حياة المرء في المجتمع، أن يكون متمسكًا بالعدل والإنصاف والعطف على أقرانه، محافظًا على توزيعٍ عادل ومعقول للثروة. كان لدى محمد حماسة روحية كبيرة، ولكنه لم يكن متعصبًا؛ ومثل المسيح؛ لم يأتِ ليهدم وإنما لكي يُعمِّر. كان يفهم الناس الذين يعيش بينهم تمامًا، كما كان دائمًا حريصًا على ألا يجبرَهم على أكثرَ مما كانوا مستعدين لفعله. كان يعرف مثلًا أنهم لن يتخلوا عن تعدُّد الزوجات فأبقى عليه، واتخذ هو نفسه أكثرَ من زوج بعد موت الأولى. كانت العبودية جزءًا آخرَ لا يتجزأ من حياة الجزيرة، وذلك أيضًا سمح به. كان حتى على استعداد للتوصل إلى تفاهم مع الدين الأرواحي القديم؛ ومنذ ٦٢٤م قضى بأن تكون مكة هي قِبلة الصلاة بدلًا من أورشليم كما كان الأمر في السابق. لم يتوقف عند تأكيد أحد الجوانب الجديدة — غير المحببة — من العقيدة، وهو حتمية الحساب الإلهي بعد الموت، وغالبًا ما كان يبدو أنه يصف عذاب النار بقوةٍ أكثرَ من مُتَع الجنة. هذا الخوف من العقاب، ربما اتضح أنه كان مفيدًا عندما قرَّر أن يجمع بين أتباعه في دولة سياسية.

مات محمد بالحمى في مكة — التي كان قد عاد إليها منتصرًا — في الثامن من يونيو سنة ٦٣٢م. انتقلت القيادة الدينية والسياسية لشعبه إلى صديقه الصدوق أبي بكر، الذي

حمل لقبَ خليفة رسول الله. في العام التالي زحفت جيوش المسلمين. إلا أن أبا بكر الذي كان كبير السن، مات بدوره في ٦٣٤م — في شهر مارس كما يقال، ويوم الاستيلاء على دمشق — وكان تحت الخليفة الثاني عمر، أن بدأت سلسلة الانتصارات التاريخية. من زاوية معينة، كان الحظ إلى جانب العرب؛ لم تكن الشعوب المسيحية في مصر وشمال أفريقيا وفلسطين، تشعر بولاء حقيقي للإمبراطور في القسطنطينية؛ إذ كان يمثِّل ثقافة يونانية/رومانية غريبة، كان عدم تعاطفها مع بدعِهم العديدة يؤدي إلى اضطهاد من وقت لآخر. بالنسبة للكثير منهم، كان المد الإسلامي المكوَّن من ساميين مثلهم يعترف بتوحيدٍ لا يختلف عن توحيدهم، كما يَعِد بالتسامح مع تنوُّعات العقيدة المسيحية، ولا بد أنه كان يبدو بالنسبة لهم أفضلَ من النظام الذي أزاحه.

قبل الغزو الإسلامي كان شمال أفريقيا جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية تحميه بحريتُها، ومن ثَم كان بالنسبة للعرب أرضًا معاديةً لا بد من الاستيلاء عليها. لم تكن مقاومة مصر كبيرة. لم يكن مع القائد العربي عمرو بن العاص[١] سوى أربعة آلاف مقاتل عندما غزا البلاد في مطلع ربيع ٦٤٠م، بعد عامين ونصف العام قامت الإمبراطورية — طواعيةً — بتسليم مدينة الإسكندرية العظيمة، أكثر مدن المتوسط مهابةً، التي كان الإسكندر المقدوني قد شيَّدها، وكانت مقرَّ كرسي أحد بطاركة المسيحية الشرقية الأربعة ما يقرُب من ستة قرون. ما كان للإسكندرية أن تستعيدَ مجدَها الغابر.[٢] في طريق عودته من الدلتا جنوبًا، أنشأ عمرو حاميةَ الفسطاط نواةَ القاهرة الحديثة، أما إنجازه الآخر فكان تطهيرَ القناة المنسابة من النيل شرقًا إلى «القلزم Klysma»، المرفأ البيزنطي السابق الذي يبعُد نحو ميل تقريبًا عن السويس الحديثة، فاتحًا بذلك الطريقَ لمرور السفن المحمَّلة بالقمح من وادي النيل إلى البحر الأحمر والجزيرة العربية.

في زحفهم الأول، لم يكن لدى المسلمين أسطول — كان القليل منهم هم الذين سبق لهم أن رأوا البحر —[٣] ولكن سرعان ما أدركوا أنه إذا كان لهم أن يوصلوا هذه القوة الدافعة، فلا بد لهم من أن يجيدوا فنونَ الملاحة. ومثلما كان الرومان يستخدمون اليونانيين لتسليح سفنهم كلما كان ذلك ممكنًا، كان العرب يجدون بين مسيحيي مصر وسوريا بناةَ سفن جيدين وبحارةً مهرة، استطاعوا بمساعدتهم — تدريجيًّا — إنشاء أحواض لبناء السفن وتجهيزها، ومن ثَم بناء أسطول قوي للحرب والتجارة، إلى أن أصبحوا قادرين على تحدي التفوق البحري لبيزنطة نفسها. بحلول سنة ٦٥٥م، كانوا

قد شنوا غاراتٍ على قبرص وكريت ورودس وصقلية؛ وبعد أن قام المسلمون بتدمير القوة البحرية الرئيسية لبيزنطة، التي كان يقودها الإمبراطور «كونستانس الثاني Constans II» شخصيًّا، بالقرب من شواطئ «ليسيا Lycia» في تلك السنة نفسها، لم يكن مؤكدًا ما إذا كان ميزان القوة البحرية في المتوسط سيعود كما كان. لحسن الحظ، كان البيزنطيون قد طوَّروا سلاحهم السري الأكثر تأثيرًا؛ «النار الإغريقية Greek Fire»، التي كانت تنطلق من مقدِّمات سفنهم على شكل ألسنة كبيرة من اللهب. بفضل ذلك فحسب، استطاعت الإمبراطورية الاحتفاظَ بقدرٍ من السيطرة.

كان هناك، بالإضافة إلى ذلك، سببٌ آخر لبطء زحف العرب بعد غزو مصر. وكما يعرف جيدًا كلُّ مَن قطع الستة آلاف ميل بين بنغازي وطرابلس، فإن الصحراء هناك جرداء بلا ملامح أو معالم، والطريق يبدو بلا نهاية، والمؤكَّد أنه لم يكن يفي بأي فرصة للغنْم أو السلب والنهب؛ ولذا لم يكن مغريًا للجيش العربي. كانت المنطقة كذلك مرتعًا لقبائلَ متناحرة. عاجلًا أو آجلًا ستكون مهمة المسالمة والغزو ماثلة، ولكن أزمة سياسية في المدينة أجَّلت القرار الحاسم، كما أن قيام الإمبراطورية الأموية،[٤] مع ما تبِع ذلك من نقل كرسي الحكم إلى دمشق في ٦٦١م، كان سببًا في المزيد من التأخير. لم يبدأ الزحف الكبير إلا في ٦٦٧م، وبعد ثلاث سنوات أسَّس قائده عقبة بن نافع قلعةَ القيروان الكبيرة فيما يسمَّى اليوم تونس. على مسافةٍ أبعدَ في اتجاه الغرب واجه مقاومةً شديدة من كلٍّ من البيزنطيين وقبائل البربر المسيحية؛ وفي ٦٩٢م، بعد إرسال جيش آخرَ من قِبل الخليفة عبد الملك، قوامه نحو أربعين ألف مقاتل، استؤنف الزحف. في ٦٩٣م سقطت قرطاج بالرغم من انتفاضة كبيرة لملكة-كاهنة غامضة، تُدعى الكاهنة Al Kahina (كأنها شخصية خارجة من كتب رايدر هاجارد Rider Haggard)، وهجوم بري-بحري بواسطة جيش بيزنطي. هُزم كلاهما في النهاية، إلا أن الكاهنة واصلت حربَ العصابات حتى سنة ٧٠١م. لم يتخذ العرب من قرطاج عاصمةً لهم؛ فميناؤها كان عرضةً للهجوم من البحر. قاموا بدل ذلك ببناء قلعة حصينة في تونس، تصل بحيرة داخلية بالساحل، وهنا ستكون نقطة الانطلاق لإزعاج وتهديد سردينيا وصقلية وقبرص وجزر الباليري. تواصلت الإغارات على تلك الجزر كلها — وغالبًا ما كانت تنتهي باحتلالٍ مؤقت — حتى سنة ٧٥٠م تقريبًا، عندما اشتدت المقاومة البيزنطية فجأة، ووجد العالم الإسلامي نفسه أمام أمورٍ أخرى كثيرة جديرة بالتفكير فيها، كما سنرى لاحقًا.

من قرطاج، تسارع الزحفُ مرةً أخرى في اتجاه الغرب، وبعد أن أصبح الساحل كلُّه من مصر إلى الأطلنطي في أيديهم، بدأ العرب يفكِّرون جِديًّا في إسبانيا؛ حيث الأرض أكثرُ

غنًى وخصبًا من تلك التي حاربوا طويلًا وبمشقة لكي يغزوها، والبلاد تَعِد بمكاسبَ هائلة. في تلك اللحظة تحديدًا كانت المملكة القوطية الغربية الهرمة تذوي. نظريًّا، كان عرشها دائمًا محلَّ نزاع ودعوة مفتوحة للنبلاء الطموحين والصراع على الخلافة عليه. بعد سنوات من الاضطهاد كان المجتمع اليهودي الكبير هناك على شفا ثورة والاقتصاد مدمرًا. كانت إسبانيا، باختصار شديد، فاكهةً ناضجة حان قِطافها. في ٧١٠م، تسلَّل ضابط عربي يُدعى «طريف Tarif»، ومعه جماعةُ استطلاع قوامها نحو خمسمائة رجل بالتسلل عبْر المضايق واحتلال الحافة الجنوبية من شبه جزيرة أيبيريا، حيث ما زالت مدينة طريف (التي تحمل اسمه موجودة هناك). عادت السفن محمَّلة بالغنائم ... فكان أن اتخذ المسلمون القرار. في العام التالي، أبحر طارق بن زياد من طنجة بجيشٍ قوامه نحو تسعين ألفًا من البربر، ليرسوا هذه المرة في ظل صخرة هائلة تخلِّد هي الأخرى اسمه إلى اليوم.[٥]

بعد رسو طارق، وقعت معركةٌ بالقرب من نهر «الجواداليت Guadalete»، كانت كافية لسحقِ مقاومة القوط الغربيين، رغم ما يقال من أنها لم تستمر سوى أسبوع. بعد أن دفع بمفارزَ صغيرة من قوَّاته لاستلام «ملقة Malaga»، و«مرسيا Murcia»، و«قرطبة Cordova»، اتجه طارق إلى العاصمة «طليطلة Toledo»، التي وجدها مهجورةً من سكانها باستثناء اليهود. هنا، كانت غنائمُ كثيرة في انتظاره بما في ذلك — إن كان لنا أن نصدِّق رواية المؤرخ العربي «ابن الأزهري Ibn Adhari» — مائدةُ سليمان المرصَّعة باللؤلؤ والياقوت الأزرق والأحجار شبه الكريمة على شكل دوائر متحدة المركز، كما وجد مجوهرات الإسكندر الأكبر وعصا موسى وأردية ملوك القوط. ترك طارق اليهود يديرون الأراضي التي استولى عليها، وواصل زحفه شمالًا نحو «قشتالة Castile»، و«أستورياس Asturias»، و«ليون Leon». كان يمكن أن تكون سرعةُ تقدُّمه أكبر، لولا أن الجيش «المورسكي Moorish» كان محلَّ ترحيب بشكل عام، كما كانت الأغلبية العظمى من المسيحيين المحليين سعداء بقبول سيادة أولئك الغزاة المتسامحين، وكان الكثير منهم يرون القادمين الجدد أفضلَ بمراحل من سابقيهم، القوط الغربيين.

وصلت أخبار انتصارات طارق إلى قائده الأعلى موسى بن نصير، الذي جاء إلى شبه الجزيرة في يونيو أو يوليو ٧١٢م على رأس جيشٍ من نحو ثمانين ألف رجل، كان معظمهم هذه المرة من العرب. اتخذ ابن نصير — عن عمد — طريقًا مختلفًا عن طريق سلفه؛ حيث رسا عند «الجيسيراس Algeciras» واستولى على «هيلفا Huelva» و«إشبيلية Seville» قبل أن يلتقيَ بطارق في طليطلة. العام التالي انقضى معظمه في

الاندماج وتثبيت قواعدهما، ثم استولت القيادة المشتركة على برشلونة في ٧١٤م وعبرت «البرانس Pyrenees» متقدمةً في وادي «الرون Rhône» حتى «أفينون Avignon» و«ليون Lyon»، وهنا سيتوقفون. كان طموح موسى بن نصير الرئيسي هو التقدُّم شرقًا إلى دمشق عن طريق القسطنطينية، إلا أنه أدرك أن ذلك كان مستحيلًا الآن. كانت المقاومة تشتد وخطوط الاتصال طويلة، فلم يكن أمامه سوى العودة إلى إسبانيا — حيث كان عازمًا على تقديم تقريره إلى الخليفة — ثم إلى أفريقيا. في ذلك الشتاء نفسه، نقل مسئولية الأراضي المستولى عليها إلى ابنه عبد العزيز في إشبيلية. بينما تقدَّم هو وطارق في موكبٍ أبهةٍ وبطانة ضخمة تضم عددًا كبيرًا من القوط الغربيين الأسرى وعددًا كبيرًا من العبيد — ناهيك عن الذهب والفضة والأحجار الكريمة — على امتداد الساحل الشمالي الأفريقي مرورًا بمصر وفلسطين، إلى دمشق. من أسف، كان أن مات الوليد عندما وصلا، وكان هو الخليفة الذي وافق على حملات إسبانيا. لم يكن انطباع خليفته سليمان إيجابيًّا، فكانت خيبةَ أمل كبيرة.

غزت الجيوش العربية فرنسا ثلاث مرات — في ٧١٦ و٧٢١ و٧٢٦م — ولكنها لم تتجذَّر هناك قط. كانت تقوم بالعمل المنوط بها فحسب؛ وتحت اسمها العربي «الأندلس»، أصبحت إسبانيا — أو الجزء الأكبر منها — جزءًا من الإمبراطورية الأموية. لن تعود كما كانت قط. من ذلك الحين، سوف تؤوي البلاد ثلاثةَ شعوب مختلفة تمامًا (العرب واليهود والمسيحيون) في الجنس والدين واللغة والثقافة. بكل تأكيد، سوف يؤثِّرون بعضهم في بعض ويتفاعلون معًا بأساليبَ لا حصر لها، وسيكون ذلك في صالح ثلاثتهم، على مدى سبعمائة وخمسين عامًا هي عمر الاحتلال الإسلامي؛ وعلى مدى معظم — إن لم يكن كل ذلك الوقت — سوف يتعايشون في وئام وأحيانًا في وئام تام.

المشكلات التي حدثت جاءت بالأساس من داخل صفوف المسلمين. ارتكب عبد العزيز بن موسى بن نصير الخطأ الرئيسي بزواجه من ابنة «رودريجو Rodrigo» القائد الأعلى للقوط الغربيين، وتحت تأثيرهم تم إغراؤه بأن يتقلد تاجًا على الطريقة المسيحية. أثار ذلك حفيظةَ أتباعه المسلمين وأغاظهم فقتلوه، وبعدها عمَّت الفوضى؛ وعلى مدى الأربعين سنة التالية سوف يتعاقب على الأندلس ما لا يقل عن واحد وعشرين حاكمًا. كان يمكن أن تتفسخ تمامًا لولا أن حدث تطوُّر مثير لم يكن أحد يتوقعه أو يتصوره. سقطت الخلافة الأموية في سنة ٧٥٠م وقُتل مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية، كما قُتل كل أفراد أسرته

في وليمة تذكِّرنا بتلك التي كان تيودوريك قد دعا إليها أسرة أودوآكر قبل قرنين ونصف القرن؛ وصعدت أسرةٌ جديدة — العباسيون — لتحكم في بغداد. أمير واحد فقط من أمراء بني أمية، هو عبد الرحمن[٦] البالغ من العمر تسعة عشر عامًا، كان هو الذي تمكَّن من الهرب. بعد تجواله مستخفيًا لمدة خمس سنوات في فلسطين ومصر وشمال أفريقيا، رسا في إسبانيا في ٧٥٥م ليجد البلاد كلَّها في حالة فوضى شاملة. لم يجد صعوبةً في أن يكون حاكمًا لها. في العام التالي، وكان ما يزال في السادسة والعشرين نودي به رسميًّا أميرًا على الأندلس، وكانت الأسرة التي أسَّسها لتحكم إسبانيا الإسلامية على مدى ثلاثمائة عام تقريبًا.

لم يكن هناك إجماع على عبد الرحمن. كانت هناك ثورات عديدة في إسبانيا، ثم كانت أكبر وأخطر الأزمات عندما استطاعت مجموعة من الثوار الإسبان إقناعَ الملك الفرنجي «شارل الأكبر Charles the Great» (شارلمان Charlemagne) في ٧٧٨م أن يحاربه. بسرعة، قام شارل باحتلال «بامبلونا Pamplona»، إلا أنه — لحسن حظ الأمير — لم يكد يبدأ حصارًا على «سرقسطة Saragossa»، حتى غيَّر رأيه. يبدو أنه — لسببٍ ما — وجد الأمر لا يستحق، فأصدر أوامره بالعودة بذريعة وجود مشكلات لديه في الداخل. في ١٥ أغسطس، في طريق عودته عبْر البرانس، فوجئت قوةُ مؤخرته التي كان يقودها «رولاند، ماركيز بريتني Roland, Marquis of Brittany»، بقوةٍ مشتركة من المسلمين والباسك في ممر «رونسسفال Roncesvalles» الضيق. لم ينجح أحدٌ في أن يهرب، وكلُّ ما بقي هو اسم رولاند باعتباره بطلَ إحدى الملاحم الأولى في الأدب الأوروبي الغربي.

ستكون سنوات عبد الرحمن التالية أكثرَ هدوءًا. لم ينجح في فرض وحدة سياسية على إسبانيا، ولكنه كان حاكمًا حصيفًا ورحيمًا وعميقَ الثقافة. أحدث تحولًا كبيرًا في عاصمته قرطبة وبنى فيها قصرًا رائعًا وحديقة خلابة — والأهم من ذلك كله — المسجد الكبير الذي أصبح بعد اكتماله أروعَ مساجد العالم، وما زال موجودًا إلى اليوم.[٧] كان عبد الرحمن كذلك شاعرًا ذائعَ الصيت كتب بإحساسٍ وحنين شديد عن الوطن السوري الذي قد لا يراه مرةً أخرى. ورِث حبَّه للثقافة حفيدٌ لابنه وخليفته الثالث عبد الرحمن الثاني الذي — حكم لمدة نصف قرن تقريبًا من ٩١٢ إلى ٩٦١م — ملأ بلاطه بالشعراء والموسيقيين والعلماء بالإضافة إلى توسيع مسجد جَدِّه الكبير، وبناء مساجد أخرى في «جاين Gaen» وإشبيلية. كما استورد كميةً كبيرة من سلع الترف من الشرق وجلب الفنانين والحرفيين والصنَّاع المهرة، ويقال إنه هو الذي أدخل فن التطريز إلى البلاد، وكان

أول مَن سكَّ عملته من الأمراء. كانت قرطبة في عهده أكثرَ مدن أوروبا ثقافة. في ٩٤٠م جاء آخر تكريم له: وصلت بعثة دبلوماسية من القسطنطينية محمَّلة بالهدايا، تعرض عليه التحالف ضد العباسيين، عدوهم المشترك.

ولكنَّ العباسيين كانوا بعيدين، وبنقلهم عاصمتهم من دمشق إلى بغداد كانوا قد غيَّروا طبيعة الخلافة جذريًّا. لم تَعُد الدولة العباسية إمبراطوريةً متوسطية، بوجود مركزها الآن في قلب آسيا، لم تكن مهتمة كثيرًا — أو مهتمة على الإطلاق — بشئون أوروبا أو البحر الأبيض. على مدى القرون السبعة التالية — حتى الاستيلاء على القسطنطينية في ١٤٥٣م — سيكون تأثيرها في الغرب ضئيلًا؛ حيث سيكون مسلمو شمال أفريقيا وإسبانيا متروكين لإرادتهم إلى حد كبير. الفئة الأولى (مسلمو شمال أفريقيا) كانوا يطوِّرون بَحريَّتهم، على نحوٍ خاص، بصفة دائمة، إلى أن أصبحوا يتصدرون القوةَ البحرية في المتوسط في النصف الأول من القرن التاسع، وذلك بالرغم من أن البيزنطيين كانوا يمثلون منافسةً شديدة، وبالتأكيد لم يتركوهم يفعلون كلَّ ما يريدون. والواقع أن الموازين انقلبت بعد اعتلاء الإمبراطور «بازيل الأول Basil I» السلطة في ٨٦٧م؛ أصبحت قوى الإسلام في موقع الدفاع مرةً أخرى.

في سنة ٩٢٩م، اتخذ عبد الرحمن الثاني لنفسه لقبَ «خليفة»،[٨] ومنذ ذلك الحين لم تَعُد إسبانيا الإسلامية، التي أصبح لها خليفتها الخاص بها، تؤيد العباسيين حتى ولو بالكلام. هذه الخلافة الجديدة كان عليها أن تواجه كمًّا من المشكلات يفوق طاقتها، إلا أنها من ناحية أخرى كانت متألقة ثقافيًّا وفنيًّا، كما تدُل على ذلك آثارها الباقية التي ما زالت تبهرنا إلى اليوم. تم توسعة وتجميل المسجد الجامع الأول لعبد الرحمن على أيدي الحكام المتعاقبين في القرنين التاسع والعاشر، وفي ٩٥٠م أهداه عبد الرحمن الثالث مئذنةً جديدة طولها ٢٤٠ قدمًا. وهناك في إشبيلية الكازار Alcazar، ذلك المبنى الرائع من القرن الثاني عشر، الذي سيصبح في ١٣٥٣م قصرًا لـ «بدرو Pedro the Cruel»، و«الجيرالدا Giralda» التي يبلغ ارتفاعها ثلاثمائة قدم، والتي بُنيت بين ١١٧٢م و١١٩٥م لتكون مئذنةً ومرصدًا. وفي غرناطة، ذلك التجمُّع المذهل من القصور المعروف بالحمراء Alhambra مع القصر الصيفي وحدائق الجنراليف Generalife على التل فوقها، كلُّ ذلك ما زال مبهرًا مثيرًا للدهشة. هنا بكل تأكيد يكمُن الإنجاز العبقري لكل إسبانيا الإسلامية.[٩]

ربما كانت روعة العمارة هي التي أدَّت — إلى حدٍّ ما — إلى عمليات التحول الكثيرة المعروفة. نادرًا ما يتخلى اليهود عن تراثهم، ونادرًا كذلك ما كان المسلم يسعى إلى

المعمودية المسيحية؛ ولكن على امتداد الاحتلال العربي — وبخاصة في المدن والبلدات بين منتصف القرن التاسع وأوائل القرن العاشر تقريبًا — اعتنق عشرات الألوف من المسيحيين دينَ غزاتهم طواعيةً، كما اتخذ معظم مَن احتفظ بدينه منهم العربيةَ لغةً لهم في تعاملاتهم اليومية. إلى يومنا هذا، تحتفظ اللغة الإسبانية الحديثة بعدد كبير من الكلمات العربية، كما أن زائرًا إسبانيًّا سوف يدهشه ذلك الكم من أسماء الأماكن التي ما زالت باقية. انتشرت أيضًا الثقافة العربية طولًا وعرضًا في أرجاء البلاد. احتفظت الأندلس بشبكة تجارية واسعة مع شمال أفريقيا والشرق الأدنى وامتدت — حتى — إلى الهند وفارس؛ فلم يكن يصل إليها الحرير والتوابل (وبخاصة الفلفل والزنجبيل) والأرز وقصب السكر والموالح والتين والباذنجان والموز فحسب، بل وصلت كذلك أساليبُ العمارة والسيراميك والخط والموسيقى والرياضيات والفلك والطب.

لم تكن المعارف الجديدة الواسعة، بالطبع، مقصورةً على العالم الإسلامي. كثير من المسيحيين الذين تأسلموا ظاهريًّا، كما قد يبدو، كانوا عاجلًا أو آجلًا يجدون طريقَهم إلى الأراضي المسيحية في الشمال والشمال الشرقي إلى «جاليسيا Galicia» و«نافار Navarre» و«قطالونيا Catalonia»، حاملين معهم ثقافتهم. هؤلاء «المستعربون Mozarabs»، كما كان يُطلق عليهم، كان لهم تأثيرٌ باقٍ في الشمال المسيحي على كلا جانبي البرانس — وفوق كل شيء في مجال الرياضيات التي كانت مسيحية العصور الوسطى ما زالت تجهلها. كانوا هم — كما يعتقد — الذين أدخلوا الأرقام العربية إلى أوروبا الشمالية، إلى جانب «المِعْداد abacus»[١٠] وهو الجهاز الذي كان له تأثيرٌ كبير في الحياة التجارية يمكن مقارنته بتأثير الحاسب الآلي في حياتنا الحديثة.

سياسيًّا، كانت العلاقات بين مسيحيي الشمال ومسلمي الجنوب أقلَّ تحديدًا. لم تكن واضحة المعالم تمامًا. انتهت الخلافة في ١٠٣١م وتبِعها عدد من الدويلات التي عُرفت بـ «الطوائف»، التي كان كلٌّ منها يتكون عادةً من مدينة رئيسية والريف المحيط بها. لم تكن تختلف كثيرًا عن المدينة - الدولة التي انتشرت في الشمال الإيطالي في الوقت نفسه تقريبًا. ومثل الإيطاليين، كانوا يتنازعون كذلك فيما بينهم، بما كان يسمح للممالك المسيحية القوية في «أراجون Aragon» و«قشتالة Castile» بأن توقِع بينها وتستخدمها ضد بعضها الآخر، أو أن تفرض ما كان يعتبر بالفعل عملياتِ حماية تقدِّم العون العسكري مقابل جزية سخية. هنا، كانت أرض خصبة لكثير من الجنود المرتزقة الأشبه

بـ «الكوندوتييري Condottierie»[١١] الإيطالية الذين كانوا يبيعون سيوفهم طواعيةً لمن يدفع أكثر، بصرف النظر عن الإيمان بأي قضية. كان أشهر أولئك المرتزقة إلى حدٍّ كبير الأرستقراطي القشتالي (في القرن الحادي عشر) «رودريجو دياز دي فيفار Rodrigo Diaz de Vivar» المعروف بلقبه الإسباني: «السيد El Cid» (ومعناها الريس)، الذي جعلت منه الأسطورة فيما بعد ذلك الوطني الإسباني الأسمى، الذي كرَّس حياته لطرد غير المؤمنين (the infidel) من بلاده، وجعلته يقوم بذلك — حتى — بعد موته، عندما كان يضعون جثمانه مسندًا على حصانه (بابييكا Babieca) ليقود جيشه في المعركة. تقول القصة إن الجثمان بقي كذلك محافَظًا عليه تمامًا، لدرجةِ أنه وُضع لمدة عشر سنوات على يمين المذبح مباشرةً في كنيسة دير «سان بدرو دي كاردينا San Pedro de Cardena» بالقرب من «بيرجوس Burgos». من أسفٍ أن الحقيقة ليست بهذه الرومانسية. الواقع أن رودريجو كان مغامرًا عسكريًّا مثل كثيرين غيره، انتهى به المطاف بعد عملٍ مربح إلى أن يصبح أميرًا حاكمًا على ولاية «فالينسيا Valencia» على شواطئ المتوسط.

لو أن السيد كان قد وُلد بعد خمسين سنة، أي في ١١٩٠م بدلًا من ١١٤٠م تقريبًا، لكان ذلك الأمر مستحيل الحدوث. في وقتٍ ما بالقرب من منتصف القرن الحادي عشر جنوبي مراكش الحالية، تطوَّر ما كان قد بدأ كعصبة بربرية مفكَّكة ليصبح في غضون سنوات قليلة حركةً أصولية تنادي بأكثر المبادئ الإسلامية تشددًا. أطلقوا على أنفسهم اسم «المرابطون» — معرفون لدينا بالمورافيد Almoravids — فأسَّسوا مدينة مراكش الكبيرة (Marrakesh) واستولوا على شمال المغرب (Morocoo)، وجزء كبير من غرب الجزائر، ثم وجَّهوا اهتمامهم صوب إسبانيا. في ١٠٨٦م عبروا المضايق وهزموا «ألفونسو السادس Alfonso VI» ملِكَ ليون - قشتالة في «ساجراجاس Sagrajas»[١٢] بالقرب من «باداجوز Badajoz»، وقضَوا بسرعة على جميع الطوائف الإسلامية وكثيرٍ من المدن التي كان المسيحيون قد استردوها قبل سنوات قليلة. قبل أن ينتهيَ القرن كانت الأندلس قد توحَّدت مرة أخرى، ولكنها كانت الآن مرتبطةً بالشمال الأفريقي تحت نظامٍ غير متحضر إلى حدٍّ بعيد، وغير متسامح لدرجة التعصب.

لحسن حظ كلِّ مَن يهمه الأمر، كان حكم المرابطين قصيرًا. كانوا يعانون من نقطة ضَعف رئيسية: كأقلية بربرية صغيرة على رأس إمبراطورية إسبانية-أفريقية كانت كبيرة آنذاك، لن يكونوا إلهامًا بولاء حقيقي. حاولوا أن يحتفظوا بإسبانيا بواسطة قواتهم، وبالشمال الأفريقي بواسطة حرس مكوَّن أساسًا من مسيحيين، ولكن بعد سقوط

ساراقسطة في يد ألفونسو الأول ملك أراجون في ١١١٨م، بدأ المد في التحول؛ وبعد سبع سنوات فقط ظهرت في جبال «أطلس Atlas»، طائفةٌ أكثر أصولية وتعصبًا هم «الموحِّدون Almohads»، لتتفجر الأوضاع. الحرب الأهلية التي تلت ذلك، استمرت نحو ربع القرن وانتهت بسقوط مراكش في ١١٤٧م، وبعدها انهارت سلطة المرابطين.

عبَر الموحِّدون المنتصرون المضايق، وبنهاية القرن الثاني عشر كانت قبضتهم على البلاد من عاصمتهم إشبيلية قد أصبحت قوية مثلما كانت قبضة أسلافهم. قبل مرور وقت طويل، اكتشفوا هم كذلك أن قوَّتهم كانت تضعُف لدرجةِ أنهم اضطُروا للتراجع أمام عدوٍّ، لم يكن هذه المرة طائفةً أو مذهبًا جديدًا، وإنما تحالفًا بين الممالك المسيحية الرئيسية الثلاث في شبه جزيرة أيبيريا؛ قشتالة وأراجون والبرتغال. في سنة ١٢١٢م، حقَّق «ألفونسو الثامن Alfonso VIII» ملك قشتالة انتصارًا كبيرًا في «لاس نافاس دي تولوزا Las Navas de Tolosa»، أمَّن على نحوٍ مؤثِّر غلبةَ القضية المسيحية في إسبانيا؛ أما حفيده «فرديناند الثالث Ferdinand III»، فقد أكمل عهده الذي استمر خمسًا وثلاثين سنة، مستعيدًا معظم الأندلس بما في ذلك ميناء «قرطاجنة Cartagena»، مع طرد كل السكان المسلمين من البلاد عند الاقتضاء كما حدث في إشبيلية في ١٢٤٨م.[١٣] بحلول منتصف القرن، كانت إسبانيا الإسلامية قد تقلَّصت لتصبح إمارة واحدة هي إمارة غرناطة، وكانت حرب الاسترداد تمضي في مسارها.

كان لعدم تسامح الموحِّدين أثرٌ واحد مفيد. عندما وجدت جماعات كبيرة من اليهود والمستعربين الحياةَ في كَنْف الموحِّدين غيرَ محتملة فرُّوا إلى قشتالة وأراجون المسيحية؛ حيث كانوا يلقَون ترحيبًا شديدًا. كان من بينهم فلاسفة وأطباء مثل «ابن ميمون Maimonides»، و«ابن رشد Averroes» اللذين امتد تأثيرهما بطول العالم الغربي وعرْضه، إلى جانب غيرهما من المفكِّرين الأقل وزنًا، الذين أدوا دورًا مهمًّا كمترجمين محترفين عن العربية، فجعلوا حجمًا ضخمًا من المعارف العربية في متناول الغرب. استقر عددٌ كبير من هؤلاء في طليطلة — التي تم استردادها في ١٠٨٥م وسط فرح شديد — حيث كانوا ينعمون برعاية وتشجيع الملك.

بقيت إمارة غرناطة أكثرَ من قرنين … حتى سنة ١٤٩٢م، وربما تكون تلك لحظةً مناسبة نتوقَّف عندها لمحاولة تقييم الآثار؛ أثرُ الإسلام في إسبانيا أولًا، ثم أثرُ إسبانيا الإسلامية في بقية أوروبا الغربية. من الناحية الثقافية، ليس هناك أدنى شكٍّ في أن البلاد قد تم إثراؤها بشكلٍ كبير. لقد نجح الاحتكاك الوثيق بالإسلام في توسيع العقل الإسباني،

كما أنه اجتذب مثقَّفين أوروبيين إلى إسبانيا؛ ولم يكن «جربرت الأورياكي Gerbert of Aurillac» — الذي سيصبح البابا «سيلفستر الثاني Sylvester II» — مثقفَ العصور الوسطى الوحيد الذي جذبه ظمأ المعرفة عبر البرانس؛ تلك المعرفة التي ما كان ليحصِّلها في أي مكان آخر في القارة. كانت الرياضيات والطب والجغرافيا والفلك والعلوم الطبيعية ما زالت محلَّ ارتياب في العالم المسيحي، أما في العالم الإسلامي فكانت متطورة بدرجةٍ لا مثيل لها منذ الإغريق. أيُّ دارس أو عالِم جادٍّ في أيٍّ من هذه المعارف كان لا بد من أن يشعر بجاذبية الأندلس، وبمجرد أن يكون هناك كان يلزِم نفسه بدراسة اللغة العربية؛ حيث إن ترجمة الأعمال العلمية الأساسية كانت قليلةً وغير دقيقة. أحد الذين نجحوا في ذلك، كان العالِم الإنجليزي الكبير «أدلارد الباثي Adelard of Bath»، الذي كان موجودًا في إسبانيا في مطلع القرن الثاني عشر متنكرًا كطالب مسلم، والذي قدَّم في ١١٢٠م — أو نحو ذلك — أولَ نص لاتيني لـ «إيوقليد Euclid» (إقليدس) كان قد ترجمه عن نصٍّ عربي مترجَم عن اليونانية.

من جوانبَ أخرى، كان تعايشُ العقائد الثلاث المختلفة تمامًا على الأرض نفسها، مصدرًا لمعاناة مستمرة. سُفكت دماء كثيرة دون ما ضرورة في الغزو العربي الأصلي، وأكثر منها في حرب الاسترداد. يُضاف إلى ذلك أنهم بالرغم من تواصلهم معًا على نحوٍ جيد في الحياة اليومية لم يكن الرعايا يُعاملون بما يليق بهم من اعتبار، سواء في الولايات المسيحية أو الإسلامية. وصية النبي بمعاملة اليهود والمسيحيين كإخوة لهم باعتبارهم «أهل كتاب» لم تكن مرعيةً في الممارسة العملية. في ١٠٦٦م كانت هناك مذبحة لليهود في غرناطة، وفي ١١٢٦م كانت هناك عمليات ترحيل للمسيحيين كعبيد في المغرب. لم تكن المجتمعات المسيحية — على قدرِ ما نعرف — مسئولة عن أعمال عدائية على هذا المستوى، ولكن ما من شكٍّ في أن اليهود والمودجار،[١٤] (وهو الاسم الذي كان يُعطى للمسلمين تحت الحكم المسيحي) كانوا يُنظر إليهم كمواطنين من الدرجة الثانية، وكانوا دائمًا مادةً للتمييز ضدهم — على الأقل — إن لم يكن للاضطهاد.

عندما نفكِّر بحجمِ ما كان ينبغي أن تقدِّمه إسبانيا الإسلامية، يدهشنا أن نجد أنها لم يكن لها تأثيرٌ كبير في الغرب المسيحي، وربما كانت هناك أسبابٌ كثيرة لذلك. السبب الأول معتقَديٌّ: كانت مسيحية العصور الوسطى تكره كلَّ مظاهرِ ما تعتبره في حكم الوثنية. قبِلت اليهود — في حدود — لأنهم كانوا موجودين هناك بالفعل، وكذلك لأنهم لم يكن لهم دولة خاصة بهم، وكانوا يتحدثون لغةَ مَن حولهم — مسلمو الأندلس كانوا

مختلفين. كانوا معروفين بدرجةٍ أقل، وربما مفهومين كذلك بدرجةٍ أقل. لم تكن لغتهم، سواء المكتوبة أو المنطوقة مفهومة. كانوا يسكنون أبعدَ الأماكن في أوروبا — أبعد كثيرًا في تلك الأيام عن أراضي الحوض الشرقي للمتوسط؛ حيث كانت بيزنطة بمثابة قوة جذب ثقافية وتجارية، لا تجتذب العلماء والطلاب من قارة واحدة فحسب، بل كانت تجتذب التجار ورجال الدولة والدبلوماسيين من قارات ثلاث.

بعد تلك الأيام الباكرة عندما كان الناس يخشون أن يكون الإسلام في طريقه لغزو العالم، وبمجرد أن توارى العرب وراء حدودهم المتواضعة نسبيًّا، بدا من الحصافة والحكمة تركُهم وشأنهم، مسالمين لا يهددون. كانوا، في آخر المطاف منقوعين في الخطأ، ومن ثَم لا يمثلون أيَّ أهمية بالنسبة للعقل المسيحي المعاصر.

هوامش

(١) يقول إي. إم. فورستر إن عمرًا كان «إداريًّا وشخصية رائعة وشاعرًا وواحدًا من أقدرِ وأعذبِ الرجال الذين أنجبهم الإسلام.» ثم يمضي ليروي قصةً جميلة، وهي كيف أن صديقًا لعمرو سأله وهو على فراش المرض: كنت تقول دائمًا إنك كنت تبحث عن شخص ذكي لتسأله عن شعوره وهو على شفا حفرة من الموت، والآن أنا أسألك عن شعورك. ردَّ عمرو: «أشعر بأن السماء تكاد تنطبق على الأرض وأنا بينهما أتنفَّس من خلال عين إبرة.»

(٢) ليس لقصة أن المسلمين أحرقوا مكتبةَ الإسكندرية أساس، كلُّ ما نعرفه عن عمرو يوحي ويرجِّح أنه كان يكنُّ لها احترامًا شديدًا.

(٣) تذكُر كتب التراث العربي أن عمرو بن العاص، في كتابٍ له إلى عمر بن الخطاب قال: «البحر خلْق عظيم يركبه خلْق صغير كأنه دود على عود». (المترجِم)

(٤) وهي أولى الإمبراطوريتين العربيتين العظيمتين في العصور الوسطى؛ كانت دمشق هي عاصمة الإمبراطورية الأموية التي استمرت من ٦٦١م–٧٥٠م، وكانت الإمبراطورية العباسية هي الثانية وعاصمتها بغداد. استمرت الإمبراطورية العباسية إلى أن دمَّرها المغول في ١٢٥٨م.

(٥) عُرفت هذه الصخرة عند العرب بـ «جبل طارق» ومن هنا كان اسمها الحديث Gibraltar.

(٦) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الذي سيُعرف بـ «عبد الرحمن الداخل». (المترجِم)

(٧) من أسف أنه تم تخريبه عمدًا وعلى نحوٍ مخزٍ في أوائل القرن السادس عشر عندما بُنيت كنيسة مسيحية في ساحته (وهي الكاتدرائية الموجودة الآن). عندما رآه الإمبراطور شارل الخامس في ١٥٢٦م، لم يستطِع كبْح مشاعره، فقال لجماعةِ الكهنة الملحقين بالكاتدرائية: «لقد بَنيتم هنا ما كان بإمكانكم أو بإمكان غيركم أن يبنيَه في أي مكان آخر، ولكنكم دمَّرتم شيئًا فريدًا لم يكن له مثيل في العالم.»

(٨) وجد عبد الرحمن أنه أولى بأن يتَّخذ لقبَ الخليفة من عبد الله المهدي صاحب القيروان، فأصدر بيانًا أعلن فيه نفسه خليفةً واتخذ لقب «الناصر لدين الله». (المترجِم) عن: معالم تاريخ المغرب والأندلس، تأليف: حسين مؤنس، طبعة مكتبة الأسرة ٢٠٠٤م.

(٩) يُعتقد أن الفلامنكو، موسيقى الأندلس التقليدية من آثار الاحتلال الإسلامي، ربما تتضمَّن عناصر عربية، إلا أنها تبدو من إبداع الغجر الذين بدءوا الاستقرار في المنطقة في أواخر القرن الخامس عشر.

(١٠) لوحة ذات خرزاتٍ أو كرات صغيرة تُستخدم للعد.

(١١) فرقة مرتزقة بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر. (المترجِم)

(١٢) سهلٌ متَّسع جنوب غربي مدينة بطليموس يسمَّى بالإسبانية Sacrajas، وبالعربية «الزلاقة». (المترجِم)

(١٣) كان معاصره «جيمس الأول James I» ملك أرجوان قد فعل الشيء نفسه في «فالينسيا Valencia» قبل عشر سنوات.

(١٤) عن mudéjar الإسبانية وتعني حرفيًّا المسموح له بالبقاء، مع الاحتفاظ بدينه وقوانينه وعاداته، تحت حكم مسيحي (الأصل كلمة «مدجن» العربية). (المترجِم)

الفصل السادس

إيطاليا العصور الوسطى

- هبة القسطنطينية: ٧٥٤م.
- تتويج شارلمان: ٨٠٠م.
- شارلمان: ٨١٤م.
- أوتو الأكبر: ٩٦٦م.
- مدن إيطاليا الحرة: ١٠٠٠م.
- النورمانديون: ١٠٤٨م.
- البابا جريجوري: المنفى والموت: ١٠٨٥م.
- روجر الصقلي:١١٥٤م.
- آرنولد البريسكي: ١١٥٥م.
- الفشل الذريع في سان بيتر.
- موت وليم الصالح: ١١٨٩م.
- مولد فردريك الثاني.

* * *

كانت حرب جستنيان مع القوط نذيرًا بقدوم عصرٍ مظلم. بذل حكامُه المحليون — الذين منحهم لقبَ «نائب الإمبراطور exarch» — قصارى جهدهم لإعادة الرخاء، إلا أنهم لم يصيبوا نجاحًا كبيرًا. كانت إيطاليا خرِبة تمامًا، وميلانو في الشمال وروما في الجنوب في حالةٍ من الدمار يرثى لها. والآن … في غضون سنوات قليلة من رحيل القوط ظهرت على المسرح قبيلةٌ جرمانية جديدة. عبَر «اللمبارديون The Lombards» الألب في ٥٦٨م وانتشروا بقوة في الشمال الإيطالي والهضبة الكبرى التي ما زالت تحمل اسمهم، وفي

النهاية أقاموا عاصمتهم في «بافيا Pavia». في ظرفِ خمس سنوات، كانوا قد استولوا على ميلانو وفيرونا وفلورنسا. الحكم البيزنطي الذي كان جستنيان وبيليزاريوس ونارسيس قد حقَّقوه في الشمال الإيطالي بثَمن باهظ، سرعان ما انتهى بمجرد أن بدأ تقريبًا. خطُّ تقدُّم اللمبارديين تم كبحُه أخيرًا بواسطة روما وإكسرخوسية رافينا Exarchate of Revenna، ولكنْ رأسا حربة ظهرتا لتقيما الدوقيات الجنوبية الكبرى في «سبوليتو Spolito» و«بنيفنتو Benevento»، ومنها كان يمكن أن تستمرَّا في غزو بقية الجنوب، إلا أنهما لم تتحدا معًا بحيث يمكنهما عملُ ذلك. بقيت «أبوليا Apolia» و«كالابريا Calabria» و«صقلية Sicily» تحت السيطرة البيزنطية مثل معظم الساحل الإيطالي، وهو أمرٌ مثير للدهشة. لم يكن اللمبارديون مهتمين كثيرًا بالبحر مثل الوندال، والحقيقة أنهم لم يصبحوا شعبًا متوسطيًّا قط.

عدم استسلام روما للمد اللمباردي كان معجزة، لا تقل غرابة عن تلك التي أنقذتها من أتيلا في القرن السابق؛ ومرةً أخرى، كانت تلك المعجزة من صنْع أحد الباباوات — الذي كان هذه المرة أحدَ أبرز رجال الدولة في روما في العصور الوسطى، وهو «جريجوري الأكبر Gregory the Great»، الذي اعتلى عرش «سان بيتر St Peter» في ٥٩٠م ليظل عليه على مدى الأربعة عشر عامًا التالية، عندما وجد أن نائب الإمبراطور في رافينا لم يكن لديه قوَّات كافية لتقدِّم له الدعم الذي يحتاجه، تولَّى بنفسه السيطرة على الميليشيا، وقام بإصلاح الأسوار والقنوات المائية وأطعم الجائعين من العامة من مخازن الكنيسة. بعد أن اشترى «أجيلولف Agilulf» مِلك لمبارديا بالرشوة في البداية في ٥٩٨م، عقد صلحًا منفردًا معه فأصبح بإمكانه أن يشرع في العمل لتكون البابوية قوةً سياسية واجتماعية كبيرة. (كان هو، بالمصادفة، الذي أرسل أوجستين Augustine لهداية الإنجليز الوثنيين، حتى قبل الكنيسة البنيديكتية التي أنشأها هو على تل كويل في روما). لم يكن جريجوري مثقفًا — مثل معظم رجال الكنيسة في زمنه، كان لديه شكٌّ عميق في الأفكار العلمانية — ولكنه كان مستبدًّا وجسورًا، وكان هو الوحيد الذي حفِظ للمدينة هيبتَها وكرامتها خلال تلك الفترة المضطربة.

إلا أن جريجوري كان يعترف بالإمبراطور في القسطنطينية — حيث سبق أن خدم كسفير بابوي — باعتباره حاكمه الزمني، وأصبحت روما تحت خلفائه أكثرَ بيزنطيةً على مدى القرن السابع. كان اللاجئون اليونانيون يتدفقون من الشرق الأوسط وأفريقيا على إيطاليا، عندما اجتاح الفرس ثم العرب أراضيَهم. في ٦٦٣م كان هناك مُهاجر

بيزنطي، شديد التميز بشكل غير معهود؛ الإمبراطور «كونستانس الثاني Constans II»، الذي صمَّم على نقل عاصمته مرةً أخرى إلى الغرب. كان يرى أن روما — مثلها مثل القسطنطينية — لم تكن ملائمة، بينما كانت صقلية الهلنستية أقربَ إلى ذوقه، وحكم لمدة خمس سنوات من «سيراكوزا Cyracuse»، إلى أن كان أحد الأيام عندما فاجأه في الحمَّام أحدُ المشرفين على حجرة نومه من الساخطين عليه، وعاجله بصحن الصابون (الصبَّانة) ليقتله.

عاد البلاط إلى البوسفور ... وإيطاليا لمشكلاتها. كان اللمبارديون هم أخطر تلك المشكلات؛ إذ بعد أن زاد عددهم وقوَّتهم بدءوا يتلمظون على الأراضي المجاورة. كان تقدُّمهم بطيئًا. كانت الأرخوسية تمثل حمايةً متواضعة، إلا أن الضغوط على الحدود لم تهدأ. سوف يستمر هذا التوازن القلِق حتى منتصف القرن، ثم كانت أزمة كبرى عندما أمر الإمبراطور «ليو الثالث Leo III»[١] في سنة ٧٢٦م بتحطيم كلِّ الأيقونات والصور المقدسة في كل المناطق الخاضعة لسلطته باعتبارها وثنية.

كان الإمبراطور بيوريتانيًّا، إلا أنه لم يكن ثوريًّا بأي معنًى. لا اليهودية ولا الإسلام كانا يسمحان باستخدام الصور أو الرسوم، وفي القرون الحديثة كانت إنجلترا وحدها هي التي شهِدت هبَّتين كبيرتين لتحطيم الأصنام، وذلك تحت إدوارد السادس في القرن السادس عشر، ثم أثناء الكومنولث. كان تأثير المرسوم الذي أصدره ليو الثالث فوريًّا ومدمرًا. هاج الناس وماجوا في كل مكان وفي الأديرة على نحوٍ خاص. في الأقاليم الشرقية؛ حيث كانت عبادة الأيقونات قد بلغت درجة عالية، وكانت تعتبر بمثابة عرابين عند التعميد أحيانًا، وجد ليو درجةً من التأييد؛ ولكن في الغرب الأكثر اعتدالًا، والذي لم يكن قد فعل شيئًا لكي يستحقها، لم يكن بالإمكان السماح بها. إيطاليا، التي كانت تحت قيادة بابوية قوية رفضت تمامًا تمادي البابا جريجوري الثالث لدرجةِ تحريمه كلَّ الأيقونات. تم اغتيال «بول Paul»، نائب الإمبراطور في رافينا، وانخرط حكام الأقاليم التابعة له في قتالٍ بعضهم البعض، وراحت الحاميات الإقليمية — كانوا كلهم من المجندين محليًّا — تختار قيادات جديدة وتؤكِّد استقلاليتها. وفي المجتمعات الموجودة حول بحيرة فينيسيا وقع اختيارهم على شخصٍ يُدعى «أورسوس Ursus» أو «أورسو Orso» من «هرقليا Heraclea» الذي أُعطي لقب «دوكس dux». لم يكن ذلك غريبًا؛ إذ كان الشيء نفسه يحدث في سائر المدن المضطربة، أما ما يميِّز فينيسيا عن غيرها فهو أن تعيين أورسو استمر تقليدًا مرعيًّا على مدى أكثر من ألف عام. هذا اللقب الذي تحوَّل عبر العامية الفينيسية إلى «دوج doge» كان ليستمر مع مائة وسبعة عشر آخرين حتى نهاية الجمهورية الفينيسية في ١٧٩٧م.

كان اللمبارديون هم المستفيدين الرئيسيين من نزاع عبادة الأيقونات في إيطاليا. بنجاحهم في تأليب روما وبيزنطة ضد بعضهما، استطاعوا أن يكسبوا أرضًا جديدة، إلى أن كان أن استولوا على رافينا في ٧٥١م. كانت تلك نهاية الإكسرخوسية. كانت الأراضي البيزنطية التي بقيت في إيطاليا معزولةً ومقطوعة عن بعضها البعض بواسطة دوقيات اللمبارديين في الشمال، وعليه فقد كانت ضعيفة ولا تستطيع تقديمَ أيِّ مساعدة؛ وهكذا أصبحت روما مكشوفة أمام أعدائها.

إلا أن الوضع لم يستمر هكذا طويلًا. قبل أن ينتهيَ العام، وفيما وراء الألب من جهة الغرب كان «بيبن (القصير) Pepin the Short» قد حصل على موافقة البابا على خلع الملك «الميروفنجي Merovingian»[٢] الصوري «شيلدريك الثالث Childeric III»، وأن يتوَّج بدلًا منه. لم يكن الآن يستطيع أن يتجاهل رغبة الكنيسة. في ٧٥٤م، سافر البابا «ستيفن الثاني Stephen II» إلى «سان دينيس St Denis» حيث ثبَّت وكرَّس «بيبن Pepin» مع ابنيه «شارل Charles» و«كارلومان Carloman» ملوكًا على الفرنجة The Franks، وبعد ذلك بعامين، واستجابةً لرسالةٍ يقال إنها كانت — على نحوٍ معجِز — بخط سان بيتر نفسه، قامت قوات الفرنجة باجتياح إيطاليا وتركيع اللمبارديين؛ بعدها قام بيبن بتثبيت البابا رئيسًا لدولةٍ مستقلة، ثم زحف عبر وسط إيطاليا ليضم روما وبيروجيا Perugia ورافينا، كل أراضي الإكسرخوسية الميتة تقريبًا. ربما كان قد أسَّس ذلك الإجراء ما يسمَّى بـ «هِبَة قسطنطين Donation of Constantine»، التي كان من المفترض أن يكون قسطنطين الأكبر قد منح النظام البابوي بموجبها، الحكم الزمني «على إيطاليا وسائر المناطق الغربية»، ولو كان الأمر كذلك فلا بد أن يكون قد ضل الطريق. اتضح فيما بعدُ أن تلك الهِبة كانت تزويرًا تم تلفيقه في مجلس الشيوخ بطريقة مخزية، إلا أن الولايات - الدول البابوية التي خرجت بموجبها إلى حيِّز الوجود، كان أن بقيت — رغم أن أسسها كانت مهزوزة — لأكثر من ألف عام ... حتى سنة ١٨٧٠م.

نجحت روما، ولكن الحرب استمرت. على مدى الأربعين سنة التالية سيجد بيبن وابنه شارل نفسيهما الحماةَ الرئيسيين للنظام البابوي The Papacy ضد أعدائه؛ وبالرغم من أن شارل، المعروف لنا بـ «شارلمان Charemagne» لم يظهر سوى مرة واحدة على هذه الصفحات، ربما لا يمكن اعتباره شخصيةً متوسطية. إلا أن تأثيره، على أية حال، في كل أوروبا المسيحية كان واضحًا. في سنة ٧٧١م أصبح الحاكم الوحيد على الفرنجة، وبعد ثلاث سنوات استولى على بافيا وأعلن نفسه ملكًا على لمبارديا ... كانت تلك بالفعل نهاية النفوذ اللمباردي على شمال أوروبا. أما في الجنوب فقد بقيت دوقية بينيفينتو اللمباردية

الكبرى دولة مستقلة بعاصمتها «سالرنو Salerno»، بينما كانت تحت السيادة الفرنجية من الناحية العملية.

عائدًا إلى ألمانيا، قام شارل بإخضاع الساكسون الوثنيين وتحويلهم إلى المسيحية قبل أن ينطلق ليضم «بافاريا Bavaria» التي كانت مسيحية بالفعل. كان غزوه لإسبانيا — كما هو معلوم لنا — أقلَّ نجاحًا، ولكن حملته التالية على «الأفار Avars» في هنغاريا وأعالي النمسا، أسفرت عن تدمير مملكتهم كدولة مستقلة، واستيعابها في مملكته؛ وهكذا، في مدى أقل من جيل كان قد رفع مملكة الفرنجة من مجرد دولة أوروبية شبه قبَلية — مثل كثيرات غيرها — إلى وحدة سياسية واسعة لا مثيل لها منذ أيام روما الإمبراطورية.

بعد عودة شارل إلى إيطاليا بعد ربع قرن (في أواخر سنة ٨٠٠م تقريبًا)، كانت أمامه مهامُّ كثيرة لا بد من إنجازها. كان البابا «ليو الثالث Leo III»، منذ تنصيبه قبل أربع سنوات، ضحيةَ ضغائن وأحقاد عليه متزايدة من قِبل مجموعة من النبلاء الرومان الشبان الذين كانوا مصمِّمين على إزاحته. في الخامس والعشرين من أبريل في ذلك العام نفسه، كان قد تعرَّض لاعتداءٍ عليه في الشارع حتى فقدَ وعيَه من الضرب، وكان من حسن حظه أن أنقذه بعض الأصدقاء وحملوه إلى أمان بلاط شارل في «بادربون Paderbon». بعد عدة أشهر أعيد إلى روما تحت حماية عملاء من الفرنجة، ليجد نفسه أمام اتهاماتٍ خطيرة من تلفيق أعدائه، بما في ذلك السيمونية[٣] والحِنْث باليمين والزنا.

مَن الذي يمكن أن يحاكمه إذن؟ مَن كان مؤهلًا لإصدار حكم على ممثِّل المسيح؟ الإجابة الوحيدة الممكنة عن هذا السؤال في الظروف العادية، كان يمكن أن تكون: الإمبراطور في القسطنطينية. ولكن العرش الإمبراطوري في ذلك الوقت كانت تشغَله امرأة هي الإمبراطورة «إيرين Irene». لم يكن ما يُشاع عنها من أنها كانت قد أعمت ابنها أمرًا مهمًّا في نظر ليو وشارل، كان يكفي أن تكون امرأة. كانت النساء ممنوعات من الحكم بموجب «القانون الصالي القديم Salic Law»،[٤] وهكذا كان عرش الأباطرة في حُكم الخالي بحسب مفاهيم أوروبا الغربية. كان شارل الآن، عندما وصل إلى روما، على علمٍ تام بأنه لم يكن لديه سلطة أكبر مما لدى إيرين للجلوس في كنيسة سان بيتر وإصدار حكم، إلا أنه كان يعرف في الوقت نفسه أن الاتهامات، وإن ظلت قائمةً غير مدحضة، فإن العالم المسيحي لم يكن ينقصه إمبراطور فحسب، وإنما كان ينقصه بابا كذلك، وكان كله إصرار على أن يبذل كلَّ ما في وُسعه لتبرئة ليو. أما بالنسبة للطبيعة المحددة لشهادته فيمكن أن نخمن فقط؛ إلا أنه في الثالث والعشرين من ديسمبر، وأمام المذبح العالي، أقسم البابا

أنه كان بريئًا من كل التهم الموجَّهة إليه، وقبِل المجمع الكنسي كلمته. بعد يومين، عندما نهض شارل بعد الانتهاء من قدَّاس عيد الميلاد، وضع ليو التاج الإمبراطوري على رأسه، بينما كان الجمع المحتشد يهتف باسمه. أما أعداؤه فكانوا يقولون إنه «مجرد لقب»؛ حيث لم يأتِ التاج معه بتابع أو بجندي جديد، أو حتى بمتر واحد من أرض جديدة. إلا أن اللقب كان ذا أهمية باقية عن أي عدد من الغزوات. كان يعني أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد ولَّت، وبعد أكثر من ثلاثمائة عام، كان قد أصبح هناك إمبراطور في أوروبا الغربية مرةً أخرى.[٥]

إذا كان ليو قد خلع على شارل صباح ذلك الاحتفال بعيد الميلاد شرفًا عظيمًا، فإنه قد خلع على نفسه شرفًا أعظم: الحق في أن يعيِّن وأن يقلِّد بالتاج والصولجان إمبراطورَ الرومان. هنا كان كل شيء جديدًا وربما ثوريًّا. لم يسبق أن ادعى أيُّ حَبر لنفسه مثل هذا الحق، ليس فقط اعتبار التاج الإمبراطوري هِبته الشخصية، بل ومنح نفسه مرتبةً أعلى ضمنيًّا على الإمبراطور الذي صنعه في ذات الوقت. من السهل أن نتخيل كذلك ردَّ فعلِ القسطنطينية عندما وصلتهم أخبار تتويج شارل. بالنسبة لأي بيزنطي مستقيم التفكير، كان الأمر دلالةً على عجرفة مثيرة، كما هو على الدنس. كانت الإمبراطورية، كما كان معروفًا للجميع، تقوم على أساس مزدوج؛ السلطة الرومانية من جهة، والإيمان المسيحي من جهة أخرى. كان العاملان قد اجتمعا لأول مرة في شخص قسطنطين الكبير إمبراطور روما ونظير الرسل، واستمر هذا الاتحاد الرمزي مع كل خلفائه الشرعيين. كان يتبع ذلك حتمًا أنه مثلما كان هناك إله واحد في السماء، يمكن أن يكون هناك حاكم أعلى واحد على الأرض، وكذلك فإن كل الآخرين المطالبين بهذا اللقب كانوا مدَّعين ومجدفين.

بالرغم من سُمعة إيرين، ربما لا يكون تفكير شارل في الزواج منها أمرًا مثيرًا للدهشة. برغم كل شيء، كانت فرصة لن تتكرر: لو أنه استطاع أن يقنع الإمبراطورة بأن تصبح زوجته، لأصبح بالإمكان أن تتوحَّد كل أراضي الإمبراطورية شرقًا وغربًا تحت تاج واحد … تاجه بالطبع. عندما وصل سفراؤه إلى القسطنطينية في ٨٠٢م بهذا العرْض، وجدوا ميلًا للقبول لدى إيرين. كانت — وهي مكروهة من رعاياها، وخِزانتها خاوية — تدرك احتمال حدوث انقلاب قريب عليها وأن حياتها كانت في خطر. لم يكن يعنيها كثيرًا أن يكون المتقدم للزواج منها إمبراطورًا منافسًا مغامرًا مهرطقًا، ولا أن يكون أميًّا أو شبه أمي. (كان شارل يقرأ قليلًا ولكنه لم يُخفِ أنه لم يكن يستطيع أن يكتب). كان اعتبارها الرئيسي هو أنها بالزواج منه سوف تحافظ على وحدة الإمبراطورية وتنقذ

حياتها … وهو الأهم. ولكن ذلك لم يحدُث. لم يكن لدى رعاياها النيةُ لترك العرش يذهب إلى ذلك الفرنجي الجِلف بردائه الروماني الكتاني الغريب وكساء ساقه الأكثر غرابة، والذي يتحدث لغةً غير مفهومة ولا يستطيع حتى أن يكتب اسمه. في آخرِ يوم من شهر أكتوبر عام ٨٠٢م، دعا جماعةٌ من كبار المسئولين لاجتماع في الهيبودروم وأعلنوا خلع أميرتهم، وهكذا نجت على أي حال من المصير الذي كانت تخشاه. أُرسلت إلى المنفى … إلى جزر الأمراء في مرمرة في البداية، ثم إلى «لسبوس Lespos» حيث ماتت بعد شهر.

كان شارلمان يؤكد دائمًا — وربما كان صادقًا في ذلك — أن تتويجه الإمبراطوري كان أمرًا مفاجئًا له؛ ويقول «إينارد Einhard»، صديقه وأول كاتب لسيرة حياته، إنه ترك كنيسة سان بيتر في الحال وهو في حالة غضب شديد. لم يكن ممتعضًا فحسب من فكرةِ أن يكون صنيعةَ البابا كإمبراطور، بل إنه كان يعرف يقينًا أن ما قام به ليو لم يكن له أيُّ سند قانوني. من ناحيةٍ أخرى، كان النظام القديم يصبح أكثر تناقضًا بالتدريج. ربما كانت القسطنطينية هي المستودع النظري للقانون الروماني والحضارة والتقاليد الإمبراطورية، إلا أن روحها كانت إغريقية تمامًا. روما — بعد أن مزَّقها البرابرة — المحبطةُ على إثر قرون من الفوضى، كانت لا تزال بؤرة الثقافة اللاتينية، وكان شارلمان وليس نظراؤه البيزنطيون، هو الذي دعم السِّلم الروماني Pax Romana في الغرب؛ ومن أجل أوروبا العصور الوسطى الغارقة في الفوضى … لم يَعُد يكفي إمبراطور واحد. ربما كان البيزنطيون يشكُّون في ذلك؛ لأن الأمر لم يأخذ من شارلمان أكثرَ من عشرين عامًا لكي يحصل على اعترافهم الرسمي. كان الثَّمن الذي دفعه هو فينيسيا.

كان قد مرَّ أربعمائة عام منذ مجيء النازحين الأوائل من «أتيلا Attila» ولجوئهم إلى الركن الشمالي الغربي من الأدرياتيكي، وسط ذلك العنقود من الجزر الصغيرة الراقدة في حمى الشطآن الرملية والمياه الضحلة التي لا يصل إليها أحد سوى النوتية من أبناء المنطقة. كانت غزوات بربرية متوالية قد اجتاحت بقية إيطاليا، ولكن الدفاعات الطبيعية كانت تعوقها دائمًا، وهكذا كان أن استطاعت فينيسيا، دون بقية مدن الشمال الإيطالي، أن تنجوَ من التلوث التيوتوني. كانت جمهورية تتمتَّع بحكم ذاتي منذ انتخاب أول «دوج Doge» في سنة ٧٢٦م، وبعد سقوط الإكسرخوسية وجدت نفسها القوةَ الوحيدة المتبقية في الشمال الإيطالي الموالية لبيزنطة. كانت غنية وتجارتها تتطور وبحريَّتها هي الأفضل في المتوسط. أدرك شارلمان على الفور أهميتها الاستراتيجية وقيمتها كرهان سياسي. أولى

محاولاته لغزوها تصدَّى لها أسطول فينيسي-بيزنطي. المحاولة الثانية التي قام بها ابنه «بيبن Pepin» في ٨١٠م، نجحت جزئيًّا، إلا أنه بالرغم من سقوط معظم المناطق النائية في يد الفرنجة، استمرت مقاومة جزر «ريالتو Rialto» إلى أن اضطُر بيبن — الذي أصابته حمى شديدة — للانسحاب. فيما بعد، حوَّلت الكرامة الوطنية الفينيسية انسحابَه إلى انتصار تاريخي، ولكنَّ البيزنطيين الأقل تفاؤلًا كانوا مستعدين للتفاوض. هكذا حصل شارلمان على الاعتراف الذي كان يريده، واحتفظت القسطنطينية بروابطها القديمة مع فينيسيا، والسماح لها — عرفانًا بولائها — بمزيد من المزايا التفضيلية.

ربما يكون هناك اعتقادٌ بأن شارلمان، سواء أكان متلهفًا على الإمبراطورية البيزنطية أو لا، سيواصل اعتبار نفسه البطل الطبيعي للمسيحية ضد المد الإسلامي الصاعد. والحقيقة أنه بعد تلك الفترة القصيرة غير المؤثِّرة في إسبانيا، التي كان قد قام بها في شبابه — لأسباب سياسية أكثرَ منها دينية — لم يخرج لمحاربة جيش مسلم. ربما كان القس الأنجلو ساكسوني «ألكوين Alcuin»، الذي كان مديرًا لمدرسة القصر في «آخن Aachen»، قبل أن يصبح رئيسًا لدير الرهبان في «تورس Tours»، ربما كان يؤكد أنه كان من واجب الإمبراطور أن «يدافع عن كنيسة المسيح في كل مكان ضد إغارات الوثنيين وتخريب غير المؤمنين، وأن يؤمن بالاعتراف الداخلي للعقيدة الكاثوليكية»، إلا أن شارل لم يكن صليبيًّا. لقد حافظ — بقدرِ ما أتاحت وسائل الاتصال في تلك الأيام — على علاقات ممتازة بالخليفة العباسي هارون الرشيد في بغداد.

في إنجازه، كما في قامته وبنيته الجسدية، كان شارلمان أكبرَ من الحجم الطبيعي! ولكن هذا الإنجاز كان قصير الأمد. هذا الشخص غير العادي — الأمي، اللاأخلاقي، الأقرب إلى الهمجية — حافظَ على إمبراطوريته الجديدة اعتمادًا على قوة شخصيته فحسب. قصَّتها بعد موته في ٨١٤م، هي قصة اضمحلال مطرد، مع تفسُّخ فعلي على إثر انقراض أسرته. مرة أخرى، عاد الشمال الإيطالي ساحةَ صراع بين أمراء صغار تافهين يتشاجرون على تاجٍ لا قيمة له، ويجرُّون بلادهم إلى مزيد من الفوضى؛ وفي الجنوب ظهرت أخبار جديدة. سقطت «كورسيكا Corsica» في أيدي المسلمين، ثم «كريت Crete» في ٨٢٦م، وهذا الغزو الأخير غيَّر الوضعَ الاستراتيجيَّ كلَّه في المنطقة. على مدى مائة وثلاثين عامًا إلى أن تم غزوها مرةً أخرى من قِبل الإمبراطور البيزنطي «نيكيفوروس الثاني فوكاس Nicephorus II Phocas»، كانت كريت وكرًا للقراصنة ومركزًا لتجارة الرقيق في البحر الأبيض. بعد ذلك، غزا عرب شمال أفريقيا صقلية في ٨٢٧م بدعوة من الحاكم البيزنطي

«إيوثيميوس Euthymius»، الذي كان قد تمرَّد على القسطنطينية في محاولةٍ لتجنُّب عواقبِ هروبه مع راهبة محلية. بعد أربع سنوات استولوا على «بالرمو Palermo». هكذا كانت شبه الجزيرة الإيطالية عرضةً للأخطار دائمًا. سقطت «برنديزي Brindisi» ثم «تارانتو Taranto» و«باري Bari» (التي كانت مقرًّا لإمارة على مدى ثلاثين عامًا)؛ وفي سنة ٨٤٦م كان الدور قد جاء على روما نفسها. أبحر أسطول «ساراسيني Saracen»[٦] في نهر التيبر، نهب كنيسة سان بيتر لدرجةِ خلع الألواح الفضية من أبواب البازيليقا التي يوجد بها المحراب؛ ومرةً أخرى كان البابا هو الذي أنقذ الكنيسة. في ٨٤٩م، استدعى البحريات المشتركة لجيرانه الثلاثة — نابولي وجايتاو وأمالفي — وتولَّى القيادة بنفسه، وتمكَّن ليو الرابع Leo IV من تدمير الأسطول العربي بالقرب من شواطئ «أوستيا Ostia». تم تسخير مئات الأسرى في بناء سور ضخم حول الفاتيكان لحمايته، يمتد حتى «كاسل سان أنجلو Castle Sant'Angelo»، وهو المعروف بالسور «الليونيني Leonine Wall» الذي توجد أجزاءٌ متبقية منه إلى اليوم. لحسن الحظ، كان أن هدأ الضغط الإسلامي مع دخول القرنِ ربعَه الأخير. في ٨٧١م سقطت «باري Bari» أمام الإمبراطور «لويس الثاني Lewis II»، وبعد موته ستصبح عاصمة لإيطاليا البيزنطية على مدى مائتي السنة التالية.

في ذلك الوقت أيضًا كان هناك خطرٌ دائم جهة الساحل الجنوبي لفرنسا. في سنة ٨٩٠م تقريبًا، رسا جماعة من القراصنة الأندلسيين في «سان تروبيز St Tropez» وحصَّنوا أنفسهم على قمة تل قريب يُعرف اليوم باسم «لاجارد فرينت La Garde Freinet». من هناك، كان يقومون بالإغارة غربًا على «مارسيليا Marseille» وشمالًا على «فيينا Vienne»، وحتى على دير «سان جول St Gall» في سويسرة. لم يتم طردهم نهائيًّا إلا في ٩٧٢م. عدد السفن الغارقة من سفن المسلمين في القرن العاشر، التي وُجدت بالقرب من ساحل «بروفنس Provence»، يدُل على أنه كان هناك تجارة واسعة مع بقية العالم الإسلامي.

كان ليو الرابع وخليفته الثاني «نيكولاس الأول Nicholas I» آخر اثنين من الباباوات البارزين الذين جلسوا على العرش على مدى قرن ونصف القرن، إلا إذا أضفنا إليهما المرأةَ الإنجليزية البابا جوان Englishwoman Pope Joan التي تمكَّنت بكفاءة من أن تخفيَ جنسها على مدى ثلاث سنوات في منصبها إلى أن — بسبب بعض التقديرات التعِسة — وضعت طفلًا على سلَّم قصر اللاتيران.[٧] مِن أسف أن قصة جوان تنتمي إلى

عالم الأساطير، إلا أنها دلالة على فوضى وتفسُّخ فترةٍ كانت حافلة بكثير من البابوات التاريخيين غريبي الأطوار: «جون الثامن John VIII» على سبيل المثال، الذي ضربه أقاربه الحاقدون حتى الموت، «فورموسيوس Formosus» الذي أخرجوا جثَّته من القبر ووضعوها للمحاكمة أمام مجلسٍ كنسي من الأساقفة وجرَّدوها من الكفن وألقَوا بها في التيبر، ثم تم استعادتها بمعجزةٍ وأعيد تأهيلُها وأعيدت إلى القبر، «جون العاشر John X»، الذي خنقته ابنة عشيقته في كاسل سان أنجلو، لكي تتمكَّن من وضع ابنها غير الشرعي من البابا «سرجيوس الثالث Sergius III» على العرش البابوي، أو «جون الثاني عشر John XII» الذي يقول جيبون إنه خلال حكمه: «نعرف مدهوشين أن قصر اللاتيران تم تحويله إلى مدرسة للبغاء، وأن اغتصابه للعذارى والأرامل كان رادعًا للنساء؛ فلم يكن يذهبن إلى كنيسة سان بيتر للحج خشيةَ أن يغتصبهن خليفته في طقوسه المقدَّسة.»

ولكن إذا كان جون الثاني عشر يمثِّل الدرك الأسفل من الفحش البابوي الداعر، فإنه كان كذلك مسئولًا عن إنقاذ إيطاليا. عندما وجد نفسه في سنة ٩٦٢م لا حول له ولا قوة أمام الملك الإيطالي «بيرنجر الثاني Berengar II»،[٨] لجأ إلى «أوتو Otto» دوق «سكسونيا Saxony» لمساعدته، كان أوتو قد تزوَّج حديثًا من أرملة سلف بيرنجر، وكان أكبر قوة في الشمال الإيطالي آنذاك. هُرع أوتو إلى روما حيث توَّجه جون إمبراطورًا. (كان ذلك الفعل هو سبب نكبة البابا الذي كان فسوقه قد بلغ شأوه، إلا أنه عندما تمرَّد بعد عامين على الإمبراطور الذي صنعه، جمع أوتو مجلسًا كنسيًّا وخلعوه، وحصل على وعدٍ من الأساقفة بأنهم سوف يحصلون على موافقة الإمبراطور من الآن فصاعدًا على أي بابا يقومون بانتخابه). رضخ بيرنجر بسرعة وترك أوتو ينفرد بالسلطة العليا ... ووُلدت إمبراطورية الغرب مرة أخرى لتبقى حتى عصر نابوليون.

كان لقب «الأكبر» الذي ألحق باسم أوتو مستحقًّا. كان لديه طموح واحد؛ أن يستعيد لإمبراطوريته القوةَ والازدهار اللذين كانا لها تحت شارلمان، وكان قاب قوسين أو أدنى من ذلك. في سنوات حكمه الإحدى عشرة (التي قضى معظمها في إيطاليا) عمَّ السلام الشمال الإيطالي كما لم يحدث من قبل. روما كانت أكبر من مشكلة. في الحمى الناجمة عن المكائد البابوية المستمرة لم تكن نقطة الاشتعال بعيدة، وفي ٩٦٦م واجه الإمبراطور اضطراباتٍ خطرةً لم يستطِع إخمادها إلا بعد أن علَّق حاكم المدينة من شعره في تمثال الفارس أمام قصر اللاتيران.[٩] كان في الجنوب أن وجد أوتو نفسه محاصَرًا بمشكلات جمة. كان يعرف أنه لن يستطيع السيطرةَ على شبه الجزيرة ما دامت «أبوليا Apulia»

و«كالابريا Calabria» في أيدي بيزنطة، ولكن سيطرة اليونانيين على مقاطعتهم الإيطالية كانت أقوى منه. ولما كانت الحرب غير مجدية، لجأ إلى الدبلوماسية، فزوَّج ابنه ووريثه من الأميرة البيزنطية الجميلة «تيوفانو Theophano». كان مهرها سخيًّا، إلا أنه لم يكن يتضمَّن الشمال الإيطالي. مات أوتو محسورًا خائب الأمل. حلفاؤه السابقون، الدوقيات اللمباردية، بقيت قوية مثلما كانت، بينما بقيت أبوليا وكالابريا يونانيتين كعهدهما دائمًا.

مثل بطله شارلمان، كان أوتو سيئ الحظ في خلفائه. ابنه أوتو الثاني بذل قصارى جهده، إلا أنه بعد هروبه بصعوبة شديدة من حملة عربية كانت قد دحرت جيشه في كالابريا، مات في سنة ٩٨٣م (كان في الثامنة والعشرين)، على إثر جرعة زائدة من الصبار وهو مريض بالحمى. (أوتو الثاني هو الإمبراطور الروماني الوحيد المدفون في كنيسة سان بيتر). «أوتو الثالث Otto III»، ابنه من تيوفانو كان على النقيض من أسلافه تمامًا، كان يجمع بين طموح سلسلة نسبه، وصوفيةٍ رومانسية مستمَدة من أمه، وحلم دائم بثيوقراطية بيزنطية تضم كلًّا من الألمان والطليان واليونانيين والسلاف، يكون الرب على رأسها والبابا والإمبراطور نائبين. هذا الشاب غير العادي كان قد غادر روما بالفعل بعد تتويجه الإمبراطوري عندما هبَّت المدينة مرةً أخرى في ثورة عارمة، إلا أنه عاد بعد عامين قويًّا واستعاد النظام، كما أعاد الشاب الجرماني الحالم جريجوري الخامس إلى منصب البابا، وبنى لنفسه قصرًا منيفًا على «الأفنتاين Aventine». هنا سيقضي بقيةَ سنوات عمره في كنف مزيج غريب من الأبهة والزهد! بلاط مسرف وطقوس احتفالية بيزنطية، يأكل في عزلته من طبق من الذهب، يطرح رداءه الكهنوتي الأرجواني أحيانًا ليرتديَ بشكير حاج ويسير حافيَ القدمين إلى ضريح بعيد. في ٩٩٩م رقَّى معلِّمه العجوز «جربرت الأوريلاتي Gerbert of Aurellac» إلى البابوية تحت اسم «سلفستر الثاني Sylvester II». لم يكن جربرت لاهوتيًّا متميزًا فحسب، بل كان أكثر العلماء والرياضيين علمًا في زمنه، ويُنسب إليه دائمًا فضل تعميم الأرقام العربية واستخدام الأسطرلاب في الغرب المسيحي. كان لا بد من أن يكون الرومان ممتنين لإمبراطورهم لاختياره بابا بهذا الحجم، إلا أن أوتو ضاق ذرعًا بهم وهمَّ به. في ١٠٠١م طردوه من المدينة. مات في العام التالي. كان في الثانية والعشرين. وكما كان متوقعًا بالضرورة، لم يترك أثرًا.

في إيطاليا نهاية الألفية الأولى، كانت ظواهر معينة قد تشكَّلت وكانت ظواهر أخرى تتشكَّل ببطء. الظاهرة الأولى والأهم كانت تلك العلاقة المتبادلة بين إيطاليا والبابوية والإمبراطورية الغربية. كانت إيطاليا قد عادت مرةً أخرى جزءًا لا يتجزأ من الإمبراطورية،

متحدة مع ألمانيا تحت حاكم واحد ولكنها تابعة، بمعنى أنها لم يكن لها رأي في اختياره. هكذا كان الحاكم دائمًا أميرًا ألمانيًّا ولم يحدث أن كان إيطاليًّا قط. من ناحية أخرى، بالرغم من كونه حاكمًا اسميًّا للرومان، كان بإمكانه أن تكون له مكانة الإمبراطور ولكن بعد تتويجه من قِبل البابا في روما، أما المطالبة الإمبراطورية بأحقية التعيين البابوي فلم تكن مقبولة في إيطاليا بشكل عام، على الأقل بواسطة مجلس الشيوخ والأرستقراطية الرومانية. حتى الرحلة إلى إيطاليا عبْر لمبارديا وتوسكانيا والولايات البابوية كانت صعبة بالنسبة لأي مرشح غير معروف.

في الوقت نفسه، كانت المدن الحرة في الشمال الإيطالي تزداد قوةً باطراد كما تزداد استقلالية. فوضى القرن التاسع وبداية القرن العاشر هي التي أعطتها هذا الشعور، كما أن السلام الذي نعمت به في عهد أوتو الأكبر والثاني والثالث قد أفاد تطورها التجاري فأصبح الكثير منها مدنًا غنيةً — وبخاصة ميلانو Milan — التي كانت أول تقاطع طرق جنوبي ممرات الألب والجمهوريات البحرية المزدهرة في جنوة وبيزا وفينيسيا. كانت تلك ظاهرة إيطالية بامتياز. انتعاش التجارة وبدايات الصناعة المنظمة حرَّكت في أنحاء أوروبا الغربية تلك الاندفاعة البطيئة من الريف إلى المدن التي ما زالت مستمرة إلى اليوم؛ ولكن في إيطاليا التي يوجد بها مفهوم جنيني للرابطة القومية يتجاوز مفهوم التضامن المحلي، كانت العملية أسرعَ وأكثر وعيًا بنفسها منها في أي مكان آخر. بالنسبة لمعظم الشمال الإيطالي كان الإمبراطور بعيدًا وممثلوه على درجة كبيرة من الضَّعف لكي يمثلوا عاملَ كبح مؤثرًا على تطوُّرها المستقل. كانت النتيجة أن واصلت المدن الإفادةَ من الخلاف المتزايد بين الإمبراطورية والبابوية، البعض يستخدم دعمًا بابويًّا لتمزيق ولائهم للإمبراطور والبعض الآخر يتودَّد له ويتعهَّد بدوام الولاء في مقابل امتيازات إمبراطورية. وهكذا في خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر وُلدت الدولة — المدينة الإيطالية، التي تحكم نفسها ذاتيًّا حسب نظام مجتمعي على النموذج الروماني، قوي بما يكفي لكي — تحمي نفسها ضد كل القادمين — بما في ذلك ضد بعضهم البعض — ولممارسة عملية شد تجاذبي على الأرستقراطية المحلية. وهكذا في الوقت نفسه، بذرت بذورَ ذلك الصراع المقيت الذي ارتبط فيما بعدُ بأسماء «جيولف Guelf» المناصر للبابوية و«جيبيلين Ghibelline» المناصر للإمبراطورية؛ ذلك الصراع الذي كان من شأنه أن يمزِّق شمال ووسط إيطاليا لقرون تالية.

كان ذلك المزيج القديم من الاضطراب والفساد الأخلاقي ما زال سائدًا في روما والولايات الإيطالية؛ حيث كانت الأسر الكبيرة المتنافسة — «الكريسنتي Crescenti»،

وكونتات تاسكولم Tusculum، وغيرها — يلتفون باستمرار حول عرش سان بيتر بلا توقُّف. على أنه هنا، وفي داخل مجلس الشيوخ نفسه أن كانت روح جديدة قد بدأت تظهر، وبدأ وعي ينمو بحاجة الكنيسة إلى أن تنفض عن نفسها عار القرن الماضي وتستعيد صعودها الفكري والأخلاقي إن كان لها أن تبقى على قيد الحياة. كانت تلك روح «كلوني Cluny»، الكنيسة الفرنسية الكبرى الأم للإصلاح. كانت هناك ملحقية كلونية في روما على مدى الخمسين سنة السابقة، كان تأثيرها يبدو ضئيلًا في البداية ولكن نموذجها وتعاليمها كانت قد بدأت في الظهور.

وهكذا، فيما يتعلَّق بشمال ووسط إيطاليا، فإن التوجُّه الأهم الذي كان يشكِّل مجرى الأحداث في القرن الحادي عشر — تسريع الصراع بين إمبراطورية متعجرفة وبابوية تستعيد نشاطها مع مدن لمبارديا وتوسكانيا التي كان اعتمادها على نفسها يتزايد — هذا التوجُّه كان يمكن تبيُّنه فعلًا مع بداية القرن. من ناحية أخرى، لم يقدِّم الوضع في الجنوب في سنة ١٠٠٠م أيَّ خيط لحل لغز التطورات الهائلة المتوقَّعة. كان اثنان من أبطال المنطقة الأربعة في القرن العاشر قد انسحبا. الإمبراطورية الغربية لم تُبدِ اهتمامًا أبعدَ من هزيمة أوتو الثاني الكبيرة، بينما كان يبدو أن العرب قد تخلوا عن فكرة إقامة مستوطنات دائمة على البر الرئيسي، برغم استمرار إغارتهم وأعمال القرصنة التي كانوا يقومون بها انطلاقًا من صقلية. هذا الغياب للإمبراطورية الغربية والعرب، أدَّى إلى استقطاب بين الطرفين الباقيين؛ اللمباردي والبيزنطي، اللذين كان من المتوقع أن يستمر قتالهما المتقطع إلى ما لا نهاية لو أنهما تُركا لنفسيهما. على أية حال، كان هناك الآن قادمون جدد من الشمال، لا يقلون عنهم قوةً وشجاعة وذكاء، تفوَّقوا عليهم ثم أطاحوا بهم في أقل من خمسين عامًا.

قصة النورمانديين في الجنوب الإيطالي تبدأ منذ ١٠١٥م تقريبًا بمجموعة مكوَّنة من نحو أربعين حاجًّا من الشباب النورمندي عند ضريح الملاك ميكائيل في «مونت جارجانو Monte Gargano»، ذلك البروز الصخري الغريب الناتئ مما يمكن أن يطلَق عليه حافر إيطاليا في الأدرياتكي. عندما وجدوا فرصةً في تلك الأراضي الصعبة قليلة السكان، كان من السهل أن يقتنعوا برأي بعض زعماء اللمبارد بالبقاء في إيطاليا كمرتزقة بهدف طرد البيزنطيين من شبه الجزيرة. انتقلت الأخبار بسرعة إلى نورمنديا، وبدأ توافد المغامرين من الشباب صغار السن ليصبح ذلك هجرةً مطردة. كانوا يحاربون لحساب مَن يدفع أكثر، ثم بدءوا يحصلون على أراضٍ مقابل خدماتهم. في ١٠٣٠م، منح الدوق

«سيرجيوس Duke Sergius»، حاكمُ نابولي — وهو ممتنٌّ لدعمهم له — قائدَهم «راينولف Rainulf» مقاطعةَ أفيرسا County of Aversa. بدءًا من تلك اللحظة، أصبح تقدُّمهم سريعًا، وعندما شكَّل البابا ليو التاسع جيشًا قويًّا وقاده بنفسه ضدهم، هزموه في ميدان سيفيتات وأخذوه أسيرًا.

في ذلك الوقت، كانت السيادة بين زعماء النورمنديين لأسرة «تانكريد دو هوتفي Tancred de Hauteville» وهو فارس نورمندي مغمور من شبه جزيرة «كوتنتين Cotentin»، كان ثمانية من أبنائه الاثني عشر قد استقروا في إيطاليا ليصبح خمسة منهم من كبار القادة. بعد «سيفيتات Civitate»، تغيَّرت السياسة البابوية، وفي ١٠٥٩م منح البابا «نيكولاس الثاني Nicholas II» روبرت دو هوتفي، المكنَّى بـ«جيسكار (المكار) Guiscard (the Crafty)» دوقياتِ أبوليا وكالابريا وصقلية. في هذه المناطق، كان جزء كبير من أبوليا ومعظم كالابريا قد ظل يونانيًّا، بينما كانت صقلية في أيدي العرب؛ ولكن روبرت المستقوي بشرعيته الجديدة لن يظل مقيدًا طويلًا. بعد عامين سيعبر هو وأخوه الأصغر روجر مضايق «مسيني» وسيستمران على مدى العقد التالي في الضغط على العرب، سواء في صقلية أو البر الرئيسي. سقطت باري في ١٠٧١م وسقطت معها بقايا القوة البيزنطية في إيطاليا. مع مطلع العام التالي، سقطت باليرمو وتحطَّمت قبضة المسلمين على صقلية إلى الأبد، وفي ١٠٧٥م كان سقوط ساليرنو، آخر إمارة نورمندية. بنهاية القرن كان النورمنديون قد قضوا على المعارضة الأجنبية. كانوا يحكمون كل إيطاليا جنوب نهر جارجليانو ويبسطون سيادتهم منفردين، بينما كانوا ماضين في طريقهم في صقلية لتأسيس أرقى بلاط في العصور الوسطى.

كان الأباطرة الغربيون في القرن الحادي عشر أقلَّ اهتمامًا وانشغالًا بإيطاليا عن الأوتوز The Ottos.[١٠] لم يترك «هنري الثامن التقي Henry II the Holy» ولا «كونراد الثاني Conrad II» أيَّ بصمة على شبه الجزيرة، كذلك لم يكن هناك أي احتمال أن يقوم «هنري الثالث Henry III» خليفةُ كونراد بأي شيء لو لم يتدهور الوضع في روما، لدرجةِ أنه في سنة ١٠٤٥م كان ما لا يقل عن ثلاثة باباوات يتناحرون متنافسين على التاج البابوي. هُرع هنري إلى روما وخلع الثلاثة، ولكنَّ الاثنين اللذين عيَّنهما على التوالي لم يفصل بينهما أكثر من سنة — الثاني منهما، «داماسوس الثاني Damasus II» مات بعد ثلاثة وعشرين يومًا في ظروفٍ يحوم حولها دسُّ السم له — ولم ينعقد مجلس للأساقفة إلا في

١٠٤٨م في «ورمز Worms»، ليصوِّت بالإجماع للأسقف «برونو التولي Brono of Toul»، وهو ثاني أبناء عم الإمبراطور.

مع برونو، الذي اتخذ اسم «ليو التاسع Leo IX» استعادت الكنيسة هيبتها. انكسرت الموجة الكريهة التي وصمت روما بالعار، وبالرغم من أن البابا مات بعد ست سنوات فقط (كان النورمنديون قد أسروه في سيفيتات ولم يفُق من ذلك الامتهان قط)، كان قد وضع الأساس بالفعل لبابوية تم إصلاحها وبثُّ الحيوية فيها. كان في إنجازه ذلك يحظى بدعمٍ كامل من الإمبراطور، وهي ميزة لم يحظَ بمثلها خلفاؤه؛ وبموته في ١٠٥٤م، وموت هنري بعد عامين، انتهت فترة التعاون الوثيق السريعة بين الإمبراطور والبابا. كان من المفارقات الساخرة في حياة هنري، أنه في محاولته لجعل البابوية حليفًا، نجح في صنْع خَصم منافس. بعد أن استعادت الكنيسة قوَّتها وفعالية تأثيرها، بدأت الآن تبحث عن السلطة — المسعى الذي وضعها في صراعٍ مع المصالح الإمبراطورية، وخاصة عندما كان ذلك متبوعًا بالإصرار العنيد من رئيس أساقفة مثل «هيلدبراند Hildebrand».

على مدى ثلاثين عامًا تقريبًا، قبل انتخابه ليكون البابا «جريجوري السابع Gregory VII» في ١٠٧٣م، لعِب هيلدبراند دورًا قياديًّا في الشئون الكنسية. طوال عمله في منصبه، كان هناك هدف واحد نصب عينيه: أن يفرض على جميع المسيحيين، بدءًا من البابا، طاعةً عمياء للكنيسة. عاجلًا أو آجلًا إذن كان الصدام حتميًّا، وهو ما حدث، على غير توقُّع، في ميلانو. في سنة ١٠٧٣م أثناء صراع على منصب رئيس الأساقفة الخالي، فاقم «هنري الرابع Henry IV» ابن هنري الأمورَ بإعطاء المنصب رسميًّا لأحد المرشحين، بينما كان يعرف تمامًا أن ألكساندر الثاني، سلف البابا جريجوري، كان قد وافق بالفعل على تعيينِ شخص آخر طبقًا للقواعد الكنسية. كان ذلك فعلَ تحدٍّ واضح لم تستطِع الكنيسة تجاهله، وفي ١٠٧٥م أدان جريجوري كلَّ عمليات التعيين الكنسية بواسطة الأشخاص غير الإكليركيين، ووضعها تحت طائلة عقوبة «الحرم الكنسي Anathema»، وإذ ذاك قام هنري الغاضب بتعيين أسقفين ألمانيين آخرين في الأبرشيات الإيطالية، مضيفًا أسقفًا لـ «ميلانو»، بالرغم من أن سابقه المعيَّن كان ما زال على قيد الحياة؛ ثم رافضًا استدعاء بابويًّا إلى روما لكي يفسِّر ما أقدم عليه، قام هو بدعوة مجلس عمومي لكل الأساقفة الألمان في ٢٤ يناير ١٠٧٦م، وخلع جريجوري من منصب البابا.

كان من الواضح أنه قد تمادى إلى درجة الشطط. أدَّى خلع البابا وحرْم هنري كنسيًّا وإعفاء كل رعاياه من الولاء للدولة، أدَّى كل ذلك إلى ثورات في ربوع ألمانيا، كانت

نتيجتها تركيع الإمبراطور بمعنى الكلمة. عابرًا الألب في يناير ١٠٧٧م في عز الشتاء مع زوجته وطفله الرضيع كان أن وجد جريجوري في قلعة «كانوسا Canossa»، وهناك — بعد ثلاثة أيام من المذلة والامتهان — حصل على الغفران الذي كان يريده.

قصة كانوسا، التي عادةً ما يصحبها صورة للإمبراطور وهو عاري القدمين يرتدي الخيش ويرتعد من البرد أمام أبواب القلعة المغلَّقة، هذه القصة كانت دائمًا مادةً لمؤلفي كتب التاريخ للأطفال، باعتبارها درسًا عن غرور الأطماع الدنيوية. الحقيقة أن انتصار جريجوري كان فارغًا وسريع الزوال، وكان هنري يعرف ذلك. لم يكن لديه أية نية للوفاء بوعوده في الخضوع؛ وفي ١٠٨١م، عبَر إلى إيطاليا مرةً أخرى — ولكن على رأس جيش هذه المرة. في البداية ظلت روما قوية صامدة، إلا أن هنري تمكَّن من اختراق دفاعاتها بعد عامين. جرت محاولات قليلة فاترة للتفاوض ولكنها توقفت، ويوم عيد الفصح في ١٠٨٤م ... تم تتويجه إمبراطورًا بواسطة البابا الزائف كليمنت الثالث، الذي كان هو قد عيَّنه.

حتى الآن، كان جريجوري المتمرِّس في كاسل سان أنجلو، يرفض الاستسلام. كانت لا تزال في يده ورقة واحدة أخرى يلعب بها. لم يُهرع النورمنديون الذين كان يلجأ إليهم دائمًا في المُلِمَّات لمساعدته. كان روبرت جيسكار مشغولًا تمامًا بحملة في البلقان ضد الإمبراطورية الشرقية؛ ولكن فجأة ... ظهر روبرت في مايو ١٠٨٤م على رأس جيشٍ قوامه ستة وثلاثين ألف مقاتل أمام أسوار روما. انسحب هنري، الذي كانت قوَّاته أقل عددًا، في الوقت المناسب. اندفع النورمنديون عبْر «بورتا فلامينيا Porta Flaminia»، وعلى مدى ثلاثة أيام كانت المدينة مسرحًا لكل أعمال السلب والنهب والقتل. عندما عاد الهدوء، كانت المنطقة ما بين الكولوسيوم واللاتيران قد احترقت تمامًا. عانت روما من أبطال البابا أكثرَ مما عانت من القوط والوندال. روبرت، الذي لم يكن يجرؤ على أن يترك جريجوري التعس تحت رحمة الجماهير، رافقه جنوبًا إلى ساليرنو حيث قضى نحْبه في العام التالي. كانت آخر كلمات البابا التي وصلتنا تقول ساخرة مع شعور بالأسى ورثاء الذات، «لقد أحببت الصلاح والاستقامة، وكرهت الظلم، ولذا أموت في المنفى».

كانت وداعية مريرة، ولكن إنجاز جريجوري كان أعظم مما يُعرف. لقد أقام في النهاية سيادةً بابوية تعتمد على التراتبية الكنسية — انتهت تمامًا ممارسات تعيين العامة في المناصب الكنسية في أوائل القرن التالي — حتى وإن لم يكن قد حقق انتصارًا مماثلًا على الإمبراطورية، فإنه على الأقل أكَّد مطالبه بحيث أصبح من المستحيل تجاهلها مرةً أخرى. لقد كشَّرت الكنيسة عن أنيابها، وسيعمل أباطرة المستقبل لها ألف حساب.

هيأت أحداث القرن الحادي عشر، وبخاصة ضَعف القبضة الإمبراطورية عندما اكتسب صراع التعيين الكنسي زخْمًا، هيأت المناخ المناسب لتطور الدول-المدن اللمباردية والتوسكانية. ولكن بينما كانت هذه التوجهات الانشطارية والجمهورية تشكِّل مصائر الشمال الإيطالي، كان الجنوب يتطور على خطوط متعارضة. هنا أيضًا، كانت توجد مدن تجارية مثل نابولي وساليرنو وأمالفي، وكلها صاحبة تاريخ طويل من الاستقلال. خارج هذه المدن، كانت طاقة النورمنديين قد لحمت هذه الأراضي ببعضها البعض لأول مرة في خمسة قرون، وفرضت عليها إقطاعًا أوتوقراطيًّا أكثرَ تشددًا من أي نظام سبق أن عرفه الشمال. مات روبرت جيسكار في ١٠٥٨م، في حملة على القسطنطينية،[١١] تاركًا ممتلكاته على البر الرئيسي لابنه، ولكن السيطرة الفعلية على صقلية كانت لأخيه (كان قد أصبح الآن الكونت روجر الأكبر)، الذي كان، إلى حدٍّ كبير، هو المسئول عن غزوها. كان ذلك قرارًا صائبًا، حيث إنه مكَّن روجر من إحكام القبضة النورمندية على الجزيرة؛ حيث كانت المقاومة العربية على بعض أجزائها ما زالت على أشُدها. في السنوات الست عشرة التي أمضاها بعد أخيه، وضع أسس دولة منظمة آمنة، وهي الأسس التي سيبني ابنه عليها بنجاح.

وجدت روما في روجر الثاني واحدًا من أعظم وأبرع حكام العصور الوسطى. روجر، المولود لأمٍّ إيطالية، نشأ في صقلية حيث — بفضل مبادئ أبيه في التسامح الديني — اندمج اليونانيون والعرب على قدمٍ وساق مع النورمنديين واللاتين؛ فالمظهر جنوبي، والطِّباع شرقية، ولكنه ورِث الطموح والجسارة عن أسلافه النورمنديين، وجمع إلى ذلك كله موهبةً في الإدارة المدنية كانت أبرز ما يميِّزه. في ١١٢٧م استولى على البر النورمندي الرئيسي من ابن عمٍّ له، كان فاشلًا عديم الكفاءة، وبذلك أصبح أحد قادة أوروبا البارزين. لم يكن ينقص روجر سوى مؤهل واحد قبل أن ينافس أقرانه من الأمراء؛ كان في حاجة ماسَّة إلى تاج.

جاءته الفرصة في فبراير ١١٣٠م في ذلك الشكل المألوف؛ الصراع على خلافة البابا. كان البابا «أونوريوس الثاني Honorius II» يحتضر. كان خليفته المتوقَّع هو الكاردينال «بيترو بييرليوني Pietro Pierleoni»، الممثل البابوي السابق لدى «هنري الأول Henry I» ملك إنجلترا، وكان رجل دين يتمتَّع بقدراتٍ متميزة وتاريخ لا غبار عليه، إلا أنه بالرغم من ذلك كله وبالرغم من أنه كان ينحدر من أسرةٍ ذات أصول يهودية غنية ومتنفذة، لم يكن يلقى قبولًا من الجناح الإصلاحي المتطرف في مجلس الشيوخ. وبينما كانت الأغلبية

تنادي بـ «بييرليوني» ليكون البابا باسم «أناكليتوس الثاني Anacletus II»، فإن الجناح المتطرف اختار مرشَّحه الذي اتخذ اسم «إنوسنت الثاني Innocent II». وفي غضون أيام قليلة أصبح وضعُ إنوسنت شديدَ الخطورة لدرجةِ أنه اضطُر لمغادرة روما — إلا أن رحيله كان إنقاذًا له. بمجرد أن وجد نفسه فوق الألب، وجدت قضيته التي كان يتصدى للدفاع عنها «سان برنار الكليرفوي St Bernard of Clairvaux»، أكبر الزعماء السياسيين المخرِّبين وأكثرهم تأثيرًا في عصره، وجدت هذه القضية دعمًا من كل أوروبا المسيحية. كانت روما ... وروجر، هما كل ما تبقى لـ «أناكليتوس». كانت شروط روجر: دعم نورمندي مقابل تاج. وافق البابا فورًا، وكان أن تم تتويج روجر ملكًا على صقلية وإيطاليا في كاتدرائية باليرمو يوم عيد الميلاد في ١١٣٠م، في جوٍّ من الأبهة غير المسبوقة.

إلا أن متاعب روجر لم تنتهِ. مات أناكليتوس في ١١٣٨م، ثم مات إنوسنت في العام التالي، وبعد أن شعر أخيرًا بالاطمئنان على عرشه، قام شخصيًّا بقيادة جيشٍ ضد المملكة الجديدة. كانت غلطة البابوات دائمًا أن يخرجوا لملاقاة النورمنديين في ميادين القتال. وقع إنوسنت في الأسْر عند نهر جارجليانو — تمامًا مثلما كان قد حدث لـ «ليو التاسع» في سيفيتات — ولم يحصُل على حريته إلا بعد أن اعترف رسميًّا بأحقية روجر في التاج. إلا أن الملك كان يمثل خطرًا داهمًا على الحدود الجنوبية للدول البابوية لكي تقبل بتسويةٍ حقيقية. كذلك، لم تكن علاقته بالإمبراطوريتين أفضل حالًا. كانت كلتاهما تراه خطرًا على استقلالها، وفي سنة ١١٤٦م فشلت حتى دبلوماسية روجر الملتوية في منع تحالف القوى الثلاث ضده. لم ينقذه سوى الحملة الصليبية الثانية، تلك الحملة الفاشلة التي كانت ثمنًا دفعه أمراء أوروبا نتيجةَ تركهم سان برنار يتدخل في شئونهم.

بالرغم من كل مشكلاته، الخارجية والمحلية (حيث كان الإقطاعيون الأقوياء في أبوليا في حالة دائمة من العصيان أثناء حكمه)، كانت قوة روجر تتزايد، وكذلك أبهة بلاطه. البحرية التي أنشأها تحت قيادة الأدميرال[١٢] الممتاز «جورج الأنطاكي George of Antioch»، أصبحت قوةً متفوقة في البحر الأبيض بالرغم من عِداء الجمهوريات البحرية الإيطالية. غزا مالطة والساحل الشمالي الأفريقي من طرابلس إلى تونس.[١٣] كما كانت هناك إغارات على القسطنطينية نفسها، وكذلك على كورنتة وتيبس Thebes، وكانت الأخيرة مركز صناعة نسج الحرير البيزنطية، ولذلك كان يتم جلب الحرفيين الأسرى من هناك للعمل في ورش باليرمو.

هنا في قصوره واستراحاته وسط بساتين البرتقال، سيقضي روجر السنوات العشر الأخيرة من حياته، مع مساعديه ورجال بلاطه المتعدد اللغات — كانت اللاتينية واليونانية

والعربية لغاتٍ رسمية للمملكة — يناقش العلوم والفلسفة مع أبرز علماء العصر في العالم (حيث كانت صقلية آنذاك القناة الرئيسية التي مرَّت من خلالها العلوم والمعارف اليونانية والعربية إلى أوروبا)، أو مسترخيًا، مثل أي حاكم شرقي، في جناح الحريم العامر.

مأثرته الرائعة هي الكنيسة البلاطينية The Palatine Chapel التي بناها في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الثاني عشر في الدور الأول من القصر الإمبراطوري في باليرمو. الكنيسة، حسب تصميمها، مؤسَّسة على الطراز اللاتيني التقليدي، مع صحن رئيسي يحيط به من الجانبين ممران وبضع درجات تؤدي إلى حرم دائري مقبَّب. الأرضية والجدران السفلية لاتينية كذلك رغم الفخامة التي تبدو عليها، رخامها الأبيض المائل للصفرة المطعَّم برقائق الذهب والزخارف، يشع روعةً وجمالًا. كل بوصة مربعة من الجدران العليا تغطيها الفسيفساء البيزنطية الفخمة التي تعود إلى العصر نفسه.[١٤] الواضح أن كل هذا الجمال كان من إبداع حرفيين يونانيين جيء بهم من القسطنطينية، وكان ذلك وحده كفيلًا بأن يجعل من الكنيسة جوهرة فريدة نادرة. يعلو هذه الجدران سقف تتدلى منه أعمدة على الطراز العربي أشبه بالحليمات، سقف هو مفخرة لفنون قرطبة أو دمشق.

كان أهم إنجاز سياسي لـ «روجر»، هو أنه جمع حضارات المتوسط الثلاث معًا — اللاتينية واليونانية والعربية — وجعلها تعمل معًا في سلام ووئام، ويُحسب له أنه فعل ذلك في قرنٍ كان الصراع بينهم فيه على أشُده في كل مكان — قرن الحملات الصليبية — وبعد مائة عام من ذلك الانشقاق الكبير بين الكنيستين الشرقية والغربية.

هنا، في هذا المبنى الصغير، نجد تعبيرًا بصريًّا رائعًا عن ذلك الإنجاز. نراه كذلك في منشأة الملك الكبرى الأخرى في «كيفالو Cefalú»، وهنا ربما يكون التأثير العربي أقلَّ وضوحًا، إلا أن صورة المسيح المرسومة بالفسيفساء البيزنطية في القبة الشرقية العليا، هي بالتأكيد أعظم صورة ليسوع المخلِّص في كل الفن المسيحي.

في الوقت نفسه، كانت رياح التغيير بعد أن هبَّت عبْر الشمال الإيطالي، تتحرك بهدوء في اتجاه روما. في ١١٤٣م، انفجر عصيان مدني في المدينة وتم إنشاء مجلس شيوخ مرة أخرى. النظام البابوي قاوم بشدة — في ١١٤٥م مات البابا «لوقيوس الثاني Lucius II» متأثرًا بجراحٍ كان قد أصيب بها عند اقتحام الكابيتول — ولكن الحركة الطائفية كانت تكتسب أرضًا باطراد، وبخاصة بعد وصول «أرنولد البريشي Arnold of Brescia»، الذي

كان راهبًا شابًّا متقدَ الحماسة، امتزجت نزعة الزهد الشديدة فيه بتوجُّه جديد في الفكر الديني؛ الفلسفة السكولاستية.[١٥] كان هذا الضرب من التفكير قد نما خلال القرن السابق في فرنسا، تحت لاهوتيين مثل «بيتر أبيلار Peter Abelard»، معلِّم أرنولد القديم، وبدأ يتجذَّر في إيطاليا. هذا الفكر في جوهره، توجُّه يبعُد عن التأمل اللاعقلاني القديم ويتَّجه نحو روح جديدة للتساؤل المنطقي والعقلاني في المسائل الروحية، وكان أحدَ مؤثِّرَين سائدَين في حياة أرنولد. الثاني، كان الاهتمام المستعاد بالقانون الروماني، الذي كان مطروحًا آنذاك في جامعة «بولونيا Bolognea». من هذين المؤثِّرين طوَّر أرنولد نظريته التي كان يروِّج لها دون كلل أو ملل في شوارع وساحات روما، ومُفادها أن الكنيسة ينبغي أن تخضع نفسها كلية، في كلِّ ما هو زمني، للسلطة المدنية للدولة، متخلية عن كل سلطة دنيوية، وتعود إلى الزهد الصافي للآباء الأوائل. كانت تلك مادة خطرة؛ بالنسبة لـ «سان برنار» الذي كان يبشِّر بآراءٍ مناقضة لذلك تمامًا وبنفس الدرجة من القوة، والذي كان قد أدان بالفعل أبيلار وأرنولد معًا في مجلس الشيوخ في سنة ١١٤٠م، كانت هذه المادة لعنةً بالنسبة له. لكن برنار نفسه لم يستطِع أن يخفِّف من قبضة أرنولد على روما. سيكون ذلك هو الإنجاز المشترك لشخصين آخرين من أهم رجال القرن الذي ينتميان إليه؛ الإمبراطور «فردريك بربروسا Frederick Barbarossa»، و«نيكولاس بريكسبير Nicholas Breakspear» الذي كان الإنجليزي الوحيد الذي شغَل عرش سان بيتر بلقب «البابا أدريان Pope Adrian» (أو هادريان).

من البداية، أوضح أدريان أنه لن يأخذ أوامرَ من أحد. وعندما وجد المجتمع الروماني يمنعه — بدعم من أرنولد — من الوصول إلى اللاتيران، جاء ردُّه سريعًا. في وقت باكر من عام ١١٥٥م، تم وضع روما كلها تحت حرم كنسي، استمر حتى طرد أرنولد من المدينة. لم يكن أيُّ بابا قد جرؤ على اتخاذ خطوة كتلك من قبل … ولكنها أثبتت جدواها. كان «أسبوع الآلام Holy Week» يقترب، ولم يكن من المتصوَّر أن يكون هناك عيد للقيامة دون عرَّاب. تأجج الشعور العام ضد المجمع. فجأةً، اختفى أرنولد ليجد أدريان نفسه حرًّا مرة أخرى، وترأس يوم عيد القيامة قداسًا كبيرًا في اللاتيران كما كان مخططًا.

«فريدريك هوهنشتوفن Frederick of Hohenstaufen»، ملك الرومان، ومن ثم الإمبراطور المنتخب منذ ١١٥٢م احتفل بالعيد في «بافيا Pavia». كان قد تلقى تاج لمبارديا الحديدي حديثًا في احتفالٍ أكثرَ رمزيةً من المعتاد — كان كثير من المدن اللمباردية على رأسها ميلانو قد أصبحت تعارض الإمبراطورية الآن بكل وضوح — وكان

متجهًا إلى الجنوب من أجل تتويجه إمبراطورًا في روما. بالقرب من «سيينا Sienna» قابله موفَدون رسميون من قِبل البابا بطلبٍ عاجل: كانت مساعدته مطلوبة في الإمساك بـ «أرنولد البريشي» الذي كان محتميًا بقلعةٍ قريبة. لم يكن ذلك يمثل مشكلةً بالنسبة لجيش فردريك. سلَّم أرنولد نفسه بسرعة وأُعيد إلى روما، وبعد أن أدانه قاضي المدينة، شُنق ثم أُحرق جثمانه وأُلقي برماده في التيبر.

إلا أن توقُّع وصول فردريك الوشيك إلى روما كان قد بدأ يثير القلق في الإدارة البابوية. بصعوبة — ولانعدام الثقة المتبادل بين الطرفين — تم ترتيب لقاء بين الملك والبابا بالقرب من «سوتري Sutri». انتهى اللقاء بالفشل تقريبًا؛ لأن بربروسا ظل على مدار يومين رافضًا أن يقوم بالعمل الرمزي، وهو الإمساك باللجام والرِّكاب لأدريان وهو يترجَّل عن فرسه، وفي النهاية تم التوصل إلى اتفاق وانطلق الاثنان معًا إلى روما، وسرعان ما اعترض طريقهما مندوبون عن العامة؛ إذا كان فردريك يريد أن يدخل المدينة فلا بد من أن يدفع إتاوة، وأن يضمن لكل المواطنين حرياتهم المدنية. رفض الملك رفضًا باتًّا وعاد المندوبون شاعرين بالأسف؛ إلا أن أدريان الذي كان يستشعر متاعبَ قادمةً، أرسل من فوره قوةً متقدمة للاستيلاء على المدينة الأشبه بالأسد. عند أول ضوء في الصباح التالي تسلَّل هو وفردريك سرًّا ودخلا روما، وبعد ساعات قليلة تم تتويج الإمبراطور الجديد. وصل الخبر إلى المجمع الذي كان منعقدًا لمناقشة أفضل الطرق لمنع التتويج. قام العامة والميلشيا بالهجوم على الفاتيكان بعد أن غضبوا لشعورهم بالخديعة. استمر القتال طوال اليوم مع سقوط ضحايا من الجانبين في المذبحة، إلا أن القوات الإمبراطورية كانت قد تمكنت من السيطرة على الوضع في المساء، وانسحبت فلول المهاجمين عبر النهر.

بعد أن حصل فردريك على بغيته عاد إلى ألمانيا، أما بالنسبة لـ «أدريان»، فقد كان ذلك انتصارًا فارغًا عديم القيمة. بدون قوات الإمبراطور التي تحميه، لم يستطِع البقاء في روما، وكان قد فشل تمامًا في حشد دعم فردريك ضد وليم الأول «الطالح» William I (the bad) ملكِ صقلية، ابن روجر الثاني وخليفته، الذي كان ما زال رافضًا الاعتراف به. كان أمله الكبير في إسقاط المملكة الصقلية، قد بات الآن في يد بارونات أبوليا، الذين كانوا مرةً أخرى في حالة ثورة مدعومة هذه المرة بجيش بيزنطي. إلا أن الحظ لم يحالفه، ولم يكن وليم يستحق لقبه الذي يبدو أنه كان بسبب مظهره الشرير ولون بشرته الداكن وقوَّته الجسدية الهرقلية، أكثر مما هو بسبب أي عيوب في شخصيته. صحيح أنه كان

أكثر كسلًا من أبيه وأكثر حبًّا للملذات والمتع، لكنه كان يحتفظ بموهبة «آل هوتفي Hauteville» في قدرته على أن يُفني نفسه وكلَّ مَن حوله عندما يواجه أزمة. فورًا، انطلق من صقلية على رأس قواته الصدامية المكوَّنة من جنود عرب، سحق اليونانيين والمتمردين في أبوليا وبرنديزي، ثم انطلق ليحاصر أدريان في «بنيفنتو Benevento». للمرة الثالثة كان لدى النورمانديين بابا عظيم لنجدتهم. في يونيو ١١٦٥م، عندما وجد نفسه مجبرًا على الاستسلام، قام أدريان بتثبيت وليم في مملكته الصقلية.

في هذا الموقف المخزي، سرعان ما وجد البابا سببًا ليكون سعيدًا بتصرفه؛ لأن بربروسا كان أكثر خطرًا على البابوية من وليم. خلال صيف ١١٥٨م عاد إلى روما، وفي مجلس رونكاجليا التشريعي Diet of Roncaglia ترك المدن الإيطالية واثقةً من مفهومه للسيادة الإمبراطورية؛ حيث هدم أربعة حكماء مشاهير من بولونيا — الجامعة التي كان كثيرًا ما يوليها عناية خاصة — كلَّ مُثُلهم المحبوبة عن الاستقلال المحلي، مبينين أنه ليس له أي أساس قانوني. وعليه أعلن أن كل مدينة ستكون خاضعة للسيادة الإمبراطورية الكاملة من خلال حاكم (بودستا Podesta) أجنبي. كان أثرُ ذلك شديدًا على لمبارديا كلها وكأنه شحنة كهربية، ولكن فردريك كان قد جاء مستعدًّا لمواجهة المتاعب. في ١١٥٩م، قام في «كريما Crema» بتقييد خمسين رهينة كان من بينهم أطفال وربطهم بالآت الحصار لمنع المدافعين من القيام بهجوم مضاد، وفي ١١٦٢م استطاع أن يُرَكِّع أهالي ميلانو وأن يدمِّر مدينتهم تمامًا، لدرجة أنها ستبقى خرِبة ومهجورة طوال السنوات الخمس التالية. إلا أن ما حدث أدَّى إلى زيادة مقاومة المدينة. بعد نسيان الخصومات القديمة شكَّلوا «الرابطة اللمباردية الكبرى Great Lombard League» للدفاع عن حرياتهم.

كان البابا أدريان قد مات في ١١٥٩م. كان من الواضح، من وجهة نظر فردريك، أن الكثير كان يتوقَّف على اختيار مَن يخلفه، كما كان على دراية تامة بأن المرشح الأكثر احتمالًا، كان هو الكاردينال «رولاند بانديللي Roland Bandielli»، الذي كان مثل أدريان معارضًا صلبًا لمطالبه. لا نعرف إلى أي مدًى كان مسئولًا عما حدث بعد ذلك، إلا أن كلَّ ما يمكن أن يقال هو أن عملية تقليد المنصب التي تمَّت بعد يومين من انتخاب رولاند في سان بيتر في ٧ سبتمبر، كانت الأكثر غرابةً وإهانة في تاريخ البابوية. جاءوا برداء البابوية القرمزي، وبعد تظاهر البابا الجديد بالتردُّد، أحنى رأسه لكي يلبسَه. في نفس اللحظة اندفع أوكتافيان، كاردينال سان سيسيليا نحوه، وانتزع الرداء وحاول أن يرتديَه. في الشجار الذي حدث أفلت الرداء ولكن مساعده أخرج رداء آخرَ في الحال — يبدو أن

ما حدث كان متوقعًا — وهذه المرة تمكَّن أوكتافيان من ارتدائه … بالمقلوب للأسف، قبل أن يستطيع أحد أن يوقفه.

بعد ذلك حدثت فوضى لا يمكن تصوُّرها. بعد تخليص نفسه بصعوبة من أيدي مؤيدي رولاند الذين كانوا يحاولون تمزيقَ الرداء من الخلف، نجح أوكتافيان بجهد جهيد في أن يستدير لكي تلتفَّ شراشيب الرداء حول عنقه، ثم اندفع نحو العرش البابوي … جلس عليه وأعلن نفسه البابا «فيكتور الرابع Pope Victor IV». ثم خرج متثاقلًا من الباسيليقا، إلى أن وجد جماعة من رجال الدين الصغار — أمرهم بأن يهتفوا له ويؤيدوه — فنفَّذوا الأمر صاغرين لأنهم رأوا الأبواب تُفتح ويدخل منها مجموعة من السفاحين المسلحين. سكتت المعارضة مؤقتًا — على الأقل — وتسلل رولاند وأتباعه خارجين حيث احتمَوا ببرج كنيسة سان بيتر. في نفس الوقت، وبينما كان السفَّاحون يرقُبون الموقف، كان يتم تتويج أوكتافيان على نحوٍ أكثرَ رسمية منه في المناسبة السابقة، ثم رافقوه منتصرًا إلى اللاتيران — بعد أن بذل جهدًا كبيرًا كما يقال لكي يعدِّل وضع الرداء على كتفيه قبل المغادرة.

رغم تنفيذه على هذا النحو الشائن، يبدو أن الانقلاب كان مدبرًا وبدرجةٍ لا تترك مجالًا للشك في تورُّط الإمبراطورية بقوة. كان معروفًا عن أوكتافيان منذ زمن بأنه من مؤيدي الإمبراطورية، وعلى الفور تم الاعتراف بانتخابه من قِبل سفيرَي فريدريك في روما، اللذين بدآ في الوقت نفسه حملة محمومة ضد رولاند. فشلت هذه الحملة؛ إذ لم يمر وقت طويل حتى التف الرأي العام في روما بقوة حول البابا الشرعي الذي تم تكريسه رسميًّا في العشرين من سبتمبر في مدينة «نيفا Nifa» الصغيرة ليصبح البابا «ألكساندر الثالث Alexander III». بقيت الكنيسة في حالة انقسام فعلي، إلا أن أوكتافيان بدأ يفقد دعمه بالتدريج. مات في «لوكا Lucca» في ١١٦٤م؛ حيث كان يعيش على عائدات لصوصية فاشلة، وحيث لن تسمح الهيئة الكهنوتية المحلية بأن يُدفن داخل أسوارها.

منحت فينيسيا وصقلية والبابا ألكساندر — بمجرد أن كان قادرًا على ذلك — تأييدهم النشط للرابطة اللمباردية، وسرعان ما بدأ فريدريك يشعر — ربما للمرة الأولى — بوزن المقاومة الإيطالية. سرعان، أيضًا، ما بدأ حظه ينقلب. في ١١٦٧م فشل زحف على روما عندما انتشر الطاعون في الجيش الإمبراطوري واضطُر الإمبراطور للتراجع. كان بلا دفاعات تقريبًا عندما عبَر لمبارديا المعادية واستطاع بجهد جهيد أن يسحب مَن بقُوا على قيد الحياة معه إلى الألب. عاد في ١١٧٦م، إلا أن الزخْم كان قد زال، وفي ٢٩ مايو

١١٧٦م طوَّقت قوات الرابطة فرسانه بالقرب من «ليجنانو Legnano»، وكانت تلك نهاية طموحات فريدريك في لمبارديا. سيُقبِّل قدم البابا ألكساندر على مرأًى من الجميع على سلَّم كنيسة سان مارك[١٦] في العام التالي، وفي ١١٨٣م في «كونستانس Constance» ستصبح هدنة فينيسيا معاهدة. بالرغم من أن السلطة الإمبراطورية العليا كانت محفوظة من الناحية الرسمية، فإن لمبارديا (وإلى حدٍّ ما توسكانيا) كانت حرَّة في إدارة شئونها. كان ذلك — بالكاد — هو الحل الذي كان فريدريك قد توقَّعه في «رونكاجليا Roncaglia»، إلا أن عزاءه لم يتأخَّر؛ فالإمبراطورية التي كانت قد حاربت عبثًا ولفترة طويلة للسيطرة على لمبارديا، كان لها الآن أن تستوليَ على صقلية بقليل من الجهد.

كان «روجر الثاني Roger II» الذي مات في ١١٥٤م، سيئ الحظ في ذريته. ابنه «وليم الطالح William the Bad»، برغم انتصاره على البابا، لم تدُم فترةُ حكمه الذي لم يتميز بشيء، سوى اثني عشر عامًا فقط. بعدها خلفه ابنه «وليم الثاني William II». من الناحية الوراثية، كان الملك الجديد مختلفًا عن أبيه الذي كان يوصف بأن له شكلَ غول كبير «تعطيه لحيته السوداء الكثة منظرًا وحشيًّا مرعبًا يملأ الكثيرين بالخوف». كان وليم الأصغر أشقر ووسيمًا. إلى حدٍّ ما، كان لا بد من أن يسمَّى بـ «وليم الصالح William the Good»، بالرغم من أنه كحاكم، اتضح في الممارسة الفعلية أنه كان أسوأ من أبيه، كان ضعيفًا، غير كفء، يحاول دائمًا ولا يحقِّق شيئًا. كان الشيء الحقيقي الوحيد الذي ورِثه عن روجر، هو الولع بالبناء. الكاتدرائية الضخمة «Monreale»، التي بناها على التلال المطلة على باليرمو، بامتداد جدرانها الداخلية الهائل بفسيفسائها الزاهية، هذه الكاتدرائية تبقى أثرًا خالدًا يشهد لآخر ملك نورمندي شرعي لصقلية.

أما كونه آخِر ملك نورمندي، فذلك لأنه عندما مات في الثامن عشر من نوفمبر ١١٨٩م وهو في السادسة والثلاثين، انتهى خط نسب آل هوتفي Hauteville. زوجته «جوانا Joanna» — كانت ابنة هنري الثامن[١٧] ملك إنجلترا — لم تنجِب منه، وانتقل العرش، دونًا عن الكل، إلى عمته «كونستانس Constance» ابنة روجر الثاني التي وُلدت بعد موته — كانت تصغُر ابن خالها الملك — وكانت قبل أربع سنوات تقريبًا، قد تزوَّجت من هنري بن فريدريك بربروسا ووريثه. تُرى لماذا جاءت هذه الفكرة لـ «وليم» ومستشاريه؟ لن نعرف لأول وهلة، ولكنها كانت تعني أنه إذا مات الملك دون أن ينجب، فستسقط صقلية في حِجر الإمبراطور. المؤكَّد أنه كان هناك وقتٌ طويل كافٍ لكي تحمِل

جوانا؛ ففي ١١٨٦م كانت ما تزال في العشرين من عمرها وزوجها في الثانية والثلاثين. ولكن الحياة في القرن الثاني عشر لم تكن مضمونة إلى حدٍّ كبير، أكثر مما هي عليه اليوم. كانت نسبة وفيات الأطفال كبيرة.

يمكن أن يقال إنه كان هناك بارونات نورمنديون كثيرون معارضون بشدة لـ «كونستانس»، وإنهم كانوا كلهم إصرار على القتال، عند الضرورة، في سبيل استقلال المملكة. في أوائل ١١٩٠م، وبتشجيع من البابا «كليمنت الثالث Clement III»، قام رئيس أساقفة باليرمو بوضع تاج صقلية على رأس «تانكرد Tancred»، كونت «ليسي Lecce»، الحفيد غير الشرعي لـ «روجر الثالث».[١٨] كان تانكرد ضئيلَ الحجم شديدَ القبح، وكان من المفترض أن تمنعه عدم شرعيته من اعتلاء العرش، إلا أنه كان قويًّا وعفيًّا، ولو أنه كان قد عاش حياةً عادية واستطاع أن يجِدَ، ولو حليفًا واحدًا قويًّا بصرف النظر عن البابا، لكانت هناك فرصة لإنقاذ بلاده من الضياع. من أسفٍ أن نصف عدد الأمراء النورمنديين تقريبًا كانوا ضده، وأنه واجه تمردًا قويًّا من البداية. يضاف إلى ذلك أنه مات في منتصف العمر. ابنه وخليفته، الذي كان ما زال طفلًا، كان بلا حول ولا قوة عندما جاء هنري (كان آنذاك الإمبراطور هنري السادس) في ١١٩٤م ليطالب بعرشه. سيموت هو الآخرُ في ظروفٍ غامضة بعد ذلك بوقت قصير. تم تتويج هنري في باليرمو يوم عيد الميلاد سنة ١١٩٤م.

كانت أربع وستون سنة، حياة قصيرة في عمر مملكة، والحقيقة أن صقلية كان يمكن أن تبقى لو أن «وليم الثاني William II» — من الأفضل أن ننسى لقبَه — كان مدركًا أو منجبًا. بدل ذلك أهداها لعدوها القديم، الذي قام — بذريعة مؤامرة مشكوك في حقيقتها — بذبح كل أهالي صقلية ونبلاء الجنوب الإيطالي المعارضين له، وذلك بعد أربعة أيام من تتويجه، مُرسيًا بذلك عهدَ إرهاب استمرَّ بقية حياته. لم تُهزم قط مملكة صقلية النورمندية، كلُّ ما حدث هو أنه قد أُلقي بها.

على امتداد جيلٍ آخر ظلَّت روحها باقية. لم تكن الملِكة كونستانس موجودة عند تتويج زوجها في باليرمو. كانت حاملًا لأول مرة وهي في الأربعين من العمر، وكانت كلها إصرارًا على أمرين؛ أن يولد طفلها سالمًا، وأن يُنظر إليه باعتباره ابنَها، دون أدنى شك في ذلك. لم تؤجل رحلتها إلى صقلية، ولكنها سافرت على مهلٍ، ولم تكد تصل إلى مدينة «جيسي Jesi»، على بُعد نحو عشرين ميلًا من «أنكونا Ancona»، حتى شعرت بآلام المخاض. هناك، في اليوم التالي للتتويج، في خيمة نُصبت في الميدان الرئيسي (حيث كان مسموحًا لأي عقيلة من المدينة أن تشهد عملية الولادة)، وضعت ابنها الوحيد — الذي قدَّمته بعد يومين في ذات الميدان للأهالي الذين تجمعوا، بينما كانت ترضعه.

عبْر هذا الطفل فريدريك، الذي سيُكنَّى فيما بعدُ بـ Stupor Mundi — أعجوبة الدنيا — سوف نسمع الكثير ... الكثير جدًّا ... فقصتنا لم تنتهِ.

هوامش

(١) يرجى الانتباه وعدم الخلط بينه وبين البابا الذي يحمل الاسم نفسه.

(٢) المنتمي إلى أسرة «ميروفيوس Merovius» التي حكمت الفرنجة من القرن السادس إلى القرن الثامن.

(٣) شراء وبيع المناصب الكهنوتية. (Simony).

(٤) كان القانون الصالي Salic Law يحظر على الإناث وراثة العرش، أما «الصاليون Salians» فكانوا قبيلة من الفرنجة سكنت مناطق الراين الواقعة قرب بحر. الشمال (المترجِم)

(٥) يروي إميل لودفيج القصةَ على النحو التالي: «ويحل عيد الميلاد لسنة ٨٠٠م فيودُّ هذا الملك النصراني حضورَ القداس مع فرسانه في كنيسة القديس بطرس القديمة برومة، ويقيم البابا القداس، ويتظاهر أنه مستغرِق في صلاته عندما ركع الملك أمام الهيكل، ولا يُعرف هل كان الملك يفكِّر في مخلِّصه أو في أعماله، ولكن الذي لا ريب فيه هو أنه لم يدُر في خَلَده أمرُ المفاجأة التي كان البابا قد أعدَّها له. الواقع أن البابا أخرج فجأةً تاجًا كان قد أعده سرًّا للوقت الملائم ووضعه على رأس الملك الراكع، وأن كتيبة من فرسان الرومان تقدَّمت في تلك الدقيقة وهتفت باللاتينية أو الإيطالية قائلة: «عاش إمبراطور الرومان شارل أوجست المتوَّج من الرب.» [...] ويبدو شارل الذي كان مجاوزًا الستين من سنيه دهِشًا أسِفًا، ولكنه مع تعذُّر الرفض، ثم يأتي البابا حركةً لا تقاوم ... وهي أنه ركع أمام الإمبراطور المتوَّج من قِبله. ويعود شارل إلى قصره صامتًا، وفي الغد يعلم شارل من بلاغٍ رسمي أن البابا «نقل إليه سلطةَ الإمبراطور الروماني وسلطة اليونان والفرنج ورفع الملك شارل إلى مرتبة الإمبراطور الثالث والستين من الإمبراطورية العالمية الرابعة».» (المترجِم) — عن كتاب «البحر المتوسط»، تأليف: إميل لودفيج، ترجمة: عادل زعيتر، (دار المعارف، ١٩٥٢م).

(٦) كان كتَّاب العصور الوسطى يصفون كلَّ عربي بكلمة Saracen ويقصدون بها المسلِم الشرقي.

(٧) قصر في روما كان مقرًّا للباباوات لمدة عشرة قرون تقريبًا، عُقدت فيه خمسة مجامع مسكونية بين القرن الثاني عشر والقرن السادس عشر، وتوجد بالقرب منه كنيسةُ مار يوحنا اللاتراني التي شيَّدها الإمبراطور قسطنطين في ٣٢٤م. (المترجِم)

(٨) بعد موت شارل (السمين) Charles the Fat، آخر سلالة الكارولنج في ٨٨٨م، تمزَّقت أوصال إمبراطورية الغرب، وانتخبت بيرنجر الفريولي Berengar of Friuli ملكًا على إيطاليا، إلا أنه لم يكن ملكًا قوميًّا بأي معنًى.

(٩) تمثال ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius الذي نُقل حديثًا إلى متحف الكابيتول.

(١٠) المقصود أوتو الكبير والثاني والثالث. (المترجِم)

(١١) من المثير للخيال تصوُّر كيف كان يمكن أن يتغير وجه التاريخ، لو أنه كان قد بقي على قيد الحياة، ولو أن حملته كانت قد نجحت.

(١٢) كلمة أدميرال Admiral مشتقة من الكلمة العربية «أمير – ال – البحر»، ودخلت الإنجليزية من جزيرة صقلية النورمندية؛ حيث استُخدم اللقب لأول مرة. (المترجِم)

(١٣) لم تحتفظ صقلية بفتوحاتها الأفريقية طويلًا؛ حيث فقدت كلها بحلول عام ١١٦٠م.

(١٤) من أسفٍ أن هناك قطعة أو قطعتين منها عليها تصوير بشع للسيدة العذراء لا بد من إزالتها فورًا.

(١٥) السكولاستية أو السكولائية (Scholasticim) هي الاسم الذي يُطلق على فلسفة المدرسة في العصور الوسطى التي كان أتباعها — المدرسيون — يحاولون أن يقدموا برهانًا نظريًّا للنظرة العامة الدينية للعالَم. (المترجِم) نقلًا عن «الموسوعة الفلسفية»، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، الطبعة السابعة، مارس ١٩٩٧م.

(١٦) توجد قطعة من الرخام الأسود، على شكل معيَّن، مثبَّتة في رصيف الممر الأوسط للباسيليقيا، تحدِّد المكان الذي تم فيه ذلك.

(١٧) ربما لذلك السبب يوجد رسمٌ لـ «سان توماس» أسقف كانتربري بين صور القديسين المرسومة بالفسيفساء في قبة كنيسة مونتريال. لا بد أن تكون هذه الصورة بطلب من الملكة تكفيرًا عن قتله. كانت قد عرفته في طفولتها، ومن المرجَّح أن تكون هي التي وصفته للرسام، وأن يكون الرسم قريبَ الشبه به إلى حدٍّ ما.

(١٨) كان ابنًا غير شرعي لأكبر أبناء روجر الثاني — الدوق روجر حاكم أبوليا — وكان قد مات قبل والده.

الفصل السابع

الهجوم المسيحي المضاد

- المقاومة المسيحية: ١٠٧١م.
- الحملة الصليبية الأولى.
- الصليبيون يستولون على أورشليم: ١٠٩٩م.
- سقوط إيديسا: ١١٤٤م.
- بدء الحملة الصليبية الثانية: ١١٤٧م.
- نهاية الحملة: ١١٤٧م.
- سقوط أورشليم: ١١٨٧م.
- قلب الأسد في مسيني: ١١٩٠م.
- غزو قبرص: ١١٩١م.
- موت بربروسا: ١١٩٠م.
- البابا إنوسنت الثالث: ١٢٠٠م.
- الحملة الصليبية الرابعة تنطلق: ١٢٠٣م.
- الصليبيون في القسطنطينية: ١٢٠٣م.
- مكاسب فينيسيا: ١٢٠٤م.

* * *

بعد قيام العرب بغزو إسبانيا في القرن الثامن ومعظم جزيرة صقلية في القرن التاسع، لم يستحوذوا على أراضٍ أكثرَ من ذلك، إلا أنهم كانوا، باستمرار، خطرًا داهمًا يهدِّد الأراضي المسيحية المحيطة بالبحر الأبيض أكثرَ منهم في أي وقتٍ مضى. كانت مستوطناتهم غير الرسمية في الجنوب الإيطالي والجنوب الفرنسي هي الرعب الأكبر بالنسبة لجيرانهم

المسيحيين. لم تكن هناك أيُّ منطقة بعيدة على أساطيل قراصنتهم، وكان القليل من المدن الساحلية هو الذي لا يعيش في رعب شديد من هجماتهم المفاجئة. ربما كانت فينيسيا وحدها، الآمنة في بحيرتها الضحلة نسبيًّا، هي التي لم تكن في حاجة إلى اليقظة والحذر بشكل دائم. روما نفسها — كما سبق أن رأينا — كانت قد نُهبت في ٨٤٦م، وفي القرن التالي كان كلٌّ من جنوة وبيزا قد عانى مصيرًا مشابهًا.

لم يكن الخطر العربي مقصورًا على القرصنة. كان خطر مصر يتزايد كذلك على نحوٍ مطرد. في ٨٦٨م، كان جندي تركي مغامر يُدعى أحمد بن طولون قد أصبح حاكمًا وبسط سلطانه عبر معظم الشرق إلى صقلية في الركن الجنوبي الشرقي من ساحل آسيا الصغرى؛ ثم في السنوات الأخيرة من القرن أرسل الخليفة العباسي أسطولًا تأديبيًّا إلى مصر لينتهيَ حكم الطولونيين[١] في ٩٠٥م. تلى ذلك ثلاثة عقود من الفوضى، بعدها كانت هناك أسرةٌ أكثر تميزًا وأطول أمدًا هي الأسرة الفاطمية. الفاطميون، من الشيعة الإسماعيلية الذين ينحدرون من السيدة فاطمة ابنة النبي محمد. بعد أن وطَّدوا أركانهم في تونس، غزَوا مصر في ٩٦٩م، وبنَوا لأنفسهم عاصمة جديدة هي القاهرة. في ذلك الوقت، كانت الخلافة العباسية تحتضر وعاجزة عن منع الغزو الفاطمي، ليس عن فلسطين وسوريا فحسب، بل وعن الحجاز قلب الأراضي العربية أيضًا.

من القرن التاسع فصاعدًا، كان الإمبراطور الغربي، نظريًّا، هو الذي يتحمَّل المسئولية كاملة في الدفاع عن إمبراطوريته ضد هجوم غير المؤمنين بالنصرانية ... إلا أن الإمبراطور كان بلا حول ولا قوة. كانت العاصمة الإمبراطورية «آخن Aachen» تقع على بُعد مسيرة أسابيع من البحر الأبيض، حتى إن أي جيش كان يحاول الاتجاه جنوبًا، كان لا بد من أن يتقيَّد بالبر؛ حيث إن السفن القليلة التي تشكِّل البحرية الإمبراطورية كانت تجد نفسها عادةً في البلطيق. المسكين «أوتو الثاني Otto II» حالةٌ وثيقة الصلة بموضوعنا. في ديسمبر ٩٨٠م، كان قد قرَّر أن يقوم بتحرير الجنوب الإيطالي مرةً وإلى الأبد من بلاء العرب. في البداية، مضت حملته على نحوٍ جيد، إلا أنه فوجئ في صيف ٩٨٢م وهو متقدم في اتجاه كالابريا، بقوة عربية بالقرب من «ستيلو Stilo» تدمَّر جيشه تمامًا، ولم ينجُ هو شخصيًّا إلا بالهرب سباحةً في اتجاه سفينة مارَّة مخفيًا شخصيته، وعند اقتراب السفينة من «روسانو Rossano»، قفز منها ليصارع الأمواج مرةً أخرى نحو الشاطئ. كانت هزيمته هي أوضحَ تصوير لعجز الإمبراطورية أمام الضغط الإسلامي.

إلا أنه حتى ذلك الحين — مع تحفُّظنا على دقة ذلك — كان البندول قد بدأ حركته العكسية. من أواخر القرن العاشر وما بعده سوف نشهد نموًّا بطيئًا للمقاومة

المسيحية. تم طرد المستوطنين المسلمين من جنوب فرنسا في ٩٧٥م. كانت جنوة وبيزا تبنيان قوةً بحرية خاصة بهما، وفي ١٠١٦م، كان ذلك قد مكَّنهما من الاتحاد معًا لطرد العرب من جزيرة سردينيا، التي كانت قد عانت على الأقل من تسع إغارات رئيسية منذ سنة ٧٢١م، كانت مصحوبة عادةً بمذابحَ للسكان المحليين. بعد سنوات قليلة كان عرب شمال أفريقيا يجرعون دواءهم المر، عندما بدأت السفن الإيطالية بدورها تهدِّد المدن الساحلية. بنهاية حكم الإمبراطور البيزنطي، السفاح البلغاري، «بازيل الثاني Basil II» الذي استمر خمسين عامًا، كانت إمبراطوريته قد استعادت السيطرةَ على كل شبه جزيرة البلقان تقريبًا، وكل آسيا الصغرى وأبوليا وكريت وقبرص. كانت نقطة التحوُّل الكبرى في ١٠٨٧م، عندما قامت جنوة وبيزا بحملةٍ مشتركة أخرى، كانت هذه المرة ضد المهديةِ Mahdia العاصمةِ العربية (موجودة الآن في تونس)، واستولوا على المدينة، وأحرقوا السفن الموجودة في مينائها، وفرضوا شروط السلام على حاكمها. بعد أربع سنوات أكمل الكونت الأكبر روجر الأول غزوَ صقلية، وفي ١٠٩٢م و١٠٩٣م شاركت حملات أخرى من إيطاليا وجنوب فرنسا قوةً رئيسية من النورمنديين لاسترداد معظم الشمال الإسباني. كان العالم الإسلامي يتحطَّم من كل جوانبه؛ وسياسيًّا، كان المتوسط يعود بحرًا مسيحيًّا مرةً أخرى.

ولكن كانت هناك أخبار سيئة كذلك. في ١٠٥٥م استولت الموجة الأولى من الغزاة الأتراك – السلاجقة على بغداد، وفي ١٠٧١م تدفقوا على آسيا الصغرى. قام الإمبراطور البيزنطي «رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogenes» شخصيًّا بقيادة جيش ضدهم، إلا أنه هُزِم في ٢٦ أغسطس هزيمةً ساحقة وأُسِر في معركة «مانزكرت Manzikert». صحيح أن القائد السلجوقي «آلب أرسلان Alp Arslan»، الذي يقال إن شاربه كان طويلًا لدرجةِ أنه كان يعقده خلف ظهره عندما كان يخرج للصيد، عاملَ الإمبراطور معاملةً حسنة، وأعاده بصحبةِ مرافق إلى القسطنطينية ... ولكن الضرر كان قد وقع. في السنوات التالية سينتشر الترك في كلٍّ من الأناضول الأوسط، تاركين أجزاءً قليلة من الشاطئ في أيدي البيزنطيين. بعد أربعة عشر عامًا من المعركة، في ١٠٨٥م سوف يستولون على أنطاكية، ثالث البطريركيات الخمس في الكنيسة الشرقية — بعد الإسكندرية وأورشليم — التي سقطت في يد المسلمين. لن يتبقى سوى روما والقسطنطينية.

كان لقصة هذه الموجةِ الأولى من التوسُّع التركي في الأناضول نتيجةٌ واحدة مهمة لم تكن متوقَّعة بالمرة: أدَّى الغزو السلجوقي لأرمينيا — الذي كان مركزًا على جبل «أرارات Ararat» — إلى هجرة سكانية واسعة في اتجاه الجنوب، وفي سنة ١٠٨٠م أسَّس

شخصٌ ما يُدعى «روبين Roupen»، كان أحد أقارب آخِر ملوك «أني Ani»، معتمديةً Principality[٢] صغيرةً في «كيليكيا Cilicia» في قلب «طوروس Taurus». نمت قوَّتها وأهميتها تدريجيًّا إلى أن أصبحت في ١١٩٩م «مملكة أرمينيا الصغرى». كان الأرمن يفاخرون دائمًا بأنهم أولُ أمة في العالم تبنَّت المسيحية، وهو ما كانوا قد فعلوه في سنة ٣٠٠ق.م.؛ فجأةً أصبحت هنا مملكة مسيحية محاطة بدول إسلامية، كانت معادية لبيزنطة إلا أنها بعد وقت قصير سوف تقدِّم دعمًا مهمًّا للصليبيين — وبصفة خاصة لصليبيي الحملة الأولى — وهم في طريقهم عبْر كيليكيا إلى الأراضي المقدَّسة.[٣]

في أعقاب معركة مانزكريت مباشرةً، كان من المتوقَّع أن تحوِّل المسيحية الغربية اهتمامَها إلى الشرق الإسلامي. كان ما يجذب المدن الساحلية الإيطالية هو الإمكانيات التجارية، وكان ما يحفِّز النورمنديين دائمًا هو دافع الغزو والمغامرة المتأصِّل فيهم، ولكنَّ المسيحيين المقاتلين أينما وُجدوا، كانوا كلهم إصرارًا على وقف الزحف الإسلامي. ولذا عندما خاطب البابا «أوربان الثاني Urban II» مجمع كليرمونت «Council of Clermant» في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م، وأنهى خطابه بدعوةٍ حارة للقيام بحملة صليبية، إنما كان يناشد أناسًا شبه مهتدين بالفعل، مقدمًا تبريرًا دينيًّا لمغامرةٍ كان يمكن أن تنطلق بدونه. كان الاحتلال الدائم للأماكن المقدسة — وفي المقدمة منها أورشليم نفسها — بواسطة أعداء النصرانية، كان إهانةً للمسيحيين كما قال؛ فقد كان الحجاج المسيحيون يتعرَّضون آنذاك لكل صور المهانة والإذلال. كان من واجب كل المسيحيين الصالحين أن يحملوا السلاح ضد أولئك الذين دنَّسوا الأرض التي مشى عليها المسيح، وأن يستعيدوها إلى عقيدتهم الصحيحة.

في الأشهر التالية، سوف يحمل البابا نفسه كلماتِ أوربان عبر فرنسا[٤] وإيطاليا بواسطة جيش كامل من الوعاظ والدعاة، إلى كل أركان أوروبا الغربية. كانت الاستجابة مذهلة. من بعيد ... من اسكتلنده سارع الرجال لحمل الصليب. لم يكن الإمبراطور «هنري الرابع Henry IV» ولا «فيليب الأول Philip I» ملك فرنسا (الذي كان قد حُرم كنسيًّا من وقتٍ قريب متهمًا بالزنا)، لم يكونا على وفاق كامل مع روما لكي يشاركا في الحملة الصليبية، ولعل ذلك كان أمرًا جيدًا؛ فقد كان أوربان مصممًا على أن تكون العملية كلها تحت سيطرة إكليركية، وقام بتعيين أحد رجال الكنيسة القلائل الذين كان قد سبق لهم الحجُّ إلى أورشليم وهو «أديمار Adhemar of Le Puy» (أسقف لابوي)، قام بتعيينه قائدًا وممثلًا رسميًّا له. هذا الأسقف على أية حال سوف يصحبه عدد كبير

من الأقطاب الأقوياء: «ريمون السان جيلي Raymond of Saint Gilles»، و«كونت تولوز The Count of Toulouse» الأكبر سنًّا وأكثرهم ثراء وأسماهم قدرًا، و«هيو Hugh» كونت «فيرماندوا Vermandois» شقيق الملك الفرنسي الذي وصل مهزوزًا بعد كارثة غرق في الأدرياتيكي، و«روبرت الثاني Robert II» كونت «الفلاندرز Flanders»، و«روبرت Robert» دوق نورمنديا (ابن وليم الفاتح)، وابن عمه «ستيفن Stephen» كونت «بلوا Blois»، و«جودفري البويوني Godfrey of Bouillon»، ودوق «اللورين الأدنى Lower Lorraine». ومع جودفري أخوه «بلدوين البولوني Baldwin of Boulogne»، الذي كان ابنًا أصغرَ بدون وقف كنسي، فجاء بزوجته وأطفاله وكان مصممًا على إنشاء مملكة له في الشرق. ومن الجنوب الإيطالي جاء «بوهيمند Bohemund» أمير تارانتو، ابن روبرت جيسكار، الذي كانت لديه طموحات مماثلة، ولأنه كان نورمنديًّا حقيقيًّا، لم تكن الأماكن المقدَّسة تعنيه كثيرًا، وكان يرى الحملة في حد ذاتها أعظمَ مغامرة في حياته.

أحد أشهر قادة الحملة وأكثرهم شعبيةً لم يكن من النبلاء أو عِلية القوم، كان مبشِّرًا جوَّالًا مسنًّا يُدعى بيتر[٥] المكنَّى بالناسك؛ إذ لم يكن أحد قد رآه قط بدون ذلك الرداء المطروح على كتفيه دون أكمام. كانت تفوح منه رائحته الكريهة، ويقال إنه كان يشبه الحمار الذي يمتطيه دائمًا، إلا أن أحدًا لم يكن ليستطيع أن ينكر ما له من جاذبيةٍ شخصية. وكما يقول المؤرخ «جيبرت النوجنتي Guibert of Nogent»: «كان كل شيء يفعله أو يقوله يبدو وكأنه شبه إلهي.» كان يدعو للحملة في كل فرنسا ومعظم ألمانيا، وبحلول موعد قيامها ربما كان قد أصبح يتبعه نحو أربعين ألفًا من البشر. كان كثير منهم بلا شك مخلصين أتقياء، يريدون القتال في سبيل القضية المقدسة، إلا أنه كان هناك كذلك عدد كبير من المرضى بينهم نساء وأطفال، يأمُلون في شفاء معجز، بينما كانت تجذب الأغلبية الساحقة من الرعاع المترحلين فرص السلب والنهب والوعد بمكان في الجنة، لكل مَن يكمل الرحلة.

بعد تقدير الموقف على ضوءِ الأعداد المشارِكة ونقاط الانطلاق المختلفة، غادر الصليبيون في توقيتات مختلفة، متخذين طرقًا عدة نحو نقطة التجمع الأولى: القسطنطينية. يبدو أن أوربان كان يعتقد أنهم سيلقَون ترحيبًا حارًّا من الإمبراطور البيزنطي «ألكسيوس الأول كومنينوس Alexius I Comnenus»؛ أفلم يكن كومنينوس الأول نفسه قد لجأ للغرب طالبًا المساعدة العسكرية ضد الأتراك؟ ما لم يفهمه البابا هو أنه كان هناك

فارقٌ شاسع بين وحدة عسكرية أو اثنتين من المرتزقة المدرَّبين يأتون لمساعدة القوة المدافعة ويضعون أنفسهم دون شروط تحت أوامر قادتها، وعددٍ من الجيوش الكاملة غير المنضبطة في معظمها، يتوقَّع أفرادها أن يُقدَّم لهم الطعام والمأوى، غير مستعدين لتلقي أوامرَ من أحد. في الوقت القصير المتيسر له، تصرَّف ألكسيوس بشكل جيد، رتَّب إمدادات كبيرة من المؤن في المدن التي سيمر بها الصليبيون، وأمر بوضع وحدات عسكرية صغيرة تستقبل كل جيش عندما يعبر حدود الإمبراطورية وتصحبه إلى العاصمة. بمجرد وصولهم، تم تزويدهم بأماكنَ للراحة خارج الأسوار، وكان يُسمح للزائرين بدخول العاصمة في جماعات صغيرة للمشاهدة والصلاة في الأضرحة الرئيسية.

وصلت الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية بين أكتوبر ١٠٩٦م ومايو ١٠٩٧م؛ وقبل أن تتمكَّن من مواصلة طريقها كان هناك الكثير من العمل الدبلوماسي المطلوب إنجازه. أولًا وقبل كل شيء كان ألكسيوس مصرًّا على أن يؤدي كل قائد أمامه قَسم الولاء، مع تقديم اعتراف — كتابةً — بالاستحقاقات الإمبراطورية في آسيا الصغرى وسوريا. تم ذلك — بدرجات مختلفة من التردُّد — من قِبل الجميع باستثناء شخص واحد، هو «ريمون التولوزي Raymond of Toulouse». كان ريمون قد وصل في منتصف أبريل، وكان ما زال يتآمر ويكيد لكي يتم الاعتراف به قائدًا أعلى، وأعلن أنه في حال وضع الإمبراطور نفسه قائدًا للحملة، فإنه سيكون تابعه الوفي؛ وإن لم يكن، فإنه لن يقبل بسيدٍ أعلى آخرَ سوى الرب. خشيةَ أن يعرقِل هذا التوجه نجاحَ الحملة، كان زملاؤه من الأمراء الآخرين يرجونه أن يلين. في النهاية، وافق على حلٍّ وسط: أن يُقسِم (بحسب صيغة قَسم شائع في لغته المحلية) بأن يحترم حياة ومقام الإمبراطور، وأن يراعي ألا يحدثَ أي شيء قد يلحق به ضرر أو أذًى. ألكسيوس، الذي وجد في ذلك كلَّ ما كان يتمناه، قبل تعهُّد ريمون، ولم يبدِ امتعاضه إلا بأن حجب عنه العطايا القيمةَ التي كان قد منحها للقادة الآخرين ... مثل الأطعمة والخيول والأردية الحرير الفاخرة.

لا تستطيع أن تتخيَّل مدى ما كان يشعر به الإمبراطور من ارتياح وهو يشاهد الصليبيين وهم يصعدون إلى السفن التي كانت ستحملهم إلى آسيا. لم يكن حتى ليستطيع أن يكوِّن فكرةً عن عدد الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا قد عبروا أراضيه في الشهور التسعة السابقة؛ الإجمالي ما بين دهماء بيتر (بطرس) الناسك — الذين أبادهم الأتراك في أكتوبر السابق كما كان متوقعًا قبل أن يصلوا أبعدَ من نيقية — والأمراء الإقطاعيين، كان لا يقلُّ عن مائة ألف فرد. بفضل استعداداته وما اتخذه من تدابيرَ دقيقة، لم تتسبب

الجيوش في كثير من المتاعب كما كان يخشى، كل القادة، باستثناء واحد، كانوا قد أدَّوا يمين الولاء له، ولكنه لم يكن لديه أي أوهام بشأنهم. الجيوش الأجنبية، مهما كانت صديقة من الناحية النظرية، لم يكونوا ضيوفًا محلَّ ترحيب، أولئك البرابرة بقذارتهم وسوء خُلُقهم، كانوا بالتأكيد أسوأ من معظمهم. كانوا قد خرَّبوا الأرض واغتصبوا النساء وسلبوا ونهبوا المدن والقرى، وكانوا يعتبرون ذلك من حقهم، وينتظرون أن يلقَوا معاملةَ الأبطال والمخلصين. أحدث رحيلهم حالةً من الفرَج، وكان المزيد من السلوى في أن تعرف أنهم إن عادُوا، فسيكونون أقل عددًا منهم عندما بدءوا رحلتهم.

على عكس توقعات كثيرين، نجحت الحملة الصليبية الأولى نجاحًا باهرًا، وإن كان غير مستحَق. في الأول من يوليو تم تدمير جيش السلاجقة في «دوريلايم Dorylaeum» (إسكيسير Eskisehir الآن) في الأناضول. وفي الثالث من يونيو ١٠٩٨م، استعاد الصليبيون أنطاكية، وأخيرًا شقَّ جنود المسيح طريقهم إلى أورشليم في الخامس من يوليو ١٠٩٩م؛ حيث أعلنوا انتصارهم بذبح جميع مسلمي المدينة وإحراق كل اليهود في المعبد الرئيسي. في ذلك اليوم كان يغيب عنهم اثنان من قادتهم السابقين؛ بلدوين البولوني، كان قد أصبح كونت «إديسا Edessa» (أورفا Urfa الآن) في الفرات الأوسط، بينما كان بوهيمند، أمير تارانتو، قد نصَّب نفسه أميرًا على أنطاكية بعد صراع مرير مع ريمون التولوزي.

في أورشليم نفسها، جرى انتخاب للاستقرار على حاكمها المستقبلي. كان ريمون هو المرشَّح الأبرز إلا أنه رفض. كان مكروهًا، وكان يعرف ذلك، ولن يكون قادرًا على الاعتماد على طاعة ودعم زملائه. في النهاية وقع الاختيار على «جودفري البويوني Godfrey of Bouillon» لورعِه الحقيقي وحياته الخاصة التي لا غبار عليها، أكثر مما هو بسبب قدراته العسكرية والدبلوماسية. قبِل المنصب متجنبًا فقط أن يحمل لقب «ملك» في المدينة التي حمل فيها المسيح إكليل الأشواك. اتخذ بدل ذلك لقب «حامي الضريح المقدَّس Advocatus Sancti Sepulchri»، وكان يُخاطب دائمًا باعتباره (دوق dux) أو (أمير Princeps)، وليس كملك أو عاهل (rex). عاش جودفري عامًا واحدًا بعد الاستيلاء على المدينة، وكان حلفاؤه أقلَّ دقة في الالتزام بالواجب فتم تتويجهم ملوكًا على أورشليم اللاتينية.

كان أن بقيت هذه المملكة ثمانية وثمانين عامًا سيتغير حجمها خلالها أكثرَ من مرة، وعندما بلغ اتساعها أقصاه كانت تمتد من رأس خليج العقبة في الجنوب، إلى نهر الكلب

على بُعد أميال قليلة من بيروت في الشمال. كان حدُّها الشرقي وادي الأردن، والغربي البحر الأبيض المتوسط. بالنسبة للإمبراطور ألكسيوس، باعتباره مسيحيًّا مخلصًا، كان لا بد من أن يكون خبرُ تأسيس المملكة محلَّ ترحيب؛ فقد كانت المدينة في أيدي معادين للنصرانية على مدى معظم أربعة قرون، كما كانت بعيدة عن القسطنطينية لكي تكون ذات أهمية استراتيجية كبيرة. من ناحية أخرى، كان الوضع في أنطاكية يسبِّب له قلقًا كبيرًا. هذه المدينة، والبطريركية القديمة كذلك، كان لها تاريخ متغيِّر؛ كان الفرس قد نهبوها بعد الاستيلاء عليها في القرن السادس واحتلوها نحو عشرين عامًا في أوائل القرن السابع قبل أن تسقط في يد العرب في ٦٣٧م. وفي ٩٦٩م استردتها الإمبراطورية وبقيت جزءًا لا يتجزأ منها حتى سنة ١٠٧٨م. كانت في نظر ألكسيوس وكل رعاياه اليمينيين مدينةً بيزنطية تمامًا. الآن كانت قد أصبحت في يدِ مغامرٍ نورمندي، لم يكن لديه النية، رغم اليمين الذي أقسمه، للتنازل عنها، ولم يَعُد يخفي عداءه. بل إنه تمادي في ذلك وطرد البطريرك اليوناني ووضع مكانه آخَر، كان رومانيًّا كاثوليكيًّا. كان هناك مصدر وحيد للعزاء؛ لم يكن بوهيمند محلَّ ترحيب من قِبل جيرانه في الشمال من التركمان الدانشمنديين،[٦] ويمكن أن نتصوَّر مدى شعور ألكسيوس بالارتياح، عندما سمع في صيف ١١٠٠م أن أمير أنطاكية كان أسيرًا لديهم. كان أن ظل أسيرًا لمدة ثلاث سنوات، إلى أن قام بلدوين، الذي خلف أخاه جودفري على عرش أورشليم، بدفع فدية لتحريره.

خلال السنوات الأولى التالية لانتصار الصليبيين، أصبح من الواضح أن بوهيمند لم يكن وحده في هذا الموقف من بيزنطة. بعد الاستيلاء على أورشليم كانوا قد بدءوا يعودون إلى ديارهم، كثيرون منهم كانوا شديدي الاستياء بسبب الأعمال العِدائية والانتهاكات التي رأوها تُرتكب باسم المسيح. الفرنجة الذين بقُوا في الـ Outremer (الشرق اللاتيني) — كما أصبحت تسمَّى أراضي الصليبيين في الشرق الأوسط — هم المغامرون العسكريون، الذين كانوا يريدون الحصولَ على كلِّ ما تقع عليه أياديهم، بعد استيلائهم على المدينة المقدَّسة. من بين كل قادة الحملة الصليبية الأولى، كان ريمون التولوزي — الذي، ويا للسخرية، كان الوحيد الذي رفض أن يؤديَ قَسم الولاء في القسطنطينية — هو الذي تصرَّف بإخلاص، وأعاد للإمبراطور بعض الأراضي المفتوحة من تلك التي كانت في السابق تابعةً للإمبراطورية. الباقون لم يكونوا أفضلَ من العرب الذين حلُّوا محلَّهم. كان بوهيمند أسوأ من الجميع. في ١١٠٤م، بعد عام من قيام الدانشمنديين بإطلاق سراحه، أبحر إلى أبوليا حيث كانت تنتظره أعمالٌ كثيرة في ولاياته التي كان قد طال إهمالها. وفي سبتمبر

١١٠٥م، انتقل إلى روما حيث استطاع — دون جهد يُذكر — أن يقنع البابا «باسكال الثاني Paschol II» بأن العدوَّ الأكبر للممالك الصليبية في الشرق اللاتيني لم يكن العرب ولا الترك، وإنما ألكسيوس كومنينوس نفسه.

تلقَّى باسكال ما قاله بوهيمند بحماسة شديدة، لدرجةِ أنه عندما حان موعد ذهاب الأخير إلى فرناس، وجد نفسه مصحوبًا بممثلٍ بابوي يحمل تعليمات بالدعوة لشن حرب مقدَّسة ضد بيزنطة. هنا وجد ألكسيوس وأعوانه تأكيدًا لأسوأ شكوكهم. الآن اتضح أن الحملة كلها، لم تكن أكثرَ من ممارسة بشِعة للنفاق، استُخدم فيها الوازع الديني قناعًا لاستعمارٍ لا يعرف الخجل.

تقع «إيديسا Edessa»، الكونتيةُ[٧] الصليبيةُ، في الأناضول الجنوبي القريب من الحدود السورية، على بُعد مائة وخمسين ميلًا تقريبًا من البحر الأبيض المتوسط. سقوطها يوم عيد الميلاد في ١١٤٤م في يد قوات عماد الدين زنكي — أتابك[٨] الموصل — بعد حصار خمسة وعشرين يومًا، ووسط مشاهد ذبح وتقتيل، هذا السقوط لا يهمنا سوى في نتيجته المباشرة؛ الحملة الصليبية الثانية. الأخبار الرهيبة أصابت كلَّ العالم بالرعب. بالنسبة لشعوب الغرب الذين رأوا نجاح الحملة الأولى باعتباره «رضًا إلهي»، أيقظت الأخبار كل الآراء المكتومة لتضعها موضعَ المساءلة. كيف، بعد أقل من نصف قرن، يسقط الصليب أمام الهلال؟ كان الرحَّالة الذين يذهبون إلى الشرق يعودون بأخبار عن الانحلال المنتشر بين الفرنجة هناك. هل كان ذلك لأنهم لم يعودوا في نظر الرب جديرين بأن يكونوا حراسًا أوصياء على الأماكن المقدسة؟

كان لدى الفرنجة فهْم أفضل. المشكلة بكل بساطة كانت أن الأغلبية العظمى من الصليبيين قد عادوا إلى بلادهم؛ كان الجيش الدائم الوحيد — إن جاز لنا أن نعتبره كذلك — مكوَّنًا من الجماعتين العسكريتين؛ «فرسان سان جون Knights of St John»[٩] و«فرسان الهيكل Templars»،[١٠] ووحدهم، لم يكن لديهم أيُّ أمل في الصمود أمام هجوم جماعي منظَّم. كان الأمل الوحيد هو حملة صليبية أخرى. إلا أن البابا «إيوجينيوس الثالث Eugenius III» لم يكن أوربان؛ كان قد اضطُر مؤخرًا للفرار من الفوران المعتاد في روما العصور الوسطى، ولجأ إلى «فيتيربو Viterbo». وقع عبء القيادة من ثَم على «لويس السابع Louis VII» ملكِ فرنسا. بالرغم من أنه كان ما زال في الرابعة والعشرين، كان لويس بالفعل قد اتخذ سمت الورِع الزاهد، وهو ما جعله يبدو أكبرَ من سنه، كما أزعج

زوجته الجميلة الجريئة «إليانور دو أكيتان Eleanor of Aquitaine»، كان أحد حجاج الطبيعة، وكانت الحملة واجبًا باعتباره مسيحيًّا، كذلك كانت هناك أسبابٌ عائلية حيث إن إليانور كانت ابنة أخت ريمون أمير أنطاكية.[١١] في عيد الميلاد في ١١٤٥م، أعلن عن نيته في استلام شارة الصليب، ولكي يملأ قلوب أتباعه ورعاياه بنيران الحماسة الصليبية، أرسل في طلب رئيس دير رهبان «كليرفو Clairvaux».

كان «سان برنار St Bernard» آنذاك في الخامسة والخمسين من العمر، وكان أكبرَ وأقوى سلطة روحية في أوروبا. كان طويل القامة، مهزولًا، تكسو ملامحه آلامُ حياة طويلة من التقشف المُبالغ فيه، وكانت تتملَّكه حماسة دينية متأجِّجة لم تترك مجالًا للتسامح أو الاعتدال. على مدى السنوات الثلاثين السابقة كان دائم التنقُّل، يعظ ويجادل ويناقش ويكتب الرسائل العديدة، ويلقي بنفسه في أتون كلِّ ما هو أخلاقي، دينيًّا كان أو سياسيًّا. كانت الحملة الصليبية المقترحة مغامرةً تلقى هوًى شديدًا في نفسه. يوم أحد السعف Palm Sunday الموافق الثالث عشر من مارس ١١٤٦م، ألقى أهمَّ خُطبة في حياته وأكثرها شؤمًا. كان الملك لويس يقف إلى جواره وعلى صدره الصليب الذي أرسله إليه البابا رمزًا لقراره؛ وبينما كان برنار يتكلم، كان كلُّ مَن يستمعون إليه — كانوا بالألوف — يصيحون مطالبين بصلبان لهم. كانت هناك بالفعل حُزَم كثيرة من الصلبان من القماش الخشن قد أُعِدت مسبقًا لتوزيعها، وعندما نفدت الكمية، خلع رئيس الدير (سان برنار) رداءه وراح يمزِّقه أشرطةً لصنْع صلبان منها. وفعل آخرون مثله، وظل هو ومساعدوه يخيطون الأشرطة صلبانًا إلى أن حل الظلام.

كان إنجازًا مدهشًا. لم يكن ليقوم به إنسان آخر في أوروبا، وبالرغم من ذلك … وعلى ضوء ما جاءت به الأحداث … ليت ذلك ما حدث!

هناك في القسطنطينية كان مانويل الأول كومنينوس قد استوعب جيدًا حجم الكابوس الذي سبَّبته الحملة الأولى لجَدِّه قبل نصف قرن. لم يكن يود أن يرى الكارثة تتكرر. أوضح من البداية أنه سوف يوفِّر الطعام والتموين للجيش، ولكن لا بد من أن يكون كل شيء مدفوع الثمن. إلى جانب ذلك سيكون مطلوبًا من جميع القادة أن يؤدوا يمين الولاء له عند مرورهم بالأراضي التابعة له. كان الجيش الألماني، الذي كان قوامه نحو عشرين ألف جندي وكان أول جيش يصل، كان هو أكثرَ مَن ينقصه الشعور بالمسئولية. كان كثير من قادته مَثلًا سيئًا للجنود؛ بالرغم من أن «كونراد Conrad» ملكَ الرومان[١٢]

— الذي رفض في البداية أن يكون له أيُّ علاقة بالحملة، ولكنه ندم بعد تأنيب علني قاسٍ من برنار — تصرَّف بنبله المعتاد، فإن ابن أخيه ومَن يليه في القيادة الدوق الشاب «فردريك أمير سوابيا Fredrick of Swabia» — المعروف في التاريخ باسم الشهرة «بربروسا Barbarossa» — قام بإحراق ديرٍ كامل في «أدريانوبل Adrianople» (أدرنة الحديثة)، انتقامًا لهجومٍ قامت به كتائب محلية. كونراد الذي كان يشعر بالنِّقمة والغضب الشديدين، رفض اقتراحًا لـ «مانويل» بأن يعبر جيشه إلى آسيا عن طريق «هيلزبونت Hellespont»، وبذلك يتفادى القسطنطينية تمامًا؛ وعندما أقام الصليبيون معسكرهم خارج أسوار العاصمة في منتصف سبتمبر ١١٤٧م، كانت العلاقة بين الألمان واليونانيين قد بلغت مبلغها من السوء.

كان الجيش الفرنسي الذي وصل بعد أسابيعَ قليلة أقلَّ حجمًا، كما كان حسن المظهر بشكل عام. كان أكثر انضباطًا، كما أن مجيء بعض السيدات المتميزات بمن فيهن الملكة إليانور Eleanor نفسها، بصحبة أزواجهن مع الجيش، هيأ الفرصة لمزيد من الانضباط. حتى ذلك الحين لم يكن التقدم سهلًا. لم يكن غريبًا أن تجعل تجاوزات الفرنجة فلاحي البلقان يتخذون موقفًا معاديًا واضحًا؛ كانوا يطلبون أسعارًا غريبة لما تبقى لديهم من أطعمة يبيعونها. أصبح انعدام الثقة متبادلًا، وأدَّى إلى ممارسات عنيفة من كلا الطرفين؛ وهكذا قبل أن يصلوا إلى القسطنطينية بوقت طويل، بدأ الفرنسيون يشعرون باستياء كبير نحو الألمان والبيزنطيين على السواء.

كان مانويل يتملق ضيوفه بالحفلات والولائم، وبالرغم من ذلك كان يخشى الأسوأ. بعد عودته من حملةٍ له في الأناضول، عرف أن تلك القوات بطيئة الحركة، التي كانت تفتقر إلى الروح المعنوية والانضباط، لن تكون ندًّا لخيالة السلاجقة. كان قد زودهم بالمؤن ووفَّر لهم الأدلاء ونبَّههم إلى ندرة الماء، كان قد نصحهم بألا يسلكوا الطريق المباشر عبر الأراضي الخلفية، بل أن يلتزموا الساحل لأن معظم الأراضي الخلفية كانت تحت سيطرة البيزنطيين. لم يكن بوسعه أن يفعل أكثرَ من ذلك. أما إذا كانوا مصرِّين، بعد كل هذا النصح، على أن يُقتلوا، فاللوم لن يقع إلا عليهم. من جانبه، سوف يأسَف لذلك ... وإن بدرجةٍ ما.

لم تكد تمر أيامٌ قليلة على وداع الإمبراطور للجيش الألماني، حتى جاءته الأخبار بأن الترك هاجموه على حين غِرة ودمَّروه تمامًا. كونراد نفسه وفردريك دو سوابيا هربا وعادا لينضما إلى الفرنسيين الذين كانوا ما زالوا في نيقية، ولكن تسعة أعشار رجالهم

كانوا قد هلكوا أو يحتضرون بين حطام معسكرهم. كانت بداية سيئة، إلا أن الأسوأ كان في الطريق. لم يتقدم كونراد أبعدَ من إفسوس، عندما سقط مريضًا. كان مانويل قد أبحر فورًا من القسطنطينية وأعاده سالمًا إلى القصر، كان يتباهى بمهاراته الطبية، وقام هو شخصيًّا بتمريضه إلى أن استعاد عافيته. وفي النهاية، عندما كان كونراد قادرًا على إكمال رحلته، كان هناك سربٌ إمبراطوري تحت تصرُّفه لكي يواصل إلى فلسطين. في الوقت نفسه كان الفرنسيون يواجهون مصاعبَ جمَّة على يد الترك وهم يتقدمون عبر الأناضول؛ وبالرغم من أن ذلك كان خطأ الملك لويس تمامًا، الذي تجاهل تحذير الإمبراطور ونصيحته بالتزام الساحل، كان مصرًّا على نسبة كل مواجهة مع العدو إلى إهمال البيزنطيين أو إلى الخيانة أو لكليهما، وسرعان ما تملَّكه امتعاض سيكوباتي ضد اليونانيين. أخيرًا، وفي حالة من حالات اليأس، اصطحب أهل بيته وعددًا كبيرًا من خيَّالته (بقدرِ ما استوعبت السفينة)، وأبحر من أتاليا (أنطاليا الآن)، تاركًا ما تبقَّى من الجيش والحجاج لكي يصارعوا قدرَ استطاعتهم. في وقتٍ متأخر من ربيع ١١٤٨م، كانت البقايا البائسة لجيشٍ كان عظيمًا ذات يوم، تجرُّ أذيالها إلى أنطاكية.

لم يكن ذلك سوى البداية. كان زنكي، الملك القوي، قد مات وانتقلت عباءته إلى نور الدين، الذي كانت قلعته في حلب قد أصبحت مركز المقاومة الإسلامية ضد الفرنجة. وهكذا كان لا بد من أن تكون حلب أولَ هدف للصليبيين، ووجد لويس نفسه تحت ضغط شديد من ريمون، أمير أنطاكية، لكي يقوم بهجوم فوري على المدينة. رفض، مبررًا رفضه بسبب مضحك، وهو أنه كان ينبغي أن يصليَ أولًا في الهيكل المقدس؛ وعليه أعلنت الملكة إليانور عن نيتها البقاء في أنطاكية وطلب الطلاق. لم يكن حب إليانور لزوجها قد زاد، بسبب الأخطار ومشاق الرحلة، كما أن علاقتها بـ «ريمون» (التي لم تكن فوق مستوى الشك) كانت قد زادت عن المدى الذي ينبغي أن تكون عليه علاقة بين عمٍّ وابنة أخ. كانت القرابة بينها وبين زوجها بعيدة، وعندما تزوجا تم إغفال مسألة القرابة، ولكنها كان يمكن أن تثير بعض المتاعب إذا أعيد إحياؤها، وكانت إليانور تعرف ذلك.

برغم مزاجه النكِد، لم تكن الشجاعة تعوز لويس ساعة الأزمة. تجاهل احتجاجات زوجته وجرَّها جرًّا إلى أورشليم؛ واستعدى ريمون لدرجةِ أن أمير أنطاكية رفض أن يقوم بدورٍ أكبرَ من ذلك في الحملة، ووصل في مايو إلى المدينة المقدسة تتْبَعه ملكته صامتة. بقي هناك حتى الرابع والعشرين من يونيو عندما عقد اجتماعًا حضره جميع القادة الصليبيين في «عكا Acre»، ليقرِّروا خطة القيام بالحملة. أما لماذا اختاروا آنذاك أن يهاجموا دمشق، فيظل لغزًا؛ حيث إنها كانت الدولة العربية الرئيسية الوحيدة التي كان يمكن أن تظل

معاديةً لنور الدين، كان يمكن — وينبغي — أن تكون حليفًا لا يقدَّر بثَمن. بالهجوم عليها، دفعوها ضد رغبتها إلى كونفدرالية الأمير الإسلامية، وجعلوا دمارها مؤكدًا. وصلوا ليجدوا دمشق قويةً والمدافعين عنها كلهم إصرار وعناد. في اليوم التالي، وبقرار من تلك القرارات الكارثية التي كانت تتصف بها الحملة كلها، نقلوا معسكرهم إلى منطقة على امتداد الجزء الجنوبي الشرقي للأسوار؛ حيث لا ظل ولا ماء. أدرك كونراد على الفور أن استمرار الحصار كان يعني هلاك كل جيشهم بالتأكيد، وبعد خمسة أيام من بدء الحملة قرروا الانسحاب.

لا توجد منطقة في الصحراء السورية أكثر تحطيمًا للروح من ذلك الامتداد الرملي أو المساحة البازلتية الواقعة بين دمشق و«طبرية Tiberias». لا بد من أن يكون الصليبيون قد شعروا باليأس الشديد وهم يقطعونها منسحبين في قيظ الصيف، تلفح وجوههم الشمس القاسية ورياح الصحراء الحارقة، تناوشهم سهامُ الرماة العرب من راكبي الخيول، مخلِّفين وراءهم رائحةً نتنة تتصاعد من جنود وخيول ميتة. كانوا يعرفون أنها النهاية. كانت الخسائر فادحة، والأسوأ كان ما لحِق بهم من عار. جيشهم الذي كان مجيدًا ذات يوم، والذي كان يزعم أنه يدخر كلَّ المُثل العليا للغرب المسيحي، تخلى عن المهمة كلِّها بعد قتال أربعة أيام، وفشل في استعادة شبر واحد من أراضي المسلمين. هنا يكمُن الإذلال التام الذي لن ينسوه ... كما لن ينساه أعداؤهم.

كتب سير «ستيفن رانسمان Stephen Ransman» يقول: «إنَّ فشل الحملة الثانية كان نقطة تحوُّل في قصة الشرق اللاتيني. كان أن بقيت مملكة أورشليم تسعة وثلاثين عامًا أخرى، ولكن بالنسبة لأي مراقب موضوعي بعد ١١٤٨م، فإن سقوط المدينة المدوي في أيدي العرب كان لا بد من أن يبدو حتميًّا. في الجانب الإسلامي، كان يوجد بالفعل قائد عبقري؛ نور الدين الذي جعل منه الاستيلاءُ على دمشق في أبريل ١١٥٤م سيدًا على سوريا الإسلامية. ثم سرعان ما كان هناك قائد عبقري آخر هو صلاح الدين، أعظم أبطال المسلمين في العصور الوسطى. صلاح الدين من مواليد ١١٣٧م لأسرة كردية بارزة، في سن الحادية والثلاثين عيِّن قائدًا على القوات السورية في مصر، ووزيرًا للخليفة الفاطمي. بحلول عام ١١٧١م، كان قد أصبح قويًّا بما يكفي لإزاحة الخليفة الشيعي الضعيف، وإعادة الإسلام السني لمصر، ومنذ ذلك الحين أصبح حاكم مصر الوحيد. بعد ثلاث سنوات نقل جيشه الصغير الجيد التنظيم إلى سوريا، وكرَّس جهده لمهمة توحيد كل الأراضي الإسلامية في مصر وسوريا وشمال وادي الرافدين وفلسطين تحت رايته.

كانت فرصة ملوك أورشليم ضعيفةً أمام هذين العملاقين؛ نور الدين، وصلاح الدين. ربما كان يمكن أن ينقذ بلدوين الثالث وخليفته «أمالريك الأول Amalric I» الموقفَ، لو أنهما كانا على قيد الحياة؛ إلا أنهما كانا قد ماتا، الأول وهو في الثانية والثلاثين والثاني في الثامنة والثلاثين. الملك التالي، بلدوين الرابع المجذوم، كان المرض قد هزمه في ١١٨٥م وهو في الرابعة والعشرين، فترك العرش لـ «بلدوين الخامس» ابن أخيه، الذي جلس عليه وهو طفل في الثامنة … ومات قبل أن يبلغ التاسعة. في مثل تلك الظروف قد يبدو موته نعمة، ولكن فرصة إيجاد قائد حقيقي ضاعت، وتم تمرير العرش إلى «جاي لوزينان Guy of Lusignan» زوج أمه، وكان شخصية ضعيفة برِمة، ذات سجلٍ من الفشل، كما كان جديرًا بما يكنه له كل أقرانه من احتقار. كانت أورشليم على شفا حرب أهلية عندما أعلن صلاح الدين الجهادَ الذي طال انتظاره، في مايو ١١٨٧م، عبر الأردن ودخل الأراضي الفرنجية. تحت قيادة «جاي» البائس، كان لا بد أن تكون هزيمة الفرنسيين هي النتيجة. في الثالث من يوليو قام بقيادة أضخم جيش جمعته مملكته في تاريخها عبر جبال الجليل متجهًا إلى طبرية؛ حيث كان صلاح الدين يحاصر القلعة. بعد مسيرة يوم طويل في أشد فصول العام حرارة، اضطُر جيشه لإقامة معسكره على هضبةٍ قاحلة لا ماء فيها ولا حياة؛ وفي اليوم التالي وهم منهكون من القيظ والعطش، قامت قوات المسلمين بتطويقهم تحت تلةٍ تعلوها قمتان صغيرتان، تُعرف بـ «قرون حطين».

كانت مهمة المسلمين بعد ذلك هي القضاء على القلاع المسيحية المتفرقة واحدة بعد الأخرى. سقطت طبرية في اليوم التالي للمعركة، ثم عكا ونابلس ويافا وصيدا وبيروت … كلها استسلمت في تتابُع سريع. متجهًا جنوبًا، استولى صلاح الدين على عسقلان بهجوم عاصف، واستسلمت غزة دون مقاومة … والآن كان قد بات مستعدًّا لأورشليم. صمد المدافعون عن المدينة المقدسة على نحوٍ بطولي لمدة اثني عشر يومًا، ولكن في الثاني من أكتوبر، وبعد أن قام جنود المسلمين بتلغيم أسوار المدينة، عرفوا أن النهاية كانت قد اقتربت. ذهب قائدهم «باليان الإيبليني Balian of Ibelin» — كان الملك جاي قد وقع في الأسر بعد حطين — شخصيًّا إلى صلاح الدين ليبحث شروط الاستسلام.

صلاح الدين، الذي لم يكن متعطشًا للدماء ولا محبًّا للانتقام، وافق على أن يفتديَ كل مسيحي في أورشليم نفسه بدفع فدية مناسبة. في ذلك اليوم قاد جيشه داخل المدينة؛ ولأول مرة في ثمانية وثمانين عامًا، في ذكرى ليلة الإسراء والمعراج، كانت راياته الخضراء ترفرف على منطقة المعبد التي صعد منها النبي محمد. استتب النظام في كل مكان، لم

يكن هناك قتلٌ ولا سفك دماء ولا سلب ولا نهب؛ ومن بين العشرين ألف فقير الذين لم يستطيعوا جمْع الفدية، تم العفو عن سبعة آلاف بعد قيام السلطات المسيحية المختلفة بدفع مبلغ إجمالي. طلب «العادل»، شقيق صلاح الدين ألفًا من الباقين كمكافأة له عن خدماته، ثم أطلق سراحهم في الحال. حصل البطريرك على سبعمائة آخرين وحصل باليان على خمسمائة، وبعد ذلك قام صلاح الدين على الفور بإطلاق سراح كل كبار السن، وكل الزوجات اللائي دفع أزواجهن الفدية، وأخيرًا كل الأرامل والأطفال. كان عدد قليل من المسيحيين هم الذين وجدوا أنفسهم في الطريق إلى العبودية. كان هدوء صلاح الدين وسيطرته على مشاعره أمرًا استثنائيًّا بالرغم من أنه لم يكن قد نسي المذبحةَ التي حدثت بعد وصول الحملة الأولى في سنة ١١٠٩م، كما لم يكن المسيحيون قد نسوها، ولا بد من أن يكون التناقض بين الموقفين قد أصابهم بالذهول.

عندما وصلت أخبار سقوط أورشليم إلى الغرب، مات البابا «أوربان Urban» من الصدمة، أما خليفته «جريجوري الثامن Gregory VIII» فلم يضيِّع الوقت، دعا على الفور العالَم المسيحي لحمل السلاح لاستعادتها. تم وضع الخطط على عجل. هذه الحملة (الثالثة) ستكون تحت قيادة الإمبراطور «فردريك بربروسا Fredrick Barbarossa»، الذي كان قد خلف عمَّه كونراد في ١١٥٢م. سيحمل الصليب كذلك ثلاثة ملوك غربيين آخرين: «ريتشارد قلب الأسد Richard Coeur-de-Lion» ملك إنجلترا، و«فيليب أوجسطس Philip Augustus» ملك فرنسا، و«وليم الصالح William the Good» ملك صقلية. تم إعفاء الإمبراطور البيزنطي «إيزاك الثاني أنجيلوس Issac II Angelus» من المشكلات اللوجستية الكبيرة؛ حيث كان بربروسا الذي يسلك الطريق البري قد وافق على العبور إلى آسيا عن طريق هيلزبونت بدلًا من البوسفور، بينما اختار الملوك الثلاثة التحرُّك بحرًا. موت وليم غيرُ المتوقَّع، تطلَّب إجراء تغيير رئيسي أو اثنين في الترتيبات، إلا أن الخطة الرئيسية التي كانت تقضي بضرورة تجمُّع الأساطيل الثلاثة في مسيني من أجل المرحلة الأخيرة من الرحلة، بقيت دون تغيير، وفي العاشر من سبتمبر ١١٩٠م، وصل ريتشارد وفيليب أوجسطس، بفاصل عشرة أيام بينهما، إلى صقلية.

كان ريتشارد في حالة سيئة وكئيبة، كما كان يحمل حقدًا دفينًا لـ «تانكريد Tancred» ملكِ صقلية، وبالرغم من أن وليم الصالح كان قد مات دون أن يترك وصية، يبدو أنه كان، في ظرفٍ ما، قد وعد «هنري الثامن Henry VIII»، ملك إنجلترا ووالد زوجته بإرثٍ مهم، كان من بينه طاولة ذهبية طولها نحو اثنتي عشرة قدمًا، وخيمة من الحرير تتسع

لمائتي شخص، وكمية من أدوات المائدة الذهبية، وسفن إضافية كثيرة مزودة بالمواد التموينية ... كل ذلك من أجل الحملة. الآن وقد مات وليم وهنري، كان تانكريد يرفض الوفاء بذلك الوعد. كانت هناك مشكلة الملكة «جوانا Joanna» شقيقةِ ريتشارد: كان قد علِم بأن تانكريد كان قد حجز على أموالها ومنع عنها بعض مستحقاتها كجزء من تسوية زواجها. ربما كان يرى، كذلك، صقلية جوهرة جديدة محتملة يمكن أن يضيفها إلى تاجه. تانكريد، برغم كل ذلك لم يكن شرعيًّا، بينما كانت «كونستانس Constance» بسبب زواجها من وريث الإمبراطور تعني موت المملكة. ولعله كذلك، باعتباره زوج أخت الملك قد يكون من حقه أن يدعم مطلبه.

كان لدى تانكريد ما يكفيه من المتاعب لكي يخاطر بعداءات في أماكنَ أخرى. بوضوح شديد، كان لا بد له من أن يُخرِج ضيفه الثقيل من الجزيرة بأسرعِ ما يمكن؛ وإذا كان ذلك يتطلب تنازلات ... فسوف يتبعها تنازلات أخرى. بعد خمسة أيام من وصول ريتشارد لحِقت به جوانا نفسها، وكانت قد أصبحت تتمتَّع بكامل حريتها بعد حصولها على تعويض كبير عن خسائرها الأخرى. إلا أن التخلصَ من قلب الأسد أو شراءه لم يكن بالأمر السهل. في ٣٠ سبتمبر، انطلق غاضبًا عبر مضايق مسيني ليحتل مدينة «باجنارا Bagnara» الصغيرة الهادئة على ساحل كالابريا. وهناك، في كنيسة كان قد بناها الكونت روجر قبل قرن تقريبًا، أنزل أخته، وتركها تحت حراسة حامية قوية. وفي طريق عودته إلى مسيني، كان أن وقع على أكثر مؤسسات المدينة قداسة، دير المخلِّص الذي كان يشغَل موقعًا رائعًا على الميناء. قاموا بطرد الرهبان منه واحتل جيش ريتشارد ثكناته الجديدة.

كان أهالي مسيني، ومعظمهم من اليونانيين، قد ردعهم سلوك الجنود الإنجليز غير الأخلاقي وبخاصة مع النساء المحليات، إلا أن احتلال الدير كان هو القشة الأخيرة. في ٣ أكتوبر حدَث تمرُّد وأعمال شغْب هائلة، وفي اليوم التالي اقتحم جيش ريتشارد المدينةَ ليعم التخريب والسلب والنهب أرجاءها، وفي خلال ساعات قليلة كانت المدينة كلها تحترق. فيليب أوجسطس، الذي حاول جاهدًا أن يتوسط بين ريتشارد وتانكريد، أصابه الرعب عندما شاهد عَلم ريتشارد يرفرف على الأسوار، فأرسل من فوره رسالة عاجلة إلى تانكريد ينبِّهه لخطورة الوضع، ويعرض مساعدة جيشه له في حال تمادى ريتشارد في غيِّه. لم يكن تانكريد في حاجة لمثل هذا التحذير، ولكنه كان يفكر في المستقبل الأبعد، كما كان يعرف أن «هنري هوهنشتوفن Henry of Hohenstaufen» كان خطرًا أكثرَ جسامةً مما

يمكن أن يكون عليه ريتشارد. عاجلًا أو آجلًا، سوف يغزو هنري، وعندما يفعل ذلك سيكون تانكريد في حاجة إلى حلفاء؛ ولهذا الغرض فإن الإنجليز برغم كل أخطائهم سيكونون أفضلَ من الفرنسيين. كان ريتشارد يكره آل هوهنشتوفن، ومن ناحيةٍ أخرى كان الملك الفرنسي على وفاقٍ تامٍّ مع فردريك بربروسا. لو أن الألمان قاموا بالغزو الآن والصليبيون ما زالوا في صقلية، فلن يكون التعاطف الفرنسي مؤكدًا. وجَّه تانكريد الشكر لـ «فيليب»، وأرسل إليه بعضَ ما يليق به من الهدايا السخية. في الوقت نفسه، أرسل مبعوثًا مؤتمنًا إلى مسيني لكي يتفاوض مع ريتشارد.

كانت الشروط التي عرضها أكثرَ مما يمكن أن يقاومه ريتشارد؛ عشرون ألف أونصة من الذهب لأخته ومثلها له، وفي مقابل ذلك وعد بأن يقدم لـ «تانكريد» عونًا عسكريًّا كاملًا ما دام هو وجيشه في المملكة، كما تعهَّد بأن يعيد للمضارين في الاضطرابات الأخيرة كلَّ ما سُلب ونُهب منهم. تم توقيع الاتفاق في الحادي عشر من نوفمبر في مسيني، كما تم إقراره نهائيًّا بتبادل الهدايا؛ كانت هدية ريتشارد لـ «تانكريد» سيفَ الملك آرثر الشهير، الذي كان قد تم العثور عليه في «جلاستون بري Glastonbury». لم يكن غريبًا أن تصبح العلاقات بين ريتشارد وفيليب أوجسطس أكثرَ برودًا من ذي قبل، ولكن الملك الفرنسي — على خلاف الإنجليزي — كان يعرف كيف يسيطر على مشاعره. على نحوٍ ما، مرَّ الشتاء دون المزيد من الصدام بينهما، وفي الثلاثين من مارس أبحر فيليب بجيشه إلى فلسطين.

بعد أيام قليلة، ستصل سفينةٌ تحمل إليانور أكيتان[١٣] أمَّ ريتشارد، التي كانت في السبعين من عمرها، تصحبها خطيبته الأميرة «برنجاريا نافار Berengaria of Navarre». ربما كانت الخطة الأصلية أن يتزوجا في صقلية، إلا أن الزواج كان محظورًا في فترة الصيام الكبير — كانت رغبتهما على أية حال غير متسقة مع هذا التوجُّه — ولم يكن ريتشارد متعجلًا لإتمام الزواج. بناء عليه، تقرَّر أن تبحر معه برنجاريا إلى الأراضي المقدسة. إليانور التي كانت تحتفظ بذكرياتٍ غير سارة عن زيارتها الأخيرة، لم يكن لديها رغبة في العودة؛ العروس الشابة سوف تصحبها الملكة جوانا، وعليه وُضعت سفينةٌ خاصة تحت تصرفهن. في العاشر من أبريل ١١٩١م، سوف يبحر ريتشارد — الذي نعرف أن أسطوله كان لا يقل عن مائتي سفينة — إلى فلسطين.

في اليوم الثالث بعد خروجها من مسيني، واجهت السفن الإنجليزية إحدى عواصف الربيع العاتية التي يشتهر بها الحوض الشرقي من المتوسط. تمكَّنت معظم السفن من أن تبقى

على اتصال ببعضها — كان الملك قد احتفظ بفانوس مضاء على صاري سفينته كدليل للآخرين — ولكن الرياح الغاضبة دفعت عددًا كبيرًا من السفن على نحوٍ كارثي خارج المسار، كما أغرقت عددًا آخر. لفترةٍ ما، كان البعض يعتقدون أن سفينة برنجاريا وجوانا قد فُقدت، ولكنهم وجدوها في النهاية وسفينتين أخريين بالقرب من ميناء ليماسول في قبرص.

بصرف النظر عن فترات احتلال العرب القصيرة لقبرص، كانت هذه الجزيرة دائمًا جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية؛ قبل خمس سنوات فحسب، كان المدعو «إيزاك دوكاس كومنينوس Isaac Ducas Comnenus» قد وصل حاملًا وثائقَ تفيد تعيينه حاكمًا على الجزيرة. فيما بعدُ، اكتُشِف أن هذه الوثائق كانت مزيفة، ولكن ليس قبل أن يستوليَ إيزاك على كل الحصون الرئيسية. بعد ذلك أعلن نفسه حاكمًا مستقلًّا واتخذ لقب إمبراطور، ولكي يقويَ وضْعه ضد الإمبراطور الشرعي في القسطنطينية عقد اتفاقًا مع صلاح الدين. في مثل تلك الظروف، لن يكون من الوارد أن يقدِّم مساعدة، أو حتى مأوًى، للأسطول الصليبي، أما الناجون من الغرق فقد تم تجريدهم من كلٍّ ما معهم وزُج بهم في السجون. عندما علم بوصول سيدتين من عِلية القوم، دعاهما إلى اليابسة ولكن جوانا — وكانت قد سمِعت بمن وضعهم في السجون — لم تكن لتثق به قيد أنملة، ثم تأكدت شكوكها عن رفض طلب السفينة تزويدها بالماء، وبدأ في حشد قواته على امتداد الشاطئ.

وصلت الأخبار إلى ريتشارد الذي أبحر على عجلٍ إلى ليماسول وأعطى أوامره بالهجوم الفوري. كان إيزاك قد فعل كلَّ ما في استطاعته لتحصين الشاطئ، ولكن رجاله لم يكونوا ندًّا لرماة السهام الإنجليز، وسرعان ما لاذوا بالفرار. بحلول المساء كانت المدينة قد أصبحت في يد ريتشارد، وفي نفس الليلة تم تطويق معسكر إيزاك. هو نفسه تمكَّن من الهرب ولكنه ترك خلفه كلَّ شيء: الأسلحة، الخيول، الثروة ... وأخيرًا وليس آخرًا رايته الإمبراطورية التي أهداها ريتشارد فيما بعد لكنيسة «بوري سان أدموندز Bury St Edmunds». كان بذلك قد أعطى الملك «ذريعة للحرب casus belli»، بمعنى الكلمة، ولم يكن ريتشارد ممن يضيِّعون فرصةً تسنح له. الآن ... قرَّر أن تكون قبرص كاملة له. كانت هناك خطوة شكلية واحدة لا بد من اتخاذها؛ يوم الأحد في كنيسة سان جورج في القلعة، تزوَّج هو وبرنجاريا على يدِ أسقف «إفروتس Evreux» الذي ذهب من فوره ليُتِمَّ حفل تتويج العروس.[١٤] بعد ذلك راح يستعد للحرب.

لم يستغرق غزو قبرص وقتًا طويلًا. كان «جاي لوزينان»، الملك الاسمي لأورشليم، الذي كان الآن مجردًا من مملكته، قد لحِق بـ «ريتشارد». عهد ريتشارد لـ «جاي» بجزء

من جيشه مع تعليمات بمطاردة إيزاك وأسره، أما باقي الجيش تحت قيادته، فكان عليه أن يبحر مطوفًا حول الجزيرة — كل نصف منه في اتجاه — للاستيلاء على المدن والقلاع الساحلية وما يقابلونه من سفن في طريقهم. عاد ريتشارد ليجد أن «جاي» قد فشل — وكان ذلك متوقعًا — في أن يجد إيزاك، الذي كان قد لجأ إلى إحدى القلاع الجبلية المنيعة العديدة على الساحل الشمالي. كانت خطته أن يبقى هناك إلى أن يغادر الصليبيون الجزيرة، وكان يمكن أن تنجح الخطة لو لم تسقط قلعة «كيرينيا Kyrenia» — التي كان قد ترك فيها زوجه وابنته الصغيرة في أيدي رجال جاي. بعد ذلك فقدَ إيزاك الأمل ووافق على أن يسلِّم نفسه، مشترطًا فقط ألا يوضع في الحديد. وعدَه ريتشارد — عن طيب خاطر — بذلك وصنعوا له أصفادًا خاصة من الفضة. بحلول الأول من يونيو، كان ملك إنجلترا، كذلك، قد أصبح سيد قبرص. تم تعيين حاكمين لإدارة الجزيرة باسمه من الإنجليز، وصدرت الأوامر لكل القبارصة من الرجال بحلاقةِ لحاهم دليلًا على الولاء للعهد الجديد.

في الخامس من يونيو، أبحر الملك من فاماجوستا مصطحبًا معه إيزاك كومنينوس ليودعه سجينًا في قلعة «مارجات Margat» (قلعة المرقاب الحالية في سوريا) الأسوأ والأكثر كآبةً وظلامًا من بين كل قلاع الصليبيين، وهي القلعة التي كان فرسان سان جون قد استولوا عليها قبل خمس سنوات. بعد ذلك واصل تقدُّمه جنوبًا على امتداد الساحل إلى عكا ليحالفه الحظ في الطريق فيقابل ويحطِّم سفينة للمسلمين كانت ترفع العلم الفرنسي وتحاول اختراق حصار الفرنجة. (وبحسب شائعةٍ انتشرت على نطاق واسع بين الفرنجة، وجد أن السفينة كانت تحمل شحنةً من مائتي أفعى سامة كان من المقرَّر إطلاقها في المعسكر المسيحي). عندما وصل هو وأسطوله كانوا محلَّ ترحيب كبير، إلا أن ريتشارد وجد نفسه فجأةً متورطًا في أزمةٍ دبلوماسية، كانت تهدِّد ما تبقَّى من التحالف المسيحي.

بعد أحد عشر شهرًا من معركة حطين، كان صلاح الدين قد أطلق سراح «جاي» بشرطِ ألا يشارك مرةً أخرى في حرب ضده. وافق «جاي»، ولكن الكل كان يعرف أن الوعود التي تُعطَى لغير المؤمنين بالنصرانية كان يمكن تجاهلها بكل سهولة — وبخاصة بعد أن ظهر أنه كان لديه ما هو أكثر من الأماكن المقدسة لكي يحارب من أجله؛ كان عرشه هو شخصيًّا في خطر. أثناء سَجنه كان قد ظهر قائد جديد يُدعى «كونراد المونتفراتي Conrad of Monteferrat»، الذي كان قد دافع عن صور ببسالة ضد هجوم للمسلمين، وكان الآن يسيطر على المدينة بالرغم من أنها كانت جزءًا لا يتجزأ من مملكة

أورشليم. جاي، بعد أن حُرم من صور، كان يريد أن يُظهِر شجاعته، ولأنه كان متلهفًا على مدينةٍ يحكم منها، تقدَّم مع مجموعة صغيرة من الجنود إلى عكا حيث ضرب حصارًا حولها. لم يكن، كما كان معروفًا عنه بشكل جماعي تقريبًا، شديدَ الذكاء، ولكن ما قام به كان عملًا أقرب إلى الخبل أو الجنون. كانت عكا أكبرَ مدن المملكة، أكبرَ حتى من أورشليم، ولكن جيش «جاي» كان صغيرًا لدرجة الرثاء، ولم يكن هناك شيء يمكن أن يمنع صلاح الدين أو يوقفه عن أن يأتيَ بقوة إنقاذ ويقوم بتطويقه بدوره، وهو ما قام به بالفعل. إلا أن «جاي» استطاع أن يحافظ على وضعه حتى وصل ريتشارد قلب الأسد في مطلع صيف ١١٩١م.

في الثاني عشر من يوليو من العام نفسه، استسلمت الحامية الإسلامية في عكا، واستولى الصليبيون على المدينة. بعد ستة أسابيع أعطى ريتشارد أوامره بالقضاء على كل المسلمين الأسرى لديه — ٢٧٠٠ شخص بمن فيهم زوجاتهم وأطفالهم — كان من المفترض أن تكون مشكلات «جاي» قد انتهت لولا كونراد المونتفراتي، الذي كان قد عيَّنه على عرش أورشليم. كان «جاي» قد وصل إلى العرش عن طريق زوجته «سيبيللا Sibylla»، ولكنَّ سيبيللا وابنتيها الصغيرتين كن قد متن في وباء خريف ١١٩٠م؛ فهل يا تُرى كان ما زال عند زوجها حقٌّ يطالب به؟ أيًّا كان الوضع القانوني فإن معظم بارونات الشرق اللاتيني الذين كانوا ما زالوا على قيد الحياة، كانوا يرونها فرصةً مواتية تمامًا للتخلص من حاكم ضعيف لا يمكن الاعتماد عليه. كان كونراد هو مرشَّحهم للعرش. لم يكن صاحب حقٍّ قانوني يُعتَد به، ولكن كان هناك حل واحد بسيط لهذه المشكلة؛ أن يتزوج الأميرة «إيزابيللا Isabella» ابنةَ الملك «أماليك Amalric». ربما كانت هناك عقبة ثانوية، وهي أنها كانت متزوجة بالفعل من «همفري Humphery» لورد «تورون Toron»، ولكن همفري رغم أنه كان مثقفًا كبيرًا وعالمًا في الدراسات العربية، كان شاذًّا جنسيًّا، وكان الجميع يعرفون ذلك. وافق بكل ارتياح ودون تردُّد على الطلاق، وفي الرابع والعشرين من نوفمبر ١١٩٠م أُعلن زواج كونراد وإيزابيللا.

إلا أن الزواج الملكي ليس تتويجًا على أية حال، استمرت الخصومة بين جاي ولوزينان وكونراد المونتفراتي لمدة ثمانية عشر شهرًا أخرى، وكان يمكن أن تستمر أطول من ذلك لولا أن الملك ريتشارد — الذي كانت قوَّته ومكانته في الأراضي المقدسة أكبرَ بكثير من قوَّتهما ومكانتهما — جاءته أخبارٌ من إنجلترا أقنعته بالعودة فورًا، إن كان له أن ينقذ تاجه. قبل رحيله؛ عقد مجلسًا حضره كلُّ الفرسان والبارونات في الشرق اللاتيني وأبلغهم

بضرورة حسم موضوع الملكية مرةً وإلى الأبد. مَن الذي يريدون أن يحكمهم؛ جاي أو كونراد؟ اختاروا كونراد بالإجماع، أما جاي فأُرسل إلى قبرص بأوامرَ من ريتشارد؛ حيث سمح له — على سبيل الترضية — بأن يحكم الجزيرة كما يريد. اتخذ لقب «ملك»، وأسَّس أسرةً كان أن حكمت قبرص ما يقرب من ثلاثمائة عام.

في العاشر من يونيو ١١٩٠م، وبعد رحلة طويلة مضنية عبر جبال طوروس جنوبي الأناضول، قاد فردريك بربروسا قواته نحو الهضبة الساحلية المنبسطة. كانت الحرارة شديدة، ولا بد أن نهر «كاليكادنوس Calycadnus» (يُعرف الآن بنهر جوكسو Göksu) الذي كان يمرُّ بـ «سيلوكيا Seleucia» (سيليفكي الآن) حتى البحر، لا بد أنه كان يبدو جميلًا مغريًا بالتوقف عنده. فردريك الذي كان يركب حصانه منفردًا متقدمًا جيشه بمسافة قصيرة، مهمزًا حصانه نحو البحر ... ولم يرَه أحدٌ بعد ذلك. سواء أكان قد نزل من على الحصان ليشرب وزلَّت قدمه وسحبه التيار، سواء أكان حصانه قد انزلق وأطاحه، سواء أكانت صدمة سقوطه في ماء الجبل الثلجي أكبر مما يتحمله جسده العجوز — كان في السبعين من العمر — لن يعرف أحد. أنقذوه ولكن متأخرًا جدًّا، وعندما وصل معظم أعوانه إلى النهر كان إمبراطورهم يرقد ميتًا على الشاطئ.

على الفور تقريبًا، بدأ عِقد جيشه ينفرط، عاد كثير من الأمراء الألمان الصغار إلى أوروبا، آخرون أخذوا السفن إلى صور التي كانت الميناء الرئيسي الوحيد الذي ما زال في أيدي المسيحيين في الشرق اللاتيني، واصلت العوامة التي كانت تحمل جثة الإمبراطور محفوظة — دون نجاح كافٍ — في الخل، سيرَها بكآبة، رغم أنها فقدت المزيدَ من رجالها في كمين عند دخول سوريا. لم يكن لدى الناجين الذين وصلوا أخيرًا إلى أنطاكية مرهقين، لم يكن لديهم أيُّ قدرة على القتال. في ذلك الوقت أيضًا، حدث لِما كان قد تبقَّى من فردريك، ما حدث لِما كان قد تبقَّى من جيشه ... تم دفن بقاياه المتحللة على عجلٍ في الكاتدرائية، لتبقى ثمانية وسبعين عامًا — إلى أن جاء جيش مملوكي بقيادة السلطان بيبرس[١٥] ليشعل النار في المبنى كله ... مع معظم المدينة الذي استحال رمادًا.

كان من حسن حظ الشرق اللاتيني أن يصل ريتشارد وفيليبي أوجسطس بجيوشهما سليمة، وكان بفضلهما كذلك أن كانت الحملة الثالثة أقلَّ خزيًا ومهانة من الثانية نوعًا ما، رغم أنه من الصعب أن نعتبرها قد نجحت؛ حيث فشِلت في استعادة أورشليم. أصبحت عكا عاصمة المملكة، ولكن هذه العاصمة التي أصبحت مختصرة في الشريط الساحلي

القصير بين صور ويافا، كانت ظلًّا شاحبًا لِما كانت عليه من قبل فلسطين الصليبيين. ستظل عكا صامدةً على مدى قرن آخر، وعندما سقطت في النهاية أمام بيبرس في ١٢٩١م، كانت المفاجأة الوحيدة أنها بقيت تلك المدة الطويلة.

في تاريخ العالم المسيحي كله، لا يوجد فصلٌ أكثر تضليلًا من ذلك الذي يروي قصة الحملات الصليبية. الأولى، رغم نجاحها عسكريًّا، كانت تتسم بدرجةٍ من البربرية والوحشية فاقت كل الحدود حتى بمعايير العصور الوسطى؛ الثانية كانت فشلًا ذريعًا، ويعود ذلك، إلى حدٍّ كبير، إلى حماقة قادتها البالغة. الثالثة، وبالرغم من أنها كانت أقلَّ خزيًا من سابقتها، كانت عملًا أخرقَ؛ حيث فشِلت هي الأخرى في تحقيق أهدافها. ليس هناك أيُّ أثرٍ تاريخي لأيٍّ منها، بصرف النظر عن الدماء التي سُفكت فيها عبثًا. ربما بنهاية القرن الثاني عشر، والمؤكَّد أنه بنهاية الثالث عشر كان الشرق الأدنى الإسلامي يختلف قليلًا عما كان عليه عندما أطلق البابا أوربان صيحتَه المدوية في مجمع كليرمونت لجمع الشمل من أجل عملٍ مشترك. كان لا بد من أن تكون الحملة الرابعة مختلفة عن كلِّ ما سبق. لقد حطَّم المشاركون فيها المعقل المسيحي الوحيد القوي، الذي كان ينبغي أن يقدِّموا حياتهم ليبقى قائمًا، ألا وهو دفاع أوروبا القوي الواحد ضد المد الإسلامي. بهذا الفعل، فإنهم غيَّروا مسار التاريخ.

جاءت نهاية القرن الثاني عشر لتجد أوروبا في حالة فوضى. في الثامن من أبريل ١١٩٥م، سقط الإمبراطور البيزنطي إيزاك الثاني أنجيلوس فريسةً لانقلابٍ دبَّره شقيقه «ألكسيوس Alexius»، الذي خلعه وأعماه، وأعلن نفسه إمبراطورًا مكانه. كان إيزاك كارثة بالفعل ... والحقيقة أن ألكسيوس كان أسوأ. في الثامن والعشرين من سبتمبر، وبينما كان يجهِّز لحملة جديدة، مات الإمبراطور الغربي «هنري السادس Henry VI» بالحمَّى في مسيني. كانت ألمانيا ممزقة بسبب الحرب الأهلية على الخلافة الإمبراطورية، وبالمثل كانت إنجلترا وفرنسا مشغولتين — وإن بدرجةٍ أقل عنفًا — بمشكلات الوراثة بعد موت ريتشارد قلب الأسد في ١١٩٩م. كان «نورمان سيسلي Norman Cicily» قد رحل إلى الأبد، ومن بين كل الشخصيات البارزة في العالم المسيحي، كان هناك شخص واحد فقط هو الذي يسيطر بحزم: البابا «إنوسنت الثالث Innocent III».

تحت إنوسنت، وصلت البابوية ذروةَ قوَّتها ومجدها في العصور الوسطى. اعتلى إنوسنت العرش البابوي في ١١٩٨م، وخلال الأعوام التسعة عشر في منصبه، رأس حملتين

منفصلتين؛ إحداهما — إن كان لنا أن نلتزم الدقة في التسلسل الزمني كانت الثانية — كانت ذات أهمية عالية قليلة نسبيًّا؛ حيث كانت مقصورة على جنوب غرب فرنسا. كان هدفها القضاء على المهرطقين «الألبيجنسيين Albigenses»[١٦] المعروفين بـ «الكاثاريين Cathars»[١٧] الذين كانوا يجاهرون بالعقيدة المانوية Manichaean[١٨] التي ترى أن مبدأي الخير والشر المتعارضين في حال صراع دائم لكي تكون لأحدهما الغلبة؛ فالعالم المادي شرير، وواجب الإنسان هو تحرير روحه التي هي خيِّرة بطبيعتها، وهو ما لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال حياة زهد وتقشُّف وتجنُّب للفساد ولكل زينة الحياة الدنيا كما تقضي الكنيسة الكاثوليكية. لا شك أن هذه العقيدة كانت طعنةً في قلب المسيحية الأرثوذكسية وكذلك المؤسسات السياسية والكنسية في العالم المسيحي، وكان أن تحرَّك إنوسنت ضدها بقوة. في ١٢٠٩م أمر الرهبانَ «السيسترسيين Cistercians»[١٩] بأن يقوموا بحملةِ وعظ وتبشير استمرت على مدار القرن، بالرغم من أن الكاثاريين لم يفيقوا من الاستيلاء على معقلهم في «مونت سيجر Montségur» عند سفح البرانس في ١٢٤٤م، وكانوا مضطرين للعمل سرًّا. عندما تم القضاء على هذه الهرطقة، كان قد تم تخريب وسلب ونهب مناطق «بروفنس Provence» و«اللانجيدوك Languedoc» ومعظم الجنوب الغربي، وذُبح كثير من الأهالي بدم بارد، كما تم تدمير حضارة التروبادور البروفنسية.

كانت الحملة الأخرى هي المعروفة لنا بالحملة الرابعة. لم يُقلِق البابا عدم وجود رءوس متوَّجة لقيادتها على أي نحو؛ حيث كانت التجربة السابقة قد بيَّنت أن الملوك والأمراء كانوا يثيرون خصومات قومية ومشكلات لا حصر لها حول البروتوكول والأولويات وتصدُّر بعضهم البعض. أما المشكلات اللوجستية فكانت أكثرَ خطرًا. قبل مغادرته فلسطين، كان ريتشارد قلب الأسد قد أدلى برأي شخصي وهو أن مصر كانت النقطة الأضعف في الشرق الإسلامي، وعليه فإن أي حملة مستقبلية لا بد أن تكون وجهتها هناك. كان ذلك يعني أن الجيش الجديد سيكون عليه أن يسافر بحرًا، وسيكون في حاجة إلى وسائل انتقال بكميةٍ لا يمكن الحصول عليها إلا من مصدرٍ واحد؛ جمهورية فينيسيا … وهذا ما كان.

في الأسبوع الأول من الصوم الكبير (Lent) في سنة ١٢٠١م، وصلت إلى فينيسيا مجموعة من ستة فرسان بقيادة «جيوفري دي فيلهاردون Jeoffrey de Villehardouin» مارشال «شمبانيا Champagne». تقدَّموا بطلبهم في لقاء خاص، وجاءهم الرد بعد أسبوع. ستوفِّر الجمهورية وسائلَ انتقال لأربعة آلاف وخمسمائة فارس بخيولهم،

وتسعة آلاف من حَمَلة الدروع، وعشرين ألف جندي مشاة، مع طعام يكفي تسعة أشهر. بالإضافة إلى ذلك ستقدِّم فينيسيا خمسين سفينة «قادس Galley»،[٢٠] مجهَّزة تمامًا على نفقتها الخاصة … بشرط الحصول على نصف الأراضي التي يتم غزوها. سيكون الثَّمن ٨٤٠٠٠ مارك[٢١] من الفضة.

نَقل هذا الردَّ إلى جيوفري وزملائه الدوج «إنريكو داندولو Enrico Dandolo»، ذلك الرجل الذي لا يوجد في تاريخ فينيسيا كله، مَن هو أكثر منه إثارةً للدهشة. لا نعرف كم كان عمره بالتحديد عندما صعد في الأول من يناير ١١٩٣م إلى عرش الدوقية. تقول القصة إنه كان في الخامسة والثمانين، وإنه كان أعمى تمامًا، رغم أنه قد يبدو من الصعب تصديقُ ذلك، وخاصة عندما نقرأ عن طاقته الهائلة — بل بطولته — بعد عقد من الزمان على أسوار القسطنطينية. ولكن حتى لو أنه كان في منتصف السبعينيات من العمر، فلا بد أنه وقت الحملة الرابعة كان في العقد التاسع. بعنايةٍ فائقة فسَّر تفسيرًا محرَّفًا حقيقةَ أن سفراءه في تلك اللحظة كانوا في القاهرة يبحثون اتفاقًا تجاريًّا مفيدًا، كان جزء منه تعهَّدهم أنهم لن يشاركوا في أي هجوم على الأراضي المصرية؛ كان الاتفاق على ضرورة أن يلتقي الصليبيون في فينيسيا في عيد سان جون، ٢٤ يونيو ١٢٠٢م؛ حيث سيكون الأسطول جاهزًا من أجلهم.

في ذلك اليوم اجتمع العدد في الليدو برئاسة قائدهم الجديد الماركيز «بونيفاس المونتفراتي Boniface of Monteferrat»، وكان عددهم أقلَّ من ثلث العدد المتوقَّع. بعضهم كانت حماسته للقضية قد تبخَّرت، وآخرون رضخوا — بلا شك — لضغوط أسرية، إلا أن البعض كان قد سمِع عن الوجهة الحقيقية للحملة، ويرون أورشليم الهدفَ الشرعي الوحيد؛ ولذا رفضوا أن يضيِّعوا الوقت في أي مكان آخر. بهذا العدد الذي انخفض إلى حدٍّ كبير، لم يكن الصليبيون قادرين على أن يسدِّدوا للفينيسيين المبلغ الذي وعدوهم به. فعلوا كلَّ ما في وُسعهم ولكن بقي هناك عجز نحو ٣٤٠٠٠ مارك. وعندما تأكَّد داندولو أنه لن يتمكن من الحصول على أكثر من ذلك تقدَّم بعرضٍ جديد. كانت «زارا Zara» (زادار Zadar الحديثة على ساحل دالماشيا) قد سقطت قبل وقت قريب في يد ملك هنغاريا، فإذا ساعد الصليبيون على استعادتها يمكن تأجيل تسوية الدَّين.

وهكذا في الثامن من نوفمبر ١٢٠٢م، أبحر جيش الحملة الرابعة من فينيسيا — ٤٨٠ سفينة تتقدَّمها سفينةُ الدوج نفسه التي كانت كما يقول الصليبي الفرنسي المؤرِّخ «روبير الكلاري Rober of Clary»: «مصبوغة باللون القرمزي، مع مظلة من الحرير

قرمزية اللون كذلك مفرودة عليها، بينما كانت الصناجات تعزف وأربعة أبواق تصدح في مقدم السفينة.» بعد أسبوع، كان قد تم الاستيلاء على المدينة ونهبها. اندلع الصراع على الفور بين الفرنجة والفرنسيين على تقسيم الغنائم، وعندما هدأت الأمور استقرت كلُّ جماعة في ركن من المدينة في موسم الشتاء. بعد فترة قصيرة، وصلت أخبارُ ما حدث إلى البابا الذي استشاط غضبًا فعاقب الحملةَ كلها بحرمانهم كنسيًّا. كان القادم أسوأ. في أوائل العام الجديد وصل مبعوث برسالة إلى بونيفاس من «فيليب السوابي Philip of Swabia» الابنِ الأصغر لـ «فردريك بربروسا». كان فيليب قد تزوَّج من ابنة الإمبراطور التعِس إيزاك، الذي كان ألكسيوس الثالث قد خلعه. ابن إيزاك الصغير (المربِك أن اسمه أيضًا كان ألكسيوس) كان قد هرب من السِّجن؛ حيث كان محتجزًا هو وأبوه، ولجأ إلى فيليب. كان العرْض الذي يقدِّمه فيليب شديد البساطة؛ إذا وافق الصليبيون على اصطحاب ألكسيوس الصغير إلى القسطنطينية ووضعوه هناك على العرش مكان عمِّه مغتصِب العرش، فإن ألكسيوس من جانبه سيقوم بتمويل غزو مصر، ويقدِّم عِلاوة على ذلك عشرةَ آلاف جندي، ويتكفَّل بنفقات خمسمائة فارس بعد ذلك في الأراضي المقدسة. كما أنه سوف يقوم بتسليم كنيسة القسطنطينية لسلطة روما.

كانت الفكرة بالنسبة لكلٍّ من بونيفاس وداندولو تحتوي على الكثير الذي يجعلها جديرةً بالقبول. كان معظم أتباعهما كذلك سعداء بالخطة التي كانت تَعِد بتقوية وإثراء الحملة — وتُمكِّنها بالمرة من تسديد دَين فينيسيا — وتستعيد كذلك وحدة العالم المسيحي. وهكذا، كان في يوم ٢٤ يونيو ١٢٠٣م، بعد عام من اليوم التالي للقاء فينيسيا، أن أقلع أسطول الصليبيين من ميناء القسطنطينية. جيوفري دو فيلهارودين الذي كتب وصفًا ممتعًا للقصة يقول:

> لك أن تتخيَّل كيف كانوا يحدِّقون، أولئك الذين لم يكونوا قد رأوا القسطنطينية من قبل؛ عندما شاهدوا تلك الأسوار العالية والأبراج المحيطة بها، والقصور الرائعة والكنائس الكبيرة — كانت كثيرة ولولا أنهم كانوا يرونها بعيونهم لما صدَّقوا ذلك — وطول وعرض المدينة التي لا بد من أن تكون سيدة المدن، التي لم يَدُر بخَلَد أيٍّ منهم أنه كان يوجد مكان على الأرض بمثل هذا الثراء والقوة. لاحظ أنه لم يكن هناك أيُّ إنسان أيًّا كانت جسارته لم يشعر برجفة أمام المشهد، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرَب؛ إذ لم يوجد مثل هذا الإنجاز منذ بدء الخليقة.

في البداية لم يواجه الصليبيون مقاومةً تُذكر، وفي الخامس من يوليو رست سفنهم بالقرب من «جالاتا Galata» على الجانب الشمالي الشرقي من القرن الذهبي. ولأنها كانت مستوطنة تجارية وأغلب سكانها من التجار الأجانب لم يكن للمدينة أسوارٌ، ولم تَزِد دفاعاتها عن برج دائري واحد. كان لذلك البرج أهمية كبيرة؛ إذ كان يوجد بداخله المرفاع الضخم الذي يُستخدم لرفع وخفض السلسلة الحديدية الهائلة التي تُستخدم في الظروف الطارئة لإغلاق مدخل القرن. كانت الحامية البيزنطية قد أقامت دفاعاتٍ قوية، ولكن بعد أربع وعشرين ساعة تمكَّن البحَّارة الفينيسيون من تحرير المرفاع فسقطت السلسلة الحديدية في الماء محدِثة صوتًا أشبه بالرعد، ثم اندفع الأسطول ودمَّر السفن البيزنطية القليلة التي كانت في الميناء. كان الانتصار البحري ساحقًا.

لكن القسطنطينية لم تكن قد سقطت بعد. لم تكن الأسوار الممتدة بطول شاطئ القرن الذهبي بمثل قوة استحكامات الجانب الغربي، إلا أن الدفاع عنها كان مستميتًا. وجَّه الصليبيون هجومهم على أضعف نقطة حيث التقاء الدفاعين في أقصى الركن الشمالي الغربي من المدينة بالقرب من قصر «بلاشيرنا Blacherna» الإمبراطوري. أولُ محاولة للفرنجة للنزول إلى اليابسة تم صدها. كان الفينيسيون هم الذين حدَّدوا اليوم، وربما إنريكو شخصيًّا. قصة شجاعة يرويها جيوفري:

> … وهنا كان عملٌ جسور بدرجةٍ غير عادية؛ حيث كان يقف دوق فينيسيا، الذي كان رجلًا مسنًّا وأعمى، بكامل سلاحه في مقدمة السفينة، وأمامه راية سان مارك، كان يصرخ في رجاله لكي يدفعوا السفينة إلى الشاطئ إن كانوا حريصين على حياتهم. وهكذا فعلوا ودفعوها، ثم وثبوا وهو معهم ورشقوا الراية أمامه في الأرض. وعندما رأى الفينيسيون الآخرون راية سان مارك وسفينة الدوج ترسو على الشاطئ قبل سفينتهم، شعروا بالخجل وتبعوه إلى اليابسة.

قبل مرور وقت طويل انهارت المقاومة البيزنطية؛ تدفَّق الصليبيون من ثغرات الأسوار إلى المدينة نفسها ليضرموا النارَ في البيوت الخشبية إلى أن أصبح حي بلاشيرنا كله مشتعلًا. في ذلك المساء فرَّ ألكسيوس الثالث تاركًا زوجته وكلَّ أطفاله — عدا ابنة مفضَّلة — يواجهون المستقبلَ المجهول وما يحمله لهم. لم يكن بالإمكان أن تبقى بيزنطة طويلًا بلا إمبراطور في تلك الأزمة الأخطر في تاريخها. تم إحضار أنجيلوس Angelus من سِجنه على عجلٍ وإعادته إلى العرش. إلا أن ذلك لم يكن نهايةَ الأمر بأي حال. بفضل

خدمات أخيه كان حتى أكثر عماءً من الدوج العجوز، وكان قد أثبت أنه غير كفء، وبذلك بقيت التعهدات التي كان قد قدَّمها ابنه ألكسيوس لـ «بونيفاس وداندالو». عندما جعل إيزاك من ألكسيوس إمبراطورًا مشاركًا له، باسم ألكسيوس الرابع، آنذاك فقط اعترف به الصليبيون رسميًّا. بعد ذلك انسحبوا إلى جالاتا ينتظرون مكافأتهم الموعودة.

إلا أن هذه المكافآت لم تكن لتأتيَ قريبًا. كانت الخزانة الإمبراطورية خاوية، وبالفعل كانت سُمعة الإكليروس قد شُوهت عندما بدأ ألكسيوس يضع يده على طبق الكنيسة ويبدِّده، ثم إنهم أصبحوا أكثرَ غضبًا عندما سمِعوا بخطته لجعلهم تابعين لروما. زاد التوتر بسبب الوجود المستمر للفرنجة الذين لم تكن لديهم النيةُ للمغادرة قبل أن يفيَ الإمبراطور بتعهداته. ذات ليلة انقضَّت جماعةٌ منهم على مسجدٍ صغير في الحي الغربي خلف كنيسة سانت إيرين ونهبوه وأحرقوه تمامًا. انتشرت النار، وفي اليومين التاليين كانت القسطنطينية كلها وسط أكبر وأسوأ حريق منذ أيام جستنيان قبل سبعة قرون تقريبًا.

المثير للسخرية أنه لا اليونانيون ولا الفرنجة كانوا يريدونها. اليونانيون كانوا يريدون فقط أن يتخلصوا من أولئك السفَّاحين الهمج مرة وإلى الأبد، والفرنجة لم يكونوا قد نسُوا سببَ تركهم ديارهم، وكان رفضهم لبقائهم الاضطراري يتزايد بين مَن كانوا يعتبرونهم شعبًا عقيمًا ومهرطقًا، في الوقت الذي كان ينبغي أن يكونوا فيه في قتال مع غير المؤمنين. حتى إذا دفعت الأموال الموعودة كلها، فلن يستفيدوا منها، كلُّ ما في الأمر أنها كانت ستمكِّنهم من تسوية حساباتهم مع الفينيسيين. كان مفتاح المسألة برُمَّتها — باختصار — كان مع فينيسيا، أو إن شئنا الدقةَ كان مع إنريكو داندولو. كانت الفرصة متاحةً أمامه في أي لحظة لكي يعطي الأمر لأسطوله بالإبحار. لو أنه فعل ذلك لاستراح الصليبيون ولفرح البيزنطيون. أما لماذا لم يفعل، فلم يكن لذلك علاقة بالدِّين للفرنجة. كان ذهن داندولو مشغولًا بأشياءَ أكبر؛ إسقاط الإمبراطورية البيزنطية، ووضع شخصية فينيسية أقربَ إلى الدُّمية على عرش القسطنطينية.

وهكذا أخذت نصيحة داندولو لحلفائه الفرنجة لهجةً مختلفة. لا شيء أكثر من ذلك، كما ألمح لهم، كان يمكن توقُّعه من الإمبراطورين المشاركين اللذين لم يكن فيهما أيُّ أمل. أما إذا كان الصليبيون يريدون الحصول على مستحقاتهم فلا بد من الاستيلاء على القسطنطينية بالقوة. بمجرد وجودهم داخل المدينة وأحد قادتهم على العرش، كانوا يستطيعون أن يدفعوا لفينيسيا الدَّين، وربما دون صعوبة، وسوف يتبقى لديهم

ما هو أكثر من ذلك لتمويل الحملة. كانت تلك فرصتهم، وكان لا بد من انتهازها؛ إذ ربما لا تتكرَّر. كان ذلك جدلًا خلافيًّا زادت حدَّته عندما أزيح ألكسيوس الرابع في الخامس والعشرين من يناير ١٢٠٤م وقُتل بعدها بقليل، ثم تبِعه أبوه الطاعن في السن بسرعة مريبة. قاتِله، كان نبيلًا يُدعى «ألكسيوس دوكاس Alexius Ducas» (المكنَّى بـ «ميرزوفلوس Murzuphlus» بسبب حاجبيه اللذين كانا أسودين مشوشين موصولين في المنتصف) تم تتويجه في كنيسة سانت صوفيا باسم «ألكسيوس الخامس Alexius V»، وعلى الفور بدأت تظهر عليه علامات القيادة التي كان الإمبراطور يفتقدها منذ فترة طويلة. كانت كتائب من العمال تعمل ليلَ نهار في تقوية الدفاعات وزيادة ارتفاعها. أيُّ محاولة كبيرة للاعتداء على المدينة — إن كان لا بد من أن يحدث ذلك — كان لا بد من أن تتم فورًا؛ فالإمبراطور الجديد لم يغتصب العرش فحسب، بل إنه كشف عن أنه كان قاتلًا، وكان الصليبيون أقوى معنويًّا مما لو أنهم كانوا قد تحركوا ضد سلفه الذي كان — على الأقل — شرعيًّا، إلى جانب أنه كان حليفهم السابق.

بدأ الهجوم صباح يوم الجمعة ٩ أبريل ١٢٠٤م. قاد ميرزوفلوس مقاومةً مستميتة، ولكن بلا طائل. فرَّ بدوره. وفي اليوم الثاني عشر من الشهر اقتحم الفرنجة والفينيسيون الأسوارَ ودخلوا المدينة. كانت مذبحة رهيبة. حتى فيلهاردون أصابه الرعب. لم يَضِع انتظارُ الجيش الطويل أمام أغنى عاصمة في العالم سدًى، وبمجرد أن سمح لهم بالأيام الثلاثة لجمع الغنائم انقضُّوا عليها كالجراد. لم تشهد أوروبا منذ غزوات البرابرة أعمالَ تخريب ووحشية كتلك. لم يحدُث في التاريخ أن تم تدمير هذا الكم من الجمال والإبداع الفني في مثل ذلك الوقت القصير. كتب «نيكيتاس كونياتس Nicetas Choniates» وهو شاهد عِيان يوناني يقول:

> حطَّموا الصورَ المقدَّسة وألقَوا برفات الشهداء في أماكنَ أخجل من ذكرها. بعثروا جسد ودم المخلِّص في كل مكان ... أما عن تدنيسهم الكنيسةَ الكبيرة فلا يمكن ذِكر ذلك دون الشعور بالرعب. دمَّروا المذبح العالي، وكان عملًا فنيًّا بهرَ العالم ووزَّعوا قِطَعه بينهم، أدخلوا الخيلَ والبغال الكنيسةَ ليحملوا عليها الأواني المقدَّسة وصفائح الذهب والفضة التي خلعوها من العرش والمنبر، والأبواب والأثاث وكل ما وجدوه، وعندما كانت بعض هذه الحيوانات تعثر وتقع كانوا يطعنونها بسيوفهم لتنهضَ ملوِّثةً الكنيسة بروثها ودمها. وضعوا بغيًّا متوَّجة على كرسي البطريرك لتوجيه الإهانات ليسوع المسيح، كانت تتغنى

> بكلمات قبيحة وترقص بفجور وخلاعة في الحرم المقدَّس ... لم تكن هناك رحمة حتى بالعذارى المنذورات للرب ... في الشوارع والبيوت والكنائس لم تكن تسمع سوى أصوات البكاء والنحيب.

هؤلاء الرجال، كما يضيف، كانوا يحملون الصليب على أكتافهم، الصليب الذي أقسموا عليه أن ينقلوه عبر الأراضي المسيحية دون سفك للدماء، وأن يحملوا السلاح ضد الوثنيين فقط، وأن يمتنعوا عن كل مُتَع الجسد إلى أن يكملوا مهمَّتهم المقدَّسة.

بعد ثلاثة أيام من الرعب عاد الهدوء وهيأ الصليبيون أنفسهم لمهمتهم التالية؛ انتخاب إمبراطور جديد. كان يمكن أن يكون بونيفاس المونتفراتي المرشَّح المحتَمل أو الواضح، إلا أن ارتباطه بـ «ألكسيوس الرابع» المخلوع لم يكن بعيدًا، وكان يجد نفسه الآن سيئ السُّمعة بدرجةٍ ما. بالإضافة إلى ذلك فقد كانت له صلاتٌ سرية بحكَّام جنوة، وكان داندولو يعرف ذلك. لم يكن الدوج العجوز يجد صعوبةً في توجيه اللجنة الانتخابية — كان نصف عددها من الفينيسيين — نحو الكونت بلدوين أميرِ الفلاندرز وهاينولت الذي تم تتويجه في حينه في كنيسة سانت صوفيا. ولكن المناطق التي كان عليه أن يحكمها الآن كان لا بد من تقليصها إلى حدٍّ كبير. وبالفعل، كان الفينيسيون والفرنجة قد اتفقوا على أنه ينبغي أن يحتفظ فقط بربع المدينة والإمبراطورية، أما الثلاثة أرباع الأخرى فيتم تقسيمها بالتساوي بين فينيسيا والفرسان الصليبيين. ومن ثَم استولى داندولو للجمهورية على المناطق المحيطة بسانت صوفيا كلها حتى القرن الذهبي، وللباقين أخذ كل تلك المناطق التي كانت تَعِد بتقوية سيادة فينيسيا على المتوسط وتعطيها سلسلةً كاملة من المستوطنات والموانئ التجارية، من البحيرة الضحلة إلى البحر الأسود. كانت تضم «راجوسا Raguse» (دوبروفنك Dubrovnik الحالية)، و«دورازو Durazzo» (ديورس Dürres الحالية)، الساحل الغربي من البر الرئيسي اليوناني والجزر الأيونية Ionian Islands، وكل جزر «البيلوبونيز Peloponnese»، وجزر «ناكسوس Naxos»، و«أندروز Andros»، ومدينتي «إيوبيا Euboea»، والموانئ الرئيسية على «هيلزبونت Hellespont»، ومرمرة: «جاليبولي Gallipoli»، و«رايدستوم Rhaedstom»، و«هرقلية Heraclea»، وساحل تراسي، ومدينة «أدريانوبل Adrianople»، وأخيرًا — بعد تفاوضٍ قصير مع بونيفاس — جزيرة كريت ذات الأهمية الكبيرة. مقابل كل ذلك، أصبح الدوج في حِلٍّ من تبعية الإمبراطور. ستكون الموانئ والجزر خاصة بـ «فينيسيا» تمامًا، أما بالنسبة للبر الرئيسي في اليونان، أوضح داندولو أن فينيسيا كجمهورية تجارية لم يكن لها أي مصلحة في احتلالِ ما هو أكثر من الموانئ الرئيسية.

هكذا يتضح بما لا يترك مجالًا للشك أن الفينيسيين كانوا المستفيدين الحقيقيين من الحملة الرابعة، وأن نجاحهم كان يعود — كلية — إلى إنريكو داندولو. برفضه التاجَ البيزنطي لنفسه، ضمن نجاح مرشحه؛ إذ إنه لو كان قد قبِله لسبَّبَ مشكلاتٍ دستوريةً عصيةً على الحل في فينيسيا، ولربما كان قد أدَّى ذلك إلى سقوط الجمهورية. وفي النهاية، بينما كان يتم تشجيع الفرنجة على إخضاع الإمبراطورية للنظام الإقطاعي، وهي الخطوة التي كان يعرف يقينًا أنها ستؤدي إلى تفككها وتشظيها، ويمكن أن تمنعها من أن تكون قوية لتواجه توسُّع فينيسيا، احتفظ ﺑ «فينيسيا» خارجَ الإطار الإقطاعي لتكون المناطق التابعة لها بموجب حق الغزو، وليست منطقة نفوذ إمبراطوري. بالنسبة لشخصٍ أعمى كان يقترب من التسعين، كان ذلك إنجازًا هائلًا.

إنريكو داندولو، الذي كان قد لقَّب نفسه الآن ﺑ «لورد ربع ونصف ربع الإمبراطورية الرومانية»، كان يستحق مدينته، ولكن في الإطار الأوسع للأحداث العالمية ... كان كارثة. الحملة الرابعة، إن كان لنا أن نصِفها هكذا، لأنها لم تدخل الأراضي العربية قط، فاقت الحملات السابقة في الخيانة والرياء، وفي الوحشية والجشع. كانت القسطنطينية في القرن الثاني عشر، أهمَّ عاصمة كبرى ثقافيًّا وفنيًّا وفكريًّا، كانت مستودع التراث الكلاسيكي الأوروبي، سواء الإغريقي أو الروماني. بنهبها، خسرت الحضارة الغربية أكثرَ بكثير مما خسرته من جراء نهب روما في القرن الخامس، ولعلها أكبر خسارة في التاريخ كله.

سياسيًّا كذلك، كان الضرر الذي وقع هائلًا. رغم أن حكم الفرنجة للبوسفور دام أقلَّ من ستين عامًا، فإن الإمبراطورية البيزنطية لم تَستعِد قوَّتها ولا أي جزء مهم من ممتلكاتها. تُركت منهارة اقتصاديًّا، أراضيها ممزَّقة مقطَّعة الأوصال، ضعيفة لا حول لها ولا قوة في مواجهة المد العثماني. هناك في التاريخ مفارقاتٌ أقلُّ سخرية من حقيقة أن مصير أوروبا كان لا بد من أن يقرِّره رجالٌ كانوا يحاربون تحت راية الصليب (نصف أوروبا المسيحية خضع لخمسة قرون تحت الحكم العثماني). أولئك الرجال، كان الذي نقلهم وألهمهم وشجَّعهم ثم قادهم في النهاية هو إنريكو داندولو باسم الجمهورية الفينيسية، وحيث إن فينيسيا هي التي خرجت بالمزايا الرئيسية من المأساة، فلا بد من أن تتحمَّل هي ودوجها العجوز الرائع، المسئوليةَ الرئيسية عن ذلك الخراب الكبير الذي جرُّوه على العالم.

هوامش

(١) ترك الطولونيون خلفهم في القاهرة جامع ابن طولون (القرن التاسع)، ولعله من أجمل جوامعها.

(٢) ولاية أو مديرية. (المترجِم)

(٣) استمرت هذه الدولة لمدة ١٧٦ سنة (حتى ١٣٧٥م) عندما طرد الأتراك والمماليك «ليو السادس Leo VI»، آخِر ملوك الأرمن الذي انتهت حياته في المنفى في باريس.

(٤) الآن، بالإمكان أن نتكلمَ عن فرنسا ككيان سياسي. أدَّى انهيار وسقوط إمبراطورية شارلمان إلى تكوين عددٍ من الولايات الصغيرة، كانت أحداها متمركزةً حول محور باريس–أورليانز، وكانت تُعرف بالجزيرة الفرنسية. هنا نشأت أسرة الملوك الكابيتيان (Capetian Dynasty) نسبةً إلى أولِ مَن جلس منهم على العرش في ٩٨٧م وهو «هيوكابيت Hugues Capet». كانت تلك نواةَ فرنسا التي نعرفها اليوم، رغم أنه كان لا بد من أن تمرَّ ثلاثمائة سنة أخرى قبل أن تغطي تقريبًا نفس المساحة من الأراضي.

(٥) في المصادر العربية هو «بطرس الناسك» الذي تقول حكاية شعبية عنه إنه كان يقترح بالفعل القيامَ بعملٍ أشبه بالحملة الصليبية قبل الدعوة إليها في كليرمون. (المترجِم)

(٦) أسرة تركمانية كان مؤسِّسها الأمير «دانشمند Danishmend» قد ظهر في آسيا الصغرى قبل نحو خمسة عشر عامًا، وحكم في كابادوكيا والمناطق المحيطة ﺑ «سيباستيا Sebasteia» (سيفاس Sivas الآن) و«ميليتين Melitene». على مدار القرن التالي سيلعب الدانشمنديون دورًا بارزًا في تاريخ المنطقة، إلا أنهم سيختفون فجأةً، كما ظهروا، في ١١٧٨م بعد استيلاء السلاجقة على ميليتين.

(٧) County — إقليم خاضع لسلطة «كونت». (المترجِم)

(٨) «أتابك» لفظٌ تركي يعني حرفيًّا «والد الأمير»، كان الموت يصيب بكثرة أفرادَ الأسرة الحاكمة في الإمبراطورية السلجوقية بسبب الحروب وأعمال القتل والإعدام، وغالبًا ما كانوا يتركون ورثةً قاصرين. للحفاظ على مصالح أولئك الورثة، كان يعيِّن الواحد منهم وصيًّا، يتزوج بشكلٍ عام والدةَ المُوصى عليه لتأدية دور الأب المتبني على أكمل وجه. كان الأتابك يصبح صاحب السلطان الحقيقي وغالبًا ما كان يورِّث المنصب لأبنائه. (المترجِم)

(٩) فرسان سان جون أو فرسان الإسبتارية. تأسَّس نظام فرسان سان جون في ١٠٧٠م، أي قبل الحرب الصليبية الأولى، وذلك لتنظيم مساعدة الحجاج المسيحيين عند

زيارة الأراضي المقدَّسة (المترجِم بتصرف: عن كتاب «مفاتيح أورشليم القدس»، تأليف: ريمون ستامبولي، ترجمة: عايدة الباجوري، الطبعة الثانية، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩م). كما نقرأ في كتاب «تاريخ الحروب الصليبية» (الجزء الثاني، تحرير: جي. آر. سميث، ترجمة: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩م) نقرأ: «... كان مستشفى سان جون، الذي أقيم بالقدس قبل الحملة الصليبية الأولى لرعاية الفقراء والمرضى يضطلع بمسئوليات عسكرية بحلول ثلاثينيات القرن الثاني عشر.» وهو نظام رهبنة عسكرية عُرف باسم الإسبتارية. أما في «سيرة صلاح الدين: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية» لبهاء الدين بن شداد (تحقيق: د. جمال الدين الشيال، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، ٢٠٠٢م)، فيضيف المحقِّق هامشًا يقول: «الإسبتار» هي التسمية العربية لطائفة الفرسان الهسبتاليين، وهو تحريف واضح للفظة الإنجليزية والفرنسية Hospitallers، وكان يُطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين، وقد أسَّس هذه الطائفة Blessed Gerard في سنة ١٠٩٩م بعد استيلاء الصليبيين على أورشليم، وكانت الدار التي يسكنها أولئك الرهبان (Hospice) موجودةً قبل ذلك في أورشليم، وتُتَّخذ مأوًى للحجاج والمرضى المسيحيين. (المترجِم)

(١٠) فرسان الهيكل (فرسان المعبد): في عام ١١١٥م، قام هيو دي باين، فارس بورجينيون، وجودفري دي سان أدهيمار، وهو فارس فلمنكي، بتجنيد سبعة فرسان لحراسة الحجاج الراغبين في الذهاب من أورشليم وجنين لزيارة الأماكن التقليدية التي تم فيها تعميد المسيح في الأردن، وفي عام ١١١٨م، قامت هذه المجموعة الصغيرة من المتطوعين بنذرِ أنفسهم لحماية الحجاج. كان الفارسان المؤسِّسان يملكان جوادًا واحدًا يمتطيانه بالتناوب وأقسما أنهما لن يرتديا سوى الملابس التي ستُمنح لهما ولن يمتلكا سوى أسلحتهما الشخصية؛ وتكوَّنت بذلك جماعة «فرسان المسيح الفقراء» التي أصبحت فيما بعدُ «فرسان المعبد» (المترجِم بتصرف عن: «مفاتيح أورشليم القدس»، مصدر سابق، الهامش ٩). ويورِد الدكتور قاسم عبده قاسم في الجزء الثاني من تاريخ الحروب الصليبية – ج٢ (مصدر سابق، الهامش ٩) أن تنظيم فرسان الهيكل (أو فرسان المعبد أو الداوية) كان أولَ نُظُم الرهبنة العسكرية، وأنه تأسَّس في القدس في ١١٢٠م تقريبًا، وأنه أخذ اسمه من المبنى الذي أطلق عليه الصليبيون معبد أو هيكل سليمان؛ حيث تأسَّس مقرُ قيادة «الداوية». (المترجِم)

(١١) كان الأمير بوهيمند الثاني أمير أنطاكية قد قُتل في ١١٣٠م، تاركًا معتمديته لابنته «كونستانس Constance»، التي كانت في عامها الثاني. تزوَّجت كونستانس في

سن الثامنة من ريمون أمير بواتييه Poitiers الابن الأصغر للدوق وليم التاسع، دوق أكيتان Aquitaine.

(١٢) كان هو الإمبراطور الروماني المقدَّس بالفعل، ولكنه لم يكن يستطيع أن يطالب باللقب؛ حيث لم يكن قد تم تتويجه في روما.

(١٣) كان زواج إليانور ولويس السابع قد أُبطل قانونًا في ١١٥٢م، وبعد شهرين فقط تزوَّجت من «هنري بلانتاجينيه Henry Plantagenet» كونت أنجو ودوق نورمانديا، الذي سيصبح هنري الثامن فيما بعد. كانت العلاقة بينهما عاصفة — لم يطلق سراحها من السجن إلا بعد وفاة زوجها — ومع ذلك أنجبت له خمسة أولاد وثلاث بنات. كان ريتشارد ابنها الثالث.

(١٤) القلعة التي يوجد بها الآن متحف العصور الوسطى، كان قد بناها فرسان الهيكل Templars في القرن الثالث عشر؛ على أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن المذبح الموجود الآن في الكنيسة الشرقية الحالية، ربما يكون هو الذي استُخدم في هذه الاحتفالية المزدوجة.

(١٥) انظر الفصل العاشر: نهاية الشرق اللاتيني.

(١٦) سكان منطقة آلبي Albi جنوبي فرنسا. (المترجِم)

(١٧) الكاثاريون هم أتباع نِحلة الكاثارية Catharism تفهم المسيحية من وجهةِ نظر مانوية. (المترجِم)

(١٨) نسبة إلى ماني Mani الفارسي (٢١٦–٢٧٤م) الذي كان يدعو إلى الإيمان بعقيدة ثنوية قوامها الصراع بين الخير والشر، والنور والظلام، وأصبح مذهبه يُعرف بـ «الثنوية» أو «المانوية Manichaeanism». (المترجِم)

(١٩) نسبة إلى الرهبنة السيسترسية التي نشأت على أساس الرهبنة البندكتية كما عدَّلها «روبرت دو موليسم Robert de Molesme» في «سيتو Citeaux» – فرنسا في سنة ١٠٩٨م. ويُعرف المذهب أو النِّحلة بـ «السيسترسيانية Cistercianism». (المترجِم)

(٢٠) سفينة شراعية كبيرة ذات مجاذيف. (المترجِم)

(٢١) وحدة وزن. (المترجِم)

الفصل الثامن

الشتاتان

- معاهدة نيمفايوم: ١٢١٤م.
- اليونان الفرنجية: ١٢٠٥م.
- مكاسب فينيسية: ١٢٠٥م.
- مايكل بلايولوجوس: ١٢٦٠م.
- عودة اليونانيين: ١٢٦١م.

* * *

لم تكن الحملة الرابعة على وشْك تدمير القسطنطينية فحسب، بل إنها هزَّت كذلك كلَّ شرق المتوسط بقوة. هذا الجيَشان القوي كان له تأثير كبير على كلٍّ من اليونانيين واللاتين. كل نبلاء البيزنطيين فرُّوا من المدينة — أو تركوها مكرهين — بدلًا من أن يرضخوا لحكم الفرنجة واتجهوا صوب الممالك التي كانت الروح البيزنطية والإيمان الأرثوذوكسي موجودة بها. إحدى هذه الدول، أو ما يسمَّى ب «إمبراطورية التريبيزوند Empire of Trebizond» — وهي لا تهمنا كثيرًا هنا — كانت عبارة عن شريط ضيق على ساحل البحر الأسود. الثانية كان اسمها «إمبراطورية إيبيروس Despotate of Epirus» التي تأسَّست بسرعة بعد الغزو اللاتيني بواسطة شخصٍ كان يُدعى «مايكل كومنينوس دوكاس Michael Comnenus Ducas»، كان حفيدًا غيرَ شرعي لألكسيوس الأول كومنينوس. من عاصمته في «آرتا Arta»، بسط مايكل سيطرتَه بالتدريج على الساحل الشمالي الغربي من اليونان، وعلى جزء من «تيسالي Thessaly». أما الدولة الأخيرة التي تم تأسيسها — وهي الأكثر أهميةً من وجهة نظرنا — فكانت إمبراطورية «نيقية Nicaea»، التي تم الاعتراف ب «تيودور لاسكاريس Theodore Lascaris»، صهرِ

ألكسيوس الثالث، إمبراطورًا عليها في ١٢٠٦م وتتويجه هناك بعد عامين. كانت تشغل معظم الجزء الشمالي الغربي من الأناضول، الممتد من البحر الأسود إلى بحر إيجه. ناحية الشمال، كانت تقع إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية، وناحية الجنوب والشرق كانت «سلطنة السلاجقة The Seljuk Sultanate»، وبالرغم من أن نيقية (إزنك Iznik) كانت هي العاصمة الرسمية، فإن «جون الثالث John III» خليفةَ تيودور جعل إقامته الرئيسية في «نيمفايوم Nymphaeum» (الآن كمال باشا على بُعد أميال قليلة من أزمير)، وعلى مدار معظم سنوات نفيه من القسطنطينية التي استمرت سبعة وخمسين عامًا، كانت إمبراطورية نيقية تحكم من هنا بالفعل كدولة بحر متوسطية.

حتى ذلك كان يمكن أن يكون مجرَّد هامش في قصتنا، لولا القيصر «البلغاري كالوجان Tsar Kalojan»، الذي كان يونانيو تراقيا قد وعدوه بالتاج الإمبراطوري إذا طرد اللاتين من القسطنطينية. في الرابع عشر من أبريل ١٢٠٥م، كان كالوجان قد دمَّر جيش الفرنجة بالفعل. فشل في الاستيلاء على المدينة لكنه نجح في أسرِ الإمبراطور بلدوين نفسه، الذي لم يستعِد حريته قط إلى أن مات بعد ذلك. بعد ستة أسابيع فقط، تبِعه إلى العالم الآخر في الأول من يونيو، الدوج العجوز داندولو، الذي كان قد حارب إلى جواره رغم سنوات عمره التسعين. الغريب أنه لم يتم إعادة جثمانه إلى فينيسيا، وإنما دُفن في كنيسة سان صوفيا. لم ينجُ التابوت الحجري من الغزو التركي بعد ذلك، إلا أنه يمكن رؤية شاهد قبره هناك في مكانه على أرض الرواق فوق الممر الجنوبي.

هكذا، بعد عام واحد من الاستيلاء على العاصمة، انكسرت شوكة اللاتين. بقُوا في القسطنطينية؛ وفي كل آسيا الصغرى، كانت المدينة الصغيرة «بيجايا Pegae» (الآن كارابيجا Karabiga) على الشاطئ الجنوبي لبحر مرمرة، هي التي بقيت في أيدي الفرنجة. وأخيرًا كان بإمكان تيودور لاسكاريس أن يركِّز جهدَه على بناء دولته الجديدة — متبعًا النموذج البيزنطي بكل تفاصيله؛ حيث لم يكن يشكُّ مطلقًا في عودة أبناء وطنه عاجلًا أو آجلًا إلى المكان الذي كانوا ينتمون إليه. بفضله، كان أن أصبح هناك الآن إمبراطوران في الشرق وبطريركان؛ اللاتيني في القسطنطينية واليوناني في نيقية. كان من الواضح أن فكرةَ العيش معًا في سلام لم تكن واردة، كلا الطرفين كان يريد أن يدمِّر الآخر. ولكنَّ كليهما كذلك لم يكن قويًّا بما يكفي ليحقق ذلك دون مساعدة طرف ثالث. وهكذا كان أن أدخل «هنري الهاينولتي Henry Hainault»، خليفةُ بلدوين، عنصرًا جديدًا في المعادلة غير مرغوب فيه؛ «كايكوسرو Kaikosru» السلوقي سلطان «قونية Konya».

في تاريخ الحملات الصليبية الطويل المؤسف، كثيرًا ما كان المسيحي يحارب المسيحي. تجنيدُ حليفٍ مسلم ضد عدوٍّ مسيحي كان أمرًا جديدًا تمامًا. كان الأتراك السلاجقة في ذلك الوقت يسيطرون على مئات عديدة من الأميال من ساحل البحر الأبيض المتوسط؛ إذ كانوا قد مرُّوا بطريق طويل منذ بداياتهم في آسيا الوسطى. في القرن الحادي عشر كانوا قد انتشروا بسرعة عبْر فارس وأرمينيا ووادي الرافدين — حيث أصبحوا سادةً على بغداد يحكمون باسم الخلفاء العباسيين، وكانوا قد تعلَّموا الكثيرَ من غزواتهم. بعد أن غزَوا الأناضول وانتصروا على البيزنطيين في «مانزيكرت Manzikert»[١] في ١٠٧١م، أسَّسوا عاصمتهم في قونية (أيقونيوم Iconium)، وفي أوج قوَّتهم في القرن الثاني عشر كانوا قد بنَوا دولة متميزة، سلطنة الروم، كما كانوا يدعونها بكل فخر ... أفلم تكن جزءًا من الإمبراطورية الرومانية؟ كانت تضم عندما اتسعت كلَّ آسيا الصغرى (نحو ٢٥٠٠٠٠ ميل مربع) وخليطًا من السكان الترك واليونانيين والأرمن. لم يستمر السلاجقة طويلًا — دمَّر «المغول Mongols» قوَّتهم قرابة آخر القرن — ولكنهم خلفوا تراثًا معماريًّا غير عاديٍّ ما زال الكثير منه موجودًا إلى الآن: مساجد رائعة على أجنابها مآذن مزدوجة مزيَّنة بحفر دقيق ونقوش كاليجرافية، وجسور بالغة الروعة، وحصون، وحوض لبناء السفن في عاصمتهم الصيفية «ألانيا Alanya»، واستراحات رائعة على طول طريق القوافل، كل واحدة على مسافة عشرين ميلًا من الأخرى، يوجد بكلٍّ منها مسجد ونُزل وإسطبل للخيول والجمال وإسكاف مقيم لإصلاح الأحذية بلا مقابل.

قد يكون مثيرًا للاهتمام أن نتصوَّر ما كان يمكن أن يحدُث لو أن الإمبراطور في القسطنطينية والسلطان في أيقونيوم كانا قد دعَّما تحالفهما بانتصار كبير، إلا أنهما فشلا في أن يفعلا ذلك. كانت لهما معاركُ عديدة ضارية لم تكن حاسمة باستثناء واحدة منها. في تلك المعركة التي وقعت في ربيع ١٢١٠م بالقرب من أنطاكية على نهر الميندر، سقط كايكوسرو من على حصانه مقتولًا، حدث ذلك بواسطة الإمبراطور نفسه — إن كان لنا أن نصدِّق المصادرَ اليونانية — وذلك في قتال فردي بينهما. خضع خليفته على الفور للشروط تاركًا تيودور حرًّا ليركِّز قوَّته ضد الفرنجة، وأخيرًا تم حسم الموقف في أواخر ١٢١٤م، عندما وقَّع الإمبراطوران معاهدةَ سلام في نيمفايوم. هنري، بموجب الاتفاق، سيحتفظ بالساحل الشمالي الغربي لآسيا الصغرى، والباقي كله حتى الحدود السلجوقية سيذهب لـ «تيودور». هذه المعاهدة ستكون بداية ازدهار نيقية. أخيرًا ستحصل الإمبراطورية الصغيرة على اعتراف رسمي من خَصمها اللاتيني بحقِّها في الوجود.

كتب «إدوارد جيبون Edward Gibbon» يقول: «لن أتتبَّع الأسرَ الغامضة المختلفة التي صعدت وسقطت في القارة أو الجزر.» كمؤرِّخ للإمبراطورية الرومانية، ليس هناك سببٌ بذاته كان يجبره على أن يفعل ذلك، ولكن بالنسبة لمؤرخي البحر الأبيض، لا يمكن إهمال هذه المهام بمثل تلك السهولة. لا أحد ممن يتنقلون عبر ووسط اليونان والبيلوبونيز لا تدهشه كميةُ قلاع العصور الوسطى التي تتوِّج — كما يبدو أحيانًا — كلَّ قمة أو مرتفع من تلك الأراضي الجبلية الرائعة. المؤكد، أنه لا بد من بعض التفصيل لمن يشوقهم معرفة المزيد، وبالرغم من ذلك فإن الكتب التي تروي قصةَ هذه القلاع ما زالت قليلة إلى اليوم.

يرجع ذلك — إلى حدٍّ كبير — إلى أن ذلك التاريخ شديد التعقيد. الحقيقة البسيطة، وهي أن الشتات اليوناني الذي تلا الحملة الصليبية الرابعة كان يعادله توسُّع إقليمي أكثر دراميةً من جانب اللاتين. البارونات الفرنجة الذين أبحروا ليكونوا مع الحملة — مع كثيرين آخرين ممن لم يبحروا ولكنهم سمِعوا عن الغنائم وكانوا مصرين على ألا تفوتهم الفرصة — كانوا يجولون في أرجاء اليونان يستولون على كلِّ ما يمكنهم الاستيلاء عليه من أراضٍ، ويصنعون لأنفسهم إقطاعياتٍ على نمط تلك التي كانوا يعرفونها في الغرب، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك في بلادٍ لم يكن النظام الإقطاعي معروفًا فيها كما يفهمونه. في البلاد الغربية، كان ذلك النظام يقوم على هرمٍ من الثروة والقوة، وعلى رأسه الملك. في الشرق، كانت إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية أضعفَ من أن تمارس أيَّ سيطرة حقيقية، ومن هنا تظهر صورة العديد من المدن–الدول المستقلة، وفي غالب الأحيان تكون متحاربة، تتآمر وتحتال باستمرار لتثبيت أوضاعها. في بحر إيجه؛ حيث كان نفوذ فينيسيا هو السائد، كان عدد الجزر يزيد الأمر تعقيدًا؛ ولذا لم يكن مستغربًا أن يحوِّل كثير ممن كانوا يريدون القيام بالتأريخ للمكان وللفترة اهتمامَهم إلى أمورٍ أخرى.

تبدأ قصةُ هذا الشتات اللاتيني مع الماركيز بونيفاس المونتيفراتي. عندما كان غاضبًا بشدة بسبب تخطيه كأمير، زاد غضبه عندما عرض عليه بلدوين إقطاعيةً كبيرة في الأناضول؛ وبدلًا من ذلك أشار إلى أن أخاه بزواجه من ابنة مانويل الأول كومنينوس قبل ربع قرن، حصل على لقب ملك «تيسالونيكا Thessalonica»؛ ولذا قدَّم مطالبةً رسمية بتلك المدينة. الآن كان دور بلدوين قد جاء لكي يعترض، ولكن تم تجنُّب هذه الحرب المكشوفة بفضل وساطة الدوج واندولو وعدد من قادة الفرنجة وبخاصة النبيل البوجندي «أوتو دي لاروش Otho de la Roche». في آخر الأمر، كان الإمبراطور مضطرًّا للموافقة على مضض، على أساس أن يعترف بونيفاس بمملكته الاسمية ويحتفظ بها كإقطاعة إمبراطورية.

كانت مهمة الماركيز التالية هي غزو مملكته الجديدة، وبهذا الهدف نُصْب عينيه، انطلق في خريف ١٢٠٤م في حملةٍ طويلة جدًّا عبر شمال ووسط اليونان. خرج معه في الحملة مجموعةٌ من البشر متعددي المشارب: فرنسيون وألمان وفلمنك ولومبارد، كلٌّ منهم كان مصرًّا على أن يحصل على إقطاعة لنفسه. كان من بينهم — إن كان لنا أن نذكر أربعة منهم فحسب — الفرنسي «وليم الشامبليتي William of Champlitte» حفيدُ كونت شمبانيا، وأوتو دي لاروش البورجندي، و«جاك دافسنس Jacques d'Avesnes» الفلمنكي، والماركيز الإيطالي الشاب «جيدو باللافيسيني Guido Pallavicini». تحرَّكوا جنوبًا عبر تيسالي مرورًا بـ «تيرموبايلاي Thermopylae»؛ حيث كان «ليونيداس Leonidas» الإسبرطي قد وقف وقفته البطولية قبل نحو سبعة عشر قرنًا. لم يعترضهم أحد، ولكن بونيفاس الذي كان مدركًا لأهمية المكان الاستراتيجية، قام هناك وآنذاك بتقليد باللافيسيني منصبَ ماركيز «بودونيتزا Boudonitza» لكي يغطي مشارفها الجنوبية. هذه، مع بارونية «سالونا Salona» المجاورة، ما كانتا لتبقيا مائتي سنة أخرى وتلعبا دورًا مهمًّا في تاريخ اليونان الفرنجية.[٢]

استسلمت «بويتيا Boetia» دون مقاومة وكذلك «أتيكا Attica» — بما في ذلك أثينا نفسها — حيث عيَّن بونيفاس على الفور حاميةً على الأكروبولوس. في ذلك الوقت كان البارثينون يقوم مقام الكاتدرائية في المدينة، ولكن الجنود الفرنجة — لا بد من القول — لم يكونوا يكنُّون للمبنى احترامًا كبيرًا. تكرَّرت القصة نفسها، وإنْ على نطاقٍ أقلَّ كما حدث في سانت صوفيا: الخزانة نُهبت، الأواني الذهبية والفضية سُلبت، المكتبة بُددت ودُمرت. تم منح الإقليمين معًا لـ «أوتو دي لاروش»، ربما كمكافأة له عن توسُّطه أثناء نزاع بونيفاس مع الإمبراطور بلدوين. في البداية، لقَّب أوتو نفسه بتواضع نسبي بـ «أب أثينا Sire d'Athènes»، وهو اللقب الذي عظَّمه رعاياه ليصبح «العاهل العظيم» megas kyr، وحتى سنة ١٢٦٠م، أي بعد موته بفترة، لم تكن أثينا قد أصبحت دوقيةً بشكل رسمي.

في الوقت نفسه كان المغامر الفلمنكي جاك دافسنس قد ترك قوةَ الجيش الرئيسية واتجه شرقًا حيث تسلَّم جزيرة «إيوبيا Euboea» بعد استسلامها (كانت هذه الجزيرة قد خُصصت لفينيسيا أثناء الانقسام، ولكنَّ الفينيسيين لم يكن عندهم وقت لها). بقي هناك فترةً طويلة لكي يبنيَ قلعة صغيرة في وسط «إيوريبوس Euripos»، تلك القناة الملغزة[٣] التي تفصل الجزيرة عن برِّ اليونان الرئيسي، ويترك فيها حامية صغيرة. بعد

ذلك، في تلهُّفه على المشاركة في غزو البيلوبونيز القادم — وبالطبع في الفوائد التي كانت ستتحقَّق من جراء ذلك — أسرع عائدًا إلى بونيفاس. كان الماركيز قد ذهب ليحاصر «نوبليا Nauplia»؛ ولذا قام جاك مع أوتو دي لاروش الذي لحِق به في الطريق، بهجوم مشترك على كورنتة. بصعوبةٍ ما، تمكَّنا من الاستيلاء على المدينة الأدنى، أما قلعة أنطاكية المرتفعة فكانت منيعة، وظل الحصار مستمرًّا عليها إلى أن تمكَّن المدافعون عنها ذات ليلة من القيام بهجومٍ مفاجئ، ليحدثوا ضررًا بالغًا بالمعسكر الفرنجي، أصيب فيه دافسنس نفسه بجراح خطيرة.

إلا أن حتْف البيلوبونيز كان مؤكدًا، ولن يكون ذلك على يد بونيفاس — الذي كان مضطرًّا على أية حال للعودة إلى تيسالونيكا لمواجهة جيش البلغار بقيادة القيصر «كالوجان Tsar Kalojan» — وليس جاك دافسنس ولا حتى أوتو دي لاروش. سيكون غزو جزر البيلوبونيز على يد جيوفري دي فيلهاردون، ابن أخ وسمي مؤرِّخ أحداث الحملة الصليبية الرابعة. قبل نحو عام أو عامين، كان ذلك الشاب نفسه قد قام برحلة حجٍّ إلى فلسطين، وعندما سمع وهو في سوريا باستيلاء الفرنجة على القسطنطينية، عاد من فوره لكي ينضم إليهم. بعد مغادرته بوقت قصير، انحرفت سفينته بقوةٍ عن مسارها بسبب عاصفة رعدية من عواصف المتوسط، واضطرت إلى اللجوء إلى ميناء «مودون Modone» جنوبي البيلوبونيز، وكان ما زال هناك عندما سمِع بحصار بونيفاس لـ «نوبليا». بعد أقل من أسبوع، كان في حضرة الأخير. أخبر الماركيز أن موريا[٤] ربما تكون فينيسية من الناحية الفعلية، إلا أنها كانت ثمرة ناضجة حان قطافها، ولو أنه أُعطي مئاتٍ قليلة من الجنود على أكثرِ تقدير، يمكن أن تصبح كل الأراضي لهم. لم ترُق الفكرة تمامًا لـ «بونيفاس» الذي فضَّل التمسك بخطته للحملة، إلا أن جيوفري وجد في المعسكر حليفًا جديدًا، في شخص صديقه القديم وليم الشامبليتي. وافق وليم على أن ينضم إليه بشرط أن يعترف به جيوفري العاهل المخلص له في أي غزوة يقومان بها. وباعتباره حفيدًا لكونت شمبانيا، لم يكن بالإمكان أن يفعل غير ذلك، ولم يعترض جيوفري. بارك بونيفاس الحملة، وبرفقة مائة فارس ونحو خمسمائة جندي مدجَّجين بالسلاح ... انطلق الصديقان نحو المجهول.

من البداية، كانوا يقومون بالاستيلاء على كلِّ ما في طريقهم، كان أول ما سقط مدينة وقلعة «باتراس Patras». بعد ذلك انطلقوا جنوبًا دون مواجهة تُذكر حتى وصلوا إلى «كالاماتا Kalamata» في إقليم مسيني. كان اليونانيون في ذلك الوقت قد حشدوا جيشهم المكوَّن من أربعة أو خمسة آلاف جندي، والذي كان يتضمَّن قوة كبيرة بقيادة

«مايكل دوكاس Michael Ducas»، حاكم «إيبيروس Epirus»، وفي سنة ١٢٠٥م تقابل الجيشان وجهًا لوجه بين بساتين الزيتون في منطقة «كوندورا Koundoura» في الركن الشمالي الغربي من الإقليم. كان اليونانيون المدركون تمامًا لتفوُّقهم العددي واثقين من النصر، إلا أنهم كانت تنقصهم الخبرة بشكل مريع، فكان أن اخترقهم الفرنجة بسهولة شديدة. من ذلك اليوم، ستصبح البيلوبونيز أرضًا فرنجية. الفلكلور اليوناني مليء بقصص البطولة المحلية عن ذلك المقاتل العظيم «دوكساباترس Doxapatres» مثلًا، الذي لم يكن أحدٌ ليستطيع أن يرفع القضيب الشائك الذي كان يستخدمه لتكسير الدروع، والذي كانت درعه الواقية تزن مائة وخمسين رطلًا، وعن ابنته التي ألقت بنفسها من برج القلعة بدلًا من الاستسلام لشهوات الغزاة. والحقيقة أنه كانت قد ظلت بعض جيوب للمقاومة، من بينها «أكروكورنث Acrocornith» و«نوبليا Nauplia» (التي اضطُر بونيفاس للتخلي عن حصارها) وصخرة «مونيمفاسيا Monemvasia» العظيمة، وقلعة «تايجيتوس Taygetus» المظلمة في «ماني Mani». إلا أن هناك رسالة من البابا إنوسنت الثالث بتاريخ التاسع عشر من نوفمبر ١٢٠٥م، تصف وليم الشامبليتي بـ «أمير كل أخايا Achaia»،[٥] بما يعني أنه كان الكل في الكل.

هكذا كان أن اكتسح الصليبيون الفرنجة بالفعل، ودون جهد كبير، تسعة أعشار اليونان وجزر البيلوبونيز كلها، وذلك في غضون ثلاث سنوات من الغزو اللاتيني للقسطنطينية. لم يكن هذا النجاح يعود لشجاعتهم بقدرِ ما هو لجبن السكان المحليين الذين لم يكونوا يُبدون سوى مقاومة شكلية. من ناحية أخرى، كانت القصة مختلفة في مقدونيا. كان الإمبراطور بلدوين — كما رأينا — قد وقع في أسرِ القيصر البلغاري ليختفيَ في بطن أحد السجون ... ولا يظهر بعد ذلك. عندما سمع بونيفاس بذلك، ترك حصار نوبليا لكي يدافع عن ممتلكاته الشمالية، وقُتل في مواجهة ثانوية بعد أسابيع قليلة. بعد موته، قطعوا رأسَه وأرسلوه هديةً للقيصر. عندما كانت هناك حاجة ماسة لقيادة حازمة واثقة، انتقل عرشه لابنه الطفل، إلا أن ما أنقذ الموقف بالفعل كان مقتل كالوجان بدوره (بتحريض من زوجته) لتنكسر بالفعل قوة بلغاريا.

يكفي ما قلناه حتى الآن عن نجاحات وإخفاقات الفرنجة، ولكن ماذا عن الفينيسيين؟ بفضل المهارات التفاوضية البارعة لـ «داندولو» كانوا قد حصلوا على نصيب الأسد من الغنائم؛ ولكنهم سرعان ما أدركوا أن ما حصلوا عليه كان أكبرَ من قدرتهم على الهضم،

وعليه كانوا أكثرَ بطئًا من حلفائهم الفرنجة في احتلال أراضيهم — وهو التأخير الذي كان قد كلفهم البيلوبونيز بالفعل. كان هناك فرقٌ آخر بين الفلسفتين. كان الفرنجة، الذين نشئوا في أحضان نظام إقطاعي، ينظرون إلى أراضيهم الجديدة باعتبارها إقطاعياتٍ وإلى شاغليها كخدم تابعين. إلا أن النظام الإقطاعي كان يقوم على ملكية الأرض، وهي سلعةٌ لم يكن الفينيسيون يعرفونها باعتبارهم أبناءَ جمهورية بحرية. كان الفينيسيون يعملون بالتجارة ولم تكن المستعمرات الخارجية ذات فائدة لهم إلا بقدرِ تحقيقها لمصالحهم التجارية. لهذا السبب، فإن داندولو قصرَ مطالبه على المناطق الساحلية بصرف النظر عن البيلوبونيز. حتى ذلك الحين كانت عيناه ما زالتا أوسع من مَعِدته! لم يرفع إصبعًا عندما دخل جاك دافسنس إيوبيا، ولا عندما أقام شامبليت وفيلهاردون معتمديتهما في أخايا. كلُّ ما كان يهمه هو الميناءان في «مودون Modone» و«كورون Corone» عند الحافة الجنوبية للبيلوبونيز؛ وفي ١٢٠٦م أرسل ابنه بأسطول صغير ليستعيدهما للجمهورية. تم إنجاز ذلك سريعًا، وظل الميناءان تابعين لفينيسيا عدة قرون بعد ذلك.

أما بالنسبة لجزر بحر إيجه العديدة، بما في ذلك «السيكلاديس Cyclades» التي كانت قد سقطت في أيديهم، كان الفينيسيون مرةً أخرى مضطرين للاعتراف لأنفسهم بأن إدارة «سيرينيسيما Serenissima» كانت مستحيلةً بالرغم من مواردها الكثيرة. ولذا كان هناك اتفاق على أن يحكم أغلب الجزر عددٌ من سكانها باسم فينيسيا. كان من بين المشاركين في حملة المجموعة الفينيسية أحد أبناء عمومة الدوج داندولو واسمه «ماركو سانودو Marco Sanudo»، الذي لم يضيِّع وقتًا عند سماعه الخبر. قام بتجهيز ثماني سفن على نفقته الخاصة وجمع مجموعةً من المغامرين مثله من شباب فينيسيا وانطلقوا، وهناك على جزر «ناكسوس Naxos»، و«أندروز Andros»، و«باروس Paros»، و«أنتيباروس Antiparos»، و«ميلوس Melos»، و«إيوس Ios»، و«أمورجوس Amorgos»، و«سانتوريني Santorini»، وعشرات غيرها، سيقيم كلٌّ منهم منطقته الخاصة، تتبع كلها — كإقطاعيات — ماركو سانودو، باعتباره دوق الأرخبيل.[٦] كذلك اتُّخذت ترتيبات مشابهة بالنسبة لـ «كورفو Corfu» والجزر الأيونية الأخرى على ساحل الأدرياتيكي.

بقيت هناك «كريت Crete»، أكبر وأهم الجزر اليونانية التي كان على داندولو أن يساوم بونيفاس عليها. مرة أخرى، كانت جنوة هي المشكلة. حتى من قبل أن يستوليَ الفينيسيون على الجزيرة، كان أهل جنوة قد أقاموا مستوطنة هناك، وكان واضحًا من

البداية أنهم لن يتخلوا عنها دون قتال. وعليه، أرسلت فينيسيا أسطولًا، نجح مؤقتًا في طرد القائد القرصان «إنريكو بسكاتور Enrico Pescator»، كونت مالطة، الذي كان — بالرغم من ذلك — محلَّ إعجاب من البابا إنوسنت، وكان أن استمر القتال خمس سنوات أخرى حتى سنة ١٢١٢م، عندما أُجبِر هو وجماعته في آخر الأمر على الانسحاب. منذ ذلك الحين، ولمدة السنوات الأربع والنصف التالية، كانت الجزيرة يحكمها بالفعل فينيسيٌّ يحمل لقب دوج، وهو دليل واضح على أهميتها بسبب سيرينيسيما.

بموت هنري الهاينولتي في ١٢١٦م في سن الأربعين، بدأت الإمبراطورية الفرنجية في الانهيار. كان هنري حاكمًا متميزًا. كان الإمبراطور اللاتيني الوحيد الذي أظهر حنكةً سياسية حقيقية، وكان قد ورِث ما كان يبدو قضية خاسرة، وفي غضون عقد واحد تقريبًا حوَّلها إلى شأن مهم. لو كان لدى خلفائه ذرةٌ من قدراته فلربما ما كان قد وصل إلى العرش في القسطنطينية حاكمٌ يوناني، ولكن منذ أن أصبحت يده بعيدة عن دفة السفينة، بدا واضحًا أن الاستعادة النهائية لعاصمة الإمبراطورية الحقيقية ستكون مسألة وقت ليس إلا. في الوقت نفسه كانت إمبراطورية نيقية تحت قيادة «جون فاتاتزس John Fatatzes» صهر «لاسكاريس Lascaris»، تمضي من قوة إلى قوة. بحلول العام ١٢٤٦م، كانت قد اتسعت أملاكه لتشمل معظمَ شبه جزيرة البلقان وجزءًا كبيرًا من بحر إيجه، وكان منافسوه قد ضعفوا أو أصابهم الإرهاق، أما هو فكان مصرًّا على أن يحقق الهدف الذي نذر حياته له.

كان جون فاتاتزس أكثرَ من سواه أحقيةً في أن يقود جيشًا بيزنطيًّا ليحقق الانتصار في القسطنطينية. من أسفٍ أن صحته كانت مدعاةً للقلق منذ وقت طويل. كان جون مصابًا بالصرع، وكلما كان يتقدم في العمر كانت النوبات تتزايد عددًا وحدةً، وكثيرًا ما كان ذلك يؤثِّر على قواه العقلية، وخصوصًا أنها كانت تجعله أكثرَ حقدًا على أكبر قياداته: «مايكل بالايولوجوس Michael Palaeologus». الأكثر مأساوية كان أن نقل المرض لابنه وخليفته «تيودور الثاني Theodore II» بدرجةٍ أكثرَ حدة، عندما مات تيودور في أغسطس ١٢٥٨م وهو في السادسة والثلاثين بعد حكمٍ لم يدُم سوى أربع سنوات تاركًا طفلًا صغيرًا يخلفه، قامت ثورة في القصر ونصَّبت بالايولوجوس على العرش. رغم أنه كان ما زال في الرابعة والثلاثين، وجد الجنرال الشاب نفسه أمام مهمة متشعبة. كان مضطرًّا، بداية، لمسايرة إمبراطورٍ معادٍ كان قد قام في ١٢٥٢م بسَجنه وحرمانه كنسيًّا،

واستمرت مشكلاته بعد صعوده للعرش، عندما طلب منه أن يواجه تحالفًا كان يضم حاكم إيبيريوس، المعتمدية الصليبية في أخايا في البيلوبونيز، ومانفريد الصغير في صقلية (الابن غير الشرعي للإمبراطور الغربي فردريك الثاني). هنا كان يوجد عدوٌّ لدود بالفعل، ولكن عندما التقى الجيشان في بيلاجونيا (بيتولج الآن) في مطلع صيف ١٢٥٩م، انفرط عقد التحالف.

مصرًّا على الاحتفاظ بالزخْم، بدأ مايكل زحفَه مبكرًا على القسطنطينية في ١٢٦٠م. فشلت محاولته الأولى — لم يتمكَّن أحدُ عملائه السريين من فتح إحدى البوابات كما كان مدبَّرًا، كما فشلت خطة بديلة للهجوم على جالاتا في الركن القصي من القرن الذهبي. في ذلك الشتاء على أية حال، سجَّل مايكل انتصارًا دبلوماسيًّا؛ ففي الثالث عشر من مارس ١٢٦١م وقَّع اتفاقيةً مع جنوة، بناءً على شروطها أنه في مقابل مساعدةِ أهلها له في الصراع القادم، سيعطيهم كلَّ الامتيازات التي كان ينعم بها الفينيسيون في القسطنطينية، بما في ذلك الحي الخاص بهم في كلٍّ من المدينة والموانئ الرئيسية الأخرى في الإمبراطورية، وكذلك حق الوصول إلى موانئ البحر الأسود. كان ذلك بالنسبة لجنوة اتفاقًا تاريخيًّا، يرسي — كما حدث — دعائمَ إمبراطوريتها في الشرق، أما بالنسبة لبيزنطة فاتضح أنه كان بمثابة كارثة؛ حيث إن الجمهوريتين البحريتين الإيطاليتين سوف تستغلان ما تبقَّى من قوَّتها البحرية وتواصلان خصوماتهما القديمة منذ قرون على كيانها الضعيف. إلا أن ذلك كان ليحدث في المستقبل. في ربيع ١٢٦١م، كان لا بد من أن يبدوَ تحالف جنوة كأنه هِبة من السماء لمايكل بالايولوجوس.

جاءت الاستعادة النهائية للقسطنطينية بالمصادفة. في عز صيف ١٢٦١م كان مايكل قد أرسل أحدَ جنرالاته «ألكسيوس ستراتيجوبولوس Alexius Strategopoulus» بجيشٍ صغير إلى «تراقيا Thrace». عندما وصل إلى «سيلمبريا Selymbria» (سيلفري Silivri الحديثة)، التي تبعُد نحو أربعين ميلًا عن القسطنطينية، علِم ألكسيوس أن الحامية اللاتينية للعاصمة لم تكن موجودة؛ حيث كان الفينيسيون قد استدعوها للقيام بهجوم على جزيرة «دافنوسيا Daphnusia» في نيقية، وكانت هذه الجزيرة تتحكَّم في مدخل البوسفور من ناحية البحر الأسود. علِم أيضًا أنه كانت هناك بوابة خلفية في الأسوار يمكن أن يمرَّ منها المسلَّحون بسهولة ليدخلوا المدينة. في تلك الليلة قامت جماعة صغيرة باختبار صحة هذه المعلومات. تسلل أفرادُها دون ملاحظة من أحد وفاجَئوا حراسَها الفرنجة القلائل وألقَوا بهم من فوق المتاريس، ثم بهدوء شديد، فتحوا بوابات المدينة. في

فجر الخامس والعشرين من يوليو ١٢٦١م تدفَّق باقي الجيش داخل القسطنطينية دون مقاومة تُذكر.

كان الإمبراطور بلدوين الثاني، نائمًا في قصره، أيقظته الجلبة وفرَّ لينجوَ بحياته، وأخيرًا صادف سفينةً تجارية فينيسية فهرب عليها إلى إيوبيا. في الوقت نفسه كان ألكسيوس ستراتيجوبولوس ورجاله يُضرمون النارَ في كل الحي الفينيسي من المدينة، لدرجةِ أن البحَّارة عندما عادوا من دافنوسيا ووجدوا منازلهم مدمَّرة وأسرهم البائسة مشرَّدة بجوار أرصفة الميناء، لم تكن لديهم روحٌ للقيام بهجومٍ مضاد، ولم يكن أمامهم من خيار سوى أن يبحروا بلا عزاء عائدين إلى البحيرة. أما مَن بقي من الفرنجة فكانوا في حالةِ ذعر شديد، يمكن أن نجد لها وصفًا بليغًا في الحوليات اليونانية، إلا أنهم ما كانوا ليقلقوا طويلًا ... فالمذبحة التي كانت متوقعة لم تحدث. سرعان ما خرجوا من مخابئهم وجمعوا كلَّ ما يستطيعون حمله ومضَوا يجرون الخطى نحو الميناء؛ حيث كان في انتظارهم ثلاثون سفينة فينيسية. بمجرد صعودهم إلى السفن، تحرَّك الأسطول متجهًا كذلك إلى إيوبيا، ولسنا متأكدين إذا ما كان قد توقَّف في الطريق للتموين؛ حيث إن المسجَّل أن عددًا كبيرًا من اللاجئين ماتوا جوعًا قبل الوصول إلى مقصدهم.

في معسكره في «ميتيوروم Meteorum» في آسيا الصغرى، الذي كان يبعد نحو مائتي ميل، كان الإمبراطور مايكل نائمًا كذلك عندما جاءته الأخبار الجسام. أخته الكبرى «إيولوجيا Eulogia» (التي كانت تهدهده وهو طفل لكي ينام بأن تغنيَ له كيف سيصبح إمبراطورًا ذات يوم ويدخل القسطنطينية من البوابة الذهبية) أيقظته (بزغزغة أصابع قدميه كما يقول أحد المصادر) ونقلت له الأخبار. لم يصدِّق في البداية، وعندما سلَّموه تاج وصولجان بلدوين اللذين كان قد تركهما خلفه في القصر، كان أن اقتنع. بعد ثلاثة أسابيع، في الخامس عشر من أغسطس، مرَّ فعلًا من البوابة الذهبية وتقدَّم سيرًا على قدميه بطول المدينة حتى كنيسة سانت صوفيا، وهناك كان حفل تتويج ثانٍ أقامه البطريرك له ولزوجته «تيودورا Theodora» وابنهما الرضيع «أندرونيكوس Andronicus»، الذي أُعلن وريثًا محتملًا.

منذ البداية، كانت إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية أشبه بالهُولَة.[٧] كانت نبتًا بائسًا للخيانة والجشع، لم تحقِّق شيئًا على مدى السبع والخمسين سنة لوجودها، لم تسهم بشيء، لم تتمتع بلحظة واحدة من المجد أو التميز. لم تقُم بأي غزو بعد ١٢٠٤م، وقبل ذلك بوقت طويل كانت قد انكمشت في المحيط المباشر للمدينة التي دُمرت وخُربت

لكي تُولد. من بين حكامها السبعة كان هناك واحد فقط أكبر من الآخرين متواضعي القيمة، هو هنري الهاينولتي، لا أحد منهم حاول — ولو بقدرٍ يسيرٍ — أن يفهم الرعايا اليونانيين أو يتبنى عاداتهم، ناهيك عن تعلُّم لغتهم. كان سقوط الإمبراطورية أكثرَ خزيًا من بداياتها، قهرتها في ليلة واحدة، في لحظة، مجموعةٌ صغيرة من الجنود.

لو أن تلك الحالة المضحِكة المبكية قد قصرت أعمالها السيئة على نفسها، لكنا قد مررنا عليها بما يزيد قليلًا عن نظرة رثاء. من أسفٍ أن ذلك لم يكن. الموروث الأسود الذي خلَّفته لم يؤثِّر في بيزنطة فحسب، وإنما امتد في كل العالم المسيحي. لم تتعافَ الإمبراطورية اليونانية مما لحِق بها من ضررٍ على مدى تلك السنوات المشئومة. كان ضررًا روحيًّا وماديًّا. ولا بَعد أن جُردت من الكثير من الأراضي التي بقيت معها بعد كارثة مانزيكرت، بكثير من مبانيها الرائعة التي تحوَّلت إلى أنقاض، وأعمالها الفنية البديعة التي دُمرت أو نُهبت وحُملت إلى الغرب. لم تنجح في استعادة روحها السابقة. كما سُرق منها شيء آخر مهم. قبل الغزو اللاتيني كانت وحدة واحدة تحت حاكم واحد يقف في منتصف الطريق إلى السماء ويضاهي الرسلَ مكانةً. الآن ذهبت الوحدة. صحيح أن إمبراطورية نيقية لم تَعُد مندرجة أو مستوعَبة — كما كانت تتوق دائمًا — في إمبراطورية القسطنطينية، ولكن كان هناك أباطرة التربيزوند الذين كانوا ما زالوا مستقلين بعالمهم البيزنطي الصغير على شاطئ البحر الأسود الذي تجتاحه الأمطار، كما كان هناك حكام إيبيروس، الذين كانوا يصارعون دون توقُّف لاستعادة سنوات القوة القديمة، المستعدون دائمًا للترحيب بأعداء القسطنطينية وتقديم مركز للمقاومة. كيف، وهي على هذه الدرجة من التشظي تستطيع الإمبراطورية الرومانية مواصلةَ أداء مهمتِها التي قامت بها طويلًا، مهمةِ أن تكون حصن العالم المسيحي الشرقي المنيع ضد المد الإسلامي؟

إلا أن العالم المسيحي كذلك كان قد تغيَّر كثيرًا بعد الحملة الصليبية الرابعة. بعد أن انقسم طويلًا، كان يتم استقطابه الآن. على مدى قرون قبل وبعد الشقاق الكبير في ١٠٥٤م، أصبحت العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية متذبذبة بين البعيد بكياسة والمر بلذوعته. كانت خلافاتهما لاهوتية. بعد نهب القسطنطينية بأيدي الصليبيين الغربيين، لم يَعُد ذلك صحيحًا. في أعين اليونانيين، كان من المستحيل اعتبار أولئك الذين دنَّسوا مذابحَ كنائسهم ونهبوا منازلهم واغتصبوا نساءهم، كان من المستحيل اعتبارهم مسيحيين بأي معنًى. كيف يمكن الآن أن يقبلوا فكرةَ الوحدة مع روما؟ كانوا يقولون «عمامة السلطان خير من قبعة الكاردينال» … وكانوا يعنون ما يقولون.

هوامش

(١) انظر الفصل السابع: الهجوم المسيحي المضاد.

(٢) ما زالت سلالة لوردات بودونيتزا Boudonitza في أسرة زورزي Zorzi العريقةِ في فينيسيا. وفي سالونا Salona فإن بقايا قلعة «توماس دي سترومانكورت Thomas de Stromoncourt» هي أهم الآثار الفرنجية في البلاد.

(٣) هي قناة ملغزة بسبب طبيعتها الجغرافية الغريبة. في مجراها الضيق البالغ نحو ثلاثين ياردة، تغيِّر تياراتها اتجاهاتها ست أو سبع مرات في اليوم إن لم يكن أكثر. ما زال السبب مجهولًا، ويقال إن أرسطو أصيب بالإحباط لفشله في حل تلك المشكلة التي كان قد تصدَّى لها.

(٤) كانت تلك هي الكلمة المستخدَمة اسمًا لجزر البيلوبونيز في العصور الوسطى، ولم تكن معروفة قبل بداية القرن الثاني عشر، ويُعتقد أنها مشتقة من كلمة يونانية تعني «شجرة التوت»، ربما بسبب شكلها أو لكثرة شجر التوت الذي ينمو هناك.

(٥) الجزر الشمالية الغربية من البيلوبونيز على نحوٍ خاصٍّ.

(٦) للمزيد عن مصائر جزر بحر إيجه، يمكن الرجوع إلى كتاب: The Latins in the Levant، تأليف: W. Miller، الصفحات من ٤٠–٤٥.

(٧) الهُولَة Monstosity: حيوان أو نبات مشوَّه الخِلقة. (المترجِم)

الفصل التاسع

أعجوبة الدنيا

- فردريك يقبل العرش الإمبراطوري: ١٢١٢م.
- تتويج فردريك: ١٢٢٠م.
- ترحيل المسلمين: ١٢٢٦م.
- يولاند ملك القدس: ١٢٢٥م.
- فردريك يبحر إلى فلسطين: ١٢٢٨م.
- فردريك في قبرص: ١٢٢٨م.
- الغضب المسيحي: ١٢٢٩م.
- دساتير ميلفي: ١٢٣١م.
- عزل فردريك: ١٢٤٥م.
- إعدام كونرادين: ١٢٦٨م.
- فشل فردريك.

* * *

بعد أن وضعت الإمبراطورة «كونستانس Constance» وليدَها في قرية «جيسي Jesi» في اليوم التالي لعيد الميلاد عام ١١٩٤م،[١] بعدها بأيام قليلة أخذته وواصلت الرحلةَ إلى الشمال؛ وفي باليرمو، بعد الموت المبكِّر لأبيه بعد ذلك بأربع سنوات، كان أن تم تتويج الطفل — الذي حمل اسم فردريك على اسم جَديه — ملكًا على صقلية.

أمضى فردريك طفولته هناك حيث تلقَّى تعليمًا أبعدَ ما يكون عن ذلك الذي كان يقدَّم للأمراء الألمان عادةً. كان تعليمًا مختلفًا لدرجةٍ كبيرة ربما تفوق الخيال. كانت اللاتينية واليونانية والعربية كلُّها لغات رسمية في صقلية النورمندية، وإلى جانب تلك اللغات تعلَّم

فردريك الألمانية والإيطالية والفرنسية. منذ أيام جَده «روجر الثاني Roger II»، كان هذا البلاط هو الأكثر ثقافةً في أوروبا، وملتقى علماء وجغرافيين وعلماء رياضيات، سواء من المسيحيين أو اليهود أو المسلمين؛ ولعل معلِّمه الشخصي «مايكل سكوت Michael Scot» (مترجم أرسطو وابن رشد)، المعروف عنه أنه أمضى عدةَ سنوات في باليرمو، أصبح صديقه المقرَّب. لم يكن يمضي الساعات الطوال في الدراسة فحسب، بل وفي مناظرات عن الدين والفلسفة والرياضيات. كذلك غالبًا ما كان ينسحب إلى إحدى الحدائق أو أحد القصور التي يقال إنها كانت تحيط بالمدينة مثل العِقد، لكي يراقب الطيور والحيوانات، وهو ما أصبح هوايةً ملازمة له. بعد عدة سنوات سيؤلف كتابًا عن صيد الصقور،[٢] سيصبح أحدَ المصادر الأساسية النادرة التي تعبِّر عن معرفة وفهم للحياة البرية في القرن الثالث عشر.

كانت طاقته الجسدية تضاهي طاقته الفكرية تمامًا. يصفه أحد المعاصرين له فيقول:

> لا تجده عاطلًا عن العمل أبدًا، وإنما يقضي اليوم كلَّه في عمل أو آخر. ولكي يزيد طاقته بالممارسة، كان يقوي جسدَه الرشيق بكل التمارين الرياضية بما في ذلك استخدام السلاح. يستخدم أسلحته أو يحملها، يشهر سيفه القصير الخبير باستخدامه وكأنه يحمي نفسه من هجومٍ ما. يستخدم القوس بكفاءة، وأحيانًا يمارس رمي السهام. يحب الخيل الأصيلة السريعة، وأعتقد أنه ليس هناك مَن هو أفضل منه في معرفةِ كيف يكبح جماحها باللجام، ثم إطلاقها لكي ترمح. هكذا يقضي يومه من الصباح إلى المساء، ثم يبدأ من جديد في اليوم التالي.
>
> يُضاف إلى ذلك فخامةٌ وهيبةٌ وسيماءٌ ملكيةٌ، مع شكلٍ سمحٍ وطلعةٍ بهيةٍ، وعينان ذكيتان ووجه معبِّر، وروح متقدة وبديهة حاضرة. إلا أنه يأتي أحيانًا أفعالًا غريبة وفظة، وليس ذلك لطبيعةٍ فيه وإنما لصلته بالخشنين من العامة. بالرغم من ذلك فإنه يتحلى بكثير من الفضائل التي تسبق عمره. وبالرغم من أنه لم يبلغ سنَّ الرشد بعد، فإن لديه معرفةً واسعة، لديه موهبة الحكمة التي لا تأتي إلا مع الزمن. عدد السنوات بالنسبة له ليس في الحسبان، وليس هناك حاجة لانتظار النضج؛ لأنه كإنسان، غني بالمعرفة، وكحاكم غنيٌّ بالعظمة والمهابة.

هذا الوصف كُتب في ١٢٠٨م عندما كان فردريك في الثالثة عشرة. بلغ سن الرشد في عيد ميلاده الرابع عشر في السادس والعشرين من ديسمبر، وبعد تسعة أشهر تزوَّج كونستانس، ابنةَ «ألفونسو الثاني Alphonso II» ملكِ أراجون. كانت أرملة ... تكبُره بعشر سنوات. كان زوجها الأول هو «إيمري Imre» ملكَ هنغاريا. كان البابا إنوسنت الثالث هو الذي اختار كونستانس لفردريك الذي يبدو أنه لم يكن متحمسًا مثله لهذه الزيجة ... على الأقل في الأيام الأولى من الزواج. جاءت كونستانس معها بخمسمائة فارس مسلَّح في حاشيتها، على ضوء القلق المستمر في المملكة. كان فردريك في حاجة إلى كلِّ ما يمكن الحصول عليه من مساعدة. كما أدخلت كذلك مع فرسانها وحاشيتها وخَدَمها ثقافةً جديدة ... دراية بشئون العالم والحياة لم تكن معروفة في باليرمو. بالنسبة لفردريك، المدرِك دائمًا لكل جديد ومثير، كان عالَمًا جديدًا يتفتح أمامه الآن ... عالم الحب المتملق. ظل الزواج نفسه زواجَ مواءمة سياسية ... زواج مصلحة ... — رغم أن كونستانس أنجبت له طفلًا (هنري) بعد عام أو عامين — إلا أنه أزال الحوافَّ الحادة وهذَّب الطباع. قبل أن يصل إلى العشرين بوقت طويل، كان فردريك قد اكتسب الفضائلَ الاجتماعية والكياسة التي سيُعرف بها بقيةَ حياته.

في وقتٍ باكر من يناير ١٢١٢م، وصلت بعثة سفراء من باليرمو حاملةً معها رسالة من وراء الألب. مرة أخرى كانت أوروبا الغربية تتعرض لأخطار الملكية الانتخابية؛ فمنذ وفاة «هنري السادس Henry VI» كانت الحرب الأهلية قد مزَّقت ألمانيا، بين مطالبين كُثر باللقب. كان أحدهم «أوتو الولف Otto the Welf» دوق «برنزويك Duke of Brunswick» قد توِّج إمبراطورًا بالفعل من قِبل البابا إنوسنت في ١٢٠٩م، وبعد عامين استولى على الشمال الإيطالي، وهو الجزء البري بكامله من أراضي مملكة فردريك. ولسوء حظه، كان أن تمادى في غيه: كان قيامه بغزو إقليم توسكاني البابوي سببًا في حرمانه كنسيًّا، وفي سبتمبر ١٢١١م اجتمع مجلسٌ من كبار الأمراء الألمان في نورمبرج وأعلنوا عزله. كان أولئك هم الذين أرسلوا السفراء بدعوة فردريك لتولي العرش الخالي.

جاءت هذه الدعوة مفاجأةً تامة، وأثارت قلقًا كبيرًا في البلاط الصقلي. مستشارو فردريك الرئيسيون نصحوا — بقوة — بعدم القبول، وكذلك زوجته. لم يكن هناك أيُّ شيء يربطه بألمانيا، والحقيقة أن قدَمه لم تطأ الأرض الألمانية من قبل، ثم إن قبضته على مملكته لم تكن قد أصبحت قويةً بعد، ولم يكن قد مرَّ عام على تهديد دوق برنزويك له عبر مضايق مسيني. هل كانت تلك فعلًا لحظةً مناسبة يغيب فيها عن صقلية لفترةٍ قد

تمتد عدة شهور على الأقل من أجل مجدٍ، مهما كان عظيمًا، ربما يتضح في النهاية أنه كان وهمًا؟ من ناحيةٍ أخرى فإن عدم القبول — كما يعرف — قد يبدو في نظر الألمان رفضًا مباشرًا وازدراءً، وربما نجح في تقوية وضع خَصمه الرئيسي. كان دوق برنزويك ما زال يحظى بتأييد كبير في كلٍّ من إيطاليا وألمانيا. وحيث إنه لم يكن قد تخلى عن أيٍّ من طموحاته بعيدة المدى، كان يستطيع القيام بحملة جديدة، ولن يرتكب الخطأ نفسه في المرة القادمة. مرة أخرى، كانت هنا فرصة لتوجيه ضربة قاضية له، فرصة ما كان له أن يضيعها.

بعد قليل من التردُّد وافق البابا إنوسنت. من المؤكد أن اختيار فردريك ملكًا كان سيقوي القبضةَ الإمبراطورية في شمال وجنوب الولايات البابوية؛ ولكي يؤكد استقلالَ مملكة صقلية عن الإمبراطورية — على الأقل نظريًّا — كان أن أصرَّ البابا على أن يتنازل فردريك عن العرش الصقلي لصالح ابنه الوليد الجديد، وأن تكون كونستانس هي الوصية. بمجرد الانتهاء من هذه الإجراءات الرسمية ومن أمورٍ أخرى أقلَّ أهميةً، كانت الطريق قد أصبحت واضحةً تمامًا أمام فردريك. في آخر فبراير، أبحر هو وجماعة من الرفاق من أهل الثقة من مسيني. لم تكن وجهته المباشرة ألمانيا، وإنما روما؛ وهناك ... يوم أحد الفصح ٢٥ مارس، ركع أمام البابا وأدَّى فروض الولاء له نيابةً عن ابنه الملك، باسم مملكة صقلية. ثم أبحر من روما إلى جنوة، على سفينة من جنوة كانت تحاول أن تضلِّل الأسطول الذي أرسله أهالي بيزا (المؤيدون الأشداء لدوق برنزويك) لكي يعترض طريقه. كان أهالي جنوة، على خلاف منافسيهم من أهالي بيزا، كانوا غيبلليين[٣] متحمسين مثل عائلتهم القيادية «الدورياس The Dorias» الذين وضعوا قصرهم الرئيسي تحت تصرُّف الإمبراطور إلى أن أُعيد فتح ممرات الألب ليتمكن من مواصلة رحلته. في الوقت نفسه، تم التوصل إلى اتفاق بموجبه وعد فردريك — مقابل دعم كبير — بالإبقاء على كل المزايا الممنوحة لجنوة بواسطة أسلافه، عندما يصبح إمبراطورًا.

حتى ذلك الحين، لم تكن الطريق إلى ألمانيا سالكة. في الثامن والعشرين من يوليو استُقبل استقبالًا حارًّا في «بافيا Pavia»، ولكن سهلُ لومبارديا كان بشكل دائم تحت رقابة دوريات عصابات من أهالي ميلانو الموالين لـ «جويلف Guelf»، وكانت إحدى تلك العصابات هي التي فاجأت الجانب الإمبراطوري وهم يغادرون المدينة في الصباح التالي. كان فردريك محظوظًا بالفعل؛ إذ تمكَّن من القفز فوق حصان يخوض به نهر «لامبرو Lambro» دون سَرج، ويشق طريقه نحو «كريمونا Cremona» الصديقة. لا نعرف أي

الطرق سلك عبر الألب؛ إذ إن دوق برنزويك وجيشه كانوا عند «ترنتو Trento». في أوائل الخريف، كان فردريك قد وصل إلى ألمانيا بسلام.

في الخامس والعشرين من يوليو ١٢١٥م، في كاتدرائية «آخن Aachen»، وعلى عرش شارلمان، قام رئيس أساقفة «ماينز Mainz» بتتويج فردريك ملكًا على الرومان، وهو اللقب التقليدي للإمبراطور المنتخب. كان في الحادية والعشرين. كلُّ ما كان يريده الآن ليكتمل اللقب الإمبراطوري هو تتويج آخر بواسطة بابا روما. قبل عام بالتحديد، في ٢٧ يوليو ١٢١٤م، كان جيش فيليب أوجسطس ملك فرنسا قد هزم جيش أوتو ملك برنزويك وجون John ملك إنجلترا في ساحة قتال «بوفيان Bouviens» بالقرب من «ليل Lille»، وقضى تقريبًا على كل آمال أوتو في مقاومته. منذ ذلك اليوم أصبحت سيادته مؤكدة، والآن — ربما شكرًا لله، وربما لكسب المزيد من رضا البابا — كان يعلن عن نيته الاشتراك في حملة صليبية.

هناك بعض التصرفات أو المواقف في حياة فردريك تبدو لنا اليوم غيرَ مفهومة. لم يكن تقيًّا أو ورِعًا على نحوٍ خاص، بالإضافة إلى أنه كان قد شبَّ بين علماء ومفكرين مسلمين كما كان يحترم دينهم ويتحدث لغتهم. كما أنه لم يكن في ذلك الوقت تحت ضغط من البابا أو أي شخص آخر. الحقيقة أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أنه سرعان ما ندم على وعده، والمؤكد أنه لم يبدِ أيَّ رغبة في الوفاء به. كان عليه أن يبقى في ألمانيا أربع سنوات أخرى أمضاها كلَّها تقريبًا في تأمين الخلافة الإمبراطورية لابنه هنري الذي وصل من صقلية مع الملكة كونستانس في ١٢٧١م. في أواخر صيف ١٢٢٠م عاد والداه إلى إيطاليا تاركين هذا الصغيرَ ذا الثماني سنوات خلفهم. بعد ذلك كانت هناك نهضة كبيرة في إيطاليا كلِّها، وزَّع فيها فردريك العطايا والهِبات الملكية بما هو معروف عنه من سخاء. في منتصف نوفمبر، وصل إلى روما، وفي اليوم الثاني والعشرين من الشهر نفسه وضع البابا «أونوريوس الثالث Honorius III» التاجَ الإمبراطوري على رأسه.

قبل خمس وستين سنة، كان جَده بربروسا قد اضطُر لقبول تتويج مهين انتهى بشكل أقربَ إلى المذبحة.[٤] كانت تلك الأيام على أية حال ماضيًا انتهى أمره، والآن كانت روما في حالة سلام — يشهد على ذلك كرَم فردريك الذي لا حدود له — وعليه فقد كان حفل التتويج على درجةٍ عالية من الروعة، وربما لم تشهده أي كاتدرائية من قبل. عندما تم، وظهر البابا والإمبراطور تحت شمس الشتاء، لوحظ أن الإمبراطور — على خلاف

بربروسا — كان ممسكًا، دون تردُّد، بِركاب البابا وهو يمتطي حصانه، بعدها اقتاده من اللجام خطوات قليلة قبل أن يمتطيَ حصانه هو الآخر. مثل تلك اللفتات لم تكن تعني الكثير بالنسبة له. لم تكن الإمبراطورية إمبراطوريته فحسب، بل إنه كان قد انتزع من البابا تعهدًا كان له قيمة كبيرة عنده، وهو إعادة مملكة صقلية إليه. بعد ثماني سنوات في ألمانيا، كان فردريك يتوق للعودة إلى باليرمو.

تلك السنوات حقَّقت له أكبرَ لقب علماني يمكن أن يخلعه العالم على أحد، ولكنها كشفت له كذلك عن أنه كان جنوبيًّا في الصميم منه، كان رجلًا من صقلية. كانت ألمانيا صادقة معه، ولكنه لم يكن يشعر بحبٍّ نحوها، لم يشعر أنه في وطنه قط. على مدى سنواته الثمانية والثلاثين كإمبراطور، لم يُمضِ سوى تسعٍ منها في شمال الألب، وعلى مدى حكمه كلِّه، كان عليه أن يبذل قصارى جهده — رغم أنه لم يحقق في ذلك نجاحًا واضحًا — أن يحوِّل بؤرة الإمبراطورية إلى إيطاليا، وكان في إيطاليا أن أنجز أعماله الرئيسية. بدأها في أواخر ديسمبر ١٢٢٠م حتى قبل أن يعبر مضايق مسيني، وذلك في أول مدينة مهمة في جبهته الشمالية؛ مدينة «كابوا Capua».

أما بالنسبة لدولة صقلية فلم يكن لديه أيةُ أوهام، لمدة تزيد عن الأربعين عامًا — منذ وفاة وليم الصالح في ١١٨٩م — كانت غارقة في الفوضى. كان حكم والده الذي اتسم بالإرهاب قد زاد من العناد والسخط ثم كانت هناك الأقلية التابعة له — لم تنجح أمه في الإمساك بزمام الأمور — وتبِع ذلك غيابه الطويل في ألمانيا، الذي بقيت أثناءه الدولة كاسم أكثرَ منها أي شيء آخر. كانت الأولوية لا بد أن تكون لإعادة النظام، وكانت الخطوات الأولى لتحقيق ذلك هي البدء بما عُرف بـ «قوانين كابوا Assizes of Capua» التي جاءت فيما لا يقل عن عشرين فصلًا، وهي سلسلة القوانين التي لا بد أنه كان يفكر فيها قبل شهور. هذه القوانين وضعت أسسَ التجدُّد الوطني الذي كان ليستمر بقيةَ سنوات حكمه. كانت تتضمن بالأساس عودةً إلى الأوضاع التي كانت قائمة عندما مات وليم، وإعادة تركيز السلطة تحت التاج. كان أهم القوانين الأبعد أثرًا قانون «استرجاع المزايا de resignandis privilegiis» الذي نص على إعادة جميع المزايا التي مُنحت لأي شخص أو مؤسسة منذ ذلك الوقت، مهما كانت صغيرة أو تبدو ضئيلة الأهمية، إلى المحكمة الملكية للتصديق عليها، وذلك قبل ربيع ١٢٢١م. لا شك أن هذا المرسوم كان شديدَ الوطأة على كبار الحاصلين على تلك المزايا من الذين كانوا يمثلون أكبرَ خطر على سيادة التاج؛ طبقة النبلاء والكنيسة. بالنسبة لطبقة النبلاء، كانت هناك ضربتان قويتان أخريان. لم يكن

مسموحًا لأي مستأجِر لإقطاعية بالزواج، ولا لأبنائه بالميراث دون موافقة عاهله، كما أن جميع القلاع التي بُنيت في أي مكان من المملكة منذ وفاة وليم، تعود بشكل تلقائي للتاج.

ما تم في كابوا تكرَّر، وإنْ على نطاق أضيقَ قليلًا، في الأشهر التالية في مسيني وكاتانيا وباليرمو، ثم انتقل الإمبراطور إلى «سيراكوزا Cyracuse» ليكون له شأن آخَر مهم مع أهالي جنوة. كانت جنوة صديقةً دائمة، ولكن منذ ١٢٠٤م كان تجار جنوة قد استحوذوا بالفعل على المدينة التي بسطوا نفوذهم منها على كل الجزيرة. كان أحد أهم أسباب انهيار تجارة صقلية على مدى السنوات الثلاثين السابقة هو أن معظمها كان قد أصبح في أيدي أجانب، ولم تكن هناك أيُّ فرصة للعودة إلى الازدهار بينما الغرباء هم المتحكمون. وهكذا بالرغم من المساعدات التي قدَّمها له أهالي جنوة أثناء رحلته إلى ألمانيا، تصرَّف فردريك بحزم شديد كما كان معروفًا عنه. أسقطهم من اعتباره تمامًا. أعطته قوانينه الجديدة كلَّ السلطات التي كان يريدها. كل الامتيازات والمزايا التي كانت قد مُنحت لجنوة وليس في سيراكوزا فحسب، بل وفي باليرمو ومسيني وترابانب وغيرها من المراكز التجارية ... كلها تم سحبها فورًا، كما أُعلن عن مصادرة كل مستودعات ومخازن جنوة بمحتوياتها لصالح التاج الصقلي. كذلك اتُّخذت إجراءات مماثلة في بيزا رغم أن حضور هذه المدينة في صقلية كان ضعيفًا وخسائرها صغيرة نسبيًّا.

ولكن ... مِن أسفٍ أنْ كان هناك عدوٌّ أكبر من جنوة لكي يواجهه؛ مسلمو غرب صقلية. قبل ثلاثة أرباع القرن، على أيام الملك روجر، كان المجتمع العربي هنا جزءًا لا يتجزأ ومحترمًا من المملكة. كان منه موظفو الخزانة بالكامل، كما كان منه معظم الأطباء والفلكيين والعلماء الذين بفضلهم ذاعت شهرةُ صقلية وسُمعتها في مجال العلم. إلا أن تلك الأيام كانت قد انقضت. كان جزء كبير من المنطقة العربية (حيث كان يوجد حكم ذاتي) قد مُنح لـ «دير مونريال Abbey of Monreal» أثناء حكم وليم الصالح. بعد السقوط النهائي للقوة النورمندية، وجد العرب أنهم لن يعودوا مقبولين ولا حتى محترمين، ومن ثَم تراجعوا ليتركَّزوا في البرِّية والمناطق الجبلية الغربية حيث كان قُطاع الطرق والقراصنة منهم يُلقون الرعب في قلوب المجتمعات المسيحية المحلية. أول حملة لـ «فردريك» ضدهم في ١٢٢١م لم تكن حاسمة، في العام التالي فقط تمكَّنت قواته من الاستيلاء على قلعة العرب المسلمين في «إياتو Iato» ومعها القائدُ المسلم ابنُ عباد الذي سرعان ما انتهت أيامه على المقصلة.

حتى إعدامُ ابن عباد لم يكن حلًّا نهائيًّا للمشكلة. الحل النهائي جاء فقط بين ١٢٢٢م و١٢٢٦م عندما اتخذ فردريك إجراءً أكثرَ تطرفًا. قرَّر نقلَ كل السكان المسلمين

من المنطقة الغربية المتمردة — نحو خمسة عشر أو عشرين ألف نسمة — من الجزيرة نهائيًّا، وإعادةَ توطينهم في الطرف الآخر من مملكته في أبوليا الشمالية، التي أصبحت بالفعل مدينة مسلمة؛ حيث حلَّ محل كل كنيسة من كنائسها مسجد. لم تكن أبوليا — وهذا أمرٌ لا بد من تأكيده — مستوطنةَ عقاب بأي معنًى. كان سكانها يتمتعون بكامل حريتهم، يمارسون شعائر دينهم، كما أن فردريك الذي كان قد نشأ مع مسلمين منذ طفولته الباكرة، بنى لنفسه قصرًا هناك على الطراز الشرقي، وكان أحد الأماكن المفضَّلة لإقامته.

من جانبهم، أظهر مسلمو «لوكيرا Lucera» ولاءهم الجديد بتقديمِ حرس شخصي له. كانوا أيضًا يعملون في مصنع الأسلحة، وكان الحدَّادون منهم يصنعون نصال الصلب الدمشقية لسيوفه التي لم يكن ينافسها سوى سيوف طليطلة، كما كان النجارون يصنعون المنجنيق وغيره من الأدوات الحربية التي كانت عمليات الحصار مستحيلةً بدونها. في الوقت نفسه كانت نساؤهم يزودن الإمبراطور بما يلزم من الحريم والقيان اللائي كن يعشن حياةً مترفة في جناح خاص من القصر مع الخادمات والخصيان. عددٌ من أولئك البنات سوف يصاحب الإمبراطور في أسفاره، وبالرغم مما كان يقال عن أنهن كن هناك لتقديم التسلية البريئة للبلاط، هناك قدرٌ من الشك — كما يشير جيبون قياسًا على ما كان لدى الإمبراطور جورديان — بأنهن كن هناك فعلًا بقصد الاستخدام وليس على سبيل التباهي والتفاخر.

في وقت تتويجه الإمبراطوري في نوفمبر ١٢٢٠م، أكَّد فردريك للبابا أونوريوس العهدَ الذي كان قد قطعه على نفسه بعد تتويجه ملكًا على الرومان؛ سيقوم شخصيًّا بقيادة حملة جديدة إلى فلسطين لاستعادة الأراضي المقدَّسة للعالم المسيحي. كان من الصعب أن ينكث بعهده، وبالرغم من ذلك يظل هذا التأكيد مثيرًا للدهشة؛ حيث كانت حملة، جمعها البابا من مصادرَ مختلفة، قد أبحرت بالفعل باتجاه الشرق تحت قيادة «جون البريني John of Brienne» الذي كان في الثامنة والستين من عمره، والذي كان يحمل اللقب الفخري «ملك أورشليم»، ولكن بعد وصول الفريق البابوي بقيادة الكاردينال الإسباني «بيلاجيوس Pelagius» أمير «سانتا لوتشيا St Lucia»، أصرَّ بيلاجيوس على أن تكون له القيادة كاملة.

هذه الحملة الخامسة،[٥] كما يُطلق عليها، كان هدفها الاستيلاء على مدينة دمياط المصرية، التي كان من المأمول أن تُستبدل بالمدينة المقدسة نفسها. كان حصار دمياط

أصعبَ مما كان متوقعًا بكثير. استمر نحو سبعة عشر شهرًا، وقبل أن ينتهيَ مباشرةً عرض عليهم السلطان الكامل، يائسًا، كلَّ مملكة أورشليم غربي الأردن مقابلَ رحيلهم؛ وبكل غباء — كما اتضح فيما بعد — رفض الكاردينال بيلاجيوس هذا العرض؛ إذ كان مصمِّمًا على غزو القاهرة … ومصر كلها. سقطت دمياط في الخامس من نوفمبر ١٢١٩م، ولكن الحرب استمرَّت نحو عامين آخرين، وكان يمكن أن تستمر أطول من ذلك، لولا أن حاصر فيضان النيل جيش الصليبيين، ولم يخلِّصهم منه سوى الاستسلام. الحملة التي كانت قريبة من النجاح، تحوَّلت إلى كارثة بسبب عناد قائدها الذي وصل إلى درجة الحماقة.

مع فشل الحملة، وجد الإمبراطور أنه كان لا يزال تحت ضغطٍ أشدَّ لكي يقوم بحملة أخرى — وأن يتخذ زوجةً أخرى كذلك. كانت الإمبراطورة كونستانس قد ماتت في يونيو ١٢٢١م، وبعد عام، وصل المعلِّم الأعظم للفرسان التيوتون، «هيرمان فون سالزا» دوق سوابيا، حاملًا اقتراحًا من البابا بضرورة أن يتزوج فردريك الآن من «يولاند دي بريان Yoland de Brienne»، الملكةِ الوريثة لأورشليم التي كانت في الثانية عشرة من العمر.[٦] كان اللقب قد انتقل إليها عن طريق أمها «ماريا Maria»، حفيدةِ الملك أماليك الأول، التي كانت قد تزوَّجت في سن السابعة عشرة من «جون صاحبِ بريان John of Brienne»، الذي كان في العقد السابع من العمر. كان جون قد حمل لتوه لقبَ ملك. بعد موت زوجته الباكر بعد عام أو عامين، كانت مطالبته بالعرش أمرًا لا خلاف عليه، ولكنه كان قد استمر في حكم البلاد وصيًّا على ابنته الصغيرة، يولاند، وكما رأينا كان قد قاد الحملة الخامسة المنكوبة.

لم يكن فردريك متحمسًا في البداية. كانت الخطيبة المقترحة له مفلسة، كانت طفلة تقريبًا وعمره ضعف عمرها، أما بالنسبة للقبها فكان بلا معنًى تقريبًا؛ إذ إن أورشليم كانت في أيدي المسلمين منذ نصف قرن تقريبًا. من ناحيةٍ أخرى، كان هناك على الأقل حجَّة واحدة قوية مع الفكرة. المنصب الملكي الذي كان يبدو شرفيًّا، يمكن أن يدعم مطالبته بالمدينة عندما يقوم في النهاية بحملته التي تأجَّلت طويلًا. وهكذا بعد أخذٍ وردٍّ وافق فردريك على العرض، كما وافق أثناء مناقشة مع البابا على أن تبدأ حملته — التي كان زواجه مرتبطًا بها — يوم «خميس الصعود Ascension Day» الذي كان يوافق الخامس عشر من أغسطس ١٢٢٧م، وأوضح أونوريوس أن أيَّ تأجيل سينجم عنه حرمانه كنسيًّا.

وكان أن وصلت أربع عشرة سفينة من الأسطول الإمبراطوري في أغسطس ١٢٢٥م إلى عكا، آخرِ القواعد الأمامية المتبقية في الشرق اللاتيني، لكي تقوم بتوصيل يولاند إلى

صقلية. حتى قبل رحيلها، كان قد تم تزويجها من الإمبراطور بالوكالة؛ وبعد ذلك تم تتويجها في صور كملكة على أورشليم، بعد أن كانت قد بلغت سن الرشد. آنذاك فقط، بدأت الرحلة التي كانت لتأخذها إلى حياة جديدة بصحبة حاشيةٍ كان من بينها ابنةُ عم لها، كانت تكبُرها بعدة سنوات. كان فردريك، مع أبيها، في انتظارها في برنديزي؛ حيث تم زواج آخرُ في الكاتدرائية في التاسع من نوفمبر. من أسفٍ أنه كان زواجًا مشئومًا. في اليوم التالي غادر الإمبراطور المدينة مع عروسه فجأةً ودون أن يبلغ والدها، عندما لحِق بهم جون أبلغته ابنته باكية أن زوجها كان قد أغوى ابنة عمِّها! وعندما وصل فردريك ويولاند إلى باليرمو، تم صرف الفتاة المسكينة بجفاء شديد على الفور لتكون ضمن الحريم، كما تم إبلاغ والدها في الوقت نفسه بأنه لم يَعُد وصيًّا ... ولم يَعُد له الحق في لقبِ ملك.[٧]

وسواء أكان غضب جون يعود أساسًا لمعاملة الإمبراطور لابنته أو لخسارته مملكته الشرقية، فالأمر ليس واضحًا. على أية حال، فإنه ذهب من فوره إلى روما حيث كان من المتوقَّع أن يقف البابا أونوريوس إلى جواره، ورفض أن يعترف باتخاذ فردريك اللقب الملكي. أدَّى ذلك إلى زيادة توتر العلاقات الإمبراطورية البابوية التي كانت بالفعل عند أدنى مستوًى لها بسبب تباطؤ فردريك المستمر في القيام بالحملة — التي كان قد وعد بها قبل أحد عشر عامًا — ورفضِه الاعترافَ بسلطة البابا على شمال ووسط إيطاليا. اتخذ الخلاف منحًى أعمقَ عندما مات أونوريوس في ١٢٢٧م ليخلفه «هوجو Hugo»، كاردينال أوستيا، الذي اتخذ اسم «جريجوري التاسع Gregory IX».[٨] جريجوري الذي كان طاعنًا في السن بدأ كما كان يقصد أن يسير. كتب إلى فردريك بعد تنصيبه مباشرةً يقول: «انتبِه ألا تضع فطنتك التي تشترك فيها مع الملائكة، في مستوًى أقل من حواسك التي تشترك فيها مع البهائم والنباتات.» بالنسبة للإمبراطور الذي كان فسوقه قد أصبح أسطوريًّا في وقت قصير، كانت تلك طلقةً مؤثِّرة عبْر الأقواس.

في ذلك الوقت كانت الحملة تستجمع قواتها. كان سيلٌ لا يتوقف من الفرسان الألمان يعبرون الألب ويتدفقون على طريق الحج في إيطاليا للانضمام إلى الإمبراطور في أبوليا؛ حيث كان الجيش سوف يستقل السفن من هناك متجهًا إلى الأراضي المقدَّسة. ولكن آنذاك، في الحرارة الشديدة في أبوليا في شهر أغسطس، كان أن انتشر وباء، ربما كان تيفودًا أو كوليرا، ليجتاح معسكر الصليبيين بقوة. كان فردريك قد اصطحب يولاند إلى «أوترانتو Otranto» أولًا، ثم إلى جزيرة «سانت أندريا St Andrea» البعيدةِ عن الشاطئ حرصًا على سلامتها؛ إذ كانت حاملًا؛ إلا أنه سقط هو نفسه أمام الفيروس اللعين، كما سقط

كذلك كونت «ثرنجيا Thuringia» الذي كان قد جاء معه بعدة مئات من جنود الخيَّالة. ركب الرجلان المريضان السفينةَ بالرغم من ذلك، وأبحرا من برنديزي في شهر سبتمبر، ولكن بعد يوم أو يومين مات الكونت، وهنا أدرك فردريك أنه هو نفسه كان مريضًا ولا يستطيع مواصلةَ الرحلة. دفع الناجين من أفراد الحملة أمامه، مع تعليمات بالقيام بكلِّ ما يمكنهم من استعدادات على أن يتبعهم عندما يصبح قادرًا ... وعلى أكثر تقدير، قبل مايو ١٢٢٨م؛ كما أرسل في الوقت نفسه السفراء إلى روما لإطلاع البابا على الموقف.

إلا أن جريجوري رفض أن يستقبلهم، وبدلًا من ذلك أصدر منشورًا بابويًّا مقرعًا يتَّهم فيه الإمبراطور — صراحة — بحنْثه بقَسمه بالنسبة للحملة. لم يحدِّد هو شخصيًّا موعدًا جديدًا لانطلاقه، بعد تأجيلٍ أكثرَ من مرة. ألم يكن قد وافق على حرمانه كنسيًّا إن لم يفِ بوعده؟ ألم يتصور أن يكون انتشار الوباء حتميًّا بسبب تكدُّس كل تلك الألوف من الجنود والحجاج في حر الصيف الشديد؟ ألم يكن هو شخصيًّا مسئولًا عن هذا الوباء وعن حالات الوفاة الناجمة عنه بما فيها وفاة الكونت؟ ولكن مَن ذا الذي يستطيع أن يؤكد إصابته هو نفسه؟ ألم تكن تلك محاولة أخرى للتملص من تعهداته؟ في التاسع والعشرين من سبتمبر، أعلن البابا حرمان فردريك كنسيًّا.

بهذا الفعل، كان أن خلق فردريك لنفسه مشكلة جديدة. كان من الواضح بذاته أن المحرومين كنسيًّا لا يمكن أن يقودوا حملاتٍ صليبية، وبمرور الأيام كان يتضح أكثرَ فأكثر أن ذلك تحديدًا هو ما كان فردريك ينوي فِعله. كانت هناك حقيقةٌ أخرى بدأت تظهر؛ لقد بالغ البابا في استخدام سلطته. ردَّ فردريك برسالة مفتوحة موجَّهة إلى كلِّ مَن حملوا الصليب، يشرح موقفه بهدوء وروية متوسلًا التفهم والاسترخاء، ضاربًا بذلك مثالًا للأسلوب الذي كان ينبغي على الأب الأقدس أن يتبعَه. كان للرسالة أثرها. عندما قام البابا جريجوري يوم عيد القيامة ١٢٢٨م بعظة ضمنها غضبه على الإمبراطور، ثار عليه جميع المصلين، وطاردوه ليخرج من المدينة ويلجأ إلى «فيتيربو Viterbo». واصل حملته من هناك. إلا أنه، بينما كان قبل أشهرٍ قليلة يحث فردريك على القيام بالحملة، كان هو الآن في الوضع المثير للسخرية ... كان يعارض الحملة ... إذ كان يعرف أن عودة الإمبراطور منها منتصرًا، ستكون ضربةً موجعة لمكانة البابا، لن تبرأ منها قبل وقت طويل.

يوم الأربعاء الموافق للثامن والعشرين من يونيو ١٢٢٨م، أبحر الإمبراطور فردريك الثاني من برنديزي بأسطولٍ قوامه نحو ستين سفينة متجهًا إلى فلسطين. كان الآن قد استعاد

صحته، إلا أن علاقته بالبابا لم تكن قد تحسَّنت بالقدْر نفسه. الحقيقة أن البابا عندما اكتشف أنه كان يستعد للمغادرة، أصدر حرمًا كنسيًّا آخر في الثالث والعشرين من مارس. (وآخر في الثلاثين من أغسطس). كان فردريك قد أصبح أبًا مرة أخرى. قبل شهرين كانت يولاند قد وضعت طفلًا ذكرًا، «كونراد Conrad»، ماتت بعد أيام قليلة من ولادته بسبب حمَّى النِّفاس. مسكينة! لم تتمنَّ قط أن تكون إمبراطورة، وعندما كان عليها أن تغادر فلسطين بكت بمرارة. فكريًّا، لم يكن لديها ما يمكن أن تقدِّمه لزوجها واسع الثقافة؛ وبدوره لم يكن هو أيضًا يوليها اهتمامًا كبيرًا ... على الأقل إلى أن عرف أنها كانت حاملًا في طفل منه. يبدو أنها كانت قد أمضت الثلاثين شهرًا البائسة من زواجها وهي تتوق لرؤية الشرق اللاتيني، فهل يسمح لها فردريك بذلك لو أنها عاشت؟ هل شعر نحوها بأي درجة من الحزن؟ يبدو أننا لن نعرف. ربما كان فكره مشغولًا بحقيقةِ أن موتها قد أضعف بشدة من موقفه لكي يطالب بمملكة أورشليم؛ لأنه كان الآن — بالضبط — في نفس وضع جون البريني العجوز؛ إذ كان جون يحتفظ باللقب باعتباره زوجًا للملكة الشرعية ... وهكذا كان هو أيضًا. بوفاتها، سينتقل اللقب إلى ابنها، كونراد الصغير.

لم يكن من المحتمَل، على أية حال، أن يبحث كونراد دعوى أبيه في المستقبل المنظور، كما أن الإمبراطور كان لديه مشكلات دبلوماسية أخرى تشغَل تفكيره. كانت إمبراطورية صلاح الدين آنذاك تحت حكم ثلاثة إخوة من قبيلته؛ بيت أيوب: الكامل سلطان مصر، والأشرف الذي كان يُعرف بسلطان بابل ومقرُّه بغداد، والمعظم حاكم دمشق مع سلطة مباشرة على أورشليم والأراضي المقدسة. المعظم الذي كان يشكُّ في أخويه (وكانت هناك أسباب كافية لذلك)، ويعتقد أنهما كانا يخطِّطان للاتحاد ضده، كان قد تحالف مؤخرًا مع أتراك خوارزم، وحاصر الأشرف في عاصمته. أما الكامل في القاهرة الذي كان يخشى أن يكون التالي على القائمة، فقد استنجد بفردريك سرًّا؛ إذا تمكَّن الإمبراطور من أن يطرد المعظم من دمشق، فسيصبح هو نفسه في وضعٍ يمكِّنه من أن يعيد له المنطقةَ المفقودة من أورشليم. جاء ردُّ فردريك متعاطفًا. كان من الواضح أن من صالحه تشجيعَ مثل هذا الانشقاق في الشرق الإسلامي قدرَ المستطاع، وحيث إنه كان قد أمضى شبابه في بيئة شبه إسلامية ويفهم الذهنية العربية ويتحدَّث لغتهم، كان في وضعٍ ممتاز لكي يفعل ذلك. وهو على وشْك المغادرة مع الحملة، جاءته أخبار موت المعظم، وبدا الأمر وكأن حماسة الكامل للتحالف كانت تذوي.

بعد ثلاثة أسابيع أو أكثر قليلًا، رسا الأسطول الإمبراطوري في ٢١ يوليو في ميناء ليماسول في قبرص. كان ريتشارد قلب الأسد قد استولى عليه في ١١٩١م ويريد أن يبيعه

فرسان الهيكل، وعندما وجد أنهم لا يستطيعون أن يدفعوا ثمنه، أعطاه لـ «جاي»، ملكِ أورشليم المخلوع.[٩] أسَّس جاي مملكة إقطاعية، والغريب أنها بقيت حتى نهاية العصور الوسطى. ربما كانت تلك المملكة إقطاعة من الإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ حيث أعلن «ألمريك Almeric» — شقيقُ جاي وخليفته — الولاءَ لـ «هنري السادس»، والدِ فردريك. إلا أنه كانت هناك صعوبات من بينها أن الملك الحالي كان قاصرًا لم يبلغ سنَّ الرشد بعد، وأن الحاكم الفعلي بالوصاية وهو «جون الإيبليني John of Ibelin» كان في الوقت نفسه حاكم بيروت، وواحدًا من أغنى وأقوى شخصيات الشرق اللاتيني. كان كثيرٌ من أبناء طبقة النبلاء القبارصة يمتلكون إقطاعيات وعزبًا كثيرة في فلسطين وسوريا، وكان عدم استعدائهم مهمًّا.

إلا أن فردريك تعامل معهم بما هو أسوأ من ذلك. كان في البداية ودودًا ومجاملًا، دعا جون الإيبليني مع الملك الصغير والقادة والبارونات المحليين إلى وليمة كبيرة في قلعة ليماسول. كان كل شيء يبدو هادئًا ... وفجأةً اقتحم جماعةٌ من الجنود القاعةَ واتخذوا مواقعهم حول جدرانها. وفي الصمت الرهيب الذي خيَّم على المكان، قام الإمبراطور ليُبلِغ جون الإيبليني، بصوتٍ أشبه بالرعد، أنه كان يريد منه أمرين، وكان ردُّ جون بأنه كان يسعده الاستجابة ما دام يعتبر ذلك حقًّا. طلب فردريك: أولًا، مدينة بيروت التي زعم أنها لم تكن من حق جون. ثانيًا، كل عائدات قبرص منذ تسلَّم الملك الصغير العرش. لم تكن تلك المطالب معقولة، كما أن الغطرسة التي أُعلنت بها ومحاولات الإكراه والتهديد الواضحة — بينما كان ينبغي أن يكون كل المعنيين مشمولين بتقاليد كرم الضيافة — كل ذلك جعل التأثير أكثر سوءًا. أجاب جون على قدرِ استطاعته في هذا الموقف. سيحتفظ ببيروت من قِبل ملك أورشليم. لم يكن لها صلة بقبرص؛ وبالرغم من اعترافه بسلطة الإمبراطور على الجزيرة، لم يستطِع أن يقر بسلطة مماثلة على سوريا وفلسطين. أما بالنسبة لعائدات قبرص فقد كانت تسلَّم بانتظام وعلى النحو الصحيح لأمِّ الملك، الملكةِ «آليس Alice»، باعتبارها الوصية.

غضب فردريك ولكنه لم يصمِّم. لم يكن الوضع القانوني للبَر الرئيسي واضحًا. كانت مملكة أورشليم مقطَّعة الأوصال — يمكن أن نقول ممزَّقة — بسبب غزو صلاح الدين للمدينة المقدسة، كما أنها كانت قد ازدادت ضَعفًا بسبب الكوارث التي جرَّها عليها سلسلة من الأقليات. كان كثير من البارونات بمن فيهم عائلة إيبلين، قد أصبحوا أكثرَ ثراء وقوة من ملكِهم، وكانوا يتصرفون غالبًا على هذا الأساس. لم يكن فردريك يستطيع

أن يتدخل بقوة في أمور كثيرة. كان بالإضافة لذلك متعجلًا ويعرف جيدًا أن البابا كان يضع عينه على مملكة صقلية، وأنه إذا بقي طويلًا في الشرق فإن غزوها لن يتأخر كثيرًا. كان أمله الوحيد أن يتحرك بسرعة، يضرب ضربته ويعود إلى بلاده بأسرعِ ما يمكن. من هنا لم يكن أمامه من خيار سوى أن يكمل رحلته — مصطحبًا معه ملك قبرص الصغير.

رسا في صور بالقرب من نهاية العام ١٢٢٨م. كانت هناك وحدات من فرسان الهيكل والإسبتارية لتحيته ولتزيد من حجم جيشه الذي كان قد أصبح كبيرًا، ولكن فردريك لم يكن لديه أي نية للقتال ... إن كان بالإمكان تحقيق أهدافه عن طريق الدبلوماسية السلمية. أوفد سفيرًا للسلطان الكامل الذي كان قد استحوذ بالفعل على أراضي شقيقه المتوفَّى، كما كان نادمًا بشدة على عرضه السابق. أشار السفير إلى أن الإمبراطور قد جاء بدعوة من السلطان، وحيث إن العالم كان قد عرف أنه هنا، فكيف له أن يعود خالي الوفاض؟ ففقدان الثقة قد يكون قاتلًا، ولن يكون بمقدور الكامل أن يجد له حليفًا مسيحيًّا بعد ذلك. أما بالنسبة لأورشليم، فكانت في تلك الأيام مدينةً عديمة الأهمية، بلا دفاعات، مهجورة تقريبًا؛ وحتى من وجهة النظر الدينية كانت أقل أهمية بالنسبة للإسلام منها بالنسبة للمسيحية. ألن يكون استسلامها ثمنًا قليلًا مقابل علاقات سلمية بين المسلمين والمسيحيين، ومن ثَم لرحيله الفوري؟

لم تكن هناك أي تهديدات، صريحة على الأقل. ولكن الجيش الإمبراطوري كان مستعدًّا وقوَّته كبيرة، وكان السلطان في وضعٍ مستحيل. كان الإمبراطور هناك على عتبة بيته ينتظر الحصول على ما وُعد به، ومن غير المرجَّح أن ينصرف قبل أن يحصل عليه. في الوقت نفسه كان الوضع في سوريا يسبِّب له إزعاجًا على نحوٍ متزايد؛ حيث كانت محاولات الكامل الاستيلاء على دمشق لا تحقِّق أهدافها. أخيرًا رضخ السلطان ووافق على اتفاقيةٍ مدتها عشر سنوات بشروط معينة: بداية، تظل أورشليم دون حماية. جبل الهيكل وقبة الصخرة والمسجد الأقصى المقابل لها تبقى في أيدي المسلمين مع أحقية المسيحيين في زيارتها، وكذلك «حبرون Hebron» (الخليل). كذلك يحق للمسيحيين أن تكون لهم مزاراتهم المقدسة الأخرى في «بيت لحم Bethlehem»، و«الناصرة Nezareth»، مع تفاهمٍ على أن تكون مرتبطة بالمدن المسيحية على الساحل بممر ضيق عبْر ما سوف يظل أراضيَ إسلامية.

يوم السبت الموافق السابع عشر من مارس ١٢٢٩م دخل فردريك أورشليم رسميًّا، وكان ما زال تحت الحِرْم الكنسي. في اليوم التالي، وفي تحدٍّ واضح للبابا حضر قداسًا في

كنيسة «المذخر المقدس The Holy Sepulcher» مرتديًا تاجه الإمبراطوري. كان قد حقَّق بالفعل كلَّ ما يريد ... فعل ذلك دون إراقة قطرة دم واحدة ... مسيحيًّا كان أو مسلمًا. كان المتوقَّع أن يعمَّ الفرح المجتمع المسيحي، ولكن رد الفعل كان غاضبًا. فردريك الذي كان ما زال تحت الحِرْم الكنسي جرؤ على أن تطأ قدمه الأراضي المسيحية المقدسة التي فاز بها بالتواطؤ مع سلطان مصر؛ أما بطريرك أورشليم الذي كان قد تجاهل الإمبراطور منذ وصوله، فكان الآن يعبِّر عن استيائه بوضع المدينة كلها تحت الحِرْم الكنسي. تم حظر الطقوس الدينية في الكنائس؛ البارونات المحليون كانوا غاضبين؛ لأنهم لم يُستشاروا، زاد غضبهم عندما وجدوا الأراضي التي تم استعادتها في الجليل تُعطى للفرسان التيوتون[١٠] في حاشية الإمبراطور، وليس لمُلَّاكها التقليديين من العائلات الكبيرة. كانوا يتساءلون كيف يمكنهم الاحتفاظُ بكل تلك الأراضي التي استحوذ عليها فردريك بشكل مريب، بعد أن يكون الجيش الإمبراطوري قد عاد إلى الغرب.

كانت القشَّة الأخيرة، سواء بالنسبة لرجال الدين أو العامة، هي اهتمامَ الإمبراطور — وافتتانه — بعقيدة المسلمين وبالحضارة الإسلامية عمومًا. لقد أصرَّ على سبيل المثال على زيارة قبَّة الصخرة — التي كتب دراسة تفصيلية عن معمارها،[١١] وكذلك المسجد الأقصى حيث يقال إنه عبَّر عن خيبة أمل شديدة لعدم سماعه الأذان (كان السلطان قد أمر المؤذِّن بالسكوت علامة على الاحترام)، وكشأنه دائمًا كان يسأل كلَّ عالم مسلم يقابله عن دينه وعمله وأسلوبه في الحياة ... وعن كلِّ ما يعنُّ له. كان ذلك التوجه صادمًا بالنسبة لمسيحيي الشرق اللاتيني. حتى لغة الإمبراطور العربية الفصيحة كانوا يأخذونها عليه. كانت شعبيته تنخفض مع كل يوم يمضيه في أورشليم، وعندما تحرَّك للذهاب إلى عكا — ونجا بصعوبةٍ من كمين كان قد أعدَّه له فرسان الهيكل في الطريق — وجد المدينة على شفا تمرُّد كبير.

في ذلك الوقت كان هو أيضًا في حالة نفسية سيئة، مصدومًا بسبب الجحود الواضح من رفاقه المسيحيين رغم استعداده للعطاء قدرَ استطاعته. أمر جنوده بمحاصرة عكا ومنْع أي شخص من الدخول أو الخروج. ضرب رجال الكنيسة الذين كانوا يعظون ضده بالفلقة. كذلك لم تتحسَّن حالته النفسية بسبب تقارير عن غزو مملكته الإيطالية بجيشٍ بابوي بقيادة العجوز جون البريني، وكان ذلك سببًا إضافيًّا لكي يغادر تلك الأراضي الجاحدة بأسرعِ ما يستطيع. أمر بتجهيز أسطوله لكي يبحر في الأول من مايو. بعد فجر ذلك اليوم، وبينما كان مارًّا بحي القصابين إلى السفن المنتظرة كان الناس يرشقونه

بالنفايات. بصعوبة بالغة، استطاع جون الإيبليني الذي كان قد جاء إلى رصيف الميناء ليكون في وداعه، أن يعيد الهدوء للمدينة.

بعد فترة توقُّف قصيرة في قبرص، وصل الإمبراطور إلى برنديزي في العاشر من يونيو، ليجد إمبراطوريته في حالة فوضى شديدة. عدوه القديم جريجوري التاسع استغل غيابه ليشن عليه حملةً شعواء، ويكتب لأمراء وكنائس أوروبا الغربية يطلب المال والعتاد للهجوم على وضع فردريك في ألمانيا وإيطاليا. في ألمانيا لم تترك محاولات البابا لتثبيت إمبراطور منافس في شخص أوتو أمير برنزويك أثرًا كبيرًا؛ من ناحية أخرى قام في إيطاليا بتنظيم غزو مسلَّح لطرد فردريك من الجنوب مرةً أخرى وإلى الأبد، لكي يتم حكم المنطقة من روما مباشرة. كان القتال الضاري مستمرًّا في ذلك الوقت في «أبروزي Abruzzi» وحول «كابوا Capua»، بينما كانت عدة مدن في أبوليا — ممتلئة بعملاء البابا — قد صدَّقت الشائعات التي تردَّدت عن موت فردريك، وكانت في حالة تمرُّد. ولكي يشجِّع مدنًا أخرى لكي تحذوَ حذوها، أصدر جريجوري مرسومًا يعفي بموجبه كلَّ رعايا الإمبراطور من يمين الولاء.

كان الموقف خطيرًا، ولكن منذ لحظة وصول فردريك بدأ المد يغيِّر اتجاهه. هنا كان الإمبراطور مرةً أخرى بين شعبه، لم يمُت، بل ومنتصرًا بعد أن استعاد الأماكن المقدسة للعالم المسيحي دون إراقة دماء. ربما لا يكون إنجازه قد ترك انطباعًا جيدًا لدى المجتمعات المسيحية في الشرق اللاتيني، ولكن شعب الشمال الإيطالي وصقلية كان ينظر إلى ما تحقَّق في ضوءٍ آخرَ. يضاف إلى ذلك أن فردريك نفسه بعودته إلى مملكته أصبح إنسانًا مختلفًا على الفور. ذهب عنه الغضب والعنف ولغة التهديد. ذهب عدم الشعور بالأمان وفقدان الفهم وعاد إلى الاتزان والسيطرة. أمضى ذلك الصيف كله في الحملة لا يعرف التعب أو الكلل، وفي آخر أكتوبر كان الجيش البابوي قد انكسر.

إلا أن جريجوري التاسع لم ينكسر. كانت المصالحة النهائية بينهما طويلة جدًّا، كانت عملية صعبة ومؤلمة. في الشهور التالية سيقدِّم فردريك التنازل بعد التنازل، وكان أثناء ذلك يعرف أن البابا العنيد ما زال يحتفظ بسلاحه الأكثر تدميرًا. كان فردريك ما زال محرومًا كنسيًّا؛ عائق جسيم، وخزي دائم، ومسئولية دبلوماسية خطيرة. وكمسيحي أيضًا — على قدرِ ما كان — لم يكن فردريك يريد أن يموت ملعونًا من الكنيسة. ولكن جريجوري كان مستمرًّا في المراوغة حتى يوليو ١٢٣٠م، عندما وافق على مضض على

اتفاقية سلام — تم توقيعها في «كبرانو Ceprano»، في آخر أغسطس — ورفع حكمه. بعد شهرين كان الرجلان يتناولان العشاء معًا في القصر البابوي في «أناجني Anagni». كان العشاء، كما قد نتصوَّر، لا بد أن يكون بعيدًا عن مشاعر المودة على الأقل في البداية، ولكن فردريك كان يتمتع بسحرٍ شخصي يستخدمه عندما يريد، ويبدو أن البابا كان يشعر بالرضا بحقٍّ؛ لأن الإمبراطور الروماني المقدس تجشَّم مشقة زيارته بشكل غير رسمي بعيدًا عن كل مظاهر الأبهة؛ وهكذا انتهى أحد الصراعات الهرقلية بين إمبراطور وبابا، التي يبدو أن تاريخ العصور الوسطى يغفلها عادة.

في ١٢٣١م كان فردريك في وضعٍ يسمح له بإصدارِ ما أصبح يُعرف ﺑ «دساتير ميلفي Constitutions of Melfi»، بعد جمع وتنظيم وتصنيف كامل للقانون على نطاقٍ لم يحاوله أحد منذ أيام جستنيان قبل سبعة قرون. أصبح الإمبراطور يتحكم تمامًا في القضاء الجنائي، وأنشأ هيئةً من القضاة المتجولين تعمل باسمه، وقلَّص حريات البارونات ورجال الدين والمدن، ووضع أسسَ حكمٍ حازم لا مثيل له سوى في إنجلترا، مع تمثيل مماثل للنبلاء ورجال الكنيسة والمواطنين.

الحقيقة أن «ريجنو Regno» (كما كانت تُعرف مملكة صقلية) كانت الأقلَّ إزعاجًا من بين كل ممتلكاته. كان قد وُلد هناك وكان يعرف كلَّ شبر منها ويفهم شعبها. كانت الأمور مختلفة في المنطقتين الأخريين الكبيرتين الخاضعتين لحكمه؛ الشمال الإيطالي، وألمانيا، حيث كانت القوة الإمبراطورية — التي لم يكن لها أساسٌ قوي مثل ذلك الذي كانت إنجلترا وفرنسا ترسِّخه بفضل عروشها المتوارَثة — قد انهارت بشكل كبير على مدى السنوات المائة السابقة. في الشمال الإيطالي، على نحوٍ خاص، كانت المدن والبلدات الكبيرة في لمبارديا شوكةً دائمة في خاصرة الأباطرة المتوالين — لم يعانِ منهم أكثر من بربروسا جَد فردريك، الذي كان قد لقي شرَّ هزيمة في «ليجنانو Legnano» قبل أكثرَ من نصف القرن بقليل. للمحافظة على استقلالها، كانت سياساتهم الأكثر نجاحًا دائمًا، هي الوقيعة بين البابا والإمبراطور واللعب على هذا الوتر. أخبار المصالحة التي تمَّت في ١٢٣٠م أصابتهم بالفزع. كان قد تم إحياء الرابطة اللمباردية Lombard League على عجل، وكان أعضاؤها ينظِّمون صفوفهم ضد الخطر القادم.

كانوا محقِّين في ذلك. لو أن فردريك كان على استعداد لتقسيم إمبراطوريته، مخصصًا ألمانيا لنفسه وإيطاليا لابنه هنري — أو حتى فعل العكس — كان لا بد من أن يترك

الشمال الإيطالي لرغبته الخاصة، إلا أن ذلك لم يكن توجُّه الإمبراطور. ولأنه كان مصرًّا على أن يحكم المنطقتين بنفسه، كان يعرف أن طريقًا آمنة بينهما ضرورةٌ، كما كان هناك سبب آخر. بالنسبة له كانت إيطاليا دائمًا أهمَّ من ألمانيا. إنها، في النهاية، الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وليست ألمانيا المقدسة. كانت عاصمتها روما، ولا بد من أن ينقلها إلى روما مرة أخرى.

كخطوة أولى نحو تحقيق هذا الهدف، قام الإمبراطور باستدعاء ابنه هنري وكلِّ الأمراء الألمان الكبار وممثلي المدن الكبرى في الشمال الإيطالي لمجلس «رافينا Ravenna» يومَ «عيد جميع القديسين All Saints' Day» الموافق الأول من نوفمبر ١٢٣١م. بذل كلَّ ما في وُسعه لكي يزيل مخاوف اللمبارد. تعهَّد بألا يأتيَ معه بأي حراسة عسكرية، حاشية شخصية فحسب، وأن تتم كل الإجراءات «على شرف الرب والكنيسة والإمبراطورية وصالح لمبارديا». كان بلا أي شك يعني كلَّ كلمة، ولكن علامات الخطر ما كانت لتخفى على اللمبارد. لم يكونوا يريدونه، ولا يريدون جماعة من البارونات الألمان المشاكسين. قاموا على الفور بإغلاق ممرات الألب. لم يكن ذلك الإجراء ناجحًا تمامًا (تمكَّن كثير من المندوبين من الدوران حول الحصار وشقُّوا طريقهم عبر مسار شرقي يمر بـ «فريولي Friulii»)، ولكن المجلس تأخَّر نحو شهرين. على الرغم من ذلك احتفلت الوفود بعيد الميلاد، وأقاموا العروض بما في ذلك عرضُ مجموعة حيوانات الإمبراطور الشهيرة التي كانت ترافقه في كل أسفاره، بما فيها من الصقور الفريدة والأسود والفهود والجمال والقردة والنسانيس ... وفيل، كان تأثيره على المزارعين المحليين يفوق الخيال. كان فردريك ماهرًا في التباهي ويحبه. كان يدرك أن هناك مندوبًا غائبًا، هذا المندوب وهو الأهم كان ابنه هنري ملك الرومان. لم يكن هنري قد أرسل أيَّ تفسير لغيابه — ناهيك عن اعتذاره — وسرعان ما اتضح أنه لم يحاول حتى الاستجابة لاستدعاء والده.

ربما كان السبب مجردَ ارتباك. ليس هذا هو المكان لمناقشة الإدارة الإمبراطورية في ألمانيا، يكفي القول إن هنري كان قد تُرك بواسطة والده كصاحب لقب فخري وهو في الثامنة؛ ومن ثَم عندما بلغ سن الرشد في الثامنة عشرة لم يكن يشعر بكثير من الحب والولاء نحو أبٍ لا يربطه به سوى ذكريات شاحبة من الطفولة. وباتباعه سياسةَ مواجهة مع الأمراء الألمان عكس تلك التي كان يتبعها فردريك، نجح في استعدائهم عليه؛ ولذا عندما بلغ السيل الزبى في ١٢٣١م، انتزعوا منه سلسلة كاملة من الحقوق والمزايا فأضعفوا القوةَ الإمبراطورية في ألمانيا.

وهو في حالة غضب شديد، دعا فردريك لمجلس آخرَ في الصيف التالي في «أكيليا Aquilea»، موضحًا أن ابنه سوف يتجاهل الدعوةَ ويعرِّض نفسه للتهلكة. هذه المرة لم يجرؤ هنري على العصيان واضطُر للقسم على أنه من الآن فصاعدًا سوف يدافع عن موقف وحقوق الإمبراطور، وقام بطرد المستشارين الذين كانوا قد شجَّعوه على سياساته الكارثية السابقة. ولكن إذا كان فردريك قد تصوَّر أنه بابن مطيع وأمراء مستعدين للمساعدة يمكنه أن يُخضِع لمبارديا، فلا بد أن يكون قد أخطأ. معظم السنوات التسع عشرة الأخيرة من حياته ما كان ليقضيها في حروب في أرجاء شبه الجزيرة الإيطالية محاولًا بقوة، كما حاول جَده من قبل، ترسيخَ سلطانه. كان هناك على أية حال فارقٌ كبير مهم بينهما. كان فردريك بربروسا ألمانيًّا قلبًا وقالبًا، إمبراطوريته كانت إمبراطورية ألمانية، أما بالنسبة لفردريك الثاني فقد كانت إيطاليا تأتي أولًا دائمًا، وبالرغم من المصالحة العارضة المؤقتة، فإن ذلك كان يضمن عداء البابا الذي كان يشعر أنه مضغوط بين المنطقتين الإمبراطوريتين: لمبارديا وريجنو.

على مدى تلك السنوات الأخيرة، كان هناك عدد كبير من الشخصيات القيادية لا بد من استبدالهم. هنري، ملك الرومان أُزيح عن العرش في ١٢٣٥م بعد عدة بوادر تدل على عدم الطاعة، ليخلفه بعد عامين أخوه غير الشقيق: كونراد.

في ذلك العام نفسه، تزوَّج فردريك مرة أخرى، وستكون زوجته الثالثة هذه المرة هي «إيزابيلا Isabella» شقيقة هنري الثالث ملكِ إنجلترا. البابا جريجوري، بعد أن حرم فردريك كنسيًّا مرةً أخرى في ١٢٣٩م، مات في ١٢٤١م. ولو أن خليفته — العجوز البائس «سيلستين الرابع Celestine IV» — كان قد بقي على قيد الحياة، فلربما كانت متاعب فردريك قد انتهت، ولكن بعد سبعة عشر يومًا تبِع سليستين البابا جريجوري إلى العالم الآخر. على مدى العام ونصف العام التاليين، وبينما كان الإمبراطور يجهِّز أسطولًا ضخمًا ليبحرَ به ضد جنوة وفينيسيا، كان في نفس الوقت يبذل كلَّ جهده ليسيطر على الانتخاب القادم ... ولكن دون جدوى؛ فالكاردينال الجنوي «سينيبالدو دي فيشي Sinibaldo dei Fieschie»، الذي أصبح إنوسنت الرابع في يونيو ١٢٤٣م، ثبَت أنه كان أكثرَ عداء من جريجوري. بعد عامين فحسب من توليه المنصب، وفي مجلسٍ عامٍّ في «ليون Lyons»، أُعلن عزل فردريك الذي كان محرومًا كنسيًّا، وتم تجريده من كل ألقابه ومناصبه.

إلا أن الأباطرة لا يُلقى بهم بمثل هذه السهولة. كان اسم عائلة «هوهنشتوفن Hohenstaufen» ما زال يحتفظ بمكانةٍ رفيعة في ألمانيا، بينما كانت جولات فردريك

التي لا حصر لها قد حقَّقت له سُمعة رفيعة، لدرجةِ أنه كان يبدو كليَّ الحضور وكأنه جزء من الحياة نفسها. تجاهل القرارات البابوية بكل كبرياء وواصل الصراع، كان ما زال مستمرًّا في ذلك عندما دهمته أزمةُ ديزنطاريا مفاجئة في ديسمبر ١٢٥٠م في «كاستل فيورنتينو Castle Fiorentino» في أبوليا. مات بعد أيام قليلة، وكان ذلك يوم الثلاثاء الثالث عشر من ديسمبر، قبل عيد ميلاده السادس والخمسين بثلاثة عشر يومًا. حتمًا، كانت هناك شائعات عن سُم، ولكن لم يكن هناك دليل على ذلك. تم نقل جثمانه إلى باليرمو؛ حيث دُفن في الكاتدرائية بناءً على رغبته، وفي التابوت الحجري السماقي الرائع الذي كان قد أُعد لجَده روجر الثاني في مؤسسته في «سيفالو Cefalù»، وبقي غير مستخدم.

كان فردريك قد سمَّى كونراد، ابن يولاند ملكة أورشليم، وريثًا له في ألمانيا وريجنو، وأثناء غياب كونراد في ألمانيا كان قد عهِد بحكم إيطاليا وصقلية لـ «مانفريد Manfred» الابنِ المفضَّل بين أبنائه الأحد عشر غير الشرعيين. أثبت مانفريد أنه كان سليلًا جديرًا بوالده. أعاد إحياء بلاط فردريك الرائع وأنشأ ميناء مانفريدونيا الرائع في أبوليا، وزوَّج ابنته «هيلينا Helena» لمايكل الثاني حاكمِ إيبيروس، وهو التحالف الذي أكسبه جزيرةَ كورفو ومساحة كبيرة من الأراضي ممتدةً على الساحل الألباني، تضم مدينة (وميناء) «دورازو Durazzo» التاريخية، كما أصبحت ابنته الثانية «كونستانس Constance» زوجًا لـ «بيتر Peter»، وريثِ عرش أراجون.

حتى بعد وفاة أخيه، غير الشقيق، كونراد في ١٢٥٤م، لم يسعَ مانفريد للسيطرة على شمال أو وسط إيطاليا، الأمر الذي كان يسبِّب ارتياحًا شديدًا للبابا. إلا أن سلطته المتزايدة في الجنوب أثارت القلق في روما، وزادت المخاوف عندما ضغط على جماعة البارونات في صقلية في أغسطس ١٢٥٨م لكي يعلنوه ملكًا. منذ خلع فردريك وإبعاده نظريًّا في ١٢٤٥م، كان البابا إنوسنت يبحث عن «بطل مسيحي» يمكن أن يخلِّص الشمال الإيطالي مرةً وإلى الأبد من كل آل هوهنشتوفن، ويقود جيش الكنيسة إلى النصر في شبه الجزيرة. في مرحلةٍ معينة كان «ريتشارد إيرل كورنول Richard Earl of Cornwall»، شقيقُ هنري الثالث وأغنى أغنياء إنجلترا (كان قد انتُخب ملكًا على الرومان في ١٢٥٧م) كان يبدو الشخصَ المناسب للاضطلاع بالمهمة، ولكن إنوسنت لم يتمكَّن من إقناعه بقبول التحدي؛ وعندما مات البابا في ١٢٦١م، ليخلفه «أوربان الرابع Urban IV» (أول فرنسي

يشغل العرش البابوي)، كان ما زال يحاول أن يجد المرشح المناسب. ووقعت عينا أوربان على مواطنه «شارل الأنجوي Charles of Anjou».

شارل هو شقيق لويس التاسع، وكان آنذاك في الخامسة والثلاثين. في ١٢٤٦م، كان قد حصل عن طريق زوجته على مقاطعة «بروفنس Provence»، التي جلبت له ثروةً طائلة بالإضافة إلى أشياءَ أخرى كثيرة، كما أنه كان مديرًا لميناء مرسيليا المزدهر. كان البابا يقدِّم الآن لهذا الشخص الطَّموح ... الانتهازي البارد ... القاسي ... فرصةً لا بد من اهتبالها. كان لا بد من أن يكون الجيش الذي سيقوده شارل ضد مانفريد، والذي كان قد بدأ يتجمَّع في الشمال الإيطالي في خريف ١٢٦٥م، كان لا بد من أن يكون حملةً بالمعنى الرسمي؛ أي أن يكون — كالعادة — جماعة مختلِطة من المزيج المعتاد؛ من المغامرين الذين يأمُلون في الحصول على إقطاعيات في الشمال الإيطالي، من الحجَّاج الذين يرجون الغفران لخطاياهم، من قُطاع الطرق الذاهبين للسلب والنهب ليس إلا. كان معهم — برغم ذلك — عددٌ من الفرسان من كل أرجاء أوروبا الغربية: فرنسيون وإسبان وطليان وبروفنسال ... كما زج بعدد قليل من الإنجليز، وكان شارل يعتقد أنهم سيكونون أكثرَ من ندٍّ لأي شيء قد يلقي به مانفريد ضدهم.

في السادس من يناير ١٢٦٦م توَّج البابا أوربان شارل الأنجوي بتاج صقلية، وبعد أقلَّ من شهر عبَر جيش شارل الحدود في الثالث من فبراير ودخل ريجنو. لم تكن هناك حملةٌ طويلة هذه المرة. التقى الجيشان يوم السادس والعشرين خارج المدينة الرومانية القديمة «بنيفنتو Benevento» وانتهى كل شيء بسرعة. مانفريد شجاع كعهده دائمًا، صمد وقاتل، ولكن جنوده الذين كانوا أقلَّ عددًا سرعان ما فروا من الميدان. كانت المعركة حاسمة؛ انتهت الحملة، وكذلك انتهى — تقريبًا — بيتُ آل هوهنشتوفن. بعد عامين، قام كونراد الرابع، ابنُ الملك كونراد (المعروف بـ «كونراندين Conrandin») والأمير «هنري القشتالي Henry of Castile»، قاما بمحاولةٍ أخيرة لإنقاذ الموقف، فقادا جيشًا من الألمان والطليان والإسبان إلى ريجنو. أسرع شارل وقابلهم عند حدود قرية «تاجلياكوزو Tagliacozzo». هذه المرة، كانت المعركة التي وقعت في الثالث والعشرين من أغسطس ١٢٦٨م، أكثرَ صعوبةً ونتج عنها مذابحُ رهيبة في كلا الجانبين، وفي النهاية كان النصر مرةً أخرى من نصيب «الأنجويِّين The Angevins». هرب كونراد من الميدان ليقع في الأسرِ بعد وقت قصير. بعد ذلك كانت هناك محاكمة صورية في نابولي. في التاسع والعشرين من أكتوبر تم اقتياد الأمير الصغير (كان في السادسة عشرة) وعدد كبير من رفاقه إلى ساحة السوق حيث قُطعت رءوسهم فورًا.

كان مانفريد وكونرادين بطلين ... كلٌّ على طريقته. لم يكن ذنبهما أن الأب والجَد كانا قد ألقيا بظلهما عليهما فحجبا صورتيهما ... هكذا كان الكثير من العالَم المعروف. كانت إجادة ست لغات إنجازًا نادرًا في القرن الثالث عشر، أكثرَ مما هو اليوم. أضف إلى ذلك أن فردريك كان شاعرًا غنائيًّا شديدَ الحساسية، وفي بلاطه تم اختراع «السونيتة The Sonnet».[١٢] كان راعيًا كريمًا للفنون ورجلَ دولة ماهرًا وأعظم علماء التاريخ الطبيعي في زمنه. حبُّ الاستطلاع الفكري وفَّر له معرفة كبيرة بالفلك والهندسة والجبر والطب والعلوم الطبيعية. كان من أبرزِ صفاته كذلك موهبته الكبيرة في فن الاستعراض. قوة شخصيته وما لها من سحر خاص تؤكِّد أنه كان يترك أثرًا في كلِّ مَن له صلة به، إلا أنه كان قادرًا على بناء صورة ذهنية أبعدَ من ذلك بكثير، بتلك المجموعة النادرة من الوحوش ... بمجموعته الشخصية من المسلمين ... حتى بمجموعة حريمه. كان الأمران الأخيران (المسلمون والحريم) مما يأخذه عليه أعداؤه دائمًا، إلا أنهما كانا يحملان رسالةً واضحة: الإمبراطور ليس كغيره من الرجال ... كان عملاقًا، نصف إله، لا يمكن أن تنطبق عليه قواعد السلوك المعروفة.

بكلمة واحدة، كان له أسلوبه، وقد كان الأسلوب دائمًا، ومثلما هو اليوم، خصيصة إيطالية. ربما كان فردريك أحدَ الأوائل، وما أقلَّهم في التاريخ، الذين وضعوا قَدمًا في كلا العالَمين الإيطالي والألماني، والذين كانوا يشعرون بالاطمئنان على كلا جانبي الألب. إلا أن قلبه ظل في إيطاليا حيث أمضى معظم حياته، ولعله يجد مكانه هنا — في هذا الكتاب — كإيطالي. ثقافيًّا، أعطى البلاد الكثير، ولو لم يفرَّ التروبادور[١٣] البروفنسال من فظائع الحملة الألبيجسية ليجدوا ملاذًا دافئًا في بلاط باليرمو، ويلهموا الشعراء المحليين بقصائد الحب، فلربما كان الأدب الإيطالي قد اتخذ مسارًا مختلفًا، ولما كانت «الكوميديا الإلهية». في مجال العمارة كذلك، كان فردريك مبدعًا. المدخل الحصين الهائل لمدينته الحدودية «كابوا Capua»، الذي شيَّده للدفاع عن جسرها على نهر «فالتورنو Vulturno»، والذي قام بتصميمه بنفسه، لم يَعُد له وجود، إلا أن الكثير من منحوتاته ما زال محفوظًا في المتحف المحلي، ويتضح منه أن الإمبراطور كان يعتمد لغةَ الديكور في روما القديمة، وهي التي كانت إرهاصًا بالنهضة قبل قرون من حدوثها. المثلثات الكلاسيكية التي تعلو واجهات المباني، الأعمدة ذات التيجان والقواعد الناتئة من الجدران ... كل ذلك موجود في استراحة الصيد في «كاستل ديل مونتي Castel del Monte»، ذلك المبنى الواسع ثماني الأضلاع المشيد من الحجر الجيري، الذي يتوِّج قمةَ أحد تلال أبوليا. لكن ... لعلنا مخطئون في

شعورنا بالدهشة؛ حيث إن فردريك في آخرِ الأمر إمبراطور روماني … وكان مصرًّا على ضرورة ألا ننسى ذلك.

إلا أنه كان فاشلًا من الناحية السياسية. كان حُلمه أن يجعل من إيطاليا وصقلية مملكةً متحدة داخل الإمبراطورية، عاصمتها روما؛ إلا أن الأهداف الملحَّة للبابوية التي كانت تدعمها مدن وبلدات لمبارديا، كل ذلك كان ليؤكد استحالةَ تحقيق هذا الحلم. كان من سوء حظ الإمبراطور أن ينافس اثنين من القادرين الذين كلهم إصرار مثل جريجوري وإنوسنت، إلا أن الصراع لم يكن له نتيجة أخرى على المدى الطويل. كانت الإمبراطورية قد فقدت قوَّتها وتماسُكها حتى في ألمانيا، ولم يَعُد بالإمكان التعويل على ولاء الأمراء الألمان. أما بالنسبة للشمال الإيطالي، فلن تخضع المدن اللمباردية مرةً أخرى للتهديد الإمبراطوري. لو أن فردريك قبِل بهذه الحقيقة فقط لكان الخطر قد زال عن البابوية … ولبقيت ريجنو التي كان يحبها. من أسفٍ أنه رفض ذلك، وبذلك لم يفقد إيطاليا فحسب، بل إنه وقَّع شهادة وفاة سلالته.

هوامش

(١) انظر الفصل التاسع: أعجوبة الدنيا.

(٢) عن فن الصيد بالطيور: De Arte Venandi cum Avibus.

(٣) الفصائل السياسية التابعة لـ «جويلف Guelf» و«غيبللين Ghibelline» التي كان أن سيطرت على السياسة الإيطالية على مدى قرنين تقريبًا، وهي تستمد أسماءها من العشيرتين الألمانيتين العظيمتين؛ بيت ولف Welf، وبيت ويبلنجن Waiblingen (أو شتوفن Staufen). بمرور الزمن أصبحا مرتبطين بالبيوت البابوية والإمبراطورية على التوالي.

(٤) انظر الفصل السادس: إيطاليا العصور الوسطى.

(٥) الحملة الألبيجنسية Albegensian Crusade.

(٦) تُعرف كذلك باسم «إيزابيللا Isabella» ولكننا سنبقي عليها في هذا الكتاب باسم يولاند، حتى لا يكون خلطٌ بينها وبين إيزابيللا الإنجليزية زوجةِ فردريك الثالثة.

(٧) حتى آنذاك لم يكن الأمر قد انتهى بالنسبة له. في ١٢٢٤م، وهو في منتصف العقد السابع من العمر، أصبح وصيًّا مرةً أخرى في إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية، عندما تزوَّج الإمبراطور الطفل بلدوين الثاني «ماريا» ابنةَ جون البالغة من العمر أربع سنوات.

هذه المرة حمل ذلك الشرس العجوز لقب «إمبراطور» وليس لقب «ملك». وهو اللقب الذي ظل محتفِظًا به حتى وفاته في ١٢٣٧م.

(٨) كان ذلك نذير شؤم أو فألًا غيرَ حسن؛ فقد كان «جريجوري السابع Gregory VII» — الكاردينال المرعب هيلد براند Hildebrand — هو الذي ركَّع عمَّ هنري الكبير في كونسا قبل مائة وخمسين عامًا بالضبط.

(٩) انظر الفصل السابع: الهجوم المسيحي المضاد.

(١٠) من بين التشكيلات العسكرية الثلاث فرسان الهيكل والإسبتارية وفرسان التيوتون، كانت الأخيرة هي الأحدث؛ لأنها لم تشكَّل إلا في زمن الحملة الصليبية الثالثة، وكانت هي الأخرى قد بدأت بمستشفًى في الأراضي المقدسة، ولكن اعتبارًا من ١٢٣٠م أصبحت مرتبطة بغزو بروسيا وأراضي البلطيق.

(١١) يقال إن منتجع الصيد الرائع الذي بناه في أبوليا المعروف باسم «كاستل ديلمونتي Castel del Monte» قد بُني على نموذج شكلها المثمَّن، وهو قولٌ مقنع.

(١٢) قصيدة غنائية مكوَّنة من أربعة عشر بيتًا. (المترجِم)

الاحتمال الأكبر أن يكون ذلك قد تم على يد الصقلي جياكومو دا لنتيني Giacomo da Lentini الذي وصلنا نحو خمس وعشرين من سونيتاته. (المؤلف)

(١٣) Troubadors — طبقة من الشعراء الغنائيين «والشعراء الموسيقيين»، الذين اشتهروا في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا، من القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر للميلاد. (المترجِم)

الفصل العاشر

نهاية الشرق اللاتيني

- حملة لويس التاسع الأولى.
- الحملة السادسة: ١٢٥٠م.
- القبيلة الذهبية: ١٢٥٤م.
- عين جالوت: ١٢٦٠م.
- لويس التاسع يعود إلى فرنسا: ١٢٥٤م.
- الهلال منتصرًا: ١٢٧٠م.
- أجراس صقلية: ١٢٨٢م.
- اللامبالاة المسيحية: ١٢٩١م.
- سقوط عكا: ١٢٩١م.

* * *

لا يوجد اختلاف بين اثنين من حكام أوروبا المعاصرين أكثر مما هو بين الإمبراطور فردريك الثاني ولويس التاسع ملك فرنسا. كان فردريك مثقفًا ومفكرًا حرًّا. لم يكن لديه احترام كبير للدين، والحقيقة أنه أمضى شطرًا كبيرًا من حياته تحت الحِرْم الكنسي. صحيح أنه كان يبدي بعض التشدُّد أحيانًا مع المهرطقين وبخاصة عندما كانوا يهددون سلام وأمن الإمبراطورية، إلا أنه كان، في الوقت نفسه، قد شبَّ في بلاط باليرمو بين العرب واليونانيين، وكان يكنُّ احترامًا شديدًا وفهمًا عميقًا لكلٍّ من الإسلام والأرثوذوكسية الشرقية، ولم يكن يجد متعةً ذهنية أكبرَ من مناقشة أدق القضايا اللاهوتية مع علماء من العقيدتين. كرجل دولة، لم يكن له مبدأ معيَّن، ولكنه كان براجماتيًّا في الوقت نفسه، وكان يعرف جيدًا أنه، إن كان له ولإمبراطوريته أن يظلا موجودين، فإن الضمير النقي

لن يكون صالحًا لذلك. في مظهره، لم يكن وسيمًا مطلقًا، كان عريض المنكبين، قصيرًا، ممتلئ الجسم، شعر رأسه قليل يميل إلى الحمرة. أما من الناحية الجسدية فكان صلبًا ... مثل المسامير!

في الناحية الأخرى، كان لويس التاسع قديسًا ... وكان ذلك يبدو مناسبًا له. يصفه أحد الرهبان المعاصرين، كان قد رآه قبل أن يغادر إلى الأراضي المقدسة فيقول: «رفيع ... نحيل ... مهزول، طويل القامة، له سيماء ملائكية وشخصية سمحة.» أحيانًا كانت تشوِّه وجهَه، تحت شعره الأشقر، علاماتُ غضب بسبب حمرة مرض جلدي ظل يعاني منه طيلةَ حياته، وبالرغم من ذلك كان وجهه يشعُّ طيبة. أما السير «ستيفن رانسمان Steven Runciman» فيكتب قائلًا: قليلٌ من البشر كانوا فضلاء على هذا المستوى، إلا أن الغريب أنه لم يكن هناك تظاهُر بالتقوى، كان لويس على العكس مملوءًا بالحيوية، شجاعًا في القتال، صارمًا وحاسمًا عند الضرورة. أمضى معظم حياته المتَّسمة بالوعي واليقظة في الصلاة، وغالبًا منبطحًا على الأرض ناسيًا نفسه تمامًا لكي يعود مشدوهًا، ذاهلًا عن مكانه، إلا أنه — كما كان هو نفسه يعترف — لم يكن لديه دموع «لكي يروي جدب قلبه». ربما كان ذلك أحدَ أسباب كبح شهوات الجسد بالصوم بشكل منتظم، والعناية الشخصية بالمرضى، وبخاصة أولئك الذين كانوا يعانون من أمراض خطرة. بالنسبة للخطيئة فهو لا يمكن تصوُّر وجودها. كان عديم الشفقة مع المهرطقين وغير المؤمنين، وما كان بالإمكان أن يستعيد الأماكن المقدسة دون إراقة دماء، كما فعل فردريك على نحوٍ رائع.

وهو مصاب بشدة بالملاريا في أواخر العام ١٢٤٤م، أخذ الملك الذي كان في الثلاثين من العمر آنذاك عهدًا على نفسه، وهو أنه في حال بقائه على قيد الحياة ليقومن بقيادة حملة صليبية. كان عند كلمته دائمًا، وفور شفائه بدأ استعداداته. استمرت الاستعدادات ثلاث سنوات، ولكن في الخامس والعشرين من أغسطس ١٢٤٨م، ترك أمَّه «بلانش القشتالية Blanch of Castile»[١] كوصية على العرش، وأبحر من ميناء «أيجيوس مورتس Aigues Mortes» الذي كان قد شُيد خصيصى لهذا الغرض، تصحبه زوجته «مارجريت البروفنسية Margaret of Province»[٢] واثنان من أشقائه الثلاثة: «روبرت آرتوا Robert of Artois»، و«شارل الأنجوي Charles of Anjou»؛ وفي الثامن عشر من سبتمبر رسوا في ليماسول في قبرص، المكان المحدَّد للقاء جيش الحملة؛ حيث عكف لويس على التخطيط لحملته. بالرغم من كارثة الحملة الخامسة، كان هناك إجماعٌ على أن تكون مصر هي الهدف مرة أخرى؛ فهي الإقليم الأغنى والأكثر تعرضًا للهجوم في إمبراطورية صلاح

الدين. لسوء الحظ لم يكن الوقت مناسبًا لبدء العمليات فورًا — لم يكن بالإمكان اجتياز الممرات القريبة من النيل إلا في حالة هدوء الطقس — ومع قدوم الربيع ظهرت مشكلة أخرى؛ نقصٌ حادٌّ في عدد السفن. كان لويس قد اعتمد على الجمهوريات الإيطالية البحرية لتجهيز العدد اللازم منها، ولكن عندما جاءت اللحظة كانت بيزا وجنوة في حالة حرب، وفي حاجة إلى كل السفن التي يمكن أن تحصلا عليها، بينما رفض الفينيسيون تقديمَ أي شيء؛ لأنهم كانوا رافضين للحملة كلها. كان في مايو ١٢٤٩م فقط، أن استطاع الملك تدبيرَ وسائل الانتقال اللازمة، حتى آنذاك هبَّت عاصفة شديدة بعثرت الجزء الأول الذي أبحر من الأسطول واضطرته للعودة — بصعوبة — إلى ليماسول.

تحسَّن الوضع بعد ذلك، وفجر الخامس من يونيو، أمام مواجهة شديدة، رسا الصليبيون على الرمال غربي مصر. كان القتال طويلًا وضاريًا، ولكن الانضباط الفائق للفرسان الفرنسيين حقَّق الانتصار في ذلك اليوم، وعندما هبط الليل انسحب الجيش المصري على جسر العوَّامات الدائم إلى دمياط. عند وصوله، صدر الأمر بالإخلاء التام وأطاع المسلمون الأمر، أما مَن بقي من الأقباط المسيحيين، فأبلغوا أن المقاومة كانت قد انتهت؛ فتقدَّم الصليبيون منتصرين على الجسر — الذي كان قد بقي سليمًا على غير المتوقَّع — ثم إلى داخل المدينة. كان ذلك كلُّه على عكسِ ما حدث في الحملة الخامسة التي كانت قد حقَّقت نتائجَ مشابهة ولكن بعد حصار دام سبعة عشر شهرًا. ومثلما حدث في ١٢١٩م، تم تحويل المسجد الجامع إلى كاتدرائية، واستقرت التشكيلات العسكرية الرئيسية الثلاثة (فرسان الهيكل والإسبتارية والفرسان التيوتون) في أماكن إيواء مريحة، كما خصَّص لكلٍّ من أبناء جنوة وبيزا — ولأبناء فينيسيا كذلك (وهذا هو الأكثر مدعاةً للاستغراب) — شارعًا وسوقًا. أصبحت دمياط، باختصار، العاصمةَ الفعلية للشرق اللاتيني.

إلا أنه سرعان ما بدأت المشكلات في الظهور. كان فيضان النيل السنوي وشيكًا. ولأن لويس كان يعي تجربةَ الحملة الخامسة، أصر على عدم التقدم إلا بعد انحسار الماء، وهو ما يعني أن جيشه كان عليه أن يبقى خاملًا أثناء قيظ الصيف كله. بدأت مؤن الطعام في النفاد وظهرت الديزنطاريا والملاريا في المعسكر؛ ومثل أبيه من قبلُ عرض سلطان مصر الأيوبي — الذي كان يموت من السل — من على فراش مرضه مبادلةَ دمياط بأورشليم، ولكن العرض رُفض فورًا؛ رفض الملك لويس التعامل مع كافر بالمسيحية. وبعد انحسار الفيضان في آخر أكتوبر أصدر الملك أوامره بالتقدم نحو القاهرة.

لم يكد الجيش يقطع ثلثَ المسافة إلى العاصمة تقريبًا، حتى وجد نفسه في مواجهة جيش المسلمين عند المنصورة، وهي مدينة كان السلطان قد شيَّدها قبل سنوات قليلة في

موقع انتصاره على الحملة الخامسة. ثم كانت كارثة، وكانت الكارثة في جملتها غلطة الكونت «روبير أرتوا Robert of Artois». كان قد تحدَّى تعليمات أخيه الصارمة بعدم القيام بالهجوم إلا عندما يتلقَّى الأمر بذلك، وقام يتبعه فرسان الهيكل وفرقة صغيرة من إنجلترا، بالهجوم على المعسكر المصري، ليفاجِئ مَن فيه ويذبح عددًا كبيرًا منهم ويجبِر مَن بقي على الفرار. لو أنه كان قد توقَّف عند ذاك الحد، فلربما كانت قد سارت الأمور على ما يرام، ولكن المعسكر كان يبعُد عن المنصورة نفسها نحو ميلين تقريبًا، فاندفع بقوَّاته — مزهوًّا بالانتصار — ليدخل المدينة. هذه المرة كان المصريون مستعدين له. كانت أبواب المدينة مشرعة، ووجد روبير ومَن معه الطريقَ سالكة حتى أسوار القلعة. هنا فقط ظهر المدافعون وانقضُّوا عليهم من الشوارع الجانبية، غلِّقت الأبواب، وكانت مذبحة. روبير نفسه لقي حتفه مع معظم فرسانه، وكذلك كل الإنجليز تقريبًا، أما فرسان الهيكل المائتان والتسعون فلم يتبقَّ منهم على قيد الحياة سوى خمسة.

لم تضَع هذه الكارثة نهايةً حاسمة للحملة. في بداية أبريل ١٢٥٠م فحسب، عندما كانت الديزنطاريا والتيفود يفتكان برجاله أكثرَ مما يحدِثه المصريون بهم، كان أن قرَّر لويس العودة. الآن، كان هو الذي يعرض مبادلةَ دمياط بأورشليم، ولكن السلطان توران شاه — وكان قد خلف أباه أيوب قبل نحو ثلاثة أشهر — لم يكن مهتمًّا بالأمر. كانت رحلة العودة كابوسًا لمن كان يستطيع أن يركب حصانًا أو يمشي على قدميه، أما سلوك الملك نفسه فكان أكثرَ من رائع وخاصة أنه كان مريضًا، وبشدة. وأخيرًا عندما وجد قائد حرسه الشخصي أنه لم يكن يستطيع السيرَ أكثر من ذلك، أخذه إلى منزل قريب، ولكن سرعان ما اكتشف المصريون مكانه فأخذوه مقيدًا إلى المنصورة حيث تماثل للشفاء ببطء. كان فرسانه وجنوده يستسلمون جماعاتٍ ويتم اقتيادهم للأسر ... ومن أسفٍ أنهم كانوا سيئي الحظ. عندما وجد المصريون عددهم كبيرًا ومن الصعب حراستهم، قاموا بإعدام مَن لا يستطيع المشي منهم، أما الباقون فقُطعت رءوسهم في غضون الأسبوع التالي ... بمعدل ثلاثين رأسًا في اليوم. لم يُبقوا على أحد سوى كبار البارونات، ربما على أمل الحصول على فدية كبيرة.

وبالفعل، حصلوا على فدية. إلى جانبِ عودة دمياط نفسها، التي دُفعت مقابل حرية الملك، تم الاتفاق على أن يتسلم المصريون مبلغ نصف مليون «جنيه توري Livre Tournois»[٣] مقابل الباقين. كانت صفقة صعبة، وما كانت لتتم لولا الملكة مارجريت. في أواخر مراحل الحمل، كانت قد بقيت في دمياط حيث وضعت مولودها بسلام — بمساعدة

أحد الفرسان الذي قام بدور القابلة، وكان في العقد التاسع من العمر — بعد ثلاثة أيام فقط من تلقيها خبر الاستسلام. أطلقت على وليدها اسم «جون تريستا John Tristan» (أي طفل الأحزان). ثم كانت ضربة مزدوجة؛ كان الخبر بأن مخزون الغذاء كان قد بدأ في النفاد بسرعة، وأن أبناء بيزا وأبناء جنوة كانوا قد بدءوا يغادرون المدينة. قامت مارجريت باستدعاء قادتهم إلى جوار فراشها، لتتوسَّل إليهم أن يبقَوا، مشيرةً إلى أنها لن تستطيع الإبقاءَ على دمياط بدونهم، وفي حال سقوطها لن يكون لديها ما يمكن أن تفديَ به زوجها. لم يوافقوا على البقاء إلا بعد أن عرضت شراء كلِّ ما تبقى في المدينة من غذاء، وجعلت نفسها مسئولة عن توزيعه. كانت التكلفة باهظة، ولكن دمياط نجت إلى أن تم تدبير الفدية. في آخر الأمر تم تسليمها في السادس من مايو ١٢٥٠م، ودفع فرسان الهيكل بقيةَ المبلغ فيما بعدُ على مضض. بعد أسبوع، أقلع لويس ومَن كانوا يستطيعون المشي إلى عكا. أما المرضى بشدة والجرحى ومَن لا يستطيعون السفر، فبقُوا في دمياط على وعدٍ بتوفير رعاية جيدة لهم. بمجرد أن غادرت السفن الميناء، تم إعدام الجميع.

خلقت الحملة الصليبية السادسة الفاشلة حالةً من الفوران في العالم الإسلامي. كان معظم القوة الإسلامية المحارِبة من المماليك، مجموعة كبيرة من الجند غالبيتهم من الجيورجيين أو الشراكسة الذين تم شراؤهم عبيدًا وهم أطفال في القوقاز وتم تدريبهم كخيَّالة. كانت قوَّتهم ونفوذهم تتزايد باطراد إبَّان حكم السلطان أيوب، وبعد وفاته في نوفمبر ١٢٤٩م حاول توران شاه أن يحجم قوَّتهم. كانت غلطة فادحة. في الثاني من مايو ١٢٥٠م، كان يقيم مأدبةً لأمرائه، وما إن همَّ بمغادرة المكان حتى اقتحمت القاعةَ مجموعةٌ من المماليك وهجمت عليه. أصيب بجروح بالغة، ولكنه تمكَّن من الفرار وألقى بنفسه في النيل، ولكنَّ قائدًا مملوكيًّا يُدعى بيبرس تبِعه ليجهز عليه، ومعه انتهت الأسرة الأيوبية.

الآن، أصبح المماليك هم الأعلى سلطةً. تزوَّج قائدهم عز الدين أيبك من أرملة أيوب، ليسبغَ على وضعه الصفةَ الشرعية ويعلن نفسه سلطانًا. إلا أن الزواج لم يكن ناجحًا من البداية؛ في أبريل ١٢٥٧م قامت السلطانة برشوة حرسه الخاص ليقتلوه في الحمَّام — وهو الفعل الذي كان لا بد أن تندم عليه عندما ضربوها بالقباقيب حتى الموت بعد سبعة عشر يومًا. خلف أيبك ابنه البالغُ من العمر خمسة عشر عامًا، وتم خلعه بدوره في ١٢٥٩م ليحلَّ محلَّه صفي الدين قطز. كان مقدَّرًا لقطز كذلك أن يحكم أقلَّ من عام، إلا أنه أثناء تلك الفترة القصيرة، كما سنرى بعد قليل، كان أن حقَّق أحد أهم الانتصارات في تاريخ الإسلام، وهو الانتصار الذي أنقذ العقيدةَ الإسلامية من الانطفاء شرقي المتوسط.

بحلول الربع الثالث من القرن الثالث عشر، لم يبدِ مسيحيو الشرق اللاتيني دليلًا كافيًا يعبِّر عن الروح الصليبية التي كانت وراء ميلاد مملكتهم؛ لم يَعُد الكثير منهم يفكِّر جديًّا في استعادة الأماكن المقدَّسة، ولكنهم كانوا ما زالوا يسيطرون على كل الساحل الشرقي للمتوسط تقريبًا، من غزة جنوبًا إلى أرمينيا الكيليكية شمالًا. بصرف النظر عما يُطلق عليه مملكة أورشليم نفسها، وكانت عاصمتها الآن في عكا بحكم الظروف، كانت هناك «معتمدية أنطاكية Principality of Antioch»، و«كونتية طرابلس County of Tripoli»، وكان يحمي الثلاثة من الشرق سلسلة من القلاع الرائعة، ما زال الكثير منها موجودًا إلى اليوم. على مسافةِ نحو ستين ميلًا من ساحل «قيليقية Cilicia»، كانت توجد مملكة قبرص المسيحية. ربما كانت الحياة في تلك الأراضي جميلة جدًّا؛ حيث اعتدال الطقس وخصوبة التربة، بينما كان ميناء عكا — وكان أفضل من أي ميناءٍ آخرَ على ساحل فلسطين وسوريا — يضمن لها عائدًا تجاريًّا مستقرًّا. إلا أن كل شيء كان يتوقَّف على العلاقات الطيبة بجيرانهم المسلمين، ولم يكن من السهل تحقيقُ ذلك دائمًا. حتى لو كان المسيحيون مستعدين للتخلي عن أهدافهم الصليبية، فإن المسلمين — بالتأكيد — كانوا يرفضون وجودَ أغراب وغير مؤمنين (كفار) يحتلون ما كانوا يعتبرونه أراضيهم.

كانت هناك مشكلةٌ أخرى تمثِّلها الجمهوريات الإيطالية البحرية؛ إذ بدون أساطيل فينيسيا وجنوة وبيزا، كان من المستحيل أن يستمر الاتصال المنتظِم بالحوض الغربي للمتوسط، ولا التجارة القادمة من الشرق. إلا أن الجمهوريات نفسها كانت متعجرفة وخائنة ولا يمكن الاعتماد عليها. كانت تحجُب مساعداتها وقتَ الحاجة الماسة إليها، بل إنها أحيانًا كانت تقدِّم للمسلمين ما يلزمهم من إمدادات عسكرية ضرورية. كذلك كانت التشكيلات العسكرية شوكةً إضافية في خاصرة الحكومة؛ كان فرسان الهيكل، وبخاصة الذين حقَّقوا ثرواتٍ طائلة من أنشطتهم المصرفية، كانوا عادةً سعداءَ بتقديم القروض الضخمة لعملائهم من المسلمين. لذلك، ولأسباب أخرى كثيرة، كان عددٌ قليل من المراقبين الموضوعيين هم الذين يتوقَّعون للشرق اللاتيني الفرنجي عمرًا أطول؛ ولكن نهايته — وهذا أمرٌ مثير للدهشة — تأخَّرت من جراء سلسلة من الأحداث لم تكن متوقَّعة، غيَّرت غرب آسيا كله، وهي وصول «القبيلة الذهبية The Golden Horde»[٤] إلى ساحل المتوسط.

عندما مات «جنكيزخان Genghis Khan»، أولُ حكام المغول العظام في ١٢٢٧م، كان قد ترك لابنه إمبراطورية ممتدة من بحر الصين إلى شواطئ نهر «الدنيبر Dnieper». وعندما مات ابنه «أوجوداي Ogodai» في ١٢٤١م، كانت تلك الإمبراطورية تضم معظم

روسيا الحديثة وهنغاريا وتمتد جنوبًا في فارس. بعد عامين فقط، في موقعة «كوس داج Köse Dağ»، أنزل جيش مغولي بالأتراك السلاجقة Seljuk Turks هزيمةً ساحقة واضعًا بذلك نهايةً حاسمة لاستقلال دولة السلاجقة.[٥] كان حكَّام أوروبا يراقبون صعودَ هذا الشعب المرعب بدهشة بالغة، لدرجةِ أن لويس التاسع أرسل سفيرًا إلى البلاط المغولي في «كاراكورام Karakorum»، وعندما وصل إلى هناك في ١٢٥٤م، وجد رسلًا وسفراء من قِبَل كلٍّ من إمبراطور بيزنطة اللاتيني، والخليفة العباسي في بغداد، والسلطان السلجوقي، وملك دلهي؛ كما وجد بعثات من العديد من الأمراء الروس (وبعد وقت قصير وصل مبعوثٌ آخر من قِبل ملكِ أرمينيا).

أفاد سفير لويس التاسع في تقريره — وكان ذلك أمرًا لافتًا — أنه لم يجد هناك أيَّ تمييز ديني على الإطلاق بين المغول؛ كان الخان الأعظم «كوبلاي Kublai» ابن جنكيز، يحضُر الطقوس المسيحية والإسلامية والبوذية، بالرغم من أنه — نظريًّا — كان «شامانيًّا Shamanist».[٦] كان يؤمن بأن هناك «إلهًا واحدًا»، أما أسلوب عبادة هذا الإله بالتحديد، فكانت مسألةً تخص المتعبِّد وحده؛ لأنها شأن شخصي.

إلا أن التسامح الديني لم يكن يعني السلام. في يناير ١٢٥٦م قاد «هولاكو Hulagu»، شقيقُ كوبلاي، جيشًا ضخمًا ضد فرقِ الحشاشين الذين كانت أعمالهم الإرهابية قد جعلت الأراضي الفارسية التي احتلوها خارج السيطرة. بنهاية ١٢٥٧م لم يكن قد بقي على قيد الحياة من أعضائها الذين كانوا يقدَّرون بالألوف، سوى نفر قليل. بعد ذلك تفرَّغ هولاكو لفريسته التالية؛ المستعصم، الخليفة العباسي في بغداد. سقطت المدينة في العاشر من فبراير ١٢٥٨م. تم إعدام الخليفة، ولكن بعد أن كشف بنفسه لـ «هولاكو» عن مكان كنوزه المخبَّأة. قُتل كل أهالي المدينة من المسلمين (نحو ثمانين ألف رجل وامرأة وطفل) باستثناء بعض أجمل الفتيات والصبية الذين لجئوا للكنائس بمبادرة من «دوكوز خاتون Dokuz Khatun»، زوجةِ هولاكو التي كانت نسطورية[٧] ملتزمة؛ وتم منح البطريرك النسطوري أحد القصور الرسمية القديمة لاستخدامه كنيسة وسكنًا خاصًّا له.

بينما عمَّت الفرحة كلَّ المجتمعات المسيحية في آسيا، هزَّت أخبار سقوط بغداد كلَّ العالم الإسلامي. كانت الخلافة العباسية قائمةً منذ أكثر من خمسة قرون؛ أي منذ ٧٤٧م. كانت قوَّتها السياسية قد زالت قبل وقت طويل، إلا أنها ظلَّت بؤرةَ الإسلام الأرثوذكسي وقوَّته الموحَّدة. بدونها، فقدت العقيدة تماسكها، وكانت بالفعل قد أصبحت عرضةً للاستيلاء عليها وبإمكان أي قائد مسلم لديه طموح وتصميم أن يختطفها. هولاكو

لم يكن قائدًا مسلمًا على أية حال، وكانت عينه آنذاك على سوريا. كانت «مايا فاراقين Mayyafaraqin» أولَ مدينة تسقط، كما أُجبر قائدها المأسور على أن يأكل لحمه إلى أن مات، وبعدها كانت حلب. أما أنطاكية فهي مَدينةٌ بِنَجاتِها لأميرها «بوهيمند السادس Bohemund VI» الذي ذهب إلى معسكر هولاكو ليبايعه. بعد ذلك كان دَور دمشق التي استسلمت دون مقاومة. دخل الجيش المغولي بقيادة نائب هولاكو، وهو مسيحي نسطوري آخر كان يُدعى «كيتبوكا Kitbuqa»، دخل المدينة يوم الأول من مارس بوهيمند وحموه ملك أرمينيا؛ وبكلمات سير ستيفن رانسيمان: «كان مواطنو عاصمة الخلافة القديمة يشاهدون، للمرة الأولى منذ ستة قرون، ثلاثة حكام مسيحيين يجوبون شوارعهم منتصرين.»

لا بد أن ذلك كان يبدو بمثابة ناقوس الإسلام في آسيا بالنسبة لكثيرين، وما يؤكد ذلك أن الغزاة المغول — وكانوا معظمهم مسيحيين مثل كيتبوكا — كانوا يؤثرون المجتمعات المسيحية صراحة. الآن، وبعد أن أصبحت سوريا مُؤَمَّنة، بدأت أنظارهم تتجه إلى فلسطين. متجنبين أورشليم، تقدموا جنوبًا مكتسحين كلَّ ما في طريقهم إلى غزة تاركين عكا دون مساس، ولكنها كانت محصورة بين قواتهم والبحر.

كانت سرعة الغزو ودرجة نجاحه مثيرةً للدهشة كذلك، ولكن خطوط اتصال المغول كانت طويلة بدرجة مقلِقة. في وقتٍ ما من خريف ١٢٥٩م وصلت أخبار إلى معسكر المغول تفيد أن الخان الأعظم كان قد قُتل أثناء قيامه بحملة في الصين. كانت الخلافة — كالعادة — موضوعَ صراع، وسرعان ما بات واضحًا لـ «هولاكو» أنه لكي يحافظ على وضعه، كان لا بد من أن يعود فورًا إلى الشرق؛ وهكذا انطلق في أوائل ١٢٦٠م مع الجزء الرئيسي من جيشه ليبدأ مسيرةَ أربعة آلاف ميل إلى كاروكورام، تاركًا «كيتبوكا» مع قوة صغيرة لحكم الأراضي المفتوحة على أفضلِ نحوٍ يستطيعه.

قبل رحيله بوقت قصير، كان هولاكو قد أرسل مبعوثًا لسلطان مصر المملوكي يطلب منه الاستسلام. لم يقبل السلطان سيف الدين قطز ذلك، وأمر بإعدام مبعوث هولاكو، وشرع من فوره في تجهيز حملة عسكرية ضد سوريا. في السادس والعشرين من يوليو، عَبَر الجيش المملوكي بقيادة بيبرس الحدودَ واستولى على غزة دون مقاومة وتوغَّل شمالًا في فلسطين؛ وفي يومٍ ما من سبتمبر (لا أحد يعرف التاريخَ على وجه الدقة)، التقى الجيشان في «عين جالوت Ain Jalud» (عيون جولياث The Pools of Goliath). كانت القيادة العليا للسلطان قطز، أما الطليعة المتقدِّمة فكانت — كالعادة — تحت قيادة

بيبرس. فورًا، تم تطويق المغول الذين كانوا يقاتلون بضراوة، ولكنهم كانوا أقلَّ عددًا. تم أسر «كيتبوكا» وحُمل مكبَّلًا إلى السلطان الذي أمر بإعدامه على الفور.

كانت تلك بالفعل نهاية المعركة — التي لا يكاد يذكرها أحدٌ اليوم تقريبًا، مع أنها قد تكون واحدةً من أكثر المعارك حسمًا في التاريخ؛ لأنها أنقذت الإسلام من أهم خطرٍ واجهه. كانت أعظم ثلاث مدن في العالم الإسلامي، بغداد وحلب ودمشق، في يد المغول، ولو كان كيتبوكا قد انتصر وطارد عدوَّه في مصر، لما كانت هناك دولة إسلامية جديرة باسمها في شرق المغرب. من جانبٍ آخر، أعطى الانتصار الإسلامي السلطنة المملوكية في مصر مكان الصدارة في الشرق الأدنى حتى صعود الإمبراطورية العثمانية، كما أنه قرَّر مصير الشرق اللاتيني.

في غضون أسبوع من موقعة عين جالوت كان قطز في دمشق، وفي غضون شهر كانت القوات الإسلامية قد استعادت حلب. عندما قاد السلطان جيشه عائدًا إلى مصر منتصرًا، كان يبدو وكأنه تغلَّب على الجميع. إلا أنه كان يفقد الثقة سريعًا في بيبرس، رجل القيادة الثاني شديد الذكاء، وعندما طلب الأخير أن يكون حاكمًا على حلب — وهو المنصب الذي كان يمكن أن يوفِّر له قوةً تجعله يسيطر على كل سوريا — رفض قطز طلبه فورًا، وكان ذلك إبخاسًا بحق الرجل. في الثالث والعشرين من أكتوبر ١٢٦٠م قرَّر أن يخرج للصيد في الدلتا مصطحبًا معه كبارَ أمرائه، وبمجرد أن أصبحوا على مسافة آمنة من المعسكر، اقترب بيبرس في صمت وطعنه بسيفه من الخلف. بالرغم من أن يديه كانتا الآن ملوثتين بدماءٍ سلطانية، لم يجرؤ أحدٌ على مناقشة أحقية بيبرس في الخلافة، وكان أن حكم على مدى سبعة عشر عامًا تالية. كان عملاقًا من الناحية الجسدية، وكان غدارًا شديد القسوة فظًّا غليظ القلب ... إلا أنه كان الأكثر مقدرةً بين كل الحكام المماليك.

لم تَضَع عين جالوت نهايةً كاملة لقوة المغول في المنطقة. عاد هولاكو إلى سوريا بأسرعِ ما يستطيع، وشنَّ مقاومة قوية في الشمال الشرقي، ولكنه مات في ١٢٦٥م تاركًا بيبرس حرًّا ليستأنف حملته ضد المسيحيين. كانوا هم أيضًا قد ظلوا قوةً يُعمل لها حساب؛ كان «هتهوم الثاني Hethoum II» ملكُ أرمينيا، و«بوهيمند السادس Bohemnud VI» أميرُ أنطاكية وكونت طرابلس، كانا عدوَّين خطرين. ولكن بيبرس واصل الضغط بقوة. هاجم عكا نفسها أربع مرات وكان يرتد مدحورًا، إلا أنه في ١٢٦٧م استولى على «قيسارية Caesarea» و«طورون Toron»، وخرَّب «قيليقية Cilicia»، موجهًا للمملكة الأرمينية

ما كان في النهاية بمثابة الضربة القاضية. شهد العام التالي سقوط «يافا Jaffa» — والأسوأ منه — أنطاكية أحد المراكز البطريركية الأصلية، وأول معتمدية مسيحية في الشرق اللاتيني، وأكثر المدن الفرنجية ثراءً وازدهارًا. لم يبدِ الغزاة أيَّ درجة من الرحمة. تم توزيع الكنوز المكدَّسة على القوات، كما قُتل معظم الأعيان ورجال الكنيسة، ولم تقُم للمدينة قائمةٌ بعد ذلك، وفي كل أرجاء عالم المسيحية الشرقية كان الأثر النفسي كارثيًّا.

تبِع سقوطَ أنطاكية هدنةٌ كانت فرصة للطرفين، فيما نعتقد، في كلٍّ من أوروبا وآسيا، وسيكون لها تداعياتها في الشرق اللاتيني؛ إعدام كونرادين على سبيل المثال، الذي كان يعني انقراضَ الخط الشرعي للبيت الملكي في أورشليم، ثم — الأكثر إزعاجًا — تقارير عن قدومٍ وشيكٍ للويس ملكِ فرنسا بحملته الثانية والأخيرة.

كان قد مرَّ الآن نحو عشرين عامًا منذ مجيء لويس إلى عكا بعد الكارثة التي حلَّت به في دمياط. عاد ليجد في انتظاره مناشدةً عاجلة من أمه، الملكةِ «ريجنت بلانش Regent Blanche»، تتوسَّل إليه أن يعود فورًا إلى فرنسا، ولكن ضميره لم يكن ليسمح له بذلك؛ إذ إن قبوله كان يصل في نظره إلى درجة الاعتراف بالهزيمة. لم يكن شيء من أفكاره المثالية قد تحقَّق حتى الآن، وما حدث هو أنها لم تكن قد دمَّرت جيشه فحسب، بل وكذلك كل القوى المقاتلة في الشرق اللاتيني. قبل أن يعود إلى بلاده كان يشعر بأن الوضع كان في حاجة إلى إصلاح، وإلى جانب ذلك ... ألم يكن بعض جنوده ما زالوا سجناء في مصر؟ كان من الواضح أنه لا بد من أن يبقى في الشرق لبعض الوقت من أجلهم كذلك.

وهكذا بقي أربع سنوات أخرى. منذ وصوله إلى الشرق اللاتيني وهو يتعلم الكثير. لم يَعُد يستطيع أن يحتقر غير المؤمنين بالمسيحية، ولو كان له أن يستعيد وضعه لعاملهم كأنداد، وبفضل الانقسام الجديد في العالم الإسلامي — حيث كانت فلسطين وسوريا قد بقيتا مواليتين بشدة للأيوبيين — كان يمكنه أن يفعل ذلك بنجاح كبير. كان قد تعامل مع الأيوبيين والمماليك، وتعامل مع الحشاشين لفترة قصيرة قبل اندحارهم النهائي على يد هولاكو، وبالطبع كان قد تعامل مع المغول. من الناحية العملية كان يعرف جيدًا أنه لم يكن من حقِّه التفاوض بالمرة لأن المملكة الصليبية كانت قد أصبحت مِلكًا لـ «كونراد» ابنِ فردريك منذ ١٢٥٠م، ولكن كونراد كان بعيدًا في ألمانيا، والمرجَّح أن يبقى هناك؛ أما في الشرق اللاتيني فكان لويس مقبولًا كملكٍ أمر واقع. بفضله، تم إطلاقُ سراح سجناءَ فرنجةٍ ممن بقُوا في مصر، كما أن المماليك وعدُوه بأن يعيدوا للمسيحيين مملكةَ أورشليم القديمة كلها حتى نهر الأردن، بمجرد احتلالهم سوريا وفلسطين.

ولكن مسألة مواجهة عسكرية أخرى لم تكن واردة، وعندما قامت حرب أهلية في بلاده بعد وفاة الملكة بلانش في نوفمبر ١٢٥٢م، أدرك لويس أنه لم يكن يستطيع تأجيلَ رحيله أكثرَ من ذلك. في الرابع والعشرين من أبريل ١٢٥٤م أبحر من عكا ورسا في أول يوليو في «هيرس Hyères» على الساحل الجنوبي لفرنسا. كان حزينًا خائبَ الأمل. كان من بين كل الصليبيين هو الأكثر استقامةً وشرفًا ... والأكثر تقوى بمراحل، ولكن تدخُّله في الشرق اللاتيني كان بمثابةِ كارثة أدَّت إلى فقدان ألوف الأبرياء الذين كانت نسبةٌ كبيرة منهم من رعاياه. كان، كذلك مرتبكًا مذهولًا. كانت الهزائم والعثرات الماضية التي واجهها الصليبيون تُعزى لحياتهم اللاهية المليئة بالخطايا، وبالرغم من أنه كان يصلي بالساعات ويعيش حياةً أخلاقية مستقيمة، لم يكن أسعد حظًّا منهم. هل — يا تُرى — كانت فكرة الحملات الصليبية برُمَّتها غير مقبولة عند الرب؟

لم يستطِع أن يجعل نفسه يصدِّق ذلك، وظل يحلُم بمحاولة أخرى، برحلة واحدة وأخيرة إلى الأراضي المقدَّسة تتوَّج بالنجاح وتمحو وصمةَ الفشل من ضميره. لمدة ست عشرة سنة كانت تشغَله المشكلات الداخلية لفرنسا، ولكن في ١٢٧٠م ظن أنه وجد فرصته. وبالرغم من أنه كان قد بلغ السادسة والخمسين من العمر ومعتل الصحة، راح يستعدُّ للذهاب إلى فلسطين. لم يكن واضحًا له ما يريد أن يفعله عندما وصل إلى هناك؛ فاستعادة الأماكن المقدَّسة في مثل ذلك الوقت كانت تتطلب أكثرَ من معجزة. ولكن ... أيًّا كانت نواياه، فقد كانت في الحقيقة محلَّ استخفاف من شقيقه «شارل الأنجوي Charles Anjou» ملكِ صقلية.

كانت الهزيمة التي ألحقها شارل بـ «مانفريد» وإعدامه كونرادين — مخلِّصًا بذلك إيطاليا إلى الأبد من بيت آل هوهنشتوفن — كانت قد أيقظت فيه طموحًا أوسع. كانت تلك الطموحات تشمل الآن السيطرة على كل إيطاليا، وتقليص وضع البابا ليصبح مجرد دُمية، وإعادة غزو القسطنطينية التي كانت قد عادت مرةً أخرى إلى أيدٍ يونانية أعادتها إلى العقيدة اللاتينية، وفي النهاية إقامة إمبراطورية مسيحية تمتد بطول وعرض المتوسط. كانت فكرته الأولى إذن أن يُقنع لويس بالزحف على بيزنطة، ولكن الملك رفض أن يفكِّر في الهجوم على شركائه المتدينين، سواء أكانوا مهرطقين أو لا؛ وهكذا حاول شارل مرةً أخرى، مشيرًا إلى أن أمير تونس كان يقال إنه ميَّال للمسيحية وربما يكون مستعدًّا للتحول، ولو كان ذلك كذلك بالفعل، فإن العقيدة الصحيحة يمكن أن تنتشر في كل الساحل الشمالي الأفريقي، وحتى إن لم يحدث فيجب أن يكون موطئ قدم دائم على ذلك الساحل في الحسبان.

من سخريات التاريخ أن الورع نادرًا ما يكون مصحوبًا بالذكاء. من المستحيل أن نفهم لماذا صدَّق الملك لويس شقيقه للحظة، بالرغم من نصائح معظم أصدقائه ومستشاريه. صدَّقه ... وبصحبة الثلاثة الباقين من أبنائه ركِب هو وجيشه إلى «أيجوس-مورتس Aigues-Mortes» في أشدِّ فصول العام حرارةً مبحرين إلى تونس في الأول من يناير.

هل تم أي تلمُّس للحقائق قبل الرحيل عن صدقِ ادعاء شارل؟ هل كان هناك أي دليل — ولو ضعيفًا أو عرضيًّا — على أن يكون قد طرأ للأمير أن يتخلى عن دين آبائه؟ ولو كان ... فهل كان لويس يتصور أن الهجوم المسلح هو أفضل الطرق للقيام بذلك؟ الحقيقة أن الجيش عندما رسا في الثامن عشر من يوليو، اتضح على الفور أن ذلك كان أبعدَ ما يكون عن ذهن الأمير، الذي كان يحشد رجاله ويقوي دفاعات مدينته ويستعدُّ للقتال.

من حسن حظِّه أنه لم يكن في حاجة لبذل أي جهد. صيفُ شمالِ أفريقيا قام باللازم. بمجرد أن أقام جيش الصليبيين معسكرَه بدأ المرض ينتشر في صفوف الجنود ... وبدأ الموت يحصدهم. في غضون أسبوع كان المرض قد أصبح عصيًّا على السيطرة، وكان لويس من أوائل الضحايا. في الأيام القليلة الأولى كان يقاوم ويحاول التقدُّم ليستمع للقداس، ولكن بعد أن أصبح ذلك مستحيلًا قبل مرور وقت طويل، كانت حركة ضعيفة من شفتيه هي كلَّ ما يوحي بأنه كان ما زال قادرًا على متابعة الطقوس. عندما وصل شارل الأنجوي بجيشه في الخامس والعشرين من أغسطس، أخبروه بأن أخاه كان قد قضى قبل ساعات قليلة. كان فيليب ابنهُ الأكبر، ووريثُ الملك، طريحَ الفراش مريضًا بشدة، إلا أنه تماثل للشفاء وبرأ من مرضه، وكان أنْ حكم تحت اسم فيليب (الشجاع) خمس عشرة سنة بعد ذلك؛ أما «جون تريستا John Tristan»، الابنُ الأصغر لـ «لويس»، الذي كان في الحادية والعشرين (كان قد وُلد في دمياط أثناء الحملة السابقة) فلم يكن محظوظًا هكذا.

حارب شارل عدةَ أسابيع أخرى، وفي النهاية توصَّل إلى تفاهم مع الأمير، وافق على أن يعود إلى إيطاليا مع ما تبقى من جيشه مقابل تعويض معتبر. أنقذ شارل شرفه ... ولا شيء آخر. كان المسمار الأخير قد دُق في نعش الصليبيين؛ حيث — بصرف النظر عما تشير إليه دائرة المعارف البريطانية بـ «نهاية مختلفة مفكَّكة» — كانت نهاية «سان لويس» هي الأخيرة. الصراع الكبير الذي استمر قُرابة القرنين بين الصليب والهلال انتهى أخيرًا ... وكان النصر للهلال.

كان لا بد من أن يمرَّ بعض الوقت قبل أن يتقبل أمراء أوروبا هذه الحقيقة. أحد الذين فشلوا في ذلك، كان الأمير «إدوارد Edward» ابنَ ووريث هنري الثالث ملكِ إنجلترا. كان هنري نفسه قد سبق أن حمل الصليب، ولكن الحروب الأهلية كانت قد أصابت حكمه ولم تترك له فرصة لكي ينجز وعده. إدوارد الذي كان في الثانية والثلاثين لم يكن لديه مثل هذا العائق، كما أن أخبار سقوط أنطاكية جعلته يقرِّر الذهاب مع نحو ألفٍ من رجاله مكان أبيه. لم تكن المراحل الأولى من رحلته سعيدة. كان ينوي في الأصل أن يلحق بـ «لويس» في أيجوس-مورتس، وما إن وصل إلى هناك حتى وجد أن الملك قد غادر، وعندما تبِعه إلى تونس علم بوفاة لويس. في مايو ١٢٧١م وصل إلى عكا أخيرًا؛ حيث أصابه رعب شديد. كانت الحالة المعنوية متردية في كل مكان. كان الود تامًّا بين السلطان وبين أهالي جنوة وفينيسيا، الذين كانوا يتاجرون في كل شيء، ويحققون أرباحًا طائلة، من الأسلحة إلى العبيد. لم يكن أحد لديه رغبة في القتال. بتحالفه مع المغول، سجَّل إدوارد انتصارات ضئيلة ضد الحاميات المملوكية، ولكن المؤكد أنه لم يكن مؤرقًا لبيبرس. كان من ناحية أخرى مصدرَ إزعاج لا بد من التخلص منه، ولذلك رتَّب السلطان لكي يقوم أحد الحشاشين المسيحيين بدخول غرفته ويطعنه بخنجر مسموم، فأصابه بجرح غائر في ذراعه سرعان ما تعفَّن، إلا أنه نجا من الموت بفضل جِراحةٍ بدائية مؤلمة،[8] بعدها أقلع من عكا في ١٢٧٢م وعاد إلى إنجلترا ليصبح الملك إدوارد الأول.

بعد خمس سنوات، إن كان لنا أن نصدِّق الشائعات الملحَّة، تورَّط بيبرس في محاولة اغتيال أخرى فشلت كذلك على نحوٍ كارثي. يقال إنه قدَّم وعاء من الكوميس[9] المسمَّم لأحد الأعداء، ولكنه شرب منه في غفلة. لم يعِش ليرى نهاية الشرق اللاتيني؛ حيث كان ما زال هناك كثيرون من الفرنجة في معظم المدن الرئيسية. في مدة حكمه التي استمرت سبعة عشر عامًا، كان قد أزال معظم المناطق المسيحية حول الساحل. كانت أيام مَن تبقى من الفرنجة معدودة، وكانوا يعرفون ذلك جيدًا.

في منتصف المسافة تقريبًا عبر المتوسط، وقع حدث، يوم إثنين عيد الفصح ١٢٨٢م، لم يكن متوقعًا بالمرة، وكان له أثرٌ هائل على المتوسط كله. يُعرف هذا الحدث — بأسلوب شاعري — بـ «حرب نواقيس المساء الصقلية».

لو أن شارل الأنجوي كان ليؤسس مشروعه العظيم، فالمؤكَّد أنه سيكون في حاجة إلى بابا مناسب يساعده في تحقيق هدفه. عند موت كليمنت الرابع في ١٢٦٨م، كان قد استخدم نفوذه في المجمع البابوي ليظل العرش البابوي خاليًا لمدة ثلاث سنوات (وهي مدة

تغطي الفترة التي كان موجودًا فيها في الخارج في حملةِ أخيه)، لم تكد تنتهي فترة الفراغ حتى قامت السلطات في «فيتيربو Viterbo» بإزالة سقف القصر الذي كان يجتمع في الكرادلة لانتخاب البابا. وقع اختيارهم المتسرِّع على «جريجوري العاشر Gregory X» الذي اتضح أنه لم يكن مفيدًا، فأحبط محاولات شارل لكي يتم انتخاب فيليب الثالث ملكِ فرنسا، ابنِ أخيه، ليكون الإمبراطور الروماني المقدَّس، والتحالف مع بيزنطة لدرجة التوصل في مجمع ليون في ١٢٧٤م إلى عقدِ اتحاد مؤقت بين الكنيستين الشرقية والغربية. ولكن في ١٢٨١م، ومع انتخابِ فرنسي آخرَ هو «مارتين الرابع Martin IV»، كان أن حقَّق شارل مبتغاه. وحيث إنه كان حاكمًا على بروفنس وعلى الجزء الأكبر من إيطاليا وملكًا اسميًّا على أورشليم،[١٠] وأقوى — وأخطر — رجل في أوروبا، كان بمقدوره الآن أن يحقِّق أعظم طموحاته بالزحف على القسطنطينية، التي كان «البابا مارتين Pope Martin» قد أعلن إمبراطورَها «مايكل الثامن بالايولوجوس Michael VIII Palaeologus» منشقًّا. لم يكن قد مرَّ أكثر من عشرين عامًا على استرداد اليونانيين عاصمتَهم من الفرنجة؛ ومع بداية ١٢٨٢م، كانت فرصة احتفاظهم بها تبدو ضئيلة.

كان شعب باليرمو هو الذي أنقذهم. كان الفرنسيون مكروهين في كل ريجنو، سواء بسبب إجحاف نظامهم الضريبي أو غطرسة سلوكهم، وذات مساء (في الثلاثين من مارس) عندما راح جندي فرنسي يزعج امرأةً صقلية بالقرب من كنيسة «سانتو سبيريتو Santo Spirito» أثناء ما كانت الأجراس تدق لصلاة المساء، زاد غضب أبناء وطنها. انقضَّ زوج المرأة على الجندي الفرنسي وقتله، وتبِع ذلك أعمال شغْب تطورت إلى مذبحة. بمجيء الصباح كان ما يقرُب من ألفي فرنسي قد لقُوا مصرعهم. بعد ذلك دخلت باليرمو وبعدها مسيني في حالة من الفوضى العارمة والاضطرابات. كان التوقيت مناسبًا، وفي المراحل النهائية كانت الاضطرابات يقودها نبيل من سالرنو يُدعى «جون البروكيدي John of Procida»، كان صديقًا لـ «فردريك الثاني» و«مانفريد». كان جون قد أمضى فترةً في بلاط «بيتر الثالث Peter III»، ملكِ أراجون، زوجِ كونستانس ابنةِ مانفريد، وأثناء وجوده هناك كان يشجِّع بيتر على تجديد دعواه بأحقيته في عرش صقلية. الآن كانت الفرصة المثالية لذلك. وصل بيتر إلى باليرمو في شهر سبتمبر، وفي الشهر التالي كان قد استولى على مسيني؛ حيث كانت الوقفة الأخيرة للفرنسيين.

بالنسبة لـ «شارل الأنجوي» وبلاطه في نابولي، كان فقدان صقلية بمثابةِ كارثة. رفض، بالطبع، الاعترافَ بالهزيمة حتى إنه تمادى في تحدِّيه وعرض القيام بمبارزة

فردية مع بيتر تحدِّد مصير صقلية، على أن يكون ذلك تحت حمايةٍ إنجليزية في «بوردو Bordeaux» التي تقع على بُعد مسيرةِ أسابيع قليلة. المثير للدهشة أن بيتر قبِل التحدي، رغم أنه في المفاوضات التالية اتفقا على أن يصحب كلٌّ ملك مائة فارس يقاتل بجواره؛ حيث إن شارل كان في الخامسة والخمسين — وهي سنٌّ كبيرة بمقاييس ذلك الزمان — وبيتر كان في الأربعين. تحدَّد يوم الثلاثاء الأول من يونيو لتنفيذ المواجهة، ولسوء الحظ … وربما لحسنه، لم تحدَّد الساعة. وصل الملك بيتر ورجاله مبكِّرين في الصباح ولم يجدوا أيَّ أثرٍ لـ «شارل»، وعندما أعلن الناطقون باسمه عن حضوره، ترك بيتر الميدان وأعلن، عندما عاد، عن انتصاره لأن خَصمه الجبان لم يظهر. وصل شارل بعد عدة ساعات وفعل الشيءَ نفسه. لم يلتقِ الاثنان. كانت التكلفة باهظةً بالنسبة للطرفين، سواء من ناحية الوقت أو المال، ولكن الشرف ظل محفوظًا لكليهما.

وهكذا انقسمت ريجنو شقَّين. شارل يحكم (تحت لقب شارل الأول) في نابولي، وبيتر في صقلية، وكلاهما كلُّه إصرار على طرد الآخر وتوحيد البلاد. لكن سُمعة شارل كانت قد ضاعت. كانت إمبراطوريته المتوسطية تبدو مبنيةً على الرمال. لم تَعُد قوة عالمية. لم تَعُد الحملة على بيزنطة واردة. خذله أتباعه في الشرق اللاتيني؛ فرسان الهيكل والفينيسيون. قام على الفور باستدعاء نائبه من عكا وترك ضابطًا صغيرًا مكانه. بعد ثلاث سنوات — في السابع من يناير ١٢٨٥م — مات في «فوجيا Foggia». سيطر على المتوسط لمدة عشرين عامًا، كان يتملَّكه طموحٌ لا يشبَع وطاقةٌ كبيرة لم تتركه يستريح. كان تقيًّا فعلًا، ولكن تقواه لم تعلِّمه التواضع. كان يعتبر نفسه الأداةَ التي اختارها الرب. لم تَعُد عليه تقواه بأي شعور إنساني أو رحمة، كان قيامه بإعدام كونرادين ابنِ السادسة عشرة صدمةً لكل أوروبا، وبقيت هذه الفَعلة محسوبة عليه طوال حياته. ربما كان محلَّ إعجاب أحيانًا، ولكنه لم يحظَ بحب أحد قط.

استمرت حرب أجراس المساء الصقلية — التي كان شارل مسئولًا عنها إلى حدٍّ بعيد — في القرن التالي. لم يكن فيليب الثالث (الشجاع) ملكُ فرنسا وابنُه وخليفتُه فيليب الرابع (الجميل) من بعده، لم يكونا هما فقط مَن استعاد الجزر المغتصَبة لأسباب تتعلق بشرف العائلة، كانت هناك كذلك حقيقة أخرى، وهي أن صقلية وريجنوا كانتا قد مُنحتا لشارل بواسطة البابا؛ ولذا كان النظام البابوي يضع كرامته في الحسبان. كان البابا مارتين الرابع قد أعلن لتوه القيامَ بحملة ضد الأراجونيين، أما الملك فيليب فكان قد بدأ — من جانبه — يحشد جيشًا. إلا أن المطلوب كان أكثر من هاتين القوتين لترويع بيت

آل أراجون وحليفهم المخلِص؛ جمهورية جنوة. كانت البعثات الموفدة من كلا الطرفين تذرَع أوروبا جَيئةً وذهابًا إلى أن أصبحت كل دول المتوسط متورطة — بدرجة أو أخرى — في القصة.

كان الاستثناء الوحيد الجدير بالملاحظة بالطبع هم مماليك مصر. لم يكونوا مهتمين كثيرًا بصقلية، كانت عيونهم على أراضي الشرق اللاتيني وتدمير الولايات الصليبية. تلك الولايات كان يمكن إنقاذها — ولو مؤقتًا — لو أن الدول المسيحية الغربية كانت قد نسيت شواغلها الأخرى وتقدَّمت للدفاع عن شركائهم في الدين ولكنها لم تفعل. انطلق أول إنذار بالخطر، والغريب أنه جاء من المغول؛ في ١٢٨٧م أرسل الخان الأعظم — آرجون حفيد هولاكو — مبعوثًا مسيحيًّا إلى الغرب كان يُدعى «رابان سوما Rabban Sauma»، زار القسطنطينية أولًا وبعدها نابولي وجنوة وباريس وبوردو؛ حيث كان إدوارد الأول ملكُ إنجلترا مقيمًا في عاصمة أراضيه الرئيسية.[١١] عاد عن طريق روما. كان يُستقبل في كل مكان كملك. في باريس، رافقه فيليب الرابع شخصيًّا في جولة في كنيسة القديسين ليريَه — مزهوًّا — التذكارات المقدسة التي كان جَده سان لويس قد اشتراها من الإمبراطور البيزنطي؛ وفي بوردو دعاه إدوارد، الذي كان هو نفسه أحد الصليبيين القدامى، لحضور قداس مع بلاطه؛ وفي روما تناول من يد نيكولاس الرابع، البابا الذي كان قد تم انتخابه حديثًا. في كل مكان، كان يؤكد الضرورة الملحَّة للقيام بحملةٍ لاستعادة الأماكن المقدسة وإنقاذ الشرق اللاتيني، وفي كل مكان كانوا يستمعون إليه بتعاطف شديد، ولكنه لم يحظَ في أي مرة بتعهُّد قاطع أو تاريخ محدَّد. كانت الروح الصليبية القديمة قد ذهبت، ولن تعود.

كان الخان الأعظم يجد ذلك عصيًّا على التصديق. في مطلع صيف ١٢٨٩م أوفد مبعوثًا آخرَ إلى أوروبا من أبناء جنوة كان يُدعى «بسكاريل Buscarel»، حاملًا رسائل للبابا وللملوك الفرنسيين والإنجليز (لعل تأثيرها كان ضعيفًا؛ إذ إنها كانت مكتوبةً بالمنغولية، ولكن بسكاريل كان يستطيع القيام بالترجمة). في هذه المرة تمادى «آرجون Arghun» لدرجةِ أنه اقترح عقدَ تحالف. كتب يقول إنه كان شخصيًّا ينوي القيام بجيشٍ قوامه نحو ٢٠–٣٠ ألف فارس يصل إلى دمشق في منتصف فبراير ١٢٩١م، فإذا كان الملكان مستعدَّين لإرسال جيوش من قِبَلهما وتمَّت استعادة الأماكن المقدسة فإنه سيكون سعيدًا بتسليمها. من أسفٍ أن هذه الدعوة لم تكن أكثرَ نجاحًا من سابقتها. قام الخان الأعظم بمحاولةٍ أخرى ولكنها فشلت كذلك، وعندما عاد مبعوثوه كان قد قضى نحْبه.

في ذلك الوقت، وكأن ذلك كان قد جاء ليؤكِّد أسوأ مخاوف أراجون، كان السلطان المملوكي قلاوون قد حرَّك جيشه بكامله إلى سوريا. كانت ذريعته هي أن يمنع أبناء جنوة من الاستيلاء على كونتية طرابلس كما كانوا يهددون، رغم وجود بعض الشكوك في أن يكون هدفه البعيد المدى أكثرَ لؤمًا. بالقرب من نهاية مارس ١٢٨٩م، اقترب بقواته من أسوار طرابلس، وفي السادس والعشرين من أبريل اندفعوا داخل المدينة. قتلوا كلَّ مَن وجدوه في طريقهم من المسيحيين ... أخذوا كل امرأة وطفل عبيدًا، أحرقوا كل مبنًى ليستحيل رمادًا. الآن، كان الغرب قد بدأ يتنبَّه. بفضل حثِّ وتحفيز البابا نيكولاس تحرَّك الفينيسيون — الذين كانوا سعداء برؤية طرابلس تضيع من أيدي أبناء جنوة، وإن كانوا بدءوا يشعرون بالقلق خوفًا على مصالحهم في عكا — فأرسلوا اثنتين وعشرين سفينة حربية، ثم لحِقت بها خمس أخرى، أرسلها جيمس ملكُ أراجون. لسوء الحظ أيضًا، كان يصحب هذا الأسطول جماعة من رعاع الفلاحين والمغامرين الذين قدِموا من الشمال الإيطالي، كلٌّ يسعى للحصول على ما يستطيع، ومنذ اليوم الأول لوصولهم إلى عكا، كانوا سكارى لا يقدِّرون المسئولية؛ وفي يوم شديد القيظ من أيام أغسطس ١٢٩٠م أحدثوا حالةً من الفوضى والشغْب وراحوا يعربدون في الشوارع ويقتلون كلَّ مَن يصادفونه من المسلمين في طريقهم.

بعد سقوط طرابلس، قَبِل قلاوون بهدنةٍ مع المسيحيين، ولو كان كل شيء قد مضى على ما يرام، لنعِموا ببضع سنوات من الاستقلال؛ إلا أنه بعد مذبحة عكا لم يَعُد للهدنة قائمة، ولم يكن هناك مجال للشك في ذهن السلطان؛ لا بد من القضاء على الفرنجة. في السادس من مارس ١٢٩١م، وتحت قيادة ابنه وخليفته الأشرف خليل انطلق الجيش الكبير مرةً أخرى. كان حجمه يقدَّر بستين ألفًا من الخيَّالة ومائة وستين ألفًا من المشاة. قد يكون في ذلك بعض مبالغة، ولكن لا شكَّ كبيرًا في أن مسيحيي عكا كان لا بد أن يجدوا أنفسهم في مواجهة قوةٍ تفوقهم عددًا بمراحل؛ إذ كان تَعدادهم الكلي أقل من أربعين ألف نسمة وثمانمائة فارس وأربعة آلاف جندي مشاة، منهم مَن هو من أبناء فينيسيا، ومَن هو من أبناء جنوة، ومَن ينتمون للتشكيلات العسكرية الثلاثة.

بدأ الحصار يوم السادس من أبريل. قاتل المدافعون ببسالة وقام فرسان الهيكل والإسبتارية بالكثير من الإغارات الفاشلة. من أسفٍ أنهم كانوا ما زالوا يسيطرون على البحر؛ ولذلك لم يكن ينقصهم الغذاء ولكن كان ينقصهم السلاح، وقبل كل شيء كانت تنقصهم القوة البشرية اللازمة لحماية السور الممتد لمسافةٍ تفوق الميل.

ارتفعت الروح المعنوية كثيرًا عندما وصل هنري الثاني ملكُ أورشليم (كان في العشرين من العمر ومصابًا بالصرع) من قبرص في الرابع من مايو برفقة أربعين سفينة ومائة فارس وألفين من جنود المشاة، ولكن برغم أهمية ذلك، لم يكن ذلك العدد ليمثِّل أيَّ فرق. بعد أسبوعين فحسب، أصدر السلطان أمره بالهجوم الشامل.

القصة الكاملة لسقوط عكا مرعبة.[١٢] لم يكن هناك استسلام، ولم يكن السلطان على أية حال ليقبل ذلك. كلُّ ما كان على الناس أن يفعلوه هو أن يموتوا وهم يقاتلون أو وهم يحاولون الهرب بالبحر. قليل منهم، كان من بينهم الملك هنري وشقيقه أماليك، هم الذين نجحوا في العودة إلى قبرص، وانتهى الأمر بعدد من النساء والأطفال في الحريم أو عبيدًا في الأسواق ... ولكن الأغلبية هلكوا. في الوقت نفسه تم تدمير عكا نفسها ... وبشكل منظَّم، كما لقيت المستوطنات الفرنجية المتبقية — صور وصيدا وطرطوس وبيروت وعدد من القلاع — المصيرَ نفسه. كانت النهاية.

استمرَّ الشرق اللاتيني الصليبي أكثرَ من مائة واثنين وتسعين عامًا. كانت قصته، منذ بدايته كنموذج لعدم التسامح والطموح الإقليمي، قصة سقوط مادي وأخلاقي وعجز مستمر. لم يذرف الدمع في أوروبا على زواله، أو أسفًا على رؤيته يضيع سوى قلة.

هوامش

(١) كانت حفيدة هنري الثاني ملكِ إنجلترا الذي تزوَّجت ابنته إليانور من ألفونسو التاسع القشتالي، وكانت وصية بالفعل على ابنها قبل أن يبلغ سنَّ الرشد، وأثبتت كفاءة وحُنكة سياسية.

(٢) كانت شقيقتها، إليانور، متزوجةً من الملك هنري الثالث.

(٣) نسبة إلى «تور Tours» التي كانت تُسكُّ فيها هذه العملة في القرن الثالث عشر، وكانت مفضَّلة على تلك التي تُسكُّ في باريس.

(٤) Horde: قبيلة أو جماعة من البدو الرحَّل. (المترجِم)

(٥) بقيت حتى نهاية القرن، ولكنها كانت أشبه بدُمية مغولية.

(٦) «المؤمن بالشامانية Shamanism»، وهي عقيدة بدائية تقول بوجود عالَم محجوب هو عالَم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، لا يستجيب إلا للشامان، وهو الساحر أو الكاهن الذي يَستخدم السحر للعلاج وكشف المخبَّأ والسيطرة على الأحداث. (المترجِم)

(٧) يؤمن النسطوريون Nestorians بأن المسيح كان شخصين منفصلين (الإنساني والإلهي). (النظرة الأرثوذوكسية هي أنه كان شخصًا واحدًا، الرب والإنسان). يوجد عدد قليل من أتباع هذا المذهب إلى الآن يعيش معظمهم في العراق ويُعرفون بالمسيحيين الآشوريين.

(٨) القصة الشهيرة عن إنقاذ حياة إدوارد بواسطة زوجته إليانور القشتالية، التي يقال إنها قامت بمص السُّم من الجُرح، مأخوذة عن «بطليموس لوسنسز Ptolomaeus Lucensis» أحد المؤرخين الدومينيكان غير المعروفين، وهي بحسب «قاموس السِّيَر الوطنية Dictionary of Ntional Biography» القديم، شهادةٌ غير دقيقة ولا يمكن تصديقها، وهو ما يؤكده قاموس أكسفورد الجديد (DNB). الحقيقة أن إليانور لم ترافق إدوارد في الحملة.

(٩) شراب من لبن الفرس المخمَّر كانت تصنعه في الأصل قبائل الأتراك والمغول في آسيا الوسطى.

(١٠) كان قد اشترى اللقب في ١٢٧٧م من الأميرة ماريا، أميرة أنطاكية، ابنةِ أماليك الثاني ملك أورشليم، وكان قد أرسل على الفور إلى عكا شخصًا يُدعى روجر السان سفريني Roger of San Severino ليكون نائبًا له.

(١١) في ذلك الوقت كان الملوك الإنجليز ما زالوا يحكمون جزءًا كبيرًا مما يُعرف الآن بـ «فرنسا».

(١٢) أفضل وصفٍ لذلك هو رواية سير «ستيفن رانسيمان S. Runciman» كما جاءت في كتابه A History of the Crusades، المجلد الثالث، الصفحات من ٤١٢–٤٢٣.

الفصل الحادي عشر

نهاية العصور الوسطى

- الأسر البابلي: ١٣٠٩م.
- الكابوس النابولي: ١٣٤٥م.
- مصير فرسان الهيكل: ١٣٠٧م.
- فرسان سان جون: ١٣١٢م.
- قوانين التنظيم.
- مذبحة الإسكندرية: ١٣٦٥م.
- اللاسامية في إسبانيا: ١٣٩١م.
- الموت الأسود: ١٣٤٨م.
- لويس الرابع في إيطاليا: ١٣٣٠م.
- بترارك وبوكاشيو: ١٣٥٠م.

* * *

لم تكن حرب أجراس المساء الصقلية هي سبب سقوط الشرق اللاتيني؛ إذ منذ صعود المماليك في ١٢٥٠م — وربما حتى منذ أن استولى صلاح الدين على أورشليم في ١١٨٧م — كان ذلك مسألة وقت. إلا أنه كان أمرًا يشغَل بال أمراء أوروبا، لدرجةِ أنهم لم يركزوا على محنة رفاقهم المسيحيين في الشرق. وكما حدث، فإن الحرب كانت لتستمر أحد عشر عامًا أخرى بعد تدمير عكا. في ١٣٠٢م، وبعد محاولةٍ فاشلة لوضع «شارل الفولوازي Charles of Valois» شقيقِ «فيليب الجميل Philip the fair» على عرش صقلية، كان البابا «بونيفاس الثامن Boniface VIII» مضطرًّا — وعلى مضض — أن يعترف ﺑ «فردريك» ابن الملك «بيتر»، حاكمًا على الجزيرة ليلقَّب ﺑ «ملك تريناكريا King of Trinacria»،[1] وهو لقبٌ عزيز؛ حيث كان «الأنجونيون The Angevins» في نابولي

ما زالوا يحتفظون بالتاج الصقلي. إلا أنه حتى ذلك الحين، لم يكن انتصارهم كاملًا كما كان «الأراجونيون The Aragonese» يتمنَّون؛ بموجب شروط الاتفاقية، كان على فردريك أن يتزوَّج «ليونورا Leonora»، ابنةَ شارل الفالوازي، وبعد موته تعود الجزيرة إلى بيت «آنجو Anjou».

كان البابا بونيفاس قد انتُخب في ١٢٩٤م بعد تنحِّي — وهو التنحِّي الوحيد في تاريخ البابوية — الناسكِ الورِع غير الكفء «ڤيليستين الخامس Celestine V»، الذي كان مؤهله الوحيد للبابوية هو أنه كان ذات مرة — في بلاط جريجوري العاشر — قد علَّق رداءه على شعاع من أشعة الشمس! كان البابا الجديد نقيضه في كل شيء. كانت المراسم الكبرى للكنيسة، بالنسبة له، موجودةً، فحسب، لتعزيز أهدافه الدنيوية وإثراء أسرته، «آل كايتاني The Caetani». كان يعامل الحكام الأجانب كخَدَم أكثر منهم رعايا، وفي الوقت نفسه كان آل بيت «جيبيلين الكولوني Ghibelline of Colonna» المنافس، الذي كان شديد الحقد عليهم ويخشى قوَّتهم، محرومين كنسيًّا وأراضيهم في «باليسترينا Palestrina» مستولًى عليها ومدمَّرة بدعوى حملة صليبية.

مثل هذا السلوك، أحطَّ بقدرِ البابوية، لدرجةِ أنه كان لا بد من أن تمر عدة سنوات لكي تبرأ من ذلك الوضع المهين، كما جعل ذلك بونيفاس مكروهًا ومذمومًا في أوروبا كلها. عندما فرَّ «آل كولونا» جميعًا إلى فرنسا، أصبح «الفرنسيسكان الروحانيون Spiritual Franciscans» (الفراتيشلي The Fraticelli)، هم الأعداءَ الرئيسيين في إيطاليا، الذين ثاروا على الدنيوية المتزايدة لنظامهم، للعودة إلى مؤسِّسهم في الزهد والتقشُّف. كانوا يكرهون بونيفاس، ليس بسبب ثرائه الفاحش فحسب، بل وبسبب غطرسته، ولأنهم كانوا يعتبرونه مسئولًا — بحق — عن تنحي «ڤيليستين» ثم سَجْنه وموته بعد ذلك.

كان عداء فيليب الجميل ما زال يشكِّل خطورة على بونيفاس، وكان بونيفاس قد حرمَه كنسيًّا بعد أن منع الإكليروس الفرنسي من تلبية استدعاء بابوي إلى روما. في ربيع ١٣٠٣م انتقم فيليب بأن دعا إلى مجلسٍ تشاوريٍّ عامٍّ، كان يريد به أن يتم استدعاء البابا نفسه ومساءلته؛ وتم بالفعل إرسال جيش قوامه ألف وستمائة جندي إلى إيطاليا، مع أمرٍ بالقبض على بونيفاس وإحضاره إلى فرنسا، بالقوة، إذا لزم الأمر. وجدوه في موطنه «أناجني Anagni»؛ حيث كان يضع اللمسات النهائية لرسالة بابوية، تعفي رعايا فيليب من ولائهم، وأخذوه أسيرًا. بعد ثلاثة أيام كان هناك ردُّ فعل شعبي لصالحه، أجبرهم على الانسحاب، إلا أن مهمَّتهم لم تكن بلا طائل. كان ما فعلوه أشبه بضربة قاضية لكرامة

البابا. رافقه أصدقاؤه «الأورسين The Orsini» ليعود إلى روما؛ حيث مات هناك بعد شهر.

كان بونيفاس وفيليب عدوَّين لدودَين، إلا أن مساعيَهما المشتركة هي التي كسرت في النهاية معنوياتِ النظام البابوي، ودمَّرت البقية الباقية من مكانته في روما. عندما تم انتخاب فرنسي آخرُ في ١٣٠٥م ليكون البابا «كليمنت الخامس Clement V»، جعل تتويجه في «ليون Lyons» ولحِقت به هناك إدارته البابوية، وعلى مدى الاثنتين والسبعين سنة التالية، لم يكن هناك بابا في روما. كانت تلك هي الفترة التي وصفها «بترارك Petrarch» بـ «الأسْر البابلي The Babylonian Captivity» … إلا أن العبارة مضلِّلة. لم يكن الباباوات أسرَى بأي معنًى. كان كليمنت هو الذي ذهب إلى ليون بمحض إرادته، ولم يكن لديه أي نية ليكون مِخْلب قِط للملك الفرنسي. بعد أربع سنوات، وعلى إثر شجار مع فيليب، نقل بلاطه إلى «أفينون Avignon»، وتحديدًا لأن المدينة لم تكن فرنسية آنذاك، وإنما داخل مناطق النفوذ البروفنسية الخاضعة لملكة نابولي، وعليه فقد كان يمكن المحافظة على الاستقلال البابوي بسهولةٍ أكبر. كذلك لم يحدُث أن خفَّف، هو أو أيٌّ من خلفائه من قبضتهم على الشئون الإيطالية طوعًا، أو اعتبروا أفينون أكثرَ من مقر مؤقت للإقامة إلى أن يحين الوقت للعودة في أمانٍ — وراحة — إلى إيطاليا.

السبب هو أن روما كانت قد أصبحت بغيضةً وخطِرة في الوقت نفسه. لم يكن هناك إمبراطور مقدَّس منذ فردريك الثاني (١٢٥٠م)، وكانت مدن لمبارديا وتوسكانيا متروكة لتنمو على طريقتها بعيدًا عن الاعتداءات الإمبراطورية. كانت نظم الحكم في معظمها استبدادية؛ حيث كانت أسرة أو أخرى تمارس سيادتها المطلقة — «الفيسكونت The Visconti»، و«الديللاتور Della-Torre» في ميلانو، «المونتيشي The Montecchi» (مونتاجيو Montagues شكسبير)، و«السكاليجري The Scaligeri» فيما بعدُ في فيرونا، و«الجونزاجا The Gonzaqa» في مانتوا — هذا الكم من الدكتاتوريات المطلقة برغم حجمها الصغير، التي كانت مفروضةً على صراع تقليدي ضروس وتواجه عِداء برجوازياتٍ ذات توجُّهات تجارية، أسفر عن اضطرابات عميقة تخلَّلت كلَّ مناحي الحياة في الشمال الإيطالي. أحيانًا، وهو ما لا يمكن إنكاره، كان ذلك يوفِّر حافزًا للروح الجديدة، روح التساؤل الفني الذي كان إرهاصًا بعصر النهضة (وُلد «جيوتو Giotto» في نفس العام الذي مات فيه «مانفريد Manfred»)، إلا أن القصة كانت ذات القصة … استبداد وسفك دماء.

من بين الجمهوريات البحرية الشمالية الكبرى، كانت جنوة وبيزا في حالة قتال مستمر، انتهى بانتصار جنوة الحاسم بالقرب من «ميلوريا Meloria» في ١٢٨٤م؛ ولم يكن هناك سوى فينيسيا التي بقيت دون أن تمسَّها الفوضى القائمة — نسبيًّا — وذلك بسبب عزلتها البحرية وأوليجاركيتها[٢] المنظمة، وبُعدها عن الصراع الحزبي، وذلك النظام الذي يعتمد على المراجعة والتوازن، الذي جعل من حكمِ أكثر الجمهوريات هدوءًا وصفاءً أعجوبةً ورعب أوروبا.

في هذا الجو المضطرب، كان هناك ملاذٌ آخر، آمنٌ نسبيًّا، هو فلورنسا. في ذلك الوقت، كانت أبرزَ مدينة-دولة إيطالية في الإبداع الفني، وكانت ما تزال الأكثر تميزًا، من حيث إنها استطاعت أن تكون نظام الحكم الوحيد — الذي شهده العالم — بواسطة الفنانين والحرفيين البارعين. هنا، كانت الإدارة الناجحة في أيدي ستة من رؤساء النقابات الفنية يُدعَون بـ «أسطوات الفنون Priors of the Arts»، وكانت سلطاتهم قوية. كانت فلورنسا تستطيع كذلك أن تستند إلى تراثٍ راسخ هو تراث «الجيولف Guelf»[٣] الذي ربما يكون قد حفظها من الضغائن والإحن التي ابتُليت بها المدن الأخرى الأقل حظًّا؛ ولكن بالقرب من نهاية القرن حدث شقاق بين الجيولف، وفي ١٣٠٢م — بعد أن تحالف البابا بونيفاس مع «السود» الرجعيين — تم نفي قادة حزب «البِيض» الأكثر اعتدالًا.

كان من بينهم «دانتي أليجييري Dante Alighieri» صاحب «الكوميديا الإلهية»، أعظم إنجاز بالإيطالية؛ والذي يُعَد، بين أعمال أخرى كثيرة، تعليقًا لاذعًا وعميقًا، يزعم فيه الشاعر أنه يلتقي شخصيات عصره الرئيسية في طريقه إلى العالم الآخر، بينما هو في حقيقة الأمر يصدِر أحكامًا عليهم. عظمةُ التصوير في هذا العمل مدهشة، وكذلك البراعة في التعبير بلغةٍ عامية كانت في مرحلة التطور، وإن كانت الأفكار السياسية التي ينطوي عليها، تبدو أكثرَ تذكرةً بالقرن الحادي عشر، أكثر مما هي بالقرن الرابع عشر. هذه الأفكار التي يطوِّرها دانتي بشكلٍ أعمق في De Monarchia، هي في جوهرها عودة إلى الحُلم القديم بإمبراطورية مسيحية باتساع العالم، يحكمها إمبراطور وبابا في ترادف متآلف.

لم تتضح عمليةُ هذه الأفكار إلا في سنة ١٣١٠م، عندما ذهب الكونت «هنري اللكسمبورجي Henry of Luxemburg»، أهمُّ معبِّر عنها، إلى إيطاليا كإمبراطور منتخَب. كشخص مثالي، حسن النية، تلقَّى هنري أولَ تتويج له في ميلانو بنسخة طبْق الأصل من تاج لومبارديا الحديدي (كان التاج الأصلي مرهونًا)، وكان ما زال يؤكد حياديتَه بين

الجيولف البابويين والجيبيليين الإمبراطوريين،[٤] ولكن أهالي مدن الجيولف في لومبارديا وتوسكانيا لم يتركوه في شكٍّ من مشاعرهم نحو إمبراطوريةٍ عفا عليها الزمن؛ كما كان «جيبيلينيًّا» قلبًا وقالبًا عندما جاء إلى روما، لدرجةِ أنه مُنع من دخول كنيسة سان بيتر، وأُجبر على قبول تاج الإمبراطور في اللاتيران من ممثلين للبابا.

في الوقت نفسه، كان «كليمنت الخامس Clement V»، بضغط من الملك فيليب، قد انقلب عليه في أفيون، كما فعل حفيد شارل الأنجوي، الذي كان يحكم في نابولي، باسم الملك «روبرت الحكيم King Robert the Wise». في ١٣١٣م، مات بالحمَّى، بعد أن أثبت عدم قيمة آمال دانتي بشكل قاطع.

لم يكن دانتي يحب الملك روبرت، الذي كان يصفه دائمًا ﺑ «ملك الكلام re da sermone»، والحقيقة أن روبرت كان لديه كلُّ مقومات الحاكم العظيم. كان عالمًا، جعله حبُّه الحقيقي للآداب والفنون راعيًا سخيًّا للشعراء والكُتاب، وبخاصة بترارك الذي كان صديقًا شخصيًّا له وكان معجبًا به، لدرجةِ أنه عبَّر عن أمله أن يكون يومًا ما عاهلًا لإيطاليا كلها. كان يمكن، في ظروفٍ أكثرَ أمنًا وسلامًا، أن ينقذ ريجنو من العفن التي كانت تبدو غارقة فيه، ومن أسفٍ أن الفرصة لم تُتَح له. استنزفت الحروب المستمرة مع الأراجونيين خِزانته، وحتى في الداخل كانت حياته صراعًا دائمًا مع البارونات المتمردين الذين لم يتوقفوا عن إزعاجه.

مات روبرت في ١٣٤٣م لتخلفه حفيدته «جوانا Joanna»، زوجةُ أندرو أمير هنغاريا، وعلى مدى نصف القرن التالي سيصبح تاريخ نابولي كابوسًا. (ليس من المتوقَّع أن يتابع القارئ بقيةَ هذه الفقرة والفقرة التالية لها، الواردة لمجرد تصوير المستوى الذي كانت السياسة قد انحدرت إليه في نابولي). في سنة ١٣٤٥م تم اغتيال أندرو بتواطؤ من عمةِ والد زوجته «كاترينا الفولوازية Catherine of Valois»، ولكن جوانا نفسها لم تكن فوق مستوى الشك. بعد ذلك طالب شقيقه لويس ملك هنغاريا بالمملكة لنفسه بذريعة الثأر. طرد جوانا وزوجها الثاني، ثم قتل شقيق زوجها أخذًا بالأحوط، ولكنه سرعان ما عاد إلى المجر واستدعى البارونات المحليون جوانا، ثم قام ابن عمها «شارل الدورازي Charles of Durrazo» بغزو المملكة وسَجْنها، وبعد وقت قصير كان أن قُتلت هي الأخرى. بعد موت شارل، تسبَّب صراع على خلافته في حربٍ أهلية … وهكذا انزلقت المملكة مرةً أخرى إلى الفوضى القديمة.

مع بداية القرن التالي، كان يبدو أن «لاديسلاس Ladislas»، ابنَ شارل، قد حسم الصراع لصالحه. وبحلول العام ١٤١٠م — وبفضل الانشقاق البابوي المستمر[٥] — كان

قد احتلَّ روما نفسها ثلاث مرات، روما التي لم يكن البابا الشرعي جريجوري الثاني عشر قادرًا على أن يحافظ عليها. في المرة الأخيرة نهب المدينة وأحرقها. مرَّ موته في ١٤١٤م غيرَ مأسوف عليه، على الأقل، إلى أن انحدرت أخته وخليفته «جوانا الثانية Joanna II» بالمملكة إلى حضيض الحضيض. في ١٤١٥م تزوَّجت «جيمس البوربوني James of Bourbon» الذي وضعها في حالةٍ أقربِ ما تكون إلى الاعتقال. قتل عشيقَها وسَجن «سفورزا Sforza» قائدَ حرسِها؛ ولكن غطرسته جعلت البارونات يتمردون عليه ويطردونه. بعد ذلك ستبدأ سلسلة من المؤامرات والمكائد أكثرُ سوءًا بين جوانا وسفورزا وعشيقها الجديد «جيوفاني كاراكيولو Jiovani Caracciolo» ووريثها المتبنَّى «ألفونسو الأراجوني Alfonso of Aragon» و«لويس الثالث الأنجوي Louis III of Anjou»، الذين كانوا يتآمرون ضد بعضهم الآخر بكل الصور الممكنة؛ وبالرغم من أن جوانا ماتت في ١٤٣٥م، كان لا بد من أن تمرَّ ثماني سنوات أخرى قبل أن ينتصر ألفونسو في النهاية، ويحصل على الاعتراف البابوي به كملك على نابولي.

كانت مملكة أورشليم قد تم تدميرها على يد جيوش المماليك، ولكن التنظيمات العسكرية الثلاثة للفرسان بقيت وإنْ لفترات مختلفة. أحدثها التنظيم الألماني، الفرسان التيوتون Teutonic Kniqhts، انتقل بعد ١٢٩١م إلى فينيسيا ليبقى هناك سنوات قليلة، ثم إلى مارينبورج على نهر «الفستولا Vistula» في ١٣٠٨م حيث سيخرجون من قصتنا، بينما واصل فرسان الهيكل والإسبتارية القيامَ بدورهم في شئون البحر الأبيض، رغم أن فرسان الهيكل لم يقوموا بذلك لفترة طويلة.

لنتناول فرسان الهيكل أولًا. من الصعب علينا في أيامنا هذه أن نفهم — أو حتى نصدِّق — تأثيرهم في العصور الوسطى المتأخرة. كان ذلك التنظيم قد أُنشئ في أوائل القرن الثاني عشر لحماية الحجَّاج الذين يفِدون إلى الأماكن المقدسة بعد الحملة الصليبية الأولى، وفي غضون خمسين سنة كانوا قد أصبحوا راسخين في كل ممالك العالم المسيحي تقريبًا، من الدانمرك إلى إسبانيا، ومن أيرلنده إلى أرمينيا؛ وفي غضون قرن كان «جنود يسوع المسيح الفقراء»، بالرغم من تعهُّدهم البنديكتي بالتقشُّف والطهارة والورع والطاعة، كانوا يموِّلون نصف أوروبا، كانوا قد أصبحوا أكبرَ الصيارفة ورجال المال في العالم. بحلول العام ١٢٢٥م، كان يُعتقد أنهم يملكون تسعة آلاف قطعة أرض في كلٍّ من باريس ولندن، وكانت منازلهم تُستخدم كقلاع لحفظ الكنوز الضخمة. من فرسان

الهيكل الإنجليز، اقترض هنري الثالث الأموال التي اشترى بها جزيرة «أوليرون Oleron» سنة ١٢٣٥م، ومن فرسان الهيكل الفرنسيين اقترض فيليب الجميل مهْر ابنته إيزابيللا عند زواجها من إدوارد الثاني ملكِ إنجلترا. كذلك دفعوا للويس التاسع الجزءَ الأكبرِ من الفدية، وأقرضوا إدوارد الأول ما لا يقل عن خمسة وعشرين ألف جنيه توري Livers Tournois، تنازلوا بعد ذلك عن أربعة أخماسها.

كان فرسان الهيكل أقوى ما يكونون في فرنسا، كانوا بالفعل دولةً داخل الدولة، ومع تزايد نفوذهم كان لا بد من أن يتزايد قلق فيليب الجميل، إلا أنه كان هناك سببٌ آخر — أكثر مهانةً — يجعله يتصدى لهم؛ كان في حاجة ماسة للمال. كان قد جرَّد اليهود ورجال البنوك في لومبارديا من ممتلكاتهم وطردهم، وتعامل مع فرسان الهيكل بالطريقة نفسها — وكان ذلك يَعِد بأن تكون ثرواتهم وممتلكاتهم في مملكته لنفسه — لكي يحلَّ مشكلته المالية مرةً وإلى الأبد. هذا التنظيم — كما كان يُعرف — سيكون عدوًّا لدودًا، ولحسن حظه كان في يده سلاح يمكنه أن يتصدَّى به لذلك. على مدى سنوات عدة، كانت هناك شائعات عن الطقوس السرية التي يمارسها الفرسان في لقاءاتهم التي كانوا يعقدونها في منتصف الليل. كان كلُّ ما يحتاجه الآن هو أن يقوم بتحقيق رسمي، ولن يكون من الصعب أن يجد شهودًا عليهم، لقاء مكافآت مالية صغيرة، يقدِّمون له الدليل المطلوب. سيكون هذا الدليل أكثرَ من كافٍ لتحقيق هدفه. فرسان الهيكل من عبدة الشيطان الذين ينكرون المسيح ويمتهنون الصليب، كانوا يشجِّعون اللواط وليس السماح به فحسب. الأطفال غير الشرعيين الذين يُولدون، يتم التخلص منهم بشوائهم أحياء.

في يوم الجمعة، الثالث عشر من أكتوبر ١٣٠٧م تم القبض في باريس على «جاك دي مولاي Jacques de Moloy» المعلم الأعظم (The Grand Master) أو الرئيس الأعلى للهيكل ومعه ستون من «الإخوة» القياديين.[٦] ولإجبارهم على الاعتراف، تم تعذيبهم بداية بواسطة سلطان القصر، ثم سُلِّموا للمحققين الرسميين لتعذيبهم مرة أخرى. على مدى ستة أسابيع تالية، خضع ما لا يقل عن ١٣٨ فارسًا للتحقيق، اعترف منهم ١٢٣ — ولم يكن ذلك مفاجئًا ولا مثيرًا للدهشة — بمن فيهم مولاي نفسه، ببعض الاتهامات الموجَّهة إليهم، على الأقل. في الوقت نفسه كتب فيليب إلى زملائه الملوك يحثُّهم على التصرف مثله. إدوارد الثاني ملك إنجلترا، الذي ربما كان يشعر بالأرض ضعيفةً تحت قدميه، كان أكثرَ ميلًا للمماحكة وإثارة الاعتراضات التافهة مع والد زوجته، ولكن عندما جاءت تعليمات حازمة من البابا كليمنت — الذي كان على استعداد لمساعدة الملك الفرنسي بكلِّ ما يستطيع

من وسائل — لم يَعُد مترددًا. تم اقتياد المعلم الأعظم للتنظيم إلى السِّجن في التاسع من يناير ١٣٠٨م ليلحق به فرسانه بعد ذلك.

كان لفرسان الهيكل — كذلك - أبطالهم. أثناء استجواب دي مولاي بواسطة ثلاثة كاردينالات، كان البابا قد أوفدهم إلى باريس، سحب دي مولاي اعترافه، وكشف صدره لتظهرَ آثار التعذيب الذي تعرَّض له، وفي أول اجتماع لمجمع الكرادلة، هدَّد ما لا يقل عن عشرة من أعضائه بالاستقالة احتجاجًا على سياسته، إلا أنه كان من المستحيل عكس اتجاه التيار. في أغسطس، جدَّد المعلم الأعظم اعترافاته السابقة عند استجوابه مرة أخرى.

بدأت المحاكمات العلنية للتنظيم في الحادي عشر من أبريل ١٣١٠م، مع الإعلان بأن أية محاولة من أيٍّ من المتهمين للتراجع عن أي اعتراف سابق ستعرِّضه للإعدام حرقًا بالشد على خازوق؛ وفي الثاني عشر من مايو لقي أربعة وخمسون فارسًا المصيرَ نفسه، وفي الأسبوعين التاليين تبِعهم تسعة آخرون. مضى الأمر على هذا النحو لمدة أربعة أعوام أخرى، كان الملك والبابا أثناءها يتشاوران — وهو ما يؤكد الشكوك التي لم تتوقَّف — حول كيفية التصرف في ثروة التنظيم الطائلة. في الوقت نفسه كان «جاك دي مولاي» يذوي في سِجنه في انتظار تقرير مصيره، وفي الرابع عشر من مارس ١٣١٤م ستأتي به السلطات إلى المقصلة، أمام كاتدرائية نوتردام، ليكرر اعترافاته للمرة الأخيرة.

كان هناك سببٌ يجعلهم يندمون على قرارهم. كرئيس أعلى للتنظيم، من الصعب أن نقول إن جاك دي مولاي كان قد أبلى بلاء حسنًا على مدى السنوات السبع السابقة. اعترف، سحب اعترافه، ثم اعترف مرةً أخرى؛ لم يُبدِ أيَّ بطولة ولا حتى ظهرت عليه بعض صفات القيادة. ولكنه كان الآن شيخًا في خريف العمر، كان في منتصف العَقد السابع وقدَمه في القبر. لم يكن لديه ما يخسره. وهكذا، مدعومًا من صديقه «جيوفروي الشارناري Geoffroy de Charnari»، تكلَّم دون تردُّد وبوضوح: يعلم الله أنه هو وتنظيمه كانوا أبرياء من التهم التي نُسبت إليهم. على الفور، قام القيِّمون على السِّجن بترويعهما، وهُرع الرسل إلى فيليب. لم يؤخِّر الملك قراره. في ذلك المساء نفسه، نُقِل الفارسان إلى جزيرةٍ صغيرة في السين؛ حيث كانت الخوازيق معدَّة لإعدامهما حرقًا.

بعد ذلك، أُشيع أنه دعا الله قبل موته مباشرةً أن يقصف عمر البابا والملك قبل انقضاء العام، وحدث أن مات البابا فعلًا قبل مرور أقل من شهر، وقُتل الملك في حادثٍ في أواخر نوفمبر تقريبًا.[٧] واجه الرجلان عمليةَ الحرق بشجاعة، وماتا بشكلٍ نبيل، وبعد أن حلَّ الليل جاء رهبان دير القديس أوغسطين من الشاطئ المقابل، ليجمعوا عظامهما في وقار وتبجيل مثل عظام القديسين والشهداء.

بالرغم من أن الإسبتارية (فرسان سان جون) لم يكن لهم أي دور في اضطهاد فرسان الهيكل وإبادتهم — وربما يكون من الظلم حتى أن نقول إنهم أبدَوا أي قدرٍ من الشماتة — لا شك أنهم كانوا أكبرَ المستفيدين من نكبة إخوانهم. برسالة بابوية بتاريخ الثاني من مايو ١٣١٢م، قرَّر البابا كليمنت أن تئول كلُّ ثروة فرسان الهيكل وممتلكاتهم — خارج مملكة قشتالة وأراجون والبرتغال ومايوركا التي شملها بقراره — إلى تنظيم الإسبتارية؛ وبالرغم من أن الملك فيليب حصل على معظم مكافأته المقرَّرة، كان الإسبتارية هم الذين وجدوا أنفسهم فجأةً أغنى مما كانوا يتوقعون.

كان تنظيم الإسبتارية في الأصل أقدمَ من تنظيم فرسان الهيكل. كان شارلمان قد أنشأ نُزلًا (تكية) ظلَّ مستخدَمًا حتى سنة ١٠١٠م عندما دمَّره الخليفة الحاكم، الذي كان متعصبًا معاديًا للمسيحيين. في سنة ١٠٢٣م تقريبًا اشترى جماعة من تجار أمالفي الموقعَ وأعادوا بناء النُّزل تحت سلطة «البندكتيين The Benedictines». بعد ذلك نذروا المكان لـ «يوحنا المعمدان St John the Baptist»، وبعد الغزو اللاتيني لأورشليم في ١٠٩٩م، جعله مديره «الأخ جيرار Brother Gerard» مركزًا لتنظيمه الديني بهدفٍ وحيد، وهو رعاية وعلاج المرضى، إن أمكن. ثم جاء خليفته «ريمون البيوي Remond of the Puy» الذي قام بمراجعة قوانينه وحدَّد له هدفه الثاني؛ الحماية العسكرية للحجاج المسيحيين. من ثلاثينيات القرن الثاني عشر، سيقوم فرسان الهيكل والإسبتارية بدورٍ منتظم في حروب الصليب. كلاهما (فرسان الهيكل والإسبتارية) كان تنظيمًا عسكريًّا. لم ينسَ الإسبتارية أنهم كانوا في الأصل «إخوة ممرِّضين»، واجبهم هو تقديم المساعدة للمرضى؛ وعندما لا يكونون في حالة قتال سيشغلون أنفسهم ببناء وتجهيز مستشفياتهم التي كان مستوى العلاج الذي يقومون به فيها، الأرقى من نوعه في العصور الوسطى.

بعد سقوط عكا والشرق الفرنجي، لجأ فرسان الإسبتارية إلى ليماسول، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن يكونوا تحت سيادة أو رعاية «بيت لوزينان Lusignan»، وفي ١٣٠٦م توصَّل «فولك دي فياريه Foulques de Villaret» معلِّمهم الأعظم، بإذن من البابا كليمنت، إلى اتفاقٍ مع قرصان من جنوة يُدعى «فيجنولو دي فيجنولي Vignolo de Vignoli» للقيام بهجوم مشترك على جزيرة رودس التي كانت آنذاك جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية. جغرافيًّا، كان ذلك اختيارًا مثاليًّا. كانت على بُعد عشرة أميال من شاطئ آسيا الصغرى، الطريق الذي يمر به كثير من السفن التجارية المتحركة بين موانئ غرب أوروبا وموانئ الشرق اللاتيني. كانت مرتفعاته الجبلية التي تصل إلى نحو

أربعة آلاف قدم، توفِّر عدةَ نقاط ممتازة لمراقبة آسيا الصغرى وجزر الدوديكانيز؛ حيث كان يمكن في الأيام التي تصفو فيها الرؤية، أن تشاهد منها تخوم جبل «أيدا Ida Mount» في كريت، الواقعة على بُعد أكثر من مائة ميل ناحية الجنوب الغربي. كانت الأراضي غنية بالبساتين ومزارع الكروم بما يضمن توفير الكثير من الغذاء والنبيذ، وكانت غابات الصنوبر الشاسعة تنتج كمياتٍ كبيرة من الأخشاب لبناء السفن، بالإضافة إلى أن الناس هناك كانوا يعتزون بتراث ملاحي منذ القِدم. كان عالَم الملاحة الرومانية في الشرق يضم الكثيرين من أهالي رودس، وكذلك كل الأساطيل البيزنطية المتوالية. فإذا كان الفرسان سوف يتشبَّثون بهذه الأراضي ليصبحوا رجال بحر، فسوف يجدون هنا أفضل من يقوم بتعليمهم بناء السفن والملاحة وفنون الحرب.

بداية، كان لا بد من غزو الجزيرة. قاوم شعبها ببسالة، وبعد عامين من القتال العنيف سقطت مدينة رودس نفسها، بميناءيها الرائعين، في أيدي الفرسان. في الخامس عشر من أغسطس فتحت أبوابها، وبعد عام أصبحت المركز الرسمي لقيادة التنظيم. على الفور، تم التوصل إلى اتفاق مع فيجنولو كانت فحواه أنه في مقابل ثلث العائد، يحتفظ الفرسان بالجزيرة بكاملها باستثناء قريتين صغيرتين إلى جانب الجزر المجاورة «كوس Kos» و«كاليمنوس Calymnos» وجزر أخرى عديدة من الدوديكانيز. كانت صفقة ممتازة. بعد تسعة عشر عامًا أصبح لهم وطن دائم — على جزيرة أصبحت بموجب مرسوم بابوي لاحق مِلكًا لهم بشكل نهائي. في ظل هذه الظروف المستجَدة، لم يكونوا تنظيمًا للفرسان فحسب، بل أصبحوا دولة ذات سيادة. أخيرًا، أصبح بإمكانهم استئنافُ حربهم ضد «الكفار»، بهدفها المعلن وهو «إسكات أعداء المسيح»، وحتى وهم يقومون بذلك لم ينسَوا قط أنه كان لديهم واجب آخر، ما زال أكثر إلحاحًا. كانت إحدى مهامهم الأولى بعد أن استقروا في رودس، هي الشروع في بناء مستشفاهم الجديد، وكان أن أصبح أشهر مستشفًى في العالم. الجناح الرئيسي الباقي إلى الآن، مثلما تركه التنظيم تقريبًا قبل خمسة قرون، يتَّسع لما يقل عن خمسة وثمانين مريضًا، كلهم تتم رعايتهم بواسطة الفرسان أنفسهم.

أنشئوا كذلك هيكلًا إداريًّا جديدًا، على رأسه «المعلِّم الأعظم The Grand Master»، وتحته كان التنظيم مقسمًا بناءً على ثماني لغات أو ألسن، هي لغات فرنسا وبروفنس وأوفيرجن وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا وأراجون وقشتالة، لكلٍّ منها درجة كبيرة من الاستقلالية؛ ولربط هذه المجموعة المتعددة الأجناس واللغات، تقرَّر أن يتحمل كل

«لسان» مسئوليةَ القيام بمهمة واحدة. وهكذا كان الأدميرال دائمًا إيطاليًّا، والقائد الأعلى بروفنساليًّا، والمارشال أوفيرجينيًّا، والمساعد الأول ألمانيًّا؛ أما قائد القوات فكان إنجليزيًّا ومسئولًا عن الدفاعات الساحلية للجزيرة. كان لزامًا على كل فارس أن يرتديَ فوق ردائه أو عباءته الصليب الثُّماني، «لكي يشعر باستمرار بأنه يحمل في قلبه صليبَ المسيح، مزينًا بفضائلَ ثمانية ترعاه».

داخل اللغات، كان الفرسان مقسَّمين إلى ثلاث طبقات رئيسية؛ أولًا: فرسان العدل، وكانوا يُجنَّدون من أبناء العائلات الأرستقراطية الأوروبية، وعليهم أن يقدِّموا ما يثبت نبالة أصولهم. يأتي بعدهم في المرتبة «الإخوة» الذين يقومون بالخدمة، وكانوا من درجةٍ اجتماعيةٍ أقلَّ قليلًا، بعضهم قد يكونون جنودًا أو دبلوماسيين أو موظفين، وآخرون يعملون بالمستشفى. المستوى الثالث كان من القساوسة الملحَقين للخدمة في الكنائس وأماكن العبادة. كان على كل فارس أن يخدم لمدة عامين أولًا على سبيل الاختبار، يقضي عامًا منهما على السفن الحربية، كما كان عليه أن يؤديَ هذا القَسم:

> إنك تتعهَّد وتقسِم أمام الرب وبسيدتنا وسيدنا القديس يوحنا المعمدان أن تعيش وتموت على الطاعة، كما تتعهَّد أن تعيش بلا ملكيةٍ خاصة بك. وهناك عهد آخر يقدِّمه التنظيم فقط؛ أن تكون عبدًا لسادتنا المرضى.

ظل الكثيرون منهم في الخارج فترةً طويلة من حياتهم في مراكز القيادة المحلية للتنظيم، ولكنهم جميعًا وبلا استثناء كان لا بد من أن يعودوا إلى رودس فور استدعائهم.

مع مرور القرن الرابع عشر، لم يكن غريبًا إلى حدٍّ كبير أن يبدأ الفرسان في التخلي عن بعض مُثُلهم الأولى. بالرغم من بقاء مستشفاهم مزدهرًا واجتذابه مرضى من كل أنحاء الشرق الأوسط، فإن ثروتهم التي كانت تتزايد باطراد — مصحوبة ربما بالمناخ الأقرب للكمال الذي كانوا يعيشون فيه — أدَّت إلى تراخٍ تدريجي في عاداتهم الرهبانية التقشفية، إلا أنهم لم يهملوا واجباتهم العسكرية قط. استمروا في ضبط أمن البحار الضيقة، وكان قناصلهم في مصر وأورشليم يرعون مصالح الحجاج المسيحيين، كما استمروا في ضغطهم على الأتراك، وبخاصة تعطيل تطوُّرهم كقوة بحرية من الدرجة الأولى. تحالفوا في ١٣٤٨م مع فينيسيا وقبرص واستولوا على سميرنا (أزمير)، ونجحوا في حمايتها من هجومٍ تركي مضاد بعد عشر سنوات، وفي ١٣٦٥م أسهموا في الجهد الأخير لإنقاذ الأراضي المقدسة من «الكفار».

كان حليفهم وملهمهم في هذا الظرف «بيتر الأول Peter I» ملِكَ قبرص، أول ملك منذ القديس لويس تلهب الروح الصليبية مشاعرَه. كلهم وعدوه بالمساعدة؛ البابا أوربان الخامس في أفينون، الإمبراطور شارل الرابع في براغ، جون الثاني في فرنسا، إدوارد الثالث في إنجلترا، كما كانت هناك مشاركة بحرية من فينيسيا. تجمَّعت الحملة في رودس في أغسطس ١٣٦٥م مع قوة بحرية — تقدَّر بـ ١٦٥ سفينة من بينها ١٠٨ من قبرص — كانت أكبر قوة مشتركة منذ الحملة الثالثة. بعد إقلاع الأسطول بكامله تم الإعلان أن الوجهة الأولى كانت الإسكندرية. رست الحملة هناك في التاسع من أكتوبر، وبعد يومين، كانت المدينة في أيديهم.

ما حدث بعد ذلك لا يمكن وصفه سوى أنه كان مذبحة، أسوأ من تلك التي كان جنود الحملة الأولى قد ارتكبوها في أورشليم ١٠٩٩م، وتلك التي ارتكبها الفرنجة في القسطنطينية في ١٢٠٤م. كان القتل بلا تمييز. الجماعات المسيحية واليهودية المهمة … مثلها مثل الأغلبية المسلمة. كان الهم واحدًا. الكنائس والمعابد كلها سواء … كلها أُحرقت. خمسة آلاف أسير تم بيعهم عبيدًا. مذعورًا للوجهة التي أخذتها الأحداث، بذل الملك بيتر قصارى جهده لإعادة الهدوء للمدينة والحفاظ على البقية الباقية منها، ولكن الجيش كان مستمرًّا في السلب والنهب والتدمير قبل أن يصل جيش مملوكي من القاهرة لينتقم. لم يكن هناك خيارٌ أمام الملك سوى أن يأمر أسطوله بالعودة إلى قبرص. حتى آنذاك، كان يتمنى أن يعود إلى الشرق في حملة ثانية، ولكن عندما وصل الأسطول إلى فاماجوستا كان الجيش قد تشرذم وتفسَّخ، وكان الفرسان والجنود على السواء لا يفكرون في شيء سوى العودة على وجه السرعة، كلٌّ إلى بلده بما غنم.

كانت تلك هي الحملة الأخيرة وأكثرها مدعاةً للعار؛ فقد عرقلت فكرةَ التقدُّم في المتوسط في أفضلِ مرحلة من القرن الذي حدثت فيه. عندما حدثت، كان الفرنجة والمماليك في حالة سلام لمدة خمسين عامًا أو يزيد. كان الحجاج يسافرون بكل حرية إلى الأماكن المقدسة. كانت التجارة بين الغرب والعالم الإسلامي مزدهرة. الآن … استيقظت كل العداءات والثارات القديمة فجأةً؛ بدأت المجتمعات المسيحية المحلية مرةً أخرى تعاني من الاضطهاد، ومرة أخرى أُغْلِقت كنيسة الذخائر المقدسة في وجه الحجاج. أما بالنسبة للمماليك في مصر، فقد أصبحت قبرص المسيحية مرةً أخرى عدوَّهم اللدود، وكان لا بد من أن يثأروا لأنفسهم.

لن نكون منصفين إذا ألقينا باللوم على الإسبتارية لهذه الكارثة؛ إذ إن حياتهم كانت مكرَّسة قبل كل شيء لإنقاذ الحياة وليس للقضاء عليها، كان قَسَم الفقر يستبعد أيَّ

شكل من أشكال السلب والنهب، كما أنهم كانوا قد عاشوا طويلًا في الشرق وفهموا معنى ومبادئ التعايش؛ ولا شكَّ كبيرًا في أن يكونوا قد صُدموا، مثل أي شخص آخر، لسلوك حلفائهم، ولا بد من أن يكونوا قد بذلوا كلَّ ما في وُسعهم لممارسة تأثير معتدل. كان كل ذنبهم هو الربط بينهم وبين ما حدث. بالرغم من ذلك، فمذبحة الإسكندرية تشير إلى مرحلة الحضيض في تاريخهم، وتلطِّخ سجلَّهم ببقعة هي الأكثر سوادًا. بالنسبة للباقين، فهم ككسالى وغير مؤثرين كشأنهم دائمًا، يظل صحيحًا أنهم طوال فترة بقائهم في رودس التي استمرت ٢٣١ سنة، ومعظم فترة احتلالهم لمالطة التي استمرت ٢٦٨ سنة بعدها، كانوا قوةً مفيدة في أورشليم، وحاسمة — أحيانًا — في شئون المتوسط.

يُعَد قصر الحمراء في غرناطة أحدَ المعالم الإسلامية الرائعة الباقية في أوروبا، يخلُب ألبابَ كل زائريه جمالُ معماره وروعةُ نقوشه وسحرُ الأضواء والظلال في ساحته وحدائقه. أقواسه المصمَّمة على شكل حدوة الحصان، والخطوط العربية الملتفَّة كالدوامة، والقباب والأعمدة المدلاة من السقوف المعقودة … كل ذلك يعبِّر عن روح الإسلام على أجملِ ما يكون. ثم فجأة، تجد نفسك أمامَ شيء غير متوقَّع. في ثلاث قباب من «صالة العدل» تجد نقوشًا غير عادية في السقف مرسومةً على الجلد، وهو ما قد يُعتبر غريبًا وإن كان يجعلها متميزةً في مادتها. ترى في القبة الوسطى عشرةَ رجال، يبدو عليهم من مظهرهم أنهم عربٌ في مجلس، وعلى كل جانب مناظرُ صيد وقتال ولعب شطرنج ومطارحات غرامية كلها على الطراز المسيحي الأوروبي في العصور الوسطى المتأخرة. الطراز ينتمي إلى القرن الرابع عشر؛ ولذا لا بد من أن يكون معاصرًا للقصر نفسه الذي اكتمل بناؤه نحو عام ١٣٥٠م، ولكن كيف تم تصوير ذلك؟ المعروف أن عقيدة الإسلام تحرِّم الرسم الفني وبخاصة البشر.[٨] كان أمام غرناطة الإسلامية قرن ونصف القرن لكي نصل إليها. ما يمكن استنتاجه هو أنه لا بد أن يكون حاكمٌ إسلامي قد كلَّف فنانًا مسيحيًّا برسم تلك الصور، وهذا بدوره يدُل على أنه كان هناك تعايش ووئام بين العقيدتين.

أحدُ أسباب ذلك، أن حروب الاسترداد كانت قد انتهت بحلول الربع الثالث من القرن الثالث عشر؛ وكان الملك «بدرو الثالث Pedro III»، ملكُ أراجون، مشغولًا بمغامراته الصقلية، بينما كان معاصره «ألفونسو العاشر Alfonso X» حكيم قشتالة، المثقف واسع الاطلاع، أكثر اهتمامًا بالتفاوض من أجل تاج الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة وتدعيم مطلبه الأسري ب «جاسكوني Gascony» أكثرَ من اهتمامه بقتالِ غير المؤمنين. أما بالنسبة

لـ «سانشو الرابع Sancho IV» ابن ألفونسو، و«ألفونسو الحادي عشر Alfonso XI» حفيد سانشو — الذي أدَّى طول الفترة قبل أن يبلغ السنَّ القانونية إلى حرب أهلية وثلاث عشرة سنة من الفوضى، إلى أن أعلن بلاط قشتالة عن بلوغه السنَّ القانونية في ١٣٥٢م — فقد كان عليهم أن يفعلوا الكثيرَ لصد غزوات بربر المغرب، وكانت نجاحاتهم محلَّ ترحيب من حكام غرناطة المسلمين أكثرَ من التفجع عليها.

بصعود بدرو الأول ابنِ ألفونسو الحادي عشر عرشَ قشتالة (كان أكثرَ شهرة بلقبه «بدرو المؤذي» وهي تسمية مستحقة) في ١٣٥٠م، بدا الأمر في لحظةٍ ما وكأن التعايش المسيحي–الإسلامي قد بات مهدَّدًا. ولكن بدرو كان مهتمًّا في الفترة الأولى من حكمه بحياته الأسرية في المقام الأول؛ إذ قام بسَجن زوجته المنكودة «بلانش البوربونية Blanche of Bourbon»، التي يرجح أن يكون قد قتلها (رغم أن ذلك لم يتم إلا بعد زواج على ضر)، وفيما بعد تم التحفظ عليه من قِبل أعدائه في القصر. بعد إطلاق سراحه في ١٣٥٦م، ارتكب سلسلةً من أعمال القتل قبل أن يواجَه في ١٣٦٠م بحربٍ أهلية بقيادة أخيه، غير الشقيق وغير الشرعي، «إنريك التراستاماري Enrique of Trastamara».

في المحاولات المبذولة من كلا الطرفين للحصول على دعمٍ عالمي، انزلقت قشتالة بسرعة في «حرب المائة عام The Hundred Years War»؛ الإنجليز يدعمون بدرو — وبخاصة الأمير الأسود إدوارد — والفرنسيون يدعمون إنريك. لم يستمر التحالف الإنجليزي طويلًا. عاد إدوارد، الذي أثارت اشمئزازه خيانةُ بدرو ووحشيته، إلى إنجلترا سريعًا، مصابًا بالمرض الذي سيقضي عليه بعد فترة قصيرة. أما بدرو الذي بقي بمفرده، فانهزم أمام إنريك وحليفه الفارس الفرنسي الشهير «برتران دي جيسكلا Bertrand de Guesclin»، وفي الثالث والعشرين من مارس ١٣٦٩م قام إنريك بطعن بدرو ليقتله في خيمة جيسكلا، ليصبح في الوقت نفسه إنريك الثاني ملك قشتالة، وباعتباره خليفة لـ «بدرو»، كان لا بد من أن يكون ذلك تغيرًا إلى الأفضل.

في ١٣٧١م، عُقدت إحدى صلات المصاهرة الإسبانية القليلة مع إنجلترا، عندما تزوَّج «جون الجونتي John of Gaunt» دوق لانكستر، الابنُ الأكبر الباقي من أبناء إدوارد الثالث، من «كونستانس Constance»، ابنةِ بدرو غير الشرعية، غيابيًّا، ولقَّب نفسه بـ «ملك قشتالة». كان ذلك قبل خمسة عشر عامًا من ذهابه إلى إسبانيا مطالبًا بميراثه؛ وأخيرًا في السابع من يوليو ١٣٨٦م، أبحر من «بليموث Plymouth» بصحبة زوجته وابنتين وجيش قوامه نحو عشرين ألف جندي. بعد شهر، رسا في «كورونا Corunna»،

وسرعان ما نصَّب نفسه سيدًا على معظم «جاليسيا Galicia» في الجانب الشمالي الغربي من البلاد. بعد ذلك شارك بقواته في ربيع ١٣٨٧م مع صهره جون الأول ملك البرتغال (الذي كان متزوجًا آنذاك من ابنته «فيليبا Philippa») في عملية غزو مشتركة لقشتالة. فشلت الحملة وانتشر المرض بسرعة في المعسكر وأصيب الملك نفسه وضاعت مرةً أخرى الأراضي التي كان قد تم الاستيلاء عليها، وأُجبر الجيش على الانسحاب عبر البرانس. وأخيرًا، وقَّع «جونت Gaunt» اتفاقيةً في ١٣٨٩م، تنازل فيها عن مطالبته بالعرش مقابل مائتي ألف كراون ومعاش سنوي كبير وزواج ابنته «كاترينا Catherine» من ملكِ قشتالة المستقبلي إنريك الثالث، وبذلك حصل بشكل عام على أكثرَ مما كان يستحق.

خلال تلك الفترة، كان مسلمو غرناطة يعيشون في سعادة وفي سلام نسبي، إلا أننا — وبكل أسف — لا نستطيع أن نقول الشيء نفسه عن اليهود. ماليًّا، كان إنريك يعتمد عليهم مثل كلِّ الآخرين، ولكنه أثار الأحقاد عليهم أثناء الحرب الأهلية صراحةً، وبمرور الوقت زادت حدة مشاعر معاداة السامية التي اشتعلت مثل نار الغابة في ١٣٩١م. بدأت في «سيفيل Seville» (إشبيلية) في السادس من يونيو. فرَّ عدد كبير من اليهود للنجاة بحياتهم؛ ومثل المعابد تم تحويل كثيرين آخرين عَنوة إلى المسيحية. انتشر اللهب بسرعة عبر الأندلس أولًا ثم إلى بقية شبه الجزيرة، حتى إلى ما وراء البرانس لتصل النار إلى «بيربجنان Perpignan». بعد فترة ساد هدوء مؤقت، إلى أن وقَّع «فرديناند Ferdinand» و«إيزابيللا Isabella» المرسومَ المشئوم في ١٤٩٢م، بطرد كل اليهود من الأراضي الإسبانية.

في بداية الـ «ديكاميرون Decameron» لـ «بوكاشيو»، يفرُّ عشرة شبان من فلورنسا بسبب الوباء. كان الجو الخانق لما اصطُلح على تسميته بـ «الموت الأسود The Black Death» يخيِّم على النصف الثاني من القرن الرابع عشر. كان الوباء قد ظهر أولًا في القسطنطينية في ربيع ١٣٤٧م، والمؤكَّد أن السفن الهاربة من مستوطنة «كافا Caffa» التجارية في جنوة، هي التي كانت قد حملته (الآن فيودوسيا Feodosiya في القرم)، وكانت آنذاك تحت حصار المغول. كانت المدينة قد عانت أوبئةً كثيرة على مر القرون، إلا أن ذلك كان الأكثر ضراوةً والأوسع انتشارًا. كان البكتير القاتل المسبِّب للمرض — كما نعرف الآن — قد انتقل من البراغيث التي بدورها (رغم عدم حصرية ذلك) كانت الفئران التي امتلأت بها السفن القادمة من الشرق تحملها. الغريب أن تلك الفئران نفسها كانت قادمًا جديدًا نسبيًّا على أوروبا، وصلت الأعداد الأولى منها ربما مع سفن الصليبيين العائدة من

فلسطين، ولكنها كانت سريعةَ التكاثر؛ وبحلول منتصف القرن كان يوجد ما يكفي مثلها لنشر المرض في أرجاء القارة الأوروبية. لسنا في حاجة بالضرورة لأن نصدِّق مؤرِّخ مدينة «إيستي Este» الإيطالية المجهول، الذي يزعم أن الوباء أدَّى إلى وفاة ثمانية أتساع عدد السكان، وربما كان ذلك يبدو للبيزنطيين البرهان الأخير على ما ظلوا يشكون فيه لفترة طويلة، وهو أن السيدة العذراء راعيتهم، وحاميتهم كانت قد تخلَّت عنهم بعد أكثر من ألف عام.

البحر الأبيض المتوسط، على نحوٍ خاص، كان قد عرف الموت الأسود مبكرًا في ١٣٤٧م، عندما وصلت ١٢ سفينة من مسيني إلى جنوة. الاحتمال الأكبر أنها كانت قد جاءت من كافا، والمؤكد أن أسطولًا جنويًّا آخرَ كان قد نقل العدوى من هناك إلى جنوة وفينيسيا وصقلية في يناير ١٣٤٨م. ومن هذه المناطق انتشر الوباء شمالًا إلى كورسيكا، وجنوبًا إلى تونس وشمال أفريقيا، وغربًا إلى الجزر البالبرية، ثم إلى برشلونة وفالينسيا على الساحل الإسباني، ثم حتمًا إلى الشمال الإيطالي عبر المضايق، لينتشر بسرعة في شبه الجزيرة.

من بين كل المدن الإيطالية كانت فلورنسا هي الأكثر معاناة. التقديرات المعاصرة لا يُعتد بها، ولكن هناك دلائل كثيرة تبيِّن أن ما بين خمسين وستين ألفًا من إجمالي سكانها الذين كانوا يقدَّرون بخمسة وتسعين ألف نسمة، قد لقُوا حتفهم في غضون ستة أشهر من بداية ظهور الوباء. بوكاشيو نفسه يزوِّدنا — في هذا السياق — بصورةٍ وصفية لا تُنسى: الفِرار العشوائي لكل السكان من المدن والبلدات المختلفة تاركين وراءهم بيوتهم وممتلكاتهم، الطريقة التي كانوا يتركون بها المرضى والأطفال يَلقون حتفهم دون أن يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منهم، عمليات الدفن الجماعي في حُفرٍ يتم تجهيزها على عجل، الماشية الطليقة التي تركها أصحابها هائمةً في المناطق الريفية. يقال إن ستمائة مواطن كانوا يموتون يوميًّا في فينيسيا عندما كان الوباء في ذروته، وفي «أورفيتو Orvieto» كان أمرًا متوقعًا أن يموت أحد الوالدين أو أحد الأبناء في كل أسرة مكوَّنة من أربعة أفراد. في «سيينا Siena»؛ حيث قُدِّر عدد الموتى بخمسين ألفًا؛ أي ثلثا عدد السكان. كانوا يقومون ببناء الكاتدرائية التي ستكون واحدةً من أعظم الكاتدرائيات في العالم المسيحي. كل العمال ماتوا. توقَّفت عملية البناء، وبالرغم من استئناف العمل قُرب نهاية القرن، لم يكتمل إلى يومنا هذا ما كان مخطَّطًا. أما بالنسبة لإيطاليا ككل، فإذا قلنا إنها فقدت ثلث، أو أكثر قليلًا من ثلث سكانها فلن نكون بعيدين عن الصواب كثيرًا. في فرنسا، كانت

القصة نفسها. بدأ الوباء، كما يعتقد، في مرسيليا. بعد أسابيع قليلة كان قد وصل إلى البرانس، وبحلول أغسطس ١٣٤٨م كان قد انتشر في «بوردو Bordeaux». في الشرق، ضرب أفينون البابوية في شهر مارس ليقضي على الأقل على نصف السكان، بمن في ذلك كلُّ فرد من المجتمع الإنجليزي في «أوستن فريارز Austin Friars» في المدينة. البابا كليمنت السادس نفسه أوى إلى مسكنه الخاص حيث لم يكن يستقبل أحدًا، وكان يقضي نهاره وليله «يحمص» نفسه بين مدفأتين (نجحت الطريقة ولم يمُت البابا). في الوقت نفسه كان البكتير قد انتشر في «وادي الرون Rhone Valley» كله حتى ليون، وبحلول يونيو كان يشق طريقه نحو باريس نفسها.

أثناء انتشاره، كان الأكثر تقوَى من الأهالي ينسحبون للصلاة وخاصة في مدن الشمال الرئيسية، وعلى أية حال كان رد الفعل السائد على الموت الوشيك أشبه ببهجة محمومة مجنونة. ولمَ لا؟ إذا كان الرب قد تخلى عن شعبه، فلماذا يطيعون وصاياه؟ إذا كانت حياتهم سوف تنتهي بهذه القسوة وبهذه السرعة، فلتكن الأيام الأخيرة من العمر مكرَّسة للملذات والمُتَع الحسية ... سواء في ذلك مُتَع المائدة أو الزجاجة أو الفِراش ... أو الثلاثة وذلك أفضل! في باريس؛ حيث لم يكن أحد يستخفُّ بمثل تلك المباهج، كان هناك شبه انهيار أخلاقي على المستويين العام والخاص. بطول وعرض المتوسط كانت القصة هي ذات القصة. في قبرص؛ حيث كانت بداية الوباء قد تصادفت مع زلزال شديد تبِعته موجة بحرية قوية، كانت مذبحة رهيبة قام بها مُلَّاك الأراضي ضد عبيدهم العرب، خشيةَ أن يستغل العبيد ظروفَ الفوضى العامة للتمرُّد عليهم. على ساحل دالماشيا، كان أمام مواطني «سالونا Salona» (سبليت Split) خطرٌ مختلف كان عليهم مواجهته؛ كانت أعداد هائلة من الذئاب الضارية قد نزلت من الجبال على المدينة لتهاجم المرضى والناجين على السواء. كان الهلاك كبيرًا وشديدًا لدرجةٍ أن الشوارع كانت تظل مكدَّسة بالجثث بالأسابيع قبل أن يتم دفنها.

في إسبانيا، بعد أن كان الوباء قد انتشر أولًا في المدن الساحلية، كان يتحرَّك بطيئًا، ولكن بقوة، ليجتاح مملكة أراجون. مَلِكها بدرو الرابع الذي نجا شخصيًّا فقدَ إحدى بناته أولًا، ثم ابنة عمٍّ له، وفي أكتوبر فقدَ زوجته الثانية «إليانور البرتغالية Eleanor of Portugal». انتقل الوباء بعد ذلك، إلى الأراضي الإسلامية ثم إلى جيش قشتالة الذي كان يقوم آنذاك بحملة استرداد في الجنوب بقيادة الملك ألفونسو الحادي عشر شخصيًّا. في ١٣٤٤م كان قد استولى على «الجيسيراز Algeciras»[٩] ويقف الآن أمام جبل طارق. على

خلاف المدافعين عن الصخرة، كانت قوات الحصار بعيدةً عن خطر الوباء طوال فصل الصيف، إلا أن المرض بدأ في الانتشار في صفوفهم مع بداية مارس ١٣٥٠م. كان جنرالات ألفونسو يتوسَّلون إليه أن ينسحب إلى عزلةٍ تقيه المرض إلا أنه رفض أن يترك رجاله. مات يوم «الجمعة الحزينة Good Friday»[١٠] الموافق للسادس والعشرين من مارس، ليكون الملكَ الحاكم الوحيد الذي قضى بالطاعون أو «الموت الأسود». جوانا، ابنةُ إدوارد الثالث ملكِ إنجلترا، ماتت في بوردو، وهي في طريقها للزفاف إلى «بدرو المؤذي Pedro the Cruel»، ابنِ ألفونسو. لم تنجُ منطقة قشتالة ذاتها من الوباء، إلا أن إصابتها كانت خفيفة، وذلك بفضل (كما كان يعتقد آنذاك) رغبةِ الطبقات الإقطاعية في نقلِ ممتلكاتهم للكنيسة. عندما انقضت فترةُ الطوارئ، اتضح أنهم كانوا قد فعلوا ذلك، وعلى هذا النطاق، لكي يخلُّوا بالتوازن الاقتصادي للبلاد؛ وفي ١٣٥١م اضطُر الملكُ بدرو الأول إلى إصدار أوامره للسلطات الإكليركية بإعادةِ ما كانوا قد حصلوا عليه.

أحدث الطاعون أو الموت الأسود خسائرَ في الأرواح أكثرَ من أي حرب معروفة، أو أي وباء آخر، في التاريخ. كان تأثيره كبيرًا على التجارة العالمية ولكنه كان قصيرًا، أما الذي استمر لفترة أطولَ فكان تقلُّص الرقعة الزراعية، وذلك بسبب موت أعداد كبيرة من العمال الزراعيين. اضطر ذلك ملاكَ الأراضي لزيادة الأجور، وهو ما أدَّى بدوره إلى إضعاف البنية الطبقية الصارمة التي كانت موجودةً في المجتمع؛ حيث بدأت الأيدي العاملة — لأول مرة — التنقُّل بحثًا عن عمل أو أجر أعلى.

في مجال الفنون، وبخاصة في التصوير والنحت، كان هناك انشغالٌ أكبر بالموت عن ذي قبل، أما بالنسبة للجوانب الروحية، فقد اهتزَّ إيمان كثير من المسيحيين بسبب عدم الجدوى الواضح للصلاة، وعجز الكنيسة أمام الوباء.

بعد ١٣٥٠م، لن تكون أوروبا كما كانت.

عندما ذهب الإمبراطور الروماني المنتخَب لويس الرابع من بافاريا إلى إيطاليا لتتويجه في ١٣٢٧م، كان ذلك بتوجُّه مختلِف تمامًا عن توجُّه سلفه «هنري اللكسمبورجي Henry of Luxemburg».[١١] هذه المرة لم يكن هناك أيُّ تعلُّق بالمُثُل العليا، ولا ادعاء نزاهة أو تجرُّد، ولا إيماءة نحو أفينون. ذهب لويس بدعوة من الجيبيليين في إيطاليا، مصطحبًا معه «مارسيليوس البادوي Marsilius of Padua» أشدَّ المعادين لأتباع البابا في زمنه. قبل عامين فحسب، كان رئيس الجامعة (السوربون) السابقُ هذا قد نشر عمله الذي يحمل

عنوان: «Defensor Pacis» الذي كان يجادل فيه بأن البنيةَ الكاملة للسيادة البابوية والقانونَ الكنسي كانا مخالفَين لمبادئ المسيحية الأساسية. لم يكن من المرجَّح أن تزيد هذه الرفقة من شعبية لويس في أفينون، وقبل وصوله إلى روما بوقت طويل كان قد جلب على نفسه حكمًا مزدوجًا من البابا جون الثاني والعشرين بحرمه كنسيًّا وعزله؛ إلا أن المكانة البابوية آنذاك كانت قد هبطت في إيطاليا، وربما أكثر من المكانة الإمبراطورية، ومر المرسوم البابوي دون التفات أو اهتمام. عندما تم تتويج لويس من قِبل «سكيارا كولونا Scarra Colonna» ممثلًا لشعب روما في كنيسة سان بيتر في يناير ١٣٢٨م، وبعد ثلاثة أشهر أعلن رسميًّا أن البابا كان مهرطقًا وعزله، وبدا الأمر أنه كان يريد أن يعيد السيطرة الإمبراطورية؛ إلا أنه عندما تقدَّم جنوبًا في الأراضي النابولية، اتضح له أن روبرت ملكَ نابولي، حفيدَ شارل الأنجوي، كان عدوًّا أكثرَ خطرًا. كان روبرت ندًّا له من الناحية العسكرية، وعندما عاد لويس إلى روما وجد أن حركة البندول كانت قد انعكست. أدرك كذلك أنه لا يستطيع أن يأمُل في إقامة نظام مستقر في إيطاليا، إلى أن يتأكد من ألمانيا؛ حيث كان الوضع يتدهور بسرعة. في ١٣٣٠م، كان قد ذهب إلى ما هو أبعد من الألب، وكان قد استوعب الدرس؛ إيطاليا كبُرت على الاستعمار، إن لم تكن جاهزةً لوحدةٍ من صنْعِها.

كان الفارق ما زال هائلًا بين الشمال والجنوب، وكان عميقًا لدرجة أنه يمكن الشعور به اليوم. كان يمكن أن تتباهى نابولي، تحت حكم روبرت وخليفته الطائشة «جوانا الأولى Joanna I»، ببلاط مستنير مثقَّف، وباثنتين من أفضل الجامعات الإيطالية؛ مؤسسة فردريك الثاني في نابولي نفسها، ومدرسة الطب ذات الشهرة العالية في «ساليرنو Salerno» التي كان عمرها يزيد عن الخمسة قرون. خارج هذه المراكز، كان يسيطر على الأراضي، كما كان الوضع أيام النورمان، جماعةٌ من البارونات الجامحين الذين كان يعوزهم الشعور بالمسئولية. كانت صقلية تحت حكم آل أراجون أقلَّ إرهاقًا بسبب الإقطاع، وأكثرَ تماسكًا من الناحية الاقتصادية، ولكنها كانت مشبعة بجو الركود والجمود نفسه.

في الشمال، لم يكن بالإمكان إلا أن تشعر بالحيوية المفرطة. مع تقدُّم القرن الرابع عشر، والدول-المدن الأصغر منجذبةٌ إلى مدار تلك الأكبر منها، كانت مناطق النفوذ قد بدأت في الظهور؛ فينيسيا التي كانت أغنى وأروع مما كانت، بدأت تتفوق على جنوة التي كانت قد أصبحت أكبرَ منافس بحري لها، ولأول مرة نجدها تضم أجزاءً مهمة من

الأراضي الإيطالية الرئيسية («بادوا Padua»، و«فيسنزا Vicenza»، و«تريفيزو Treviso»، و«فيرونا Verona»)، بينما كان نفوذها ما زال ممتدًّا إلى ما وراء الأدرياتيكي، كواحدة من القوى العظمى الأوروبية؛ ميلانو تحت حكم «آل فيسكونتي Visconti»، كانت تفيض مثل مدٍّ هائل على «لومبارديا Lombardy»، و«بيدمونت Piedmont»، وفي النهاية تغمر — حتى — «بولونيا Bolognia» مركزَ القوة البابوية في الشمال الإيطالي، و«فلورنسا الجيوتو Florence of Gitto»، و«أوركاجنا Orcagna»، و«أندريا بيزانو Andrea Pisano»، كان حكمها الجمهوري القوي يستطيع أن يحبط أيَّ محاولة قد يقوم بها أيُّ مستبد محتمل، كما كان تجارها الكبار ورجال الأعمال والبنوك يطوِّرون أساليبَ تدبير الموارد المالية الدولية إلى مستويات من الكفاءة والتقدُّم لم يكن يحلُم بها أحد. كانت إحدى ميزات القانون الروماني، أن جعل الفائدة أمرًا محترمًا، وكانت الطريق الآن مفتوحة أمام نمو اقتصادي كامل، وأمام اعتمادات طويلة المدى صنعت الثروة والأبهة التي ما زالت مبهرة على مدى القرون.

في وسط شبه الجزيرة كله، وفيما وراء السيطرة المؤثِّرة للمالك الغائب في أفينون، كانت الولايات البابوية مذعنةً بدورها لنموذج الاستبداد السائد. ربما كان «آل إيستي Este» في «فراري Ferrare»، و«آل بيبولي Pepoli» في بولونيا، و«آل مالاتستا Malatesta» في «ريمني Rimini» وأمثالهم، ربما كانوا يعتبرون أنفسهم ممثلين أو وكلاء عن البابا، ويعترفون بسلطة سان بيتر، إلا أن سلطة كلٍّ منهم في داخل مدينته ظلَّت مطلَقة. في روما وحدَها فحسب، بالرغم من محاولات «آل كولونا Colonna»، ومنافسيهم «آل أورسيني Orsini»، كان الشعور الجمهوري العام قويًّا لكي يظل متماسكًا، إلا أن روما كانت قد أصبحت آنذاك أكثرَ الأماكن تعاسةً في إيطاليا، مهجورة من البابوات، انخفض عدد سكانها بسبب الملاريا والمجاعة والصراع الطائفي، ليصل إلى عشرين ألف نسمة، كانت عاصمة المسيحية الغربية قد انحدرت إلى مستوًى لم تعرفه من قبل. أكثر من أي مدينة أخرى، كانت روما الآن في حاجة إلى قائد يبلور أحلامها ويعيد لها اعتدادها بنفسها، وفي ذروة لحظات يأسها المظلمة وجدت واحدًا.

كان «كولا دي رينزو Cola di Rienzo» ابن غسالة رومانية، كان شخصًا حالمًا، متعصبًا، استعراضيًّا، ودهماويًّا عبقريًّا. في ١٣٤٤م، وكان في الحادية والثلاثين، شنَّ حملة على أرستقراطية روما، ملهبًا الخيال العام باستثارة واستعادة أمجاد الماضي وتنبؤاته بعودةٍ مجيدة لها. كان نجاحه كبيرًا، لدرجةِ أنه بعد ثلاث سنوات، أنعم عليه في الكابيتول

بلقب «تربيون»[12] وبسلطات دكتاتورية لا حدود لها؛ وبعد الدعوة لبرلمان «قومي» منح المواطنية Citizenship الرومانية لكل مدن إيطاليا وأعلن عن خطط لانتخاب إمبراطور إيطالي. ولكن الدعوة لوحدة إيطالية، كان مصيرها الفشل، سواء أكان المعبِّر عن ذلك أميرًا ألمانيًّا أو دهمويًّا رومانيًّا. بنهاية العام ١٣٤٧م، كان الدهماء الرومان أنفسهم، وليس المدن الأخرى، قد انقلبوا على كولا وطردوه منفيًّا. بعد سبع سنوات تمكَّن من العودة، ولكن السحر القديم كان قد ذهب عنه وتصدَّى له الدهماء المتقلبون كعادتهم. ظهر بشكل عبثي في شرفة الكابيتول مرتديًا درعًا لامعة، وهو يلوِّح بعلم روما ... فارتفعت أصوات الدهماء بالسخرية منه. تنكَّر كشحاذ وحاول الهرب، إلا أن الأساور الذهب التي كانت تتلألأ تحت الأسمال فضحته. بعد دقائق قليلة، كان جسده معلقًا من قدميه في ميدان عام. مصير غريب يشبه ذلك الذي حدث في منتصف القرن العشرين لأقرب مقلِّديه وأكثرهم نجاحًا.

إلا أن كولا بعمله الذي لمع وانطفأ كالشهاب، استطاع أن ينقيَ عقول أبناء وطنه من مخلَّفات العصور الوسطى المعوقة، وأن يعطيَهم وعيًا جديدًا بماضيهم الكلاسيكي. ما أنجزه في المجال السياسي كان له ما يماثله في عالم الأدب على يد صديقه ومؤيده «فرانشيسكو بترارك Francesco Petrarch». في ١٣٤١م، بعد عشرين عامًا فحسب من موت «دانتي Dante»، تم تتويج بترارك شاعرًا رسميًّا للكابيتول، ولكن هذه السنوات العشرين كانت تنطوي على كل الفوارق بين سكولاستية[13] العصور الوسطى المتأخرة وهيومانية[14] عصرِ النهضة (Renaissance) لم يكن لدى بترارك شيء من رؤية دانتي الواسعة، ولكن عبقريته الأكثر حساسية قادت الطريق نحو رؤية طازجة غير مشوشة، قائمة إلى حدٍّ ما على شعراء التروبادور في صقلية وبروفنس، ولكنها كانت تستلهم بعمق شعراء اللاتين القدامى.

المفهوم الجديد للماضي الكلاسيكي باعتباره معْلمًا على الطريق نحو المستقبل، أدَّى إلى إحياء مماثل للاهتمام بأدب اليونان القديمة الذي غفلوا عنه طويلًا في الغرب، وتم إهماله حتى في الإمبراطورية البيزنطية. كان ذلك أساسًا إنجازَ جيوفاني بوكاشيو تلميذِ بترارك، الأكثر موهبة، الذي استضاف في منزله لمدة ثلاث سنوات يونانيًّا هرمًا ذا عادات شخصية مقززة، ليُعِدَّ واحدة من أول — وأسوأ — الترجمات لأعمال هوميروس إلى اللاتينية، إلا أننا لا نتذكر بوكاشيو اليوم بسبب دراساته الكلاسيكية؛ فعمله ديكاميرون عملٌ شبابي

نسبيًّا، ولكنه حقَّق للنثر الإيطالي بهذا الإنجاز ما حقَّقه دانتي وبترارك للشعر؛ فقد بَسَّطه وجعله أكثرَ سلاسة وحوَّله إلى أداة أدبية جديدة. الأسلوب الذي طوَّره مفعم بالحيوية ... لاذع ... وأعطى دي كاميرون شهرةً أوروبية وأعاد إحياء تقليد سردي يمكن تتبُّعه لدى «تشوسر Chaucer» وشكسبير إلى «لافونتين La Fontaine» ومن بعده.

بالنسبة للباباوات في أفينون، كان لا بد من أن يكون تأثير كولا دي رينزو ونجاح الـ «ديكاميرون» ناقوس خطر. إذا لم يتم تأكيد السلطة البابوية في إيطاليا، فستضيع إلى الأبد. تصادفت عودة كولا إلى روما مع تعيين الكاردينال «جيل ألبورنوز Gil Albornoz» ممثلًا بابويًّا لدى إيطاليا، مع مهمة محدَّدة وهي إعادة كنائس الدولة إلى الحظيرة البابوية. هذا الإسباني، المرعب، المقتدِر، نجح لدرجةِ أن البابا «أوربان الخامس Pope Urban V» استطاع في ١٣٦٧م أن يعيد ترسيخَ وضْعه في اللاتيران. لقي ترحيبًا قويًّا من الناس في روما، وسرعان ما أصبح أول وآخر بابا يستقبل زائرين من أباطرة الشرق والغرب. ولكنه كان شيخًا هرمًا سرعان ما شعر بالحنين إلى موطنه، وفي ١٣٧٠م بالرغم من تحذيرات «سان بريدجت السويدي St Bridget of Sweden» من أن عودته إلى بروفنس قد تكون قاتلة، كانت إغراءات أفينون قوية بالنسبة له، وكان سان بريدجت محقًّا؛ ففي غضون أسابيع قليلة، مات.

كان أوربان قد كشف بوضوح مؤلم سبب الغياب الطويل للبابوية عن موطنها الشرعي. كل باباوات أفينون ومعظم كبار مساعديهم كانوا فرنسيين — ولم يكونوا يحبون التَّرحال غالبًا — وكانت أطلال روما غير الملائمة للصحة وذات الرائحة الكريهة لا تمثل إغراءً بالنسبة لهم. لو استيقظ الضمير البابوي بعد سبعين سنة ستكون أزمة خطيرة في إيطاليا. لم تكن الأزمة بعيدة. خَلَفَ ألبورنوز في ولايات الكنيسة مجموعةٌ من الممثلين البابويين الفرنسيين الجشعين، الذين لم يُخفوا رغبتهم في الحصول على كلِّ ما يمكنهم الحصول عليه، وسرعان ما دفعوا المدنَ البائسة إلى حالة تمرد. لم يترددوا في الاستفادة مما كان يسمَّى بالشركات الحرة — عصابات من المرتزقة الأجانب الذين كانوا لا يجدون عملًا، كانوا يجولون المناطق الزراعية ويعيشون على الابتزاز وقطْع الطرق وحماية الناس مقابل أموالٍ يدفعونها لهم. في ١٣٧٥م أرسل ممثل البابا في بولونيا واحدةً من أسوأ تلك الشركات، لصاحبها «سير جون هوكوود Sir John Hawkwood»، لتخريب المحاصيل في فلورنسا. بالنسبة للمدن الإيطالية، كان يبدو أن المظالم البابوية لا يمكن أن تستمر أكثرَ من ذلك. اجتاحت «توسكاني Toscany» و«أمبريا Umbria» والولايات

البابوية موجةٌ محمومة من مقاومة الإكليروس، وبنهاية العام كان ما لا يقل عن ثمانين مدينة قد طردت بعثاتها البابوية.

هناك في أفينون، تصرَّف جريجوري الحادي عشر بسرعة وحزم. وُضعت فلورنسا، التي كانت قد تزعمت الانتفاضة، تحت الحِرْم الكنسي، كما صدرت الأوامر لكل الأمراء المسيحيين في أوروبا بالاستيلاء على بضائع فلورنسا أينما كانت، وأن يبيعوا جميع تجار فلورنسا المحليين كعبيد. كانت إجراءات مخيفة، ولكن لم يكن لها أيُّ تأثير. كان جريجوري يرى أمله الوحيد في العودة الفورية إلى روما. عجَّل بذلك توسلات «سانت كاترينا السيناوية St Catherine of Siena» — التي واصلت من حيث كان قد انتهى سان بريدجت — فاستقل السفينة مع معاونيه الذين كانوا مترددين في أواخر ١٣٧٦م، وفي السابع عشر من يناير ١٣٧٧م كان أن دخل المدينة رسميًّا. كانت عودة حزينة إلى الوطن؛ في فلورنسا كانت قواته تقوم بانتقامٍ بشع، بينما كان وضعه غيرَ آمن بأي حال في روما. كان يفكر بالفعل في العودة إلى أفينون، عندما مات في العام التالي، وكان ذلك لحسن حظ روما. لم يكن أهالي روما يعاملون باباواتهم بحب واحترام دائمًا، ولكنهم كانوا مصرين على تركهم يذهبون ثانية. كانوا يهتفون طوال اجتماع الكرادلة السري لانتخاب البابا: «نريد رومانيًّا أو على الأقل إيطاليًّا Romano lo volemo, o almeno italiano.» البابا الجديد أوربان السادس قدَّم كلَّ ما يدل على أنه كان مشوَّش التفكير بالفعل؛ فقد قام بتعذيب أربعة كاردينالات، على الأقل، لدرجة الموت ... ولكنه كان على الأقل إيطاليًّا.

كانت فترة باباوات أفينون هي نهاية العصور الوسطى. عندما غادر كليمنت الخامس إيطاليا، كان النظام القديم يحتضر، ولكن القليل كان قد ظهر ليحل محلَّه. ورغم أن العرش الإمبراطوري كان شاغرًا مؤقتًا، كان الناس ما زالوا يتذكرون فردريك العظيم ويبكون مانفريد وكونرادين. كانت المكانة البابوية قد تدهورت. كانت الفلسفة السكولاستية قد وصلت ذروتها وغايتها المنطقية مع «سان توماس الإكويني St Thomas Aquinas» (توما الإكويني). كان ما تبقى هو أن يقوم دانتي في «الكوميديا الإلهية» بتلخيص إنجازات وإخفاقات وحكمة وجهالة ومُثُل وآمال ومخاوف إيطاليا العصور الوسطى.

عاد جريجوري الحادي عشر إلى بلاده، رغم أنها كانت قد تغيَّرت من بعض الأوجه؛ ما كانت لتعود كما كانت قط. كانت الوحدة أمرًا بعيدًا كما كانت دائمًا؛ كان الجيولف

والجيبيليون ما زالوا يتبادلون العنفَ برغم نسيان خلافاتهم الأصلية، وكان نزيف الدم ما زال مستمرًّا ... فياضًا ومجانيًّا. كانت سبعون عامًا بدون بابا أو إمبراطور مؤثِّر قد أزالت الاستقطابات القديمة، وفي ١٣٤٧–١٣٤٨م كان يبدو أن الموت الأسود قد أسدل ستارًا آخرَ على الماضي ليعرِّض الحاضر — بلا رحمة — لرياح التغيير. لم تكن الروح العلمانية المتسائلة التي تنتشر الآن عبر البلاد جديدة في حد ذاتها. كانت جذورها تعود إلى روجر ملكِ صقلية وحكمائه من اليونانيين والعرب، وإلى فردريك وصقوره، وإلى مانفريد وشعراء التروبادور، وإلى أرنولد ملكِ «برشيا Brescia» والسكولاستيين، وإلى أطباء ومحامي ساليرنو وبولونيا؛ ولكن القرن الرابع عشر أعطى تلك الروح زخْمًا جديدًا — في المجال السياسي مع كولا دي رينزو وأباطرة الشمال، وفي المجال الثقافي مع بترارك والإنسانيين، وفي المجال اللاهوتي مع مارسيليوس البادوي — وفي الوقت نفسه فإن المعوِّقات البابوية التي طويلًا ما وقفت في طريق تقدُّمها اختفت فجأة. كانت النهضة قد انطلقت في مدارها.

هوامش

(١) «أرض الرُّعْن الثلاثة»؛ إشارةً إلى الشكل المثلَّث لجزيرة صقلية. كان الإغريق يماثلونها بـ «ثريناكيا» هوميروس؛ حيث كان هليوس الإلهُ الشمس، يأوي غنمه وماشيته (الأوديسا XI، ١٢١).

(٢) الحُكم الذي تهيمن عليه جماعةٌ صغيرة، جُل همِّها هو تحقيق المنافع الذاتية. (المترجِم)

(٣) Guelfo بالإيطالية. فصيل سياسي إيطالي (بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر) كان يعارض سلطةَ الأباطرة الألمان في إيطاليا، وكان مكوَّنًا من حزب كنسي يؤيد استقلالية البابا عن الإمبراطور، وحزب المعتمديات والمدن-الجمهوريات المطالِبة بحقوقها وحرياتها. والجيبيليون (Ghibellino بالإيطالية) حزبٌ سياسي أرستقراطي (بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر في إيطاليا كذلك) كان يدعم سلطة الأباطرة الألمان. (المترجِم)

(٤) انظر الهامش السابق.

(٥) انظر الفصل الثاني عشر: سقوط القسطنطينية.

(٦) يُعتقد أن ذلك هو سبب السُّمعة الكريهة لهذا التاريخ.

(٧) يروي الكاتب الفرنسي «موريس درو Moris Druon» في سلسلة رواياته Les Rois Maudits أن دي مولاي لعن الملك فيليب كذلك وهو على الخازوق، وأنه كان لذلك

بعض التأثير؛ كان فيليب وأسلافه الخمسة السابقون قد حكموا إجمالًا لمدة ١٧٧ سنة، بينما حكم ملوك فرنسا الستة التالون لهم ٦٦ سنة.

(٨) على عكس الاعتقاد الشائع، لم يكونوا يحرِّمونه تمامًا، لا الفرس ولا الأتراك العثمانيون كانوا يحرِّمونه، ولكن ذلك لم يكن واردًا أن يفكِّر فيه فنانٌ مسلم في شمال أفريقيا وإسبانيا الإسلامية.

(٩) رأسٌ بارز في البحر، أطلق عليه العرب اسم «الجزيرة الخضراء»، وستنشأ هنا مدينةٌ إسلامية زاهرة تحمل اسم «الجزيرة». (المترجِم)

(١٠) يوم الجمعة السابق لعيد الفصح. (المترجِم)

(١١) انظر الفصل الحادي عشر: نهاية العصور الوسطى.

(١٢) Tribune: المدافع عن الحق العام ومصالح الشعب. (المترجِم)

(١٣) scholasticism: الفلسفة النصرانية السائدة في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة. (المترجِم)

(١٤) Humanism: الفلسفة الإنسانية التي تؤكِّد قيمة الإنسان وقدراته وتعزيز النزعة الفردية وروح النقد، كما تجلَّى ذلك في عصر النهضة. (المترجِم)

الفصل الثاني عشر

سقوط القسطنطينية

- معركة شيوجيا: ١٣٨٠م.
- الباباوات المتنافسون: ١٤١٠م.
- جون الثامن بالايولوجوس في إيطاليا: ١٤٣٨م.
- انتهاء الحملة الصليبية الأخيرة: ١٤٤٤م.
- محمد وقسطنطين: ١٤٥١م.
- مدفع السلطان: ١٤٥٣م.
- الحصار يبدأ: ١٤٥٣م.
- المعركة النهائية: ١٤٥٣م.
- فينيسيا وجنوة: ١٤٥٣م.
- الفرسان تحت الحصار: ١٤٨٠م.

* * *

عندما تقوَّضت في النهاية إمبراطورية السلاجقة الراكدة بسقوط «قونية Konya» في يد «الأتراك الكارامان Karaman Turks» في ١٣٠٨م، نهض من وسط الرماد كثيرٌ من الدول التركمانية الصغيرة، التي كان حجم بعضها لا يزيد كثيرًا عن حجم القبائل التي تمثِّلها. كان من بينها دولة شاب مقاتل يُدعى عثمان، الذي أعلن استقلاله كحاكم على ذلك الطرَف القصي من جنوب الأناضول بعد قيامه بحملة مدمِّرة. حكم عثمان تلك المنطقة بكفاءة وحكمة إلى أن مات في ١٣٢٦م، وهو العام الذي استولى فيه ابنه وخليفته أورهان — الذي اتخذ لقب سلطان — على مدينة بورصة وجعلها عاصمةً له.[١] بعد ثلاث سنوات

استولى على نيقية (أزنك) المدينة البيزنطية العظيمة، ثم عبر سليمان بن أورهان الدردنيل في ١٣٥٤م ليستولي على حصن «جاليبولي Gallipoli» الذي حوَّله إلى قلعة دائمة.

هنا كانت أول قاعدة تركية على الأرض الأوروبية، كما كانت رأسَ جسر بالغ الأهمية؛ وفي الحال تقريبًا، بدأ العثمانيون تقدُّمهم الذي لم يفتُر. في ١٣٥٩م وصلت قوة حراسة متقدِّمة إلى أسوار القسطنطينية. لحسن الحظ لم تكن كبيرة بحيث تشكِّل أيَّ خطورة مباشرة على المدينة، ولكن بقية «تراقيا Thrace»، التي كانت أقل حمايةً وأكثر إنهاكًا بسبب الحرب الأهلية، كانت فريسة سهلة. في ١٣٦٢م استسلمت «أدريانوبل Adrianople» لتصبح عاصمة أورهان الأوروبية باسم «أدرنة Edrine». كان موقعها على الطريق الكبير المؤدي من بلجراد إلى القسطنطينية، يمثِّل قاعدةً يمكن الانطلاق منها عميقًا نحو البلقان، كما كان يعزل القسطنطينية عن ممتلكاتها الأوروبية. في كل المدن والقرى التي تم الاستيلاء عليها، كان يتم نقل قطاع كبير من السكان لبيعهم كرقيق في آسيا الصغرى، وإحلال أتراك مكانهم.

في ذلك العام نفسه (١٣٦٢م) مات أورهان، وخلَفه، كسلطان، ابنه الثاني مراد (كان سليمان قد مات قبل عامين على إثر وقوعه من على حصانه)، الذي سرعان ما بدا أكثرَ طاقة ومقدرة كقائد، سواء من أبيه أو أخيه الأكبر، فقام بحملات، ليس في تراقيا فحسب، بل وفي بلغاريا كذلك، واستولى على «فيليبوبولس Philippoplis» (بلوفديف Plovdiv) في ١٣٦٣م، ومارس ضغطًا شديدًا على «جون ألكساندر John Alexander» قيصر البلغار لكي يتعاون معه ضد بيزنطة. بعد معركةٍ فاصلة على نهر «ماريتسا Maritsa» في ١٣٧١م، أصبحت بلغاريا إقطاعيةً تركية وسرعان ما تم استيعابها تمامًا. كان الإنجاز الكبير الآخر لمراد هو تخفيض مرتبة أمراء غرب الأناضول ليجعلهم في وضع التبعية التامة، لتأمين مؤخرة قوات السلاطين العثمانيين عندما يتقدَّمون في أوروبا.

اغتيل مراد أثناء معركة كوسوفو التاريخية «ميدان الطيور السوداء»، في الخامس عشر من يونيو ١٣٨٩م. في ذلك اليوم، تحت القيادة الملهمة لابنه بايزيد، الذي أُعلن سلطانًا في الميدان، تم تدمير الجيش الصربي تمامًا، وحلَّ الدمار بالدولة الصربية بالفعل لمدة أربعة قرون. كان بايزيد المعروف لرعاياه بلقب «يلديرم» (الصاعقة)، صاحبَ طاقة خارقة تجعله أحيانًا شديدَ العنف عديم الرحمة بكلِّ مَن يقف في طريقه. في فترة حكمه الذي استمر ثلاثة عشر عامًا تسارع معدَّل الغزو. في ربيع ١٣٩٤م زحف جيش تركي جرار على القسطنطينية نفسها، ومع بداية الخريف بدأ الحصار الجِدِّي. أصدر السلطان

أوامره بحصار كامل، وفي غضون وقت قصير نفدت المؤن الضرورية في المدينة. كان الحصار يستمر على نحوٍ أو آخرَ على مدى ثماني سنوات، ولكن من حسن حظ أهلها أن بايزيد — الذي كان من الصعب التنبؤ بالخطوة التالية التي يخطوها — كانت تشغَله عملياتٌ أخرى تحقِّق له مكاسبَ فورية؛ ولذا تراخى الضغط على المدينة.

بالرغم من أن القسطنطينية نجت لفترة طويلة، فإن المدن الأخرى كانت أقلَّ حظًّا. سقطت تيسالونيكا في ١٣٩٤م؛ وفي ١٣٩٦م قام السلطان بتدمير جيشٍ عند نيقوبولس (نيقوبول Nikopol) على الدانوب، كان يقدَّر بمائة ألف مقاتل (الأكبر في تاريخ الحشد ضد الكفار) كان قد جمعه «سيجسموند Sigsmund» ملكُ هنغاريا؛ وهكذا بنهاية القرن الرابع عشر كان أن حقَّق الغزو العثماني لأوروبا الشرقية وآسيا الصغرى زخْمًا لم يكن بالإمكان إيقافه. لم يَعُد هناك وجودٌ لصربيا أو بلغاريا بين أعداء السلطان المسيحيين. بقيت بيزنطة، ولكنها كانت قد أصبحت بيزنطة مختزلة وفقيرة وذليلة ومكسورة ولا يمكن أن تقول إنها سبق أن كانت ذات يوم إمبراطوريةَ الروم المجيدة. بالرغم من ذلك لم تكن لتتخلى عن النضال. على نحوٍ لا يمكن تصديقه، كان عليها أن تنتظر ستين عامًا لكي تقوم مرةً أخرى لتحارب.

بالنسبة لفينيسيا، الجمهورية الأكثر صفاء ودعة، كان الربع الأخير من القرن الرابع عشر مؤلمًا بالفعل. الخصومة القديمة مع جنوة وصلت أوجها. بدءًا بصراعٍ على جزيرة «تينيدوس Tenedos»، الواقعةِ عند باب الدردنيل وتتحكم في مدخل المضيق، اقترب القتال من الوطن بحصار شيجويا ثم الاستيلاء عليها في أغسطس ١٣٧٩م، وهي مدينة حصينة داخل البحيرة الفينيسية تتحكم في قناة مائية تؤدي إلى فينيسيا نفسها مباشرة. على مدار تاريخها لم تكن الجمهورية قد واجهت خطرًا بهذا الحجم، والحقيقة أنه لو كان القائد الجنوي «بيترو دوريا Pietro Doria» قد أتبع انتصارَه هجومًا فوريًّا على المدينة، لما كان يمكن أن يفشل. من حسن حظ أهالي المدينة أنه قرَّر أن يحاصرها ويجوِّعهم حتى يستسلموا، فكان أن وجد القائد الفينيسي «فيتور بيزاني Vettor Pisani» في ذلك فرصتَه. كانت شيجويا المحاطة باليابسة تقريبًا من كل الاتجاهات، تعتمد على ثلاث قنوات ضحلة؛ وفي ليلة من ليالي منتصف الشتاء (٢١ ديسمبر)، تمَّ قطرُ ثلاثة هياكل سفن كبيرة قديمة محمَّلة بالأحجار وإغراق إحداها في كلٍّ من القنوات الثلاث، وهكذا تم حصار مَن كانوا يقومون بالحصار. في الرابع والعشرين من يونيو ١٣٨٠م، أعلن نحو أربعة آلاف من أهالي جنوة، كانوا على وشْك الموت جوعًا، استسلامهم غيرَ المشروط.

لم تكن تلك نهايةَ الحرب، في العام التالي قبِل الطرفان المنهكان عرضًا من «أماديوس Amadeus»، كُنت سافوي، بالتوسط بينهما، فكانت اتفاقية تورين التي تضمَّنت استمرارَ التجارة في البحر الأبيض والشرق اللاتيني بواسطة كلٍّ من فينيسيا وجنوة جنبًا إلى جنب، ولكن بمرور الوقت اتضح أن انتصار فينيسيا كان أكبرَ مما كانت تعرف. ثم كانت لتدهش الأصدقاء والأعداء، ولم يكن ذلك لأول مرة، بسرعة تعافيها الاقتصادي والمادي. أما جنوة فبدأت في التدهور. بدأ نظامها الجمهوري ينهار وتمزَّقت الجمهورية بفعل الصراعات الطائفية، فكان أن خلعت عشر دوجات في خمس سنوات، ثم سرعان ما وقعت تحت سيادة فرنسية سوف تستمر قرنًا ونصف القرن. في ١٥٢٨م، فحسب، وتحت «أندريا دوريا Andrea Doria»، سوف تستعيد استقلالها، ولكن العالَم كان قد تغيَّر. لن تمثِّل خطرًا على فينيسيا بعد ذلك.

على العكس، كانت «سيرينيسيما Serenissima» قد خرجت من حربٍ دامت ست سنوات، هي الأشد ضراوةً في تاريخها، خرجت ببنيتها السياسية مستقرة. لم يكن هناك دولةٌ في إيطاليا يمكن أن تتباهى بمثل ذلك الاستقرار أو بما يقترب منه. وراء حدودها، كانت إيطاليا قد خضعت كلُّها لعصر الاستبداد، ووحدَها بقيت سيرينيسيما جمهوريةً منظَّمة قوية، لها دستور نجا من كل العواصف السياسية الخارجية والمحلية التي تعرَّضت لها. كانت أغلبية الشعب قد تم تجريدها — في الحقيقة — من قوَّتها المؤثِّرة على مدى المائة عام السابقة،[٢] ولكن الخدمة العامة كانت مفتوحةً أمام الجميع، كما كانت التجارة والصناعات الحرفية مزدهرةً، وكان معظم الناس يعترفون بكفاءة الإدارة وحسن نوايا المسئولين.

الآن، وبعد أن أصبحت الحرب مع جنوة وراءها بزمن طويل، شرعت فينيسيا في بناء وتوسيع إمبراطوريتها التجارية؛ وبحلول السنوات الأولى من القرن الخامس عشر، بفضل تضافر الانتهازية السياسية، والكياسة الدبلوماسية، والمهارة التجارية، وقدْر من الابتزاز، بفضل هذه «الخلطة السحرية» استحوذت فينيسيا على مناطقَ كثيرة من البر الإيطالي الرئيسي. بما في ذلك مدنُ بادوا وفيسنزا وفيرونا، وزحفت غربًا حتى شواطئ بحيرة جاردا، بالإضافة إلى سكوتاري ودورازو جنوبي دالماشيا؛ ونوبليا وآرجوس وقواعدها القديمة في مودون وكورون والدوديكانيز؛ وفي آخرِ الأمر أصبح يتم التعامل معها كندٍّ لدولٍ مثل إنجلترا وفرنسا والنمسا، وكواحدة من دول أوروبا الكبرى عن جدارة.

لم يحدُث أن اعتبر أبناء فينيسيا أنفسهم إيطاليين قط، ولأنهم كانوا معزولين في بحيرتهم عن اليابسة، كانت نظراتهم منذ القِدَم موجهةً نحو الشرق … مصدر كل ثروتهم وتجارتهم تقريبًا. هكذا كان وضعهم مختلفًا عن وضعِ بقية مدن البر الإيطالي الرئيسي إلى حدٍّ كبير. كانت تلك المدن، هي الأخرى، جمهوريات مستقلة، ولكن كان ينقصها دستور فينيسيا الفريد، بما فيه من نظام محكَم للمراجعة والضبط، يجعل من المستحيل على أي فرد أو أسرة تشكيل قوة خانقة على الدولة.

لذلك، كان حتميًّا، عاجلًا أو آجلًا، أن تشعرَ كل جمهورية في لحظةٍ ما من لحظات الخطر الأجنبي أو الأزمة المحلية، بالحاجة إلى قائد؛ والأكثر ترجيحًا أنه عند زوال الخطر أو الأزمة أن يكون التخلُّص من مثل هذا القائد أكثرَ صعوبةً مما كان استدعاؤه. آنذاك، وقبل أن يعرف الناس ذلك، سيكون قد أسَّس سلالة.

هذا النموذج، الذي سنجده بتنويعاتٍ مختلفة، متكررًا في المدن — الجمهوريات الرئيسية في شمال ووسط إيطاليا — كانت له مزاياه. قد يصبح الحاكم الفرد طاغيةً، ولكنه قد يعتمد على أمورٍ أخرى للحفاظ على وضعه ومكانته، كأن يحيط نفسه مثلًا ببلاطٍ مبهر يجعله يبدو راعيًا للفنون والآداب، وبذلك يهيئ الظروفَ للنهضة. كان أحد الأوائل الذين فعلوا ذلك: «كان جراند ديللا سكالا Can Grande della Scala» حاكم فيرونا، الذي قدَّم دعمًا سخيًّا لـ «دانتي» و«جيوتو»؛ وهناك أسماء أخرى لحكامٍ من آل فيسكونتي وسفورزا في ميلانو، وجونزاجا في مانتوا، وإيستي في فيرارا، ومالاتيستا في ريميني، ومونتيفلترو في أربينو، وقبل كل هؤلاء آل ميديشي في فلورنسا.

ما أضاف إلى بلاطات النهضة هذه عظمةً وأبَّهة، هو أن الحكام على اختلافهم برغم حالة الحرب المستمرة، كانوا نادرًا ما يقودون المعارك بأنفسهم. كان ذلك عمل المرتزقة من المحاربين (The Condottieri)، الذين كانوا يبيعون سيوفهم لمن يدفع أكثر. كانوا مجرَّدين من أي شعور بالولاء لأي قضية، بل عادةً ما كانوا معوِّقين، ومنافقين أحيانًا، ولكنهم كانوا يوفِّرون على مستخدميهم القيامَ بالحملات ويوفِّرون لهم الوقتَ لمتابعة فنون السلام، وكانوا مؤثِّرين قدْر استطاعتهم.

إلى الجنوب من بلاطات النهضة تلك، كانت البابوية — مع عودة الباباوات من أفينون — على عتبة تحوُّل كبير. كان الكاردينال «ألبورنوز Albornoz»، ممثل البابا في إيطاليا، قد أعاد تنظيمَ ودعم الولايات البابوية؛ وإلى جانب فينيسيا وميلانو وفلورنسا ونابولي، كانت روما قد أصبحت مرةً أخرى إحدى الدول الخمس الرئيسية في إيطاليا.

بالرغم من ذلك، كان من سوء الحظ أن الكنيسة في ذلك الوقت كان يمزقها شِقاق عنيف. كان «أوربان السادس Urban VI» قد استعدى كاردينالات الجناحين الفرنسي والإيطالي،[٣] لدرجةِ أنهما أعلنا بُطلان انتخابه، وانتخبوا بابا منافسًا ليحلَّ محلَّه وهو البابا «كليمنت السابع Clement VII». أوربان، الذي كان متمترسًا في روما رفض الرضوخ، واستمر الخلافُ وزادت حدَّته مع انتخاب باباوات جدد في كلا الجانبين عند الضرورة. وأخيرًا اجتمع مجلس عموم الكنيسة في بيزا في مارس ١٤٠٩م ورفض الاعتراف بكل الباباوات المتنافسين واختار خليفةً واحدًا. وقع اختيار المجلس الأعلى على كاردينال كان رئيسًا لأساقفة ميلان، وكان قد بدأ حياته طفلًا يتيمًا شحاذًا في كريت، وانتهى به المطاف ليصبح البابا إلكساندر الخامس. ولكن المجلس ارتكب غلطةً كارثية. عندما طلب أن يَمْثُل الباباوان المتنافسان أمامه — وأعلن أنهما كانا عصاةً عندما رفضا ذلك — كان بموقفه ذلك يلمِّح إلى وضعٍ يجعله فوق النظام البابوي، وهو المبدأ الذي لم يكن يتوقعه أيٌّ من الأساقفة المتنافسين. قبل أن يمرَّ وقتٌ طويل، كان من الواضح أن الأثر الوحيد لذلك هو إرهاق عالم المسيحية بثلاثة باباوات بدلًا من اثنين، ولكنها لم تكن غلطة لا تُغتفر؛ إذ بعد موت البابا إلكساندر فجأةً في مايو ١٤١٠م، لم يضيِّع المجلس وقتًا في اختيار خليفةٍ له.

كان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت أن «بالداسار كوسا Baldassare Cossa»، الذي انضم إلى الزمرة البابوية باسم «جون الثالث والعشرين John XXII»،[٤] كان قد دسَّ السمَّ لسلفه. الأمر ليس مؤكدًا على أية حال، أما المؤكَّد فهو أنه كان قد بدأ حياته قرصانًا ... وبقي قرصانًا. انحدر بالبابوية إلى مستوًى من الفسق لم يكن معروفًا منذ «فُحش ودعارة» القرن العاشر. يسجِّل مؤرخٌ معاصر، في دهشةٍ أقربَ إلى الصدمة، تلك الشائعة التي انتشرت في بولونيا (حيث كان كوسا حاكمًا من قِبل البابا) بأنه أثناء العام الأول في منصبه، قام باغتصابِ ما لا يقل عن مائتي عقيلة[٥] وأرملة وعذراء، ناهيك عن عددٍ لا حصرَ له من الراهبات، ومن أسفٍ أن عدد اللائي اغتصبهن في السنوات الثلاث التالية لم يُسجَّل، ولكن يبدو أنه حافظَ على معدَّل كبير؛ حيث إنه استُدعي في التاسع والعشرين من مايو ١٤١٥م للمثول أمام مجلسٍ عامٍّ آخرَ، وكانت تلك المرة في كونستانس — وكما يذكر جيبون Gibbon مبتهجًا: «تم التكتُّم على الاتهامات الأكثر فضائحيةً؛ كان ممثل المسيح متهمًا بالقرصنة والقتل والاغتصاب واللواط وسِفاح القربى ... فقط ...»

بعد ذلك، في أوائل يوليو، تم إقناع البابا جريجوري الثاني عشر بالتخلي عن منصبه بشرف، مع وعدٍ بأن يحلَّ في المرتبة الثانية في الترتيب بعد البابا الحالي، وهو امتياز

ساعدَ عليه أنه كان على مشارف التسعين ويبدو أكبرَ من ذلك، وكان الظن أنه لن ينعم بذلك طويلًا، وحدث أن مات فعلًا بعد عامين. في ذلك الحين كان البابا الزائف «بينيدكت الثالث عشر Benedict XIII» قد خُلِعَ من منصبه بدوره، وباختيار «أوتو كولونا Otto Colonna» ليكون البابا «مارتين الخامس Martin V»، انتهى الشِّقاق البابوي.

كان مارتين، قبل سواه، هو المسئول عن بابوية عصر النهضة. دخل روما في ١٤٢٠م ليكمل من حيث كان ألبورنوز قد انتهى، تسلَّم مقاليدَ الأموال البابوية التي كانت في حالة فوضى، في مدينةٍ خرِبة كان عدد سكانها قد انخفض إلى نحو خمسة وعشرين ألف نسمة، وبدأ برنامجًا لتجديد وإعادة بناء الكنائس والمنشآت العامة، كما قوَّى السلطة البابوية بحل مجلس كونستانس، ونجح — إلى حدٍّ ما على الأقل — في أن يعيد الكنيسة في فرنسا لتكون تحت سيطرته، وكانت في سنوات باباوات أفنيون قد أصبحت مستبدة بدرجةٍ لا تُحتمل. كان هو نفسه من أسرةٍ رومانية عريقة ومتميزة، فاتخذ الخطوات المهمة الأولى في تحويل مجمع الكاردينالات والإدارة البابوية من الوضع الذي كانت عليه حتى ذلك الحين كهيئاتٍ تابعة للولايات، لتصبح مؤسسات إيطالية بشكلٍ عام. صحيح أن ذلك أثار عاصفةً من النقد في حينه إلا أنه مكَّنه من إنشاء أول مجلسٍ كفء، وفي النهاية أعاد النظام إلى الولايات البابوية.

هذه الولايات البابوية ما كان يجب أن توجد أصلًا. كانت قد قامت على أساسِ ما يسمَّى بـ «هِبَة قسطنطين Donation of Constantine»،[٦] وهي قصةٌ كان قد اختلقها المجلس في أوائل القرن الثامن. كان قسطنطين الأكبر عندما نقل عاصمته إلى القسطنطينية في ٣٣٠م، قد أنعم على البابا «سيلفستر الأول Slyvester I» بحقِّ السيادة على روما «وكل الأقاليم والأماكن والمجتمعات في إيطاليا والمناطق الغربية». لم يكن أحدٌ قد فكَّر في صحة ذلك حتى ١٤٤٠م، عندما أثبت «لورنزو فالا Lorenzo Valla»، المفكِّر الإنساني للنهضة، أن الوثيقة التي تأسَّست عليها هِبَة قسطنطين كانت مزيفة، ولكن الولايات الست كانت قد أصبحت أمرًا واقعًا منذ فترة طويلة. كانت السيادة البابوية عليها متنوِّعة؛ فيرارا وبولونيا مثلًا كان مسموحًا لهما بحكمٍ ذاتي، بينما كانت «بيسارو Pisaro» و«فورلي Forli» مقيَّدتين، وكان الباباوات يفرضون عليهما وكلاء عنهم. كانت الولايات الست مجبَرة، على نحوٍ أو آخر، على دفع إتاوة مالية سنوية لخزينة البابا، وكان ذلك يمثِّل المصدر الرئيسي لدخل البابوية.

كان موت البابا مارتين في ١٤٣١م سببًا في عدم اكتمال عمله. المسئوليتان الكبيرتان لديه؛ إعادة ترسُّخ السيطرة البابوية على المجالس (وكانت نتيجةً حتمية للشِّقاق الأخير)،

والدفاع عن الأراضي البابوية ضد جيرانه والكثير من المرتزقة النهَّابين، هذه المسئولية المزدوجة لم تترك له وقتًا كثيرًا للقيام بأعمالٍ أخرى. خليفته «إيوجينيوس الرابع Eugenius IV» طُرِدَ من روما بعد ذلك بثلاث سنوات بواسطة ثورة جمهورية ليقضيَ السنوات التسع التالية في المنفى في فلورنسا. إلا أنه سجَّل هناك ما بدا في ذلك الوقت انتصارًا دبلوماسيًّا مهمًّا. في أوائل ١٤٣٨م، جاء الإمبراطور البيزنطي «جون الثامن بالايولوجوس John VII Palaeologus» إلى إيطاليا بصحبةِ أنصارٍ كُثُر — كان منهم، بين آخرين، البطريرك الأرثوذوكسي للقسطنطينية وثمانية عشر مطرانًا واثنا عشر أسقفًا منهم الشاب اللامع «بيساريون Bessarion» مطران نيقية و«إيزيدور Isidor» أسقف كييف وعموم روسيا — وذلك بهدف التوصُّل إلى نوعٍ من التوافق مع كنيسة روما. لم يكن لدى جون ولا أي من رعاياه أدنى رغبةٍ في تسوية خلافاتهم على أرضية لاهوتية، ولكن إمبراطوريته كانت تبدو موشكة على الهلاك، كما كان يعرف أنها بينما كانت في نظرِ الرومان هرطقية، لم يكن هناك أيُّ أمل في إقناع الغرب بإرسال حملة عسكرية ضد الأتراك الذين كان خطرهم في ازدياد. بدأ المؤتمر مداولاته في فيرارا ثم انتقل بعد ذلك إلى فلورنسا؛ حيث تم في الخامس من يوليو ١٤٣٩م توقيع مرسوم اتحادٍ رسمي بواسطة الجميع فيما عدا واحدًا من كبار رجال الكنيسة اليونانية. كان النص اللاتيني للمرسوم يبدأ بعبارة: «فلتفرح السماء Laetentur Coeli»، إلا أنه — كما اتضح سريعًا — لم يكن هناك سببٌ لكي تفرح السماء.

عاد الإمبراطور جون خائبَ الأمل، وفي القسطنطينية وجد مجلس فلورنسا مدانًا بالإجماع. كان بطاركة أورشليم وأنطاكية والإسكندرية قد أنكروا بالفعل المندوبين الذين وقَّعوا المرسوم نيابةً عنهم وتبرءوا منهم. أُدين الموقِّعون باعتبارهم خونةً للعقيدة، وكان يتم انتقادهم بشدة في أرجاء العاصمة، كما وقعت اعتداءاتٌ كثيرة عليهم، لدرجةِ أن عددًا كبيرًا منهم أصدر بيانًا عامًّا في ١٤٤١م، يبدون فيه ندمَهم لأنهم وضعوا أسماءهم على المرسوم، ويعلنون سحْبَ موافقتهم عليه. فجأةً، أصبح وضْع الإمبراطور نفسه على العرش غيرَ مؤكد. صحيح أنه كان هناك مؤيدون للاتحاد وكان بإمكانهم أن يدعموه، ولكن بيساريون مطران نيقية الذي كان قد تحوَّل إلى الكاثوليكية في ١٤٣٩م وأصبح كاردينالًا على الفور، كان قد غادر القسطنطينية مستاءً بعد أشهرٍ قليلة من مجيئه، وأخذ أول سفينة إلى إيطاليا ولم تطأ قدمُه الأراضي البيزنطية بعد ذلك. صديقه إيزيدور أسقف كييف وعموم روسيا، الذي دخل الكاردينالية كذلك، كان أقلَّ حظًّا؛ حيث تم خلْعه فور

عودته إلى موسكو وأُلقي القبض عليه، وإن كان قد تمكَّن من الهرب إلى إيطاليا فيما بعد.[٧]

أما بالنسبة للبابا إيوجينيوس فلم يكن هناك أيُّ شك. كان اتحاد الكنيسة قائمًا على الورق على الأقل، وكان من واجبه الآن أن يجمع حملةً صليبية ضد أعداء بيزنطة. لو لم يفعل ذلك سيكون قد تراجع عن وعده للإمبراطور، وسيكون ذلك إعلانًا للجميع عن فشلِ مجلس فلورنسا، وأن مرسوم «فلتفرح السماء» كان بلا قيمة. وجد البابا في أوروبا الشرقية، إن لم يكن في الغربية، مَن كانوا على استعدادٍ لتجنيدهم، وفي ١٤٤٣م انطلق جيشٌ قوامه خمسة وعشرون ألفًا من الجنود الصرب والهنغاريين تحت قيادةِ «لاديسلاس Ladislas» ملكِ هنغاريا، و«جورج برانكوفتش George Brancovich» ملكِ الصرب، و«جون هنيادي Hunyadi» حاكمِ ترانسلفانيا. كانت البداية مبشِّرة؛ إذ بحلول عيد الميلاد كانت مدينتا «نيش Nish» و«صوفيا Sofia» قد سقطتا، وفي الوقت نفسه فإن السلطان العثماني مراد الثاني، الذي كان مهدَّدًا من انتفاضات قوية للأتراك الكارامان Karaman Turks في الأناضول بقيادة «جورج كاستريوتس George Castriotes» — سكاندربيرج الشهير — في ألبانيا، ومن قسطنطين بالايولوجوس شقيقِ الإمبراطور وحاكمِ موريا،[٨] وجد أنه كان لا بد من التوصُّل إلى اتفاقٍ ودعا القادة الثلاثة إلى بلاطه في أدريانوبل. كانت النتيجة هدنةً لمدة ثلاث سنوات منحها لهم السلطان مقابلَ بعض التنازلات غير المهمة في شبه جزيرة البلقان.

عندما وصلت الأخبار إلى روما فزِع إيوجينيوس ومجلسُه. كانت الحملة تستهدف طردَ الأتراك من أوروبا، وبحسب شروط الهدنة، كانوا يَبدون أكثرَ تحصينًا وثباتًا. غادر الكاردينال «جوليانو سيزاريني Giuliano Cesarini»، اليد اليمنى للبابا فورًا، متجهًا إلى بلاطِ لاديسلاس في «زجيدن Szegedin»؛ حيث أحلَّ الملك رسميًّا من عهده للسلطان، وأمر الحملةَ بالانطلاق في طريقها. كان لا بد من أن يرفض لاديسلاس. إحلالَ أو لا إحلال، كان بذلك يتملَّص من عهده للسلطان، إلى جانب ذلك، فإن قوَّاته آنذاك كانت قد تقلَّصت إلى حدٍّ كبير. كان كثير من أفراد الحملة السابقين قد غادروا عائدين إلى بلادهم، وكان برانكوفيتش، الذي أُعيدت إليه أراضيه الصربية سعيدًا بالهدنة وقرَّر الحفاظ عليها. ولكن الملك الشاب قرَّر أن يفعل ذلك كما كان مطلوبًا منه.

في سبتمبر، عاد بما كان قد تبقَّى من جيشه إلى البحر الأسود بالقرب من فارنا؛ حيث كان يتوقَّع أن يجد أسطوله في انتظاره. كانت السفن الحليفة، ومعظمها فينيسية،

مشتبكةً. عندما سمِع مراد بخيانة لاديسلاس عاد مسرعًا من الأناضول بجيشٍ قوامه نحو ثمانين ألف مقاتل، وفي تلك اللحظة كانت السفن تحاول منْعه من عبور البوسفور. فشِلت. شقَّ السلطان الغاضب طريقه عبْر المضيق وأسرع للوصول إلى ساحل البحر الأسود؛ وفي العاشر من نوفمبر ١٤٤٤م، أمام فارنا، والاتفاقية المعطَّلة مشبوكة برايته، هجم بعنفٍ على جيش الحملة. حارب المسيحيون ببسالة فائقة، إلا أنه لم تكن لديهم فرصةٌ أمام تفوُّق عددي بنسبةٍ أكثرَ من اثنين إلى واحد. سقط لاديسلاس، وبعد فترة قصيرة لقي سيزاريني نفسَ المصير. أُبيد الجيش. من بين كل قادته، كان جون هنيادي هو الوحيد الذي تمكَّن من الهرب مع مجموعة صغيرة من رجاله. هكذا انتهت آخرُ حملة ضد الأتراك في أوروبا نهايةً كارثية.

إلا أن المقاومة لم تتوقَّف. في الصيف التالي عكف الإمبراطور قسطنطين على حملةِ غزوٍ تزحف على وسط اليونان وتصل إلى جبال «بندوس Pendus». في ألبانيا كانوا يستقبلونه بتَرحاب أينما حلَّ، في الوقت نفسه كان حاكمُ «آخايا Achaia» التابعَ له، مع مجموعة صغيرة من جنود الخيَّالة والمشاة قد عبروا إلى الشاطئ الشمالي من خليج كورنتة، وطردوا الأتراك من «فوقيا Phocis» الغربية (المنطقة المحيطة بـ «دلفي Delphi»). كانت تلك الإهانة الأخيرة أكثرَ مما يحتمل مراد. قبل أشهرٍ قليلة كان قد تنازل عن العرش لابنه، إلا أنه استعاد سلطاته ليثأرَ من أولئك اليونانيين الذين ظهروا فجأة. في نوفمبر ١٤٤٦م، انطلق إلى موريا على رأسِ جيشٍ من خمسين ألف مقاتل. مرة أخرى سقطت فوقيا، وهُرع قسطنطين عائدًا إلى «الهكساميليون The Hexamilion»، وهو حصنٌ دفاعي كبير يمتد لمسافةِ ستة أميال عبْر برزخ كورنتة، على طول ممر القناة الحالية تقريبًا، مصرًّا على الاحتفاظ به بأي ثمن. إلا أن مراد كان قد جاء معه بشيء لم يكن قد سبق لليونانيين رؤيته؛ مدفعية ثقيلة. على مدى خمسة أيام كان مدفع السلطان الضخم يدقُّ الأسوار بقوة، وفي العاشر من ديسمبر أعطى الأمر بالهجوم النهائي. وقع معظمُ المدافعين في الأسر أو سقطوا قتلى، واستطاع قسطنطين نفسه أن يعود بصعوبةٍ بالغة إلى عاصمته «ميسترا Mistra».

من ناحية، كان قسطنطين محظوظًا؛ إذ نجت عاصمته. أنقذها شيء واحد. كان شتاء شديد قد جاء مبكرًا على غير المعتاد. لو أن السلطان كان قد شنَّ حملته في مايو أو يونيو وليس في نوفمبر مثلًا، فما كان لجيشه أن يجد صعوبةً في الوصول إلى ما هو أبعد من البيلوبونيز، ولربما كانت ميسترا قد دُمرت تمامًا، وقُتل الحاكم وحُرمت بيزنطة من آخرِ أباطرتها.

في الحادي والثلاثين من أكتوبر ١٤٤٨م، مات جون الثالث في القسطنطينية. من بين كل أباطرة بيزنطة، جون هو الأكثرُ شهرة، وذلك بسبب صورته في لوحة «بينوزو جوزولي Benozzo Gozzoli» الجصية الشهيرة التي تزيِّن قصر «المديشي ريكاردي Medici Riccardi» في فلورنسا. لم يكن يستحق شهرتَه بعد موته، ولكنه كان قد بذل كلَّ جهده وعمِل في سبيلِ ما كان يعتقد أنه الصواب. إلى جانب أن الوضع كان قد تجاوز كلَّ أمل، فإن أي شيء كان يحاول القيام به، كان لا بد من أن يكون مصيره الفشل، وربما كان ذلك عدلًا. كانت بيزنطة متآكلة من الداخل، مهدَّدة من الخارج، ولم تكن الآن قادرةً على القيام بأي فعلٍ مستقل. بيزنطة التي كانت قد أصبحت مختزلةً في نقطةٍ تكاد تكون غيرَ مرئية على خريطة أوروبا، كانت الآن في حاجة — ربما أكثر من أي دولة كان لها شأن يومًا ما — إلى رصاصة الرحمة. كان قد طال انتظارها … وكانت في الطريق.

في الثالث عشر من فبراير ١٤٥١م، بعد أربعة أشهر من وفاة جون، مات مراد في أدريانوبل على إثرِ سكتة دماغية. خلَفه ابنه الثالث محمد — كان الابنان الأكبران قد ماتا قبل سنوات. أحدهما على الأقل في ظروفٍ مريبة — كان في الثامنة عشرة. كان محمد شابًّا جادًّا مثقفًا، ويقال إنه عندما بدأت خلافته لأبيه كان يجيد العربية واليونانية واللاتينية والفارسية والعبرية، إلى جانب التركية — لغته الأم — بالطبع. عندما جاءته الأخبار، هُرع إلى العاصمة حيث ثبَّت وزراء أبيه في مناصبهم أو في مناصب جديدة. وسط هذه المراسم، جاءت أرملةُ مراد الرئيسية لتهنئته بالخلافة، استقبلها محمد بحرارة وانشغل بالحديث معها لفترة، وبعد أن عادت إلى الحرملك اكتشفت مقتلَ ابنها في الحمَّام الخاص به. يبدو أن السلطان الجديد لم يكن ممن ينتظرون المصادفات.

في غضون أشهرٍ قليلة من ولايته، أبرم محمد معاهداتٍ مع هينادي وبرانكوفيتش ودوج فينيسيا وفرانشيسكو فوسكاري، كما بعث برسائل المودة وحُسن النية إلى أمير «فالاشيا Wallachia»، وفرسان سان جون في رودس، وإلى القادة الجنويين في ليسبوس وخيوس. كما يقال إن السلطان ردَّ على مبعوثي قسطنطين الحادي عشر ردودًا متملِّقة، كان يقسم بالله ورسوله بأن يعيش في سلام مع الإمبراطور وشعبه، وأن يحافظ معه على روابط الصداقة نفسها التي كانت بين أبيه وجون الثامن؛ وربما يكون هذا الوعد الأخير هو الذي جعل الإمبراطور متيقظًا وحذرًا. كان يبدو أنه واحد من أوائل الحكام الأوروبيين الذين شعروا بأن السلطان الشاب لم يكن كما يبدو. على العكس، كان بالفعل في منتهى الخطورة.

ربما كانت لدى محمد نفس المشاعر تجاه قسطنطين، الذي كان في تلك الأيام بمثابةِ شوكة دائمة في خاصرة أبيه مراد، باعتباره إمبراطور الموريا. كان «قسطنطين دراجاسس Constantine Dragases» — رغم أنه كان بالايولوجوسًا قلبًا وقالبًا كان يفضِّل أن يستخدم هذه الصيغة اليونانية من اسم أمه الصربي — كان في منتصف العَقد الرابع، وترمَّل مرتين — وحيث إنه لم ينجب في المرتين — وكان يبحث عن زوجة ثالثة. عندما علم بوفاة مراد في ١٤٥١م جاءت الفكرة «الألمعية» ... أن يتزوج إحدى أرامل مراد؛ ماريا الابنة المسيحية لجورج برانكوفيتش العجوز.

بعد خمسة عشر عامًا في الحرملك لم تنجِب، وكان الاعتقاد الشائع هو أن الزواج لم يكتمل، أي إن السلطان لم يبنِ بها. كانت على أية حال زوجةَ أبي السلطان الشاب، فهل كان أفضل من ذلك فرصة لكي يكون الصبي تحت السيطرة؟

لا يهم كثيرًا كيف كان يمكن أن يتغيَّر التاريخ لو أن قسطنطين دراجاسس تزوَّج ماريا برانكوفتش. ربما لا تكون هناك أهميةٌ كبيرة. ربما يكون من المتصوَّر أنها كان يمكن أن تنجح في إقناع ابن زوجها بأن يتخلى عن مشروعاته بالنسبة للقسطنطينية، لو حدث ذلك فلربما كان يمكن للإمبراطورية البيزنطية أن تظل تقاوم على مدى جيل أو جيلين آخرين. ولكنها ما كانت لتستعيد قوَّتها. ولأنها كانت بحيرة مسيحية واحدة، ضعيفة ومفلسة في محيط إسلامي واسع، كان يمكن أن تكون أيامها معدودة ودمارها النهائي مؤكدًا. الحقيقة أنه بالرغم من أن والديها كانا قد وافقا بكل الرضا على المشروع، كان الأمر يتوقَّف على ماريا نفسها. كانت قد نذرت بقيةَ حياتها للتبتُّل والعفَّة وفِعل الخير لو نجت من أيدي «الكفار»؛ وجاءت الأحداث اللاحقة كلها لكي تبرِّر قرارها.

في الوقت نفسه لم يضيِّع محمد الوقت. قرَّر أن يبنيَ قلعة أخرى عند تلك النقطة حيث أكثرُ مناطق البوسفور ضيقًا، وفي الجهة المقابلة تمامًا للقلعة التي كان جَدُّه الكبير بايزيد قد بناها على الشاطئ الآسيوي. القلعتان سوف تحققان له السيطرةَ التامة على القناة المائية (صحيح أن الأرض التي ستُبنى عليها هذه القلعة الجديدة كانت بيزنطية، ولكن محمد، كما أشار، لم يكن ليستطيع أن يمنع نفسه من ذلك).

في مطلع ربيع ١٤٥٢م، تم هدم كل الكنائس والأديرة لتوفير موادَّ للبناء، وفي الخامس عشر من أبريل بدأ العمل في بناء القلعة. بعد تسعة عشر أسبوعًا ونصف الأسبوع، في الحادي والثلاثين من أغسطس كانت قلعة «روميلي هيزار Rumeli Hisar» قد اكتملت لتبدوَ كما هي اليوم. ثم قام السلطان بتركيب ثلاثة مدافع ضخمة على البرج

الأقربِ للشاطئ وأصدر إعلانًا بأن تتوقَّف كل السفن المارة أيًّا كان مصدرها أو جنسيتها للتفتيش. في أواخر نوفمبر، تجاهلت سفينة فينيسية محمَّلة بالمواد الغذائية والتموينية كانت متجهة إلى القسطنطينية، تلك التعليمات. تم تفجيرها في الماء، كما تم إعدام طاقمها، أما قائدها «أنطونيو ريزو Antonio Rizzo» فأُعدم على الخازوق، وعُرض ليكون عبرةً لأي قائد قد يفكِّر في تكرار ذلك.

في مطلع العام التالي بدأ الأسطول التركي يتجمَّع بالقرب من شبه جزيرة «جاليبولي Gallipoli». يبدو أن الأسطول كان يحتوي على ما لا يقل عن عشر سفن «بيريم Bireme» وست «تريريم Trireme»،[٩] وخمس عشرة «جالية Galley» ذات مجاذيف، ونحو خمسة وسبعين قاربًا طويلًا وعشرين بارجة ثقيلة للنقل وعدد من «السلوب Sloops» و«القُطُر Cutters» الخفيفة.[١٠] ويقال — إن حتى — مستشاري السلطان أنفسهم كانوا مدهوشين لحجم هذا الأسطول الضخم، إلا أن ردَّ فِعلهم لم يكن ليُقارن بردِّ فِعل البيزنطيين الذين شاهدوه بعد أسبوع أو أسبوعين يشق طريقه ببطء نحو بحر مرمرة ليرسوَ تحت أسوار مدينتهم.

في الوقت نفسه، كان الجيش العثماني يتجمَّع في «تراقيا Thrace». تقدير اليونان كان أنه يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة ألف جندي تقديرٌ مضحك؛ إذ تقدِّره المصادر التركية — التي يمكن الاعتماد عليها إلى حدٍّ ما — بنحو ثمانين ألفًا من القوات النظامية وعشرين ألفًا من غير النظاميين أو «الباش بوزوق Bashi-bazouks».[١١] كانت القوات النظامية تضم نحو اثني عشر ألفًا من الإنكشارية، صفوة قوات السلطان الذين كان يتم تجنيدهم من الأسر المسيحية في أرجاء الإمبراطورية وهم أطفال، وإخضاعهم لتدريب عسكري وتعليم ديني شاقٍّ، كما كان يتم تدريب بعضهم على حفر الخنادق ورصِّ الألغام وغير ذلك من الأعمال الهندسية. من الناحية القانونية، كانوا عبيدًا لا يتمتعون بأي حقوق شخصية خارج حياتهم العسكرية، ولكنهم كانوا يتقاضون رواتبَ منتظمة ولم يكونوا أكثرَ من رقيق، وفي ١٤٥١م تمرَّدوا مطالبين بأجورٍ أعلى، كما بقيت تمرُّداتهم ملمحًا منتظمًا في التاريخ العثماني حتى القرن التاسع عشر تقريبًا.

كان محمد فخورًا بجيشه، وأكثرَ فخرًا بقوَّته البحرية، ولكنه كان شديد الزهو بتسليحه. كان المدفع، بصورته البدائية، مستخدَمًا بالفعل في القتال منذ مائة عام تقريبًا، وكان إدوارد الثالث قد استخدم نوعًا من المدافع في حصار «كاليه Calais» في ١٣٤٧م، كما كانت المدافع معروفةً في الشمال الإيطالي قبل ذلك بنحوِ ربع القرن، ولكنها في تلك

الأيام كانت ضعيفة أمام المباني المصمتة القوية. بحلول العام ١٤٤٦م، كما رأينا، كانت المدافع قد تطوَّرت بما يكفي لهدم الهكساMiliون في كورنتة، ومع ذلك حدث أن تقدَّم مهندس ألماني يُدعى، «أوربان Urban»، للسلطان وعرض عليه أن يصنع له مدفعًا يمكن أن يدمِّر أسوارَ بابل نفسها. كان المدفع الأول من أجل السفينة الفينيسية التي كانت تقف بالقرب من روملي هيزار، ثم أمر محمد بصنع مدفعٍ آخر بضعف قوة المدفع الأول. تم الانتهاء من المدفع الجديد في يناير ١٤٥٣م. يقال إن طوله كان نحو سبعة وعشرين قدمًا، وقطر ماسورته نحو قدمين ونصف القدم. كانت سماكة البرونز نحو ثماني بوصات. عند تجربته، انطلقت منه كرةٌ يبلغ وزنها نحو ١٣٤٠ رطلًا عبْر الفضاء، لمسافةٍ تربو على الميل قبل أن تسقط على الأرض بعمق ستة أقدام. أُرسل مائتا مهندس للتجهيز لرحلة هذا الكيان المرعب إلى القسطنطينية، راحوا يمهِّدون الطريق ويقومون بتقوية الجسور، وفي الأول من مارس تحرَّك، يجره ثلاثون زوجًا من الثيران، مع مائة رجل آخرين للحفاظ عليه ثابتًا مستقرًّا أثناء الطريق.

السلطان نفسه غادر أدريانوبل في الثالث والعشرين من مارس. كانت جيوش العصور الوسطى تتحرَّك بطيئة، وخاصة إذا كانت تحمل معدَّات تُستخدم للحصار، ولكن في الخامس من أبريل، كان أن نصَب السلطان خيمتَه أمام أسوار القسطنطينية؛ حيث كان الجزء الأكبر من جيشه الضخم قد وصل قبل ثلاثة أيام. مصرًّا على ألا يضيِّع الوقت، أرسل من فوره، تحت علم الهدنة، رسالةً إلى الإمبراطور كما كانت توجب الشريعة الإسلامية، يتعهَّد فيها بأن كل رعايا الإمبراطورية سيكونون في أمان مع أسرهم وممتلكاتهم في حال استسلامهم طوعًا. أما إذا رفضوا فلن تكون رحمة أو شفقة.

وكما كان متوقعًا، لم يأتِ ردٌّ على الرسالة. باكرًا، في صباح السادس من أبريل، فتحت مدفعيته نيرانها.

كان أهالي القسطنطينية يعملون أيضًا؛ يقومون بإصلاحاتٍ وبتقوية الدفاعات، يطهِّرون الخنادق المائية حول المدينة، ويخزِّنون الأغذية والسهام والأدوات والأحجار الثقيلة وكلَّ ما قد يحتاجونه. في الوقت نفسه كان إمبراطورهم قد أرسل المزيد من الاستغاثات للغرب، ولكن الاستجابة — كالعادة — كانت فاترة. في فبراير وافق مجلس النواب في فينيسيا على إرسال سفينتين على متن كلتيهما أربعمائة جندي، بالإضافة إلى خمس عشرة جالية، بمجرد الانتهاء من تجهيزها، ولكن هذا الأسطول لم يغادر البحيرة حتى العشرين من

أبريل. تعهَّدت المستوطنة الفينيسية في سيرينيسيما بأن سفنها لن تعود إلى بلادها؛ إجمالًا، كان الفينيسيون يستطيعون تقديمَ تسع سفن تجارية، من بينها ثلاث من مستوطناتهم في كريت.[١٢]

كان من بين المدافعين كذلك قوةٌ صغيرة من جنوة. كان كثير منهم قد جاءوا — كما كان متوقعًا — من المستوطنة الجنوبية في «جالاتا Galata»، أكبرِ الأحياء الأجنبية في القسطنطينية الواقعِ شمال شرقي القرن الذهبي؛ إلى جانب ذلك كانت هناك مجموعةٌ رمزية من جنوة نفسها، نحو سبعمائة شخص كان قد روَّعهم جبن حكوماتهم — إذ كانت قد وعدت قسطنطين بسفينة واحدة — وقرَّرت أن تحارب من أجل المسيحية. كان قائدهم «جيوفاني جوستنياني لونجو Giovanni Giustiniani Longo» ابنًا لواحدة من أكبر عائلات الجمهورية وخبيرًا بفنون الحصار العسكري. كان حلفاء من هذا القبيل محلَّ ترحيب كبير، ولكن بالرغم من أنهم قد يكونون منحوا الإمبراطور قدْرًا من الشجاعة، فإنهم لم يقدِّموا له أيَّ أمل حقيقي. كان عدد سفنه في القرن الذهبي ستًّا وعشرين سفينة، وهو رقم لا يُذكر مقارنةً بالأسطول العثماني. بالقرب من آخرِ مارس، كان قد أمر سكرتيره «جورج سفرانتز George Sphrantzes» — الذي ترك لنا وصفًا كاملًا للحصار — أن يقوم بحصرِ كل أقوياء البنية من أبناء المدينة؛ بمن فيهم القساوسة والرهبان، الذين يمكن استدعاؤهم لحماية الأسوار. كان عدد سكان المدينة قد تناقص بشدة بسبب الطاعون (الموت الأسود) الذي كان قد هاجم المدينةَ عشر مرات في القرن الماضي، إلا أن الرقم النهائي كان أسوأ مما يُتصوَّر: ٤٩٨٣ يونانيًّا، وأقل من ٢٠٠٠ أجنبي. لكي يدافع عن أسوارٍ ممتدة على مسافةِ ما يقرب من أربعة عشر ميلًا، ضد جيش محمد الذي يصل إلى مائة ألف مقاتل تقريبًا، لم يستطِع حشْدَ أكثر من سبعة آلاف شخص.

كانت الأسوار البرية، محلَّ ثقة بيزنطة في ذلك الربيع المشئوم من عام ١٤٥٣م، تمتد من شواطئ بحر مرمرة إلى مرتفعات القرن الذهبي، وتشكِّل الحدود الغربية للمدينة. كان عمرها أكثرَ من ألف عام. كانت تُعرف بأسوار ثيودوسيوس نسبةً للإمبراطور «ثيودوسيوس الثاني Theodosius II» التي بُنيت في عهده، واكتملت في سنة ٤١٣م عندما كان طفلًا. كانت الأسوار منيعة، وذلك من منظور أعمال الحصار العسكري في العصور الوسطى. أيُّ جيش مهاجم، كان لا بد بدايةً من اجتياز خندق عميق عرْضه ستون قدمًا، يملأ الماء جزءًا كبيرًا منه بعمقٍ يصل إلى ثلاثين قدمًا في حالة الطوارئ. خلْف

ذلك كان هناك متراسٌ منخفض مزوَّد بفرجات وخلْفه شقة من الأرض شبه المستوية عرْضها نحو ثلاثين قدمًا، بعد ذلك يأتي السور الخارجي وسمكه سبعة أقدام وارتفاعه ثلاثون قدمًا تقريبًا، مع ستة وتسعين برجًا على امتداده تفصل بينها مسافات متساوية.

بداخل هذا السور، كانت تمتد شقةٌ أخرى من الأرض، ثم عنصر الدفاع الرئيسي، السور الداخلي الكبير بسمك ستة عشر قدمًا عند قاعدته، وارتفاع نحو أربعين قدمًا فوق مستوى المدينة. كان يوجد به كذلك ستة وتسعون برجًا، تتعاقب مواقعها مع مواقع أبراج الحصن الخارجية. كانت محصِّلة ذلك كلِّه أقوى حصنٍ عرفته العصور الوسطى.

إلا أن العصور الوسطى كانت قد انقضت. على مدى الأسابيع الثمانية التالية، أخضع السلطان هذه الأسوار القوية لقصفٍ غير مسبوق في تاريخ الحصار العسكري؛ وخلْف حظائر خشبية بديلة كان المدافعون يعملون دون توقُّف لإصلاح الأضرار، ولكن كان من الواضح أنهم لن يستطيعوا الاستمرارَ في ذلك إلى ما لا نهاية. واحد فقط من دفاعاتهم كان يبدو منيعًا ومحصنًا ضد أي هجوم قد يقوم به العدو؛ تلك السلسلة العظيمة الممتدة عبْر مدخل القرن الذهبي من برجٍ أسفل «الأكروبولوس Acropolis» على ما هي الآن «سيراجليو بوينت Seraglio Point»، إلى آخرَ على الأسوار البحرية لـ «جالاتا». بعد أيام قليلة من بدء الحصار، قام القائد البحري التركي بقيادة عدد من أثقلِ سفنه لكي يدكَّه، إلا أنه كان راسخًا.

كان من صفات السلطان المميزة، تركيزُ الاهتمام فجأةً على هدفٍ معيَّن إلى أن يحقِّقه، وفي منتصف أبريل كان قد أصبح كله إصرار على الاستيلاء على القرن الذهبي. ربما لا تبدو الطريقة التي اقترح أن يتم بها ذلك قابلة للتصديق اليوم؛ جعل مهندسيه يعملون على شقِّ طريق يمرُّ خلْف جالاتا من نقطة على شاطئ البوسفور على التل القريب فيما يسمَّى اليوم بـ «ميدان تقسيم»، إلى القرن الذهبي حتى «قاسم باشا». تم صبُّ العجلات الحديدية والعوارض المعدنية، في الوقت الذي كان فيه النجارون منهمكين في عمل هياكل خشبية تتَّسع لقواعد السفن ذات الحجم المتوسط. صباح الأحد الثاني والعشرين من أبريل كانت المستوطَنة الجنوبية في جالاتا تراقب، مشدوهةً، نحو سبعين سفينة تركية محمَّلة على عرباتٍ تجرُّها ببطء مجموعاتٌ كثيرة من الثيران، على تلٍّ يبلغ ارتفاعه نحو مائتي قدم، ويتم إنزالها برفقٍ في القرن مرة أخرى.

بحلول أول مايو، كان الإمبراطور قد أدرك أنه لن يستطيع الصمود أكثرَ من ذلك. كان هناك أملٌ واحد قد تبقَّى؛ أن تأتيَ حملةُ إنقاذ من فينيسيا. هل كان هناك بالفعل

أسطول في الطريق؟ وإن كان … فكيف سيكون حجمه وماذا يحمل معه؟ الأهم من ذلك كلِّه كان: متى يصل؟ كان مصير القسطنطينية يتوقَّف على الإجابة عن هذه الأسئلة. ثم كان قبل أن تنتصف ليلة الثالث من مايو مباشرة، أن انسلت بريجنتية،[١٣] رافعةً علمًا تركيًّا، وتحمل طاقمًا مكوَّنًا من اثني عشر متطوعًا متنكرين كأتراك، وانزلقت تحت السلسلة العائمة. ليلة الثالث والعشرين، عادت تطاردها مجموعةٌ من السفن العثمانية. من حسن الحظ أن السفينة البخارية الفينيسية كانت ما زالت أفضلَ من التركية، وسرعان ما نجحت في دخول القرن بعد هبوط الليل. على الفور، طلب قائدها لقاء الإمبراطور. قال إنه كان قد أبحر في أرجاء بحر إيجه ولم يجد أثرًا لحملةٍ موعودة أو لأي سفينة فينيسية. عندما أدرك أن لا فائدة من مواصلة البحث، طلب عَقد اجتماع مع البحارة وسألهم ماذا هم فاعلون. كان أحدهم مع العودة إلى فينيسيا، مجادلًا بأن القسطنطينية ربما كانت بالفعل في أيدي الأتراك، ولكنهم أسكتوه. بالنسبة للباقين، كانت المهمة واضحة … لا بد من العودة والمثول أمام الإمبراطور كما وعدوا أن يفعلوا؛ ولذا عادوا وهم يعلمون تمامًا أنهم قد لا يغادرون المدينة أحياء. شكر قسطنطين كلًّا منهم شخصيًّا … كان صوته مختنقًا بالبكاء.

في السادس والعشرين من مايو عَقد السلطان مجلسَ حرب. قال لمن حوله إن الحصار كان قد طال بما يكفي، وإن الوقت حان للقيام بالهجوم النهائي. سيكون اليوم التالي للتحضير، الذي بعده سيكون للراحة والصلاة. الهجوم سيبدأ في الساعات الأولى من صباح الثلاثاء الموافق للتاسع والعشرين من مايو. لم تجرِ أيُّ محاولات لإخفاء الخطة عن المدافعين عن المدينة، لدرجةِ أن بعض المسيحيين في المعسكر التركي قاموا بإطلاق السهام عبْر الأسوار حاملةً رسائل تبلغهم بنوايا محمد، إلا أن مثل تلك الإجراءات لم يكن لازمًا تقريبًا؛ فقد كان للنشاط المحموم، ليل نهار، في المعسكر الآخر شأنٌ آخر.

في آخر يوم إثنين في تاريخ الإمبراطورية، ترك شعب القسطنطينية — بمن فيهم الإمبراطور — منازلهم وتجمَّعوا من أجل شفاعة جماعية أخيرة؛ وبينما كانت أجراس الكنائس تدقُّ، كانت أقدسُ الأيقونات وأنفسُ التذكارات قد حُملت للحاق بالموكب التلقائي الذي كان يضم اليونانيين والإيطاليين، الكاثوليك والأرثوذوكس على السواء، وهو يشقُّ طريقه عبْر الشوارع وعلى امتداد الأسوار. عندما انتهى كان الغسق قد حلَّ من كل فجٍّ في المدينة، وكما لو كان بالغريزة، كان الناس يشقُّون طريقهم نحو كنيسة الحكمة المقدَّسة. على مدى الأشهر الخمسة السابقة كان اليونانيون قد تجنَّبوا ذلك المبنى معتقدين أن

الممارسات اللاتينية، التي لا يقبلها أيُّ بيزنطي ورِع — كانت قد دنَّسته. الآن، لأول وآخر مرة، كانت الفوارق الدينية قد تم نسيانها. كانت كنيسة «سان صوفيا St Sophia»، كما لم تكن أيُّ كنيسة أخرى، هي المركز الروحاني للبيزنطيين. في تلك اللحظة، لحظة الأزمة القصوى، لم يكن هناك مكانٌ آخرُ يمكن الذهاب إليه.

كانت الصلاة الجامعة مستمرةً عندما وصل الإمبراطور للتناول مع رعاياه. بعد وقتٍ متأخر، وبعد أن أُطفئت كلُّ الشموع ما عدا تلك القليلة الدائمة، وبعد أن غمر الظلام الكنيسة، انسل الإمبراطور ليصليَ بمفرده. ثم رجع إلى الأسوار. لن يتذوق طَعم النوم في تلك الليلة؛ لأن محمدًا لم ينتظر حتى الفجر ليبدأ هجومه. في الواحدة والنصف صباحًا أعطى الإشارة. فجأةً تمزَّق صمت الليل، دوي الأبواق وهدير الطبول وصيحات الحرب التركية المروعة كانت كفيلةً بأن توقظ الموتى! في الوقت نفسه انطلقت أجراس كل كنائس القسطنطينية تدق لتعلن لكل المدينة أن المعركة النهائية قد بدأت.

كانت موجات الهجوم تتوالى: أولًا، الباشي بوزوق غير النظاميين، ورغم أنهم لم يكونوا مدرَّبين وقدرتهم على الاحتمال ضعيفة، كانوا مستعدين للتضحية وملائمين لهدم الروح المعنوية للمدافعين ليصبحوا فرائسَ سهلة بالنسبة للمحاربين الأكثرِ كفاءة الذين سيأتون بعدهم؛ بعد ذلك تأتي كتائبُ أتراك الأناضول جيدةُ التدريب شديدةُ الانضباط، التي تضم مسلمين شديدي التديُّن بلا استثناء، وكلهم مصرُّون على الحصول على ثواب في الجنة بأن يكونوا أولَ مَن يدخل أكبر مدن العالم المسيحي؛ وأخيرًا، الإنكشارية، الذين يتقدَّمون عبر السهول في صفوفٍ متراصة، برغم ما يطلقه عليهم المدافعون من قذائف. بعد الفجر بوقت قصير، أُصيب جيوفاني جيوستنياني لونجو بسهم اخترق صدرَه. عمَّت الفوضى صفوفَ الجنويين ليفرَّ كثير منهم، ولكن حتى ذلك الحين، لم يكن لذلك أهميةٌ كبيرة. في غضون ساعة واحدة، كان الأتراك قد أحدثوا ثغرةً في السور وراحوا يتدفقون على المدينة؛ وعندما وجد الإمبراطور أن كل شيء قد ضاع، ألقى بنفسه في المعركة حيث كان القتال على أشده ... ولم يرَه أحدٌ بعد ذلك.

كان الصباح قد جاء والقمر شاحب في السماء وساعات الرعب تتوالى، وبحلول الظهيرة كانت شوارع القسطنطينية قد تحوَّلت إلى بحار من الدماء. المنازل نُهبت، والنساء والأطفال اغتُصبوا وقُتلوا على الخوازيق، والكنائس نُهبت ودُمرت، الأيقونات تم انتزاعها من أُطُرها الذهبية، والكتب مُزقت من أغلفتها الفضية. في كنيسة الحكمة المقدَّسة كانت صلاة الفجر ما زالت مستمرةً عندما سُمعت أصوات قدوم الغزاة تقترب. الأكثر

فقرًا والأقل جاذبيةً من بين المصلين تم ذبحهم فورًا، الباقون تم اقتيادهم إلى معسكرات مَن قاموا بأسْرهم لاستخدامهم كما يحلو لهم. القساوسة الذين كانوا يرأسون القداس واصلوا الصلاة لأطول وقت ممكن قبل أن يُذبحوا في أماكنهم على المذبح العالي؛ هناك بين بعض الأرثوذوكس المؤمنين، مَن لا يزال يعتقد أن واحدًا أو اثنين منهم قاموا بجمع الآنية المقدسة واحتفظوا بها على نحوٍ غامض في الحائط الجنوبي للحرم المقدس، وأنها ستبقى هناك إلى يومِ أن تعود القسطنطينية مدينةً مسيحية، وحينذاك سوف يستأنفون الطقس من النقطة التي توقَّفوا عندها.

كان السلطان قد وعد رجاله بمنحهم ثلاثة أيام يجمعون فيها الغنائم كما هو متَّبع عندهم في التراث الإسلامي، ولكن أعمال العنف كانت فظيعةً لدرجة أن أحدًا لم يحتجَّ عندما أوقف السلطان ذلك في نفس اليوم الذي بدأ فيه جمْع الغنائم. هو نفسه انتظر توقُّف التجاوزات قبل أن يدخل المدينة. وفي وقتٍ متأخر من المساء كان يتهادى راكبًا حصانَه في الطريق المؤدية إلى كنيسة سان صوفيا. ترجَّل عن حصانه أمام البوابة الرئيسية، وانحنى ليتناول حَفنة تراب لينثرها على عِمامته في تواضع، وبعد ذلك — فحسب — دخل المبنى. بأمر منه، صعد كبير الأئمة المنبرَ، وبعد أن حمد الله الرحمن الرحيم، أعلن أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. كانت تلك هي اللحظة. تخلَّى الصليب عن مكانه للهلال، وأصبحت كنيسة سان صوفيا مسجدًا، وحلَّت الإمبراطورية العثمانية محلَّ الإمبراطورية البيزنطية بعد أن استأصلتها. القسطنطينية أصبحت إسطنبول، وحقَّق محمد البالغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا أعلى طموحاته.

استُقبلت أخبارُ سقوط القسطنطينية ومعها الإمبراطورية البيزنطية مصحوبةً بالرعب في أرجاء العالم المسيحي. مع انتشار اللاجئين في اتجاه الغرب كانوا يحملون معهم تفاصيلَ القصة التي لم يَضِع منها شيء. ولكن أوروبا الغربية، برغم ما أصابها من فزعٍ حقيقي وعميق، لم تتغير تغيرًا كبيرًا. الدولتان اللتان تأثَّرتا فورًا، فينيسيا وجنوة، لم تضيِّعا وقتًا للتوصل إلى أفضل الشروط للتعامل مع السلطان.

أسطول النجدة الفينيسي، الذي كان قد جهَّزه البابا نيكولاس الخامس بشكل أساسي، كان قد رسا بالقرب من «خيوس Chios» في انتظار ريحٍ مواتية لكي يكمل رحلته إلى القسطنطينية؛ عندما اقتربت بعض السفن الجنوية التي تمكَّنت من الهرب من «جالاتا» حاملةً معها الأخبار، انسحب قائده «جياكومو لوريدان Gicomo loredan» على الفور إلى

إيوبيا في انتظار أوامر. في الوقت نفسه، تم إيفاد رسول خاص، هو «بارتولوميو مارشيللو Bartolomeo Marcello»، لتهنئة محمد بانتصاره، وتأكيد نية الجمهورية الصادقة في الحفاظ على معاهدة السلام، التي كانت قد عُقدت مع والده وأكَّدها هو شخصيًّا، ويطلب إعادةَ كل السفن الفينيسية التي كانت قد بقيت في القسطنطينية، موضحًا أنها لم تكن سفنًا حربية وإنما تجارية. وإذا وافق السلطان على تجديد المعاهدة يمكن أن يطلب مارشيللو السماحَ لفينيسيا بالاحتفاظ بمستوطناتها التجارية في المدينة، بنفس الحقوق والمزايا التي كانت تتمتع بها تحت الحكم البيزنطي. أثبت محمد أنه كان مساومًا صعب المراس؛ إذ بعد تفاوضٍ استمر على مدى العام، أطلق سراح السفن والسجناء، وسمح بعودة المستوطنة الفينيسية، إلا أنها لن تتمتع مرةً أخرى بالامتيازات الإقليمية والتجارية التي كانت أساسَ قوَّتها وازدهارها في السابق. كان الوجود اللاتيني في الشرق يتدهور.

كان لدى الجنويين ما يعتمدون عليه أكثرَ مما كان لدى الفينيسيين، لكي يواصلوا دورَهم المزدوج. في جالاتا، كان الحاكم (البودستا Podesta) قد فتح البوابات لحظةَ دخول الأتراك، كما كان قد فعل كلَّ ما في وُسعه لمنع الهجرة الجماعية غير الملائمة لمواطنيه. بعد فترة، تلقَّى تأكيداتٍ بأن جنويي جالاتا سوف يحتفظون بممتلكاتهم، وأنهم يمكنهم ممارسة طقوسهم الدينية ما داموا لم يدقوا أجراسًا أو يبنوا كنائسَ جديدة، إلا أنهم كان لا بد من أن يسلِّموا أسلحتهم ويقوموا بتدمير تحصيناتهم وقلعتهم. نظريًّا، كانت المستوطنات التجارية الجنوية على طول الشاطئ الشمالي للبحر الأسود، بما في ذلك ميناء «كافا Caffa» المزدهر في القرم، كان سوف يسمح لها بالبقاء، ولكن منذ موت أنطونيو ريزو، كان قليل من البحَّارة هم الذين يغامرون بالمرور عبْر المضايق، وكان قليل من التجار هم المستعدين لدفع الرسوم الباهظة المطلوبة. باستثناء جزيرة خيوس، التي كانت لتبقى جنوية حتى ١٥٦٦م، كانت إمبراطورية جنوة قد انتهت بنهاية القرن.

في روما، لم يُبدِ البابا نيكولاس أيَّ اهتمام بالمصالح الشخصية للجمهوريات التجارية. كان يبذل قصارى جهده لكي يستحث الغرب من أجل حملة صليبية جديدة، وهي القضية التي كان يؤيدها بحماسة شديدة الكاردينالان اليونانيان بيساريون وإيزيدور، وكذلك ممثِّل البابا في ألمانيا «إينياس سيلفيوس بيكولوميني Aeneas Sylvins Piccolomini» الذي سيصبح البابا «بيوس Pius» في المستقبل، ولكن مسعاه كان بلا جدوى. قبل مائتي أو ثلاثمائة عام، كانت الحماسة المسيحية قويةً للقيام بحملات عسكرية لإنقاذ أماكن الحجِّ المقدسة. مع قدوم أفكار النهضة الإنسانية انطفأت جذوة الحماسة الدينية. كان

الارتباك قد أصاب أوروبا وبيزنطة قد ماتت. مع وصول الجيش العثماني إلى ذروة قوَّته، لم يكن هناك أملٌ في أن تقوم للإمبراطورية قائمة.

شهد العَقد التالي لسقوط القسطنطينية عددًا من عمليات التطهير وبخاصة في اليونان؛ حيث انتهت الدوقية اللاتينية في أثينا في ١٤٥٦م باستيلاء الأتراك على المدينة. الدوق الأخير «فرانكو أكياجولوي Franco Acciajuloi» قُتل بعد أربع سنوات عندما آلت إمارة موريا التي كان قد لجأ إليها إلى نفس المصير. مستوطنة نيجروبونتي، المعروفة لنا باسم جزيرة إيوبيا، سقطت في ١٤٧٠م. المراكز المسيحية المتقدمة كانت تتضمَّن كريت وقبرص وقلعة أو اثنتين من موريا وعددًا قليلًا من الجزر الأيونية، أهمُّها كورفو وشيفالونيا وزانتة، مع شريط ضيِّق على ساحل دالماشيا. كل تلك المواقع بقيت فينيسية. ولكن في المناطق الخلفية من البلقان كان جزء من البوسنة قد سقط باكرًا في ١٤٣٨م، والباقي بالإضافة إلى الهرسك في الجنوب كان قد تفتَّت بين ١٤٦٣م و١٤٨٠م.

كان هناك على أية حال موقعٌ حصينٌ آخر؛ جزيرة رودس، حيث منذ ١٣٠٦م، كان فرسان سان جون يديرون مستشفاهم ويشنُّون في الوقت نفسه حربَهم الخاصة ضد «الكفار». بالنسبة للغرب، كانوا هم الآن خطَّ الدفاع الأول ضد الإسلام. لم يعودوا مفارقةً تاريخية من مفارقات العصور الوسطى، بل كانوا يعتبرون مخلصي العالم المسيحي. من جهة أخرى، بالنسبة للسلطان محمد، كانوا مصدر إزعاج وقلق مستمر؛ وفي ربيع ١٤٨٠م تحرَّك ضدهم. كان جيشه قوامه نحو سبعين ألف مقاتل، نقله إلى الجزيرة على أسطول مكوَّن من نحو خمسين سفينة. على متن هذه السفن كان هناك عدد من تلك المدافع المرعبة التي أفادته كثيرًا في القسطنطينية. في مقابل هذا الجيش الضخم تصدى الفرسان بنحو ستمائة مقاتل من تنظيمهم، مع ما يقرُب من ألف وخمسمائة مقاتل من الأجانب والميليشيات المحلية. كانوا يعتمدون أيضًا على تعاون الروديسيين أنفسهم وكانوا كلهم مسيحيين. كان الجميع تحت قيادة قائدهم الأعلى «بيير دو بوسو Pierre d'Aubsson» وكان في السابعة والخمسين من العمر. قبل عدة سنوات، وكان يعرف أن الهجوم حتميٌّ، قام باستدعاء أكبر المهندسين العسكريين لتحصين مدينة رودس وجعلها مدينةً منيعة، والآن حيث كان الأتراك في الطريق، كان مستعدًّا لهم.

بدأ الحصار في الثالث والعشرين من مايو، وبحلول منتصف يونيو كانت أجزاء من سور المدينة الذي انهمر عليه ألف قذيفة تقريبًا من كرات المدافع، كانت قد بدأت تتساقط، إلا أن الفرسان ظلوا صامدين. في السابع والعشرين من يوليو كان الهجوم

النهائي. كالعادة، كان الباشي بوزوق غير المدرَّبين، الممكنُ التضحيةُ بهم في المقدمة، يتبعهم الإنكشارية. اندفعوا عبْر الأجزاء المتبقية من السور عن طريقِ ما يسمَّى بالبرج الإيطالي وتمكَّنوا من أن يرفعوا رايةَ النبي داخل المدينة، ولكن الفرسان قاموا بهجومٍ مضاد. أُصيب القائد الأعلى بجراحٍ شديدة بعد قليل، وفجأةً انتشر الذعر بين الباشي بوزوق. فاستداروا ولاذوا بالفرار. أما السبب فسيظل لغزًا. قيل إنهم أصيبوا بالرعب عندما رأوا الرايات المسيحية المزيَّنة بصور السيدة العذراء والقديسين ترفرف في الهواء، كانوا من المسلمين ولم يكن قد سبق لمعظمهم أن رأى تمثيلاتٍ ثنائيةَ البعُد للوجه أو الجسد البشري. أيًّا كان السبب فإنه شيء نادر بالفعل في تاريخ الحروب أن يفرَّ جيش قائم بالحصار، بعد أن يكون قد نجح في اختراق أسوار مدينة. بالنسبة للجيش التركي كان الانتصار يتحوَّل بين لحظة وأخرى إلى كارثة. قُتِل ما يقرب من أربعة آلاف من بينهم ثلاثمائة من الإنكشارية الذين كانوا قد احتلوا الحيَّ اليهودي وتم احتجازهم هناك.

كان الفرسان قد انتصروا في معركة، ولكنهم لم يكسبوا الحرب. كان السلطان محمد غاضبًا أشدَّ الغضب لهزيمته، فبدأ من فوره في إعداد جيش جديد، وقرَّر أن يقوده بنفسه ضدهم في العام التالي، ولو أنه فعل ذلك لما كانت أمامهم فرصة؛ حيث كان من المستحيل أن يتم إصلاح الدفاعات في الوقت المناسب. ولكن في ربيع ١٤٨١م، أصيب السلطان بحمَّى شديدة مصحوبة بإسهال. بعد يوم أو يومين قضى نحْبَه، وكان فرسان سان جون يحتفظون بجزيرتهم الجميلة لمدة أربعين سنة أخرى، ولكنها كانت قد أصبحت جزيرةً بأكثر مما يحمل المعنى الجغرافي للكلمة.

كان الحوض الشرقي للمتوسط قد أصبح بحرًا إسلاميًّا تمامًا.

هوامش

(١) لم يُعمَّر عثمان ليراها، ولكن أورهان نقل جثمان والده ليتم دفنه في القلعة، وأصبحت المدينة أشبه بمزار، ومكانًا لدفن أوائل سلاطين آل عثمان.

(٢) منذ ١٢٩٨م عندما أصبح المجلس الأعلى مقصورًا على العائلات المدرجة أسماؤها في كتاب الجمهورية الذهبي.

(٣) انظر الفصل الحادي عشر: نهاية العصور الوسطى.

(٤) لم تَحفظ له ظروفُ اختياره وخلْعه بعد ذلك مكانًا على قائمة الباباوات المعتمدين؛ كما أنه من المثير للدهشة كذلك أن الكاردينال «أنجيلو رونسالي Angelo Roncalli» اتخذ اللقبَ نفسه عند اختياره للبابوية في ١٩٥٨م.

(٥) العقيلة، كهلة متزوجة وذات مقام رفيع. (المترجِم)

(٦) انظر الفصل السادس: إيطاليا العصور الوسطى.

(٧) في روما، أسَّس بيساريون أكاديميةً لترجمة ونشر الأعمال اليونانية الكلاسيكية، وعند موته في ١٤٧٢م كان قد ترك مكتبةً مهمة من المخطوطات اليونانية، تركها كلَّها لفينيسيا لتصبح نواة مكتبة مارسيانا Biblioteca Marciana الشهيرة.

(٨) كانت موريا Morea، المعروفةُ لنا باسم البيلوبونيز، قد شهدت محتليها الفرنجةَ يتدهورون تدريجيًّا، وكانت ولايةً تتمتَّع بالحكم الذاتي في إطار الإمبراطورية البيزنطية منذ منتصف القرن السابق. كان يُعهد بها دائمًا لأحد أقرباء أسرة الإمبراطور.

(٩) على خلاف السفن القديمة التي تحمل نفس الأسماء، كانت يوجد بالبيريم والتريريم التركية جانب واحد من المجاذيف. كان على التريريم ثلاثة أفراد لكل مجذاف، أما على البيريم فكان كل اثنين يجلسان معًا.

(١٠)

- البيريم Bireme: مركَب بصفَّي مجاذيف في كل جانب.
- التريريم Trireme: سفينة قديمة في كلٍّ من جانبيها ثلاثة صفوف من المجاذيف.
- الجالي Galley: سفينة شراعية ذات مجاذيف ويُطلق عليها قادس.
- السلوب Sloop: مركَب شراعي وحيد الصاري.
- القطر Cutter: مركَب شراعي صغير وحيد الصاري ويكون تابعًا للسفينة الحربية يُستخدم لنقل الأشخاص والمؤن من السفينة وإليها. (المترجِم)

(١١) قوات الفرسان العثمانية المشهورة بالوحشية. (المترجِم)

(١٢) لا بد من أن نسجِّل هنا — بأسفٍ — أنه، في تحدٍّ لوعدهم، تسلَّلت سبع سفن فينيسية تحمل سبعمائة إيطالي من القرن الذهبي عائدةً إلى بلادها.

(١٣) بريجنتية Brigantine: سفينة فينيسية صغيرة ذات صارَين. (المترجِم)

الفصل الثالث عشر

الملوك الكاثوليك والمغامرة الإيطالية

- كريستوفر كولومبوس: ١٤٩٢م.
- فاسكو دي جاما: ١٤٩٨م.
- شارل الثامن يغزو إيطاليا: ١٤٩٤م.
- شارل يصل إلى فورنوفو: ١٤٩٥م.
- تولِّي لويس الثاني عشر العرش: ١٤٩٩م.
- كاترينا كورنارو: ١٤٧٣م.
- تخلِّي كاترينا: ١٤٨٩م.
- رابطة كامبراي: ١٥٠٩م.
- فينيسيا تقف وحيدة: ١٥٠٩م.
- البابا جوليوس ينقلب على الفرنسيين: ١٥١٢م.
- موت لويس وفرديناند: ١٥١٦م.

* * *

في الجانب الغربي من المتوسط، كانت المسيحية في صعودٍ مرة أخرى. كانت حرب الاسترداد الإسبانية ماضيةً في طريقها ببطء، ولكن السابع عشر من أكتوبر ١٤٦٩م كان يومًا مهمًّا بالنسبة لإسبانيا، وربما الأهم في التاريخ الإسباني كله. هو اليوم الذي شهد زواج «فرديناند الثاني Ferdinand II»، ملكِ أراجون، من ابنة عمِّه «إيزابيلا Isabella» ملكةِ «قشتالة Castile». لم يكن أيهما متوَّجًا ملِكًا آنذاك، كما لم تسفر الزيجة عن إسبانيا متحدة، لم تكن المملكتان قد أصبحتا مملكةً واحدة. «كان الملوك الكاثوليك Los Reyes Catholics»، بحسب اللقب الذي خلَعه عليهم «البورجيا» (Borgia) الإسباني،

البابا «ألكساندر الثالث Alexander III»، كانوا أقرانًا لبعضهم في بلدِ كلٍّ منهم الآخر؛ بالرغم من أن السيادة ستكون لكلٍّ منهم في بلده. بالنسبة لأراجون وقشتالة، كانت قشتالة هي الشريك الأعلى مقامًا، وفي شروط الزواج تعهَّد فرديناند بمراعاة قوانينها وأعرافها، وبأن يقيم هناك (ولا يغادرها إلا بموافقة زوجته)، وبأن يعترف بها دائمًا ملِكةً على قشتالة. أما هو فيحمل لقب الملك شرفيًّا، وليس بحكم الحق الرسمي. وبالرغم من ذلك، عندما تولَّى عرش أراجون في ١٤٧٩م، امتدت سلطته كذلك على «قطالونيا Catalonia» و«فالينسيا Valencia» و«الجزر الباليرية Balearic Islands»،[١] كما شملت بالطبع مدينةَ برشلونة العظيمة التي كانت قد تطوَّرت — حيث إن سقوط القسطنطينية كان قد جعل مكانةَ كلٍّ من جنوة وفينيسيا تتراجع — لتصبح ذات أهميةٍ تجارية لها مراكز وقنصليات منتشرة حتى الإسكندرية، وربما إلى ما هو أبعد من ذلك.

وهكذا، منذ بداية حكمهما المشترك، كان فرديناند وإيزابيلا يحكمان مساحةً من شبه جزيرة أيبيريا، أكبر منها وهي موحَّدة على مدى عدة سنوات. إلى جانب ذلك، فإنهما بذلا جهدًا كبيرًا لإظهار متانة علاقتهما؛ إذ كانت كل الوثائق الرسمية تقريبًا تصدر باسميهما، كما أن الدعاية التي لا نهاية لها — وعلى نحوٍ مُبالغ فيه — كانت تؤكد دائمًا الحبَّ الذي يجمع بينهما. هكذا يبدو مشروعًا النظرُ إلى زواجهما باعتباره حجرَ الأساس لإسبانيا الحديثة، كما أن الفتوحات الواسعة التي أضافاها للمملكة في حياتهما ساعدت كثيرًا في تأكيد وحدة أراضيها.

كان أول هذه الفتوحات الانتصار على مملكة غرناطة الإسلامية، التي رغم حجمها الصغير كانت نموذجًا لترفٍ حضاري لا مثيل له في إسبانيا، كما لا يوجد كثير مثله في أي مكان آخر. بالرغم من الجذور العربية لثقافتها، كان عدد سكانها العرب قليلًا؛ ذلك لأن الهجرة العربية كانت قليلة في القرون الحديثة. كان أغلب سكان المدن من بربر شمال أفريقيا، أما في الريف فكان الغالبية من الإسبان المحليين الذين كانت أسرُهم قد تحوَّلت إلى الإسلام قبل وقت طويل. ومع مضي حرب الاسترداد في طريقها، تقلَّص حجم المملكة؛ إذ سقطت قرطبة في ١٢٣٦م، وإشبيلية في ١٢٤٨م؛ وبحلول نهاية القرن الخامس عشر لم يكن هناك سوى مدينتين مهمتين؛ قرطبة ذاتها بتَعدادها البالغ نحو ستين ألف نسمة، وميناء «ملقة Malga» الذي كان يمرُّ عبْره الذهب والقوات والعتاد، الذي كان يُجمع من أفريقيا والشرق الأدنى لمواصلة الحرب المقدسة ضد إسبانيا المسيحية.

في الثامن من يناير ١٤٩٢م، بعد عشر سنوات من المقاومة، سلَّم آخر حاكم مسلم، أبو عبد الله محمد الحادي عشر (المعروف للغربيين بـ Boabdil) مملكتَه وذهب إلى فارس.

(رغم أن زوجته فاطمة وأولادها تم تعميدهم واستقروا في مدريد). كان استسلامه بدايةَ أهم أربعة أشهر في التاريخ الإسباني؛ حيث اتساع ظاهرة الاضطهاد الديني، الذي كان له أثرٌ كارثي على قوة وحيوية إسبانيا، وبدء أشهر رحلات الاستكشاف في التاريخ.

لم يشهد التاريخ الأوروبي حكامًا كثيرين أضيقَ أفقًا وأكثرَ تعصبًا من إيزابيللا. كانت قد طلبت هي وزوجها تصريحًا بابويًّا (فتوى) في ١٤٧٨م لإدخال محاكم التفتيش في قشتالة. في ذلك الوقت كانت في الأساس (وهو أمر مثير للدهشة) موجَّهة ضد اليهود المتحولين — الذين يدُل لقبهم الشائع: «المارانوز Marranos» (الخنازير) على أن تحوُّلهم لم يُفِدهم كثيرًا. بعد ثلاث سنوات، طُلب من كل أولئك المارانوز المتهمين بالهرطقة الاختيار بين التخلي عن معتقداتهم أو الإعدام على الخازوق. تم تنفيذ أول «فعل إيمان» auto-da-fé[٢] في ١٤٨١م، وكان هناك ست ضحايا، وعندما ماتت إيزابيللا في ١٥٠٤م كان عدد الضحايا قد بلغ أكثرَ من ألفين.

بعد أقلَّ من ثلاثة أشهر من استسلام غرناطة، أصبحت الملِكة تشعر بالقوة التي تجعلها تتمادى في سياساتها. بتشجيع من «توركيمادا Torquemada»، قاضي التحقيق العام (وكان هو نفسه من أصول يهودية)، أصدرت مرسومًا في الثلاثين من مارس يقضي بمصادرة أملاك مَن يبقَون دون تحوُّل إلى المسيحية من اليهود قبل آخر يونيو وطردهم من المملكة، وتم طرد أكثر من مائة ألف يهودي، ونجم عن ذلك شتاتٌ ضخم لليهود الشرقيين في شمال أوروبا والشرق الأدنى. استقبلتهم دول عدة — وبخاصة هولندا — بتَرحاب، بل إن السلطان التركي بايزيد الثاني أرسل أسطولًا من السفن لإنقاذهم.[٣]

ثم جاء الدور على المسلمين. بحسب شروط استسلامهم كانت سلامتهم الشخصية وحريتهم الدينية مكفولة، لم تحاول إيزابيللا أن تطردهم. ربما لأنها لم تكن تريد أن ترى البلاد خاويةً من السكان، وزراعتها وتجارتها كاسدة. بدل ذلك، وافقت على ما كان بالفعل «دولة داخل دولة»؛ مجتمع مسلم له عقيدته وشريعته وعاداته وتقاليده التي لا مساس بها. وبالرغم من ذلك لجأ كثير من المسلمين إلى المنفى الاختياري عبر المضايق، وخاصة في «أوران Oran» (وهران) والجزائر؛ أما بالنسبة للألوف من الآخرين، فلم تكن تنازلات الملكة تبدو صادقة، وهو ما اتضح قبل مرور وقت طويل. هذه المرة تحركت إيزابيللا وهي أكثر حرصًا، كانت تضيِّق الخناق تدريجيًّا؛ ولكن مع كل شهر يمر، كان المسلمون يجدون أنفسهم يعامَلون معاملةَ المنبوذين. كانت ممارسة شعائرهم تزداد صعوبةً وكذلك الضغوط عليهم لقبول التعميد المسيحي. نتج عن محاولات التحويل

الإجباري تلك ثوراتٌ خطيرة، وفي ١٥٠٢م أوضح مرسوم ملكي الخيار مرةً أخرى على نحوٍ لا لبس فيه؛ التحوُّل أو الطرد أو الإعدام. على خلاف اليهود، قبِل غالبية المسلمين الخيارَ الأول. وبحلول العام ١٥٠٣م، نظريًّا على الأقل، لم يكن قد بقي أحدٌ في قشتالة، ولكن حيث إن قليلين فقط هم الذين كانوا يعتقدون في صدق تحوُّلهم، كان «الموريسكوس Moriscos» (كما كان يطلَق على المتحولين) وقودًا جديدًا لمحاكم التفتيش.

كانت الحرب مع غرناطة باهظة التكلفة، وعندما انتهت أصبحت هناك موارد متوفرة، وذلك ما جعل رحلة الجنوي «كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus» الطويلة ممكنةً، وهي التي انتهت باكتشاف الأمريكتين. وبالرغم من أن كولومبوس كان عليه أن يدافع عن اقتراحاته أمام لجنتين منفصلتين؛ الأولى مكوَّنة في معظمها من رجال الكنيسة واللاهوت، والثانية من فلاسفة وفلكيين وكوزموجرافيين، فإنَّ سببَ التصريح النهائي له من قِبل الملوك الكاثوليك لكي يستمر، لم يكن من الصعب اكتشافه؛ كان استيلاء الأتراك على الحوض الشرقي للمتوسط قد أغلق طريقَ التجارة التقليدي إلى الشرق. لحسن الحظ، كان قد أصبح من المتَّفق عليه أن الأرض كروية، وأنه كان بالإمكان الوصول إلى جزر الهند الشرقية بالإبحار في أيٍّ من الاتجاهين. كان السؤال المهم المطلوب حسمُه الآن: أي الطريقين أقصر؟ كان البرتغاليون قد تعلَّموا فنونَ الملاحة من الجنويين، والآن — مستلهمين أميرَهم هنري الملاح — كانوا يضعون أموالهم على طريق الشرق ويتحسَّسون طريقَهم على الساحل الأفريقي.

لم يكن هناك جديد بالنسبة لفكرة الإبحار حول أفريقيا؛ وإن كان لنا أن نصدِّق «هيرودوتس Herodotus»، فإن الفينيقيين كانوا قد حقَّقوا ذلك نحو عام ٦٠٠ق.م.،[٤] كما أن جنوة كانت قد قامت بمحاولةٍ أخرى في ١٢١٩م عندما أرسلت الأخوين «أوجولينو Ugolino» و«جيدو فيفالدي Guido Vivaldi» بسفينتين في محاولةٍ للوصول إلى الهند عن طريق المحيط. (فينيسيا لم تحاول؛ حيث إن تقاربها الوثيق مع مصر المملوكية وسيطرتها الفعلية على طريق الإبحار عبر البحر الأحمر، جعلا ذلك غير ضروري بالنسبة لها). لم يكن الإخوة فيفالدي محظوظين، وجاء القرن الرابع عشر — وكان هناك تقدُّم كبير في بناء السفن وفنون البحر والملاحة — وكانت القصة مختلفة. في ١٤٨٨م دار البرتغالي «بارتولوميو دياز Bartholomew Diaz» حول «رأس العواصف The Cape of Storms» (أُعيد تسميتها بـ «رأس رجاء الصالح The Cape of Good Hope» بواسطة جون الثاني ملكِ البرتغال)، بعد ذلك كان التأكد من أن الطريق إلى الهند مسألةُ وقت.

كان من الطبيعي أن تجعل الخصومة القديمة بين إسبانيا والبرتغال، الإسبانَ يفضِّلون البديلَ الثاني وهو الاتجاه غربًا، وعندما راح كولومبوس يُقنِع فرديناند وإيزابيلا بمزاياه، كانا مهيأين لذلك إلى حدٍّ بعيد. ولكن الهدف الرئيسي من رحلته، كان كما هي العادة دائمًا بالنسبة للمستكشفين الإسبان، مكوَّنًا من شقين؛ الذهب والإنجيل. من جزر الهند الشرقية (التي كان يعتقد أن جزءًا منها قد تم تنصيره على يد سان توماس)، كان يعتقد أن بالإمكان بدء تجارة مربحة في سلع الشرق الخرافية بمساعدة الخان الأعظم (وكان شخصية أسطورية ويعتقد أنه كان محبًّا للمسيحية وإن لم يكن هو نفسه مسيحيًّا)، وكذلك نشر المسيحية في شبه القارة المجهولة تلك. من هنا كان العرض الذي وجد طريقه إلى قلب الملكة مباشرة. صحيح أن مملكتها كانت — نظريًّا — قد خلت من «وصمة الإسلام»، ولكن التقدم العثماني في شرق ووسط البحر الأبيض كان ما زال قويًّا، ولم تكن هناك أي مؤشرات على أنه سيهدأ. كان قد وصل إلى إيطاليا حيث كانت جماعات الأتراك غير النظامية قد اجتاحت «فريولي Friuli» وتخرِّب الريف وتقترب من فينيسيا؛ حيث كان يمكن رؤية اللهب المتصاعد من القرى المشتعلة، من أعلى برج كنيسة سان مارك. في ١٤٨٠م، كان السلطان قد أطلق أسطولًا قوامه مائة سفينة على ميناء «أوترانتو Otranto» في «كالابريا Calabria» وطوَّقه دون صعوبة. الآن كانت نابولي مهدَّدة، حتى روما نفسها. كان لا بد إذن من أن يتصرف العالم المسيحي بشكل حاسم، وكان ذلك واضحًا، ولكن كيف؟ كان البابا بيوس الثاني قد حاول مرتين القيامَ بحملة صليبية أخرى ولكنه لم يجد استجابة، على أية حال كان الجيش العثماني مكونًا من جنودٍ محترفين وعلى مستوًى عالٍ من التدريب، ولن يقهر في مواجهة مباشرة.

ربما كان حلُّ المشكلة هنا؛ الاقتراب من الجيش التركي من جهة الشرق والهجوم على مؤخرته، حيث يمكن أن يكون ضعيفًا وربما بلا حماية. لم تتردد إيزابيلا. كانت كما تعتقد لا تموِّل تدشين طريق جديد ومهم للتجارة فحسب، وإنما كانت تتخذ أول خطوة استكشافية ضرورية نحوَ ما قد يكون آخر حملة صليبية ضد «الكفار». كان فرديناند متحمسًا كذلك؛ وفيما بعد سوف يزعم كولومبوس أنه هو الذي رسم ابتسامةً على شفتَي الملك، عندما قال إن أرباح هذه العملية كبيرة، وسوف تغطي نفقات غزو أورشليم. ربما كانت تلك الابتسامة بالطبع ابتسامةً ساخرة، ولكن فرديناند لم يكن قد نسي النبوءة القديمة عن ذلك «الأمير المنتظَر» الذي سيرفع رايته على المدينة المقدسة ويحكم العالم. أعطى هو وإيزابيلا موافقتهما الرسمية في السابع عشر من أبريل ١٤٩٢م، واضعين

تحت تصرُّف كولومبوس المراكبَ الشراعية الصغيرة الثلاث — كان أكبرها أطولَ من مائة قدم بقليل — التي كانت قد غيَّرت ذلك العالم على نحوٍ غير مسبوق.

قصة كريستوفر كولومبوس ورحلته الملحمية ليست قصتنا، إلا أنها مهمة بالنسبة لنا لِما لها من أثرٍ على مصائر المتوسط. قبل خمس سنوات، فحسب، كانت قد أبحرت «نينا Nina» و«بنتا Pinta» و«سانتا ماريا Santa Maria»، وكان «دياز Diaz» قد أبحر حول «الرأس The Cape»؛ وبعد ذلك بست سنوات، أي في العشرين من مايو ١٤٩٨م، كان مواطنه «فاسكو دا جاما Vasco da Gama» قد رسا في «كالكوتا Calicut» (كوجيكود Kozhikode) على ساحل مالابار في الهند. لم تكن زيارةُ دا جاما ناجحةً تمامًا، لم يكن أحدٌ يريد البضائع الرديئة التي عاد بها، ويبدو أنه كان قد استعدى مضيِّفه بسبب عجرفته وعدوانيته. كذلك فإن رحلة العودة لم تنجُ من سوء الحظ. لم يلحق بالرياح الموسمية التي كان يمكن أن تساعده، ومات ثلاثون من بحَّارته بالأسقربوط، ولا نعرف حتى تاريخ عودته إلى لشبونة؛ ولكن المؤكد أنه عاد وسط تهليل صاخب. لم يكتشف طريقًا بحريًّا يصل إلى الهند فحسب، بل أثبت كذلك أن السفن البرتغالية كانت قادرة — فقط — على الذهاب إلى هناك والعودة.

كان لا بد من أن يمرَّ قرن وربما أكثر، قبل أن يُستخدم طريق رأس الرجاء الصالح بانتظام، وعلى مدى القرن السادس عشر ستكون هناك حركة مرور كبيرة عبر المتوسط. ولكن، من الآن فصاعدًا كانت الكتابة على الحائط. حتى عندما كان الأتراك لا يسبِّبون مشاكل — وكانوا غالبًا ما يفعلون — فإن كل الشحنات المتجهة إلى الشرق اللاتيني وما وراءه، وبعد ذلك كانت إما أن تُنقل بالبر إلى البحر الأحمر المُبتلى بالقراصنة، أو أن يُعهد بها لبعض قوافل الجمال البطيئة التي قد تقضي عامين وربما ثلاثة أعوام قبل أن تبلغ مقصدها. الآن، كان التجار يستطيعون التطلع إلى وقتٍ يمكنهم فيه الإبحار من لندن أو لشبونة، ويصلون إلى الهند أو «كاثاي Cathay» على نفس السفينة. في الوقت نفسه، كان العالم الجديد — بفضل كولومبوس ومَن جاءوا بعده — يبدو أكثرَ فائدة من القديم، يمتلك ثروة خرافية، كان نصيب الأسد منها يذهب إلى إسبانيا وبشكل قانوني كذلك. في غضون سبعة أشهر فقط من أول هبوط لـ «كولومبوس» على اليابسة، أصدر البابا ألكساندر أولَ مرسوم من مراسيمه الخمسة لتسوية الادعاءات المتنافسة لكلٍّ من إسبانيا والبرتغال بخصوص المناطق المكتشَفة حديثًا،[٥] وفي غضون خمسة وعشرين عامًا، كانت السفن الشراعية الضخمة (الغليونات Galleons) تعود بانتظامٍ إلى مواطنها محمَّلة

حتى حوافها بالغنائم. لا عجب إذن، أن تكون أعينُ خلفاء فرديناند وإيزابيلا على الغرب وبإصرار، أما أورشليم فكان يمكن أن تنتظر.

لم يكن واضحًا آنذاك أن هذا الفتح المفاجئ للمحيط من الجانبين، قد وجَّه ضربةً لتجارة المتوسط قد تصيبها بالشلل. بالتدريج، بدأ الناس يدركون، على الأقل من وجهة النظر التجارية، أن البحر الأبيض المتوسط قد بات منطقةً مائية معزولة. كان المرور إلى شرق الأدرياتيكي صعبًا ويعتمد على حسن الحظ، وكان المرور إلى غربه ما زال ضروريًّا بالنسبة لإيطاليا ولا غنًى عنه؛ أما فرنسا فكانت في تلك الأيام تجد موانئها الشمالية على القنال الإنجليزي أكثرَ فائدة من مرسيليا أو طولون؛ بينما كانت إسبانيا، التي كانت تدخل آنذاك سنوات عظمتها، لديها الآن سَمكٌ آخرُ أفضل للشي. سيكون على المتوسط أن ينتظر ثلاثمائة سنة أخرى، إلى أن يتم شق قناة السويس، لكي يستعيد أهميتَه القديمة.

ظل البحر الأبيض المتوسط، كما كان دائمًا، ساحةَ قتال. في إيطاليا كذلك كان العام ١٤٩٢م معلمًا مهمًّا. شهد ذلك العام موتَ كلٍّ من «لورنزو دي ميديشي Lorenzo de Medici» (لورنزو العظيم)، وحاكم فرنسا، وبعد ثلاثة أشهر شهد موتَ البابا إنوسنت الثامن. لورنزو، الذي نتذكره أساسًا بسبب رعايته للفنون والآداب، كان هو المسئول كذلك، إلى حدٍّ كبير، عن الحفاظ على التوازن بين الدول الإيطالية، وكان توازنًا ضعيفًا دائمًا. فبالإبقاء على التحالف بين فلورنسا وميلانو ونابولي، وفَّر بؤرةً للقوى الأصغر مثل مانتوا وفيرارا وبعض الدول البابوية، كما لجمَ طموحات فلورنسا الخطرة. بموته وخلافة ابنه الصغير «بييرو Piero»، ضاع هذا النفوذ المعتدِل. رغم كل فساد البابا إنوسنت، ومحاباته لأهله وأقاربه، كان قوةَ سلام. الإسباني «رودريجو بورجيا Rodrigo Borgia»، الذي خلَفه ليكون البابا إلكساندر السادس، كان كلُّ همه أن يحصل على كلِّ ما تقع عليه يده. مرةً أخرى أصبحت إيطاليا معرَّضة للهجوم ... ولم يكن ذلك الهجوم لينتظر طويلًا.

كانت نابولي هي «ذريعة الحرب The Casus belli». بالرغم من أنها كانت ما زالت تطالب بـ «صقلية» كجزء من أملاكها، كان قد تم فصلها عن الجزيرة منذ «صلوات المساء الصقلية The Sicilian Vespers» عندما تم طردُ «آل أنجو Anjou» من قِبل «آل أراجون Aragon»، وانسحبوا إلى البر الرئيسي. في ١٤٣٥م كان خط النَّسب الأنجوي قد انقرض مع الملكة جوانا الثانية، أما عرش البر الرئيسي في نابولي، الذي كانت قد تركته لقريب لها من آل أنجو، فكان قد استولى عليه ألفونسو الأراجوني حاكمُ الجزيرة. الآن

كانت المملكتان في حكم المتحدتين وإن احتفظت كلتاهما بهويتها الخاصة؛ وعند موت ألفونسو في ١٤٥٨م انفصلتا مرةً أخرى، أما البر الرئيسي فقد آل إلى ابنه غير الشرعي فرديناند.[٦] ورِث فرديناند ما استمرَّ أن يكون عرشًا ينتمي إلى العصور الوسطى في كل المجالات المهمة. كانت المبادئ الإقطاعية ما زالت سائدة، ولم يكن أحدٌ قد سمِع بالحريات المحلية على النموذج الشمالي. كان الملك الجشِع، القاسي، القادر في الوقت نفسه، كان مرهوبَ الجانب مكروهًا من رعاياه، مثلما كان ابنه ألفونسو الذي خلَفه في يناير ١٤٩٤م. ولكن ذلك الحفيد غير الشرعي لمغتصِب العرش، لم يكن لمطالبته بالعرش أيُّ أساس قوي بإجماع الكل. كان وضع ألفونسو عرضةً لتحدٍّ كبيرٍ، وجاء هذا التحدي في الحادي والعشرين من سبتمبر ١٤٩٤م، عندما قاد «شارل الثامن Charles VIII» ملكُ فرنسا، البالغُ من العمر اثنين وعشرين عامًا، جيشًا قوامه نحو ألف مقاتل إلى إيطاليا، مطالبًا بعرش نابولي، باعتباره من نسل شارل الأنجوي. كان شارل الثامن ملكُ فرنسا هذا، يوصف بأنه «شابٌّ أحدَب فاسق مشكوك في سلامة قواه العقلية»، وذلك على حد تعبير المؤرِّخ «إتش. إيه. إل. فيشر H. A. L. Fisher». على الفور، اندلعت مرةً أخرى الخصومةُ القديمة بين آل أنجو وآل أراجون.

لم يكن مظهر شارل هو ذلك المظهر المتوقَّع لمغامر عسكري شاب. في تقرير للسفير الفينيسي في ذلك العام نقرأ: «سموه ضئيل الحجم، مشوَّه، قبيح الملامح، له عينان قبيحتان قصيرتا النظر، وأنف أكبر من الطبيعي، وشفتان غليظتان منفرجتان دائمًا، ويأتي بيديه بحركاتٍ تشنجية تجعل منظرهما مقززًا، ويتكلم ببطء شديد.» كان العام ١٤٩٢م عامًا مهمًّا كذلك بالنسبة له؛ لأنه كان العام الذي تحرَّر فيه من السيطرة الصارمة للوصية السابقة: شقيقته الكبرى «آن دو بوجو Anne de Beaujeu». المؤكَّد أنها ما كانت لتشجِّع على مغامرة من ذلك النوع الذي كان شقيقها عازمًا عليه، والذي كان وزراؤه يبذلون كلَّ جهدهم لإثنائه عنه، بينما كان هو يعتقد أن لديه ما يبرِّره. كان يقول إنه لم تكن لديه أيُّ رغبة في غزو أراضي الآخرين، ولكنه كان يدَّعي أن تلك الأراضي من حقه، ومن بينها — بلا شك — مملكة نابولي. وكان هناك اعتبار آخر؛ على مدى القرون الثلاثة السابقة، كان لقب ملك أورشليم مرتبطًا بتلك المملكة، وهو ما قد يحقِّق له المكانة الضرورية بمجرد أن تتأكد ممتلكاته الإيطالية، لكي يقوم بقيادةِ حملة صليبية كان يحلُم بها، وكانت قد تأخَّرت طويلًا.

عندما بدأت الحملة كانت مبشِّرة بالنجاح. شارل وابن عمه دوق أورليانز وجيشه — خيَّالته من النبلاء وعلية القوم في فرنسا — حَمَلة الرماح الألمان، الرماة الجاسكون،[٧]

مدفعيته الخفيفة سريعة الطلقات كلهم عَبَروا الألب دون حوادث عن طريق ممرِّ مونت جينيفر، وكان قد تم نقل مدفعيته الثقيلة بالبحر إلى جنوة. استقبلته ميلان بقيادة حاكمها اللامع القوي «لودوفيكو سفورزا Ludovico Sforza» بحماسة، وكذلك «لوكا Lucca» و«بيزا Pisa»؛ وفي فلورنسا استقبله المبشِّر الدومينيكاني «جيرولامو سافونا رولا Girolamo Savonarola» باعتباره محرِّرًا، واستغل الملك الفرصةَ لطرد «بييرو دي ميدشي Pierode' Medici» الذي لم تكن تبدو عليه أيُّ سمة من سمات رجل الدولة مثل والده لورنزو. في الحادي والثلاثين من ديسمبر، فتحت روما أبوابها، بينما انزوى البابا ألكساندر مرتعدًا في «كاستيل سانت أنجلو Castel Sant Angelo»، قبل أن يصلَ فجأةً إلى اتفاق. وأخيرًا في الثاني والعشرين من فبراير ١٤٩٥م، دخل شارل نابولي، بينما استقبله شعبُها - الذي لم يكن يرى في بيت آل أراجون سوى أنهم مستبدون أجانب — بحماسة شديدة. فرَّ خصومه الأراجون إلى صقلية، وفي الثاني عشر من مايو، تم تتويج شارل ملكًا للمرة الثانية.

لم يبقَ طويلًا في مملكته الجديدة؛ إذ كان نجاحه قد بدأ يتحوَّل إلى مرارة. أهالي نابولي، الذين كانوا سعداء بتخلُّصهم من آل أراجون، سرعان ما اكتشفوا أن لا فرق بين محتلٍّ أجنبي وآخر. كلهم سواء بسواء. انتشر القلق والاضطرابات بين سكان الكثير من المدن الصغيرة، الذين اكتشفوا أنه كان عليهم أن يتحملوا — دون سبب معقول يمكن فهْمه — حامياتٍ فرنسية ساخطة وفاسقة غالبًا. خارج مملكة نابولي كذلك، كان الناس قد بدءوا يشعرون بالقلق. حتى تلك الدول، الإيطالية والأجنبية التي كانت في السابق قد اعتبرت تقدُّم شارل لا يمثل خطورة، حتى تلك الدول بدأت تتساءل عن المدى الذي ينوي ذلك الفاتح الشاب الوصولَ إليه. قرَّر فرديناند وإيزابيلا إرسالَ أسطول إلى صقلية؛ وقام الإمبراطور الروماني المقدس المنتخَب مكسميليان،[٨] هو الآخر باستعداداته، مرعوبًا من فكرةِ أن تؤديَ نجاحات شارل به إلى المطالبة بالتاج الإمبراطوري؛ البابا ألكساندر، الذي لم يكن سعيدًا قط بـ «شارل»، أصبح أكثرَ توترًا؛ حتى لودوفيكو سفورزا، ملكُ ميلان، الذي كان قد بات منزعجًا مثل الآخرين، أصبح قلقًا بسبب الوجود المستمر لدوق أوليانز في «آستي Asti» القريبة، والذي كان يطالب بـ «ميلان» عن طريق جَدَّته الدوقة «فالينتينا فيسكونتي Valentina Visconti»، وكان يدرك أن تلك المطالبات ليست أقلَّ قوةً من مطالبات شارل بـ «نابولي». كانت النتيجة هي تكوين ما سُمي بـ «الرابطة المقدسة The Holy League»، التي كانت مسالِمة في الظاهر، بيد أنه كان لها في الحقيقة هدفٌ واحد، وهو أن يحمل الملك الجديد عصاه ويرحل.

عندما وصلت أخبار الرابطة إلى شارل في نابولي استشاط غضبًا، ولكنه لم يهوِّن من شأن الخطر الذي كان يواجهه آنذاك. بعد أسبوع واحد من تتويجه، ترك مملكتَه الجديدة إلى الأبد واتَّجه شمالًا، متخذًا الساحل الغربي لشبه الجزيرة إلى «لاسبيزيا La Spezia»، ثم انعطف إلى اليمين على امتداد الطريق الجبلي الذي سيوصله إلى السلسلة الشمالية من «الأبنين The Appennines»، ثم ينحدر مرةً أخرى إلى لومبارديا. حتى في منتصف الصيف، لا بد من أن يكون القيام بجرٍّ مدفعية ثقيلة فوق ممر جبلي، أشبهَ بكابوس ثقيل. كان الصعود شديدَ الصعوبة، وكذلك كانت رحلة النزول، وربما كانت أسوأ. كان الأمر يحتاج أحيانًا إلى ما يقرُب من مائة جندي ممن أصابهم الإرهاق الشديد، كل اثنين منهم موثقَين معًا، يعملون على منع مدفع واحد من المدافع الثقيلة من الاندفاع بسرعةٍ من أعلى جرف شديد الانحدار، وإن لم يتصرفوا بسرعة، كان لا بد من أن يجرفَهم معه. وأخيرًا، في الخامس من يوليو، كان شارل يستطيع أن يطل على مدينة «فورنوفو Fornovo» الصغيرة، التي كان ينتشر خلْفها نحو ثلاثين ألف جندي من الرابطة، تحت قيادة «فرانسيسكو كونزاجا Franncesco Conzaga»، ماركيز مانتوا.

كان جيش جونزاجا متفوقًا في كل شيء. كان يفوق الجيش الفرنسي عددًا بنسبة ثلاثة — وربما أربعة — إلى واحد، وكان مستقرًّا في مكانه، ولديه ما يكفيه من المؤن، وكان لديه وقتٌ كافٍ لاختيار مواقعه والاستعداد للمواجهة القادمة. على العكس من ذلك، كان الجيش الفرنسي منهكًا وجائعًا وغيرَ راغب في القتال. ولكنهم قاتلوا. الملك نفسه قاتل بشجاعة مثل الآخرين. كانت المعركة هي الأكثر دموية في تاريخ إيطاليا على مدى مائتي عام. على أية حال، لم تستمر طويلًا، وبحسب رواية «فيليب دي كومين Philippe de Commines»، السفيرِ الفرنسي في فينيسيا، الذي كان موجودًا، انتهى كل شيء في غضون ربع ساعة. حاول كونزاجا أن يعتبر ذلك انتصارًا، لدرجةِ أنه عندما عاد إلى مانتوا، بنى «كنيسة انتصار Chiesetta de Vittoria»، مزوَّدة بلوحةِ مذبح خاصة بواسطة «مانتجنا Mantegna»، رغم عدم موافقة كثيرين. الفرنسيون اعترفوا بأنهم خسِروا قافلة تموينهم، ولكن خسائرهم كانت لا تُذكر مقارنةً بخسائر الإيطاليين الذين فشلوا تمامًا في إيقافهم، كما ظهر عندما واصل شارل ورجاله تقدُّمهم في تلك الليلة نفسها، ليصلوا إلى «آستي Asti» دون عقباتٍ بعد أيام قليلة.

وهناك، كانت أخبارٌ سيئة في انتظارهم. كانت حملةٌ بحرية فرنسية على جنوة قد فشِلت، ونتج عنها أسرُ معظم الأسطول. كان لويس ملكُ أورليانز محاصرًا في «نوفارا Novara» من قِبل جيش ميلان، ولم يكن من المحتمَل أن يصمد طويلًا؛ وكان

فيرانتينو بن ألفونسو قد رسا في «كالابريا Calabria» حيث كان يتقدَّم بسرعة نحو نابولي، مدعومًا بقواتٍ إسبانية من صقلية. في السابع من يوليو ١٤٩٥م أعاد احتلال المدينة. فجأةً تبخَّرت كل انتصارات العام السابق الفرنسية. وفي شهر أكتوبر، نجح شارل في التوصُّل إلى اتفاق مع سفورزا أنهى تأثير الرابطة؛ بعد أسبوع أو اثنين قاد جيشه عائدًا عبْر الألب، تاركًا أورليانز خلْفه لكي تحافظ على وجودٍ فرنسي على قدرِ ما استطاع.

على العكس من ذلك، كان أن تركت مغامرة شارل الإيطالية أثرَها الدائم في أوروبا الشمالية. عندما سرَّح جيشه من الخدمة في ليون في نوفمبر ١٤٩٥م، تشتَّت جنوده في القارة مع حكاياتٍ عن بلاد دافئة تغمرها الشمس، يسكنها شعبٌ رفاهيته الثقافية أكثرُ مما هو معروف في المناخات الباردة الكئيبة في الشمال، ولكنهم كانوا مفكَّكين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد كل محتل عنيد. عندما انتشرت الرسالة، وعندما بدأ الرسامون والنحاتون وعمال الجص والحفر على الخشب الذين عاد بهم شارل معه من إيطاليا يحوِّلون قلعتَه القديمة في «أمبواز Amboise» إلى قصرٍ من قصور النهضة، أصبحت إيطاليا مرغوبةً أكثر في عيون جيرانها الشماليين، مقدِّمة لهم دعوةً وتحديًا، لم يكونوا بطيئين في تبنِّيها في السنوات التالية.

المرتزقة الذين كان قد تم تسريحهم حملوا معهم كذلك شيئًا آخر، كان مهلِكًا أكثرَ من أيٍّ من أحلام الغزو. سفن كولومبوس الثلاث التي عادت إلى إسبانيا من الكاريبي في ١٤٩٣م، جاءت معها بأول حالات الزهري التي عرفها العالَم القديم؛ وعن طريق المرتزقة الإسبان الذين أرسلهم فرديناند وإيزابيلا لمساعدة الملكِ ألفونسو، كان المرض قد انتشر بسرعة في نابولي؛ حيث كان قد تفشَّى عند وصول شارل. بعد ثلاثة أشهر من الاسترخاء والخلو من الهم (dolce far nient)، كان لا بد أن يصاب رجاله بدورهم بالعدوى، وكل الدلائل المتاحة كانت توحي بأنهم كانوا المسئولين عن جلبِ المرض إلى شمال الألب. وبحلول عام ١٤٩٧م، كانت التقارير تفيد أن المرض كان قد وصل إلى «أبردين Aberdeen». في ذلك العام وصل فاسكو دا جاما إلى الهند؛ حيث سجل دخول المرض في ١٤٩٨م، وبعد سبع سنوات كان قد انتقل إلى «كانتون Canton».

ولكن مهما كانت سرعة انتشار «المرض الفرنسي» morbo gallico — كما أُطلق عليه — فإن الموت جاء شارل الثامن على نحوٍ أكثرَ سرعة. في «أمبواز Amboise»، ليلة أحد السعف في العام ١٤٩٨م، وبينما هو في طريقه لمشاهدة فعالية رياضية في ملعب القلعة ارتطم رأسه بعَرَقة باب منخفضة، مضى في طريقه وشاهد المباراة، وفي طريق

عودته إلى مقر إقامته سقط على الأرض عند المكان الذي وقع فيه الحادث. رغم أن المكان كان أقذرَ أركان القلعة و«مكانًا للتبول»، كما يقول «كومينيس Commines» بازدراء، كان من رأي مرافقيه ألا يحركوه، وهناك أرقدوه على حشيةٍ خشنةٍ لمدة تسع ساعات … وقبل منتصف الليل كان قد فارق الحياة.

وحيث إن ابن شارل الوحيد كان قد مات في طفولته، انتقل العرش إلى ابن عمِّه دوق أورليانز، الذي سيُعرف باسم لويس الثاني عشر. بالنسبة لحكام إيطاليا الذين كان لهم دراية واسعة بـ «لويس» في سنواته الحديثة، كانت خلافته تعني شيئًا واحدًا فحسب: غزوًا جديدًا لشبه الجزيرة، وهذه المرة ليس لتبرير مطالبة آل أنجو بـ «نابولي» فحسب، بل وتبرير مطالبة الأوليانز بـ «ميلان». لم يدهشهم على الإطلاق أن يسمعوا أن الملك الجديد كان قد اتخذ لنفسه لقبَ دوق ميلان عند تتويجه. كان تفوُّق الأسلحة الفرنسية قد ظهر في فورنوفو، كما أن الجيش الذي كان لويس يجهِّزه كان مبشرًا بأن يكون أكبرَ وأفضلَ تجهيزًا وتنظيمًا من جيش سلفه. كان البابا ألكساندر يمكن أن يعترض، ولكن لويس تمكَّن من شرائه دون صعوبة، بأن أعطى ابنه «سيزار Cesare» (الذي كان قد سئم منصب الكاردينال وقرَّر أن يترك الكنيسة مفضلًا حياةَ المغامرة العسكرية) دوقيةَ «فالينتنوا Duchy of Valentinois» الغنية، وساعده في الزواج من «شارلوت دالبرت Charlot d'Albret» شقيقةِ ملك «نافار Navarre».

في منتصف أغسطس ١٤٩٩م كانت غزوته الثانية. في الثاني من سبتمبر هرب الدوق لودوفيكو سفورزا بكنزه إلى «تيرول Tyrol»، وفي السادس من أكتوبر كان الدخول المهيب للملك لويس إلى فرنسا، عاد سفورزا إلى المدينة — ولكن جيش الملك كان قويًّا بكل تأكيد — وفي أبريل تم أسرُ الدوق ولم يستعِد حريته بعد ذلك. إلا أن ذلك لم يكن كافيًا لكي يشعر لويس بالرضا. كانت نابولي تلوِّح له وكأنها تناديه؛ وكان شارل ابن عمه فاز بالمدينة ثم فقدها، أما هو، فكان لا بد من أن يكون أكثرَ حذرًا. في نوفمبر ١٥٠٠م، وقَّع مع فرديناند ملكِ أراجون اتفاقيةَ غرناطة السرية، التي سيقوم بموجبها الحاكمان بغزو نابولي مشارَكة. في مقابل تحالفه، أو على الأقل عدم تدخُّله، سيحصل فرديناند على نصف المملكة بما في ذلك إقليما «أبوليا Apolia» و«كالابريا Calabria». أما لويس، فستكون نابولي نفسها و«جايتا Gaeta» و«أبروزي Abruzzi» من نصيبه. أعطى البابا موافقته في الوقت المناسب، وفي مايو ١٥٠١م كان الجيش الفرنسي في طريقه، مدعومًا بأربعة آلاف من المرتزقة السويسريين.

أول أخبار التحالف التي وصلت إلى «فيديريكو Federico» ملكِ نابولي شقيقِ وخليفةِ «فيرانتينو Ferrantino»، الذي كان قد مات بعد عودته إلى مدينته مباشرة، جاءت من روما، كانت على هيئة مرسوم بابوي بإزاحته من منصبه وتقسيم مملكته حسب الشروط التي كان قد تم الاتفاق عليها في غرناطة. آوى إلى جزيرة «إسكيا Ischia»، وبعد فترة قَبِل عرْض لويس باللجوء إلى فرنسا. بعد يومين من رحيله، احتلت الحاميات الفرنسية قلاعَ نابولي، بينما اتجهت قواتٌ أخرى شمالًا إلى أبروزي. في الوقت نفسه احتل القائد الإسباني الشهير «جونزالو القرطبي Gonzalo de Cordoba» حصةَ سيده في المملكة.

ولكن من أسفٍ أن اتفاقية غرناطة خلَّفت أسئلةً كثيرة دون إجابة. لم تذكر أيَّ شيء عن إقليم «كابيتاناتا Capitanata» الواقعِ بين أبروزي وأبوليا، ولا عن «الباسيليكاتا Basilicata» الواقعةِ على مشط قدم إيطاليا بين أبوليا وكالابريا. قد يعتقد المرء أنه كان بالإمكان تسويةُ تلك الأمور الخلافية بأساليبَ وديةٍ، ولكن ذلك لم يحدث. وبحلول يوليو، كانت الحرب بين فرنسا وإسبانيا مشتعلة. استمر القتال على نحوٍ متقطِّع قرابة عامين، وفي النهاية كان النصر حليف الإسبان الذين سحقوا الجيشَ الفرنسي في ١٥٠٣م في «سيريجنولا Cerignola»، وفي السادس عشر من مايو دخل «جونزالو Gonzalo» نابولي. في الأيام الأخيرة من ديسمبر، هجم على الفرنسيين مرةً أخرى عند نهر «جارجليانو Garigliano»، وكانت المعركة هذه المرة حاسمةً لكي تنهيَ الوجود الفرنسي في نابولي. استسلمت «جايتا Gaeta»، آخرُ حامية فرنسية في المملكة للقوات الإسبانية في الأول من يناير ١٥٠٤م. منذ ذلك أصبح حكمُ آل أراجون في أراضي المملكة الرئيسية، كما في صقلية وإسبانيا، دون منافس.

عند هذه المرحلة من القصة يتحوَّل الضوء مؤقتًا إلى قبرص. قبل نحو قرنين ونصف القرن، كان ريتشارد قلب الأسد، قد منح الجزيرة لـ «جاي اللوزيناني Guy of Lusignani»، وبالرغم من أنها من وقتٍ لآخر كانت تقع تحت نفوذ أجنبي — وبخاصة النفوذ الجنوي في ١٤٢٦م — فإن بيت آل لوزينان كان مستمرًّا في حكمها. في ١٤٦٠م على أية حال، كان «جيمس اللوزيناني James of Lusignan»، الابنُ غيرُ الشرعي للملك السابق جون الثاني، قد استولى على العرش من أخته الملكةِ «شارلوت Charlotte» وزوجِها «لويس ملكِ سافوي Louis of Savoy»، مجبرهما على اللجوء إلى قلعة «كيرينيا Kyrenia» لمدة ثلاث سنوات، قبل أن يتمكَّنا من الهرب إلى روما. بمجرد أن أصبح ملكًا، كان جيمس في حاجةٍ لحلفاء، وعندما عاد إلى فينيسيا طلب رسميًّا يد «كاترينا Catherina» الابنةِ

الصغرى الجميلة لـ «ماركو كورنارو Marco Cornaro» (أو كورنر Corner كما ينطقها الفينيسيون)، الذي كان لأسرته ارتباطٌ طويل بالجزيرة. كان ماركو نفسه قد عاش هناك عدةَ سنوات وأصبح صديقًا حميمًا لـ «جيمس»، الذي قام بعدة مهام دبلوماسية دقيقة له، بينما سيصبح «أندريا Andrea»، عمُّ كاترينا، بعد وقت قصير مدققًا لحسابات المملكة. من ناحية الأم، كانت سلسلةُ نَسبها متميزة؛ حيث كان لها أن تزهوَ بجَدٍّ لا يقل منزلةً عن «جون كومنينوس John Comnenus» إمبراطور «تريبيزوند Trebizond».[٩]

توقُّع ملكةٍ فينيسية لقبرص، كان أكثرَ ما يمكن أن تقاومه حكومة «سيرينيسيما Serenissima»، وخشيةَ أن يغيِّر جيمس رأيه، تم الترتيب لزواجٍ بالوكالة. في العاشر من يوليو ١٤٦٨م، وبكل الأبهة والفخامة التي تعرفها الجمهورية، جاءت كاترينا ذات الأربعة عشر ربيعًا برفقة حاشيةٍ من أربعين عقيلة من النبلاء من «بالازو كورنر Palazzo Corner» في سان بولو إلى قصر الدوج، وهناك سلَّم الدوج «كريستوفرو مورا Cristofro Mora» خاتمًا للسفير القبرصي ليضعه في إصبع العروس نيابةً عن مليكه. أُعطيت لقب «ابنة سان مارك» وهو تكريمٌ غير مسبوق، جعل رئيس أساقفة تورين يعلن ساخرًا بأنه لم يكن يعرف أن سان مارك كان متزوجًا؛ وحتى لو كان، فلا بد من أن زوجته كانت أكبرَ من أن يكون لها ابنةٌ في الرابعة عشرة. بعد أربع سنوات، في العاشر من نوفمبر ١٤٧٢م، أبحرت كاترينا ترافقها أربع سفن إلى مملكتها الجديدة.

في العام التالي، على أية حال، مات الملكُ جيمس فجأةً في سن الثالثة والثلاثين تاركًا زوجته حاملًا. لم يكن هناك أساسٌ للشك في موته مسمومًا، ولكن فينيسيا التي كانت تخشى حدوثَ انقلاب يطيح بـ «كاترينا» وينصِّب «شارلوت»، لم تكن لتخاطر بتركِ الأمور للمصادفة. فورًا، أرسل الجنرال «بيترو موسينيجو Pietro Mocenigo» أسطولًا إلى قبرص، ظاهريًّا لحماية الملكة الصغيرة، ولكن الحقيقة كانت حماية مصالح فينيسيا، مع أوامر بإزاحة كل المشكوك في ولائهم من مواقع السلطة والنفوذ. كون قبرص دولةً مستقلة ذات سيادة لم يكن مؤرقًا للجمهورية على الإطلاق، وكان لدى موسينيجو تعليمات بأن يعمل من خلال الملكة بقدرِ الإمكان، ولكنه كان مفوَّضًا كذلك باستخدام القوة عند الضرورة.

من أسفٍ أن الإجراءات التي اتخذها لم تسفر سوى عن زيادة الاستياء الذي كان يشعر به نبلاء قبرص، بسبب تدخُّل الفينيسيين المستمر في شئونهم؛ وسرعان ما تجسَّدت مؤامرة تحت قيادة رئيس أساقفة نيقوسيا، فقبْل ثلاث ساعات من فجر اليوم الثالث عشر

من نوفمبر ١٤٧٣م، شقَّت جماعة صغيرة — تضم كبير الأساقفة نفسه — طريقَها نحو القصر في فاماجوستا وقتلت ياورَ الملكة وطبيبها أمام عينيها. بعد ذلك قامت بمطاردة عمِّها أندريا كورنر وابن عمِّها «ماركو بمبو Marco Bembo»، ليلقى كلاهما المصيرَ نفسه، وأُلقيت جثتاهما في الخندق الجاف تحت نافذتها حيث بقيتا حتى أتت كلاب المدينة عليها. في آخرِ الأمر أُجبِرَت كاترينا على الموافقة على خطوبةِ الابن غير الشرعي لملكِ نابولي، وعلى أن تعترف بالأخير وريثًا لعرش قبرص، رغم حقيقةِ أن جيمس كان قد أورثها المملكة، وكانت قد أنجبت طفلًا من صلبها.

تمكَّن موسينيجو بسرعةٍ من أن يلقيَ القبض على المسئولين، وكان واحد أو اثنان — منهما رئيس الأساقفة — قد هربا. تم إعدام زعماء الفتنة الآخرين وسُجن الباقون. تم إبطال الترتيبات الجديدة للخلافة، وأرسل مجلس النواب الفينيسي اثنين من نبلاء الأرستقراطية الموثوقين، بلقب مستشار، لتولي إدارة شئون حكم الجزيرة باسم كاترينا. ظلت الملكة البائسة على العرش ولكن دون صلاحيات. ابنها الرضيع جيمس الثالث، مات في ١٤٧٤م، بعد عام بالتحديد من مولده؛ ومنذ ذلك الحين كان عليها أن تواجه مكائدَ سلفتها شارلوت من ناحية، ومكائد ألفونسو الشابِّ ملكِ نابولي من ناحية أخرى، بينما كان نبلاء الجزيرة الذين كانوا يرونها دميةً فينيسية أكثرَ منها ملكة، يحيكون المؤامرات ضدها باستمرار. بقاؤها، كما كانت تعرف جيدًا، كان في أيدٍ فينيسية. في مرحلةٍ ما، كانت تشكو هي ووالدها من أن حُماتها كانوا قد أصبحوا أقربَ إلى السجَّانين؛ إذ كان محظورًا عليها مغادرة القصر. تم سَحبُ خَدَمِها، وكانت مجبرة على تناول وجباتها وحيدةً على طاولة خشبية صغيرة. ابنة سان مارك، أو ليست ابنة سان مارك، كان الآن واضحًا بالنسبة لها أنها لم تَعُد سوى عبء، سواء على رعاياها أو على الجمهورية، وأنهم لن يترددوا في التخلص منها في الوقت المناسب.

منذ ١٤٦٢م كانت قبرص خاضعةً لسلطان مصر الذي كانت تدفع له جزيةً سنوية قيمتها ثمانية آلاف دوكاتية؛[١٠] وكان يمكن أن يؤديَ ضمُّها المباشر إلى تعقيدات دبلوماسية قد لا تقدِر عليها فينيسيا، ولكن ما حدث هو أن سلطان مصر أرسل إلى كاترينا يحذِّرها، بأن السلطان العثماني بايزيد كان يجهِّز لحملةٍ كبيرة ضده، وكان من المرجَّح أن يقوم بمحاولة على قبرص في طريقه. هذا التطور الذي كان يحمل أفقَ تحالفٍ بين مصر وفينيسيا ضد عدوٍّ مشترك، ربما يكون قد شجَّع مجلس النواب على القيام بعملٍ حاسم. ما ساعد على ذلك بالتأكيد، كان اكتشاف مؤامرةٍ أخرى في صيف ١٤٨٨م، كانت هذه

المرة بهدف تأمين زواج كاترينا وألفونسو ملكِ نابولي. كان ذلك احتمالًا لا يمكن أن يطرأ على بالِ أحد. في أكتوبر ١٤٨٨م تم اتخاذ القرار. يتم دمج قبرص رسميًّا في الإمبراطورية الفينيسية وتعود ملكتُها — في حفاوة رسمية إن أمكن، وبالقوة إذا لزم الأمر — إلى مسقط رأسها.

مع توقُّع قدرٍ من التردُّد من جانب كاترينا — حيث إن الزواج من ألفونسو ربما كان يبدو لها بديلًا مرغوبًا عن وضعها الحالي — تحدَّث مجلسٌ فينيسي من عشرة أعضاء مع شقيقها «جيورجيو Giorgio» لكي يقنعَها بأنَّ تنازلًا طوعيًّا عن العرش سيكون في صالح كل الأطراف. قبرص، وكانت ما زالت معرَّضة للخطر، ستكون في حمًّى من الجشع التركي، بينما ستحصل هي شخصيًّا على الشرف والمجد بأن تقدِّم هذه الهدية لوطنها الأم. في مقابل ذلك، سيتم استقبالها بحفاوة رسمية، وتحصل على إقطاعةٍ غنية ودخلٍ سنوي كبير يمكِّنها من العيش في هدوء ورغد كملكةٍ كما تتمنى. أُسرتُها كذلك سوف تحصل على السلطة والمكانة، بينما سيكون رفضها كارثةً عليهم وخرابًا شديدًا لهم جميعًا.

احتجَّت كاترينا بقوة، إلا أنها رضخت في آخرِ الأمر. في أوائل صيف ١٤٨٩م في فاماجوستا، كلَّفت القائد الأعلى بأن يرفع رايةَ سان مارك في كل ركن من المدينة، وفي الأسبوع الأول من يونيو وصلت إلى فينيسيا. أبحر الدوج في بارجته الرسمية إلى الليدو لتحيتها بصحبةِ بعض النبيلات من علية القوم. لسوء الحظ هبَّت عاصفة واضطُرت البارجة للقيام بمحاولاتٍ لتفاديها فكان أن تأخَّرت بضع ساعات، وعندما تمكَّنت كاترينا من النزول إلى اليابسة لم يكن ضيوف البارجة في أحسنِ حالاتهم؛ ولكنهم استطاعوا أن يقوموا بواجبهم الرسمي، بينما كانت الأبواق تدوي وأجراس الكنائس تدق وشعب فينيسيا — الذي لم يكن مهتمًّا أصلًا بـ «كاترينا» ولكنه محبٌّ للاحتفال — يهتف كما كان متوقعًا.

فيما بعد، تنازلت الملكةُ عن العرش في طقسٍ أقيم خصيصًى لذلك في كنيسة سان مارك؛ حيث تخلَّت عن مملكتها لفينيسيا. في شهر أكتوبر، وضعت يدها على مدينة «أسولو Asolo»، الواقعةِ على رابية صغيرة؛ حيث ستبقى على مدى العشرين سنة التالية وسطَ بلاط مثقَّف — إن لم يكن مضجِرًا — مستمتعةً بحياةٍ كلها موسيقى ورقص و«كلام مثقفين»، حياة كانت تستحق أن تعيشها بعد بلايا ومحنٍ كثيرة. في ١٥٠٩م، بعد أن شعرت بالخطر أمام جيش الإمبراطور «مكسميليان Maximilian»، كانت مضطرة للعودة إلى مدينتها الأم، وهناك قضت نحبَها في يوليو ١٥١٠م. كانت في الخامسة والستين.

في فبراير ١٥٠٨م، دخل الإمبراطور مكسميليان أراضي فينيسيا على رأس جيش جرَّار، ظاهريًّا، كأنه ذاهب إلى روما لتتويجه إمبراطورًا. كان قد أعطى الإمبراطورية إنذارًا مسبقًا بما كان ينتويه في العام السابق، طالبًا سلوكًا آمنًا ومؤنًا لجيشه على طول الطريق، ولكن العملاء الفينيسيين في بلاطه ومن حوله لم يتركوا سادتهم في شكٍّ من أن هدفه الأول كان طرد الفرنسيين من جنوة وميلان، وطردهم هم أنفسهم من فيرونا وفيسنزا؛ وبذلك كان يعيد المزاعم الإمبراطورية القديمة في ملكية المدن الأربع كلها. آنذاك ردَّ الدوج بأدبٍ أن سموه كان مرحبًا به وأنه سيلقى كلَّ ما يليق به من تقدير واحترام، إن هو جاء «دون جلبة الحرب وقعقعة السلاح»، أما إذا كان سيأتي مصحوبًا بقوة عسكرية، فإن التزامات الجمهورية بموجب الاتفاقية وسياساتها الحيادية، تجعل تلبيةَ طلبه مستحيلة.

غاضبًا بسبب هذا الرد، زحف مكسميليان على فيسنزا ليقابَلَ بمقاومة أقوى بكثيرٍ مما كان يتوقع. بمساعدة فرنسية، لم يردَّه الفينيسيون على أعقابه فحسب، بل إنهم احتلوا ثلاث مدن إمبراطورية مهمة على رأس الأدرياتيكي: «جوريزيا Gorizia» و«تريستا Triesta» و«فيوم Fume» (الآن ميناء ريجيكا الكرواتي). بحلول شهر أبريل، وبانقضاء فترة عَقد جيشه وكانت ستة أشهر، ولأنه لم يكن يملك من المال ما يكفي لتمديد فترة العقد، اضطُر الإمبراطور لقبول هدنة ثلاثة أشهر، وسمح لفينيسيا بالاحتفاظ بالأراضي التي استولت عليها. كان ذلك بالنسبة له درسًا مفيدًا، من ناحيةٍ أخرى كان ذلك بالنسبة للبابا جوليوس الثاني، الذي كان يكره فينيسيا وحادبًا على تدميرها، كان ذلك ضربًا من الغطرسة التي لا تُغتفر، وعندما رفضت الجمهورية في غضون أشهر قليلة، أن تسلِّم اللاجئين البولونيين، وعيَّنت أسقفها، بدلًا من المعيَّن من قِبل البابا، في المنصب الشاغر في فيسنزا، قرَّر أن يتصرف. تم إيفاد عدد كبير من الرسل من روما إلى الإمبراطور، وإلى فرنسا وإسبانيا، وإلى ميلان وهنغاريا وهولندا، كانوا كلهم يحملون الرسالةَ ذاتها: دعوة لحملة مشتركة ضد الجمهورية وفصلها عن إمبراطوريتها. سوف يستعيد مكسميليان كل الأراضي وراء نهر «مينسيو Mincio»، التي كانت تابعةً لبيت «آل هابسبورج The House of Habsburg» والتي تتضمَّن فيرونا وفيسنزا وبادوا و«تريفيزو Treviso» و«إستريا Istria» و«فريولي Friuli»؛ وتحصُل فرنسا على «برماجو Bermago» و«بريشيا Brescia» و«كريما Crema» و«كريمونا Cremona»، وكل الأراضي والمدن والقلاع الواقعة شرق نهر «آدا Adda»، وشمالًا حتى التقائه بنهر «بو Po». في الشمال، ستعود «تراني Trani» و«برنديزي Brindisi» و«أوترانو Otrano» إلى آل أراجون، أما هنغاريا فسوف تستعيد

دالماشيا، وتذهب قبرص إلى سافوي، كما تستعيد كلٌّ من فيرارا ومانتوا أراضيها السابقة. باختصار، كلٌّ سيحصُل على شيءٍ ما، باستثناء فينيسيا التي سيتم تجريدها من كل شيء.

كان البابا نفسه ينتوي استعادةَ «كيرفيا Cervia» و«ريميني Rimini» و«فاينزا Faenza»، ولكن هدفه البعيد كان يتخطى أيَّ سؤال بخصوص الحدود الإقليمية. كانت إيطاليا، كما كان يراها آنذاك، مقسمةً إلى ثلاثة أجزاء. في الشمال، كانت هناك ميلان الفرنسية، وفي الجنوب نابولي الإسبانية، وبين الاثنتين كان هناك متَّسع لدولة ثالثة — واحدة فقط — قوية ومزدهرة، هذه الدولة كان لا بد من أن تكون — حسب تصميمه — البابوية. يمكن أن تبقى فينيسيا كمدينة، ولكن لا بد من تدميرها كإمبراطورية.

لم يكن الأمراء في أوروبا مهتمين بتلك القصة كلِّها، كانوا يعرفون جيدًا أن فينيسيا لها حق قانوني في المناطق التي يخطِّطون للاستيلاء عليها، حقٌّ تتضمنه الاتفاقيات التي وقَّعتها فرنسا وإسبانيا، ومكسميليان نفسه مؤخرًا. ورغم أي محاولات قد يقومون بها ليكون عملهم ضربةً بالإنابة عن الشرعية التي يمكن أن تضع أيَّ معتدٍ جشع أمام العدالة، كانوا كلهم مدركين أن سلوكهم كان مستهجنًا أكثرَ من أي سلوك لـ «فينيسيا». إلا أن الإغراء كان عظيمًا والمكاسب الموعودة كبيرة. قبِلوا. وهكذا كان أن تمَّ توقيعُ ما اتضح أنه شهادة وفاة الإمبراطورية الفينيسية. كان ذلك في العاشر من ديسمبر ١٥٠٨م في «كامبراي Cambrai» في هولنده. كانت فينيسيا تواجه الآن عددًا كبيرًا من القوى الأوروبية أكثرَ ضراوةً مما واجهته أيُّ دولة إيطالية في التاريخ. لم يكن لها حلفاء، وفي السابع والعشرين من أبريل ١٥٠٩م، أصدر البابا حكمًا بالحِرْم الكنسي والعزْل، على كل الأراضي الفينيسية.

ولكن القادم كان أسوأ. في التاسع من مايو، وبالقرب من قرية «أجناديللو Agnadello»، لقي الجيش الفينيسي هزيمةً كارثية على يد الملك لويس. ضاع معظم أراضي البر الرئيسي، وما تبقَّى منها كان بلا حول ولا قوة. معظم الأهداف التي وافقت عليها «عصبة كامبراي The League of Cambrai» تحقَّقت بضربةٍ واحدة. ولولا المياه الضحلة المحيطة بها، لكانت فرصة فينيسيا في البقاء ضئيلةً جدًّا. قبل قرن من الزمان، كان يمكن أن تستمر بدون اليابسة (terra firma)، ولكن الزمن كان قد تغيَّر. لم تتعافَ تجارتها مع الشرق اللاتيني على إثر سقوط القسطنطينية في ١٤٥٣م. لم تَعُد سيدة الحوض الشرقي من المتوسط، تقلَّصت إمبراطوريتها الكولونيالية لتصبح موطئ أقدام قليلة وضعيفة في عالَم عثماني واسع. إذا أغلق الأتراك موانئهم أمامها، فلن تعود قادرةً على الاعتماد على الأسواق الشرقية البعيدة لإنقاذها، وكان البرتغاليون حريصين على

ذلك. باختصار، لم تَعُد قادرةً على الحياة اعتمادًا على البحر وحدَه. في تلك الأيام أصبح الفينيسيون ينظرون غربًا أكثرَ منهم شرقًا، إلى سهول لومبارديا وفينيتو الخصبة، إلى الصناعات المزدهرة في بادوا وفيسنزا وفيرونا وبرشيا، وإلى شبكة الطرق البريَّة والمائية التي تصلهم بالمدن التجارية الغنية في أوروبا. كان على البر الرئيسي الآن أن استثمروا ثروتهم وعقدوا آمالهم، وكان ممثلو مكسميليان المدعومون يستقبلون استسلامَ مدينة بعد الأخرى: فيرونا، فيسنزا، بادوا، «روفيرتيو Rovereto» و«ريفا Riva» و«سيتاديللا Cittadella» إلى أن ارتدَّ الفينيسيون إلى «ميستر Mistre». وهكذا ضاع كل لومبارديا وفينيتو.

أو هكذا كان يبدو الأمر على الأقل. ولكن بحلول شهر يوليو، كانت الأمور قد بدأت في التحسُّن. كان كثير من الدول التي استسلمت راضين بكونهم تحت الحكم الفينيسي، وبدءوا يشعرون بالاستياء من القبضة الثقيلة والقاسية للسادة الجدد. بعد أقل من شهرين من الهزيمة بالقرب من أجناديللو، جاءت التقارير الأولية عن انتفاضاتٍ عفوية لصالح فينيسيا؛ وبعد اثنين وأربعين يومًا، عادت بادوا مدينةً إمبراطورية تحت الجناح الحامي لأسد سان مارك، وحذا حذوَها كثيرٌ من المدن الأصغر حجمًا في المنطقة. في الوقت نفسه، استولى قائد مرتزقة (Condottiere)، يُدعى «لوسيو مالفيزو Lucio Malvezzo»، كان يعمل لحساب فينيسيا مؤقتًا، على «ليجنانو Legnano»، وهي مدينة رئيسية على نهر «أديج Adige»، ومنها كان يهدِّد فيرونا وفيسنزا ... وبالرغم من ذلك، ربما لم يكن الأمر قد بات ميئوسًا منه.

حتى ذلك الحين، لم يرفع الإمبراطور إصبعًا باسم الرابطة بعد أن كان قد أعطاها اسمه. لم يرسل جيشًا، ولم يعلن الحربَ صراحةً حتى التاسع والعشرين من مايو؛ أي بعد ثلاثة أسابيع من أجناديللو. ما حفزه على التحرُّك، على أية حال، كان أخبار استرداد بادوا. وبحلول أغسطس بدأ جيش، مترهل غير متجانس، زحْفَه على المدينة ليلحقَ به في مراحلَ مختلفة من رحلته قوةٌ مكوَّنة من بضعة ألوف من الفرنسيين، ومجموعة من الإسبان ومجموعات أصغر من مانتوا وفيرارا ومن قِبل البابا. مكسميليان نفسه قرَّر في ذات الوقت أن ينشئ مركزَ قيادة مؤقتًا في أسولو، في قصر ملكة قبرص، التي كانت قد فرَّت إلى فينيسيا عند سماع الأخبار الأولى لاقترابه.

مرَّ شهر كامل قبل جمع الجيش الإمبراطوري وتجهيزه، وخلال تلك الفترة كان قد أصبح لدى أهالي بادوا وقتٌ يكفي لتقوية دفاعاتهم وتخزين كميات كبيرة من الغذاء

والماء والذخيرة. وعندما بدأ الحصار جِديًّا في الخامس عشر من سبتمبر كانوا يستطيعون الدفاعَ عن أنفسهم. أسبوعان كاملان والمدفعية الألمانية والفرنسية الثقيلة تدق الأسوارَ الشمالية وتحوِّلها إلى أنقاض، وبالرغم من ذلك فشلت كلُّ محاولات الهجوم. في النهاية تخلى الإمبراطور عن المحاولة، وقام بترتيبات سريعة لتركِ جزءٍ من جيشه في إيطاليا تحت قيادة دوق «أنالت Anhalt»، لاحتلال المدنِ الأخرى الأقلِّ قوة وعزيمة، وليكون قوةَ طوارئ إذا لزم الأمر، وقام هو بقيادة جيشه الذي كان يجرُّ أذياله عبر الألب عائدًا من حيث جاء.

كان الفينيسيون في حالةِ سعادة غامرة. كانت استعادة بادوا، في حد ذاتها، انتصارًا، أما الاحتفاظ بها بنجاح ضد جيشٍ قوامه أربعون ألف مقاتل فكان انتصارًا أكبر. كان المزيد من الانتصارات في الطريق. في نوفمبر قامت أنالت بتسليم فسينزا دون مقاومة تُذكر، وفي الأسابيع التالية أعلن المزيدُ من المدن — طواعيةً — تبعيتَهم لفينيسيا. عندما سمع البابا جوليوس باسترداد بادوا انتابه غضبٌ شديد، وعندما علم بعد حصار مكسميليان أن فيرونا هي الأخرى كان من المرجَّح أن تنشق، وأن ماركيز مانتوا وقع أسيرًا في أيدى الفينيسيين، عندما سمع ذلك، يقال إنه ألقى بقبَّعته وسبَّ سان بيتر. إلا أنه استمر على عناده، وبدأ الفينيسيون يدركون أن الموقف لم يتغيَّر كثيرًا برغم انتصاراتهم الأخيرة. كانت العصبة[١١] ما زالت قوية، والجيش الإمبراطوري ما زال سليمًا. كان الفرنسيون في ميلان يشحذون سيوفهم، وفي الوقت نفسه كانت فينيسيا تقف وحيدة؛ جيشها مهزوم، وخزانتها خاوية، ومعظم دخلها من البر الرئيسي مقطوع، ودون أي حليف. عندما طلبت مساعدةَ إنجلترا، أبدى الملك الجديد تعاطفه، ولكنه لم يقدِّم أي مساعدة مادية. وأخيرًا، وفي حالة من حالات اليأس كان أن ابتعلت كبرياءها ولجأت — حتى — إلى السلطان، ولكنها لم تتلقَّ أيَّ رد.

بنهاية العام، كان قد بلغ السيل الزُّبى، فكان لا بد من قبول شروط البابا جوليوس للسلام. كانت شروطًا بالغةَ القسوة. لا بد من أن تتوقَّف الجمهورية عن تعيين الأساقفة والإكليروس. لا بد من أن تعوِّض البابا عن كل النفقات لاستعادة مناطقه، وعن كل العائدات التي خسِرها. لا بد من أن يكون الأدرياتيكي مفتوحًا من الآن أمام الجميع، وخاليًا من الضرائب الجمركية التي كانت فينيسيا تحصِّلها عن السفن الأجنبية؛ وفي حال الحرب ضد الأتراك لا بد من أن تقدِّم الجمهورية خمس عشرة سفينة (جالية Gally) على الأقل على نفقتها. في الرابع والعشرين من فبراير ١٥١٠م، وفي احتفالٍ طويلٍ، ومذلٍّ،

أمام بوابة كنيسة سان بيتر الرئيسية، تم تركيع خمسة مبعوثين فينيسيين لمدة ساعة كاملة حتى الانتهاء من قراءة بنود الاتفاق كاملة، وبعد ذلك كان من المفترض أن يُجلد كلٌّ منهم اثنتي عشرة جلدة رمزية بواسطة الإثني عشر كاردينالًا الحاضرين (من باب الرحمة، تم إلغاء هذا الإجراء). وبعد أن قبَّلوا قدَم البابا وتلقَّوا الغفران فُتحت الأبواب الكبرى وتقدَّم الجمع في شكل رسمي نحو المذبح العالي للصلاة قبل الذهاب إلى القداس في كنيسة «سيستين Cistine Chapel»، ذهبوا كلهم ما عدا البابا الذي — كما يروي أحد الفينيسيين — «لم يكن له جَلَد على مثل تلك الطقوس الطويلة».

لم يستقبل أعضاءُ العصبة أخبارَ تصالح البابا جوليوس مع فينيسيا استقبالًا حسنًا. الفرنسيون، بخاصة، بذلوا كلَّ ما في وُسعهم لإثنائه عن اتخاذ مثل تلك الخطوة، وأثناء طقس الغفران كان سفيرهم، مع زملائه من الإمبراطوريين الإسبان الذين كانوا في روما في ذلك الوقت، كانوا مستائين للغاية؛ ولو أنه كان يعرف ما كان ينذِر به ذلك الطقس لأصابه الذعر أكثرَ من الرفض. حساب البابا مع فينيسيا كان قد تم تسويته، والآن كان دَور فرنسا.

بكل المقاييس الموضوعية كان ذلك التغيُّر المفاجئ والكامل في موقف البابا جديرًا بالازدراء. بتشجيعه الفرنسيين على حمل السلاح ضد فينيسيا، كان جوليوس الآن يرفض أن يسمح لهم بالمزايا والفوائد التي كان هو شخصيًّا قد وعدهم بها، وبذلك كان ينقلب عليهم بكل العنف والحقد اللذين أبداهما تجاه الفينيسيين من قبل. وعلى عكسِ ما كان من قبل، المهندس الرئيسي لإفقار فينيسيا وامتهانها، أصبح الآن مخلِّصها. لم يتقدَّم كبطل قوي كانت تنتظره طويلًا فحسب، بل أخذ زمام المبادرة. سوف تنسحب الجمهورية الآن من وسط المسرح، ومن هنا ستكون الحرب أساسًا بين البابا والملك لويس — مع دوق فيرارا، الحليف الإيطالي الرئيسي للويس. كانت ملاحات الدوق في «كوماكيو Comaccio» في حالة تنافُس مباشر مع أعمال البابا التجارية في «كيرفيا Cervia»، بالإضافة إلى ذلك، فهو باعتباره زوجَ «لوكريشيا بورجيا Lucerzia Borgia»، كان صِهر البابا ألكساندر السادس، وكان ذلك سببًا أكثرَ من كافٍ لإدانته.

كالعادة، كان البابا يحارب أعداءه بكلِّ ما في يديه من وسائل؛ العسكرية والدبلوماسية والروحانية. أول تصرُّف عسكري له ضد الفرنسيين — محاولة في يوليو ١٥١٠م لطردهم من جنوة — انتهت بالفشل؛ إلا أنه، دبلوماسيًّا، وجَّه ضربة قوية بعد أسابيعَ قليلة عندما

اعترف بـ «فرديناند الأراجوني» مِلِكًا على نابولي متجاهلًا ادعاءات لويس الأنجوية. بعد ذلك بوقت قصير، في رسالة بابوية شديدة اللهجة استنزل اللعنةَ على دوق فيرارا وحرمه كنسيًّا. في ذلك الوقت كان يقترب من السبعين؛ وفي شهر أكتوبر، وهو مصاب بحمَّى شديدة في بولونيا، نجا بصعوبة من أسرِ الفرنسيين الذين استولوا على المدينة بعد ذلك بأشهر قليلة.[١٢] ثم كانت نوبةُ مرض أخرى في صيف ١٥١١م، جعلت حياته أمرًا ميئوسًا منه. إلا أن الطاقة التي واصل بها سياسته الانتقامية الحاقدة لم تنطفئ؛ وفي الخريف كان قد استعاد قدرًا من صحته ليعلن عن عصبة مقدسة جديدة. هذه المرة كانت موجهة ضد فرنسا.

ولكن الملك لويس كان يلعب الآن بورقة جديدة، هي ابن أخته «جاستون دو فوا Gaston de Foix» دوق «نيمورس Nemourss»، الذي كان قد أظهر كفاءةً كقائد عسكري بارع في زمنه وهو في الثانية والعشرين من عمره. في فبراير ١٥١٢م، قام نيمورس بحملة مدمِّرة على القوات البابوية والإسبانية، انتهت يوم أحد الفصح في رافينا بأكثرِ المعارك دمويةً منذ غزو شارل الثامن قبل نحو عشرين عامًا. بعد انتهائها كان هناك نحو عشرة آلاف قتيل من الإسبان والإيطاليين على أرض الميدان، إلا أنها كانت انتصارًا رهيبًا. فقدت قواتُ المشاة الفرنسية وحدها نحو أربعين ألف جندي. معظم القادة شاركوا في القتال بمن في ذلك نيمورس نفسه، ولو أنه عاش فلربما كان استطاع أن يلملمَ بقايا جيشه ويزحف على روما ونابولي، مجبرًا البابا على الموافقة على شروطٍ بعينها، وإعادة الملك لويس إلى عرش نابولي، ولتغيَّر تاريخ إيطاليا تمامًا.

في ذلك الوقت، كان الأبطال الثلاثة الرئيسيون في حرب عصبة كامبراي قد مرُّوا بتغيُّرين رئيسيين في نمط حلفائهم. أولًا: تحالفت فرنسا والنظام البابوي ضد فينيسيا، بعد ذلك اصطفَّت فينيسيا والنظام البابوي ضد الفرنسيين، وكان قد بقي فقط أن تتحد فينيسيا وفرنسا ضد النظام البابوي، وهو ما حدث بالفعل بموجب اتفاقية «بلوا Blois» في مارس ١٥١٣م. بعد أن أكَّدت فينيسيا وضعها على البر الرئيسي، كانت مصرةً على ألا يزيحها البابا والإمبراطور جانبًا؛ وحيث إن الفرنسيين كانوا قد أصبحوا لا يشكِّلون أيَّ خطر عليها، فقد كانوا بمثابة حلفاء محتملين. ولكن الحقيقة أن الوضع تغيَّر حتى قبل التوقيع على الاتفاقية؛ ففي الحادي والعشرين من فبراير ١٥١٣م، مات جوليوس الثاني — كان في السبعين من عمره — في روما. وفي واحدٍ من أكثر أفعال الإفساد والتخريب الرسمي للممتلكات العامة، كان قد أكمل هدم كنيسة سان بيتر. لم يكن المبنى الجديد

الذي صمَّمه «برامانتيه Bramante» قد ظهر، وكان ما تبقَّى من المبنى القديم عبارة عن مصلًّى صغير اجتمع فيه الكرادلة لانتخاب خليفة له. كانت مداولاتهم بطيئة على حراس الخلوة، الذين في محاولة جهيدة للإسراع بالمهمة كانوا يخفضون خدمةَ تقديم الطعام ليجعلوها في البداية مقصورةً على طبق واحد في الوجبة، وفيما بعد مقصورة على وجبة نباتية. حتى مع هذا الإجراء لم يعلنوا عن اختيارهم إلا بعد أسبوع كامل؛ كان الكاردينال جيوفاني دي ميديشي الذي اتخذ اسمَ ليو العاشر.

«لقد أعطانا الرب البابوية، فلننعم بها». سواء أكان البابا الجديد قد نطق بهذه العبارة المعيبة المنسوبة إليه أو لم يكن، فإن القليل من الإيطاليين في ذلك الوقت كان لا بد من أن يُبدوا دهشتَهم. كان ليو في السابعة والثلاثين. كان فاحش الثراء وقويًّا جدًّا، كانت عائلته قد أُعيدت إلى فرنسا في ١٥١٢م بعد نفي دام ثمانية عشر عامًا، وكان يبدي ولعًا بالأبهة أكثرَ من أبيه «لورنزو Lorenzo». كان كذلك على خلاف جوليوس، رجل سلام، وكان معروفًا بين الإدارة البابوية بـ «صاحب السمو الحرص»، وكان اختياره مقبولًا بحق. من ناحية أخرى، كان شديدَ الواقعية لكي يصدِّق أن الملك لويس سيكون على طريق الحرب مرة أخرى، وبسرعة، كما كان مصرًّا على حماية المصالح البابوية حيثما كان ذلك ضروريًّا.

ولكن مغامرات لويس في إيطاليا كانت قد انتهت. بعد أن انضم الإمبراطور مكسميليان للعصبة المقدَّسة أعلن الآن أن كل الرعايا الإمبراطوريين الذين يحاربون مع الجيش الفرنسي لا بد من أن يعودوا فورًا إلى بلادهم وإلا عوقبوا بالموت، بينما كان الفرنسيون أنفسهم مستدعين إلى بلادهم للتعامل مع الإنجليز — وكانوا هم أيضًا أعضاءً في العصبة — الذين قاموا بغزو فرنسا، وكانوا قد أَسَرُوا «توروناي Tournai» بالفعل. لم يكن هناك جنود لكي يواصلوا النضالَ الإيطالي، هذا بالإضافة إلى أن الملك لم يكن قد بقي لديه رغبة في الاستمرار. مرهقًا، وفي الثانية والخمسين مع ضعفِ شيخوخة مبكرة، كان قد تزوَّج في الخريف السابق من الأميرة الإنجليزية ماري، شقيقة الملك هنري الثامن. كانت في الخامسة عشرة، فاتنة، ولديها طاقة — مثل شقيقها — لا تنفد. بذل لويس قصارى جهده معها، ولكن الجهد كان كثيرًا عليه، فلم يتحمل أكثرَ من ثلاثة أشهر، وقضى نحْبَه في باريس في الأول من يناير ١٥١٥م. كان قد أصبح يلقَّب في فرنسا بـ «والد البلاد»، وفي إيطاليا لم يحقِّق شيئًا.

بعد عام واحد، في الثالث والعشرين من يناير ١٥١٦م، لحِق به فرديناند ملكُ أراجون. من بين كل الملوك المتورطين في هذه القصة المتشابكة المتداخلة، خرج وحدَه ليكون الفائز الوحيد. كان قد عقد مع لويس اتفاقية غرناطة السرية لتقرير مصير نابولي؛

وبحسب شروطها فاز بأكثر من نصف مساحتها، إلى جانب أبوليا وكالابريا وهي مناطق ذات قيمة. بعد ذلك بوقت قصير، كانت المملكة كلها له، وستبقى تحت السيادة الإسبانية على مدى القرنين التاليين. بعد موت زوجته إيزابيلا في ١٥٠٤م، كان يحكم كذلك كلًّا من قشتالة (كوصي على ابنته المجنونة جوانا) وأراجون، إلى جانب «نافار Navarre» و«روسيلون Roussillon» ومملكة غرناطة السابقة، ناهيك عن المناطق غيرِ المحدَّدة في العالم الجديد. ترك وراءه إسبانيا، التي رغم أنها كانت ما زالت غير متحدة، كانت غنية بلا حدود وأقوى منها في أي وقت سابق، وعلى عتبة عصرها الذهبي.

هوامش

(١) تجدها في ترجماتٍ أخرى «جزر البليار»، وهي «ميورقة» و«منورقة» و«يابسة». (المترجِم)

(٢) كان فعل الإيمان auto-da-fé احتفالًا يرافق إصدارَ الحكم بالموت من قِبل إحدى محاكم التفتيش على المتهم بالهرطقة، ويتبعه التنفيذ من جانب السلطة الزمنية. (المترجِم)

(٣) اضطُر كولومبوس، الذي كان قد بدأ لتوه رحلته التاريخية من جنوة، لتغيير مساره، عندما وجد البحر مزدحمًا أمامه بالسفن التركية العائدة باليهود إلى مكانٍ آخر.

(٤) انظر الفصل الأول: البدايات.

(٥) قضى البابا بمنح الملوك الكاثوليك كلَّ الأراضي والجزر التي تم اكتشافها أو ستُكتشف فيما بعد، الواقعة غرب الخط الممتد من القطب إلى القطب، الممتد هو نفسه نحو مائة فرسخ إلى الغرب من الأزور وجزر رأس فيرد Cape verde Island. أما الأراضي الواقعة إلى الشرق من هذا الخط فخُصِّصت للبرتغال (وهو التنازل الذي سيسمح فيما بعد للبرتغاليين بالمطالبة بالبرازيل). تم التصديق على هذا المرسوم في ١٤٩٤م بموجب اتفاقية «تورديسلاس Tordesillas» بين الدولتين.

(٦) ينبغي عدم الخلط بينه وبين فرديناند الإسباني زوجِ إيزابيلا.

(٧) أبناء جاسكونيا، جنوب غربي فرنسا. (المترجِم)

(٨) لم يتزوج مكسميليان كإمبراطورٍ من قِبل البابا، إلا أنه أصدر إعلان ترنت Proclamation of Trent في ١٥٠٨م، الذي مكَّنه من اتخاذ لقب إمبراطور بدون ذلك، وهو ما قبِله البابا «جوليوس الثاني Julius II» على مضض.

(٩) انظر الفصل الثامن: الشتاتان.

(١٠) الدوكاتية (من الكلمة الإيطالية دوكاتو ducato)، وهي عملة فضية قديمة ثم ذهبية (من ثلاثة إلى أربعة جرامات) ظهرت في فينيسيا في ١١٤٠م ثم سُكت في معظم دول غرب أوروبا بعد ذلك باسم التسيخين أو الفلورين. (المترجِم)

(١١) المقصود عصبة كامبراي The League of Cambrai. (المترجِم)

(١٢) احتفل البولونيون بتحرُّرهم بأن قاموا بإسقاط التمثال البرونزي الرائع الذي كان مايكل أنجلو قد صنعه للبابا، وباعوه خردةً لدوق فيرارا، الذي قام بدوره بإعادةِ صبِّه ليصنع منه مدفعًا ضخمًا دشَّنه باسم «المدفع جوليوس».

الفصل الرابع عشر

الملِك والإمبراطور والسلطان

- شارل وفرانسيس: ١٥١٥م.
- وفاة محمد الثاني: ١٤٨١م.
- سليمان المعظم: ١٥٢١م.
- حصار رودس: ١٥٢٢م.
- معركة بافيا: ١٥٢٥م.
- اليأس ينتاب البابا: ١٥٢٦م.
- استكشاف كولونا: ١٥٢٦م.
- نهب روما: ١٥٢٦م.
- تتويج شارل الخامس: ١٥٢٩م.

* * *

دفع موت لويس الثاني عشر وفرديناند ملكِ أراجون خلال أقل من عام بينهما، بشابَّين كانا ما زالا مجهولين نسبيًّا إلى واجهة الأحداث. كان الشابَّان مختلفين تمام الاختلاف. «فرانسيس الأول Francis I» ملك فرنسا، كان في العشرين عندما اعتلى العرش مفعمًا بالحيوية والنشاط، وكان يمكن أن يكون زوجًا أفضلَ للشابة «ماري تيودور Mary Tudor»، من ابن عمِّه المسكين لويس؛ مثلما كان يمكن أن تكون هي زوجةً أفضلَ من «كلود Claud»، الورعةِ المتزمتة ابنة لويس، كان فرانسيس بالفعل زيرَ نساء، ربما لم يكن وسيمًا ولكنه كان أنيقًا وجسورًا، وسريع البديهة، ولديه شغفٌ فكري بلا حدود، وذاكرة قوية مدهشة لكلِّ مَن يعرفونه. كان يحب الاستعراض ولفت الأنظار، مغرمًا

بالمظاهر والأبهة، كما أحبَّه شعبه الذي كان قد سئم سلسلةً طويلة من الملوك الذين اشتهروا بالكآبة والتفاهة.

«شارل الهابسبورجي Charles of Halbsburg»، المولود في ١٥٠٠م، كان ابنَ «فيليب الوسيم Philip the handsome»، ابنِ الإمبراطور مكسميليان و«جوانا المجنونةِ Joanna the Mad»، ابنةِ فرديناند وإيزابيلا. شارل هذا، لم يرِث أيًّا من صفات والديه المميزة. كان بشِع المنظر: ذَقَنٌ هابسبورجي ضخم وشفة سفلى غليظة نافرة، وكان يعاني من صعوبةٍ في الكلام فيتلعثم ويمطر مَن يستمع إليه برذاذ فمه. كان عديم الخيال، لا أفكار لديه ... ولا جاذبية شخصية. ما أنقذه كان طيبة قلبٍ طبيعية، وعندما تقدَّم به العمر كان قد أصبح حصيفًا وداهية. كان كذلك، بأسلوبه الهادئ، متماسكًا يرهق معارضيه بقوة وإصرار. وبالرغم من أنه كان أقوى رجل في العالم المتحضر، لم يستمتع بإمبراطوريته على النحو الذي كان فرانسيس الأول يستمتع فيه بمملكته — أو ربما ليو العاشر بمنصبه البابوي — وعندما تخلى عن العرش أخيرًا ليذهب إلى الدير، لم يكن ذلك أمرًا غريبًا بالنسبة لكثير من رعاياه.

كان ميراثه كبيرًا، ولكن بعضه كان محلَّ نزاع، كما أن ذلك الميراث لم يصل إليه كله في الوقت نفسه. في البداية كانت البلاد الواطئة، البورجندية سابقًا، التي كانت قد آلت لجَدِّه مكسميليان بزواجه من ماري البورجندية. بعد موت والده في ١٥٠٦م تعهَّدته عمَّته السافوية Margaret of Savoy»، الوصية على عرش هولنده؛ وبداية من عمر الخامسة عشرة كان يحكمها بنفسه. في ذلك الوقت كانت أمه جوانا (وكانت قد فقدت قواها العقلية تمامًا) تحت التحفظ (محجورًا عليها) الذي كان عليها أن تتحمَّله لأكثر من نصف القرن، إلا أنها من الناحية الشكلية ظلَّت ملكةً على قشتالة، بينما كان فرديناند يحكم باسمها كوصي على العرش. عند موت فرديناند، بالرغم من حالتها، ترك لها مُلك أراجون وجزيرتَي صقلية، ومَنَح الوصاية لـ «شارل». حُكْم قشتالة، من ناحية أخرى، عُهد به للكاردينال رئيسِ أساقفة طليطلة «فرانسيسكو خيمينيث Francisco Ximenes» (وكان في العَقد التاسع من العمر)، رغم أن إحدى المهام الأولى لكبير الأساقفة كانت أن يعلن شارل ملكًا على نحوٍ مشترك مع أمه.

الملك الشاب الذي رسا على ساحل «أستورياس Asturias» في عمر السابعة عشرة، ورأى مملكته الإسبانية لأول مرة، كان ما زال هولنديًّا قلبًا وقالبًا، يجهل عادات وتقاليد وحتى لغةَ رعاياه الجدد. لم تكن بداية جيدة. كان الإسبان يرون فيه «ذلك الغريب»،

كما كانوا مستائين من التدفُّق الكبير من المسئولين الفلمنك الذي كان ينهمر على البلاد. خيمنيث، الذي كان قد فعل كلَّ ما في وُسعه لتمهيد طريق شارل، أزاحه الفلمنك جانبًا ولم يسمحوا له حتى بلقاء سيِّده الجديد، وبكل بساطة أمروه بأن يعود إلى أبرشيته. بعد عامين مات وأصبح شارل مطلَق السلطة في كل البلاد. بذل كلَّ ما في وُسعه كعهده دائمًا، ولكنه كان ما زال غيرَ قادر على السيطرة على طموح وجشع أبناء بلده، بينما تَركته الحاشية الإسبانية على علمٍ كبير بأنه كان هناك مكرهًا، وأنهم سوف يتسامحون معه ما دام طيعًا ... ليس إلا.

في مستهل حكم فرانسيس الأول كانت إدارة الأمور أكثرَ سهولة بالنسبة له منها بالنسبة لـ «شارل»؛ نجاحاته الباكرة في إيطاليا تتناقض تمامًا مع خطوات شارل الأولى وبداياته السيئة في إسبانيا. كان فرانسيس قد كشف عن نواياه الإيطالية بوضوحٍ تامٍّ عندما اتخذ لنفسه رسميًّا عند تتويجه لقبَ «دوق ميلان»؛ وبحلول يوليو ١٥١٥م كان قد جمع جيشًا قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل ليثبت حقَّه، وفي الثالث عشر من سبتمبر أنزل هو والفينيسيون هزيمةً ساحقة بجيش بابوي إمبراطوري — كان مكونًا أساسًا من مرتزقةٍ سويسريين — في «ماريجنانو Marignano» (الآن ميليجنانو Melegnano) على بُعد بضعة أميال من ميلان. كان فرانسيس نفسه يحارب وسط المعركة، وكوفئ في الميدان بلقب «بايارد Bayard» الأسطوري: chevalier sans peurs et sans reproche.[١] بعد ثلاثة أسابيع تسلَّم ميلان رسميًّا. ثم التقى البابا ليو في بولونيا؛ حيث قام البابا، على مضضٍ بتسليم «بارما وبياكنزا Piacenza»؛ وفي صيف ١٥١٦م عَقد صلحًا منفصلًا مع شارل في «نويون Noyon»، اعترفت بموجبه إسبانيا بحقِّه في ميلان مقابل اعتراف الفرنسيين بحق إسبانيا في نابولي.

وهكذا، كان قد أتم تسويةَ علاقاته باثنين من الأبطال الثلاثة الرئيسيين على نحوٍ مقبول. بقي الإمبراطور مكسميليان. الآن، وقد بات معزولًا سياسيًّا، كان هو الآخر مضطرًّا للتوصُّل إلى تفاهم مع فرنسا ومع فينيسيا كذلك، التي تخلَّى من أجلها عن مطالبته بكل الأراضي التي كان قد وُعِد بها في كامبراي، بما في ذلك فيرونا التي كان متمسكًا بها. (لا بد أن يقال إن ذلك كلَّه تم مقابل مبلغ دفعته الجمهورية مقدمًا تحت الحساب). وهكذا بعد ثماني سنوات من تكوين العصبة، كانت فينيسيا قد استعادت كلَّ ممتلكاتها السابقة تقريبًا، واستأنفت وضعها باعتبارها الدولة الإيطالية العلمانية القائدة. هذه الاتفاقيات، إن لم تكن قد جلبت السلام الدائم لإيطاليا، فإنها قد وفَّرت على الأقل فضاء للتنفس: كان

العام ١٥١٧م هو العام الأكثر هدوءًا الذي يتذكَّره الإيطاليون. ليس معنى ذلك أنه كان خِلوًا من أي أمور مهمة؛ فالعام الذي بدأ باستيلاء الأتراك على القاهرة وانتهى بتلفيق «مارتن لوثر Martin Luther»، فرضياته الخمسة والتسعين على باب الكنيسة في «ويتنبرج Wittenberg» مثل هذا العام لا يمكن أن يُشطب بهذه السهولة. ولكن تأثير هذه الأحداث رغم أهميتها، لم يكن فوريًّا؛ وكانت شعوب لومبارديا وفينيتو قادرةً آنذاك، وفي الشهور الاثني عشر التالية، على إعادة بناء منازلها المدمَّرة وإعادة زراعة حقولها المهجورة، والنوم ليلًا دون خوف من جيوش غازية ومن أعمال سلب ونهب وسفك دماء.

في الثاني عشر من يناير ١٥١٩م، مات الإمبراطور مكسميليان في قلعته في «ولز Wels» في أوستريا العليا. لم تكن خلافة حفيده شارل نهاية. ظلَّت الإمبراطورية انتخابية. كان هناك كثيرون يفضِّلون الأرشيدوق فرديناند، الشقيق الأصغر لـ «شارل». كان فرانسيس الأول ما زال خَصمًا عنيدًا، وكان في المراحل الأولى لترشُّحه يحظى بتأييد كبير من البابا. (هنري الثامن ملك بريطانيا، كذلك، ألقى بقبعته في الحلبة في لحظةٍ ما، ولكن أحدًا لم يأخذه على محمل الجَد.) لحسن حظ شارل، كان الناخبون الألمان يكرهون فكرةَ إمبراطور فرنسي؛ قام «آل فجر The Fuggers» — تلك الأسرة المصرفية فاحشة الثراء في أوجسبورج — قامت بتأمين الكثير من الجيوب، وفي اللحظة الأخيرة، كفَّ البابا ليو عن معارضته. في الثامن والعشرين من يونيو انتُخب شارل وتم تتويجه في الثالث والعشرين من أكتوبر في العام التالي، وليس في روما وإنما في «آخن Aachen» العاصمةِ الكارولنجية القديمة، ليكون الإمبراطور شارل الخامس. وبالإضافة إلى هولنده وإسبانيا ونابولي وصقلية والعالم الجديد، آلت إليه الآن كلُّ الإمبراطورية القديمة التي كانت تضم معظم النمسا الحديثة وألمانيا وسويسرة. وبعد وقت قصير سوف تتبعها ميلان وبوهيميا وهنغاريا الغربية. كان ذلك إرثًا ثقيلًا بالفعل على رجلٍ متواضع الموهبة متوسط القدرات.

كان لتتويج شارل الإمبراطوري أصداؤه الواسعة، سواء في إسبانيا أو في أوروبا ككل. في إسبانيا زاد ذلك من شعبيته. لم تكن الطبقة الحاكمة في قشتالة كما رأينا شديدةَ الحماسة في البداية للهابسبورج الأجانب، ولكن عندما تحوَّل مَلِكهم فجأة، بمثل فعلِ السحر، ليصبح بين عشية وضحاها إمبراطورًا على نصف القارة، حصل على احترام جديد بين رعاياه الذين أصبحوا منذ ذلك التاريخ يربطون مصيرهم بمصيره وقدَرهم بقدَره. لم يعودوا مُبعَدين في الركن القصي جنوب غرب القارة الأوروبية. حارب جنودهم في ألمانيا وهولنده، وتوحَّد كتَّابهم وفلاسفتهم مع «النزعة الإنسانية Humanism» الجديدة

لـ «إراسموس Erasmus» وأتباعه. في الوقتِ نفسِه كانوا على وعي شديد بأنهم الصخرةُ الثابتة الوحيدة للعقيدة الكاثوليكية القويمة، التي يمكن أن تدعم الكنيسة ضد الهرطقات التي كانت تنمو في الشمال.

كذلك فإن التتويج أكمل استقطابَ القارة الأوروبية. كان ملكُ فرنسا مطوقًا بالإمبراطورية، أما الإمبراطور فكان، على العكس، قد وجد نفسه سيدًا على مملكةٍ مقسَّمة، جزآها منفصلان عن بعضهما بواسطة ولاية معادية ولا يربط بينهما سوى بحر محايد. اعتبارًا من تلك اللحظة، سيدخل الرجلان في صراعٍ قاتل من أجل السيطرة على أوروبا والسيادة على الحوض الغربي للمتوسط.

بعد موت السلطان محمد الثاني في ١٤٨١م، تنفَّست أوروبا مرة أخرى. كان محمد واسع العلم والثقافة. كان قد أمر «جيناديوس Gennadius»، الذي عيَّنه بطريركًا أورثوذوكسيًّا للقسطنطينية، أن يكتب له رسالة عن الدين المسيحي، وكان لديه معرفة واسعة باليونانية ويدعو العلماء اليونانيين باستمرار إلى بلاطه، واستدعى «جنتايل بيلليني Gentile Bellini» من فينيسيا ليرسم صورةً له.[٢] عُرف بـ «محمد الفاتح» عن جدارة. كان أول وأعظم انتصار له هو الاستيلاء على القسطنطينية في ١٤٥٣م، ولم يكن ذلك سوى بداية سلسلة طويلة من التوسُّع في الحوض الشرقي من المتوسط؛ وكما رأينا، كان يجهِّز لهجوم كبير آخر على فرسان سان جون في رودس، عندما مات فجأة. خليفته بايزيد الثاني — الذي، رغم أنه كان الأكبر، لم يصل إلى العرش إلا بعد صراع كبير مع شقيقه «جيم Cem»[٣] كان مختلفًا تمامَ الاختلاف عن أبيه. ثبَّت فتوحات محمد علي في البلقان واستولى على القلاع الفينيسية في المورة، ولكنه — لضيق أفقِه — لم يكن مهتمًّا بأوروبا؛ فقد أزال مثلًا الرسوم الإيطالية التي كان محمد علي قد أعدَّها للقصر الإمبراطوري، مفضِّلًا المساجد والمستشفيات والمدارس التي كانت عناصرَ شديدة الأهمية بالنسبة لعقيدته الإسلامية المتوقدة. وصفُ السفير الفرنسي له بأنه كان «سوداوي المِزاج إلى حدٍّ بعيد، مؤمن بالخرافة وعنيد»[٤] يلخِّص شخصيتَه جيدًا.

في ١٥١٢م، تمرَّد سليم ابن بايزيد على والده وأجبره على التخلي عن العرش. (ربما يكون قد دسَّ له السمَّ أيضًا؛ حيث إن الرجل العجوز مات بعد ذلك مباشرةً على نحو مريب.) كان سليم الأول يُعرف بـ «الشرس (Ya vuz (The Grim»، وكان أول إجراء اتخذه بعد أن أصبح سلطانًا أن تخلَّص من أخويه ومن خمسين من أبناء عمومته الأيتام — كان أصغرهم في الخامسة من عمره — كمنافسين محتملين على العرش، وذلك بأن خنقهم

بواسطة وترِ قوس؛ ويقال إنه كان يستمع من غرفةٍ مجاورة إلى صراخهم وهو يشعر بالرضا. بعد ذلك وجَّه اهتمامه صوب الشرق موجِّهًا طاقته المرعبة ضد إسماعيل الأول مؤسِّس «الأسرة الصفوية Savafid Dynasty» في إيران، وذبح نحو أربعين ألفًا من أتباعه، وضم العديد من المعتمديات الكردية والتركمانية في شمال الأناضول إلى إمبراطوريته. ثم كان هدفه التالي سوريا، التي كانت ما زالت في أيدي المماليك. سقطت حلب ودمشق وبيروت وأورشليم أمامه في تتابُع سريع، وفي الرابع والعشرين من أغسطس ١٥١٦م قضى على الأسرة المملوكية في موقعة مرج دابق، وهي المعركة التي مات فيها الغوري سلطانُهم قبل الأخير. في مصر أعلن طومان باي ابنُ عمِّ الغوري نفسَه سلطانًا، ورفض الاستسلام، بينما زحف سليم بجيشه عبر صحراء سيناء، وبعد مواجهةٍ دامية أخرى في يناير ١٥١٧م، عند الريدانية بالقرب من الأهرام، أَسَره وشنقه على باب زويلة في القاهرة. بعد ستة أشهر استسلم شريفُ مكة بدوره طواعية، وأرسل إلى سليم رايةَ وبُردة النبي ومفاتيح المدن المقدَّسة. وفي آخرِ الأمر عاد إلى البوسفور منتصرًا بعد أن اعترفت به مصر وسوريا والحجاز سلطانًا عليها. لم تكبُر إمبراطوريته فحسب، وإنما تغيَّرت كذلك. جعل منها الاستحواذ على مكة والمدينة خلافةً إسلامية، ومن الآن فصاعدًا سيَعتبر السلاطين العثمانيون أنفسَهم حماةَ العالم الإسلامي.

بعد موتِ السلطان سليم في سبتمبر ١٥٢٠م خلَفه سليمان، الابن الوحيد الذي تركه حيًّا أثناء فترة خلافته، وكان في السادسة والعشرين. من بين الملوك الأربعة الكبار الذين هيمنوا على أوروبا خلال النصف الأول من القرن السادس عشر — الثلاثة الآخرون هم: الإمبراطور شارل الخامس، وهنري الثامن ملك إنجلترا، وفرانسيس الأول ملك فرنسا — ربما كان سليمان هو الأعظم. كان ابنًا للنهضة على طريقته الشرقية؛ رجل علم وثقافة واسعة، كان شاعرًا رقيق الحس، وفي عهده بلغت ورشُ الصناعات الخزفية في «إزنك Iznik» (نيقية) أوْجَها، وبفضل المعماريين البارعين — وعلى رأسهم سنان — عَمَرت مدن الإمبراطورية بالمساجد والمنشآت الدينية واستراحات القوافل والمدارس التي ما زال بعضها موجودًا إلى الآن. إلا أن سليمان، مثل كل أسلافه، كان كذلك فاتحًا، وكان طموحه الأهم هو أن يحقِّق انتصارات في الغرب تضاهي انتصارات أبيه في الشرق. وهكذا كان عليه أن يزيدَ حجم إمبراطوريته، الواسعة بالفعل، بفتوحات في المجر والبلقان ووسط أوروبا، ناهيك عن شمال أفريقيا؛ حيث سقطت طرابلس أمامه في ١٥٥١م.

إلا أن ذلك كلَّه كان من أجْل ما هو قادم. مثل كل السلاطين العثمانيين السابقين، كان سليمان مسلمًا شديد التقوى والورع، وبعد أن تولى العرش بوقت قصير، حوَّل اهتمامه نحو العدوِّ المسيحي الذي كان يكرهه بشدة؛ فرسان سان جون الذين كانت قلعتهم في جزيرة رودس تقع على بُعد عشرة أميال من ساحل الأناضول؛ أي إنها كانت على عتبة إمبراطوريته. كان الفُرسان قليلي العدد نسبيًّا، ليس لديهم جيش ولا بحرية يمكن أن يكونوا ندًّا لما لديه، إلا أنهم كانوا مقاتلين أقوياء الإرادة؛ حيث كان محمد، جَده لأبيه، قد خَبَرهم قبل أربعين عامًا. في تلك السنوات الأربعين، كان الفُرسان قد عملوا كثيرًا لتقوية دفاعاتهم، وبناء أبراج هائلة ذات زوايا تمكِّن من تغطية كل المناطق المكشوفة من الأسوار بالنيران، وتقوية الاستحكامات ضد المدافع الثقيلة التي دمَّرت أسوار القسطنطينية في ١٤٥٣م، وكانوا هم أنفسهم عُرضة للهزيمة في ١٤٥٣م بسببها. سيكون من الصعب إزاحتهم بالفعل.

كان معلِّمهم ومرشدهم الأعظم «فيليب فيلييه دي ليزلي آدم Philippe Villierse de L'isle Adam»، وهو نبيل فرنسي شديد التديُّن في السابعة والخمسين، وكان قد أمضى معظم حياته في رودس، كان أن تلقى بعد أسبوعين من تسلُّم منصبه في ١٥٢١م رسالةً من السلطان. في هذه الرسالة كان سليمان يتباهى بفتوحاته التي قام بها، بما في ذلك تلك في بلجراد وغيرها «الكثير من المدن الرائعة الحصينة، التي قتلت معظم سكانها، وحوَّلت مَن بقي منهم إلى عبيد». كانت متضمَّنات الرسالة شديدة الوضوح، ولكن دي ليزلي آدم لم يخَفْ، وتكلم في ردِّه على الرسالة عن انتصاره الحديث على القرصان التركي «كورت أوغلوا Cort oğlo»، الذي حاول — وفشل — أن يأسِره عند عودته الأخيرة إلى رودس.

ثم جاءت في أوائل صيف ١٥٢٢م رسالةٌ أخرى:

إلى فرسان رودس،

> لقد أثارت في نفسي الفظائعُ التي ارتكبتموها بحق شعبي الذي طالت معاناته، كلَّ مشاعر الأسف والغضب، وعليه فإنني آمركم بأن تتخلوا عن جزيرة وقلعة رودس فورًا، وإنني لأضمن لكم مغادرةً آمنة مع كل ممتلكاتكم الثمينة. سيكون من الحصافة أن تؤثِروا الصداقةَ والسلام على أهوال الحرب.

كان يمكن أن يبقى منهم مَن يريد أن يدفع الجزية، بشرط واحد وهو الاعتراف بسيادة السلطان. لم يردَّ المعلم الأعظم على الرسالة الثانية هذه.

تشكِّل جزيرة رودس قَطْعًا وعْرًا غير مكتمل، يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، أما المدينة نفسها فتقع في الطرف الشمالي الشرقي. في السادس والعشرين من يونيو ١٥٢٢م، ظهرت السفن الأولى من الأسطول العثماني المكوَّن من سبعمائة قطعة[٥] في الأفق الشمالي، وعلى مدى اليومين التاليين كان المزيد والمزيد يلتحق بهذه الطليعة، بما في ذلك بارجة القائد التي كانت تحمل السلطان نفسه وصهره مصطفى باشا، الذي كان قد زحف بالجيش عبر آسيا الصغرى. كان حجم الجيش كبيرًا، لدرجةِ أنه كان لا بد من شهرٍ للنزول إلى البَر وتنظيمهم مرة أخرى؛ لا بد من أن تكون تلك قوةً كبيرة مقارنةً بنحو سبعمائة فارس، حتى بعد أن زاد عددهم بقواتٍ أخرى من أفرع التنظيم المختلفة في أنحاء أوروبا. كان أن التحق بهم خمسمائة من رماة السهام من كريت، ونحو ألف وخمسمائة من الجنود المرتزقة، وبالطبع عدد آخر من مسيحيي رودس. من ناحية أخرى، كانت دفاعات المدينة قوية، وربما منيعة تمامًا، وكان الفرسان قد أمضَوا العام السابق يخزِّنون ما يكفي من المواد الغذائية والماء والذخيرة، تكفيهم عدة أشهر.

يضاف إلى ذلك أنه في مثل هذا النوع من الحروب، تكون حياة مَن يقومون بالحصار أكثرَ صعوبةً من حياة المحاصَرِين؛ حيث إنهم يكونون معرَّضين لشمس الصيف الحارقة وبرد ومطر الشتاء. أما بالنسبة للمدافعين الذين يكونون مجبرين على القيام بدورٍ سلبي، فكان العبء نفسيًّا أكثرَ منه ماديًّا، إلا أنه — ولحسن الحظ — كانت هناك أعمالٌ كثيرة لا بد من إنجازها. كان لا بد من أن يكونوا شديدي اليقظة وعيونهم على كل قدمٍ من السور، وأن يقوموا بإصلاح أيِّ ضرر فورَ وقوعه، ورصد أي حركة للعدو تحتهم قد توحي بأي نشاط لجنود رصِّ الألغام — حيث كان التلغيم قد أصبح من الأمور التي تفوَّقت فيها الجيوش العثمانية، التي كانت تعرف جيدًا أن الكثير من التحصينات القوية كانت أقلَّ عُرضة للاختراق من الواجهة منها من الخلف.

بنهاية الشهر كان قصْف المدفعية قد بدأ بشكل جِدي، وكانت المدافع الأقوى من تلك التي استُخدمت ضد القسطنطينية تستطيع إطلاق قذائف يبلغ قطرها نحو ثلاثة أقدام تقريبًا، لمسافة ميل أو أكثر. كان الجيش التركي آنذاك موزَّعًا على شكل هلال ضخم جنوبي المدينة، أما جيش الفرسان فكان مقسمًا إلى ثماني مجموعات، كلٌّ منها على شكل لسان، تدافع عن جزء من السور. سرعان ما وقع لسان أراجون تحت ضغط شديد، عندما بدأ الأتراك يقيمون سواترَ ترابية مقابِلة يمطرون منها المدينةَ بنيرانهم. في الوقت نفسه كان جنود حفر الأنفاق ورصِّ الألغام (اللغمجية) يعملون، وبحلول منتصف سبتمبر

كانت أسوأ مخاوف الفرسان قد تحقَّقت؛ كان هناك نحو خمسين نفقًا تحت السور في مختلف الاتجاهات. لحسن الحظ استطاعوا تأمين خدمات واحد من أبرز المهندسين العسكريين في تلك الأيام، يُدعى «جابرييل تاديني Gabriele Tadini». قام تاديني بإنشاء شبكة أنفاقه الخاصة التي كان بإمكانه أن يسمع منها — بواسطة طبولٍ من الجلد، مشدودة — أصواتَ ضربةِ أي فأس أو مجراف تركي، ويقوم بإبطال وسائل تفجير ألغام العدو. بالطبع لم يكن النجاح ممكنًا في كل مرة، وفي أوائل سبتمبر انفجر لغم تحت الجزء الإنجليزي ليُحدِث ثغرة في السور أكبرَ من ثلاثين قدمًا. من هذه الثغرة تدفَّق الأتراك ليبدأ بعد ذلك قتال متلاحم عنيف استمرَّ نحو ساعتين، قبل أن يتغلب الفرسان على خصومهم، ويعود المرهقون ممن بقُوا أحياء إلى معسكرهم.

وذات يوم في أواخر شهر أكتوبر، تم القبض على برتغالي كان يعمل لدى «أندريا دامارال Andrea d'Amaral»، أمين سر التنظيم — وهو الذي يلي المعلم الأعظم في الأهمية — وهو يطلق رسالةً نحو خطوط العدو، فحواها أنَّ وضْع المدافعين كان ميئوسًا منه، وأنه لا أملَ لهم في الصمود أكثرَ من ذلك. وعندما وضعوه على «المخلعة reck»[٦] أدلى باعتراف غريب: كان يعمل بأوامرَ من دامارال شخصيًّا. من الصعب تصديق مثل هذا الادعاء. يبدو أن أمير السرِّ كان مكروهًا، وكان يتوقَّع أن يشغل هو منصب المعلم الأعظم، كما كان يكره دي ليزلي آدم شخصيًّا. ولكن، هل كان يمكن أن يخون التنظيم الذي كرَّس حياته له بالفعل؟ لن نعرف. وعند محاكمته رفض أن يدافع عن نفسه على أي نحو، ولم يقُل شيئًا وهم يقتادونه إلى مكان الإعدام، رافضًا حتى التعزيةَ الدينية قبل التنفيذ.

كان مضمون الرسالة صحيحًا على أية حال. بحلول شهر سبتمبر، كان الفُرسان قد أصبحوا عاجزين عن فعلِ أي شيء، أو لعلهم كانوا قد فقدوا أي أمل؛ ورغم أن السلطان كان يعرض عليهم شروطًا مشرِّفة، فإن معلمهم الأعظم ظل معظم الوقت مترددًا ولم يتخذ أيَّ قرار. كان يرى من الأفضل أن يموت آخرُ فارس وسط أنقاض القلعة من أن يستسلم لذلك «الكافر». وفي آخرِ الأمر، كان الرودسيون هم الذين استطاعوا إقناعَه بأن الاستمرار في المقاومة كان يعني المذبحة … مذبحة للفرسان وللأهالي على السواء. وهكذا أرسل دي ليزلي آدم رسالةً إلى السلطان، يدعوه شخصيًّا للحضور إلى المدينة لمناقشة الشروط، وقبِل سليمان الدعوة. يقال إنه عندما اقترب من أبواب المدينة طرَد حرسه الشخصي قائلًا: إن سلامتي تضمنها كلمةُ المعلم الأعظم للإسبتارية، وهي أكثر ثقةً من كل جيوش العالم.

طالت المفاوضات، وفي اليوم التالي لعيد الميلاد ١٥٢٢م، أعلن المعلم الأعظم الاستسلام رسميًّا. يقال إن سليمان عاملَه بما يليق به من احترام، وهنأه وفرسانه على صمودهم وشجاعتهم. بعد أسبوع، في مساء الأول من يناير ١٥٢٣م، أبحر الناجون من واحدة من أكبر عمليات الحصار في التاريخ إلى جزيرة كريت. يُروى أن سليمان، وهو يشهد رحيلهم، أدار وجهه نحو إبراهيم باشا وزيرِه الأعظم، قائلًا: «يؤسفني أن أُجبِر هذا الكهل الشجاع على مغادرة وطنه.»

في الوقت نفسه كان الصراع القديم بين فرنسا وإسبانيا ما زال مستمرًّا. وربما يكون الأصح أن نقول إنه كان «بين فرنسا والإمبراطورية»، ولكن اهتمام شارل الحقيقي بشبه الجزيرة كان مؤسَّسًا على ميراثه الإسباني. كان قد ورِث صقلية ونابولي وسردينيا عن جَده فرديناند، وكان مصمَّمًا على أن يورِّثها كاملةً لخلفائه. لم يكن لديه رغبة في الاستحواذ على أي أراضٍ أخرى في إيطاليا، وكان سعيدًا بأن يظل الحكام المحليون مسئولين عن ولاياتهم، ما داموا يعترفون بالوضع الإسباني ويُبدون احترامهم له.

إلا أنه كان من المستحيل السماحُ بالنفوذ الفرنسي أو قبوله؛ فالملك فرانسيس، طوال بقائه في إيطاليا، كان يمثِّل تحديًا للسيادة الإمبراطورية على نابولي، كما كان خطرًا على العلاقة بين الإمبراطورية وإسبانيا. النظام البابوي، الذي كان مستميتًا لكي يمنع أيَّ طرَف من أن يكون قويًّا، كان متقلبًا في موقفه بين الطرفين. وهكذا في ١٥٢١م، تم توقيع اتفاقية سرية بين شارل والبابا ليو، قامت بموجبها قوةٌ بابوية إمبراطورية مشتركة بطرد الفرنسيين مرةً أخرى من لومبارديا، مستعيدةً بيت آل سفورزا في شخص «فرانسيسكو ماريا Francesco Maria» (ذي الرُّسغ الضعيف) ابنِ «لودوفيكو Ludovico». بعد ثلاث سنوات، أي في ١٥٢٤م، سوف يزحف البابا الجديد كليمنت السابع،[٧] بالاشتراك مع فينيسيا وفلورنسا في تحالفٍ سري مع فرنسا، سوف يزحف على الإمبراطورية، وفرانسيس، بجيشٍ قوامه نحو عشرين ألف مقاتل على إيطاليا عن طريق «مونت سينس Mont-Cenis».

في أواخر أكتوبر، أعاد فرانسيس الاستيلاءَ على ميلان، ثم اتجه جنوبًا إلى بافيا؛ حيث بقي هناك طوال الشتاء محاولًا — دون طائل — تحويلَ نهر «تيكينو Ticino»، كوسيلة للاستيلاء على المدينة، وبقي لمدة أربعة أشهر حيث وصل إلى هناك جيش إمبراطوري، ليس تحت قيادة إسباني أو نمسوي، وإنما تحت قيادة أحد مواطنيه؛ شارل، دوق البوربون الثاني، أحد أكثر أبناء طبقة النبلاء الفرنسية رفعةً والذي كان يحكم بالوراثة.

كان ينبغي أن يكون شارل إلى جوار ملكِه في الحرب، وكان يمُت له بصلة قرابة بعيدة، ولكن «لويزا السافوية Louisa of Savoy»، أم فرانسيس، كانت قد اعترضت على ميراثه، وفي نوبة غضب كان قد باع سيفه للإمبراطور. كان هو الآن القائدَ الإمبراطوري في إيطاليا. قابل جيشُه جيشَ فرانسيس بالقرب من بافيا، وفي يوم الثلاثاء الموافق للواحد والعشرين من فبراير ١٥٢٥م، بدأت المعركة.

كانت معركة بافيا واحدةً من أكثر المواجهات حسمًا في تاريخ أوروبا، وربما كانت كذلك أولَ إثبات نهائي لتفوق الأسلحة النارية على الرماح. المرتزقة السويسريون — وكانوا يقاتلون هذه المرةَ إلى جانب الفرنسيين — حاربوا بشجاعة، ولكن رغم قوةِ أسلحتهم، لم تكن ندًّا للنيران الإسبانية. عندما انتهى القتال، كان الجيش الفرنسي قد انتهى بالفعل. كان هناك ما يقرُب من ألف وأربعمائة جندي — فرنسي وسويسري وألماني وإسباني — موتى على أرض المعركة. فرانسيس نفسه — وكعادته دائمًا — أظهر شجاعةً نادرة، وبعد أن قُتل حصانه تحته استمر في القتال على قدميه حتى النهاية، وعندما بلغه الإرهاق اضطُر لتسليم نفسه. كتب إلى أمِّه يقول: «لقد ضاع كل شيء عدا الشرف ... وحياتي.»

تم إرساله أسيرًا إلى مدريد، ومرةً أخرى عاد شارل الخامس سيدًا على إيطاليا. أحدث انتصاره الحاسم ارتجافةً شديدة في أرجاء شبه الجزيرة التي كانت تعتمد — أو هكذا كانت تعتقد — على توازن القوى؛ ولكن الإمبراطور كان مشغولًا بأمورٍ أخرى. قبل ثماني سنوات، كان مارتن لوثر (في ١٥١٧م) قد علَّق رسائله الخمسة والتسعين على باب الكنيسة في ويتنبرج، وبعد ذلك بثلاث سنوات كان قد أحرَق علنًا إعلانَ البابا بحرمِه كنسيًّا؛ وفي ١٥٢١م، في الاجتماع الكبير لمستشاري الإمبراطورية، كان قد رفع رايةَ العصيان على البابا والإمبراطور على السواء. كان الأمل الوحيد في إرضائه — في رأي شارل — هو دعوة مجلس عام للكنيسة لمناقشة الإصلاح، ولكن ما جدوى مجلس عام، إذا كان كل مندوبي فرنسا وحلفائها غائبين؟

ثم كان هناك سليمان، الذي كان لا بد من أخذه بالاعتبار. كانت أخبار سقوط رودس قد استُقبلت بكثير من الرعب في أرجاء الغرب، وكان الناس يتساءلون: أين ستكون ضربة السلطان التالية؟ المؤكَّد أنه سيواصل زحْفه على قوات العالم المسيحي. كيف يمكن إيقافه إن لم يكن بواسطة حملة صليبية منسَّقة بقيادة الإمبراطور تدعمها كل القوى المسيحية؟ ولكن، كيف في مثل تلك الظروف السائدة، كان يمكن إقناعُ فرانسيس ملكِ فرنسا، لتقديم يد العون لمثل هذا الجهد المشترك؟ كيف كان يمكن شنُّ مثل هذه الحملة، بينما أوروبا — هكذا — منقسمةٌ على نفسها بحدة؟

لعل مثل تلك الاعتباراتِ هي التي أقنعت شارل بأن يثقَ بأسيره، وبأن يطلق سراحه بعد عام من أسرِه «المريح»، حسب شروط الاتفاق الذي لم يكن لدى فرانسيس أيُّ نية لمراعاته، حتى برغم تركه ابنيه رهائنَ، دليلًا على حسن سلوكه. فيما عُرف باتفاقية مدريد التي وقَّعها بتاريخ الرابع عشر من يناير ١٥٢٦م، تخلَّى الملك عن كل مطالباته بدوقية بورجندي ونابولي وميلان. (كما أعاد — بالمرة — كلَّ الأراضي المتنازَع عليها إلى دوق البوربون بشرط «ألا نراه مرة أخرى»). عندما عاد فرانسيس إلى باريس وأُعلنت شروط الاتفاقية، كان هناك احتجاجٌ عام. أصبحت كل السلطات والطبقات في بورجندي؛ حيث لم يكن من حق الملك أن ينقل ملكيةَ مقاطعة من المملكة لشخص آخر دون موافقة شعبها. كذلك أصاب الذعر البابا كليمنت؛ إذ كيف يتبقى له أي أمل في الدفاع عن نفسه ضد شارل، دون وجود فرنسي في أي مكان في إيطاليا؟ على نحو السرعة، استطاع أن يجنِّد كلًّا من ميلان وفينيسيا وفلورنسا لتكوين عصبة مضادة للنزعة الإمبراطورية، للدفاع عن إيطاليا حرة مستقلة، ودعا فرنسا للانضمام إليها. ورغم أن الملك كان متحفظًا بشدة على اتفاقية مدريد، ورغم أنه كان شديدَ الاختلاف في الرأي مع البابا بخصوص ميلان — كان البابا محابيًا لآل سفورزا، بينما كان فرانسيس يريد المدينةَ لنفسه — في الثاني والعشرين من مايو ١٥٢٦م، وافق الملك ووقَّع باسمه.

أدخلَت «عصبة كونياك The League of Cognac» — كما أُطلق عليها — مفهومًا جديدًا مثيرًا في الشئون الإيطالية. ربما لأول مرة يكون هناك اتفاق مكرَّس لفكرةِ أن ميلان، وكل الدول الإيطالية الأخرى بالتبعية، ينبغي أن تكون متحررة من الهيمنة الأجنبية. كانت «الحرية» هي كلمة السر. من الواضح أنه لم تكن هناك حرية لإيطاليا بعد؛ فهي لم تكن أكثرَ من تعبير جغرافي. في الوقت نفسه كان من الواضح لكل الموقِّعين الإيطاليين الأعضاء في العصبة، أن الأمل الوحيد في مقاومة شارل الخامس أو فرانسيس الأول، كان يكمُن في تسوية خلافاتهم الداخلية، وتجميع مواردهم وتقديم جبهة قوية متحدة، تتصدى لأي غازٍ محتمل. كانت ثلاثة قرون — وربما أكثر — قد مضت على «الريزورجيمنتو Resorgimento»، ولكن ربما كانت هناك — كذلك — الومضات الأولى للشعور القومي الذي أجَّجها.

لا بد من القول إن شارل الخامس لم يكن يرى «عصبة كونياك» على هذا النحو. كانت بالنسبة له تحديًا مباشرًا وصريحًا، وعلى مدى الأشهر القليلة التالية كانت العلاقة بينه

وبين البابا تتدهور باضطراد. وأخيرًا، خرجت في سبتمبر رسالتان من البابا إلى روما. لو أن لوثر نفسه هو الذي كتبهما لما كانتا أكثرَ صراحة. الأولى، وكانت موجَّهة للبابا شخصيًّا، اتهمه فيها بالفشل في القيام بواجبه تجاه العالم المسيحي وإيطاليا، وحتى تجاه الكرسي المقدس. الثانية، وكانت موجَّهة لكاردينالات المجمع المقدس، ذهبت إلى ما هو أبعدَ من ذلك. كانت الرسالة تقول إنه في حال رفضَ البابا دعوة مجلس عام لبحث أمور إصلاح الكنيسة، فإن مسئولية المجمع المقدس أن يقوم بذلك دون انتظار موافقته. كان ذلك تحديًا صريحًا للسلطة البابوية؛ وفي الواقع كان بالنسبة للبابا كليمنت بمثابةِ إعلان حرب.

لم يكن القتال قد توقَّف في ميلان ومحيطها، ولا بد أنه كان هناك من أبناء ميلان مَن استيقظ في الصباح، ليجد من الصعب عليه أن يتذكر ما إذا كان يَدين بالولاء لآل سفورزا، أم للإمبراطور، أم لملك فرنسا.

كان جيشٌ إمبراطوري قد زحف على المدينة في نوفمبر ١٥٢٥م وأمضى الشتاء وهو يحاصر فرانسيسكو ماريا سفورزا — سيئ الحظ — في القلعة. أرسلت العصبة جيشًا بقيادةِ دوق أوربينو لنجدته، ولكنها فشِلت بسبب ضَعف عزيمة الدوق إلى حدٍّ كبير، واستسلم سفورزا في آخرِ الأمر في الخامس والعشرين من يوليو ١٥٢٦م. أدخلت أخبارُ استسلامه البابا في حالة يأس شديد. كانت خزانته خاوية ولم يكن محبوبًا في روما، كما أن حليفه «النظري» فرانسيس، لم يرفع إصبعًا لمساعدته. في الوقت نفسه كان الإصلاح يكسب أرضيةً جديدة كل يوم، وكان الخطر العثماني ما زال يلوح في الآفق؛ والآن، مع اقتراب الخريف كانت هناك شائعات بأن الإمبراطور كان يجهِّز أسطولًا ضخمًا يمكن أن يحمل مائة ألف مقاتل إلى برِّ مملكة نابولي — أي إلى عتبة بابه. الأخطر من ذلك أن كليمنت كان يعرف أنه كان هناك عملاء للإمبراطورية في المدينة، يبذلون قصارى جهدهم لإثارة القلاقل ضده، وذلك بمساعدةٍ حماسية من أحد أعضاء مجمعه المقدَّس، وهو الكاردينال «بومبيو كولونا Pompeio Colonna».

على مدى أكثرَ من قرنين من الزمان، كانت روما تعاني من المنافسة بين اثنتين من الأسر العريقة؛ «آل كولونا The Colonna»، و«آل أورسيني The Orsini». بعيدًا في «كامبانا Campagna» كانت الأسرتان في حالةِ حرب بينهما باستمرار. كلتاهما كانت تحشد الجيوش ضد الأخرى. كلتاهما كانت فاحشة الثراء وتحكم ممتلكاتها الواسعة وكأنها دولة مستقلة ذات سيادة. كان لكلٍّ منهما بلاط رفيع المستوى، وكانت الثروة بدورها تمكِّن كلتيهما من مصاهرات مفيدة مع أسَرٍ قوية، وكان الناس ما زالوا يتندَّرون

بحفل زفاف «كلاريس أورسيني Clarice Orsini» على «لورنزو دي ميديسي Lorenzo de' Medici»، عمِّ كليمنت، باعتباره حفل الزفاف الأكثر فخامةً وترفًا في القرن الخامس عشر. حتى قبل ذلك كان آل أورسيني ينعمون بما يمكن وصْفه بأنه كان علاقةً خاصة بالنظام البابوي، بسبب أن كل الطرق الرئيسية المتَّجهة من روما شمالًا، كانت تمر عبر أراضيهم. من هنا، كان الباباوات المتوالون يحرصون دائمًا على كسب ودِّهم.

كان ذلك وحدَه يكفي لاستعداء منافسيهم الذين كان بومبيو كولونا أبرزَ ممثليهم في عشرينيات القرن السادس عشر. كان الكاردينال قد بدأ حياته جنديًّا، وربما كان لا بد من أن يظل كذلك. دخل الكنيسة بسبب ضغوط عائلية فحسب، وكان من المستحيل وصفه بأنه «رجلٌ متدين». حدث أن رفض جوليوس الثاني ترقيته، واستغل بومبيو فرصةَ المرض الخطير للبابا في ١٥١١م لإثارة عصيان شعبي، ولكن محاولته فشِلت؛ عندما تعافى جوليوس جرَّده من كل مناصبه وألقابه. المثير للدهشة أن يكون البابا الميديسي ليو العاشر، هو الذي سمح بدخوله المجمع المقدس؛ فذلك هو ما جعله يضع عينه على الكرسي البابوي، ولم يمتدَّ أيُّ شعور بالامتنان كان يشعر به نحو البابا ليو، إلى ابنِ عم ليو وخليفته الثاني. أما بالنسبة لـ «كليمنت»، فكان يُكنُّ له كرهًا لا حدود له، كان وقوده الحقد والإصرار على استئصاله، إما بإزاحته أو بالقتل إذا دعت الضرورة.

في أغسطس ١٥٢٦م جاء «فسباسيانو كولونا Vespasiano Colonna»، أحدُ أقارب بومبيو، إلى روما ليتفاوض على هدنة بين أسرته من جانب، وأسرة أورسيني من الجانب الآخر. البابا كليمنت الذي استراح كثيرًا لذلك، قام بتسريح قوَّاته، بينما هجم جيش كولونا في الحال على مدينة «أناجني Anagni» وقطع كلَّ وسائل الاتصال بين روما ونابولي. قبل أن يفيق البابا من هول المفاجأة أو أن تكون لديه فرصة لإعادة التعبئة، اندفع ذلك الجيش نفسه عبر بوابة «سان جون لاتيرا St John Lateran»، فجْرَ العشرين من سبتمبر وتدفَّق على روما.

في حوالي الخامسة من بعد ظهر اليوم نفسه، وبعد ساعات من القتال الضاري، تمكَّن كليمنت من الفرار عبْر الممر المغطَّى المؤدي إلى الفاتيكان، إلى قلعةِ سانت أنجلو. في الوقت نفسِه كانت أعمال السلب والنهب قد بدأت، وكما يصف أحدُ العاملين في الإدارة البابوية المشهدَ:

> «تم تجريد القصر البابوي من كل محتوياته تقريبًا، حتى غرفة نوم البابا وخزانة ملابسه، حتى غرفة مقدَّسات سان بيتر ومساكن الأساقفة والعاملين

بالمكان، حتى إسطبلات الخيل تم إفراغها مما فيها، وأبوابها ونوافذها حُطمت؛ كئوس القربان والصلبان وعصي الأساقفة والزخارف والنقوش، كل ما طالته أيدي أولئك الرعاع.»

حتى «كنيسة سيستاين Sistine Chapel» تم اقتحامها؛ حيث انتزعوا مطرَّزات رافائيل من على الجدران وكئوس القربان المذهبة المرصَّعة بالجواهر ... كل كنوز الكنيسة تم الاستيلاء عليها، كانت قيمتها تقدَّر بثلاثمائة ألف دوكاتية.

مع الاستعدادات الضرورية المتَّخَذة كان يمكن للبابا أن يصمد في قلعة سانت أنجلو عدةَ أشهر، إلا أنه في تلك الحالة ولعدم كفاءة آمر القلعة جيوليو دي ميديسي، لم تكن القلعة مزوَّدة بما يكفي من المؤن. لم يكن أمام كليمنت من خيار سوى أن يفرض ما يريده من شروط. كانت المفاوضات التي تلت ذلك صعبة، ولكن نتائجها كانت أقلَّ من المقبولة بالنسبة لـ «بومبيو كولونا»، الذي أدرك في النهاية أن انقلابه فشل؛ حيث إن البابا لم يظل على عرشه فحسب، بل إن الرأي العام كذلك انقلب ضده وضد أسرته تمامًا. تم نهب روما، وكان آل كولونا هم المسئولين عن ذلك بلا جدال. في شهر نوفمبر تم تجريد بومبيو — للمرة الثانية — من كل ألقابه ومناصبه الكنسية، كما لقي كبار أبناء الأسرة المصيرَ نفسه. فقدت أسرةُ كولونا كل ممتلكاتها في الولايات البابوية باستثناء ثلاث قلاع. صحيح أن كليمنت نجا، ولكن ذلك لم يكن كل شيء.

«البابا لا يتوقَّع شيئًا سوى الدمار، ليس دماره هو فحسب؛ حيث إن ذلك لا يعنيه كثيرًا، وإنما دمار الكرسي الرسولي، دمار روما، دمار بلاده وكل إيطاليا. في الوقت نفسه لا يرى وسيلةً لدرء ذلك. لقد أضاع كل أمواله وأموال أصدقائه ... وخَدَمه، مكانتنا كذلك ضاعت.»

كان ذلك ما كتبه مسئولٌ آخرُ من الإدارة البابوية يُدعى «جيان ماتيو Gian Matteo» بالقرب من آخرِ نوفمبر ١٥٢٦م. كان لدى البابا من الأسباب ما يجعله يصاب بالاكتئاب. استراتيجيًّا، كان البابا ضعيفًا، وعُرضة للهجوم عليه من عدة جوانب، وكان يستغل هذا الوضعَ تمامًا. ثم كانت أخبارٌ عن انشقاق فيرارا — التي التحق دوقُها «ألفونسو ديستي Alfonso d'Este» بالقوات الإمبراطورية. كتب «لاندريانو Landriano» موفَدُ ميلان يقول: «يبدو البابا وكأنه قد خرَّ صريعًا. كل محاولات سفراء فرنسا وإنجلترا وفينيسيا لاستعادته ضاعت هباء ... يبدو مثل حالة مَرضية فقد فيها الأطباء الأمل.»

وبالرغم من ذلك لم تكن كل بلاياه قد انقضَت. في الثاني عشر من ديسمبر سلَّم مبعوث إسباني رسالةً خاصة من الإمبراطور يكرِّر فيها طلبه بعقد مجلس عمومي للكنيسة، متحديًا بذلك رغبةَ البابا كليمنت في العكس. وفي مطلع العام التالي جاءت الأخبار بأن جيشًا إمبراطوريًّا بقيادة دوق البوربون كان يزحف باتجاه الولايات البابوية.

بالرغم من خيانته لمليكه، كان «بوربون Bourbon» شخصيةً كاريزمية يحظى بإعجاب رجاله لشجاعته. لم يحدُث أن تراجع عن معركة، وكان دائمًا موجودًا حيث يكون القتال على أشُدِّه، ويسهُل التعرُّف عليه وتمييزه بمعطفه الأبيض الفضي الذي كان يرتديه دائمًا، ومن رايته ذات الألوان، الأسود والأبيض والأصفر المزيَّنة بكلمة «Espérance» (الأمل)؛ الآن، وهو يتقدَّم من ميلان في اتجاه الجنوب على رأس جيشٍ قوامه نحو عشرين ألف مقاتل من الألمان والإسبان، كان مواطنو كل المدن التي يمرُّ بها في طريقه: بياكنزا وبارما وريجيو ومودينا وبولونيا، كلهم كانوا يعملون بكل جهد لتقوية دفاعات مدنهم. كان بإمكانهم أن يوفِّروا على أنفسهم هذه المشقة. لم يكن لدى الدوق النيةُ لأن يضيِّع وقتَه عليهم. قاد جيشه مباشرةً نحو روما صاعدًا به تلَّ «الجانيكول The Janiculum hill»، شمالي سور المدينة مباشرة، وفي الرابعة من صباح السادس من مايو ١٥٢٧م بدأ الهجوم.

في غياب مدفعية ثقيلة، قرَّر بوربون تسلُّق أسوار المدينة، وهو أسلوب أكثرُ صعوبةً من دكِّها لكي تسقط. كان هو نفسه من أوائل المصابين. قام بقيادة مجموعة من جنود المشاة الألمان المرتزقة Landsknechts حتى أسفل السور، وبينما كان يقوم بوضع سُلَّم للتسلق أصيب في صدره بطلقة من «هركوبة harquebus».[٨]

لم يكن سقوط هذا المقاتل الذي يرتدي الأبيض لِتخطئه عينُ أي من القائمين بالحصار أو المدافعين، ولمدة ساعة تقريبًا، كان مصير الحصار عُرضة للتغير بين لحظة وأخرى، إلى أن حفزت فكرة الثأر الألمانَ والإسبان، فكانت دافعًا لبذل المزيد من الجهد. وبين السادسة والسابعة صباحًا تدفَّق الجيش الإمبراطوري مندفعًا واقتحم المدينة. اعتبارًا من تلك اللحظة قلَّت وتيرة المقاومة. اندفع أهالي روما من بين الأسوار يحاولون تحصين منازلهم، وانضم كثير من قوات البابا إلى الأعداء للنجاة بحياتهم. لم يواصل القتال ببطولةٍ سوى الحرس السويسري وبعض ميليشيات البابا الخاصة إلى أن أُبيدوا هم كذلك.[٩]

عندما اقترب الغزاة من الفاتيكان، أخرجوا البابا مرةً أخرى من كنيسة سان بيتر، واقتادوه عبْر الممر المغطَّى إلى قلعة سانت أنجلو، وسط حشد من الأسر المذعورة التي كانت

تبحث عن ملجأ. كان الزحام شديدًا، لدرجة أنه كان من الصعب رفعُ الجسر المتحرك. في الخارج، في «البورجو Borgo» و«تراستيفير Trastevere»، وبالرغم من الأوامر المشدَّدة من القادة، كان الجنود يقومون بقتل كلِّ مَن يقابلهم من الرجال والنساء والأطفال والتمثيل بجثثهم. في تلك المذابح، قتلوا تقريبًا كل نزلاء مستشفى سانتو سبيريتو، ولم يُبقوا على أحد من الأطفال الأيتام في الملجأ.

عبَر الجيش الإمبراطوري نهر التيبر قبل منتصف الليل، واستقر جنود المشاة من المرتزقة الألمان في معسكر «دي فيوري Campo dei Fiori»، والإسبان في «بيازا نافونا Piazza Navona»، أما عمليات السلب والنهب التي تلت ذلك فقد وُصفت بأنها كانت من أكثرِ الأعمال فظاعةً في التاريخ.[١٠] استمر حمَّام الدم الذي بدأ في الناحية الأخرى من التيبر ولم يهدأ، كانت المخاطرة بالخروج إلى الشارع تعني الموت المؤكَّد، أما البقاء داخل البيوت فلم يكن عاصمًا من الخطر كذلك؛ حيث لم تنجُ كنيسة واحدة أو قصر أو منزل أيًّا كان حجمه من النهب والتدمير. الأديرة نُهبت، أديرة الراهبات انتُهكت، وكانت الراهبات يُبعن في الشوارع بأثمانٍ بخسة. لم يكن هناك أي احترام، حتى من قِبل الإسبان، للكبار في الإدارة البابوية؛ حيث تم جرُّ اثنين — على الأقل — من الكاردينالات في الشوارع وتعذيبهما ليموت أحدهما، وكان شيخًا قد تجاوز الثمانين.

كانت أربعة أيام وأربع ليالٍ قبل أن تهدأ روما، وفي العاشر من مايو فحسب، بوصول بومبيو كولونا وأخويه وثمانية آلاف من رجالهم، كان أن استعادت المدينة بعضَ الهدوء. حتى آنذاك، لم يكن هناك شارع في روما لم يُصِبه الدمار أو لا يمتلئ بجثث القتلى. فيما بعد، كان أحد جنودِ رصِّ الألغام الإسبان يروي أنه قام هو وزملاؤه بدفن نحو عشرة آلاف جثة على الشاطئ الشمالي لنهر التيبر، كما ألقَوا بألفين أخرى في النهر. بعد ستة أشهر، وبسبب المجاعة وانتشار الأوبئة، كان عدد سكان المدينة قد أصبح أقلَّ منه قبل الحصار، وكان معظم المدينة قد أصبح ممتلئًا بالجثث المتروكة في العراء في أشدِّ فصول العام حرارة. أما الخسائر الثقافية فكانت بلا حصر؛ رسوم، تماثيل، مكتبات كاملة بما في ذلك مكتبة الفاتيكان نفسها، سُرقت وأُتلفت. تم نهبُ الأرشيفات البابوية والأسقفية. حُطِّمت مدرسة رافائيل، سُجن الرسام «بارمجيانينو Parmigianino» ولم ينقذ حياته سوى أنه كان يرسم سجَّانيه قبل أن يساعدوه في الهرب إلى بولونيا.

في الوقت نفسه، كانت معاناة الجيش الإمبراطوري لا تقلُّ عن معاناة أهالي روما. كان كذلك لا يجد الطعام، وجنوده لم يتسلموا رواتبَهم لعدة أشهر، ومعنوياته منهارة؛ ولذا

كان كل همِّ الجنود هو السلب والنهب. انهار الانضباط. دبَّت الوقيعة بين المرتزقة الألمان والمرتزقة الإسبان، وكان الأمل الوحيد في جيش العُصبة تحت قيادة «دوق أربينو Duke of Urbino»، ذلك الرجلِ غريبِ الأطوار. على ضوء الحالة التي كان عليها الإمبراطوريون، كان بإمكانه أن يدخل المدينة وينقذ البابا، ولكنه رِعديد كشأنه دائمًا، لم يفعل شيئًا. في آخرِ الأمر، كان كليمنت مضطرًّا مرةً أخرى للاستسلام، وكان الثَّمن الرسمي الذي دفعه هو مدن أوستيا وسيفيتافيكيا وبياكنزا ومودينا، بالإضافة إلى أربعمائة ألف دوكاتية، أما الثمن الفعلي فكان أعظم؛ حيث استولى الفينيسيون — رغم ولائهم — على رافينا وكيرفيا، بينما انتهز دوق فيرارا الفرصةَ ليستحوذ على مودينا. أما الولايات البابوية التي كانت قد تطوَّرت بها أنظمة حكم ذات كفاءة لأول مرة في التاريخ، فقد تقوَّضت.

حتى آنذاك، كان القتال مستمرًّا بعد أن أصبح مستقطبًا بين فرنسا والإمبراطورية، أما السلام عندما جاء فكان نتيجةً للمفاوضات التي بدأت في شتاء ١٥٢٨—١٥٢٩م بين «مارجريت السافوية Margarat of Savoy» عمةِ شارل، وسِلفتِها «لويز Louise» أمِّ الملك فرانسيس. التقت الاثنتان في «كامبراي Cambrai» في الخامس من يوليو ١٥٢٩م وتم توقيع الاتفاقية في الأسبوع الأول من أغسطس. «سلام السيدات The Ladies Peace»، كما سيُطلق عليه فيما بعد، أكَّد الحكم الإسباني لإيطاليا. تنازل فرانسيس عن كل مطالباته هناك، وحصل في مقابل ذلك على تعهُّد من شارل بعدم الإصرار على المطالب الإمبراطورية في بورجندي؛ إلا أن حلفاء فرنسا في عصبة الكونياك خرجوا من الحِسْبة، وعليه فقد اضطُروا لقبول الشروط التي فرضها شارل في آخر العام — تلك الشروط التي كان من بينها أن تتنازل فينيسيا عن كل ممتلكاتها في الجنوب الإيطالي لمملكة نابولي الإسبانية. أُعيد فرانسيسكو ماريا سفورزا إلى ميلان (رغم احتفاظ شارل بحقِّ إقامة حامية في قلعتها)، كما أُعيد كذلك آل ميديشي، الذين كانوا قد طُردوا من فلورنسا في ١٥٢٧م (رغم أن ذلك تطلَّب حصارًا استمر عشرة أشهر لتحقيق العودة)، كما أُعطيت جزيرة مالطة لفرسان سان جون في ١٥٣٠م.

كانت تسويةً محزنة ومهينة لأولئك الذين كانوا يشعرون بأن ملك فرنسا قد خانهم، إلا أنها أعادت السلام لإيطاليا في آخرِ الأمر، ووضعت نهايةً لفصل طويل وكئيب في تاريخها، كان قد بدأ بغزو شارل الثامن لها في ١٤٩٤م، ولم يجلِب عليها سوى الخراب والدمار. وختامًا لكل ذلك، عبَر شارل الخامس الألبَ لأول مرة ليذهب إلى حفل تتويجه الإمبراطوري. لم يكن ذلك طقسًا يمكن الاستغناء عنه أو لازمًا، فجَدُّه مكسميليان كان

قد استغنى عنه تمامًا، كما أن شارل نفسه، منذ تتويجه في «آخن Aachen»، كان يجلس على العرش منذ عشر سنوات بالفعل، دون هذا التثبيت النهائي لسلطته. ومع ذلك، بقيَت حقيقة أن البابا منذ أن وضع التاج على رأسه، لم يكن هناك أيُّ مبرِّر للقب «الإمبراطور الروماني المقدس»، أما بالنسبة لواحد كان يمتلك إحساسًا بمهمة مقدسة، فقد كان اللقب والسر المقدس مهمَّين.

كانت مراسيم التتويج الإمبراطوري تتم عادةً في روما. وبعد رسوه في جنوة أغسطس ١٥٢٩م، تلقَّى شارل تقاريرَ عن تقدُّم سليمان الحثيث نحو فيينا، وعلى الفور وجد أن رحلةً طويلة عبر شبه الجزيرة في مثل ذلك الوقت ستكون عملًا أحمق؛ فالرحلة سوف تستغرق وقتًا طويلًا، بالإضافة إلى أنها ستبعده عن موقع الأحداث في حال وقوع أزمة. خرج الرُّسل بسرعة إلى البابا كليمنت وتم الاتفاق على أن يكون احتفال التتويج في بولونيا، وهي المدينة التي كان من السهل الوصول إليها، وكانت لا تزال تحت السيطرة الكاملة للبابا. حتى آنذاك، لم يكن الشك قد زال؛ إذ بينما هو في طريقه إلى بولونيا في سبتمبر، تلقَّى شارل استغاثة عاجلة من شقيقه فرديناند في فيينا، وكاد أن يلغيَ مشروع التتويج على الفور، وبعد تفكير طويل قرَّر ألا يفعل. عند وصوله إلى فيينا، فإما أن تكون المدينة قد سقطت، أو يكون السلطان قد تراجع حتى ينتهيَ فصل الشتاء، وفي كلتا الحالتين لن تكون القوة الصغيرة المرافقة له في إيطاليا كافيةً لترجيح كِفة الميزان.

وهكذا، في الخامس من نوفمبر ١٥٢٩م، دخل شارل بولونيا رسميًّا؛ حيث كان البابا كليمنت في انتظاره أمام كنيسة سان بترونيو القديمة. بعد مراسم الاستقبال السريعة انتقل الاثنان إلى «قصر البودستا Plazzo del Podesta» في الجهة المقابلة من الميدان حيث قد تم تجهيز مكان مجاور لهما. كان هناك عملٌ كثير في انتظارهما ومشكلات معلَّقة لتُناقش ويتم حلُّها قبل التتويج. لم يكن قد مرَّ غير عامين على نهب وتخريب روما بأيدي القوات الإمبراطورية، وعلى كليمنت نفسه أسيرًا — تقريبًا — لدى شارل في قلعة سانت أنجلو. كان لا بد من استعادة العلاقات الودية بينهما. بعد ذلك ستكون اتفاقيات السلام الفردية مع كل أعداء الإمبراطورية السابقين من الإيطاليين، الذين كان من أبرزهم — بصرف النظر عن البابا نفسه — فينيسيا وفلورنسا وميلانو. آنذاك، فحسب، وبعد أن عمَّ السلام أرجاءَ شبه الجزيرة سيكون هناك مبرِّر لركوع شارل أمام كليمنت ليتلقى التاج الإمبراطوري. تم تحديد يوم التتويج ليكون الرابع والعشرين من فبراير ١٥٣٠م، وأُرسلت الدعوات إلى كل حكام العالم المسيحي. أعطى شارل وكليمنت نفسيهما أربعةَ أشهر لتقرير مصير إيطاليا.

المثير للدهشة أن يُكتشف أن هذه الفترة كانت كافية. قبل اليوم المحدَّد، كان شارل قد وضع أسسَ عصبة تشمل إيطاليا كلها — عصبة كانت شهادة على امتداد السلطة الإمبراطورية على أرجاء إيطاليا طولًا وعرضًا — لا تُقارن بما كانت عليه الأوضاع قبل قرون. وهكذا تم توقيع اتفاق السلام. عصبة الكونياك، التي أسَّسها كليمنت، وعملية نهْب روما بقيادة شارل، كانا قد أصبحا في عالم النسيان أو على الأقل لم يعودا في الأذهان. وفي الرابع والعشرين من فبراير ١٥٣٠م، في سان بيترونيو S. Petronio، تم تكريس شارل ومسْحه بالزيت لأول مرة، ثم تسلَّم من البابا السيفَ، و«الكرة السلطانية The Orb»، والصولجان ... وأخيرًا تاج الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة. ثم فجأة، نزل على مراسم اليوم شيءٌ أشبهُ بالغمامة. عندما انهار جسرٌ خشبي كان قد أقيم مؤقتًا ليصل بين الكنيسة والقصر. سقط الجسر أثناء مرور الإمبراطور عليه، ولكن عندما تم إسعاف المصابين الذين لم يكن بينهم شخصيات مهمة، ارتفعت الروح المعنوية مرة أخرى، واستمرت الاحتفالات حتى وقت متأخر من الليل.

كانت تلك آخرَ مرة في التاريخ يقوم فيها أحد الباباوات بتتويج إمبراطور. في ذلك اليوم انتهى ذلك التقليد الذي كان عمره سبعمائة عام، كان قد بدأ عام ٨٠٠م عندما وضع البابا ليو الثالث التاج الإمبراطوري على رأس شارلمان. انتهت السلطة الإمبراطورية التي لن يتم تسليمها بعد ذلك أبدًا، ولو رمزيًّا، من نائب المسيح على الأرض.

هوامش

(١) الفارس الذي لا يخاف، صاحب السجل النظيف.

(٢) موجودة الآن في قاعة الأعمال الفنية الوطنية في لندن.

(٣) هرب «جيم» بعد هزيمته إلى مصر أولًا، ثم إلى رودس؛ حيث دفع بايزيد خمسة وأربعين ألف قطعة ذهبية للفرسان لإزاحته من طريقه. كان بلا شكٍّ رهينةً ثمينة في يد العالم المسيحي. مات في نابولي في ١٤٩٥م. وهناك احتمالٌ كبير في أن يكون البابا ألكساندر السادس هو الذي دسَّ له السمَّ بتواطؤ من شقيقه السلطان.

(٤) Molto melancolico, Supertizioso e Ostinato.

(٥) كالعادة، لا بد من أخذِ مثل هذه الأرقام التي تذكرها الحوليات عن تلك الفترة بشيء من التحفُّظ.

(٦) أداة تعذيب قديمة، كان يُمَط عليها الجسم وتسبِّب آلامًا مبرِّحة. (المترجِم)

(٧) كان ليو العاشر قد مات في أواخر ١٥٢١م. خليفته «أدريان السادس Adrian VI» (هولندي من أوترخت وآخِر بابا من غير الإيطاليين حتى «جون بول الثاني John Paul II») استمرَّ في منصبه أقلَّ من عامين قبل أن يخلُفه ابنُ عم ليو: «جوليو دي ميديشي Giulio de Medici» أو «كليمنت السابع Clement VII»

(٨) الهركوبة سلاح ناري قديم. (المترجِم)

(٩) يوجد بالقرب من كنيسة «سانتو سبيريتو Santo Spirito» نقشٌ إحياءً لذكرى «بيرناردينو باسيري Bernardino Passeri» صائغِ البابا الذي سقط في ذلك المكان دفاعًا عن روما.

(١٠) انظر: The Sack of Rome J. Hook.

الفصل الخامس عشر

البربر وآل بربروسا

- عروج يزحف على الجزائر: ١٥١٦م.
- موت عروج: ١٥١٨م.
- الاستيلاء على الـ «بينون»: ١٥٦٠م.
- بربروسا يبدأ الهجوم على إيطاليا: ١٥٣٤م.
- الاستيلاء على تونس: ١٥٣٥م.
- حصار كورفو: ١٥٣٧م.
- التفكُّك الأوروبي: ١٥٣٨م.
- دوريا مضطربًا: ١٥٣٨م.
- تحالف بربروسا وفرنسا: ١٥٤٣م.

* * *

عدوانُ الناس على بعضهم البعض قديم، ومنذ أن عرف الناس صناعةَ السفن الصالحة للملاحة، كانت القرصنة موجودة، وقد عرفها البحر الأبيض. مارسها المسيحيون والمسلمون على السواء منذ العصور المظلمة، أحيانًا بدواعي الحرب وأحيانًا بدونها ... وغالبًا بضمير مستريح. بالنسبة للأتراك كانت أعمال فرسان سان جون أثناء وجودهم في رودس جديرةً بهذه التسمية، بينما كان من الصعب أن يعتبر فرديناند وإيزابيللا — بعد أن هزما مملكةَ غرناطة — تحرُّش المسلمين المستمر بالسفن الإسبانية في شمال أفريقيا، استمرارًا مشرفًا للحرب من جانب المهزوم. إلا أن الأمر كان كذلك من جانب المعتدين؛ ومع دخول القرن السادس عشر أخذت أعمال التحرش والاعتداءات هذه بُعدًا جديدًا، وأصبح الساحل المغربي — أو ساحل البربر — مقرونًا بأعمال القرصنة.

بعد أول ظهور للعرب قبل نحو تسعمائة عام، كان ساحل شمال أفريقيا — باستثناء «مليلة Melilla»، التي كان الإسبان قد احتلوها في ١٤٩٧م وبقيت إلى الآن أرضًا إسبانية — تحت حكم الخلافات الأموية والعباسية والفاطمية، والمرابطين والمهدية، إلى جانب أسرٍ أخرى أصغرَ مثل بني حفص في تونس، وبني زيان في المغرب الأوسط، وبني مرين في مراكش. في معظمها، لم تكن تلك الأنظمة بعيدةً عن الاستنارة؛ فقد كانت تسمح بحرية العبادة للمجتمعات المسيحية الصغيرة الموجودة بها، حتى إنه كان هناك في القرن الثالث عشر مطران في «فاس Faz»، التي كان يعمل بها «ليون الأفريقي Leo Africanus»، أمينًا لسجل «مستشفى الغرباء»، وقد بقيت كتابات ليون هذا أحدَ أهم مصادر المعلومات الأوروبية عن الإسلام على مدى أربعة قرون تقريبًا، كما أن له شهاداتٍ تعود إلى عام ١٥٢٦م عن «تحضُّر وإنسانية وحسن تعامل البربر ... أناس متحضرون يطبِّقون القوانين والأعراف على أنفسهم»؛ وكيف كانوا على دراية بالعلوم والفنون والآداب. ويبدو أنهم، إلى جانب ذلك، يقيمون علاقات تجارية وثيقة مع صقلية والجمهوريات التجارية الإيطالية، وكانوا معروفين جيدًا حتى لتجار القرن الخامس عشر الإنجليز، الذين كان الوصول إلى الجزائر أكثرَ سهولة بالنسبة لهم، منه إلى القسطنطينية، أو حتى فينيسيا. ولكن بالرغم من أن حكامها استطاعوا أن يحظروا القرصنة، فلم يكونوا قادرين على منْع القراصنة من الخروج إلى البحر، وكان الضحايا المسيحيون — وخاصة من سردينيا ومالطة وجنوة واليونان — يدفعون الكثير. حتى نهاية القرن الرابع عشر، كانوا يدفعون أفضل، وكانوا هم، وليس المسلمين، الإرهابيون الرئيسيون في البحر الأبيض؛ ولكن مع ظهور الأساطيل التجارية الكبيرة، فقدت حِرفتهم بعضَ مكانتها، ليحتل القراصنة المسلمون مركزَ الصدارة.

كان القرن الخامس — كما رأينا — قد شهد حدثَين جللين، في كلٍّ من طرفي المتوسط؛ في الشرق كان سقوط القسطنطينية في ١٤٥٣م — وتبِع ذلك إغلاق البحر الأسود أمام الملاحة المسيحية — وفي الغرب كان الطردُ التدريجي للمسلمين من إسبانيا في السنوات التالية لعام ١٤٩٢م. كلا الحدثين أدَّى إلى انتشار عدد كبير من المشرَّدين الذين لم يعرفوا الاستقرار — مسيحيون في الشرق ومسلمون في الغرب — كلهم تعساء وساخطون ويتطلعون إلى الثأر، ولجأ معظمهم لحياة القرصنة والمغامرة. كان من الطبيعي أن يرسي المسيحيون قواعدهم في الحوض الأوسط من البحر الأبيض؛ في صقلية أو مالطة، أو حول الجزر العديدة القريبة من ساحل دالماشيا. من الناحية الأخرى، لم يكن اهتمام المسلمين

سوى أن يلحقوا بإخوانهم في الدين في الشمال الأفريقي. كان هناك بين طنجة وتونس نحو ١٢٠٠ ميل، معظمها شريط خصب تصل إليه المياه، وعليه عدد كبير من الموانئ الطبيعية المثالية لخدمة أهدافهم. هكذا وُلدت أسطورة ساحل البربر.

بين قراصنة هذا الشاطئ، كان الأخوان بربروسا؛ «عروج Aruj» و«خضر Khizr»، هما الأكثر شهرةً وخطرًا، وكان الثاني معروفًا بـ «خرالدين بربروسا». كانا من مواليد «ميتيلين Mytilene» (ليسبوس Lesbos الحديثة) لواحد من الإنكشارية اليونانيين المتقاعدين كان يعمل بصناعة الأواني الخزفية، وامرأة كانت قبل الزواج منه أرملةَ قس يوناني. (وحيث إن كل الإنكشارية كانوا مسيحيين أصلًا قبل تحوُّلهم القسري، لم يكن في الأخوين بربروسا قطرةٌ واحدة من الدم التركي أو العربي أو البربري، كما أن لِحاهم الحمراء شهادة أخرى على ذلك). في بواكير شبابه كان عروج، أكبرُ الأخوين، قد شارك في حملة فاشلة ضد فرسان سان جون وأُسِر خلالها وأُجبر على العمل على جاليهاتهم (سفنهم الشراعية الكبيرة). بعد دفع فديته (ولا نعرف مَن قام بذلك)، عَهد إليه تجار القسطنطينية بمركب قرصنة ليعمل تحت إمرة حاكم مصر المملوكي.

وفي وقتٍ ما من سنوات القرن الأولى، ظهر هو وشقيقه في تونس بسفينتين من نوع «الجاليوت galleot»،[١] وفي ١٥٠٤م حصل عروج على أولى جوائزه الكبرى في القناة التي تربط بين جزيرة «إلبا Elba» والبر الإيطالي؛ سفينتين بابويتين محمَّلتين عن آخرهما ببضائعَ نفيسةٍ من جنوة. كانت السفينتان متجهتين إلى «شيفيتافيكيا Civitavecchia» ولكنهما لم تصلا إليها، وبعد اقتحامهما وأسْرهما أُعيدتا، بكل فخر، إلى تونس.

في السنوات التالية، سيتم اقتحام العديد من السفن الإسبانية، وسيكون لذلك نفس النتائج، وفي آخرِ الأمر سيرسل «الكاردينال خيمينيث Cardinal Ximenes» في ١٥٠٩م «دون بدرو نافارو Don Pedro Navarro» الشهيرَ، بما لا يقل عن تسعين سفينة، وجيش قوامه نحو أحد عشر ألف مقاتل، بذريعة نشر المسيحية على امتداد الساحل الأفريقي الشمالي، بينما كان السبب الحقيقي هو تأديب أولئك الأوغاد. عندما تم الاستيلاء على «أوران Oran» (وهران) في قتالٍ سقط فيه ثلاثون إسبانيًّا فقط، تم ذبح أربعة آلاف من سكانها بدم بارد، وحُمل خمسة آلاف آخرين إلى إسبانيا، إلى جانب عمليات سلب ونهب تقدَّر بخمسمائة ألف دوكاتية ذهب، وفي العام التالي لقيت كلٌّ من «بوجيا Bougia» و«طرابلس Tripoli» نفسَ المصير. ولكن عروج، الذي كان في ذلك الوقت قد استولى على جزيرة «جربه Djerba» كقاعدة لعملياته كان يزداد قوة، وفي ١٥١٢م استجاب لنداء من

حاكم بوجيا المنفي — مطرودًا بواسطة دون بدرو — لكي يعيده مقابل استخدام الميناء مجانًا. وبعد أسبوع من القصف المكثَّف، كانت الحامية الإسبانية على وشْك الاستسلام عندما أصابت طلقةٌ مباشرة ذراع عروج اليسرى لتقطعها. تم رفع الحصار وعاد الأسطول إلى تونس، ولكن ليس قبل أن يأسِر إحدى سفن جنوة وهو في طريقه.

سينتقم أبناء جنوة بعد وقت قصير؛ حيث سيسرع قائدهم البحري «أندريا دوريا Andrea Doria» باثنتي عشرة جالية إلى تونس للاستيلاء على القلعة ونهبها وأسر نصف أسطول القراصنة. إلا أن عروج عاد إلى الهجوم بعد التئام جُرحه، وفي ١٥١٦م تلقى نداءَ استغاثة آخر. كان النداء هذه المرة من الأمير الجزائري «سالم». لم يكن دون بدرو قد احتل المدينة بعد، ولكن قبل عامين، في محاولةٍ لمنع الهجمات الجزائرية المتواصلة على السفن الإسبانية، كان الإسبان قد حصَّنوا جزيرةً قريبة من الشاطئ في الخليج المعروف بـ «البينون The Penon»، الذي كانوا يستطيعون منه التحكُّم في الميناء وتهديد المرور في كلا الاتجاهين. لم يتردَّد عروج. كان سوء الحظ قد منعه من استعادة بوجيا، ولكن الجزائر كانت جائزةً أكبر، ويمكن أن تكون عاصمة فخمة لمملكة البربر الكبرى … ذلك الحُلم الذي كان يداعب خياله منذ أمد بعيد.

الآن، كان عروج قويًّا ويستطيع تعبئة أسطولٍ من ستين سفينة تحت قيادة شقيقه خضر، وجيشًا من ستة آلاف مقاتل. زحف بهذه القوة بحذاء الشاطئ إلى الجزائر، متوقفًا لفترة قصيرة — فحسب — عند «تشرشل Cherchel» بعد بضعة أميال غربًا؛ حيث كان قرصانٌ بحري آخر، تركي اسمه «كارا حسن Kara Hassan» قد اقتطع لنفسه سلطنةً صغيرة وجمع جيشًا صغيرًا من المسلمين والأتراك مع عددٍ من السفن. كان بربروسا في حاجة إلى هذه الإمكانيات، ولكنه بدلًا من التوصل إلى تحالف مع كارا حسن، وجد أن الأكثر سهولةً هو ضربة من سيفه المعقوف تطير رأس الرجل. بمجرد وصوله إلى الجزائر بدأ قصفه المكثَّف للقلعة إلا أنه لم يتمكن من تحقيق انتصار حاسم على مدى ثلاثة أسابيع، وهكذا كان أمام خطرِ ضياع هيبته واعتباره أمام الأمير، فقرَّر تغيير خطته. بعد أيام قليلة، وجدوا الأمير مقتولًا في الحمَّام الخاص به، وأعلن عروج نفسه سلطانًا بشكل رسمي.

الآن، كان الجزائريون يدركون خطأ دعوتهم بربروسا لمساعدتهم، ولم يمرَّ وقتٌ طويل حتى بدءوا محادثات سرية مع الحامية الإسبانية في البينون لإسقاطه. ولكن عروج بما لديه من شبكة جواسيس واسعة في أرجاء المدينة علِم بما كان يجري من حوله؛ وبينما كان كل أعيان المدينة من المواطنين في الجامع الكبير، غُلقت الأبواب ليجد المصلون أنفسهم

محاطين بمسلحين قيَّدوهم بعماماتهم واقتادوهم إلى الباب الرئيسي لمشاهدة قطع رءوس قادة المؤامرة.

سرعان ما وصلت أخبار الانقلاب إلى إسبانيا؛ حيث انزعج خيمينيث غايةَ الانزعاج، وفي مايو ١٥١٧م أرسل حملته الثانية ضد عروج. كانت الحملة مكوَّنة من عشرة آلاف مقاتل بقيادة القائد البحري للبلاد «دييجو دي فيرا Diego de Vera». مرةً أخرى، تصرَّف عروج بسرعة وانقضَّ على الإسبان أثناء عملية إنزال معدَّاتهم من السفن وقبل أن ينظموا صفوفهم، وقتل ثلاثة آلاف منهم؛ أما مَن بقي فعاد إلى السفينة على وجه السرعة لينجوَ بحياته. حتى في مثل تلك الظروف كان الحظ يعاندهم؛ إذ هبَّت عاصفة عاتية في آخر اليوم تقريبًا، لتعيد عددًا كبيرًا من السفن إلى الشاطئ حيث كان رجال بربروسا في الانتظار؛ أما البقية الباقية من الأسطول المدمَّر فكانت تشق طريقها بصعوبة، عائدة إلى بلادها.

بعد شهر، كان حاكم «تنيس Tenes»، وهي مدينة تقع إلى الغرب من الجزائر بنحو تسعين ميلًا، كان من الحماقة والطيش بأن يزحف على القرصان، وكانت النتيجة تدميرَ جيشه تمامًا. وبالرغم من تمكُّنه من الهرب إلى التلال، سقطت مدينته في يد عروج الذي أعلن نفسه سلطانًا مرة أخرى. بعد ذلك تبِعتها مدينة تلمسان على بُعد مائتي ميل غربًا، وعندما دخلها عروج في سبتمبر، جاءوا له برأس حاكمها السابق على رمح. باستثناء وهران وبوجيا والبينون وعدد قليل آخر من الحصون الساحلية، كان عروج بربروسا الآن سيدًا على كل المساحة — تقريبًا — التي تشكِّل الجمهورية الجزائرية الحديثة. لم يتطلب ذلك منه سوى ثلاثة عشر يومًا.

إلا أن وهران، كما اتضح فيما بعد، كانت كعب أخيل[٢] بالنسبة له. بعد وصول شارل الأول — الإمبراطور شارل الخامس فيما بعد — إلى إسبانيا في سبتمبر ١٥١٧م، سرعان ما عاد محافظ المدينة، «ماركيز كوماريس Marquis of Comares» إلى إسبانيا، لكي يقدِّم فروض الولاء والطاعة ويبحث الوضعَ العام في شمال أفريقيا، الذي كان قد وصل إلى مرحلةٍ تبعث على اليأس. كان آل بربروسا يزدادون قوةً كل يوم، وكانت الممتلكات الإسبانية الباقية على الساحل عرضةً لأخطارٍ وتهديدات تتزايد باضطراد؛ والآن ... كان الوقت المناسب للضرب مرة أخرى قبل فوات الأوان؛ وهذه المرة كان ينبغي عدم التهوين من شأن العدوِّ وقوَّته ومهاراته مثلما حدث، على نحوٍ مأساوي، في مناسبات سابقة. وافق الملك الشاب بسرعة، وأصدر أوامره على الفور بتجهيز حملة الشتاء القادم، على أن تبحر في الربيع لتعقُّب بربروسا والقضاء عليه.

كانت القوة هذه المرة مكوَّنة من «آرمادا Aramada»[٣] حقيقي وصل إلى وهران في الأشهر الأولى من عام ١٥١٨م، وجيش جيد التدريب انطلق متجهًا إلى تلمسان. لم يكن عروج واثقًا من دفاعات المدينة، فأرسل استغاثةً عاجلة إلى سلطان فارس، يطلب جنودًا ومعدَّات إضافية، إلا أن السلطان راوغ بينما كان جيش الإسبان يقترب، وليس هناك وقت لإضاعته. سيكون عليهم أن يُضحوا بـ «تلمسان»، ولم يكن أمام عروج سوى التقهقر إلى الجزائر. ولكن، ربما بسبب الانتظار بلا طائل لنجدة من فاس لم تأتِ، كان أن غادرها متأخرًا جدًّا. عرف كوماريس بذلك وانطلق يطارده. كان لدى عروج خيولٌ ممتازة إلا أنها لم تكن ندًّا للخيول الإسبانية الأصيلة التي انطلقت وراءه عبر المستنقعات. يقال إن عروج كان يلقي وراءه بذهبٍ وجواهرَ لكي يعطِّل مطارديه، ولكن كوماريس كان يمنع جنوده من النزول من على خيولهم، لكي يلحقَ به في النهاية بينما كان يخوض بجيشه نهرًا جبليًّا. كان عروج ومجموعته المتقدمة قد عبروا النهر بالفعل، إلا أنه عاد ليكون مع الباقين الذين لم يكونوا قد عَبَروه بعد، وبذلك كان يقدِّم جبهةً متحدة للقوة الإسبانية. على ذلك الشاطئ، كانت وقفته الأخيرة، وهناك قاتل بضراوة بذراع واحدة[٤] إلى أن لقيَ حتفَه. كان في الرابعة والأربعين.

كانت نهاية تليق بكلِّ ما سبق. كان عروج جسورًا دائمًا، أخرق أحيانًا، ولعله كان أول وأعظم القراصنة المتهورين الذين تركوا أثرًا باقيًا على مدى القرون التالية. من بين كل معاصريه، لم يكن هناك مَن يضارعه شجاعةً وجسارة سوى القرصان «هيرنان كورتيس Hernán Cortés»، كما كان يقال. لا بد أن نضيف أنه في إنجازه المدهش — عندما بدأ هو مجرد شخص أجنبي بلا حليف ولا يثق به أحد، وسط عِداء محلي وكلِّ ما يمكن أن ترميَه به إسبانيا، ويتمكن اعتمادًا على قوة شخصيته فحسب من إقامة دولة قوية في شمال أفريقيا في غضون سنوات قليلة، بقيت لفترة طويلة — لا بد من أن يكون مثل هذا الرجل صنوًا لأعظم الفاتحين.

بالنسبة لماركيز كوماريس، فإن موت أول بربروسا وتدمير جيشه، فتح الطريقَ إلى الجزائر؛ ولو أنه زحف على المدينة لكانت قد سقطت بالتأكيد، وعندما تكون الجزائر في يد إسبانيا، سيصبح باقي الشمال الأفريقي ملكًا له. إلا أنه لم يفعل شيئًا من ذلك. بل إنه عاد مباشرةً إلى وهران، وبذلك ضاعت الفرصة على إسبانيا ... لمدة ثلاثمائة عام. في الوقت نفسه كان خضر (أو خير الدين كما ينبغي أن نُطلق عليه) قد تسلَّم عباءة أخيه.

كانت المهمة صعبة، ولكن خير الدين لم تكن لتنقصه الثقة. ربما لم يكن له نفس حيوية عروج، ولكنه كان لديه كل طموحه، كل شجاعته، وربما حُنكة سياسية وحكمة أكبر. لم يكن من الوارد، على سبيل المثال، أن يفكر عروج في إرسال سفراء إلى القسطنطينية لإهداء الإقليم الجديد (الجزائر) للسلطان بشكل رسمي. بالنسبة لـ «سليم الأول»، الذي كان قد غزا مصر قبل عام، كان ذلك يعتبر توسعًا بالغَ الأهمية لإمبراطوريته الأفريقية في اتجاه الغرب. على الفور، قام السلطان سليم بتعيين خير الدين حاكمًا عامًّا باسم «بايلرباي Beylerbey»،[٥] وزوَّده بحرس شرف من ألفي جندي من الإنكشارية، وبمساعدة هؤلاء، تم استعادة كل الفتوحات الإسبانية باستثناء وهران وحصن البنيون المنيع بالقرب من ميناء الجزائر.

بعد ذلك كانت هناك تحالفاتٌ مع كل القبائل العربية والبربرية داخل البلاد؛ وفي وقتٍ قصير كان بربروسا الثاني، الأقوى من الأول كثيرًا، قد أصبح يسيطر على الحوضين الأوسط والغربي من البحر الأبيض المتوسط. جمع حوله جماعةً من كبار قراصنة البحر، كان من بينهم «دراجوت Dragut»، وهو مسيحي آخر متحول، أصبح يُعرف فيما بعدُ بـ «سيف الإسلام المسلول» وسنان، يهودي سميرنا، الذي كان متهمًا بأعمال السحر الأسود والشعوذة، و«أيدين رايس Aydin Reis» الرهيب، ونحو ستة آخرين، كانوا كلهم من رجال البحر الممتازين. لم تكن هناك سفينة أجنبية بمأمن من هجومهم بين شهري مايو وأكتوبر من كل عام، كما أنهم لم يكونوا يتردَّدون في المرور عبْر المضايق والخروج إلى براح الأطلنطي انتظارًا لعودة السفن الإسبانية من الكاريبي إلى «كاديز Cadiz» (قادش). لم يكونوا يتطلعون للحصول على ثروات فحسب؛ إذ إن كل شيء كان له قيمة؛ فالأسرى المسيحيون مثلًا كان يمكن استعبادهم للعمل على السفن أو تحريرهم فيما بعدُ مقابلَ فدية من الذهب.

هناك حدَث بعينه يصوِّر مدى تأثير القراصنة البربر في البحر الأبيض المتوسط؛ ففي عام ١٥٢٩م انطلق أيدين رايس بأربع عشرة سفينة صغيرة من نوع الجاليوت، في حملة إغارة على جزيرة «مايوركا Mallorca»؛ حيث كان قد سمِع عن جماعة كبيرة من «الموريسكيين Moriscos» (مسلمون متحوِّلون) يريدون الهربَ من سادتهم الإسبان، وكانوا على استعداد لدفع مبالغَ كبيرة مقابل توصيلهم إلى شمال أفريقيا. بعد أن رسا بسفنه سرًّا في الليل، قام بتحميل مائتي أسرة وأبحر عائدًا بكميةٍ كبيرة من الأموال والنفائس؛ وحدث أن وصل أسطولٌ من ثماني سفن إسبانية كبيرة بقيادة الجنرال

«بورتوندو Portundo» إلى المكان في الوقت نفسه. كان الأسطول عائدًا من جنوة؛ حيث كان بورتوندو قد رافق شارل الخامس لتتويجه إمبراطورًا في بولونيا بواسطة البابا. كان الأسطول يحمل عددًا كبيرًا من النبلاء الإسبان الذين حضروا الاحتفال. قام أيدين بإنزال ركَّابه على وجه السرعة وعاد من فوره إلى البحر ليهاجم سفينةَ قائد الأسطول ويقتحمها. قُتل بورتوندو في القتال المتلاحم الذي دار، وبعد انتهاء المعركة تمكَّنت إحدى السفن من الهرب إلى «أيبيزا Ibiza»، وتم أسرُ السفن السبع الأخرى. تم إطلاق سراح العبيد المسلمين الذين كانوا يعملون على السفن وتحريرهم من السلاسل وإحلال سادتهم السابقين محلَّهم؛ وبعد إصلاح السفن المعطوبة أُعيد تحميل الموريسكيين، وتم اقتياد السفن المأسورة بما عليها من مسافرين من علية القوم والعودة بها في موكبِ نصرٍ مع توقُّع الحصول على فدية كبيرة.

أخيرًا، كان بربروسا يشعر بأنه يستطيع الهجوم على حصن البينون. كان الحصن على الجزيرة الصغيرة في مدخل ميناء الجزائر تمامًا، وكان يشكِّل خطرًا على سفنه باستمرار، بيْد أنه كان لديه الآن ما يكفي من المدفعية الثقيلة لإنجاز المهمة. في السادس من مايو ١٥٦٠م بدأ الهجوم. بقي الحصن تحت القصف المتواصل ليلَ نهار لمدة خمسة عشر يومًا قبل أن يصدر الأمر بالهجوم النهائي، وعندما كانت القدرة القتالية للحامية الإسبانية قد نفدت. تم تفكيك المبنى وتجريده من كل وسائل الدفاع، كما تم استخدام العبيد المسيحيين على مدى العامين التاليين في البناء، واستخدام الأحجار وحاجز الأمواج الضخم الذي يصل الجزيرة بالبَر ويحمي الميناء من الجهة الغربية.

ولكن، لماذا كان للعالم الإسلامي كلُّ هذه السيادة البحرية في البحر الأبيض المتوسط في النصف الأول من القرن السادس عشر؟ أولًا: لأن منافسيهم المسيحيين كانوا قلة. كانت فينيسيا وجنوة تسيطران على الأدرياتيكي مع «البحر الأيوني Ionian Sea» مباشرةً إلى الجنوب؛ ولكن فرسان سان جون — أبرع مقاتلي البحر في تلك الأيام — كانوا قد طُردوا من رودس في ١٥٢٢م، ووجدوا وطنًا جديدًا لهم في مالطة بعد ذلك بسبع سنوات، وكان لا بد من أن يمرَّ وقت طويل قبل أن يأمُلوا في استعادة نفوذهم وقوَّتهم السابقة. إسبانيا، كما رأينا، لعبت دورًا كبيرًا، ولكن طاقاتها الرئيسية كانت موجَّهة نحو العالم الجديد، إلى جانب أن المسيحية ظلَّت منقسمة؛ ولو أنَّ إسبانيا وفرنسا، البابا والإمبراطور، الكنيستين الشرقية والغربية، مملكتَي نابولي وصقلية، أمراءَ الشمال الإيطالي، لو كان أولئك كلُّهم قد تجمَّعوا حول قضية مشتركة فلربما كانت النظرة إلى رعايا السلطان قد أصبحت صارمةً

بالفعل. كان الأوروبيون أكثرَ اهتمامًا بقتال بعضهم البعض، منهم بالوقوف متحدين ضد الأتراك؛ وعلى النقيض من ذلك، ظل الإسلام متحدًا.

كان هناك قائد مسيحي واحد يبدو قادرًا على البقاء محتفظًا بقوَّته. في ١٥٣٢م حقَّق «أندريا دوريا Andrea Dorea» الجنوي عدةَ انتصارات على الأساطيل العثمانية في المياه اليونانية. إلا أن هذه الانتصارات — على عكس المتوقَّع — كانت هي التي جلبت لـ «بربروسا» أثمنَ لحظات تاريخه وأكثرها مجدًا. كان من الواضح للسلطان سليم أن البحرية التركية أضعفُ من بحرية القراصنة، وأنه كان لا بد من إعادة تنظيمها، إذا كان هناك رجل واحد هو الذي يستطيع تحقيق ذلك. وهكذا كان أن وصلت إلى الجزائر في سبتمبر ١٥٣٣م بعثةٌ من «الباب العالي Sublime Porte»،[٦] تدعو خير الدين للحضور إلى القسطنطينية في أقرب فرصة. قبِل القرصان الدعوةَ بكل سرور وارتياح. وباعتباره أحدَ التابعين الأوفياء للسلطان — وكان كذلك دون شك — لا بد من أن يكون قد قدَّر ذلك الشرف الذي حظي به حقَّ قدره، ولا بد كذلك من أنه كان لديه أسبابه التي دعته لقبول الدعوة. في مرحلةٍ ما، كانت عينه على تونس الجارة الشرقية مباشرة. كانت تونس مركزَ القيادة بالنسبة له ولأخيه، ولكنهما لم يكونا يعيرونها أيَّ اهتمام في السنوات الأخيرة. في ١٥٢٦م كان قد وصل إلى العرش حاكم جديد من أسرة بني حفص بعد مقتل اثنين وعشرين من إخوانه (كما يقال).[٧] على الفور، أثبت هذا الحاكم الجديد أنه كان كارثة، وبحلول ١٥٣٢م كان بربروسا يتلقى استغاثاتٍ عدة من أصدقائه في تونس ليأخذ السلطة هناك. قبل أن يتخذ مثل تلك الخطوة، كان في حاجة إلى مباركة السلطان، وإذا استطاع أن يقنع سليمان بإمداده بالسلاح والرجال فسيكون ذلك أفضلَ كثيرًا.

في أغسطس التالي انطلق مبحرًا، حاملًا معه ما يليق بالسلطان من هدايا، كان من بينها (إن كان لنا أن نصدِّق «ساندوفال Sandoval» أسقف «بامبلونا Pamplona») مائتا فتاة مسيحية للحرملك الخاص بالسلطان، كانت كلٌّ منهن تحمل في يدها هديةً من الذهب أو الفضة؛ وتم استقباله بمثل ذلك الأسلوب. بعد أيام قليلة عُين عضوًا في الديوان بلقب باشا، وقائدًا عامًّا للأسطول، وكان أن بقيَ في القسطنطينية لمدة عام تقريبًا، أسَّس فيه البحرية العثمانية الحقيقية. في تقريرٍ له يعود إلى عام ١٥٤٣م كتب الوزير الفرنسي في المدينة يقول:

> بدأ التفوُّق التركي البحري منذ الشتاء الأول لخير الدين في أحواض بناء السفن في هذه المدينة … عند «بيرا Pera» (في الجانب الجنوبي الغربي من القرن الذهبي)،

> يوجد مكان على الشاطئ حيث يقومون ببناء وإصلاح الجاليهات وغيرها من السفن. هناك تقريبًا مائتا عامل ماهر يعملون ... أما المسئول عن ذلك كله فهو قائد عام يدعوه الأتراك بايلرباي البحر، وهو كذلك المسئول عن البحرية عند خروجها ... قبل أن يتولَّى هذه المهمة، لم يكن الأتراك يعرفون شيئًا عن فنون الملاحة. عندما كانوا يحتاجون أطقمًا للأسطول، كانوا يذهبون إلى جبال اليونان والأناضول ويأتون بالرعاة ويضعونهم على المجاذيف في الجاليهات أو للخدمة على السفن الأخرى. كان ذلك بلا فائدة، لأنهم لم يكونوا يعرفون كيف يجذفون أو كيف يصبحون ملاحين، ولا حتى كيف يقفون منتصبي القامة في البحر. لهذا السبب لم يبرز الأتراك في هذا الفن. ولكن، فجأة ... غيَّر بربروسا النظامَ كله ... ملهمًا رجاله بواسطة طاقته التي لا تنفد، استطاعوا أن يصنعوا إحدى وستين جالية في فصل الشتاء، واستطاع أن يخرج إلى البحر في فصل الربيع بأسطول مكوَّن من أربع وثمانين سفينة.

في يوليو ١٥٤٣م قاد خير الدين أسطوله الجديد، وانطلق من القرن الذهبي عبْر بحر مرمرة نزولًا إلى «هيليزبونت Hellespont» في البحر الأبيض المتوسط. ملتفًّا حول مقدم الحافر الإيطالي، قام بالاستيلاء على «ريجيو Reggio» التي قام جنوده بنهبها، ثم عبَر مضايق مسيني وانطلق بحذاء الساحل نحو نابولي. الغريب أنه لم يكن هناك أيُّ ردِّ فِعل من جانب نائب الملك الإسباني، فهل يا تُرى كان قد وصلته أيُّ رسالة سرِّية من القرصان تَعِده بعدم التعرض للمدينة في حال عدم المقاومة؟ على أية حال، لم تُمسَّ نابولي بسوء، وأكمل الأسطول طريقه إلى «سبيرلونجا Sperlonga»،[٨] التي كانت أقل حظًّا؛ حيث تم أسرُ صفوة نسائها وحملهن على السفن.

كان بربروسا قد وضع عينَه على امرأةٍ بعينها، كان يراها هديةً خاصة تليق بالسلطان؛ كانت «جيوليا جونزاجا Giulia Gonzaga»، الفاتنةَ أرملةَ «فسباسيانو كولونا Vespasiano Colonna»، التي كان هناك إجماعٌ على أنها أجمل نساء عصرها. رسم «سيباستيانو ديل بيومبو Sebastiano del Piombo» و«تيتيان Titian» بورتريهات لها، وكتب فيها «أريوستو Ariosto» و«تاسو Tasso» شعرًا يتغنَّى بجمالها، وكان لديها بلاط رفيع الثقافة في قصرها في «فوندي Fondi». كانت فوندي تقع على بُعد نحو اثني عشر ميلًا من تيراسينا، وكان خير الدين يأمُل في الاستيلاء عليها وعلى جيوليا بعملية مفاجئة. لحسن الحظ، كان قد بلغها تحذيرٌ قبل دقائق من وصولهم فاستطاعت أن تهرب مع

حاجبها، وكانت ما زالت بثياب النوم، وأمرت بقتله بعد ذلك بدعوى استغلاله ظروف تلك المحنة؛ ولأنه كان «وقحًا» معها (ولعله كان كذلك فعلًا بحسب الظروف) وكما كان متوقعًا، كان أن دفعت فوندي الثمن المعتاد.

عاد عددٌ قليل من السفن إلى القسطنطينية محملًا بالأسيرات من النساء اللائي كان مصير معظمهن أسواق العبيد التركية، وبالغنائم من المدن المنهوبة. كانت السفن كذلك تحمل الجزء الأكبر من جنود الإنكشارية الذين كان السلطان سليم قد وفَّرهم — ربما كانوا عائدين بأوامرَ من سليمان الذي كان قد خرج لمحاربة فارس، وكان في حاجة إلى كل القوى البشرية التي يمكن أن يضع يدَه عليها. اتَّجه الجزء الرئيسي من الأسطول، على أية حال، إلى تونس. بالنسبة لـ «بربروسا» كانت حملته الإيطالية مجرَّد خطوة تمهيدية، كانت تمرينًا صغيرًا لا ضررَ منه، لكي يترك انطباعًا جيدًا لدى السلطان عن أسطوله الجديد بعامة، وقائده الجديد بخاصة. والآن، كان قد حان وقت العمل الأكثر أهميةً وجِدية؛ إسقاط «مولاي حسن Moulay Hassan» وضم مملكته التونسية. وصل بالقرب من الميناء في السادس عشر من أغسطس، وبدأ القصف بالمدفعية ليكتشف أن مولاي حسن قد تمكَّن من الهرب. بعد يومين، قام الحاكم الهارب، بواسطة مائة ألف من الجنود المحليين غير النظاميين، بمحاولةٍ فاترة للعودة، ولكنه انسحب مسرعًا عندما فتح القرصان النارَ مرة أخرى. طوال موسم الشتاء، كان بربروسا حريصًا على أن يشغَل رجاله، كانوا يقومون بتقوية دفاعات الميناء وبناء قلعة جديدة تكفي لإيواء حامية من خمسمائة مقاتل.

ما كان ينبغي له أن يربك نفسه؛ فقد كان هذه المرة شديدَ التلهف أكثرَ مما يجب على تحقيق غايته. ربما، وهو يخطِّط لعملية تونس، لم يقدِّر ردَّ الفعل المحتمل لشارل الخامس، أو لعله قلَّل من أهميته، وكذلك من قدرة الأمير على الانتقام. ارتكب بربروسا — على أية حال — خطأً جسيمًا؛ فنظرة إلى الخريطة ستوضح أنه لا يمكن تصوُّر أن يقبل شارل قيامه بضم دولة لا تبعُد أكثرَ من مائة ميل عن الميناءين المزدهرين «ترباني Trapani» و«مارسالا Marsala» في صقلية الغربية، وأبعد من ذلك بقليل عن باليرمو نفسها. لم يكن مولاي حسن، ذلك اللاهي الساعي وراء الملذات بكل شكل، يمثل أيَّ خطورة. ولكن، بعد أن أصبح بربروسا في تونس، كانت قبضة الإمبراطور على صقلية قد باتت مهدَّدة ... وبشكل خطِر. بمجرد أن وصلته الأخبار بدأ التخطيط لحملة كبيرة لاستعادة المدينة. سوف يحتوي أسطول الغزو على سفن من إسبانيا ونابولي وصقلية

وسردينيا ومالطة — حيث كان فرسان سان جون قد استقروا بعد طردهم من رودس — وجنوة؛ ومرة أخرى سيكون أندريا دوريا هو القائد. أبحر الإمبراطور نفسه مع القوة الإسبانية - كانت تُقدَّر بأربعمائة سفينة — من برشلونة في أواخر مايو ١٥٣٥م إلى المكان المتَّفق عليه في «كاجلياري Cagliari» في سردينيا؛ حيث وصلوا في العاشر من يونيو، لتنضم إليهم مائة سفينة أخرى. بعد ذلك اتجهوا جنوبًا في اليوم الثالث عشر، وفي اليوم التالي اتجهوا نحو المكلأ[٩] خارج ميناء تونس.

في مواجهة أسطولٍ ضخم كهذا، كان خير الدين يعرف أن الأمل كان ضعيفًا في الاحتفاظ بالمدينة تحت سيطرته. ولأنه لم يكن يريد أن يفقدَ سفنًا أكثرَ مما يجب، حرص على إرسال خمس عشرة من أفضلها على امتداد الساحل إلى «بونة Bône» في منتصف المسافة إلى الجزائر تقريبًا، لتبقى آمنة هناك كقوة احتياطية. قاتل هو ورجاله ببسالة كعادتهم، ولكن في الرابع عشر من يوليو — بعد شهر بالضبط من وصول شارل — قام فرسان سان جون بالهجوم على قلعة «لاجوليتا La Goletta» التي كانت تحمي الميناء الداخلي، وبعد أسبوع كان الاثنا عشر ألف أسير المحتجزون في المدينة، قد تمكَّنوا من تحرير أنفسهم والانقضاض على آسريهم السابقين. كانت النتيجة أن ضاعت تونس وكان الدور على بربروسا لكي يفرَّ. انسل من المدينة بصحبة اثنين من زملائه القادة؛ أيدين رايس وسنان، وبعض رجاله الذين استطاعوا أن يتبعوه، واتجهوا نحو بونة.

عند هذه المرحلة، كان ينبغي أن يأمرَ شارل جيشه بالقيام بالمطاردة وإجبار خير الدين على معركةٍ ضارية، ولو فعل لكان قد دمَّر القرصان وجنوده إلى الأبد، ولما كانت سفن الإمبراطور الستمائة قد وجدت صعوبةً في منعه من الهروب بالبحر. ولكن الجنود — وربما البحَّارة كذلك — كانوا مشغولين بالسلب والنهب، كما كانت قواعد الحرب تسمح لهم بالقيام بذلك لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. بعد موافقته على أن يدفع للإمبراطور جزيةً سنوية، أُعيد مولاي حسن رسميًّا إلى قوقعة مدينته الخاوية؛ وبعد قيام الإسبان بإصلاح وإعادة تحصين لاجوليتا، أعلنوها أرضًا إسبانية وزوَّدها بحامية دائمة. كانت الحملة، بإجماع المسيحيين المنتصرين، ناجحة تمامًا. أصبحت تونس مرةً أخرى في أيدي صديقه، وصقلية كانت آمنة، والألوف من شركائهم في الدين قد تحرَّروا من الأسْر، وربما كان أفضل ما تحقَّق هو الهزيمة النهائية التي حاقت بـ «بربروسا» الذي لم يكن قد ذاق طَعم الهزيمة من قبل. الآن، كانوا يستطيعون كلُّهم العودة إلى أوطانهم المختلفة التي جاءوا منها، راضين تمامًا بما حقَّقوا.

أو هكذا كانوا يعتقدون. قام الإمبراطور بإرسال أندريا دوريا غربًا في حملةٍ على امتداد الساحل بحثًا عن القرصان الهارب والإتيان به لمحاسبته. لم يكن يعرف رجلَه حقَّ المعرفة. كان مما يتَّسق مع شخصية بربروسا أنه بدلًا من أن ينسلَّ عائدًا إلى الجزائر، كما كانوا يتصورون أنه لا بد فاعل، بقي بعض الوقت في بونة لكي يجمعَ المزيد من السفن والمؤن قبل أن ينطلق إلى جزر البليار. عندما اقترب أسطوله، ظنَّه سكان الجزر جزءًا من الأسطول الإمبراطوري عائدًا إلى برشلونة، وهو الانطباع الذي تأكَّد عندما رأوه يرفع الأعلام الإمبراطورية؛ ولذا لم تكن هناك مقاومة عندما رسا بهدوء في ميناء «ماهون Mahon» على الطرف الجنوبي الشرقي من «مينوركا Minorca». كانت هناك سفينة تجارية برتغالية راسية قامت بإطلاق نيرانها تحيةً، ثم فجأةً فتح الأسطول النار. قام البرتغاليون الذين فوجئوا تمامًا، بالدفاع عن أنفسهم قدْر استطاعتهم، ولكن تم أسرُ سفينتهم بسهولة. لم يستغرق الأمر أكثرَ من ساعات قليلة قبل أن يبدأ نهب وتدمير الميناء والمدينة كلها.

في أواخر صيف ١٥٥٣م، قام بربروسا برحلته الثانية إلى القسطنطينية. لم يَعُد إلى شمال أفريقيا بعد ذلك. أمضى سنوات عمره الأخيرة قائدًا للأسطول العثماني أكثرَ منه قرصانًا. كان مربكًا لأعداء السلطان وبخاصة الإسبان والفينيسيين والجنويين. حتى ذلك الحين كان مسموحًا لفينيسيا بمزاولة نشاطها التجاري دون التعرُّض لها. ويُعتقد أن إبراهيم باشا الوزير الأول لدى سليمان، كان مواطنًا فينيسيًّا بالميلاد على ساحل دالماشيا؛ ولكن المؤكَّد أنه بعد تحوُّله القسري إلى الإسلام، كان ما زال يحمل في قلبه ضَعفًا عاطفيًّا لفينيسيا، وكان يبذل كلَّ ما في وُسعه لاحترام ممتلكاتها في المتوسط. إلا أن إبراهيم قُتل في ١٥٣٦م بتحريضٍ من «روكسلانا Roxelana» زوجةِ سليمان التي كانت تريد المنصبَ لصهرها رستم باشا؛[١٠] ومنذ ذلك التاريخ ستصبح «سيرينيسيما Serrinissima» عُرضة للهجوم مثلما كانت إسبانيا وجنوة دائمًا.

في ذلك العام نفسِه، قام أسطول إمبراطوري بقيادة أندريا دوريا بالاستيلاء على عشر سفن تجارية تركية بالقرب من مسيني، وتبِع تلك الضربة الناجحة إغارةٌ قوية على جزء من الأسطول العثماني بالقرب من «باكسوس Paxos» في البحر الأيوني. أصرَّ السلطان على الثأر للإهانتين ووضع خطةً جسورة لذلك. في ربيع ١٥٣٧م سيقوم هو شخصيًّا على رأس جيش من عشرين ألف مقاتل ويتقدم عبْر تراقيا نزولًا إلى شبه جزيرة

البلقان حتى «فالونا Valona» فيما يسمَّى الآن ألبانيا؛ في الوقت نفسه سيبحر بربروسا بأسطولٍ من مائة سفينة إلى الميناء نفسه. هناك سينزل الجيش ويتقدَّم حتى برنديزي، التي كان قد تم رشوة حاكمها، فوعد بأن يفتح أبواب المدينة. لسوء حظ سليمان، كان أنه فشِلت الخطة عندما تم اكتشاف خيانة حاكم المدينة في الوقت المناسب. بوجود جيشه وأسطوله في الأدرياتيكي، كان على السلطان أن يستقر بسرعة على خطة بديلة. وبينما كان يتدبَّر الأمر، قام بربروسا بسلسلة من الإغارات الخاطفة على امتداد ساحل أبوليا، ليعود بأحمال الغنائم المعهودة وبأعداد من العبيد، ليجد أن سيده قرَّر حصار جزيرة «كورفو Corfu».

كورفو هي الأكبر بين جزر البحر الأيوني، وكانت مستعمرة فينيسية منذ الحملة الصليبية الرابعة.[١١] في تقسيم الأراضي البيزنطية السابقة، الذي تم في ١٢٠٤م، كان الدوج العجوز «داندولو Dandolo» قد ادَّعى لنفسه نصيبًا كبيرًا، ولم يكن لدى الجمهورية أيُّ شهية حقيقية ولا وسيلة لهضم ذلك. لم يكن أمامها سوى أن تترك الجزر الأيونية للمغامرين اليونانيين والإيطاليين الذين كانوا يحتلونها. منذ ذلك الحين كانت قد تناوبت على كورفو أيادٍ كثيرة. في البداية احتلتها أسرة «فينيير Venier» الفينيسية، وفي أوقات مختلفة كانت تحت سيطرة حكومة «إمبيريوس Empirus» و«مانفريد Manfred» الصقلي وبيت آل أنجو، ثم عادت لفينيسيا في ١٣٨٦م.

على خلاف كل الجزر المجاورة لها فيما عدا باكسوس، لم يكن العثمانيون قد استولوا عليها يومًا ما (وللمصادفة لم يحدث ذلك قط). في السنوات الأخيرة كانت محميةً بوضعها الفينيسي، ولكن إبراهيم باشا كان قد مات، وربما كانت تبدو فريسة سهلة لسليمان وجيشه الجرَّار. أنزل جيشه كلَّه بكل عتاده — نحو ثلاثين مدفعًا بما في ذلك مدفع هائل (يطلق قذائف تزن خمسين رطلًا) كان الأضخم في العالم آنذاك — وأحاط بالقلعة الرئيسية في المدينة وبدأ يدكُّها لكي تستسلم.

لحسن الحظ كانت دفاعات كورفو قوية، كانت المدينة في منتصف المسافة على الساحل الشرقي للجزيرة، تقع خلف وتحت القلعة المرتفعة التي تتوِّج شبه الجزيرة الصخرية البارزة نحو شواطئ ألبانيا وتسيطر على طرق الاقتراب برًّا وبحرًا. بداخل تلك القلعة كانت توجد حامية من نحو ألف إيطالي ونفس العدد تقريبًا من أهالي كورفو، بالإضافة إلى أطقم بعض السفن التي تصادَف وجودها في الميناء آنذاك. كان مخزون الذخيرة والغذاء كبيرًا والروح المعنوية ممتازة. كان لا بد من أن يكون الأمر كذلك؛ لأن المدافعين وجدوا — ويا لهول ما وجدوا — أنهم لم يكونوا في مواجهة هجوم بحري فحسب،

وإنما عملية عسكرية بحرية وبرية مخطَّطة جيدًا ... وعلى نطاق واسع. كان الدمار الذي لحِق بالمزارعين المحليين وغيرهم من المواطنين العاديين مروِّعًا، ولكن القلعة ظلت صامدة إلى حدٍّ ما، بالرغم من القصف المتواصل بالمدفعية التركية برًّا وبحرًا، والمحاولات العديدة لاقتحامها. ثم كان من حسن الحظ أن هطلت الأمطار. كانت كورفو مشهورة دائمًا بقوة عواصفها، ويبدو أن تلك التي هبَّت عليها في أوائل سبتمبر ١٥٣٧م كانت استثنائية حتى بالمقاييس المحلية. كان من المستحيل تحريك المدافع في الطين، انتشرت الديزنطاريا والملاريا في معسكرات الأتراك، وبعد حصار دام ثلاثة أسابيع، أقلع الأسطول العثماني في الخامس عشر من سبتمبر تاركا خلفه حامية صغيرة تحتفل بانتصارها ... إن كان لنا أن نقول ذلك.

ولكن الحرب لم تنتهِ. كان أسطول بربروسا ما زال نشطًا، والموانئ والجزر المتوسطية التي كانت ما زالت في أيدي الفينيسيين لم تكن منيعة مثلما كانت كورفو. وبالرغم من أن معظمها كان يعتبر، من الناحية النظرية، تحت حماية الجمهورية، كانت تحكمها عائلات خاصة ولم يكن لديها أي وسيلة لدرء أي هجوم متواصل. إلا أن بربروسا لم يكن يعرف الرحمة. سقطت كلها واحدة تلو الأخرى؛ «نابوليا Napulia»، و«مالفاسيا Malvasia» (الآن «مونمفاسيا Monemvasia» على الساحل الشرقي من البيلوبونيز)، وبعد ذلك جزر «سكيروس Skyros»، و«أيجينا Aegina»، و«باتموس Patmos»، و«إيوس Ios»، و«باروس Paros»، و«أستيبالايا Astipalaia»، وكانت كلُّها أقرب إلى الأراضي التركية منها إلى فينيسيا، التي كان أسطولها محاصَرًا بواسطة حشد من السفن العثمانية، في المناطق الضيقة من الأدرياتيكي.

هكذا تم تركيع أكثر الجمهوريات هدوءًا وسكينة. كان خير الدين بربروسا هو المسئول عما لحِق بها من إذلال ومهانة، ولا عجب في أنه عندما عاد إلى القسطنطينية استقبلوه استقبالَ الأبطال، وكما لم يحدث من قبل. ولكنه أعطى مثلما أخذ؛ أربعة آلاف قطعة ذهبية، ألف امرأة شابة، ألفًا وخمسمائة صبي. كانت هناك كذلك هديةٌ سخية للسلطان؛ أربعمائة صبي آخرون في لباس قرمزي يحملون آنيةً من الذهب والفضة وبالات الحرير النفيس وأكياسًا مطرَّزة مكتنزة بالعملات الذهبية.

أما بالنسبة للفينيسيين، فعندما كان بربروسا المنتصر يبحر في القرن الذهبي كان انتصار كورفو قد تبدَّد وضاع بريقه، كان كل أسبوع يأتيهم بأخبارٍ عن هزائمَ جديدة

وخسائرَ جديدة. في ١٥٣٨م كان بربروسا مرة أخرى على طريق الحرب؛ يروِّع أولًا جزر «سكيروس Skyros» و«سكياتوس Skiathos» في «سبوراديس Sporades»، ثم أندروز في «سيكلاديس Cyclades» وغيرها الكثير من الجزر الصغيرة المجاورة. أما بالنسبة للجزر الأكبر حجمًا والأكثر أهمية، ففرض عليها جزية سنوية. كانت الجزر الصغيرة مجبرة على تقديم القوة البشرية اللازمة للجاليهات؛ حيث كان الأسطول الكبير الذي يقوم ببنائه في حاجة إلى آلاف المجذِّفين، وكان هناك نقص شديد فيهم. بعد ذلك اتَّجه شمالًا نحو كريت التي كانت ما زالت المستوطنةَ الفينيسية الرئيسية في الحوض الشرقي للمتوسط. كانت تحصينات العاصمة (كانديا Candia) تبدو منيعة، ولكنَّ ما يزيد عن ثمانين قرية على امتداد الساحل، وعددًا كبيرًا من الجزر الصغيرة النائية، لم تكن حسنة الحظ كذلك.

في الوقت نفسه، كانت القوى الأوروبية تبدو عاجزةً عن عَقد تحالفات لا تسمِّمها الشكوك المتبادلة والخلافات الصغيرة حتى قبل أن تبدأ. في صيف ١٥٣٨م جرت محاولةٌ من هذا القبيل عكف عليها الإمبراطور والبابا وفينيسيا، مع حماسةٍ شديدة لحملة صليبية ودرجة من التفاؤل، لدرجةِ أن المشاركين وضعوا خططًا مسبَّقة لتقسيم الإمبراطورية العثمانية بينهم؛ لم تنتهِ، كما كانوا يتصورون، بالاستيلاء على القسطنطينية، وإنما بانتصار عدوٍّ لـ «بربروسا».

حدث أنه بينما كان يصول ويجول على طول الساحل الجنوبي لـ «كريت»، أن جاءته أخبارٌ عن أسطول مشترك كان متجهًا صوب الجنوب في الأدرياتيكي نحو «الجزر الأيونية Ionian Islands». كانت القوة الفينيسية وحدَها مكوَّنة من إحدى وثمانين سفينة بعضها شراعي ومعظمها جاليهات ذات مجاذيف. أما إسهام البابا فكان عبارة عن ست وثلاثين جالية أخرى بقيادة الفينيسي «ماركو جريماني Marco Grimani»؛ ثم لحِقت بذلك كله، بعد وصولهم إلى كورفو، ثلاثون سفينة أخرى من إسبانيا؛ ومع ذلك لم يكن كل هذا الحشد سوى طليعة الأسطول؛ إذ كان من المتوقَّع أن تصل بعد وقت قصير تسع وثلاثون سفينة أخرى، مرسَلة من قِبل الإمبراطور وكانت قد تأخَّرت انتظارًا لوصول سلاحه السري؛ خمسون جالية كبيرة ذات أشرعة مربَّعة، مجهَّزة بتسليح ثقيل، كانت قد أثبتت كفاءتها في الأطلنطي والعالم الجديد، ولم يسبق لها أن ظهرت في البحر الأبيض المتوسط. كان المتوقَّع أن يعهد شارل بقيادة هذه القوة كلها للأدميرال أندريا دوريا، الذي كان محلَّ ثقته.

لمواجهة ذلك، استطاع بربروسا أن يحشد نحو مائة وخمسين سفينة مما لديه، تحت قيادة دراجوت وسنان وعدد آخر من القراصنة السابقين ذوي الخبرة والشجاعة.

هنا كانت أيضًا قوة كبيرة إذا كان الكم هو كل شيء، ولكنها لم تكن ندًّا للخَصم. كان الأسطول التركي متحدًا بينما لم يكن المسيحي كذلك على الإطلاق. لا أحد من الفينيسيين كان سيقبل طواعية — من البداية — أن يكون قائد الأسطول من أبناء جنوة، كذلك لم يكن هناك أي ودٍّ مفقود بين الإيطاليين والإسبان. كان هناك كذلك خلاف حول الأهداف البعيدة. كان «كابيللو Cappello»، قبل أي شيء مهتمًّا بحماية الجزر الأيونية التي كانت تتحكم في مدخل الأدرياتيكي، أما اهتمام «جريماني Grimani» الرئيسي فكان الساحل الغربي لإيطاليا وموانئ «شيفيتافيكيا Civitavecchia» و«أوستيا Ostia» وروما نفسها، وهي على بُعد أميال قليلة من أوستيا أعلى التيبر. لم يكن الإسبان مهتمين بشيء من ذلك كله. إسبانيا بعيدة جدًّا. لا شك أنهم كانوا يريدون أن يلقِّنوا الأتراك درسًا، وبعد ذلك كانوا — قبل أي شيء — يريدون العودة إلى بلادهم بأي جائزة يمكن الحصول عليها. الخلاف باختصار، كان يمكن احتواؤه ولكن النفوس لم تهدأ بسبب تأخُّر دوريا وأسطوله، وهو ما أدَّى إلى استمرار حالة السكون من أيام إلى أسابيع.

وأخيرًا لم يكن ماركو جريماني يستطيع أن يتحمَّل أكثرَ من ذلك؛ فقام بقيادة الأسطول البابوي وخرج من كورفو متجهًا جنوبًا صوب «بريفيزا Preveza» عند مدخل «جون آرتا Arta». كان ذلك المنفذ الضخم للبحر الأيوني، في الواقع خليجًا متسعًا أكثرَ منه جونًا. يمتد على مساحة مائتين وخمسين ميلًا مربعًا، وتمرُّ به قناة ضيقة متمعجة في مناطقَ لا يزيد اتساعها عن ربع الميل. كانت بذلك توفِّر ميناء طبيعيًّا غير عاديٍّ، وكان هدف جريماني هو أن يقنع نفسَه بأن الأسطول التركي لم يكن قابعًا هناك في الانتظار. اتضح أن الأمر كان على العكس من ذلك؛ من ناحية أخرى كانت قلعة بريفيزا محميةً تمامًا وعازمة على القتال، وأصابت مدفعيتها المعتدين بخسائرَ كبيرة قبل أن يلوذوا بالفرار.

لو أن جريماني كان قد أخَّر حملته أيامًا قليلة لتأكدت أسوأ مخاوفه. لم يكد أسطوله يغيب في الأفق الشمالي حتى أبحر أسطول بربروسا من الجنوب متجهًا صوب الجون مباشرة، وهنا بالقرب من «أكتيوم Actium»، عند نفس النقطة التي تقابل فيها أوكتافيان ومارك أنتوني قبل ألف وخمسمائة وسبعين عامًا، بدأ يستعد للمعركة.

لم يصل أندريا دوريا بغلايينه إلى كورفو إلا في الثاني والعشرين من سبتمبر. آنذاك، كانت أخبار تحرُّكات حملة بربروسا قد وصلت الجزيرة، ويوم الخامس والعشرين اتَّجه كل الأسطول إلى مكان قريب من بريفيزا. ولكن ماذا كان عليه أن يفعل بعد ذلك؟ لو أنه

أبحر في القناة الضيقة في طابور واحد تحت قصف مدافع القلعة، ثم قصف الأسطول التركي بعد ذلك، لكانت عملية انتحارية؛ في مثل تلك الظروف ربما كان الأفضل أن يقوم بالهجوم على القلعة ويستولي عليها ويوجِّه مدافعه نحو الأعداء. إلا أن دوريا رفض التفكير في هذا الاتجاه. أي خسائر كبيرة على البر سوف تُضعِف أسطوله بدرجة كبيرة لو تبِع ذلك معركة بحرية؛ كان يعرف أيضًا أن ذلك كان موسم العواصف الاستوائية الشديدة عندما يبلغ غدر المتوسط أقصى مدًى له. في حال حدوث عاصفة مفاجئة — وكانت عواصف سبتمبر يمكن أن تهبَّ فجأة وبعد أن تكون السماء زرقاء صافية — فلربما اضطُر لسحب الأسطول إلى شاطئ محميٍّ نوعًا ما من الرياح، تاركًا أيَّ قوة برية دون دعم. كان الوضع أقربَ إلى الورطة.

لهذا السبب، ودون شك في ذلك، أعطى دوريا أوامره ليلةَ السادس والعشرين لرفع المراسي والإبحار جنوبًا في المياه التركية. لن يكون أمام بربروسا، الذي كان يعي تمامًا قوة عدوِّه ولكنه يجهل وجهته، لن يكون أمامه من خيار سوى أن يطارده، ولربما تقابل الأسطولان في عرض البحر. إلى هذه الدرجة كان دوريا محقًّا؛ إذ عندما أبحرت سفنه بالقرب من الساحل الغربي لجزيرة «ليوكاس Leucas» ظهر الأتراك من خليج آرتا لكي يتبعوه. كانت مشكلته أن أسطوله الذي كان جزءٌ منه جاليهات ذات مجاذيف، وجزء آخر غلايين شراعية، كان من المستحيل أن تكون كل سفنه معًا أثناء الإبحار لاختلاف إمكانياتها الفنية. عندما تكون الرياح مواتية كانت الغلايين تتقدَّم بسرعة، وعندما تتغير فجأة أو تهدأ، كانت الجاليهات إما أن تسبقها أو تنتظرها حتى تلحق بها. وهكذا عندما كانت سفينة القيادة تدور حول الحافة الجنوبية الغربية لجزيرة ليوكاس، كانت بعض الغلايين الثقيلة هاجعة على مسافة أميال قليلة من نقطة انطلاقها.

تغيَّرت الرياح بالفعل. صباح الثامن والعشرين، كانت تهبُّ من ناحية الجنوب، واصطف الأسطول في خطٍّ على امتداد الساحل الغربي للجزيرة. من المؤكد أن تلك كانت اللحظة المواتية لـ «دوريا» لكي يعود وكل أشرعته في اتجاه الشمال، ليعيد تجميع سفنه ويقابل الأتراك رأسيًّا. ولكنه بقي حيث كان، وهو ما لا يمكن تفسيره. في الوقت نفسه قام الأسطول العثماني — وكانت كل سفنه تقريبًا بمجاذيف — بتطويق الطرف الشمالي من ليوكاس، وكان بربروسا في المنتصف ودراجوت يقود الجناح الأيمن، وصلاح رايس الأيسر. وهناك أمامهم مباشرة، كانت السفينة الأكبر والأقوى والأثقل — في مثل تلك الظروف — ومن ثَم الأكثر بطئًا في كل سفن الحلفاء. كانت تُعرف بـ «غليون فينيسيا»، تحت قيادة قبطانٍ من ألمعِ شباب الجمهورية هو «أليساندرو كوندلمر Alessandro Condulmer»،

ومسلَّحة بكمية كبيرة من المدفعية — بقدرِ ما قد يوجد في القلعة الساحلية عادة — وكانت قادرة على الدفاع عن نفسها؛ ولكن حيث إنها كانت مستترة بجبال ليوكاس، كانت ثابتة في مكانها. أرسل قبطانها قاربًا سريعًا إلى قائده يطلب نجدةً عاجلة.

قام بربروسا بالهجوم، ولكن أداء كوندلمر كان باهرًا، انتظر حتى أصبحت السفن التركية المهاجمة داخل مرمى النيران، ثم بدأ يقصفها واحدةً تلو الأخرى. إلا أنه كان يعرف أنه لن يستطيع الصمود إلى ما لا نهاية ضد عدوٍّ كهذا. كان كل شيء يتوقَّف على سرعة وصول جاليهات دوريا، ولكنها لم تصل. عندما تكون الرياح من خلفهم، وهو ما كان فعلًا، كان يمكن أن تستغرق رحلتهم ثلاث ساعات على الأكثر، ونحن نعرف كذلك أن «فينسنزو كابيللو Vincenzo Cappello» و«ماركو جريماني Marco Grimani» كانا يحثان قائدهما بقوةٍ لكي يبحرَ بأسطوله كاملًا لنجدتهما؛ وعندما وافق في النهاية كانت قد بدأت ظلمة أول الليل، وحتى آنذاك أصرَّ على إقلاع الأسطول متخذًا مسارًا قوسيَّ الشكل في اتجاه الغرب.

وهكذا كان على كوندلمر أن يحارب معتمدًا على نفسه ليثبت، بالمصادفة، أن الغليون القوي مع طاقمٍ جيد التدريب منضبط حتى وإن كان لا يتحرك، كان سلاحًا أكثرَ فعالية من أي عدد من الجاليهات ذات المجاذيف. وبناء على ذلك، فإنه وسفنه ومعظم رجاله قد نجَوا. ولكنه لم يستطِع أن يحسم نتيجة المعركة، وعندما أعاد توجيه سفنه إلى بريفيزا عند الغروب كان قد استولى على الأقل على جاليتين، واحدة فينيسية والأخرى من الأسطول البابوي وخمس سفن شراعية إسبانية. كان يمكن لـ «دوريا»، والرياح خلفه، أن يقوم بمطاردة عدوِّه عند أول ضوء في الصباح التالي. كانت قواته أفضل ونيرانه أكثر تفوقًا. كان يمكنه، دون صعوبة على الإطلاق، أن يقلب الموازين وأن يُنزل خسائرَ فادحة بالأسطول التركي، إلا أنه بدلًا من ذلك كله تجاهل الأمر تمامًا واتجه عائدًا إلى كورفو.

تُرى لماذا كان تصرُّف أبرز قائد بحري جنوي على ذلك النحو؟ بكلمات مؤرخ بحري فرنسي — كان هو الآخر أدميرالًا: «لقد قام الإنجليز بإعدام الأميرال» بينج Bying «في ١٧٥٦م لأسباب أوهى من ذلك.»[١٢] هل كان ذلك مجرد حقدٍ من دوريا على فينيسيا؟ وحيث إنه لم يكن جبانًا أو أحمق، كان لا بد من أن تكون هناك خيانة أو خبث. أيًّا كان السبب، فإن رفضه الاشتباكَ مع عدد أقلَّ منه قوةً بكثير، قد أضاع فرصة انتصار حاسم. وبسببه فقط كان الانتصار من نصيب بربروسا، أما الخاسر المباشر، دون أدنى شك، فكان فينيسيا.

كان قد بات واضحًا الآن أن فينيسيا لا بد من أن تدخل في مفاوضات سلام مع السلطان بأي شروط تستطيعها. بين كل خسائرها الأخيرة، كان أكثر ما أصابها بالشلل ما حدث لـ «نوبليا Nauplia» و«مالفاسيا Malvasia»، آخر مراكزها التجارية مع البيلوبونيز، التي كانت مستعدة لدفع فدية (ثلاثمائة ألف دوكاتية) لاستعادتها. كان ذلك مبلغًا كبيرًا بكل المقاييس، وكان يُعتقد أن سليمان سيكون سعيدًا ويقبل بذلك. اتضح أنه لم يكن من ذلك النوع، وفي ١٥٤٠م كانت فينيسيا مضطرةً لقبول اتفاقية بشروطٍ أكثرَ قسوةً مما كانت تتصور. كان المبلغ الذي عرضته من قبلُ مطلوبًا الآن منها كتعويض عام، أما مسألة عودة نوبليا ومالفاسيا أو غيرها من المناطق التي فُقدت في السنوات الثلاث السابقة، فلم تكن مطروحة للنقاش. في المستقبل كذلك، لن يكون مسموحًا للسفن الفينيسية بدخول الموانئ التركية أو مغادرتها دون تصريح. كانت ضربة لن تفيق منها الجمهورية، ولكنها كانت تعبِّر عن وضعٍ يحمل المزيد من القلق للبحر الأبيض المسيحي. في كل مكان، كان يزداد وضوحًا أن زمن التوسعات قد انتهى، وأن أيام الانكماش بدأت. كان شكل التجارة يتغير بسرعة؛ وحتى بالرغم من أن الآثار الاقتصادية غير المواتية لم تكن بالسوء الذي كان يخشاه المتشائمون، لم يكن هناك بوادرُ تؤدي إلى التفاؤل — كان «التركي» على الأبواب، يزحف، شهيته مفتوحة؛ أما الغرب المسيحي فكان قد فشل في مواجهته بأي قدرٍ من المقاومة الجماعية.

بربروسا الآن في الخامسة والخمسين تقريبًا. ما زال أمامه نحو سبع سنوات في خدمة سلطانه، سوف يبرهن فيها على ذكائه كما كان دائمًا، ولكنه من الآن فصاعدًا سيكون عليه أن يقاتل إلى جانب حليف جديد ... غير متوقَّع. فرانسيس الأول ملك فرنسا!

قبل عامين، أي في ١٥٣٦م، كنا نرى أسطولًا تركيًّا يقضي فصل الشتاء في ميناء مرسيليا؛ وفي السنوات التالية كانت العلاقات بين القوتين — وهو ما كان مثيرًا لامتعاض بقية أوروبا المسيحية وعدد كبير من الفرنسيين أنفسهم في الحقيقة — تبدو أكثر مودةً على نحوٍ مضطرد. بالنسبة لـ «فرانسيس»، كان هناك الآن حليف ثمين على استعداد أن يحارب له معركته مع الإمبراطور؛ وبالنسبة لـ «سليمان المعظم»، كانت تلك فرصةً نادرة لشق صفوف العالم المسيحي، على نحوٍ غير مسبوق.

ثم كان في ١٥٤٣م أن تحرَّك هذان الحليفان غير المتوقعين ضد عدوهما المشترك، ولكنهما عندما فعلا ذلك تحرَّكا بقوة. في مطلع صيف ذلك العام نفسه، قام أكثر من

مائة سفينة تركية بالهجوم على شارل في الجنوب الإيطالي، أكثرِ أماكنَ وجود قواته ضعفًا. اندفعت السفن جنوبًا لتكتسح ريجيو (حيث قام بربروسا بأسرِ ابنة حاكمها، ثم تزوَّجها بعد ذلك، كما تقول إحدى الروايات)، ثم تعبر مضايق مسيني وتهجم، بلا رحمة، على ساحل كالابريا، مع عمليات سلب ونهب أينما ذهبوا. عند وصولهم إلى «جاييتا Gaeta» اقتحموا القلعة واستولوا عليها ونشروا الخراب والفوضى في المدينة. بعد أيام قليلة ظهروا عند مصب نهر التيبر، ليقتحموا شيفيتافيكيا قبل أن يتجهوا صوب الشمال الغربي إلى مكان لقاءٍ في مرسيليا، كان قد سبق الاتفاقُ عليه مع الفرنسيين.

إلا أن المتاعب بدأت. لم يكن هناك أيُّ دليل على وجود مخازن ومواد تموينية، كان بربروسا قد طلبها وكان يعتمد عليها، وهو ما كان فرانسيس قد وعده بأن يجدها في انتظاره هناك. حاول ممثل الملك وقائد جاليهاته دوق إنجيا Duke of Enghien أن يعتذر، وكذلك كل مَن حاول بربروسا الاتصال بهم من كبار القادة الفرنسيين، الذين كانوا يُظهِرون للقرصان السابق احترامًا وتوقيرًا مُبالغًا فيه. إلا أن بربروسا لم يكن ليخفيَ استياءه ولا احتقاره لذلك الإهمال الذي لا يُغتفر. كان غاضبًا لدرجةِ أنه رفض اقتراح إنجيا بأن يبحر الأسطول المشترك شرقًا بحذاء الساحل إلى «نيس Nice». هذه المدينة، التي كانت تنعم بالسلام والرفاهية منذ أواخر القرن الرابع عشر تحت حكم دوقات سافوي، أصبحت هي سبب وموضوع الخلاف بين شارل وفرانسيس منذ بدأت المنافسة بينهما. كانت هذه المدينة تواجه الآن أعنفَ قصف في تاريخها.

إذا كان هناك في تلك المدينة مَن يتذكر حصار أغسطس ١٥٤٣م، فلا بد من أن يكون ذلك بسبب بسالة بطلتها المحلية. في الصباح الباكر يوم الخامس عشر من أغسطس قام بربروسا وإنجيا بفتح ثغرة في سور المدينة بالقرب من أحد الأبراج الرئيسية؛ وكانت الحامية على وشْك الفرار عندما قامت امرأة محلية تُدعى «كاترينا سيجورانا Caterina Segurana» وعددٌ من الرجال الشجعان الذين دعتهم لمساعدتها، بسدِّ الطريق أمام أفراد الحامية وأجبرتهم على التوقف. تم إنقاذ المدينة مؤقتًا، ولكن كان كلُّ ما فعلته كاترينا أن أخَّرت ما كان حتميًّا، لبعض الوقت. بعد أسبوع واحد فحسب، استسلم القائد رسميًّا يوم الثاني والعشرين من أغسطس. بهذا الفعل، كان من حقِّه — كما كان متوقعًا دون شك — أن يحصل على شروطٍ غير مهينة؛ غير أن المدينة، في غضون يومين، كانت عرضة للسلب والنهب … ثم أُضرمت فيها النيران. سيقع اللوم، حتمًا، على الأتراك، ولكن المؤكد أن الجنود الفرنسيين كانوا هم المسئولين. كان ذلك أيضًا هو رأي

«الماريشال دي فييفي Maréchal de Vieilleville» عندما أملى مذكِّراته في ١٥٧١م، قبل وفاته بوقت قصير:

«نُهبت مدينة نيس وأُحرقت، وهو أمرٌ لا يمكن أن يكون بربروسا أو المسلمون مسئولين عنه؛ لأنه عندما حدث ذلك كانوا بعيدين ... أُلقيت مسئولية هذه الفظائع على بربروسا المسكين لحماية شرف فرنسا ... وشرف المسيحية في الحقيقة.»

وبالرغم من أن الأسطول العثماني عاد إلى طولون للبقاء هناك حتى انقضاء فصل الشتاء، فإن الاستيلاء على نيس، كان أول وآخر عملية مشتركة بين التحالف الفرنجي-التركي. في ١٥٤٤م، عَقد فرانسيس حلفًا مع عدوِّه القديم شارل الخامس، وعاد خير الدين بربروسا إلى القسطنطينية عودةَ الأبطال — ناهبًا ومخرِّبًا في طريقه «إلبا Elba» و«بروكيدا Procida» و«إسكيا Ischia» و«ليباري Libari» و«الجزر الإيولية Aeolian Islands»، وكانت كلُّها أراضيَ إمبراطورية. بعد عامين، توفي وكان في الثالثة والستين. بعد فترة قصيرة، أصبح حسن، الابنُ الوحيد المعروف لنا، حاكمًا على الجزائر، المملكةِ التي كان أبوه وعمُّه قد أسَّساها؛ ولكن الخليفة الحقيقي للرجل العجوز كان «دراجوت Dragut»، الذي كان نائبًا له لفترة طويلة، والمعروف ب «الخريطة الحية للبحر الأبيض المتوسط»، وهو الذي أكمل عمله. كان دراجوت هو الذي انتزع طرابلس من أيدي فرسان سان جون،[١٣] وهو الذي، بعد تسع سنوات، سيهزِم أسطولًا إسبانيًّا، كان قد أُرسل لإزاحته، هزيمةً منكرة. بعد ذلك سيكافَأ بسلطنة طرابلس، لن يعلق سيفه قط؛ ففي ١٥٦٥م، وهو في الثمانين من العمر، سيُقتل في الميدان أثناء حصار مالطة.

أما حصارُ مالطة هذا ... فتلك قصةٌ أخرى.

هوامش

(١) الجاليوت: قاربٌ مفتوح، على كل جانب منه نحو سبعة عشر مجذافًا، وعلى كل مجذاف اثنان أو ثلاثة مجذِّفين. (المترجِم)

(٢) أي نقطة ضَعفه. (المترجِم)

(٣) أسطول حربي ضخم. (المترجِم)

(٤) كان قد فقد ذراعه اليسرى في معركة سابقة، كما ورد في بداية هذا الفصل. (المترجِم)

(٥) بايلرباي: كلمة تركية تعني «باي البايات»، وهو لقبٌ ومركز إقطاعي. كان البايلرباي، إبَّان الإمبراطورية العثمانية، يحكم إقليمًا. (المترجِم)

(٦) حكومة الإمبراطورية العثمانية.

(٧) حيث إن تعدُّد الزوجات كان هو القاعدة، لن يكون هذا العدد من الإخوة في أسرةٍ واحدة مثيرًا للدهشة، بل ربما يكون العكس.

(٨) حيث كان للإمبراطور «تيبيريوس Tiberus» فيللا هناك، وقام بتحويل كهفٍ مجاور (يمكن رؤيته اليوم) إلى قاعة للولائم، وذات ليلة (حسب رواية «سيوتونيوس Suetonius»)، بينما كان يولِم لرفاقه، انهار جزءٌ من السقف فجأة ليقتل عددًا من ضيوفه ومن رجال الخدمة، إلا أن الإمبراطور نجا.

(٩) المكلأ roadstead: موضع بالقرب من الشاطئ تستطيع السفن الرسوَّ فيه. (المترجِم)

(١٠) هناك تخليدٌ لكليهما في إسطنبول الحديثة؛ إبراهيم باشا بقصره على الجانب الشمالي من ميدان سباق الخيل (الآن متحف الفن التركي والإسلامي)، ورستم باشا بأحد المساجد الصغيرة الأنيقة في المدينة، الذي بناه المعماري الكبير سنان باشا في ١٥٦١م. جدرانه مغطَّاة ببلاط إزنك الرائع.

(١١) انظر الفصل الرابع: روما – الإمبراطورية الباكرة.

(١٢) انظر: “Doria et Barbarousse,” Jurien de la Gravière, Paris 1886. والاقتباس عن: The Sultan’s Admiral. (وحكمُ الإعدام قد نُفذ بحق بينج في ١٧٥٧م).

(١٣) كانت طرابلس قد سقطت في ١٥١٠م في يد الإسبان، الذين أعطوها لفرسان سان جون لحمايتها.

الفصل السادس عشر

مالطة وقبرص

- مالطة: ١٥٥٦م.
- الأسطول يظهر: ١٥٦٥م.
- الهجوم على سان إلو: ١٥٦٥م.
- تأسيس فاليتا: ١٥٦٥م.
- قبرص تحت الخطر: ١٥٧٠م.
- شقاق متحالف: ١٥٧٠م.
- قبرص تحت سيادة فينيسيا: ١٥٧٠م.
- الاستيلاء على نيقوسيا: ١٥٧٠م.
- مصير براجادين: ١٥٧٠م.

* * *

يبدأ تاريخ مالطة — حقيقةً — بالفينيقيين نحو سنة ٨٠٠ق.م.، ولعله من المثير للدهشة ألا تكون هناك مستوطنة يونانية على الجزيرة. برزت أهمية مالطة في «الحروب البونية The Punic Wars» وقد تصارع عليها كلٌّ من روما وقرطاج، اللتين تناوبتا السيطرةَ عليها عدة مرات، إلى أن سقطت في يد روما أخيرًا في ٢١٨ق.م.

على مدى الألفية التالية، ونصف الألفية بعدها، كان يمكن التنبؤ بتاريخها؛ روماني، بيزنطي، عربي، نورمندي. أول الحكام النورمنديين لصقلية، «الكونت روجر الأول Count Roger I»، فتحها في ١٠٩٠م، وبحسب التقاليد قطع جزءًا من رايته القرمزية وأعطاه للمالطيين ليكون علمًا لهم، ولما وجدوا ذلك صغيرًا أضافوا إليه جزءًا أبيض. الأحمر

والأبيض، مع إضافة الصليب الجورجي الذي منحه الملك جورج السادس للجزيرة اعترافًا ببطولتها في الحرب العالمية الثانية، هما لونُ عَلَمها إلى يومنا هذا.

مع انهيار صقلية النورمندية في أواخر القرن الثاني عشر، مُنِحت مالطة كإقطاعة لأمير البحر الأعظم في البلاد، إلا أنها سقطت بعد وقت قصير في يد «شارل الأنجوي Charles of Anju»؛ ثم بعد «صلوات المساء الصقلية The Cicilian Vespers»، سقطت في يدِ الأراجونيين؛ وحوالي سنة ١٢٥٠م، قام الملك الأراجوني جيمس الأول بطردِ جميع المسلمين — الذين كانوا يشكِّلون، حتى ذلك الحين، غالبيةَ السكان — وبقيت الجزيرة تحت الحكم الإسباني إلى أن أهداها شارل الخامس للفرسان في ١٥٣٠م. بعد خمس وثلاثين سنة بالتحديد، كان أن وجدت الجزيرة نفسَها في الوسط من مسرح البحر الأبيض المتوسط.

في المشهد السياسي الدولي، في خلال السنوات التسع عشرة بين موت خير الدين بربروسا في ١٥٤٦م وحصار مالطة في ١٥٦٥م، حدث تغيُّر رئيسي في طاقم اللاعبين على المسرح. هنري الثامن ملك إنجلترا وفرانسيس الأول ملك فرنسا، ماتا بفاصل شهرين بينهما في ١٥٤٧م؛ وفي ١٥٥٦م تنازل الإمبراطور شارل الخامس عن العرش وذهب إلى دير «أوستي Yuste» في «إكستريمادورا Extremadura»، وبعد عامين ... إلى القبر. ترك إسبانيا لابنه فيليب الثاني والإمبراطورية لأخيه فرديناند، إلا أن فرديناند مات هو الآخر في ١٥٦٤م، ليخلفه ابنه «مكسميليان الثاني Maximilian II». لاعب واحد فقط من النجوم القدامى كان هو الذي بقي على المسرح. كان السلطان سليمان المعظم آنذاك في عامه السبعين، إلا أن قواه البدنية والذهنية لم تضعُف ... وكذلك طموحه.

كان لدى سليمان ما يكفي من الوقت لكي يندم على معاملته الرحيمة لفرسان سان جون بعد سقوط رودس. كان قد منحهم حقَّ المرور في المنطقة مقابل عدم حمل السلاح ضده مرةً أخرى. الآن، كان قد أصبح من الواضح أن الوقت قد حان لطردهم من مالطة كما كان قد طردهم من رودس قبل ذلك. كان الفرسان الآن قد استقروا في موطنهم الجديد، وكانوا ينذرون بأن يصبحوا مصدرَ قلق دائم، كما كانوا دائمًا. من جانبه، كان لدى السلطان أسبابه هو الآخر. مالطة تقع في مكان رئيسي من الحوض الأوسط للمتوسط، مكوِّنة بذلك درجةَ سلَّم طبيعية بين طرابلس التي يسيطر عليها الأتراك، وصقلية التي كانت تابعة لـ «فيليب» ملكِ إسبانيا. ما إن تقع في يد سليمان، فسوف تكون نقطةَ انطلاق

ممتازة لغزو صقلية، وسيتبع ذلك الوصول إلى برِّ الجنوب الإيطالي … هكذا مثلما يتبع النهار الليل.

كان شارل الخامس على علمٍ بذلك تمامًا، عندما جعل الجزيرة في متناول يد تنظيم الفرسان في ١٥٣٠م. وهل كانت هناك وسيلة يتمنَّاها أفضل من ذلك — لا تكلفه شيئًا — لحماية المسالك الجنوبية المؤدية إلى الإمبراطورية؟ صحيح أن الفرسان لم يكونوا متحمسين في البداية؛ كانوا قد فكَّروا في إمكانية الانتقال إلى مالطة قبل ست سنوات، وأرسلوا ثمانية مفوَّضين لبحث ذلك، وكانت الجزيرة كما أفاد أولئك المفوَّضون:

> مجرَّد صخرة من الحجر الرملي المعروف بالـ «توفة» Tufa،[١] طولها نحو ستة أو سبعة فراسخ وعرضُها ثلاثة أو أربعة؛ يغطي سطح الصخرة نحو ثلاثة أو أربعة أقدام من التربة، وهي تربة صخرية كذلك لا تصلح لزراعة القمح أو غيره من الحبوب؛ إلا أنها تُنتج كمياتٍ لا بأس بها من التين والبطيخ وغيرها من الفاكهة. التجارة الرئيسية للجزيرة هي العسل والقطن وبذور الكمون ويبادلها أهالي الجزيرة بالحبوب — وفيما عدا بعض العيون في وسط الجزيرة، لا توجد مياه جارية، ولا حتى آبار، ولذا يقومون بتخزين مياه الأمطار في صهاريج. الأخشاب هنا نادرة لدرجةِ أنها تُباع بالرطل، ويضطر الأهالي لاستخدام روث الماشية المجفَّف أو أشواك النباتات لطهي الطعام.

بإقرار الكل، لم تكن مالطة مكانًا يمكن أن يتحمَّل الحصار. من ناحية أخرى، كانت تتباهى بثلاث مزايا كبيرة: كمية لا حدود لها من أحجار البناء المصقولة ذات اللون العسلي، وتراث عريق من رجال المحاجر والبنائين والنقاشين، وربما أفضل مرسًى في العالم. إلى يومنا هذا، فإن نظرةً أولى على المرفأ الكبير من مرتفعات «فاليتا Valletta» تأخذ بالألباب. كان ذلك، دون شك، هو الذي جعل الفرسان — بعد ثماني سنوات من التشرُّد، يَقبلون عرض الإمبراطور بعَقد إيجار سنوي، كانت قيمته معقولة.

لم ينسَ الفرسان قط أنهم كانوا «إسبتارية Hospittalers»، ورعاية المرضى كانت مبرِّر وجودهم على مدى أكثر من خمسة قرون. بمجرد أن استقروا في «بيرجو Birgu» (المعروفة الآن بـ «فيتوريوزا Vittorioza»)، اللسانِ الأرضي الطويل إلى الشمال من اللسانين الموجودين على الطرَف البعيد من الميناء الكبير، حتى شرعوا في بناء مستشفًى.[٢] كانت سابقتها في رودس ذاتَ شهرة كبيرة في كل العالم المسيحي، وكان المرضى يأتون

إليها من أرجاء العالم الغربي، وكان الفرسان مصرِّين على إنشاء مؤسسة مماثلة في مالطة، وهو ما حدَث بالفعل في وقت قصير. كانت الأولوية الثانية بالنسبة لهم هي الدفاع؛ تحصين مينائهم الرائع وبَحريتهم. لم يكن بناء السفن أمرًا سهلًا على جزيرةٍ لا يوجد بها أشجار، إلا أنهم بفضل الواردات الكبيرة من الأخشاب من صقلية، تمكَّنوا على مدى الثلاثين سنة التالية من بناءِ أسطول كبير؛ وبحلول سنة ١٥٦٠م، كانت قوَّتهم البحرية قد أصبحت كبيرة، وربما بالقدْر الذي كانت عليه في أيام رودس القديمة؛ لذا عندما وصلتهم أخبارٌ عن مقْدَم حملة سليمان، كانت بَحريتهم مستعدة على الأقل.

المؤكَّد أنه لم يكن لديهم أية أوهام بالنسبة للخطر الذي كانوا يواجهونه. كانوا بدون تحصيناتٍ قوية، ويعرفون أنهم أقلُّ عددًا في الرجال والعتاد، كما كانوا يتوقَّعون القليل من القوت الذي تجود به أرضُهم الحجرية الفقيرة. كانوا يعرفون كذلك أن تلك الأرض لم تكن مغريةً بالعيش عليها أو التماس المأوى بها بالنسبة لجيشٍ يقوم بالحصار. وبينما كانت رودس لا تبعُد سوى عشرة أميال عن الساحل التركي، كانت مالطة بعيدةً بنحو ألف ميل. كان بالإمكان جلْب بعض التحصينات من الشمال الأفريقي؛ غير أنه كان من الواضح أن القوة التي سيدفع بها سليمان ضدهم لا بد، بداية، أن يكون لديها ما يكفيها من احتياجات الإعاشة. لذا لم يكن مستغربًا أن يحمل هذا الأسطول الغازي جيشًا قوامه نحو أربعين ألف مقاتل بخيولهم ومدافعهم وذخيرتهم ومئونتهم العسكرية، وكذلك الطعام والماء والوقود اللازم للطهي؛ كما يقال إنه كان أضخم أسطول يخرج إلى أعالي البحار. كان مكوَّنًا من أكثرَ من مائتي سفينة، من بينها مائة وثلاثون جالية ذات مجاذيف وثلاثون سفينة من نوع «الجلياس Galleass»،[٣] وإحدى عشرة سفينة لها شكل الحوض، كانت تعتمد، مثل الغلايين، على السير بالشراع. السفن الأخرى كانت من أنواعٍ مختلفة معظمها مراكب شراعية صغيرة ثلاثية الصواري وسفن حربية شراعية. ما زاد العدد ضخامة، هو مراكب القرصنة التي كانت تحوم حول الأسطول مثل النسور، رغم أنها لم تكن ضمن الحملة الرسمية.

في سنة ١٥٥٧م، كان «جان باريزوت دي لافاليتا Jean Parisot de la Valita»، قد انتُخب معلمًا أعظمَ لتنظيم فرسان سان جون. كان في الثالثة والستين، نفس عمر سليمان تقريبًا. كان جاسكونيًّا.[٤] يصفه «الراهب دي برانتوم Abbé de Brantôme» بأنه كان وسيمًا، يتكلَّم عدة لغات بطلاقة، من بينها الإسبانية والإيطالية واليونانية والتركية والعربية. كان كذلك مدافعًا صلبًا عن العقيدة المسيحية. كان قد حارب وهو فارس صغير في حصار رودس، ثم أُسر فيما بعدُ وعمِل عبدًا لدى الأتراك على السفن التركية. كان شديد

الإخلاص في خدمة التنظيم. كان رجلًا كما يقال «قادرًا على جعل أي بروتستانتي يتحوَّل، وأن يحكم مملكةً بنفس الدرجة». كان الإخلاص والقوة والقيادة والانضباط الحديدي كلها من صفاته، وكان يحتاجها كلَّها في محنته القادمة.

كان للفرسان — دون شكٍّ — جواسيسهم في القسطنطينية. عرفوا متى يبدأ السلطان استعداداته، ومنذ لحظةِ انتخابه جعل لافاليتا كلَّ مَن هو قادر جسديًّا في مالطة، يستعد للمعركة القادمة. كان قد طلب تعزيزات ودعمًا بالرجال والعتاد والمواد التموينية من أفرع التنظيم المنتشرة في أرجاء أوروبا المسيحية؛ وحتى مع ذلك، كان بإمكانه أن يعتمد في بداية الحصار على نحو خمسمائة ألف جندي من المشاة وحَمَلة الهركوبة[٥] الإسبان، ونحو أربعمائة من أفراد الميليشيا المالطية المحلية. كان كذلك قد طلب مئونةً احتياطية من الحبوب من صقلية، وأسلحة وذخيرة إضافية من فرنسا وإسبانيا. كانت كل خزانات المياه لديه ممتلئة، ولم يكن لديه أيُّ تردُّد أو وخزٍ من ضمير لكي يرتِّب لتسميم مياه «مارسا Marsa»[٦] بالحيوانات الميتة في الوقت المناسب.

ظهر الأسطول الكبير في الأفق في الثامن عشر من مايو ١٥٦٥م. كان السلطان قد رأى أنه كان متقدِّمًا في العمر ولا يستطيع أن يقوده شخصيًّا، كما كان الأمر في الهجوم السابق على رودس. وبدل ذلك، قسَّم القيادة بين اثنين؛ ستكون القوة البحرية مسئوليةَ صهره الشاب «بيالي باشا Piale Pasha» (الذي كان قد أعاد انتزاع «جربة Djerba» من أيدي الإسبان قبل بضع سنوات)، أما القوة البرية فستكون مسئولية الجنرال مصطفى باشا زوجِ أخته. ثبَت أن ذلك كان قرارًا كارثيًّا؛ حيث إن كلا الرجلين كان يكره الآخر. كان مصطفى حاقدًا على نجاح الشاب وقُربِه من السلطان. كان الميناء يبدو حصينًا ودفاعاته قوية، ليكون موقعًا للرسو، وفي آخر الأمر اختار بيالي ميناء «مرساسكيروكو Marsascirocco» (الآن «مرساكسلوك Marsaxlokk»)، عند الطرَف الشمالي الشرقي الذي يبعُد نحو خمسة أميال عن بيرجو. لم يحاول الفرسان التصدي له. كان تأثيرهم سيكون ضعيفًا على مثل تلك القوةِ الضخمة في البحر، أو حتى عند رأس الشاطئ. كان أملهم الوحيد في قوة تحصيناتهم، التي لم يكن لديهم النية لإظهار سوى ما هو ضروري منها. أما الأتراك، فبمجرد نزولهم إلى الشاطئ، تقدَّموا صوب المدينة ونصَبوا معسكرهم على المنحدر في اتجاه المرسى، ومن هنا كانوا يستطيعون رؤيةَ كل عمليات الرسو بوضوح. أمامهم، كان يمتد مجرى الماء الرئيسي الطويل بخلجانه الثلاثة الضيقة المتجهة يمين ويسار القمة الطويلة لجبل «سكيبيراس Sciberras» — حيث توجد فاليتا الآن — التي تظهر أسوارُ قلعة «سان إلمو Fort St Elmo» عند حافتها البعيدة.

لو أن بيالي باشا كان قد اختار — وكان ينبغي له ذلك — أن يبقى أسطولُه في الجنوب (حيث كان يمكن أن يظل في أمان تام أثناء فصل الصيف)، لما كانت قلعة سان إلمو قد بدَت كبيرة في حسابات الأتراك. قرَّر، بدل ذلك، أن يأتيَ بسفنه إلى الساحل الشمالي الشرقي وإلى ميناء «مارساماسكيتو Marsamuscetto» (مارسامكست Marsamxett) الممتد على الجانب الشمالي لجبل سكيبيراس. المؤكَّد أن ذلك وفَّر مأوًى أفضل، ولكنه — لسوء الحظ — أدخله مرةً أخرى في خلاف مع مصطفى باشا. كان ذلك يتضمَّن أيضًا ملاحةً تحت مدافع القلعة، فكان تدميرها قد أصبح أولوية.

نظرة سريعة على قلعة سان إلمو كانت كافية للتأكد من أن تدميرها لن يكون أمرًا شديد الصعوبة. كانت قلعة تقليدية على شكل نجمة؛ ولكن المشكلة الرئيسية كانت في صعوبة جر المدافع الثقيلة لمسافة ميلين تقريبًا على امتداد حرف الجبل؛ حيث يمكن أن تكون داخل المدى المؤثِّر للمدافعِ الموجودة على لسان «بيرجو Birgu» و«سنجليا Singlea» على الشاطئ المقابل. كان حفر الخنادق هنا عمليةً مستحيلة؛ إذ بعد بوصات قليلة، كانت أدوات الحفر ترتطم بصخور صلبة. وإذا كان لا بد من حماية القوات التي تعمل على المدافع الضخمة على المنحدرات وعلى امتداد حرف الجبل، فإن ذلك لم يكن ممكنًا إلا بجلب كمياتٍ هائلة من التربة من المرسى، وإقامة سواتر ترابية. هذه الأعمال استهلكت معظمَ طاقة جيش السلطان، وأعطت فرصة لـ «فاليتا» ورجاله لالتقاط الأنفاس وهم يعملون على مدار الساعة، لتقوية دفاعات قلعة «سانت أنجلو Fort St Angelo»، حاجزِ دفاعهم الرئيسي عند طرف بيرجو.

بدأ الهجوم جِديًّا على سان إلمو في الثالث والعشرين من مايو. تواصل القصف ليل نهار. بعد أيام قليلة وصل أشهرُ قائد عثماني في البر والبحر. وصل دراجوت الذي لم يكن يبدو عليه أنه في الثمانين من العمر. تولى بنفسه قيادةَ عملية الحصار، وقام بوضع بطاريات جديدة شمال وجنوب القلعة، التي كانت آنذاك تحت قصفٍ شديد من ثلاثة اتجاهات في الوقت نفسه. بنهاية الشهر كانت علامات انهيارٍ وشيكٍ تبدو على الأسوار. كانت قواربُ صغيرة تتسل كلَّ ليلة تحت جُنْح الظلام، من قلعة سان أنجلو عبْر مخرج الميناء، لإحضار قوات ومؤن جديدة للحامية، وتعود بالجرحى إلى المستشفى في بيرجو؛ وبفضل هؤلاء فحسب، كان أن صمدت القلعة كل تلك الفترة. ذات ليلة جاء قارب بما هو أكثر من ذلك؛ كان يحمل مفوَّضين من الواقعين تحت الحصار لإبلاغ المعلِّم الأعظم بأنهم لن يستطيعوا الاستمرار. نظر إليهم لافاليتا بفتور وقال إنه سوف يستبدلهم بغيرهم ممن

يقدِرون، وإنه سوف يقودهم بنفسه، فعادوا إلى مواقعهم خجِلين. قد تهلك سان إلمو، ولكنها لن تستسلم.

على نحوٍ ما، صمدت القلعة واحدًا وثلاثين يومًا إلى أن اقتحمها الأتراك ودخلوها، لم يتبقَّ على قيد الحياة من المائة والخمسين مدافعًا عنها سوى ستين تقريبًا. على الفور، قُطعت رءُوسهم فيما عدا تسعة منهم، وسُمِّرت جثثهم على صلبان خشبية — استهزاء — وتم تعويم الصلبان بما عليها في المصب لكي تجرفها الأمواج إلى أسفل قلعة سان أنجلو. عندما رآها لافاليتا أمر بإعدام جميع الأسرى الأتراك على الفور، ثم حشر رءوس القتلى في ماسورتي المدفعين الكبيرين على الجزء العلوي من الحصن، وأطلق المدفعين باتجاه أطلال سان إلمو. كانت الرسالة واضحة. اعتبارًا من الآن لن تكون رحمة ولا هوادة.

الآن، كان الأتراك قد حقَّقوا هدفهم الأول. كانوا قد أنجزوا ذلك بتكلفةٍ كبيرة. شهر من الزمن، ونحو ثمانية آلاف من أفضل جنودهم. ربع الجيش تقريبًا. كذلك كانوا قد فقدوا دراجوت الذي قتلته قذيفة مدفع في المراحل الأخيرة من حصار سان إلمو. كان قد عاش ليسمع بسقوط القلعة، وكما يقال «عبَّر عن فرحه بعدة إيماءات. رفع عينيه إلى السماء كما لو كان يعبِّر عن شكره لرحمة الله، ثم أسلم الروح.». أما مصطفى باشا، فيقال إنه وقف بين الأطلال يحدِّق وسط حرارة الصيف اللاهبة وهو يهمهم: «إذا كان ابنٌ صغير قد كلَّفنا كل ذلك، فكم سيكون علينا يا تُرى أن ندفع ثمنًا للأب؟»

أما الأب الذي كان يقصده فلم يكن سوى قلعة سان أنجلو نفسها. كان خلفها لسانٌ من اليابسة داخل البحر؛ حيث توجد بيرجو مدينة الفرسان الحصينة؛ وخلف المدخل الضيق إلى الشمال الغربي كان لسان «سنجليا Singlea» المجاور. كان بقاء فرسان سان جون على قيد الحياة يتوقَّف على الدفاع عن شبه الجزيرتين هاتين، اللتين كانتا مطوَّقتين بالجيش العثماني تمامًا. كانت الجزيرتان متصلتين بجسرٍ ضعيف عبر الجون (يُعرف الآن بـ «جون» حوض بناء السفن)، وبواسطة سلسلة ممتدة على عوامات طافية عبْر المصب. عند الطرف الآخر من ناحية اليابسة، كان قد تم تثبيت سياجٍ من الأوتاد الخشبية القوية في القاع الطيني. بعد سقوط سان إلمو لم يكن مدخل الميناء الكبير نفسه قد أُغلق، وكانت السفن التركية تستطيع أن تبحر بطوله، ولم يكن يعوقها سوى مدافع سان أنجلو.

إلا أنه كانت هناك أمورٌ أخرى قد يكون بها قدْر من السلوى أو العزاء للمالطيين؛ فلكي يتحرَّك الأتراك إلى مواقعهم الجديدة جنوبي سنجليا وبيرجو، كان عليهم أن يبحروا

بمدفعيتهم الثقيلة وذخيرتهم ومئونتهم عائدين، على امتداد جبل سكيبيراس، ثم حول الميناء لمسافة نحو أربعة أميال، على طرقٍ ليست أكثرَ من مدقَّات لعرباتٍ تجرُّها أحصنة أو بِغال، وكل ذلك في صيف مالطة الحارق. يضاف إلى ذلك أنه يوم سقوط سان إلمو، فإن السفن القادمة من صقلية حاملة قوة نجدة قوامها نحو ألف مقاتل من بينهم اثنان وأربعون فارسًا، استطاعت أن ترسوَ، ثم تمكَّنت بعد أسبوع من أن تشق طريقها ليلًا إلى ما يسمَّى الآن بـ «كالكارا Kalkara»، خلف جسرٍ آخرَ شمال شرقي بيرجو. ليس وصول القوة نفسها فحسب، ولكن نجاحها الباهر في تجنُّب الجيش التركي، هو ما كان له الأثر البالغ في الروح المعنوية للفرسان.

ولكن الصراع استمر. في منتصف يوليو كان هناك هجوم منسَّق من البحر على سنجليا، أفشلته بسالةُ المالطيين المحليين الذين كانوا سبَّاحين مهرة، قلبوا الأتراكَ من قواربهم وقاتلوهم قتالًا متلاحمًا في الماء، ثم أكمل العمليةَ مربضٌ للمدفعية كان مستترًا. في السابع من أغسطس كتب «فرانسيسكو بالبي دي كوريجيو Francesco Balbi di Correggio»، وكان مدفعيًّا إيطاليًّا يعمل مع الجيش الإسباني، في رواية شاهد عِيان على الحصار، كتب يقول:

> ٧ أغسطس: هجوم شامل. ثمانية آلاف على قلعة سان أنجلو، أربعة آلاف على الميناء، ولكن عندما غادروا خنادقَهم كنا نحن بالفعل في مواقعنا، الأطواق مشتعلة والأرض تغلي ... عندما صَعَّدوا أعمالهم واجهناهم وكأننا كنا نتوقَّعهم ... استمر الهجوم تسع ساعات، من أول ضوء إلى ما بعد الظهيرة، أثناءه كان الأتراك يستبدلون جنودهم أكثرَ من عشر مرات، بينما كنا نحن ننعش أنفسنا ببعض الماء والنبيذ وبعض الخبز. كان النصر حليفنا مرةً أخرى، رغم أنه كان من الصعب أن يقف الواحد منَّا على قدميه بسبب جُرح أو بسبب الإرهاق.

آنذاك، كان يتضح شيئًا فشيئًا أن الجيش التركي بدأ يصيبه الضَّعف. كانت الحرارة قاسية، وهناك نقصٌ في الطعام وأكثر منه في الماء؛ حيث إن الحيوانات الميتة التي سمَّم بها الفرسانُ، عمدًا، آبارَ المرسى، كان قد زاد عليها الآن أعدادٌ كبيرة من جثث القتلى الأتراك. بنهاية أغسطس، انتشرت الديزنطاريا في معسكر الأتراك، وكانوا يحملون الضحايا في الشمس الحارقة إلى خيام المرضى ليموتوا بالمئات. كان الأتراك يعرفون كذلك أن موسم هبوب الرياح الاستوائية قد اقترب، وسوف تتبعه أول رياح الشتاء. كان مصطفى باشا

على استعدادٍ لأن يمضيَ الشتاء على الجزيرة إذا تطلَّب الأمر، على أملِ تجويع المحاصَرين، أما بيالي فلم يكن قد سمِع بذلك. كانت البحرية، كما قال، أهمَّ من الجيش، وإنه لن يغامر بترك سفنه في الشتاء دون رسوٍّ مناسب وخدمات صيانة كاملة. كان يمكن أن يكون الأسطول مستعدًّا بحلول منتصف سبتمبر على الأكثر، أما إذا كان الجيش يريد البقاء فذلك شأنهم هم، فليقرِّروا ما يرونه مناسبًا لهم.

في حال بقاء قوَّات سليمان، لن يكون معروفًا على وجه اليقين ما إذا كان الفرسان سوف يستطيعون الصمود، ولكن في السابع من سبتمبر جاء الخلاص: «الفرج العظيم Gran Soccorso» كما أُطلق عليه، وهو الذي أرسله الملك الإسباني في صقلية. جاء تسعة آلاف مقاتل. صحيح أن العدد كان أقلَّ مما كان لافاليتا يتوقَّع، إلا أنه كان كافيًا. لم يتردد مصطفى أكثرَ من ذلك. فجأةً سكتت المدافع وتوقَّفت الجلبة، وبدل الدخان لم يكن هناك سوى الغبار من أثرِ أقدام ما تبقى من الجيش الذي كان يتباهى به ذات يوم، وهم يجرون الخطى عائدين إلى السفن المنتظرة. كانوا أقلَّ من الربع. ولكن المسيحيين تحمَّلوا — بالمثل — خسائرَ كبيرة. مات أكثرُ من مائتين وخمسين فارسًا، ومَن بقي كان جريحًا أو مُقْعدًا. لم يكن هناك سوى ستمائة فرد يقدِرون على حمل السلاح. بالنسبة لمدينة بيرجو، لم يكن قد بقي فيها حجرٌ على حجر وكانت معرَّضة للاحتراق من كل جانب، ومن الناحية الاستراتيجية كانت كارثة. وهكذا، عندما كان لافاليتا العجوز يتقدَّم متثاقلًا ليضع أولَ حجر في عاصمته الجديدة، لم يفعل ذلك على أطلال المدينة القديمة، ولكن بعيدًا، على مرتفعات جبل سكيبيراس المقابل المطل على الميناء الكبير. وكما كان يستحق عن جدارة، سُمِّيت المدينة «فاليتا Valletta» على اسمه.[٧] بعد ذلك بثلاث سنوات، في الحادي والعشرين من أغسطس ١٥٦٨م مات فاليتا. «السير أوليفر ستاركي Sir Oliver Starkey»، سكرتيره — وهو بالمصادفة الشخص الإنجليزي الوحيد الذي حارب معه أثناء الحصار — نقشَ كلمةً تذكارية على ضريحه باللاتينية، ما زالت موجودة في كاتدرائية سان جون. تقول ترجمتها:

> «هنا يرقد لافاليتا الجديرُ بالمجد الأبدي. ذلك الذي كان ذات يوم سوطَ أفريقيا وآسيا ودِرع أوروبا، عندما طرد الوثنيين بقوةِ سيفه المقدس، وهو أول مَن دُفن في هذه المدينة المحبوبة، التي كان هو مؤسِّسها.»

كان المستشفى أحدَ الأبنية الرئيسية التي ارتفعت في المدينة الجديدة بالطبع. ومثل سابقه في بيرجو ما زال موجودًا. ولكنه كان مصمَّمًا على نحوٍ أكثرَ طموحًا؛ الجناح الكبير الذي يبلغ طوله ١٥٥ مترًا هو أكبر صالة (ذات سقف غير مرفوع على أعمدة) في أوروبا كلها. في سنة ١٧٠٠م، وعندما كان يمكن أن يستوعب نحو ألف مريض، كانت جدرانه تُغطى في الشتاء بمطرَّزات من الصوف، وفي الصيف بلوحات من أعمال «ماتيا بريتي Mattia Preti».[8] المستشفى يغمره الضوءُ والهواء المنعش، والمكان فسيح، وكلها مواصفات كان الفرسان — وحدَهم بين كل المشتغلين بالطب في القرن السادس عشر — يولونها أهميةً كبيرة. إلى جانب ذلك، فهو على خلاف كل مستشفيات تلك الأيام التي كانت تقدِّم الطعام لنزلائها في أطباقٍ من الخشب مليئة بكل أنواع البكتيريا، كان التنظيم يقدِّم أطباقًا وأكوابًا من الفضة، وهكذا كانوا — وربما دون أن يدروا — يقلِّلون احتمالات نقل العدوى إلى حدٍّ كبير. كانت كل قطعة تحمل رقمًا، وعلى جانبها شعار «الروح القدس». أخيرًا، فإن الفرسان كانوا يعرفون قيمةَ التمريض الجيد، فكلٌّ منهم أيًّا كانت درجته في سلَّم القيادة، كان يقوم بدوره في الخدمة في الجناح، وكان المعلم الأعظم نفسه يقوم بورديته أيام الجُمَع. كان الكل يبذل كلَّ جهده لخدمة «سادتنا المرضى».

«معي فحسب، يكون النصر حليفَ جيوشي»، كان ذلك هو تعليق سليمان عندما جاءته أخبار الكارثة، وكان ذلك صحيحًا. فلو أن القيادة كانت له بمفرده، كما حدث في ١٥٢٢م، لما كانت هناك تلك الخصومة والمنافسة المهلكة بين بيالي ومصطفى؛ كان يمكن أن تنقذ سلطتُه العليا وقيادته الملهمة الموقفَ. كان أول ردِّ فعل له أن أقسم بأن يقوم شخصيًّا بقيادة حملة جديدة على مالطا في الربيع التالي، إلا أنه غيَّر رأيه وقرَّر أن يقوم بحملة أخرى على المجر والنمسا. ما حدث هو أنه يوم الخامس من سبتمبر ١٥٦٦م، وأثناء وجوده في معسكره بالقرب من قلعة «تسيجتفار Szigetvar» المجريةِ، مات على إثر أزمة قلبية مفاجئة. كان عاشر سلطان عثماني وأعظمهم. لم يوسِّع إمبراطوريته فحسب، وإنما كان قد أقامها على أساسٍ مؤسسي وقانوني راسخ، ومن خلال مكانته الشخصية رفعها إلى مكانة قوة عالمية، ولو كان لدى خلفائه بعضُ قدراته لكان تاريخ البحر الأبيض قد اختلف بالتأكيد.

في الغرب المسيحي، الذي كان ما زال مبتهجًا بالمقاومة البطولية للفرسان في مالطة، كان استقبال نبأ وفاة السلطان بفرح غامر. إلا أن السؤال بقي معلقًا: هل توقَّف زحف

الأتراك إلى الأبد، أم تُراه كان توقفًا مؤقتًا على الطريق؟ خلف سليمانَ ابنُه الأكبر من زوجته المفضَّلة المعروفة للأوروبيين بـ «روكسلانا Roxelana» وكانت ابنة قسيس من أوكرانيا. سليم الثاني «السكير»، وكان ذلك لقب الشهرة الذي يستحقه، كان على النقيض تمامًا من أبيه المهيب. كان قصير القامة، سمينًا، منغمسًا في الملذات تمامًا، غير عابئ بشئون الدولة، مفضِّلًا ترْك الإمبراطورية لوزيره الأول — الذي سرعان ما سيصبح صهره — «سوكوللو محمد باشا Sokollu Mehmet Pasha». كان سوكوللو محمد من أصولٍ صربية بوسنية، وباعتباره آخرَ وزراء السلطان — وهو الذي أغمض عينَي السلطان العجوز عندما مات — كان مؤهلًا تمامًا لمواصلة سياسات سيِّده السابق في نظام الحكم الجديد. كان لديه طموح قديم لإنشاء قناة عبْر برزخ السويس تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر. ذلك أيضًا، لو أنه نجح في تنفيذه قبل «فرديناند دي ليسبس Ferdinand de Lesseps»، لكان قد غيَّر مجرى التاريخ، ولكن سليمان السكير فرض سلطانه عليه لأول وآخر مرة في الحياة.

كانت عين سليم على قبرص. كان يقال دائمًا — وربما كان ذلك صحيحًا — إن إصراره على الاستيلاء على الجزيرة كان يرجع لولعه بنبيذها الممتاز، والحقيقة أن أهميتها الاستراتيجية كانت واضحة مثل خصوبة تربتِها؛ الغريب أن سليمان لم يكن قد عمِل قبل سنوات لكي يخلِّص نفسه من وجودٍ مسيحي غير مرغوب فيه يقع على مسافة أقل من خمسين ميلًا من شواطئه الجنوبية. كانت قبرص مستعمرة تابعة للجمهورية الفينيسية، وكان أن جاءت لفينيسيا عدة تقاريرَ مثيرة للقلق في فبراير ١٥٦٨م. كان عملاء الأتراك نشيطين على الجزيرة، ينشرون بذورَ السخط بين السكان المحليين الذين كان معظمهم لا يحبُّون حكامَهم الفينيسيين. كانت السفن التركية ترصد الأحوال في الموانئ القبرصية. كان الأكثر مدعاةً للقلق أن السلطان كان قد عَقد مؤخرًا هدنة لمدة ثماني سنوات مع الإمبراطور الجديد «مكسميليان الثاني Maximilian II»، وبذلك كان يستطيع أن يكرِّس كل اهتمامه لمشروع جديد. كان صحيحًا أنه عند توليه العرش كذلك، كان قد عَقد اتفاق سلام مع فينيسيا، ولكنه كان مجهولًا حتى ذلك الحين، هذا إلى جانبِ شائعات كثيرة عن عدم اتزانه العقلي والعاطفي الذي كان يتزايد.

كل هذه الشائعات وغيرها من النوع نفسه، استمرَّت في الانتشار خلال سنة ١٥٦٩م؛ وقُرب آخر يناير ١٥٧٠م وصلت فينيسيا أخبارٌ تكشف عن نية السلطان دون أدنى شك. قام سوكوللو باستدعاء «البايلو Bailo»[٩] الفينيسي في إسطنبول، الذي أبلغه بكل وضوح

أن السلطان كان يعتبر قبرص — تاريخيًّا — جزءًا من الإمبراطورية العثمانية. بعد يوم أو يومين، كانت هناك عملياتُ قبض جماعية على التجار الفينيسيين واستيلاء على السفن الفينيسية في الميناء، وفي الثامن والعشرين من مارس قام سفير، أُرسل خصيصَى من البلاط العثماني، بتسليم إنذار للدوج: إما أن تستسلم قبرص طواعيةً، أو سيتم الاستيلاء عليها بالقوة. كان الرد الفينيسي قصيرًا ومحددًا. كانت فينيسيا مندهشة لأن السلطان كان يريد أن يخرق الاتفاقَ الذي سبق توقيعه قبل وقت قصير، وكانت، على أية حال، هي القيِّمة على شئون قبرص؛ وبركة يسوع المسيح سيكون لديها الشجاعة لكي تدافع عنها.

كانت الجمهورية قد أرسلت مناشدات إلى كل الدول المسيحية للمساعدة، ولكن الاستجابة كانت فاترة. أشار الإمبراطور مكسميليان إلى أن الهدنة الرسمية كان ما زال أمامها ثماني سنوات تظل فيها سارية؛ ومن فرنسا؛ حيث كانت «كاترين دي ميديسي Catherine de' Medici» هي الوصية الفعلية، وكانت في نزاعٍ مع إسبانيا على «الفلاندرز The Flanders»، وملتزِمة بتحالفها القديم مع السلطان. ملكُ البرتغال زعم أنه كان مشغولًا في الشرق، وأن بلاده كانت — على أية حال — تعاني من الطاعون. فرسان سان جون، الذين كانوا أكبرَ مُلاك الأراضي في قبرص، كانوا أكثرَ استجابةً وقدَّموا خمس سفن، ومن أسفٍ أن أربعًا منها وقعت في أيدي الأتراك بعد مغادرتها مالطة بوقت قصير. لم تقدم أي مناشدة لـ «إليزابيث Elizabeth» ملكةِ إنجلترا التي كانت محرومة كنسيًّا.

بقي البابا «بيوس الخامس Pope Pius V» و«فيليب الثاني Philip II» ملكُ إسبانيا. وافق البابا على تجهيزِ خمس سفن إذا وفَّرت فينيسيا الهياكل؛ فيليب قدَّم أسطولًا من خمسين سفينة بقيادة «جيان أندريا دوريا Gian Andrea Doria»، حفيد شقيق ووريث أندريا ذاك، الذي جعله حقدُه على فينيسيا يخون ثقةَ الجمهورية مرتين في كورفو وبريفيزا قبل نحو ثلاثين عامًا. حتى ذلك، كان إسهامًا هزيلًا؛ كانت فينيسيا نفسها قد حشدت ١٤٤ سفينة، من بينها ١٢٦ جالية. ولكن فيليب، كعادته، لم يكن يثق بالفينيسيين الذين كانوا موضعَ شكٍّ منه (وكان لديه أسبابه)، ويراهم مستعدين دومًا للتفاهم مع السلطان كلما سنحت الفرصة؛ وكما أظهرت الأحداث فيما بعد، كان قد أعطى «دوريا Doria»، الذي كانت مشاعره تجاه الجمهورية لا تقل عِداءً عن مشاعر عمِّ والده، تعليماتٍ سرِّية بأن ينأى عن المشكلات وأن يترك الفينيسيين يقومون بالقتال، وأن يعود بالأسطول الإسباني سالمًا إلى بلاده بأسرعِ ما يمكن.

من البداية، كانت الحملة سيئةَ الطالع. الجنرال الفينيسي «جيرولامو زاني Girolamo Zani»، الذي كان قد فهِم أن القوات الإسبانية والبابوية كانت ستنضم إليه في «زارا Zara»

(زادار Zadar) على ساحل دالماشيا، ظل منتظرًا هناك دون جدوى لمدة شهرين، إلى أن اجتاح أسطولَه وباءٌ مجهول، مما أدَّى إلى وفاة عدد كبير، وانهيار عام في الروح المعنوية، كان نتيجته فِرار المئات من رجاله. في الثاني عشر من يونيو ١٥٧٠م، أبحر إلى كورفو، ومن هناك اصطحب «سيباستيانو فينير Sebastiano Venier»، المفوَّض العام «Proveditor General» السابق للجزيرة، الذي كان قد عُين مؤخرًا في نفس المنصب في قبرص. هنا، سمِع أن الأسطول البابوي تحت قيادة «ماركانتونيو كولونا Markantonio Colonna» كان ينتظر الإسبان في «أوترانتو Otranto»، ولكن لم يكن هناك أيُّ خبر عن أسطول فيليب الموعود. حتى يوليو، لم يكن قد علِم أن جيان أندريا دوريا كان قد بقي في صقلية بذريعة أنه لم يتلقَّ أي تعليمات لكي يواصل. بعد اعتراضاتٍ عاجلة من البابا، أرسل فيليب أوامره للأدميرال التابعِ له بالإبحار. وصلت الأوامر في الثامن من أغسطس، وحتى آنذاك لم يغادر الأسطول الإسباني مسيني إلا بعد أربعة أيام، ليصل إلى أوترانتو بعد ثمانية أيام أخرى — رحلة ما كانت لتستغرق أكثرَ من يومين في الطقس الملائم الذي كان سائدًا آنذاك.

بعد أن انضم لحلفائه البابويين، لم يحاول دوريا أن يقوم بزيارة كولونا أو أن يتصل به، وعندما قرَّر كولونا أن يتجاهل هذه الصلافة المتعمَّدة ويبادر هو، كان نصيبه حديثًا طويلًا ينطوي على ما يفيد أنه كان الأفضل إلغاء الحملة. كنا قد أصبحنا في آخر الموسم، ولم تكن السفن الإسبانية في حالةٍ تسمح لها بالقتال، ومثلما كان دوريا يزعجه أن يشير إلى أن لديه تعليماتٍ بالإبحار تحت العلم البابوي، كان بالإضافة إلى ذلك يعمل تحت أوامر قائده بالمحافظة على الأسطول سليمًا. كولونا، نوعًا ما، أحجم عن أن يُذكِّره بالمسئول عن الكارثتين الأوليين، ولم يفعل سوى أن كرَّر أن كلًّا من الملك والبابا كانا يتوقَّعان أن يبحر الأسطولان التابعان لهما مع الفينيسيين إلى قبرص؛ ولذا كان لا بد من أن يبحرا. وفي النهاية وافق دوريا على كرهٍ منه.

كان جيرولامو زاني قد تحرَّك إلى كريت حيث انضمَّت إليه أساطيل البابا وإسبانيا في الأول من سبتمبر؛ أي بعد خمسة أشهر بالضبط من مغادرته فينيسيا. تم عقدُ اجتماعٍ أثار فيه دوريا مجددًا مشكلاتٍ أخرى. هذه المرة كانت الجاليهات الفينيسية هي غير الصالحة للقتال، بالإضافة إلى أنه بمجرد أن يغادر الأسطول المشترك كريت، فلن يكون هناك ميناء آخر يمكن اللجوء إليه. والآن، أيضًا، كشف الأدميرال عن حقيقةٍ لم يكن قد ظن قبل ذلك أن من الضروري ذكرها، وهي أنه كان لديه تعليمات بالعودة إلى الغرب قبل آخرِ الشهر على أكثرِ تقدير.

ولكن كولونا ظلَّ ثابتًا. رغم أننا كنا في آخرِ الموسم، لم يكن ذلك عقبةً كبيرة. كان ما زال هناك شهران قبل أن يدخل الشتاء، وقبرص غنية بالموانئ الجيدة الصالحة للرسو. كانت السفن الفينيسية تعاني من نقصٍ في الأفراد بعد الوباء، وبعد أن كان عدد كبير من العاملين عليها قد ترك العمل؛ إلا أن الانتظار الطويل وفَّر لهم الوقت لإيجاد مَن يحل محلَّهم، فعادت الأطقم إلى قوَّتها مرة أخرى. كان الأسطول المشترك الآن يضم مائتين وخمسين سفينة، أما الأسطول التركي فكان يقدَّر بمائة وخمسين على الأكثر. لماذا، إذن، يخشون مواجهةً مسلَّحة؟ إن التقاعس الآن لن يكون أقلَّ من سلوك شائن. كان دوريا ما زال يراوغ، وكان زاني قد بعث برسالة غاضبة إلى فينيسيا يتَّهمه فيها بإفساد المهمة كلها؛ وفي السادس عشر من سبتمبر، بعد اللجوء إلى عدة أساليبَ مختلفة للتأخير، وصل تقريرٌ يفيد أن الأتراك كانوا قد رسَوا في قبرص. كان لا بد من أن يحدُث ذلك الآن وإلا فإنه لم يكن ليحدث أبدًا؛ وفي ليلة السابع عشر، أبحر الأسطول متجهًا نحو الجزيرة المحاصَرة.

على الفور جاءت أخبارٌ أكثرُ سوءًا؛ نيقوسيا سقطت. دُعي لاجتماع تشاوري آخر. الآن، ولأول مرة، كان «ماركيز سانتا كروز Marquis of Santa Cruz» (الذي باعتباره قائدًا لقوة نابولي، وكان من الناحية الفعلية تابعًا لـ «دوريا» وإن كان قد اتخذ خطًّا متشددًا أكثرَ من رئيسه) ينصح هو الآخر بالرجوع؛ أشار إلى أن الاستيلاء على نيقوسيا كان يمكن أن يعنيَ زيادة سريعة في عدد المقاتلين المتوفرين للأسطول التركي، وارتفاعًا مماثلًا في معنويات العدو — كل ذلك في أكثرِ الأوقات سوءًا، عندما كانت الأطقم المشتركة تزداد يأسًا وإحباطًا. كان كولونا متفقًا معه في الرأي، وكذلك زاني؛ وإنْ على مضض. الصوت الوحيد الذي ارتفع مؤيدًا التقدُّم، كان صوت سيباستيانو فينيير، الذي كان يرى أنه مهما كانت قوة الأتراك، فالمؤكَّد أنهم سيكونون أكثرَ قوةً في العام التالي؛ حيث ليس من المرجَّح أن يكون لدى الحلفاء أسطولٌ يضم أكثرَ من مائتي سفينة للتصدي لهم. كلمات جريئة ولكنها لم تقنِع أحدًا، وعاد الأسطول القوي الذي كان يرفع أعلام العالم المسيحي دون أن تقع عينه على العدو.

في محاولةٍ يائسة لإنقاذ البقية الباقية من مكانته، اقترح زاني المسكين أن يحاول الحلفاء، على الأقل، إنزالَ أيِّ ضرر بأراضي العدو أثناء العودة، ومرة أخرى أُحبطت آماله بسبب استعجال دوريا وتلهُّفه على العودة. بوصول سفنه إلى كورفو في السابع عشر من نوفمبر، كان وباءٌ جديد قد تفشَّى، كما كان هو شخصيًّا قد أصبح محطَّمًا نفسيًّا وجسديًّا.

فاقدًا حتى الرغبةَ في العودة إلى الوطن، كتب إلى مجلس الشيوخ في فينيسيا يرجو إعفاءه من منصبه، وتمَّت الاستجابة لطلبه؛ وفي الثالث عشر من ديسمبر عُين سيباستيانو فينيير قائدًا عامًّا مكانه. فيما بعدُ، سيتم استدعاء زاني إلى فينيسيا ليردَّ على اتهامات خطيرة عديدة تتعلَّق بسلوكه أثناء الحملة. بعد تحقيق طويل تمَّت تبرئته ... وإن كان متأخرًا جدًّا، وفي سبتمبر ١٥٧٢م مات في السِّجن.

كان مصير جيان أندريا دوريا مختلفًا نوعًا ما. لم يكن فيليب الثاني في شكٍّ من مشاعر المرارة التي أثارها قائده البحري؛ كان البابا بيوس قد أرسل إليه شكوى رسمية عند استلامه تقريرَ كولونا، ولكن فيليب قرَّر أن يتجاهلها. كان دوريا قد نفَّذ تعليماته حرفيًّا وكوفئ بترقية فورية إلى رتبة الجنرال متخطيًا كلَّ قادة أساطيل إسبانيا ونابولي وصقلية، وبهذه الصفة كان يستطيع أن يسبِّب المزيد من الأضرار للقضية المشتركة قبل أن تنتهي وظيفته الكارثية.

في ١٥٧٠م، سيكون قد مرَّ على قبرص واحد وثمانون عامًا وهي في قبضة فينيسيا. في ١٤٨٧م كان قد حلَّ حاكم فينيسي — يُعرف بالقائم مقام — محلَّ الملكة كاترينا، وكان مركزه نيقوسيا. من ناحيةٍ أخرى كان مركز القيادة العسكرية موجودًا في «فاماجوستا Famagusta»؛ حيث كانت الحامية المقيمة والأسطول المتمركز في قبرص تحت قيادة قائد فينيسي. كانت هي الميناء الرئيسي للجزيرة بالرغم من أن «سالينس Salines» (لارناكا Larnaca الآن) حلَّت محلَّها في ١٥٧٠م من ناحية الحركة التجارية. كان إجمالي تَعداد السكان نحو مائة وستين ألف نسمة، وما زالوا يعيشون تحت نظام إقطاعي تجاوزه الزمن، ربما لم تَبذل الجمهورية أيَّ جهد لتغييره. على القمة، كان النبلاء وبعضهم من أبناء فينيسيا ومعظمهم من بقايا السلالة الفرنسية الصليبية مثل بيت «آل لوزينان Lusignan» الملكي السابق، وفي أسفل السلَّم الاجتماعي كان هناك المزارعون، وكان معظمهم ما زالوا رقيقًا يعملون في أراضي المُلَّاك. بين القمة والقاع، كانت هناك طبقة التجار والبرجوازية المدينية، التي كانت بمثابة بوتقة انصهار، يمتزج فيها اليونانيون والفينيسيون والأرمن والسوريون والأقباط واليهود.

باختصار، لم تكن مكانًا من السهل حُكمه، بالرغم من أنه لا بد من الاعتراف بأن الفينيسيين — الذين كانت إدارتهم الداخلية الخاصة محلَّ إعجاب وربما حسد العالم المتحضر — كان يمكن أن يحكموها على نحوٍ أفضلَ مما فعلوا. عندما رسا فيها الأتراك

في صيف ١٥٧٠م، كانت الجمهورية قد حقَّقت مستوًى قياسيًّا كئيبًا من سوء الإدارة المحلية والفساد، وفقدت شعبيتها لدى رعاياها القبارصة. وهكذا، حتى لو كانت الحملة المشتركة لنجدة قبرص قد جاءت في الوقت المناسب وحاربت ببسالة، لما تمكَّنت من إنقاذ الجزيرة. انتصار حاسم في البحر، ربما يكون له تأثيره المؤقَّت الذي يؤخِّر ما هو حتمي عامًا أو عامين؛ ولكن منذ مجيء أسطول الغزو التركي الذي رسا في الثالث من يوليو في لارناكا، بما لا يقل عن ثلاثمائة وخمسين سفينة — أكثر من ضِعف تقدير كولونا — فإن انتصارًا كهذا لم يكن من المرجَّح أن يتحقَّق. الحقيقة هي أنه منذ لحظةِ أن قرَّر السلطان سليم ضمَّ الجزيرة إلى إمبراطوريته، كان أن بدأ قدَر الجزيرة المشئوم.

أما شؤم قدَرها فكان للأسباب الأساسية نفسِها، التي نجت منها مالطة قبل خمس سنوات؛ الحقيقة التي لا مهرب منها، وهي أن قوة أي جيش في الميدان تختلف عكسيًّا مع طول خطوط مواصلاته وإمداداته. وحيث إن قبرص لم يكن لديها الوسائل ولا القدرة، ولا الإرادة ربما — للدفاع عن نفسها، كان يمكن الدفاع عنها بواسطة فينيسيا فحسب، التي كان ينبغي أن تأتيَ منها كل المؤن العسكرية والذخيرة والكم الرئيسي من المقاتلين والخيول. ولكن فينيسيا كانت على بُعد ألفٍ وخمسمائة ميل عبْر المتوسط، الذي كان الأتراك يسيطرون على معظمه. من ناحية أخرى، كان أمامهم خمسون ميلًا لكي يبحروا من موانئ الساحل الجنوبي للأناضول؛ حيث يمكنهم الاعتماد على قوةٍ بشرية ومادية غير محدودة.

كان نجاحهم يبدو مؤكدًا حيث إن الدفاعات القبرصية فيما عدا تلك في فاماجوستا لم تكن كافية. صحيح أن نيقوسيا كانت تمتاز بشبكةٍ من أسوار العصور الوسطى طولها تسعة أميال، ولكنها كانت تحيط بمساحةٍ أكبر من المدينة وفي حاجةٍ إلى عددٍ كبير من الأفراد للدفاع عنها، بالإضافة إلى أنها لم تكن سميكة — كانت أساليبُ الحصار في القرن السادس عشر مختلفة تمامًا عنها في القرن الرابع عشر — وبالرغم من جهود اللحظات الأخيرة المحمومة للمهندسين الفينيسيين لتقويتها، كانت فرصة صمودها ضعيفة أمام المدفعية الكثيفة التي كان الأتراك قد برعوا فيها منذ فترة طويلة. كانت «كيرينيا Kyrenia» قلعةً منيعة ذات يوم، ولكنها أصبحت أطلالًا منذ زمن بعيد، ولم تكن لتصمد أمام أي هجوم كبير. كانت دفاعات كل المدن القبرصية إما مهملة أو لم يَعُد لها وجود. كان هناك نقص شديد في الأسلحة والمؤن. يروي «فرا أنجيلو كاليبيو Fra Angelo Calepio» الذي عاصر تلك الفترة أنه كانت هناك ١٠٤٠ هركوبة في المخازن، ولكن لم تكن هناك تعليمات

باستخدامها، والنتيجة أن كثيرًا من الجنود كانوا يجدون صعوبةً في إطلاقها دون أن تشتعل لحاهم.

لذلك، ولعيوبٍ أخرى، كان لا بد من أن يقعَ اللوم الرئيسي على «نيكولو داندولو Niccolo Dandolo». كان مترددًا، جبانًا، يتأرجح طول الوقت بين نوبات نشاط محموم وفترات كسل وفتور، لم يكن الشخص المناسب لامتلاك زمام القيادة العليا. على مدى الأشهر الموجِعة التي جاءت بعد ذلك كان عقبةً باستمرار، عدم قدرته على التمييز وحذره الزائد فتحا بابَ الشك بأن يكون في خدمة العدو، ولكن ذلك لم يكن مؤكدًا. لحسن الحظ، كان هناك شخص أفضل منه في فاماجوستا، قائدها «ماركانتونيو براجادين Markantonio Pragadin».

كان الأسطول التركي قد ظهر بالقرب من الساحل في الأول من يوليو، وها هو مرة أخرى تحت قيادة بيالي باشا. من ناحيةٍ أخرى كان هناك قائدٌ جديد للجيش؛ لالا مصطفى باشا Lala Mustafa Pasha الذي تمكَّن، بفضل جبن داندولو، من أن ينزِل كلَّ قوَّاته في لارناكا دون أية مقاومة. بحلول اليوم الرابع والعشرين من الشهر، كان هو ورجاله يعسكرون أمام أسوار نيقوسيا. مرةً أخرى ضاعت فرصة: طلب قائد المشاة الإيطالي الإذنَ للقيام بهجومٍ فوري عندما كان جنود العدو ما زالوا مرهقين بعد مسيرة ثلاثين ميلًا في صيف قبرص الحارق، ومدفعيتهم وخيَّالتهم غير مستعدة، ولكن داندولو لم يقبل القيام بالمخاطرة، وبقي الأتراك في خنادقهم دون إزعاج.

وهكذا بدأ الحصار، كان داندولو يخشى حدوث نقص في البارود فقنَّن استخدامه، لدرجةِ أنه حتى مَن كان لديهم أسلحة من جنوده ويعرفون كيف يستخدمونها، كان محظورًا عليهم فتحُ النيران على أي عدد من الأتراك يكون أقلَّ من مائة. صمدت المدينة خمسة وأربعين يومًا في حرارة أغسطس الشديدة. وفي التاسع من سبتمبر، بعد أربع عشرة هجمة رئيسية، وبعد استقبال قوات لالا مصطفى باشا لعشرين ألف مقاتل جديد من البر الرئيسي، كان أن استسلمت المدينة. داندولو، الذي كان قد لجأ إلى قصر القائم مقام قبل ساعات، بينما كان رجاله ما زالوا يقاتلون أمام الاستحكامات، سوف يظهر أمام المدخل بردائه المُخْملي القرمزي، وعلى أملِ أن يلقى المعاملة التي تليق بقدْره؛ وبمجرد أن يهبط إلى آخرِ درجة من السلَّم، سوف يطيح ضابط تركي رأسه.

بعد ذلك كانت الأعمال الوحشية المعهودة؛ الذبح والقتل على الخازوق وتدنيس الكنائس واغتصاب الشباب من الجنسين. كانت نيقوسيا مدينة غنية، يوجد بها الكثير

من الكنوز الكنسية والمدنية، الغربية والبيزنطية. لم يمضِ أكثرُ من أسبوع حتى كان كل الذهب والفضة والأحجار الكريمة وأوعية الذخائر الدينية المطلية بالميناء والأردية الكهنوتية المرصَّعة بالجواهر، والمُخْمل والبروكاد ... لم يمضِ أسبوع واحد وكان كل ذلك قد تم تحميله على عرباتٍ خفيفة ذهبت به؛ كانت أكبر وأثمن كمية من الغنائم تقع في أيدي الأتراك منذ الاستيلاء على القسطنطينية قبل أكثر من قرن. لم يكن لدى لالا مصطفى أيةُ نية لكي يفقد هذا الزخْم الذي تحقَّق. في الحادي عشر من سبتمبر، بعد يومين فقط من سقوط نيقوسيا أوفد رسولًا إلى القادة في فاماجوستا يدعوهم للاستسلام، حاملين معهم كدافعٍ إضافي، رأسَ نيكولو داندولو في وعاء. كان المعنى واضحًا. سيكون الدور عليهم.

سبَّبت نيقوسيا للأتراك من المتاعب أكثرَ مما كانوا يتوقعون، ولكن تحدي فاماجوستا كان ما يزال أكثرَ جسامة. بكل تحصيناتها الجديدة كانت تبدو شديدةَ المنعة مثل أي مدينة أخرى. خلف هذه الأسوار الهائلة كان عدد المدافعين قليلًا — نحو ثمانية آلاف شخص مقارنةً بقوة تركية كانت تتدفق عليها أعداد جديدة باستمرار من البر الرئيسي، ليصل العدد الإجمالي إلى ما لا يقل عن مائتي ألف مقاتل. من ناحيةٍ أخرى كانوا يجدون في ماركانتونيو براجادين، وفي القائد البيروجي «آستور باجليوني Astorre Baglioni» قائدَين من الطراز الرفيع، سيزيد إعجابهم بهما أثناء المحاكمات القادمة.

بدأ الحصار في السابع عشر من سبتمبر واستمر طوال الشتاء، كان المدافعون — على خلافِ أولئك في نيقوسيا — يشنُّون غاراتٍ عديدة خارج الأسوار، وأحيانًا كانوا ينقلون المعركةَ إلى معسكر الأتراك. في آخرِ أبريل تقريبًا، أمرَ لالا مصطفى فرقةَ جنود الحفر الأرمينية لديه بحفر شبكة هائلة من الخنادق في الشمال. وحيث إن عددهم كان نحو أربعين ألفًا وأُضيف إليهم قوة عمل من المزارعين المحليِّين، مضى العمل بسرعة شديدة، وبحلول منتصف مايو كانت المنطقة كلها قد أصبحت أشبهَ بقرص العسل، مليئة بالحفر لمسافة ثلاثة أميال من الأسوار، وكانت الأنفاق تكفي لاستيعاب كل الجيش القائم بالحصار، وعميقة بحيث يمكن للخيَّالة أن يمروا بها، ولا يظهر سوى رءوس حِرابهم الدقيقة لمن يراقبهم من المتاريس. من جانبهم، أقام الأتراك عشرة أبراج على مسافات قريبة بالتدريج من المدينة، يستطيعون إطلاق النيران منها على المُدافعين، وكان من هذه الأبراج أن بدأ القصف النهائي في الخامس عشر من مايو.

كان الفينيسيون يقاتلون بشجاعة وإصرار، ولكن مع مرور الأسابيع كانوا قد بدءوا يفقدون حماستهم. ضعُف الأمل في وصول دعم ومساندة فينيسية إسبانية كبيرة. كان

البارود يتناقص والغذاء ينفد على نحوٍ أسرع. بحلول شهر يوليو كانوا قد أكلوا الخيول والحمير والقطط، لم يكن قد تبقَّى شيء سوى الخبز والفول. من بين المدافعين، لم يكن هناك سوى خمسمائة فرد قادرين على حمل السلاح وكانوا يتساقطون نتيجةَ قلة النوم، ومع ذلك واصلوا القتال. حتى اليوم الأخير من ذلك الشهر الأشبه بالكابوس، لم يكن براجادين وباجليوني يستطيعان مواجهةَ حقيقةِ أنهما لن يستطيعا الصمودَ أكثرَ من ذلك. بالاستسلام الطوعي وحدَه، وحسب قواعد الحرب المقبولة، كان يمكنهما تفادي السلب والنهب، وكانت كلها أمورًا حتمية؛ وجاء فجر الأول من أغسطس ليكشفَ عن راية بيضاء ترفرف فوق أسوار فاماجوستا.

كانت شروط السلام سخيةً بدرجة مثيرة للدهشة. سيكون مسموحًا لكل الإيطاليين بأن يستقلوا السفن رافعةً أعلامها إلى كريت، بصحبة مَن يريد أن يذهب معهم من اليونانيين والألبان والأتراك. اليونانيون الراغبون في البقاء ستكون حريتهم الشخصية وممتلكاتهم مكفولة، وسيُمنحون فترةَ عامين يقرِّرون فيها ما إذا كانوا سيبقون بشكلٍ دائم أو لا. مَن يريد أن يرحل، فسوف يُمكَّن من ذلك بأمانٍ إلى أي بلد يختار. وقَّع الوثيقة التي نصَّت على هذه الشروط لالا مصطفى شخصيًّا، وخُتمت بخاتم السلطان، ثم أُعيدت إلى براجادين وباجليوني مع خطاب تغطية يثني على شجاعتهم ودفاعهم المجيد عن المدينة.

في الخامس من أغسطس، أرسل براجادين رسالةً إلى لالا مصطفى يعرِض عليه أن يزوره لكي يسلِّمه مفاتيح فاماجوستا، وجاء الرد بأن الجنرال يسعده أن يستقبله. انطلق براجادين في ذلك المساء ذاته مرتديًا ثوبه القرمزي الرسمي يصحبه باجليوني وعدد كبير من الضباط، في حراسة مجموعة مختلطة من الجنود الإيطاليين واليونانيين والألبان، واستقبله لالا مصطفى بكل احترام. ثم دون سابق إنذار اربدَّ وجهه وتغيَّر أسلوبه، وفي غضبٍ شديد، راح يكيل اتهاماتٍ لا مبرِّر لها للمسيحيين الواقفين أمامه — لقد قتلوا الأسرى الأتراك وأخفوا الذخيرة بدلًا من تسليمها حسب شروط الاستسلام. وفجأةً، استلَّ سكينًا وقطع أذنَ براجادين اليمنى، وأمر أحد الحجَّاب بقطع أذنه الأخرى وجدْعِ أنفه. ثم استدار ناحيةَ حرَّاسه وأمرهم بإعدام جميع أفراد الوفد على الفور. قطعوا رأس باجليوني وكذلك رأس قائد المدفعية «لويجي مارتينجو Luigi Martinengo». تمكَّن واحد أو اثنان من الهرب، ولكن الأغلبية ذُبحوا مع عددٍ آخر من المسيحيين الذين تصادف أن كانوا

قريبين. وأخيرًا وضعوا كل الرءوس المقطوعة في كومةٍ أمام خيمة لالا مصطفى. يقال إن عددها كان ثلاثمائة وخمسين رأسًا.

المصير الأسوأ كان من نصيب ماركانتونيو براجادين. أُودع السِّجن لمدة أسبوعين، وفي تلك الفترة تقيَّحت جروحه وساءت صحَّته، وآنذاك فقط بدأ تعذيبه. أولًا: سحلوه حول أسوار فاماجوستا حاملًا على ظهره أكياسًا مملوءة بالأحجار والطين، ثم ربطوه بكرسيٍّ وعلَّقوه على طرف عارضة شراع سفينة تركية، وعرَّضوه لسخريةِ وتوبيخِ البحَّارة، وأخيرًا أخذوه إلى مكان الإعدام في الميدان الرئيسي وربطوه عاريًا في عمودٍ وسلخوا جلده بالفعل. يقال إنه تحمَّل كلَّ ذلك العذاب في صمتٍ لمدة نصف الساعة، وعندما وصل الجلاد إلى نصف جسده كان قد فارق الحياة. بعد الانتهاء من ذلك، فصلوا رأسه وقطعوا جسده أربعة أجزاء وحشَوا جلده بالقش والقطن وأركبوه بقرةً طافوا بها شوارع المدينة.

عندما أبحر لالا مصطفى عائدًا إلى بلاده في الثاني والعشرين من سبتمبر، كان يحمل معه — كتذكار — رءوس كبار الضحايا وجلد ماركانتونيو براجادين، التي قدَّمها مزهوًّا للسلطان. مصير الرءوس غير معروف، ولكن بعد تسع سنوات تمكَّن أحد الناجين من الحصار، واسمه «جيرولامو بوليدورو Girolamo Polidoro»، من سرقةِ الجلد من ترسانة القسطنطينية وأعاده إلى أبناء براجادين الذين أودعوه كنيسةَ سان جريجوري في فينيسيا. ومن هنا، انتقل في ١٥٩٦م إلى كنيسة القديسين سان جيوفاني وباولو St Giovanni e Paolo؛ حيث وُضع في كوَّة الممرِّ القريب من الباب الغربي خلف جَرة حفظ الرماد، التي تشكِّل جزءًا من نُصْب البطل التذكاري.

في الرابع والعشرين من نوفمبر ١٩٦١م، وبموافقة أقربِ أقارب براجادين، فُتحت الكوَّة، ليجدوا بها عُلبة صغيرة من الرصاص بها عدة قِطع من الجلد البشري لونها أسمر ضارب إلى الصفرة.

هوامش

(١) التوفة Tufa: حجر رملي مسامِّي. (المترجِم)

(٢) ما زال هذا المستشفى موجودًا في «ترك سانتا سكولاستيكا Triq Santa Scholastica»، وهو الآن دير للراهبات البنديكت.

(٣) الجلياس Galleass: سفينة حربية شراعية ضخمة ذات مجاذيف. (المترجِم)

(٤) Gascon: من أبناء جاسكونيا في جنوب غرب فرنسا. (المترجِم)

(٥) حَمَلة الهركوبة Arquebusiers. والهركوبة سلاح ناري قديم له شكل البندقية. (المترجِم)

(٦) منطقة منخفضة خلف الميناء الكبير، وكان يعرف أنها لا بد من أن تكون المصدرَ الرئيسي للمياه بالنسبة لأي جيش يقوم بالحصار.

(٧) حرف I الزائد في اسم المكان لا يمكن تفسيره.

(٨) Preti (١٦١٣–١٦٩٩م): فنان ينتمي لمدرسة نابولي الفنية، أمضى السنوات الثماني والثلاثين الأخيرة من حياته في مالطة.

(٩) دليل الأعمال التجارية. (المترجِم)

الفصل السابع عشر

ليبانتو والمؤامرة الإسبانية

- المعركة تبدأ: ١٥٧١م.
- ليبانتو، الخلاصة: ١٥٧١م.
- أهمية ليبانتو: ١٥٧١م.
- فينيسيا تتوصَّل إلى تفاهم: ١٥٧٣م.
- معركة الملوك الثلاثة: ١٥٧٨م.
- طرد الموريسكيين: ١٦٠٩م.
- دوق أوسونا: ١٦١٥م.
- مصير الأوسكوكس: ١٦١٧م.
- المؤامرة الإسبانية: ١٦١٨م.

* * *

كان فشل حملة قبرص ضربةً مهينة لكلٍّ من فينيسيا والنظام البابوي، إلا أن المفاوضات كانت مستمرة بالفعل من أجل تحالفٍ أكثرَ قوة وتأثيرًا. كان المحرِّك الأول لهذه المبادرة هو البابا بيوس الخامس، الذي كان قد فكَّر طويلًا وبعمق في الخطر التركي، وأدرك أن العقبة الرئيسية أمام أي تفاهم وثيق بين فينيسيا وإسبانيا، هي أن فينيسيا كانت ترى المشكلة في علاقتها بمستعمراتها في الشرق اللاتيني، بينما كانت إسبانيا أكثرَ قلقًا بسبب الخطر الذي يمثِّله ولاةُ السلطان المسلمون على ممتلكاتها في شمال أفريقيا. من هنا، كان قد توصَّل إلى أن الهدف الأول للعالم المسيحي لا بد من أن يكون هو إعادة السيطرة على الحوض الأوسط من البحر الأبيض، لعزل أراضي السلطان الأفريقية عن تلك التي في أوروبا وآسيا، وبذلك يتم شق إمبراطوريته إلى قسمين. في يوليو ١٥٧٠م، دعا لمؤتمرٍ

لوضع مسوَّدة ميثاق عصبة مسيحية جديدة، وعلى مدى الأشهر التالية تمكَّن، بعد حوارٍ متأنٍّ ودعم فينيسي قوي، من أن يكسِب الملك فيليب إلى صفه.

أُعلنت الاتفاقية التي توصَّلوا إليها رسميًّا في الخامس والعشرين من مايو ١٥٧١م في كنيسة سان بيتر. ستكون هذه الاتفاقية هجوميةً كما هي دفاعية، وليست موجَّهة ضد الأتراك العثمانيين فحسب، وإنما ضد ولاتهم المسلمين وشركائهم في الدِّين كذلك، على امتداد الساحل الشمالي الأفريقي. كان على الموقِّعين (إسبانيا وفينيسيا والنظام البابوي، وترك الباب مفتوحًا أمام الإمبراطور وملوك فرنسا وبولندا للانضمام إن رغبوا في ذلك) أن يجهِّزوا مائتي سفينة (جالية)، ومائة سفينة نقل، وخمسين ألف جندي مشاة، وأربعة آلاف وخمسمائة جندي خيَّالة، بالإضافة إلى المدفعية والذخيرة اللازمة. سوف تلتقي هذه القوَّات في شهر أبريل من كل عام، على أكثرِ تقدير، لتنسيقِ حملة صيفية أينما وجدوا ذلك مناسبًا؛ وكل شتاء، ستكون هناك مشاورات في روما للاتفاق على نشاط العام التالي، وفي حال تعرُّض إسبانيا أو فينيسيا لأي هجوم، تقوم الدولة الأخرى بمساعدتها، كما تتعهَّد كلتاهما بالدفاع عن الأراضي البابوية بكل الوسائل المتاحة. سيكون القتال كلُّه تحت راية العصبة، أما القرارات المهمة فسيتم اتخاذُها بأغلبية الأصوات بين الجنرالات الثلاثة المسئولين عن القيادة: سيباستيانو فينيير عن فينيسيا، وماركانتونيو كولونا عن النظام البابوي، و«دون جون النمساوي Don John of Austria»، القائد العام للأسطول المشترك والأخ غير الشقيق للملك، عن إسبانيا.

كان دون جون ابنًا غيرَ شرعي للملك شارل الخامس من سيدة ألمانية تُدعى «باربرا بلومبيرج Barbara Blomberg». كان في السادسة والعشرين من العمر، شديد الوسامة، ولديه قدرات قيادية، وكان قد حقَّق درجةً من الشهرة — أو سوء السُّمعة — في العام السابق، بعد أن نجح في إخماد انتفاضة موريسكية في إسبانيا. عبَّر الفينيسيون عن سعادتهم بهذا الاختيار، وكانوا محقين في ذلك؛ حيث إن الاختيار الأول للملك قد وقع على أندريا دوريا، ولكنه تراجع عنه لحسن الحظ. لكنَّ سعادتهم كانت ستكون أقلَّ، لو أنهم علِموا أن فيليب، الذي كانت لديه شكوك في أن تكون شجاعة الأمير الصغير أكبرَ من حُكمه، كان قد أمره بألا يدخل معركةً تحت أي ظرف دون موافقة صريحة من دوريا.

بالرغم من أن الوقت كان قد تأخَّر لمراعاة الجدول الزمني الذي حدَّدته الاتفاقية، كان الحلفاء مجمعين على ضرورة ألا يضيع صيف ١٥٧١م، وأن قوات الحملة كان لا بد من أن تتجمَّع على وجه السرعة في مسيني لكي تبحر منها بحثًا عن الأسطول العثماني.

بحلول شهر أغسطس، كان الكل قد وصلوا، وكان دون جون قد صاغ أوامره بالإبحار. سيكون هو نفسه مع فينيير وكولونا في وسط التشكيل بأربع وستين جالية. الجناح الأيمن سيكون تحت قيادة دوريا بأربع وخمسين أخرى، والأيسر، بثلاث وخمسين، سيكون تحت قيادة الفينيسي «أوجستينو باربريجو Augustino Barbarigo»؛ وإلى جانب ذلك ستكون هناك طليعةٌ صغيرة متقدِّمة مكوَّنة من ثماني جاليهات، ومؤخرة من ست، سيقودها على التوالي «دون جوان دو كاردونا Don Juan de Cardona» و«ماركيز سانتا كروز Marquis of Santa Cruz»، مع تخصيص ست جاليهات لكل مجموعة. الغليونات وسفن النقل الثقيلة (التي لم يكن لها مجاذيف مثل الجاليهات وكانت تعتبر أقلَّ قدرةً على المناورة) ستشكِّل قافلة مستقرة.

متجرئين ومستقوين بسقوط فاماجوستا وبرحيل الأسطول الفينيسي بالفعل من مسيني، كان الأتراك يدخلون الأدرياتيكي بقوة. رُسوُّهم في كورفو وعلى امتداد ساحل دالماشيا أثار خوفًا متزايدًا في فينيسيا من غزوٍ مفاجئ يمكن أن يجد المدينة دون دفاعات تقريبًا. عند اقتراب الأسطول المشترك، كانوا قد انسحبوا بسرعةٍ إلى قواعدهم في اليونان ولم يكونوا يريدون أن يحاصرهم العدو من كل جانب في البحر الضيق. وهكذا كان أن أبحروا خارجين من «ليبانتو Lepanto» (نوباكتوس Naupactos الحديثة على خليج باتراس Patras) في السادس من أكتوبر، لكي يقابلوا المسيحيين الزاحفين.

كان المسيحيون يعيشون حالةَ حرب. قبل يومين، كانوا قد سمِعوا في «شيفالونيا Chephalonia» بسقوط فاماجوستا، وبخاصة عن موت ماركانتونيو، وكانت القلوب ممتلئة بالغضب والحقد. وفي اليوم نفسه وقع حادث كارثي؛ إذ قام ضابط إسباني وعدد من الرجال على سفينة سيباستيانو فينيير بسبٍّ بعض الفينيسيين وإهانتهم، ليدور قتالٌ عنيف مات فيه عددٌ كبير منهم. فينيير، بمبادرة شخصية منه ودون استشارةِ أحد، أمر بشنق جميع المتورطين على الصاري، وعندما علِم دون جون بذلك استشاط غضبًا وأمر بالقبض على الكابتن — وهو أمرٌ لو تم تنفيذه لكان قد أدَّى إلى تمزُّق الأسطول كله — ولحسن الحظ تدخَّلت أصواتٌ أكثر تعقلًا (ربما كولونا) فسحب الأمر وإن كان لم يغفر لـ «فينيير» فَعلته؛ ومنذ ذلك الوقت ستصبح كل اتصالاته بالقوة الفينيسية من خلال القائد الثاني.

تقابل الأسطولان فجر السابع من أكتوبر على بُعد ميل أو ميلين شرقي «رأس سكروفا Cape Scropha» عند مدخل خليج باتراس. لم تكن الغليونات قد وصلت، ولكن

دون جون كان مصرًّا على أن يشتبك مع العدو فورًا. قام بسرعة بتعديلِ أمرِ القتال — حيث تسلَّم كلٌّ من بارباريجو ودوريا عشر جاليهات أخرى، ووضع سفنه في تشكيل قتال وأبحر بنيةِ الهجوم. كان الأتراك مستعدِّين له بأسطول كان ندًّا لأسطوله تقريبًا، على شكل هلال ممتد بين شاطئ الخليج. كان علي باشا، قائد الأسطول، يقود المجموعة الوسطى المكوَّنة من سبعٍ وثمانين جالية، وعلى يمينه كان «محمد سولاك Mehmet Saulak» حاكم الإسكندرية بأربع وخمسين سفينة أخرى، أما على اليسار في مواجهة دوريا، فكان «أولك علي Uluch Ali» بواحد وستين سفينة.

بدأت المعركة في العاشرة والنصف صباحًا تقريبًا، عند الحد الشمالي للخطوط؛ حيث اشتبك جناح دون جون الأيسر بقيادة بارباريجو مع جناح علي الأيمن بقيادة سولاك. كان القتال ضاريًا، وفي لمح البصر هاجمت خمس سفن تركية سفينةَ قيادة بارباريجو وأطلقت عليها وابلًا من السهام، أصاب أحدها الأدميرال الفينيسي إصابةً مباشرة في عينه ليقتله. تسلَّم القيادة بعده «ماركو كونتاريني Marco Contarini» ابن أخته، الذي قُتل هو الآخر بعد خمس دقائق. غير أن القتال انتهى بانتصارٍ حاسمٍ للمسيحيين الذين نجحوا في آخر الأمر في دفع الجناح الأيمن التركي إلى الشاطئ. هجر الأتراك سفنَهم وحاولوا الهرب في التلال القريبة إلا أن الفينيسيين قاموا بمطاردتهم ومزَّقوهم أثناء فرارهم. وقع سولاك أسيرًا، ولكنه كان مصابًا بجراح شديدة فلم يعِش طويلًا.

بعد ذلك انتقل التركيز إلى الوسط؛ ففي الساعة الحادية عشرة تقريبًا، كانت جاليهات دون جون تتقدم جنبًا إلى جنب في تشكيلٍ خطيٍّ بسرعة منتظمة، اقتربت من سفن علي باشا، وكانت سفينتا القيادة تتجهان رأسًا كلتاهما صوب الأخرى. اشتبكت السفينتان وحدَث الشيء نفسُه بين بقية الجاليهات من الجانبين بعد أن اقتربت كلُّها من الوسط لدرجةِ أن أصبح البحر غير مرئيٍّ. كان الناس يقفزون ويتدافعون في قتالٍ متلاحم بالسيوف على اختلاف أنواعها. أكثر من مرة، قفز جنود الإنكشارية فوق سفينة دون جون The Real وأكثر من مرة كان الإسبان يردُّون الهجوم. كانت الهجمة الأخيرة تحت غطاء نيران كثيفة من كولونا الذي كان قد أصاب سفينة «بيرتو باشا Pertau Pasha» القائدِ الثاني لقوةِ علي. كان في هذه المرة أن أصيب علي في جبهته بقذيفةِ مدفع بمجرد سقوطه، وقام جندي من ملقة بقطع رأسه الذي رشقه على سن رمحٍ وأخذ يلوِّح به تحفيزًا لرفاقه. بعد مقتلِ قائدهم وأسرِ سفينتهم القيادية كان الأتراك يشعرون باليأس. تحطَّم عدد كبير من سفنهم في هذه المعمعة، وما نجا منها استدار وهرب.

في الجنوب، كانت الأمور في الوقت نفسِه أكثرَ سوءًا. منذ بداية التقدُّم في العاشرة من صباح ذلك اليوم، كان جيان أندريا دوريا قلقًا على موقفه. كان الجناح الأيسر التركي بقيادة أولك علي، الذي يواجهه، أقوى وتشكيله الخطي أكثرَ طولًا، وممتدًّا في اتجاه الجنوب لمسافةٍ أبعدَ من خطِّه ويهدِّد بتطويق سفنه (كان لديه ٦٤ سفينة مقابل ٩٣ سفينة لعلي). لتفادي هذا الخطرِ، كان أنْ غيَّر مساره إلى الجنوب، وهو القرار الذي تسبَّب في إحداث ثغرة، راحت تتسع، بينه وبين دون جون. كان ينبغي أن يُحسِن التصرُّف أكثرَ من ذلك. عندما وجد أولك علي هذه الثغرة، غيَّر خططَه على الفور، وحوَّل وِجهته إلى الشمال الغربي بهدفِ اختراق خط التشكيل المسيحي والهجوم على مؤخِّرته. وضعه هذا المسار الجديد في مواجهةِ الحد الجنوبي لقوة دون جون، التي كانت مكوَّنة من عددٍ قليل من السفن، التي كان فرسان مالطة قد شاركوا بها. حارب الفرسان بشجاعةٍ، ولكن لم تكن لديهم فرصة، وسط تلك الظروف، فقُتلوا عن آخرهم. تم قطرُ سفينة قيادتهم، ورفع أولك علي علمَهم المأسور على سفينته.

في ذلك الوقت، كان دون جوان دي كاردونا، الذي كانت جاليهاته الثمانية مُدَّخرة على سبيل الاحتياط، كان يسارع لنجدة الفرسان؛ وعندما اقترب، هاجمته ست عشرة سفينة تركية، لتكون أعنفَ مواجهةٍ وأكثرَها دموية في ذلك اليوم. عندما انتهت كان هناك أربعمائة وخمسون جنديًّا، من بين جنود سفن كاردونا الخمسمائة، بين قتيل وجريح، وكان كاردونا نفسُه على وشْك الموت. وعندما رسا عددٌ كبير من السفن فيما بعد، وُجِدت مليئةً بالجثث. كانت سفنٌ أخرى تحاول القيام بعمليات إنقاذ؛ قوة الاحتياط الثانية بقيادة سانتا كروز (بمجرد أن تمكَّن من مغادرة موقعه في المعركة)، ودون جون نفسِه. لم ينتظر أولك علي طويلًا، فأمر ١٣ سفينة من سفنه بالإسراع، واندفع بها في اتجاه الشمال الغربي بأقصى سرعةٍ نحو «ليوكاس Leucas» وبريفيزا. انصرفت السفن الباقية في الاتجاه الآخر لتعودَ إلى ليبانتو.

بالرغم من الارتباك والخسائرِ الفادحة الناجمة عن جبنِ جيان أندريا دوريا وضَعف كفاءته البحرية (كان هناك كثيرٌ من رفاقه الذين اتهموه بالنقيصتين بعد المعركة)، كانت معركة ليبانتو انتصارًا حاسمًا للعالَم المسيحي. وبحسب تقديرات موثوقة، لم يفقد المسيحيون سوى ١٢ جالية غرقت، وسفينة واحدة وقعت في الأسر؛ أما خسائر الأتراك فكانت ١١٣ سفينة غارقة و١١٧ مأسورة. كانت الخسائر فادحةً في الجانبين، وكان ذلك

حتميًّا؛ حيث دار القتال متلاحمًا، ولكن بينما كانت خسائرُ المسيحيين لا تزيد عن خمسة عشر ألف مقاتل تقريبًا، يُعتقد أن خسائر الأتراك كانت ضِعف ذلك، بالإضافة إلى الثمانية آلاف الذين وقعوا في الأسر.[١] إلى جانب ذلك كان هناك الكثير من أعمال السلب والنهب؛ إذ وجدوا في سفينة علي باشا وحدَها مائة وخمسين ألف سكوينة.[٢] وأخيرًا — يجيء الرقم الذي كان أكثرَ مدعاةً للفرح بين الأرقام؛ خمسة عشر ألفًا من العبيد المسيحيين الذين كانوا يعملون على الجاليهات التركية، تم تحريرهم. لذلك كله، لا بد أن يعود الفضل لـ «دون جون» نفسه، الذي كانت إدارته لأسطوله الضخم، غير المتجانس، بارعة والذي كان استخدامه الرائع لقوةِ نيرانه ذا تأثيرٍ كبير في تطوُّر الحرب البحرية. في المستقبل، ستكون المدافع هي التي تقرر مصيرَ معارك البحر أكثرَ من السيوف، وهو ما يعني بدوره أنه ستكون هناك سفنٌ أكبرُ وأثقل، لا يمكن دفعها سوى بالشراع. كانت ليبانتو آخرَ اشتباك بحري كبير تخوضه الجاليهات ذات المجاذيف، التي تنطح بعضها البعض رأسًا برأس. لقد بدأ عصر نيران مدفعية السفن.

كان الثامن عشر من أكتوبر، عندما وصلت الجالية «أنجلو Angelo» بالأخبار إلى فينيسيا. كانت المدينة ما زالت في حالةِ حِداد على ضياع قبرص، غاضبة على المعاملة الوحشية التي لقيها براجادين، وتخشى ما يخبِّئه المستقبل من المزيد من النكسات. في غضون ساعة من ظهور «أنجلو» وهي تجرجر الأعلامَ التركية خلفها في الماء، وسطحها محمَّل بالغنائم وتذكارات النصر، تغيَّرت الحالة المعنوية تمامًا. لقد ثأرت فينيسيا لنفسها ولم يكن عليها أن تنتظر طويلًا لكي تحقِّق ذلك. فجأة، دبَّ الفرح في كل مكان، وأسرع الجميع إلى الميدان الكبير ليقفوا على تفاصيل المعركة ... ويحتفلوا بالنصر. فتحت بوابات سجن المدينين بموجب عفو عام، بينما انسحب التجار الأتراك إلى داخل «وكالة الأتراك Fondaco dei Turchi» إلى أن انتهت الاحتفالات حفاظًا على سلامتهم؛ وفي كنيسة سان مارك كانت هناك ترنيمةُ شكر Te Deum تبِعها قدَّاس شكر كبير. في تلك الليلة لم يكن هناك مبنًى في المدينة لم تضِئه من الداخل والخارج الشموع والمصابيح. وفي احتفال — أكثر دوامًا — بالحدَث، تم تكبيرُ المدخل الرئيسي للترسانة وتزيينه بإضافةِ أسدٍ مجنَّح آخر لـ «سان مارك»، مع نقش ملائم. بعد عام أو اثنين، سيُقام تمثال لـ «سان جستينا St Justina» في المثلَّث الذي يعلو الواجهة؛ حيث إن الانتصار في المعركة كان قد تحقَّق يوم عيده؛ ومن ١٥٧٢م حتى سقوط الجمهورية في ١٧٩٧م سوف يتم الاحتفال بهذا اليوم (السابع من أكتوبر) سنويًّا؛ حيث يمرُّ موكب للدوج وعلية القوم Signoria، إلى كنيسة ذلك الراعي المبارك، التي تُعرض أمامها الأعلام التركية التي تم الاستيلاء عليها.

هكذا يتم تذكُّر ليبانتو باعتبارها إحدى المعارك الفاصلة في العالم. كانت أعظم مواجهة بحرية بين أكتيوم، التي كانت قد وقعت على بُعد نحو ستين ميلًا، و«ترافالجار Trafalgar». في إنجلترا وأمريكا، هناك اعترافٌ بأن شهرتها الباقية تستند إلى حدٍّ كبير إلى قصيدة «جي. ك. تشسترتون G. K. Chesterton» الشهيرة (وإن كانت غيرَ دقيقة)، ولكن في دول البحر الأبيض الكاثوليكية فقد كسرت حدود التاريخ ودخلت عالَم الأسطورة، فهل تستحق هذه الشهرة؟ من الناحية الفنية والتكتيكية ... «نعم». بعد ١٥٧١م لم تَعُد المعارك الحربية مثلما كانت. أما من الناحية السياسية فالإجابة «لا». لم تكن ليبانتو — كما كان يتمنى المنتصرون فيها — نهايةً لحركة البندول، ولا النقطة التي تحوَّلت عندها مصائرُ المسيحيين فجأةً لحشد القوة التي تدفع الأتراك وتردُّهم إلى قلب آسيا الذي جاءوا منه. فينيسيا لم تستعِد قبرص، بعد عامين كان عليها أن توقِّع سلامًا منفصلًا مع السلطان تتنازل بموجبه عن مطالبتها بالجزيرة. لم تكن ليبانتو كذلك تعني آخرَ خسائرها؛ ففي القرن التالي سيكون ذلك هو نفس مصير كريت. بالنسبة لإسبانيا، لم يؤدِ انتصار ليبانتو إلى زيادة سيطرتها على الحوض الأوسط من البحر الأبيض، بعد سبعة عشر عامًا، ستكون الهزيمة التاريخية لأسطولها العظيم (الأرمادا) على يدِ البريطانيين ضربةً قاصمة لقوَّتها البحرية، لن تفيق منها بسرعة؛ ولن تكون قادرةً على كسر الروابط بين القسطنطينية والأمراء المسلمين الولاة في الشمال الأفريقي؛ وفي غضون ثلاث سنوات سيقوم الأتراك بطرد الإسبان من تونس، ويجعلون من الحكام المحليِّين إقطاعيِّين تابعين لهم، وسوف يحيلون المنطقةَ — كما أحالوا بالفعل معظمَ الجزائر في الجزء الغربي وتريبوليتانيا في الشرق — إلى وضعيةِ ولاية عثمانية.

ولكن بالنسبة لكل أولئك المسيحيين الذين فرِحوا في أيام أكتوبر تلك، لم تكن الأهمية الحقيقية لمعركة ليبانتو تكتيكية ولا سياسية، كانت معنويةً في المقام الأول. كانت السحابة السوداء الثقيلة التي خيَّمت عليهم على مدى قرنين، والتي كانت تتزايد إنذارًا بخطرٍ مطَّرد، لدرجةٍ جعلتهم يشعرون بأن أيامهم كانت معدودة، كانت تلك السحابة قد انقشعت الآن. من لحظةٍ لأخرى كان الأمل يولَد من جديد. ربما يكون المؤرخ الفينيسي «باولو باروتا Paolo Paruta» هو أفضلَ مَن لخَّص الشعورَ العام، في الخطاب الذي ألقاه في جناز قتلى المعركة في كنيسة سان مارك. يقول:

> لقد علَّمونا من خلال المَثل الذي ضربوه لنا أن الأتراك ليسوا فوق الهزيمة، كما كنا نعتقد من قبلُ ... وهكذا يمكن أن نقول، إنه مثلما كانت بداية تلك الحرب

بالنسبة لنا لحظةَ غروب تتركنا في ليلٍ دائم، فإن شجاعة أولئك الرجال، تبدو الآن مثلَ شمسٍ حقيقية، جاءت لنا بأَسعدِ نهار وأجمل نهار عرفته المدينة في تاريخها.

وبالنسبة لكل فينيسي وطني، كان يبدو من الضروري أن يتواصل هذا الانتصار العظيم دون إبطاء. ينبغي عدمُ ترْك الأتراك يستريحون، ينبغي عدم السماح لهم بالتقاط أنفاسهم، لا بد من مطاردتِهم وجرِّهم للقتال مرةً أخرى قبل أن تتهيأ لهم فرصةٌ لاستجماع قوَّتهم، وما دام الدافع لدى الحلفاء ما زال قويًّا. كانت تلك هي الرسالة التي كانت حكومة الإمبراطورية تقدِّمها الآن لحلفائها الإسبان والبابويين، ولكنَّ نداءها لم يلقَ آذانًا مصغية. دون جون نفسُه، ربما يعتقد المرء ذلك، وافق سرًّا، وكان يسعده أن يضغط في الشتاء، ولكن الأوامرَ الصادرة إليه من فيليب كانت واضحة. كان الحلفاء سوف يجتمعون في الربيع حسب اتفاقِ العُصبة، وكان عليه أن يودِّعهم إلى أن يلتقوا؛ وعليه، عاد بأسطوله إلى مسيني.

بحلول ربيع ١٥٧٢م، كان قد بات واضحًا بالنسبة للفينيسيين أن مخاوفهم كانت صحيحة. كانت إسبانيا كالعادة تراوغ وتماطل مبديةً اعتراضًا تلو الآخر. فعل البابا بيوس ما في وُسعه لكي يحفزهم على العمل، ولكنه كان رجلًا مريضًا ومات في الأول من مايو. بموته، فقدت العصبةُ الروح. وأخيرًا، ويأسًا من المساعدة الإسبانية، قرَّرت فينيسيا القيامَ بحملة من جانبها، انضم إليها ماركانتونيو كولونا طواعيةً، بمجموعةِ سفنه البابوية. كان ذلك فحسب، هو ما حفز الإسبان على المشاركة. لم يكونوا يريدون أن يكونوا بعيدين عن انتصارٍ آخر. تبدَّدت اعتراضاتُ فيليب، وفي يونيو صدر الإذن لـ «دون جون» بالانضمام إلى حلفائه.

تجمَّع الأسطول في كورفو وأبحر جنوبًا بحثًا عن العدوِّ. كان الحلفاء قد عرفوا، مع قدرٍ من الاستياء، أن السلطان سليم كان قد استطاع أن يبنيَ في خلال الشهور الثمانية التالية بعد ليبانتو أسطولًا جديدًا قوامه ١٥٠ جالية و٨ جلياسات، وكان ذلك النوع من السفن اختراعًا جديدًا بالنسبة للأتراك الذين أدهشهم استخدام دون جون الرائع لها في ليبانتو. كما انتشرت شائعات كذلك عن أن بناة السفن الذين كانوا يعرفون ما ينتظرهم لو أنهم لم يلتزموا بالتوقيتات التي حدَّدها السلطان، كانوا مضطرين لاستخدام خشبٍ أخضرَ (لم يجفَّ جيدًا بعد)، وأن المدافع كان قد تم صُنعها على عجل؛ ولذا كان معظمها عديم الفائدة، وأن الأطقم التي تم إدخالها الخدمةَ بسرعة بعد الهزائم الفادحة، لم يكن

من المرجَّح أن تسبِّب متاعبَ كبيرة للحلفاء. كانت المشكلة الأكبر هي جعْلَهم يشاركون في المعركة.

وهذا ما حدَث. التقى الأسطولان بالقرب من «مودون Modone»، التي كانت على مدى ٢٥٠ سنة أحد المراكز التجارية الرئيسية في جزر البيلوبونيز، إلى أن سقطت في يد السلطان في سنة ١٥٠٠م؛ وعلى الفور سارع الأتراك باللجوء إلى الميناء. تبِعهم الحلفاء واحتلوا مواقعهم في المكلأ[٣] بالقرب من «نافارينو Navarino» (بيلوس Pylos الحديثة) واستقروا هناك منتظرين. كانوا يعرفون جيدًا أن مودون لا يمكن أن تستوعب ذلك الحجمَ لمدة طويلة؛ فالجبال الخلفية في المنطقة مقفرةٌ وليس بها طرق، وكانت المؤن كلُّها لا بد من أن تأتيَ عن طريق البحر. كانت مسألةَ وقت فحسب، قبل أن يُضطر العدو للظهور لكي تقع ليبانتو أخرى.

ولكن فينيسيا — مرةً أخرى — كانت ترى آمالها تتحطَّم، وكان الإسبان هم السبب. في السابع من أكتوبر — الذكرى الأولى للمعركة الكبرى — أعلن دون جون فجأةً أنه لن يستطيع البقاءَ في المياه اليونانية أطولَ من ذلك، وأنه سيعود إلى الغرب. سأل القائد العام الفينيسي «جياكومو فوسكاريني Giacomo Foscarini» مشدوهًا عن السبب، وعندما جاءت إجابةُ الأمير غيرَ مقنعة، وهي أن مئونته كانت قد أوشكت على النفاد، عرض عليه على الفور أن يزوده من مخزونه، وأن يطلب المزيدَ من فينيسيا إذا لزم الأمر. ولكن دون جون، الذي كان يعمل بناءً على أوامرَ من إسبانيا، لم يهتزَّ، كما انحاز له كولونا لسببٍ غير معروف. كان على فوسكاريني أن يواجه حقيقةَ أن أسطوله لم يكن بتلك القوة لكي يتحدَّى الأتراك بمفرده. غاضبًا بشدة لفكرة ضياع الفرصة، لم يكن أمامه من خيار سوى أن يصدرَ أوامره بالعودة.

طوال فصل الشتاء، كان سفير فينيسيا لدى مدريد يحاول إقناعَ الملك فيليب. كان يقول إن الأتراك كانوا حادبين على السيطرة على العالم، وأنهم كانوا يوسِّعون أراضيهم منذ أكثر من خمسمائة عام ومستمرين في ذلك، وكلما ترك لهم الحبل على الغارب لكي يتقدَّموا أصبحوا أكثرَ قوةً بحيث لا يمكن مقاومتهم. بالتأكيد، كان من واجب الملك إزاءَ العالَم المسيحي — وأمام نفسِه إن كان يريد أن يحتفظ بالعرش — أن يحاربهم، وألا يهدأ حتى يكمِل الإنجازَ الذي بدأ في ليبانتو. ولكن فيليب كان يرفض أن يستمع. كان يكره فينيسيا ولا يثِق بها؛ أما بالنسبة للأتراك فهو قد أدَّى واجبه في العام الفائت ... وبنجاح كبير. بعد انتصار كذلك، فإنهم لن يستطيعوا أن يرفعوا رأسَهم قبل مرور وقت طويل.

في الوقت نفسه كان مشغولًا بتمرُّد «وليم الصامت William the Silent» في الأراضي الواطئة، لم يذهب منتحِبًا مثل الأطفال إلى فينيسيا لكي تساعده على حل مشكلاته، ولم يكن يجد سببًا يجعله يساعدها أكثرَ من ذلك في حل مشكلاتها.

يضاف إلى ذلك أن شارل التاسع ملِك فرنسا، كان مشغولًا في أشهرِ ذلك الصيف نفسه، بالتآمر على فيليب والكيد له على ثلاث جبهات. في الأراضي الواطئة، كان يقدِّم للمتمردين عليه كلَّ ما يستطيع من دعم، وفي البحر الأبيض كان يناور للاستيلاء على الجزائر؛ حيث كانت مكائده هي السبب في استدعاء دون جون من نافارينو، وفي فينيسيا والقسطنطينية كان سفراؤه يعملون بكل طاقتهم لتحقيق سلام بين السلطان والجمهورية. بحلول أوائل الربيع كانوا قد نجحوا. لم تكن فينيسيا تريد شيئًا من ذلك؛ فمنذ ليبانتو وهي تبذل قصارى جهدها لكي تبقي على العصبة متماسكةً وإقناع أعضائها للاشتراك معها في هجومٍ صريح لا يتوقَّف — بعون الرب — إلا عند القسطنطينية نفسِها. إلا أنها فشِلت. لم يكن فيليب — صراحةً — مهتمًّا بذلك، ولا البابا الجديد جريجوري الثالث عشر. وبعد أن تخلَّى عنها حلفاؤها، ولأنها أدركت تمامًا أن مواصلة الحرب بمفردها كانت تعني استدعاء غزوٍ تركي جديد للأدرياتيكي مع احتمال كبير أن يتم الاستيلاء على كريت — آخرِ معاقلها في الشرق اللاتيني، بعد ذلك كله لم يكن أمام فينيسيا من خيارٍ سوى القبول بالشروط التي كانت معروضة عليها. وفي الثالث من مارس ١٥٧٣م تم توقيع الاتفاقية. تعهَّدت فينيسيا، بين أشياء أخرى، بأن تدفع للسلطان ثلاثمائة ألف دوكاتية على ثلاث سنوات، وأن تتخلى عن مطالبتها بقبرص.

في المناطق الخاضعة للملِك الأكثرِ كاثوليكيةً، تعالت صيحات الرعب والاستياء. في مسيني نزع دون جون مغضبًا عَلمَ العصبةِ من صاريته ورفع عَلم إسبانيا، وكان رعايا فيليب يتساءلون عن مدى سلامة موقف فيليب في عدم ثقته بالفينيسيين. كان لا بد من أن يخذلوه عاجلًا أو آجلًا، وكأن معركةَ ليبانتو لم تنتهِ بانتصار، كما كانوا يقولون محتجِّين.

كان الأمر كذلك بالفعل؛ إذ بالرغم من كل الابتهاج والهتاف والتهليل وبناء أسطورة ضخمة عن ليبانتو ما زالت موجودة إلى اليوم؛ فقد ثبَت أن إحدى المعارك البحرية الأشهر في التاريخ لم يكن لها أهمية استراتيجية طويلة المدى على الإطلاق، أما أولئك الذين كانوا أكثرَ بكاءً عليها، فكان ينبغي ألا يلوموا سوى أنفسهم.

بعد معركة ليبانتو، خيَّم صمت غريب على البحر الأبيض المتوسط. كان الأمر يبدو وكأن ذلك الحوض الشاسع قد استهلك نفسه. حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر — رغم أن دول أوروبا الشمالية مختلِفة حول هذه الحقيقة مؤخرًا — كان البحر الأبيض، بمعنًى حقيقيٍّ تمامًا، مركزَ العالم الغربي. لكنه لم يَعُد كذلك.

بالنسبة لإسبانيا، فتح كريستوفر كولومبوس ومَن جاءوا بعده آفاقًا جديدةً مثيرة. بعد استيلائها على نابولي وصقلية في الجنوب وبعد أن انتهى النزاع على ميلانو في الشمال،[٤] وبعد أن أصبحت جزيرة سردينيا كذلك مِلكًا لها، وأصبحت نابولي ميناءً إسبانيًّا، بعد ذلك كله لم تَعُد بقية إيطاليا والبحر الأبيض تهمها في شيء. صحيح أنها في ١٦٠١م ومجموعة من الدول الإيطالية — ولكن ليس فينيسيا — أرسلت قوةً كبيرة مكوَّنة من سبعين جالية وعشرة آلاف رجل لتفاجئ الجزائر وتستولي عليها (وحيث إنها كانت بقيادة جيان أندريا دوريا، كان فشلها مؤكدًا)، ولكن اهتمامها الرئيسي الآن كان مركَّزًا على الغرب والشمال؛ حيث كانت مشكلاتها الدائمة في الأراضي الواطئة وخصومتها مع إنجلترا تأخذ كلَّ وقتها تقريبًا.

بالنسبة لفرنسا، فإنها لم تَعُد تلك المملكة التي كانت تحت حكم فرانسيس الأول. كانت المغامرة الأجنبية في الجنوب بالنسبة لها الآن شيئًا من الماضي، وبدل ذلك كانت ممزَّقة بالحروب الدينية التي سوف تستمر أكثرَ من ثلاثين سنة وتضع البلادَ على حافة الدمار. حتى إيطاليا كانت هادئة — على الأقل بالمقاييس الإيطالية. بصرف النظر عن نابولي والنظام البابوي، كانت هناك قوة رئيسية وحيدة في شبه الجزيرة، وكانت جمهورية فينيسيا حريصة دائمًا على التجارة، ولا يمكن أن تخوض حربًا إلا مضطرة. استمرَّ القتال الداخلي بين المدن — الدول المختلِفة في الشمال الإيطالي كما كان دائمًا، ولكن معظم هذه الحروب لم يكن له أهمية كبيرة في عالم البحر الأبيض.

ثم كانت هناك الإمبراطورية العثمانية، وحتى القوة التركية الماحقة كانت تبدو الآن بلا قوة! كانت أيامُ سليمان المعظَّم قد انقضت، وكان خليفته سليمان «السكِّير» قد مات في ١٥٧٤م — على نحوٍ يليق به تمامًا، بعد أن شرب قنينة كاملة من نبيذ قبرص القوي دفعة واحدة، وزلَّت قدمه على أرضية الحمَّام. صحيح أنه في ذلك العام نفسِه، قام الأدميرال القرصان القديم «كيليج علي Kilij Ali» بالاستيلاء على تونس من الإسبان — وأصبحت المدينة والمنطقة الواقعة خلفها ولايةً عثمانية — ولكن تلك كانت هي كل مكاسب الأتراك في البحر الأبيض. كان «مراد الثالث Murad III»، ابن سليم — كان قد جاء إلى العرش

بعد أن أمر بخنق أشقائه الخمسة — أكثرَهم اهتمامًا بما وراء حدوده الشرقية، وفضَّل أن يركز اهتمامه على جورجيا والقوقاز. ويبدو أن خلفاءه كان لديهم الشعور نفسه؛ ولذلك ظلَّ الأتراك قرابة القرن، لا يفعلون سوى القليل لتغيير خريطة البحر الأبيض.

المحاولة الوحيدة لعمل ذلك بعد الاستيلاء على تونس، جاءت من جهةٍ غير متوقَّعة؛ ففي ١٥٧٨م استجاب «سيباستيان Sebastian» ملِك البرتغال الشاب الجامح، لأسبابٍ ما زالت غامضة — لطلب مساعدة من شريف فاس، الذي كان قد طُرد مؤخرًا من مدينته بواسطة أحد منافسيه. لجأ سيباستيان بدوره لخاله الذي وافق على مضضٍ على أن يساعده، وبذلك تمكَّن من عبور مضيق جبل طارق بجيشٍ من الإسبان والبرتغاليين قوامُه نحو خمسة عشر ألف مقاتل. في الثالث من أغسطس وصل إلى مدينة «ألكاسركيفر Alcacerquivir»، ليجد في اليوم التالي جيشًا مراكشيًّا أكبرَ حجمًا في مواجهته. لم يكن أمامه سوى أن يقاتل، وفي المعركة التي نشبت مات هو ومنافسوه أتباع شريف فاس، كما قُتل ثمانية آلاف من رجاله. من بين الباقين، الذين وقعوا كلُّهم في الأسر، تمكَّن نحو مائة رجل من الفرار.

كان فيليب ملك إسبانيا هو المنتصر الوحيد في معركة الملوك الثلاثة كما أُطلق عليها. وحدَه، استطاع سيباستيان أن يوصل البرتغال إلى حالةٍ من الضَّعف وانهيار الروح المعنوية، لدرجةِ أن فيليب تمكَّن بعد عامين من ابتلاعها، مضاعِفًا بضربة واحدة حجمَ إمبراطوريته والحصول على موانئ أطلنطية ذات أهمية كبيرة. لم تَسترد البرتغال استقلالها إلا في ١٦٤٠م.

سيظل فيليب على قيد الحياة عشرين عامًا أخرى ليموت في ١٥٩٨م. كان في السبعين. لم يحدُث أن تناول ملِك آخرُ شئونه على ذلك النحو الجاد، ولم يكن أحد أكثرَ منه بذلًا للجهد. ولأنه لم يكن يثق بأحد، أمضى الأربعين عامًا الأخيرة من حياته في مدريد أو في قصره في «الإسكوريال Escorial»، مهتمًّا بكل تفاصيل الحكم والإدارة بشكلٍ شخصي، لم يعطِ نفسَه فرصةً لكي يَخرج من مكتبه أو أن ينظر نظرةً أوسع للعالم من حوله. ولأنه كان ورِعًا شديد التقوى، كان كله إصرارًا على تنفيذِ ما كان يراه واجبه المقدَّس المنوط به، للحفاظ على العقيدة الكاثوليكية الصحيحة، التي كان يمكن أن يكون مندفعًا ومستبدًّا وشديدَ القسوة في سبيلها، ولكنه كان محبًّا للكتب والصور، وزوجًا وأبًا عطوفًا عندما تسمح الظروف. تزوَّج أربع مرات، كانت زوجاته على التوالي: برتغالية وإنجليزية وفرنسية ونمساوية. ترمَّل أربع مرات، وأنجب منهن ابنين. كانت الأولى مجنونة، ماتت في

السِّجن في ظروف غامضة وكانت في الثالثة والعشرين. كان إنجازه الرئيسي، من وجهة نظرنا، أنه بنى بلاده كقوة عسكرية وبحرية مهمة. بحلول سبعينيات القرن السادس عشر، كانت قوَّاته البحرية أقوى بأربعة أضعاف مما كانت عليه في زمن أبيه، إلا أنه كان رجلًا حزينًا، وحيدًا، لم يأسف رعاياه على رحيله.

السكون غير العادي لقوى البحر الأبيض الكبرى، ترك المجالَ مفتوحًا للقراصنة الذين أصبحوا أعظمَ خطرًا مع دخول القرن الجديد. كانوا في الأساس من المسلمين البربر، ولكن كان بينهم الكثيرون من رجال البحر الأوروبيين مثل سيئ الذكر القبطان «جون وورد John Ward». الذي جاء إلى تونس في ١٦٠٥م تقريبًا، وهناك توصَّل إلى اتفاق مع «الباي Bey» تعهَّد له فيه بمهاجمة كلِّ المسيحيين، ما عدا الإنجليز منهم — على أن يقتسم الغنائم معه. كان نجاحه كبيرًا — وبخاصة ضد الفينيسيين وفرسان سان جون — لدرجةِ أنه استطاع أن يبنيَ لنفسه قصرًا فاخرًا في تونس، زيَّنه بالرخام الثمين، ولم يكن يضارعه سوى قصر الحاكم نفسه. وفي ١٦٠٩م، حصل حتى على منصب نائب القائد الأعلى «سير فرانسيس فيرني Sir Francis Verney of Claydon» في «بكنجهام شاير Buckinghamshire»، الذي كان قد ترك عائلته العريقة مستاء في العام السابق ليصبح بسرعة — بكلمات مؤرِّخ إنجليزي — «مدمرًا لأبناء بلده ... تجار بوله Poole أو بليموث Plymouth».[٥] ولكيلا يكون الجزائريون متخلفين عنهم، حصلوا على خدمات شخص يُدعى «سيمون دانزر Simon Danzer» أو «دانسكر Dansker» (لسنا متأكدين من جنسيته)، الذي حقَّق نجاحات مماثلة. كان القراصنة البربر قد تعلَّموا من أمثال هؤلاء فنونَ الإبحار بالشراع بعد أن كانوا لا يستخدمون سوى الجاليهات ذات المجاذيف. وفي ١٦٠٩م شنَّ الأدميرال الإسباني «دون لويس فاجاردو Don Luis Fajardo» إغارةً قوية على أساطيل القراصنة «وورد Ward» و«فيرني Verney» وغيرهما، أثناء وجودها في ميناء تونس، فكانت ضربة قاصمة لها، غير أن الأدميرال لم يسمح له بالاستمرار في القضاء عليهم؛ إذ جاءته أوامر من مدريد — في اللحظة الحرجة — بالعودة للمشاركة في عملية الطرد الجماعي للموريسكيين من إسبانيا.

كانت عملية طرد الموريسكيين من إسبانيا، واحدةً من أكبر الكوارث في تاريخ إسبانيا، وكانت، نظريًّا، إحدى بنات أفكار الملك فيليب الثاني، بينما هي في الحقيقة من وحي مستشاره المفضَّل «دوق ليرما Duke of Lerma». كان فيليب قد خلف أباه في ١٥٩٨م

وهو في العشرين من العمر. ولأنه كان قد نشأ تحت رعاية القساوسة والرهبان، لم يكن يعرف شيئًا عن شئون الدنيا كما لم يكن على قدْر كبير من الذكاء، وعليه فقد كان فريسةً سهلة للدوق الذي سرعان ما أصبح «المتسلِّط الخفي eminence grise» عليه. هذا الرجل المتعصب دينيًّا، قصير النظر، كان أحد نبلاء مملكة فالينسيا السابقة (أُدمجت في قشتالة في ١٤٧٩م)، التي كان معظم سكانها في ذلك الوقت من «الموريسكيين Moriscos»: وهم إسبانٌ كانت عائلاتهم مسلمة لعدة قرون، وكان الكثير منهم — رغم تحوُّلهم إلى المسيحية نظريًّا — قد ظلَّ محتفظًا بمشاعره الإسلامية. كان الموريسكيون ناجحين ومجتهدين واستطاعوا بما بذلوه من جهد أن يجعلوا من هضبة فالينسيا واحدةً من أكثر مناطق البلاد خصبًا ونماء؛ ولكن ذلك أثار عليهم حقدَ جيرانهم، وعلى مدى قرن أو أكثر كانوا هدفًا لحملة كراهية بلغت ذروتها بمحاكم التفتيش التي كانت ترى أنهم كانوا ما زالوا على معتقداتهم في داخلهم. في ١٥٦٦م أصدر فيليب الثاني مرسومًا يحظر على موريسكيي غرناطة لغتَهم ولباسهم وثقافتهم، وبعد ثلاث سنوات من الاضطهاد الذي لا يُحتمل، كان أن ثاروا وسبَّبوا للملك كثيرًا من المشكلات، قبل أن يقوم دون جون النمساوي بقمع ثورتهم، إلا أن ذلك لم يؤدِ سوى إلى زيادة رفضهم شعبيًّا. كان «ليرما Lerma» يمقتهم، ولم يجد صعوبةً في إقناع الملك الأحمق بأنه كان من واجبه أن يخلِّص إسبانيا منهم مرة وإلى الأبد.

كان تفريغ ما كان مملكة كاملة ذات يوم من سكانها، عمليةً ضخمة، كما كان الكثيرون (من الكنسيين والعلمانيين على السواء) ممن كانوا سعداء باضطهاد الموريسكيين، منزعجين لفكرةِ ذلك الإبعاد الجمعي لهم. ولكن ليرما كان مصرًّا على الاستمرار في سياسته إلى النهاية. في الثاني والعشرين من سبتمبر ١٦٠٩م أعلن المرسوم: باستثناء ستة من «الأكبر سنًّا والأكثر مسيحية» من موريسكيي كل قرية (سيتم استبقاؤهم لتعليم الآخرين نظامَ الزراعة)، كان لا بد من إبعاد الجميع، ذكرًا كان أو أنثى، إلى شمال أفريقيا دون أن يحملوا معهم أيَّ أموال. كان مسموحًا لهم بحملِ ما يستطيعون من متعلقاتهم الشخصية. مع بداية الخريف، كانت هناك أساطيل ضخمة من الجاليهات قد تجمَّعت في موانئ المتوسط ... وأخيرًا كان السبب قد بات معروفًا.

على مدى الأشهر الستة التالية، تم طرد نحو مائة وخمسين ألفًا من موريسكيي فالينسيا من أراضٍ كان أسلافهم قد زرعوها، واقتيادهم إلى حيث كانت السفن تنتظرهم لتحملهم عبر البحر وتلقي بهم على شاطئ شمال أفريقيا. ما بدأ في فالينسيا، استُكمل في

كل إسبانيا. في قشتالة وأراجون، في الأندلس وإكستريماندورا، كان يتم طرد كلِّ مَن يشتبه بأنه موريسكي — كان من المستحيل تمييزُ المسيحيين الجدد من القدامى — ومصادرة ممتلكاته وطرده. كان من المستحيل تقدير الأعداد، ولكن العدد الإجمالي لا يمكن أن يكون أقلَّ من نصف المليون وربما أكثر من ذلك. لم يكن المطرودون من هذه المناطق ممن يعملون بالزراعة فحسب، بل كان بينهم أعدادٌ كبيرة من الفنانين والحرفيين والصنَّاع الذين أسهموا في الاقتصاد الإسباني. لا يمكن اتهام فيليب الثالث ومستشاره الشرير بالقيام بمذبحة جماعية لمجرد أنهم لم يصدروا، صراحةً، مرسومًا بالقتل الجماعي لمن طردهم؛ ولكن كمثالٍ على ما قد يُعرف اليوم بالتطهير العرقي، فلم تشهد أوروبا نظيرًا لذلك الفعل قبل ثلاثة قرون.

ربما كان من الأفضل لإسبانيا لو لم يُولد دوق ليرما، إلا أنه كان هناك دوق آخر، معاصر ليرما القريب، الذي يَدين له بلده بدَينٍ هائل. كان هو «دون بدرو تيليز جيرون Don Pedro Tellez Giron»، الدوق الثالث، «أوسونا Osuna»، الذي استطاع أن يغيِّر البحرية الإسبانية بمفرده. في ١٦٠٣م، كان أوسونا الشاب قد زار إنجلترا حيث أسر لبَّ الملك جيمس الأول بحلو حديثه اللاتيني، وعكف جادًّا على دراسة البحرية الإنجليزية. وبعد عودته إلى إسبانيا في ١٦٠٧م، عيِّن عضوًا في مجلس شورى الملك، الذي كان بعد عام أو اثنين يناقش تعيينَ نائب جديد للملك في صقلية. تحدَّث أوسونا معبرًا عن رأيه بكل حرية، مشيرًا إلى أن القراصنة البربر كانوا قد أغاروا على الجزيرة أكثرَ من ثمانين مرة على مدى الثلاثين عامًا السابقة. وفي كل مرة كان يمضي ذلك بلا عقاب، مضيفًا إلى أنه لا يمكن السماح باستمرار مثل ذلك الوضع. كان أمام الملك مسلكان: إما أن يشتريَ القراصنة بأن يرشوهم، أو أن يجعل من صقلية قاعدةً لبحرية جديدة متطورة يمكن أن تمحوهم من البحر. متأثرًا بهذه الفكرة الجديدة، منحه الملك منصب النائب ... وبدأ أوسونا العمل.

عندما وصل إلى الجزيرة في ١٦١١م، وجد بها أربعًا وثلاثين جالية (١٢ من نابولي، و١٠ من جنوة، و٧ من صقلية، و٥ من مالطة)، وكلها تحت الإدارة الرديئة للماركيز سانتا كروز ابن قائد الأرمادا، سيئ الحظ، السابق. كان أول إجراء يتخذه أوسونا هو تجهيز ست سفن، يمكن أن يستخدمها كما يريد مستقلًّا عن الأدميرال؛ بعد ذلك ركَّز اهتمامه على الأطقم، فزاد رواتبهم وحسَّن غذاءهم وظروفهم المعيشية، ونظم لهم تدريبًا جيدًا وانضباطًا جيدًا بحيث كانوا على النقيض من أقرانهم على السفن الأخرى. نجحت أول عملية إغارة صاعقة على تونس، ونتج عنها احتراقُ عشر من سفن القراصنة في

مراسيها، كم تم الاستيلاء على عددٍ كبير آخر. كانت تلك هي البداية فحسب، وشهدت السنوات التالية انتصاراتٍ متوالية لتنتشر موجةُ فرحٍ غامرة في الأسطول. ولكن ذلك لم يكن ليكفي أوسونا. كان ذلك الأسطول ما زال مكونًا بالكامل من جاليهات تعمل بالمجاذيف، أما المستقبل فكان للشراع، كما كان يعرف جيدًا. الآن، كان أن قام بتجهيز غليونين خاصين به، ثم استطاع أن يقنع حكومته بأن ترسل إليه عشرين آخرين بقيادة الأمير «فيليبيرت سافوي Philibert of Savoy» وهو أسطولٌ كان يكفي، تحت قيادة قائد كفء، أن ينظِّف البحر من القراصنة. للأسف، اتضح أن فيليبيرت كان قائدًا من طراز دوريا، لا يستطيع الاضطلاع بعمل حاسم، ويفضِّل دائمًا أن يعود إلى الميناء بعد أيامٍ قليلة من مغادرته دون إطلاق طلقة واحدة. حتى مع هذا الأسطول الضخم، فشل في إغلاق ميناء نافارينو، حيث كان عدد كبير من سفن القراصنة قد لجأ، وتمكَّنت كلها من الهرب.

كالعادة، كان أوسونا يعرف ما يريد جيدًا. كان قد رأى في الأراضي الواطئة السفنَ الشراعية الهولندية الصغيرة موجودة بالقرب من الموانئ الإسبانية وتغلقها بإحكام، ولكن الحكومة في مدريد رفضت كلَّ طلباته. بالرغم من ذلك كان لديه على الأقل غليونان خاصان به، أحدهما عليه عشرون مدفعًا والثاني ستة وأربعون مدفعًا، فأرسلهما إلى الأراضي المصرية؛ حيث قاما على الفور بأسرِ قافلة من ست سفن تركية كانت في طريقها إلى القسطنطينية. كان ذلك إنجازًا كبيرًا ينبغي أن يكون محلَّ حفاوة في مدريد؛ ولكن الحكومة الإسبانية ظلَّت غير مؤيدة كالعادة، مشيرة إلى أن أوسونا كان قد خرق تعليماتٍ عمرُها قرن من الزمان، تحظر تجهيز السفن الشراعية للقرصنة. عبثًا، ظل يقول إن الحرب البحرية لم تَعُد مثلما كانت قبل مائة عام، وظلوا يتجاهلونه.

استمر الحال كذلك حتى سنة ١٦١٥م، ثم فجأة تغيَّر الموقف كله. تم تعيين أوسونا نائبًا للملك في نابولي. هنا، كان أكثرَ استقلالية — ولديه إمكانياتٌ مالية أكبر — عما كان في صقلية، فطلب خمس جاليهات جديدة — أطلق عليها اسم «الجِراح الخمس»، بالإضافة إلى خمسٍ أخرى من السفن الخفيفة، ومركبًا شراعيًّا صغيرًا يُستخدم لتأمين الاتصالات. كل السفن باستثناء المركب الأخير كانت مسلَّحة تسليحًا ثقيلًا، أثقل في الحقيقة مما كان يمكن أن يكون لدى البحرية الإنجليزية، إلا أنها كانت كلها منظَّمة بالأسلوب الإنجليزي. كذلك وضع نهايةً لمبدأ القيادة المزدوجة — لفترةٍ طويلة كان ذلك المبدأ هو آفة القوات المسلحة الإسبانية — الذي بموجبه كان كل جنود حملةٍ ما مسئولين أمام قائد، والبحَّارة

أمام قائدٍ آخر. من الآن سيكون ضابط واحد هو المسئول عن السفينة بالكامل. في يوليو ١٦١٦م خاض الأدميرال الأحدث منه «فرانسيسكو دي ريبيرا Francisco de Ribera»، بسربٍ مكوَّن من ستة غليونات، معركةً كبيرة مع أسطول تركي، كان مكونًا من خمس وأربعين جالية. استمرت المعركة ثلاثة أيام، وفي فجر اليوم الرابع لم يكن للعدوِّ أيُّ أثر؛ اعترف الأتراك بالهزيمة، ولجأ ما تبقى من سفنهم إلى مياهٍ أكثرَ أمانًا. هنا، بكل المقاييس، كان انتصارًا كبيرًا، ولكنه كان يحمل درسًا. لقد تحقَّق هذا الانتصار بواسطةِ أسطول تم بناؤه وقيادته حسب النظام الإنجليزي وليس الإسباني، وأثبت تفوُّقه على الأتراك. أفلا يمكن الآن استخدامه ضد جمهورية فينيسيا، عدو إسبانيا اللدود، في شبه الجزيرة الإيطالية؟

لن يكون مستبعَدًا أن يفكِّر دون أوسونا في مثل ذلك الأمر. كان هو مهندس إعادة قوة إسبانيا البحرية، ولكنه بالإضافة لذلك كان شخصًا وطنيًّا نذر نفسَه لتدمير أعدائها، وبفضله — إلى حدٍّ كبير — كان شبح إسبانيا يلوح في الأفق مع دخول القرن السابع عشر، ويبدو أكثرَ خطورة في الحوض الأوسط من البحر الأبيض. على مدى قرن أو أكثر، كانت طموحات إسبانيا محجَّمة بواسطة فرنسا، إلا أن اغتيال هنري الرابع في ١٦١٠م، الذي أخلى العرشَ لابنه «لويس الثالث عشر Louis XIII»، ابن التاسعة، وأعطى الوصايةَ لأرملته «ماري دي ميديشي Marie de Medici» ذات الميول الإسبانية، كلُّ ذلك كان يؤكد أن الملِك الأكثرَ كاثوليكية لن يواجه معارضةً من تلك الجبهة. كانت إسبانيا ما زالت صاحبةَ السيادة في ميلان ونابولي؛ وفي فلورنسا كان الدوق الأعظم «كوزيمو الثاني Grand Duke Cosimo II»، ابن عم ماري، خاضعًا لسيطرة الإسبان إلى حدٍّ كبير؛ ومثله كان البابا في روما، بفضل نفوذ الجيزويت والكاردينالات الإسبان. كانت هناك دولتان إيطاليتان فقط عازمتان على مقاومة الخطر المتزايد. كانت إحداهما دوقية سافوي؛ حيث كان الدوق «شارل إيمانويل الثاني Charles Emmanuel II»، قد حشد جيشًا قوامه أكثرُ من عشرين ألف مقاتل، وكان جاهزًا للتصدي لأي قوة قد يدفع بها ضده حاكمُ ميلانو الإسباني. أما الثانية فكانت فينيسيا.

وبينما كانت ميلان تسبِّب إزعاجًا لـ «سافوي» (والعكس بالعكس)، كانت فينيسيا تواجه مشكلاتٍ أصعبَ مع الفك الآخر للكماشة الإسبانية: «الأرشيدوق الهابسبورجي فرديناند Habsburg Archduke Ferdinand» في النمسا. أما السبب وراء ذلك فكان

«القراصنة الأوسكوك Piratical Uskoks»، وكانوا جماعةً غير متجانسة شديدة الإزعاج — وليست كلها — من المسيحيين الهاربين من الزحف التركي، وكانوا قد استقروا في «سجنا Segna» (سنج Senj الآن) ومناطقَ أخرى على ساحل دالماشيا، وكرَّسوا أنفسهم للحرفة التقليدية لمعظم السكان هنا. لم تكن المشكلة جديدة تمامًا؛ فالقرصنة التي كانت تنطلق من الجزر البعيدة والخلجان المستورة على امتداد الشواطئ الشرقية للأدرياتيكي، كانت تمثِّل خطرًا على التجارة الفينيسية على مدى تاريخ الجمهورية نفسها. مع الأوسكوك، كانت هناك تعقيدات جديدة؛ كان نشاطهم يستفز الأتراك ويثير غضبهم؛ إذ بعد كل هجوم على سفنهم، كانوا يتقدَّمون بشكوى رسمية إلى فينيسيا، مشيرين إلى ضرورة قيامها بواجبها في ضبط الأمن، باعتبارها القوة التي تدَّعي السيادةَ على الأدرياتيكي. وحيث إن دالماشيا كانت الآن من أراضي الإمبراطورية، والمخالفون رعايا إمبراطوريين، كان لا بد من أن تلحَّ على فرديناند لاتخاذ إجراءات حاسمة ضدهم، إلا أن الأرشيدوق، برغم الوعود المتكررة، لم يفعل شيئًا، وظل الأوسكوك يمثِّلون قلقًا دائمًا.

بلغت أعمالهم العِدائية أوجها في ١٦١٣م بقطْع رأس «كريستوفرو فينير Christofro Venier» الأدميرال الفينيسي. ظل فرديناند، كذلك، لا يحرِّك ساكنًا؛ والحقيقة أنه بدأ ينظر إلى الأوسكوك نظرةً أكثر تعاطفًا مع بدء تدهور العلاقات الفينيسية الإمبراطورية؛ وبينما كان يتظاهر بقيامه ببعض الاعتراضات الهينة، كان في الحقيقة يشجِّعهم في السر بكل الوسائل. وفي النهاية، لجأت فينيسيا للقانون — ولم يكن ذلك للمرة الأولى — وأطلقت حملةً تأديبية. اعترض فرديناند بدوره، بينما بقيت الحرب الناجمة عن ذلك متقطعةً حتى خريف ١٦١٧م عندما توصَّلت فينيسيا وسافوي والإمبراطورية إلى سلام صعب، بعده سوف يتقرَّر مصير الأوسكوك مرةً وإلى الأبد. دُمِّرت موانئهم وقلاعهم وأُحرقت سفنهم، ومَن نجا منهم من مصيرٍ أكثر بؤسًا تم نقله مع أسرته إلى الداخل الكرواتي؛ حيث اندمجوا مع السكان المحليين مع الزمن، وفقدوا هويتَهم الخاصة.

كان لذلك الانتصار الصغير أثره الكبير في تحسين الحالة الأمنية في الأدرياتيكي، وفي كل الحوض الأوسط من البحر الأبيض في الواقع، إلا أنه لم يغيِّر كثيرًا من الوضع السياسي الرئيسي. ظلَّت إسبانيا هي الخطر الدائم على السلام في المنطقة، ولم تكن تنظر إلى القوة المسلَّحة فحسب، ولا إلى الدبلوماسية الماكرة لتحقيق مصالحها. كانت نهايات القرن السادس عشر وبدايات السابع عشر هي عصر الخداع والتآمر قبل كل شيء. الفكرة في حد ذاتها لم تكن جديدة؛ ففي فلورنسا الميديشي، وميلان فيسكونتي، وروما بورجيا، كانت

هناك مؤامرات كثيرة اعتمدت على الاغتيال بالسُّم وأعمال التجسُّس والتجسُّس المضاد وأسلوب الخنجر تحت العباءة. ولكن الآن، في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا، كانت المؤامرة قد أضحت أسلوبَ حياة. كانت ذاكرة مَن هم في منتصف العمر ما زالت قوية، تحتفظ بعمليات اغتيال «الأدميرال كوليجني Admiral Coligny» وهنري الرابع نفسه، والمكائد العديدة التي صبغت الحياةَ العنيفة البائسة لـ «ماري ملكة الاسكتلنديين Mary Queen of Scots»، ثم مؤامرة البارود في الخامس من نوفمبر.

لم تكن هناك حكومة في أوروبا أكثر تورطًا في عالم التآمر، أكثر من حكومة «الجمهورية الأكثر هدوءًا». كل سفارة، وكل بيت أجنبي، كان مخترقًا بعملاء فينيسيين يقدِّمون تقاريرهم «لمجلس العشرة Council of Ten» الرهيب، عن كلِّ مَن يأتي ومَن يذهب، عن الرسائل التي يتم فتحها بوسائل سرية، عن المحادثات التي يتم التنصت عليها. كانت هناك رقابة دائمة على كل شيء وأي شيء ... حتى على الداعرات اللائي كان يتردد عليهن الأثرياء، كما كانت هناك رواتب لكلٍّ منهن تدفعها الدولة مقابل نقل الأحاديث والأخبار التي قد تكون ذات أهمية، وذلك لاستخدامها في عمليات الابتزاز والضغط. إلا أن مجلس العشرة كان يفضِّل أن يؤديَ مهامه بشكل سري؛ ولذلك لم تُصِب الدهشة المارة في الساحة الرئيسية في الصباح الباكر يوم الثامن عشر من مايو ١٦١٨م، عندما رأوا جثتَي رجلين معلقتَين، كلتاهما من ساق واحدة — ما يدل على أن الجريمة كانت خيانة — من مشانقَ نُصبت على عجلٍ بين عمودين عند الطرَف الجنوبي للساحة. الأكثر مدعاةً للدهشة هو أنه حتى بعد أن أُضيفت جثة ثالثة كانت تحمل آثار التعذيب، لم يصدُر أيُّ بيان يفصح عن شخصية أيٍّ من أولئك البؤساء أو يوضح السبب. كان لا بد من أن تنتشر الشائعات التي كان معظمها يركِّز على احتمال وجود مؤامرات ضد الجمهورية، لا يمكن إلا أن يكون وراءها مثير واحد. هبَّت التظاهرات العِدائية أمام السفارة الإسبانية مُجبِرة السفير «ماركيز بيدمار Marquis of Bedmar» على أن يطلب من الحكومة حمايةً شرطية خاصة، وفي الوقت نفسه كتب إلى مدريد يقول:

> إن اسم أكثرِ الملوك كاثوليكيةً واسمَ الدولة الإسبانية هما أكثر الأسماء التي ينطق بها بكل البغض في فينيسيا ... مجرد لفظة «إسباني» تعتبر إهانةً هنا بين الناس الذين يبدون متعطشين لدمائنا. إنها غلطة حكامهم الذين كانوا يعلمونهم دائمًا أن يكرهونا.

لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا. على مدى سنوات، كانت السفارة الإسبانية أكثرَ مراكز التآمر نشاطًا في المدينة. كانت غرف الانتظار والطرقات تعجُّ دائمًا بأشخاص يبدو عليهم الشر، على رءوسهم قبَّعات مهترئة، يتهامسون في جماعاتٍ وهم ينتظرون لقاء السفير. وعندما كشف مجلس العشرة، في أكتوبر التالي، لمجلس الشيوخ ما حدَث في تقرير مفصَّل، تم الكشف عن أن السفير — كما كان يعرف الجميع — كان أحد الشخصيات الرئيسية فيما سيُعرف فيما بعد ذلك بـ «المؤامرة الإسبانية».

هذه المؤامرة، سيكون من المناسب تمامًا أن تلهم — بطريقٍ غير مباشر — «توماس أوتواي Thomas Otway» بمادةٍ لأفضل وأشهر مسرحياته «... وبقيت فينيسيا». القصة الحقيقية تحتوي على كل عناصر ميلودراما القرن السابع عشر. هنا، الشرير «دون بدرو Don Pedro»، ودوق أوسونا ونائب الملك الإسباني في نابولي، كلهم يصمِّمون على تدمير قوة فينيسيا في البحر الأبيض. هنا «الماركيز بدمار Marquis of Bedmar»، والسفير الإسباني المثقَّف صاحب الشخصية الآسرة، الذي في حقيقته «أحد أخطر الشخصيات التي أنجبتها إسبانيا»، الممتلئ عداءً وحقدًا على فينيسيا، والموافق تمامًا على هدف أوسونا. هنا الأداتان الرئيسيتان للمتآمِرين؛ «جاك بيير Jacques Pierre» وهو مغامر وقرصان نورمندي، والآن عميل إسباني سري مع الأسطول الفينيسي، أمي، ولكنه من أذكى رجال البحر في أيامه، ونقيضه الذي لا ينفصل عنه «نيكولاس ريجنولت Nicolas Regnault» المتعلم، ذو اللغة الإيطالية السَّلسة والخط الجميل. وهنا أخيرًا، البطل: الفرنسي الشاب «بالتازار جيفن Baltasar Juven»، الذي جاء إلى فينيسيا ليلتحق بالخدمة الجمهورية.

المؤامرة نفسها كانت كذلك طموحةً جدًّا لتفي باحتياجات أي كاتب دراما. كانت من ذلك النوع المعقَّد الملتف إلى أقصى درجة. ربما تكون روايتها بالتفصيل عمليةً مملة، وليس هنا مجالها على أية حال.[٦] قبل عدة أسابيع من اليوم المحدَّد، سوف يتسلل جنود إسبان، في ثيابٍ مدنية، مثنى أو ثلاث، إلى فينيسيا؛ حيث سيقوم «بدمار Bedmar» بتسليحهم. بعد ذلك، عندما يكون كل شيء قد أصبح معدًّا، سوف تتقدم غليونات أوسونا رافعة علمه الخاص في الأدرياتيكي، وتقوم بإنزال قوة على الليدو، ومع أسطول من البوارج مسطحة القاع، ستنقل هذه القوة إلى المدينة عبْر البحيرة. سيتم الاستيلاء على الساحة الرئيسية وقصر الدوج والمركز التجاري والترسانة وما بها من سلاح لتزويد المتآمرين ومَن يرغب في معاونتهم من الفينيسيين. سيتم قتلُ صفوة وأعيان فينيسيا أو احتجازهم للحصول على فدية. فينيسيا نفسها سوف تنتقل إلى ملكية أوسونا، أما الأموال المنهوبة وأموال الفدية فستعود إلى المتآمرين الآخرين لكي يقتسموها فيما بينهم.

كان نجاح مثل هذا المشروع العنيف يبدو مستبعدًا، وعلى أية حال، لم تكن هناك فرصة لمدبِّريه لكي يضعوه موضعَ التجربة. أما اكتشاف المؤامرة فيرجع إلى «جيفن Juven» الذي اتصل به مواطنٌ من بلده يُدعى «جابرييل مونكاسين Gabriel Moncassin»، كان على علمٍ بكل ما يدور، ودُعي للمشاركة. ما لم يكن مونكاسين يعرفه هو أن جيفن كان «هوجونوتيًّا Huguenot».[٧] ولأنه كان يكره فرنسا والعقيدة التي تمثِّلها، قام على الفور بإبلاغ السلطات الفينيسية ليقوم مجلس العشرة بعمله على وجه السرعة. ألقي القبض على جاك بيير وتم إعدامه بسرعة؛ وُضعت جثته في كيس من الخيش وأُلقي بها من سفينة في عُرض البحر. تم القبض على «ريجنولت Regnault» وغيره من المتآمرين، وعلى الأخوين «ديزبولو Desbouleaux» وتعذيبهم. وبعد أن اعترفوا تم تعليقهم من أرجلهم في الساحة الرئيسية. كذلك تم تصفية نحو ثلاثمائة آخرين من المتآمرين الصغار سرًّا. وحدهما، أوسونا وبدمار، كانا أقوى من أن يمسهما أحد. كلاهما استمر في التآمر من خلف أسوار قصره، ولكن فرصتهما الكبرى ضاعت ... وبقيت فينيسيا.

هوامش

(١) كان «ميجويل دي سرفانتس Miguel de Cervantes» من بين المجروحين المسيحيين، وكان على ظهرِ السفينة Marquesa. أصيب مرتين في صدره، وبَترت إصابةٌ ثالثة ذراعه اليسرى، وقد وصف ذلك بأنه كان «لمجد الذراع اليمنى». كما وصف ليبانتو بعد ذلك بأنها كانت أعظمَ مناسبة شهدتها العصور الماضية والحاضرة، وربما تلك التي قد يشهدها المستقبل. كما أكَّد أنه سيظل فخورًا بدوره فيها أكثرَ من أي شيء في حياته.

(٢) السكوينة Sequin، قطعةٌ ذهبية (إيطالية أو تركية) قديمة. (المترجِم)

(٣) موقع بالقرب من الشاطئ حيث تستطيع السفن الرسوَّ. (المترجِم)

(٤) بعد الموت المفاجئ لـ «فرانسيسكو الثاني سفورزا»، عادت دولة ميلان لتكون تحت سيطرة شارل الخامس، الذي منح الدوقية لابنه فيليب الثاني فيما بعد (في ١٥٤٠م). ستبقى ميلان تحت الحكم الإسباني حتى ١٧٠٦م.

(٥) انظر: Gardiner, “History of England,” Vol. 3.

(٦) يمكن لمن يهمه التفاصيلُ الاطلاع على المجلد الثاني من كتاب «هوراتيو براون Horatio Brown» بعنوان: Studies in the History of Venice. من ص٢٤٥–٢٩٥.

(٧) نسبة إلى البروتستانتي الفرنسي هوجونوت Huguenot.

الفصل الثامن عشر

كريت والبيلوبونيز

- المعركة تبدأ: ١٦٤٥م.
- الدوج فرانسيسكو إيريزو: ١٦٤٦م.
- بدأ حصار كانديا: ١٦٤٧م.
- المتطوعون الفرنسيون: ١٦٦٨م.
- الحملة الفرنسية: ١٦٤٥م.
- التوصُّل إلى سلام: ١٦٦٩م.
- حملة فينيسيا اليونانية: ١٦٨٤–١٦٨٥م.
- موروسيني في اليونان: ١٦٨٨م.
- معركة خيوس: ١٦٩٥م.
- اتفاقية كارلوفتز: ١٦٩٨م.

* * *

استمرَّ البحر الأبيض هادئًا، على نحوٍ غريب، على مدى ربع قرن بعد الأحداث التي وصفناها في الفصل السابق. ربما كانت رياح خفيفة تكدِّر سطحه من وقت لآخر، إلا أنه لم تكن هناك عواصفُ شديدة ولا أحداث جلل، بحجمِ ما جرى في مالطة وقبرص وليبانتو. قد يبدو ذلك دالًّا، في إطار التاريخ السابق للبحر، ولكن يبقى الأكثر إثارةً للدهشة، أن عام المؤامرة الإسبانية نفسه (١٦١٨م) شهد كذلك بدايةَ حرب الثلاثين عامًا، التي كانت تمزِّق معظمَ أوروبا الشمالية والشرقية.

بالرغم من ذلك كلِّه، كان السلام قد جاء في الوقت المناسب، من وجهةِ نظر فينيسيا؛ ففي أكتوبر من العام نفسِه وقع حدث، بالرغم من أن فينيسيا لم تتحمل جزءًا من

مسئوليته، أدَّى إلى فقدانها أهمَّ ما كان قد تبقَّى من مستعمراتها السابقة؛ جزيرة كريت. عاجلًا أو آجلًا، كان ينبغي أن تعرف أن الحرب كانت حتمية؛ وكانت كريت جائزةً مغرية، ولم يكن الأتراك، كخَصم طامع فيها، لينتظروا طويلًا. يظل مدعاةً للسخرية أن يأتيَ أول هجوم تركي ردًّا على استفزازٍ واضح من قوة ثانوية كانت، بعد الجمهورية نفسِها، قد خسرت أكثرَ من غيرها من جراء استسلام آخرِ وأهمِّ مركز مسيحي متقدم في حوض المتوسط الشرقي.

بالرغم من أن فرسان سان جون كانوا يمتلكون ديرًا للرهبان[١] في فينيسيا — ورِثوه عن فرسان الهيكل بعد حلِّ تنظيمهم في ١٣١٢م — فإنهم والفينيسيون كانوا يكرهون بعضهم بعضًا بشدة على مدى قرون. كان من المستحيل أن يكون الأمر غير ذلك. وحيث إن تنظيمهم كان غنيًّا بما لديه من ممتلكات في أرجاء أوروبا المسيحية، فإن الفرسان كانوا يزدرون الأعمالَ التجارية. وكرجال دِين مقيَّدين بقيم التقشف والطهارة والطاعة الرهبانية، كانوا يستهجنون دنيويةَ الفينيسيين وعشقهم لمباهج الحياة؛ وأخيرًا، كرجال سيف وأبناء للصليبيين، فإن هدفهم المعلن — بصرف النظر عن علاج ورعاية المرضى — كان قتال غير المؤمنين أينما وجدوهم، وأدانوا رغبةَ الفينيسيين الملحَّة في عقد سلام مع السلطان، وكانوا يعتبرون ذلك التوجُّه خيانةً مخزية بالنسبة للقضية المسيحية.

بحلول أربعينيات القرن السابع عشر، كان الفرسان قد أصبحوا مجرد بقايا، وظلًّا ضعيفًا لما كانوا عليه في الأيام المجيدة السابقة قبل ثمانين عامًا، عندما نجحوا في حماية جزيرتهم ضد الأسطول الهائل الذي هاجمهم به سليمان المعظم. استمروا في إدارة مستشفاهم الشهير؛ حيث كانوا يحافظون على مستوًى من التمريض والعلاج، متقدمًا عنه في أي مكان آخر؛ ولكن الروح الصليبية كانت قد بدأت تتلاشى، كما أن عملياتهم البحرية قد أصبحت أقربَ إلى القرصنة منها إلى الحرب المقدسة. لم يقصروا عمليات السلب والنهب على سفن المسلمين، كما أن هجماتهم غير المبررة تكرَّرت ضد السفن التجارية الفينيسية وغيرها، وكان ذلك كثيرًا ما يتم بذرائعَ وهمية.

باختصار، أصبح فرسان مالطة مصدرَ إزعاج للفينيسيين، وإن كان بدرجةٍ أقل من «الأوسكوك Uskoks» في الأيام السابقة. أسوأ ما في الأمر، أنهم كانوا ينتهجون أسلوبَ الأوسكوك القديم في التحرُّش بالسفن التركية في الأدرياتيكي، وهو السلوك الذي كان السلطان يعتبر فينيسيا مسئولةً عنه — مع ما يسبِّبه ذلك من أضرار بالغة بالعلاقات الودية التي كان الفينيسيون يحاولون الإبقاء عليها، مهما كلفهم ذلك، مع الباب العالي.

أكثر من مرة بالفعل، كان الدوج يجد نفسَه مضطرًّا لأن يرسل إلى الدير المحلي للتنظيم احتجاجاته الشديدة، كما فعل في سبتمبر ١٦٤٤م، عندما هدَّد بمصادرة كل ممتلكات الفرسان في أراضي الجمهورية إن لم يُحسِّنوا من سلوكهم؛ وكالعادة، لم يهتم الفرسان.

وبينما كان أسطولٌ من ست سفنٍ تابعة للتنظيم يجول في بحر إيجه في شهر أكتوبر، قام بالهجوم على غليون تركي فخم، كان يحمل عددًا من كبار المسئولين الذين كانوا في طريقهم إلى مكة للحج، كان من بينهم قاضي قضاة المدينة وكبير الأغوات في بلاط السلطان، ونحو ثلاثين امرأة من الحريم، ونحو خمسين عبدًا يونانيًّا. ثم أبحر الأسطول إلى كريت بالغنيمة، ورسا على شاطئ جنوبي بعيدًا عن الحراسة؛ حيث تم إنزال العبيد وعدد من الخيول. سرعان ما جاء الحاكم المحلي الفينيسي، ولأنه لم يكن يريد أن يبدو متورطًا، حتى بعد الحدث، فيما كان عملية قرصنة مخجلة، قام بطردهم. بعد عدة محاولات في موانئ أخرى كثيرة على الجزيرة قوبلت كلُّها بالرفض، ترك الفرسان السفينةَ التركية (التي كانت قد أصبحت غيرَ صالحة للإبحار) بركَّابها وعادوا إلى مالطة.

كان على العرش العثماني في ذلك الوقت السلطان إبراهيم[٢] شبه المجنون. عندما جاءته الأخبار استشاط غضبًا وأمر بذبح كل المسيحيين في إمبراطوريته. لحسن الحظ أنه تراجع عن ذلك فيما بعد، إلا أن عملاء فينيسيا في القسطنطينية كانوا يرسلون تقاريرهم عن تجهيز أسطول حربي ضخم على البوسفور، وسرعان ما اتضح أنه كان هناك تفكير في عمليةٍ تأديبيةٍ على نطاق واسع. في البداية، كان هناك ظن بأن الأسطول سيكون موجهًا ضد مالطة، وهو الافتراض الذي أكَّده إعلان رسمي في مارس ١٦٤٥م، ولكن رسائل «البايلو Bailo»،[٣] الفينيسي في القسطنطينية حذَّرت بأن ذلك كله كان مجرد خدعة. قال في تقريره إن السلطان كان مقتنعًا بأن الفينيسيين كانوا وراء ما حدث، وإلا فلمَ اتجه المعتدون فورًا إلى كريت؟ لم يكن أعداؤه الرئيسيون هم الفرسان وإنما فينيسيا نفسها، أما هدفه فلم يكن مالطة، بل كريت.

سرعان ما اتضح أن البايلو الفينيسي كان محقًّا؛ ففي الثلاثين من أبريل، عبَر الدردنيل أسطولٌ تركي من أربعمائة سفينة تحمل نحو خمسين ألف جندي. اتجه الأسطول في البداية صوبَ مالطة كما سبق أن أعلن، وتقدَّم متجاوزًا كريت، ليتوقف في نافارينو في أقصى الجنوب الغربي من جزر البيلوبونيز للتزوُّد بإمداداتٍ ومؤنٍ إضافية. عند مغادرته في الحادي والعشرين من يونيو، ظهر أنه كان قد غيَّر خطَّ سيره. بعد أربعة أيام رسا الجيش الغازي على مسافة قريبة غربي «كانيا Canea» (خانيا Khania الحديثة) ليتقدم نحو المدينة. لقد بدأت الجولة الأولى من المعركة.

كانت كريت — أو «كانديا Candia» (هيراكليون Heraklion)، كما كان يطلِق عليها الفينيسيون مثل عاصمتها — كانت أول مستعمرة فينيسية فيما وراء البحار منذ ١٢١١م، وبعد أن أصبحت نصيبها من الإمبراطورية البيزنطية بعد الحملة الصليبية الرابعة. كانت حكومتها تعتمد على تلك في المدينة الأم، ولكنها لم تكن تعمل بسهولة أو على نحوٍ جيد. كانت الأجزاء الخصبة من الجزيرة قد ابتلعتها إقطاعيات الأسر الفينيسية العريقة، التي باعدت ثرواتها الطائلة وأساليبها الملتوية بينها وبين السكان اليونانيين المحليين، بالإضافة إلى أن تلك الأسر كانت مستاءة لعدم وجود أي سلطة سياسية في يدها؛ حيث كان يتم إبعاد كبار المسئولين من فينيسيا، مركز اتخاذ القرارات الرئيسية. في الظروف العادية، كان جباةُ الضرائب من الإقطاعيين يكلَّفون بمهامِّ الدفاع على حساب أصحاب الأرض، كما كانت تلك أيضًا مهمة الميليشيات المحلية من سكان المدن والمزارعين، ولكن كلا الطرفين كان يتملص من التزاماته باستمرار. كان الفساد منتشرًا والمستعمرة تمثِّل استنزافًا دائمًا للموارد الفينيسية.

لحظة أن أدركت الخطر المحدِق، أقرَّت حكومة الجمهورية برنامجًا دفاعيًّا صارمًا للجزيرة، وأرسلت إلى «أندريا كورنر Andrea Corner» — البروفيديتور العام Proveditor General —[٤] حوالةً مالية بمائة ألف دوكاتية، وجيشًا قوامه ألفان وخمسمائة مقاتل بينهم مهندسون عسكريون، وأسطولًا من ثلاثين جالية، وجلياستين، إضافة إلى ما كان موجودًا بالفعل على الجزيرة. كما تم إبلاغ كورنر كذلك بأنه كان يجري تجهيزُ أسطولٍ آخرَ سوف يُرسل إليه على وجه السرعة. كان ذلك أفضلَ من لا شيء، ولكن موارد المفوَّض العام كانت ما زالت غير كافية، والوقت المخصَّص له قصير، ولا بد أنه عندما أسرع إلى رأس الشاطئ في ذلك اليوم من أيام منتصف فصل الصيف، كان يعرف أن فرصة المستعمرة في البقاء ضئيلة.

كان الكثير يتوقَّف على سرعة وصول الأسطول الفينيسي الموعود، فلو أنه وصل في غضون أسبوع أو اثنين لأمكن إنقاذُ كانيا. إلا أنه لم يصل. كان لا بد من أن يصاب كورنر بالفزع، عندما علم بأنه كانت لديه أوامر بالانتظار في «زانته Zante» (زاكينتوس Zakynthos)، حتى يلحق به أسطول مشترك من خمس وعشرين سفينة من توسكانيا ونابولي ومن قبل الفرسان والبابا، كان المهم الآن هو عامل الزمن وليس القوة العددية. في الوقت نفسه، كان الأتراك يحصِّنون أنفسَهم في خنادقهم بقوةٍ مع كل يوم يمر. سقطت قلعة «سان تيودور St Theodor» الموجودةُ على الجزيرة في أيديهم، رغم أن ذلك لم يحدُث إلا عندما وجد قائدها «بياجيو زوليان Biagio Zolian» أن المقاومة لم تكن

مجدية، انتظر إلى أن تم اجتياحها ثم أشعل النار في مستودع البارود ثم فجَّر نفسه ورجاله والأتراك المهاجمين والمبنى نفسه ... كل ذلك في انفجارٍ واحد هائل دوَّى في أرجاء كانديا. كانت كانديا تضعُف بسرعة، الذخيرة والمئونة تنفد، الدفاعات نفسها يتم نسفها بواسطة المهندسين العسكريين الأتراك؛ وفي الثاني والعشرين من أغسطس كان الاستسلام. آملين، من خلال استعراض للقوة في التوقيت المناسب، وبغرض التشجيع على المزيد من الاستسلام أثناء تقدُّمهم، كان الأتراك يقدِّمون الوعودَ باحترام حياة وشرف وممتلكات السكان المحليين، كما سمحوا للحامية بمغادرة المدينة بأعلامها مرفوعة، وبأن يخرج أفرادها آمنين إلى «سودها Soudha» خلف «أكروتيري Akrotiri»[٥] في اتجاه الشرق.

الآن، وأكثر من أي وقت سبق، كان الحظ حليفَ الغزاة. في سودها، فقدَ الأدميرال الفينيسي «أنطونيو كابللو Antonio Cappello» صوابه فجأةً وهجر المدينة، ولم ينقذها من الأسرِ سوى موقعها الطبيعي الممتاز وتحصيناتها التي كان قد تم تجديدها. بعد ذلك، قام الأسطول المشترك، الذي كان قد وصل أخيرًا (في منتصف سبتمبر) إلى المياه الكريتية، بمحاولتين لاستعادة كانيا بهجوم مفاجئ، إلا أنه كان يرتد على أعقابه في المرتين بسبب العواصف الاستوائية. أخيرًا، أعلن الجزء غير الفينيسي منه، بقيادة الأدميرال البابوي «نيكولو لودوفيسي Nicolo Ludovisi» أمير «بيومبينو Piombino»، الذي كان قد أبدى منذ البداية عدم ارتياحه للحملة كلها، أعلن عن نيته في العودة إلى بلاده. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يكون فيها حلفاء فينيسيا سببًا في إلحاق الضرر بها. كان يمكن أن يكون وضعها أفضلَ بدونهم.

كانت حكومة فينيسيا، في الوقت نفسه، مستعدةً للحرب تمامًا، ولأنها لم يكن لديها سببٌ يجعلها تعتقد أن السلطان إبراهيم كان ينوي أن يكرِّس نفسه لمسرح عمليات واحد، قامت بإرسال حامية إضافية إلى كورفو، بل وشرعت في تقوية دفاعات البحيرة الفينيسية. ولكن الأولوية المطلقة بالطبع، كانت لـ «كريت». كانت الجاليهات وسفن النقل تبحر الآن في طريقها إلى الجزيرة بشكلٍ يومي محمَّلة بالعتاد والمؤن من كل نوع. كان هناك احتياج واحد، على أية حال بقي دون أن يتحقق، وهو وجود قائد أعلى. كانت هناك حاجة لشخص يمكن أن تضعه مكانته وسُمعته فوق كل الأحقاد والخصومات التي كانت خطرًا قائمًا باستمرار، وبخاصة عندما يكون الأمر متعلقًا بالعلاقات بين كريت وفينيسيا. كان تعيين قائد على هذا المستوى موضوعَ جدلٍ طويل في مجلس النواب، وعند التصويت النهائي برز اسم الدوج «فرانسيسكو إيريزو Francesco Erizzo» نفسه بأغلبية ساحقة.

كان صوت واحد فحسب هو الذي ارتفع معارضًا هذا الاقتراح. كان «جيوفاني بيسارو Giovani Pesaro» — الذي سيصل إلى عرش الدوقية فيما بعدُ — هو الذي يجادل قائلًا إن تكلفة إرسال رأس الدولة مع مجلسه وطاقم سكرتاريته، أمرٌ لا يمكن تبريره في وقت كانت الجمهورية محتاجة فيه إلى كل بنس لتمويل الحرب، وإن خطوة كتلك، كان من شأنها أن تشجِّع السلطان بالمثل لكي ينزل إلى الميدان هو شخصيًّا وبذلك يعظم المجهود الحربي التركي. كان هناك اعتبارٌ آخرُ جدير بالتدبُّر؛ كان إيروزو أمامه شهران فقط قبل أن يبلغ الثمانين من العمر، إلا أن أحدًا لم يستمع، وكان كل الاهتمام منصبًّا على الدوج العجوز الذي أعلن، في كلمةٍ جعلت عينَ كلِّ مَن كان يستمع إليه تدمع، عن استعداده للقيام بهذا الواجب الهائل الذي أُلقي على كتفه. لحسن حظ فينيسيا أنه لم يفعل. كانت الاستعدادات وحدَها كثيرة عليه، وبعد ثلاثة أسابيع فحسب، مات، وكان ذلك في الثالث من يناير ١٦٦٤م. تم دفنه في كنيسة «سان مارتينو St Martino»، ولكن قلبه، إقرارًا بفضله لقبوله التكليفَ الأخيرَ دون تردُّد، وضع تحت سطح كنيسة سان مارك نفسها. وحيث إنه لم يكن هناك شخص آخر في فينيسيا كلها بمثل تلك المنزلة، تم التخلي عن فكرة القائد العام، ولم يَعُد أحدٌ يسمع بها بعد ذلك.

يبدو أن كل شيء كان يتوقَّف على احتواء الأتراك في كانيا، الميناء الوحيد في كريت الذي كانوا قد استولوا عليه حتى ذلك الحين. فلو أمكن محاصرتهم هناك إلى أن تبني فينيسيا قوَّتها العسكرية في القلاع على امتداد الساحل، لما كان من الصعب طردُهم في آخر الأمر. تم الدفع بـ «توماسو موروسيني Tommaso Morosini» الأصغر، مع ثلاث وعشرين سفينة في محاولةٍ لإغلاق الدردنيل، وبذلك يمكن حبسُ أسطول الدعم التركي في بحر مرمرة، وقد تمكَّن على الأقل من تأخيره لفترة طويلة. هذا التعطيل أغضب السلطان بشدة، لدرجةِ أن أمر بقطع رأس الأدميرال. إلا أن المنحوس الذي خلف الأدميرال، الذي حفزه الخوف من أن يلقى مصيرًا مماثلًا، كما حفزته رياح مواتية من خلفه، شقَّ طريقه عبْر التشكيل الخطي الفينيسي واندفع في بحر إيجه نحو كانديا؛ حيث كان القائد العام الهرِم «جيوفاني كابللو» (٧٥ عامًا) شديد البطء وغير حاسم في منعه من دخول الميناء. ارتدَّت السفن الفينيسية إلى «ريتيمو Rettimo» (ريثيمنون Rethymnon)، إلا أنها لم تكن لتبقى هناك فترة طويلة. بعد صراع طويل، اضطُرت المدينة للاستسلام في الثالث عشر من نوفمبر.

كان لسقوط ريتيمو أثر واحد مفيد، وهو أنه كان سببًا في طرد كابللو عديم الفائدة، والمجيء بـ «باتيستا جريماني Battista Grimani» الذي كان قائدًا محبوبًا ويصغره

بأربعين عامًا، فدبَّت بذلك حياةٌ جديدة في الأسطول. في وقتٍ باكر من ١٦٤٧م، وجد توماسو موروسيني نفسَه فجأةً محاطًا بما لا يقل عن خمس وأربعين سفينة تركية، فكانت فرصة للانتقام لفشله في العام السابق؛ وفي المعركة غير المتكافئة التي اندلعت بعد ذلك، حارب هو وأطقمه ببطولة. حبسوا نيرانهم حتى اقترب العدو منهم تمامًا ثم أطلقوها وابلًا عن كثَب، وقبل أن يمر وقت طويل كان الفينيسيون واقعين في قبضة ثلاث من السفن التركية في وقت واحد ليدور القتال متلاحمًا، إلى أن تمكَّن أحد الجنود الأتراك من حَمَلة الهركوبة من التسلل خلف موروسيني، الذي كان وسط المعركة، ليفجر رأسه. في نفس الوقت تقريبًا، سقط الأدميرال التركي مصابًا بجراح بليغة إلا أن المعركة استمرت. وفجأةً شاهد الفينيسيون المُرهَقون ثلاث سفن تركية أخرى تقترب في تشكيل قتال، رافعةً علمَ سان مارك على صواريها، وعندما سمِع جريماني صوت إطلاق نار جاء يستطلع الأمر. دخلت هذه السفن هي الأخرى المعركة، مجبرةً الأتراك على التقهقر. غرقت أربع سفن تركية ولاذت الأخرى بالفِرار. أُعطِبت سفينة موروسيني، ولكنها كانت لا تزال طافية، فتم قطرها لتعود إلى كانديا، بينما أُعيدت أشلاء قائدها لتُدفَن في فينيسيا على نحوٍ يليق ببطل.

إلا أن بطولته، بالرغم من أنها كانت ملهمة، لم تحسِّن وضع فينيسيا الرئيسي في كريت. من بين الحصون الأربعة الرئيسية على امتداد الساحل الشمالي للجزيرة — كان الخامس بعيدًا ناحيةَ الشرق، فكان بالإمكان تجاهله مؤقتًا — كان اثنان في أيدي العدو بالفعل، أما بالنسبة للآخرين فقد كان حصن سودها محاصرًا من البحر منذ عام تقريبًا ويعاني من نقص في المواد الغذائية، ومثل كانديا كان الطاعون متفشيًا به، الأمر الذي كان محبِطًا للروح المعنوية ويجعل حمايته مستحيلة. أما بالنسبة للأتراك خارج الأسوار، فكانوا بعيدين عن ذلك الوباء. في صيف ١٦٤٧م أحكموا الحصارَ على كانديا التي كان مستقبل المستعمرة يتوقَّف عليها باعتبارها العاصمة.

كان أن استمرَّ حصار كانديا نحو اثنين وعشرين عامًا، كانت فينيسيا تدافع فيها — منفردةً — عن المدينة الصغيرة (كان عدد سكانها يتراوح بين ١٠ و١٢ ألف نسمة) ضد القوة البريَّة البحرية المشتركة للإمبراطورية العثمانية. في الماضي، كان لا يمكن تصوُّر مقاومة طويلة كتلك، ربما لأن الاعتماد المتبادل بين الأتراك والفينيسيين في الأمور التجارية كان يتطلَّب أن تكون الأعمال العِدائية بينهم قصيرةً وحادة. ولكن الآن، ومعظم تجارة

النقل في أيدي الإنجليز والهولنديين، لم تكن تلك الاعتبارات ما زالت مطبَّقة، وكان السلطان يستطيع أن يتحمَّل الوقت. أما قدرة فينيسيا على الصمود طويلًا، فلم تكن بسبب إصرار المدافعين عنها داخل الأسوار — رغم أهمية ذلك — بقدرِ ما كانت بفضل أسطولها، الذي كانت دورياته المستمرة في الحوض الشرقي من المتوسط تحبِط كلَّ محاولات الأتراك لحصار كانديا من البحر، وتزيد من سيطرتها على بحر إيجه، لدرجةٍ جعلت الأتراك يبذلون كلَّ جهدهم لتجنُّب مواجهةٍ بحرية مباشرة طوال السنوات العشر الأخيرة من الحصار.

لا يعني ذلك أنه لم تكن هناك مواجهات من هذا النوع؛ فقصةُ الحرب ملحمة وطنية بالمعنى الكامل للكلمة، هناك قصصٌ عن معاركَ لا حصر لها كبيرة وصغيرة، متعمَّدة أو غير مقصودة، في مواقعَ متفرقة حول مدخل الدردنيل؛ حيث كان الأسطول الفينيسي يتجمَّع كل ربيع على أملِ محاصرة العدو في المضايق، أو عبْر أرخبيل بحر إيجه إلى مكلأ كانديا نفسه. إنها قصة طويلة، غنية كذلك بحكايات بطولية: مثل حكاية «جياكومو ريفا Giacomo Riva» في ١٦٤٩م، الذي طارد أسطولًا تركيًّا في ميناءٍ صغير على الساحل الأيوني ليمزقه إربًا، وحكاية «لازارو موسينيجو Lazzaro Mocenigo» في ١٦٥١م بالقرب من «باروس Paros»، الذي أبحر متحديًا أوامرَ قائده للهجوم على أسطولٍ كامل للعدو، رغم إصابته بجراحٍ بليغة من سهامٍ عدة وطلقة بندقية اخترقت ذراعه فأجبر الأسطول على الفرار؛ وحكاية «لورنزو مارسيللو Lorenzo Marcello»، الذي قاد سفنَه إلى الدردنيل في ١٦٥٦م، ولكنه لم يبقَ على قيد الحياة ليشهد واحدًا من أكمل وأعظم الانتصارات في الحرب كلِّها؛ وحكاية لازارو موسينيجو (مرةً أخرى) في ١٦٥٧م، وكان قد أصبح قائدًا عامًّا، عندما قام أسطوله المكوَّن من ١٢ سفينة بمطاردة أسطول العدو المكوَّن من ثلاث وثلاثين سفينة في المضايق، مجتازًا بحرَ مرمرة خلفهم حتى أسوار القسطنطينية نفسها.

إلا أنه بالرغم من الإنجازات العظيمة والشجاعة الفائقة، يبدو أنه لم تكن هناك خطة شاملة؛ لأن دفاعًا أكثرَ تنظيمًا على طرق الاقتراب من المدينة المنكوبة، كان ينبغي أن يكون أكثرَ نجاحًا في عزل المهاجمين عن مصادر تعزيزاتهم وإمداداتهم. بالرغم من كل جهود الفينيسيين، استمرت التعزيزات والإمدادات في الدخول، وحتى في لحظات الانتصار كان المدافعون يعرفون جيدًا أن سقوط كانديا كان مسألة وقت.

شيء واحد فحسب كان هو الذي يمكن أن ينقذها؛ الدعمُ السخي والحماسي من قِبل القوى الأوروبية. قد يرى البعض أن تاريخ التوسُّع العثماني في أوروبا، يمكن إرجاعُه

بأكمله إلى عجز الأمراء المسيحيين الدائم عن الاتحاد دفاعًا عن قارتهم وعقيدتهم، إلا أن ذلك مسألة جدلية وقابلة للنقاش؛ ولكن ما يمكن قوله هو أنهم لم يقوموا بذلك بإخلاص منذ الحملة الصليبية الثالثة قبل نحو خمسة قرون، كما أنهم لم يكونوا يقومون بذلك الآن. مرة تلو الأخرى، كانت فينيسيا تلجأ إليهم، مؤكدة دائمًا أن أمنَ العالم المسيحي نفسه، وليس مستعمرة فينيسية صغيرة، هو الأهم، وأن ضياع كريت كان يعني ضياع نصف البحر الأبيض المتوسط. ومرة تلو الأخرى كانوا، كشأنهم دائمًا، يرفضون الاستماع. من ألمانيا، كان الإمبراطور يقول إنه كان قد وقع حديثًا هدنةً لمدة عشرين عامًا مع الباب العالي؛ ومن إسبانيا، لدهشة الجميع، كان صاحب السمو الملك، «الأكثر كاثوليكية»، يرسل سفيرًا إلى القسطنطينية الكافرة؛ أما فرنسا المتسقة مع دورها المزدوج فكانت تمرِّر إعاناتٍ صغيرة، سرًّا في بعض الأحيان، لفينيسيا. كانت تمرِّر الإعانات بيدٍ، وتمدُّ يدها الأخرى في صداقة للسلطان. إنجلترا، التي لم يكن متوقعًا منها الكثير؛ حيث لم تكن قد أصبحت قوةً في البحر الأبيض، كانت مسرفة في وعودها ... ولا شيء أكثر من ذلك. البابوات المتوالون، الذين كانوا يرون نكبةَ فينيسيا وسيلةً مفيدة لتحقيق مزايا لأنفسهم، كانوا يعرضون المساعدةَ مقابل تنازلات فحسب: إنوسنت العاشر مقابل السيطرة على الأسقفيات الفينيسية، وخليفته ألكساندر السابع مقابل إعادة السماح بدخول الجزويت الذين كان محظورًا عليهم دخول أراضي الجمهورية منذ بول الخامس بموجب أمرٍ كان قد أصدره في ١٦٠٦م.

ما لا يمكن إنكاره، هو أنه بمرور السنوات، وبعد أن أصبحت قصة مقاومة كانديا حديثَ كل أوروبا، كان الدعم الأجنبي على شكل أفراد وأموال وسفن ما زال يأتي، ولكنه كان قليلًا جدًّا ... ويصل متأخرًا جدًّا. مثال على ذلك تلك القوة التي أُرسلت من فرنسا في ١٦٦٠م، تحت قيادة الأمير «ألميريجو ديستي Almerigo d’Este»، المكوَّنة من أربعة آلاف مقاتل، لم تصل في الربيع، عندما كان يمكن أن يكون ذلك توقيتًا مناسبًا، وإنما وصلت في أواخر أغسطس، أول هجوم لها ضد العدو على أراضٍ لم تحاول أن تستطلعها، انتهى بالذعر والفرار، وبعد أسبوع أو أسبوعين، بعد أن ضربت الديزنطاريا أفرادها، كان لا بد من إرسالها بكاملها إلى جزرٍ أكثرَ راحة حتى تستعيد قوَّتها، بعد ذلك عاد مَن بقوا منها على قيد الحياة — لم يكن من بينهم الأمير، بكل أسف — إلى أوطانهم دون أن يحققوا شيئًا.

كثيرة وجديرة بالتذكُّر كانت بطولات القادة الفينيسيين في البحر، لدرجةٍ تنسينا بسهولة الدفاعَ البطولي عن كانديا بواسطة الحامية نفسِها، التي كان مقدرًا لها أن تواجه

اثنين وعشرين عامًا من الاستنزاف — في كل الأعمال العسكرية المخيِّبة للآمال — وأن تعاني خيبةَ أمل مستمرة في وعودٍ كاذبة بالمساعدة ممن كانوا يدَّعون أنهم حلفاء فينيسيا. مثل هذه القوات، كما كان يتضح دائمًا، كانت إمَّا تحرص على حياتها فقط، أو أن تحقق أمجادًا شخصية، وبذلك كانت تغامر بحياتها وحياة الآخرين نتيجةَ النقص الشديد في القوة البشرية.

تكرَّرت هذه الظاهرة الأخيرة كثيرًا في المراحل الأخيرة من الحصار. في ذلك الوقت، كان اسم كانديا يتردَّد في كل أوروبا؛ ومن بين الفرنسيين على وجه الخصوص، كانت جماعات من سلالة النبلاء قد بدأت تتدفَّق على الجزيرة في محاولةٍ لإثبات شجاعتهم في ساحة قتال مجيدة كتلك. كان أبرز تلك التدفقات ما حدث في ١٦٦٨م، عندما اقتنع لويس الرابع عشر أخيرًا بالحصار وبدأ اهتمامه الشخصي به. حتى ذلك الحين لم يكن قد دخل الحرب، ولا — حتى — قطع العلاقات الدبلوماسية مع السلطان. كان التجار الفرنسيون في الشرق اللاتيني قد أفادوا كثيرًا من الرحيل المفاجئ لبعض منافسيهم الفينيسيين، وكان نجاحهم كفيلًا بأن يجعل الملك يحلُم بأي قطيعة واضحة. لقد تخلَّى حتى عن مبادئه لدرجةِ أن سمح لفينيسيا بجمع قوَّات من الأراضي الخاضعة له، تحت قيادة «ماركيز سانت — أندريه مونت برن Marquis of Sainte-André Montbrun» القائد العام لجيوشه، وكانت النتيجة قوة متطوعين قوامها خمسمائة مقاتل، أبعد ما تكون عن قوة احترافية. تحت قيادة مونت برن، كان هناك أولًا «دوق دي لا فوياد Duc de la Feuillade»، الذي رغم أنه لم يكن ثريًّا، كان مصرًّا على أن يتحمل شخصيًّا نصيبَ الأسد من التكلفة، ثم كان هناك دوقان آخران، دوق «شاتو تييري Château Thierri»، ودوق «كاديروس Caderousse»، و«ماركيز أوباسو Aubusson»، وكونتا «فيمور Villemor»، و«تافان Tavanes»، وأمير «نيوشاتيل Neuchâtel» (الذي لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة)، وعدد كبير آخر من شباب النبلاء من كبريات العائلات الفرنسية.

عند وصولهم إلى كريت في أوائل ديسمبر، عهد القائد العام الجديد «فرانسيسكو موروسيني Francesco Morosini» للنبلاء الفرنسيين بالدفاع عن أحدِ الأسوار الخارجية على الجانب المواجه لليابسة من المدينة. رفضوا؛ قالوا إنهم لم يقطعوا تلك الرحلةَ المضنية إلى كريت لكي يطلب منهم أن يزحفوا في الطين حتى موقع خارجي — وينتظرون هناك صامتين إلى أن يقرِّر الأتراك الهجوم، واقترحوا بدل ذلك القيامَ بهجوم شامل «يجبر العدو على رفع الحصار». موروسيني، بتعقُّل شديد، لم يوافق على ذلك. كان قد قام بالفعل

بعشرات الإغارات ولم يسفِر أيٌّ منها عن أي نتيجة. كان مَن بقي من رجاله (أقل من خمسة آلاف آنذاك) يكفون بالكاد للدفاع عن الثغرات التي كان الجنود الأتراك يفتحونها في الأسوار، إلا أن أحدًا لم يستمع لرأيه. وكما وصف مؤرخ فرنسي الوضع:

> كان المسيو فوياد يسعى وراء العمل الجسور والمجد الشخصي فحسب، لم يكن يضيره كثيرًا مقتل سبعمائة أو ثمانمائة من رجال الجمهورية، ما دام سوف يحظى عند عودته إلى فرنسا بشرف القيام بعملٍ جسور على جزيرة كريت؛ وبمجرد وجوده خارج موقعه، فإن ضياعها بسبب نقص الرجال الذين يدافعون عنها لن يسبِّب له الكثير من الحزن.[٦]

وعندما وجد أن القائد العام لن يتزحزح عن موقفه، أعلن لافوياد، شاكيًا بصوتٍ عالٍ، من الجبن الفينيسي، عن نيته القيامَ بهجوم انفرادي على مسئوليته، وهو ما فعله في السادس عشر من ديسمبر، عندما قام مسلحًا بسوطٍ — رمزيًّا — على رأس قوة، يقال إن عددها كان قد انخفض من خمسمائة (عددها الأصلي) إلى مائتين وثلاثين جنديًّا. كان الأتراك يقاومون بشراسة، إلا أن الفرنسيين برغم تهوُّرهم وطيشهم أبدَوا شجاعة خارقة وطردوهم ليتراجعوا نحو مائتي ياردة، وكان عددهم نحو ثمانمائة في البداية، وبالرغم من وصول كتيبة جديدة من جنود الإنكشارية، أجبرهم الفرنسيون في آخرِ الأمر على الانسحاب. قُتل كونتا فيمور وتافين ونحو أربعين آخرين، وجُرح أكثرُ من ستين جِراحًا خطِرة، كان من بينهم ماركيز أوباسو، وكان آخر الناجين فوياد نفسه الذي كان مصابًا بثلاثة جروح نافذة.

كان ذلك رائعًا، ولكنه لم يكن ليساعد كريت أو فينيسيا. بعد أن انقضت لحظةُ المجد، لم يكن مَن بقي من الأبطال قادرًا على ترك الجزيرة بسرعة. غادروها في غضونِ أسبوع بالرغم من أن الكثير منهم — حتى الذين هربوا دون أن يصيبهم أذًى — لم يرَ فرنسا بعد ذلك. كانوا قد حملوا بكتير الطاعون معهم.

بعد أن رسا الناجون في «طولون Toulon»، سرعان ما أبحرت قوةٌ أخرى (أكبر حجمًا، وأكثر احترافًا، وأفضل تجهيزًا) من فرنسا، متجهة صوب كانديا. أخيرًا، كان السفير الفينيسي — جيوفاني موروسيني، أحدُ أقارب القائد العام — قد استطاع أن يقنع لويس الرابع عشر بأن يضطلع بمسئولياته الأكثر مسيحيةً على نحوٍ أكثرَ جِدية، وفي ربيع ١٦٦٩م كان إسهامه المهم جاهزًا: ستة آلاف جندي، ثلاثة آلاف حصان،

خمسة عشر مدفعًا ... كانت كلها محمولةً على أسطولٍ من سبع وعشرين سفينةَ نقلٍ تحرسها خمس عشرة سفينة حربية. إلا أن لويس، حتى ذلك الحين، كان يحاول أن يخفي إخلاله بعهده عن أصدقائه الأتراك، فلم يبحر الأسطول تحت راية زهرة السوسن،[٧] وإنما تحت راية البابوية التي تحمل المفاتيح المتصالبة.

وصلت القوة الرئيسية للجيش، وكانت تحت القيادة المشتركة لدوقي «دي بوفور de Beaufort» و«دي نواي de Noailles»، وصلت إلى كانديا في التاسع عشر من يونيو. روَّعهم ما رأوه. كتب أحد الضباط يقول:

> كانت المدينة في حالةٍ يُرثى لها: الشوارع مغطاةٌ بالطلقات والقذائف وشظايا الألغام والقنابل. لم يكن هناك كنيسة واحدة، أو أي مبنًى آخر، لم تخرِّب القذائف جدرانه أو حوَّلته إلى أنقاض. منازل الناس لم تكن أكثرَ من زرائب بائسة. كانت الروائح الكريهة تتصاعد من كل مكان، والجثث والجرحى والمصابون عند كل منعطف.

على الفور، بدأت قصة لافوياد تكرِّر نفسها، كان القادمون الجدد متلهفين على القتال، لدرجةِ أن رفضوا أن ينتظروا وصولَ باقي الجيش، بدءوا هجومَهم الخاص فجرَ الخامس والعشرين من يونيو. كانت البداية سيئة، اتضح أن الجزء الأول من القوات التي فتحوا النارَ عليها كان وحدةً ألمانية وصلت مؤخرًا لدعمهم. وبعد استعادة النظام هاجموا مرابضَ المدافع التركية ونجحوا في البداية. ثم فجأة، أشعلت قذيفةٌ تركية طائشة براميل البارود في إحدى البطاريات التي كانوا قد تركوها على عجل. كانت مهارة جنود التلغيم الأتراك معروفة، وكانت العمليات التي يقومون بها من ملامح الحصار، كما كانت معظم الأضرار التي لحِقت بدفاعات المدينة نتيجة للتفجيرات التي تتم تحت الأرض. فجأة، انتشرت الشائعات بين صفوف الفرنسيين بأن كل الأراضي التي يقفون عليها كانت ملغومة، وأن البطارية لم تكن سوى حفرة انفجار مموهة، وأن صوت الانفجار الذي سمِعوه قبل قليل كان الأول في سلسلة انفجاراتٍ مماثلة سوف تنسفهم جميعًا وتحوِّلهم إلى فتات! مع الشائعات كان الذعر، فبدءوا يفرون خائفين يدهس بعضهم بعضًا. عندما شاهد الأتراك ذلك الفرارَ المفاجئ الذي عجزوا عن تفسيره، أعادوا تنظيمَ صفوفهم وقاموا بهجوم مضاد. مات خمسمائة فرنسي، وفي غضون دقائقَ معدودة كانت رءوسهم معروضةً أمام الوزير الأول «أحمد»، وسط كل مظاهر الاحتفال بالنصر. كان من بينها رأسا دون دي بوفور وأحدُ الرهبان، الذي كان قد صحِب الجيش لجمع الصدقات.

لم يكن فقدان خمسمائة رجل من بين ستة آلاف بالخسارة الهينة؛ وبعد أربعة أيام وصلت بقيةُ جيش الملك لويس، وبدأ موروسيني التخطيطَ لهجوم جديد على كانديا من الغرب، إلا أن روح حلفائه الجدد كانت كسيرة. في الرابع والعشرين من يوليو، اقتربت سفينة حربية فرنسية مزودة بسبعين مدفعًا من بطارية شاطئ تركية، فتم تفجيرها في الماء. بعد أيام قليلة كان نواي يبلِغ القائدَ العام، بكل لا مبالاة، بأنه كان يعيد الجيش إلى السفن ويستعدون للرجوع إلى بلادهم. لم تُجْدِ الاحتجاجات ولا التوسلات ولا التهديدات ولا مناشدات الباقين على قيد الحياة. حتى التنديد بذلك من على منابر الكنائس لم يؤدِّ إلى تغيُّر الموقف، وفي الحادي والعشرين من أغسطس أقلع الأسطول الفرنسي. وسط حالة اليأس التي عمَّت بعد ذلك، أبحرت كذلك القوات الإضافية الصغيرة التي كانت موفدةً من قِبل البابا والإمبراطورية، حتى فرسان مالطة أيضًا أبحروا في اتجاه الغرب. بقي موروسيني وحاميته وحدَهم، وأصدر الوزير الأول أمرًا بالهجوم الشامل.

كانت هناك محاولات لصده، إلا أن القائد العام كان يعرف أنه لا بد من أن يلقى هزيمةً في آخرِ الأمر. كان عدد حاميته قد تقلَّص إلى ثلاثة آلاف وستمائة رجل، ولن تكون هناك تعزيزاتٌ إضافية ذلك العام. كانت الدفاعات مدمرة، وكان يعرف جيدًا أن لا أمل في صمود كانديا لموسم شتاء آخر. من ناحية أخرى، فإن الاستسلام الآن بدلًا من الانتظار إلى أن تسقط المدينة عَنوة، ربما يمكِّنه من الحصول على شروطٍ أفضل، وربما غير مهينة. كان واضحًا أنه لا يملك أيَّ صلاحيات للتفاوض باسم الجمهورية، ولكنه كان يعي أنه، على الأقل في ثلاث مناسبات سابقة (في ١٦٤٧م و١٦٥٧م و١٦٦٢م) كانت مسألة التفاوض موضوعًا للبحث في مجلس الشيوخ، وكانت في كل مرة تجد قدرًا من الدعم. على أية حال، كان الخيار صعبًا.

تمَّت الموافقة على المعاهدة في السادس من سبتمبر ١٦٦٩م. بدا الوزير الأول، وكان يكن إعجابًا شخصيًا بـ «موروسيني»، كريمًا. سيغادر الفينيسيون المدينةَ بكل حرية ودون تحرُّش من أحد، في غضون اثني عشر يومًا، ويمكن تمديدُ هذا الشرط — كما حدث — في حال سوء الأحوال الجوية. كل المدفعية التي كانت موجودةً من قبل بدء الحصار لا بد من تركها في مواقعها، أما الباقي فيمكن أن يحملوه معهم. سيبقى الأتراك كحكام، ولكن فينيسيا يمكن أن تحتفظ بجزر «جرامفوزا Gramvousa» في الطرف الشمالي الغربي من كريت، وقلعة «سبينالوجنا Spinalogna» وبمدينة «سيتيا Sitia» في أقصى الشرق، التي لم تكن قد استسلمت.

وهكذا في السادس والعشرين من سبتمبر، بعد ٤٦٥ سنة من الاحتلال، و٢٢ سنة من الحصار، تم إنزال راية سان مارك من فوقِ ما كان قد تبقى من قلعة كانديا، وعاد آخرُ ممثلِي الجمهورية الرسميين إلى مدينتهم الأم. ومعهم ذهب كلُّ السكان المدنيين الذين كانوا في المدينة، فلا أحدَ منهم كان يرغب في البقاء تحت حكم سادتهم الجدد. كان ذلك بالنسبة لفينيسيا نهايةَ مرحلة. احتفظت بمراكزها الثلاثة المتقدمة، وبقيت هناك نقطة أو نقطتان صغيرتان جدًّا على خريطة بحر إيجه؛ حيث ما زال الأسد ذو الجناحين يحكم، رغم أن زئيره كان قد توقَّف وزمجرته لم تَعُد مسموعة؛ ولكن كريت كانت آخر ممتلكاتها الرئيسية خارج البحر الأدرياتيكي. بضياعها انتهى وجودها المؤثِّر في الحوض الشرقي من المتوسط، وليس قوَّتها فحسب.

لقد ماتت في عظمةٍ ومهابة على الأقل. لم يحارب الفينيسيون هكذا في تاريخهم لفترة أطول، ولا على نحوٍ بطولي برًّا أو بحرًا. لم يسبق أن واجهوا أعداءً أكثرَ قوة وإصرارًا. كانت التكلفة المالية باهظة ... وأكثر من باهظة في الأرواح. فوق ذلك، على مدى ربع القرن تقريبًا، كانوا يحاربون وحدَهم. كانت مساعدات حلفائهم في المناسبات النادرة ضنينة، وعلى مضض، وغير كافية أو نفعية إذا جاءت؛ وأحيانًا — عندما كانت تسبِّب تأخيرًا طويلًا أو تُسحب فجأةً دون سابق إنذار — كانت شديدةَ الضرر على القضية المشتركة. حتى في السنتين أو الثلاث الأخيرة، عندما تحوَّلت سياسة الاستنزاف السابقة إلى تدميرٍ محموم وسفك دماء، كانت التدخلات الأجنبية تضعِف الروح المعنوية وتثبط الهمة. إلا أن ضعف الروح المعنوية وتثبيط الهمة لم يكونا سببَ استسلام فرانسيسكو موروسيني؛ كان السبب هو إدراكه المفاجئ أن فقدان كانديا كان حتميًّا، وأن الخيار الوحيد أمامه كان بين الرحيل بشروطٍ مشرفة الآن، أو المذبحة الكاملة والدمار بعد وقت قصير. ربما كان من المتوقَّع أن يجد نفسه في موقفٍ صعب عند عودته إلى فينيسيا. لقد اتُّهم، ليس بتجاوز سلطاته المشروعة وتعامله مع العدو كما حدث فحسب، وإنما بالجبن والخيانة كذلك ... بل وبالاختلاس والفساد. لحسن حظه أن كان هناك مَن سارع للدفاع عنه، وعندما عُرض الأمر على المجلس الأعلى جاء التصويت لصالحه. لقد خرج من المسألة خروجَ الشعرة من العجين ... مصممًا، حتى، على أن ينتقم.

وقبل أن يتحرَّك البندول، كان أن حدَث ذلك. بعد عشرين عامًا فحسب، ثار الرعايا البروتستانت المجريون للإمبراطور «ليوبولد الأول Leopold I» على ما كانوا يعتبرونه

اضطهادًا كاثوليكيًّا من جانب الهابسبورج، وبناءً على ذلك استنجدوا بالسلطان. لم يكن محمد الرابع يحلُم بأكثر من ذلك، وفي ربيع ١٦٨٣م انطلق إلى «أدرنة Edirne»؛ حيث كان في انتظاره هناك جيشٌ جرار. كان الجيش يضم كتائبَ كاملة من المدفعية والمهندسين وعددًا من الوحدات غير النظامية المكوَّنة أساسًا من تتار القرم. عندما وصلوا إلى بلجراد، سلَّم السلطان زمامَ القيادة لوزيره الأول «كارا مصطفى Kara Mustafa» (مصطفى الأسود)؛ وانطلق آخرُ جيش عثماني كبير ضد أوروبا المسيحية متجهًا صوب فيينا.

كانت تلك هي ثاني محاولة تركية ضد العاصمة الإمبراطورية. كان سليمان المعظَّم قد أقام معسكره أمام أسوار فيينا في سبتمبر ١٥٢٩م ولكنه أخفق؛ وبعد أقل من ثلاثة أسابيع كان مجبرًا على الانسحاب نتيجةَ المقاومة القوية غير المتوقَّعة، ونقص المؤن، وقبل كل شيء بسبب حلول فصل الشتاء. أما كارا مصطفى فكانت لديه ميزةُ الوصول الباكر في الفصل المناسب: كنا في الثالث عشر من يوليو، عندما رتَّب جيشه واتخذت قواته مواقعَها أمام المدينة. من ناحية أخرى لم يكن لديه مدفعية ثقيلة — حيث إن نقلها هذه المسافة الطويلة كان مستحيلًا — وكان مضطرًّا للاعتماد إلى حدٍّ كبير على مهندسي وجنود رص الألغام تحت الحصون والدفاعات على أملِ تفجيرها من أسفل. كان ذلك تخصصًا تركيًّا ثبَت نجاحه دائمًا. كان لا بد من أن تسقط فيينا لولا وصول جيش بولندي في الوقت المناسب، بقيادة الملك «جون سوبيسكي King John Sobieski». فجأةً، وجد الأتراك أنفسهم محصورين في تقاطع نيران مهلكة، بين حامية يائسة وقوة إنقاذ تحت قيادة ماهرة، فكان أن هربوا وسط حالة من الفوضى والارتباك بعد معركةٍ استمرت يومًا كاملًا. كان سليمان في المرة الأولى — على الأقل — قد انسحب بشكلٍ منظَّم محافظًا على جيشه متماسكًا، أما وضع كارا مصطفى فكان كارثيًّا. في ذلك اليوم الواحد ضاعت إلى الأبد سمعةُ الإمبراطورية العثمانية كقوة لا تُقهر. لن تشكِّل خطرًا على العالم المسيحي مرةً أخرى.

فيينا بعيدة عن البحر الأبيض المتوسط بأكثرَ من مائتي ميل، وما كان حصارها الفاشل ليجد مكانًا في هذا الكتاب، إلا لأنه شجَّع البابا والإمبراطور وسوبيسكي على الزحف على الأتراك المحطَّمين. فينيسيا التي كانت ما زالت حسيرةً على ضياع كريت، كانت المناشدات ما زالت تنهمر عليها لكي تنضم إلى عصبةِ هجوم جديدة، تستخدم قوَّتها البحرية بالاشتراك مع قواتهم الأرضية لطرد السلطان من أوروبا إلى الأبد؛ ذلك الطرد الذي ستكون أكثر الجمهوريات هدوءًا وصفاءً هي أكثر المستفيدين منه.

لم تردَّ فينيسيا بسرعة. على مدى عَقد كامل كانت تحاول جاهدةً أن تفيق من آثار حرب كريت، فهل كانت مستعدة الآن لكي تغامرَ مرة أخرى بكل شيء، وتدخل في مواجهة

جديدة؟ من ناحية أخرى، كان الوضع قد تغيَّر دون شك منذ هزيمة الأتراك في فيينا. المرحلة التالية من الحرب كان لا بد من أن تكون في البحر، في جزءٍ منها على الأقل، أفلا تتطلب منها مصالحها — ناهيك عن سُمعتِها — أن تنتهج سياسةً أكثر فعالية؟ كان الأتراك في حالة ضعف ومعنوياتهم في الحضيض؛ وزيرهم الأول، كارا مصطفى المكروه، كان قد تم إعدامه بأوامرَ من السلطان بمجرد عودته إلى القسطنطينية، أما الجيش فكان ممزقًا. ألم يكن ذلك هو الوقت المناسب للهجوم، ليس بهدف الثأر لـ «كريت» فحسب، بل لاستعادتها، وربما لاستعادة مستعمراتها السابقة كذلك؟ بعد جدال طويل، تم إخطار السفير الإمبراطوري في التاسع عشر من يناير ١٦٨٤م، بأن فينيسيا كانت ستنضم للعصبة.

كان قائدها العام آنذاك — مرةً أخرى — هو فرنسيسكو موروسيني. بالرغم من تسليمه التام والنهائي لـ «كانديا»، كان ما زال وهو في الرابعة والستين أكثرَ قادة فينيسيا مقدرةً وكفاءة، تولَّى قيادة أسطوله المكوَّن من ثمانٍ وستين سفينة حربية — بالإضافة إلى عدد من السفن الاحتياطية المساعِدة من البابا وفرسان مالطة ودوق توسكانيا الأعظم — تولَّى قيادة الأسطول بكل حماسة وعزيمة. بمجرد خروجه من الميناء اتجه صوب هدفه الأول مباشرة؛ جزيرة «ليوكاس Leucas» واستولى عليها في السادس من أغسطس بعد حصار ستة عشر يومًا. بعد الغزوات السريعة كان يمكن أن يكون لها أهميةٌ استراتيجيةٌ أبعد؛ من موقعها بين كورفو و«كيفالونيا Cephalonia»، كانت ليوكاس تتحكَّم في مدخل كلٍّ من البحر الأدرياتيكي وخليج كورنثة، كما كانت توفِّر رأسَ جسر، عبَرت عليه بعد أسابيعَ قليلة قوةٌ برية صغيرة إلى البر الرئيسي وأجبرت قلعةَ بريفيزا على الاستسلام. في الوقت نفسه، وفي منطقة في أقصى شمال الساحل، ثار الأهالي المسيحيون في «البوسنة Bosnia» و«الهرسك Herzegovina» ضد الحكام الأتراك، وانتقلت الثورة إلى ألبانيا و«إيبيريوس Epirus». ثم في منطقةٍ قصوى من الشمال — مرةً أخرى — كانت جيوش الإمبراطور وجون سوبيسكي تواصل تقدُّمها في المجر؛ وبحلول فصل الشتاء كان لدى فينيسيا وحلفائها من الأسباب ما يجعلهم يفخرون بنجاحهم.

مع مقدِم ربيع ١٦٨٥م، أبحر موروسيني ضد «كورونه Corone»، الميناء الفينيسي القديم — كان الأتراك قد استولوا عليه في ١٥٠٠ — وقام بإنزال نحو تسعة آلاف وخمسمائة رجل من القوات الإمبراطورية والبابوية والتوسكانية، بالإضافة إلى نحو ثلاثمائة من فينيسيا ومائة وعشرين من فرسان سان جون. في هذه المرة، قاومت الحامية

العثمانية باستماتة، ولم تظهر الراية البيضاء على القلعة إلا في أغسطس، ثم عند مناقشة شروط الاستسلام، فتح مدفع تركي النارَ ليقتل عددًا كبيرًا من الفينيسيين. توقَّفت المفاوضات على الفور، واندفع جنود الحلفاء غاضبين في المدينة، وكانت مذبحة. بعد ذلك، توالى سقوط سلسلة كاملة من القلاع؛ وفي غضون شهرين أو ثلاثة، كان كثير من جزر البيلوبونيز الجنوبية قد أصبح تحت سيطرة الحلفاء، ووصل جنرال سويدي هو «الكونت أوتو وليم فون كونيجزمارك Count Otto William Königsmark» — بعد أن كانت الجمهورية قد استأجرته مقابل راتب قدره ثمانية عشر ألف دوكاتية — ليكون قائدًا عامًّا للقوات البرية.

في أوائل ١٦٨٦م، التقى موروسيني وكونيجزمارك في ليوكاس في مجلس حرب. كانت هناك أربعة أهداف للاختيار من بينها: خيوس وإيوبيا وكريت وبقية البيلوبونيز؛ ويبدو أن الاختيار وقع على بقية البيلوبونيز نتيجةَ إصرار كونيجزمارك. وفي حملات الصيفين التاليين، قبلت قوات العصبة استسلامَ مودون ونافارينو وآراجوس ونوبليا وليبانتو وباتراس وكورنتة. في الوقت نفسه كان موروسيني قد أبحر بأسطوله نحو «أتيكا Attica» وبدأ يحاصر أثينا؛ وهنا ستقع المأساة الكبرى الثانية في التاريخ، التي ستُعلَّق مسئوليتها — بكل أسف — في رقبة فينيسيا. لقد روينا القصةَ البائسة للحملة الرابعة في الفصل السابع، والآن لا بد من أن نسجل هنا — بكل أسف أيضًا — ما حدث في السادس والعشرين من سبتمبر ١٦٨٧م. في الساعة السابعة تقريبًا، أطلق ملازم ألماني مدفع هاون، كان موروسيني قد وضعه على تل «موسيون Mouseion» مقابل «الأكروبولوس» الذي كان الأتراك، في لعنةٍ أكبرَ من لعنات القدَر، يستخدمونه كمخزن للبارود. كانت الطلقة مباشرة، فأدَّى الانفجار الناجم إلى تدمير «المَقْدِس Cella»[٨] وإفريزها تمامًا، بالإضافة إلى ثمانية أعمدة من الجانب الشمالي وستة من الجنوبي بالجزء القائم عليها من السطح. لم يكن ذلك — حتى — آخرَ ما حدث من دمار؛ إذ بعد الاستيلاء على المدينة، حاول موروسيني — الذي لم يكن قد نسي الاستيلاءَ على الأحصنة البرونزية الأربعة من مضمار القسطنطينية في ١٢٠٥م — إزالة الأحصنة والمركبة ذات العجل التي كانت جزءًا من القوصرة[٩] الغربية للمعبد، وأثناء المحاولة سقطت المجموعة كلها وتحطَّمت تمامًا، إلا أن الغازي الذي كان كله إصرارًا، كان عليه أن يرضيَ نفسه بتذكاراتٍ أكثرَ تواضعًا: الأسدين الجانبيَّين من الأربعة الواقفين عند مدخل ترسانة فيينا.

ليس من المرجَّح أن تكون دموعٌ كثيرة قد أُريقت في فينيسيا حزنًا على مصير البارثينون. كان أهالي أثينا مشغولين بالاحتفال. كان قد مرَّ على آخرِ انتصارٍ كبير

لهم في ليبانتو أكثرُ من مائة عام، والأهم أن الانتصارات التي كان يحقِّقها موروسيني الآن — والتي لم يكن لها مثيل منذ القرن الخامس عشر — كانت تبشِّر بانقشاع تلك السحابة العثمانية السوداء التي خيَّمت عليهم طويلًا، وربما بعودة تلك الأيام البعيدة، أيام الاستعمار التجاري. لم يكن مستغربًا أن يفرحوا كذلك بانتخاب فرانسيسكو موروسيني من أول تصويت، خليفة للدوج «ماركانتونيو جستنيان Marcantonio Justinian»، عندما مات في مارس ١٦٨٨م.

إلا أنه حتى آنذاك، لم يكن ليمكنه أن يعودَ إلى فينيسيا مباشرةً على هذا النحو المهين. انتصار واحد آخر، وإن كان متواضعًا، سيكون كافيًا لرد شرفه ويُمكِّن رعاياه من تحيته كبطل بعد كل ذلك، ويمكن أن تكون قلعة «مالفاسيا Malvasia» (مونمفاسيا Monemvasia) في الجزء الجنوبي الشرقي من البيلوبونيز، أحدَ الحصون البرية القليلة التي تُركت للأتراك، يمكن أن تكون صالحةً تمامًا لهذا الغرض. إلا أنه كانت هناك مشكلة. لم يكن بالإمكان الوصولُ إلى هذه القلعة التي تعلو صخرةً حصينة إلا عن طريق ممرٍّ ضيق، عرض معظمه أقلُّ من ياردة واحدة، لا يمكن أن يفيد منه جيش يقوم بالحصار. كان الأمل الوحيد هو القصف، فأمر موروسيني ببناء مربضين للمدفعية، ولكن حتى قبل اكتمال البناء، داهمه المرض. تاركًا القيادة لـ «جيرولاموكورنر»، أبحر عائدًا إلى بلاده في يناير ١٦٩٠م مريضًا وحزينًا، فلم يكن حتى قادرًا على الفرحِ بحفاوة استقباله.

أثبت كورنر أنه كان جديرًا بوراثة المنصب، كما اتضح أنه كان أكثرَ حظًّا. استولى على مالفاسيا وارتفعت رايةُ سان مارك على الأسوار للمرة الأولى في مائة وخمسين عامًا، ثم عندما علِم أن أسطولًا عثمانيًّا كان في طريقه إلى الأرخبيل، أبحرَ مرةً أخرى شمالًا لكي يقابله ويفرِّق شمله بالقرب من «مايتيلين Mytilene» (ليسبوس Lespos) ملحقًا به أضرارًا جسيمة. بعد عودته مرةً أخرى إلى الأدرياتيكي، شنَّ هجومًا عنيفًا على «فالونا Valona» فاستولى عليها ودمَّر دفاعاتها. كان ما زال هناك، عندما دهمته الحمى ليموت بعد يوم أو يومين، أما خليفته فأثبت أنه كان قصبةً مكسورة.

مع توقُّف الحرب التركية التي كانت قد بدأت بدايةً رائعةً ثم انتهت إلى توقُّف شائن، كان الفينيسيون يتطلعون مرةً أخرى إلى الدوج ليكون قائدًا فاعلًا. موروسيني، الذي كان الآن في الرابعة والسبعين لم يكن قد استعاد صحته تمامًا، إلا أنه عندما دُعي لاستئناف القيادة لم يتردَّد. أبحرَ من فينيسيا، وسط كلِّ مظاهر العظمة والأبهة، في الخامس والعشرين من مايو ١٦٩٣م — ولكن حملته الأخيرة كانت خيبةَ أمل كبيرة

أخرى. كان الأتراك قد استغلوا فصلي الشتاء والربيع لتقوية دفاعات كلٍّ من إيوبيا وكانيا في كريت، كما أن رياحًا معاكسة أعاقت محاولةً أخرى لـ «موروسيني» في الدردنيل. قام بتعزيز دفاعات كورنتة ونقطة حصينة أو اثنتين في البيلوبونيز، وقام بمطاردة قلةٍ من القراصنة الجزائريين، وأخيرًا، لكيلا يعود خالي الوفاض تمامًا، قام باحتلال «سالاميس Salamis» و«هيدرا Hydra» و«سبتساي Spetsai»، قبل أن يدخل ميناء نوبليا ليبقى هناك في الشتاء. في ذلك الوقت، كان من الواضح أن كلَّ جهوده قد استُنفدت. كان يعاني آلامًا مبرِّحة طوال شهر ديسمبر نتيجةَ الحصى الصفراوية واختلال وظائف الكبد، وفي السادس من يناير ١٦٩٤م مات؛ وحتى سقوط الجمهورية لم يحدث أن خرج أيُّ دوج آخر للحرب مرةً أخرى.

يبقى هناك فصلٌ واحد في تاريخ محاولة فينيسيا المأساوية لاستعادة السيطرة على البحر الأبيض. كانت جزيرة «خيوس Chios»، أحد الأهداف المحتملة التي فكَّر فيها موروسيني والكونت فون كونيجزمارك في ١٦٨٦م. كانت خيوس تباهي بأغلبيةٍ مسيحية من السكان، سواء من الكاثوليك أو الأرثوذوكس، وكان لكل طائفة أسقفها، كما كان تَعداد الحامية التركية يقدَّر بنحو ألفي نسمة على الأكثر. لم يكن «أنطونيو زن Antonio Zen»، القائد العام الفينيسي الذي أنزل تسعة آلاف رجل على الجزيرة في السابع من سبتمبر ١٦٩٤م، لم يكن يتوقَّع أيَّ صعاب.

لم يواجه أيَّ مشكلة في البداية. بدأ القصف فورًا، تم الاستيلاء على الميناء وعلى ثلاث سفن تركية تصادَف أن كانت راسية فيه. حدث ذلك كلُّه دون قتال واستسلمت الحامية في الخامس عشر، مع ضمانٍ بخروج آمن إلى البر الرئيسي. كانت الروح المعنوية للفينيسيين مرتفعة، وارتفعت أكثرَ بعد أن وصلت أخبار إلى خيوس، عن أسطول تركي من نحو خمسين سفينة كان يقترب بسرعة. على مدى سنوات، كان الأتراك يبذلون كلَّ ما في وُسعهم لتجنُّب مواجهات بحرية، وكان ضباطُ زن لا يكنون إعجابًا كبيرًا لمهارتهم البحرية ولا لشجاعتهم. لسوء الحظ، عندما كان القائد العام على وشْك اجتياز المضايق التي تفصل خيوس عن البر الرئيسي ويخرج إلى البحر المفتوح، خمدت الرياح. في الهدوء التام الذي ساد، لم يكن بالإمكان حدوث أي مواجهة، وعندما هبَّت نسمة خفيفة في اليوم العشرين أُصيب الأتراك بالفزع. مدركين الخطر الوشيك، اتجهوا صوبَ بلادهم ليصلوا إلى ميناء سميرنا قبل أن يَلحق بهم الفينيسيون. زن، الذي كان ما زال مستعدًّا للقتال،

رسا بسفنه في المكلأ خارج الميناء، ولكنه لم يكد يفعل ذلك، حتى جاء القناصل المحليون الذين يمثِّلون القوى الأوروبية خارجَ العصبة — إنجلترا وفرنسا وهولندا — إلى سفينة القيادة، وراحوا يتوسَّلون إليه ألا يخاطر بحياة المسيحيين وممتلكاتهم في المدينة بالقيام بأي هجوم غير ضروري، مُدعمين توسُّلاتهم — كما قيل — بمبلغ كبير من المال. ولأنه كان يعرف أن مئونته كانت قد أوشكت على النفاد، وافق زن، وعاد إلى خيوس.

إلا أن المعركة البحرية الكبيرة التي كان معظم القادة الفينيسيين ينتظرونها بلهفة، لم تكن لتتأخر طويلًا؛ فالسلطان الذي كان غاضبًا لضياع أهم جزيرة لديه، أصدر أوامره باستعادتها فورًا، وفي وقتٍ باكر من فبراير ١٦٩٥م، خرج أسطول عثماني جديد، مكونًا من عشرين من أثقل سفنه الرئيسية (كانت تسمَّى السفينة السلطانة)، تدعمها أربع وعشرون جالية. فورًا، أبحر أنطونيو زن ليقابله بأسطولٍ مثله تقريبًا — كان مكونًا من عددٍ معقول من السفن وفَّرها فرسان مالطة — في صباح اليوم التاسع وقعت المعركة بالقرب من الطرف الشمالي للمضايق. كان القتال طويلًا وضاريًا، تجلَّت فيه مظاهرُ الشجاعة والبسالة من جانب الفينيسيين، وربما من جانب الأتراك كذلك، رغم أنه لم يرِد ذكرٌ لذلك في التقارير الفينيسية، ولكن بعد أن انفصل الأسطولان عند الغروب، بالرغم من الخسائر الكبيرة في كلا الجانبين (كان هناك ٤٦٥ قتيلًا و٦٠٣ جرحى من الفينيسيين) لم تكن النتيجة حاسمة أو مؤكدة.

لم تكن تلك سوى المرحلة الأولى. رسا الأسطولان بالقرب من خيوس، كلاهما خارج مرمى نيران مدفعية الآخر، وبقيا على مدى عشرة أيام كاملة، كلاهما يراقب الآخرَ ويترصَّده. وفي التاسع عشر من فبراير، تُظاهِرهم رياحٌ شمالية قوية، هجم الأتراك مرةً أخرى على خصومهم. أثناء القتال زادت الرياح وزاد اضطراب البحر إلى أن أصبحت المناورة عن قرب مستحيلة. حاول الفينيسيون باستماتة تعديلَ أوضاعهم لكي يكونوا مع اتجاه الرياح ولكنهم كانوا مجبرين على دخول القناة الضيقة المؤدية للميناء. في مثل تلك الظروف الجوية، كان دخول الميناء مستحيلًا، فبقيت السفن في المكلأ لتكون عرضةً لهجوم الأتراك مرارًا وتكرارًا. كانت كارثة. كانت خسائر الفينيسيين فادحة، أما خسائر الأتراك فكانت قليلة نسبيًّا. عقد القائد العام مجلسَ حرب، ولكن يبدو أن النتيجة كانت قد تقرَّرت. لم يكن قد بقي هناك ما يكفي من الرجال لحراسة القلعة، والدفاعات في حالةٍ يُرثى لها، والخزانة خاوية، والمؤن قاربت على النفاد. وقبل توقُّع أيِّ مساعدة، هجم الأتراك مجددًا لتكون النتائج أكثرَ كارثية.

هكذا كان الاستيلاء على جزيرةِ خيوس وفقدانها في غضون أقلَّ من ستة أشهر. ليلة العشرين من فبراير، تم تحميل كلِّ ما يمكن حمله من عتاد الحرب على السفن، وتدمير أو تفكيك ما كان قد تبقَّى من الدفاعات والاستحكامات. وصباح اليوم الحادي والعشرين أبحر الأسطول مغادرًا الميناء، ولتفادي انتقام الأتراك خرجت معه معظم الأسر الكاثوليكية الكبيرة في الجزيرة، الذين مُنحوا إقطاعياتٍ جديدة في البيلوبونيز تعويضًا عما تركوه وراءهم. حتى وهي ترحل، كان سوء الحظ يرافق فينيسيا. بمجرد أن كانت آخر سفينة قد وصلت عند حاجز الأمواج، ارتطمت واحدةٌ من أهم سفن زن الباقية (Abbondanza Richezza) المحمَّلة بالأسلحة والذخيرة بصخرةٍ لم تكن ظاهرة. فشلت كل جهود إنقاذها، فكان لا بد من تركها وعليها معظمُ حمولتها.

بالنسبة لأهالي فينيسيا الذين كانوا قد احتفلوا مؤخرًا باستعادة خيوس، كان خبرُ فقدانها مدعاةً للغضب أكثرَ منه للأسى. طلب مجلس النواب إجراءَ تحقيق فوري، تم أثناءه إحضارُ البائس زن، وعدد كبير من ضباط الأسطول مكبَّلين بالسلاسل. مات زن في السجن ولم يكن التحقيق قد انتهى. لم يُعلَن عن نتائجه.

لم ينهزم الأتراك، ولكن الذي لا شك فيه أنهم أصيبوا بأضرارٍ بليغة، وبدَوا مرحِّبين بفرصةٍ للتفاوض على السلام. من جانبه، كان الإمبراطور ليوبولد متلهفًا على ذلك، ويتمنَّى أن يقدِموا على تلك الخطوة؛ لأنه كان يدرك أن هناك كارثةً جديدة في الطريق — ليس على حدوده الشرقية هذه المرة وإنما في الغرب؛ حيث كان شارل الثاني ملِك إسبانيا شبه المجنون (لم يكن له أولاد) يقترب من الموت. كان هناك متنافسان رئيسيان على عرشه — ليوبولد نفسه، ولويس الرابع عشر ملك فرنسا، وكلاهما حفيدُ فيليب الثاني وصِهر فيليب الرابع — وكان المفهوم أن ليوبولد كان يريد أن يتفرَّغ للصراع القادم. ولأن إنجلترا وهولندا المذعورتين كانتا تخشيان أن تتَّحد فرنسا وإسبانيا تحت قيادة لويس، عرضتا التوسط لدى السلطان؛ أما بولندا وفينيسيا، على افتراض أنهما سوف تحتفظان بالأراضي التي قامتا بغزوها، فكانتا سعيدتين بترك السلاح بعد خمسة عشر عامًا من الحرب. تمَّت الترتيبات بسرعة، وفي الثالث عشر من نوفمبر ١٦٩٨م، التقت كلُّ القوى المعنية في «كارلوفيتز Karlowitz» في المجر (الآن مدينة «سريمسكي كارلوفيشي Sremski Karlovici» الصربية).

لم تمضِ المفاوضاتُ بسهولة كما كان متوقعًا؛ حيث أشار ممثلو السلطان إلى أن سيدهم الذي لم يستسلم لا يجد سببًا يجعل المطلوب منه أن يتخلى عن كل الأراضي

الموجودة الآن في أيدٍ مسيحية. كان في ذهنه ممتلكاته في البحر الأبيض بشكلٍ خاص. فينيسيا يمكن أن تأخذ البيلوبونيز، ولن تكون تلك مشكلةً بالنسبة له، كما يمكنها الاحتفاظ بـ «ليوكاس» من جهة، وببحر إيجه من جهة أخرى، وبعدد من القلاع على ساحل دالماشيا. أما هو فكان مصرًّا على الاحتفاظ بـ «أثينا» و«أتيكا» وكل الأراضي اليونانية شمال خليج كورنتة. اعترض ممثل فينيسيا بشدة، ولكن أحدًا لم يدعم موقفه بقوة. الإمبراطور، بعد أن أصبح متأكدًا من المجر وترانسلفانيا، كان متلهفًا على العودة إلى وطنه بأسرعِ ما يمكن، وأفهم الفينيسيين أنهم إذا صمَّموا على إثارة قلاقل، فإنه لن يتردَّد في توقيع سلام منفرد. ظلَّت الإمبراطورية تجادل فترةً من الزمن، وعند توقيع الاتفاقية في السادس والعشرين من يناير ١٦٩٩م لم تكن بين الموقِّعين. إلا أن الحكمة انتصرت في آخرِ الأمر على المكابرة، وفي النهاية وضع الدوج ختمَه في السابع من فبراير.

كان أمرًا طيبًا أن يفعل ذلك؛ حيث إن اتفاقية كارلوفيتز كانت الوسيلة الدبلوماسية قبل غيرها، التي تسجِّل اضمحلال القوة العثمانية، وكان لـ «فينيسيا» التي واجهت تلك القوةَ مباشرةً أكثرَ مما فعلت أيُّ دولة مسيحية أخرى، كان لها الحق أكثر من غيرها في أن تكون جزءًا منها. من ناحية أخرى، فإن تخليها الاضطراري عن جزءٍ مهم من فتوحاتها لم يكن مجرد لطمة لاحترامها لنفسها، بل إن ذلك جعل من الصعب عليها بالقدْر نفسه أن تدافع عن الجزء الباقي. لم يكن هناك الآن شيء يمنع الأتراك من غزو البيلوبونيز من أتيكا، ولا — في الحقيقة — من أي مكان على امتداد الشاطئ الشمالي لخليج كورنتة، وهو ما سوف يثبتونه قبل مرور وقت طويل.

هوامش

(١) ما زال هذا الدير موجودًا إلى الآن بجوار: Scuola di S. Giorgio degli Schiavoni.

(٢) حتى جلوسه على العرش في ١٦٤٠م، كان إبراهيم قد أمضى حياته كلَّها سجينًا في «السيراجليو Seraglio»، قصر السلطان. وبعد فترةِ حكمٍ قصيرة تميَّزت بالقسوة الشديدة والطيش والفساد، قام رعاياه بإعدامه في ١٦٤٨م.

(٣) مندوب أو ممثِّل. (المترجِم)

(٤) المفوَّض العام من قِبل الجمهورية للإشراف على الإدارة والخدمات العامة، وكان في الوقت نفسِه بمثابة مستشار عسكري. (المترجِم)

(٥) كلمة يونانية تعني «رأس Cape»، وتطلَق على الأراضي البارزة شمال شرقي كانيا، وتحمي المرسى الموجود في خليج «سودها Soudha» خلفها مباشرة.

(٦) للمزيد، انظر: Philibert de Jarry; Histoire du siege de Candie.

(٧) شعار ملوك فرنسا. (المترجِم)

(٨) حجرة داخلية في الهيكل. (المترجِم)

(٩) القوصرة pediment: المثلَّث الموجود أعلى واجهة المبنى. (المترجِم)

الفصل التاسع عشر

حروب الخلافة

- وصية الملك شارل الأخيرة: ١٧٠٠م.
- الأمير إيوجين في إيطاليا: ١٧٠١م.
- القتال في إيطاليا وإسبانيا: ١٧٠٦–١٧٠٧م.
- الاستيلاء على مينوركا: ١٧٠٨م.
- جبل طارق ومينوركا: ١٧١٢م.
- معاملة القطالونيين: ١٧١٤م.
- إبعاد ألبيروني: ١٧١٩م.
- حصار كورفو: ١٧١٦م.
- باساروفيتز: ١٧١٨م.
- دون كارلوس يطالب بـ «نابولي وصقلية»: ١٧٣٤م.
- الخلافة النمساوية: ١٧٤٠م.
- معاهدة أيكس لاشابيل: ١٧٤٨م.
- كورسيكا وباولي: ١٧٥٥م.
- انتهاء حرب السبع سنوات: ١٧٦٣م.

* * *

في يوم الجمعة، الأول من نوفمبر ١٧٠٠م، مات الملك شارل الثاني في قصره في مدريد. كان قد جاء إلى العرش ضعيفَ الجسد والعقل وهو في الرابعة من عمره بعد موت والده فيليب الرابع، وكانت نظرة واحدة على هذا الطفل سيئ الحظ، تكفي لإقناع البلاط بعدم كفاءته للقيام بما كان ينتظره من مهام. كان شارل يبدو صورة كاريكاتورية للهابسبورج؛ ذقن

وفك بارزان لدرجة أن الأسنان السفلى لا تلامس العليا. كان مريضًا بشكل دائم، لدرجةِ أن كثيرين كان يخامرهم الشعور بوجود سحر وراء ذلك. لم يكن عدد كبير من رعاياه يتصوَّر للحظة واحدة أنه سيشبُّ ليتولى حكم أملاكه الواسعة. إلا أنه كبر، وبعد وصاية أمه «ماريانا Mariana» (ابنة الإمبراطور فرديناند الثالث) التي استمرت عشر سنوات، تولَّى مقاليد الحكم، ولو نظريًّا — وهكذا منذ توليه، كانت إسبانيا بالفعل بمثابة مملكة بلا ملك.

لم يكن هناك ما يدُل على أن شارل كانت له سياسة خاصة به. لم يكن يجلس غالبًا إلى مكتبه إلا عندما تكون هناك أوراق لتوقيعها، ودائمًا لم يكن يقرؤها؛ وفي أحد أيام شهر مايو ١٦٩٤م، عندما اضطُر لإغفال موعد تناوله الغداء، كان ذلك حدثًا أثار دهشةً بالغة لدرجةِ أن سجَّلته إحدى الصحف المعاصرة. كانت إدارة البلاد متروكة برُمَّتها لسلسلة من رؤساء الوزارات من ذوي القدرات المختلفة، ولنبلاء إسبانيا.

قبل أولئك جميعًا، كانت هناك الكنيسة وأداتها الرئيسية: محكمة التفتيش: The Inquisition. لم يكن الملك يتدخَّل في المسائل الدينية، كما أخبر السفير البريطاني، وكان اليهود والبروتستانت أكثرَ ضحايا تلك المحكمة، ولكن الحقيقة أنه لم يكن هناك أيُّ أجنبي بمأمنٍ من اتهاماتها. عندما مات القسُّ الملحَق بالسفارة البريطانية في ١٦٩١م اضطُروا لدفنه سرًّا، وبالرغم من ذلك تم استخراج جثته فيما بعدُ والتمثيل بها؛ وليس هناك شكٌّ في أن طرد الموريسكيين[1] في ١٦١٠م — الذي تم بواسطة محكمة التفتيش ودوق ليرما — كان بمثابةٍ ضربة قوية لإسبانيا لم تُفِق منها إلا بعد قرون. كان معظم الإنتاج الزراعي للبلاد يعتمد على الموريسكيين؛ الحبوب والأرز والقطن ... حتى الورق. كانت الصناعات القليلة التي كان يمكن أن تباهي بها إسبانيا في أيديهم كذلك. وهكذا بحلول العام ١٧٠٠م، كانت إشبيلية وطليطلة وسيجوفيا وبيرجوس، قد أصبحت ظلالًا شاحبة لما كانت عليه قبل مائة عام. أما بالنسبة للمزارعين والعمال من السكان، فكانت الأمور تزداد سوءًا بمرور السنين؛ ففي ١٦٩٩م حدَثت مجاعة كبيرة، وتجمَّع حشدٌ من نحو عشرين ألف مواطن أمام القصر الملكي، وكاد الأمر يتطور إلى ثورةٍ شاملة.

لم يكن مفاجئًا أن يفشل شارل الثاني في الإنجاب بالرغم من زيجتين، وبالقرب من نهاية القرن أصبحت مسألةُ خلافته أكثرَ إلحاحًا. المشكلة هي أن العرش الإسباني كان مطمَعًا، بل إنه كان في الحقيقة موضوعَ صراع بين أسرتين أوروبيتين، كلتاهما كانت تدَّعي أحقيتها به. «آن Anne»، كبرى ابنتي الملك فيليب الثالث، كانت متزوجةً من

لويس الثالث عشر ملك فرنسا، وكانت الصغرى «ماريا Maria» متزوجةً من فرديناند الثالث إمبراطور النمسا. كانت «آن» قد أنجبت مَن سيصبح لويس الرابع عشر، وماريا مَن سيصبح الإمبراطور ليوبولد الأول. كان يمكن أن يكون لويس صاحبَ حق في العرش كذلك عن طريق زوجته «ماريا تريزا Maria Teresa»، الشقيقة الكبرى لـ «شارل الثاني»، إلا أنها — لسوء حظه — كانت قد اضطُرت للتنازل رسميًّا عن كل حقوقها الوراثية في الممتلكات الإسبانية عند زواجه منها.

«مارجريت Margaret»، الأخت الأصغر لـ «شارل»، من الناحية الأخرى لم تكن قد قدَّمت مثل هذا التنازل عندما تزوَّجت الإمبراطور ليوبولد الأول؛ ومن ثَم كان حفيدها الأصغر «جوزيف فرديناند Joseph Ferdinand» (ابن ابنتها «ماريا أنتونيا Maria Antonia» و«ماكس إيمانويل Max Emanuel» الحاكم المنتخَب لـ «بافيا») هو المطالب الهابسبورجي بالعرش. هكذا كان المسرح يبدو معدًّا للصراع. عندما كتب شارل وصيته في ١٦٩٨م يثبِّت جوزيف فرديناند وريثًا وخليفةً له، بدت الأمور وكأنها قد استقرت، إلا أن الأمير الصغير مات فجأة في ١٦٩٩م. صحيح أن موته المفاجئ نُسب إلى مرض الجدري، إلا أن ذلك لم يكن مقنعًا لأحد؛ إذ كان هناك كثيرون — من بينهم والد الطفل نفسه — يشكُّون أنه قد مات مسمومًا، ولم يترددوا في قول ذلك. مرةً أخرى، بدأت المفاوضات الدبلوماسية المعقَّدة — ليس بين القوى الثلاث المعنيةِ بالأمر مباشرة فحسب، وإنما بمشاركةٍ من إنجلترا وهولندا كذلك.[٢] كانت هاتان الدولتان البحريتان مستمرتين في تعاملاتهما التجارية المربحة مع إسبانيا، وكان هناك كثير من التجار البريطانيين والهولنديين المقيمين بصفة دائمة في «كاديز Cadiz» (قادش) وغيرها من الموانئ الإسبانية. وخلال معظم سنوات القرن السابع عشر، كانت الدولتان في حالة خصام دائم، أما الآن فكان يجمع بينهما همٌّ مشترك؛ إبعاد الفرنسيين. إذا كان الإسبان يريدون أن ينتقلوا من يد العرش الأضعف في أوروبا، إلى يد العرش الأقوى، فأي فرصة يمكن أن تكون هناك لكي تسمح للتجارة بالاستمرار؟

كان السفراء يتنقلون جيئةً وذهابًا بين العواصم الأوروبية إلى أن تم توقيعُ ما عُرف باتفاقية «التقسيم الثانية Second Treaty of Partition» (دعك من الأولى) بواسطة وليم الثالث ملك إنجلترا ولويس الرابع عشر ملك فرنسا، وكان المأمول أن يعطي البرلمان الهولندي والإمبراطور ليوبولد موافقتهما فيما بعد. بحسب شروط هذه الاتفاقية، كانت الممالك الإسبانية السابقة في نابولي وصقلية من نصيب فرنسا، بالإضافة إلى الأراضي

الإسبانية على امتداد ساحل توسكانيا ودوقية اللورين بدلًا من ميلان؛ أما إسبانيا وباقي ميراث شارل الثاني فستكون من نصيب الأرشيدوق شارل، الابن الأصغر للإمبراطور. في مارس ١٧٠٠م، وقَّع البرلمان الهولندي، ولكن ليوبولد وحدَه أحجم. لم يجِد سببًا يجعل فرنسا تحصل على أي أراضٍ إمبراطورية، وكان مستاءً — على نحوٍ خاصٍّ — لفكرة أن يتنازل عن ميلان. كان كلُّ ما يهمه هو أن يئول كل الإرث الإسباني إلى ابنه، وكان على استعداد للقتال في سبيل ذلك.

كان ردُّ فعل ليوبولد معتدلًا حتى بالمقارنة برد فعل البلاط الإسباني، عندما تم إبلاغ مدريد بشروط الاتفاقية في يونيو. جاءت التقارير تقول إن الملِك «كان في حالةٍ من الغضب غير العادية»، وإن الملِكة الغاضبة هي الأخرى «راحت تحطِّم كلَّ شيء في غرفتها» عند سماع تلك الأخبار. كان من الواضح أن إسبانيا كانت تعلِّق كلَّ أملها على النمسا لكي تدعمها كحليف طبيعي ضد قوى التقسيم. طارت الرسائل بين الملك والإمبراطور وبدأت نُذُر الحرب تلوح في الأفق مرةً أخرى، إلا أن شارل كان يدَّخر مفاجأة أخرى. بحلول ربيع ١٧٠٠م، كان قد أصبح من الواضح أنه لن يعيش طويلًا، وفي الثالث من أكتوبر، وضع توقيعه المرتعش على وصيةٍ جديدة، تاركًا بموجبها كلَّ ممتلكاته — دون استثناء — لـ «فيليب» دوق أنجو Duke of Anju، ابن السابعة عشرة، حفيد لويس الرابع عشر. وبعد شهر ... مات.

تُرى ما الذي غيَّر مشاعره لصالح فرنسا. كانت الكنيسة — قبل أي شيء آخر — هي السبب. كانت محكمة التفتيش، وكل أساقفة وإكليروس إسبانيا في الحقيقة، مع حلٍّ فرنسي، وكان البابا «إنوسنت الثاني عشر Innocent XII» — الذي مات قبل الملك بخمس سنوات — قد كتب إليه يزكي دوق أنجو. مع دنو الأجل، وصوتُ كاهن الاعتراف يهمس في أذنه، لم يكن لدى شارل قدرةٌ على الجدال.

في السادس عشر من نوفمبر ١٧٠٠م، كتب وليم الثالث ملِك إنجلترا: «لم أعوِّل كثيرًا قط على صراع مع فرنسا، إلا أنني لا بد من أن أعترف بأنني لم أتصور أنهم يمكن أن ينتهكوا اتفاقيةً جادَّة أمام العالم كله قبل إقرارها.» الحقيقة أن ذلك ما كان ينبغي أن يصيبه بهذه الدرجة من الدهشة؛ فقد كان المعروض على لويس — أو على حفيده على الأقل — أكثرَ مما كان يتمنى، ولم يكن الملك — بالتأكيد – من ذلك النوع الذي يمكن أن يمرِّر ذلك كلَّه من أجل اتفاقية، لم يكن الحِبر الذي كُتبت به قد جفَّ بعد. وحيث إنه كان يعرف تمامًا أن ليوبولد لن يقبل هذا التدبير الجديد دون اعتراض، لم يضيِّع وقتًا، فأرسل

من فوره الشاب المطالب بالعرش إلى مدريد لكي يتسلَّمه دون إبطاء، وأرسل برفقته مجموعةً من المسئولين الفرنسيين لتولي المناصب الرئيسية في الحكومة، ومرشدته ومعلِّمته الخاصة المهيبة الأميرة «دي أورسين Princes des Ursins».[٣] الحقيقة أن فيليب الخامس كان مقبولًا في مملكته الجديدة، كانت «قطالونيا Catalonia» وحدَها هي المناوئة، ولكن ذلك كان كافيًا لضمان خلافةٍ غيرِ متنازع عليها. أما ما لم يكن لويس يعرفه، فهو مدى وحجم الحرب القادمة، أو الثَّمن الذي سيكون عليه أن يدفعه مقابل عرش حفيده.

لم يكن لاتفاقية التقسيم قيمةٌ أكبر من قيمة الورق الذي كُتبت عليه، وكان من الواضح أنه لا بد من استبدالها. وهكذا، في السابع من سبتمبر ١٧٠١م، في «هاجو Hague»، وقَّع ممثلو إنجلترا وهولندا والإمبراطورية ما أصبح يُعرف بـ «التحالف الكبير The Grand Alliance». في مجالاتٍ معينة، تُرِكَت شروطها غامضة عمدًا، ولكن أهدافها بالنسبة للحرب القادمة — لم يكن قدومُها الوشيك محلَّ شك — كانت واضحة تمامًا. كانت الأهداف الإمبراطورية سياسيةً بشكل صريح؛ كان ليوبولد يريد أن يعيد للإمبراطورية كلَّ الممتلكات الإسبانية في إيطاليا. من ناحية أخرى، كانت ممتلكات إنجلترا وهولندا كلُّها تجارية تقريبًا، كان كلُّ ما يريدونه هو ضمان مستقبل ملاحتهم وتجارتهم.

ولكن، قبل ذلك بسبعة أشهر، في فبراير من العام نفسه، كان «فيليب الأنجوي Philip of Anju» قد دخل مدريد باعتباره فيليب الخامس الإسباني، وكانت القوات الفرنسية قد احتلَّت «الأراضي الواطئة الإسبانية Spanish Netherlands».[٤] بالنسبة لمعظمنا، فإن حرب الخلافة الإسبانية مرتبطة بـ «دوق مارلبورو الكبير Duke of Marlbrough» الذي كان أن صنع أسطورته الكبرى في شمال أوروبا وليس في جنوبها. ميادين القتال تلك المروية بالدماء في «بلينيم Blenheim» و«رامي Ramillies»، في «أودينارد Oudenard» و«مالبلاكيت Malpaquet» بعيدةٌ عن البحر الأبيض بمئات الأميال ولا تعنينا هنا. ولكن البحر المتوسط كان له دوره أيضًا؛ فالحقيقة أن الحرب بدأت بحملة برية قصيرة على الأراضي الإيطالية، تمكَّن فيها الفرنسيون من تحرير كثير من الممتلكات الإسبانية السابقة في لومبارديا ووادي «بو Po»، وفي بداية نشوب الأعمال العِدائية في ١٧٠١م، كان جيشُ تحالفٍ كبير قد احتشد في «تيرول Tyrol» الجنوبية بقيادة «إيوجين Eugene» أمير سافوي[٥] بهدف طردهم. في الوقت نفسه نظَّم القائد الفرنسي المكنَّى بالمارشال «نيكولاس كاتينات دي لافوكونيري Nicholas Catinat de la Fauconnerie»، الذي لم يكن لديه النيةُ أن يُطْرد، وتوقَّع أن يتبع الأمير وادي «أديج Adige»، نظَّم جيشَه على شواطئ بحيرة

«جاردا Garda» وراح ينتظر الهجوم. إلا أن إيوجين كان أذكى من ذلك. دفع بوحدةٍ صغيرة على طول الضفة اليمنى لنهر أديج على سبيل الخداع، ثم جاء بالجزء الرئيسي من الجيش — ستة عشر ألف جندي مشاة ونحو ستة آلاف من الخيَّالة — عبَر الممرات الجبلية الضيقة غير المكشوفة، إلى «مونت بالدو Monte Baldo» وفاجئوا الفرنسيين من الجانب الأيمن.

فقد «كاتينات Catinat» صوابَه. مأخوذًا بالمفاجأة على حين غِرة، وجاهلًا تمامًا بنوايا إيوجين، قام بنشر جيشه في وحداتٍ صغيرة على مساحة ستين ميلًا تقريبًا. كان خطأ فادحًا استغله الأمير جيدًا؛ إذ بعد أن قام بالهجوم على وحدةٍ تلو الأخرى، حقَّق عدة انتصارات أخرى، ربما كانت صغيرة إلا أنها حاسمة، كانت ذروتها إغارةً كبيرة في منتصف فصل الشتاء على «كريمونا Cremona» حيث أسرَ مارشالًا آخر، هو «دوق فيلليريو Duc de Villerio»،[٦] وترك الفرنسيين في حالةٍ من الفوضى التامة. لم يفيقوا سوى في العام التالي؛ بعد كاتينات، تولَّى القيادةَ «دوق فاندوم Duc de Vendôme» — الذي كان قائدًا أفضل — وتلقَّى جيشه دعمًا كبيرًا من نابولي أرسله فيليب ملك إسبانيا. أما إيوجين، الذي خطوط الاتصال بينه وبين فيينا قد انقطعت فجأة، فأصبح — لأول مرة — في موقف الدفاع. آنذاك، كان مركز الحرب قد انتقل، ودخلت إيطاليا عالَم النسيان إلى حدٍّ كبير. ولكن ليس البحر الأبيض.

أثناء اتفاقية التقسيم كان مستقبل البحر هو الشغلَ الشاغلَ تقريبًا للملك وليم. لم يكن ما يشغَله هو استمرار التجارة مع إسبانيا فحسب، بل والتأكد من أن إسبانيا لو كان لها أن تنتقل إلى يد البوربون، فإن إنجلترا ستكون مستبعَدة من حوض البحر الأبيض بكامله، إن لم تجد لنفسها معقلًا آمنًا بداخله. لفترة طويلة كانت عينه على مينوركا، كما كان يخطِّط مع قائده البحري «سير جورج روك Sir George Rooke» لاحتلال كاديز (قادش) قبل أن يغفلها الفرنسيون. موت وليم في مارس أضاف صعوبةً للفكرة الأخيرة، لم يكن لدى روك حماسة كبيرة لها، كما أن هجومه على الميناء في الخريف التالي انتهى بفشل ذريع. إلا أنه استرد المدينةَ كاملة بعد عامين، عندما استولى على جبل طارق بواسطة أسطول إنجليزي — هولندي.

كانت صخرة جبل طارق في أيدي الإسبان منذ ١٤٦٢م، وفي ١٥٠٢م قامت الملكة إيزابيلا بضمها رسميًّا إلى إسبانيا؛ إلا أن دفاعاتها كانت ضعيفة ولم تكن الحامية الموجودة بها متحمِّسة للمقاومة. استسلمت لـ «روك» في الرابع من أغسطس، بعد صمود ثلاثة أيام، انتهت بسقوط ستين قتيلًا من المهاجمين وجرح مائتين. ثم كانت فرصة

حقيقية للأدميرال لإثبات همَّته، بعد ثلاثة أسابيع، عندما قابل في الثالث والعشرين من الشهر نفسه أسطولًا فرنسيًّا من خمسين سفينة بقيادة «كونت تولوز Count of Toulouse» بالقرب من «ملقة Malaga». ما حدث بعد ذلك، بعبارة روك فيما بعد، «كان أكثرَ الأيام عنفًا على مدى فترة خدمتي». كانت خسائر الطرفين فادحة. لم يكن هناك شكٌّ في أن الصراع انتهى لصالح البريطانيين، ومع طلوع فجر اليوم السابع والعشرين، لم يكن هناك وجودٌ لأي فرنسي. كان الأسطول الفرنسي قد انسحب إلى طولون، ولم يحاول على مدى بقية الحرب أن ينازع سيطرةَ التحالف على البحر الأبيض.

الاستيلاء على مضيق جبل طارق لم يجعل منه مستعمرةً بريطانية على الفور. من الناحية العملية، كان روك قد استولى عليه بالإنابة على الأرشيدوق شارل المطالب الإمبراطوري به، وبعد عام بالضبط من سقوطه، نزل الأرشيدوق من سفينةٍ بريطانية في الثاني من أغسطس ١٧٠٥م ليتم الاعتراف به هناك ملِكًا على إسبانيا باسم «الملك شارل الثالث King Charles III». في الوقت نفسه، تم تعيين كتيبتين بريطانيتين وأخريين هولنديتين لحراسة الصخرة، وبالرغم من أن حاكمها الماجور جنرال «سير جون شرمتون Sir John Shrimpton» كان إنجليزيًّا، ظل هو والعاملون معه يعترفون بسيادة شارل. أطلقت المدفعية ثلاث دفعات من الطلقات (من خمسة وثلاثين مدفعًا) تحيةً في عيد ميلاد الملك في ١٧٠٥م، أما يوم عيد ميلاد الملكة آن، الذي حلَّ بعد خمسة أشهر، فلم يكن هناك سوى دفعة واحدة من واحد وعشرين مدفعًا. إلا أن تلك كانت أيام باكرة عندما كان شارل ما زال ينتظر فرصةً جيدة للجلوس على العرش الإسباني. فيما بعد، ومع تضاؤل تلك الفرص، كان مستقبل جبل طارق قد اتخذ شكلًا مختلفًا أكثرَ تعقيدًا. المؤكد أن انتقاله إلى فيليب الخامس المكروه، كان أمرًا مفروغًا منه، ثم ينتقل عن طريقه — كما كان يعلم الجميع — إلى جَده لويس الرابع عشر، الذي كان مكروهًا أكثرَ منه. كان وضعه سيكون أكثرَ أمانًا لو أنه بقي بشكل دائم في يد بريطانيا …

لم تبدأ الحملة الإيطالية الكبيرة إلا في ١٧٠٦م. كان الأمير إيوجين يدرك أن أي تقدُّم آخر كان مستحيلًا دون تعزيزات قوية، وكان قد عاد إلى فيينا بحثًا عن ذلك. استغل «فاندوم Vendôme» غيابَه وقام بهجوم على الجيش الإمبراطوري في معسكره بالقرب من «برشيا Breacia» وردَّه إلى «تيرول Tyrol»، إلا أنه قام بتصفية حسابه مع دون إيوجين الذي (بواسطة قواتٍ قوامها أربعة وعشرون ألف جندي من ألمانيا جمعها بفضل دعم مالي

إنجليزي قدره مائتان وخمسون ألف جنيه إسترليني) استطاع أن يدخل إيطاليا في وقتٍ باكر من يوليو عبْر وادي أديج، وأن يتقدَّم في اتجاه نهر الـ «بو Po». وبعد عبوره، زحف غربًا على طول الضفة اليمنى مطاردًا العدوَّ أمامه. وعند «فيللا ستيلونا Villa Stellona»، المجاورة لـ «بافيا» من جهة الجنوب، انضم إلى جيشٍ آخرَ بقيادة دوق سافوي، ليتقدما معًا صوب تورين حيث — رغم قلة عددهم — أنزلوا هزيمةً كبيرة بالقوات الفرنسية. كانت تلك هي النهاية. وفي مارس ١٧٠٧م، وبحسب اتفاقية ميلان، تخلَّى لويس الرابع عشر عن الشمال الإيطالي.

من ناحية أخرى، كان يواصل القتال في إسبانيا؛ حيث لم يكن أمامه خيارٌ آخر. في ربيع ١٧٠٦م تصدَّى أسطول بقيادة الأدميرال سير «كلاودزلي شوفيل Clowdisley Shovell» لقوةٍ بقيادة «إيرل بيتربورو Peterborough» وقام بمطاردتها عبر مضيق جبل طارق حتى الساحل الشرقي؛ حيث كانت برشلونة قد قبِلت عن طيب خاطر المطالبَ الإمبراطوري، الملك شارل الثالث. في الوقت نفسه، كان جيش إنجليزي هولندي – برتغالي، بقيادة «إيرل جالواي Earl of Galway»[٧] قد غزا «إكستريمادورا Extremadura» من البرتغال، وتقدَّم شرقًا نحو مدريد. دخل المدينة في ٢٦ يونيو ليجلو عنها بعد أسابيعَ قليلة، اعترافًا بحقيقة لا خلاف عليها، وهي أن إسبانيا، خارج قطالونيا وفالينسيا، كانت بكاملها مؤيدة للملك فيليب. كانت هناك خيبةُ أمل فيما يتعلَّق بـ «مدريد» إلا أنه تم تجاوزها بالانتصارات التي حقَّقها الحلفاء في شمال أوروبا، لدرجةِ أن أعلن الملك لويس في أغسطس أنه كان مستعدًّا للتوصل إلى تفاهم؛ كان يمكن أن يترك إسبانيا لـ «شارل»، مقابلَ الاعتراف بأحقية فيليب في ميلان ونابولي وصقلية.

في ذلك الوقت، كان يمكن أن نقول إن لا إنجلترا ولا الإمبراطورية كانتا مستعدتين للاستماع إلى مثل ذلك، ولكن بعد اثني عشر شهرًا سوف تندمان على ذلك. لم يشهد العام ١٧٠٧م أيَّ انتصارات مهمة في الشمال، أما في الجنوب فكانت هناك كارثتان. وقعت الأولى في الخامس والعشرين من أبريل، عندما لقيت قوة جالواي، المتعددة العناصر، المكوَّنة من خمسة عشر ألف مقاتل، هزيمةً ساحقة في «ألمانسا Almansa» على بُعد ستين ميلًا تقريبًا، جنوب غرب فالينسيا. كانت الهزيمة على يدِ جيشٍ رفيعِ المستوى من الفرنسيين والإسبان تحت قيادة «دوق برويك Duke of Berwick» أبرزِ جنرالات الملك لويس، وابن جيمس الثاني ملك إنجلترا، من «أرابيلا Arabella» شقيقةِ دوق مارلبورو.[٨] بضربةٍ واحدة، سقطت فالينسيا ومورسيا وأراجون في يد الحلفاء؛ والأسوأ من ذلك — ربما —

أنهم لم يكونوا قادرين على دعم قوات الأمير إيوجين، عندما قام بالهجوم على طولون في شهر يوليو. كان إيوجين جنرالًا عظيمًا مثل قائده الدوق مارلبورو، ومن أسف في الواقع، أن مغامراته الأخيرة في البحر الأبيض ألقت بسحابةٍ كدَّرت سمعته، لأسباب لم يكن مسئولًا عنها. وإذا كانت محاولته في طولون قد فشلت، فإن ذلك يرجع إلى حليفيه الرئيسيين؛ الإمبراطور ليوبولد، ودوق سافوي. في اللحظة الحرجة، وجد ليوبولد من المناسب أن يرسل نحو ثلاثة عشر ألف مقاتل للقيام بالهجوم على نابولي؛ أما سافوي فقد ظهر ضعيفًا مترددًا، لدرجة أنه عندما كان إيوجين قد رسا على أرض بروفنس في السادس والعشرين من يوليو، كانت المعركة قد انتهت بالهزيمة. لقد تمَّت التضحية بعشرة آلاف جندي دونما ضرورة، ولعل كان هناك بعض العزاء أن يعرفوا أن الفرنسيين، بدلًا من ترك طولون تسقط في يدِ الحلفاء، قاموا عمدًا بإغراق أسطولهم المكوَّن من خمسين سفينة في مينائها؛ وبقيت الحقيقة أن ميناءهم الجنوبي الرئيسي الذي كان ينبغي أن يكون مع إيوجين، ضاع بسبب التخبُّط وعدم الكفاءة، وكان الأسطول الإنجليزي ما زال محرومًا من الشيء الذي كان يريده أكثرَ من سواه؛ ميناء جديد آمن في البحر الأبيض، يمكن أن يحتميَ فيه من عواصف الشتاء، ويستطيع أن يخزِّن فيه مواده التموينية واحتياجاته في أمان، ويعيد تجهيز سفنه على نحوٍ ملائم.

عندما تكشَّفت الأمور، تطوَّرت الأحداث بسرعة. كانت مينوركا، وهي أبعدُ «جزر البليار Balearic Islands» إلى الشمال الشرقي والأقرب إلى فرنسا، كانت دائمًا محلَّ اهتمام البريطانيين؛ وفي صيف ١٧٠٨م، تلقَّى الماجور جنرال «جيمس ستانوب James Stanhope» (الذي كان قد تم إيفاده سفيرًا إلى إسبانيا، ولكنه خلف جالواي كقائد أعلى) أوامرَ بالاستيلاء على «بورت ماهون Port Mahon» عاصمةِ الجزيرة. مدعومًا بأسطول من أربع وثلاثين سفينة بقيادة الأدميرال «جون ليك John Leake» (الذي هُرع إلى مينوركا من سردينيا حيث كان يقوم بقصف كاجلياري)[٩] الذي رسا في مينوركا في الرابع عشر من سبتمبر على رأس قوة مكوَّنة من ألف ومائتي بريطاني وثمانمائة إسباني وستمائة برتغالي. وبعد أسبوعين آخرين، كان قد أصبح مستعدًّا للقيام بالهجوم. كان لا بد من إنشاء طريق لنقل المدافع والعتاد من مكان الرسو إلى الهدف الأول وهو قلعة «سان فيليب Fort St Philip»، وحتى آنذاك كان موقع القلعة الحاكم الذي يطل على الميناء، يجعلها منيعةً تقريبًا. تعامل ستانوب مع المشكلة بأن عرض شروطًا سخية لاستسلامها، مهددًا بقتل كل الحامية في حال رفضها. كان يمكن أن يواصل القادة الفرنسيون والإسبان

المقاومةَ، لولا وجود عدد كبير من النساء والأطفال الذين كانوا قد لجئوا إلى القلعة. وهكذا قرروا الاستسلام — وهو القرار الذي سيندمون عليه فيما بعد. تم سَجن كليهما، لينتحر القائد الإسباني بعد ذلك.

سرعان ما حذَت القلاع الأخرى حذوَ سان فيليب، أما سرعة تقدُّم ستانوب فكانت راجعة، إلى حد كبير، إلى حُسن نية السكان المحليين الذين كانوا قد تحملوا الفرنسيين والإسبان أكثرَ من طاقتهم؛ بمجرد اقتراب القوات الغازية، قام حكامٌ ماهرون بتسليم مفتاح المدينة، وبنهاية الشهر، كانت الجزيرة كلُّها قد أصبحت في يد البريطانيين، وستظل كذلك نحو قرن من الزمان — تقريبًا — باستثناء فترة بينية قصيرة من ١٧٥٦م إلى ١٧٦٣م. بالنسبة لـ «ستانوب»، لم يكن استسلام الجزيرة — مثل جبل طارق — لـ «شارل الثالث» ملِك إسبانيا أمرًا كبيرَ الأهمية، وكان قد تم رسميًّا إعلان شارل ملِكًا عليها في الثامن من نوفمبر. كتب يقول: «ما كان ينبغي أن تتخلَّى إنجلترا عن هذه الجزيرةِ قط، الجزيرةِ التي سوف تقرِّر قانون البحر الأبيض المتوسط، سواء في زمن السلم أو الحرب.» ولتأكيد ذلك، ترك حاميةً مكوَّنة من قوات بريطانية بالكامل، أما الإسبان والبرتغاليون فأعيدوا إلى إسبانيا ليساعدوا الملِك شارل. بحلول يونيو ١٧٠٩م، كان قد أنفق أحد عشر ألف جنيه إسترليني على دفاعات الجزيرة.

في الوقت نفسه، كانت الأوضاع على البر الرئيسي الإسباني تبدو خطرةً بالنسبة لـ «جالواي»، وكانت خطورتها تتزايد. كان يلقي بمسئولية انتكاساته على قواته البرتغالية أساسًا — كانت بمثابة عبء عليه في ألمانسا — وفي أوائل ١٧٠٨م أعاد أفرادها إلى بلادهم ليحل محلَّهم جنودٌ ألمان ممن توفَّروا بعد الهدنة في إيطاليا، بقائدهم «الكونت فون ستاريمبرج Count von Starhemberg»؛ ولكن حتى آنذاك كان من الواضح استحالةُ منْع الإمبراطوريين من الاستيلاء على «تورتوسا Tortosa» قاطعين بذلك الاتصالَ بين برشلونة وفالينسيا. لم يحدُث أيُّ تقدُّم حتى العام ١٧١٠م، عندما زحف الحلفاء للمرة الثانية على مدريد. سقطت المدينة في الثالث والعشرين من سبتمبر، ولكن شارل فشل مرةً أخرى في الاحتفاظ بها، وبنهاية العام كان عليه أن ينسحب إلى قطالونيا. حتى هناك، كانت قبضته في غاية الضَّعف؛ في يناير ١٧١١م، استولى الفرنسيون على «جيرونا Gerona».

ثم بعد ثلاثة أشهر، في السابع عشر من أبريل، مات الإمبراطور «جوزيف الأول Emperor Joseph I» في جنيف، وكان في الثالثة والثلاثين من العمر؛ وكان سبب الوفاة،

المؤكَّد، هذه المرة هو الجدري. بموته تغيَّر المشهد السياسي الأوروبي برُّمته بين عشية وضحاها. كان جوزيف قد خلف والده ليوبولد في ١٧٠٥م، وكان قد بذل جهدًا كبيرًا لإصلاح الأوضاع المالية المتدهورة في الإمبراطورية، ويتبنى بشدة مطالبة شقيقه الأصغر شارل بـ «إسبانيا». إلا أن شارل لم يكن الآن مجرَّد مطالبٍ إسباني بالعرش، كان الخليفة المتوقَّع لشقيقه على العرش الإمبراطوري. كان «التحالف الكبير The Grand Alliance» قد تكوَّن فحسْب، لمنع أسرة واحدة (البوربون The Bourbons) من أن يصبحوا أقوياءَ أكثرَ من اللازم؛ وإذا أصبح شارل إمبراطورًا (كما حدث بالفعل بعد انتخابه في العام التالي) فسيكون هناك خطر أن يصبح الهابسبورج أكثرَ قوة بمجرد أن تتحدَ كل الأراضي التابعة لهم مرة أخرى (كما كان الحال أيام عمِّه الأكبر، شارل الخامس). كان لا بد من أن تمرَّ شهورٌ كثيرة قبل أن تتوصَّل القوى الأوروبية إلى تفاهمٍ حول الوضع الجديد، فلم تبدأ المفاوضات بين الحلفاء وفرنسا إلا في أول العام الجديد، ١٧١٢م، في مدينة أوترخت الهولندية.

قبل أن نذهب إلى أوترخت، لا بد من أن نعودَ قليلًا إلى مينوركا وجبل طارق؛ حيث كان وضعهما ما يزال غامضًا. في إنجلترا، كان «الهويج The Whigs» [١٠] الذين كانوا مسيطرين على النصف الأول من فترة حكم «المِلكة آن Queen Anne»، كان قد حلَّ محلَّهم حكومةُ «تورية Tory Government».[١١] كانت الحكومة الجديدة قد ارتأت أن الإمبراطور شارل السادس يمثل خطرًا أكبرَ مما كان للبوربون في أي وقت، ولم يَعُد يستحق التأييد البريطاني؛ وهذا بالإضافة إلى أن البوربون كانوا قد أصبحوا مستعدين للسلام. كانت الحرب في الشمال تنذر بكارثة لفرنسا — كان مارلبورو ما زال مستمرًّا في إزالة كلِّ ما يعترض طريقه — وكان الملك لويس يزداد تلهفًا على التوصل إلى تفاهم؛ وعليه كان لا بد من أن تكون هناك تنازلات وبخاصة عن ممتلكات الآخرين كما كان لويس يفضِّل (لويس هو لويس)، وهل كان هناك تنازلٌ يمكن أن يلقى قبولًا لدى البريطانيين، أكثر من الاعتراف بأحقيتهم في جبل طارق؟ في الحادي والثلاثين من مايو، قام الملك بإبلاغ الملكة آن: «لدينا وعدٌ من ملك إسبانيا بأن يبقى جبل طارق مع الإنجليز، كضمان حقيقي لتجاربهم في إسبانيا والبحر الأبيض المتوسط.»[١٢] الحقيقة، أنه لم يكن لديه شيء من هذا القبيل، إلا أن فيليب لم يكن ليعترض. حتى الآن، كان أكثر حظًّا من جَده؛ كانت الحرب في إسبانيا ضد شارل وحلفائه ناجحةً إلى حدٍّ ما، ولكن إلى متى سيظل الحظ حليفه؟

كانت خلافة شارل للإمبراطورية تعني أن تصبح كل موارد الإمبراطورية تحت تصرُّفه. كذلك كانت هناك شائعات عن احتمال إرسال إيوجين ليتسلَّم القيادة في إسبانيا، كما كان فيليب يعرف أنه لا يوجد لديه جنرالات يملكون نصف خبرة الأمير أو ذكائه، لكي يضعَهم في مواجهته. وأخيرًا، إذا عقَدت فرنسا وبريطانيا سلامًا منفصلًا، فسوف يُحرَم من كل الدعم العسكري الفرنسي. لم يكن يرى أيَّ خيار آخرَ أمامه؛ ولذا أبلغ الملك لويس — على مضض — بأن كان على استعداد أن يعرض على الإنجليز فتوحاتهم الحديثة.

انطلقت مفاوضات السلام في تكتُّم وهدوء ومضت في تسلسل؛ اعترفت بريطانيا بـ «فيليب الخامس» مِلِكًا على إسبانيا، بينما كانت إسبانيا وفرنسا مضطرتين لقبول أن تظل مينوركا وجبل طارق في يد بريطانيا. في البداية، كان لويس هادئًا بشأن مينوركا. لم تكن صخرة جبل طارق ذاتَ أهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة له؛ من ناحيةٍ أخرى كانت الجزيرة على مسافة إبحار يوم من فرنسا، وكان يمكن أن تُستخدم — كما ارتأى مؤخرًا — كقاعدة انطلاق للهجوم على طولون وساحله المتوسطي؛ ولذا لم يكن لديه النية لتسليمها إلا إذا كان مضطرًّا لذلك. ما لم يكن يعرفه هو أن النصيحة التحذيرية التي كانت قد أُعطيت للمفاوضين البريطانيين قبل أن يغادروا أوترخت: أنهم كان لا بد من أن يصروا على أن «جبل طارق وبورت ماهون، مع جزيرة مينوركا سوف يتم ضمها في المستقبل إلى تاج تلك الممالك» — وألا يقبلوا بغير الموافقة على ذلك.

كانت ما تزال هناك مشكلة بسيطة مع الهولنديين. كانوا قد قاموا بدورهم في الاستيلاء على الصخرة في ١٧٠٤م، كما قدَّموا جزءًا من الحامية منذ ذلك الوقت، وكانوا، كما هو متوقَّع، ينتظرون المكافأة على ذلك. الآن كانوا — بنفس القدْر — يشعرون بأنه قد غُرِّر بهم. في البداية، رفضوا أن يسحبوا قواتهم من جبل طارق، وهدَّدوا بمواصلة الحرب وحدَهم، إلا أن أحدًا لم يأخذهم على محمل الجِد. الحقيقة، أنهم كانوا في أمس الحاجة لدعم البريطانيين لحمايتهم في الأراضي المنخفضة، وكانوا يعرفون ذلك هم والبريطانيون.

ما يُعرف بمعاهدة أوترخت، كان في الحقيقة سلسلةً كاملة من الاتفاقيات حاولت فيها فرنسا وإسبانيا، بعد فوران أوروبي استمر إحدى عشرة سنة، أن تضبطا علاقتهما بجيرانهما. معظم الرعايا الذين تم الاتفاق بشأنهم لا يعنوننا هنا، أما فيما يخص البحر الأبيض، فقد قدَّمت كلتا الدولتين تنازلاتٍ مهمة. فرنسا وإسبانيا اعترفتا رسميًّا بـ «فيكتور أماديوس الثاني Victor Amadeus II» — الذي تصادف أن كان حما الملك فيليب —

ملكًا على صقلية، وأن يمتد مُلكه الشمالي ليشمل مدينة نيس، الفرنسية سابقًا. بالإضافة إلى ذلك قبِلت إسبانيا نقل المناطق الإسبانية السابقة من إيطاليا والأراضي المنخفضة إلى الإمبراطورية، وسلَّمت مينوركا وجبل طارق بالفعل لبريطانيا؛ وبالطبع، لم تفعل ذلك دون شروط. بالرغم من أن المعاهدة منحت التاج البريطاني حقوقَ ملكية دائمة على جزء من منطقة جبل طارق الحالية (قامت بريطانيا، بكل وقاحة، بتوسيعها منذ ذلك) شرط أن تستمر العقيدة الكاثوليكية بكل حرية وأن يُحظر على اليهود والمسلمين الاستقرارُ هناك، كما احتفظت لنفسها صراحةً، بالسيادة التامة على الصخرة.[١٣] وما ليس معروفًا كذلك على نطاق واسع أنها وضعت اسمها على ما يسمَّى ب «اتفاق آسينتو Asiento Agreement» الذي أعطت بموجبه البريطانيين الحقَّ الحصري بتزويد مستعمراتها فيما وراء البحار بالعبيد الأفارقة، بمعدل ٤٨٠٠ عبد في السنة … لمدة ثلاثين سنة!

ظل الإمبراطور شارل يحارب حتى ١٧١٤م، وتم توقيع السلام النهائي بدونه. كان باسمه أن استمر الصراع على مدى الاثني عشر عامًا السابقة، وبالنأي بنفسه عن صنَّاع السلام، يكون قد ألحق بإمبراطوريته أذًى دائمًا. لم يتم تجاهُل مصالحه تمامًا أثناء المفاوضات الطويلة في أوترخت، ولكن حيث إنها كانت تتعارض مع مصالح فرنسا وإسبانيا البوربونية والمقاطعات المتحدة — كما كان الهولنديون يطلقون على أنفسهم آنذاك — بينما بقيت بريطانيا غير مبالية إلى حدٍّ كبير، كان من الحتمي أن يتم إهمالهم بدرجةٍ ما. إلا أنه عندما عاد المتفاوضون إلى بلادهم، وجد شارل نفسه سيدًا، ليس على مجمل إمبراطوريته فحسب، وإنما كذلك على الأراضي المنخفضة الكاثوليكية وميلان ونابولي وسردينيا. لم يكن هناك ما يشكو منه، ولكن بقدْر قليل من اللباقة الدبلوماسية، كان يمكن أن يتصرَّف على نحوٍ أفضل من ذلك.

ولكن ماذا عن العرش الإسباني؟ كان ذلك بالطبع أهمَّ الأمور، كان الذريعة الأصلية للحرب وسببَ موت مئات الألوف من الرجال في أرجاء القارة. هذا الأمر تم حسمُه في النهاية — كما كان ينبغي آنذاك — لصالح فيليب. كان قد تم بترُ مملكته إلى حدٍّ كبير — رغم أنه لن يفقد بلاد الأراضي المنخفضة التي طالما كانت بمثابة حجر رحى حول رقبة إسبانيا.[١٤] على أية حال، كانت هناك تعويضات؛ فقد احتفظ بأمريكا الإسبانية وكلِّ ما كانت تجلِبه له من ثروات؛ ومنذ ذلك الحين وعلى مدى الثلاثين سنة التالية كان يحكم باعتباره فيليب الخامس ملِك إسبانيا دون منازع.[١٥]

ما يستحق فيليب الإدانةَ بسببه هو معاملته «للقطالونيين The Catalans». بالرغم من حقيقة كونهم مؤيدين أشداء لـ «شارل» هابسبورج، فإن فيليب منحهم رسميًّا، بموجب المادة الثالثة من المعاهدة الأنجلو-إسبانية، وبموجب احترامه لملكة بريطانيا العظمى، منحهم عفوًا عامًّا، وكذلك كافة المزايا التي كانت آنذاك للقشتاليين «الذين كانوا محلَّ رعاية الملك من بين كل شعوب إسبانيا». كان واضحًا من البداية أنه لم يكن ينوي العفوَ عنهم بسببِ ما كان يعتبره عدمَ وفاء منهم؛ وفي وقتٍ باكر من ١٧١٣م كان قد طلب خضوعهم غير المشروط. لم يكن مفاجئًا أن يرفضوا، وشكَّلوا حكومةً مؤقتة خاصة بهم؛ وإذ ذاك أرسل فيليب في يوليو ١٧١٤م وحدةً عسكرية لمحاصرة برشلونة. قاومت المدينة وصمَدت نحو شهرين، وحتى بعد أن تم دعم القائمين بالحصار بجيش فرنسي بقيادة «دوق برويك Duke of Berwick» وأسطول فرنسي، رفضت الاستسلام. ليلة الحادي عشر من سبتمبر، كان هناك هجومٌ شامل. دافع القطالونيون عن كل شارع ... عن كل بيت ... إلى أن أصبحوا عاجزين تمامًا عن المقاومة. مَن بقي على قيد الحياة تم بيعه في سوق العبيد، وبأوامر من الملك أُحرقت أعلام قطالونيا في السوق العامة بواسطة الجلادين.

ليس مؤكدًا أن يكون فيليب قد شعر بأي تأنيب ضمير بسبب معاملته للقطالونيين، إلا أنه سرعان ما كان لديه من الأسبابِ ما يجعله يشعر بالندم لتنازله عن إيطاليا الإسبانية. بعد وقتٍ قصير من وفاةِ زوجته «ماريا لويزا السافوية Maria Louisa of Savoy» في ١٧١٤م، تزوَّج «إليزابيث فارنيز Elizabeth Fornese» ذات الاثنين والعشرين ربيعًا ابنُه «دوق بارما Duke of Parma» من زوجةٍ أخرى. الملكة الجديدة، التي لم يكن يميزها أيُّ جمال أو تجربة أو تعليم، بدأت مثلما كانت تقصد أن تستمر. حتى من قبل وصولها إلى مدريد، افتعلت مشاجرةً مع «أميرة أورسين Princess des Ursins» — التي كانت قد قطعت نصف الطريق عبْر البلاد لكي تكون في استقبالها — على سُلم فندق على الطريق، وتركتها بخشونة وفظاظة، لتبقى وحيدةً في برد البرانس الشديد لتعود إلى فرنسا. عند وصولها إلى العاصمة استدعت وكيلَ عمِّها فورًا «جيوليو ألبيروني Giulio Alberoni»، وكان كاهنًا ذكيًّا، وإن كان مجردًا من المبادئ الخلقية، ابن بستاني في «بياكنزا Piacenza» للمثول أمام القضاء. منذ ذلك اليوم، اختفى كلُّ نفوذ سياسي فرنسي من البلاط الإسباني ليصبح إيطاليًّا قلبًا وقالبًا، أما ألبيروني — الذي أقنعت البابا «كليمنت الحادي عشر Clement XI» بعد ثلاث سنوات بأن يعينه كاردينالًا — فشرع بسرعةٍ في إعادة بناء إسبانيا مع الاهتمام الخاص ببناء أسطول.

وحيث إن الملكة ماريا لويزا كانت قد تركت ثلاثة أبناء، لم يكن لدى إليزابيث أملٌ كبير في عرش إسبانيا. كان هدفها البعيد المدى هو تأمين خلافتها لـ «بارما وبياكنزا» وربما توسكاني كذلك بعد موت عمِّها، وذلك بموجب أنها تنتمي إلى آل ميديشي. لم تكن هي الوحيدة التي تتطلع إلى العرش. كان الإمبراطور شارل ما زال مستاءً من التدابير الأخيرة. كان غاضبًا على نحوٍ خاص لمنح صقلية لبيت سافوي، وكان معروفًا أنه على اتصال بـ «فيكتور أماديوس Victor Amadeus» مع فكرةِ استبدالها بـ «سردينيا». كانت إليزابيث وألبيروني مصرَّين على ضرورة عدم إقدامه على مثل هذه الخطوة؛ فبمجرد أن تصبح صقلية جزءًا من الإمبراطورية، ستمثِّل خطرًا دائمًا على الساحل المتوسطي لإسبانيا. كان أول تحرُّك لهما على أية حال، ضد سردينيا الإمبراطورية. في أغسطس ١٧١٧م، أبحرت حملةٌ من برشلونة إلى كاجلياري، وبنهاية نوفمبر كانت الجزيرة قد أصبحت ملْكَها. آنذاك فحسب، بعد أن تشجَّعا بهذا الانتصار السهل، قرَّرا التحرُّك نحو صقلية مباشرة؛ وفي الأول من يوليو ١٧١٨م رست قوات إسبانية بالقرب من الجزيرتين اللتين كانتا ضمن حيازةِ أراجون منذ القرن الثالث عشر، وهكذا لمدةٍ تزيد عن مائة عام قبل اتحاد تلك المملكة مع قشتالة، كانتا أكثرَ إسبانيةً من معظم إسبانيا.

وهكذا كانتا في ذلك الوقت. ولكن تلك الحجَّة ما كانت لتروق لـ «شارل السادس Charles VI»، وكان الأخير قد عقدَ مع بريطانيا وفرنسا ما كان يوصف آنذاك — على نحوٍ مخادع — بـ «التحالف الرُّباعي The Quadruple Alliance».[١٦] لم يكن لدى الإمبراطورية بحرية، ولكن بريطانيا كان عندها؛ ولذا كان أن أسرع أسطول بريطاني تحت قيادة الأدميرال سير «جورج بينج George Byng» إلى صقلية، حيث قام بتدمير الأسطول الإسباني تمامًا بالقرب من «كيب باسيرو Cape Passero» أقصى جنوب شرق الجزيرة. لسوء الحظ، لم تكن بريطانيا آنذاك في حالةِ حرب مع إسبانيا، كانت تعمل فحسب، نيابةً عن حليفها الإمبراطور. ما قام به بينج أحدث موجةً عارمة من العنف شعرت بآثارها كلُّ أوروبا ليصل مداها إلى سويد شارل الثاني عشر، وروسيا «بطرس الأكبر Peter the Great». كان على فيكتور أماديوس أن يخضع لما هو حتمي. انتُزعت منه صقلية وأُعطيت لـ «شارل»، وحصل على سردينيا بدلًا منها. أما فيما يتعلَّق ببريطانيا فكان غضبُ ألبيروني شديدًا لدرجةِ أنه أطلق أسطولًا ضخمًا (Armada) ثانيًا، وكان ذلك تهديدًا أخذته لندن على محمل الجِد. في السابع عشر من ديسمبر ١٧١٨م، أعلن البرلمان الحرب، وبعد أقل من شهرين حذَت فرنسا حذوَه.

عندما أبحر ذلك الأسطول الهائل في صيف ١٧١٩م، لم يكن أكثر نجاحًا من سابقه الشهير؛ دخل في عواصفَ شديدة في خليج «بسكاي Biscay» وتحطَّم بالقرب من «فينيستير Finisterre»، ولم يصل حتى إلى المياه الإنجليزية. انطلقت حملةٌ منفصلة نحو اسكتلنده وأنزلت بالفعل قوة إسبانية في «النِّجاد الغربية Western Highlands»، أما الأكثر خطورةً والأكثر مدعاةً للدهشة بالنسبة لإسبانيا، فكان وصول جيش فرنسي بقيادة دوق بروِيك Duke of Berwick. كان من الصعب أن يصدِّق فيليب الخامس أن وطنه يمكن أن يحمل السلاح ضده، أو أن يحارب برويك صديقَه القديم، إلا أنه سرعان ما تحرَّر من أوهامه. لم يكن بإمكانه أن يفعل شيئًا حيال ذلك وجيشه بعيد في صقلية. كان عليه أن يرقب الأوضاع بلا حول ولا قوة، بينما يتم غزو قطالونيا واحتلال «فيجو Vigo».

أما ألبيروني، الصانع الوحيد لكل هذه المصائب، فلم يستطِع الصمودَ أكثر من ذلك. في ديسمبر ١٧١٩م، كان ضحيةً لمؤامرة بقيادة دوق بارما ولي نعمته القديم، فتم طرده ونفيه من إسبانيا. كان مغامرًا ومتآمرًا ونافد الصبر وجامح الطموح في كلِّ ما يتعلق بالشئون الخارجية، أما بالنسبة للشئون الداخلية فكان مديرًا ممتازًا، ورغم أنه كان إيطاليًّا صميمًا، كان يعمل بكل جِد، وبكفاءة شديدة، من أجل وطنه بالتبني. بعد رحيله، لم يكن هناك ما يدعو لاستمرار العِداء، وكان فيليب يأمُل في تفاهمات أفضل. خاب أمله. رفضت بريطانيا وفرنسا تمامًا أن تستمعا إليه، حتى تنضم إسبانيا إلى التحالف الرُّباعي، وهو ما قامت به على مضضٍ في السابع عشر من فبراير ١٧٢٠م.

عندما وقعت هذه الاتفاقيات الدولية، المعروفة إجمالًا بمعاهدة أوترخت، في الأشهر الأربعة الأولى من العام ١٧١٣م، كان قد مرَّ أكثر من ربع القرن على جزر البيلوبونيز وهي ضمن ممتلكات فينيسيا. لم تكن تجربتها الجديدة في الإمبراطورية ناجحة. كانت سنوات الاحتلال التركي التي سبقت استردادها قد حوَّلت الأراضي المزدهرة إلى مكانٍ قفرٍ وخراب؛ وسرعان ما أدركت أن عبء الإدارة سيكون مكلفًا وشاقًّا إلى حدٍّ بعيد. كان السكان المحليون، بوطنيتهم التي نشأت وتكرَّست كالعادة على يد رجال الدين الأرثوذوكس، كانوا يحلمون بدولةٍ لهم، ولم يكونوا يجدون ميزةً كبيرة في أن يحلَّ محلَّ سادتِهم غير المؤمنين، مسيحيون انشقاقيون لا يتعاطفون مع طموحاتهم. كان الدفاع مشكلةً أخرى في السابق، عندما كان الوجود الفينيسي مقصورًا على عددٍ قليل من المستوطنات التجارية المهمة

ومدن الحاميات، كان يمكن الاضطلاع به، ولكن كيف يمكن الآن تأمين نحو ألف ميل من الساحل المتعرج وحمايته من الغزو؟ حتى تلك الدفاعات التي كانت تُعتبر لازمةً ولا يمكن الاستغناء عنها، مثل قلعة «أكروكورنت Acrocorinth» الكئيبة — ما زالت موجودةً إلى اليوم نموذجًا للعمارة العسكرية الفينيسية — كانت بمثابة زيادة استعداء للسكان المحليين بسبب الضرائبِ التي كانت تُجمع لأجلها، وبنائها عن طريق السخرة؛ ولذا لا عجبَ أنه عندما ظهرت القوات التركية مرةً أخرى في ١٧١٥م على أراضي البيلوبونيز، كانت محلَّ ترحيبٍ كقوات تحرير.

قام «داماد علي Damad Ali»، الوزير الأول في بلاط السلطان أحمد الثالث، بالتخطيط لعمليةٍ مشتركة، بحيث تتقدَّم قوةٌ برية عبْر «تيسالي Thessaly»، بينما يبحر أسطولٌ في الوقت نفسه في اتجاه الجنوب الغربي عبْر بحر إيجه؛ وخلال فصل الصيف حقَّق كلا فرعي الهجوم انتصاراتٍ متوالية. وعندما وصل الأسطول إلى وِجهته، كان قد أجبر «تينوس Tinos» و«أيجينا Aegena» على الاستسلام، بينما استولى الجيش على كورنتة بعد حصارٍ دام خمسة أيام. بعد ذلك، كانت نوبليا ثم مودون و«كورون Corone» و«مونيفاسيا Monevasia» (مالفاسيا Malvasia) وجزيرة «كيتيرا Cythera». في الوقت نفسه، كان الأتراك في كريت بعد أن شجَّعتهم أخبارُ انتصارات مواطنيهم، قد قاموا بالهجوم على المواقع الفينيسية المتقدِّمة الباقية واستولوا عليها. بنهاية العام ١٧١٥م، وبعد أن كانت كريت والبيلوبونيز قد ضاعت، وبعد أن كانت كل انتصارات فرانسيسكو موروسيني قد انتهت إلى لا شيء، كان الأتراك مرةً أخرى على أبواب الأدرياتيكي. أما بالنسبة لفينيسيا فلم يكن قد تبقَّى لها سوى قلعة واحدة ... «كورفو Corfu».

كان الجيش الذي دفع به الوزير الأول ضد قلعة كورفو في أوائل ١٧١٦م مكونًا من ثلاثين ألف جندي مشاة وثلاثة آلاف من الخيَّالة، أما بالنسبة للفينيسيين فالتقديرات تختلف. كانوا أقلَّ عددًا بكل تأكيد، ولكن القوة النسبية في حروب الحصار تكون أقلَّ أهمية منها في حالات الهجوم والدفاع المتقدمة؛ وهنا كان بإمكان فينيسيا أن تعوِّل على مهارة وخبرة أحد أبرز المحاربين في زمنه. كان المارشال «ماتياس يوهان فون دير شولينبيرج Matthias Johann von der Schulenburg» قد حارب تحت قيادة مارلبورو في «أودينارد Odenarde» و«مالبلاكيت Malplaquet»، ثم بعد حلول السلام طلب أن يخدُم مع فينيسيا. كان قد أمضى معظم الشتاء في تحسين دفاعات كورفو، ورغم أنه لم يستطِع أن يمنع الجيش التركي من الإبرار، استطاع مواجهته بنظامٍ دفاعي لم يواجه مثله من قبل.

استمرَّ الحصار طوال فصل الصيف شديد الحرارة، وأخيرًا جاءت في أغسطس التقارير التي زادت من شجاعة المدافعين وزرعت الغمَّ في قلوب الأتراك. أبرمت فينيسيا تحالفًا مع الإمبراطورية التي كانت قد دخلت الحرب. كان الأمير الأسطوري إيوجين يزحف مرةً أخرى. كان قد هزم جيشًا تركيًّا هزيمةً منكرة في «كارلوفيتز Karlowitz»، نفس المدينة التي كان الأتراك قد وقَّعوا فيها تلك المعاهدة التي كانوا يخرقونها الآن على نحوٍ شائن؛ وبعد وقت قصير حقَّق انتصارًا كبيرًا آخرَ في «بيتروارديين Peterwardein»؛ حيث قتل عشرين ألفًا من جنود الأعداء، واستولى على مائتي مدفع منهم، مقابل خسارةِ أقلِّ من ثلاثة آلاف جندي من قواته.

هذه الضرورة غير المتوقَّعة للقتال على جبهتين في وقت واحد، ربما تكون قد أقنعت القائد التركي بأنه إن لم يستولِ على كورفو بسرعة، فلربما لن يكون قادرًا على ذلك قط؛ وفي ليلة الثامن عشر من أغسطس أصدر أوامره بالهجوم الشامل الذي صحِبه هديرُ الطبول ودوي الأبواق الذي يصمُّ الآذان مع نيران المدافع والبنادق وصيحات الحرب. فورًا، كان شولينبيرج في موقعه يدعو كلَّ قادر على القتال — النساء والأطفال وكبار السن والقساوسة والكهنة — لكي يدافع عن المدينة. بعد عدة ساعات كان القتال ما زال مستعرًا، فقرَّر أن يغامر بكل شيء ويقوم بإغارة مفاجئة. قبل الفجر بوقت قصير، قام على رأس قوة من ثمانمائة جندي اختارهم بعناية، وانسلوا من خلال ممرٍّ صغيرٍ وانقضوا على مؤخرة الجيش التركي. كان انتصارًا فوريًّا وحاسمًا. لاذ الأتراك الذين فوجئوا بالهجوم بالفرار، تاركين وراءهم أسلحتَهم وذخيرتهم. زملاؤهم، على الأجزاء الأخرى من السور الذين أصابتهم الدهشة، وجدوا أن الهجوم قد فشل، فانسحبوا هم أيضًا وإن على نحوٍ أكثر تنظيمًا. في الليلة التالية، وكأن الطبيعة كانت تؤكد الانتصار الفينيسي، هبَّت عاصفة قوية — كانت من العنف لدرجةِ أن في غضون ساعات قليلة كان المعسكر التركي قد أصبح أشبه بمستنقع، تحوَّلت الخنادق إلى قنواتٍ مائية وتمزَّقت الخيام واقتلعتها الرياح بحبالها وأوتادها. في الخارج، كانت السفن التركية ترتطم ببعضها في المكلأ لتتحطَّم وتتناثر أجزاؤها قِطعًا من الخشب.

عند الفجر، وبعد أن تكشَّف حجمُ الدمار، كان القليل من القائمين بالحصار هم الذين يريدون البقاءَ لحظة أخرى على جزيرة، كان يبدو أن الآلهة ضدهم، والحقيقة أن القائد التركي تلقَّى، بعد أيام قليلة، أوامرَه بالعودة فورًا. تم إنقاذ كورفو وكوفئ شولينبيرج بسيفٍ مرصَّع بالجواهر ومعاشٍ مدى الحياة قدره خمسة آلاف دوكاتية، كما

تم تكريمه بإقامة تمثال له في حياته في القلعة القديمة.[١٧] انسحب الأتراك لكيلا يحاولوا مرةً أخرى أن يوسعوا إمبراطوريتهم على حساب أوروبا المسيحية.

كان أثرُ ذلك على الروح المعنوية للفينيسيين كبيرًا. في أوائل الربيع من العام التالي، انطلق من «زانته Zante» أسطولٌ جديدٌ من سبع وعشرين سفينة صوب الدردنيل، بقيادة الأدميرال الشاب اللامع «لودوفيكو فلانجيني Ludovico Flangini». في الحادي والعشرين من يونيو ١٧١٧م قابل الأتراكَ رأسيًّا، وبعد معركة استمرَّت عدةَ أيام حقَّق انتصارًا ساحقًا، ولم يَلحق به أيُّ أضرار سوى موت فلانجيني الذي أصابه سهم إصابةً بليغة، ولكنه أصرَّ على أن يُحمَل إلى مكانه على سطح مؤخر المركب ليراقب المراحلَ الأخيرة من القتال من خلف الزجاج. بعد شهر، لحِقت هزيمةٌ أخرى بالأسطول التركي بالقرب من «كيب ماتابان Cape Matapan» ولاذ بالفرار. آنذاك، كان الأمير إيوجين قد أعاد احتلالَ قلعةِ بلجراد البحريةِ البالغةِ الأهمية، وكان الأتراك ينسحبون على كل الجبهات.

لو أن الحرب استمرَّت فصلًا آخرَ واستطاع الفينيسيون أن يحافظوا على هذا الزَّخم، لكانت البيلوبونيز قد عادت لهم مرةً أخرى، وإن كان ليس مؤكدًا أن ذلك كان يمكن أن يكون في صالحهم على المدى الطويل. ولكن الأتراك قرروا التماسَ السلام، والآن كانت فينيسيا تكتشف كم كانت مخطئةً عندما أبرمت تحالفها النمساوي. مواجهة بأخطار جديدة من إسبانيا، كانت الإمبراطورية متلهفةً على التوصل إلى تسوية سريعة، ولم تكن مهتمة كثيرًا بمطالب فينيسيا الإقليمية. استنادًا إلى أساسٍ واهٍ، وهو أن انتصار كورفو وصعود نجم فينيسيا الذي تلاه كانت كلُّها نتائجَ مباشِرة لانتصار الأمير إيوجين في بيتروواردين. وهكذا، عندما التقت الأطراف في مايو ١٧١٨م في باساروفيتز — مع ممثلي إنجلترا وهولندا كوسطاء — وجد المندوب الفينيسي «كارلو روزيني Carlo Ruzzini» أنه لم يترك انطباعًا جيدًا لدى زملائه. ظلَّ لمدة ست ساعات يدافع ويبرِّر، مُطالبًا باستعادة فينيسيا لـ «سودها Soudha» و«سبينالونجا Spinalonga» و«تينوس Tinos» و«كيتيرا Cythera» والبيلوبونيز، أو في حال عدم وجود الأخيرة، توسيع الأراضي الفينيسية في ألبانيا جنوبًا حتى «سكوتاري Scutari» و«دلسينجو Dulcingo» وهي حصنُ قرصنة كانت تريد إزالته. ولكنَّ توسلاته تصادفت مع أخبارٍ بأن ثمانية عشر ألف جندي إسباني كانوا قد نزلوا في سردينيا، ولم يستمع إليه أحد.

تم توقيع المعاهدة في الحادي والعشرين من يوليو ١٧١٨م، بعد ذلك بشهرين بالتحديد، وفي خضم إحدى العواصف الصيفية المرعبة في البحر الأبيض، ضربت صاعقةُ

برقٍ مخزنَ البارود في قلعة كورفو القديمة ليشعل الانفجار ثلاثة مخازن ذخيرة أخرى ... فكانت النتيجة دمار القلعة بالكامل. تحوَّل قصر الحاكم إلى أنقاضٍ ليُقتل القائد العام وعددٌ من العاملين معه. في لحظة أو أقل كانت الطبيعة قد حقَّقت أكثرَ مما عجزت القوات التركية مجتمعةً أن تحققه في عدة أشهر ... وتأكَّدت عبثية الحرب الأخيرة.

في باساروفيتز، تم ترسيم حدود الإمبراطورية الفينيسية للمرة الأخيرة. لن تكون هناك مكاسبُ أخرى ولا خسائر ولا مبادلات؛ وفي البحر الأبيض، بصرف النظر عن المدينة التاريخية والبلدات وجزر البحيرة، كانت الإمبراطورية تضم «إستريا Istria» ودالماشيا والجزر التابعة لها؛ ثم ألبانيا الشمالية بما في ذلك «كاتارو Kattaro» (كوتور Kotor) و«بترنتو Butrinto» و«بارجا Parga» و«بريفيزا Preveza» و«فونيتسا Vonitsa»؛ ثم «الجزر الأيونية Ionian Islands»: كورفو وباكسوس وأنتيباكسوس وليوكاس وشيفالونيا وإيثاكا وزانته، وأخيرًا جزيرة «كيثيرا Cythera» جنوبي البيلوبونيز. كان ذلك هو كل شيء. كان زمن العظمة الإمبراطورية قد ولَّى، إلا أنه كانت لا تزال هناك تعويضات. لم تجلِب غزوات موروسيني لـ «فينيسيا» سوى المصائب. كانت أفضل بدونها. قامت باساروفيتز، على نحوٍ ربما يبدو شائنًا، بتسوية خلافاتها مع الأتراك، وأعلنت صداقةً خالدة مع نمسا الهابسبورج، القوة الوحيدة الأخرى التي كان يمكن أن تمثل خطرًا سياسيًّا كبيرًا. كان السلام هو النتيجة ... السلام الذي سيدوم قرابةَ قرن كامل حتى مجيء نابوليون ... الذي وضع نهاية للجمهورية نفسها.

عندما خلفَ جورج الأول الملكةَ آن على العرش البريطاني في ١٧١٤م — وكان قد جاء من هانوفر على مضضٍ — أبدى استعدادًا تامًّا لإعادة جبل طارق إلى إسبانيا. ذلك أيضًا، ولعله أكثرُ إثارةً للدهشة، كان رأي ستانوب بطل مينوركا، الذي كان يشغل الآن منصبَ وزير الخارجية، وكان قد سبق أن صرَّح أكثر من مرة بأن الصخرة كانت عبئًا أكثرَ منها ميزة. عندما عبَّر عن ذلك في البرلمان، واجه عاصفةً شديدة من الاحتجاجات جعلته يتراجع بسرعة، خشيةَ صدور قرار رسمي يجعل التخلُّص منها أكثرَ صعوبة. بعد ذلك، في مارس ١٧٢١م، تم توقيع اتفاقية دفاع مشترك في مدريد بين إسبانيا وفرنسا، تعهَّد فيها لويس الخامس عشر (كان في الحادية عشرة من العمر) بدعمه الكامل لاستعادة جبل طارق. كان ستانوب قد مات قبل ستة أسابيع، ولكن سياسته استمرَّت على يد خليفته. كتب الملك جورج بالفعل إلى فيليب يَعِده بإعادتها مقابل تنازلات معينة، بمجرد الحصول

على موافقة البرلمان؛ الأمر الذي لم يكن سريعًا كما ظهر فيما بعد. وفي شهر يونيو وضع اسمه على الاتفاقية. مرةً أخرى، في لعبة الكراسي الموسيقية العالمية توقَّفت الموسيقى؛ الآن كانت بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وبروسيا،[١٨] كلُّها مصطفةً ضد الإمبراطور والقيصر.

ثم سرعان ما عادت الموسيقى واستؤنفت اللعبة. كانت المِلكة «إليزابيث فارنيز Elizabeth Farnese» دائمًا شريكَ فراشٍ لا يُحتمل، وكانت أبعدَ ما تكون عن السعادة عندما رفض المِلك الصغير لويس الخامس عشر بسرعة، الأميرةَ الإسبانية الصغيرة التي كان من المفترض أن يتزوجها. في أبريل ١٧٢٥م وقَّع ممثلو النمسا وإسبانيا معاهدةً في فيينا. الآن كان الإمبراطور هو الذي وعد ببذل كل مساعيه لإقناع البريطانيين بالتنازل عن جبل طارق ومينوركا لإسبانيا. ولكن البريطانيين كانوا قد أصبحوا أكثرَ تشددًا: أبدى وزير الخارجية لورد «تاونزهند Townshend» موقفًا مختلفًا تمامًا عن موقف سلفه ستانوب. كتب في يونيو ١٧٢٥م يقول:

> «إن الإمبراطوريين يدركون تمامًا مدى اعتزاز البرلمان، وربما الأمة كلها، بجبل طارق، ويعرفون كذلك أننا بموجب الدستور والقوانين لدينا، أن التاج لا يستطيع أن يتنازل لأي قوة أجنبية، أيًّا كانت، عن أي جزء من المناطق الخاضعة له دون موافقة من البرلمان، وأن جبل طارق الذي آل لبريطانيا العظمى بموجب اتفاقية أوترخت، مرتبط تمامًا بالتاج مثل أيرلنده، أو أي جزء من إنجلترا.»

لم يكتفِ بذلك، بل إنه كرَّس العامَ التالي كلَّه لتكوين عصبة جديدة من القوى الشمالية — كانت تضم السويد والدانمرك وكثيرًا من الإمارات الألمانية الصغيرة — وبحلول العام ١٧٢٧م كانت أوروبا قد أصبحت معسكرًا مسلحًا. وفي فبراير من العام نفسه، كانت إسبانيا قد أعلنت الحرب على إنجلترا وفرضت حصارًا — غير ناجح — على جبل طارق، بينما ركَّزت بريطانيا، محقِّقة نتائجَ أفضل، على اعتراضِ سبيل الأسطول الإسباني السنوي الذي كان يأتي بالثروات من الأمريكتين. لم يكن أيٌّ من الطرفين يبدي حماسةً كبيرة للحرب، وتم تعليق الأعمال العِدائية في وقت باكر من العام ١٧٢٨م.

إلا أن الملكة إليزابيث غيَّرت انحيازاتها. في التاسع من نوفمبر ١٧٢٩م في إشبيلية، وقَّع ممثلو إنجلترا وفرنسا وإسبانيا معاهدة، تم التوصُّل فيها — ربما لأول مرة — إلى انتزاعِ اعترافٍ صريحٍ من إسبانيا بكامل نتائج معاهدة أوترخت، بما في ذلك احتلالُ

بريطانيا لجبل طارق. في مقابل ذلك، تعهَّدت إنجلترا وفرنسا بتسهيل دخول الحاميات الإسبانية إلى توسكانيا وبارما — وهو ما نفَّذتاه بعد عام. في سنة ١٧٣١م مات «أنطونيو فارنيز Antonio Farnese»، عمُّ الملكة إليزابيث فجأة، وتحقَّق طموحها الأكبر في مارس ١٧٣٢م، عندما تم تنصيب ابنها «دون كارلوس Don Carlos» رسميًّا دوقًا على بارما وأميرًا أعظم على توسكانيا. بالرغم من اسمه، كان دون كارلوس إيطاليًّا أكثرَ منه إسبانيًّا بفضل أمٍّ مثل إليزابيث. في ذلك العام نفسه، الذي كانت قد تزايدت فيه القرصنة في البحر الأبيض، أرسلت إليزابيث حملةً كبيرة قوية إلى أمريكا الشمالية. تم الاستيلاء على «أوران Oran» (وهران)، ولكن سرعان ما تم إيقاف التقدُّم الإسباني بعد ذلك، وقُتل قائد الحملة في المعركة.

إلا أن الملكة لم تيأس، والحقيقة أن نجاح ابنها في إيطاليا فتح شهيتَها للمزيد. الدبلوماسية البارعة مع لويس الخامس عشر الآن، أمَّنت موافقةَ فرنسا على أن يطالب دون كارلوس كذلك بـ «نابولي» وصقلية على حساب الإمبراطور، وبناءً على ذلك زحف جنوبًا في ربيع ١٧٣٤م عبْر الولايات البابوية، وفي العاشر من مايو دخل نابولي منتصرًا؛ وفي نهاية الخريف، وبرغم بعض المقاومة من قلاع مسيني و«تراباني Trapani» و«سيراكوزا Syracuse» رحَّبت صقلية كذلك بغُزاتها الجدد (بعد أربع سنوات فحسب، ستكون النمسا مضطرةً للتخلي رسميًّا عن الصقليَّتين، وسوف يتمكن دون كارلوس من عرش نابولي، ليكون الملك شارل الثالث Charles III).

الآن، ستوجِّه إليزابيث كلَّ اهتمامها لبريطانيا العظمى، أكثرَ مَن كانت تشعر نحوه بالبغض من أعدائها. كانت جبل طارق ومينوركا هما أهمَّ القضايا التي ظلت عالقة بين الدولتين، إلا أنهما لن تكونا الموضوعَ الوحيد للصراع بينهما؛ إذ كانت هناك خلافات ومنازعات أخرى على كلا جانبي الأطلنطي. في إسبانيا، كان التجَّار والبحَّارة الإنجليز يَلقون مضايقات باستمرار من محاكم التفتيش وحتى من كتائب التجنيد،[١٩] التي كانت منتشرةً في كل مكان. كذلك كانت السفن الإنجليزية التي تزوِّد جبل طارق بالمؤن عرضةً للانتهاكات والعرقلة. في الأمريكتين كانت هناك خلافاتٌ ونزاعات على الحدود وحقُّ قطع أشجار الغابات وقضايا أخرى كثيرة، ولكن أهمها كانت تجارة التهريب المربحة التي كان البريطانيون يقومون بها بكل وقاحة بين جامايكا — التي كانت في أيديهم منذ ١٦٥٥م — والمستعمرات الإسبانية في الكاريبي.

كانت إسبانيا تحمي مصالحها قدْر استطاعتها بواسطة قافلة من حرس الشواطئ، كان بعضهم، كما ظهر، أقلَّ إنسانية من البعض الآخر. في ١٧٣٨م وقف بحَّار إنجليزي

يُدعى «روبرت جنكنز Robert Jenkins» أمامَ البرلمان يلوِّح بأذنه المبتورة التي قطعها حرس الشواطئ. ربما كان ذلك مجردَ عملٍ عِدائي بسيط، ولكن معارضة الهويج كانت تزأر مطالبةً بالدم، كما تعالت الصيحات المطالبة بالثأر في طول البلاد وعرضها. كانت النتيجة إعلان «حرب أُذن جنكنز War of Jenkin's Ear» في ١٧٣٩م.[٢٠] مرةً أخرى كان جبل طارق ومينوركا في خطر، إلا أنهما كانا في حماية أسطول البحر الأبيض بقيادة — طيب الذِّكر — الأدميرال «نيكولاس هادوك Nicholas Haddock» الذي حاصر كلًّا من كاديز (قادش) وبرشلونة بنجاح، وانطلق ليستوليَ على اثنتين من سفن الكنوز الإسبانية، كان يقدَّر ثَمن الواحدة منهما بمليون دولار. ما كان لحربٍ قامت بسبب قضية تافهة كتلك أن تستمر طويلًا، ولكن في العشرين من أكتوبر ١٧٤٠م، مات الإمبراطور شارل السادس في فيينا في سن الخامسة والخمسين، لتدخل أوروبا كلُّها في حالةٍ من الفوضى مرةً أخرى.

لسوء حظ قرَّاء — وكتَّاب — التاريخ الأوروبي في القرن الثامن عشر أن يتبع الصراعَ الكبير على عرش إسبانيا بعد سبع وعشرين سنة فحسب، صراعٌ آخرُ، كان هذه المرة على عرش النمسا. حرب الخلافة النمساوية على أية حال كان تأثيرها أقلَّ على البحر الأبيض، وعليه فلن تستهلك الكثيرَ من وقتنا.

حيث إن الإمبراطورية النمساوية لم تكن وريثًا للإمبراطورية الرومانية المقدَّسة بقدْر ما كانت استمرارًا لها؛ فقد بقيت انتخابية من الناحية النظرية؛ خلال القرون الثلاثة لحكم آل هابسبورج، كانت واجبات الناخبين احتفاليةً وطقوسية أكثرَ منها أي شيء آخر، وكان العرش آنذاك وراثيًّا قصدًا وهدفًا. لسوء الحظ، كان الهابسبورج النمساويون في تلك المرحلة من التاريخ — مثل أبناء عمومتهم الإسبان — يعانون نقصًا كبيرًا في الورثة من الذكور، لدرجةِ أن يُصدِر ليوبولد الأول مرسومًا في ١٧٠٣م ينص على السماح بتولي الإناث العرشَ في حالة عدم وجود ذكور، وكان من الطبيعي أن تكون الأولوية لبنات ابنه الأكبر جوزيف قبل بنات ابنه الأصغر شارل. ولكن كل شيء تغيَّر — كما رأينا — بوفاة جوزيف المفاجئة في ١٧١١م وخلافة شارل في العام التالي. وبترتيبٍ عائلي سرِّي عُرف لسببٍ ما بـ «إجازة براجماتية Pragmatic Sanction»، أعطى شارل (شارل السادس آنذاك) الأولويةَ لبناته قبل بنات أخيه، مصرًّا في الوقت نفسِه على بقاء ممتلكات الهابسبورج في شمال ووسط أوروبا غيرَ قابلة للتقسيم في المستقبل.

عندما مات ابنه الوحيد قبله، كان شارل هو الذَّكر الوحيد على قيد الحياة من آل هابسبورج، ومن ثَم كان مصرًّا على أن تَخلُفه ابنته «ماريا تريزا Maria Theresa» على عرش النمسا. وبحسب الإجازة البراجماتية، كان ينبغي ألا يكون ذلك سببًا في مشكلة. وبالفعل، كان كل شيء يبدو جيدًا في الأشهر القليلة الأولى بعد وفاة والدها في ١٧٤٠م. كان شارل قد حرص على الحصول على ضماناتٍ قانونية جادة من كل القوى الأوروبية الرئيسية بأنهم سيحترمون خلافةَ ابنه؛ النظام البابوي وجمهورية فينيسيا وإنجلترا وهولندا ... كلهم اعترفوا عن طيب خاطر بالمِلكة التي كانت في الثالثة والعشرين من العمر.[٢١] كانت «فرانس France» ودودةً ويمكن الاطمئنان إليها برغم عدم وضوح شخصيتها إلى حدٍّ ما. لم يعترف بها فردريك الثاني مِلك بروسيا الجديد فحسب (سيُعرف فيما بعد بـ «فردريك الأكبر»)، بل إنه عرض عليها المساعدةَ العسكرية متى احتاجتها. كان يتكلم بلسانٍ متشعِّب لم تفهمه ماريا تريزا إلا في السادس عشر من ديسمبر ١٧٤٠م، عندما غزا جيشٌ بروسيٌّ من ثلاثين ألف جندي ولايةَ «سيليسيا Silesia» الإمبراطورية ... وبدأت حرب الخلافة النمساوية.

كان أن استمرَّت الحرب حتى ١٧٤٨م، ومثل سابقتها دارت أساسًا في شمال ووسط أوروبا — لم يكن البحر الأبيض المتوسط مسرحًا رئيسيًّا في أي مرحلة من مراحلها. الحقيقة أنه لم يكن له أهميةٌ بالنسبة لـ «فردريك» مِلك بروسيا أحدِ بطلَي الحرب الرئيسيَّين. ولكنه كان بالغَ الأهمية بالنسبة لحاكمَين آخرَين على المسرح الأوروبي، هما فيليب الخامس ملك إسبانيا و«شارل إيمانويل Charles Emmanuel» ملك سردينيا. وكما نعلم، كان فيكتور أماديوس الثاني ملكُ سافوي قد أُجبِر في سنة ١٧١٨م على التنازل عن صقلية لهابسبورج النمسا، وأُعطِي بدلًا منها جزيرة سردينيا ذات الأهمية الأقل نسبيًّا، ومن ١٧٢٠م — عندما تسلَّم مملكته الجديدة رسميًّا — حتى ١٨٦١م — عندما أصبح فيكتور الثاني (أحدُ أبناء عمومته) أولَ ملك لإيطاليا موحَّدة — كان يُعرف هو وحلفاؤه بملوك سردينيا، وذلك رغم أنهم كانوا قد ظلوا يحكمون من تورين، عاصمتهم الموروثة.

كان شارل إيمانويل حادَّ الذكاء، وحكم رعاياه بحكمةٍ ودرايةٍ؛ من ناحيةٍ أخرى لم يكن ليوقفه شيء، كرجل دولة أوروبي، عن أن يوسِّع حدودَ بلاده ويزيد من قوَّتها: فما كانت سردينيا — أو سافوي — لتُعرف بـ «بروسيا إيطاليا» بدون سبب. كان «الكاردينال فليري Cardinal Fleury» رئيسُ وزراء لويس الخامس عشر (وكان في العقد التاسع

من العمر)، قد تنبَّأ بأن يأتيَ ملكٌ من سردينيا يُلقي بالبوربون خارجَ شبه الجزيرة كلِّها، بينما كان أبرز وأذكى المراقبين الرئيس «شارل دي بروسيس Charles de Brosses»[٢٢] يقول ما هو أكثرُ من ذلك. كان يقول: «من بين كل الولايات الإيطالية، لا يخشى الإيطاليون سوى مِلك سردينيا؛ فهو — كما يزعمون — ممسكٌ بحلوقهم، وسوف يخنقهم عاجلًا أو آجلًا.»

لم يكن جسد شارل السادس قد برد، قبل أن تجبِر إليزابيث فارنيز زوجَها، المذعِنَ دائمًا، على أن يطالب بكل ممتلكات آل هابسبورج الوراثية. كانت الأسس التي يعتمدون عليها ضعيفة، وكانت تعرف ذلك. كان أهم ما تسعى إليه هو الأقاليم الإيطالية، ووجدت على الفور حليفًا مهمًّا؛ كان ابنها دون كارلوس الآن هو مِلك نابولي «شارل الثالث». في غضون أسابيع قليلة كان جيش إسباني قد عَبَر البرانس وتقدَّم صوبَ «لانجيدوك Languedoc» وبروفنس، بينما أرسل «دوق مونتيمر Duke of Montemar» وحدةً أخرى بالبحر إلى «أوربيتللو Orbetello» (بالقرب من بورتو إيركول Porto Ercole الحديثة) حيث لحِقت بها قواتٌ من نابولي.

في نفس الوقت تقريبًا، ومع المزاعم الإسبانية، أعلن شارل إيمانويل أن إقليم ميلان كان من حقِّه قانونًا — ألم تكن جَدةُ جَدَّته هي ابنه فيليب الثاني مِلك إسبانيا؟ — ولكن بمجرد أن وجد أن إسبانيا كانت تستعد للحرب بهذا الهدف نفسِه نُصب عينيها، أعاد التفكير، وقرَّر أن يلقيَ بكل ثِقله مع ماريا تريزا. من الآن فصاعدًا، ستحمل كلٌّ من النمسا وسردينيا على مملكتَي البوربون في فرنسا وإسبانيا. كان لهما حلفاءُ آخرون كذلك؛ ففي أغسطس ١٧٤٢م ظهر بالقرب من نابولي أسطولٌ بريطاني بقيادة الأدميرال «توماس ماتيوز Thomas Mathews» (٦٦ سنة) وهدَّد بقصف المدينة إذا لم ينسحب المِلك شارل من تحالف البوربون فورًا. كان لذلك التهديد أثرُه الجيد؛ حيث انقضَّ ماتيوز على أسطولٍ من السفن الفرنسية والإسبانية ليردَّها على أعقابها إلى طولون، قاطعًا بذلك كلَّ اتصال بحري بين إيطاليا وإسبانيا. ولكن الحلفاء لم يقابلوا ذلك على طريقتهم؛ ففي الشهر نفسِه، قام جيش إسباني بقيادة «دون فيليب Don Philip»، شقيقِ شارل الثالث بغزو سافوي. بالرغم من المقاومة الباسلة من الأهالي المروَّعين، كان أن بقي الجيش هناك ست سنوات.

كان يمكن أن تستمرَّ الحرب لفترةٍ أطولَ بكثير، لولا موتُ فيليب الخامس مِلك إسبانيا في التاسع من يوليو ١٧٤٦م. كان فيليب نفسُه أبعدَ ما يكون عن الرغبة في

القتال، وكان يقضي معظمَ وقته إما في العبادة أو في الاستماع للموسيقي التي يحب. منذ اللحظة الأولى للزواج كانت زوجته مسيطرةً عليه تمامًا، وكانت طموحاتها الوطنية سببًا في تفاقُم العِداء، كما أن نوبات الجنون التي كانت تنتابه في أواخر حياته بشكلٍ متزايد، أدَّت إلى زيادة إحكام قبضتها عليه. كان الملك الجديد «فرديناند السادس Ferdinand VI»، الوحيدَ الذي بقي على قيد الحياة من أبناء فيليب الأربعة من زوجته الأولى ماريا لويزا ملكةِ سافوي، كان قد ورِث عن أبيه كلَّ كسله وتراخيه واستعداده للانقياد لزوجته، ومن ناحيةٍ أخرى لم تكن ملكته البرتغالية «ماريا باربرا البراجانزية Maria Barbara of Braganza» تملِك شيئًا من حمية وحماسة الزوجة السابقة. منذ اللحظة الأولى، استمرَّت الحرب، ولكن العلاقات الوثيقة كانت ما زالت قائمة بين بريطانيا والبرتغال منذ أيام «جون الجونتي John of Gaunt» في القرن الرابع عشر، وبدأت المفاوضات بين بلاطي «لشبونة Lisbon» ولندن من أجل التوصُّل إلى تسويةٍ سلمية. كان من أول الأعمال التي قام بها فرديناند بعد توليه العرشَ، أن طرد «الماركيزَ فيللارياس Marquis Villarias» وزيرَه الأجنبي الموالي للفرنسيين بوضوح، ليحلَّ محلَّه «دون جوزيه دي كارفاجال ي لانكاستر Don José de Carvajal y Lancaster» الذي كان محبًّا للإنجليز ومن نسل الـ «جونت».

وأخيرًا تم توقيعُ اتفاقية «أيكس لاشابيل Axi-la-Chapelle» في ١٧٤٨م بفضلِ جهود الملكة وكارفاجال، ووضعت الحربَ أوزارَها. كان المنتصر الوحيد هو فردريك إمبراطور بروسيا، وهو الذي كان قد أشعلها. احتفظ شارل إيمانويل بكلٍّ من سافوي ونيس، مع شريطٍ من لومبارديا أوصل حدودَه إلى نهر «تيكينو Ticino»، أما دون فيليب فقد حصل على كلٍّ من بارما وبياكنزا. أخذت الإجازة البراجماتية ضماناتٍ جديدة، وتم الاعتراف رسميًّا بزوج ماريا تريزا باعتباره «الإمبراطور فرانسيس الأول Emperor Francis I»، صحيحٌ أن العلاقات الأنجلو إسبانية كانت الآن وديةً أكثرَ منها على مدى نصف قرن أو أكثر، وبالرغم من ذلك، فإن حرب الخلافة النمساوية — في نظر كثيرين — لم يكن لها مبرِّر تقريبًا.

كان الإنجليز كما نعرف، يضعون أعينَهم على جزيرةِ مينوركا منذ مطلع القرن، وكانوا قد صمَّموا على ذلك — بنجاح — في أوترخت، واثقين من أنها لا بد من أن تكون إضافةً دائمة لإمبراطوريتهم. الواقع أن هذه الفترة الأولى من الحكم البريطاني كانت لتدوم أقلَّ

من خمسين عامًا؛ وعند اندلاع حرب السبع سنوات في ١٧٥٦م، كان من أولِ ما فعل لويس الخامس عشر هو إرسال حملة تحت قيادة المتحرِّر الشهير «الدوق دي ريشيليو Duc de Richelieu» للاستيلاء على الجزيرة. بواسطة حاميتها المكوَّنة بالكاد من ثلاثة آلاف جندي، أبدى حاكمها الأيرلندي «وليم بلاكني William Blakeney» (كان في الرابعة والثمانين) مقاومةً باسلة، إلا أنه كان يعرف أنه لن يستطيع الصمودَ طويلًا دون تعزيزات قوية. لحسن الحظ، كان مثل تلك التعزيزات موجودًا، كان هناك أسطولٌ من عشر سفن في جبل طارق تحت قيادة «الأدميرال سير جون بينج Admiral Sir John Byng» الذي كان لديه تعليماتٌ واضحة بأن «يستخدم كل الوسائل المتاحة له لإنقاذ مينوركا» في حال تعرُّضها لأي هجوم.

بالرغم من أن حاكمَ جبل طارق كان قد رفض في آخرِ لحظة أن يرحل بكتيبة المشاة التي كان قد أمر بإرسالها — وهو القرار الذي سيؤدي بعد ذلك إلى تقديمه لمحاكمة عسكرية، وإلى ما لحِق به من عار — أبحر بينج في الثامن من مايو ليصل إلى «بورت ماهون Port Mahon» بعد أحد عشر يومًا. بعد ظهيرةِ اليوم التالي، ٢٠ مايو، هاجم الأسطول الفرنسي. من ناحيةِ العدد كان الطرفان متساويَين، إلا أن السفن الفرنسية كانت أكبرَ حجمًا وتحمل تسليحًا أثقلَ وجنودًا أكثرَ. مثل هذا التفوُّق في حدِّ ذاته لم يكن حاسمًا، ولكن بينج وقع في خطأ تكتيكي كارثي في بداية القتال، بأن ترك تشكيلَ قتاله عرضةً لمدفعية العدو. استغل الفرنسيون ذلك جيدًا وأعطبوا الأسطول البريطاني تمامًا. لم يحاولوا مواصلةَ الانتصار، وبالرغم من ذلك، قرَّر بينج بعد عقدِ مجلس حرب، أن يعود إلى جبل طارق تاركًا مينوركا تواجه مصيرَها.

كان بلاكني ما زال يقاوم، رافضًا الاستسلام، بالرغم من أن حاميته في قلعة سان فيليب كانت تحت نيرانٍ متواصلة. آنذاك، كان القائمون بالحصار يعانون كذلك، سواء من الديزنطاريا — وهو الخطر الذي كان دائمَ التكرار في ظروف الحصار — أو شدة الحرارة. كانوا، كذلك، يعرفون أن أسطولًا بريطانيًّا آخرَ، يفوق أسطولَ بينج، كان في طريقه للجزيرة تحت قيادة «الأدميرال سير إدوارد هوك Admiral Sir Edward Hawke»، وكان ريشيليو يريد أن ينهيَ الأمر قبل وصوله. وبناءً على ذلك، أصدر أوامره بهجومٍ ليلي. وفي مجلس حرب عقدَه بلاكني في الصباح التالي، يوم ٢٩ يونيو، أجمع كلُّ الحاضرين باستثناء ثلاثة (قدَّموا شروطًا معقولة)، على أن الاستسلام كان هو السبيل الوحيد المعقول. عند اقترابه من ماهون بعد أيام قليلة، مرَّ هوك بقافلة فرنسية كانت

تحمل الناجين من أفراد الحامية عائدةً بهم إلى جبل طارق ... حينذاك فقط أدرك أنه كان قد تأخَّر كثيرًا.

عندما وصلت الأخبار إلى لندن، كانت هناك موجةٌ عارمة من الحماسة لـ «بلاكني» — الذي قيل إنه لم يخلع لباسَه العسكري طوال الحصار الذي استمر سبعين يومًا — وأنعم عليه الملك جورج الثاني بلقب «فارس»، ثم بلقب «كولونيل فخري» لفيلق عسكري، وأخيرًا كان لورد بلاكني ضمن طبقة نبلاء أيرلنده. أما الأدميرال بينج فكان أقلَّ حظًّا. في السابع والعشرين من يناير ١٧٥٧م أدانته محكمةٌ عسكرية بالإهمال في أداءِ واجبه وحكمت عليه بالإعدام، ثم أضافت المحكمةُ توصيةً قوية بالرأفة ليكون السَّجن بدلًا من الإعدام، على اعتبار أن تصرُّف الأدميرال لم يكن بدافعٍ من الجبن، ولكن الملك رفض تخفيفَ العقوبة. في الرابع عشر من مارس ١٧٥٧م تم إعدامه رميًا بالرصاص فوق إحدى السفن الملكية في ميناء «بورتسموث Portsmouth». كورسيكا هي الجزيرة الرابعة الأكبر في المتوسط، بعد صقلية وسردينيا وقبرص. تاريخها القديم مثلما هو متوقَّع، بعد فترةٍ نشطة في عصرِ ما قبل التاريخ، توالت عليها احتلالات من اليونانيين والقرطاجنيين والإتروسك والرومان والوندال والقوط واللمبارد والعرب. في القرن الثامن، وهو الأكثرُ إثارةً للدهشة، سقطت في يد النظام البابوي، الذي عهِد بها في ١٠٧٧م لأسقف بيزا. تحت حكم البيزيين، عرفت كورسيكا الإدارةَ المستنيرة الكفء لأول مرة. تطوَّر اقتصاد الجزيرة، وبدأت الفنون في الازدهار: هاتان الزهرتان الرائعتان من الطراز الرومانيسكي؛ كاتدرائية «نيبيو Nebbio»، وكنيسة «لا كانونيكا La Canonica»، تعودان إلى أوائل القرن الثاني عشر. كان من المحتَّم أن تثيرَ تلك الدرَّة في تاج بيزا جشعَ جنوة، خَصمها العتيد في وأثناء الصراعات المريرة بين الجمهوريتين البحريتين طوال العصور الوسطى المتأخرة — التي لحِقت بهما فيها مملكة أراجون — عادت الفوضى. وأخيرًا، في منتصف القرن الخامس عشر، أحكمت جنوة سيطرتَها على الجزيرة واحتفظت بتلك السيطرة — مع انقطاعات قليلة — ثلاثمائة سنة.

ثم كان أن ظهر على المسرح الكورسيكي «باسكوال باولي Pasquale Paoli»، كان أبوه «جياكنتو Giaquinto» قد تزعَّم انتفاضةً ضد جنوة في ١٧٣٥م، ولكن بعد قتالٍ دامَ أربع سنوات فشل في النهاية. كان من حسن حظِّه هو وباسكوال أن يهربا من مصيرٍ أسوأ من النفي، إلى نابولي، وهنا سيُعِدُّ نفسه لمواصلة الكفاح من أجل الاستقلال، ليكون جاهزًا في ١٧٥٥م. عاد إلى كورسيكا، تغلَّب على الجنويين — الذين كانوا يرفضون التخليَ

عن مطالبهم — وأعلن دولةً مستقلة، وانتُخب رئيسًا في ظل دستور ليبرالي ديمقراطي، مثل أي دستور في أوروبا. على مدى السنوات التسع التالية، سوف يتمكَّن من تهدئة الأوضاع في الجزيرة المضطربة، ويشجع الصناعة، ويبني أسطولًا، ويؤسِّس نظامًا للتعليم الوطني كاملًا حتى المستوى الجامعي. خلال هذه الفترة، كان في حالةِ حرب دفاعية غير حاسمة ضد جنوة التي سعَت للحصول على دعم فرنسا، وفي سنة ١٧٦٨م باعت حقوقها للفرنسيين. قامت فرنسا بتقوية الحاميات الكورسيكية لتصل إلى ست كتائب كاملة وفي ١٧٦٩م، بعد اثني عشر شهرًا من حرب العصابات، اضطُر باولي للفرار إلى إنجلترا.

في الخامس عشر من أغسطس من العام نفسِه، سيُولد طفلٌ في منزلٍ ما في شارع سان شارل في «أجاسيو Ajaccio». سيكون اسمه — بالإيطالية التي كانت اللغة القومية لـ «كورسيكا» آنذاك — «نابوليون بونابارت Napoleone Buonaparte».

قبل عشر سنوات بالتمام والكمال من مولدِ بونابارت في أغسطس ١٧٥٩م، كان الملِك الإسباني فرديناند السادس قد مات في سن السادسة والأربعين. لم تكن قدراته العقلية قوية، وكان موت زوجته المحبوبة قبل عام قد أثَّر فيه بشدة. أصبح أكثرَ عزلةً وتوحدًا وكان يرفض الكلام، وفي النهاية دخل في حالةٍ كاملة من الخبل. الغريب أنه كان ملِكًا جيدًا. كان، بمساعدة الملكة باربرا، قد استعاد الأموالَ الوطنية وبنى أسطولًا قويًّا وشجَّع العلوم والفنون وشدَّد القيود على محاكمِ التفتيش واضعًا نهايةً لعملياتِ ما كان يسمَّى بـ «فعل الإيمان auto-de-fé»[٢٣] التي كانت صادمةً لأوروبا القرن الثامن عشر. كان أكثر من ملك يفعلون ما هو أسوأ من ذلك.

انتقلت الآن مملكته إلى أخيه غيرِ الشقيق شارل الثالث ملك نابولي، وأصبحت الملكة «دوواجر إليزابيث فارنيز Dowager Elizabeth Farnese» وصيةً حتى وصول شارل إلى إسبانيا. وحيث إن الابن الأكبر للملك الجديد كان معتوهًا، قرَّر شارل — كجزء من هذا التعديل الملكي — أن يعيِّن ابنه الثاني — كان اسمه شارل أيضًا — أميرًا على «أستورياس Asturias» ووريثًا للعرش الإسباني، وتنازلَ عن عرش نابولي والصقليتين لابنه الثالث فرديناند الذي كان آنذاك طفلًا في الثامنة. بعد الانتهاء من هذه التدابير، أبحر هو وزوجته «آماليا Amalia» الساكسونية Amalia of Saxony إلى برشلونة بأسرتهما. وصلا مدريد في التاسع من ديسمبر، حيث اجتمع شملُ الملك بأمه لأول مرة منذ رحيله قبل ثمانية وعشرين عامًا. تعانق الاثنان بحرارة، ولكن سرعان ما كشف شارل عن شخصيته

المستقلة، وأنه ليس لديه النيةُ للسماح بأي نفوذ لـ «إليزابيث» في شئون الدولة؛ وسرعان ما آوت هي إلى قصرها في «سان إلديفونسو San Ildefonso»، ولم تَعُد إلى مدريد قط، حتى بعد موت الملكة آماليا بعد ثلاثة أشهر.

بالرغم من أن شارل لم يكن استثنائيَّ الذكاء، فإنه كان مجِدًّا وصاحب ضمير حي وأمينًا وورعًا، ذلك كله إلى جانب خبرة أكثر من ربع قرن في الحكم. في الوقت نفسه كان بوربونيًّا قلبًا وقالبًا، لم يغفر ولم ينسَ التهديدَ البريطاني بقصف نابولي قبل سبعة عشر عامًا. الآن، وبينما كانت حرب السبع سنوات قد قطعت نصف الشوط، كان يكره أن يرى الأسلحة البريطانية في أي مكان منتصرةً على الأسلحة الفرنسية. وكإسباني، كان على إلمامٍ جيد بشكوى بلاده المستمرة من إنجلترا عن التهريب وقيام البريطانيين بتفتيش السفن الإسبانية، ناهيك عن النزاعات الأخرى التي كانت تتراوح بين المطالبة بساحل «هندوراس Honduras» وحقوق الصيد بالقرب من مياه «نيوفوندلاند Newfoundland». لذا عندما أوحى له وزيرُ الخارجية الفرنسي «الدوق دي شوازيل Duc de Choiseul» بأن انتصارًا إنجليزيًّا سيكون كارثيًّا على الممتلكات الإسبانية في الأمريكتين، كان يجد مستمعًا جيدًا.

كانت النتيجة توقيعَ اتفاقيتين عُرفتا بـ «العهد العائلي The Family Compact»، وذلك في أغسطس ١٧٦١م. وافقت فرنسا على أن يكون أيُّ اتفاق سلام مشروطًا بتسوية الشكاوى الإسبانية، بينما تعهَّدت إسبانيا في المقابل بأن تدخل الحرب فورًا في حالِ رفضِ هذه الشروط. عند هذا الحد — وقبل أن يكون هناك أي شيء يخص السلام بين بريطانيا وفرنسا — طلبت الحكومة البريطانية تفسيرًا للاستعدادات العسكرية الواضحة التي كانت تقوم بها إسبانيا. رفضت إسبانيا الرد، وطردت السفير البريطاني «لورد بريستول Lord Bristol»، وفرضت حظرًا على جميع السفن البريطانية في الموانئ الإسبانية. الآن، دخلت حرب السبع سنوات مرحلةً متوسطية جديدة. كانت قصيرةَ المدى، وإن كانت أصداؤها وتداعياتها قد وصلت إلى الكاريبي والباسيفيكي. في أغسطس ١٧٦٢م قام أسطول بريطاني بالاستيلاء على «هافانا Havana»، وبعد شهر أو أكثرَ بقليل، قبل أسطول آخر استسلامَ «مانيلا Manila». لا عجب إذن أن تكون فرنسا وإسبانيا مستعدتَين للسلام بنهاية العام.

تم توقيعُ الاتفاقية التي وضعت نهايةً لحرب السبع سنوات في باريس في العشرين من فبراير ١٧٦٣م. كانت تحتوي على بندٍ واحد له علاقة مباشرة بالبحر الأبيض؛ إعادة مينوركا إلى بريطانيا. من ناحية أخرى، كانت الأمريكتان قد شهدتا تحوُّلات كبيرة.

حصلت بريطانيا على كندا و«نوفاسكوتيا Nova Scotia» و«كيب بريتون Cape Breton» وعدد من الجزر، من فرنسا، التي تنازلت كذلك عن «السنغال Senegal»؛ وفي المقابل احتفظت فرنسا بجزر «المارتينيك Martinique» و«جوديلوب Gaudeloupe»، وحصلت على حقِّ الصيد في مياه نيوفوندلاند.[٢٤] كما أُعيدت لها مستعمراتها السابقة في الهند بشرط عدم تحصينها. أما إسبانيا فاستعادت هافانا من بريطانيا، وكان عليها أن تتخلى عن فلوريدا مقابل ذلك، كما استعادت مانيلا والفيلبين. كان أهم جديدٍ ضمَّته إليها هو منطقة لويزيانا الفرنسية سابقًا. كان ذلك بعض التعويض عن فقدان فلوريدا؛ ولكن بالنسبة لـ «شارل الثالث»، كان لا بد من أن يكون واضحًا أنه ارتكب أول خطأ كبير له كحاكم لإسبانيا، وهو أنه استمع إلى «شوازيل Choiseul».

كانت سياسة سلفه في الحياد الصارم هي السياسةَ الصحيحة. كان بالإمكان مواصلةُ حرب السبع سنوات على نحوٍ أكثرَ حكمة من كل الأطراف ... بعبارة أخرى، دون تورُّط مباشر.

هوامش

(١) المسلمون (سابقًا) الذين تحوَّلت أَسَرُهم إلى المسيحية — على الأقل نظريًّا — نتيجةً لاضطهاد الملكة إيزابيلا (انظر الفصل الثالث عشر: الملوك الكاثوليك والمغامرة الإيطالية).

(٢) في النصف الأول من القرن السادس عشر، كانت هولندا قد أصبحت مقاطعةً تابعةً للهابسبورج الإسبان. ثم في فترة «الإصلاح Reformation» بعد ذلك تحوَّلت المقاطعات الشمالية إلى «الكالفينية Calvinism» وكان الأمير وليم الأورانجي (وليم الصامت) قد قادهم في تمرُّد على إسبانيا. في ١٥٧٩م تخلصوا من الحُكم الإسباني ليصبحوا «المقاطعات الهولندية المتحدة» — بالرغم من أن إسبانيا لم تعترف باستقلالها حتى ١٦٤٨م. ظلَّت المقاطعات الجنوبية إسبانية.

(٣) وُلدت «ماري – آن دي لاتريموي Marie Anne de la Tremouille» في ١٦٤٢م، تزوَّجت في ١٦٧٥م، وحيث إن زوجها الثاني «فلافيو ديجلي أورسيني Flavio degli Orsini»، دوق «براكيانو Bracciano»، أصبح قصرهما في روما مركزًا للنفوذ الفرنسي في إيطاليا. بعد أن ترمَّلت مرةً أخرى في ١٦٩٨م عادت إلى فرنسا، فرنَسَت اسمها، أصبحت إحدى وصيفات الملكة. منذ يوم وصولها إلى إسبانيا، كانت تدير البلاد بالفعل.

(٤) الأقاليم الجنوبية، التي بقيت إسبانيةً بعد انفصال الأقاليم الشمالية.

(٥) كان الأمير إيوجين (١٦٦٣–١٧٣٦م) هو الفيلد مارشال الإمبراطوري، واشتهر بأنه أعظمُ جنود عصره. حارب معركته الأولى — أثناء الحصار التركي لـ «فيينا» في ١٦٨٣م — وهو في العشرين من عمره. كان معلِّمًا لـ «فردريك الأكبر»، وهو القائد الاستراتيجي الوحيد الذي كان نابوليون يعتبر حملاته جديرةً بالدراسة.

(٦) لا يعرف أحدٌ كيف أصبح فيلليريو مارشالًا؛ خسِر كلَّ المعارك التي خاضها، بعد أسرِه كان الجنود الفرنسيون يرددون الأغاني التي تسخر منه.

(٧) ماركيز دي روفيجني Marquis de Ruvigny سابقًا وأحد أبناء عائلة Huguenot العريقة. كان جالواي قائدًا لقوةٍ فرنسية في إنجلترا بعد إلغاء مرسوم نانتس Edict of Nantes في ١٦٥٨م وأصبح بريطانيًّا. بعد ذلك بخمس سنوات خدم في العسكرية الإنجليزية برتبة ماجور — جنرال في الخيَّالة. عيِّن في ١٦٩٢م قائدًا للقوات في أيرلنده ومُنح بعدها رتبة النبالة.

(٨) لعلها المعركة الوحيدة التي قاد فيها فرنسي قواتٍ بريطانية.

(٩) اضطُرت كاجلياري نفسها للاستسلام، وإن كان البريطانيون لم يقوموا بغزو سردينيا بالكامل، إلا أنها أصبحت ورقةَ مساومة في السنوات التي تلت معاهدة «أوترخت Treaty of Utrecht».

(١٠) الهويج Whig: حزبٌ بريطاني مؤيد للإصلاح سيُعرف فيما بعدُ بـ «حزب الأحرار». (المترجِم)

(١١) نسبة إلى «توري Tory»، وهو حزبٌ بريطاني مؤيد للسلطة الملَكية، مقاوم للتغيير والإصلاح (أُنشئ حوالي عام ١٦٧٩م، سيُعرف بعد ذلك باسم حزب المحافظين). (المترجِم)

(١٢) "On a Parole du Roi d'Espagne de Laisser aux Anglais Gibraltar pour la Sûrete réelle de leur Commerce en Espagne et dans la Méditerrane".

(١٣) هذا التمييز الغامض هو أساس مطالبة إسبانيا بالصخرة: كانت جزءًا من الأراضي الإسبانية ذات السيادة منذ أيام فرديناند وإيزابيللا، وهذا الوضع لم يتأثَّر بمعاهدة أوترخت. يُتهم الموقف الإسباني غالبًا بالنفاق بسبب تشابهٍ مزعوم بين جبل طارق والمدن الإسبانية سبتة ومليلة على ساحل أفريقيا الشمالي. ردَّ الإسبان بأن هاتين المدينتين ليستا مستعمرتين، وأنهما كانتا دائمًا إسبانيتين مثلهما مثل جزر البليار أو جزر كناري؛ وأنهما لم تكونا جزءًا من الدولة المراكشية قط.

(١٤) المقصود أنها كانت عبئًا ثقيلًا عليها. (المترجِم)

(١٥) كانت هناك فترة انقطاع قصيرة في ١٧٢٤م عندما تنحَّى فيليب لصالح ابنه الأكبر لويس — في نوبةٍ من نوبات الهوس الديني — ولكنه عاد إلى العرش عندما مات ابنه بالجدري بعد ذلك بسبعة أشهر.

(١٦) كانت هولندة بالفعل جزءًا منه وإن اسمًا فقط؛ إذ إن سياسة طبقة التجار الهولنديين المعادية للحرب قوية جدًّا.

(١٧) نُقل أثناء الاحتلال البريطاني للجزيرة إلى مكانه الحالي في المتنزَّه المجاور.

(١٨) كانت بروسيا قد أصبحت دولة في ١٧٠١م عندما توَّج فردريك (ابن مرشح براندينبرج) نفسَه ملِكًا في «كونيجزبرج Königsberg».

(١٩) Press-gangs: كتائبُ يقودها ضباطٌ كانت مكلَّفة بإكراه الناس للالتحاق بالجيش أو الأسطول. (المترجِم)

(٢٠) ابتهجت لندن على نحوٍ خاص لهذا الإعلان. فردريك أمير ويلز، الذي كان يعربد في إحدى الحانات (Rose Tavern) أفرط في الشراب مع أصدقائه مما أثار دهشةَ وارتباكَ الكاثوليكيين، ودقَّت الأجراس من أبراج كل الكنائس. كانت تلك هي المناسبةَ التي اتُّهم فيها رئيس الوزراء سير روبرت والبول Robert Walpole بالذنب بسبب عبارته الشهيرة التي تُذكر به دائمًا وتنطوي على تورية ساخرة: «إنهم يدقُّون ring الأجراس الآن، بعد وقت قصير سوف يعصِرون wring أيديهم». (التورية بين الفعلين «يدق ring» و«يعصر wring»، حيث إن النطق واحد. حرف w في الفعل الثاني غير ملفوظ). (المترجِم)

(٢١) لم تصبح إمبراطورة إلا في ١٧٤٥م. عند موت والدها شارل السادس انتقلت الإمبراطورة إلى ابن عمِّها (من الفرع البافاري من العائلة) الذي أصبح شارل السابع؛ وبعد موته انتُخب زوجها فرانسيس اللوريني Francis of Lorraine للعرش الإمبراطوري.

(٢٢) كانت رئاسة شارل دي بروسيس لبرلمان ديجو Digon فحسب، إلا أنه استطاع على نحوٍ ما أن يحتفظ باللقب، وبصرفِ النظر عن ذلك فقد كان كاتبًا ممتعًا تحظى آراؤه بالاحترام.

(٢٣) الاحتفال الذي يرافق إصدارَ الحكم بالموت من قِبل محكمة التفتيش على المتهم بالهرطقة، وكان يتبعه إحراق المهرطِق. (المترجِم)

(٢٤) سوف يُعاد توزيعُ بعض جزر الكاريبي مرةً أخرى، بموجب معاهدة «سلام فرساي Peace of Versailles» في ١٧٨٣م.

الفصل العشرون

حصار جبل طارق

- القصف يبدأ: ١٧٨١م.
- تلك الآلات الجهنمية الحرَّاقة: ١٧٨١م.
- مينوركا تستسلم: ١٧٨٢م.
- «غير قابلة للاحتراق ... غير قابلة للغرق»: ١٧٨٢م.
- هجوم الحامية: ١٧٨٢م.
- التخلي عن البطاريات العائمة: ١٧٨٢م.
- وصول أسطول الإغاثة: ١٧٨٢م.

* * *

في الرابع من يوليو ١٧٧٦م، كما يعرف العالَم أجمع، أعلنت المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية استقلالها. في خلال عامين فحسب، تطوَّر الصراع الذي كان قد بدأ كنزاع على الشئون الكولونيالية البريطانية، إلى أزمةٍ لن يكون العالَم بعدها مثلما كان قبلها. في مارس ١٧٧٨م، دخلت فرنسا ساحةَ الصراع إلى جانب أمريكا؛ كان لويس السادس عشر — الذي كان قد خلف والده قبل أربع سنوات — يفعل كلَّ ما في وُسعه لإقناع شارل الثالث مِلك إسبانيا بأن يحذوَ حذوَه. كان شارل متشككًا من البداية. كانت مشاركته في اللحظة الأخيرة في حرب السبع السنوات كارثية، بعد ذلك ستكون الحملة ضد القراصنة الجزائريين في ١٧٧٤م عارًا أكثرَ منها كارثة. كان إذن يتطلع لبعض الانتصارات العسكرية. أضِف إلى ذلك أنه كان يمتلك مستعمراتٍ شاسعة في العالم الجديد — هل كان فعلًا يريد أن يشجِّع على الثورة بينها؟ في النهاية كان غاضبًا من لويس. بحسب شروط «العهد العائلي The Family Compact»، كان ينبغي أن يتشاور معه الملك

الفرنسي قبل تحالفه الأمريكي، والآن كان يطلب من إسبانيا أن تنضمَّ إليه باسم ذلك الحلف نفسه.

من هنا، عرض شارل خدماته كوسيط بين الطرفين. اقترح أن تعلِّق بريطانيا أعمالها العِدائية لمدة عام، وأن تعامل المستعمرات الأمريكية أثناء تلك الفترة كأنها مستقلة، وأن يكون هناك مؤتمر سلام في مدريد يشارك فيه الأمريكيون، على قدمٍ وساق، مع ممثلي بريطانيا. يمكن أن نقول إن جبل طارق سيكون هو ثَمن هذه الوساطة.

رفضت الحكومة البريطانية ذلك من البداية، ولم يكن في رفضها مفاجأة كبيرة، وأعلنت أن اقتراحه كان «نابعًا من كل المبادئ التي تم إسقاطها ويحتوي على كل الشروط المرفوضة». في مواجهة ذلك، أعلن شارل الحربَ في يونيو ١٧٧٩م. لم يكن مستقبل مستعمرات بريطانيا في أمريكا يعنيه على الإطلاق، ولكن جبل طارق ومينوركا كانتا تستحقان الفوز بهما، وكان السؤال هو: كيف؟ درس أكثرَ من تسعة وستين اقتراحًا منفصلًا على الأقل. كان أحد الاقتراحات الأولى — وربما أحد أفضلها — هو غزو إنجلترا. كان بإمكانه أن يقوم هو والفرنسيون بحشدِ أسطول ضخم يكفي لقهر البحرية الملكية في القناة، وجيش يمكنه إلحاقُ الهزيمة بالقوات البريطانية القليلة نسبيًّا، التي لم تكن تحارب في أمريكا. إلا أن الفكرة لم تَرُق له تمامًا: كان شارل يفضِّل القيامَ بعملٍ أكثرَ مباشرة. قرَّر أن يحاصر جبل طارق.

بدأ الحصار في الحادي عشر من يوليو ١٧٧٩م، عندما أطلق القائد الإسباني «مارتن ألفاريز دي ستومايور Martine Alvarez de Stomayor» الذي كان قد وصل حديثًا، طلقةً واحدة من قلعة «سانت باربرا Fort St Barbara» عبْر الحدود، وقام الجنرال البريطاني «سير وليم جرين Sir William Greene» بالرد. كانت تلك هي المرة الأولى التي تُطلَق فيها مدافعه — غاضبة — على مدى نصف القرن، واستمر وابل النيران نحو أربع وعشرين ساعة. على مدى الشهرين التاليين كان القائمون بالحصار يحصِّنون مواقعهم ويبنون المزيدَ من مرابض النيران ويستعدون لفصل الشتاء القادم، بينما كانت القوات تتجمَّع ليصل عددها في آخرِ أكتوبر إلى أكثرَ من أربعة عشر ألف ضابط وجندي. في المقابل، كانت الحامية البريطانية نحو أربعة آلاف ضابط وجندي، بالإضافة إلى ألف وثلاثمائة من أبناء هانوفر، وكان الحاكم الجنرال «جورج أوجستوس إليوت George Augustus Eliott»، يضع في حسبانه كذلك نحو ألف وخمسمائة من زوجات وأبناء الجنود، ونحو ألفين آخرين من الأهالي. كان يرى أن الطعام سيكون مشكلة كبيرة. وحيث

إن الحصار الإسباني لم يكن كليًّا بعد، كان يشجِّع كلَّ مَن يستطيع مغادرةَ الصخرة على أن يفعل ذلك بأقصى سرعة. وافق عدد من اليهود ومن الجنويين على ذلك واستقلوا عددًا من السفن والقوارب الصغيرة، قاصدين البرتغال أو «الساحل المغربي The Barbary Coast»، واضطُر الباقون إلى انتظار وصول قافلة من بريطانيا — إن أمكن.

من البداية، قدَّم «جرين Greene» نموذجًا لرجاله، فلتوفير الطعام، ولكي يزيد الاحتياطي المخزون منه، أمر بقتل أحد خيوله، ولكي يقدِّر الحد الأدنى من الاحتياجات الغذائية، عاش لمدة أسبوع على أربع أوقيات من الأرز يوميًّا. لم يكن يسمح بأي عمل أو سلوكٍ أحمق: سجَّل أحدُ ضباطه، الكابتن «جون سبلزبري John Spilsbury»، في يومياته:

> ٣ أكتوبر. يبدو أنهم سمعوا رجلًا في الثامنة والخمسين يقول: اللعنة على مَن لا ينضم إلى الإسبان إن هم جاءوا؛ قال الحاكم إن ذلك الرجل كان لا بد أن يكون مجنونًا، وأمر بحلق شَعر رأسه وجَلْده وفصْده وإيداعه السِّجن الحربي ليعيش على الخبز والماء، وأن يرتديَ صدرية ضيقة، وأن يُصلى من أجله في الكنيسة.

وأخيرًا، جاءت أخبارٌ طيبة في السادس عشر من يناير ١٧٨٠م. قام أسطول من إحدى وعشرين سفينة،[١] بقيادة الأدميرال «سير جورج رودني Sir George Rodney» بالهجوم على أسطولٍ من عشر سفن إسبانية بالقرب من «كيب سان فانسا Cape St Vincent»، ودمَّر اثنتين منها وأسرَ أربعًا، وأجبر الأخريات على الفرار. وفي اشتباكٍ منفصل، كان قد أسرَ خمس عشرة سفينة تجارية. تم كسر الحصار وإنزال المؤن والإمدادات مع نحو ألف من سكان الجبال، كما تم إنقاذ زوجات وأطفال معظم الجنود ونقلهم إلى أماكنَ آمنة. كان هناك سبب واحد، فحسب، للضيق. لم تأتِ حملةُ الإغاثة معها بأي نبيذ أو روم. ومثلما أشار الحاكم:

> ربما يشعر الجندي بالحاجة إلى شرابٍ كحولي قوي، أكثرَ من شعوره بتخفيض جزء صغير من تموينه، وربما يؤثِّر ذلك على صحته أكثرَ من تغيير عادة لازمته.

في الوقت نفسه، لم يكن الحصار قد انتهى، وفي أوائل الربيع، انتشر وباء الجدري في الصخرة على نحو شديد الخطورة. كان الحصار الإسباني يزداد إحكامًا مع تناقصٍ

شديد في مخزون المؤن. في الوقت نفسه، كان الإسبان هادئين، بينما كان على المدافعين أن يعانوا خطرًا كبيرًا آخر على معنوياتهم: السأم.

بدأ العام الجديد (١٧٨١م) بدايةً سيئة. في الحادي عشر من يناير، شُوهدت جاليتان من سفن المسلمين قادمتين تحت علم الهدنة. كانتا تقلان قنصلَ طنجة Tangier وزوجته ونحو مائة وثلاثين من الرعايا البريطانيين، كانوا كلهم مطرودين من مراكش بعد أن كان سلطانها قد أجَّر طنجة وتطوان لإسبانيا. كان ذلك يعني عدم توقُّع وصول المزيد من التموين من المغرب، وأنه كان على إليوت أن يدبِّر طعامًا لمائة وثلاثين فمًا أخرى. إلا أنه ظل مستمرًّا في مقاومته، إلى أن جاء الأدميرال «جورج داربي George Darby» بأسطوله إلى خليج «ألجيسيارز Algeciars»، فجرَ الثاني عشر من أبريل. في البداية كان الضباب قد حجبه عن الأنظار، ولكن شاهد عِيان آخر، هو الكابتن «جون درنكووتر John Drinkwater» كتب:

> عندما اشتدَّت الشمس، بدأ الضباب يرتفع تدريجيًّا مثل ستارة مسرح كبير، ليكشف لحامية القلعة عن واحدٍ من أكثر المشاهد جمالًا ومدعاةً للفرح التي يمكن تصوُّرها. كانت القافلة المكوَّنة من نحوٍ مائة سفينة تبدو مثل كتلة متراصة تقودها عدة سفن حربية، أشرعتها جاهزةٌ للتوجيه، بينما كانت هناك أوامر لسفن تشكيل القتال على ساحل باربرا بألا تدخلَ الميناء حتى لا تتحرَّش بها حرَّاقات[٢] العدوِّ، كانت فرحة الأهالي لرؤية هذا المنظر البهيج لا توصف، أما تعبيرهم عن سعادتهم فقد فاق كلَّ مشاعر البهجة السابقة.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة إلا الربع عندما رست أول سفينة، وفي التوِّ واللحظة فتحت المرابض الإسبانية النار. على الفور، انقلب الفرح إلى دهشة ... والدهشة إلى ذعر. كان خطر القصف المدفعي قائمًا منذ بدء الحصار، ولكن على مدى ثمانية عشر شهرًا لم يكن هناك سوى طلقات متقطعة، وكان الناس قد نسوا الخطر. الآن، كان الخطر فوقهم فجأة؛ وابل من الطلقات والقذائف ينشر الخراب والدمار في أرجاء المدينة الصغيرة. هدأ القصف قليلًا بعد الظهر ثم توقَّف تمامًا — حتى ومصير جبل طارق على كفِّ عفريت، لم يكن الإسبان ليتخلوا عن قيلولة بعد الظهر — وفي الخامسة استؤنف القصف ليستمر طوال الليل.

انبلج الصباح التالي عن مدينةٍ تحوَّلت إلى أطلال، كما كشفت جدران المنازل المنهارة عن مخازنَ للتجار، وكان معظمها مكدَّسًا بموادَّ تموينية من كل نوع، كانت مخبَّأة لكي

تُباع بأسعارٍ باهظة. كان لا بد من انتشار أعمال السلب والنهب، وبخاصة من مخازن تجَّار المشروبات الكحولية. صباح الأحد، الخامس عشر من أبريل أشار الكابتن سبلزبري ممتعضًا: «لم يسبق أن رأى أحدٌ مثلَ مشاهد السُّكر والعربدة والدمار تلك»؛ وفي محاولةٍ لاستعادة النظام قام مجموعة من الضباط المسلحين بالبُلَط بجولةٍ على مخازن التموين، وراحوا يهشِّمون البراميلَ إلى أن تحوَّلت الشوارع إلى أنهارٍ من النبيذ والبراندي.

أثناء ذلك كلِّه، كانت عمليات تفريغ حمولات السفن مستمرةً بمعدَّل عشر سفن في اليوم. كان لدى الأدميرال داربي أوامرُ بأن يبحِر مع أول رياح مواتية، ولم يكن لدى القائمين بالتموين رغبةٌ في البقاء. ولكن سرعان ما اكتشف أن الحكومة البريطانية كانت قد غفلت عن إرسالِ سلعةٍ بالغةِ الأهمية وهي البارود. لم يكن أمام إليوت سوى أن يطلب أكبرَ كمية منه من الأدميرال داربي، الذي كان سعيدًا بأن يستجيب لذلك بتقديم ٢٢٨٠ برميلًا منها، وكتب يقول: «إن الدفاع النبيل الذي تستعد للقيام به، هو ما جعلني أقدِّم أقصى ما أستطيع من هذه المساعدة، وإنه ليسعدني حقًّا أن أبذل كلَّ ما في وسعي لخدمة الحامية، التي تتطلع إليها كل أنظار العالم.»

في العشرين من أبريل، كان الأدميرال مستعدًّا للإبحار، وبينما كانت كل سفن الرحلة المتجهة إلى الخارج محمَّلة حتى حوافها بالمؤن التموينية، كانت حمولتها وهي عائدة بشرية في معظمها: معظم زوجات وأبناء الضباط، وكل مَن كان قد بقي من اليهود وأبناء جنوة، الذين كان معظمهم قد دفع الكثير ليكونوا على متنها. ربما كان عددهم يصل إلى نصف عدد سكان الصخرة.

> **٧ مارس ١٧٨١م.سيدي اللورد،**
>
> ينبغي ألا أخفي عنك حقيقةَ التسيُّب والفوضى المخزية للكتائب البريطانية المكوِّنة لهذه الحامية منذ أن فتح العدو نيرانَ بطارياته؛ باستثناء الاغتصاب والقتل لم تكن هناك جريمةٌ أخرى لم تُرتكب ... وبكل وقاحة. لقد بلغت الأمور درجةً من السوء بحيث لم يكن هناك خفير في موقعه لا يشارك أو يساعد في سرقة كلِّ ما هو مسئول عن حمايته ... حتى لو كانت مخازن الملك.

هذه الرسالة التي كتبها إليوت للورد أمهرست Lord Amherst، قائد القوات البريطانية، توضِّح تمامًا كيف أن مدينة جبل طارق التي كانت قد دُمِّرت إلى حدٍّ كبير، كانت الآن عُرضةً للنهب المنظَّم من قِبل مَن كان يُفترض أنهم يدافعون عنها. اتخذ الحاكم

إجراءاتٍ حازمةً ضدهم: الصانعان الماهران، «صمويل ويتاكر Samuel Whitaker» و«سيمون براتس Simon Pratts» شُنِقا يوم الثلاثين من مايو، «وليم رولز William Rolls» (من الكتيبة ٥٨)، جُلِد ألف جلدة علنًا في ساحة العرض العسكري. بصرفِ النظر عن العقوبات القانونية كان اللصوص ومَن يقومون بالسلب والنهب مستمرِّين في ذلك ويخاطرون بحياتهم أثناء القصف المتواصل. لم يكن كلُّ ما حدَث من أضرار نتيجةً لقصف بطاريات الشواطئ، كان هناك أعداد كبيرة من الزوارق الحربية الإسبانية الصغيرة، كامنة بالقرب من الصخرة، تقوم بإطلاق نيرانها على أي جسم يتحرَّك. هذه الزوارق كانت شديدةَ الخطر ليلًا. تصف السيدة «كاترين أبتون Catherine Upton» (زوجةُ أحد الضباط)، كيف أن «امرأة كانت في خيمةٍ مجاورة لخيمتي شطرتها قذيفة إلى نصفين بينما كانت تلبَس جوربها» وتضيف: «كانت نافثات اللهب تلك تستطيع الهجومَ على أي مكان تريد من الحامية.» وسجَّلت في يومياتها في ٢٣ مايو:

> عند الواحدة صباحًا تقريبًا، بدأت الزوارق الحربية — همُّنا القديم — في إطلاق نيرانها علينا. غطيت نفسي والأطفالَ ببطانية وركضنا للاحتماء بصخرة ... أُصيبَت السيدة تورال Toural (الجميلة حسنة المظهر) بقذيفة حوَّلتها إلى أشلاء. لم يجدوا منها سوى ذراع واحدة. لقي شقيقها الذي كان يجلس إلى جوارها والكاتب الذي يعمل معه المصيرَ نفسه.

كانت الأخبار الطيبة هي أن القائمين بالحصار قد تخلَوا عنه، لم يكن ناجحًا بدرجةٍ كبيرة، وحيث إنه كان قد فشِل في توصيل المؤن والاحتياجات التي تكفي عامين، لم يكن هناك ما يدعو لاستمراره. عادت الاتصالات مع العالم الخارجي، وأصبح الطعام والشراب متوفرَين ... إلا أن الحصار استؤنف.

كانت حرارة الصيف كذلك، وهي أصعبُ ما واجه الكابتن سبلزبري على مدى الاثني عشر عامًا التي أمضاها في جبل طارق، قد بدأت وطأتها تزداد على الجانبين. وبحلول آخر يوليو لم يكن الإسبان يطلقون سوى ثلاث دفعات من المدفعية كلَّ يوم، وكان ذلك يتم بشكلٍ منتظِم لدرجةِ أن أفراد الحامية كانوا يشيرون إلى ذلك بـ «الآب والابن والروح القدس». (لعل انفجارًا كبيرًا كان قد حدث في مخزن البارود لديهم في التاسع من يناير، فكان المسئولَ جزئيًّا عن ذلك). بدأ المحاصَرُون يَضيقون ذرعًا بوضعهم كما زاد التوتُّر بينهم. في الثاني والعشرين من يوليو دخل ضابطٌ برتبة ماجور مع مساعد ضابط في

مبارزةٍ بثلاثة مسدسات مع كليهما، ولحسن الحظ أخطأ كلاهما الرمي بالأسلحة الستة. بعد أيام قليلة كانت الحامية تراقب في صمتٍ أسطولَ غزو فرنسي-إسباني متقدِّمًا في اتجاه الشرق عبْر المضيق قاصدًا مينوركا. لم يكن هناك شكٌّ في أن يكون الجنرال «جيمس موراي James Murray» حاكمُ الجزيرة، كان في حاجة إلى كلِّ ما يستطيع الحصول عليه من مساعدة.

مع مقدَمِ الخريف تحسَّن الجو العام في الصخرة ماديًّا ومعنويًّا، وفي أكتوبر، بالرغم من ذلك، كان المدافعون يرقُبون الإسبانَ بقلق وهم يقومون ببناءِ حصنَي مدفعية جديدَين متوازيَين على امتداد البرزخ. كانا قريبَين من الحدود تحميهما ضفتان من الرمال المرتفعة التي لا يمكن للمدفعية البريطانية اختراقها.

وهكذا، في الثالثة إلا الربع من صباح اليوم السابع والعشرين من نوفمبر، كان أكثرُ من ألفي جندي ومائة بحَّار — ثلث الحامية تقريبًا — تسبقهم مجموعةٌ من رماة القنابل اليدوية من هانوفر، يخرجون في طابور، في هدوء، من القلعة عبْر المدينة المدمَّرة قاصدين البرزخ. كان من بينهم الحاكم الذي كان سيبلغ الخامسة والستين يوم عيد الميلاد. كان غيابه عن الحامية أمرًا لا يليق، إلا أنه لم يستطِع أن يقاوم. كانت هناك بعض النيران المضادة ولكنها — ويا للغرابة — كانت قليلة. بعد طلقات رمزية قليلة، فرَّ الإسبان، الذين أربكتهم المفاجأة، أمام الغزاة. تم تدمير المرابض الإسبانية واحدًا تلو الآخر واشتعلت النيران في مخازن البارود. بحلول الساعة الخامسة، كان كلُّ شيء قد انتهى، وعادت القوة بثمانية عشر أسيرًا إلى الصخرة. نجحت العملية تمامًا. ربما كان تأثيرُ ذلك في معنويات أفراد الحامية على نفس الدرجة من الأهمية. توقَّفت أعمال السرقة والنهب وكأن ذلك تم بفعل السِّحر. كانت كل الخسائر خمسة قتلى، وخمسة وعشرين جريحًا، وقيل إن أحد سكان الجبل فقد تنُّورته.

بينما كانت جبل طارق صامدة، كانت مينوركا تقاتل من أجل البقاء. في أوائل أغسطس، كان ثمانية آلاف جندي إسباني قد نزلوا على الجزيرة. بقيادة «دوق دي كريو Duc de Crillon»، الذي كان في العَقد السابع من العمر، وكان قد التحق بالجيش الإسباني عندما دخلت إسبانيا حربَ السبع سنوات. أمام قوةٍ كتلك، لم يكن أمام رجال الحاكم موراي (٢٧٠٠ جندي)، ومعظمهم مرضى، سوى الانسحابِ إلى قلعة سان فيليب؛ حيث بعث كريو برسالةٍ إلى الحاكم يسأله فيها صراحةً عن الثَّمن الذي يريده مقابلَ استسلام فوري. رفض موراي العرض ناقمًا، وبدأ الحصار.

بالرغم من وصولِ أربعة آلاف جندي فرنسي في سبتمبر لتدعيم صفوف الإسبان، كان تقدُّم كريو محدودًا. في نهاية العام، على أية حال، ظهر الأسقربوط[3] في القلعة، وفي غضون أسابيعَ قليلة كان قد نشر الهلاك في صفوف البريطانيِّين. لم يكن هناك مكانٌ لنمو الخضراوات أو الفاكهة، لم تكن هناك موانئ صديقة قريبة يمكن أن تأتيَ منها هذه المواد بسبب الحصار الإسباني. كان الأمل الوحيد هو وصولَ حملةِ إغاثة من إنجلترا … إلا أن ذلك لم يحدُث. في غضون شهر، كان لا بد من حملِ كثيرٍ من الرجال إلى مواقعهم، وفي مناداةٍ على الأسماء لتفقُّد الغائبين يوم الأول من فبراير ١٧٨٢م، لم يرُدَّ سوى سبعمائة وستين فردًا من بين ألفين وسبعمائة، وبعد ثلاثة أيام كان هناك مائة منهم في المستشفى. في الخامس من فبراير، وبعد مقاومةٍ بطولية استمرَّت خمسة أشهر ونصف الشهر، استسلم موراي. عادت مينوركا إسبانية.[4]

لم تصل الأخبار إلى جبل طارق حتى الأول من مارس، عندما ظهر ضابط إسباني تحت علم هدنة، حاملًا تقريرًا مفصَّلًا. تم استقباله برِباطة جأش، حيث كان متوقعًا منذ وقت طويل، ولم يكن لذلك تأثير على الروح المعنوية. كان الشتاء قاسيًا جدًّا، وكانت الصخرة — كذلك — قد شهدت تفشيًا كبيرًا لمرض الأسقربوط، وبحلول العشرين من ديسمبر، كان أكثرُ من ستمائة شخص قد نُقلوا إلى المستشفى — إلا أنه في وقت باكر من فبراير، كانت ثلاث سفن قد وصلت من البرتغال محمَّلة بالبرتقال والليمون، وكان التأثير المفيد لذلك قويًّا. كان الطقس كذلك يتحسَّن تدريجيًّا. وفي وقت باكر من مارس وصلت السفينة الملكية «فيرنون Vernon» مع فرقاطتين وأربع سفنِ نقلٍ حاملةً إمدادات عسكرية، من بينها عشرة زوارق مدفعية وكتيبة جديدة كاملة. بفضل هذا الدعم، كانت الجزيرة تستطيع مواجهةَ العام القادم بثقةٍ وأمل.

ما لم يكن أفراد الحامية يدركونه هو أن العالم الخارجي كان قد تغيَّر بينما كانوا يدافعون عن صخرتهم. كانت الحرب الأهلية الأمريكية قد انتهت، وكانت أوروبا — مثل أمريكا — تريد السلام. وحدَها إسبانيا كانت هي الرافضة. كان شارل الثالث قد دخل الحرب لسبب واحد فقط: استعادة مينوركا وجبل طارق. الآن كانت مينوركا معه، أما جبل طارق فكانت تبدو بعيدةً كما كانت دائمًا، بالرغم من قربها المكاني الواضح من مملكته. في فرنسا، كان لويس السادس عشر وحكومته لا يكترثون كثيرًا بجبل طارق؛ من جانبٍ آخر، وبموجب اتفاقية «آرانجيز Aranjuez» السرية، التي لم يكونوا حذرين بما يكفي عند توقيعها في ١٧٧٩م، كان عليهم أن يواصلوا القتالَ إلى أن استعادتها إسبانيا. كانوا مستعدين، على مضضٍ كبيرٍ إذن، أن يجعلوها ترى كيف ينبغي أن يكون التصرُّف.

في الأول من أبريل ١٧٨٢م، وصل شخصٌ غامض اسمه «شيكاردو Chicardo» من البرتغال على متنِ سفينة صغيرة، برواية تقول إن الإسبان كانوا قد استولوا على ١٢ سفينة في «كاديز Cadiz» (قادش)، وإنهم كانوا يقومون بتبطينها بالفلين وخيوط الحبال القديمة لاستخدامها ضد جبل طارق. بعد عشرة أيام جاءت تأكيداتٌ أكثر: تلك السفن سيتم استخدامها كبطاريات مدفعية عائمة تحت قيادة مهندس عسكري فرنسي شهير؛ ويوم التاسع من مايو ظهرت في ميناء «ألجيسيراز Algeciras» سفنٌ شراعية ضخمة في حالة بالية، لدرجةِ أن أحد المراقبين وصفها قائلًا: «كان معظم الناس يعتقدون أنها أكثرُ ملاءمة لأن تكون خشبًا للوقود أكثرَ منها للهجوم على قلعة.» في ذلك الوقت، كان الميناء والمكلأ يمتلئان بسرعة؛ حيث كانت تصل كلَّ يوم تقريبًا سفنٌ إسبانية أخرى. تحوَّل الربيع إلى صيف حارق، ولم يكن بوسع المدافعين أن يفعلوا شيئًا أكثرَ من الانتظارِ والمراقبةِ ومحاولةِ فهْم ذلك النشاط المحموم الذي كان مستمرًّا على الخطوط الإسبانية. في السابع عشر من يونيو، تملَّكهم الرعب عندما شاهدوا وصولَ أسطول من ستين ناقلة تحرسه ثلاث فرقاطات فرنسية؛ كانت تلك أول وحدة من جيش لويس، وكانت تُقدَّر بما لا يقل عن خمسة آلاف جندي. ثم بعد خمسة أيام، ودون سابق إنذار، توقَّف القصف. بعد نحوِ عام من الرعد المتواصل، كان الصمت التام المفاجئ مثيرًا للأعصاب. لم يفهم أحدٌ مغزاه إلا فيما بعد: كان إيذانًا بخلافة الدوق دي كريو، الذي خرج مفعمًا بالنشاط من انتصاره في مينوركا إلى قيادة جيوش فرنسية مشتركة.

في الرابع عشر من يوليو، تسلَّل أحد الجنود الإسبان الفارين (ربما كان هاربًا من العدالة) عبْر الخطوط، وسلَّم نفسه لمركز الحراسة. كان لديه الكثير الذي يدلي به. كان يجري تركيب أسطح للبطاريات العائمة، التي كان هناك عشرةٌ منها الآن، لكي تكون جاهزة بنهاية أغسطس. كان الجيش الرابض أمام جبل طارق الآن مكوَّنًا من سبع وثلاثين كتيبة مشاة إسبانية، وثمانية فرنسية، وسريتي مدفعية إسبانية، وأربع فرنسية، وعدة سرايا من جنود الفرسان والخيَّالة: كان العدد الإجمالي نحو ثمانية وعشرين ألف جندي. أما الأخبار الطيبة، فكانت عن وجود تذمُّر كبير وحالات فِرار من الخدمة بشكل يومي تقريبًا. بعد عشرة أيام، في الخامس والعشرين من يوليو، وصلت سفينتان من «لجهورن Leghorn» مع «السنيور ليونتي Signor Leonetti»، أحد أبناء إخوة باسكوال باولي، برفقة ضابطين من كورسيكا وقس وثمانية وستين متطوعًا. جاء هؤلاء، كذلك، بأخبار طيبة عن انتصار الأدميرال رودني على الفرنسيين في جزر الهند الغربية في

«موقعة القديسين Battle of Saints». في ذلك المساء أمر الحاكم بإطلاق مدفعية تحية، على أن تطلق المدفعية الثقيلة نيرانها أولًا في الساعة الواحدة، ثم تليها في السادسة الوحدات المختلفة: يصحب ذلك «انطلاق صيحات بعد الانتهاء من إطلاق النار، تبدأ من اليمين وتستمر بالأسلوب نفسه الذي تم به إطلاق النار». لا بد أن يكون الفرنسيون والإسبان الذين كانوا يراقبون ما يجري من مواقعهم أسفل الصخرة، الذين كانوا كلهم ثقة من أن الصخرة ستكون في أيديهم بعد قليل، لا بد أن يكون أولئك الفرنسيون والإسبان قد أكَّدوا رأيهم القديم، وهو أن الإنجليز مجانين.

> تجري في إسبانيا استعداداتٌ كبيرة على قدمٍ وساق للهجوم على الحامية؛ حيث شاهدناهم في ألجيسيراس يعملون بكل طاقتهم لتجهيزِ ما يطلقون عليه «سفن الفلين Cork Ships». أجناب هذه السفن مبطَّنة بمكعبات من الخشب الأخضر والحديد الخردة، ليصبح سُمك الجذب نحو ثمانية أقدام. سيكون السطح مضادًّا للرصاص والقنابل، أو لعلهم يحاولون أن يجعلونا نصدِّق ذلك. هذه السفن جاهزةٌ للاصطفاف على طولِ واجهة الحامية لكي تقوم بفتح ثغراتٍ في السور، عندما يتم إنزال القوات بواسطة قوارب، يتم بناؤها في قرطاجنة لهذا الغرض. في الوقت نفسِه شاهدناهم يشحنون مدافعَ نحاسية من إشبيلية.

كان ذلك ما كتبه شخصٌ ما (يُدعى مستر آندرسون Mr Anderson) من تافيرا (على الساحل الجنوبي للبرتغال أمام الحدود مع إسبانيا) في الأول من يونيو ١٧٨٢م. كانت الهياكل الضخمة التي يصفها، من بنات أفكار مهندس فرنسي، هو الفارس أو النبيل «جان كلود إليونور دوميشو دارسو The Chevalier Jean-Claude Eléonor Le Michaud d'Arçon». يبدو أن دارسو كان قد نجح في إقناع شارل الثالث وكل الحكومة الإسبانية بأن تلك السفن (البطاريات العائمة) ستجعل الحامية بلا حولٍ ولا قوة وتضمن استسلامها السريع، وذلك لأنها غير قابلة للاحتراق وغير قابلة للغرق: incombustibles et insubmersibles. شخص واحد فحسب، كما نعرف الآن، هو الذي لم يكن مقتنعًا بذلك. لسوء الحظ، كان ذلك الشخص هو القائد المعيَّن للجيش الفرنسي – الإسباني، بطل مينوركا: الدوق دو كريو. يروي في مذكِّراته عن مقابلتين عاصفتين في مدريد في شهر مايو، مع دارسو، ثم مع وزير الخارجية الإسباني «الكوند دو فلوريدابلانكا Conde de Floridablanca». في المقابلة الثانية أوضح موقفَه تمامًا وقدَّم استقالته الفورية، ولكن

فلوريدا بلانكا رفض أن يستمع لذلك، وأقنعه بأن يستمر باعتباره غيرَ موافق رسميًّا، وعلى أن يتم الإعلان عن ذلك في حالِ فشلِ الخطة.

الحقيقة أن كريو ذهب إلى مدًى أبعد من ذلك؛ إذ كتب آنذاك وهناك، مذكِّرة أرسلها مع صديق على أن تُفتح وتُنشر لحظةَ وصول الأخبار إلى العاصمة بأن الهجوم قد بدأ:

> بمغادرتي إلى جبل طارق، أعلن أنني أقبلُ الأمر تنفيذًا لأوامر الملك ليس إلا، لقد بذلت كلَّ ما في وسعي لكي أشرح لسموه أسبابَ اعتراضي على الخطة، وها أنا ذا أعلن أنه إذا تم الاستيلاء على المكان بواسطة البطاريات العائمة حاملة المدفعية، وهو ما أشكُّ فيه كثيرًا، فإن كل المجد والفضل في ذلك سيكون للمسيو دارسو، المهندسِ الفرنسي، وهكذا إذا فشلت البطاريات، فلا ينبغي لأحد أن ينحوَ باللائمة عليَّ؛ حيث لا دخلَ لي بذلك.

ترك الدوق ما لا يقل عن عشرين نسخة من الرسالة لكي توزَّع في فرنسا وإسبانيا؛ وبكلمات مؤرِّخ معاصر للحصار،[٥] «لم يحدُث من قبل أو من بعد أن قام جنرال، يتقدَّم للهجوم، بتغطيةِ نفسه بمثل هذا الحرص، أو الكشف عن عدم أمانته ونفاقه بقبولِ أمرٍ لم يكن يثق به.»

عندما وصل كريو إلى «سان روك San Roque» — المدينةِ الإسبانية الصغيرة المواجِهة للحدود، وأقام مركزَ قيادته بالقرب منها، كانت القوة التي تحت إمرته قد زادت، لتصبح أكثرَ من اثنين وثلاثين ألف جندي؛ كما كانت، برغم الهاربين والمرضى، أضخمَ قوةٍ يتم نشرُها ضد قلعة واحدة في ذلك الوقت. كان ضَعفها الوحيد في بنية قيادتها. لم يكن كريو ودارسو يُخفيان كرههما المتبادَل. لم يكونا متفقين سوى على بغضِهما الشديد للأدميرال «دون بنفنتورا دي مورينو Don Buenventura de Morino»، الذي كان يَصغُرهما، وشديدَ الغرور بدرجةٍ لا تُحتمل. كان هو الذي قام بقيادة البحرية الإسبانية في بورت ماهون، وكان الآن يتبجَّح بأن جبل طارق سوف تسقط في يده في أربع وعشرين ساعة بما أن أسطوله كان قد اتخذ مواقعه. كما يقال إن كريو صرخ، في لحظةٍ ما، قائلًا: «أزمة ... تناقض ... نزاع ... غَيرة»[٦] وهو ما يبدو أنه كان وصفًا صائبًا.

في الوقتِ نفسه، كان المدافعون — نحو سبعة آلاف فرد بالإضافة إلى أربعمائة كانوا في المستشفى — ينتظرون: كانوا يتوقَّعون الهجومَ الكبير الذي لن يتأخَّر كثيرًا، كما ينتظرون أسطولَ الإغاثة الموعود الذي كان مجيئه قد أصبح موضعَ شك. في لندن

كانت الحكومة مستمرة في المراوغة. كانت إدارة «لورد نورث Lord North» قد سقطت في شهر مارس بعد اثني عشر عامًا كارثية، أما الحكومة الجديدة برئاسة «لورد شلبيرن Lord Shelburne»، فكانت مشلولة بسبب تردُّدها وعدم القدرة على الحسم. وكنتيجة لحثِّ الملك المتكرِّر للتصرُّف على نحوٍ فوري، كان رد شلبيرن الوحيد، الذي جاء في أوائل أغسطس:

> بالنسبة لإغاثةِ جبل طارق ... فإن ذلك يتوقَّف كثيرًا على الظروف المحلية والبحرية للخليج، إلى غيرِ ذلك من الأمور الأخرى التي لا أجرؤ على اتخاذِ قرارٍ بشأنها، وحيث إنني مدركٌ لكون رجال الحكومة ليسوا رجالَ بحرية، فإننا سنجد صعوبةً كبيرة للقيام بذلك، ويبدو لي أن الكثيرَ لا بد أن يعتمد على خبرة وقناعات الضابط القائد.

هذا التردُّد المستمر، كان الأكثرَ مدعاةً للدهشة في كون حصار جبل طارق يشغَل التصوُّر العام لأوروبا الغربية. كان «خليج ألجيسيرز Bay of Algeciras» بكامله يشكِّل مسرحًا واسعًا يمكن مراقبةُ المشهد عليه من مسافةٍ آمنة، وكان المشاهدون في ذلك الوقت يفِدون من كل أرجاء فرنسا وإسبانيا لمشاهدة الدراما القادمة. كان من بين مَن جاءوا أميران فرنسيان من سلالة ملكية، هما «الكومت دارتوا Comte d'Artois» و«الكومت دي بوربون Comte de Bourbon»، وكانا قد وصلا مؤخرًا إلى سان روك؛ وربما تكريمًا لهما، تم تحديد تاريخ الهجوم الكبير ليكون الخامس والعشرين من أغسطس الموافق ليوم القديس لويس St Louis's Day. تسرَّبت المعلومات لتنتشرَ في الصخرة بطريقة أو بأخرى، وعند الفجر كانت الحامية مستعدة ... ولكن شيئًا لم يحدُث. يبدو أن البطاريات العائمة لم تكن جاهزة بعد.

يوم الأحد، الثامن من سبتمبر قامت الحامية بالهجوم. على مدى الأشهر القليلة السابقة، كان الإسبان قد قاموا ببناء سور كبير عبْر البرزخ عبارة عن نحو مليون ونصف المليون كيس رمل وبراميل خشبية مملوءة بالرمال، وكان العمل مستمرًّا لإحضار المدافع والهاونات إلى المرابض الجديدة. لم يكن ذلك العمل قد انتهى، عندما خطرت للحاكم الجنرال «روبرت بويد Robert Boyd» فكرةُ أن يُطلِق على السور دفعاتٍ متواصلة من الطلقات المتوهِّجة والقنابل الحارقة. كانت العملية صعبةً من الناحية الفنية، ونادرًا ما كان يتم اللجوء لمثل ذلك في الحرب البرية، رغم أنها كانت معروفة في العمليات البحرية. كانت قذائف المدافع توضع نحو ثلاث ساعات كاملة على مشواةٍ هائلة لتسخينها إلى درجة

الحرارة المطلوبة، كانت عملية تحميلها بعد ذلك تمثِّل صعوبةً بالغة. من ناحيةٍ أخرى، كان تأثيرها رهيبًا، حيث كانت تُشعِل النار في الخشب بمجرد أن تلمسه محدثةً حروقًا شديدة بأي شخص يضعه حظُّه السيئ في طريقها. بدأ القصف فورًا بعد منتصف الليل، واستمرَّ الوابل دون توقُّف نحو تسع ساعات. تم إطلاق نحو خمسة آلاف وخمسمائة دفعة، بمعدَّل عشر دفعات في الدقيقة. كانت النار تسري في الخطوط الإسبانية مثل فتيلٍ يفجِّر كميةً من البارود. لم تكن استجابة الإسبان الذين أُخِذوا على حينِ غِرة سريعةً، ولم يكونوا مدركين في البداية لشدة سخونة القذائف، وعندما أفاقوا من هولِ المفاجأة كانوا يقاتلون مثل النمور. كانوا ينزعون الأخشابَ المشتعلة بأيديهم العارية بينما القذائف تنهمر كالمطر من حولهم. لم يكن الجنرال بويد، الذي كان يراقب المشهدَ من البطارية الكبيرة، ليستطيع أن يخفيَ إعجابه. كتب يقول: «لم أشهد في حياتي أشجعَ من أولئك الرجال.»

إلا أن الشجاعة الشخصية لم تستطِع أن تحجُب الكارثة … ولا العار؛ ولكي يحفظ ماء الوجه قدْر استطاعته، أمر كريو بردٍّ فوري من نفس النوع: قصف متواصل من خمس بطاريات جديدة يبدأ عند الفجر التالي. وبالرغم من إطلاق دفعات كثيرة وكثيفة من النيران في اليوم التاسع مثلما حدث في اليوم الثامن — نحو ٥٤٠٣ دفعات — فإن القذائف كانت باردة، كما أن صخرة جبل طارق كانت شيئًا مختلفًا تمام الاختلاف عن البرزخ الرملي المنخفض. استمر القصف طوال اليوم التالي، سواء من البطاريات الشاطئية أو من سفن الأدميرال مورينو، إلا أن الضرر لم يكن كبيرًا.

بعد ذلك، في الثامنة من صباح اليوم الثاني عشر، أبلغت نقاط المراقبة عن رؤية أشرعة أسطولٍ قادم من جهة الغرب وارتفعت المعنويات: هل جاءت الإغاثة من إنجلترا في اللحظة الحرجة؟ لم يحدُث. كانت أشرعة قوة حربية فرنسية إسبانية ضخمة، مكوَّنة من سبع وأربعين سفينة ترفع أعلامَ ما لا يقل عن عشرة أدميرالات. مع وصولها، وجد المدافعون عن الصخرة أنفسهم في مواجهةِ جيشٍ قوامه نحو أربعين ألف جندي ومائتي قطعة من المدفعية الثقيلة. حتى أسطول الإغاثة لن تكون له فائدة … وإن وصل، لأنه لن يتمكَّن من دخول الميناء. كان شعور معظم المدافعين الآن أقربَ إلى اليأس.

لا بد أنهم كانوا سيصبحون أكثرَ ارتياحًا لو كان لديهم أدنى فكرة عن التشاحن والارتباك المتزايد في معسكر العدو. كان كريو يحثُّ على القيام بهجوم فوري؛ كان شرفه على المحك؛ الخريف يقترب والتأجيل استمر طويلًا. كان دارسو يتحجَّج بأن بطارياته

العائمة لم تكن جاهزة بعد. لم تكن قد وُضعت أيُّ علامات، لإرشادها إلى مواقعها، لم يكن قد تم أيُّ سبْر للأغوار أو رصد عن المياه الضحلة المحتملة أو الشواطئ الرملية، لم يكن قد تم تثبيتُ أي مراسٍ، تُمكِّن من تحويل خط سير السفن عند الضرورة. واجدًا نفسه محصورًا بين الرجلين، كان مورينو يشعر بالإحباط وبالتجاهل والإهمال. إلا أن كريو هو الذي فاز. قبل السابعة بقليل من صباح الثالث عشر من سبتمبر، تحرَّكت الثلاث الأولى من البطاريات العشرة العائمة من مواقعها المخصَّصة لها بطول الشاطئ الغربي، رفع مورينو علمَه على «الباستورا Pastora» ذات الأربعة والعشرين مدفعًا. دارسو، الغاضب لأنه كان يعرف أنها كانت كلُّها متجهةً نحو شاطئ رملي، كان مضطرًّا لأن يستقل «تاللا بيدرا Talla Piedra»، الثانية من حيث الحجم وذات الثلاثة والعشرين مدفعًا، والتي كان يقودها «دون جوان مندوزا Don Juan Mendoza» أمير «ناسو Nassau». القادة السبعة الآخرون سوف يتبعونهما فيما بعد، سواء أكانت سفنهم جاهزة أو لا. بعد ثلاث ساعات كانت السفن العشر قد اصطفت، ومدافعها الجانبية تنطلق في وقت واحد من على بُعد نحو ثلاثمائة ياردة من الشاطئ، لتغطي بنيرانها مسافةَ المائة ياردة بين حاجز الأمواج القديم في الشمال والحصن الجنوبي، وبدأت المعركة.

في وقتٍ متأخِّر من تلك الليلة، كتب «صمويل آنسل Samuel Ancell» (أحد ضباط الإمداد والتموين) إلى أخيه:

> أجلس وأنا في غاية التعب والإرهاق لكي أبلغك بأن المعركة معركتنا، وأننا أضرمنا النار بسفن الأعداء، عندما جاءت اليوم في التاسعة صباحًا كانت تتقدَّم متتابعةً إلى مواقعها، ثم بدأت في إطلاق النار بقوةٍ أثناء رسوِّها، وفي الوقت نفسه كنا نحن كذلك نطلق النارَ عليها، إلا أننا، مندهشين، كنا نراها ترتد من أجناب السفن وأسطحها. حتى تلك القذائف من عيار العشر بوصات كانت عاجزةً عن اختراقها. بالرغم من ذلك لم تفتُر عزيمتنا، وبرغم سقوط قتلى كثيرين من جانبنا، كنا نقوم بإشعال أفراننا بسرعةٍ لنضع فيها عبوات من ذات الاثنين والعشرين رطلًا لتحميصها. لو تيسَّر لك النظرُ إلى الصخرة ورأيت مَن يعملون معنا لما استطعت أن تمنع نفسك من الابتسام، كان البعض يعمل مثل الأحباش لتشغيل المدافع، لونهم أسود، يحكون وجوههم بأيديهم الملوَّثة بالبارود — كان أبناء إله النار ينفخون ويعرقون، بينما يقوم آخرون بنقل القذائف الملتهبة على أداة حديدية صُنعت خصيصًى لهذا الغرض، ولَّما لم يوفِّر

ذلك إمدادًا كافيًا للبطاريات، أحضرنا عربات صغيرة ذات عجلات مليئة بالرمل، كنا نضع في كلٍّ منها ستَّ قذائف. كنا نرد على النار بالنار دون توقُّف، وهم كذلك، ولكن الإطلاق المتواصل لقذائفنا الملتهبة كان قويًّا ليقضيَ على كلِّ ما كان العدو قد احترس ضده عند بناء تلك البطاريات العائمة؛ حيث إن القذائف التي كانت ترتطم بالأجناب نجحت مع الوقت في أن تجعل النار تمسك بها. رأينا ذلك يتكرَّر طوال اليوم، رغم أن العدو كان يحاول باستمرار أن يتفادى ذلك، وفي النهاية كانوا عاجزين عن تشغيل مدافعهم. عند آخرِ ضوء، لاحظنا أن واحدةً من أكبر البطاريات كانت مشتعلة في عدة أماكن ... ثم أخرى مثلها. أعطى ذلك قواتنا المزيدَ من الشجاعة وضاعفوا النيران على السفن الثماني الأخرى.

١٤ سبتمبر. الواحدة صباحًا.

توقَّفت البطاريات العائمة عن إطلاق النار، دمَّرت النيران إحداها ... أطلق العاملون عليها الصواريخ طلبًا للنجدة ...

وصل الآن تقريرٌ يفيد أن الأمواج قد حملت إلى الشاطئ ضابطًا وأحد عشر جنديًّا متعلقين بقطعة من الخشب، كانت جزءًا من قلعة عائمة غرقت نتيجةَ قذائف الحامية، كانت متجهةً لمساعدة البطاريات.

ماذا حدث؟ أولًا، وكما رأينا، لم يكن هناك قيادةٌ حازمة. كان هناك ثلاثة أشخاص يتنازعون، يأنف كلٌّ منهم أن يعمل تحت إمرة سواه. ثانيًا، وذلك نتيجة للسبب الأول، كان الأسطول المشترك قد تخلى عن البطاريات العائمة. لم يكن المفروض أن تعمل منفردة، كانت الخطة الأصلية تقضي بأن يتخذ ثلاثون قارب هاون مواقعَهم بينها وعلى أجنابها، وتقوم بإطلاق نيران متواصلة ضد بطاريات الشواطئ. لو أنها فعلت ذلك، فلربما كان مسار المعركة كلِّها قد تغيَّر. لم يكن هناك أثرٌ لتلك القوارب. لأسباب تخصُّه، رفض الأدميرال «دون لويس دو كوردوبا Don Luis de Cordoba» أن يتحرَّك. ثالثًا، كان شيفالييه دارسو قد بالغ كثيرًا في تقدير قوةِ اختراعه. ربما كانت تلك السفن (البطاريات) غيرَ قابلة للغرق، إلا أنها لم تكن غيرَ قابلة للاحتراق. كانت سماكة دفاعاتها تعني أن قذيفة مدفع متوهِّجة يمكن أن تخترق السطح لتستقر وتبقى غير مكتشفة دون خروج لهبٍ منها، وفي النهاية تشعل الخشب حولها.

ما الذي كان ينبغي عمله آنذاك إذن؟ بالنسبة للإسبان كان اليوم بمثابة كارثة، وفي المساء كان هناك ذعرٌ في مركز قيادة كريو. كان القلق الأول بخصوص البطاريات العائمة،

التي كان ما زال هناك نحو خمسة آلاف مقاتل على متنها. في اثنتين منها — بما في ذلك تاللا بيدرا الأسوأ إصابة — كانت هناك نيران حرائق كبيرة، إلا أن البارود كان قد أصبح رطبًا وكان انفجارها مستبعدًا. في الوقت نفسه، كانت أشرعتها وعُدة صواريها قد طارت بفعل القصف وأصبحت عاجزةً عن الحركة. كان يمكن إنقاذها لو قطروها إلى مكانٍ آمن، ولكن كيف؟ وهل كان كريو يريد ذلك على أية حال؟ كان يكره تلك الاختراعات دائمًا، وطوال بقائها دون غرق ودون احتراق، كان دارسو يجدها فرصةً لادعاء قدْر من النجاح ينسبه لنفسه. كان هناك كذلك احتمالُ أن يستوليَ عليها البريطانيون كغنيمة. كان من الأفضل تدميرها — ولكن بعد إخلائها أولًا. في العاشرة والنصف تقريبًا من تلك الليلة، انطلق الجنرال ومعه أمير ناسو (وكان الأخير قد ترك تيللا بيدرا فورًا بعد اشتعالها) ليطلب من كوردوبا أن يرسل فرقاطة لنقل الأطقم. ولكن الجنرال العجوز رفض تمامًا؛ فهو لن يعرِّض سفنه لنيران العدو من أجل هدف كذلك. زوارقه الصغيرة فحسب، هي التي ستكون جاهزة للقيام بهذا العمل.

وصلت الزوارقُ الأولى إلى الهياكل العشرة الضخمة في منتصف الليل تقريبًا، حاملةً أوامرَ لكلٍّ من قادةِ البطاريات العشر بإحراقِ سفينته قبل تركها. كانت هناك فوضى عارمة. كان الرجال المرهقون الذين صمدوا وقاتلوا بشجاعةٍ تحت القصف الشديد لمدة ١٢ ساعة، يحاولون الهربَ الآن وهم في حالةٍ من الرعب الشديد. بعضُ الزوارق كانت تحمل أعدادًا أكثرَ من طاقتها فغرِقت، زوارق أخرى دمَّرتها بطاريات الشواطئ قبل أن تبدأ عملها، ثم سرعان ما اتضح أن ما بقي من الزوارق كان في حالةٍ يُرثى لها ولا بد من أن يقوم بأكثرَ من رحلة إلى الشاطئ، إلا أن القادة كانوا قد نفَّذوا الأوامر، وكانت البطاريات العشرة تشتعل بالفعل. كان على متن كلٍّ منها بعضُ مَن لم يستطيعوا المغادرة، ولم يكن أمامهم سوى أن يقفزوا منها … كان الغرق أفضلَ من الاحتراق.

عند فجر السبت، الرابع عشر من سبتمبر، كان السيد آنسل Mr. Ancell يكمِل رسالته:

> يبدو الخليج من هنا مشهدًا للرعب … قطعةً من الجحيم … العدو يتفجَّع على وضعه المهلِك بينما زوارقنا الحربية مشغولة بمحاولة إنقاذ الضحايا التعساء من النار والموت المحدِق بهم، وذلك برغم استمرار بطاريات العدوِّ الأرضية في إطلاقِ مدفعيتها على ملَّاحينا لمنعِ تقديم المساعدة. وبالرغم من الأخطار الشديدة

فإن زوارقنا كانت تقترب من أجناب البطاريات العائمة لإنقاذ مَن عليها وسط اللهب المندفع من الفتحات الجانبية. سيظل ازدراء الملاحين البريطانيِّين لنيران العدو الكثيفة شرفًا لإنجلترا العجوز.

الساعة السابعة:

سفن العدو تنفجر واحدة تلو الأخرى وهي نصف ممتلئة بالرجال تقريبًا، زوارقنا صمدَت أطولَ فترة ممكنة، وهي الآن عائدة بعدد من الأسرى.

الساعة العاشرة:

لم تنفجر البطارياتُ العائمة كلُّها — احترقت إحداها حتى مستوى سطح البحر، وكان الطاقم قد ألقى بالبارود من عليها. تُواصِل بطاريات العدو الأرضية قصفَ الحامية بينما تبدو الفوضى ومظاهرُ الارتباك على الشاطئ المقابل. النبلاء الذين كانوا قد تجمعوا لمشاهدة الاستيلاء على المكان، ينسحبون الآن من المعسكر الإسباني لنقلِ الأخبار المشئومة إلى بلاط فيليب ... لا بد أن يكون من دواعي الغيظ الشديد لأعدائنا أن يروا علمَهم الملكي وهو معروضٌ على سفينتنا South Parade مربوطًا في مدفعٍ في وضعٍ معكوس ...

فشل الهجوم الكبير، ولكن الصخرة كانت ما تزال في خطر. كان الأسطول المشترك في الخليج وجيوش فرنسا وإسبانيا ما تزال في معسكراتها في البرزخ؛ حيث استُؤنف القصف ... وكأن شيئًا لم يكن. كان هناك الآن درجةٌ من الأخذ والرد بين الجانبين تحت رايات الهدنة، وفي السادس من أكتوبر كان هناك تبادلٌ للأسرى؛ وكان عن طريق أحد أولئك الأسرى أن عرف المدافعون أن أسطول الإغاثة بقيادة الأدميرال «لورد هاو Admiral Lord Howe» كان في الطريق أخيرًا.

لقي هاو صعوبةً شديدة في أن يصل بسفنه إلى جبل طارق. كانت العواصف الاستوائية، على أشدِّها، تدفع الأسطولَ بقوة في البحر الأبيض والعدو يطارده، إلا أنه أمكن تجنُّب الدخولِ في معركة، وأخيرًا وصلت كلُّ السفن البريطانية سالمةً إلى الميناء. من تلك اللحظة، بدأت القوات الفرنسية والإسبانية تختفي تدريجيًّا. استمرَّ إطلاق النار المتقطِّع ولكن دون حماسة. جبل طارق، كما كان الكل يعلم، لن يتم الاستيلاءُ عليها بالقوة، ولو حدث أن تم التخلي عنها لإسبانيا فلا بد من أن يكون ذلك بناءً على اتفاق ودي ... وليس عَنوة.

بدأت المفاوضاتُ التمهيدية في العشرين من أكتوبر. كانت طويلة وشديدة التعقيد واستمرَّت حتى عيد الميلاد تقريبًا. في المراحل الأولى بدَت بريطانيا مستعدةً للتخلي عن جبل طارق — ولكن بالثَّمن المناسب: كان من الطبيعي أن تتوقَّع عودة مينوركا وجزيرتي فلوريدا[7] وعدد كبير آخر من جزر الكاريبي كذلك. عند افتتاح البرلمان في الخامس من ديسمبر، عرَّج تشارلز جيمس فوكس Charles James Fox على الموضوع في سياق ردِّه على كلمةِ الملك حيث أعلن: «كانت جبل طارق دائمًا مفيدةً لهذا البلد لإلهاء جزءٍ كبيرٍ من قوات أعدائنا، الذي كان يمكن أن يزعجنا كثيرًا لو أنه استخدم في أماكنَ أخرى»، ويستمر التقرير البرلماني:

> إن قلعة جبل طارق كان لا بد من أن تُعتبر من أهم ممتلكات هذا البلد؛ فهي التي حقَّقت لنا الاحترام في نظر الدول ... تخلوا عن جبل طارق لإسبانيا، وسيصبح البحر الأبيض بالنسبة لهم بحيرةً يبحرون فيها كما يشاءون ويتصرفون فيها دون رقيب أو حسيب. احرموا أنفسكم من هذا الموقع، ولن تنظر إليكم دولُ أوروبا المطلة على المتوسط بعد ذلك للحفاظ على حرية الملاحة فيه، إذا فقدتم القدرةَ على الإفادة منها، فلا تتوقعوا أن يكون لكم حليف.

صفَّقوا له بحماسة. وبفضل كلماته، كان أن قرَّرت الحكومة التمسُّك بالصخرة بأي ثَمن. وبدلًا منها، عُرِضَت مينوركا وشرق وغرب فلوريدا على الإسبان وهو ما قبِلوه بعد تردُّد. إلا أن الملك جورج الثالث كان ما زال غير راضٍ. في نهاية المحادثات في التاسع عشر من ديسمبر، كتب إلى «لورد جرانتام Lord Grantham» وزير الخارجية: «كنتُ أفضِّل مينوركا وجزر فلوريدا وجودلوب Gaudeloupe على تلك القلعةِ الضخمة، التي أراها سببًا لقيامِ حربٍ أخرى، أو على الأقل عداء محتملًا باستمرار.» كانت كلمات حكيمة؛ إذ إن عددًا قليلًا من الجزر الخصبة كان يمكن أن يكون أكثرَ فائدة من أكبرِ صخرةٍ جرداء. ولكن ... لم يكن البرلمان وحدَه هو الذي ظل عنيدًا في موقفه، فليس من شكٍّ أن يكون الشعب البريطاني كذلك كان له نفس الموقف. كانوا قد فقدوا مستعمراتهم الأمريكية، ولم يكن لديهم أيُّ نية للتخلي عن موضعِ القدم الوحيد لهم في أوروبا؛ إذ إنه ليس رمزًا لتفوُّقهم البحري في المتوسط فحسب، وإنما كان رمزًا — في السنوات الأربع السابقة — لقوة التحمُّل والجَلَد والشجاعة.

هوامش

(١) كان على إحدى هذه السفن (السفينة Prince George) طالبُ البحرية «برايس وليم هنري Price William Henry»، الابن الثاني لـ «جورج الثالث» الذي سيكون الملك وليم الرابع فيما بعد.

(٢) الحرَّاقة Fire-ship: سفينة مزوَّدة بالمتفجرات تعمل وسط السفن المعادية لإضرام النار بها.

(٣) الأسقربوط (أو الحفر) Scurvy، داءٌ من أعراضه تورُّم في اللثة مصحوب بنزيف. (المترجِم)

(٤) هناك في سان بطرسبورج كانت كاترينا Catherine العظمى - عملًا بنصيحة مستشارها وحبيبها الأمير بوتمكين Potemkin — يقال إنها اقترحت على جورج الثالث التنازلَ عن مينوركا لروسيا، مقابل خروج أسطول روسي لمساعدته على الفور: وهذا مجرَّد مثال — بين أمثلة كثيرة في التاريخ — على سعي موسكو لكي يكون لها وجود في البحر المتوسط.

(٥) Jack Russell, Gibraltar Besieged الذي اعتمدنا عليه في هذه القصة.

(٦) "Crise, contradiction, fâcherie et jalousie".

(٧) فلوريدا الشرقية وفلوريدا الغربية، وهما ممتدتان إلى ما وراء حدود الولاية الحالية، وتضمَّان كذلك أجزاءً من ألاباما والمسيسبي ولويزيانا.

الفصل الحادي والعشرون

نابوليون الصغير

- الثورة تنتشر: ١٧٩٢م.
- طولون: ١٧٩٣م.
- الحملة الإيطالية: ١٧٩٦م.
- جنوت في فينيسيا: ١٧٩٧م.
- السلام في ليوبن: ١٧٩٧م.
- سقوط الـ «سيرينيسيما»: ١٧٩٧م.
- نابوليون في مالطة: ١٧٩٨م.
- الإسكندرية: ١٧٩٨م.
- الفرنسيون في مصر: ١٧٩٨م.
- مارينجو: ١٨٠٠م.

* * *

نابوليون بونابارت[١] كورسيكيُّ المولد، وبذلك فهو من أبناءِ البحر الأبيض المتوسط. عندما وُلد في ١٧٦٩م كانت كورسيكا قد أصبحت فرنسية قبل أشهر قليلة؛ وبصرف النظر عن لكنةٍ محليةٍ مميزة، كانت قد بقيت إيطاليةَ اللغة والثقافة تمامًا. كان أبوه «كارلو ماريا Carlo Maria» أحدَ ضباط باسكوال باولي المخلصين، ونشأ الطفل كورسيكيًّا وطنيًّا متحمسًا، يكره الفرنسيين باعتبارهم مغتصبين لبلاده. بالمقاييس الكورسيكية، كانت الأسرة غنيةً وعلى مستوًى راقٍ من التعليم: كان لدى والده ميولٌ أدبية قوية رغم أن ذلك لم يمنعه من اللجوء إلى التلال مع باولي للمشاركة في حربِ عصاباتٍ طويلةٍ ضد الفرنسيين، وكان بعد انتصارهم النهائي فقط، أن قبِل بما هو حتمي. لم يكن

«آل بونابارت The Bonapartes» من النبلاء — كانت طبقة النبلاء الكورسيكية شيئًا مختلِفًا — ولكنهم كانوا مُلاك أراضٍ، لديهم ضِياعٌ زراعية متناثرة، واستطاع كارلو ماريا — على نحوٍ ما — أن يتمكَّن من تأهيلِ ابنه وهو في التاسعة، لتعليمٍ ابتدائي مجاني في مدرسة عسكرية في «برين Brienne»، كانت تُدار بأسلوب الأديرة.

كان نابوليون محتقَرًا من أقرانه الذين كانوا يعتبرونه من أصولٍ كورسيكية متواضعة، وبسببِ لكنتِه الفرنسية الثقيلة؛ ولذا لم يكن غريبًا أن يصبحَ نكِدَ الطبع منطويًا على نفسه، وأن تنتابه أحيانًا نوباتٌ من العنف. إلا أنه كان طالبًا متفوقًا يعمل بجِد، كما حقَّق له نبوغه في الرياضيات مكانًا في «المدرسة العسكرية Ecole Militaire» الوطنية[2] في باريس، في أكتوبر ١٧٨٤م. حتى هنا، لم يكن يخفي وطنيته الكورسيكية، كان يضرب بقبضته أو بأي سلاح يقع في يده كلَّ مَن يسخر منه، إلا أنه كان يعمل بجِد أكثرَ من أي وقتٍ مضى. في سبتمبر ١٧٨٥م، تخرَّج ضابطًا وكان ما زال في السادسة عشرة. أُرسِل أولًا إلى مدرسة تدريب المدفعية في «فالينس Valence»، ثم إلى «أوكسون Auxonue» في «بورجندي Burgundy» في ١٧٨٨م؛ وكان هنا أن سمِع الأخبار التي كانت لتغيِّر حياته. في الرابع عشر من يوليو ١٧٨٩م كان الباستيل قد سقط، وكانت فرنسا في حالة ثورة. بعد شهرٍ، أعلنت كتيبتُه العِصيان.

ولأنه كان بطبيعته كارهًا لـ «النظام القديم ancien regime»، ألقى نابوليون بنفسه في خِضم القضية الثورية. فكَّر في أن يذهبَ إلى باريس مباشرةً، إلا أنه على ضوءِ الفوضى العارمة في العاصمة، فضَّل العودةَ مؤقتًا إلى وطنه؛ حيث كان واثقًا من قدرته على تشكيل الأحداث. كان أبوه قد مات في ١٧٨٤م وهو في الثامنة والثلاثين فحسب؛ وبعد أن عاد إلى كورسيكا، وبالرغم من وجود شقيقه الأكبر «جوزيف Joseph»، جعل نابوليون من نفسه ربَّ العائلة، مواصلًا اهتمامَه بالأسلوب الكورسيكي بكلِّ ما يستطيع من سُبل. في وقتٍ قصير، كان نفوذه قد تجاوز حدودَ العائلة. كان أول مَن صاغ ووقَّع رسالة لـ «الجمعية الوطنية National Assembly» في باريس يطلب اتخاذَ إجراءات ضد «الملكيِّين Royalists»[3] الذين كانوا ما زالوا مسئولين عن الجزيرة، وهي رسالةٌ يبدو أنها كانت — إلى حدٍّ كبير — سببًا في قرار الجمعية الذي صدر بعد وقت قصير، يعلن كورسيكا جزءًا من الدولة الفرنسية. بقي هناك طوال العام ١٧٩٠م في الوقت الذي تم فيه انتخابُ البلديات التي سادها الجمهوريون في «أجاشيو Ajaccio» وغيرها من المدن الرئيسية؛ وعندما تأسَّس «نادي أجاشيو اليعقوبي Ajaccio Jacobian Club»[4] في يناير ١٧٩١م،

كان أحد الأعضاء المؤسِّسين. في شهر أكتوبر، وبعد انتخاباتٍ غير نزيهة، أصبح قائدًا لميليشيا محلية مكوَّنة من متطوعين. من أسف أنه اختلف هو وعائلته مع باولي العائد، الذي بينما كان يناضل من أجل استقلال كورسيكا، كان هو حاكم الأمر الواقع للجزيرة تحت الفرنسيين، ولم يكن ليستطيع الصبرَ الآن على المغامرين الثوريين الذين كان يعتبر آل بونابارت منهم.

كان باولي محقًّا في موقفه من نابوليون، ووصلت الأمورُ إلى ذُروتها عندما اقترح الضابط الشاب المغرور أن تَحلَّ كتيبة الميليشيا التي يقودها محلَّ الحامية الفرنسية في قلعة أجاشيو. رفض باولي الفكرةَ غاضبًا بشدة، بينما قام نابوليون — بمبادرة شخصية — بالهجوم على القلعة. استمرَّ القتال ثلاثة أيام ومات فيه عددٌ كبير، ثم جاءت تعزيزاتٌ فرنسية فاضطُر القائمون بالحصار إلى الانسحاب. أرسل باولي تقريرًا إلى وزارة الحربية في باريس يفيد أن نابوليون كان قد تجاوز إجازته المحدَّدة، وأنه إذا كان يريد الاستمرارَ في عمله العسكري، فلا بد أن يعودَ لتفسيرِ ما حدَث. في آخر مايو ١٧٩٢م عاد إلى باريس.

كان استقباله في الوزارة أكثرَ دفئًا مما كان يتوقَّع. كانت السلطات أكثرَ ميلًا إلى قبول الوثائق المزيفة المختلِفة التي جاء بها من كورسيكا لتفسيرِ غيابه الطويل، ولم يكن أمامهم سوى خيارٍ واحد: فرنسا في حالة حرب، وهي في حاجة إلى كل فرد. منذ قيام الثورة، كان عدد كبير من الضباط الملكيِّين قد تركوا الجيشَ مستائين، وكانت قوةُ الجيش الآخذة في الضَّعف — وبخاصة في وحدات الخيَّالة والمدفعية — مدعاةً لقلق كبير. من الستة والخمسين ضابطًا (بمستوى نابوليون) لم يكن قد بقي سوى ستة ضباط.

كان كذلك يُعتبر في حكم المفقود، ولكن إذا كان هذا الابن الضال قد عاد، فلم يكن لدى السلطات النيةُ أن تفقده مرةً أخرى. تناسَوا حدَث قلعة أجاشيو، وأعادوه للعمل، وتمَّت ترقيته إلى رتبة «كابتن Captain».

قام بزيارة لـ «كورسيكا» مرةً أخرى — لا يوجد أيُّ تفسير لحصوله على تلك الكمية من الإجازات التي كانت تتجاوز الأشهر — ولكنها هذه المرة كانت بزعم مرافقة أخته «ماريانا Marianna»، التي كانت عائدةً من مدرسةِ الراهبات الملكية في «سان كير Saint-Cyr»، وكانت مجبرةً على الإغلاق بسبب الظروف — أبحر من مرسيليا في العاشر من أكتوبر. لم يكن هناك ترحيبٌ من باولي … وكان ذلك متوقَّعًا؛ إلا أن نابوليون تجاهله تمامًا وعيَّن نفسه برتبة مقدِّم في كتيبة المتطوعين، وهي الرتبة التي كان عليه أن يتخلى عنها عند عودته إلى الجيش في باريس. بعد ذلك، انغمس بكل قوة في حملةٍ لانتخابات أخيه جوزيف نائبًا عن كورسيكا في الجمعية الوطنية.

ولكنه كان يدرك أن كورسيكا كانت تتحوَّل باطرادٍ إلى منطقةٍ خلفية معزولة. لم تَعُد الثورة فرنسيةً محضة: كانت قد بدأت تصبح شأنًا أوروبيًّا. في أبريل ١٧٩٢م، وبالرغم من الحالة المزرية للأوضاع المالية وتدهور أحوال القوات المسلَّحة والفوضى السائدة في أرجاء البلاد، أعلنت فرنسا الحربَ على النمسا، وبعد شهرين على بروسيا وسردينيا. كان أحدُ أسباب هذه الأعمال العدوانية — ويا للتناقض — اقتصاديًّا: كانت الوسيلة الوحيدة لكي تدبِّر الجيوش الفرنسية احتياجاتها من الطعام وغيره، هي الحصول على ذلك من البلاد التي تقوم بغزوها؛ وحتمًا كانت المثالية الثورية تلعب دورَها بالرغم من ذلك: فكرة أن كل شعوب أوروبا سوف تثور على حكامِها في ظل صدمة الحرب، وأن روحَ الثورة سوف تنتشر في العالم. لحسن الحظ لم يحدُث ذلك، ولكنَّ النجاح الأولي للجيوش الفرنسية فاق — بكل تأكيد — كلَّ ما كان يمكن توقُّعه. في سبتمبر تم صدُّ جيشٍ نمساوي بروسي غازٍ في «فالمي Valmy»، في أكتوبر اجتاح جيشٌ فرنسي «أراضي الراين Rhinel Land»، وبعد شهر أَلحق جيشٌ آخرُ الهزيمةَ بالنمساويين في «جيمابز Jemappes» واحتلَّ بروكسل وجزءًا من هولندا، بينما قام جيشٌ رابع بضم سافوي. في فبراير ١٧٩٣م أعلنت الجمعية الوطنية الحربَ على إنجلترا ... وبعد شهر على إسبانيا. في الوقت نفسِه تم إعدامُ الملك لويس السادس عشر على المقصلة في ساحة الكونكورد، أمام حشدٍ يهتف ويهلل، في الحادي والعشرين من يناير.

وسط كلِّ هذه الدراما العالمية المثيرة، كان أول دور لـ «نابوليون بونابارت» تافهًا لدرجةٍ مضحكة. كان باسكوال باولي قد تلقَّى تعليماتٍ من باريس بدعمِ غزو سردينيا، ولكنه كان يكره أن يقومَ بشيء من هذا القبيل. كانت سردينيا جارةً لكورسيكا وحليفًا طبيعيًّا، وكان مِلكها صديقًا دائمًا لأبناء كورسيكا وقضيَّتهم، كما كان سخيًّا معهم في الماضي ويقدِّم لهم المؤنَ والمواد التموينية. إلا أن الأوامر كانت هي الأوامر؛ فأعطى موافقته على مضضٍ لقيام كتيبة ميليشيا أجاشيو بحملةٍ للاستيلاء على جزيرة «لا مادلينا La Maddelena» الصغيرةِ المواجهة لكورسيكا من ناحية ساحل سردينيا الشمالي، وحمايتها، كما أسرَّ لابن أخيه قائدِ الحملة الكولونيل «كولونا سيزاري Colonna Cesari» بأنه سيكون من الجيد أن تكون العملية كلُّها شكلية ولا تسفر عن شيء.

فهِم الكولونيل الإشارة. أبحرت الكتيبة — التي كانت سيئةَ التجهيز — في العشرين من فبراير، وفي الرابع والعشرين كانت قد اتخذت مواقعها للاستيلاء على الجزيرة. كان

الكابتن بونابارت أحدَ ضباط تلك الكتيبة. كان منذ بداياته يتمتَّع باحترافيةٍ عالية — وكانت صفة نادرة بين أقرانه — وكان كلُّه ثقة من أن لا مادلينا ستكون في أيديهم في غضون ساعات قليلة؛ إلا أن سيزاري فسَّر تذمُّر عدد قليل من البحَّارة على أنه بداية تمرُّد، وأمر بعودة الحملة فورًا إلى كورسيكا. اعترض نابوليون بشدة، ولكنه فشِل في أن يفرض رأيه. وفي امتهانٍ أخيرٍ له، أُجبِر على تعطيل اثنين من مدافعه مؤقتًا بوضع مسمارين كبيرين في فوَّهتيهما وإعادتهما بالبحر؛ ثم وجَّه رسالةَ احتجاج غاضبة إلى باولي، وأرسل نسخًا منها إلى وزير الحربية في باريس وإلى النائبِين الكورسيكيِّين. في ذلك الوقت نفسِه تقريبًا، كان باولي هدفًا لهجومٍ آخرَ، هذه المرة من «لوسيان بونابارت Lucien Bonaparte» شقيقِ نابوليون، وذلك في كلمةٍ ألقاها في النادي اليعقوبي في طولون. أعلن لوسيان أن باولي كان خائنًا لفرنسا، وأن هدفه الوحيد كان تسليم كورسيكا للبريطانيِّين. تركت كلماته تأثيرًا كبيرًا في الجمعية الوطنية في باريس، الأمرُ الذي أدَّى إلى صدورِ أمرٍ بالقبض على الجنرال فورًا وإرسال ثلاثة مفوَّضين للتحقيق في الاتهامات المنسوبة إليه.

وجد المفوَّضون أن الجزيرة كانت معاديةً بشكل صحيح. كان باولي إلى حدٍّ ما هو كورسيكا، وكان شعبه مستعدًّا للقتال من أجله ضد البونابارتيِّين وضد الجمعية ... وضد أي أحد. وما زاد الطين بِلة أن لوسيان، بكل غباء، أرسل إلى أخيه رسالةً كان من ضِمن ما فيها: «لا بد من إلقاء القبض على باولي وبوزو Pozzo.[٥] إن مصيرنا يتقرَّر.» كانت شرطة باولي قد اكتشفت هذه الرسالةَ قبل وصول المفوَّضين، ونتيجةً لذلك كان آل بونابارت قد أُدينو بـ «اللعن والخزي الدائم»، وهي تهمةٌ تعادِل حُكم الإعدام بحسب ميثاق الشرف الكورسيكي. كان البقاء على الجزيرة يعني المخاطرةَ بأن يكون عُرضة للقتل، هذا بالإضافة إلى أن باولي كان قد بدأ عِصيانًا مسلحًا ضد الفرنسيِّين، وكانت الجزيرة على شفا حربٍ أهلية. للحظة، طرأ على ذهن نابوليون القيامُ بتمرُّد جمهوري مضادٍّ لصالحه بهدف الاستيلاء على أجاشيو، وقلب الطاولة على أعدائه، إلا أن الوقت كان قد فات. كان من الواضح أنه لم يَعُد له مستقبل في كورسيكا. بحلول منتصف يونيو، كان هو وكل عائلته في الطريق إلى فرنسا.

التحق بعد عودته بالجيش مرةً أخرى، وعندما وجد نفسه في نيس في مطلع سبتمبر اتصل بصديقه القديم، رفيقه الكورسيكي «جان كريستوف ساليسيتي Jean Christophe Saliceti». كان ساليسيتي أحدَ اثنين هما «ممثِّلا الشعب» مع جيش الثورة في إيطاليا؛ في ذلك الوقت كان يحاصر طولون التي كانت القوات البريطانية والإسبانية قد

احتلَّتها قبل نحو أسبوعين. تصادف ذلك مع كون قائد المدفعية كان قد أُصيب بجراحٍ شديدة قبل بضعة أيام، وكان من الضروري إيجادُ بديل له، ووجد ساليسيتي في الكابتن بونابارت الرجلَ المناسب. لم يكن بونابارت يتمنَّى ما هو أفضلُ من ذلك. تدريجيًّا، كانت وطنيته الكورسيكية قد بدأت تدخل عالَم النسيان. من الآن فصاعدًا، سيصبح فرنسيًّا ... فرنسيًّا بالفعل كما لم يحدُث من قبل.

كانت حالة الجيش التي وجده عليها أمام طولون كفيلةً بجعل أي ضابط محترف يبكي حسرة. كان معظم الملكيِّين القدامى قد هاجروا ليحل محلَّهم متطوعون جمهوريون بلا خبرة، وكانت المدفعية عبارةً عن عدد صغير من المدافع والهاونات القديمة غير الصالحة، ولم تكن هناك ذخيرة لمعظمها. من الناحية الإيجابية لم يكن هناك سوى نابوليون نفسِه، أحدِ قلة من المحترفين بين ضباط الجيش الإيطالي كلِّه. صحيح أنه كان مجرَّد كابتن (نقيب) إلا أنه كان يحظى بدعم ساليسيتي ... وكانت عبقريته كفيلة بالباقي. كان من بين أول إجراءاته أن أرسل يطلب مدافعَ ثقيلةً من نيس ومرسيليا (التي قدَّمت كذلك خمسة آلاف كيس رمل)، كما طلب معدَّات أخرى من قلاع «مارتيجيوس Martigues» و«أنتيب Antibes» و«موناكو Monaco»، وطلب الأخشاب من «لي كيوتات Le Ciotat» لبناء أرصفةٍ ملائمة، وأنشأ ترسانةً حقيقية، وورشةَ إصلاحٍ زوَّدها بالحدَّادين والنجَّارين. إلا أنه سرعان ما وجد نفسه، من البداية، في خلافٍ مع قائده الجنرال «كارتو Carteaux» الذي كان معقولًا من الناحية السياسية، وأحمقَ من الناحية العسكرية؛ إذ كان كل همِّه أن يطلِق على المدينة أكبرَ كمية من النيران. أما نابوليون، فعندما وجد أن مفتاح مقاومتها المستمرة كان هو الأسطول البريطاني بقيادة «الأدميرال لورد هود Admiral Lord Hood»، الذي كان موجودًا بالقرب من الساحل؛ فقد صمَّم بكل قوة على الاستيلاء على شبه الجزيرة الصغيرة «لوكير Le Caire»، التي يمكنه أن يطلق منها قذائفَ مدافعه الملتهبة على سفن هود. وأخيرًا، بمساعدة ساليسيتي، استطاع أن يحصل على موافقة كارتو — المتردِّد دائمًا — على القيام بذلك.

فشِلت المحاولةُ الأولى للاستيلاء على لوكير؛ حيث كان كارتو — الغاضب لتخطيه — قد وافق على أن يقوم أربعمائة فرد فقط بالمهمة. وبفضل نفوذ الماجور بونابارت (كان قد رُقِّي مؤخرًا) تم طرد الجنرال العجوز، الذي لا رجاءَ منه، من الخدمة في شهر أكتوبر ليخلفه الجنرال «جاك فرانسوا دوجومييه Jacques Francois Dugommier»، الذي كان قد التحق بالجيش في سنِّ الثالثة عشرة. كان دوجومييه ضابطًا محترفًا، وسرعان ما فطِن

لعبقرية مرءوسة ودعمه بقوة، وكانت النتيجة القيامَ بهجوم واسع على «قلعة مالجريف Fort Mulgrave»، التي كان البريطانيون قد شيَّدوها مؤخرًا على أعلى نقطةٍ في لوكير. حدَث ذلك في السابع عشر من ديسمبر أثناء مطرٍ غزير، إلا أن الهجوم نجح تمامًا؛ وفي الصباح الباكر أخلَت الحامية البريطانية القلعةَ، بينما رفعت سفن هود مراسيها بسرعة وولَّت الأدبار في البحر. في اليوم التالي، التاسع عشر من ديسمبر ١٧٩٣م، كانت طولون قد عادت فرنسية.

لم يكن لدى أحدٍ شكٌّ بخصوص صاحب الفضل في ذلك. نابوليون بونابارت الذي قُتل حصانه تحته، وجُرح بطعنةِ حربة في فخذه، ثبَت أنه كان محقًّا. كان دوجومييه قد بعث بالفعل بتوصيةٍ عاجلة — ونبوئية — إلى وزير الحربية في باريس:

> Rècompensez, avancez ce jeune home, car, silon ètait ingrant envers, luI il S, avancerait de lui- mème.[٦]

بعد ثلاثة أيام من استعادة «طولون» تم تعيينه «بريجاديرا Brigadier»، ولم يكن قد تجاوز الرابعة والعشرين.

فشِلت حملة كورسيكا في مارس ١٧٩٥م، وكانت قد تأخَّرت طويلًا. كان الأسطول البريطاني يقف بالقربِ من الجزيرة مستعدًّا، وكان من الصعب على ناقلات الجند والمعدَّات العسكرية الفرنسية أن ترسوَ. مرة أخرى، في لحظةٍ ما، كان يبدو أن الحظ قد تخلَّى عن نابوليون. عاد إلى باريس في إجازةٍ مَرضية رسمية، وراح ينتظر فرصتَه التالية، التي جاءت في الخامس من أكتوبر — الثالث عشر من «فيندميير Vendèmiair» بالتقويم الجمهوري الجديد — عندما أمرَه «بول باراس Paul Barras»، قائدُ «جيش الداخل Army of the Interior» بإخماد تمرُّد ملَكي كان متوقعًا. لم يتردَّد، كانت الانتفاضات الكورسيكية ما زالت في ذاكرته. لن يكون هناك تفاوضٌ، وفَضَّل أن يضع ثقتَه في المدفعية الثقيلة. انفجر قتالٌ ضارٍ في «تويلرييه Tuileries» مع خسائرَ فادحةٍ في الطرفين، إلا أن النتيجةَ النهائية لم تكن محلَّ شكٍّ. عندما تأسَّست «حكومة الإدارة The Directory»، بعد أسبوع أو أسبوعين، تم تعيينُ باراسي ليكون أولَ أعضائها الخمسة، كما عُيِّن بونابارت قائدًا لجيش الداخل. وفي مارس ١٧٩٦م، عندما قرَّرت حكومة الإدارة أن تشنَّ حملة جديدة على النمسا عبْر إيطاليا، كان ذلك الشاب الكورسيكي المهيب الذي يجيد لغتين إيطاليتين، هو الاختيارَ الواضح لقيادتها.

قبل مغادرته بوقتٍ قصير، وفي احتفالٍ مدني في الثامن من مارس ١٧٩٦م، تزوَّج نابوليون بونابارت من إحدى «أرامل المقصلة» الكثيرات: «جوزفين دو بوهارنيه Josephine de Beauharnais»، التي كانت عشيقةً سابقة لصديقه باراس (كلاهما كذب عن عمره؛ حيث قدَّم نابوليون الذي كان في السادسة والعشرين، شهادةَ ميلاد شقيقه الأكبر جوزيف). بعد يومين، ودَّع عروسه وانطلق قاصدًا نيس لتولي منصبه الجديد. كانت تلك بدايةَ حملةٍ طويلة ستكون واحدة من أعظمِ حملاته، أما المهمة فكانت اجتياحَ الشمال الإيطالي ثم التقدُّم عبْر الـ «تيرول Tyrol» في النمسا، لكي تقابل في النهاية جيشَ الراين وتنقل الحرب إلى «بافاريا Bavaria». بدأت الحملة بتقدُّم في «بيدمونت Piedmont». لا أحد — ربما باستثناء بونابارت نفسه — كان يمكن أن يتصوَّر سرعةَ وحجم النجاح: كل يوم تقريبًا، كان يأتي بأخبار انتصارات جديدة، وفي آخرِ أبريل كانت بيدمونت قد ضُمت إلى فرنسا، وشارل إيمانويل الرابع قد تخلى عن العرش وأوى إلى سردينيا التي كانت قد بقيت تحت سلطته. في الثامن من مايو، عبَر الفرنسيون نهر الـ «بو Po»، وبعد يومين استولوا على الجسر الضيِّق على نهر «آدا Adda» عند «لودي Lodi»، وفي الخامس عشر من الشهر نفسِه، دخل بونابارت ميلان رسميًّا.

كان جيشه — بالطبع — يعيش اعتمادًا على الأراضي التي تم غزوها، يستولي على ما يريد من مؤن ويصادر الأغذيةَ وأماكن الإيواء المطلوبة، ولكن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة لحكومة الإدارة. كانت تعليماتهم تقضي بفرض جباية سواء على الولايات الإيطالية أو الكنسية، ليس لإعالة القوات فحسب، وإنما لإرسالها إلى باريس كذلك. كان نابوليون ينفِّذ تلك التعليمات حرفيًّا. كان دون «بارما Parma» — المحايد — على سبيل المثال، مجبرًا على تسليم مليوني كتاب فرنسي، وعشرين من أفضل صوره التي يختارها القائدُ العام بنفسه؛ كما لم يستطِع سوى عدد قليل من المدن الرئيسية الإفلاتَ من تسليم مقتنياتها من رسوم «رافائيل Raphael » و«تيتيان Titian» و«ليوناردو Leonardo». وجد كثيرٌ من هذه الأشياء طريقَه إلى اللوفر وغيره من المتاحف الفرنسية؛ حيث ما تزال موجودة إلى اليوم.

باحتلال ميلان، كانت لومبارديا كلُّها قد أصبحت في يد الفرنسيِّين باستثناء مانتوا Mantua. ولكنَّ النمساويِّين كانوا ما زالوا يقاتلون بإصرار، لدرجةِ أن نجِدَ بونابارت يعترف، في الثالث عشر من نوفمبر، لحكومة الإدارة — في لهجة بين الإرهاق واليأس — بمخاوفِه من أن تضيع إيطاليا كلُّها في غضون وقت قصير. لم ترتفع روحه المعنوية

مرةً أخرى سوى في أوائل العام ١٧٩٧م. في الرابع عشر من يناير حارب النمساويِّين في «ريفولي Rivoli »، وهي قريةٌ تقع شمالي فيرونا بنحو أربعة عشر ميلًا، بين نهر «أديج Adige» وبحيرة «جاردا Garda » فقد ٢٢٠٠ جندي ولكن جيشه قتل ٣٣٠٠ جندي للعدو وأسرَ ٧٠٠٠ آخرين. في اليوم التالي أسرَ قائده الجنرال «جوبير Joubert»، الذي كان يطارد النمساويين الفارين، ستة آلاف آخرين، في الوقت نفسه كان «أندريه ماسينا André Masséna»، زميل جوبير، قد زحف جنوبًا طوال الليل فطوَّق وأسرَ طابورًا نمساويًّا آخر ليصبح معزولًا خارج مانتوا. منذ ذلك اليوم، أصبحت مانتوا معزولةً تمامًا، دون أملٍ في أيِّ إنقاذ أو نجدة، وفي الثامن من فبراير استسلمت حاميتها التي كانت تتضوَّر جوعًا، وتم أسرُ ستة عشر ألف جنديٍّ والاستيلاء على ألف وخمسمائة مدفع أخرى. وأخيرًا كان الطريق قد أصبح مفتوحًا لغزو النمسا. صحيحٌ أنها كانت تقع عبْر أراضي فينيسيا المحايدة، ولكن ذلك لم يكن مهمًّا. لم يكن النمساويون يضعون مثل تلك الأمور في الاعتبار؛ فقد كانوا يعبرون الأراضي الفينيسية باستمرار دون عوائق. ولكن، إذا كانت فينيسيا لم تحتجَّ — وكانت أهواؤها الملَكية معروفة — فالمؤكَّد أن نابوليون كان لا بد من أن يحتجَّ، مستغلًّا كلَّ فرصةٍ لتوعُّد، وربما تهديد، السلطات الفينيسية المحلية. ما لم يكونوا يعرفونه، هو أن غضبه في مثل تلك الظروف لم يكن سوى ادعاء أو تظاهر، وأن معظم تهديداته كانت فارغة. لم يكن هدفه الرئيسي في تعاملاته مع الفينيسيِّين في ذلك الوقت هو استغلال مساعدتها ولا حتى إقناعها باتخاذِ خطٍّ أكثرَ حيادية، كان هدفه، بالأحرى، إرهابها، أن يجعلها تشعر بالذنب وعدم الكفاءة، أن يجرح كبرياءها وثقتها بنفسها، بحيث تنخفض مقاومتها المعنوية إلى نفس مستوى مقاومتها المادية.

بالقرب من أواخر مارس ١٧٩٧م، قاد نابوليون جيشَه صوب الشمال إلى «تيرول Tyrol» عبْر «ممر بركسن Brixen Pass»، ومن هناك اتخذ طريقه إلى فيينا تاركًا خلفه حامياتٍ صغيرة في «بيرجامو Bergamo» و«بريشيا Brescia»، وقوةً أكبرَ قليلًا في فيرونا. يبدو أنه كان يضمِر أمرًا: أن يخلق حالةً ثورية بين الفينيسيِّين، وأن يدعم انتفاضاتٍ ضد فينيسيا أينما كان ذلك ممكنًا. كان الخطر — بالطبع — أن تنقلبَ هذه الانتفاضات ضد الفرنسيِّين أنفسهم، وهو ما حدَث بالفعل؛ ففي يوم السابع عشر من أبريل، وكان يوم إثنين الفِصْح، خرج الناس في فيرونا في عِصيان مدني بالرغم من قوة الحامية. عُرِف ذلك العِصيان الذي سقط فيه عددٌ كبير من العسكريين والمدنيين الفرنسيين بـ «الفِصْح الفيروني Paques Véronaises». وقعَت أحداث مماثلة — وإن أقل حجمًا — في بيرجامو

وبريشيا، رغم أنها كانت موجَّهة ضد فينيسيا. إذا كان ذلك كلُّه من تدبير المحرِّضين و«عناصر الإثارة agents provcateurs» — كما يُعتقد — فإن نابوليون كان يرى أن الخسائر تستحق العناءَ المبذول في سبليها؛ إذ إنها كانت تقدِّم له ذريعةً إضافية للهجوم على جمهورية فينيسيا، التي كان قد عقدَ العزم الآن على محوها من الوجود.

عندما وصلت أخبارُ هذه الانتفاضات وغيرها إلى فينيسيا، كانت هناك حالةٌ أقربُ إلى الذعر. كل اليابسة Terra firma، غربي نهر «مينسيو Mincio»، قد ضاعت بالفعل، وكان لا بد من حماية الحدود الجديدة بأي ثَمن، وكانت الميليشيات المسلَّحة المكوَّنة من المزارعين المحليِّين هي الأمل الوحيد. تم إبلاغ القائد الفرنسي المحلي الجنرال «بالاند Balland» بنوايا فينيسيا، كما تم التأكيدُ له أن الإجراءات المقترحةَ ستكون دفاعية، وأنها ليست موجَّهة ضد الفرنسيِّين، وإنما ضد المتمردين من مواطني الجمهورية. ما يبدو أن الجميع لم يكونوا يتوقَّعونه، هو أن أولئك المزارعين — كان لا يقل عددهم عن عشرة آلاف — عندما يجدون في أيديهم أسلحةً لأول مرة، لن تكون ضمائرهم حيةً عن استخدامها؛ من ناحيةٍ أخرى كانت هناك حساباتٌ كثيرة معلَّقة لا بد من تسويتها مع الفرنسيِّين، الذين كانت جماعات السلب والنهب من جنودهم، مطْلَقة اليدِ في الاستيلاء على محاصيلهم وماشيتهم — وغالبًا زوجاتهم وبناتهم — في مساوماتهم معهم. لم يمرَّ وقتٌ طويل، حتى بدأت عمليات القنص الخطرة. كان انتقام بالاند سريعًا ووحشيًّا إلا أنه لم يكن مؤثرًا. في أوائل أبريل كانت كلُّ مظاهر المجاملة والمعاملة المهذَّبة بين الفرنسيِّين والإيطاليِّين قد اختفت.

في الطريق إلى فيينا، كان يتم إبلاغ نابوليون بتطوُّرات الوضع الذي كان يزداد سوءًا. في العاشر من أبريل أملى إنذارًا موجهًا للدوج على أن يتم تسليمه له شخصيًّا بواسطة مساعده الجنرال «أندوك جنوت Andoche Junot». وصل جنوت إلى فينيسيا مساء الرابع عشر من أبريل، وكان موافقًا ليوم «الجمعة الحزينة Good Friday».[٧] وطلب لقاءَ الدوج في وقتٍ باكر من صباح اليوم التالي. جاء الرد مهذبًا وحاسمًا. يوم «سبت النور Holy Saturday»[٨] مكرَّس تقليديًّا للشعائر الدينية، ولا يمكن ممارسةُ أي نشاط حكومي يوم السبت، ولا يوم أحد الفِصْح نفسه. أبلغوه أن الدوج ومجلسَه Collegio[٩] يسعدهم استقبال الجنرال في أي وقت باكر صباح الإثنين. إلا أن جنوت لم تكن الشعائرُ الدينية تعنيه، كما قال صراحةً. كانت أوامره بأنه لا بد من مقابلة الدوج في غضون أربع وعشرين ساعة، وكان يعني أنه لا بد من تنفيذ ذلك، وهدَّد بأنه إن لم يُحدَّد له موعد كما يريد، فسوف يغادر وسيكون على فينيسيا أن تتحمَّل العواقب، وأن تلك العواقب لن تكون محمودة.

وهكذا، عندما استقبله المجلس على مضضٍ صباح السبت كانت كرامته مجروحة بالفعل. بقي الجنرال واقفًا متجاهلًا المقعدَ الذي طلبوا منه التفضُّل بالجلوس عليه على يمين الدوج؛ ودون أي مقدِّمات جذبَ رسالة نابوليون من جيبه وبدأ يقرأ:

جودينبرج – ٢٠ جيرمينال – عام ٥

البرُّ الرئيسي كلُّه لأكثر الجمهوريات سكونًا مسلَّح حتى الأسنان. في كل ركن تدوي هُتافات الزارعين الذين سلَّحتهم وتُردِّد «الموت للفرنسيين!» يزعمون أن بضع مئات من الجنود من الجيش الإيطالي هم السبب. عبثًا تحاول إبعادَ المسئولية عن الميليشيات التي صنعتها. هل تتصوَّر أنني بسبب وجودي في قلب ألمانيا، عاجزٌ عن تحقيق الاحترام لأفضل شعب في الوجود؟ هل تتوقَّع أن تتسامح فيالق إيطاليا مع المذابح التي تسبَّبت فيها؟ لا بد من الثأر لدمِ إخوتي في السلاح، ولا توجد كتيبةٌ فرنسية واحدة، إن هي كُلِّفت بمثل هذا الواجب، إلا وستشعر بمضاعفةِ قوَّتها وشجاعتها. لقد ردَّ مجلس النواب الفينيسي على ما أبديناه من كرمٍ بأبشعِ صور الغدر ... حرب أم سلام هي؟ إن لم تُتَّخذ إجراءات فورية لحلِّ هذه الميليشيات، إن لم يتم القبض على المسئولين عن المذابح الأخيرة وتسليمهم إليَّ، فسوف نعلن الحرب — الأتراك ليسوا على أبوابكم. لا عدوَّ يهدِّدكم. لقد اختلقتم ذرائعَ لتبرير حشد الناس ضد جيشي. سيتم تفريقهم في خلال أربع وعشرين ساعة. لم نَعُد في عصر حكم شارل الثامن، ولو أنك ضد المطالب الواضحة المحدَّدة للحكومة الفرنسية فسوف تضطرني لإعلان الحرب. لا تظنَّ أن الجنود الفرنسيين سوف يتبعون أسلوبَ ميليشياتك في سلب ونهب ريف أهالي اليابسة المساكين الأبرياء. سوف أحمي أولئك الناس، وسيأتي اليوم الذي يباركون فيه الجرائمَ التي اضطرَّت جيشَ فرنسا لتخليصهم من استبدادك.

بونابارت

في الصمت المطبِق الذي ساد، ألقى جنوت بالرسالة على الطاولة أمامه، واستدار خارجًا من القاعة.

في الوقت نفسِه كان نابوليون يواصل زحفَه. كان أسلوبه مع رجاله، كالعادة، مرحًا وواثقًا، إلا أن قلقًا كان يتنامى بداخله لسببين، كان أولهما استراتيجي: كانت إمدادات الجيش ضعيفة؛ إذ إنه كان محصورًا في وديانٍ جبليةٍ ضيقة، ولم يكن هناك أملٌ كبير في التماس مؤن أو طعام — ناهيك عن عمليات السلب والنهب — مع وجود سكان معادين من حوله، وجيش نمساوي أمامه في الانتظار. أما السبب الثاني فكان أكثرَ خطرًا. كان جيشه يكوِّنُ شُعبة واحدة فحسب من شوكة الهجوم الفرنسي؛ إذ كان هناك أيضًا جيش الراين بقيادة منافسه الرئيس الشاب الذكي «لازار هوش Lazare Hoche»، الذي كان الآن يتقدَّم شرقًا بسرعةٍ مخيفة عبْر ألمانيا، وينذِر بالوصول إلى فيينا قبله. كان ذلك احتمالًا لا يريد أن يفكِّر به. لا بد من أن يكون هو، وليس سواه، قاهرَ إمبراطورية الهابسبورج. كان كل مستقبَله يتوقف على ذلك. لن يسمح لـ «هوش» بأن يسرق انتصاره.

كان ذهنه في صراعٍ مع هاتين المشكلتين عندما — فجأةً وعلى نحوٍ أشبه بالمعجزة — طلبت الحكومة الملَكية هدنةً وهي مذعورة. لا بد أنه كان من الصعب عليه إخفاءُ ابتهاجه: توقيعه وثيقة كتلك سوف يوقف هوش في مكانه. وهكذا حدَث في الثامن عشر من أبريل ١٧٩٧م، في قلعة «إسكنولد Eckenwald» المجاورة لـ «ليوبن Leoben»، أن تم توقيعُ اتفاق سلام مؤقت بين نابوليون بونابارت باسم حكومة الإدارة الفرنسية The French Directory — رغم أنه لم يحاول استشارةَ أحد — والإمبراطورية النمساوية، بحسب شروط الاتفاق (بقيت التفاصيل سريةً إلى أن تم تأكيدها في «كامبو فورميو Campo Formio» بعد ستة أشهر)، كان على النمسا أن تتنازل عن كل مطالباتها بـ «بلجيكا ولومبارديا»، وتحصُل في مقابل ذلك على «إستريا Istria» و«دالماشيا Dalmatia» وكل أراضي اليابسة الفينيسية التي تحدُّها أنهار «أوجليو Oglio» و«بو Po» والأدرياتيكي. أما فينيسيا، فيتم تعويضها — وهذا غير كافٍ تمامًا — بالمناطق البابوية السابقة في «رومانا Romagna» و«فيرارا Ferrara» و«بولونيا Bologna».

لا بد من القول إنه لم يكن من حق بونابارت أن يتنازل، على هذا النحو، عن أراضي ولاية محايدة. ربما كان من المحتمل أن يجادل بأن فينيسيا كانت لم تَعُد ولاية محايدة، إلا أن قوانين الدبلوماسية الدولية لم تكن تنظر بعين الرضا لتسوياتٍ سلميةٍ من هذا القبيل. وبالرغم من أن حياد فينيسيا المعلَن قد يبدو فارغًا، سيكون عليها أن تخرج منه، وإذا ظهرت أثناء هذه العملية بشكلٍ غير ملائم وربما عدواني، فسيكون ذلك أفضل. والآن، بفضل الإحباط المعنوي لحكومتها، كانت تقدِّم لـ «بونابارت» فرصةً مثالية.

لا يمكن إلا أن نشعرَ بالرثاء لكلٍّ من «فرانسيسكو دونا Francesco Dona» و«ليوناردو جستنيان Lunardo Giustinian»، المبعوثَين الفينيسيَّين اللذين أُرسلا إلى بونابارت حاملَين الردَّ على رسالته وتعليماتٍ لاسترضائه وتهدئته قدْر المستطاع. حتى الجانب المادي من هذه المهمة كان كريهًا بما يكفي. كان نابوليون معروفًا بسرعةِ تنقُّلاته. الأيامُ والليالي المرهقة التي أمضياها وهما يحاولان اللَّحاق به، وعورةُ الطُّرق الجبلية السيئة، التي لم يكن يقطعها سوى ساعاتٍ قليلة للراحة في أماكنَ رديئة ... كل ذلك كان، بالتأكيد، كابوسًا ثقيلًا بالنسبة لاثنين مثلهما في منتصف العمر. كذلك، فإن معنوياتهما لم تتحسَّن بسببِ ما كانا يتوقَّعانه من مشاهدَ عاصفة، كانا يعرفان أنها في انتظارهما في النهاية. ولم يكن ذلك هو كل شيء؛ ففي كل قرية أو مدينة كانا يتوقَّفان فيها كانت الشائعات نفسُها تحاصرهما. فرنسا عقَدت صلحًا مع النمسا، وعلى مذبح هذا الصلحِ سوف يتم التضحية بفينيسيا.

استمرَّ السعي خلف نابوليون أكثرَ من أسبوع، وفي ٢١ أبريل كان المبعوثان المرهقان يقفان في «جراز Graz» أمام المعسكرِ الفرنسي. استقبلهما بونابارت باحترامٍ شديد واستمع صامتًا إلى تأكيدهما الصداقةَ بين الجانبين، ثم تغيَّر مِزاجه فجأة. راح يذرع الغرفةَ جَيئةً وذهابًا، ثم انفجر في تقريعٍ شديدٍ لفينيسيا وحكومتها وشعبها، متهمًا إياهم بالغدْر والنفاق والظلم وعدم الكفاءة و«بربرية العصور الوسطى» والعِداء الشديد الذي يضمرونه له ولفرنسا، وهو الأكثر خطورةً من وجهة نظره. طلب بونابارت الإفراجَ الفوري عن السجناء السياسيِّين، متوعدًا أنه إن لم يتم ذلك فسيقوم باقتحام السجون بنفسه، واستمر غضبُه وهو يتساءل عن الفرنسيِّين الذين قتلهم الفينيسيون. قال إن جنوده مصرُّون على الثأر، وإنه لن ينكرَ ذلك عليهم، مضيفًا أن أي حكومةٍ تعجز عن كبْح جِماح رعاياها، لا بد أن تكون حكومةً حمقاء، وليس من حقها أن تبقى. ثم أنهى كلامه بالعبارة المرعبة، التي سرعان ما راح صداها يتردَّد في قلب كلِّ فينيسي: Io Saro un Attila per lo stato Veneto: «سوف أكون أتيلًا بالنسبة لدولة فينيسيا.»

عندما عاد المبعوثان إلى فينيسيا بروايتهما، شعرَ الدوج «لودوفيكو مانن Lodovico Manin» وزملاؤه بأن مصيرَ الجمهورية المشئوم كان قد تقرَّر. كانت الحرب وشيكةً لا ريب فيها، والتفاوض غير وارد، واليابسة مفقودة مفقودة. كان الأمل الوحيد في إنقاذ المدينة نفسِها من الدمار هو الرضوخ لمطالب الغازي، وكانت تلك المطالب مرعبةً

بالفعل: ليس أقل من تنحِّي الحكومة كلِّها والتخلي عن الدستور الذي كان قد استمرَّ أكثرَ من ألف عام ... أي انتحار الدولة بالفعل.

يوم الجمعة الموافق للثاني عشر من مايو ١٧٩٧م، اجتمع مجلس الشورى لآخر مرة. كان معظم أعضائه قد غادروا المدينة، وكان عدد الحاضرين يقلُّ عن النِّصاب القانوني (٦٠٠ عضو) بثلاثة وستين عضوًا، ولكنَّ وقتَ هذه التفاصيل الصغيرة كان قد فات. كان الدوج على وشْك الانتهاء من كلمته الافتتاحية عندما سُمع صوتُ إطلاق نار خارج القصر. فجأةً دبَّت الفوضى. كان ذلك الصوت يعني شيئًا واحدًا بالنسبة للحاضرين: الانتفاضة الشعبية التي كانوا يخشونها منذ فترةٍ طويلة قد بدأت. كان أملهم الوحيد في النجاة هو الهربَ من القصر ما دام هناك وقت. في دقائق، عُرف مصدر إطلاق النار: بعض قوات دالماشيا، الذين كان قد تم إجلاؤهم من فينيسيا بأوامرَ من نابوليون، كانوا يقومون بتفريغ بنادقهم القديمة في الهواء تحيةَ وداع للمدينة. ولكنَّ الفزَع كان قد بدأ ولم تَعُد التهدئة مجدية. تاركين أروابهم الرسمية خلفهم، انسل الباقون من أعضاء المجلس التشريعي من الأبواب الجانبية للقصر. كانت تلك نهايةَ السيرينيسيما Serenissima.

لم يحاول لودوفيكو مانن نفسُه أن يهرُب. في الهدوء المفاجئ الذي ساد بعد انفضاض الاجتماع، جمع أوراقَه ببطء وانسحب إلى مقر إقامته. وهناك خلع تلك القلنسوةَ غريبة الشكل، التي كانت الرمز الرئيسي لمنصبه، وأعطاها لخادمه الخاص قائلًا: خُذ هذه ... لن أحتاجها ثانية.

منذ تولِّي أولِ دوج في سنة ٧٢٦م إلى استقالةِ الدوج الأخير في ١٧٩٧م، تكون الجمهورية الفينيسية قد عاشت ١٠٧١ سنة، وهي فترةٌ تقلُّ عن تلك التي عاشتها الإمبراطورية البيزنطية بنصف القرن. على مدى معظم تلك الفترة، كانت فينيسيا باعترافِ الجميع، هي سيدةَ المتوسط سياسيًّا ودستوريًّا وتجاريًّا وفنيًّا ومعماريًّا. كانت أعجوبةَ العالم. كان يمكن أن يكون من دواعي السرور تسجيلُ نهايةٍ أقلَّ خزيًا، لو أن شعبها كان قد أظهر — عندما بدأت جمهوريته تترنَّح — ومضةً من الثبات والشجاعة التي أظهروها في الدفاع عن مستعمراتهم ضد الأتراك، أو تلك التي سيبديها أحفادُهم ضد النمساويين بعد ذلك بنصف القرن. إن المرء لم يكن لِيطلُب — وبالتأكيد ما كان ليتوقَّع — مقاومةً بطولية مثل تلك التي شُوهدت على أسوار القسطنطينية في ١٥٤٣م: مجرد ومضة من الروح الفينيسية القديمة التي كان يمكن أن تجعل السيرينيسيما تدخل التاريخَ بأقل القليل من

الشرف، ولكن حتى ذلك لم يكن موجودًا. المأساة الأخيرة لفينيسيا لم تكن موتها ... وإنما الطريقة التي ماتت بها.

وهكذا كان أن حصلت النمسا على أكثرَ مما كانت تتوقَّع بموجب اتفاقية كامبو فورميو Campo Formio التي وقَّعتها في السابع عشر من أكتوبر؛ ليس اليابسة الفينيسية فحسب، بل والمدينة نفسها. كان نابوليون سعيدًا. كان يعتقد دائمًا — وربما عن حقٍّ — أن بإمكانه السيطرةَ على إيطاليا طالما بقيت مقسَّمة. وبالفعل، أنشأ في ديسمبر ١٧٩٦م جمهورية سيسبادان Cispadane Republic،[١٠] بدمج دوقيات ريجيو ومودينا والولايات البابوية بولونيا وفيرارا. وفي يونيو التالي، أسَّس الجمهورية الليجورية Ligurian Republic في ميلان وعاصمتها جنوة، وفي يوليو الجمهورية السيسالبينية Cisalpine في ميلان. أما بالنسبة لفينيسيا نفسِها فلم تطأ قدمُه أرضَها، ولم يكن لديه الرغبة في ذلك. كان يراها — خطأ – بعينِ عقلِه دولةً بوليسية قمعية، سجونها تحت الأرض مليئة بالسجناء السياسيِّين. في الوقت نفسِه كان هناك سلامٌ في كل القارة الأوروبية. كانت إنجلترا الآن هي ما ينبغي غزوه وتدميره. وافقت حكومة الإدارة وعيَّنت بونابارت قائدًا لجيش إنجلترا، ولكن بعد تفكيرٍ استمر نحو عام، رفض الفكرةَ على مضض. ستكون التكلفة باهظة، كما أن القوة البشرية اللازمة ليست متوفِّرة، وقبل ذلك كله كانت البحرية الفرنسية في حالةٍ متردية، وليست ندًّا للبريطانية، وبلا قائد يمكن مقارنته ب «هود» أو «رودني» أو «سان فانسانت St Vincent» ... وكلُّهم أقلُّ من «نلسون Nelson».

كان البديل هو مصر. منذ ١٧٩٧م، كان وزير الخارجية «شارل موريس دي تاليران-بيريجور Charles-Maurice de Talleyrand-Périgord»[١١] قد اقترح إرسالَ حملة إلى مصر، وبعد ذلك بسبعة أشهر أصدر مذكرةً مفصَّلة عن هذا الأمر. كان لا بد من أن تحتوي هذه المذكرة على جزء يَدين وحشيةَ الحكام المحليِّين، ويؤكد ضرورةَ تخليص المصريين من الظلم الذي تعرَّضوا له طويلًا؛ أما الجدير بالاهتمام أكثرَ من ذلك، فكان اقتراحه إرسال جيش من ٢٠ إلى ٢٥ ألف جندي يمكن إبراره في الإسكندرية واحتلال القاهرة، وبعد ذلك تتَّجه حملةٌ أخرى ضد الهند — ربما عبْر قناة السويس التي يتم إنشاؤها على عجل. في الثامن من مارس ١٧٩٨م وافقت حكومة الإدارة رسميًّا. لن تكون هذه الفكرة مفيدةً فحسب؛ لأنها ستجد للجيش عملًا يقوم به، بل إنها كذلك سوف تُبعِد الجنرال الصغير ليكون على مسافةٍ مأمونة من باريس، كانت الفكرة أيضًا توفِّر فرصةً لاستلام الدَّور البريطاني في الهند وتحقِّق لفرنسا مستعمرةً جديدة مهمة في شرق المتوسط.

وأخيرًا، وإن كان أكثرَ إشكاليةً على نحوٍ ما، سيحقِّق ذلك تحولًا رئيسيًّا للقوة البحرية الإنجليزية نحو الشرق، الأمر الذي قد يجعل الغزوَ المؤجل ممكنًا في آخر الأمر.

بلا أدنى شكٍّ، تلقَّى نابوليون الأمرَ بحماسةٍ شديدة. كان منذ طفولته مفتونًا بالشرق، كما كان مصرًّا على أن تكون للحملة أهدافٌ أخرى غير تلك السياسية والعسكرية؛ ولذا جنَّد ما لا يقل عن ١٦٧ عالِمًا لمرافقته، كان من بينهم علماءُ في العلوم الطبيعية ورياضيون وفلكيون ومهندسون ومعماريون ومصوِّرون ورسَّامون. كانت مصر قد احتفظت بأسرارها القديمة طويلًا … كانت فاكهةً حان قِطافُها. كانت البلاد فعليًّا تحت حكم المماليك منذ ١٢٥٠م. في ١٥١٧م كان الأتراك قد غزوها وضمُّوها إلى الإمبراطورية العثمانية، وكانت ما زالت جزءًا منها من الناحية العلمية؛ وبحلول منتصف القرن السابع عشر كان زعماء المماليك (الباكوات) هم المسيطرين. لا شكَّ أن غزو فرنسا كان سيثير حفيظةَ واحتجاج السلطان في القسطنطينية، ولكن إمبراطوريته رغم أنها لم تكن قد عُرفت بعدُ بـ «رجل أوروبا المريض»، كانت قد غدَت ظلًّا مضمحلًّا لماضيها، وليس من الوارد أن تمثِّل خطرًا كبيرًا. لسوء الحظ كانت هناك أخطارٌ أكثرُ أهمية. كان تسليح سفن النقل الفرنسية الثلاثمائة هزيلًا وأطقمها غير مدرَّبة. صحيح أنه كانت هناك حراسة من ٢٧ سفينة حربية كبيرة وفرقاطة، ولكن من المعروف أن نلسون كان يجوب المتوسط، ولو أنه اكتشف وجودَهم فلن تكون أمامهم فرصةٌ للهرب، ولا أمام الواحد والثلاثين ألف جندي الذين كانوا عليها.

أبحر الأسطول على أربع دفعات منفصِلة، كانت الدفعة الأكبر هي تلك التي خرجت من طولون، أما الثلاث الأخرى فانطلقت من مرسيليا وجنوة وشفيتافيكيا شمالي روما. غادر نابوليون نفسه على سفينة العلم «الشرق Lorient »، من طولون في التاسع عشر من مايو ١٧٩٨م. كانت مالطة محطَّته الأولى. كانت الجزيرة في يد تنظيم فرسان سان جون منذ العام ١٥٣٠م، وكان الفرسان يديرون مستشفاهم بكفاءة وإتقان، كما كانوا قد صمدوا ببطولةٍ نادرة أمام حصار الأتراك في ١٥٦٥م، أما كمقاتلين من أجل المسيحية، فكانوا قد أصبحوا أقلَّ حماسة. عندما وصل بونابارت إلى الجزيرة يوم التاسع من يونيو، وأوفد رُسلَه إلى المعلِّم الأعظم — كان ألمانيًّا يُدعى «فرديناند هومبيش Ferdinand Hompesch» — ليطلب الإذنَ بدخول كل سفنه الميناء، تلقَّى ردًّا يقول إنه طبقًا لتعليمات التنظيم (تنظيم فرسان الهيكل)، فإن الدول التي تكون في حالةِ حربٍ مع دول مسيحية أخرى ليس مسموحًا لها بإرسالِ أكثرَ من أربع سفن في المرة الواحدة؛ وجاء الرد سريعًا

من السفينة «الشرق» يقول «إن الجنرال بونابارت مصمَّم على أن يحصُل بالقوة على كلِّ ما ينبغي أن يحصل عليه بموجب حُسن الوِفادة، وهي القاعدة الأساسية لتنظيمكم.»

بدأ الهجوم على الجزيرة فجرَ العاشر من يونيو. كان نصف الخمسمائة والخمسين فارسًا من الفرنسيِّين ومعظمهم من كبار السن غير القادرين على القتال. لم يقاوموا أكثرَ من يومين. صباح اليوم الثاني عشر من الشهر طلبوا هدنةً، وفي تلك الليلة نفسِها وصل وفد إلى سفينة العلم (سفينة القيادة). سوف يتخلَّى التنظيم عن سيادته على مالطة وجوزو Gozo، ما دامت الحكومة الفرنسية تبذل مساعيها الحميدةَ لتجدَ للمعلِّم الأعظمِ معتمديةً صغيرة يأوي إليها، مع معاش ثلاثمائة ألف فرانك يمكِّنه من العيش بمستوًى يتناسب مع مركزه. قبِل نابوليون، وشرع على الفور في وضعِ برنامج للإصلاح. في غضون أقلَّ من أسبوع، كان قد استطاع أن يحوِّل الجزيرةَ إلى شيءٍ آخرَ أشبهَ بمقاطعة فرنسية. صدرت أوامرُ بأن ترتدي الناس قبَّعات عليها شريطٌ من الأحمر والأبيض والأزرق، أُلغيت العبودية، تم ترحيل ستمائة تركي وألف وأربعمائة مسلم، تم تخفيض عددِ الأديرة وتقييد سلطة رجال الدين إلى حدٍّ كبير، تم جمْع كلِّ الذهب والفضة من جميع الكنائس وكل الكنوز من قصور الفرسان، بما في ذلك الآنيةُ الفضية التي كان التنظيم يستخدمها في إطعام المرضى، وتحويلها إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة جديلة لاستخدامها من أجل صديرية نابوليون المضادة للرصاص، كما تُركت حامية من ثلاثة آلاف جندي فرنسي بقيادة الجنرال «كلود فوبوا Claude Vaubois»، وفي غضون أسبوع من وصوله، كان الأسطول مستعدًّا لمواصلة رحلته. نابوليون نفسُه أبحر في التاسع عشر من الشهر.

إلا أن فرنسا لم تكن لتحتفظ بالجزيرة المنكوبة طويلًا. في سنة ١٨٠٠م، ونتيجةَ غضب واستياء شديدين إزاء تصرُّفات فوبوا، الذي حاول أن يجعل الفرنسيةَ اللغة الرسمية، وحاول أن يبيع بالمزاد كلَّ مقتنيات الكنيسة الكرملية في «مدينا Mdina»، ثار أهالي مالطة وقاموا — بقيادة رجال الدين — وألقَوا بقائد الميليشيا الفرنسية من النافذة. استدعى فابوا كلَّ رجاله إلى «فاليتا Valleta»؛ حيث أغلق أبواب المدينة. منذ ذلك الوقت وجد الفرنسيون أنفسَهم تحت الحصار. في الوقت نفسِه، لجأ المالطيون إلى البريطانيِّين لكي يساعدوهم، ووصلت عدةُ سفن لمحاصرة أي سفن فرنسية قد تحاول إنقاذَ الحامية. بعد ذلك بوقت قصير، كان أن وصلت قوةٌ بريطانية تقدَّر بنحو ألف وخمسمائة جندي. ظل فابوا صامدًا على نحوٍ بطولي إلى أن أصبح ما تبقى من المؤن لا يكفي إلا لثلاثة أيام، وذلك بسبب الحصار. بعد ذلك سُمح له باستسلام مشرِّف وخروجٍ آمن للحامية معه

— مما زاد من غضب المالطيِّين الذين لم يُستشاروا — حاملًا جزءًا كبيرًا من الكنوز التي كان رجاله قد نهبوها أثناء إقامتهم على الجزيرة.

بعد رحيل كل الفرسان والفرنسيِّين، كان أن وجد المالطيون أنفسَهم تحت سلطة مفوَّض بريطاني مدني، إلى أن يتقرَّر مصيرهم على المدى الطويل. في سنة ١٨٠٢م نصَّت اتفاقية «أميان Amiens»[١٢] التي أعلنت السلام بين بريطانيا وفرنسا (رغم أن نابوليون لم يكن ينوي تنفيذها إلا إذا كانت تناسبه)، نصَّت على عودةِ الجزيرة إلى تنظيم فرسان سان جون، إلا أن المالطيِّين لم يكونوا يحسَبون أن الفرسان كانوا يبدون تفضيلَهم للأمان الذي يوفِّره لهم التاج البريطاني، وهو ما حصلوا عليه أخيرًا في ١٨١٤م، بموجب معاهدة الصلح في باريس Peace of Paris.

ليلة الأول من يوليو ١٧٩٨م، بعد نحوِ أسبوعين من مغادرته مالطة، ألقى الأسطول الفرنسي مراسيَه بالقرب من «مارابوت Marabout»، التي تبعُد نحو سبعة أميال عن الإسكندرية. كان إبرارُ ذلك العدد الكبير من الجنود وذلك الكم الهائل من العتاد بواسطة سفن صغيرة (لم يكن متيسرًا سواها)، كان عمليةً طويلة وشاقة. بدأ ذلك في وقتٍ متأخر بعد الظهر، عندما كانت عاصفةٌ قد بدأت تتجمَّع. كان نائب الأدميرال فرانسوا - بول برييز ديجالير Francois-Paul Bryes d'Aigailliers، قد نصح بتأجيل العملية إلى الصباح التالي، ولكن نابوليون رفض أن يستمِع إليه. هو نفسُه لم يتمكَّن من الوصول إلى الشاطئ إلا قبل منتصف الليل بقليل. لحسن حظه، لم تكن هناك مقاومةٌ إلى أن وصل الجيش إلى الإسكندرية، وحتى هناك لم تكن الأسوار المتهالكة ولا الحامية الصغيرة ذات جدوى كبيرة لتأجيلِ ما كان محتومًا. كانت المدينة كلُّها في حالة متردية. كان عدد سكانها قد تناقص من ثلاثمائة ألف (وهو ما كانت تزهو به أيام الرومان) إلى نحو ستة آلاف من البشر ... وكانوا في حالةٍ يُرثى لها. بصرف النظر عن عمود بومبي Pompey Pillar (الذي لم يكن له علاقة بـ «بومبي») ومسلَّة كليوباتره[١٣] (التي لم يكن لها علاقة بـ «كليوباتره»)، لم يكن هناك أي شيء يذكِّر بأيام مجدِها وعزِّها.

بالنسبة للجيش الفرنسي إذن، جاء الاستيلاء على الإسكندرية بمثابةِ خيبةِ أملٍ مفاجئة. كان قيظ يوليو مثبطًا للروح المعنوية، ولكن الرجال الذين كانوا يتوقَّعون مدينةً رائعة الجمال — مع فرصٍ وفيرة للسلب والنهب — ولم يجدوا سوى رُكام من الأكواخ الموبوءة، هؤلاء الرجال لم يشعروا بخيبة الأمل فحسب، بل بأنهم خُدعوا. وجد نابوليون

أن من الأفضل ألا يعطيهم وقتًا للتفكير في ذلك، وأنه كان لا بد من التقدُّم نحو القاهرة. متقدمين بحذاء الضفة الغربية من دلتا النيل، استولوا على رشيد دون مقاومة، وفي الحادي والعشرين من يوليو واجهوا القوةَ الرئيسية لجيش المماليك عند إمبابة. نصيحة نابوليون لقواته «أيها الجنود، إن أربعين قرنًا من الزمان تُطِل عليكم من قمم هذه الأهرامات»، هذه النصيحة دخلت التاريخ، إلا أنها لم تكن ضرورية؛ فقد كانت موقعة الأهرام أشبهَ بنزهة. لم تكن سيوف المماليك، رغم حدَّتها وحُسن استخدامها، ندًّا لبنادق الفرنسيين. دخل القاهرة في اليوم التالي، كانت أفضلَ من الإسكندرية نوعًا ما، بالنسبة لجنوده، إلا أنها لم تكن رحلة سهلة.

في الوقت نفسِه كان نلسون يطارد السفن الفرنسية عبْر المتوسط. مُضَلَّلًا نتيجةَ معلومات من سفينة من جنوة بأن بونابارت كان قد غادر مالطة يوم السادس عشر من يونيو — أي قبل موعد مغادرته الحقيقي بثلاثة أيام — أسرع نلسون إلى الإسكندرية، ولما لم يجد أثرًا للأسطول الفرنسي، أبحر مرةً أخرى يوم التاسع والعشرين، ليبحث عنه، على امتداد سواحل سوريا. نتيجةً لهذا الارتباك، كان أن عاد إلى مصر في الثانية والنصف مساء الأول من أغسطس، ليجد ١٣ سفينة حربية فرنسية — كان لديه ١٤ سفينة — وأربع فرقاطات، راسيةً في تشكيلٍ قتالٍ خطي على طول ميلين في خليج أبو قير، أحدِ مصبَّات النيل. إلا أنها كانت ما تزال على بُعد تسعة أميال، وكان يلزمه ساعتان أخريان لكي يصل إليها، ووقتًا أطول من ذلك بكثير لكي ينظِّم سفنَه في تشكيلٍ قتالٍ مناسب. كانت المواجهات الليلية في تلك الأيام محفوفةً بالمخاطر؛ وهناك خطرُ أن تجنح السفن في مياهٍ مجهولة، وخطرٌ أسوأ وهو احتمال إطلاق النار بالخطأ على سفنٍ صديقة. في مثل تلك الظروف كان معظم قادة البحر يفضِّلون الانتظارَ حتى الصباح؛ إلا أن نلسون عندما وجد أن الفرنسيِّين لم يكونوا مستعدين، وأن هناك رياحًا شمالية غربية تسري، قرَّر أن يقوم بالهجوم فورًا. بدأ بإرسال أربع سفن بالقرب من الشاطئ على امتداد أحد أجناب خط القتال الفرنسي، بينما قام هو نفسه (من سفينة القيادة Vanguard) بقيادة هجومٍ موازٍ من الجانب الآخر البعيد عن الشاطئ، وهكذا كانت كل سفينة معادية معرَّضةً لقصفٍ مدفعي متزامن من الجانبين. كان ذلك نحو الساعة السادسة، واستمرت المعركة طوال الليل. عند الفجر، كانت كل السفن الفرنسية عدا أربع منها، قد دُمرت أو وقعت في الأسر، بما في ذلك سفينة القيادة L'orient، التي قُتل عليها الأدميرال بربيز Brueys بقذيفة مدفع. ما زالت السفن إلى الآن راقدةً هناك تحت مياه خليج أبو قير، مع كل الكنوز المنهوبة من قصور وكنائس مالطة.

كانت موقعة النيل — كما أُطلق عليها — أحدَ الانتصارات الكبرى في تاريخ نلسون.[١٤] بضربةٍ واحدة، لم يتم تدمير الأسطول الفرنسي فحسب، ولكنه قطعَ اتصالَ نابوليون بفرنسا وتركه معزولًا وأحبط كلَّ خططه لغزو الشرق الأوسط. كان لانتصاره، كذلك، تأثيرٌ بالغ الأهمية في الروح المعنوية الفرنسية، بالرغم من أن هذا التأثير فيما يبدو لم يقع على معنويات بونابارت. حتى قبل أن تبرُد مدافع السفن، كان نابوليون منهمكًا في تحويل مصر إلى قاعدة استراتيجية. ما كان البريطانيون يحاولون تحقيقَه في الهند شيئًا فشيئًا، كان هو يريد أن ينتهيَ منه في أشهرٍ قليلة. وضع أنظمةً جديدة للإدارة والضرائب أكثرَ كفاءة، أنشأ سجلاتٍ للأراضي الزراعية، أعطى أوامر بإنشاء مستشفيات، حسَّنَ خدمات الصحة العامة وإضاءة الشوارع. كان العلماء والمهندسون الذين جاء بهم يعملون على حلِّ مشكلات كثيرة مثل تطهير مياه النيل وصناعة البارود محليًّا.

ما فشِل فيه، ولم يكن ذلك مفاجئًا، كان محاولاته كسْبَ ثقة وتأييد المصريين. بذل كلَّ ما في وُسعه، وانتهز كلَّ فرصة للتعبير عن إعجابه بالإسلام، أصدر، حتى، بيانًا لشعب مصر ذهب فيه إلى مدًى أبعد:

> أنا، أكثر من أيٍّ من المماليك، أعبدُ الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن الكريم ... أيها المشايخ والقضاة والأئمة، قولوا لشعبكم إن الفرنسيِّين أيضًا مسلمون مخلصون ...

تبقى حقيقة أن رجاله كانوا يتصرَّفون وكأنهم قد امتلكوا البلاد. كانت هناك هبَّات وانتفاضات على نطاقٍ ضيق باستمرار، وعمليات هجوم على حاميات فرنسية منعزلة، أو اعتداءات على أفرادٍ فرنسيِّين في الشوارع. في شهر أكتوبر تم إخمادُ ثورةٍ أكثرَ خطرًا بطريقة وحشية؛ حيث قُتل أكثرُ من ثلاثة آلاف مصري، كما نُهِبَ الجامع الأزهر؛ ومنذ ذلك اليوم أصدر بونابارت مرسومًا بقطع رأس أي مصري يحمل سلاحًا ناريًّا وإلقاء جثته في النيل. لم يكن غريبًا أن تزداد كراهيته مع استمرار الاحتلال.

ووراء الحدود المصرية كذلك، كان الأعداء يتجمَّعون؛ ففي الثاني من سبتمبر ١٧٩٨م، أعلن السلطان سليم الثاني الحربَ على فرنسا، وبدأ الجزار، الحاكم التركي لسوريا، في حشد جيش. كان من السهولة بمكان أن يتقدَّم هذا الجيش في اتجاه الجنوب ثم ينعطف عبْر شبه جزيرة سيناء ليغزوَ مصر من ناحية الشرق؛ والأسوأ، أنه كان يمكن أن تحمله السفن الإنجليزية إلى دلتا النيل مباشرة. وبدلًا من المغامرة بمواجهةِ مثل هذا الاحتمال،

قرَّر بونابارت أن يبادرَ بالفعل ويقوم بتدمير جيش الجزار قبل أن يكتمل تشكيله. في الأول من فبراير ١٧٩٩م، زحف بجنوده عبْر صحراء سيناء ودخل فلسطين. في السابع من مارس سقطت جدة؛ قُتل ٢٠٠٠ تركي وفلسطيني وتم اقتياد ٢٠٠٠ آخرين إلى البحر حيث أُطلق عليهم الرصاص. وفي محاولةٍ لتحسين صورته بعد هذه الفظائع، زار القائد الأعلى أحدَ المستشفيات، ويقال إنه قام — بناءً على نصيحة سيئة — بنقل أحدِ موتى الطاعون لدفنه. لم يُصَب بالعدوى، ولكن يبدو أن أسلوب العلاقات العامة هذا، لم يكن له أي جدوى.

كانت «عكا Acre»، هدفَه الثاني، ولكن دفاعاتها كانت قويةً بعد أن كان الحاكم التركي قد حصل على مساعداتٍ إضافية من البحرية البريطانية بقيادةِ الكومودور سير «سيدني سميث Sidney Smith» الشهير بهروبه من سجن المعبد في باريس إبَّان الثورة. كان سميث قد جاء معه بصديقه الكولونيل «فيليبو Phélippeaux»، وهو مهندس عسكري كان قد درَس في المدرسة العسكرية مع بونابارت، وكان يستطيع الإسهامَ بخبرته العسكرية القيمة في الدفاع عن المدينة. حاصر الجيش الفرنسي المدينةَ لمدة شهرين، إلا أن سميث نجح في أسرِ السفن العسكرية الثمانية التي كانت تحمل مدفعيةَ الحصار ومخازن التموين والذخيرة. لم يكن لدى بونابارت سوى مدفعيةِ الميدان، ولم يتمكَّن من إحضار ستة مدافع ثقيلة من يافا Jaffa إلا في الخامس والعشرين من أبريل. في العاشر من مايو، شنَّ هجومه الأخير، ومثل سابقه مُني بخسائرَ فادحةٍ فلم يكن أمامه سوى الانسحاب. آنذاك، كان الطاعون قد تفشَّى في الجيش. كان هو نفسُه مع قتل كل المرضى باستخدام جرعة زائدة من الأفيون إلا أن كبير أطبائه العسكريِّين رفض ذلك منذ البداية. كانت مئات النقَّالات التي تحمل المرضى والجرحى سببًا في بطء رحلة العودة، أما أفواج الجنود العائدين الذين كانوا يجرُّون أقدامهم إلى القاهرة، فلم يكونوا أقلَّ بؤسًا.

كالعادة، بذل بونابارت كلَّ ما كان في وُسعه لكي تبدوَ الهزيمة وكأنها انتصار. تم عرض الأسرى الأتراك والأعلام التركية التي كان قد تم الاستلاءُ عليها بكل تفاخر. ما كان قد تبقى من الجيش تم تنظيفه قدْر المستطاع للقيام بعرضِ انتصار عسكري في المدينة؛ وفي الخامس والعشرين من أبريل أحبط عمليةً لقوةٍ تركية صغيرة كانت قد رست عند أبو قير بمساعدة بريطانية. لم ينخدع أحدٌ وبخاصة المصريون. فشِلت حملةُ الشرق الأوسط ولم تحقِّق الكثيرَ لسُمعة نابوليون. أزعجته كذلك التقاريرُ التي كانت تصل إلى القاهرة عن أن أوروبا كانت في حالةِ حرب مرةً أخرى، وأن الجمهورية السيسالبينية الإيطالية

التي كان قد أقامها قبل عامين كانت تحت الاحتلال النمساوي الآن، وأن الجيش الروسي كان يتقدَّم، وأن الوضع الداخلي في فرنسا نفسِها كان قد عاد حرِجًا. للمرة الأولى في تاريخه — وليست الأخيرة — ترك جيشَه ليعود إلى بلاده؛ وفي الخامسة من صباح الثاني والعشرين من أغسطس ١٧٩٩م، انسلَّ سرًّا من معسكره وأبحر إلى فرنسا. حتى خليفته في القيادة الجنرال «جان بابتست كليبر Jan Baptiste Kleber» لم يعرف بمغادرته إلا بعد أن كان قد رحل في أمان.

في باريس، كان انقلابُ الثلاثين من بريريال Prairial (18 يونيو) ١٧٩٩م قد أطاح بالمعتدلين في حومة الإدارة، وجاء بآخرين ممن كانوا يُعتبرون يعاقبةً متطرفين، إلا أن الفوضى ظلَّت هي السائدة، وأعلن أحدُ المديرين، «إيمانويل سيس Emmanuel Sieyes» أن الدكتاتورية العسكرية فحسب، هي التي كان يمكن أن تمنع عودةَ الملكية، كما عبَّر عن ذلك بقوله: «إنني أبحث عن سيف.» Je Cherch un Sabre. لم يمرَّ وقت طويل حتى كان ذلك السيف في متناول اليد. منذ لحظةِ وصول بونابارت إلى باريس في الرابع عشر من أكتوبر — بعد أن هرب بمعجزةٍ من الجيش البريطاني — بدأ هو وسيس في التخطيط لانقلابٍ لحسابهما. حدَث ذلك في الثامن عشر والتاسع عشر من «برومير Brumaire» (التاسع والعاشر من نوفمبر)، فأسقط حكومةَ الإدارة وأنشأ حكومة جديدة هي «القنصلية The Consulate»، أو ما عُرف بحكومة القناصل. شكليًّا، كان هناك ثلاثة قناصل، والفعلي أنه كان هناك قنصلٌ واحد، ومنذ ذلك كان نابوليون بونابارت — القنصل الأول — هو «سيد فرنسا».

أمضى الشتاءَ في إعادةِ تنظيم جيشه — كانت روسيا قد انسحبت من التحالف المضاد لفرنسا — والإعدادِ لحملةٍ ضد عدوِّه الرئيسي الباقي؛ النمسا. في ذلك الوقت كان النمساويون يحاصرون جنوة عاصمةَ إحدى صنائعه الأقصر أجلًا؛ الجمهورية الليجورية. كان جنرالٌ أقلُّ منه يمكن أن يتقدَّم جنوبًا من باريس عبْر وادي «الرون Rhone»؛ ولكن نابوليون انعطف شرقًا عند الألب، وقاد رجاله عبْر ممرِّ سان برنار الكبير قبل ذوبان الجليد، وظهر في إيطاليا خلفَ الجيش النمساوي ليفاجئه. لم يكن أمام الجنرال النمساوي «مايكل فون ميلاس Michael von Melas» سوى أن يتركَ جنوة ويعيد تنظيم قواته ويركِّز على «أليساندريا Alessandria»، تَتَبَّعه نابوليون، ليصل إلى قرية «مارينجو Marengo» مساء الثالث عشر من يونيو ١٨٠٠م — كانت في الحقيقة أقربَ إلى مزرعة — على بُعد ميلين ونصف الميل تقريبًا، جنوب غرب المدينة.

كان يمكن أن تضع المواجهةُ التي حدثَت نهايةً لسيرة نابوليون. لم ينتظر ميلاس حتى يهاجمه جيشُ بونابارت؛ ففي صباح اليوم التالي، وبقوةٍ قوامها نحو واحد وثلاثين ألف جندي، فتح مدافعه الثمانين بكلِّ عنف على الفرنسيِّين الذين كان يقدَّر عددُهم بنحو ثلاثة وعشرين ألفًا، واستمرَّ القصف أكثرَ من خمس ساعات. بعد الظهيرة بقليل، بدأ خطُّ قتالهم ينهار، وأُجبروا على التقهقُر مسافةَ أربعة أميال تقريبًا، حتى قرية سان جيليانو San Giuliano. بدا انتصار النمساويين مؤكدًا، إلا أنه — ويا للغرابة! — ربما كان ميلاس البالغُ من العمر واحدًا وسبعين عامًا قد آوى إلى أليساندريا تاركًا القيادةَ لمرءوسٍ غيرِ كفء نسبيًّا، فكانت مطاردتهم بطيئةً وبلا حماسة، مما أعطى نابوليون الفرصةَ لإعادة تنظيم قوَّاته وتلقي تعزيزات مهمة، تحت قيادة الجنرال «لويس ديزيه Louis Desaix»، التي جاءت — لحسن الحظ — من جهةِ الجنوب الشرقي. مع اقتراب المساء، شنَّ هجومًا مضادًّا. قُتل ديزيه في الحال، ولكن جنوده البالغ عددُهم نحو ستة آلاف جندي، وكانوا قد استراحوا واستعادوا نشاطهم، بثُّوا روحًا جديدة في زملائهم، وبحلول الليل كان النمساويون يولُّون الأدبار. عندما انتهت المعركة، كانوا قد فقدوا تسعة آلاف وخمسمائة جندي، بينما كانت خسائر الفرنسيِّين أقلَّ من ستة آلاف جندي.[١٥]

لم يكن أمام ميلاس الآن سوى التوصُّل إلى تفاهم، ساحبًا كلَّ قواته شرق نهر «منسيو Mincio» وشمال الـ «بو Po»، تاركًا للفرنسيِّين السيادةَ الكاملة على وادي الـ بو – Po، حتى نهر أديج. أما نابوليون، الذي لم تتلوَّث سُمعته برغم انتصاره الذي تحقَّق بشِقِّ الأنفس، فعاد إلى باريس حيث تولَّى السلطتين العسكرية والمدنية. في ١٨٠١م، أُجبرت النمسا على توقيع اتفاقية «لونيفي Luneville» التي استعادت فرنسا بموجبها التخومَ القديمة التي كان «يوليوس قيصر Julius Caesar» قد أعطاها لـ «جول Gaul» الراين والألب والبرانس.

كان نجم نابوليون الآن عاليًا في السماء ومستمرًّا في الصعود.

هوامش

(١) سيكتب اسمه Napoleone Bonaparte حتى ١٧٩٦م عندما ترجمه إلى الفرنسية، وأعتقد أنه سيكون من الأسهلِ والأكثرِ بساطةً أن نلتزم بالصيغةِ الفرنسية له ولأسرته طوال الكتاب.

(٢) جاء عنه في تقريرِ امتحانِ القبول: «قيادي، مهيب، عنيد، متشبِّث برأيه».

(٣) المؤيدون للحكم الملَكي.

(٤) تأسَّس النادي اليعقوبي الأصلي لحمايةِ مكاسبِ الثورة ضد رد الفعل الأرستقراطي المتوقَّع، إلا أنه سرعان ما أصبح مقترنًا بنزعةِ المساواتية egalitarianism المتطرِّفة والعنف، التي أدَّت إلى قيامِ الحكومة الثورية من منتصف ١٧٩٣م حتى سقوطِ روبسبيير Robespieroe في يوليو ١٧٩٤م. بحلول شهر يوليو ١٧٩٠م، كان هناك ١٥٢ فرعًا للنادي اليعقوبي في أرجاء فرنسا.

(٥) بوزو دي بورجو Pozzo di Borgo زميلُ باولي والعدو اللدود لآل بونابارت.

(٦) «كافِئ هذا الشابَّ ورقِّه؛ لأنك لو لم تقدِّر خدماته فسوف يقوم هو بترقيةِ نفسه».

(٧) الجمعة السابقة لعيد الفِصْح. (المترجِم)

(٨) السبت السابق لعيد الفِصْح. (المترجِم)

(٩) مجلسٌ أشبهُ بمجلس الوزراء الحديث، كان يضم ١٣ عضوًا بمن فيهم الدوج نفسه، وكان بمثابة الذراع التنفيذية للحكومة. كان رئيسه — الذي يشغَل المنصب بالتناوب أسبوعيًّا — يُعتبر رئيس وزراء الجمهورية.

(١٠) التمييز الوحيد لهذه الدولة عديمة القديمة كان اختيار الألوان الأحمر والأبيض والأخضر لعَلَمِها، والغريب أن أحد التجليات الباكرة للغزو الفرنسي هو الذي أدَّى إلى ظهور العَلَم الوطني الإيطالي.

(١١) كان تاليران قد نأى بنفسه عن الثورة وانعزل عنها بعد إعدام العائلة الملكية في ١٧٩٣م، وذهب إلى — أمريكا — المنفى الاختياري. عاد في ١٧٩٥م بعد سقوط اليعاقبة The Jacobins وأصبح رئيسًا للوزراء في ١٧٩٧م.

(١٢) استمرت أقلَّ من ١٤ شهرًا بسببِ غضبِ نابليون لعدم مغادرة البريطانيِّين الجزيرةَ فورًا، وقلقِ البريطانيِّين لقيامه بضم بيدمونت وإلبا وبارما وبياكنزا في ١٨٠٢م.

(١٣) يعود العمود في الحقيقة إلى زمنِ ديوقليتيان Diocletian في نهاية القرن الثالث، أما المسلَّة فتعود إلى عهد تحتمس الثالث — حوالي ١٥٠٠ سنة قبل عهد كليوباتره، وأهداها محمد علي للحكومة البريطانية في ١٨١٩م، وإن كانت لم تصل إلى لندن سوى في ١٨٧٨م.

(١٤) في رسائله قال نلسون إن الاشتباك حدَث في مكانٍ بالقرب من مصب النيل عند رشيد. الأكثرُ دقةً أن يُطلق عليها موقعة أبو قير.

(١٥) وصلت أخبارُ انتصار نابوليون في مارينجو إلى روما، بعد ساعات من تقاريرِ هزيمته. التغيُّر المفاجئ من الاحتفال إلى مناحةٍ يضيف دراميةً إلى الفصل الثاني من توسكا Tosca بوتشيني Puccini.

الفصل الثاني والعشرون

حاشية عن نابولي

- الجمهورية البارتينوبية: ١٧٩٩م.
- عصيان في نابولي: ١٧٩٩م.
- يا له من إنسانٍ يستحقُّ الرثاء!: ١٨٠٠م.

* * *

استُقبِلت أخبار انتصار نلسون على النيل في إنجلترا بفرح، وربما بفرحٍ أكبرَ في نابولي. كان مِلكُها «فرديناند الرابع.Ferdinand IV»[1] قد جاء إلى العرش في ١٧٥٩م وهو في الثامنة من العمر. كان هو ومِلكته «ماريا كارولينا Maria Carolina» — ابنة الإمبراطورة «ماريا تريزا Maria Theresa»، ملكةِ النمسا والشقيقة الكبرى لسيئةِ الحظ «ماري أنطوانيت Marie Antoinette» — كانا زوجين غير سعيدين. كان فرديناند — «الملك الوغد» كما كان يُعرف (il rè lazzarone) — صبيًّا أخرقَ شغلُه الشاغل الصيدُ واللهو، لم يكن لديه أي ذرة من الكرامة الفطرية، وكان يفاخر بأنه لم يقرأ كتابًا. أما المِلكة فكانت مثقَّفة نسبيًّا، ورغم وعيها بمنزلتها ومكانتها، كانت شديدةَ التسامح مع زوجها الذي لا يُطاق،[2] والذي أنجبت له ثمانية عشر ابنًا؛ وبالرغم من أنها كانت في السادسة عشرة عند زواجها، لم يمرَّ وقتٌ طويل حتى كانت تدير المملكة بكفاءة. أما سياستها الخارجية فكانت تمليها عليها كراهيتها المفهومة للثورة الفرنسية وكلِّ ما كانت تمثِّله.

منذ ١٧٩٧م كانت الأهداف الفرنسية في جنوب إيطاليا واضحةً تمامًا بالنسبة لـ «ماريا كارولينا»، وحتى لرعاياها وللملك فرديناند. في الثاني والعشرين من ديسمبر من

العام نفسِه وفي روما، قام اليعاقبةُ The Jacobins المحليون بمظاهرة مسلَّحة ضد البابا، قُتل فيها ضابطٌ فرنسي، كان في السابعة والعشرين ويُدعى «ليونارد ديبو Leonard Duphot»، بعد أن أطلق عليه جنديٌّ من أتباع البابا النارَ. رفض السفير الفرنسي جوزيف — الشقيق الأكبر لـ «نابوليون» — أن يستمعَ إلى إيضاحات الفاتيكان، وقام بإبلاغ حكومة الإدارة بأن القساوسة قتلوا أحدَ ألمع ضباطه الشبان، وكانت النتيجة أن صدرت الأوامر للجنرال «لويس بيرتييه Louis Bertier» بالزحفِ على روما. لم يقابَل بأيِّ مقاومة، وفي العاشر من فبراير ١٧٩٨م كان قد احتلَّ المدينة؛ وبعد خمسة أيام أُعلنت الجمهورية الجديدة من الساحة العامة. عومل «البابا بيوس السادس Pope Pius VI» (٨٠ سنة) معاملةً فظَّة شديدة القسوة؛ حيث كانت تُنزع الخواتم من أصابعه عَنوة، ونُقل إلى فرنسا ليموت بائسًا في «فالنس Valence» في أغسطس ١٧٩٩م.[٣]

ماذا كان بوسع نابولي أن تفعل؟ كان الفرنسيون الآن على الأبواب؛ فمن ذا الذي يستطيع أن يمنعهم من اجتياز الحدود، أو يوقفهم إن هم فعلوا ذلك؟ باحتلال نابوليون لمالطة في ١٧٩٨م، كان الخطر يلوح أكثرَ وضوحًا. لا عجب إذن أن يكون أهالي نابولي قد فرِحوا لأخبار معركة النيل، أو حتى عندما وصل نلسون على سفينته «فانجارد Vanguard» في أواخر سبتمبر، ليُستقبل استقبالَ الأبطال؛ وفي التاسع والعشرين من الشهر، أُقيم حفل رائع حضره نحو ألف وثمانمائة ضيف بمناسبة عيد ميلاده الأربعين، بواسطة الوزير المفوَّض البريطاني سير «وليم هاملتون William Hamilton» وزوجته «إمَّا Emma» في «بالازو سيسا Palazzo Sessa»؛ ولكن الحفل لم يكن ناجحًا بالنسبة لـ «نلسون». صباح اليوم التالي، كتب إلى «لورد سان فانسا Lord St Vincent» يقول:

> أثقُ يا سيدي أننا، في غضون أسبوع، سنكون قد عُدنا كلُّنا إلى البحر. أنا معتلُّ الصحة تمامًا، وليس من المرجَّح أن يساعد السلوك البائس لهذا البلاط في تهدئة مزاجي السيئ. هذه بلادُ شعراء وعازفين وبغايا وأوغاد …

كانت الأشهر التالية بالفعل أشبهَ بكابوس ثقيل. في أوائل أكتوبر، وصل الفيلد مارشال النمساوي «البارون كارل ماك فون ليبرش Baron Karl Mack von Leiberich»، ليتولَّى قيادةَ جيش نابولي المكوَّن من خمسين ألف مقاتل، الذي زحف شمالًا في حينه، وبين صفوفه ملِكٌ يرتعد. غني عن القول أنهم كانوا عاجزين عن إيقاف تقدُّم الفرنسيِّين، وبأوائل سبتمبر كان المزيد منهم، ضباطًا وجنودًا، قد خلعوا لباسَهم العسكري وعادوا إلى

بلادهم. المِلكة التي لم يكن المصير التعس لأختها قد بارح خيالَها، كتبت عدةَ مرات إلى ليدي هاملتون تأسى لِجبنِهم، ولكن عندما ترك زوجها الجيش بدوره لم تكن هناك رسائلُ أخرى بخصوص ذلك. في الثامن عشر من ديسمبر، وصلت رسالة من «ماك Mack» الذي كانت معنوياته في الحضيض، يعترف فيها بأن جيشه — الذي لم يكن قد خاض معركةً واحدة — كان ينسحب الآن بكامله، ويناشد سموَّهما المغادرةَ حيث كان ما زال هناك وقتٌ لذلك. كتب نلسون إلى الوزير المفوَّض في القسطنطينية يقول: «لا أعرف أن العائلة الملكية كلَّها، مع ثلاثة آلاف مهاجر من نابولي لن يكونوا تحت حماية عَلم المِلك هذه الليلة.»

وهو ما كان بالفعل، رغم أن فانجارد لم تغادر نابولي حتى مساء اليوم الثالث والعشرين بسبب سوء الطقس والارتباك النابولي المعتاد؛ وليلة عيد الميلاد سجَّل نلسون: «كانت أشدَّ عاصفةٍ خبرتها منذ عرفت البحر.» كان الكل في حالة رعب على متن السفينة. وحدَها، من بين كل الركَّاب، كانت إمَّا هاملتون رابطةَ الجأش، أما سير وليم فقد وجدوه في قَمرته ممسكًا بكلتا يديه بمسدسٍ محشوٍّ بالطلقات؛ لأنه — كما أوضح لزوجته — كان قد قرَّر ألا يموت «وقرقرة الماء المالح في حلقة». الأمير «ألبرت Albert» الصغير (٦ سنوات) مات من الإرهاق بين ذراعي إمَّا، ولكن السفينة رست أخيرًا في الثانية من صباح السادس والعشرين في ميناء باليرمو، وبعد ساعات قليلة، دخل سمو الملك الصقلي رسميًّا العاصمةَ الثانية لمملكته.

استقرَّ المِلك والمِلكة في ما أصبح يُعتبر القصر الملكي، وفي الوقت نفسِه انتقل نلسون مع آل هاملتون. كان مرهقًا تمامًا، ولم يكن قد برأ من جُرح في رأسه من أثرِ معركة أبو قير؛ كان يتشاجر مع القيادة البحرية دائمًا، كما كانت علاقته بزوجته كذلك مصدرَ إزعاج شديد له. كان في حاجة إلى دعم عاطفي، وهو ما وفَّرته له إمَّا هاملتون، كما أوفت خبرتها السابقة كمحظية بالباقي! كان في صقلية أن بدأت علاقتهما الشهيرة.

عندما وصلت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال «جان-إيتيان شامبيونيه Jean-Etienne Championnet» إلى نابولي في منتصف يناير، وجدوا الروحَ المعنوية لدى العامة أكثرَ ارتفاعًا منها بين صفوف الجيش. كان الدَّهماء (أو اللازاروني lazzroni كما كان يُطلق عليهم) على استعدادٍ للهجوم على الغزاة بضراوة، وكان هناك قتالٌ عنيف يدور من بيت لبيت. في آخرِ الأمر، كان لا بد من أن يستسلم الدهماء، ولكن ليس قبل أن يقتحموا القصر الملكي وينهبوه. قاموا بذلك بكل ضمير مستريح تقريبًا … ألم يكن ملِكُهم قد تخلى عنهم؟ ثم ألم يكن من الأفضل أن يترك كنوزه لرعاياه بدلًا من أن يتركها لأعدائه الفرنسيِّين؟

عندما استتبَّ الوضع في النهاية وساد الهدوء، كان أحدُ الضباط الفرنسيِّين يلمِّح بما معناه أن بونابارت لو كان هناك شخصيًّا، لما ترك حجرًا على حجر في المدينة، ولكن لحسن الحظ أن شامبيونيه كان شخصًا معتدلًا ... كان إنسانًا طيبًا. بهدوء ودبلوماسية، أسَّس ما عُرف بـ «الجمهورية البارتينوبية Parthenopean Republic»[٤] على النموذج الفرنسي الثوري. أُعلنت رسميًّا في الثالث والعشرين من يناير ١٧٩٩م واكتسبت عددًا من الموالين الإيطاليِّين، وثم إنه كان من الواضح للجميع أن ذلك كان نتيجةً للغزو، وأن الجيش الفرنسي كان الداعم الوحيد لها.

بالنسبة للملِكة كارولينا، كانت الحياة في صقلية «أسوأ من الموت». كانت تعتقد أنها وزوجها قد أُهينا ولحِق بهما العار. كان شتاء ١٧٩٨–١٧٩٩م، شديدَ البرودة والثلج يغطي الشوارع — وكانت تلك ظاهرةً نادرة في باليرمو — ولم يكن بالقصر وسائلُ تدفئة ... ولا حتى سجاجيد. كذلك فإن زوجها كان قد انقلب عليها ويلومها؛ لأنها هي التي ورَّطته في تلك الحملة المخجِلة وأثقلَت كاهله بذلك الجنرال البائس ماك. إلا أن روحها لم تَضعُف. كانت تمنِّي نفسَها بثورة مضادة، ورحَّبت — بحماسة — بفكرةٍ عملية من هذا النوع، بالرغم من أنها جاءت من شخصٍ كان أبعدَ ما يكون عن هذا التصوُّر.

كان الكاردينال «فابريزيو رافو Fabrizio Ruffo» قد تخطَّى الستين من العمر. كان قد عمل وزيرًا للمالية لدى البابا بيوس الثالث، ولكن كل مشروعاته للإصلاح في روما كانت قد قوبلت بالرفض باعتبارها شديدةَ الراديكالية. كان على إثر ذلك أن تقاعدَ في نابولي، ومن هناك كان أن تبِع البلاط في باليرمو. الآن كان الكاردينال يقترح القيامَ بعمليةِ إبرار في وطنه كالابريا، أولًا: لحمايتها من أي زحفٍ فرنسي (ومن النظام الجمهوري الإيطالي كذلك)، وثانيًا: استعادة نابولي لمِلكها. كان يرى أن ذلك لن يتحقَّق سوى بحملة صليبية، ولم يكن لديه أدنى شكٍّ في أن كل أبناء بلده (كالابريا) سوف يتجمَّعون حول الصليب.

رسا رافو، كما كان مخططًا، في السابع من فبراير مع ثمانية رفاق. انضم إليه ثمانون من اللازاروني (الدهماء) المسلَّحين على الفور؛ وفي نهاية الشهر، كان عدد قوة «جيش الإيمان المسيحي المقدَّس» قد ارتفع إلى سبعة عشر ألف رجل. كان رافو قائدًا بالفطرة، وسرعان ما اكتسب ثقتَهم وحبَّهم. في سنة ١٧٩٩م كتب سكرتيره وكاتب سيرته «ساشينيللي Sacchinelli»: «لم يكن هناك أيُّ مزارع مسكين في كالابريا كلِّها إلا وكان

هناك صليب يمثِّل المسيح مصلوبًا على أحدِ جانبي سريره، وبندقية على الجانب الآخر.» في ٣١ مارس، كان الكاردينال قد أقام مركزًا رئيسيًّا في مدينة «مونتليون Monteleone»، وكانت إحدى المدن المهمة، ثم في «كاتنزارو Catanzaro»، ثم في «كوترون Cotrone»؛ ولكن الذي لا شك فيه أنه كانت لديه مشكلاته كذلك. كان جيشه المستهتر يفتقر إلى الانضباط، لم يكونوا صليبيِّين يتصرفون على نحوٍ أفضل من أسلافهم في العصور الوسطى. على سبيل المثال، كانت مدينة كوترون عرضةً لعمليات سلب ونهب لم تبرأ منها قط. تلك الفظائع كان لا بد من أن تدمِّر سُمعته، رغم أنه شخصيًّا كان معتدلًا وإنسانًا طيبًا، ويفضِّل التحول الديني السلمي على العنف. ولكنَّ زخم نجاحاته استمر، وشجَّع ذلك على انتشار حركات مماثلة في الجنوب الإيطالي. هو نفسه، بعد أن استعادَ كالابريا كاملة، زحف شرقًا على «أبوليا Apulia»٠؛ حيث أحرز انتصاراتٍ مماثلة. بحلول الأول من يوليو كان على أبواب نابولي — التي بفضل حصار أسطول بريطاني بقيادة الأدميرال «السير توماس تروبردج Sir Thomas Troubridge» للخليج، كانت على شفا مجاعة.

في الحادي عشر من يونيو، وبعد أن سمِعوا بقرب وصول الكاردينال، هبَّ أهالي نابولي وأعلنوا العِصيان، ونشب القتال في أرجاء المدينة. بحثًا عن الطعام، وتحت القصف الفرنسي الرهيب من قلاع «سانت إلمو St Elmo» و«نوفو Nuovo» و«أوفو Ovo»، كان اللازاروني ينقضُّون بكل وحشية على أيٍّ من اليعاقبة يمكن أن يقع في أيديهم فرنسيًّا كان أو إيطاليًّا؛ وهناك رواياتٌ كثيرة عن فظائع رهيبة: عن بتر الأعضاء وأكل لحوم البشر وقطع الرءوس ورفعها على أسنَّة الرماح أو ركلها بالأقدام مثل الكرة في الشوارع، وعن نساءٍ اتُّهمن باليعقوبية، كن عُرضةً لأسوأ صور الامتهان. كان الكاردينال المفزَع يحاول التصدي لذلك بكل جهده، ولكنهم كانوا قد أوغلوا في حمَّام الدم؛ وباختصار، لم يكن له حولٌ ولا قوة أمام هيستريا الدهماء تلك. استمرت عمليات العربدة والتخريب نحوَ أسبوع. كانت المفاوضات معطَّلة بسببِ عدمِ قدرة قادة القلاع الثلاث على الاتصال بعضهم ببعض؛ وفي التاسع عشر من الشهر استسلمت القلعتان الفرنسيتان رسميًّا وبقيت سانت إلمو وحدَها صامدة. حتى في ذلك الوقت كانت هناك مشكلات: كان الملِك والملِكة — وآل هاملتون بالطبع — مصرَّين على عدم إبداء أي رحمة حيال أيٍّ من اليعاقبة الباقين على قيد الحياة، بينما كان رافو وأصدقاؤه يرون بوضوح، خطرَ عودة ثنائي ملَكي لا يفكِّر سوى بالثأر.

نلسون، لأسبابٍ غيرِ مفهومة ولسوء الحظ كذلك، انحاز إلى الجانب الملكي. سياسيًّا، كان ساذَجًا بدرجة غير عادية، كما أن درايته بالأوضاع في نابولي كانت محدودةً بالآراء

المنحازة التي كان يلتقطها من الملِك والملِكة وآل هاملتون من وقت لآخر. لم يكن يعرف كلمةً واحدة من أي لغة أخرى غير لغته. وكبروستانتي إنجليزي يميني عملي، لم يكن يثق بالكاردينال، وعندما وصل إلى نابولي لم يتردَّد في فرض نفوذه عليه — مصرًّا كما كان أصدقاؤه كذلك مصرِّين — على استسلامٍ غير مشروط. بناءً على ذلك، خرج نحو ألف وخمسمائة متمرد من الذين كان رافو قد أنقذهم من الدهماء ووفَّر لهم مأوًى في مخازن القمح التابعة للبلدية. كانوا يتوقَّعون خروجًا آمنًا إلى بلادهم، إلا أن الحكومة الملكية الجديدة أمسكت بهم وأعدمت الكثير منهم. هل خانهم نلسون؟ الأرجح أنه لم يفعل. كلُّ ما نعرفه عن شخصيته يدُل على أنه ما كان ليفعل ذلك، ولكنَّ تأثيرَ آل هاملتون عليه كان من القوة بالدرجة التي تجعله يقبَل بوجهة نظرهم دائمًا.

أُدين نلسون كذلك، مع مبرِّرات أكبرَ، بسبب معاملته للكومودور فرانسيسكو كاراكيولو Commodore Francesco Carraciolo كبيرِ الضباط السابق في بحرية نابولي، الذي كان قد نقل ولاءه للجمهوريِّين. بعد عشرة أيام من الهرب متنكرًا، وُجِد كاراكيولو مختبئًا في حفرةٍ عميقة، وجاءوا به ليمْثُل أمام نلسون على ظهر السفينة «فودرويانت Foudroyant». وفي العاشرة من صباح الثلاثين من يونيو جرَت محاكمته عسكريًّا وحُكم عليه بالإعدام. في الخامسة بعد الظهر شُنق على طرَف عارضة الشِّراع. بقيت جثَّته معلَّقة حتى الغروب — كنَّا في منتصف الصيف — عندما قطعوا الحبل لتسقط في البحر. لم يُسمح له بشهودٍ للدفاع عنه، ولا بقسٍّ ليستمع إلى اعترافه الأخير. كانوا قد رفضوا طلبه بأن يُعدَم بإطلاق النار عليه بدلًا من الشنق. ربما كان خائنًا، ولكنَّ المؤكَّد أنه كان يستحق معاملةً أفضل. لماذا سمح نلسون بذلك؟ بكل بساطة، سمح بذلك بسبب غرامه بـ «إمَّا Emma». كان مفتونًا بها. كان نلسون أكثرَ ما يكون جموحًا وإقدامًا عندما يكون على سفينته والبحر من تحته، خارج عالَمه وبين ذراعي عشيقته لم يكن أكثرَ من طفل.

في الأسبوع الأول من يوليو، عاد الملِك إلى نابولي تاركًا ماريا كارولينا، إلا أنه لم يمكُث هناك طويلًا. لم يحدُث قط، على مدى الأربعين عامًا التي كان فيها على العرش، أن خطر بباله أن يكون له أعداء في المدينة، الآن كان متأكدًا من وجودهم، وهزَّه ذلك بشدة. من هنا، كان يفضِّل أمان باليرمو حيث كان ما زال يستطيع أن يخدع نفسه ويتصوَّر أنه محبوب. في الثامن من أغسطس، أبحر عائدًا إلى مينائها مع نلسون على متن فودرويانت ومعه الملِكة. هبط الاثنان على الشاطئ وسط طقسٍ رسمي؛ حيث أُطلِقت ٢١ طلقة مدفعية تحية لهما، قبل أن يذهبا للصلاة شكرًا في الكاتدرائية.

بالنسبة لـ «فرديناند» و«ماريا كارولينا» و«آل هاملتون»، مضتِ الحياة كما كانت في السابق — باستثناء أنه لم يكن هناك الآن أيُّ سببٍ قوي يدعوهم للبقاء في باليرمو. كانت الملِكة تهفو إلى نابولي، بينما كان الملِك يمقت تلك المدينة. لم يقُل قطُّ إنه كان على استعدادٍ أو يريد أن يعود؛ وبينما كان آل هاملتون — من وجهةِ نظرٍ سياسية — مع العودة، إلا أنهم كانوا راضين تمامًا حيث هم. أما بالنسبة للسير وليم فكان عليه أن يبقى مع فرديناند باعتباره موفدًا شخصيًّا له، كذلك فإن نابولي كانت تحمل ذكرياتٍ أليمة بالنسبة له، إذ كانت المجموعة الثانية من مقتنياته من المزهريات اليونانية قد فُقدت في حادثِ غرق سفينة في أغسطس ١٧٩٨م.

كان المصير الأسوأ هو مصيرَ نلسون. كان عليه أن يبقى على البرِّ في باليرمو حتى يونيو ١٨٠٠م. عشرة أشهر استنزف فيها غرامه بـ «إمَّا» روحَه المعنوية، ويبدو كذلك أن هذا الهُيام أثَّر في ضميره وشعوره بالواجب. على مدى النصف الأول من تلك الفترة، كان المفترض أنه قائد أسطول البحر الأبيض، إلا أنه — عمليًّا - كان يترك كل شيء لمرءوسيه. لم يكن موجودًا لكي يكتشف بونابارت عندما انسلَّ خارجًا من مصر ... لو حاول ونجح، فلربما كان مسارُ التاريخ قد تغيَّر. كان زملاؤه قلِقين عليه، وكانت التقارير المرتبكة تصل إلى لندن حيث كان صبرُ القيادة البحرية قد بدأ ينفد، وكان اللورد الأول «سبنسر Spenser» على وشْك أن يصدِر قرارًا بإعفائه من قيادة الأسطول. في يناير ١٨٠٠م، عاد لورد «كيث Keith»، (وكان أقدمَ منه) إلى العمل، وأمر نلسون بأن ينضم إليه للقيام بتفتيشٍ على حصار مالطة، ولكن الجنرال عاد فورًا إلى باليرمو حيث كانت إمَّا — كانت حاملًا آنذاك دون أي شعور بالخزي — في استقباله بالأحضان.

عاد نلسون وآل هاملتون إلى مالطة في أبريل ١٨٠٠م، بالرغم من أن رحلتهم كانت نزهةً أكثرَ منها زيارةً بحرية مهمة. في تلك اللحظة، تسلَّم سير وليم رسالةَ استدعائه، وهكذا أبحرَ ثلاثتهم أخيرًا إلى إنجلترا في شهر يوليو — وحيث إن كيث كان قد رفض إعطاءَ نلسون سفينةً حربية، قام هو بالاستيلاء على بعض سفن حصار مالطة دون إذن — ومعهم في أول مرحلة من الرحلة الملكة ماريا كارولينا، التي كانت في طريقها لزيارة عائلتها في فيينا. أنزلوها في ليفورنو Livorno؛ حيث التقَوا مصادفةً بالجنرال سير جون مور General Sir John Moore، الذي كان في طريقه إلى مصر. كان تعليقه: «إنه لأمرٌ مؤسف فعلًا أن أرى رجلًا شجاعًا بارعًا، كان يستحق من وطنه الكثير، وقد أصبح هكذا إنسانًا يستحق الرثاء.»

في آخر الأمر، استقر آل هاملتون في لندن؛ حيث وُلدت «هوراشيا Horatia» ابنةُ نلسون في يناير التالي. في ذلك اليوم نفسِه، عُيِّن قائدًا لأسطول البلطيق؛ الأمر الذي ربما يكون قد أنقذ سُمعته وتاريخه.

هوامش

(١) بالنسبة لصقلية كان «فرديناند الثالث»؛ أما بالنسبة للصقليِّين فكان «فرديناند الأول». لا بد من أن ينتبه المؤرخ والقارئ لذلك.

(٢) قالت عنه لأخيها الإمبراطور جوزيف عندما جاء إلى نابولي: Er ist eim recht gutter Narr (إنه أحمقُ حقيقي). ترك جوزيف شهادةً ساخرة عن هذه الزيارة. انظر: H. Acton, The Bourbons of Naples, pp. 135–49.

(٣) أُخرج جثمانه بعد ذلك من القبر وأُعيد إلى روما؛ حيث كان كانوفا Canova قد صمَّم له مقبرة رائعة.

(٤) كانت بارتينوب Parthenope مستوطنةً يونانية قديمة مكان نابولي في القرن السادس ق.م.

الفصل الثالث والعشرون

مصر بعد نابوليون

- حملة أبركرومبي: ١٨٠٠م.
- موقعة الإسكندرية: ١٨٠١م.
- الفرنسيون يسلِّمون القاهرة: ١٨٠١م.
- حصار الإسكندرية: ١٨٠١م.
- الحملة المصرية: الخلاصة: ١٨٠١م.
- محمد علي.

* * *

انسلَّ نابوليون خارجًا من مصر بطريقةٍ شائنة في أغسطس ١٧٩٩م، ليترك نائبه كليبر في وضعٍ لا يُحسَد عليه. كان الوضع شديدَ الاضطراب، وكانت الحالة المعنوية بعد الحملة الفاشلة على سوريا متردية أكثرَ منها في أي وقت مضى. كان كثيرٌ من جنود الجيش مرضى والطعامُ شحيحًا والماء الصالح للشرب أكثرَ ندرةً. إلا أن كليبر نجح في التوصُّل إلى هدنة مع سير سيدني سميث Sir Sidney Smith، كان من بين شروطها أن يعود جيشه إلى فرنسا على نفقة السلطان وحلفائه — ولم يحدُث. كان كلا الطرفين يعصي الأوامر. وكما كان كليبر يعرف جيدًا، كان القنصل الأول قد أعطى تعليماته الصريحةَ بأن يبقى الجيش في مصر، إلى أن يتم توقيع اتفاقية سلام شاملة؛ وبينما كان سميث متلهفًا على خروج الفرنسيين من البلاد، كان بالمثل قد تجاهل ذلك الأمرَ الصريح من لندن، بعدم وضعِ أي شروط لا تتضمَّن الاستسلام الكامل للقوات الفرنسية كأسرى حرب. لم يكن هناك ما يدعو للاستغراب؛ لأن اللورد كيث قائد قوات البحر الأبيض، رفض تمامًا التصديقَ على الوثيقة.

في الوقت نفسِه، كان الإنكشارية الأتراك يزحفون مرةً أخرى. لم يكن أمام كليبر من خيارٍ سوى أن يضع جنوده على أهبةِ الاستعداد للقتال، وفي النهاية برهن على أنه كانت ما تزال فيهم حياة. في العشرين من مارس ١٨٠٠م، هُزم الأتراك عند هليوبوليس، وبعد شهر قبل استسلام حامية القاهرة. في ذلك الوقت، كانت الحكومة البريطانية قد قرَّرت أخيرًا أن تصدِّق على هدنة سميث، إلا أن هذه النجاحات الأخيرة أضافت تعقيداتٍ مختلفة. رغم إرهاق الفرنسيِّين وحنينهم للعودة إلى بلادهم، كانوا قد عادوا إلى الانضباط وأصبحوا تحت السيطرة. لم يَعُد الجلاء عن مصر قضيةً تشغَل معظم كبار الضباط. كان كليبر نفسه أحدَ الذين ما زال لديهم شكوك، ولكن في الرابع عشر من يونيو — نفس يوم مارينجو — تم اغتياله في القاهرة على يد مسلمٍ متعصِّب ليخلفه المغرور البطين (عظيم البطن) «جاك مينو Jack Menon» (أو عبد الله مينو كما أصبح يفضِّل أن يُدعى). كان مينو قد تحوَّل إلى الإسلام حديثًا — وكما كان «يُعتقد إلى حدٍّ كبير — لكي يتزوج من مصرية» كانت ابنةَ أحد أصحاب الحمَّامات العامة في رشيد، المدينةِ التي كان حاكمًا عليها قبل ذلك. رغم أن كليبر كان شجاعًا إلى حدٍّ ما ولا يعوزه الذكاء، فإنه لم يكن يحسِن الإدارة. باختصار، لم يكن كفئًا لما كان ينتظره من مسئوليات.

بعد أن انزاحت النمسا عن كاهله، عادت أفكارُ نابوليون مرةً أخرى إلى النيل. في ديسمبر ١٨٠٠م، كتب إلى شقيقه «لوسيان Lucien» يقول: «القضية الكبرى الآن هي مصر ... لتقوية الشعور لدى القوات هناك بأهميةِ مهمتهم.» كانت مصر هي رأسَ الجسر ونقطةَ الانطلاق وبوابة الشرق. أُعيد إحياء الحُلم القديم: حملة مجيدة من السويس تكتسح البحر الأحمر؛ وفي عملية واحدة، تطرُد البريطانيِّين من الهند إلى الأبد. بذلك سيصبح — نابوليون طبعًا — سيدَ مملكته الشرقية القوية، سيصبح الإسكندرَ الأكبرَ لعصره.

في الوقت نفسِه كان الحُلم ذاته يأخذ شكلَ الكابوس في إنجلترا، وكان هناك مَن يأخذون هذا الخطر على محمل الجِد بالفعل. من بين هؤلاء، كان هناك «هنري دانداس Henry Dundas» رئيس الدائرة الحربية، المحامي الاسكتلندي الصارم، الذي كان رئيسه «وليم بت William Pitt» يقول عنه «إن إلمامه الشامل بتاريخ الهند ... رغم وجودِ مَن يضارعه في الحكومة، ليس هناك ما يفوقه.» كان واضحًا بالنسبة لـ «دانداس» أن الحلَّ الوحيد يكمُن في ضربةٍ استباقية، كما كان واضحًا بالدرجةِ نفسِها أن مثل تلك الضربة لا بد من أن تقوم بها القوةُ البريطانية المكوَّنة من اثنين وعشرين ألف جندي، تحت

قيادةِ أحدِ أقاربه، الجنرال الاسكتلندي سير «رالف أبركرومبي Ralf Abercromby»، التي كانت آنذاك موجودةً في جبل طارق. لن يكون هدفُها احتلال مصر، وإنما مجرد طرد الفرنسيِّين. بذل دانداس جهدًا لإقناع بعض زملائه — كان الملك جورج الثالث نفسه ما زال يتذكَّر جيدًا الحربَ الأمريكية قبل ربع قرن، وكان يتوقَّع، بأسًى، أن أي جيش يُرسَل إلى مصر سوف يموت من الجوع أو المرض أو من كليهما — وبدعمٍ قوي من «بت Pitt» تم اتخاذُ القرار.

كان أبركرومبي آنذاك في السادسة والستين. كان نزيهًا، ورفض رتبةَ نبيل، وأراضيَ على سبيل الهِبة في جزر الهند الغربية، وكان قد رفض كذلك تنفيذَ أمرٍ في أيرلنده تمسكًا بمبدأ، كما تجنَّب الخدمة في أمريكا بسبب تعاطفه مع الثوار. إلا أنه كان قد حارب في الأرضي المنخفضة والكاريبي؛ حيث قاد في ١٧٩٦م أكبرَ حملةٍ أُرسلت إلى الخارج، وبالرغم من الأوبئة المختلفة مثل الملاريا والحمَّى الصفراء، استطاع أن يستعيدَ الكثير من الجزر المهمة من الفرنسيِّين، بما في ذلك «ترينيداد Trinidad». كانت أحدَث عملياتٍ لمحاولة تدمير الأسطول والترسانة الإسبانيَّين في «كاديز cadiz» (قادش) قد فشِلت في ١٨٠٠م: فشِلت القوات البريطانية حتى في أن ترسوَ. كان الخطأ الرئيسي هو خطأ قائده الأعلى «لورد كيث Lord Keith»، ثم كانت عاصفةٌ استوائية عاتية قد تكفَّلت بالباقي. كان أبركرومبي قد وصل إلى جبل طارق مجروحَ الكرامة إلا أن سجلَّه كان نظيفًا.

بالرغم من أنه كان مصرًّا على أن الحملة المصرية القادمةَ سوف تستعيد له كرامته، لم يكن لديه أية أوهام بالنسبة لصعوبتها. لم يكن لديه عرباتٌ ولا ماشيةٌ للجرِّ، كان لديه عددٌ قليل من الخيَّالة وكميةٌ أقلُّ من المدفعية. لم يكن لديه خريطة واحدة للمنطقة، ولكنَّ الفرنسيِّين كان لديهم الكثير منها بفضل علماء المساحة لديهم. الماء كذلك سيكون مشكلة. كما كان البريطانيون لا بد من أن يعتمدوا على البحرية في عمليات الإمداد والتموين. نظريًّا، سيكون لديه دعمٌ كبير من الجيش التركي، ولكن الميجور جنرال «جون مور John Moore» الذي كان قد أوفده في مهمةٍ لتقصي الحقائق إلى مراكز القيادة التركية في «يافا Jaffa»، كان قد عاد ليقول في تقريره إن الأتراك كان لديهم القليل من المؤن، إلى جانب أنهم غير منضبطين، وأن وزيرهم الأول كان عجوزًا أعورَ، ويفتقد كلَّ صفات القيادة والمعرفة العسكرية، مضيفًا أن البريطانيِّين سيكونون أفضلَ حالًا إن هم اعتمدوا على أنفسهم.

تجمَّعت القوتان البرية والبحرية في شتاء ١٨٠٠–١٨٠١م على ساحل آسيا الصغرى، وعند فجر الثاني والعشرين من فبراير أعطى الأدميرال لورد كيث الأمرَ برفع المراسي ليبحرَ الأسطول على مدى الساعات العشر التالية، خارجًا من الميناء سفينةً بعد أخرى. كان عددُها لا يقل عن ١٧٥ سفينة. في هذا السياق، كتب «روبرت Robert» ابنُ أبركرومبي من على ظهر السفينة الملَكية «كنت Kent» يقول: «لم يحدُث قطُّ أن كان شرف الجيش البريطاني على المحكِّ مثلما كان آنذاك، كما لم يجتمع عددٌ مماثل من البريطانيِّين أكثرُ إصرارًا على أن تبقى كرامةُ بلادهم وكرامتهم عالية.» في الثاني من مارس ١٨٠١م، اتَّجه الأسطول صوبَ خليج أبو قير، ولكنَّ الطقس كان يزداد سوءًا بشكلٍ مطَّرد، ولم يهدأ قبل مرور أسبوع آخرَ لكي تتمكَّن السفن من الرسو. وبفضل الخبرة المستمرة في «مارماريس Marmaris»، تم ذلك في اليوم الثامن، لينزل إلى البر نحو ثلاثة عشر ألف جندي مشاة وألف جندي خيَّالة وستمائة جندي مدفعية … كلهم في يوم واحد. كان الفرنسيون ينتظرونهم. ولكن مينو، الذي كان قد بقي على اعتقاده بأن الرسوَّ في أبو قير لن يكون سوى عمليةِ تمويهٍ أو مجرد صرف للانتباه عن عمليةٍ أخرى كبيرة، كان قد احتفظ بالقوة الرئيسية لجيشه في الإسكندرية على سبيل الاحتياط، وأرسل أحدَ مرءوسيه، الجنرال «لويس فريان Louis Friant» على رأس قوة صغيرة من ألفي جندي لمواجهة الغزاة. فريان، الذي كان معه ثلاثة مدافع حديدية ونحو عشرة مدافع ميدان، كان كلُّه ثقة في قدرته على التعامل مع خطٍّ مهلهَل من السفن، وجماعات صغيرة من الجنود، يصارعون على الشاطئ قدْرَ استطاعتهم؛ ولكنَّ التدريب الواسع الذي كانت القوة البريطانية قد مارسته في مارماريس لم يكن هباء. متجاهلًا النيرانَ الفرنسية، قاد مور قوَّته بلا خوفٍ في تشكيلٍ كأنه عرضٌ عسكري على الشاطئ؛ حيث قاموا بسرعة بتنظيم خط، وثبَّتوا حِرابهم وبدءوا القتال. الفرنسيون الذين كانوا أقلَّ عددًا تفرَّقوا ولاذوا بالفرار.

ولكنَّ خسائر البريطانيِّين كانت كبيرة في ذلك الصباح. فقدَ الجيش ٦٢٥ مقاتلًا والبحرية نحو مائة. كانت خسائرُ العدوِّ أقلَّ إلى حدٍّ ما، إلا أن نتيجةَ المعركة كانت محسومة. كان ذلك أكبرَ انتصار على الفرنسيِّين تحتفظ به الذاكرة، كما أن ثبات الجنود البريطانيِّين وبسالتهم تحت النيران فاقت الوصف. لقد انتصروا … وعلى نحوٍ بطولي … وفازوا بأولِ موضعِ قدَمٍ على أرض مصر. ارتفعت الروح المعنوية إلى عَنان السماء. بدءوا يتطلعون إلى المستقبل بثقة. تقدَّم أبركرومبي في شبه الجزيرة إلى الإسكندرية بحذرٍ شديد. كان لا بد من أن يدخل المدينةَ، ولكنَّ الأرض كانت مجهولةً تمامًا بالنسبة له، ولم

يكن الفرنسيون ليكرروا خطأهم. في الثالث عشر من مارس وقعَ هجومٌ على قواته، ثم تكرَّر الهجوم في الثامن عشر، إلا أن ذلك لم يكن أكثرَ من مناوشاتٍ صغيرة. بعد ثلاثة أيام من الهجوم الثاني جاءت لحظة الحقيقة.

بدأت معركة الإسكندرية عند فجر السبت ٢١ مارس لتستمر أربع ساعات. حارب الطرفان بشجاعة، كان القادة — باستثناء مينو — أمثلةً تُحتذى لجنودهم. في الجانب الفرنسي، ربما كان الجنرال «فرانسوا لانوس François Lanusse» — قُتل في المعركة وكان في التاسعة والعشرين — هو الأكثرَ شجاعةً، كما كان واحدًا من أكثرِ القادة وضوحًا للرؤية.[١] في الجانب البريطاني، كان مور — مرةً أخرى — هو بطل الساعة. أُصيب في بداية المعركة بجُرحٍ خطرٍ في ركبته، وبعد ذلك قُتِل حصانه تحته، ولكنه واصل القتال على نحوٍ «يفوق الوصف»، كما قال شاهد عَيان. أما بالنسبة لـ «أبركرومبي» نفسِه فقد أُصيب في المراحل الأولى من المعركة بطلقةِ بندقيةٍ استقرت في مفصل فخذه، وكان الأطباء يعجبون كيف كان يتحرك في الميدان، ولم يسمح بحمله على نقَّالة إلا بعد توقف القتال. أخذ أحد صغار الضباط بطانيةَ جندي ليضعها تحت رأسه كوسادة، فتمتم الجنرال: «ما هذا؟» أجاب الضابط: «إنها بطانية أحد الجنود يا سيدي.» فكان ردُّه: «بطانية جندي؟! بطانية الجندي شيءٌ بالغ الأهمية بالنسبة له، أعِدها إليه فورًا.» وبعد أسبوع مات.

كان خليفته الميجور جنرال «جون هيلي-هتشنسون John Hely Hutchinson» مكروهًا في الجيش بقدْرِ ما كان أبركرومبي محبوبًا، لدرجةِ أن مجموعةً من كبار الضباط كانوا يتآمرون للإطاحة به، وكان من المحتمل أن ينجحوا في ذلك لولا المعارضة الشديدة من جانب مور، الذي كان ما زال يتماثل للشفاء. كتب سير «هنري بنبري Henry Bunbury» زميل هيلي-هتشنسون، وكان يعرفه جيدًا، كتب يقول:

> كان في الرابعة والأربعين، ولكنه كان يبدو أكبرَ من ذلك بكثير، ملامح خشنة زاد المرضُ من قسوتها، قِصَر نظر شديد، وجسد منحنٍ، ومِشية مترهِّلة ... وإهمال تام لملبسه ... كان ينفُر من الناس، مهمِلًا، خشن الطبع، حاد المزاج.

من البداية، وجد الميجور جنرال نفسَه في وضعٍ صعب. البريطانيون حقَّقوا انتصارًا آخر، كان ذلك مؤكدًا؛ أوقعوا خسائرَ كبيرة بالفرنسيِّين، بلغت ثلاثة آلاف قتيل مقابل ألف وأربعمائة في صفوفهم. ولكن الإسكندرية ظلَّت في أيدي الأعداء، ليس في يد حامية صغيرة محبَطة فحسب، ولكن في يدِ القوة الرئيسية في الجيش الفرنسي في مصر، الذي

ربما كان ما زال أكثرَ عددًا من جيشه تحت قيادة قائد لم يكن لديه النيةُ للمغادرة. لم يكن بالإمكان كذلك تجويعُ ذلك الجيش: «كان الطريق إلى الغرب مفتوحًا. قليل من المساعدة المؤثِّرة كان متوقعًا من الأتراك. كان هناك دائمًا احتمال أن يقوم الفرنسيون أنفسهم بالمبادرة، ولكن مينو كان يبدو حادبًا على لعبِ دور الانتظار.

كان من الواضح أنه لا بد من فعلِ شيء لكسر ذلك الجمود، وفي النهاية قرَّر هيلي-هتشنسون إرسالَ قوةٍ صغيرة مكوَّنة من كتيبتين ونصف كتيبة بالإضافة إلى أربعة آلاف جندي تركي، كانوا قد وصلوا مؤخرًا، وذلك للهجوم على رشيد على الفرع الغربي لدلتا النيل. نجحت الحملة، واستسلمت حامية «قلعة جوليان Fort Julien»[٢] في التاسع عشر من أبريل، بعد مقاومةٍ لمدة ثلاثة أيام. كان الطريق الآن مفتوحًا للإبحار في النيل، وربما للقيام بعملية بحرية أخرى. من ناحية أخرى، فإن عمليةً كتلك كان يمكن أن تستنزف الحامية، التي كان ينبغي أن تُترك خارج الإسكندرية تمامًا؛ وبغرض حمايتها — وكذلك لقطعِ خطوط اتصال مينو — قرَّر هيلي-هتشنسون أن يتم غمرُ بحيرة مريوط، جنوبي المدينة، بالماء. تم قطع سياج القناة في موضعين، فاندفعت مياه أبو قير في شلالات قوية بارتفاع عشر أقدام لتزيل ثلاثمائة قدم من الشطآن. تاركًا وراءه الجنرال «إير كوت Eyre Coote» لقيادةِ الجبهة في الإسكندرية، انطلق هتشنسون في ٢١ أبريل إلى رشيد، وفي ٥ مايو زحف بمحاذاة شاطئ النيل صوب القاهرة.

استمرَّ الزحفُ سبعةَ أسابيع، كان خلالها الجنود، ومعظمهم مصابٌ بالديزنطاريا، لتحمُّل درجة حرارة شديدة نهارًا، وعناكب وعقارب متوحشة ليلًا. كانت هناك مناوشاتٌ عِدة مع الفرنسيِّين على طول الطريق، وكذلك — وهذا مدهش — كانت هناك مواجهةٌ غير متوقَّعة مع الجيش التركي الذي فاجأ الجميع، وتقدَّم تحت قيادة وزيره الأول الأعور من يافا، وهزم قوةً عسكرية في طريقه. كتب هيلي-هتشنسون يقول: كان أسوأ جيش في الوجود، إلا أنه برغم ذلك كان يقاتل بكل قوة أثناء تقدُّمه.» في السابع من يونيو، هبَّت عاصفةٌ رملية، وبعد أن سكنَت كانت الأهرام تلوح من على البُعد. بحلول يوم ٢١ من الشهر، كانت آخر قوة قد وصلت، وكان البريطانيون والأتراك معًا يحاصرون القاهرة. من أسف أنه لم يكن قد تبقى مع هيلي-هتشنسون الآن سوى نحو أربعة آلاف جندي يصلُحون للقيام بالمهمة. كانت حامية القاهرة، كما عُرف من الأسرى الفرنسيِّين، قد بلغ عددُها نحو خمسة آلاف، رغم أن روحهم المعنوية كانت منخفضة.

كانت على أية حالٍ أقلَّ مما كان يُعتقد، ويوم الثاني والعشرين، يوم أن كان عليهم أن يتخذوا مواقعهم، فُتحت أبواب المدينة. انتهى حصار القاهرة قبل أن يبدأ.

لم يكن أمام الجنرال «أوجستان دانييل بيليار Augustin-Daniel Belliard» خياراتٌ كثيرة. لم يكن قد تبقى سوى تموين مئونة في المدينة ولم يكن بالإمكان البحثُ عن طعام. كان هناك كذلك نقصٌ شديد في الذخيرة … أقلُّ من ١٥٠ طلقة لكل مدفع. لم يكن الجنودُ راغبين في القتال، وكلُّ ما كانوا يريدونه هو العودةُ إلى بلادهم. كان عليه كذلك أن يتذكَّر السكان المحليِّين الذين لم يكونوا يُكنون أيَّ حب لجيشه ولن يترددوا في الثورة عليه عند أول فرصة. ربما كان هناك أملٌ في التقهقر إلى مصر العليا ومواصلة المقاومة من هناك؛ ولكنَّ شائعةً سرَت بأنه كانت هناك قوةٌ بريطانية أخرى قادمة من الهند في طريقها إلى القصير على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وأنها سوف تتقدَّم من هناك — جنوبًا — باتجاه القاهرة.

كان الأكثر مدعاةً للقلق هو تحقُّقه من أن قائد قواته كان قد فقدَ صوابه. قبل أسبوع، كان قد جاء رسولٌ من الإسكندرية وسلَّم رسالةً من مينو تفيد أنه كان قد أبلغ بونابارت بأن البريطانيِّين كانوا قد مُنوا بهزيمةٍ ساحقة وهم في طريقهم خارجين من رشيد. بيليار نفسُه، بحسب التقرير، كان قد دمَّر الجيش التركي، ويتقدَّم الآن على امتداد النيل نحو الإسكندرية. في الوقت نفسه كانت هناك تعزيزاتٌ في الطريق قادمة من فرنسا، ولا بد من التشبُّث بالقاهرة إلى أن تصل.[٣]

كان واضحًا الآن للجنرال المنكود أنه لا يمكن أن يأمُل في الحصول على أوامرَ معقولة من رئيسه، وعليه فقد كان يتصرَّف وُفق هواه. وحيث إنه لم يكن له أيُّ سلطة لوضع أيِّ شروط، عقَد مجلسَ حرب، وبعد تأكُّده من تأييد كبارِ ضباطه له، أرسل أحدَهم تحت علم هدنة للإبلاغ باستعداده للتفاوض، وعلى الفور تم الاتفاق على هدنةٍ وتمَّت الموافقة على الاستسلام في الثامن والعشرين من يونيو. سيتقدَّم الفرنسيون بمتاعهم وعتادهم في حراسة فرنسية إلى رشيد، ومن هناك يستقلون السفن عائدين إلى فرنسا في غضون خمسين يومًا.

خلال الفترة التالية لذلك، وكانت فترة راحة واستجمام مستحقَّة بالنسبة للبريطانيِّين — وفترة تحضير بالنسبة للفرنسيِّين — قام هيلي-هتشنسون بتنظيم رحلة للضباط والجنود لمشاهدة الأهرام؛ وبحسب روايات كثيرة معاصرة قام كثير بحفر أسمائهم على حجارتها للذكرى. كتب رقيبٌ يُدعى «دانييل نيكول Daniel Nicol» في يومياته: «نقشتُ بمُدْية على الحجر: د. نيكول – الوحدة رقم ٩٢؛ وكُسرت مني المُدْية وأنا أسجِّل ذلك؛ وذلك في الجانب الجنوبي الشرقي، وأعتقد أن هذا النقش سيبقى لبعض الوقت.»[٤] ويبدو

أن قلةً — والحمد لله — هم الذين شاركوا كولونيلًا يُدعى «كاميرون Cameron» (من الوحدة رقم ٧٩) حماسته؛ إذ كان متلهفًا على أن يعودَ إلى بلاده بذكرى ما، فأمر أحدَ جنوده بضربِ التابوت الملَكي بمِرْزبة.

بالنسبة لأهالي القاهرة، كان التاسع من يوليو ١٨٠١م أسوأ يوم يمكن أن يتذكَّره أيٌّ منهم، كان ذلك يوم جلاء الفرنسيِّين عن المدينة، واليوم الذي اجتاحتها فيه جحافلُ الجنود الأتراك، الذين لم يخفوا أن السَّلب والنهب كان السببَ الوحيد وراء عبورهم الصحراء قادمين من سوريا. كان جيش الوزير الأول معروفًا بالفوضى، والآن مع بدء طقوس العربدة وحمَّامات الدم، اختفت كلُّ الآمال في الانضباط. لم يكن البريطانيون يستطيعون عملَ أي شيء بعد أن استولوا رسميًّا على الحامية؛ إذ إن الأتراك كانوا حلفاءهم. كما كانوا قد أظهروا بوادرَ كثيرة عن نواياهم. أما بالنسبة للفرنسيِّين — الذين كانوا قد تقهقروا إلى الجيزة — فكانوا يشعرون بالارتياح … لأنهم تمكَّنوا أخيرًا من الخروج من المدينة.

بريطانيون وفرنسيون وأتراك، أبحروا كلُّهم معًا في النيل في الرابع عشر من يوليو. كان البريطانيون في غاية الدهشة عندما وجدوا أن عدد الفرنسيِّين لم يكن نحو خمسة آلاف كما كانوا قد قدَّروا، وإنما كانوا ثلاثة أضعاف ذلك تقريبًا، وكان معهم نحو ثلاثمائة قارب صغير تحمل المرضى والجرحى والأمتعة وكمياتٍ كبيرةً من الغنائم والأسلاب … وجثةَ كليبر لإعادة دفنها في نصبٍ تذكاري لائق في فرنسا.[٥] بعد ثلاثة أسابيع، في الخامس من أغسطس، كان قد تم الانتهاء من ركوب السفن وتحميل الأمتعة لتبحرَ آخرُ سفينة من رشيد في اليوم التاسع من الشهر متجهةً إلى طولون. الآن، كان البريطانيون يستطيعون أن يوجهوا كلَّ اهتمامهم إلى الإسكندرية، وعليه فقد كانوا يأمُلون — بقوة — أن يَجُرُّوا خطًّا تحت المغامرة المصرية بكاملها.

أثناء الرحلة إلى الساحل، كان الجيش تحت قيادة مور. كان هيلي-هتشنسون قد سقط مريضًا وأمضى معظمَ شهر يوليو يعالج في الجيزة. في التاسع والعشرين وصل بالبحر إلى رشيد؛ حيث صعد إلى السفينة «فودروييان Foudroyant» ليبقى عليها نحو أسبوعين آخرين. كان لا بد من أن يستعيد صحَّته تمامًا قبل الزحف على الإسكندرية، وعلى أية حال، لم يكن هناك أي عمليات رئيسية لكي تبدأ، قبل أن ينتهيَ مور من الإشراف على ركوب الفرنسيِّين العائدين إلى بلادهم. في ذلك الوقت كانت خطط الميجور جنرال جاهزة؛ سيقوم بالهجوم على المدينة من الشرق والغرب في وقت واحد. كانت المدينة في منتصفِ برزخٍ ضيق يفصل البحر الأبيض من الشمال عن بحيرة مريوط، التي كان قد

تم غمرُها بالماء مؤخرًا. كان يمكن أن يتقدَّم بمدفعيته الثقيلة من رشيد التي تبعُد عن الإسكندرية بنحو أربعين ميلًا من جهة الشرق. في الوقت نفسِه سيُبحر «كوت Coote» بثلاث فرقاطات عبْر البحيرة ويتَّخذ موقعًا على البرزخ خلف المدينة بمسافة عشرة أميال تقريبًا من جهة الغرب، ثم يتقدَّم الاثنان بأسلوب الكمَّاشة التقليدي.

بدأ الهجوم مساء يوم السادس عشر من أغسطس؛ وتحت جُنْح الظلام، أبحر نحو ثلاثمائة قارب عسكري تحمل أربعة آلاف جندي عبْر بحيرة مريوط متجهةً غربًا. عند فجر السابع عشر تقدَّمت فرقتان بقيادة مور والجنرال سير «جون كرادوك John Cradock» على امتداد البرزخ وهاجمتا المواقعَ الفرنسية المتقدِّمة. كانت عمليةً ناجحة، ولكنَّ مور الذي أعطته الحملة فرصةً لرؤية التحصينات الشرقية لأول مرة، وجدها قويةً بالفعل، وكان في شكٍّ ما إذا كان بمقدوره التغلُّب عليها بما هو متوفِّر لديه من إمكانيات. لحسن الحظ، كان من المعروف أن دفاعات الناحية الغربية أضعفُ بكثير؛ ولذا كان يبدو أن نجاح العملية سوف يعتمد على كوت.

كان كوت يحب دائمًا أن يثبتَ أنه جديرٌ بالثقة ويمكن الاعتماد عليه. بحلول مساء ٢١ أغسطس، وبعد جهدٍ خارقٍ من رجاله في طقسٍ شديد الحرارة، استولى على قلعة «مارابوت Marabout Fort»، على جزيرةٍ صغيرةٍ تشرف على الطرَف البعيد من البحيرة الطويلة الضحلة، المعروفة بالميناء القديم، غربي المدينة. عند فجر يوم ٢٢ أغسطس بدأ تقدُّمه بامتداد البرزخ، تحميه البحرية في البحر الأبيض من جهة اليسار، والقوارب الحربية في البحيرة من جهة اليمين. لم يكن يبدو هناك ما يمكن أن يوقفَ تقدُّمه، كانت المواقع الفرنسية المتقدمة قد انهارت عندما وصل. بحلول الساعة العاشرة من صباح اليوم نفسه، كانوا قد فقدوا نحو مائتي جندي بين قتيل وجريح وأسير، أما خسائر البريطانيِّين فكانت ثلاثة قتلى وأربعمائة جريح. بعد الظهيرة، أبحر هيلي-هتشنسون عبْر البحيرة ليجتمع بـ «كوت»، ويعاين التحصينات الغربية بنفسه. لم يكن هناك مجالٌ للشك أن ما كان يراه أمامه كان أضعفَ بكثير من تلك الموجودة على الجانب الآخر من المدينة. هناك، وفي تلك اللحظة، استقر على أن تكون قوة الهجوم الرئيسية من ناحية الغرب.

تم بسرعة جلْب المزيد من المدافع الثقيلة ونقلها إلى معسكر كوت. بمجرد أن اتخذت مواقعها، بدأ القصف متزامنًا مع تقدُّم حثيث نحو المدينة. بدَّل الاتجاه مباشرةً إلى الإسكندرية، كانت خطة كوت هي احتلالَ نقطة ممتازة على الأرض المرتفعة الواقعة أعلى

عمود بومبي جنوب شرق المدينة، بحيث يمكن إطلاق النيران على دفاعاتها من أعلى. اتضح أن ذلك لم يكن ضروريًّا؛ ففي نحو الرابعة والنصف مساء السادس والعشرين، وصل ضابط فرنسي إلى أحد مراكزه المتقدِّمة بطلب هدنة. على الفور، أوقف كوت إطلاق النار، ونُقلت الرسالة إلى القائد الأعلى، وبعد أن عرف بموافقة هتشنسون بعد منتصف الليل بقليل، قام بسحب رجاله، وانتهى القتال.

صحيح أنه كانت هناك لحظاتٌ في الأيام القليلة، يبدو فيها وكأن القتال سوف يتجدَّد. بعد أن حصل الجنرال مينو على الهدنة التي طلبها، كان الآن يبذل كلَّ جهده للتملُّص من التزاماته. في البداية، طلب تمديدَ فترة الهدنة لمدة قصيرة أخرى، ثم اقترح عقْدَ اتفاقية بدلًا من الاستسلام، ثم اقترح إعادةَ كلِّ السفن الحربية ومعظم قطع المدفعية إلى فرنسا، ثم الإبقاء على كل الممتلكات العامة المصرية في أيدي الفرنسيِّين. وفي النهاية حاول حتى تمديدَ فترة الهدنة مرةً أخرى إلى ١٧ سبتمبر، على أملِ أن يستأنف الفرنسيون أعمالهم العِدائية في حال وصول التعزيزات التي كانت متوقَّعة. ولكن هيلي-هتشنسون لم يبتلع الطُّعم. أرسل شروطه إلى مينو: إعادة جيشه بأسلحته الشخصية وعشر قطع مدفعية، أما كل الممتلكات البحرية وغيرها فتظل في مصر. في حال عدم قبول هذه الشروط فورًا، سيتم تدمير الإسكندرية تمامًا.

رضخ مينو. لم يكن قد بقيت لديه قدرة على القتال، وكان جنوده أكثرَ منه إرهاقًا وإحباطًا. تم توقيع وثيقة استسلام بشروط كريمة نوعًا ما. في الحادية عشرة من صباح الثاني من سبتمبر تسلَّم البريطانيون الإسكندرية، بينما كانت الفرقة الموسيقية التابعة للوحدة ٥٤ تعزف السلام الوطني حول عمود بومبي. في لحظةِ الانتصار تلك، كان أن وصلت القوة القادمة من الهند إلى رشيد بعد مسيرة طويلة من البحر الأحمر. لم يصدِّق رجال هيلي-هتشنسون — الذين كانوا يتضورون جوعًا، ولم يكونوا قد خلعوا ثيابهم نفسها في الحرارة الشديدة منذ ستة أشهر — أنفسَهم عندما رأوها: كان ضمن القوة مجموعة كاملة من الطباخين وأطعمة وأنبذة ومشروبات أخرى. كان الجنود الهنود أنفسهم مصدومين لرداءة منظر القوات البريطانية؛ ولذا لم يكن غريبًا أن يرى هتشنسون حكمةً في عزل القوَّتين عن بعضهما.

وهكذا أبحر الجزء الرئيسي من الجيش البريطاني في الوقت المناسب. في إصرارها لمنع أي محاولة من جانب الفرنسيِّين للعودة، أمرت الحكومة البريطانية، بالرغم من ذلك، ببقاء حاميةٍ كبيرة في الإسكندرية — ستة آلاف جندي على الأقل — إلى أن يعمَّ الهدوء،

تحت قيادة الجنرال مور الغاضب المتردد، الذي كان ما زال متعطشًا للقتال بالرغم من جُرحه الخطر. كان هناك سبعة آلاف جندي آخرون لم يذهبوا إلى ما هو أبعدُ من مالطة؛ حيث كان وجود قاعدة بحرية هناك يبدو أمرًا ضروريًّا، ولكن مالطة — حيث كان كثير من الجنود قد تركوا زوجاتهم — كانت تعتبر جنةً بعد الخروج من مصر، ولم يكن هناك كثير من الشكوى.

كانت تكلفة الحملة المصرية باهظة، ليس من الناحية المالية فحسب؛ فقد خلَّفت ٦٣٣ بريطانيًّا بين قتيل ومفقود ونحو ١٠٠٠ آخرين جرحى أو مرضى. كان عدد الجرحى المطلوب ترحيلهم أكثرَ من ٣٠٠٠ جريح، بينهم ١٦٠ كانوا قد فقدوا بصرهم بسبب الرمد. من ناحيةٍ أخرى كانت الحملة ناجحة سياسيًّا واستراتيجيًّا. في غضون ستة أشهر، كانت القوات البريطانية قد حقَّقت هدفها: أثبتت لنابوليون أن مصر لن تكون له، ولذلك استولوا على كلٍّ من القاهرة والإسكندرية، وخلال العملية كلِّها أظهروا ثباتًا وانضباطًا مذهلًا، كان محلَّ إعجاب ضباطهم أنفسهم وكذلك الفرنسيون، كما أثبتوا خطأ المتشائمين في الوطن. هناك قصة مؤثِّرة تُروى عن الملك جورج الثالث الذي ذهب إلى منزل دانداس العجوز في ويمبلدن ليرفع كأسًا من الماديرا،[٦] في صحة المتسبِّب الوحيد في الحملة، ويعلن: «عندما يكون شخص ما مخطئًا تمامًا، فإن أنبلَ وأعدَل شيء بالنسبة له، هو أن يعترف بذلك علنًا.»

عندما كتب نابوليون «عندما تعتقد الجيوش أن بالإمكان الهربَ من وضعٍ حرجٍ باتفاقيةٍ لا تُلحِق بهم أيُّ عار، يضيع كل شيء»،[٧] فهو لم يقل غير الحقيقة. انتصر الإنجليز وهُزِم الفرنسيون. ولكن ماذا — إن كان لنا أن نسأل — عن المصريين أنفسهم، الذين ربما يكونون قد عانَوا من قتالٍ استمرَّ ثلاث سنوات، أكثرَ من أي طرف آخر؟ برحيل الفرنسيِّين، عادوا إلى الوضع نفسِه الذي كانوا عليه من قبل: من الناحية النظرية، كانوا تحت الحكم الرديء للإمبراطورية العثمانية، والواقع أنهم كانوا تحت ظلم واستبداد بكوات المماليك. ولكن ذلك الوضع لن يستمرَّ طويلًا. في ٢٢ اكتوبر ١٨٠١م تمَّت دعوةُ كل كبار البكوات إلى حفلٍ على سفينة قبطان باشا، أدميرال الأسطول العثماني، التي كانت راسية على ساحل الإسكندرية، وقبل أن يصلوا إليها، كان قارب عسكري تركي قد قتل معظمهم؛ وبمجرد وصول مَن بقي منهم إلى السفينة تم أسرُهم. بالرغم من نجاةِ عددٍ قليل منهم — بعضُهم كان في القسطنطينية وآخرون كانوا قد بقوا في القاهرة — وبالرغم من مقاومتهم نحو عامين أو ثلاثة، فإن شوكتهم كانت قد كُسرت. لم يعودوا قادرين على

تجنيد رجالٍ من أسواق العبيد في الشرق؛ حيث كان الباب العالي قد منع تصديرَ الشبان لمصر في ١٨٠٢م. لسوء الحظ كذلك، أن الإمبراطورية العثمانية المحتضرة كانت عاجزةً عن تعيين حكومة فعَّالة مكانهم؛ وهكذا أصبحت مصر بين عشية وضحاها فراغًا، ولم تَعُد موضوعَ نزاع. في سنة ١٨٠٣م كتب الليفتنانت كولونيل «روبرت ويلسون Robert Wilson» — الذي كان يسجِّل يومياته طوال الحملة بدقة، ثم نشر تاريخًا مفصَّلًا لها فيما بعدُ — يعبِّر عن دهشته «كيف لم يحاول مغامرٌ، لديه قدْر من الجرأة والموهبة والطموح، أن يقود مجموعة للتصدي للمماليك»، بينما كتب أمريكيٌّ مجهول من القاهرة للأدميرال سير «ألكساندر بول Alexander Ball»، حاكم مالطة، إن «مصر ليس بها سيد ... لا بد من سيدٍ جديد، وسوف يكون أول قادم محلَّ ترحيب.»

ما حدَث هو أن ذلك القادم الجديد لم يكن إنجليزيًّا أو فرنسيًّا، كان أحد أبناء جنس لم يستحق أيَّ ذكرٍ في هذا الكتاب الذي بين أيدينا حتى الآن. كان، كما يُعتقد، ألبانيًّا اسمه محمد علي.

محمد علي من مواليد ١٧٦٩م في «قولة Kavalla» شرق «مقدونيا Macedonia». بعد وفاةِ أبيه كفله حاكمُ المدينة. في الثامنة عشرة تزوَّج من إحدى قريبات الحاكم، التي أنجبت له خمسة أبناء. (ستكون مجموعة أخرى من النساء أمهاتٍ لتسعين آخرين). يبدو أن تجارة التبغ المربحة شغَلته عدةَ سنوات، وبعدها التحق بالجيش العثماني — الذي شغَل فيه منصبًا راقيًا، ليجد نفسَه في الوقت المناسب يحارب الفرنسيِّين تحت قيادة الوزير الأول. على مدى وجود الأوروبيِّين في مصر، كان يحارب بشجاعةٍ؛ ولكن بعد رحيلهم، فإن كتيبته الألبانية بقيادةِ طاهر باشا، التي ربما كانت أكثرَ وحدات الجيش التركي انضباطًا، قامت بتمرُّد كبير.

ليس هناك من الأسبابِ ما يجعلنا نعتقد أن محمد علي شخصيًّا كان هو مدبِّر التمرد (إذ كان مثل تلك الانتفاضات يحدِث كثيرًا في التاريخ العثماني من قِبل الجنود الذين لم يكونوا يحصلون على رواتبهم)، ولكن بعد صراع مع طاهر باشا، تولَّى القيادة، وبعد سلسلةٍ من المؤامرات والمكائد عيِّن نائبًا للسلطان في مصر. على مدى الأربع والأربعين سنة التالية، حكم البلاد حكمًا دكتاتوريًّا، فقضى على الآثار المتبقية لحكم المماليك، وصادر أملاك الطبقات القديمة من أصحاب الأراضي، كما سحق بقوة عددًا من الانتفاضات المتوالية. بحلول العام ١٨١٥م تقريبًا، كانت الأراضي الزراعية على امتداد شاطئ النيل

والدلتا تقريبًا، قد تم مصادرتها، كما كانت كل عائدات الزراعة تذهب إلى خزائنه مباشرة. قام محمد علي بتحسين نظام الري الشديد الأهمية للبلاد، وأدخل محاصيلَ زراعية جديدة — وبخاصة القطن - كما بنى أسطولًا وجيشًا قويًّا كان جنوده من أبناء الفلاحين وقياداته من الأتراك وغيرهم من الأجانب. في البداية، استخدام أولئك باسم السلطان لإخماد الثورات والانتفاضات في الجزيرة العربية واليونان، ثم بعد ذلك استخدمهم لحسابه، فقام بغزوِ السودان بنفس الدرجة من النجاح.

سيعيش محمد علي حتى العام ١٨٤٩م، إلا أن هناك الآن — مؤقتًا — شخصيةً أخرى أكثرَ أهمية، تسترعي اهتمامنا.

هوامش

(١) انظر P. Mackesy, British Victory in Egypt, 1801 الذي اعتمدنا عليه كثيرًا بالنسبة للمعلومات الواردة في هذا الفصل.

(٢) كان في أحدِ أبراج هذه القلعة أن اكتشف الفرنسيون حجر رشيد الشهير في ١٧٩٩م، وهو أحدُ أهم معروضات المتحف البريطاني، وكان مفتاح فك شفرة الهيروغليفية المصرية القديمة.

(٣) في ١٧ يونيو جمح خيالُ مينو أبعدَ من ذلك فأكَّد لوزير الداخلية أن بيليار Belliard كان قد حقَّق انتصارًا كبيرًا على البريطانيِّين على مشارفِ القاهرة وأن هيلي-هتشنسون قتل.

(٤) قبل أن نَدين نيكول وأقرانه ونتَّهمهم بالتخريب، علينا أن نتذكَّر أن لورد بيرون Lord Byron سيفعل الشيءَ نفسَه في معبد بوسيدون Temple of Poseidon في سنيون Sunion.

(٥) نُقل الجثمان أولًا إلى ستراسبورج Strasbourg مدينةِ كليبر؛ حيث بقي لمدة عشرين عامًا في الكاتدرائية. بعد ذلك نُقل إلى باريس ليُدفن تحت النُّصب في الميدان الذي يحمل اسمه.

(٦) نبيذ منسوب إلى جزر ماديرا. (المترجِم)

(٧) Quand les armées croient possible de sortir d'une position critique avec une convention sans déshonorer, tout est perdu.

الفصل الرابع والعشرون

التسوية الأوروبية

- معركة مايدا: ١٨٠٦م.
- إلقاء القبض على بيوس السابع: ١٨٠٩م.
- إلبا: ١٨١٤م.
- الجزر الأيونية:١٨١٥م.
- علي باشا: ١٨١٥م.
- موت علي باشا: ١٨٢٢م.

* * *

فشل نابوليون بونابارت في مصر، إلا أن قوَّته في أوروبا كانت تتزايد. في ديسمبر ١٨٠٤م، وفي حضور البابا «بيوس السابع Pius Vii»، قام بنفسه بوضع التاج الإمبراطوري على رأسه في باريس؛ ثم نظَّم حفلَ تتويجٍ لنفسه بعد خمسة أشهر (في مايو ١٨٠٥م) في كاتدرائية ميلان كملكٍ لإيطاليا. هذه المرة كانت جمهورياته الإيطالية الصغيرة قد أصبحت في عالم النسيان. قراره بأن يُستخدم في الاحتفال تاجُ لومبارديا الحديدي القديم، الذي كان من ممتلكات الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة لقرون، كان مبعثَ ضيق شديد للإمبراطور النمساوي فرانسيس Francis، الذي انضم نتيجةً لذلك إلى التحالف الذي كانت بريطانيا وروسيا قد كوَّنتاه قبل أسبوع.

وهكذا بعد أن ثبَّت دعائمَ غزواته السابقة، عكف نابوليون على حملةٍ جديدة ضد النمسا، وكان هناك ابتهاجٌ عظيم في «الجيش الكبير Grande Armeé»، عندما استسلم أمامه جيشٌ نمساوي قوامه ثلاثة وثلاثون ألف مقاتل في «أولم Ulm». مما يدعو للسخرية، أن نلسون قام في اليوم التالي بتدميرِ أسطولٍ فرنسي-إسباني مشترك

في «ترافالجار Trafalgar»، وأُصيب هو نفسه بجروحٍ خطرة لحظة الانتصار؛ إلا أن — حتى — كارثة كتلك لم تبقَ طويلًا في ذاكرة الإمبراطور؛ حيث إنه بعد ستة أسابيع فقط (في الثاني من ديسمبر)، انتصر جيشُه المكوَّن من ثمانية وستين ألف مقاتل على قوة مشتركة، من أكثر من تسعين ألف نمساوي وروسي، في «أوسترلتز Austerlitz» في مورافيا. في اليوم التالي لعيد الميلاد، وطبقًا لشروطِ اتفاقيةٍ تم توقيعُها في «برسبورج Pressburg» (براتسلافا Bratislava الآن)، كانت النمسا مجبرةً على أن تعيدَ لفرنسا — بين أشياء أخرى — كلَّ الأراضي الفينيسية التي كانت قد استحوذت عليها في ١٧٩٧م في «كامبوفورميو Campo Formio» - لكي تشكِّل مع سواحل «إستريا Istria» ودالماشيا جزءًا من مملكة إيطاليا النابوليونية الجديدة.

كان الإمبراطور قد رفض أن يُضَمِّن اتفاقية برسبورج أي شروط نيابةً عن بوربون نابولي؛ والحقيقة أنه يوم توقيع الاتفاقية، كان قد أعلن عن نيته أن «يخلع عن العرش تلك المرأةَ المجرمة التي انتهكت، على نحوٍ شائن، كلَّ ما هو جديرٌ بالإجلال بين الرجال». ربما يكون هذا الحكمُ على ماريا كارولينا يتَّسم ببعض الغلظة، إلا أنه لا بد من الاعتراف بأن تَوصُّله إلى اتفاقيةِ حيادٍ مع نابولي في وقت سابق من العام، لم يمنعها من طلب مساعدة حلفائها؛ وبالقرب من أواخر نوفمبر ١٨٠٥م، كان ما لا يقل عن ثلاثة عشر ألف جندي روسي وسبعة آلاف بريطاني من مالطة، قد تم إنزالهم في خليج نابولي. ثم انضم إليهم بضعة آلاف من أبناء نابولي؛ وبحلول منتصف ديسمبر كان الجيش المشترك قد زحف نحو الحدود البابوية. آنذاك جاءت أخبارُ أوسترلتز، وانتهت الحملة قبل الأوان على نحوٍ مفاجئ. كانت فكرة رديئة منذ البداية؛ حيث إنه بإرسالها أوقعت الملكة نفسها في قبضة الإمبراطور. في إعلانه التالي لجيشه، كان بمقدوره أن يقول: «هل نثق مرةً أخرى ببلاطٍ لا يعرف الوفاء ولا الشرف ولا العقل؟ كلا ... ثم كلا! إن السلالة الحاكمة في نابولي قد انقطعت عن الحكم، ووجودها ليس متسقًا مع سلام أوروبا ولا مع شرف تاجي.»

لم تكن تلك السلالة قد انقطعت عن الحكم بالطبع، ولن تنقطع لمدة نصف قرن قادم، ولكنها لم تكن تستطيع أن تتصدَّى للجيش الفرنسي الذي بلغ نحو أربعين ألف جندي، كانوا يزحفون الآن عبْر الدول البابوية،[1] ويدخلون الجنوبَ الإيطالي تحت قيادة «المارشال ماسينا Marshal Masséna»، ومعه جوزيف بونابارت باعتباره الممثلَ الشخصي للإمبراطور. في الحادي عشر من فبراير ١٨٠٦م، فرَّت العائلة الملكية للمرة الثانية لتواجه بؤس شتاء باليرمو؛ وفي الرابع عشر وتحت أمطار شديدة، دخلت نابولي

فرقةٌ فرنسية بقيادة الجنرال «بارتونو Partouneaux». لم تكن هناك مقاومة، وبينما كان اللازاروني — الدهماء — قبل سبع سنوات يقاتلون مثل النمور ويحدِثون مجازرَ رهيبة، كانوا هذه المرة لا مبالين، ولم يُبدوا أيَّ اعتراض أو احتجاج عندما تقدَّم جوزيف بونابارت موكبَه في اليوم التالي ليتخذَ من القصر الملكي مقرًّا له. في وقتٍ لاحق من ذلك العام، وبموجب مرسوم إمبراطوري، سيتم إعلان جوزيف ملِكًا.

«إذا تم الاستيلاء على نابولي فسيسقط كل شيء»، كان نابوليون قد كتب ذلك إلى جوزيف فور الفرار الثاني للعائلة الملكية. لم تكن تلك هي المرة الأولى، على أية حال، التي يُهوِّن فيها من قوة عدوِّه. أثبتت كالابريا أنها كانت عقبة كئودًا ومشكلةً شديدة الصعوبة. في الأول من يوليو ١٨٠٦م، نزلت قوة بريطانية من باليرمو بقيادة السير «جون ستيوارت John Stuart»، مكوَّنة من أربعة آلاف وثمانمائة جندي مشاة وستة عشر مدفعًا، نزلت على الساحل الغربي لـ «كالابريا»؛ وبعد ثلاثة أيام هاجمت قوة فرنسية بالقرب من قرية «مايدا Maida»، وبعد هجوم وحشي بالحِراب هزمتها هزيمةً منكرة. استُقبل الانتصار بحماسة شديدة في إنجلترا وليس محليًّا فحسب؛ حيث ما زلوا يتذكرون ميدان القتال باسم «مايدا فيل Maida Vale».[٢] لسوء الحظ، أن سقوط مدينة «جايتا Gaeta» — بعد مقاومةٍ بطولية — بالإضافة إلى قرار «ماسينا Masséna» بتركيزِ أكبرِ قوات ضده، اضطُر ستيوارت إلى إعادة قوَّاته إلى السفن في سبتمبر. كان ذلك يعني أن حرب العصابات قد بدأت، مع ما يتضمَّنه ذلك من فظائعَ معتادةٍ سوف تُرتكب من كلا الجانبين. لم يكن أهالي كالابريا يحبُّون البوربون، وإن كانوا يفضِّلونهم على الغزاة الفرنسيِّين، ألم يكن البابا، بالإضافة إلى ذلك، قد رفض الاعترافَ بـ «جوزيف بونابارت» ملِكًا عليهم؟ كانوا من أصولٍ فلاحية، وعندما بدأ القتال شاركوا فيه.

أما بالنسبة لصقلية، وهي الجزيرة التي كان يحكمها الملِك فرديناند والملِكة ماريا كارولينا منفردين، فلم تكن مصدر مشاكلَ كثيرة لـ «ماسينا». كان نلسون قد مات، والعائلة الملَكية لم تُستقبَل بحرارة عند وصولها كما كان الأمر عند زيارتهم السابقة. كان أهالي صقلية قد أصبحوا يعرفون ملوكَهم جيدًا، ويدركون تمامًا حقيقةَ أن الملِك لم يكن يرى في جزيرتهم أكثرَ من منطقة للصيد والاستجمام من وقتٍ لآخر. كان قد حطَّم عددًا من قِطَع الموزاييك، من القرن الثاني عشر، في الكنيسة المقدَّسة في باليرمو،[٣] لمجرد أن يبنيَ لنفسه مدخلًا مناسبًا لقصره؛ كما وجد كثيرٌ من أبناء صقلية — بمن في ذلك الأبناءُ الصغار لطبقة النبلاء على وجه الخصوص — أنفسهم بلا عمل. في ظروفٍ كتلك، فإن غزوًا فرنسيًّا ما كان ليواجه مقاومةً كبيرة.

إلا أن الموقف الحقيقي كان مختلفًا. أولًا، دعا فرديناند البريطانيِّين لتولي مسئولية الدفاع عن الجزيرة — وهو ما كانوا سيفعلونه على أية حال — وكانت مضايق مسيني تحت حراسةٍ مستمرة بواسطة القوارب الحربية البريطانية. ثانيًا، كان الإنجليز قد تولوا ما هو أكثرُ من الدفاع عن صقلية. كانوا قد أصبحوا الآن سادةَ الجزيرة نفسِها، بما لهم فيها من سبعة عشر ألف جندي ونحو ثلاثين قنصلًا أو نائب قنصل. كانت صقلية كذلك تحصل على إعانةٍ من بريطانيا، ناهيك عن قروضٍ كثيرة واستثمارات خاصة، ولك أن تتخيَّل حجمَ تأثير ذلك في اقتصاد صقلية الذي كان يتصف بالركود.[٤]

زاد النفوذ البريطاني بشكلٍ كبير بعد ١٨١١م، عندما عُين لورد «وليم كافنديش-بنتينك William Cavendish-Bentinck» مبعوثًا خاصًّا إلى بلاط الصقليتين، بالإضافة إلى كونه القائدَ الأعلى للمتوسط. رغم أن بنتينك كان ما زال في السابعة والثلاثين من العمر، فإنه كان قد عمِل حاكمًا على «مادراس Madras» ومن ثَم شارك في حرب شبه الجزيرة: وحيث إنه كان قديرًا ونشطًا، فقد كان حاكمًا جيدًا أجرى عدةَ تغييراتٍ دستورية مهمة. في ذلك العام نفسه، كان الملِك قد ألقى القبض على خمسةٍ من كبار خصومه في مجلس النواب الصقلي وقام بترحيلهم إلى خارج البلاد، إلا أن «بنتينك» هدَّد بسحب جيشه وإيقاف المعونة، فاضطُر فرديناند لإعادتهم، وإحلال وزارةٍ أكثرَ ليبراليةً محلَّ وزارته التي كان معظمها من أبناء نابولي، وكان من بين أعضاء الوزارة الجديدة ثلاثة من المُبعَدين. في سنة ١٨١٢م، وضع دستورًا ليبراليًّا على النمط البريطاني، وبعد ذلك بوقت قصير مضى إلى ما هو أبعدُ من ذلك: وجدت الملِكة ماريا كارولينا، التي كانت عقبةً في طريقه، نفسِها في المنفى. لا عجب إذن أن تصِفه بأنه «حيوان وحشي una bestia feroce».

بالرغم من أنه لم يكن مسموحًا للبابا «بيوس السابع Pius VII» بأداء المراسم، كان مدعوًّا لحضور حفل تتويج نابوليون في باريس، وهي الدعوة التي كان يرغب فيها، وبنفس الدرجةِ لم يكن يستطيع أن يرفضها. في السنوات التالية لذلك مباشرة، زادت العلاقة بين البابا والإمبراطور سوءًا. كان نابوليون قد وضع يدَه على كل الموانئ المهمة في شيفيتافيكيا وأوستيا، وبحلول أوائل العام ١٨٠٨م (وفي ذلك الوقت كانت كل الدول البابوية فرنسيةً في كل شيء ما عدا الاسم)، دخل الجيش الإمبراطوري روما واحتلَّ قلعة سانت أنجلو. وأخيرًا، في ١٧ مايو ١٨٠٩م، ومن قلعة «شونبرون Schonbrunn» في فيينا، أصدر الإمبراطور

مرسومًا بضم روما، ويقال إن البابا عندما سمِع بذلك تمتم قائلًا: «إنها النهاية!» في العاشر من يونيو ارتفع العلَم الفرنسي على القلعة مكانَ العلَم البابوي، أما مَن سلبوا المدينة المقدَّسة فتم حرمانُهم كنسيًّا بشكل رسمي.

كان البابا حريصًا على ألا يذكرَ الإمبراطور بالاسم؛ حتى ذلك كان خطوة شجاعة منه، ولم يتأخر الجزاء طويلًا. في ليلة الخامس من يوليو أُلقي القبض عليه، وتم اقتياده عبْر طريقٍ دائري مرورًا بجرينوبل وفالينس ونيس إلى «سافونا Savona»؛ وهنا سيبقى لمدة ثلاث سنوات إلى أن يُنقل، وهو في حالةٍ أقربَ إلى الموت منها إلى الحياة، في عربةٍ محكَمة القَفل إلى «فونتان بلو Fontainebleau». كان يعاني من حمَّى شديدة لدرجةِ أنه تلقى المسح الأخير بالزيت. على خلافِ سلفِه الذي مات في منفاه الفرنسي، سيعود إلى روما في مايو ١٨١٤م. عاش حتى ١٨٢٣م وكانت المسيحية قد اتَّخذت آنذاك طبيعةً مختلفة عن تلك التي كان قد عرفها في السنوات الباكرة في منصبه.

في خريف ١٨٠٧م، عندما رفض البرتغاليون إغلاقَ موانئهم أمام السفن البريطانية، أرسل نابوليون الجنرال «جنوت Junot» الذي كان آخر لقاء لنائبه في فينيسيا قبل عشر سنوات، بجيشٍ قوامه ثلاثون ألف جندي عبْر إسبانيا ليدخل البرتغال. فرَّت العائلة الملكية إلى البرازيل على الفور، تاركه البلاد للفرنسيِّين. بعد ذلك تحرَّك معظم جيش الغزو إلى شمال إسبانيا، وفي الوقت نفسه أرسل نابليون زوجَ شقيقته، جنرال الخيَّالة اللامع «جواكيم ميورا Joachim Murat»[٥] ليحتلَّ مدريد ويأتيَ بالملك شارل الرابع وابنه فرديناند للقائه في «بايون Bayonne»؛ وهناك، تنازلا في الخامس من مايو ١٨٠٨م عن أحقيتهما في العرش، ومقابل ذلك وعدهما نابوليون بأن تظل إسبانيا رومانيةً كاثوليكية، ومستقلة تحت حاكمٍ سوف يعيِّنه في وقتٍ قريب، وسرعان ما فعل ذلك، وكان الحاكم هو شقيقه جوزيف. إلا أن حكم جوزيف كان قد انتهى قبل أن يبدأ؛ ففي الثاني من مايو، قام شعب مدريد بانتفاضةٍ ضد المحتلين.

كان جوزيف بونابارت قد بدأ بدايةً جيدة جدًّا في نابولي؛ فبأوامر من شقيقه بدأ برنامجًا لتفكيك الملكيات الإقطاعية الكبيرة في المملكة، وأجرى إصلاحاتٍ على نُظُم الرهبنة، وبذل كلَّ ما في وُسعه لتنظيم الأمور المالية والتعليمية والقضائية. ولكنه لم يكن سعيدًا هناك، وعندما عرض عليه نابوليون تاجَ إسبانيا قبِلَه بكل سرور. شغَل الإمبراطور مكانه في نابولي بـ «جواكيم ميورا»، الذي أحاط نفسَه ببلاطٍ كله بذخ وترف. كان بلاطًا شاذًّا وغريبًا نوعًا ما، إلا أنه واصل ما كان جوزيف قد بدأه، منفِّذًا عددًا من الإصلاحات

المهمة، وفتَّت الملكيات الزراعية الكبيرة، وأحلَّ «قانون نابوليون Code Napoléon» محلَّ قوانين نابولي القديمة، التي كانت متراخية نوعًا ما. كان أن بقيَ في نابولي إلى أن خرج في ١٨١٢م على رأس الحملة الروسية التي أثبَت فيها — مرة أخرى — شجاعتَه في «بورودينو Borodino »، ولكن نابوليون تركه ليكون مسئولًا عن الجيش الكبير الممزَّق أثناء الانسحاب، وهو بدوره ترَكه، في محاولةٍ لإنقاذ مملكته النابولية. عندما وصلت أخبارُ هروبِ الإمبراطور من «إلبا Elba» إلى إيطاليا، كان ميورا الذي كان قد عاد إلى نابولي، أحدَ الأوائل الذين أعلنوا تأييدَهم له، واضعًا نفسه فورًا على رأسِ جيشٍ إيطالي؛ ولكن في الخامس من مايو ١٨١٥م، متحديًا تعليمات الإمبراطور، كان من الحماقة لكي يعترض قوةً نمساوية كبيرة. ولقي هزيمةً كبيرة في «تولنتينو Tolentino». طلب اللجوء إلى كورسيكا، وفي أكتوبر قام بمحاولةٍ أخيرة لاستعادة نابولي، ولكن أهالي نابولي آنذاك كانوا قد تحمَّلوا ما يكفي … فأسروه وأعدموه.

تم قمعُ انتفاضة مدريد بسرعة وبوحشية بالغة، ولكن غيرها من الانتفاضات والهبَّات اجتاح إسبانيا، التي أظهر شعبُها قدرةً فائقة على خوض حرب العصابات. طُرِد الفرنسيون من «فالينسيا Valencia» وأُجبر الجنرال «بيير ديبو Pierre Dupont»، الذي كان قد دخل «أندلسية Andalusia»، إلى الاستسلام هو وجيشه بالكامل في «باليان Balién» في الثالث والعشرين من يوليو. تقدَّم المتمردون نحو مدريد، وبعد أسابيعَ قليلة كان قد تم طرد جوزيف. في ذلك الوقت، كان البريطانيون قد دخلوا حلبةَ الصراع بعد أن رست قواتٌ بريطانية بقيادة «آرثر ولسلي Arthur Wellesly» — دوق «ولنجتون Wellington» القادم — في البرتغال في الأول من أغسطس. كان بفضلهم إلى حدٍّ كبير، أن فشل الهجومُ الفرنسي المضاد الواسع في سحق التمرد تمامًا في الشتاء التالي.

استمرَّت حربُ شبه الجزيرة حتى ١٨١٤م في أنحاء البرتغال وشمال غرب إسبانيا — ولكن بالرغم من أن إسبانيا دولةٌ متوسطية، فإن الحرب لم تكن متوسطية بأي معنًى، ولا كان نابوليون بونابارت متورطًا فيها على نحوٍ مباشر. لا يهمنا تاريخُه بعد رحيله من مصر كثيرًا. كان قد نقل مسرح عملياته عائدًا به إلى شمال ووسط أوروبا حيث سيبقى هناك على مدى الخمس عشرة سنة التالية. أثناء الشطرِ الأكبر من تلك السنوات سيظل نجمه في صعود؛ ولكن في سنة ١٨١٢م جاءت الحملة الروسية الكارثية، وبعدها لم يكن الكثير في صالحه. كان الحلفاء الآن يسحبون الشبكةَ إلى مكانٍ أقرب، وفي

أكتوبر ١٨١٣م كانت هزيمةُ الإمبراطور في «ليبزج Leipzig» هي نهايته الفاجعة. كانت هناك حملةٌ واحدة أخرى يائسة، ولكن في الثلاثين من مارس ١٨١٤م، أُجبر المارشال «مارمون Marmont» على تسليم باريس للحلفاء — بعد أقلَّ من أسبوعين، أعلن نابوليون تخليه عن السلطة رسميًّا، لتبدأ بعد قليل فترةُ المنفى على جزيرة «إلبا Elba».

كان لـ «إلبا» تاريخٌ مختلف الألوان. في الأزمنة القديمة كانت مشهورةً بخام الحديد الذي كان «الإتروسكُ The Etruscans» أولَ مَن استخرجه ومن بعدهم الرومان. في العصور الوسطى الباكرة كانت الجزيرة تابعة لـ «بيزا»، ولكن في ١٢٩٠م انتقلت تبعيَّتها لـ «جنوة»، وفي ١٣٩٩م لدوقات «بيومبينو Piombino»، الذين تخلوا عنها في ١٥٤٨م لـ «كوزيمو دي ميديشي Cosimo dé Medici» الفلورنسي. منذ ذلك الحين، كانت تحت حكم إسبانيا ثم تحت حكم نابولي، وفي ١٨٠٢م آلت لفرنسا. بعد وصول نابوليون، أصبحت «معتمدية Principality» مستقلة وهو حاكمها.[٦] رسا نابوليون في إلبا في الرابع من مايو ١٨١٤م، وعلى الفور بدت وكأن تيارًا كهربائيًّا قد سرى فيها. كتبَ المفوَّض البريطاني «سير نيل كامبل Sir Neil Campbell» يقول: «لم أرَ رجلًا في أي مجال من مجالات الحياة قط، بمثل هذا النشاط والدأب الذي لا يهدأ.» تناول نابوليون كلَّ الأمور على إلبا بجدية؛ فلم يكن يرى الجزيرة سجنًا وإنما ولاية يحكمها. وجَّه سكانها (نحو ١٢٠٠٠ نسمة) للعمل في إنشاء طرق وجسور جديدة، وأسَّس بلاطًا مصغرًا — مع إيتيكيتٍ صارمٍ كان مصرًّا عليه — ورفع على قَصره في «بورتو فيرايو Porto Ferraio» عَلَمًا جديدًا زيَّنه بنحله الإمبراطوري. وصلت أمُّه وشقيقته «بولين Pauline» في يوليو، وبعد وقتٍ قصير وصلت «ماريا فاليسكا Maria Waleska»، عشيقته البولندية مع ابنهما الصغير. على قدْر اهتمامه، كان هناك غائب واحد: زوجته الثانية «ماري لويز Maria Louise» الابنة الكبرى للإمبراطور النمساوي «فرانسيس الأول Francis I»، التي كان يحبها حبًّا حقيقيًّا ويفتقدها بشدة، والتي كان قد أعد لها القصر الريفي في «سان مارتينو San Martino»، ولكنَّ والديها كانا قد أصرَّا على أن تبقى في فيينا. لن يراها بعد ذلك.

في الوقت نفسِه، كان يرقب منتظرًا. كانت هناك بوارقُ أمل. كان معظم جيشه قد ظلَّ مواليًا له، وفي باريس كان الرجعي العتيد لويس الثامن عشر يحقِّق المزيدَ من كراهية الناس له باطراد، وكان مؤتمر فيينا قد أخفق. من ناحيةٍ أخرى، كانت موارده المالية في إلبا تتضاءل، كما كانت أمُّه تشجِّعه دائمًا على «تحقيق قدره»؛ وهكذا قرَّر نابوليون في فبراير ١٥١٨م. في اليوم التالي لرحيلِ كامبل في زيارةٍ لإيطاليا، أصدرَ أوامره

بتجهيزِ سفينته البريجية[٧] الوحيدة (إنكونستانت Inconstant). وفي السادس والعشرين أبحر ليرسوَ في الأول من مارس دون أي مقاومة، في «جولف-جوان Golfe-Juan» بين «فريجوس Fréjus» و«أنتيب Antibes». كان الطريق المباشر إلى باريس هو ذلك عبْر وادي الرون، إلا أن بروفنس كانت متعصِّبة للملَكية، وكانت قد استقبلته بمظاهراتٍ عِدائية وهو في طريقه إلى الجنوب في العام السابق. يضاف إلى ذلك أنه كان الطريق الذي يمكن أن يتخذه أيُّ جيش ملكي قد يتم الدفع به لمواجهته. اختار بدل ذلك الطريقَ الجبلي الذي يمرُّ عبر «ديجن Digne» و«سيستيرون Sisteron» و«جرينوبل Grenoble» الذي بات يُعرف منذ ذلك الحين بطريق نابوليون. هذا الطريقُ الذي حمل الإمبراطور عائدًا إلى باريس — وبعد المائة يوم إلى «ووترلو Waterloo» — يحمله كذلك خارجًا من قصتنا.

آنذاك فقط، كان البوربون يستطيعون العودةَ إلى نابولي؛ ولكن الملكة ماريا كارولينا لم تكن بينهم على أيةِ حال. بعد أن تخلَّى عنها زوجها البائس — الذي لم يرفع إصبعًا لمساعدتها عندما قام «بنتينك Bentinck» بترحيلها — عادت إلى النمسا بلدِها الأصلي؛ وهناك في صباح الثامن من سبتمبر ١٨١٤م كان أن وجدوا جثَّتها في «هوتزندورف Hotzendorf» بالقرب من فيينا. كانت امرأة قوية وشجاعة ولكنها كانت عنيدةً تتشبَّث دائمًا برأيها الخطأ، ويرجع إليها — إلى حدٍّ كبير — الانهيار والسقوط النهائي لمملكة البوربون في نابولي.

قبل أسبوعٍ أو أكثرَ قليلًا من «ووترلو Waterloo»، في التاسع من يونيو ١٨١٥م عقدَ مؤتمر فيينا جلستَه الأخيرة. كان قد بدأ دورته في سبتمبر السابق، أي بعد خمسة أشهر من تخلي نابوليون عن السلطة، وكان قد مرَّ بلحظةٍ شديدة الصعوبة عندما جاءت أخبارُ هروبه من إلبا؛ إلا أنه كان قد استمرَّ في الانعقاد — ناظرًا بعين القلق ناحيةَ الغرب — وكانت تسويته الأخيرة هي الاتفاقيةَ الأكثرَ شمولًا في تاريخ أوروبا. كان «القيصر ألكساندر الأول Tsar Alexander I» هناك ليدافعَ عن مصالح روسيا، وكان الإمبراطور النمساوي فرانسيس الثاني ممثلًا بوزيره الأول الأمير «فون مترنخ Von Metternich»، وملِك بروسيا ممثلًا بالأمير «فون هاردنبيرج Von Hardenberg»، وجورج الثالث ملِك إنجلترا باللورد «كاستلريج Castlereagh ». وكان قبولُ مشاركة بوربون فرنسا في المؤتمر، هو الذي جاء إلى فيينا بالأميرِ «تاليران Talleyrand»، الأكثرِ ذكاءً بين الجميع.[٨]

كانت إسبانيا والبرتغال والسويد ممثَّلة كذلك، وكان هناك، إلى جانبِ ذلك عددٌ كبير من النبلاء الأوروبيِّين وزوجاتهم، جاءوا جميعًا لكي ينعموا بأرقى مناسبةٍ اجتماعية تشهدها أوروبا.

كان لمعظم القرارات التي تم التوصُّل إليها في فيينا تأثيرٌ على دول أوروبا الشمالية، إلا أنها لن تستوقفنا. أما بالنسبة للبحرِ الأبيض، فقد وجدت فينيسيا — ولومبارديا وفينيتو — نفسَها مرةً أخرى في يد النمسا؛ تم استيعابُ جنوة في «بيدمونت Piedmont»؛ توسكانيا ومودينا كانتا من نصيبِ أرشيدوقٍ نمساويٍّ، بينما أُعطيت بارما لنمساويةٍ أخرى هي الإمبراطورة ماري لويز، تلك التي كانت من الطيش لتتزوج من نابوليون قبل خمس سنوات. الولايات البابوية، التي كانت تشكِّل جزءًا في ١٧٩٨–١٧٩٩م من الجمهوريات السيسالبينية[٩] والرومانية في المملكة الإيطالية، أُعيدت إلى البابا عن طيبِ خاطر.

كانت قد تبقَّت بعضُ الترتيبات التي ينبغي القيامُ بها، وبخاصة بالنسبة للجزرِ الأيونية السبع بالقرب من الساحل الغربي لليونان. لكلٍّ من هذه الجزر تاريخُها المختلِف إلى حدٍّ ما، وإن كان الطابع العام يظل واحدًا: كانت في البداية بيزنطية، ثم صقلية نورمندية، بعد أن استولى عليها «روبرت جيسكار Robert Guiscard»، ثم فينيسية بعد الحملة الصليبية الرابعة، ثم تركية (ما عدا كورفو وباكوس التي بقيت فينيسية حتى ١٧٩٧م) بعد أن احتلَّ نابوليون فينيسيا في ذلك العام، كان من بين أولِ ما قام به هو إرسال نحو ألفي شخص إلى الجزر، التي كان يعتقد أن امتلاكها ضروري بالنسبة لخططه الشرقية وخاصة تلك المتعلِّقة بمصر. بحلول شهر أغسطس، كانت الجزر كلُّها قد أصبحت في يدِ فرنسا، وبعد شهرين كان قد تم تقنينُ الحكم الفرنسي في «كامبو فورميو Campo Formu»؛ وكما حدَث في فينيسيا، كان يتم إحراقُ السجلات الذهبية للنبالة المحلية على نحوٍ منتظم، ويتم محو أسودِ سان مارك من على البوابات؛ إلا أن الفرنسيِّين سرعان ما جعلوا أنفسَهم مكروهين، بدايةً بسببِ معاداتهم للإكليروس، ثم بإصرارهم على منحِ اليهود مكانةً متساوية مع مكانةِ المسيحيِّين الأرثوذوكس. ولذلك عندما انضمَّت روسيا وتركيا للتحالف الثاني ضد نابوليون في ١٧٩٨م — واستغلَّتا هزيمة الفرنسيِّين في معركة النيل — وأرسلتا أسطولًا مشتركًا بقيادة الأدميرال «فيودور أوشاكوف Feodor Ushakov» لاستعادةِ الجزر، عندما حدَث ذلك كلُّه، كان هناك ترحيبٌ بالروس الأرثوذوكس (إن لم يكن بالأتراك) باعتبارهم محرِّرين. في كورفو فقط، كان

للفرنسيِّين حاميةٌ كبيرة للقيام بالقتال، ولكن بعد حصارٍ استمرَّ عدةَ أشهر، كانت مجبرةً على الاستسلام.

بموجب شروط اتفاق روسي-تركي عُقد في مايو ١٨٠٠م، أصبحت الجزر جمهوريةً فيدرالية مستقلة تحت حمايةِ القيصر، تدفع جزيةً سنوية للباب العالي؛ وعندما استؤنفت الحرب بين بريطانيا وفرنسا في ١٨٠٣م، كان يبدو أن استقلالها سيكون محلَّ احترام؛ إلا أن هاجس كورفو بقي مسيطرًا على نابوليون. وبموجب ملحق لمعاهدة «تلست Tilsit»، التي وقَعت مع القيصر على منصةٍ عائمةٍ وسط بحر «نيمن Niemen» في يوليو ١٨٠٧م، انتقلت حمايةُ الجزر من الروس إلى الفرنسيِّين. بعد عام، كانت هناك انتكاسةٌ أخرى لاحترام الكرامة البريطانية، عندما استولى الفرنسيون على «كابري Capri »؛ إذ عندما سمِع القائد الأعلى للمتوسط، لورد «كولنجوود Collingwood » من عددٍ من التجار من «شيفالونيا Cephalonia» وزانته أن سكَّان الجزرِ كانوا يتطلَّعون إلى الحصول على استقلالهم، قرَّر الانتقامَ بالقيام بالاستيلاء على أكبرِ عددٍ من الجزر الأيونية. القوة الكبيرة التي أبحرت من صقلية في ١٨٠٩م، استعادت شيفالونيا وزانته وإيثاكا و«كيتيرا Cythera»، وتم ذلك بسهولة شديدة، ولكنَّ دفاعات كورفو كانت قويةً أمام أي هجوم مباشر. كان الحصار هو الخيار الوحيد، وهو ما ثبَت أنه كان أقربَ ما يكون إلى المهزلة: قام بالحصار فرقاطتان صغيرتان فقط، وبمجرد أن كانتا تغيبان عن الأنظار، كانت السفن الفرنسية تعبر المضايقَ إلى ألبانيا وتعود بكلِّ ما تريد من تموين. وهكذا على مدى السنوات الست التالية كان الممثِّلون العسكريون للقوتين — المستعِدَّتين للقتال في أوروبا — ينتهجون سياساتٍ سلميةٍ مماثلة، على جزر على مرأًى منهم.

لم يَجِد أيٌّ من الطرفين حكمَ الجزرِ بالأمر الهين؛ كانت عداءات الدم جزءًا من أسلوب الحياة المعتاد، والقتل عملًا يوميًّا والجهل والخرافة في كل مكان. يروي رحالةٌ إنجليزي أنه عندما حاول أحدُ حكام شيفالونيا إدخالَ البطاطس للجزيرة: «كان بعضُ القساوسة يحاولون، بكل قوة، إقناعَ المزارعين بأن تلك الثمرة كانت هي التفاحة التي أغوت بها الحية آدمَ وحواءَ في الجنة.» بالتدريج، تمَّت السيطرة على الجزر على أية حال، وبحلول مارس كان الميجور «ريتشارد تشيرش Richard Church» قد نجح في أن يشكِّل في زانته ما أُطلق عليه الكتيبة الأولى، كانت كتيبةَ مشاةٍ يونانية خفيفة تابعة لدوق يورك. كانت هناك كتيبة ثانية، تم تشكيلها في شيفالونيا، كان ضباطها تقريبًا من اليونانيين، وشاركت في الاستيلاء على «باكسوس Paxos » في ١٨١٤م. رغم تسريح الكتيبتين بعد

انتهاء حروب نابوليون، فإن الكثير من ضباطهما وجنودهما اليونانيِّين حوَّلوا خبراتهم إلى فائدةٍ كبيرة كقادة في حرب استقلال اليونان — وبخاصة «تيودور كولوكوترونس Theodore Kolokotronis» العظيمُ، الذي يظهر في كل صوره وتماثيله تقريبًا بخوذته البريطانية.

في نوفمبر ١٨١٥م، تم الاتفاقُ بين مبعوثي بريطانيا وبروسيا وروسيا والنمسا على أن تكون الجزر الأيونية، من الآن فصاعدًا، دولةً مستقلة تحت الحماية البريطانية يحكمها مندوبٌ ساميٌّ بريطاني. بعد شهر، وصل السير «توماس ميتلاند Thomas Maitland»، حاكمُ مالطة آنذاك، لشغل ذلك المنصب. يصفه السير «تشارلز نابيير Charles Napier»، وكان قد عمل تحته، بأنه: «جلف، عجوز، مستبد ... وقح، وفظ، ولا يمكن احتماله ... شخصية قذرة ... مخمور باستمرار ... يحيط به جماعةٌ من المتملقين.» رغم كل هذه المثالب، ورغم اللكنة الاسكتلندية التي لم يكن أهالي كورفو ومواطنوه على السواء يفهمونه بسببها، حكم «الملك توم King Tom» الجزرَ على مدى السنوات العشر التالية بيدٍ حازمة، إلا أنها كانت مستنيرة بدرجةٍ مثيرة للدهشة.

في الوقت نفسه، عبَر المضايق هناك في البر الرئيسي الألباني، كانت دراما أخرى قد بدأت تتكشف، وكانت حبلى بالمزيد من الأحداث والتطورات. انطلق عِنان هذه الدراما بسبب المدعو علي باشا. عندما زاره «بيرون Byron » في ١٨٠٩م كتب:

> «سُموه في الستين من العمر، سمينٌ جدًّا وليس طويلًا، ولكن له وجهٌ جميل وعينان تميلان إلى الزرقة ولحيةٌ بيضاء، حسنُ الطِّباع ويتحلى في الوقت نفسه بالوقار الذي أراه سمةً عامة بين الأتراك ... ولا يبدو عليه أيٌّ من صفات شخصيته الحقيقية؛ حيث إنه طاغية لا يعرف قلبُه الرحمة، وهو المسئول عن كل الفظائع الرهيبة. شجاع، ومقاتل جيد لدرجةِ أنهم يدعونه: بونابارت المسلم.»

كان علي قد بدأ حياته قاطعَ طريق ... وظلَّ كذلك. في شبابه، كان هو وأتباعُه قد أسَّسوا ما يشبه عهدَ إرهاب في ألبانيا و«إيبيريوس Epirus»، بذلت السلطات العثمانية قصارى جهدها لدحره، إلا أنه كان يتفوَّق عليهم أو يهزمهم، وفي النهاية قرَّروا، بعد أن استبدَّ بهم اليأس، رشوتَه بمنصبه الرفيع. أصبح حاكمًا على إيانينا منذ ١٧٨٧م، ومن تلك القاعدة بسط هو وأسرتُه سلطانَهم على كل اليونان وألبانيا تقريبًا، بصرف النظر عن «أتيكا Attica» وأثينا نفسها. أحدَث علي تغييراتٍ كبيرة في عاصمته. كانت إيانينا

دائمًا جميلةً بموقعها الساحر بين بحيرات وجبال. أصلح الطرق وكان يقيم في كل عام سوقين كبيرتين للتجارة، بنى استراحاتٍ للقوافل التجارية وحفر قناةً للسفن. كان يوجد بقصره المنيف أكبرُ سجادة جوبلين تم صنْعُها، كانت قبل ذلك معلَّقة في قصر فرساي Versailles.

كانت المصائر المتغيرة للجزر الأيونية أمرًا بالغَ الأهمية بالنسبة لـ «علي» ... وأحيانًا كانت مصدرَ قلق. في سنوات الحكم الفينيسي، كانت فينيسيا تحكم المدن الساحلية الأربع الرئيسية على البر المقابل: «بوترنت Butrint» (الآن ضمن ألبانيا) مقابل المضيق تمامًا من جهة كورفو، و«بريفيزا Preveza» و«فونيتاس Vonitas» على جانبي مدخل «خليج آرتا Gulf of Arta»، و«بارجا Parga» المواجِهة لـ «باكسوس Paxos». عندما أصبحت الجزر فرنسيةً في ١٨٠٧م، استولى «علي» على الجزر الثلاث الأولى قبل أن يتمكَّن أحدٌ من إيقافه، ولكن الروس الذين كانوا يحتفظون بحاميةٍ قوية في بارجا، كانوا قد سلَّموها لفرنسا حسب الاتفاق. لم يكن أمام السكان المحليِّين، الذين لم يكونوا يُكنُّون أيَّ حب للفرنسيين، أيُّ خيار في البداية سوى أن يصبروا عليهم قدْر الاستطاعة، ولكن عندما بدأ نجم نابوليون في الأفول، رفعوا علم الاتحاد وطلبوا دعمَ البريطانيِّين. وهكذا كان أن قامت قوةٌ عسكرية بريطانية صغيرة، في الثاني والعشرين من مارس ١٨١٤م، بالاستيلاء على المدينة. كان من المفترَض أن يكون كل شيء قد أصبح على ما يرام؛ لسوء الحظ، عندما قرَّر مؤتمر فيينا في العالم التالي أن تكون الجزر الأيونية محميةً بريطانية، تم استثناءُ المدن الموجودة على البر الرئيسي تحديدًا من القرار وإعطائها للأتراك، مع شرط السماح، لكلِّ مَن يريد من سكان بارجا، بالعبور إلى الجزر.

لو أن المؤتمر كان قد ترك الأمرَ عند هذا الحد، فلربما كان معظم أهالي بارجا قد بقوا حيث كانوا، إلا أن المؤتمر فعلَ ما هو أكثرُ من ذلك. اشترط أن تقوم الحكومة العثمانية بتعويض كلِّ المهاجرين عن ممتلكاتهم التي تركوها على البر الرئيسي. نتيجةً لذلك، اختار الجميع أن يغادروا، أما الأتراك الذين واجهتهم مشكلةُ المبالغ الطائلة التي كان عليهم أن يدفعوها كتعويضات، فأعطوا بارجا لـ «علي». في آخرِ الأمر، قُدِّرت التعويضات بمائة وخمسين ألف جنيه إسترليني قام «علي» بدفعها بعد فترة قصيرة؛ ويوم «الجمعة الحزينة Good Friday»[١٠] من العام ١٨١٩م، عبَر نحو ثلاثة آلاف من أهالي بارجا بأيقوناتهم وتذكاراتهم المقدَّسة، وربما بعظامِ ورفاةِ أسلافهم، عبروا المضايق إلى كورفو؛ حيث تم تقسيمُ المبالغ عليهم. وكما نعرف، لم يكن ذلك عزاءً كافيًا، وأصبحت قصتُهم إحدى

الأساطير الكبرى عن معاناة اليونانيين تحت الحكم التركي، وكثيرًا ما يقال إنهم تركوا موطنهم طواعيةً، وإنه تم تعويضهم عن ذلك، وإنهم لو كانوا قد بقوا في بارجا لَمَا كان مصيرهم ليكون أسوأ من مصير أبناء المدن المجاورة الذين حُرموا فرصة المغادرة.

لم يعمِّر علي باشا طويلًا لكي ينعَم بمكتسباته الجديدة. نُسبت إليه محاولةُ اغتيال أحد أقاربه في فبراير ١٨٢٠م، كان يُدعى إسماعيل باشا الذي كان قد أساء إليه وفرَّ إلى القسطنطينية، فأعطى ذلك السلطان محمود الثاني فرصةً كان ينتظرها طويلًا. قام بتعيين إسماعيل حاكمًا على إيانينا بدلًا من علي، وأعطاه جيشًا صغيرًا وأمره بأن يقوم بالباقي. في فصل الخريف ذلك نفسه، ومع اقتراب إسماعيل، أضرم علي النار في المدينة، وأوى إلى قلعته التي كانت تقع على نتوءٍ جبلي على البحيرة يحميها خندقٌ مائي عريض. هنا، كان يبدو أنه سوف يصمد أبدًا، ولكن في يناير ١٨٢١م والمأزق مستمر، قام السلطان محمود بعزل إسماعيل وعيَّن مكانه خورشيد باشا، الأكثرَ قوةً وكفاءة، حاكمًا على «موريا Morea». عندما وجد خورشيد أن جيشَ إسماعيل المختلِط لم يكن يُرجى منه (كان مكوَّنًا من قواتٍ منفصلة تتصرف كلٌّ منها على هواها تحت إمرة قائدها الباشا)، أمضى العام التالي في إعادة تنظيمه؛ وفي مطلع العام ١٨٢٢م، شقَّ طريقه نحو القلعة.

تعدَّدت الروايات حول نهاية علي. بعد أيامٍ قليلة كان رأسه المقطوع مرفوعًا على سنِّ رمح في إيانينا، قبل إعادته إلى القسطنطينية وسط فرحة الانتصار.

هوامش

(١) عندما أبدى بيوس السابع اعتراضًا عصبيًّا إلى حدٍّ ما، جاءته رسالةٌ شخصية من الإمبراطور لكي تعيده إلى حجمه: «لا بد من أن يُكِنَّ لي قداستكم كلَّ الاحترام في سلطتي الزمنية، بنفس القدْر الذي أَكنُّه لكم في سلطتكم الروحية … قداستكم عاهل روما … ولكنني إمبراطورها.»

(٢) حتى وقت قريب كانت ما تزال هناك حانةٌ في الركن الجنوبي من مايدا فيل تحمل اسم «بطل مايدا»، على لافتتها صورةٌ للجنرال ستيوارت.

(٣) انظر الفصل السادس: إيطاليا العصور الوسطى.

(٤) كان التأثير شديدًا لدرجةِ أنَّ عِلية القوم كانوا يتكلمون لغتهم الصقلية المحلية بلكنة إنجليزية.

(٥) كان متزوجًا من كارولين Caroline صغرى شقيقاتِ الإمبراطور.

(٦) بعد رحيله ستعود إلى توسكانيا التي ستعود معها في ١٨٦٠م إلى إيطاليا الموحَّدة.

(٧) سفينة شراعية ذات صاريَين. (المترجِم)

(٨) كان تاليران آنذاك في الستين من العمر، وكانت مسيرته الحياتية قد شهدت تطوراتٍ غريبة. دخل الكنيسة أولًا وتدرَّج إلى مستوى الأسقف. فيما بعد مثَّل حكومته في لندن وبذل جهدًا كبيرًا في سبيل العلاقات الإنجليزية-الفرنسية، ولكنه بعد إعدام الملك والملكة لجأ إلى أمريكا حيث بقي عامين. بعد عودته إلى باريس عيِّن وزيرًا للخارجية في عهد حكومة الإدارة، ثم أصبح مستشار نابليون الرئيسي للشئون الخارجية، وبعد أن أزعجه طموحُ الإمبراطور الجامح، بدأ يخطِّط سرًّا لعودة البوربون. بعودة لويس الثامن عشر في ١٨١٤م، كان أن وجد تاليران نفسَه وزيرًا للخارجية مرة أخرى.

(٩) Cisalpine: المجاورة للألب. (المترجِم)

(١٠) الجمعة السابقة على عيد الفِصْح. (المترجِم)

الفصل الخامس والعشرون

الحرية لليونان

- ألكساندر إبسيلانتس: ١٨٢٠م.
- الانتفاضة تبدأ: ١٨٢١م.
- معارك على البر وفي البحر: ١٨٢١م.
- ديمتريوس إبسيلانتس: ١٨٢١م.
- مذبحة في خيوس: ١٨٢٢م.
- دراماللي: ١٨٢٢م.
- بيرون: ١٨٢٣م.
- وفاة بيرون: ١٨٢٤م.
- محمد علي يدخل القوائم: ١٨٢٤م.
- ميسولونجي: ١٨٢٥م.
- سقوط ميسولونجي: ١٨٢٥م.
- تشيرش وكوشران: ١٨٢٧م.
- نافارينو: ١٨٢٧م.
- أوتو البافاري: ١٨٣٣م.

* * *

يمكن أن نقول إن بدايةَ النضال اليوناني من أجل الاستقلال عن الحكم التركي، كانت في سبتمبر ١٨١٤م، عندما أَسَّس ثلاثةُ شبان يونانيون جمعيةً سرية في «أوديسا Odessa». ولتفادي الشك في أمرهم، أطلقوا عليها اسمًا ملتبسًا غير دالٍّ وهو Philiki Eteria أي

«جمعية الصداقة». لم يكن أيٌّ من الشبان الثلاثة متميزًا في شيءٍ ما، أو يحمل ما يجعله شخصيةً استثنائية: نيكولاس سكوفاس Nikolas Skouphas كان صانعَ قبَّعات، وإيمانويل زانتوس Emmanuel Xanthos كان تاجر زيت زيتون مفلسًا؛ أما ثالثهم أثناسيوس تساكالوف Athanasios Tsakalov فلم يكن صاحبَ مهنة ثابتة. بدءوا العملَ على مهل، وبالرغم من أنهم كانوا كلهم من مواليد اليونان، فإنهم، كمغتربين، لم يكونوا يستطيعون الحصولَ على شيء من موارد البر الرئيسي، حتى بين الشتات اليوناني حول البحر الأسود، كانوا يعتبرون ضئيلي الشأن لكي يأخذهم أيٌّ من التجَّار الأغنياء على محمل الجِد. في الوقت نفسه، كانوا هم في حاجةٍ إلى دعم أولئك التجار.

شيئًا فشيئًا، أصبح عددُ أعضاء الجمعية يتزايد. قام مؤسِّسوها بنقل قاعدتهم إلى القسطنطينية؛ حيث كان يوجد هناك في تلك الأيام يونانيون كثيرون مثل الأتراك، ومن هناك أرسلوا مبعوثيهم إلى اليونان نفسِها: ذهب واحد إلى مقدونيا Macedonia وتيسالي Thessaly، وآخرُ إلى البيلوبونيز وجزر هيدرا Hydra وسبتساي Spetsai الغنيةِ، واثنان إلى ماني Mani (الجزيرة الوسطى بين النتوءات الثلاثة في البيلوبونيز الجنوبية). كانت ماني بؤرةَ انتفاضة فاشلة في السابق، هبَّت في ١٧٧٠م بواسطة كاترين العظمى Catherine the Great عن طريق عشيقها الكونت جريجوري أورلوف Gregory Orlov؛[١] وكنتيجة، ربما يبدو ظاهرية التناقض مع ذلك الحدَث، كانت السلطات العثمانية قد أبعدتها عن صلاحياتِ حاكم البيلوبونيز، وجعلت تبعيتها المباشرة لقبطان باشا Kapudan Pasha قائدِ القوات المسلَّحة التركية وسيد بحر إيجه، وكان بدوره قد نقل سلطاته لكبير إحدى العائلات المحلية مع لقب «بيه Bey». ثامنُ أولئك البهوات (البكوات)،[٢] الذي عيِّن في ١٨١٥م، سيكون أحدَ أبطال الثورة اليونانية، وسوف يسقط ما لا يقل عن تسعة وأربعين شخصًا من عائلته في القتال خلال النضال اللاحق. كان اسمه بتروبيه مافروميكالس Petrobey Mavromichalis.

كان بتروبيه مثل كل عائلته بالغَ الوسامة كما هو متوقَّع، ربما يكون جَده الأعلى جيورجي Georgy قد تزوَّج من إحدى حوريات البحر! وكان يجمع إلى تلك السِّمة حُسن الخلق والذكاء الشديد والشجاعة الفائقة كما سيتجلى فيما بعد. ومثل أي قائد قَبَلي، كان يمكن أن يكون بالغَ القسوة عند الضرورة، إلا أنه في الوقت نفسه كان كريمًا — في أرضه — ورجلَ سلامٍ يحقن الدماء ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ويبذل قصارى جهده لإرساء أواصر التضامن، الذي كان يعرف أنه سيكون ضروريًّا في القادم من السنوات. عندما اتصلت به الجمعية منحها تأييدَه على الفور.

قبل التفكير في حمل السلاح، كان لا بد من أن تجد الحركةُ قائدًا لها. في ذلك الوقت، كان اليوناني الأكثرُ تميزًا — والاختيار الأول الواضح — هو إيانس كابودستريا Iannis Kapodistrias، المعروفَ خارج اليونان بـ «كابودستريا Capodistria». كان من مواليد كورفو لأسرةٍ عريقة هاجرت من إيطاليا إلى الجزر الأيونية في القرن الرابع عشر. في شبابه، كان نشطًا في الحياة السياسية، كما كان قد ترك انطباعاتٍ إيجابيةً شديدة لدى المحتلين الروس، لدرجةِ أنْ دعوه للمشاركة في الإدارة في سان بطرسبورج St Petersburg. في الظروف العادية، لم يكن وضعه كموظف في الإمبراطورية الروسية يمنعه من رئاسة الجمعية، إلا أن القيصر ألكساندر — لسوء الحظ — كان قد عيَّنه وزيرَ خارجيةٍ مساعدًا في ١٨١٥م؛ ولذلك عندما طلب إيمانويل زانتوس مقابلته في ١٨٢٠م، وقدَّم له الدعوة، رفضها مباشرة.

بعد ذلك وقعت عينُ الجمعية على ضابطٍ جسور يُدعى ألكساندر إبسيلانتس Alexander Ipsilantis، كان أحد مرافقي الإمبراطور. كان ما زال في العشرينيات من عمره، وكان قد فقد ذراعه اليمنى أثناء خدمته مع القيصر. كان اثنان من إخوته عضوين في الجمعية بالفعل، وقَبِل المنصب دون تردُّد. كان الطريق ما زال طويلًا وكانت عضوية الجمعية قد بلغت نحو ألف شخص. إلا أن إبسيلانتس كان متعجِّلًا نافدَ الصبر، فأصدر بيانًا في الثامن من أكتوبر ١٨٢٠م يدعو فيه كلَّ اليونانيِّين للاستعداد للنضال القادم، معلنًا أن الثورة لا بد من أن تنطلق من البيلوبونيز قبل نهاية العام. كان قد فشِل في استشارة مصادره على الفور؛ فكانوا مضطرين لإبلاغه بأن البيلوبونيز لم تكن مستعدة بعدُ؛ ولذا قرَّر أن تكون البداية في الشمال بدلًا من الجنوب، في معتمديات الدانوب: مولدافيا Moldavia وفالاشيا Wallachia.

كان اختيارًا مفاجئًا ومثيرًا للدهشة من عدة أوجه. لم يكن أيٌّ من هذه المناطق — كلتاهما اليوم ضمن رومانيا الحالية — جزءًا من اليونان، كما لم تكونا، عمليًّا، جزءًا من الإمبراطورية العثمانية؛ إذ كانتا بحكم وضعهما القانوني إقطاعياتٍ تابعة، وبموجب الاتفاقية لم يكن السلطان يستطيع أن يرسلَ قواتٍ إلى هناك دون موافقة الروس. كان معنى ذلك ضرورة إقناع القيصر بمنع القوات التركية من التصدي للثوار، لصالح شركائه في العقيدة الأرثوذكسية. كانت هناك ميزةٌ أخرى وهي أن المنطقتين، كانتا على مدى القرن السابق، تحت حكم يونانيِّين من القسطنطينية، وكان المتوقَّع أن يقدموا كلَّ ما يستطيعون من دعم. كل هذه الاعتبارات شجَّعت إبسيلانتس، الذي قام في

السادس من مارس ١٨٢١م باجتياز الحدود إلى مولدافيا مع اثنين من إخوته الأصغر وعدد من المرافقين. مساء اليوم نفسه، دخلوا العاصمة إياسي Iasi؛ حيث أصدر بيانًا آخرَ يَعِد فيه بتدمير الأتراك تمامًا «بأقل القليل من الجهد؛ حيث إن هناك إمبراطوريةً قوية تحمي صفوفنا».

الحقيقة أنه كان هناك ما يدُل على أن «الإمبراطورية القوية» لن تفعل شيئًا من هذا القبيل؛ إذ كان كابودستريا والقيصر نفسه قد أوضحا لـ «إبسيلانتس» أنهما كانا ضد الفكرة، ولن يكون لهما دخل بها، وأن الحملة — إن جاز اعتبارها كذلك — منذ تلك اللحظة، كانت كارثة محقَّقة. في جالاتس Galatz، وهي مدينةٌ تقع على بُعد مائة ميل تقريبًا جنوبي إياسي، قام الثوار بذبح الحامية التركية وكل التجار الأتراك، وعندما وصلت الأخبار إلى إياسي، تم قتلُ الحراس الأتراك (نحو خمسين شخصًا)، الذين كانوا قد تركوا أسلحتهم بعد وعدٍ بالإبقاء على حياتهم وتأمين ممتلكاتهم. بالإضافة إلى ذلك، فإن إبسيلانتس عندما وجد أن الدعم الذي كان يتوقَّعه من إياسي لم يأتِ، كان يلجأ إلى اغتصاب الأموال من أصحاب البنوك الأثرياء. في الوقت نفسِه، كان الجنود الذين جمعهم، ولا يدفع لهم رواتبَ، يقومون بسلب ونهب القرى المحلية. كل تلك الظروف جعلت إبسيلانتس في حالة انزعاج شديد، فزحف على بوخارست Bucharest، ليجد أن مغامرًا محليًّا يُدعى تيودور فلاديميريسكو Theodore Vladimirescu كان قد سبقه إلى هناك واحتلَّ المدينة، داعيًا أهالي فالاشيا للثورة، ليس على الأتراك، وإنما على اليونانيِّين الفناريِّين The Phanariot Greeks،[٣] أو «التنانين التي تبتلعنا أحياء» كما وصفهم.

ولكنَّ الضربتَين القويتَين كانتا في الطريق. أولًا: حَكم البطريرك الأرثوذكس — مدعومًا من اثنين وعشرين أسقفًا — على إبسيلانتس وغيره من زعماء الثورة بـ «الحِرْم الكنسي واللعنة وعدم الغفران، واستنزال اللعنة عليهم بعد الموت والمعاناة الأبدية». بعد ذلك، استنكر القيصر نفسُه الثورة. وفي بيانٍ صاغه كابو دستريا، تم طرد إبسيلانتس من الجيش باعتباره «قد خالف كل مبادئ الدين والأخلاق». لن يحصل هو أو أيٌّ من رفاقه على أيِّ دعم من روسيا، التي مُنِع من العودة إليها.

من حسن الحظ، سرعان ما أُلقيَ القبض على فلاديميرسكو ونُقِل إلى معسكر إبسيلانتس حيث تم إعدامُه بسرعة. زاد عدد الثوار بعد أن انضم إليهم المضارون من أتباع فلاديميرسكو، فقرَّروا مواجهةَ الأتراك رأسيًّا، وفي التاسع عشر من يونيو، قابلوا قوةً عثمانية كبيرة بالقرب من قرية دراجاساني Dragasani، وفي المعركة، قُتل نصفهم

تقريبًا ولاذ النصف الآخر بالفرار. هرب إبسيلانتس إلى النمسا، إلا أنه أُلقي القبضُ عليه وهو يحاول عبورَ الحدود، وتم إيداعه السجن في موهاكس Mohacs حتى العام ١٨٢٧م ليموت في العام التالي. تتغنَّى به الأساطير الشعبية اليونانية بطلًا وشهيدًا … وقد كان كذلك على نحوٍ ما. إلا أنه لم يكن يملك الذكاء ولا الخبرة اللازمين لقيادة ثورة ناجحة، كما يُعزى فشل الحملة الأولى في حرب الاستقلال اليونانية لعدم كفاءته، كما هو لأي شيء آخر.

في البيلوبونيز، كانت احتمالات الانتفاضة التالية تبدو أكبرَ، وبخاصة بعد خروج خورشيد باشا حاكم موريا Morea في يناير ١٨٢١م لمواجهة علي باشا حاكم إيانينا. كان خورشيد قوةً لا يُستهان بها في المنطقة، وأدَّى إحلال نائب غير كفء مكانه إلى تراخي السلطة التركية على الفور. بعد أيام قليلة وصل من زانته تيودور كولوكوترونس Theodore Kolokotronis العربيد، ذو الشاربين الأسودين الكبيرين، قاطع الطريق السابق ذو الخمسين ربيعًا، الذي يجسِّد الثورة اليونانية أكثرَ من سواه. بحضوره الطاغي، بضحكته المجلجِلة وثورات غضبه المرعِبة، كان قائدًا بالفطرة، وفي غضون أيام قليلة من وصوله فرضَ شخصيته على كلِّ مَن حوله.

كان الفتيل قد تم وضعُه، ولكن كولوكوترونس هو الذي سيشعله، عندما قرَّر أن يكون الخامس والعشرون من مارس هو يومَ انطلاق الثورة.[٤] حتى آنذاك، كانت قلةٌ هي التي تركت السلاح. كان يمكن أن تقرأ على لافتة في ساحة كنيسة سان مايكل في مدينة أريوبوليس Areopolis عبارة تقول: «من هذه الساحة التاريخية، انطلقت الانتفاضةُ العظيمة تحت قيادة بتروبيه. ١٧ مارس ١٨٢١م.»

شرفٌ لـ «مافروميكاليس Mavromichalis» إذن، أن يكون أولَ مَن نزل إلى الميدان، ولكن كوكلوكوترونس لم يكن متخلفًا في المؤخرة؛ فقد قام يوم ٢٠ مارس بتنظيم مسيرة قوامها نحو ألفي مسلَّح، طافت شوارع كالاماتا Calamata وسط هُتاف الجماهير. بعد ثلاثة أيام، قبِلوا استسلامَ الحامية التركية مع وعدٍ بالإبقاء على حياتهم. (من أسف أن ذلك لم يحدُث؛ إذ «ابتلعهم القمر»، على حدِّ تعبير كاتب معاصر).[٥] في غضون أقلَّ من أسبوع، كانت الثورة قد عمَّت البيلوبونيز.

إلا أن الأمور لم تكن تسير على هوى الثوار في كل مكان. في باتراس Patras، المدينةِ الرئيسية والميناء، واجهت الانتفاضة مقاومةً شديدة في الأيام الأخيرة من شهر مارس. كان

الأتراك متمترسين في القلعة ويطلقون نيران مدافعهم على مَن يحاصرونهم من تحتهم، وفي غضون أيام قليلة كانت خيبةُ أمل أخرى. لجأ الأسقف جرمانوس Bishop Germanus (الجالسُ على كرسي باتراس وأكبرُ شخصية كنسية والقائدُ الرمزي للثورة كلها) إلى كل القوى المسيحية طلبًا للمساعدة، وفي التاسع والعشرين من مارس تلقَّى ردًّا من سير توماس ميتلاند Thomas Maitland في كورفو. كان محظورًا على رعايا الجزر الأيونية — كما كتب ميتلاند — أن يورِّطوا أنفسهم في الصراع من جانبهم، وإن فعلوا فسوف يفقدون حمايةَ حكومتهم.

ثم في يومِ أحد السَّعف Palm Sunday، وكان الثالث من مارس، كان أن وصلت إلى باتراس قوةٌ تركية من بضع مئات بقيادة شخص يُدعى يوسف باشا. كان يوسف قد ترك حصار إيانينا قبل فترة قصيرة ليشغل منصب حاكم إيوبيا Euboea، وعند توقُّفه في ميسولونجي Missolonghi (ميسولونجيون Mesolongion الآن) في طريقه، عرف بالاضطراب فهُرع من فوره لنجدة المدينة. دخل المدينة هو ورجاله فجرًا بينما كان سكانها اليونانيون ما زالوا نائمين. نهض معظمهم مذعورين ليفروا للنجاة بحياتهم، بينما أصدر يوسف باشا أوامرَه بإحراق منازل كل الشخصيات الرئيسية من الأهالي؛ ومع هبوب رياح شديدة انتقلت النيران بسرعة لكي تلتهمَ نحو سبعمائة منزل. في الوقت نفسِه، كانت الشوارع قد امتلأت بالأتراك الهائجين المتعطِّشين للدم اليوناني، وشهدت الساعات القليلة التالية قطْع رءوس أربعين من اليونانيِّين الذين كانوا قد بقوا في المدينة.

ستظل باتراس ساحةَ قتال حتى نهاية الحرب، يتناوب السيطرةَ عليها اليونانيون والأتراك دون أن يحسمَ طرفٌ منهما الأمر وينتهي القتال. وبالرغم من القصف المستمر من المدافع اليونانية، لم يفقد الأتراك السيطرةَ على القلعة ولم يتركوا القلعتين الكبيرتين الأخريين: الروملي Roumeli وموريا Morea، المواجهتين عند أضيقِ نقطةٍ من خليج كورنتة. لولا رأس الجسر هذا، الذي لا يقدَّر بثَمن؛ حيث كان اليونانيون مستقرين في كورنتة، لبقيت شبه الجزيرة الشاسعة عصيةً على الاختراق من جهة الشمال، ولكان مقرُّ الحكم الخاص بهم في ترايبولس Tripolis قد بات معزولًا؛ فبواسطته جعلوا حياةَ المتمردين صعبةً بالفعل.

لم يكن هناك شكٌّ الآن في أن البيلوبونيز ستكون الساحةَ الرئيسية للصراع. كان هناك أن كسب كولوكوترونس (وكان قد أصبح القائدَ الأعلى بصفةٍ رسمية) معركتَه الضارية

الأولى في فالتسي Valetsi، التي لا تبعُد سوى خمسة أميال عن مقر الحكومة التركية في ترايبولس؛ حيث خسِر الأتراك نحو سبعمائة جندي بين قتيل وجريح، واليونانيون نحو ألف وخمسمائة. كان هناك كذلك أن استولى اليونانيون على أول حصن قوي للأتراك، وهو حصن مونيمفاسيا Monemvasia، في الركن الجنوبي الشرقي، الذي كان يُعتقد أنه غير قابل للاختراق بسبب الطبيعة الصخرية القاسية للمكان. من ناحية أخرى، كان القتال المتقطع في الروملي يستهدف، في أوقات قصيرة، إيقافَ تقدُّم الأتراك شمالًا. كان هناك، على سبيل المثال، انتصارٌ يوناني كبير في فاسيليكا Vasilika. كان الطريق يمتد عبْر ممرٍّ ضيقٍ يشبه ممرَّ تيرموبيلاي Thermopylae وليس بعيدًا عنه؛ حيث كان ليونيداس Leonidas ملِك إسبرطة قد هلك هو وجيشه في مقاومتهم البطولية ضد الفرس، قبل ثلاثة وعشرين قرنًا.[٦]

شهد البحر الأبيض كذلك نصيبَه من المعارك. لم تكن القوى المتنافِسة متساويةً أو متكافئة دائمًا. السفن اليونانية مثلًا، كانت في الغالب تجاريةً بالرغم من أنها كانت تحمل أحيانًا مدافعَ لحماية نفسها من القراصنة الذين كان يعجُّ بهم البحر. من ناحيةٍ أخرى، كان لدى الأتراك بحريةٌ قوية. كان ذلك، وبحسب الظاهر، لا بد من أن يجعل مفهومَ الحرب البحرية مختلفًا بالنسبة للطرفين إلى حدٍّ بعيد، إلا أن اليونانيِّين كان لديهم ميزة كبيرة: كانوا رجالَ بحرٍ بمعنى الكلمة، بينما الأتراك — ومنبعهم آسيا الوسطى التي تكتنفها اليابسة — لم يكونوا كذلك. كان ذلك يعني أنه بينما كان المقاتلون على سفينة حربية تركية من الأتراك، كانوا يعتمدون على اليونانيِّين في شئون البحر والملاحة. بعد نشوب الثورة لم يَعُد ذلك ممكنًا. يضاف إلى ذلك أن صِغر حجم السفن اليونانية كان يجعلها أكثرَ سرعة وقدرة على المناورة، مثلما كانت السفن الإنجليزية المنتصرة قبل قرنين ونصف القرن، عندما خرجت لمواجهة الأرمادا الإسبانية.

لن يكون مثيرًا للدهشة إذن أن نعرفَ أن حملتين من الحملات التركية الثلاث التي خرجت من القسطنطينية في ١٨٢١م فشلتا تمامًا. كان لتلك الحملات هدفٌ مزدوج: إعادةُ فرض السيادة التركية على الجزر اليونانية المتمردة، وجلبُ تعزيزات ومؤن للحاميات التركية حول البيلوبونيز. الحملة الأولى انسحبت بعد تدمير ثاني أكبر سفينة فيها بواسطة حراقة[٧] يونانية، عندما انتقلت ألسنةُ اللهب إلى مخزن البارود لتنفجر السفينة وتتحوَّل إلى شظايا ويُقتل أكثر من خمسمائة شخص. الحملة الثانية، التي كانت تستهدف إخضاعَ جزيرة ساموس بالقرب من ساحل الأناضول، عادت مرتدةً دون أن تحقق شيئًا. لم

ينجح سوى الحملة الثالثة التي أبحرت حول البيلوبونيز والبحر الأيوني؛ حيث كانت السلطات البريطانية ما زالت تسمح للأتراك باستخدام موانئ الجزيرة. تزوَّدت بالمؤن من زانته وواصلت هجومها بواسطة أسطول صغير، كان معظمه سفنًا مصرية، على ميناء جالاكسيدي Galaxidi على الشاطئ الشمالي لخليج كورنتة. تم أسرُ أربع وثلاثين سفينة يونانية ببحَّارتهم وإحراق المدينة تمامًا. بعد ذلك، عاد الأسطول إلى البوسفور متخذًا المسار نفسَه الذي جاء منه، ليرسوَ في القرن الذهبي تتبعه السفنُ المأسورة التي غنِمها، وجثث الأسرى معلَّقة على عوارض الصواري.

مع تدهور العلاقات بين اليونانيِّين والأتراك، كان المتوقَّع أن يعاني المدنيون والمحاربون كذلك. كان هناك حدثٌ مؤسف بالغُ البشاعة وقع في سميرنا Sumyrna (إزمير Izmir) في يونيو ١٨٢١م؛ إذ في أثناء هجوم على جماعة كبيرة من اليونانيِّين تم قتلُ واغتصاب عدد كبير من الرجال والنساء، إلا أن أكثر الأعمال فظاعةً، كان ما حدث في القسطنطينية، وبأوامر من السلطان محمود الثاني شخصيًّا. بعد فجر يوم أحد الفِصْح الثاني والعشرين من أبريل ١٨٢١م، تم تجريدُ البطريرك جريجوريوس الخامس Grigorios V من مرتبته رسميًّا — والمؤكَّد أنه لم يكن قد نطق بكلمة واحدة تأييدًا للثورة — وعند ظهيرة اليوم نفسِه، كانت جثته معلَّقة على المدخل الرئيسي للبطريركية. يقول القس الملحقُ بالسفارة البريطانية، روبرت وولش Robert Walsh تعليقًا على ذلك الحدث «… وحيث إنه كان مهزولًا بسبب التقشُّف وضعيفًا بحكم السن (كان يقترب من الثمانين)، لم يكن وزنه ثقيلًا لكي يموتَ على الفور. ظل يتألم فترةً طويلة، ولم تجرؤ أيُّ يدٍ صديقة على أن تمتدَّ لإنقاذه، ليحل ظلام الليل قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.» يقال إن السلطان جاء بعد ساعات قليلة لكي يشاهد بنفسه الجثة التي بقيت معلَّقة ثلاثة أيام.

لم يكن البطريرك العجوز الضحيةَ الوحيدة؛ ففي أرجاء الإمبراطورية العثمانية كلِّها كان يتم الهجوم على الكنائس المسيحية وإحراقها، كما تم إعدامُ كثير من الإكليروس، من بينهم سبعةُ أساقفة على الأقل. إلا أنه برغم صدمة العالمِ الغربي كلِّه لذلك، لم يرفع صوتَه بالاحتجاج سوى روسيا الأرثوذوكسية — وزيرا الخارجية النمساوي والبريطاني مترنخ Metternich وكاسلتريج Castlereagh اللذان كان يمكن الثقةُ بهما دائمًا بأنهما يعارضان أيَّ حركة للتحرُّر الوطني، تغلَّبا بسهولة على التردُّد الأولي لبروسيا وفرنسا،

وعليه كان القيصر مضطرًّا للتصرُّف منفردًا، ولكنه لم يحاول أن يلوِّن كلماته أو يخفِّف من حدَّتها، وفي إنذارٍ أعدَّ مسوَّدته كابودستريا أعلن:

«لقد وضعت الحكومة العثمانية نفسَها في حالةِ عِداء واضح مع العالم المسيحي. لقد شرَّعت دفاع اليونانيِّين الذين سيقاتلون من الآن من أجل هدف واحد، وهو إنقاذ أنفسهم من هلاك مؤكَّد. على ضوء طبيعة هذا الكفاح، تجد روسيا نفسَها مضطرةً لتقديمِ العونِ لهم لأنهم مضطَهدون، والحمايةِ لأنهم في حاجة إليها، والمساعدةِ مع كل العالم المسيحي، لأنها لا يمكن أن تترك إخوانها في الدين تحت رحمة التعصُّب الأعمى.»

قُدِّم هذا الإنذارُ للحكومة التركية في الثامن عشر من يوليو، وفي الخامس والعشرين، عندما لم يتسلموا ردًّا، قطع السفير الروسي الكونت ستروجانوف Count Stroganoff العلاقاتِ الدبلوماسيةَ مع الباب العالي وأغلق سفارته.

في الوقت نفسه، كان كولوكوترونس وجيشه في البيلوبونيز يستعدون للاستيلاء على أكبرِ غنيمةٍ حتى ذلك الحين؛ ترايبولس. بالرغم من وجود حامية بها، كان عددها نحو عشرة آلاف — من بينهم نحو ألف وخمسمائة من المرتزقة الإسبان — كانت المدينة تبدو هدفًا سهلًا. ولأنها كانت تقع وسط سهل منبسط، لم تكن تعتمد على دفاعات طبيعية، مجرَّد سور حجري بارتفاع نحو أربعة عشر قدمًا. كذلك لم يكن بالإمكان إمدادُها وتموينها من البحر. كان معروفًا عنها أيضًا ازدحامها بالسكان. كان سكانها المدنيون نحو خمسة عشر ألف نسمة، ثم زاد عددهم بسبب مَن نزحوا إليها من الأتراك المحليِّين، الذين لم تَعُد الحياة في المناطق الريفية المجاورة آمنةً بالنسبة لهم. في صيف اليونان اللاهب، لم يكن من المحتمل أن تصمد أمام حصار طويل.

بحلول منتصف يوليو، كان قد تم سحب القوات اليونانية إلى الشمال والغرب. كان كولوكوترونس هو القائد، وكانت هناك قوةٌ احتياطية أخرى مستعدة تحت قيادة مافروميكاليس. وهم على أُهبة الاستعداد للهجوم، وصل زائرٌ غير متوقَّع؛ ديميتريوس إبسيلانتس Dimitrios Ipsilamtis، شقيقُ المشئوم ألكساندر. لم يكن ذلك وحدَه يبدو شيئًا محمودًا، رغم أن أخبار كارثة ألكساندر الأخيرة لم تكن قد وصلت إلى البيلوبونيز بعدُ. من الناحيةِ الجسدية كذلك، لم يكن ديميتريوس يترك انطباعًا جيدًا؛ كان قصيرَ القامة لا يصل طوله إلى خمسة أقدام، نحيلًا إلى حدٍّ كبير كأنه هيكل عظمي، إلى جانب

عيوب خلقية تجعله يتكلم بصعوبة. بالرغم من ذلك كان فيه شيءٌ ما يوحي بالثقة. منذ لحظة ظهوره لم يكن هناك شكٌّ في نزاهته، وعندما تقدَّم بعد أيامٍ قليلة لتولي زمام حكومة جديدة للبيلوبونيز، بالإضافة إلى توليه القيادةَ العليا المسلحة، لقي دعمًا كبيرًا من القيادات الثورية. كان من بينهم كولوكوترونس نفسُه، مدركًا كما كان دائمًا أن اليونان الجديدة التي كانت تتشكَّل، كانت أكثرَ احتياجًا إلى رئيسٍ معترَف به، وربما يجد إسبيلانتس مرشحًا مناسبًا بامتياز لن يكون من الصعب عليه إخضاعه لإرادته. بعد جدالٍ لم يستمر طويلًا، تم الاتفاق على أن تستمرَّ الحكومة المؤقتة، التي كانت قد شُكلت قبل نحو شهر باسم مجلس شيوخ البيلوبونيز The Peloponnesian Senate، بـ «إبسيلانتس» رئيسًا له وقائدًا أعلى للقوات المسلحة.

بدأ الحصار، ومضى كما كان اليونانيون يتوقَّعون إلى حدٍّ كبير. قبل مرور وقت طويل كانت ترايبولس تعاني نقصًا شديدًا في الغذاء والماء ... ثم كان المرض بعد ذلك. في آخرِ أغسطس جاءت الأخبار بأن قوةً تركيةً كانت قادمة من الشمال عبْر تيرموبيلاي Thermopylae، وأن اليونانيِّين كانوا قد نجحوا في إيقافها، وبعد أيامٍ قليلة أعلن الأتراك المتحصنون في المدينة عن استعدادهم للتفاوض. كانت هناك ورقةٌ وحيدة في أيديهم؛ مجموعة من الرهائن اليونانيِّين عددهم ثمانية وثلاثون شخصًا، كانوا قد أسروهم مع خدَمهم في بداية الحصار. كانوا محتجزين كلهم في زنزانة واحدة، السادة مكبَّلون في سلسلةٍ واحدة من رقابهم، والخَدم في سلسلة أخرى، والسلاسل مشدودة بحيث إذا أراد أحدُ المكبَّلين الجلوس أو القيام، كان لا بد من أن يفعل الباقون كلُّهم الشيء نفسَه. ربما كان ذلك العمل غير الإنساني هو الذي زاد من غضب القائمين بالحصار. كانت أعدادهم تتزايد مع تهديداتٍ بالسلب والنهب، كما زادت الحالة الأخلاقية سوءًا عندما بدءوا يتجادلون حول توزيع الغنائم.

قبل الاستسلام المتوقَّع بوقتٍ قصير، استطاع كولوكوترونس إقناعَ إسبيلانتس بترك المعسكر. كان العذر الذي قدَّمه هو أن الأسطول التركي كان قد ظهر بالقرب من الساحل الغربي، وأنه كان من واجبه أن يمنعه من الرسو. (الحقيقة أن المدفع الوحيد الذي كان يطلِق قذائفَ من زنة الرطلين، الذي أخذه معه، كان تأثيره سيكون ضعيفًا على البحرية العثمانية التي كانت قد تقدَّمت إلى جالاكسيدي، كما نعرف، دون مقاومة) كان يبدو أن السببَ الحقيقي هو أن الاستيلاء على ترايبولس كان سينتهي — كما كان كولوكوترونس يعرف جيدًا — بحمَّام دم. سيكون من الأفضل ألا يكون إسبيلانتس، صاحبُ العقل

الراجح هناك ليشهد ذلك أو ليخاطر بأن يُعتبرَ مسئولًا باعتباره رئيسَ الحكومة. لا شك أنه كان محقًّا. كانت مباحثات السلام ما زالت مستمرة عندما اقتحم اليونانيون ترايبولس في الخامس من أكتوبر ليجدوا جثثَ مَن ماتوا من الجوع والمرض مبعثرةً في الشوارع، وفي غضون ساعات قليلة كان فوقها مئاتُ الجثث الأخرى ... كانت هذه المرة جثثَ ضحايا شهوة الذبح العشوائي. لم يحدُث ذلك في المدينة فحسب؛ إذ كان قد تم ذبح نحو ألفي لاجئ، معظمهم من النساء والأطفال كانوا قد خرجوا طواعيةً بعد وعد بتأمينهم. بعد أيام قليلة من انتهاء هذا الكابوس عاد إبسيلانتس ليصاب بالفزع من هولِ ما رأى. قيل إنه كان لا بد من أن يبقى لكبح جماح أبناء جلدته، إلا أن نفوذه الذي لم يكن قويًّا كان قد بدأ في الانهيار، وعلى أية حال لم يكن بإمكانه أن يفعل الشيء الكثير. الحرب، كما نعرف، من السهل أن تجرِّد المتورطين فيها من إنسانيتهم، كما أن التاريخ مليءٌ بمثل تلك الفظائع. لم يكن ترايبولس الأولَ ولا الأسوأَ من نوعه، ومن أسف أن تُلطِّخ تلك الوصمة الباقية الملحمةَ البطولية لحرب الاستقلال اليونانية.

كان اليونانيون يقاتلون من أجل الحرية والقومية، ولكنهم لم يكونوا قد أصبحوا دولةً بعد. كان مجلس شيوخ البيلوبونيز أمرًا جيدًا، إلا أن عضويته لم تكن بالانتخاب، وكان معظمُ أعضائه يفرضون أنفسهم فرضًا، وبحسب تعريفه كان مقصورًا على جنوب اليونان. في الشمال من خليج كورنتة، كانت توجد هيئاتٌ مشابِهة في كلٍّ من شرق وغرب الروملي Roumeli، وكان المجلس الثاني في ميسولونجي تحت سيطرةٍ حازمة من ألكساندر مافروجورداتوس Alexander Mavrogordatos، الذي كان شخصًا متغربنًا، يتكلَّم سبع لغات، وكان قد جاء من بيزا من وقت قريب. كان صديقًا مقربًا للشاعر شيلي Shelly، وكان يعطي ماري شيلي دروسا في اللغة اليونانية. بمجرد أن سمِع بالثورة هُرع إلى اليونان ليرسوَ في ميسولونجي في منتصف أغسطس، ومنذ تلك اللحظة سيكون صاحبَ التأثير الأكبر في الثورة.

كان المطلوب الآن على نحوٍ عاجل وجودَ كيانٍ أعلى يوحِّد تلك الكيانات الثلاثة مع مجموعاتٍ أخرى كثيرة أصغرَ منها، كانت قد تشكَّلت في مدنٍ وبلدات مختلِفة. بهذا الهدف، التقى ممثِّلون لكل تلك التنظيمات في الأسابيع الأخيرة من العام في بيادا Piada، وهي قريةٌ صغيرة تقع على بُعد خمسة أميال تقريبًا من مسرح إيبيدوراس Epidaurus الكلاسيكي الكبير. كان على مجلس شيوخ إيبيدوراس The Assembly of Epidaurs، كما أُطلق

عليه، أن يضع مسودةَ أول دستور يوناني. بعد أن أعلن عن الوجود والاستقلال السياسي للدولة اليونانية، متخذًا الأرثوذوكسية اليونانية دينًا للدولة، شرع في وضع قائمة بالحقوق المدنية التي ينبغي ضمانُها، وفي آخرِ الأمر وضع أُسسَ الآليةِ الإدارية، ومجلسٍ تنفيذي من خمسة أفراد ومجلسِ شيوخ. انتُخب مافروجورداتوس رئيسًا للمجلس التنفيذي، أو بمعنًى أدقَّ رئيسًا للدولة؛ أما إبسيلانتس، الذي كان بعيدًا يقوم بحصار كورنتة، فتم استرضاؤه برئاسة مجلس الشيوخ، ومافروميكاليس نائبًا له.

ولكنَّ إعلانَ الاستقلال ووضعَ الدستور شيءٌ، والخروجَ بذلك إلى حيِّز الوجود وقبولهما على المستوى العام شيءٌ آخر. كان المندوبون الذين اجتمعوا في إيبيدوراس قد وقعوا في خطأ كبيرٍ بإغفالهم اختيارَ عاصمة. ربما كان قرارٌ مثل ذلك يبدو سابقًا لأوانه في مرحلة باكرة كتلك، إلا أنه كان يعني عمليًّا أن كلًّا منهم قد عاد إلى مقر سلطته بعد الانتهاء من مداولاتهم، دون اتخاذِ أي قرارات إدارية مهمة تجعل من الحكومة القومية حقيقةً واقعة. مافروجورداتوس نفسه، الذي كان على علمٍ تامٍّ بأن الأسطول التركي كان ما زال يتسكَّع في جنوب الأدرياتيكي، غادر مباشرةً إلى هيدرا وسبتساي — وهما اثنتان من الجزر الثلاث (كانت الثالثة هي بسارا Psara في جنوب بحر إيجه) اللتان كانت البحرية الثورية تعتمد عليهما من أجل سفنها وأطقمها، واللتان سيكون دعمهما ضروريًّا في الصراع البحري القادم. لم يرجع إلا في مايو ١٨٢٢م، عندما ذهب إلى ميسولونجي مباشرةً لتقوية دفاعات المدينة.

ما حدَث هو أن الدستور اليوناني لم يكن في نظر اليونانيِّين والأجانب على السواء أكثرَ من حُلم. لعلنا نأسف، وإن كان ذلك لا يدهشنا كثيرًا، لردِّ توماس ميتلاند في كورفو على الحكومة اليونانية، عندما طلبت إعادةَ سفينة كان قد تم احتجازها:

> لقد تلقَّى سموه رسالةً من أشخاصٍ يطلقون على أنفسهم اسم حكومة اليونان، وذلك عن طريق مندوب موجود الآن في هذا الميناء … إن سموه لا يعرف شيئًا على الإطلاق عن وجود «حكومة يونانية مؤقتة»، وعليه فهو لا يمكنه الاعترافُ بمثل هذا المندوب، ولن يشرع في مراسلات مع أيِّ سلطة اسمية لا يعرف عنها شيئًا …

بالنسبة لليونانيِّين، كانت السنة الأولى لثورتهم ناجحةً بشكلٍ مدهش، وكانت الانتفاضة اليونانية قد استحوذت على اهتمام أوروبا. من إنجلترا وفرنسا، من ألمانيا وإسبانيا، من

بيدمونت وسويسرة، حتى من بولندا والمجر ... كانت جماعات الشباب المولَع بالثقافة الإغريقية — بذكرياتٍ حديثة من تعليم كلاسيكي — تنتهز فرصةَ وجودِ أي سفينة لتأخذهم إلى موقع النضال.

مِن أسف أن الكثير منهم قضى نحبَه. كان العام ١٨٢٢م أقلَّ سعادةً من سابقه. معظم المتطوعين الأجانب، الذين لم يكونوا يتكلمون كلمةً واحدة من اليونانية، الذين وجدوا أنفسهم محاطين بجماعاتٍ من قُطاع الطرق، معظم أولئك المتطوعين شكَّلوا كتائبَ خاصةً بهم، وتمَّت تعبئتهم في يوليو عندما واجه مافروجورداتوس — بكل طيش — الأتراكَ في معركة ضارية على هضبة بيتا Peta بالقرب من آرتا Art. وقعت المعركة في السادس عشر من يوليو وأسفرت عن نتيجةٍ كارثية. كان من بين القتلى ما لا يقل عن سبعة وستين من محبي الثقافة الإغريقية. لم ينجُ أكثرُ من ثلاثين تقريبًا — كان معظمهم مثخنين بالجراح — لكي يعودوا إلى ميسولونجي، ليموت عددٌ آخر منهم في الشتاء التالي، إما من أثرِ الجروح أو بسبب المرض. انتهى الحُلم.

على أن كارثةَ بيتا لم تكن شيئًا، مقارنةً بالمأساة التي كانت دائرة على بُعد مائة وخمسين ميلًا من ناحية الغرب على جزيرة خيوس. من بين كل جزر اليونان، كانت خيوس حتى قيام الثورة، هي الجزيرة الأكثر ثراء وسعادة. على خلاف الكثير من جيرانها كانت أرضها خصبة، وبعد عدة قرون من الاحتلال الإيطالي كانت قد تطوَّرت كثيرًا، وتزهو بعدد كبير من الأسر التجارية — بمن في ذلك آل مافروجورداتوس — الذين ذاعت شهرتهم في أرجاء الحوض الشرقي للمتوسط. بفضل نفوذها وثرائها (كانت اثنتان وعشرون قرية من قراها المنتِجة للمُصْطكاء، التي كان الطلب شديدًا عليها في القسطنطينية، مملوكة لشقيقة السلطان) كان القمع العثماني لها هينًا. لو كان أهالي هذه الجزيرة الوادعة قد تُركوا وشأنهم، لَمَا كانوا قد فكَّروا في الثورة أو حتى حلَموا بها؛ والحقيقة أنه عندما وصل أسطولٌ من هيدرا في مايو ١٨٢١م يدعوهم للانضمام للثورة، رفضوا تمامًا. كان في العام التالي فحسب، عندما رسا أسطولٌ آخر، كان هذه المرة قادمًا من جزيرة ساموس المجاورة، كان أن وجد أهالي الجزيرة أنفسَهم منجرفين في الكابوس. كان ذلك الأسطول قد رسا بشكلٍ غير رسمي ليُنزِل قوةً من نحو ألف وخمسمائة جندي وكمية كبيرة من المدفعية الثقيلة على شواطئ الجزيرة.

كان أهالي ساموس، وليس أهالي خيوس، هم المسئولين عن الهجوم على قلعة كورا Chora (المدينة الرئيسية على الجزيرة) التي كانت في يدِ الأتراك. كانوا هم الذين أضرموا

النار في مبنى الجمارك ونزعوا الرصاص من أسقف المساجد ليصهروه ويصنعوا منه طلقات. ولكنَّ أهالي خيوس كانوا هم الذين قاسَوا من نتائج ذلك. تم أسرُ ثمانين من أبرز مواطنيها وإرسال ثلاثة منهم، رهائنَ، إلى القسطنطينية. في الحادي عشر من أبريل ١٨٢٢م، وصل أسطولٌ عثماني بقيادة الأدميرال كارا علي Kara Ali لينزل نحو خمسة عشر ألف «جلف» من الأناضول، وتركهم يفعلون ما شاء لهم على الجزيرة. فرَّ أهالي ساموس ... وبدأت المذبحة. كانت ترايبولس أخرى، ولكنَّ الجزارين هذه المرة كانوا الأتراك، واليونانيون الضحايا. لم يتركوا رجلًا ولا امرأة ولا طفلًا على قيدِ الحياة، ولم تكن بقيةُ الجزيرة بمنأًى عن ذلك كلِّه. لجأ نحو ألفي شخص من المرعوبين إلى دير نيا موني Nea Moni للاحتماء به. قُتلوا كلُّهم. تم إحراقُ ديرٍ آخر هو دير أجيوس ميناس Agios Minas يوم أحد الفِصْح الموافق للرابع عشر من أبريل بمَن فيه، وكان يأوي نحو ثلاثمائة شخص. بعد شهر تم شنقُ تسعة وأربعين من الرهائن الثمانين علنًا، وعُلِّقت جثثُ ثمانية منهم على عوارض صواري سفينة القيادة التركية، وجثث الباقين على الأشجار على جانبي الطريق الذي ما زال يُعرف بـ «طريق الشهداء».

حقَّق اليونانيون انتصارًا واحدًا. ليلة الثامن عشر من يونيو، أرسلوا حراقات Fireships ضد الأسطول التركي الموجود بالقرب من كورا، مستهدفين سفينةَ القيادة التي كانت تُقِل كارا علي نفسَه. نجحت العملية تمامًا؛ ففي غضون دقائقَ معدودة، اشتعلت النيران في السفينة، وحاول كارا علي الهربَ في قارب نجاة ولكنه أصيب في رأسه بشظية طائرة ليلقى حتفَه في اليوم التالي. يقال إن خسائر الأتراك كانت أكثرَ من ألفي قتيل، ولكن حتى ذلك الحين كان مَن بقوا أحياءً من أهالي خيوس لا يبالون بشيء. كانوا قد فقدوا نحو سبعين ألفًا من مواطنيهم: خمسة وعشرون ألف قتيل، ثم خمسة وأربعون ألفًا أخرى (نصف عدد السكان تقريبًا) أُخذوا كعبيد. اللوحة الشهيرة التي رسمها ديلاكروا Delacroix، (الابن غير الشرعي لـ «تاليران») بعنوان «مذابح خيوس»[٨] ليست سوى إشارة واحدة لموجةِ الاستهجان والرعب التي اجتاحت كل أوروبا الغربية بمجرد انتشار أخبار المذبحة. لم يغفر أحدٌ للأتراك فَعلتهم.

كانت هناك أخبارٌ أفضل بالنسبة لليونانيِّين في أماكنَ أخرى. أكثر نجاحاتهم إثارةً — رغم أنه قد لا يكون الأهم من الناحية الاستراتيجية — كان الاستيلاء على أكروبوليس أثينا. باستثناء هذا البناء المهيب، ما كان لأحدٍ ممن عرفوا المدينةَ أيام بيركليس Pericles أن يتعرَّف عليها، فما بالك بمن يعرفها اليوم. لم يكن عدد سكانها يزيد عن عشرة آلاف نسمة،

نصفهم على الأقل من الألبان. الباقون كانوا يونانيِّين وأتراكًا. في صيف ١٨٢١م، كان اليونانيون قد بدءوا محاصرةَ الحامية التركية على الأكروبوليس، إلا أنهم لم يتقدَّموا كثيرًا حتى نهاية العام عندما تمكَّنوا من الاستيلاء على البئر الموجودة خارج الأسوار مباشرةً ناحية الجنوب وسمَّموها على الفور. جعل ذلك الحاميةَ تعتمد على مياه الأمطار، وتصادَف أن كان شتاء وربيع العام ١٨٢٢م من بين أكثرِ الفصول جفافًا. كانت كل محاولات الاستيلاء على الصخرة الكبيرة عَنوة قد باءت بالفشل، إلا أنه لم يكن لذلك أهميةٌ كبيرة. كان العطش وما تَبِعه من أمراضٍ أكثرَ تأثيرًا. في الثاني والعشرين من يونيو، استسلم مَن كانوا قد بقوا من الحامية. كان عددهم نحو ألف ومائة وخمسين جنديًّا.

كان الاستسلام مشروطًا مع تعهُّد بخروج آمن والعودة إلى بلادهم على نفقة اليونانيِّين، ولكن بالرغم من قَسَم اليونانيِّين أمام رئيس الأساقفة على احترام العهد، كان شعور السكان اليونانيِّين مختلفًا. كان مصير خيوس قبل أسابيع قليلة ما زال ماثلًا في الذاكرة. كانوا يتذكَّرون كذلك ما كان يسمَّى بـ «الصيد اليوناني Greek hunts» في العام السابق، عندما قاد القائد التركي عمر فريونس Omer Virionis مجموعاتٍ من خمسين إلى مائة من الخيَّالة بحثًا عن المزارعين اليونانيِّين، وكانوا يأمرونهم بالجري ثم يطاردونهم ويصوِّبون عليهم، ويقطعون رءوسهم في حال الإمساك بهم. لذا، لم يكن أهالي أثينا يشعرون بأي شفقة. بحلول منتصف يوليو، كان قد تم ذبحُ نصف عدد أفراد الحامية تقريبًا، وكان من حسن حظ الباقين أن هربوا.

بعد أسبوعين فحسب من استسلام حامية الأكروبوليس، غادر جيشٌ تركي لاميا Lamia مقابل الطرف الشمالي لجزيرة إيوبيا؛ متجهًا جنوبًا، أولًا: لاستعادة قلعة أكروكورنتة المشرفة على مدينة كورنتة، وكان اليونانيون قد استولوا عليها قبل أشهر قليلة، وثانيًا: نجدة رفاقهم المحاصرين في نوبليا Nauplia. كانت قوة ضخمة، وكان موت علي باشا قد أطلق عدةَ ألوف من الرجال من إيانينا، ليزيد عدد الجنود إلى أكثرَ من عشرين ألفًا؛ وكان ذلك أضعافَ عدد اليونانيِّين الذين أُرسلت القوة ضدهم. كان قائد القوة شخصًا يُدعى محمود وكان باشا على دراما Drama (الواقعة شرقي تيسالونيكا بعدة أميال)، وكان يُكنَّى بـ «درامالي Dramali»

في الأسابيع الأولى القليلة له، اكتسح درامالي كلَّ ما في طريقة، وبعد استسلام أكروكورنته، اتجه جنوبًا صوب نوبليا؛ حيث أُعلنت هدنة تمهيدًا للتفاوض على استسلام الحامية التركية. كانت أول حكومة وطنية يونانية قد انتقلت من كورنتة قبل أسبوعين

تقريبًا، لتستقرَّ في آرجوس Argos، الواقعة إلى الداخل بنحو عشرة أميال. الآن ستفر الحكومة مرةً ثانية في السفن اليونانية التي كانت منتظرة في نوبليا لتحمل الأتراك، ولن تستعيد سُمعتها بعد ذلك. من ناحية أخرى كان القباطنة اليونانيون شجعانًا كعادتهم، فجعلوا الرجال يتدفَّقون على قلعة آرجوس حيث لحِق بهم هناك ديميتريوس إبسيلانتس، وبعد قليل جاء كولوكوترونس، الذي كان قد عُين قائدًا أعلى من قِبل مجلس شيوخ البيلوبونيز. كان يعرف أن درامالي سوف يزحف على مراكز القيادة السابقة في ترابيولس، وكانت خطته إذن أن يغلق الطريقَ أمامه، ثم يرسل قواتٍ صغيرة إلى الشِّعاب الجبلية الضيقة بين آرجوس وكورنتة، ليقطع عليه خط الانسحاب كذلك.

بعد بداية جيدة كتلك، فقدَ درامالي الزخمَ الذي كان قد حقَّقه. في قيظ وجفاف الصيف اليوناني، كانت هناك مشكلةٌ أمامه هي غذاء الجنود ناهيك عن مياه الشرب قبل أي شيء آخر. في الوقت نفسه كان إبسيلانس صامدًا في آرجوس، بينما كانت المفاوضات في نوبليا قد فشلت ووقعت الحامية التركية في القلعة تحت الحصار ثانية. لم يكن أمامهم سوى العودة إلى كورنتة، ومن سوء الحظ كما أدرك درامالي آنذاك، أنه كان قد أغفل وضْعَ حراسة على الشِّعاب والوِهاد التي كان لا بد من أن يجتازها. أما خطة كولوكوترونس فقد نجحت تمامًا. بمجرد دخول الحرس التركي المتقدِّم وادي ديرفيناكيا Dervenakia الضيق يوم السادس من أغسطس، فتح اليونانيون النارَ عليهم من المرتفعات الجبلية؛ وكانت النتيجة مذبحةً أخرى. وعندما اتخذ درامالي طريقًا مختلفًا بعد يومين، تكرَّرت القصة نفسها. نجا بمساعدة حرسه الشخصي، ولكنه فقد سيفه وعمامته ... كما فقد الاحترام. كانت غنائم اليونانيِّين وأعمال السلب والنهب التي قاموا بها مُرضية لهم أكثرَ من عدد قتلى وجرحى العدوِّ، التي كانت تقدَّر بنحو ألفي شخص؛ فقد استولوا على قافلةِ أمتعةٍ كاملة تركها الأتراك بما فيها من أربعمائة حصان، وألف وثلاثمائة حيوان حمل، ومئات الجِمال. في شهر ديسمبر استسلمت الحاميةُ التركية في نوبليا، وكانت الطرق مغلقة أمام مَن بقي على قيد الحياة من الحملة ويحاول العودةَ إلى كورنتة؛ كانت الفرصة الوحيدة المتاحة هي الاتجاه غربًا صوب باتراس Patras، التي كانت ما تزال في حوزة الأتراك. تم إرسال المرضى والجرحى بالبحر وكانوا قرابة الألف شخص، أما مَن تمكَّنوا من الهرب، وكانوا نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص، فقد انطلقوا سيرًا على الأقدام. في منتصف المسافة، على الشاطئ الشمالي حيث يضيق الطريق لعبور نهر كراتيس Krathis، قام اليونانيون فجأةً بهجوم، قاطعين الطريقَ عليهم من الأمام ومن الخلف. صمدوا نحو ستة أسابيع. أكلوا خيولَهم في البداية، وفي آخرِ الأمر كانوا – كما يقال – يأكلون لحمَ

بعضهم البعض. في مارس التالي فحسب، نجح أسطولٌ تركي صغير في إنقاذ نحو ألفين منهم، كان معظمهم أقربَ إلى الموت منهم إلى الحياة.

كان للفشل الذريع لأكبرِ قوةٍ ظهرت في اليونان، على مدى أكثرَ من قرن، تأثيرٌ كبير في الثورة. هذا الفشل قوَّى من عزيمة اليونانيِّين، إلا أنه بالرغم من أهمية انتصاراتهم العسكرية، فإن الحركة نفسها كانت تزداد انقسامًا وانشقاقًا على نحوٍ خطر. كان المفترض أن يستمرَّ مجلسُ إيبيدوراس عامًا واحدًا فحسب، ولكن خَلَفه الذي اجتمع في أبريل ١٨٢٣م بالقرب من آستروس Astros (على الساحل الشرقي للبيلوبونيز، نحو عشرين ميلًا جنوبي نوبليا) بمائتين وستين مندوبًا، كان حجمه أربعةَ أمثال المجلس السابق ... ومن ثمَّ كان أكثرَ فوضى.

كان الثوارُ منقسمين حول الوسط: السياسيون المحيطون بـ «مافروجورداتوس» في ناحية، والمحاربون الذين يقودهم كولوكوترونس في ناحية أخرى. كانت هناك انقساماتٌ إقليمية كذلك: لم يكن أهالي البيلوبونيز والروملي وإيبيريوس وأهالي الجزر ... كلهم، لم يكونوا يحبون بعضهم البعض، وكان يزعجهم ما يتصورونها معاملةً تفضيلية لمنافسيهم. في كل مرة كان يعيَّن فيها مسئولٌ في موقع مهم كان يواجَه بتحدياتٍ كبيرة؛ وفي النقاش، كانت تلتهب المشاعرُ ويتم تحسُّس المسدسات. في إحدى المرات استبدَّت مشاعر الغضب بـ «كولوكوترونس» الذي هدَّد المجلس كلَّه ولم يهدأ، إلا بعد أن عُرِض عليه منصبٌ في اللجنة التنفيذية؛ حتى آنذاك كان ما زال يُرغي ويُزبد بين أصدقائه وأعدائه على السواء، وهو يغلي بالحقد والحَنَق.

هكذا كان الوضع باختصار، عندما رسا جورج جوردون، لورد بايرون George Gordon, Lord Byron في شيفالونيا في الثالث من أغسطس عام ١٨٢٣م. لم يكن بايرون غريبًا عن اليونان؛ إذ كان قد جاء إلى هناك قبل نحو خمسة عشر عامًا (في ١٨٠٩–١٨١٠م) عندما زار علي باشا في إيانينا. في تلك المناسبة كان محلَّ ترحيب من المندوب السامي البريطاني، الذي وعده آنذاك بتقديم كل المساعدات الممكنة ما دامت لا تخلُّ بسياسة بريطانيا المحايدة بين الطرفين. كانت مشكلة بايرون الأولى هي اكتشافَ ما كان يجري هناك بالضبط بنفسه. لم يقُل له البريطانيون شيئًا مهمًّا؛ ولذا قام باستئجار قارب صغير يدخل به عبْر الحصار التركي، مع رسالة إلى ماركوس بوتساريس Marcos Botsaris، الذي كانوا قد وصفوه له بأنه «واحد من أشجعِ قادة البحر اليونانيِّين وأكثرهم أمانة».

جاء رد بوتساريس سريعًا، مع دعوة لـ «بايرون» لكي ينضم إليه، مضيفًا أنه كان سيدخل معركةً في اليوم التالي.

المؤكَّد أن بايرون كان سيقبل الدعوة، ولكن لخيبةِ أملِه جاءته أخبار موت القبطان قبل أن يبدأ رحلته. سيبقى في شيفالونيا وينتقل إلى بيت ريفي صغير في قرية ميتاخاتا Metaxata. هنا سيقضي فصلَ الخريف كلَّه محاولًا، قدْر استطاعته، أن يحمي نفسه من طوفان الاستجداءات والمناشدات للمساعدة بالأموال والمعونات. كتب الشاب جورج فنلاي George Finlay، المولَع بالثقافة الإغريقية، الذي سيكتب فيما بعدُ تاريخًا دقيقًا للثورة اليونانية، كتب يقول:

> دعاه كولوكوترونس لحضور مؤتمر قومي في سالامس Salamis، أبلغه مافروكورداتوس أنه لن تكون له فائدة في أي مكان سوى في هيدرا؛ لأن مافروكورداتوس كان آنذاك على تلك الجزيرة. كتب كونستانتين ميتاخا Constantine Metaxa، الذي كان حاكمًا على ميسولونجي، يقول إن الخراب سيحل باليونان إن لم يقُم لورد بايرون بزيارة القلعة. بتروبيه استخدم لغةً أكثرَ وضوحًا؛ حيث أبلغ لورد بايرون أن الطريق الصحيح لإنقاذ اليونان، كان أن يقرضه (البيه) ألف جنيه ...

كان من الواضح أن الثوار لا يتكلَّمون لغة واحدة. بلغت الأمور ذروتَها في ديسمبر، عندما اقتحم بانوس Panos، ابن كولوكوترونس، مجلسَ الشيوخ وهو منعقد وطرد النوابَ من المبنى وتبِعهم ليحطِّم منازلَهم. فشلت كلُّ محاولات رأبِ الصدع، وبحلول العام ١٨٢٤م كان في اليونان حكومتان متنافستان، واحدة في كرانيدي Kranidi في آرجوس، والثانية — مدعومة من عصابة كولوكوترونس — في ترايبولس.

في ذلك الوقت، كان بايرون قد بدأ يعمل. كان اقتراب أسطول الأتراك في البحر الأيوني يوحي بأنهم سوف يعاودون الهجوم. في الثالث عشر من نوفمبر تعهَّد بايرون بإقراض الحكومة اليونانية — كما كانت تسمَّى — أربعة آلاف جنيه إسترليني بهدفٍ محدَّد، وهو تمويل أسطول من هيدرا وسبتساي لخفارة المياه الإقليمية بالقرب من الساحل. وصل الأسطول إلى ميسولونجي في منتصف ديسمبر، حاملًا معه مافروجورداتوس، الذي عُهِد إليه بالدفاع عن المدينة، وبعد عيد الميلاد بأربعة أيام أبحر بايرون من شيفالونيا لينضمَ إليه مع كلبه الضخم ليون Lyon،[٩] وخادمه الخاص وليم فلتشر William Fletcher،

ووصيفه، وكان صبيًّا وسيمًا من البيلوبونيز في الخامسة عشرة من العمر يُدعى لوكاس كالاندريتسانوس Loukas Chalandritsanos.

كانت رحلة خطرة حيث كان الأسطول التركي مستنفرًا: كانت هناك لحظة تعاسة خاصة عندما قابلوا سفينةً تركية ضخمة في الساعات الأولى من صباح ٣١ ديسمبر مندفعة نحوهم. أدار القبطان سفينتهم واستطاعوا أن يبتعدوا عن السفينة التركية، ولكن بايرون قام بسرعة بعد ذلك بإنزال كالاندريتسانوس على الشاطئ، مع تعليماتٍ بأن يعودَ إلى ميسولونجي برًّا. وكما كتب للكولونيل ستانوب Colonel Stanhope، ممثل اللجنة اليونانية في لندن، الموجود في اليونان:

> أشعر بالقلقِ لوجودي هنا، وليس على نفسي بقدْر ما هو على صبيٍّ يوناني معي؛ لأنك تعرف أي مصير ينتظره، فلربما فضَّلت أن أقتله وأقتل نفس كذلك على أن يأخذه أولئك البرابرة.

عند ظهيرة الرابع من يناير ١٨٢٤م، دخلوا ميناء ميسولونجي. بقي بايرون على متن السفينة حتى الصباح التالي، عندما دخل المدينة رسميًّا في زي عسكري كامل كان قد صمَّمه بنفسه. يتذكَّر ذلك أحدُ شهود العيان فيقول:

> كانت جموعٌ من الجنود والمواطنين العاديِّين من كل الطبقات والفئات والأعمار قد تجمَّعت على الشاطئ تعبيرًا عن ابتهاجهم. علاماتُ الرضا والأمل على كل الوجوه. رسا فخامتُه بقاربه مرتديًا زيًّا رسميًّا أحمرَ اللون. كان يبدو في صحةٍ ممتازة، وقد أثَّر فيه المشهد الذي رآه أمامه.

لعلَّها كانت أكثر اللحظات مجدًا في زيارة بايرون لليونان؛ لأن قصة الأشهر الثلاثة الأخيرة منها مؤسفة. لم يحقِّق شيئًا من الأهداف التي جاء من أجلها. فكرة أن يقوم شخصيًّا بقيادة حملة على نوباكتوس (ليبانتو) انتهت إلى لا شيء. خطته للقاء الزعماء اليونانيِّين في شيفالونيا فشلت. المبالغ الطائلة التي أنفقها — إلى جانب الأربعة الآلاف جنيه في نوفمبر ونفقات المعيشة لحاشيته الضخمة، وكان كذلك قد منح فرقةً عسكرية من منطقة سولي[١٠] ألفي جنيه، وكانت الفرقة عديمةَ الفائدة، ومنح مافروجورداتوس قرضًا شخصيًّا (٥٥٠ جنيهًا)، ودفع ثمانمائة جنيه لمغامرٍ يُدعى وليم باري William Parry، كان سكِّيرًا ولم يفعل شيئًا من أجل القضية اليونانية. البيت الريفي الذي كان

يعيش فيه، كان بلا أثاثٍ تقريبًا وكان مطلًّا على بِركة آسنة كئيبة موحلة ومليئة بالملاريا. كان مطر الشتاء ينهمر يوميًّا، فيعود من جولاته غارقًا في الماء حتى العظم. لم يكن غريبًا أن تتأثَّر صحته بذلك كلِّه لكي تبدأ رحلة معاناته.

دهمته أولُ نوبة مرض في التاسع من أبريل، كان يرعاه طبيبٌ يُدعى جوليوس فان ميلنجن Julius van Millengen[١١] كان يعمل جرَّاحًا مع اليونانيِّين آنذاك. زاد من ضعف صحَّته فصدُ دمِه مرةً أو مرتين في اليوم، وفي الوقت نفسه كانت كل العقاقير والأدوية المعروفة للعالم اليوناني تُقحم في حلقه. كانت بنيته الجسمانية المهدَّمة، من فعلِ سنوات الشراب والانغماس في الملذات، تجعله يبدو أقربَ إلى الخمسين من العمر بينما كان في السادسة والثلاثين، ولم يَعُد قادرًا على تحمُّل الإجهاد. مات في السادسة من مساء التاسع عشر من أبريل يوم إثنين الفِصْح. سيظل سببُ موته لغزًا: الملاريا؟ التيفود؟ اليوريميا؟[١٢] الزهري؟ خفقان القلب؟ لا أحدَ يعرف على وجهِ الدقة. لم يكن بايرون يتوقَّع أن يعودَ من اليونان، ولم يكن يخشى الموت، ولكنَّ أملَه كان أن يموت في المعركة من أجل استقلال بلادٍ كان يحبها — وليس كما كتب قبل أيام من وفاته — «موتًا بطيئًا على فراش من عذاب».

إلا أنه لم يمُت عبثًا؛ فقد سلَّط الأضواءَ العالمية على الكفاح اليوناني كما لم يفعل غيره. بفضله تبنَّت أوروبا كلُّها القضية، وسار شبانٌ لا حصر لهم على الدرب نفسِه بحثًا عن المجد أو الموت. ربما نكون واثقين من أن اليونان كانت ستحصُل على حريتها حتى لو لم يكن بايرون موجودًا، كما فعلت صربيا وجارتاها الأخريان، رومانيا وبلغاريا، فيما بعدُ؛ ولكنها كانت ستفعل ذلك — مثلهما — دون ذلك العنصر الرومانسي الذي لم يكن سوى بايرون ليطبعه في النفس. ينبغي ألا ننسى أن العَقدين الأولين من القرن التاسع عشر شهدا بدايات الحركة الرومانتيكية The Romantic Movement، وقد كانت حربُ الاستقلال اليونانية رومانتيكيةَ الطابع. كانت هناك البطولة، ولكن كانت هناك كذلك الوحشية والبربرية والقسوة ... وعلى نطاقٍ لم تشهده قرونٌ سابقة. بالرغم من ذلك، كانت تلك الحرب تجسِّد كلَّ ما كانت تمثِّله الرومانتيكية؛ ولذا ينظر إليها الغرب بإعجاب، ويتذكَّرها اليونانيون بفخر واعتزاز، ولا يسقط من ذاكرتهم اسمُ بايرون.

في أوائل العام ١٨٢٤م، كانت اليونان بالفعل في حالةِ حربٍ أهلية. في مناطقَ معينةٍ شرقي البلاد، وفي أماكنَ أخرى من المتوسط ظل الأتراك قوةً يُحسب لها حساب، ولكن في

البيلوبونيز والروملي الجنوبية كان هناك يونانيون يحاربون يونانيِّين. عندما مات بايرون في شهر أبريل، كانت القوات الحكومية قد استعادت آرجوس وترايبولس وكورنتة، بينما كانت عصابة كولوكوترونس وأتباعهم ما زالوا يحتفظون بـ «نوبليا». بحلول منتصف الصيف، كان قد تم التخلي عن نوبليا كذلك، وانتقل إليها مجلسُ الشيوخ والإدارة. لم يَضَع ذلك نهايةً دائمة للعداءات، إلا أنه هيأ فضاءً لالتقاط الأنفاس، شهدت فيه الحكومة اليونانية وصولَ مبلغ ثمانين ألف جنيه إسترليني، الدفعة الأولى من قرضٍ مقداره نحو خمسمائة ألف جنيه، كان قد تم الاتفاق عليه في لندن. سيتم تبديدُ معظم هذا المبلغ، كما كان متوقعًا، أو ربما يجد طريقه إلى الجيوب الخطأ، إلا أنه — بالرغم من ذلك — سيجعل الحكومة تشعر بالقوة.

انفجر الصراع الداخلي مرةً ثانية في أواخر أكتوبر، عندما هبَّ أهالي أركاديا Arcadia (الآن كيباريسا Kiparissa جنوب غرب البيلوبونيز)، احتجاجًا على ما كانوا يعتبرونه جباياتٍ ظالمةً كانت تتقاضاها الحكومة. جاءت قوةٌ من خمسمائة جندي بقيادة قبطانٍ يُدعى ماكريانس Makriyannis لإعادة الهدوء. كان يمكن ألا يجدوا صعوبةً في قمع التمرُّد لو لم ينضم إليه تيودور وبانوس كولوكوترونس، الذي جاء معه بعددٍ كبير من الجنود المضارين من حصار باتراس، الذي كان ما زال قائمًا. لم يكد ماكريانس يعود إلى نوبليا التي كانت في حماية قوات من الروملي. فورًا، اتخذ القتال وجهةً إقليمية، وفي إحدى المواجهات بالغةِ العنف، سقط بانوس كولوكوترونس قتيلًا.

آنذاك فحسب، أدركت الحكومة أنها كانت أمام حربٍ أهلية ثانية، وليس مجرد انتفاضة أو تمرُّد محلي، وأنها لا بد من أن تقضيَ عليها قبل فوات الأوان. في تلك الظروف، لم تكن القوات البيلوبونيزية جديرةً بالثقة، ومن ثمَّ لجأت إلى قوات الروملي عارضةً عليهم الأموال — من القرض — وأتاحت لهم فرصةً للقيام بعمليات سلب ونهب شاملة للبيلوبونيز. بنهاية العام، كان قباطنة الروملي، وخلف كلٍّ منهم جيشه الصغير، يتدفَّقون عبْر خليج كورنتة لاهتبال الفرصة التي جاءتهم.

بالرغم من أن المتمردين كانوا أقلَّ عددًا الآن، ظلوا يقاتلون حتى فبراير ١٨٢٥م، عندما استسلم كولوكوترونس وبعده اثنا عشر من ضباطه. تم سَجنهم كلهم في دير النبي إيليا Elijah في تلال هيدرا. انتصرت الحكومة، ولكنَّ الثَّمن كان باهظًا. كان أهالي الروملي قد قاموا بالسلب والنهب أينما حلوا، كانوا يسلبون الكل … مؤيدي الحكومة والمحايدين

والتمردين، الأغنياء والفقراء، أصحاب الأراضي الزراعية ... لم يستثنوا أحدًا. ماكريانس، الذي يبدو أنه كان لديه حسٌّ أخلاقي أكثر من معظم أقرانه، أصابه الفزع، ليس بسبب أعمال العنف فحسب، وإنما لإدراكه كذلك أن بلاده قد أصبحت منقسمةً على نفسها أكثرَ منها في أي وقتٍ مضى: لن يغفر شعبُ البيلوبونيز قطُّ لجيرانه الشماليِّين.

حتى في سنة ١٨٢٤م، لم يكن الأتراك قد تراخوا تمامًا، وبالرغم من أن نفوذهم لم يكن ملحوظًا بقوة في البر اليوناني الرئيس، قام أسطولٌ تركي في شهر يوليو بالاستيلاء على جزيرة بسارا Psara الصغيرةِ في بحر إيجه — وكانت القاعدة الشرقية الرئيسية للبحرية اليونانية — كما كان يهدِّد المركزين البحريَّين الرئيسيَّين الآخرَين، وهما جزيرتا هيدرا وسبتساي؛ ولكنَّ العدوَّ الإسلامي الكبير الذي كان على اليونان أن تواجهه الآن لم يكن تركيا، كان مصريًّا.

سبق أن ظهرت شخصيةُ محمد علي القوية على صفحات هذا الكتاب عندما رأيناه وقد عُيِّن نائبًا إمبراطوريًّا في مصر ١٨٠٥م، وهو في السادسة والثلاثين من العمر. بعد تسعة عشر عامًا، أو فيما كان يُعتقد أواخر منتصف العمر، كان قد بلغ ذروةَ قوَّته. كان قد أحدثَ تحولاتٍ كبرى في البلاد، وبخاصة بعد أن أصبح لها، لأول مرة، جيشٌ قوي وبحرية مدرَّبة على النمط الأوروبي بواسطة ضباطٍ أوروبيِّين. كان قد أصبح من الواضح للسلطان محمود الثاني أن تلك القوة لا بد من أن تُستخدم بسرعة، إن كان لليونان أن تظل جزءًا من إمبراطوريته. كان من السهل إيجاد حافز لذلك: لو ساعده محمد علي في استعادة البيلوبونيز، يمكن توليةُ ابنه إبراهيم حاكمًا عليها.

كان الأسطول الذي قام محمد علي وإبراهيم بتجهيزه مكونًا الآن مما لا يقلُّ عن خمسٍ وخمسين سفينة حربية، وأكثر من ثلاثمائة سفينة نقلٍ تحمل نحو أربعة عشر ألف جندي مشاة، وألفين من الخيَّالة بخيولهم، ومائة وخمسين مدفعًا يقوم عليها نحو خمسمائة جندي. أبحر الأسطول من الإسكندرية يوم التاسع عشر من يوليو ١٨٢٤م والتقى بالأسطول التركي في بودرام Bodrum (هاليكارناسوس Halicarnassus القديمة)، على الساحل الغربي لآسيا الصغرى؛ ولكن اليونانيِّين في انتظارهم بأسطول من نحو سبعين سفينة من هيدرا وسبتساي وبسارا. نشبت المعركة في الحال — بالقرب من كيب يورندا Cape Yeronda، التي تبعُد نحو ميل أو أكثر قليلًا إلى الشمال من شبه جزيرة بودروم، وبالرغم من أنها لم تكن حاسمة، كانت كافية لإقناع إبراهيم بتأجيل حملته إلى العام

التالي. سحب سفنه إلى كريت — التي كانت تحت الحكم العثماني منذ قرن ونصف القرن تقريبًا — بينما عاد الأتراك إلى القسطنطينية حتى ينتهي الشتاء.

كانت تلك نيَّتهم على الأقل، ولكن ما حدَث هو أن قبطانًا فرنسيًّا أشار على إبراهيم برأي جيد. كانت هناك ثلاثُ قلاع في البيلوبونيز ما زالت في أيدي الأتراك: باتراس، والمستوطنات الفينيسية السابقة في ميتوني Methoni، وكوروني Koroni.[١٣] اقتراح القبطان على إبراهيم أن يكون تركيزه على ضخِّ أكبرِ حجم ممكن من القوات في أحدِ هذه المواقع الثلاثة، وأن ميثوني يمكن أن تكون هي الاختيار الأمثل نظرًا لاتصالها المباشر بالشاطئ، كما أشار بضرورة القيام بذلك على الفور دون انتظار الأتراك، أو حتى الانتظار إلى فصل الربيع، وبذلك يمكن أن تفيدَ سفنه الثقيلة من رياح الشتاء. وهكذا أبحر إبراهيم في الثالث والعشرين من فبراير ١٨٢٥م، وفي اليوم التالي أنزل جنوده وخيَّالته في ميتوني حيث حصَّنوا أنفسهم جيدًا. بعد أيام قليلة، دخلوا كوروني. في الوقت نفسِه انتشر الجيش المصري كلُّه على شكل مروحة باتجاه الشمال الشرقي لإخضاع باقي البيلوبونيز.

كانت الحكومة اليونانية الآن في حاجةٍ إلى كل فرد، إن كان لها أن تأمُل في إيقاف زحف إبراهيم. تم إطلاق سراح كولوكوترونس وزملائه من القباطنة من سِجنهم في هيدرا، ومرةً أخرى أُسندت إليه قيادةُ القوات اليونانية، بينما صدر مرسوم يُلزِم كلَّ منطقة من البلاد بتقديم مجنَّدِين بنسبة ١٪ من عدد سكانها. إلا أن الوقت كان متأخرًا جدًّا؛ إذ كان المصريون ينتشرون بسرعةٍ في أرجاء شبه الجزيرة. كولوكوترونس، الذي كان يعتقد أن ترايبولس كانت مفتاح كل البيلوبونيز، قرَّر أن يدمِّر المدينة قبل وصول المصريين … ومرةً أخرى لم يحالفه الحظ: وصلت قواتُ إبراهيم قبل أن يُلحِق بالمدينة أضرارًا كبيرة، وسرعان ما تمَّت السيطرة على النيران قبل أن يقوم الجنود بالسلب والنهب والغُنْم … والتدمير … ثم أعادوا إضرامَ النار. مرة أخرى، كانت الأعمال الوحشية مرعبة. يسجِّل الدكتور «صمويل جريدلي هاو Samuel Gridley Howe»[١٤] في يومياته:

> خرجتُ إلى الشاطئ عند شروق الشمس، كنتُ أسير فأرى جثثَ جنود من حولي وخيولًا مقتولة، لم يكن العدو قد تمكَّن من إخلائها. كانت الرءوس مقطوعةً، وكان اليونانيون قد مثَّلوا بالجثث. لم يتركوها دون دفن فحسب، ولكنهم تعاملوا معها بكل وحشية.

ويضيف بعد يومين:

> ولكن ماذا يمكن أن تفعل اليونان المنكودة؟ لقد اجتاز إبراهيم باشا بجيشه كلَّ المورة من مودون إلى نابولي (نوبليا)، مرَّ دون أذًى عبْر الشِّعاب؛ حيث كان يمكن لخمسمائة من ذوي العزيمة القومية أن يصدُّوا جيشَه كلَّه. أحرق آرجوس وتريبو لتزا وكالاماتا أكبرَ ثلاث مدن في المورة. ليست خسارة هذه الأماكن هي الأهم، ولا الممتلكات التي دمَّروها في طريقهم، الأهم أن ذلك يدُل — بكل أسف — على ضَعف البلاد التي لا تستطيع مقاومةَ جيش لا يشكِّل خُمس ما يستطيع العدوُّ أن يأتيَ به.

لم يسجِّل الدكتور هاو سوى الحقيقة. لم يكن يعرف أن الكارثة الكبرى كانت في الطريق.

في القصة الكاملة لحرب الاستقلال اليونانية، يبرُز اسم «ميسولونجي Missolonghi» بين كل الأسماء الأخرى؛ وليس بسبب مقاومتها لهجومين منسقين جيدًا (في ١٨٢٢م و١٨٢٣م)، فكانت المدينة الوحيدة شمالي خليج كورنتة التي بقيت في أيدي اليونانيِّين منذ أن بدأ العِداء، ولا لأن ذلك يعود في مجمله إلى موت لورد بايرون هناك في ١٨٢٤م بالرغم من أنه كان سببًا في ذيوع شهرتها في أرجاء أوروبا. لقد أصبحت ميسولونجي رمزًا، دون سواها، نتيجةً للتجربة الفريدة التي مرَّت بها عشيةَ أحدِ السَّعف Palm Sunday عام ١٨٢٥م، وهو ما أسرَ خيال العالم الذي أصابه الرعب.

اصطفَّ الجيش التركي، الذي زحف من آرتا Arta جنوبًا قبل فترةٍ من ذلك العام بقيادة رشيد باشا، أمام المدينة في أواخر أبريل. كان قوامه نحو ثمانية آلاف جندي في مواجهةِ حاميةِ ميسولونجي التي كانت، بالكاد، نصفَ ذلك العدد. على خلافِ القوة التركية المجمَّعة، كانت تلك الحامية مكوَّنة من نحو اثنتي عشرة جماعة مختلفة … لكلٍّ منها قيادتها الخاصة بها. كان من الصعب تنسيقُ العمل بينها، إلى أن برز قائدٌ موهوب من سولي Souli[١٥] يُدعى «نوتيس بوتساريس Notis Botsaris». بفضله — بمعنى الكلمة — صمَد المدافعون بنجاحٍ في المرحلة الأولى من الحصار، أمام كلِّ ما قام به رشيد باشا وقوَّاته. كانوا يعرفون، كذلك، أنهم لن يموتوا جوعًا؛ حيث كان ما زال لديهم خطٌّ إمداد من «زاكينتوس Zakynthos» والجزر الأيونية الأخرى عبْر بحيرتهم

الصغيرة ذات المياه الضحلة، التي لا تسمح بمرور السفن التركية الثقيلة. عندما بدأت أمطار أكتوبر وانسحب الأتراك من أمام الأسوار إلى أن ينتهيَ فصل الشتاء، سرَت روح التفاؤل بين القادة اليونانيِّين. إلا أنهم لم يحسبوا حسابَ المصريِّين. منذ مغادرة إبراهيم للإسكندرية، كان أبوه قد شرع في بناء أسطول جديد كامل: نحو ١٣٥ سفينة من كل الأحجام، ويضم مجموعةَ سفنٍ أخرى من تركيا، وغيرها من تونس والجزائر. كان إبراهيم قد عاد ليتولى القيادة، وفي الأيام الأولى من عام ١٨٢٦م، كان هذا الأسطول الجديد الهائل يرسو في مياه ميسولونجي حاملًا على متن سفنه نحو عشرة آلاف جندي وكميةً كبيرة من المدفعية الثقيلة. بعد أسبوعين من التحضير، وعند فجر الرابع والعشرين من فبراير، فتحت المدفعية نيرانها، ويقدَّر حجمُ ما أُطلق على المدينة من نيران على مدى الأيام الثلاثة التالية، بنحو ثمانية آلاف وخمسمائة قذيفة مدفع وهاون. كان حجمُ الدمار هائلًا، إلا أن المدينة بقيت صامدة.

إبراهيم — الذي تسلَّم زمامَ القيادة العليا، والذي لم يكن يخفي ازدراءه لزميله التركي — حوَّل اهتمامَه الآن إلى البحيرة الضحلة. بمجرد أن يسيطرَ على تلك المياه الضحلةِ سيجوع أهالي ميسولونجي فيستسلمون، إلا أن المهمة لم تكن سهلة. كان رشيد قد حاول ذلك في العام السابق، عندما أطلق ستًّا وثلاثين سفينةَ جرٍّ مسطَّحة للهجوم على المدينة، ولكنَّ النيران الكثيفة التي انهمرت عليها من جزيرة «فاسيلادي Vasiladi» لتردَّها على أعقابها. سيجرِّب إبراهيم وسيلةً أقوى؛ أسطولًا من اثنتين وثمانين سفينة أخفَّ نوعًا ما، مع خمس رماثات (منصَّات عائمة) ضخمة تحمل مدفعية ثقيلة. مرةً أخرى كان أداء مدفعية فاسيلادي رائعًا؛ ولكن عند المساء تقريبًا، دوَّى انفجارٌ كبير في مخزن البارود لديهم، فانتهت مقاومتهم. بعد ذلك استسلمت بقيةُ الجزر الصغيرة في البحيرة واحدةً تلو الأخرى، إلى أن بقيت واحدة هي جزيرة «كليسوفا Klisova»، التي تبعُد نحو نصف الميل جنوب شرق المدينة. هنا، كان القائمون بالهجوم مجبرين على الرسوِّ على بُعد عدة ياردات من الشاطئ والخوض في الطين، فكانوا أهدافًا سهلةً للمدافعين. جُرح رشيد وإبراهيم، وفشِلت محاولة الاستيلاء على الجزيرة، إلا أن ذلك لم يحسِم الموقف. كان الأتراك يسيطرون على البحيرة. انقطع حبلُ الحياة عن ميسولونجي ليصبح استسلامها مسألةَ وقت، إلا إذا فرَّ سكانها عبْر السهل إلى شمال شرق المدينة، وكان ذلك تحديدًا ما حاولوا أن يفعلوه. كانوا نحو تسعة آلاف نسمة، رجالًا ونساء وأطفالًا. عند حلول ليل الثاني والعشرين من أبريل، قرَّروا أن يقوم كل الشباب والصبية القادرين جسمانيًّا بحمل

الأطفال الصغار الذين سيتم تخديرهم باللودانوم (مستحضر أفيوني)، وتسلُّق الأسوار بسرعة وعبور الخندق الدفاعي على جسورٍ مؤقتة، ثم يقومون بالاحتماء بسواترَ منتظرين خلف الاستحكامات الخارجية إلى أن يسمعوا صوتَ إطلاق نار؛ سيكون مصدر تلك النيران إحدى المجموعات بقيادةِ ضابطٍ يُدعى «جيورجي كارايسكاكيس George Karaiskakis»، الذي سيقوم بهجومٍ تمويهي يَشغَل به القائمين بالحصار. بعد ذلك سيتحركون معًا. كبار السن والمرضى ومَن لا تمكِّنهم صحَّتهم من المغادرة، سيتم تجميعهم في عدةِ منازلَ قريبة من شِحنة متفجرات تحتها، يمكن إشعالها في حال اقتراب الأتراك.

كانت خطة يأس من الصعب توقُّع نجاحها ... وقد كان. لم يحدُث إطلاق نار من قِبل مجموعة كارايسكاكيس. بعد انتظار نحو ساعة خلف المتاريس نفِد صبرُ اللاجئين واندفعوا خارجين إلى السهل. فجأة، كانت هناك صيحات: «Opiso ... Opiso»، «ارجعوا ... ارجعوا.» ودبَّت الفوضى. واصل البعض طريقَهم وتراجع البعض. كان التزاحم والتدافع شديدين على الجسور فسقط عددٌ كبير في الخندق، أما مَن تمكنوا من العودة إلى المدينة، فقتلتهم القوات التركية، التي كان أفرادها قد اندفعوا داخل المدينة عندما وجدوا الأسوار بلا حماية. مَن بقُوا في السهل كانوا عُرضة لهجوم الخيَّالة الأتراك، ثم الجنود الألبان. قتلوا الرجال وأسرُوا النساء والأطفال. خلفهم، كانت ميسولونجي جحيمًا مشتعلًا. كتب مستر هاو، الذي لم يستطِع أن يسيطر على مشاعره، في ٣٠ أبريل:

> سقطت ميسولونجي؛ ألقى مقاتلوها الشجعان بأنفسهم، يأسًا، على حِراب أعدائهم؛ هلك أطفالها ونساؤها في النيران التي التهمت مساكنهم والتي أشعلوها بأيديهم. تبقى جثثهم المحترقة والمشوَّهة دليلَ إدانة وشاهدًا على لا مبالاة وأنانية العالم المسيحي ... على مدى عشرة أشهر كانت عيون أوروبا الغربية على ميسولونجي. كانوا يرون أبناءها يصارعون أهوالَ الحرب والجوع، كانوا يرون رجالها يضمرون وينزفون ويتساقطون موتى، ونساءها يَقرِضون عظام الخيول والبِغال النافقة، وأسوارها محاصرة بواسطة العرب المتعطِّشين لدم مقاتليهم ولإشباع شهواتهم من نسائها وأطفالها. لقد رأوا ذلك كلَّه ولم يرفعوا إصبعًا دفاعًا عنها ...

أما بالنسبة للخسائر، فمن المستحيل حصرها، بنهاية تلك الليلة المروِّعة من المرجَّح أن يكون نصف عدد سكان ميسولونجي (نحو أربعة آلاف) قد قُتلوا، ونحو ثلاثة آلاف

(معظمهم من النساء والأطفال) قد أُسِروا. مَن تمكَّنوا من الفِرار كانوا أقلَّ من ربع عدد السكان (٢٠٠٠ شخص على أكثرِ تقدير).

كان أثرُ ما حدَث في ميسولونجي على أوروبا كلِّها أكثرَ كآبة وحزنًا من أثرِ مأساة خيوس. مرةً أخرى سيمسك ديلاكروا الغاضب بفرشاته احتجاجًا. كان للوحته الكبيرة المروِّعة بعنوان: La Gréce sur les ruines de missolonghi أثرُها الكبير في إبراز الغضب الشديد لكي يحذوَ حذوَه معاصروه من نحاتين ورسامين وكتَّاب وشعراء في أنحاء أوروبا. لن تبقى القوى الغربية مكتوفةَ اليد باسم الحياد؛ فقد حان الوقت لشحذ سيوفها والإسراع لنجدة اليونان.

تركت كارثةُ ميسولونجي اليونان كلَّها في حالة معنوية شديدة الضَّعف والتشوش، وسرعان ما تبِعتها كارثةٌ أخرى أكبر. في يونيو ١٨٢٦م، قام رشيد باشا بهجومٍ منسَّق على أثينا بجيشٍ من سبعة آلاف مقاتل. بسبب موقعها، لم تكن أثينا قطُّ عاصمةً لليونان إلا أنها كانت مدينةً استثنائية، وذلك لسببين؛ الأول هو السبب الواضح: كانت مسرحَ أعظم منجزات العصور القديمة وما زالت؛ وبسبب فترة التدهور الطويلة بقيت رمزًا للتميز الفني والثقافي والفكري الذي كان الإغريق عليه ذات يوم، وكان المأمول أن تكون عليه مرةً أخرى. السبب الثاني، وهو أقلُّ رومانسية، له علاقة بالوضع الحالي. بعد سقوط ميسولونجي كانت أثينا هي المدينة الوحيدة في يد اليونانيِّين شمالي خليج كورنتة. بالرغم من الانتصارات الأخيرة للأتراك والمصريين، كان يبدو محتملًا أن يؤديَ النضال المتواصل، إلى جانب التعاطف المتزايد من القوى الأوروبية الغربية، على الأقل، إلى درجةٍ ما من استقلال اليونان. بعد عودةِ أثينا إلى أيدي المسلمين، قد يصبح الاستقلال مقصورًا على البيلوبونيز؛ ومن ناحية أخرى فإن الحدود ستصبح بعيدة جدًّا في أقصى الشمال في حالِ تمكُّن اليونانيون من التشبُّث بالمدينة.

بحلولِ منتصف أغسطس، كان رشيد يسيطر على المدينة كلِّها ما عدا الأكروبوليس؛ حيث كانت توجد حامية يونانية (من خمسمائة شخص) صامدةً في الشتاء التالي، وأثناء ذلك، وقعَت الحكومة اليونانية ضحيةَ شقاقٍ طائفي آخرَ كان قد تفجَّر. مرةً أخرى، يبدو أن كولوكوترونس كان هو المسئول عن ذلك إلى حدٍّ كبير، وعندما حلَّ صيف ١٨٢٧م كان هناك ما لا يقل عن سبعة صراعات منفصلة أخرى متأجِّجة. الغريب أن بريطانيَّين هما اللذان استطاعا فرْضَ قدْرٍ من الهدوء، رغم أن كليهما فشِل في النهاية في أن يكتسِب

شهرةً أو شرفًا لذلك. كان الأول هو الجنرال سير ريتشارد تشيرش Richard Church، الذي كان قد حشد الكتيبة الإنجليزية – اليونانية في زاكينتوس قبل ستة عشر عامًا. أثناء ذلك، كان قد خدم في جيش مِلك نابولي إلا أن قلبَه ظل معلَّقًا باليونان. عاد إلى هناك في مارس ١٨٢٧م وعُرِض عليه منصب القائد العام للقوات البرية اليونانية — ولأنه كان أجنبيًّا، كان المأمول أن يعيد النظام لبلدٍ دبَّت فيه الفوضى — ولكنه رفض تولِّي المنصب إلى أن تتوصل الحكومتان المتنافستان إلى تسوية للخلافات بينهما.

بعد أسبوع، جاء شخصٌ آخر أكثر تميزًا. كان توماس، لورد كوشرين Thomas, Lord Cochrane — الإيرل العاشر لـ «دندونالد Dundonald» فيما بعد — كان في بدايةِ حياته العملية قد حوكم عسكريًّا بسبب تمرُّده، كما حوكم في ١٨١٤م مُتَّهمًا بالغش والاحتيال في بورصة الأوراق المالية. بالنسبة للأمر الأول تم تبرئة ساحته، ولكنه أُدين في قضية البورصة.[١٦] وبالرغم من ذلك كان يُعتبر أعظمَ أدميرالات إنجلترا منذ نلسون. كان قد أمضى سبع سنواتٍ في أمريكا الجنوبية حيث حارب من أجل استقلال شيلي Chile وبيرو Peru والبرازيل Brazil، ومنذ نوفمبر ١٨٢٥م كان يعرِض عليه منصبَ قيادة البحرية اليونانية. حدَث التأخير بسبب إصراره — كشرط لشغل المنصب — على توفير ستِّ بواخرَ وفرقاطتين من تصميم فرانك أبني هيستنجز Frank Abney Hastings، وهو أرستقراطي بريطاني آخر، كان قد عمِل ملاحًا في ترافالجار Trafalgar، ووصل إلى رتبةِ قبطان عندما تم الاستغناء عن خدماته.

كانت البواخر ما زالت في بدايتها، وكانت حتى ما زالت تسير بالشراع مستخدِمةً ماكيناتها البدائية في حالِ سكون الرياح أو في المعارك فحسب. كان من المفترَض أن يُسدَّد ثَمن تلك البواخر من قرضٍ ثانٍ مقداره ٥٦٦٠٠٠ جنيه إسترليني، كان قد تم الاتفاقُ عليه في لندن ولكنه لم يُنفَّذ، وعليه كان لا بد من بيع إحدى الفرقاطتين للحكومة الأمريكية لسداد ثَمن الثانية. لم تصل سوى اثنتين من البواخر الست إلى اليونان، ولم يكن بالإمكان الثقةُ بهما على أيِّ نحو بسبب سوء التصميم والبناء الهزيل والفساد ونشاط الجواسيس المصريِّين. عندما وصل كوشرين إلى اليونان — على اليخت الخاص به — في ربيع ١٨٢٧م، اتخذ خطًّا أكثرَ تشددًا من تشيرش. تساءل: كيف يكون اليونانيون على هذه الدرجةِ من الغباء، فيختلفون على مكان انعقاد المجلس القادم، بينما ينبغي عليهم أن يقوموا بالهجوم على الأتراكِ والمصريين وطردِهم من البلاد قبل أن يتم تدميرُها نهائيًّا؟ كان لكلماته أثرها: اضطُر الطرفان لعقدِ اتفاقٍ جديد يقضي بضرورة انعقاد مجلس جديد في

تريزيني Trizini (أوترويزن Troezen القديمة). بنهاية مارس كان كلاهما (تشيرش وكوشرين) قد سحب اعتراضاته، وقبِلا المنصبين المعروضين عليهما؛ وبعد أسبوع قرَّر المجلس عرْضَ رئاسة اليونان على كابودستريا، الذي كان قد ترك الخدمة لدى الروس ويعيش في هدوء جنيف.

في الوقت نفسه، كان الأكروبولس في أثينا ما زال تحت الحصار؛ وفي محاولةٍ لكسر جمود الموقف، تقرَّر في أوائل ١٨٢٧م إرسالُ قوةٍ من ٢٣٠٠ جندي، تحت قيادة الضابط الإنجليزي توماس جوردون Thomas Gordon، المولَع بالثقافة الإغريقية. على الفور، انضم إليه كارايكاكيس مع مجموعات كثيرة من القوات المحلية، ليصل العدد إلى ما لا يقل عن عشرة آلاف، عندما وصل كوشرين إلى بيرايوس Piraeus بسفينة القيادة الخاصة به (هيلاس Hellas)، ليتبعه تشيرش في مركبٍ شراعي كان قد تم الاستيلاء عليه عَنوة. تم وضْعُ خططٍ متعدِّدة للعمل، ولكنَّ كوشرين أصرَّ على الزحفِ على أثينا مباشرة؛ وكعادته كان خشنًا أمام معارضيه متشبثًا برأيه. يُروى أنه كان يقول دائمًا: «عندما تكون القيادة لي، فلتكفَّ كلُّ سلطة أخرى يدَها.» على الفوز، لم يقبَل كارايكاكيس هذا الرأي؛ إذ وجد أن التقدُّم على النحو الذي كان يريده كوشرين كان يتضمَّن عبورَ سهلٍ منبسط تحيط به خيَّالة الأتراك من كل جانب. بعد يومين، أطلق جندي تركي الرصاصَ عليه فقتله … ولم يَعُد هناك اعتراض من أحد. وهكذا تم الاتفاق على إبرار قوةٍ من نحوِ ألفين وخمسمائة جندي على الجانب القريب من خليج فاليرون Phaleron ليلةَ الخامس من مايو ١٨٢٧م، تزحف على أثينا، بينما تبقى بقيةُ القوة الرئيسية — ثلاثة أضعاف الأولى تقريبًا — في بيرايوس في انتظارِ الأوامر. لا شكَّ أن كارايكاكيس كان محقًّا تمامًا، ولكن إذا كانت الخطة متهورة، فإن تنفيذها كان — كذلك — مؤسفًا. بعد ذلك علَّق جوردون قائلًا:

> حيث إن الأدميرال لم يكن له علاقة بتحرُّكات القوات عندما نزلت إلى الشاطئ، والجنرال (تشيرش) راضٍ بأنه قد حسَم الأمر وبقي على سفينته حتى طلوع النهار، كان كلٌّ من الضباط يتصرَّف كما يحلو له ويقف أينما يريد. تبعثرَ التشكيل على مساحةٍ تبلغ أربعة أميال تقريبًا. كانت المقدِّمة في مرمى نيران أثينا، والمؤخرة قريبة من البحر، والجنود غير المزودين بمعاولَ أو مجارفَ كانوا يستخدمون خناجرهم في الحفْرِ لكي يختبئوا من هجوم الخيَّالة.

قام رشيد باشا بالهجوم عند الفجر، وكانت النتائج كما هو متوقَّع. فقدَ اليونانيون ألفًا وخمسمائة جندي … وهو أكثرُ من كلِّ ما كانوا قد فقدوه في أيِّ يوم منذ بدأت

الحرب. بعد راحة ليلة، عندما نزل كلٌّ من كوشرين وتشيرش من سفينته، كان أن وجدا الناجين مرهَقين تمامًا وخائفين، يجرُّون أقدامهم نحو الشاطئ، ويصعدون بجهدٍ بالغ إلى قواربَ صغيرة للفرار بجلودهم. في محاولةٍ لاستعادة سُمعته، بقي تشيرش صامدًا على نحوٍ بطولي في فاليرون مع مجموعة صغيرة من رجاله لمدة ثلاثة أسابيعَ أخرى، ولكن في نهاية الشهر، أجبرتهم شدةُ الحرارة والعطش على الاستسلام، وبعد أيام قليلة استسلمت كذلك الحامية الموجودة على الأكروبوليس.

تُرى مَن المسئول؟ على نحوٍ أو آخرَ، الكلُّ مسئول. كوشرين لعجرفته الزائدة ورفضه الاستماعَ إلى مَن هم أكثرُ منه حكمة، وتشيرش لعدمِ تصدِّيه له؛ وكلاهما لبقائهما على سفنهما بينما كان ينبغي أن يكونا بين رجالهما؛ والضباط اليونانيون لعدمِ انضباطهم وعدم قدرتهم على الاتفاقِ على قائدٍ أعلى لهم. كان فشلهم مأساة، وكانوا يستحقون ذلك. في الوقت نفسِه كان موضوع التدخُّل الأوروبي يتحرَّك ببطء مع حركةِ السفراء المكُّوكية بين لندن وباريس وسان بطرسبورج. كانت المصالح البريطانية في اليدِ القديرةِ لوزير الخارجية جورج كاننج George Canning، الذي خلَف لورد ليفربول في أبريل ١٩٢٧م كرئيسٍ للوزراء؛ فمن خلال جهوده، إلى حدٍّ كبير، كان أن تم توقيعُ كلٍّ من بريطانيا وفرنسا وروسيا على معاهدة لندن في السادس من يوليو. بموجب هذه الاتفاقية ستحظى اليونان بحكمٍ ذاتي، نظريًّا: كمعتمديةٍ تركية (بمعنى أنها ستدفع لها جزيةً سنوية) وعمليًّا: مستقلة؛ حيث ستعترف بذلك الدولُ الثلاث بإقامة علاقات تجارية معها. ستوقِّع هي وتركيا هدنةً في غضون شهر — سيختصر كاننج هذه المدةَ إلى أسبوعين فيما بعد — وبعدها سوف تتدخَّل القوى الثلاث إن لم يتمكنا من ذلك. كانت تلك أخبارًا جيدة بالنسبة لليونانيِّين، الذين كانوا يعرفون أن تركيا سوف ترفض أيَّ اقتراح بهدنة ... وهكذا سيكون التدخُّل مؤكدًا.

سوف تثبِت الأحداثُ التالية أنهم كانوا على حقٍّ. قبل بضعة أشهر كان السلطان قد عيَّن محمد علي قائدًا أعلى، فخريًّا، على كل القوات البرية والبحرية في اليونان ... التركية والمصرية معًا. بعد ذلك مباشرةً سيكوِّن محمد علي جيشًا جديدًا قوامه نحو خمسة عشر ألف جندي، ويبني أسطولًا جديدًا من ثلاث سفن حربية تركية وستين سفينة من حجمٍ أصغرَ — منها خمسٌ صناعة فرنسية — وأربعون سفينة نقل وست حرَّاقات. كانت السفن في مجملها تحمل نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مدفع. كانت تلك هي القوة التي رست في خليج نافورينو Navarino في السابع من سبتمبر؛ حيث كان إبراهيم ينتظرها.

أسرعت البحريات الثلاث المتحالفة إلى نافارينو، إلا أنه كانت هناك تعليماتٌ مشدَّدة لقادتها بألا يدخلوا فورًا في معركة. كان مطلوبًا منهم بدايةً أن يبذلوا قصارى جهدهم «لحثِّ وتشجيع» كل السفن الحربية التركية والمصرية على العودةِ سالمةً إلى القسطنطينية أو الإسكندرية، بالرغم من أن كاننج أوضح لهم أنهم إذا أصرُّوا على البقاء في اليونان، فإن «أوامر الأدميرال البريطاني سير إدوارد كوردينجتون Edward Cordington سوف تُنفَّذ بالمدفع عند الضرورة، وبعد استنفادِ كل الوسائل الأخرى.» كان كوردينجتون، وهو محاربٌ محنَّكٌ آخرُ من محاربي ترافالجار وكان يقود السفينةَ الملكية أوريون Orion، كان قد عيِّن قائدًا أعلى للبحر الأبيض في ديسمبر السابق، وكان أولَ مَن وصل إلى نافارينو؛ حيث لحِق به زميله الفرنسي الكومت دي ريني Comte de Rigny بعد أيامٍ قليلة. ولمَّا كان الروس لم يصلوا بعدُ، قام القائدان البريطاني والفرنسي في الخامس والعشرين من سبتمبر، مع عددٍ قليل من كبار الضباط، وهنري Henry ابن كوردينجتون (وكان طالِبَ بحريةٍ في التدريب على سفينة أبيه)، قاموا بعقدِ لقاء مع إبراهيم في خيمته بالقرب من مدينة بيلوس Pylos المجاورة.

كان الحوار، كما سجَّله هنري كوردينجتون «مهذَّبًا وديًّا، مع كمياتٍ من القهوة وتدخين الشُّبُق[١٧] المرصَّع بالجواهر»، مضتِ الجلسة على النحو الذي يمكن أن نتصوَّره حيث أفصح كوردينجتون عن تحذيره بكل كِياسة، ووافق إبراهيم على عدمِ اتخاذِ أيِّ إجراء إلى أن يتلقى تعليماتٍ جديدة من الإسكندرية والقسطنطينية. من أسف أنهم لم يكتبوا محضرَ الاجتماع؛ إذ سرعان ما اتضح أن كلَّ طرَف كان له أفكاره المختلفة عمَّا تم التوصُّل إليه. كان إبراهيم يعتقد أن اليونانيِّين، وكذلك الأتراك، ملتزمون بالهدنة المؤقتة، كما كان يتصوَّر كذلك أنه لن يكون هناك اعتراضٌ من الطرفَين على قيامه بنقل مؤن ومواد تموينية للحامية التركية في باتراس.

من جانبهم، لم يكن اليونانيون يجدون سببًا يجعلهم يعلنون موقفهم، فهم في النهاية كانوا قد قبِلوا بشروط اتفاقية لندن؛ وكان الأتراك هم الذين رفضوها. وهكذا، في الأيام الأخيرة من سبتمبر، بينما كان تشيرش يقود حملةً على باتراس، كان أن أبحر إبراهيم متجهًا صوب المدينة بأسطولٍ لا يقلُّ عن ثمانٍ وأربعين سفينة، وهو عددٌ أكبرُ بكثير مما يمكن أن يكون مطلوبًا لمجرد توصيل مئونة. ولكن إبراهيم لم يصل إلى المدينة. كان كوردينجتون هناك لكي يعترضَ طريقه، ثم قامت رياح استوائية شديدة بالباقي. حينذاك، غيَّر إبراهيم تكتيكاته. قد يستطيع الأدميرالات إحباطَ خططه في البحر، ولكنهم لا يستطيعون إيقافه برًّا. حسنًا! سوف يستمر في تدمير البيلوبونيز.

بعد أن كان اتفاقُ الخامس والعشرين من سبتمبر قد أصبح غيرَ نافذ المفعول رغم عدم إلغائه رسميًّا، قرَّر قادةُ البحر الثلاثة — كوردينجتون ودي ريني، وكان قد انضم إليهم الروسي، الهولندي المولد، الأدميرال الكونت هيدين Count Heiden — قرَّروا القيامَ باستعراض قوة. تم استدعاءُ ضباط البحرية الفرنسيِّين العشرة، الذين كانوا يعملون كمستشارين على السفن المصرية، وعند ضحى اليوم العشرين من أكتوبر قام كوردينجتون (من بارجته آسيا Asia) بقيادةِ الأساطيل الثلاثة، كانت كلُّها مجتمعة تضم إحدى عشرة سفينة حربية وثماني بوارجَ كبيرة وثماني سفن أصغرَ حجمًا، قادها عبْر المدخل الضيِّق نحو خليج نافارينو.

كان الجانبان ما زالا ملتزمين بأوامرِ عدم بدء أي أعمال عدائية، ولكن في مثل هذا الموقف الشديد التوتر، من المستحيل معرفةُ ما إذا كان أي عمل فردي، مجرَّد استفزاز أو إجراء عدائي بالفعل. إلى جانب ذلك، فإن القادة الأتراك والمصريِّين لم يكونوا قد اتفقوا على خطةٍ شاملة يسترشدون بها. عاجلًا أو آجلًا كانت المعركة حتمية. بدأت في الثانية بعد الظهر واستمرَّت حتى السادسة تقريبًا. شهدت تلك الساعات الأربع آخرَ معركة لم تشارك فيها أيُّ سفينة تجارية. اللافت للنظر كذلك، أن السفن كانت كلُّها راسية، وعلى مسافاتٍ قريبة في خليجٍ صغير؛ لم تكن تستطيع المناورة إلا بالدوران على كابلات المرسى لكي تكون المدافع على أجنابها في مواجهة أهدافها المختارة. لم ينسَ الدكتور هاو أن يسجِّل المشهد:

> «السفن التركية، وكانت أكثرَ من ثلاثة أمثال السفن المعادية، فتحت نيرانَ كلِّ مدافعها الجانبية، وبمساندةٍ من البطاريات الشاطئية أطلقت كمياتٍ من القذائف، لو أنها كانت مصوَّبة جيدًا، لكان يمكن أن تدمِّر الأوروبيِّين تمامًا، إلا أن الأوروبيِّين كانوا يردُّون بنيرانٍ أكثرَ تدميرًا وإن كانت أقلَّ حجمًا؛ فقد كان كل مدفع مصوبًا بدقَّة ... وكانت كل طلقة مؤثِّرة، الحلفاء أرسلوا قواربهم التي قطعت كابلات الحراقات التركية وأضرمت فيها النارَ فجعلتها ترتطم بأسطولها. في ظرفِ دقائق معدودة، كان الكثير من السفن الحربية المشتعلة يضيف إلى رعبِ المشهد الذي كان رهيبًا بالفعل؛ مجموعتان من السفن في صفَّين طويلين، يزأر فوق كلٍّ منها نحو ألفي مدفع، الحرَّاقات المشتعِلة تندفع جَيئة وذهابًا بين السفن التركية الضخمة التي كانت أشرعتها المتساقطة وهياكلها المشطورة تشهد على سيرِ المعركة، البحر مُلِئ بصوارٍ وأخشاب محترقة يتعلَّق

بها ألوف البحَّارة الهاربين من سفنهم المنفجرة، خطوط البطاريات الشاطئية المشتعلة طوال الوقت، والجنود الأتراك يراقبون مشهدًا يتوقَّف عليه مصيرَهم ... ولكنَّ الصراع لن يكون طويلًا عندما يكون لدى أحد الطرفين قوةٌ متفوِّقة لا يقودها سوى الغضب الأعمى ضدَّ شجاعةٍ هادئةٍ رابطةِ الجأش وانضباطٍ ومهارةٍ بَحرية ...»

الغريب أن خسائر الحلفاء في نافارينو كانت قليلةً نسبيًّا، لم تغرَق لهم سفينة واحدة، خسائرُ الأفراد بلغت نحو ١٧٤ قتيلًا و٤٧٥ جريحًا؛ أما بالنسبة للأسطول العثماني فقد كانت القصة مختلِفة تمامًا. منذ البداية، كان وضعه سيئًا. لم يشهد قائده الأعلى إبراهيم باشا المواجهةَ، حيث كان ما زال في البيلوبونيز، الأدميرال المصري محرم بك لم يكن له طاقةٌ على القتال، وكان قد غادر مع الضباط الفرنسيِّين قبل أن يبدأ. لم يكن هناك سوى القائد التركي طاهر باشا، الذي غرقت سفينة القيادة الخاصة به في مرحلةٍ باكرة من المعركة. من التسع والثمانين سفينة حربية التي كانت تحت قيادته، لم ينجُ سوى تسع وعشرين. يقدِّر كوردينجتون عدد القتلى من الأتراك والمصريين بستة آلاف قتيل، والجرحى بأربعة آلاف.

لقد تأرجح البندول على نحوٍ درامي. قبل أقلَّ من خمسة أشهر، في يوم السادس من مايو، كان استعادةُ الأتراك لأثينا قد بدا وكأنه إعلان وفاة بالنسبة لآمال اليونانيِّين؛ بعد نافارينو كان استقلال اليونان قد بات مؤكدًا.

لم ينتهِ كلُّ شيء تمامًا. بقيت قواتُ إبراهيم (نحو أربعة وعشرين ألفًا منهم) في البيلوبونيز المدمَّرة، لم يتم حملُهم على سفنٍ مصرية وإعادتهم إلى الإسكندرية إلا في سبتمبر ١٨٢٨م. استمرَّ القتال إلى ما وراء خليج كورنتة، وكلما كان اليونانيون يتقدَّمون جنوبًا، كانوا يستولون على المزيد من الأراضي لدولتهم الجديدة. كان تشيرش في الغرب، وديميتريوس إبسيلانتس في الشرق يواصلان تقدُّمهما، الأول حتى آرتا والثاني حتى تيرموبيلاي المواجِهة للحدِّ الشمالي لـ «إيوبيا»، رغم أنه كان عاجزًا عن طردِ الأتراك من أثينا نفسِها.

في الوقت نفسِه، كان كابودستريا قد وصل لتولي الرئاسة. على الفور، استعدى الضباطَ الثوار، عندما لم يبذل أيَّ جهد لإخفاء احتقاره لفشلهم في أن يتَّحدوا، وظلوا في مشاحناتٍ ومشاجرات، بينما كان مصير بلادهم على المحك. إلا أنه كان يعمل ستَّ عشرة ساعة في اليوم لإعادة بناء البلاد، وكان لشهرته الواسعة في الخارج أثرها الحاسم

في مداولات مؤتمر لندن الذي كان الآن يقوم بترسيم حدود الدولة اليونانية الجديدة. في سبتمبر ١٨٢٨م، التقى سفراء الحلفاء الثلاثة في القسطنطينية في بوروس Poros للنظر في تلك المسألةِ بالتحديد، وبعد ثلاثة أشهر أصدروا توصياتهم: خطٌّ يمتد من آرتا في الغرب إلى فولوس Volos في الشرق، على أن يتضمَّن ذلك جزرَ إيوبيا وساموس وربما كريت.[١٨] كانت المشكلة الوحيدة هي تركيا التي رفضت تمامًا الحضورَ إلى طاولة المفاوضات، ولم يتمَّ حلُّ ذلك إلا باتفاقية أدريانوبل Adrianople التي أنهت حربًا روسية-تركية في سبتمبر ١٨٢٩م. بموجب شروطها، وافق الأتراكُ في النهاية على الالتزام بأي قراراتٍ مستقبليةٍ خاصةٍ باليونان، قد يتخذها الحلفاء. وأخيرًا، في الثالث من فبراير ١٨٣٠م، في لندن، أُعلنت اليونانُ دولةً مستقلة تحت حمايةِ بريطانيا وفرنسا وروسيا.

كان لا بد من أن تمرَّ بضع سنوات قبل أن يعود السلام. اغتيل كابودسترا في التاسع من أكتوبر ١٨٣١م … ومرةً أخرى عمَّت البلادَ الفوضى، ولكن الأتراك أعطوا موافقتهم النهائية في يوليو ١٨٣٢م على خط آرتا-فولوس (إلا أنهم لم يوافقوا على أن يتضمَّن ذلك ساموس وكريت)، وأصبحت اليونان دولةً ذات سيادة، ولكنَّ تلك السيادة — حتى آنذاك — لم تكن كاملة. كانت القوى الغربية مصرَّة على أن تكون ملكية، واختارت لها ملكًا هو أوتو Otto، أميرُ فيتلزباخ Wittelsbach، وكان في السابعة عشرة من العمر، وهو ابن لودفيج الأول Ludwig I ملكِ بافاريا. وصل إلى نوبليا في صباح السادس من فبراير ١٨٣٣م وقوبل بتَرحابٍ كبير وبهجةٍ تردَّدت أصداؤها في كل مكان.

وأخيرًا، تحقَّق حُلم اليونان الذي طال انتظاره، ولكنَّ متاعبها لم تنتهِ.

هوامش

(١) كانت عضويتها المشترَكة في الكنيسة الأرثوذوكسية أساسَ صلةٍ عاطفية وثيقة بين روسيا واليونان.

(٢) للمزيد عن حياة السبعة السابقين، انظر: Mani وP. 49 Patrick Leigh Fermor.

(٣) من منطقة فنار Phanar في القسطنطينية؛ حيث كرسي البطريركية الأرثوذوكسية اليونانية.

(٤) كانت الكنيسة الأرثوذوكسية في أوائل القرن التاسع عشر ما زالت تستخدم التقويم اليوليوسي Julian Calendar (النظام القديم) الذي كان أقلَّ من التقويم

الجريجوري باثني عشر يومًا (النظام الجديد). النظام الجديد (الجريجوري) أدخله البابا جريجوري الثالث عشر Gregory XIII في ١٥٨٢م — رغم أن الدول البروتستانتية لم تتبعه لفترة طويلة. (أدخلت بريطانيا النظامَ الجديد في سبتمبر ١٧٥٢م). وحيث إن الخامس والعشرين من مارس تاريخٌ مهمٌّ في اليونان، سيكون — ومن المربك كذلك — تحديدُه بيوم السادس من أبريل؛ من هنا سوف نستخدم النظام القديم على مدى هذا الفصل. (المؤلف)

التقويم اليوليوسي Julian Calendar، تقويمٌ شمسي يقسِّم السنة ٣٦٥ يومًا وست ساعات، ويضيف إلى سنة رابعة يومًا، بحيث تصبح كبيسة مؤلَّفة من ٣٦٦ يومًا. (المترجِم)

(٥) اقتباس عن ديفيد بريور David Brewer، من كتابه القيم The Flame of Freedom، الذي أفدتُ منه كثيرًا في كتابة هذا الفصل.

(٦) انظر الفصل الثاني: اليونان القديمة.

(٧) سفينة مزوَّدة بالمتفجرات تعمل وسط السفن المعادية لإضرام النار بها (حراقة Fireship). (المترجِم)

(٨) اشتراها الملك لويس الثامن عشر، وهي الآن من مقتنيات «اللوفر».

(٩) كان من نوع النيوفوند لند Newbound Land الضخم الذي يستطيع السباحة. (المترجِم)

(١٠) ألبان من منطقة سولي Souli البريةِ جنوب غرب إيانينا كانوا يعيشون على الابتزاز والسلب والنهب، كان بايرون يعقد الأملَ عليهم، ولكن أمله خاب.

(١١) أسرَه الأتراك بعد ذلك بوقت قصير، ثم أُطلق سراحه بعد توسُّط سير ستراتفورد كاننج Stratford Canning، ثم السفير البريطاني لدى الباب العالي. في ١٨٢٧م استقر في القسطنطينية حيث عمل طبيبًا في البلاط مع خمسة سلاطين متوالين.

(١٢) تبولن الدم Uraemia. (المترجِم)

(١٣) سوف تُعرَّف مودون Modone وكورون Corone من الآن فصاعدًا بأسمائها اليونانية.

(١٤) جرَّاح أمريكي كان قد جاء إلى اليونان في وقت سابق من ذلك العام، وهو زوج جوليا وورد هاو Julia Ward Howe مؤلِّفة كتاب The Battle Hymn of the Republic «بأمِّ عيني رأيت المجد ...» ...

(١٥) انظر الهامش رقم ١٠. (المترجِم)

(١٦) لعل من الأوقع عكس الحكمين.

(١٧) بِيبةُ تدخينٍ تركيةٌ طويلة. (المترجِم)

(١٨) كان أن ظلَّت المنطقة شمالي خط آرتا-فولوس جزءًا من الإمبراطورية العثمانية حتى مايو ١٩١٣م بعد حرب البلقان الأولى.

الفصل السادس والعشرون

محمد علي وشمال أفريقيا

- مؤتمر لندن: ١٨٤٠م.
- الفرنسيون في شمال أفريقيا.
- مراكش.
- ليبيا.

* * *

كان السلطان العثماني محمود الثاني يستحق أكثرَ مما حصل عليه. كان — من جوانبَ كثيرة — حاكمًا ومصلحًا مستنيرًا، فعل كلَّ ما يستطيع لتحديث إمبراطوريته الهرمة. في ١٨٢٦م، كان أن تخلَّص من الإنكشارية (الذين كانوا على مدى خمسمائة عام، القوةَ العسكرية الممتازة للإمبراطورية، ولكنهم أصبحوا كثيري التمرُّد)، وذلك بالأسلوب البسيط. قتلهم جميعًا. كَوَّن محمود جيشًا جديدًا تحت قيادته المباشرة جاء له بمدرِّبين ألمان، وأنشأ مدرسةً عسكرية على غرار مدرسة نابوليون «Saint-Cyr»، ضرب سلطةَ علماء الدِّين وجرَّدهم من مسئولياتهم غير الدينية؛ نظَّم الخدمة المدنية وبسَّط إجراءاتها إلى حدٍّ بعيد؛ أدخل أساليبَ جديدة في التعليم، بدأ خدمةً بريدية، كما أنشأ أول جريدة باللغة التركية في إسطنبول؛ أنشأ مدرسةً للطب وسنَّ قوانين جديدة للصحة العامة؛ وأخيرًا، وربما آسفًا، ألغى الزيَّ التركي القديم فاختفت الأردية الطويلة والعمائم والسراويل المنتفخة والشباشب الخفيفة، وظهر الطربوش والسترة الفراك والبنطلون الأوروبي والحذاء الجلدي الأسود.

كان أمرًا محزنًا له في الواقع أن تشهد فترةُ حكمه خسارةَ بحريته وضياع جنوب اليونان ومناطقَ كثيرة من الأراضي العثمانية السابقة، ثم يكون عليه أن يتصدَّى لتلك الشوكة الدائمة في خاصرته ... نقصد محمد علي، في القاهرة. كان محمد علي يتوقَّع أن

يكون حاكمًا على سوريا، مكافأةً له على تدخُّله في البيلوبونيز، ولكن محمود أعطاه كريت، وهو ما كان واليه يعتبره غير كافٍ. لذلك، أرسل محمد علي ابنَه إبراهيم بجيش جرَّار إلى سوريا في ربيع ١٨٣٢م، مع تعليماتٍ باحتلالها بالقوة. نفَّذ إبراهيم الأمرَ حرفيًّا. سقطت غزة، والقدس، وبعد حصار قصير سقطت عكا … وبعد ذلك زحف إبراهيم شمالًا صوب دمشق وحلب … ثم قاد جيشه عبْر الأناضول حتى بات يهدِّد إسطنبول نفسَها.

عندما وجد السلطان عاصمتَه مهدَّدة وفي حالة ذعر، استغاث بلندن، ولمَّا لم يُبدِ وزير الخارجية البريطاني «لورد بالمرستون Lord Palmerston» اهتمامًا بالأمر، لم يكن أمامه سوى أن يلجأ إلى روسيا … عدوِّه القديم. لم يكن «القيصر نيكولاس Tsar Nicholas»، المستعد دائمًا للتدخُّل في الشئون التركية، يتمنى أكثرَ من ذلك، فقام في أوائل ١٨٣٣م بإنزال قوة من ثمانية آلاف جندي في «سكوتاري Scutari» على البوسفور أمام إسطنبول. في مواجهةِ قوة كتلك، كان إبراهيم يعرف أنه لا توجد فرصةٌ أمامه، وعليه كان من الحكمة أن يقبلَ التفاوض. في ذلك الوقت، كان بالمرستون قد تنبَّه لخطورة الموقف وكذلك الحكومة الفرنسية، فقامت الحكومتان معًا (البريطانية والفرنسية) بإقناع الباب العالي بالإصرار على انسحاب الروس مقابل بعض التنازلات. تم تثبيت محمد علي حاكمًا على مصر، والآن أضيفت إليها سوريا، التي كانت تضم دمشق وطرابلس وحلب وأضنة. في الوقت نفسِه — ولكن بموجب اتفاقية منفصلة — عقَد السلطان محمود معاهدةَ هجوم ودفاع مع روسيا، يمنح بندٌ سريٌّ فيها السفنَ الحربية الروسية حقَّ المرور من البحر الأسود إلى البحر الأبيض عبْر المضايق، وهي ميزة لم تكن متاحة لأيٍّ من القوى الأجنبية الأخرى دون موافقة تركيا.[١]

هكذا استطاع السلطان أن يتجنَّب الأخطار الروسية والمصرية، إلا أن التكلفة كانت باهظة. كان محمد علي قد أصبح خَصمًا خطرًا بعد أن أصبح الحوض الجنوبي الشرقي من البحر الأبيض بكاملِه تحت سيطرته، وبالرغم من أن سوريا كانت قد مُنِحت له طول حياته فحسب، فإن السلطان محمود كان يعرف جيدًا أنه كان ينوي أن يحوِّل ممتلكاته إلى ما سوف يصبح ملكيةً وراثية مستقلة. بعد خمس سنوات سيتضح أنه كان محقًّا، عندما رفض محمد علي في ١٨٣٨م أن يدفع الجزيةَ السنوية للباب العالي. انتهز السلطان الفرصةَ وأعلن الحرب في العام التالي؛ إذ أرسل جيشًا من أربعة وعشرين ألف مقاتل يعاونه أسطولٌ إلى سوريا بأوامرَ واضحة: طرد المصريين من هناك مرةً أخرى وإلى الأبد.

كانت النتيجة كارثيةً من وجهةِ نظره. في الرابع والعشرين من يونيو، استطاع جيشُ إبراهيم — بالرغم من أنه كان أقلَّ عددًا — أن يهزمَ قوات السلطان عند «نيزيب Nezib»

في شمال سوريا. كان بفضل الرشوة المصرية، أن فرَّ عددٌ كبير من الجنود الأتراك من الخدمة، بينما قام قائد الأسطول — لنفس السببِ تقريبًا — بالذهاب إلى الإسكندرية مباشرة، وسلَّم الأسطول لمحمد علي. كان ذلك يوم الأول من يوليو ١٨٣٩م، يومَ وفاة السلطان محمود في إسطنبول. لم يتحرَّك الفرنسيون، الذين كانوا يعرفون أن مصلحتهم مع مصر، ولم يتخذوا أيَّ إجراء، إلا أن القوى الأخرى أصابها الرعب. في الخامس عشر من يوليو ١٨٤٠م، عُقد مؤتمر في لندن ترأسه بالمرستون، وشاركت فيه النمسا وبروسيا، وجَّه إنذارًا لمحمد علي بضرورة سحبِ قوَّاته من شمال سوريا وكريت وإعادة الأسطول التركي إلى إسطنبول. إذا نفَّذ ذلك، فسيكون له ولورثته من بعده حكمُ مصر، وحكم جنوب سوريا طوال حياته فحسب، أما في حال الرفض، فسوف تقوم الأساطيل البريطانية والروسية بمحاصرة كلٍّ من مصر وسوريا.

على أملِ تلقي مساعدة كبيرة من فرنسا — غني عن القول أنها لم تكن مؤكَّدة — رفض محمد علي الإنذار، وكان البريطانيون عند كلمتهم. في ذلك الخريف ذاته، قامت فرقةٌ بريطانية بقيادة الكابتن «تشارلز نابير Charles Napier» بقصفِ قلاع بيروت وعكا وتدميرها، بل وقامت بإبرار قوةٍ تحت قيادة نابير كذلك، تمكَّنت بسهولة بمساعدة العرب — الذين كانوا قد عانوا الأمرَّين تحت حكم محمد علي — من أن توقِع الهزيمةَ بجيش محمد علي المحتل في معركة «بوهارسف Boharsef» (أحد انتصارات البحرية الملكية غير المهمة)؛ غضب الفرنسيون بسببِ ما اعتبروه عدوانًا غيرَ مبرَّر وهدَّدوا بالحرب، إلا أن أحدًا لم يأخذهم على محملِ الجِد؛ وكما أشار الملك لويس-فيليب نفسُه فيما بعد، كان هناك فرقٌ شاسع بين التلويح بالحرب والقيام بها. بعد ذلك أبحرَ نابير إلى الإسكندرية التي كان يمكن أن تلقى مصيرَ الميناءين السوريَّين، لولا أن محمد علي وافق على التفاوض. أعاد الأسطولَ التركي إلى إسطنبول، واستأنف دفْعَ الجزية للسلطان، وانسحب كليةً من سوريا وكريت.

عاش ذلك العجوز الشرس حتى العام ١٨٤٩م ليموت في الثمانين. كان حاكمًا وراثيًّا على مصر والسودان، ولكن تحت السلطة العثمانية العليا، ولم يقُم بأي محاولاتٍ أخرى للتوسُّع الإقليمي. كان رجلًا شديدَ الذكاء و— كما يقال — صاحبَ شخصية ساحرة. كان قويًّا وعلى درجةٍ كبيرة من الكفاءة: لا شك أن حكمَه أحدَث تحسنًا كبيرًا عما كان عليه الأمر من قبل؛ ولكنه لم يكن متعلمًا، ولم يكن لديه رؤية سياسية حقيقية ولا أيديولوجية. كان يحكم بحسب المبادئ العثمانية، ورغم أنه مضى قُدمًا نحو صُنْع مجتمع جديد أكثر

تقدُّمًا، فإن الكثير من وقته كان مكرَّسًا لتثبيت سلطانه ومقاومة المحاولات المتكررة من قِبَل السلاطين المتوالين للتخلُّص منه. كان ناجحًا في ذلك أيَّما نجاح. استمرَّت الأسرة التي أسَّسها أكثرَ من مائة عام (حتى منتصف القرن العشرين)، وإذا كان قد أضاع الفرصةَ لوضعِ أسسِ دولة مصرية حديثة، فإنه — على الأقل — مهَّد الطريقَ أمام مَن خلفوه؛ وإذا كانوا قد فشِلوا هم كذلك، فمن الصعب أن نعزوَ هذا الفشل إليه.

في أحدِ أيام شهر أبريل من عام ١٨٢٧م، ضرب داي[٢] الجزائر — حسين — غاضبًا القنصلَ الفرنسي بمِذبَّته ثلاث مرات. مستاءةً لإهانة ممثِّلها الرسمي أرسلت الحكومةُ الفرنسية مجموعةً بحرية إلى المدينة مُطالِبةً بالاعتذار والتعويض، وعندما رفض الباي، تم وضْعُ القنصل والرعايا الفرنسيِّين على السفن، ومحاصرة الجزائر. بعد ذلك، نزلت حملةٌ عسكرية في يوليو ١٨٣٠م، في «سيدي فروش Sidi Ferruch»، الواقعةِ على بُعد عشرين ميلًا غربي الجزائر تقريبًا، في الوقت الذي كانت المدينة نفسُها تحت قصفٍ قوي من البحر. بعد أسابيعَ قليلة سقطت المدينة ونُفي الداي وبدأ احتلال الجزائر.

إلا أن الأمرَ لم يستتبَّ للمحتلين. نَشِب القتال في الداخل اعتبارًا من ١٨٣٢م تحت قيادةِ زعيمٍ للمقاومة كان في الخامسة والعشرين من عمره، يُدعى عبد القادر، ليستمرَّ نحو خمسةَ عشر عامًا؛ ولكن عندما استسلم عبد القادر للمارشال توماس-روبرت بوجو Thomas-Robert Bugeaud في ١٨٤٧م، كان المستعمِرون الفرنسيون يتدفَّقون على الجزائر. في ١٨٤١م كان هناك منهم بالفعل أكثرُ من سبعة وثلاثين ألفًا، وقبل نهاية القرن كانوا قد أصبحوا يمثِّلون نحو عشرة في المائة تقريبًا من عدد السكان. كانت الجزائر، كما وجدوها، مكانًا مريحًا للإقامة، والحقيقة أن شعوبًا أخرى كثيرةً كانت قد فعلت ذلك من قَبلهم: القرطاجنيون والرمان والبيزنطيون والعرب والأتراك. كانت قوة القراصنة البربر قد زادت لدرجةِ أن أصبحوا بالفعل سادةَ البلاد، رغم أنهم لم يحكموها ... إذ إنهم لم يحاولوا. أما الذي لا خلافَ عليه، فهو أن الجزائر تحت الجيش الفرنسي والدواوين العربية التي أنشأها بوجو، كانت تُدار على نحوٍ أكثرَ كفاءة وأكثرَ إنصافًا مما كانت عليه على مدى قرون سابقة.

على امتداد الساحل وفي الجبال الشمالية يسود طقسٌ متوسطي؛ حيث يكون دافئًا جافًّا في الصيف، وممطرًا معتدلًا في الشتاء. قبل مجيء الفرنسيِّين، لم تكن البلاد بعيدةً عن المدنية — ففي ١٨٣٤م كان جنرال فرنسي قد لاحظ أن الأمية لم تكن سائدة، كانت

هناك مدرستان في كل قرية — وبالرغم من أنها كانت تحت السيادة العثمانية، فإن حكوماتها المتوالية لم تعرف الاستقرار. من بين أسلاف الداي الثمانية والعشرين، كان أكثرُ من النصف قد قُتل. لم تكن حقوق الملكية واضحة، ولم يكن ذلك مهمًّا بالنسبة للفرنسيِّين، وعندما تكلَّم بوجو أمام الجمعية الوطنية في ١٨٤٠م، عبَّر عن رأيه بكل وضوح قائلًا: «حيثما يوجد ماء عذبٌ وأرض خصبة علينا أن نضعَ مستوطنين دون أن نشغلَ أنفسنا بمَن يملك تلك الأراضي». من ناحيةٍ أخرى، كان هناك نحو مليون هكتار (حوالي أربعة آلاف ميل مربع) مملوكة للحكومة العثمانية، وممكن أن نقول إن الفرنسيِّين ورثوها، إلى جانبِ مساحاتٍ أخرى تم الاستيلاء عليها، إما لأنها كانت متروكة دون زراعة، أو نتيجة لمخالفات المُلاك السابقين.

في بدايته، كان حكم بوجو يتسم بقدْرٍ من الدكتاتورية وقليل من التفاهم بين الحكام والمحكومين، وبالتدريج أصبحت توجُّهات الفرنسيِّين أكثرَ استنارة. بعد وقتٍ قصير من تأسيس الجمهورية الثانية في ١٨٥٢م، كان نابوليون الثالث يقول، إنه بينما كان يأمُل في أن يحافظ على عددِ الفرنسيين المتزايد على الجزائر الفرنسية، لا بد من التذكُّر دائمًا أن واجب فرنسا الأول كان إزاء الثلاثة الملايين عربي من سكانها؛ فالجزائر «لم تكن إقليمًا فرنسيًّا، وإنما هي بلدٌ عربي ومستعمَرة أوروبية ومعسكر فرنسي». على أية حال، كان أن استمرَّ الحكم الفرنسي إلى ما بعد سقوط الجمهورية الثانية في ١٨٧٠م. قبل ذلك الوقت، كان «الحاكم العام Governor General» — وهو اللقب الذي مُنح لأول مرة لـ «بوجو» — يُمنح دائمًا لضابط كبير في الجيش. في عام ١٨٧٠م فحسب، كان أن بلغ عدد المستوطنين نحوَ مائتي ألف جندي مزارع Colons، وأصبحوا مصرِّين على فرض المزيد من السيطرة على شئونهم مثل أقرانهم في مناطقِ البحر الأبيض الأخرى. كانت الجزائر قد تم ضمُّها رسميًّا لتصبح جزءًا لا يتجزأ من فرنسا نفسِها، وكانت تُحْكَم من خلال وزير الداخلية الفرنسي.

لهذا السبب كان وضْعُ الجزائر مختلفًا بالضرورةِ عن أوضاع جيرانها من ناحية الشرق والغرب؛ أي تونس ومراكش. هنا كذلك، كان النفوذ الفرنسي قويًّا؛ ولكن حيث إن الهجرة كانت قليلة نسبيًّا هناك، كان هذان البلدان يُعتبران مجرَّد محمياتٍ تتولَّى شئونهما وزارةُ الخارجية الفرنسية. كذلك، كانت تونس، من الناحية العملية، ولايةً عثمانية رغم تمتُّعها بحكمٍ ذاتي مستقل. عندما احتل الفرنسيون الجزائر في ١٨٣٠م، قَبِل باي تونس الحاكمُ آنذاك — وإنْ بحذرٍ شديد — التطميناتِ الفرنسيةَ بعدم التدخُّل، ولكن في

سنة ١٨٣٥م انتهزت الإمبراطورية العثمانية فرصةَ الصراع على الخلافة في ليبيا المجاورة، وأزاحت الأسرةَ الحاكمة هناك، وأعادت تثبيتَ حكمٍ عثماني مباشرةً. من هنا، وجدت تونس نفسَها في وضعٍ حرِج، محصورة بين قوتين كبريين: فرنسا وتركيا، وكلتاهما تنظر إليها بنَهم. حتى سنة ١٨٨١م، كانت فرنسا تقوم بدورٍ متوازن، ثم بذريعةِ أن عددًا من رجال القبائل التونسية كانوا قد ذهبوا للاستقرار في الأراضي الجزائرية، قامت بغزو البلاد، ونقلت سلطات الباي الخاصة بالشئون المالية والشئون الخارجية إلى فرنسا، وعيَّنت وزيرًا فرنسيًّا مقيمًا.

سلطنة مراكش — البلد الوحيد في شمال أفريقيا الذي يطل على البحر الأبيض والمحيط الأطلنطي — كان وضعها مختلفًا مرةً أخرى. بسبب قلة الموانئ الطبيعية لديها، وطبيعتها الجبلية، والمسافة الشاسعة التي تفصلها عن المراكز الكبرى في الشرق، كانت ما تزال في منتصف القرن التاسع عشر ... معزولةً إلى حدٍّ كبير. كانت تلك العزلة — التي شجَّع عليها حكامٌ متوالون — هي التي مكَّنتها بدايةً من أن تحافظ (إلى درجةٍ كبيرة لم تكن ممكنة في أماكنَ أخرى) على تراثها الإسلامي والبربري والأفريقي؛ كما مكَّنتها، ثانيًا، من مقاومة الضغوط الخارجية وبخاصة ضغوط حروب الاسترداد الإسبانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر؛ وهكذا تظل مراكش البلدَ العربي الوحيد الذي لم يحدُث أن كان جزءًا من الإمبراطورية العثمانية التي حكَمت باقي دول العالم العربي الأخرى.

لم يكن بالإمكان تجاهُل وصولِ الفرنسيِّين إلى الجزائر المجاورة. تدهورت العلاقات بشدة في ١٨٤٤م، بعد أن لجأ الثائر عبد القادر إلى مراكش، ودفع السلطان بجيش إلى الحدود. ردَّ الفرنسيون بقصف «طنجة Tangier» في أوائل أغسطس، ثم «موجادور Mogador» بعد عشرة أيام، وفي الرابع عشر من الشهر كانوا قد دمَّروا جيشَ السلطان مولاي عبد الرحمن في «إسلي Isli» بالقرب من «أوجدا Oujda» كان السلطان مجبرًا، بين أشياءَ أخرى، على تقديم وعدٍ باعتقال عبد القادر في حال دخوله أراضي مراكش مرةً أخرى. كان عند كلمته؛ ففي ١٨٤٧م، عندما حاول عبد القادر اللجوءَ مرةً أخرى، ألقت القوات المراكشية القبضَ عليه وأجبرته على الاستسلام، ومن دواعي الارتياح القول إن الفرنسيِّين كانوا رحماء به؛ فقد أمضى بقيةَ حياته في منفًى كريم في دمشق.

بموت السلطان في ١٨٥٩م، سيتحوَّل تسليط الضوء لفترة قصيرة إلى إسبانيا، وسيواكب ذلك نزاع حاد حول حدود الأراضي الإسبانية المحاطة بأرض أجنبية في سبتة Ceuta.[٣] انتهى ذلك بإعلان مدريد الحربَ، واستيلاء إسبانيا على تطوان Tetouan في

العام التالي، واضطُر السلطان إلى الموافقةِ على تعويضٍ كبير وزيادة كبيرة في حجم أراضي سبتة. في الوقت نفسِه كان البريطانيون والإيطاليون يأمُلون في الحصول على نصيبهم من الكعكة المراكشية، ولكن الرشوة الفرنسية كانت جاهزة، فوافقت بريطانيا على إطلاقِ يدِ الفرنسيِّين هناك مقابل تعهُّد بعدم التدخل في خططها في مصر، بينما فعلت إيطاليا الشيء نفسَه فيما يتعلَّق بليبيا. في ١٨٨٠م وقَّع البريطانيون والفرنسيون والإسبان والألمان والإيطاليون والأمريكان، وقَّعوا اتفاقًا في مدريد — كان نظريًّا على الأقل — يضمن استقلالَ مراكش، ولكن ذلك لم يمنع فرنسا من توقيع اتفاقية سرية مع إسبانيا — بتواطؤ تام مع بريطانيا — على «مناطق نفوذ» لكلتيهما في البلاد. كان ذلك هو الوضع، عندما وصل القيصر ولهلم الثاني Kaiser Wilhelm II إلى طنجة في نهاية مارس ١٩٠٥م على الباخرة هامبورج Hamburg، وكعادته ... أطلق القطَّ بين الحمام! في ردِّه على كلمات الترحيب، أعلن تأييده: أولًا، لسيادة السلطان الكاملة واستقلاله، وثانيًا لوحدة أراضي مملكته، وثالثًا لـ «مراكش مفتوحة للمنافسة السلمية أمام كل الدول دون ضم أو احتكار».

كان ذلك كلُّه يبدو أمرًا محمودًا أو غيرَ ضارٍّ، ولكنه كان في الوقت نفسه بالنسبة للقوى الأوروبية، محاولةٌ صريحة لوضع عصًا في العجلة الفرنسية ... وكذلك في العجلة الإسبانية، وإن بدرجةٍ أقلَّ. في العام السابق، كان القيصر قد اقترح بأن تقوم ألمانيا باستئجار «بورت ماهون Port Mahon» (في مينوركا) من إسبانيا، وهي الفكرة التي قوبلت ببرودٍ من كلٍّ من فرنسا وبريطانيا؛ حيث إن الجزيرة كانت في موقعٍ يجعلها تتحكَّم في طرقِ الوصول إلى طولون، كما أنها تقع على خطٍّ مباشر بين القاعدتَين البريطانيتَين المهمتَين في مالطة وجبل طارق. كان آخر شيء تريده الدولتان هو أن يتدخَّل ولهلم مرةً أخرى في شئون غرب المتوسط. في آخرِ الأمر، تم بحثُ القضية كلِّها بالتفصيل، ويبدو أنه كان قد تم حلُّها بشكلٍ مُرضٍ في ١٩٠٦م، عندما دُعي لاجتماع الموقِّعين على اتفاقية ١٨٨٠م في «الجيسيراز Algeciras» لمناقشةِ المسألة المراكشية برُمَّتها. أكَّد ذلك الاجتماع وحدةَ أراضي البلاد والمساواةَ الاقتصادية بين القوى، ولكنه أقرَّ إشرافَ فرنسا وإسبانيا على الموانئ المراكشية، والقيامَ بمهامِّ الشرطة بها، وتحصيل الضرائب الجمركية.

حتى آنذاك لم تكن القصة قد انتهت تمامًا؛ ففي ١٩٠٧م قامت فرنسا (المتلهِّفة دائمًا على زيادة نفوذها في شمال أفريقيا) باحتلال كازابلانكا (الدار البيضاء Casablanca)؛ وعندئذٍ قام عبد الحافظ، شقيق السلطان عبد العزيز بقيادةِ تمرُّد عليه، متهمًا إياه بخيانةِ الأعراف الإسلامية. لجأ عبد العزيز إلى طنجة بينما أُعلن عبد الحافظ سلطانًا في

فاس Fez. اعترفت به القوى الأوروبية في العام التالي، إلا أنه لم يقُم بأي محاولة لفرضِ النظام في أرجاء البلاد، وفي آخرِ الأمر، اضطُر مع تزايد الفوضى لطلبِ مساعدة فرنسا. كانت النتيجة اتفاقيةَ فاس في ١٩١٢م، التي أصبحت مراكش بموجبها محميةً فرنسية؛ أما طنجة التي طالما كانت مقرًّا للبعثات الدبلوماسية الأوروبية، فوضعت تحت إدارةٍ منفصلة.

وأخيرًا، كلمة عن ليبيا. أي زائر لذلك البلد سيفاجأ بجغرافيته غير العادية. في الغرب؛ حيث طرابلس العاصمة — توجد «تريبوليتانيا Tripolitania»، التي ينتابك فيها الشعور بأجواءِ روما القديمة وبخاصة في مواقع مثل «ليبتس ماجنا Leptis Magna» أو «سابراتا Sabrata»، وفي الشرق توجد «كيرينايكا Cyrenaica» (مركز بنغازي) التي تعيدنا على الفور إلى عالَم اليونان القديمة، وبخاصة في أماكنَ مثل «أبولونيا Apollonia» وكايرين Cyrene وغيرها. بين تريبوليتانيا وكيرينايكا نحو ستمائة أو سبعمائة ميلٍ خالية من أي شيء، ما عدا بلدةَ سرت Sirte الصغيرةَ التي تقع في منتصف المسافة. هذه البلاد ظلَّت متحدة بسبب عاملين؛ طائفة السنوسية الذين يدعون إلى شكلٍ تطهريٍّ من الإسلام — رغم أن ذلك كان مُركَّزًا إلى حدٍّ كبير في كيرينايكا — ثم الاستعمار الإيطالي.[٤] مثل جيرانها، كانت ليبيا مستقلةً بذاتها تقريبًا، رغم أنها كانت تحت حكمٍ تركي اسمي، إلى أن استغلَّت الإمبراطورية العثمانية أحدَ الصراعات التي لا نهايةَ لها حول الخلافة، في سنة ١٨٣٥م، لكي تعيد فرْضَ حكمٍ مباشر عليها. على مدى سبع وسبعين سنة تالية، سيكون موظفون مدنيون من إسطنبول هم الذيم يديرون شئون البلاد، إلى أن تتولى إيطاليا الأمر، وتعطيها اسمَها (ليبيا)، وتحكمها إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

هوامش

(١) هي معاهدة يونيكار – سكيليسي Unikar-Skelessi التي لا نعرف عنها الكثير لأنها لم تعِش طويلًا. في يوليو ١٨٤١م ضمِنت القوى الاستقلال العثماني وأعلنت البوسفورَ والدردنيل مناطقَ مغلقة أمام كل الدول في فترة السِّلم.

(٢) الـ «داي Dey» كلمةٌ تركية بمعنى الخال، وقد أُنشئ المنصب في ١٦٧١م. في السنوات لأولى كان الداي يُنتخب بواسطة القراصنة، وكان يتولَّى واجبات الباشا المعيَّن من قِبل السلطان العثماني، وكان هو الذي يعيِّن البكوات رؤساء للمحليات.

(٣) أصبح هذا الميناء الحرُّ على ساحل مراكش مستقلًّا لأول مرة على أيام البيزنطيِّين، ولكنَّ ملكيته كانت باستمرار محلَّ خلاف لأهميته كمركز لتجارة العاج والذهب والعبيد. في ١٤١٥م سيطرت عليه البرتغال ثم انتقلت السيطرة إلى إسبانيا في ١٥٨٠م، وفي ١٦٨٨م قنَّنت اتفاقيةُ لشبونة تبعيتَه لها. أما بالنسبة لـ «مليلة Melilla» القريبة منها، فقد كانت دائمًا إسبانية، ولم تكن أبدًا جزءًا من الأراضي المراكشية.

(٤) انظر الفصل الحادي والثلاثين: حروب البلقان.

الفصل السابع والعشرون

الـ«كوارانتوتو» The Quarantotto

- صقلية مستقلة: ١٨٤٨م.
- مانن وتوماسيو: ١٨٤٨م.
- فيفا سان ماركوا:١٨٤٨م.
- دستور من أجل روما: ١٨٤٨م.
- فينيسيا تُواصل القتال: ١٨٤٨م.

* * *

عندما ثار شعب باليرمو في الثاني عشر من يناير ١٨٨٤م — يوم عيد الميلاد الثامن والثلاثين للملك فرديناند الثاني —[١] على حكامهم البوربون، لم يكن لديهم أيُّ فكرة عن العمل الذي شرعوا فيه. لم تكن الانتفاضاتُ شيئًا جديدًا على المملكة: كانت قد سبقت ثورة يناير انتفاضاتٌ فاشلة في نابولي (١٨٢٠م) وفي بيدمونت (١٨٢١م)، كما كانت صقلية نفسُها قد شهِدت انتفاضةً في ١٨٣٧م على إثرِ وباء الكوليرا في أولِ ظهور للمرض في أوروبا الغربية؛ إلا أنه كان من السهل — نسبيًّا — التعامُل مع مظاهر الغضب الناجمة عن ذلك. ما حدَث في ١٨٤٨م أو الكوارانتوتو[٢] كما تتذكَّرها إيطاليا، كان شيئًا مختلفًا. كان ثورة، وبحلول آخرِ العام كانت قد تبِعتها ثوراتٌ أخرى: في باريس وفيينا ونابولي وروما وفينيسيا ولوكا وبارما ومودينا وبرلين وميلان وكراكاو ووارسو وبودابست.

مع مطلع العام، كانت مظاهراتُ الطلاب قد أجبرت السلطات على إغلاق الجامعة، كما كان قد تم القبضُ على أعدادٍ كبيرة من المواطنين المعروفين بتوجُّهاتهم الليبرالية، كما تم توزيعُ منشور بدون توقيعٍ يدعو الناس للثورة يومَ عيد ميلاد الملك. كان عددٌ كبير من الثوار من لصوص الجبال وقُطَّاع الطريق — أسلاف مافيا هذه الأيام — أو من المزارعين

البسطاء. كان قليلٌ منهم لديهم فكرةٌ عما يناضلون من أجله، بصرفِ النظر عن التطلُّع إلى حياةٍ أفضلَ بشكلٍ عام، إلا أنهم كانوا يناضلون بضراوة. كان الدمار قد أصاب الكثيرَ من القرى والبلدات الصغيرة والكثيرَ من المناطق الريفية.

كان للبوربون قواتٌ قوامها نحو سبعة آلاف جندي في حاميةٍ باليرمو، إلا أنها كانت بلا فائدة. كانت وسائل الاتصال رديئةً والطرق سيئة، ومن الصعب الوصولُ إلى الأماكن في الحال. عندما شعروا باليأس، قرَّروا أن يقصفوا المدينة، وهو القرار الذي سيندمون عليه بعد قليل.[٣]

انقضَّ الدهماء على القصر الملكي فنهبوه — إلا أنهم، والحمد لله، أبقَوا على كنيسة البلاط الصغيرة — وأضرموا النارَ في سجلات الدولة وأرشيفاتها. تراجعت الحامية ثم عادت مسرعةً إلى نابولي. في الأيام التالية شُكِّلت لجنةٌ حكومية برئاسة روجيرو سيتيمو Ruggero Settimo الوطني الصقلي البالغِ من العمر سبعين عامًا (ووزير البحرية السابق في نابولي)، وفي الوقت نفسِه كانت الثورة قد انتشرت في كل المدن الرئيسية، ما عدا مسيني التي نأت بنفسها حقدًا على باليرمو، وفي نحوِ مائة قرية؛ حيث كان دعمُ المزارعين قد تأكَّد بوعودٍ بمنحهم أراضيَ زراعية. لم تواجه الثورة أيةَ مقاومة تستحق الذكر.

بنهاية الشهر، كانت المدينة قد أصبحت خاليةً من القوات الملكية، وفي الخامس من فبراير أعلن سيتيمو أن «شرور الحرب انتهت، وأن عهدًا من السعادة يبدأ الآن في صقلية». فاته أن يذكر أن قلعةَ مسيني كانت ما تزال في أيدي النابوليِّين، إلا أنه كان من الواضح بالنسبة للملك فرديناند أن ظهره كان للحائط. وبسبب المظاهرات المستمرة في نابولي على النموذج الصقلي، عرضَ منْحَ جزئَي مملكتِه دستورًا ليبراليًّا، ينهض بأعباء مجلسَين تشريعيَّين وقدْرٍ من الحقوق. كتب السفير النمساوي الأمير شوارزنبيرج Prince Schwarzenberg، الذي أصابه الرعب، إلى رئيسة مترنخ Metternich يقول: «لقد فقدَ الملك ووزراؤه عقولَهم تمامًا.» أمَّا مترنخ فكتب على هامش الرسالة: «أتحدَّى أن يكون الوزراء قد فقدوا شيئًا لم يملكوه قطُّ.»

لا بد من أن تكون الأخبار التي وصلته في آخرِ فبراير قد أصابته بالمزيدِ من الحزن. في باريس، كان لويس فيليب «الملك المواطن»، قد تم إسقاطه عن العرش في الرابع والعشرين من فبراير، وأُعلنت الجمهورية. الآن كان الانهيار قد بدأ. كان فرديناند، الذي كان قد حقَّق قدرًا من الشعبية بعد عرضه منْحَ دستور، قد أصبح ممقوتًا أكثرَ من أي وقتٍ مضى؛ لم تَعُد الدساتير الليبرالية تكفي. في الوقت نفسه كان الصقليون قد رفضوا العرض، وأبلغوه،

دون مبالاة، بأن «صقلية لا تريد دساتيرَ جديدة، صقلية تريد استعادةَ حقوق كانت لها منذ قرون». أعلنوا عزْلَه في باليرمو، وبدلًا من عَلَم البوربون، كان هناك الآن العلم الثوري ذو الألوان الثلاثة، وذلك الشعار الغريب على شكل عجلة بدون إطار، وثلاث أرجل كأنها أشعةٌ خارجة منها.

الآن كانت صقليةُ مستقلة بحق، ولأول مرة منذ القرن الرابع عشر، المشكلة كانت في عدمِ وجود آلية لإدارة جيدة. انتشرت العصابات المسلَّحة على الجزيرة، كثرت حوادث الخطف والابتزاز، إلا أن ذلك كلَّه كان مجرد أعراض لمرضٍ أشدَّ ضراوة. بارت التجارة وزادت نسبةُ البطالة وانهار النظام القضائي. لم يَعُد عام ١٨٤٨م، بالنسبة لكثير من أهالي صقلية، عامَ الثورة؛ كان عامَ الدمار والفوضى.

قُرْب نهاية أغسطس، أرسل فرديناند قوةً برية-بحرية مشتركة بقيادة الفيلد مارشال «كارلو فيلانجييري Carlo Filangieri» لإعادة الهدوء للمدينة. ردَّ الثوار قتالًا بقتال؛ أما حقدُ القرون الكامن بين النابوليِّين والصقليِّين، فتفجَّر في أعمالٍ عِدائية بين الجانبين، لدرجةِ أن قادةَ البحر البريطانيِّين والفرنسيِّين الذين روَّعهم الدم المسفوح والوحشية في مياه صقلية، أقنعوا فرديناند بإعلانِ هدنةٍ لمدة ستة أشهر. كان يمكن أن تكون فرصةً للخروج من ذلك المأزق، إلا أن كلَّ عروض التسوية كان يتم رفضها على الفور. كانت النتيجة أن قام فيلانجييري بالاستيلاء على «تاورمينا Taormina» في الثاني من أبريل، وعلى كاتانيا في السابع من الشهر نفسِه، وفي الخامس عشر من مايو دخل باليرمو. بما يتَّصفون به من عدمِ كفاءة وفقدان لروح الاتحاد، وبسبب رفضهم لكل الحلول الوسط، كان الصقليون يقدِّمون نموذجًا لما يجب ألا يكون عليه طريقُ الثورة. كان جيرانهم اليونانيون قد أظهروا عيوبًا مشابهة، إلا أنهم كانوا يجدون دعمًا من القوى الغريبة. لم يحصُل الصقليون على شيء من ذلك ... ودفعوا الثَّمن.

رغم أن الثورة في فينيسيا كانت فاشلة هي الأخرى في آخرِ الأمر، فإنها كانت تُدار بثقةٍ ومهارةٍ أكثرَ. في يونيو ١٨٤٤م، كان ثلاثة من شباب الضباط الفينيسيِّين: الشقيقان أتيليو Attilio وإميليو Emilio بانديرا Bandiea، وصديقهما دومينيكو مورو Domenico Moro، كانوا قد أبحروا من كورفو قاصدين كالابريا للانضمام إلى حركةِ تمرُّد ضد بوربون نابولي. كانت رحلةً دونكيشوتية غريبة: لم يكونوا قد استعدوا لها على أي نحو، لم يتخذوا أيَّ تدابير وقائية، وتم إلقاءُ القبض عليهم في الحال. بعد شهرٍ تم إعدامهم

في وادي روفيتو Rovito بالقرب من كوسنزا Cosenza.[٤] كان لأخبار موتهم صدًى بالغُ الأثر في الرأي العام الإيطالي؛ فإذا كان ثلاثة من أبناء فينيسيا — ناهيك عن شهداءَ آخرين كثيرين من بيروجيا وريميني ومدنٍ أخرى — على استعداد للموت من أجل نابولي، فإن الوحدةَ الإيطالية في آخرِ الأمر لا بد من أن تكون أكثرَ من حُلم أجوفَ، كان يبدو ألا يكون موت أولئك الأبطال ضربًا من العبث. كان هناك الآن اتفاقٌ عامٌّ في فينيسيا على أن اللحظةَ قد حانت، لكي يتكلم كلُّ أهالي المدينة بصوتٍ واحد، وكان ذلك هو صوت دانييل مانن Daniele Manin.

مانن من مواليد فينيسيا في الثالث عشر من مايو ١٤٠٨م، وكان أبوه اليهودي قد تحوَّل إلى المسيحية في شبابه، واتَّخذ لنفسه اسمَ أبيه بالمعمودية، بيترو مانن Pietro Manin — شقيقِ لودوفيكو Ludovico، الدوج الأخير. عازمًا على أن يكون محاميًا مثل أبيه، كان دانييل قد نشر أولَ عمل له، وهو رسالة عن الوصايا Wills في سنِّ الثانية عشرة. عندما حصل على درجةِ الدكتوراه من جامعةِ بادوا وهو في الحادي والعشرين، كان لديه إلمامٌ جيد باللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسية والألمانية، إلى جانب الإيطالية، وفينيسيته الوطنية. كان كما أنشأه والده قد تشرَّب أفكاره الجمهورية والليبرالية، كما كان ناشطًا سياسيًّا على مدى نحو ستة عشر عامًا، عندما بدأ ما أُطلق عليه نضاله القانوني lotta legale، مع نمو الوعي القومي في إيطاليا في ١٨٤٧م ضد الاستبداد النمساوي. في تلك المرحلة، لم يكن يطالب بالاستقلال الكامل لفينيسيا، وإنما مجرد الحكم الذاتي تحت إمبراطورية الهابسبورج. وعندما تم رفضُ ذلك — كما كان يعرف جيدًا أنه سيحدُث — دعا أبناءَ وطنه لحمل السلاح.

جاءت أولى لحظات التحدِّي العلني في الثلاثين من ديسمبر ١٨٤٧م، عندما ألقى الأكاديمي المتميز نيكولو توماسيو Niccolò Tommaseo محاضرةً، كان موضوعها الظاهري «حالة الأدب الإيطالي»، بينما كانت في حقيقتها هجومًا مباشرًا على الرقابة النمساوية. في النهاية، قام بتمرير عريضة وقَّعها أكثرُ من ستمائة شخصية قيادية من فينيسيا وفينيتو، وكتعبير إضافي عن سخطِهم، اتَّبع أهالي فينيسيا النموذجَ الذي كان أهالي ميلان قد انتهجوه قبل أسابيع قليلة، وتوقَّفوا عن التدخين.[٥] كانوا كذلك قد أصروا على عدمِ التصفيق استحسانًا، للفرقة الموسيقية العسكرية النمساوية في الساحةِ العامة، وأصبحوا — من الآن — يغادرون المكانَ عندما تبدأ العزف. بعد أسبوع، أتبعَ مانن ذلك ميثاقًا من ست عشرة نقطة، يطالب فيه، بين أشياءَ أخرى، بحقوقٍ لجميع الإيطاليِّين تحت

الحكم النمساوي، وبحكومةٍ منفصلة في الشمال الإيطالي تكون مسئولة أمام الإمبراطور، وإلغاء الرقابة نهائيًّا، وكانت تلك هي القشة الأخيرة بالنسبة للسلطات الإمبراطورية. في الثامن عشر من يناير ١٨٤٨م، أُلقي القبضُ على مانن وتوماسيو وتم اقتيادهما إلى السِّجن المجاور لقصر الدوج. بمجرد أن عرفَ أهالي فينيسيا مكانهما، كانت الجماهير تتجمَّع يوميًّا في المكان في وقفةِ صمتٍ وإجلال لهما.

في أوائل مارس، ولدهشةِ الجميع تمَّت تبرئة الاثنين، إلا أن قائد الشرطة النمساوية صمَّم على استمرارِ احتجازهما في السِّجن. كانت غلطةً كارثية. تم إلغاء الكرنفال السنوي، وتولَّى المحامون من رفاقِ مانن تصريفَ أعماله دون أجر. بالرغم من ذلك، كان أهالي فينيسيا ما زالوا متردِّدين في اللجوء للسلاح؛ إذ كانوا يعرفون أن الجيشَ النمساوي في فينيسيا – لومبارديا، تحت قيادة المارشال جوزيف رادتسكي Joseph Radetzky[٦] (٨١ سنة) لم يكن يقل عن خمسة وسبعين ألف مقاتل. بعد ذلك، جاءت باخرة البريد من تريستا Trieste بأخبارٍ مفادُها أن فينيسيا كانت في حالةِ ثورة، وأن الثوار انتصروا، وأن الأمير المكروه متيرنخ كان قد فرَّ قبل أربعة أيام لينجوَ بحياته. بين عشية وضحاها تغيَّر الموقف؛ إذ عندما ذاعت الأخبار في المدينة، تدفَّقت الجماهير الحاشدة على مقرِّ الحاكم في الركن الجنوبي من الميدان الكبير وهم يهتفون: Fuori Manin e Tommaseo![٧] كان من الواضح أن أحدًا لن يستطيع الوقوفَ في طريق الشعب بعد ذلك.

في آخرِ الأمر، أطلَّ «الكونت بالفي Count Palffy» من النافذة، معلنًا أن ليس من سلطته إطلاقُ سراح السجناء، حتى وإن كان يريد ذلك. آنذاك، اندفعت الجماهير بقيادة «جيورجيو Giorgio» (١٦ سنة) ابنِ مانن، من الرواق إلى السِّجن، وراحوا بكل عنف يدقُّون الأبواب التي فُتحت في النهاية. أما دانييل مانن الذي لم يكن لينسى في كل الظروف أنه محامٍ، فكان من الطبيعي أن يرفض مغادرةَ المبنى دون قرار رسمي بذلك، وهو القرار الذي وقَّعه بالفي على عجل، بناءً على إلحاحٍ من زوجته التي كانت في حالةٍ شبه هستيرية. آنذاك، فحسب، ظهر هو وتوماسيو لتحمِله الجماهير على الأعناق إلى مقر الحكم. كانت الجماهير على وشْك أن تحطِّم الأبواب، ولكن مانن كبح جماحهم قائلًا: لا تنسوا أنه لا يمكن أن يكون هناك حرية حقيقية، أو أن الحرية يمكن أن تستمر إلا إذا كان هناك نظام. وبعد أن ساد الهدوء تركهم يحملونه إلى بيته.

إذا كانت استقالة متيرنخ وهروبه يوم الثالث عشر من مارس قد ألهمت إيطاليا لكي تعمل، إلا أنها تركت النمسا في حالةٍ من الفوضى. كانت الحكومة بلا ضابط أو رابط، والجيش مرتبكًا وغيرَ واثق من ولاءاته؛ وكان ذلك دون شك، مؤشرات للمتمردين والثوار في أرجاء إيطاليا. التمرُّد الكبير في ميلان، المعروفُ لكل الإيطاليِّين بـ «الأيام الخمسة من ١٨ إلى ٢٢ مارس cinque giornate»، أدَّى إلى طرد النمساويِّين من المدينة ونصَّب حكومةً جمهورية. في اليوم الأخير من تلك الأيام الخمسة، ظهر مقالٌ في الصفحة الأولى من جريدة «إلريزورجمنتو Il Riosorgimento» (البعث) في تورين Turin، بقلم رئيس التحرير الكونت كاميللو كافور Count Camillo Cavour، كتب: «دقَّت الساعة الحاسمة» و«هناك طريق واحد مفتوح أمام الأمة، أمام الحكومة، أمام الملك. الحرب!»

بعد يومين، أعلن ملِك سافوي، تشارلز ألبرت Charles Albert، من بيدمونت، استعدادَ بلاده لمنحِ دعمِها الكامل لفينيسيا – لومبارديا في الصراع القادم، بالإضافة إلى عزمِه القيامَ شخصيًّا بقيادة جيشه في المعركة. لسوء حظه، وبالرغم من قدرته على تعبئةِ نحو سبعين ألف جندي على الفور، لم تكن بيدمونت جاهزةً للحرب، لم يكن لدى جيشها كلِّه خريطةٌ واحدة لـ «لومبارديا»؛ ولسوء الحظ كذلك، أن الملِك لم يكن قائدًا عسكريًّا كفئًا — المؤكَّد أنه لم يكن ندًّا لـ «رادتسكي» العجوز الذي كان قد عرف قيادةَ الجيوش قبل أن يُولد تشارلز ألبرت.

من ناحيةٍ أخرى، بالرغم من أن المحصِّلة النهائية للأعمال العِدائية بين النمسا وبيدمونت كان لا بد من أن تكون نهايةً محتومة من وجهة النظر العسكرية، لا بد من أن يكون ردُّ فعل الدول الإيطالية الأخرى قد شجَّع الملك. أرسل الدوق الأكبر ليوبولد الثاني Leopold II، دوق توسكانيا، جيشًا على الفور، كان يضم قواتٍ نظامية ومتطوعين. الأكثر مدعاةً للدهشة، أنه كانت هناك استجابةٌ مماثلة من فرديناند ملِك نابولي، الذي أرسل قوةً من ستة عشر ألف جندي، بقيادة جنرال كبير من كالابريا يُدعى «ججليملو بيبي Guglielmo Pepe». ربما لم تكن تلك الإسهامات تعني شيئًا مهمًّا من الناحية الاستراتيجية، إلا أنها كشفت دون شك عن أن القضية كانت قضيةً إيطالية قومية؛ وبمجرد أن اتخذوا أماكنهم إلى جوار البيدمنتويين، كان الحكام زملاء تشارلز ألبرت يعتبرون أنفسَهم رفاقًا، وليس مجرد حلفاء.

وحدَه دانييل مانن، لم يدَّعِ أنه كان يحارب من أجل إيطاليا، كانت فينيسيا هي قضيته. قبل أشهرٍ قليلة، كان يمكن أن يستقبل الأخبار التي وصلت مساء إطلاق

سراحه من السِّجن على اعتبار أن الملِك وافق على مبدأ الحكومة الدستورية لـ «فينيسيا - لومبارديا»، إلا أن مثل ذلك العرض كان قد أصبح شيئًا قليلًا جدًّا ... ومتأخرًا جدًّا. كان مانن الآن مصرًّا على عدم الموافقة على ما هو أقلُّ من طردِ كل النمساويين من الأراضي الفينيسية. صباح يوم الثاني والعشرين من مارس — وهو يوم خُلِّدت ذكراه بإطلاقه على أهمِّ شارع تجاري في فينيسيا — قام هو ورجاله باحتلال الترسانة العسكرية دون مقاومة، وصادروا كلَّ ما بها من أسلحة وذخائر، ثم قام بعدُ على رأس موكبِ نصرٍ بالتوجُّه إلى الميدان الكبير ليعلن قيامَ جمهورية، منهيًا كلمتَه بصيحةٍ مدوية «فيفا سان ماركو» Viva San Marco!، كانت تلك أولَ مرة تُسمع فيها تلك العبارة علنًا على مدى أكثرِ من نصف القرن. في نفس الوقت، كان بالفي قد وقَّع مرسومَ استسلام، تاركًا السلطةَ الفعلية لـ «الحكومة المؤقتة التي سيتم تشكيلها»، ومتعهدًا بجلاءِ كل القوات النمساوية — دون أسلحتها — إلى تريستا Trieste.

مرةً أخرى، عادت فينيسيا جمهورية، إلا أنه كان من الواضح منذ الأيامِ الأولى أن الجمهورية كانت تواجه خطرًا قاتلًا. انسحب النمساويون لكنهم لم يُهزموا، كما أن الثورةَ كانت مقصورةً على المدن الرئيسية. كان راديتسكي يسيطر على معظمِ المناطق الريفية؛ وبعد سقوط «فيزنزا Vicenza» في العاشرِ من يونيو كانت كلُّ اليابسة الفينيسية قد عادت لأيدي النمساويين. لم تكن فينيسيا تتصوَّر أنها ستقف وحيدةً، وهكذا في الرابع من يوليو، صوَّت المجلس الفينيسي، الذي كان قد انتُخب حديثًا، للاندماج مع بيدمونت؛ حيث كان كافور ينادي، على نحوٍ أكثرَ إلحاحًا، بالوحدة الإيطالية. كان يومًا مأساويًّا بالنسبة لدانييل مانن، الذي سلَّم فورًا لحكومةٍ مؤقتة واعتزل الحياة العامة. (بعد عدة أيام شاهدوه يرتدي زيَّ جنديٍّ أثناء قيامه بالحراسة في الرواق). في الوقت نفسِه كان نحو ثلاثة آلاف جندي من قوات بيدمنتو قد سُمح لهم بالإقامة في المدينة، وكان ذلك بالنسبة لأهالي فينيسيا أمرًا سيئًا، وكأن النمساويين عادوا مرةً أخرى.

> «كل يوم يثبت البابا أنه شخصٌ يفتقر إلى الخبرة. كان قد وُلد ونشأ في أسرةٍ ليبرالية، وتعلَّم في مدرسةٍ سيئة، ولم يوجِّه عقله لشئون الحكم. ولأنه كان دافئَ القلب ضعيفَ العقل ترك نفسَه — منذ أن وضع التيرةَ على رأسه — لكي يرضخَ ويقع في شِراكٍ لم يَعُد يعرف كيف يخرج منها، وإذا مضت الأمور في مسارها الطبيعي، فسوف يُطرد من روما.»

العبارات النبوئية السابقة، كان قد كتبها الأمير مترنخ، السكرتير الأول في سفارة النمسا إلى سفيرةٍ في باريس في أكتوبر ١٨٤٧م. كان موضوعها هو جيوفاني ماريا ماستاي-فيريتي Giovanni Maria Mastai-Ferretti، أسقف أيمولا Imola سابقًا، ورئيس أساقفة سبوليتو Spoleto، الذي كان قد انتُخب في العام السابق — وهو في الرابعة والخمسين — ليكون البابا بيوس التاسع، بواسطةِ ليبرالي إيطالي، وكل أوروبا الغربية في الحقيقة، وكانت أخبار انتخابه مثيرةً ومبهجة. كان البابا الجديد يبدو واحدًا منهم؛ ففي أول شهرٍ له في المنصب، أصدر عفوًا عن أكثرَ من ألفٍ من السجناء السياسيِّين والمنفيِّين،[٨] وبعد أسابيعَ قليلةٍ كان يقيم احتفالاتٍ للجنسين في الهواء الطلْق في حديقة الكويرينال. في الوقت نفسِه شجَّع على قيامِ مشروعاتٍ للسكك الحديدية وإنارة شوارع روما بالغاز. أسَّس صحافةً حرة أو قريبة من ذلك، وبدأ إصلاحات التعرفة، وأدخل غيرَ الإكليريكيِّين للعمل في الإدارة البابوية، كما ألغى ذلك القانون الشاذَّ الذي كان يجبر اليهود على الاستماع إلى موعظةٍ مسيحية مرةً في الأسبوع. باحتشاد الناس حوله أينما ذهب، كان أن أصبح أكثرَ شخص محبوب في إيطاليا.

إلا أن تلك السُّمعة الطيبة كان لها مخاطرها. كانت كل تظاهرة سياسية، من أكثرها اعتدالًا إلى أكثرها ثوريةً تدَّعي الآن دعمَه لها وتطالب بالمزيد منه، فظهر اسمُه على ألوف اللافتات وكثيرًا ما كان ذلك من أجل قضايا كان يعارضها بشدة. بتفجُّر ثورات ١٨٤٨م، أصبح الدفاع عن موقعه أو المحافظة عليه أكثرَ صعوبةً. بيو نونو ... بيو نونو ... بيو نونو، Pio Nono! Pio Nono! Pio Nono! أصبح الاسم هُتافًا تردِّده الجموع وهي تموج عبْر شوارع مدينة بعد أخرى؛ وعندما أنهى البابا كلمةً له بعبارة «فليبارك الرب إيطاليا»، فهمت العبارةَ على الفور باعتبارها مصادقةً على الحُلم العام بإيطاليا موحَّدة، متحرِّرة إلى الأبد من الحكم النمساوي. (من الصعب في الحقيقة القول إن بيوس كان يريد أن يرى إيطاليا موحَّدة؛ فبصرف النظر عن أي شيء آخرَ، ماذا سيكون مصير الدول البابوية؟) باختصار، كان البابا قد وجد نفسَه الآن على قطارٍ جامح بلا سائق، أملُه الوحيد أن يوقفه بأيِّ طريقة.

بنهايةِ يناير من ذلك العام المشئوم، كان فيضان الدساتير الجديدة قد بدأ. كان فرديناند قد منح نابولي دستورًا في التاسع والعشرين من الشهر، وبعد ذلك بأسبوع، منح الدوق الأكبر فلورنسا دستورًا آخرَ. في الخامس من مارس، بعد ثورةِ باريس وهروب لويس فيليب، منح تشارلز ألبرت ملِك سافوي دستورًا لـ «تورين». ثم جاء دَور فيينا في

الثالث عشر من مارس، عندما هرب مترنيخ نفسُه. كانت تلك أهمَّ الأخبار، كان هناك أملٌ جديد في صدر كل زعيم وطني إيطالي ممن كانوا ينظرون إلى الفاتيكان كمبادر. في الخامس عشر من مارس، منح البابا بيوس روما دستورًا. لم يكن دستورًا شديدَ الليبرالية. كان وزيره الأول الكاردينال أنتونيلي[٩] قد راعى ذلك — كما أنه لم يستمرَّ طويلًا كما كشفت الأمور فيما بعدُ، إلا أنه حقَّق الهدفَ منه. بيوس، الذي لم يكن على استعدادٍ لأن يقودَ ثورةً أوروبية، لم يكن يريد كذلك أن يبدوَ متقاعسًا.

في الرابع والعشرين من مارس — نفس اليوم الذي أعلن فيه تشارلز ألبرت الحربَ على النمسا — قام الجنرال جيوفاني ديوراندو Giovanni Durando بقيادةِ الحرس المتقدِّم لجيشٍ بابوي، خارجًا من روما لحمايةِ الحدود الشمالية للدول البابوية من أي هجوم نمساوي محتمل. كان ذلك يعتبر إجراءً دفاعيًّا، ولكنَّ مثيري الحرب رفضوا أن يعتبروه كذلك؛ فالنمسا، حسب زعمهم، كانت قد أعلنت الحربَ على إيطاليا المسيحية. كانت تلك إذن حربًا مقدَّسة، حربًا صليبية، ذات هدف مقدَّس، وهو طرد الغزاة من الأراضي الإيطالية المقدَّسة.

كان المتوقَّع أن يستثيرَ ذلك غضبَ البابا بيوس. كان لا يمكن أن يتغاضى عن سياسةٍ عدوانية كتلك، على الأقل ضدَّ دولة كاثوليكية، كما كان من الضروري جدًّا بالنسبة له أن يوضِّح موقفَه مرة وإلى الأبد. كانت النتيجة ما عُرف بـ «خُطبة ٢٩ أبريل ١٨٤٨م التحذيرية Allocution of 29 April 1848». بعيدًا عن قيادة الحملة من أجل إيطاليا موحَّدة، أعلن أنه كان ضدَّها بكل قوة. ينبغي على الإيطاليِّين التقاةِ الذين يخشون الربَّ أن ينسوا فكرةَ الوحدة برُمَّتها، وأن يتعهَّدوا مرةً أخرى بالولاء لأمرائهم الفرديِّين.

رحَّب الملِك فرديناند بخطبةِ التاسع والعشرين من أبريل، وكان يراها عذرًا كافيًا لإعادة الجيش الذي كان قد أرسله إلى الشمال بقيادة الجنرال بيبي. (يُحسب لـ «بيبي» أنه لم ينفِّذ أوامره، وقاد نحو ألفين من رجاله دفاعًا عن فينيسيا). عن طريقِ عددٍ كبير من الوطنيِّين الإيطاليِّين الذين كانوا يجوبون البلاد طولًا وعرضًا، انتقلت الأخبارُ التي تلقَّاها الناس بقدْرٍ من الرعب، غيرَ أن قضية الوحدة لم تتأثَّر كما ستكشف الأحداث التالية. كانت الحركة قد انتشرت ومن المتعذَّر إيقافها. كان الضررُ الوحيدُ الذي وقع، هو ما لحِق بسُمعة بيوس نفسِه. حتى ذلك الحين كان بطلًا، من الآن سيصبح خائنًا. بالإضافة إلى أن تلك الخِطبة أظهرت (وربما مثلما لم يظهر أيُّ شيء آخر) مدى ضَعف البابا وعدم قدرته على التأثير في الأحداث. كلُّ شعبيته الوهمية ذهبت أدراجَ الرياح بين

عشية وضحاها. والآن، كان قد جاء دوره لكي يواجه الثورة. في الشهور السبعة الأولى، كان يكافح من أجل الصمود، ولكن عندما تعرَّض وزيره الأول الكونت بيلليجرينو روسي Count Pellegrino Rossi لاعتداءٍ بالضرب كاد أن يفضيَ إلى موته، وهو يدخل مبنى المستشارية، أدرك أن روما لم تَعُد مكانًا آمنًا بالنسبة له. في الرابع والعشرين من نوفمبر، تسلَّل متنكرًا في ثيابِ قسٍّ صغير وخرج من قصر كويرين، عن طريقِ بابٍ جانبي، فارًّا إلى جاييتا Gaeta؛ حيث استقبله الملك فرديناند بحفاوة.

في البداية، حقَّق جيش بيدمونت قدْرًا من النجاح؛ ففي وقتٍ سريع، ألحقَ هزيمةً منكرةً بجيش تشارلز ألبرت في الرابع والعشرين من يوليو بالقربِ من كاستوزا Custoza على بُعد أميالٍ قليلة، جنوب غرب فيرونا. بعد ذلك ارتدَّ إلى ميلان بينما كان راديتسكي يطارده؛ وفي الرابع من أغسطس اضطُر لطلبِ هدنةٍ وانسحب هو وجيشه إلى ما وراء حدودهم. بعد يومين، استسلم أبناءُ ميلان، وقاد المارشال العجوز — الذي لا يُقهر — جيشَه عائدًا إلى المدينة.

انتهت المرحلةُ الأولى من الحرب وخرجت منها النمسا منتصرةً تمامًا. لم تَعُد لتكون مسيطرة دون منازع على فينيسيا – لومبارديا فحسب. وَقَّعت نابولي سِلمًا منفصلًا. روما استسلمت. فرنسا، في شخص وزير خارجيتها الشاعر ألفونس دو لامارتين Alphonse de Lamartine، أصدرت بيانًا جمهوريًّا أحدَث جلبةً مشجِّعة، وإن لم يقدِّم أيَّ مساعدة نشطة أو مادية. بعد أقلَّ من خمسة أشهر من إعلان الجمهورية الفينيسية الجديدة، كانت قوى الثورة المضادة قد غدَت منتصرةً على امتداد البر الإيطالي الرئيسي.

لم تكن فينيسيا آسفة وهي تودِّع البيدمونتيين، إلا أنها — مرة أخرى — كانت تقف وحيدةً. كان أملُها الوحيد الآن هو مانن الذي كان قد خلع زيَّ الجندية تمامًا، وفي الثالث عشر من أغسطس دعاه المجلس لتولي سلطات مطلقة. رفض، على اعتبار أنه لم يكن يعرف شيئًا عن الشئون العسكرية، ولكنه اقتنع في النهايةِ برئاسة حكومة ثلاثية. كانت شهرته طاغية لدرجةِ أن زميليه قبِلا بأن يظلَّا قابعَين في خلفية المشهد: الحقيقة أن مانن كان دكتاتورًا في كل شيء باستثناء الاسم. تحت إرشاده فحسب، كان أن واصلت جمهورية فينيسيا الحربَ طوال الشتاء التالي بشجاعة ... وإن كان في ظل يأسٍ متزايد.

كانت الكوارانتوتو سنةً حاسمة بالنسبة لكل الدول الإيطالية. استراتيجيًّا، كان الوضع قد تغيَّر قليلًا، وفي معظم المواقع كانت النمسا قد ظلَّت سيدة ... سياسيًّا، كان هناك تحوُّل دراماتيكي في الرأي العام. في مطلع العام، كان معظم الإيطاليِّين الوطنيِّين

يفكِّرون من منظور التخلُّص من قوى الاحتلال النمساوي، وعند نهايته كان الهدفُ الأهم — في كل مكانٍ ما عدا فينيسيا — هو إيطاليا موحَّدة. كان التغييرُ يلوح في الأفق. أخيرًا، بدا الإيطاليون وكأنهم قابَ قوسين أو أدنى من تحقيق حُلمهم الذي طال انتظاره. لقد بدأ الريزورجيمنتو Risorgimento — أو البعث.

هوامش

(١) مات فرديناند الأول في ١٨٢٥م وخَلَفه ابنه فرانسيس الأول الذي حكم لمدة خمس سنوات فحسب. ابنه فرديناند الثاني حكم من ١٨٣٠–١٨٥٩م.

(٢) Quarantotto كلمةٌ إيطالية تعني «ثمانية وأربعون؛ تفصيلًا؛ Quaranta تعني «أربعين» وOtto تعني «ثمانية» وتُلفظ الكلمة كلها: Kwah – rahn – toht – toh. (المترجِم)

(٣) كان ذلك الحدَث هو الذي أعطى فرديناند لقبَ الشهرة «الملك بومبا King Bomba».

(٤) تم تخليدُ ذكراهم في البندقية بإعادةِ تسميةِ كامبو س. جيوفاني السابقِ في براجورا Bragora، الذي يُعرف الآن بـ «كامبو بانديرا ومورو Campo Bandiera e Moro».

(٥) كانت النمسا تحصُل على عائداتٍ كبيرة من لومبارديا من جرَّاء الضرائب الكبيرة على السيجار، وكان ردُّ الجيش النمساوي على ذلك هو توزيعَ كمياتٍ كبيرة من السيجار مجانًا على الضباط والجنود، مع أوامرَ بنفثِ الدخان في وجوهِ الإيطاليِّين.

(٦) كان رادتسكي قد شارك في الحملات النمساوية الأولى ضد نابليون قبلَ أكثرَ من نصف القرن، وكان رئيسًا للأركان في معركةِ ليبزج Leipzig في ١٨١٣م. شارك في سبع عشرة حملة، وجُرح سبع مرات، وقُتل تحته تسعة خيول.

(٧) «أطلِقوا سراحَ ماتن وتوماسيو!»

(٨) كان متيرنخ يهدِّد متذمرًا «إن الرب لا يمنح العفو هكذا ... بل يصفح!»

(٩) كان أنتونيلي مسئولًا إلى حدٍّ كبير عن تمكين البابا من التمسُّك بسلطته الزمنية إلى أطولِ مدة. كان سياسيًّا ممتازًا وصاحبَ شخصية ساحرة ومغامرات جنسية عديدة. يشهد على ذلك أبناؤه الكُثُر غير الشرعيِّين. «عندما يقف في أحدِ الصالونات بالقربِ من امرأةٍ جميلة، عندما يقترب منها ليتكلَّم ويلمس كتفيها مربِّتًا، ويدقِّق في النصف الأعلى

العاري من ثوبها، ترى فيه رجلَ الغابة وترتعد عندما تفكِّر في العربات المقلوبة على جانب الطريق». Edmond About La question romaine، اقتباسًا عن Holt من كتابه Risorgimento. ص١٣٩.

الفصل الثامن والعشرون

الـ«ريزورجيمنتو» The Risorgimento

- ماتزيني: ١٨٣٧م.
- غاريبالدي: ١٨٤٨م.
- أودينوت يزحف على روما: ١٨٤٩م.
- غاريبالدي يغادر إيطاليا: ١٨٤٩م.
- موت مانن: ١٨٥٧م.
- نابوليون الثالث يلتقي كافور: ١٨٥٨م.
- سولفرينو: ١٨٥٩م.
- استدعاء كافور: ١٨٦٠م.
- غاريبالدي وكافور: ١٨٦٠م.
- غاريبالدي في نابولي: ١٨٦٠م.
- صُنْع إيطاليا: ١٨٦١م.
- التحالف الروسي الإيطالي: ١٨٦٦م.
- الحرب الفرنسية البروسية: ١٨٧٠م.

* * *

لعل متيرنخ لم يتجاوز الحقيقةَ عندما قال إن «إيطاليا ليست سوى تعبيرٍ جغرافي». لم يحدُث على مدى تاريخها أن كانت إيطاليا دولةً واحدة، حتى أيام روما الإمبراطورية، كانت مجرد جزء — صغير دائمًا — من الدولة الرومانية. منذ العصورِ الوسطى الباكرة — وربما من قبل ذلك — كان مفهوم الدولة الإيطالية موجودًا، ولكن كتصوُّر بعيد: كان دانتي وبترارك قد حلَمَا به، كما حلَم به ماكيافيلي Machiavelli فيما بعد. جغرافيًّا

ولغويًّا، كان ذلك أمرًا معقولًا، إلا أن الأرض كانت منقسمةً على نفسِها، كما كانت الفجوات والخصومات حادةً بين مدينة ومدينة، وبين الجويلف والجيبلليين، وبين الإمبراطور والبابا، لدرجةِ أن الوحدة لم تكن تبدو أمرًا واردًا في القرن التاسع عشر.

ولكن جاءت الكوارانتوتو فتغيَّر كل شيء. فجأةً، أصبح الحُلم البعيد هدفًا يمكن تحقيقه. لم يكن لدى الكونت كاميللو كافور سببٌ جيد، لكي يطلق على جريدته اسم «البعث Il Risorgimento» — لم يكن من الواردِ أن يكون هناك انبعاثٌ نحو هدفٍ لم يكن له وجودٌ من قبل — ولكن الكلمة كان لها وقْعٌ جميل وسرعان ما تم تبنِّيها. كان المطلوب الآن هو وجود قيادة.

مع بداية العام ١٨٤٩م، كان هناك مناضلٌ واحدٌ جادٌّ فحسب، على المستوى القومي. كانت فينيسيا - لومبارديا ما زالت تحت الحكم النمساوي. من الواضحِ أن روما كانت مستبعَدة؛ حيث إن مشكلةَ البابوية كانت قد بقيت دون حل، بالرغم من أن البابا بيوس كان في منفاه الاختياري منذ أسابيع. لم تكن نابولي تحت حُكم الملك بومبا Bomba المتزمِّت جديرةً بالاعتبار، كما أن الدول الإيطالية الأخرى كانت صغيرةً وضعيفة وغير مؤهلة لذلك. كانت بيدمونت هي الخيارَ الواضح، وبالرغم من أنها كانت ما زالت تعاني من هزيمتها في العام السابق، كانت نشطة وطموحة ويكبُر حجمها باطراد.[١] كان مِلكها تشارلز ألبرت على العرش منذ ١٨٣١م، وكان عدوًّا لدودًا للنمسا.

إلا أن تشارلز ألبرت، كملِك في الحكم، لم يستطِع أن يعطيَ الحركة — التي كانت في النهاية جمهوريةً إلى حدٍّ بعيد — القيادةَ الشخصية الكاريزمية التي كانت تتطلَّبها. في السنوات الباكرة على الأقل، سيكون ذلك مهمةَ جيوسيبي ماتزيني Giuseppe Mazzini. ماتزيني من مواليد جنوة في ١٨٠٥م، ولكنَّ تدابيرَ مؤتمر فيينا بعد عشر سنوات جعلته من مواطني بيدمونت بشكلٍ تلقائي، ورغم أنه درسَ الطب والقانون على نحوٍ عابر، كانت فكرةُ التجديد الإيطالي مسيطرةً عليه منذ الدراسة الجامعية، لدرجةِ أنه اعتُقل لفترة قصيرة، ثم نُفي إلى مرسيليا في فبراير ١٨٣١م نتيجةَ نشاطه الثوري، وبقي منفيًّا طوال حياته؛ حيث عاش هناك وفي لندن.

عندما جاء إلى مرسيليا، كان أن أسَّس ماتزيني الحركةَ التي أَطلق عليها la giovine Italia (إيطاليا الفتاة)، وكما كان اسمها يدُل عليها، كانت موجَّهة حصريًّا لمن هم تحت الأربعين من العمر، في محاولةٍ لتنمية وعيهم القومي؛ لتصبح بعد ذلك «رابطةً قوميةً إيطاليةً كبرى» ذات هدف معلَن، وهو تحرير إيطاليا عن طريق الثورة إذا لزِم الأمر.

حقَّقت الرابطة نجاحًا فوريًّا؛ ففي غضون عامين من تأسيسها كان عدد أعضائها قد بلغ ٦٠٠٠٠ عضو. أصدرت الرابطة مطبوعةً دورية — كانت تحمل اسمَ الرابطة نفسَه — صدر منها ستة أعداد في عاميها الأولين: كان ذلك إنجازًا لا يُستهان به؛ فقد كان كلُّ عددٍ منها يضم مائتي صفحة، كتبَ معظمها ماتزيني.

بحلول العام ١٨٣٣م، كان ماتزيني جاهزًا للعمل. اجتذبت «إيطاليا الفتاة» عددًا كبيرًا من شباب ضباط وجنود جيش بيدمونت، والآن كان يخطِّط مع صديقِ طفولته جاكوبو رافيني Jacopo Raffini لانتفاضاتٍ متزامنة في جنوة وأليساندريا Alessandria، كان يَعتقد أنها سوف تنتشر في ربوع البلاد للإطاحة بالحكومة، وإسقاط تشارلز ألبرت في آخر الأمر. من أسف أن الخطة اكتُشفَت قبل أن تبدأ تلك الانتفاضات. لم يكن اكتشاف الخطة نتيجةَ خطأ من أيٍّ من المدبِّرين الرئيسيِّين لها، ولكن ما حدَث هو أن تم إلقاء القبض على شركائهما، وأُعدم اثنا عشر منهم رميًا بالرصاص. قطعَ رافيني أوردتَه في السِّجن.

لم يكن ماتزيني في خطرٍ مباشر على الحدود الفرنسية، ولكنَّ مارسيليا كانت تعجُّ بعملاء بيدمنتو، فأسرع بالمغادرة إلى جنيف ليكونَ في مأمن. بعد ثلاث سنوات وبعد عدة مؤتمرات فاشلة، كانت سويسرا قد أصبحت غيرَ آمنة بالنسبة له كذلك. وصل إلى لندن في يناير ١٨٣٧م حيث سيقضي الإحدى عشرة سنة التالية لتصبح لندن وطنه الثاني. هنا، سيلقي بنفسه مرةً أخرى في دوامة النشاط المحموم: ينفخ حياةً جديدة في «إيطاليا الفتاة»، ويؤسِّس مدرسةً مجانية للأطفال الإيطاليِّين، ويصدر جريدةً أخرى، ويكتب مئات الرسائل كلَّ يوم للوطنيِّين الإيطاليِّين والمنفيِّين في العالم؛ حيث كان قد أصبح هناك الآن لجانٌ ثورية، ليس في إيطاليا فحسب، بل وفي دول أوروبية أخرى عديدة، إلى جانب الولايات المتحدة وكندا وأمريكا اللاتينية.

كان لديه طاقة على العمل ومثابرة، جعلت من ذلك الإيطالي المتميز شخصيةً شهيرة في لندن. بعد سبع سنوات من مجيئه، كان يحظى بشهرةٍ مفاجئة وغير متوقَّعة، كان لها فائدة كبيرة بالنسبة لقضيته. في أوائل ١٨٤٤م، بدأت تساوره الشكوك في أن رسائله كانت تُفتح سرًّا قبل تسلُّمها، الأمر الذي أكَّدته تجاربُ قليلة بسيطة. على الفور، شكا لصديقٍ له كان عضوًا في البرلمان، فقدَّم بدوره استجوابًا في مجلس العموم. في البداية، أنكر السير جيمس جراهام Sir James Graham وزيرُ الداخلية الاتهام، إلا أنه عند مواجهته بالدليل اضطُر للاعتراف بأن مكتبه كان يقوم بالفعل بفتح الرسائل، بطلبٍ من

سفير النمسا. الفضيحةُ التي نجمَت عن ذلك (بدأ الناس يكتبون على مظاريفِ رسائلهم: ممنوع الجرهمة Not to be Grahamed) لم تسلِّط الضوءَ على ماتزيني فحسب، وإنما جعلته كذلك يكتب «رسالة مفتوحة» إلى جراهام يوضِّح فيها القضيةَ الإيطالية بالتفصيل، كما أن إعادةَ نشرِ الرسالة على نطاقٍ واسع، حقَّقت له ما كان يحتاجه من شعبية. كان صديقه توماس كارليل Thomas Carlyle يرى أن فتْحَ رسائله كان أفضلَ شيء حدَث له.

الرحيل السريع للبابا فاجأ روما. كان الوزير الأول في الحكومة البابوية جيوسيبي جاليتي Giuseppe Galletti — وكان صديقًا قديمًا لـ «ماتزيني» وعاد إلى روما بموجب العفو العام وخلَف روسي المقتول — أرسل أولًا وفدًا إلى جاييتا لإقناعِ بيوس بالعودة، وعندما تم رفض مقابلة الوفد، دعا جاليتي لتشكيلِ مجلسٍ رومانيٍّ لوضع دستور، يكون مكوَّنًا من مائتي عضو منتخَب يجتمع في المدينة في الخامس من فبراير ١٨٤٩م. كان الوقت ضيقًا والحاجة ملحَّة، وفي الموعد المحدَّد كان قد جاء ١٤٢ عضوًا إلى قصر كانسيلاريا. بعد أربعة أيام، صوَّت المجلس في الثانية صباحًا (كانت النسبة مائة وعشرين صوتًا إلى عشرة أصوات وامتناع اثني عشر عن التصويت) لوضعِ نهايةٍ للسلطة الزمنية للبابا وتأسيس جمهورية رومانية. لم يكن ماتزيني حاضرًا، أما الشخصية الأكثر هيمنةً على كل هذه الأحداث، فكان مغامرًا في الحادي والأربعين من العمر اسمه جيوسيبي غاريبالدي Giuseppe Garibaldi.

كان غاريبالدي، المولودُ في نيس في ١٨٠٧م مثلَ ماتزيني، من بيدمونت، أما نيس فسوف يتم التنازلُ عنها لفرنسا في ١٨٦٠م. كان غاريبالدي قد بدأ حياته المهنية تاجرَ بحرٍ، وكان قد أصبح عضوًا في «إيطاليا الفتاة» في ١٨٣٣م. وكرجل أفعال كعادته، تورَّط في العام التالي في تمرُّد فاشل — إحدى الحركات الفاشلة الكثيرة في تلك السنوات الباكرة — وصدرت مذكرةٌ بالقبض عليه. تمكَّن من الهرب إلى فرنسا في الوقتِ المناسب، وفي الوقت نفسِه كان قد حُكم عليه غيابيًّا، في تورين، بالإعدام متهَمًا بالخيانة. بعد فترة قصيرة من العمل في البحرية التجارية الفرنسية، التحق ببحريةِ باي تونس، الذي عرض عليه منصبَ القائد العام للأسطول. رفض العرضَ وأبحر أخيرًا في ديسمبر ١٨٣٥م كوكيل ثانٍ للربَّان، على سفينة شراعية فرنسية كانت متجهةً إلى أمريكا الجنوبية. هنا سيمضي الاثني عشر عامًا التالية، الأربعة الأولى منها يحارب في صفوفِ دولةٍ صغيرة كانت تحاول — دون نجاح — التحرُّر من السيطرة البرازيلية. خرج بصعوبةٍ في ١٨٤١م إلى مونتفيديو Montevideo هو وصديقته البرازيلية أنيتا ريبيرو دا سلفا Anita Ribeiro da Silva؛

حيث عيِّن على الفور مسئولًا عن بحرية أوروجواي، وقيادة رابطة من الإيطاليِّين المنفيِّين، أوائل جماعة القمصان الحمراء Red Shirts، التي سيرتبط اسمُه بها فيما بعدُ، بعد انتصاره في معركة سانت أنتونيو Sant Antonio البطولية (وإن كانت غيرَ مهمة) في ١٨٤٦م، امتدَّت شهرتُه إلى أوروبا. الآن، كان قد أصبح ثائرًا محترفًا، سوف تضعه خبرتُه في حرب العصابات في المكان الذي يليق به في القادم من السنوات.

بمجرَّد أن سمِع غاريبالدي بثورات ١٨٤٨م، جمَع ستين عضوًا من «القمصان الحمراء» واستقلوا السفينةَ التالية عائدين إلى إيطاليا. بعد أن رُفضت عروضُه الأولى للحرب لصالح البابا، ثم لصالح بيدمونت — كان تشارلز ألبرت لم ينسَ بعدُ أنه كان تحت حكمٍ بالإعدام — اتَّجه إلى ميلان؛ حيث كان ماتزيني قد وصل بالفعل، ودخل المعمعةَ على الفور. تجاهلَ الهدنةَ التي تلت هزيمةَ تشارلز ألبرت في كاستوزا، وواصل حربه الخاصة ضد النمساويِّين، وفي آخر أغسطس لم يكن أمامه سوى أن ينسحب إلى سويسرا أمام التفوُّق العددي الذي كان يواجهه. سيُمضي هناك الأشهرَ الثلاثة التالية مع أنيتا، ولكنه عندما يسمع بفرار البابا، سيُهرع فورًا مع جماعةٍ من المتطوعين الذين يعملون معه إلى روما، وهناك سيُنتَخب عضوًا في مجلس النواب الجديد، وكان هو الذي اقترح رسميًّا ضرورةَ أن تكون روما منذ ذلك الحين جمهوريةً مستقلة.

المدهش أن ماتزيني لم يكن موجودًا أثناء تلك الأحداثِ المثيرة. واصل رحلته من ميلان إلى فلورنسا — التي كان الدوق ليوبولد الأكبر قد غادرها على عجل — على أملٍ عقيم، بإقناع الحكومة بأن تعلن الجمهوريةَ وتتَّحد مع جمهورية روما؛ وفي أوائل مارس كان أن شقَّ طريقَه — لأول مرة — إلى العاصمة الجديدة؛ حيث كان ينتظره مقعدٌ في مجلس النواب. وكما كان متوقعًا، تم استقباله استقبالَ الأبطال، ودُعي للجلوس على يمين الرئيس.

كان من سوء الحظ أن يختارَ ملكُ بيدمونت تلك اللحظةَ ليعلن انتهاء الهدنة التي كان قد تم توقيعُها قبل سبعة أشهر، ويستأنف حربه ضد النمسا. أما لماذا فعل ذلك، فيظل لغزًا غير مفهوم. ربما كان يخشى عصيانًا آخرَ وأن يفقد عرشه، والأكثر احتمالًا أنه كان يرى نفسَه بطل إيطاليا ومحرِّرها. من هنا كان إصراره على عدمِ السماح بأن تكون هزيمة كاستوزا نهايةً لتاريخه العسكري. كانت الهزيمة قد أظهرت له أنه لم يكن قائدًا عسكريًّا، وفي المرحلة الثانية من الحرب، بينما كان يحتفظ بالقيادة الاسمية، كان قد أسند القيادةَ الفعلية لشخصٍ بولندي يُدعى فوجتيك كرزانوفسكي Wojtiech Chrzanowski، كان محاربًا محنَّكًا في حروب نابوليون.

لا شكَّ في أن يكون كرزانوفسكي قد بذل كلَّ ما في وُسعه، ولكنه لم يكن جنرالًا أفضلَ من رئيسه. بعد أقل من أسبوعين من استئناف الحرب وجد أبناء بيدمونت أنفسَهم في مواجهة راديتسكي في نوفارا Novara، التي تبعُد نحو ثلاثين ميلًا غربي ميلان. ومثلما كان الوضع في كاستوزا، لم يكونوا ندًّا للنمساويِّين الذين كانوا أكثرَ عددًا بفارق ضئيل، ولكنهم كانوا أكثرَ انضباطًا واحترافًا. أبدى تشارلز ألبرت شجاعةً نادرة، وكان يتحرَّك بجسارة ودون خوف في الميدان بينما تدوي من حوله الطلقاتُ من كل اتجاه. نجا من الموت ولم يُصَب بأذًى، ولكنَّ قوَّاته هُزمت وخسِروا المعركة. مدينة واحدة هي بريشيا Brescia، صمدَت أيامًا قليلة، ولكن سرعان ما هُزمت بدورها أمام الجنرال النمساوي جوليوس فون هاينو Julus von Haynau بكل وحشيته وضراوته التي كان معروفًا بها.[٢] تنازل تشارلز ألبرت عن العرش لابنه فيكتور إيمانويل Victor Emmanuel دوق سافوي، معلنًا أنه لم يكن يستطيع مواجهةَ توقيع هدنة جديدة. بعد أن سُمح له بالمرور كمواطن عاديٍّ عبْر الخطوط النمساوية، لجأ إلى أوبورتو Oporto ليموت هناك بعد أربعة أشهر، ربما بسبب أزمةٍ قلبية.

كثيرًا ما كان جيوسيبي ماتزيني يظن أن روما الإمبراطورية وروما البابوية لا بد من أن تتبعهما روما ثالثة: روما الشعب. الآن، كان الحُلم قد أصبح حقيقة. كان مجلس النواب قد وضع الجمهورية الجديدة بين أيدي حكومةٍ ثلاثية، كان هناك تجاهُل فعلي لاثنين من أعضائها. الآن، كان ماتزيني هو الحاكم الفعلي والمطلَق، لروما. لم يكن الدكتاتور الأول ولن يكون الأخير، ولكن يمكن القول إنه لم يكن له مثيل. في مكتبه الصغير الضيِّق في قصر الكويرينال، كان بإمكان أي شخص أن يصل إليه، كان يتناول طعامه كلَّ يوم في نفس المطعم الإيطالي الرخيص الذي اعتاد الذهابَ إليه، تبرَّع براتبه الشهري (٣٢ ليرة) للأعمال الخيرية. الآن، كذلك، كان ذلك الداعية الديماجوجي قد أصبح إداريًّا متقنًا لعمله. ألغى عقوبة الإعدام، أدخل الاقتراعَ العام للذكور، أعلن الحرية الكاملة للصحافة، وأعاد النظامَ للدول البابوية التي كانت قد أصبحت نهبًا للمتطرفِين الجمهوريِّين. كان، بلا شك، بإمكانه أن يفعل أكثرَ من ذلك، إلا أنه كان يعرف أنه كان يسابق الزمن، قال أمام مجلس النواب: «لا بد من أن نعمل كرجال يرون العدوَّ على أبوابهم، وفي الوقت نفسه كرجال يعملون من أجل الخلود.» لم يكن يقول أكثرَ من الحقيقة. في أوائل أبريل، كانت هناك أخبارٌ من باريس تنذِر بالسوء. كان هناك حملةٌ فرنسية قد بدأت زحفها، قادمة على الطريق.

في الثامن عشر من فبراير، كان البابا بيوس في جاييتا، قد تقدَّم بمناشدةٍ رسمية لكلٍّ من فرنسا والنمسا وإسبانيا ونابولي للمساعدة. لن يكون بين تلك القوى الأربع مَن سيتخلَّى عنه؛ ولكنَّ الخطر الأعظم بالنسبة لـ «ماتزيني» كان فرنسا — التي ستكون استجابتها متوقفةً على طبيعة جمهوريتها الجديدة، وبخاصة على الأمير لويس نابوليون Louis Napoleon رئيسها المنتَخب الجديد. قبل نحو عشرين سنة، كان الأمير متورطًا في مؤامرة ضد البابوية، وتم طردُه من روما، التي كان ما زال يحمل ضغائنه لها. من ناحيةٍ أخرى، كان منذ نوفارا، يمكنه أن يرى النمسا أكثرَ قوة في إيطاليا، منها في أيِّ وقتٍ آخرَ؛ فكيف يمكن أن يفكِّر في إمكانية قدوم النمساويين الآن إلى الجنوب ويعيدون البابا بشروطهم؟ إذا لم يقُم هو بإجراءٍ ما، فإن ذلك ما سوف يقومون به. لم يكن لديه شكٌّ في ذلك.

بناءً على ذلك أصدر أوامره. في الخامس والعشرين من أبريل ١٨٤٩م، رسا الجنرال نيكولاس أويدينو Nicholas Oudinot — ابنُ أحدِ مارشالات نابوليون — في شيفيتافيكيا، على رأس قوةٍ مكوَّنة من نحو تسعة آلاف مقاتل، وبدأ مسيرة الأربعين ميلًا نحو روما. كان منذ البداية واقعًا تحت سوء فهم. كان قد أصبح يعتقد أن الجمهورية كانت مفروضةً من قِبل مجموعة من الثوار، على شعب كارهٍ لها، وأنها سوف تسقط في وقتٍ قصير؛ وأنه ورجاله سيكونون محلَّ ترحيب باعتبارهم محرِّرين. كانت أوامره هي عدمَ إعطاء الحكومة الثلاثية أو المجلس أيَّ اعتراف رسمي، وإنما القيام باحتلال المدينة سلميًّا ... ودون طلقة واحدة إن أمكن.

كانت هناك مفاجأة في انتظاره. رغم أن أهالي روما لم يكن لديهم أمل كبير في الدفاع عن مدينتهم ضد جيشٍ مدرَّب جيد التجهيز، كانوا مستعدين للقتال. كانت قواتهم الخاصة مكوَّنة من القوات البابوية النظامية، والكارابنييري،[٣] وهي قوةٌ خاصة ضمن الجيش الإيطالي كانت تقوم بمهام الشرطة، والحرس الوطني المكوَّن من نحو ألف جندي، وقوات المتطوعين التي شُكِّلت في المدينة من نحو ١٤٠٠ فرد، والجماهير نفسها التي كان يمكن أن تَستخدم كلَّ ما يتيسر لها من أسلحة؛ ولكن الأعداد الكلية كانت ما زالت قليلة جدًّا، ولذلك كانت فرحتهم كبيرة عندما دخل غاريبالدي المدينة، على رأس فيلقٍ من ١٣٠٠ مقاتل كان قد جمعهم في «روماجنا Romagna».[٤] بعد يومين، كانت هناك قوةٌ من «بيرسجلييري Bersaglieri»[٥] لومبارديا، بقبَّعاتهم المميزة ذات الحواف العريضة المزيَّنة بريش الدِّيَكة الأخضر. كانت أعداد المدافعين تتزايد، ولكن التفوق كان ما زال في غيرِ صالحهم، وكانوا يعرفون ذلك.

وقعَت المعركة الأولى للاستيلاء على روما في الثلاثين من أبريل. كان جهل أودينو وعدمَ إدراكه سببًا في إنقاذ الموقف. لم يكن قد أحضر معه مدافعَ للحصار ولا سلالم لتسلُّق الأسوار، وعندما كانت قواته تتقدَّم نحو الفاتيكان وتل جازيكلوم، استقبلته نيران وانفجارات، وهنا فقط بدأ يدرك موقفه. بعدها هجم عليه فورًا فيلقُ غاريبالدي، وتبِعه حَمَلة الرِّماح من البيرسجلييري. حارب هو ورجاله لمدة ست ساعات بكل قوَّتهم، إلا أنهم بحلول المساء اعترفوا بهزيمتهم، وانسحبوا عائدين إلى شيفيتافيكيا. فقدوا خمسمائة مقاتل بين قتيل وجريح، وأُسِر منهم ٣٦٥ فردًا، ولكن ربما يكون ما لحِق بهم من عارٍ، هو أسوأ ما في القصة.

في تلك الليلة، كانت روما كلُّها في حالة من الفرح الغامر، إلا أن الكل كان يعرف أن الفرنسيِّين لا بد أن يعودوا. كان الفرنسيون قد أدركوا أن روما أقوى مما كانوا يتوقَّعون، وبالرغم من ذلك كانوا مصمِّمين على كسر شوكتها. بعد أقلَّ من شهر، كان غاريبالدي خلال ذلك الوقت، قد زحف هو وفيلقه وقوات البيرسجلييري جنوبًا لمواجهةِ جيشٍ قادم من نابولي، وطردوه من أراضي الجمهورية بسهولة — كان أودينو قد تلقَّى التعزيزات التي كان قد طلبها؛ وبواسطةِ ألف مقاتلٍ من ورائه وتسليحٍ أفضلَ من ذي قبل، كان أن زحف على روما في الثالث من يونيو، للمرة الثانية.

متقدِّمًا من الغرب، كانت أهدافه الأولى هي «فيللا بامفيلي Pamfili Villa» و«فيللا كورسيني Villa Corsini» على تل جانيكلوم. بنهايةِ اليوم كانت الاثنتان في يده بكل أمان، ومدافعه رابضة في مواقعها. كانت روما قد أصبحت بالفعل على وشْك السقوط. ظل المدافعون عنها يحاربون بكلِّ بسالة لمدة شهر تقريبًا، ولكن في صباح الثلاثين من يونيو، كان ماتزيني يخاطب المجلس. كان هناك، كما قال لهم، ثلاثة احتمالات: الاستسلام، أو مواصلة القتال والموت في الشوارع، أو اللجوء إلى التلال ومواصلة النضال. قُرب منتصف النهار، ظهر غاريبالدي يغطيه الترابَ وقميصه الأحمر غارق في الدم والعَرق، كان قد حسم أمره. الاستسلام غير وارد، وقتال الشوارع — كما قال — كان مستحيلًا، وعند التخلي عن منطقة «تراستيفير Trastevere»،[٦] كما سيكون ذلك ضروريًّا، سوف تتمكَّن المدافع الفرنسية من تدمير المدينة بكل سهولة. التلال إذن هي الحل، وكما قال: «حيثما نكون، ستكون روما.»[٧]

الغريب أن أغلبية النواب لم يوافقوا واختاروا خيارًا رابعًا: عدم الاستسلام، ولكن مع إعلان وقفِ إطلاق النار والبقاء في روما. كان ذلك مسارًا يبدو أنه لم يكن قد وردَ

على ذهن ماتزيني، وعلى أية حال وافق في آخرِ الأمر أن يتبناه بنفسه. كان الفرنسيون الذين باتوا يعتقدون أنه كان طاغيةً وكان مكروهًا، كانوا مدهوشين لرؤيةِ رجلٍ كذلك يسير في الشوارع دون خوف، ويحيِّيه الناس باحترام أينما يذهب، لدرجةِ أنهم لم يكونوا يجرءون على إلقاء القبض عليه. ولكن ماتزيني كان يعرف جيدًا أنه، حتى وإن بقي حرًّا طليقًا، سيكون بلا حول ولا قوة. بعد أيام انسلَّ إلى لندن. كان يقول: «إيطاليا بلدي، ولكن إنجلترا بيتي ... إن كان لي بيت!»

في الوقت نفسِه، كان غاريبالدي يطلب متطوعين. «ليس عندي أجرٌ ولا طعام ولا مأوًى، عندي الجوع والعطش والزحف القسري والقتال والموت، فليتبعني مَن يحب وطنه بقلبه وليس بشفتيه فحسب.» هُرع نحو أربعة آلاف شخص للانضمام إليه، وبعد شهرٍ تقريبًا، كانوا قد انسحبوا إلى جمهوريةِ سان مارينو San Marino الصغيرةِ، وهناك تفرَّق الجَمْع؛ ومن هناك غادر غاريبالدي وأنيتا وعددٌ قليل من أتباعه المخلِصين إلى فينيسيا، الجمهوريةِ الإيطالية الوحيدة التي كانت ما زالت تقاتل من أجل البقاء.

مِن أسف أن السفينة التي أبحروا عليها اعترضت سبيلَها سفينةٌ حربية نمساوية، وأُجبر غاريبالدي على النزول منها في منطقةٍ بعيدة عن الساحل، تُعرف الآن بـ «بورتو غاريبالدي»، وقبل أن يتمكَّن من الوصول إلى البحيرة الفينيسية، ماتت حبيبته أنيتا بين ذراعيه. مؤقتًا، ضعُفت حماسته ووهنت روحه. مرةً أخرى غادر إيطاليا ليصل إلى نيويورك بعد أسابيعَ قليلة ... لكي تبدأ المرحلة الثانية من منفاه الأمريكي.

حتى لو كان غاريبالدي قد تمكَّن من الوصول إلى فينيسيا، لَمَا استطاع أن يصنع الكثير. على مدى الشتاء السابق كلِّه، وبالرغم من حصارٍ نمساوي متقطع، كان دانييل مانن قد ركَّز كلَّ جهده على بناء جيش قوي، وهي المهمة التي أوكلها للجنرال بيبي، الذي أعلن بكل فرح عن استعداده لتقديم حياته فداءً لإيطاليا ولجمهورية فينيسيا. وباعتباره أحدَ أبناء كالابريا، أثبت بيبي قدرتَه على تجنيد عدد كبير من الضباط والجنود السابقين في جيش نابولي، وبحلول أوائل أبريل ١٨٤٩م، كانت النتيجة قوةً منظَّمة من نحو عشرين ألف مقاتل، الأمر الذي شجَّع المجلس وملأه ثقةً لكي يصدر مرسومًا بطوليًّا: «فينيسيا سوف تقاوم أيًّا كان الثَّمن، وبهذا الهدف قد تم منح الرئيس مانن سلطاتٍ بلا حدود».

استمرَّ الحصار حتى مايو ١٨٤٩م، عندما قبِل القائد النمساوي أخيرًا فكرةَ استحالة تطويق بحيرةٍ يبلغ محيطها نحو تسعين ميلًا، بينما تحتاج مدينةٌ يبلغ تَعدادها نحو

مائتي ألف نسمة إلى وقتٍ طويل لكي تتضور جوعًا، فلم يكن أمامه سوى ضربِ حصارٍ عسكري كامل حولها. كان الهدف الأول هو قلعةَ مالجيرا Malghera (مارجيرا Marghera الآن)، الواقعةَ عند نهاية جسر السكة الحديد. بعد قصفٍ استمر ثلاثة أسابيع استسلمت، إلا أن الجسر نفسَه مع عدد كبير آخرَ من الحصون المؤقتة على امتداده ظلَّت صامدة إلى حدٍّ ما. في وقتٍ باكر من شهر يوليو، كانت هناك فكرةٌ عادية لدى النمساويين لمحاولةِ إلقاء قنابل على فينيسيا من أسطولٍ من بالونات ضخمة، إلا أن التجربة فشِلت تمامًا، وأعطت أهالي فينيسيا مادةً للسخرية على الأقل، ولكنهم لم يكن لديهم أكثرُ من ذلك. أدَّى الحصار إلى نقصٍ شديدٍ في المواد الغذائية، وبمرور الشهر وجدوا أنفسَهم على حافةِ مجاعة. حتى السمك — المنتَج الفينيسي الرئيسي — كان قد أصبح شحيحًا؛ حيث كانت الكمية التي تنتجها البحيرةُ غيرَ كافية لسد رمق الأهالي. تم تقنينُ حصص الخبز، إلا أن الأمر استمرَّ في التدهور. في الثامن والعشرين من يوليو، سأل مانن رسميًّا أعضاءَ المجلس، ما إذا كان بإمكان فينيسيا أن تستمرَّ في المقاومة أكثرَ من ذلك، ولكنَّ مستمعيه كانوا مصرين على القتال حتى النهاية.

بدأ قصفُ المدينة بلا هوادة ليلةَ التاسع والعشرين، كان التركيزُ على الجزء الغربي منها، ربما لأن المدافع النمساوية، حتى عند رفعها إلى أعلى مسقط رأسي، لم يكن مداها يصل إلى ما هو أبعدُ من ذلك، ولحسن الحظ أن كان الميدان الرئيسي خارجَ المرمى المؤثِّر. من حسن الحظ كذلك، أن معظم القذائف كانت مجردَ كرات وليست قنابلَ قابلةً للانفجار. كان النمساويون عادةً يقومون بتسخينها لدرجةٍ كبيرة قبل إطلاقها، إلا أنه لم يكن هناك أفرانٌ تكفي لذلك، وكان من السهل التعاملُ مع النيران الصغيرة الناجمة عنها من قِبل فِرق الإطفاء في المدينة، التي كانت تضم الآن دانييل مانن كأحدِ أعضائها.

ولكنَّ ضراوةَ القصف على مدى الأسابيع الثلاثة ونصف الأسبوع التالية كان لها أثرها الكبير في الروح المعنوية لأهالي المدينة، التي كانت قد سقطت في ذلك الوقتِ فريسةً لأكبر بلاء؛ وهو الكوليرا. بنهاية يوليو كان الوباء قد انتشر في أرجاء المدينة، وبسبب حرارة الجو زاد الأمر سوءًا وبخاصة في منطقة «كاستيللو Castello»، المزدحمةِ في الجزء الشرقي، وكان معظم المعرَّضين للخطر في الجزء الغربي قد فرُّوا إليها. لم يكن حفَّارو القبور قادرين على ملاحقةِ أعداد الموتى — علمًا بأن الدفن عمليةٌ صعبة في فينيسيا بطبيعة الحال — وكانت الجثث التي تنتظر الدفنَ تبقى مكدَّسة في سهل كاتدرائية «سان بيترو دي كاستيللو S. Pietro di Castello» القديمةِ في فينيسيا؛ وكما يُروى، كانت الرائحة خانقة.

كان من الواضحِ أن النهايةَ قد اقتربت. في التاسع عشر من أغسطس انطلق جندولان إلى «ميستر Mestre» رافعَين الراياتِ البيضاء. وبعد ثلاثة أيام، كان قد تم التوصُّل إلى اتفاق. كانت الشروط النمساوية متساهلةً على نحوٍ مثير للدهشة. كان مطلبهم الرئيسي أن يغادر فينيسيا فورًا كلُّ الضباط والجنود الإيطاليِّين من رعايا الإمبراطورية الذين حاربوا ضدها، بالإضافة إلى طردِ أربعين من القيادات الفينيسية. في السابع والعشرين من أغسطس احتلَّ النمساويون المدينة، وفي ذلك المساء نفسِه أبحرت السفينة الفرنسية «بلوتون Pluton» من «جيوديكا Giudecca»، حاملةً ججليملو بيبي ونيكولو توماسيو ودانييل مانن، مع سبعة وثلاثين آخرين.

استقرَّ مانن وزوجته وابنته في باريس؛ حيث كان يكتب المقالات للصحف الفرنسية ويعطي دروسًا في الإيطالية. كان آنذاك قد تخلَّى عن مُثُله الجمهورية، إلا أن أنظاره قد بقيت، مثل ماتزيني، على توحيدِ بلاده. كتب: «إنني مقتنعٌ بأن واجبنا الأول هو أن نجعل إيطاليا حقيقة ... الحزب الجمهوري يعلن لبيت سافوي: إذا صنعتم إيطاليا فنحن معكم، وإن لم ... فلسنا معكم.» مات في باريس في الثاني والعشرين من سبتمبر ١٨٥٧م وكان في الثالثة والخمسين. بعد إحدى عشرة سنة أُعيد رفاته إلى فينيسيا ليُوضع في مقبرةٍ تم تصميمُها خصيصًى مقابل السورِ الشمالي لكنيسةِ سان مارك. أمام منزله في كامبو سان باتيرنيان Campo S. Paternian سابقًا (الآن كامبو مانن) يربِض أسدٌ ضخم من البرونز يهزُّ ذيله في غضب.

هل ضاعت الكوارانتوتو هباءً؟ بحلولِ خريف ١٨٤٩م كان الأمر يبدو كذلك. كان النمساويون قد عادوا إلى روما محتلَّة من الفرنسيِّين، وفي نابولي كان «الملك بومبا King Bomba» قد مزَّق الدستور ليجمع في يده — مرةً أخرى — سلطةً مطلَقة؛ فلورنسا ومودينا وبارما — وكانت كلُّها تحت حماية النمسا — كانت كلُّها تقريبًا في نفس الوضع. في شبه الجزيرة كلِّها، لم يكن قد تبقَّى حرًّا سوى بيدمونت، ولكن بيدمونت كانت قد تغيَّرت هي الأخرى. كان تشارلز ألبرت الممشوقُ القوام، الوسيمُ، المثالي، قد مات. ابنه إيمانويل كان قصيرَ القامة غليظَ الجسم وقبيحًا. كان كلُّ همِّه — أو هكذا كان يبدو — الصيدَ والنساء. إلا أنه كان أكثرَ ذكاء مما يدُل عليه مظهره، وبالرغم من خجله وارتباكه عندما يكون وسط الآخرين، لم يكن ينقصه الكثيرُ من الناحية السياسية. من الصعب تصوُّر الـ ريزورجيمنتو بدونه.

إلا أن فيكتور إيمانويل كان يمكن أن يسقط، لولا الوزيرُ الأول لديه كاميللو كافور، الذي خلَف ماسيمو دازيجليو Massimo d'Azeglio، المقاومُ القويُّ للإكليروس، في أواخرِ ١٨٥٢م، وبقي متنفذًا، مع فتراتِ انقطاع قصيرة على مدى السنوات التسع التالية، وهي السنوات التي كانت بالغةَ الأهمية بالنسبة لإيطاليا. كان مظهر كافور خادعًا مثل مظهر رئيسه. كان قصيرَ القامة، عظيمَ البطن، بشرته مليئة بالبثور، خفيف الشعر، جاحظ العينين، رثَّ الثياب دائمًا، لا يترك انطباعًا جيدًا عند مَن يلتقيه لأول مرة ولا يثيرُ فيه أيَّ درجة من الإعجاب بشخصيته. من ناحيةٍ أخرى كان ذهنه أشبهَ بسيف ذي حدَّين، يقع الكثيرون تحت سِحره بمجرد أن يشرع في الكلام. داخليًّا، واصل برنامج دازيجليو في الإصلاح الإكليروسي — وغالبًا تحت معارضةٍ شديدة من ملك كاثوليكي ورع — وبينما كان يفعل كلَّ ما في وُسعه لتقوية الاقتصاد، كانت سياسته الخارجية موجَّهة في الوقت نفسه نحو حُلمه بإيطاليا موحَّدة، وبيدمونت على رأسها.

إلا أننا قد نتساءل: ما علاقةُ قضية إيطاليا الموحَّدة بحربِ القرم Crimean War، التي تحالفت فيها بيدمونت مع القوى الغربية في يناير ١٨٥٥م؟ كان لدى كافور عدةُ أسباب. قبل كل شيء كان يعرف أن بريطانيا وفرنسا كانتا تريدان جرَّ رجل النمسا إلى الحرب؛ وهو ما قد يؤدي بدوره إلى تحالفٍ فرنسي-نمساوي طويلِ المدى يمكن أن يقضيَ على فرصِه لإنهاء الوجود النمساوي في شبه الجزيرة؛ ومن ناحية أخرى إذا استطاعت إيطاليا أن تُظهِر للعالم روحَها القتالية، فإن تلك الفرص سوف تزداد بنفس الدرجة. كلما كان مجدُها العسكري أعظمَ، يصبح الأكثر ترجيحًا أن تأخذ بريطانيا وفرنسا طموحاتها على محمل الجِد. لم تكن التجربة ناجحة تمامًا. سيحارب أبناءُ بيدمونت معركةً واحدة فحسب، وهي غير مهمة نسبيًّا. قُتِل ثمانية وعشرون منهم، وهو عدد قليل مقارنةً بالألفين الذين قضَوا في الكوليرا في نهاية العام. مما يدعو للغيظ كذلك أن تهديد النمسا بدخول الحرب كان هو الذي أقنع الروس بأن يلتمسوا السلام. ولكن إذا كانت بيدمونت قد فشِلت في أن تكون مؤثِّرة في ميدان القتال، فقد كسبت على الأقل دعواتٍ لـ «فيكتور إيمانويل» ليقوم بزياراتٍ رسمية للملِكة فيكتوريا Queen Victoria ونابوليون الثالث Napoleon III[٨] في ديسمبر ١٨٥٥م، كما حصلت على مقعد، على طاولة السلام في باريس بعد ذلك بشهرين. بالإضافة إلى ذلك، كان في إطارِ محادثاته مع الفرنسيِّين في ذلك الوقت، أن بدأ كافور يعلِّل النفسَ بأملٍ جديد مثير، وهو أن نابوليون الثالث بعد سياساته السابقة غيرِ

المفيدة، ربما يكون مستعدًّا الآن للمساعدةِ في طرد النمساويين، وهو الأمر الذي كان قد طال انتظاره.

لعلَّها حقيقةٌ غريبة أن يبدوَ ما جعل الإمبراطور يحمل السلاح نيابةً عن إيطاليا، هو مؤامرة من جانب وطنيِّين إيطاليِّين لاغتياله. وقعَت المحاولة في الرابع عشر من يناير ١٨٥٨م عندما كان هو والإمبراطورة في طريقهما لحضورِ عرضٍ لأوبرا «وليم تل William Tell»، عندما أُلقيت قنابلُ على عربتهما. لم يُصَب أيُّهما بسوء بالرغم من وقوع خسائرَ بين المرافقين وبعضِ شهود الحادث. كان قائد المتآمرين «فيليس أورسيني Felice Orsini» جمهوريًّا معروفًا، وأحدَ المشاركين في عددٍ من المؤامرات السابقة. بينما كان في سجنه في انتظار محاكمة، كتب رسالةً للإمبراطور، قُرِئتْ فيما بعدُ في جلسةٍ علنية ونُشرت في الصحافة الفرنسية وفي بيدمنتو. كان ختام الرسالة عبارة تقول: «تذكَّر أنه طالما كانت إيطاليا غيرَ مستقرة، فإن سلام أوروبا وسلام سموك يظلان حُلمًا فارغًا ... أطلِقْ سراحَ بلادي وسوف تتبعك بركاتُ شعبٍ من خمسة وعشرين مليون نسمة في كل مكان ... وإلى الأبد.»

رغم فشلِ تلك العباراتِ النبيلة في إنقاذ أورسيني من يدِ كتيبةِ الإعدام، يبدو أنها ظلَّت في ذهن نابوليون الثالث، الذي توصَّل في منتصف صيف ١٨٥٨م إلى فكرةِ تعاونٍ مشترك لطرد النمساويين من شبه الجزيرة الإيطالية مرةً وإلى الأبد. إلا أن دوافعه لم تكن مثاليةً تمامًا. صحيح أنه كان يكنُّ حبًّا حقيقيًّا لإيطاليا، وكان يُسعِده أن يقدِّم نفسَه للعالم باعتباره محرِّرها، إلا أنه كان يعرف كذلك أن منزلته وشهرته كانتا في سبيلهما إلى الزوال. كان يدرك كذلك أنه في حاجةٍ إلى حربٍ بأي شكل، وأنَّ حربًا مضمونة كتلك، ستعيد له المنزلةَ والشهرة، وأنَّ النمسا كانت هي العدوَّ الوحيد المتاح لذلك. كانت الخطوة التالية هي أن يناقش هذه الإمكانيات بوضوح مع كافور، وفي يوليو ١٨٥٨م التقي الاثنان سرًّا في منتجع «بلومبيير–لي بان Plombieres-les-Bains» في فوزكس Vosges؛ حيث تم التوصُّل إلى اتفاقٍ بسرعة. ستقوم بيدمونت بتدبيرِ نزاعٍ مع «دوق مودينا Duke of Modena»، وتُرسِل قواتٍ بزعم أن ذلك تم بناءً على طلبٍ من الأهالي. ستكون النمسا ملتزمةً بدعم الدوق، وتعلن الحرب؛ بعد ذلك ستلجأ بيدمونت إلى فرنسا وتطلب مساعدتها، وفي مقابل ذلك سوف تتنازل لفرنسا عن كونتية سافوي ومدينة نيس. وحيث إن الأخيرة (نيس) كانت مسقطَ رأس غاريبالدي، فقد كانت دواءً مرًّا بالنسبة لـ «كافور»، إلا أن تجرُّعه كان ضروريًّا، إذا كان ثمنًا للتحرير.

تصديقًا على هذا الاتفاقِ، اتفق الرجلان كذلك على زواجٍ بين السلالتين: يتم تزويجُ الأميرةِ «كلوتيلد Clotilde»، الابنةِ الكبرى لفيكتور إيمانويل، من الأميرِ نابليون ابنِ عمِّ الإمبراطور. بمجردِ إعلان هذه الخِطبة أصاب الفزعُ عددًا كبيرًا من الناس وبخاصة في بيدمونت. كانت الأميرة في الخامسة عشرة، شديدةَ الذكاء والجاذبية، أما خطيبُها فكان معروفًا في كل مكان بفسقه وغرابة أطواره، وكان في السابعة والثلاثين من العمر. لم يُخفِ فيكتور إيمانويل، الذي لم يستشِره أحدٌ مسبقًا، استياءه، وترك القرارَ النهائي لـ «كلوتيلد» نفسِها. وافقت الأميرة على إتمام الزواج بما يوحي بشعورها بالواجب، وكان مفاجئًا للجميع أن يكون زواجًا سعيدًا.

كان الزفاف في آخرِ يناير ١٨٥٩م، بينما كانت فرنسا وبيدمونت تستعدان للحرب بكل نشاطٍ وعلى نحوٍ واضح. بعد ذلك، سرعان ما كان هناك إعادةُ نظر من قِبَل نابوليون في المسألة برُمَّتها — ولم يكن ذلك على هوى كافور، الذي كان يدرك تمامًا أن بلاده لن تستطيع أن تتصدَّى للنمسا بمفردها. الأسوأ، أن بريطانيا وبروسيا وروسيا كانوا يتحدثون الآن عن مؤتمرٍ دولي محتمَل، من المؤكد أن يتضمَّن نزعَ سلاح بيدمونت طوعًا. باختصار، كان كافور يعرف أنه في مواجهةٍ كارثة. ما أنقذه في اللحظة الحرجة كان النمسا نفسَها، التي أرسلت إنذارًا إلى تورين Turin في الثالث والعشرين من أبريل، طالبةً نزْعَ السلاح ذاك في غضونِ ثلاثة أيام. الآن، كانت النمسا قد كشفت عن أنها هي المعتدي. لم يَعُد نابوليون يأمُل في التملُّص من التزاماته ... ولم يحاول. أمرَ بتعبئةِ الجيش الفرنسي فورًا. سيدخل جزءٌ من قواته التي تضم مائة وعشرين ألف مقاتل إيطاليا عبْر جبال الألب، بينما يذهب الجزءُ الآخر إلى جنوة بحرًا.

كان كافور يعرف تمامًا أن ذلك كلَّه يتطلب وقتًا، وفي الوقت نفسِه كان النمساويون قد بدءوا زحفَهم. لمدة أسبوعين على الأقل، سيكون على أهالي بيدمونت وحدَهم أن يواجهوا النمسا، وكان ذلك توقعًا مخيفًا؛ ولحسن الحظ كان هناك ما أنقذه مرةً أخرى — كان الإنقاذ هذه المرة بسبب أمطارٍ غزيرة، والخلاف على الاستراتيجية بين القيادات النمساوية. أعطى التأخيرُ الناجم عن ذلك فرصةً من الوقت للفرنسيِّين، لكي يَصِلوا بقيادة الإمبراطور شخصيًّا، الذي رسا في جنوة في الثاني عشر من مايو، وكانت تلك هي المرةَ الأولى في حياته التي يتولى فيها قيادةَ جيشه بنفسه. كان أن وقعت المعركة الحاسمة الأولى في الرابع من يونيو عند «ماجنتا Magenta»، وهي قريةٌ صغيرة تقع على بُعد أربعة عشر ميلًا

تقريبًا إلى الغرب من ميلانو؛ حيث هَزم الجيش الفرنسي جيشًا نمساويًّا من خمسين ألف مقاتل. كان الجيش الفرنسي يقاتل تحت قيادة الجنرال «ماريا-باتريس دي مكماهون Marie-Patrice de Macmahon»، الذي رقَّاه نابوليون مكافأةً على انتصاره إلى رتبةِ الماريشال، وعيَّنه دوقًا على ماجنتا. كانت الخسائر فادحةً على كلا الجانبين، وكان يمكن أن تكون أكثرَ من ذلك، لو أنَّ أبناء بيدمونت لم يَصِلوا متأخرين بعد انتهاء المعركة، وكان تأخُّرهم بسبب تردُّد قائدهم. إلا أن هذه المحنة لم تمنع نابوليون وفيكتور إيمانويل من دخول ميلان في موكبِ نصرٍ بعد أربعة أيام.

بعد ماجنتا، انضم غاريبالدي إلى جيش فرنسا – بيدمونت، وكان قد عاد من أمريكا في ١٨٥٤م مملوءًا بحماسته وحيويته القديمة. هذه المرة، كان فيكتور إيمانويل قد طلب منه أن يشكِّل لواءً من «صيادي الألب cacciatori delle Alpi»، وكان قد حقَّق انتصارًا لافتًا في «فاريس Varese» قبل نحوِ عشرة أيام، بعد ذلك تقدَّم الجيش و«صيادو الألب» معًا، ليواجهوا الجيش النمساوي برُمَّته في الرابع والعشرين من يونيو بالقرب من «سولفرينو Solferin» جنوبي بحيرة جاردا. المعركة التي نشِبت — وشارك فيها ما يزيد عن مائتين وخمسين ألف مقاتل — جرَت على نطاقٍ أوسعَ من أيِّ معركة أخرى منذ «ليبزج Leipzig» في ١٨٣١م. هذه المرة لم يكن نابوليون هو الملكَ الوحيد الذي يتولَّى القيادة: فيكتور إيمانويل فعلَ الشيءَ نفسَه، وكذلك «فرانز جوزيف Franz Joseph» إمبراطورُ النمسا (٢٩ سنة)، الذي كان قد خلَف عمَّه فرديناند في ١٨٤٨م. وحدَهم الفرنسيون، هم الذين استطاعوا أن يكشفوا عن سلاحٍ سري: مدفعية محززة حلزونيًّا زادت من دقةِ مدافعهم ومن مداها المؤثِّر.

القتال الذي دار معظمُه متلاحمًا بدأ باكرًا في الصباح، واستمرَّ معظمَ اليوم. بالقرب من المساء، وبعد أن فقدَ نحو عشرين ألفًا من جنوده في المطر الشديد، أمر فرانز جوزيف بالانسحاب عبْر نهر «مينسيو Mincio»، ولكنه كان انتصارًا باهظَ التكلفة؛ حيث فقد الفرنسيون والبيدمنتيون من الرجال، قدْرَ ما فقد النمساويون، كما أن تفشِّي الحمَّى — التيفوس غالبًا — الذي تلى المعركةَ، راح ضحيتَه المزيدُ من كلا الجانبين. تركت مشاهدُ المذبحةِ تأثيرها البالغَ على شابٍّ سويسري يُدعى «هنري دونان Henry Dunant»، تصادف أن كان موجودًا، ونظَّم حالةَ طوارئ وخدمات لإسعاف الجرحى. بعد خمس سنوات، وكنتيجةٍ مباشِرةٍ لهذه التجربة سيؤسِّس الصليب الأحمر.

لم يكن دونان وحدَه هو الذي تأثَّر بشدةٍ بما شهده في سولفرينو. كانت صدمةُ نابوليون الثالث شديدة كذلك، وكانت كراهيته للحرب وما جرَّته من مآسٍ — بالتأكيد — أحدَ الأسباب التي جعلته يعقِد صلحًا منفردًا مع النمسا، بعد مرورِ أقلَّ من أسبوعين على المعركة. كان هناك آخرون كذلك. مضَت الأمور على نحوٍ سيئ بالنسبة للنمساويين، إلا أنهم ظلوا بمأمن فيما كان يُعرف بـ «الكوادريليتيرال Quadrilateral»،[٩] الذي كان يضمُّ قِلاع «بسكييرا Peschiera» و«فيرونا Verona» و«ليجنانو Legnano» و«مانتوا Mantua»، والتي لم يكن لدى الإمبراطور أيُّ أملٍ واقعي لإزالتها. كان قلِقًا كذلك من ردِّ فعلِ الألمان. كان التحالفُ الألماني German Confederation يقوم بتعبئةِ نحو ثلاثمائة وخمسين ألفًا من المقاتلين الذين كان يمكن أن يقضُوا على الخمسين ألف جندي فرنسي، الذين كانوا قد بقوا في فرنسا.

وأخيرًا، كان هناك الوضع في إيطاليا نفسِها. كانت الأحداث الأخيرة قد أقنعت العديدَ من الدول الأصغر — وبخاصة توسكانيا وروماجنا ودوقيات مودينا وبارما — بالتفكيرِ في الإطاحة بحكَّامهم السابقين، ومحاولة الانضمام إلى بيدمونت. ستكون النتيجة دولةً مرعبة على الحدود الفرنسية مباشرة، تغطي كلَّ شمال ووسط إيطاليا تقريبًا: دولة قد تستوعب في الوقتِ المناسب بعضَ أو كل الدول البابوية وربما الصقليتين. هل يمكن أن يكون من أجل ذلك حقًّا، أن دفع مَن سقطوا في سولفرينو حياتَهم؟

وهكذا، التقى إمبراطورا فرنسا والنمسا في الحادي عشر من يوليو ١٨٥٩م في «فيللا فرانكا Villa Franca» بالقُرب من فيرونا، وتقرَّر مصيرُ شمال ووسط إيطاليا في خلال ساعة. سوف تحتفظ النمسا بقلعتين من الكوادريليتيرال، هما مانتوا وبسكييرا، ويُسلَّم الباقي من لومبارديا لفرنسا التي ستسلِّمه بدورها لـ «بيدمونت». الحكَّام السابقون لـ «توسكانيا ومودينا» سيعودون إلى عروشهم،[١٠] ويتم تأسيس كونفدرالية إيطالية، تحت الرئاسة الشرفية للبابا، ولكنها ستبقى تحت السيادة النمساوية.

لنا أن نتخيَّل مدى غضب كافور، عندما قرأ تفاصيلَ اتفاق فيللا فرانكا، بدون بسكييرا ومانتوا، حتى لومبارديا لن تكون إيطاليةً بالكامل، أما بالنسبة لوسط إيطاليا، فإن تلك المنطقة كانت قد فُقدت حتى قبل أن يتم استعادتها على نحوٍ صحيح. هو نفسه لن يكون له علاقة بالاتفاق؛ بعد مقابلة طويلة ومجهِدة مع فيكتور إيمانويل، قدَّم كافور استقالته. كتب إلى صديقٍ له يقول: «سنعود للمؤامرة.» إلا أنه سينهض من كبوته بالتدريج. على الأقل، لم يكن هناك ذكرٌ في الاتفاق لقيام فرنسا بضم نيس وسافوي، وهو

ما كان قد عرضه في «بلومبيير Plombieres» على مضض، فالوضع الحالي وإن لم يكن كما يتمنى، كان أفضلَ كثيرًا مما كان عليه قبل عام.

على مرِّ الأشهر القليلة التالية تحسَّن الوضع؛ حيث اتضح أن توسكانيا ومودينا رفضتا قبولَ المصير الذي كان مقررًا لهما؛ وأوضحتا أن لا شيء كان يمكن أن يجعلهما تقبلان بعودةِ حكَّامهما السابقين. في فلورنسا وبولوجنا وبارما ومودينا ظهر حكام، كان كلٌّ منهم مصرًّا على الاندماج مع بيدمونت. كانت العقبة الوحيدة من قِبل بيدمونت نفسِها. كانت الشروط التي تم الاتفاق عليها في فيللا فرانكا قد تم تضمينها الآن اتفاقيةً رسمية وُقِّعت في زيورخ، ولم يكن الجنرال «ألفونسو لا مارمورا Alfonso La Marmora»، الذي خلَف كافور رئيسًا للوزراء، على استعدادٍ لاتخاذ أي إجراء لتحديها. إلا أن الحكام الطغاة كانوا مستعدين تمامًا للانتظار وتحمُّل الوقت. فلورنسا احتفظت باستقلالها في الوقت نفسِه، روماجنا (التي كانت تتضمَّن بولوجنا) وبارما ومودينا، اتَّحدت كلُّها في دولة جديدة أطلقوا عليها اسم «إميليا Emilia»؛ حيث إن نهر «رومان فيا أميليا Roman Via Amelia» يمرُّ بثلاثتهم.

كان كاميللو كارفور الذي انسحب بعد استقالته إلى عزبته في ليري Leri بالقرب من فيرسيلي Vercelli، كان يتابع تلك التطوراتِ بكل رضًا؛ فاتفاق فيللا فرانكا لم يتطوَّر إلى شيء أسوأ على أية حال. عندما استدعاه فيكتور إيمانويل في يناير ١٨٦٠م — بعد بعض تردُّد —[١١] ليرأس حكومةً جديدة، كان سعيدًا بعودته إلى تورين. لم يكد يعود إلى منصبه حتى وجد نفسَه منجرفًا في مفاوضاتٍ مع نابوليون الثالث، ولم يتوصَّل الطرفان إلى اتفاقٍ قبل مرور وقت طويل: ستقوم بيدمونت بضم توسكانيكا وإميليا، وفي مقابل ذلك سيتم التنازل عن سافوي ونيس لفرنسا. أُجريت عمليات استفتاء في كل تلك الولايات، وفي كلٍّ منها كانت الأغلبية الساحقة مع الترتيب الذي يمكن الاتفاقُ عليه؛ ففي إميليا على سبيل المثال كان التصويت ٤٢٦٠٠٠ مقابل ١٥٠٠؛ وفي سافوي ١٣٠٥٠٠ مقابل ٢٣٥. كانت هناك انفجاراتُ غضب متوقَّعة من قِبل غاريبالدي، إلا أنه لم يكن لديه الكثيرُ ليفعله ضد تلك الأغلبية. ولكنَّ الحقيقة أن المناطق التي كان قد تم ضمَّها، كانت هي الأكثرَ سعادة. كانت بيدمونت تكره أن تفقد سافوي ونيس؛ فرنسا عارضت ضمَّ توسكانيا، حيث كان الإمبراطور يخشى أن يعطي ذلك قوةً كبيرة لبيدمونت على حساب مملكة وسط إيطاليا التي كان يفضِّلها بقوة؛ النمسا، بصرف النظر عن فقدان لومبارديا، كانت تأسى لرحيلِ دوق توسكانيا الكبير، ودوق مودينا اللذين كانت تسيطر عليهما بالفعل.

كان أحدُ أقربِ رفاق غاريبالدي السياسيين إليه، محاميًا من صقلية يُدعى فرانسيسكو كرسبي Farncesco Crispi. في سنة ١٨٥٥م وأثناء فترة نفيٍّ في لندن، كان الرجل كذلك صديقًا لـ «ماتزيني»، الذي يحلُم منذ وقت طويل بغزو صقلية. بعد أربع سنوات، كان كرسبي قد زار صقليةَ متنكرًا، تحت اسمٍ زائف، وعاد إلى لندن وهو مقتنع بأنها كانت — مرة أخرى — ناضجةً للثورة. كان كل المطلوب حملةً صغيرة مسلَّحة لكي تهبَّ الجزيرة كلُّها. كان السؤال الوحيد هو: ومَن يقود هذه الثورة؟ على الفور، قفز إلى الذهن اسمُ غاريبالدي، إلا أنه كان مترددًا. كان ما زال يرغي ويزبد بسبب فيللا فرانكا، كان يداعبه شخصيًّا حُلم آخر: الاستيلاء على نيس وإعادتها إلى بيدمونت.

كان لا بد، على أية حال، من أن تؤجَّل الأفكار حول نيس لفترة غير محدودة. في الرابع من أبرايل ١٨٦٠م، كان هناك عصيان عام في باليرمو. إذا سار كلُّ شيء بحسب الخطة، كان بالإمكان أن يصحب ذلك انتفاضةٌ في نفس الوقت بين صفوف الأرستقراطية؛ إلا أن شيئًا ما لم يمضِ في طريقه الصحيح. حدث خطأ ما. تم إبلاغ السلطات في نابولي سرًّا، ليجد الثوار والمتمردون أنفسَهم مطوَّقين، حتى قبل أن يخرجوا من منازلهم. مَن لم يُقتل في الحال، تم إعدامُه فيما بعدُ. هذه العملية، التي كان من المفترَض أن تلهم ماتزيني مثل كل العمليات الأخرى، فشِلت فشلًا ذريعًا، إلا أنها أطلقت شرارةَ الكثير غيرها عبْر صقلية الشمالية، ولم تكن السلطات تستطيع أن تتصدَّى لها كلها. كذلك لم تستطِع القضاءَ على الشائعات التي سرَت مثل النار في الهشيم عبْر الجزيرة، مضيفةً المزيدَ من الزيت إلى لهب الثورة ... بأن غاريبالدي كان قادمًا في الطريق.

كان الأمرُ آنذاك مجرَّد أمنياتٍ أو تفكير مرغوب فيه، إلا أن غاريبالدي عندما سمِع الأخبار، تصرَّف على الفور. رفض كافور طلبَه تشكيلَ لواء من جيش بيدمنتو، ولكنه في غضونِ أقلَّ من شهر، كان قد كوَّن جماعةً من المتطوعين الذين أبحروا من ميناء كوارتو Quarto الصغيرِ (الآن جزء من جنوة)، ليلة الخامس من مايو ١٨٦٠م، ليرسوا دون مقاومة تُذكر في مارسالا Marsala في صقلية الغربية يوم الثاني عشر. كانوا يمثِّلون عينةً عريضة من المجتمع الإيطالي، كان نصفهم تقريبًا من المهنيين مثل المحامين والأطباء وأساتذة الجامعات، والنصف الآخر من الطبقات العاملة. كان بعضهم ما زال جمهوريًّا، ولكنَّ قائدهم أوضح لهم أنهم لم يكونوا يقاتلون من أجل إيطاليا فحسب، وإنما من أجل الملِك فيكتور إيمانويل كذلك، وأن ذلك — على أية حال — لم يكن الوقتَ الملائم للجدال.

من مارسالا، اتَّجه «الألف» — كما أُطلِق عليهم رغم أنهم كانوا ١٠٨٩ فردًا — إلى داخل البلاد؛ حيث سرعان ما تضاعف عددهم من المتطوعين الصقليِّين؛ وفي كالاتافيمي Calatafimi، التي تبعُد نحو ثلاثين ميلًا من ناحية الشمال الشرقي وجدوا قواتِ البوربون في انتظارهم. نشِبت المعركة يوم الحادي عشر من مايو واستمرَّت عدةَ ساعات، وكان معظم القتال ملتحمًا، وبواسطة الحرابِ أكثرَ منه بالبنادق. كان رجال غاريبالدي أقلَّ عددًا، إلا أنه كان — من ناحيةٍ أخرى — يعتمد على ميزةٍ نفسيةٍ أكبرَ. بالنسبة لكل الإيطاليِّين كان جيشُ القمصان الحُمر هذا — بكل سلسلة انتصاراته في أمريكا الجنوبية وإيطاليا — صاحبَ شهرة أسطورية، وكان البسطاء والسُّذج من الناس يعتقدون أن أعضاءه لديهم قدرةٌ سحرية على مقاومة الرصاص. كان جنود نابولي خائفين وليس لهم طاقة على القتال؛ كان «الألف» يقاتلون من أجل مَثَل أعلى يؤمنون به كلُّهم خلف قائدٍ يتمتَّع بكاريزما ملهمة. إذا انتصروا في هذه المعركة الأولى، كما قال غاريبالدي، فسيكون هناك احتمالٌ كبيرٌ أن تنتهيَ مقاومةُ المعارضة. وهكذا، في غضون أسبوع أو اثنين، سيصبحون هم سادةَ صقلية.

ما حدَث هو أنهم انتصروا، وثبَت أن غاريبالدي كان محقًّا. لم يكن هناك مزيدٌ من العقبات أمام باليرمو؛ بل على العكس. هُرع الألوف من الصقليين للالتحاق بقواته، وعندما وصل في السادس والعشرين من مايو، وجد أن المواطنين كانوا قد ثاروا على حكومةِ البوربون. كان هناك القليلُ من القتال المتقطِّع، ولكن لم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن يعطيَ قائدُ قوات نابولي الأمرَ بإخلاء باليرمو. بنهاية الشهر، كان غاريبالدي قد أصبح سيدَ المدينة. تبِع ذلك فترةٌ قصيرة لتوطيد أركانه، وصلت أثناءها تعزيزاتٌ مهمة من شمال إيطاليا؛ بعد ذلك واصل زحْفَه في أوائل يوليو. آخرُ معاركه في صقلية خاضها في ميلازو Melazzo، وهي ميناءٌ بحري حصين يبعُد نحو خمسة عشر ميلًا غربي مسيني. كانت معركةً حاميةَ الوطيس وأكثرَ ضراوةً مما سبقَها، ولكنها فتحت الطريقَ نحو مسيني نفسِها، التي استسلمت دون مقاومة، باستثناء حامية صغيرة شجاعة كانت تابعةً للبوربون، بقيت صامدةً في القلعة لفترة أطولَ قليلًا.

سَحب النابوليون قوَّاتهم من كل المدن والبلدات الأخرى، وهكذا، بهذا الاستثناء الضئيل، كانت صقلية قد أصبحت حرة. كان كافور يسعى لضمها الفوري رسميًّا لمملكة فيكتور إيمانويل، التي كانت آخذةً في الاتساع — وهي الفكرة التي كانت تَلقى معارضةً شديدة من كلٍّ من غاريبالدي وفرانسيسكو كرسبي، الذي كان قد أصبح ذراعه اليمنى

الآن. بالرغم من كل النوايا والأهداف التي كانوا يتجادلون حولها، كانت صقلية بالفعل جزءًا من المملكة. كان الصقليون بالتأكيد يفهمون ذلك، ولكن الإجراءات القانونية الطويلة كان يمكن أن تنتظر حتى ينتهي القتال. كان يقلقهم كذلك — رغم حرصهم على ألا يقولوا ذلك صراحة — أن كافور في حالِ ضمِّ الجزيرة، قد يستغل سلطتَه الجديدة ويرفض السماح لهم باستخدامها قاعدة انطلاق، يتقدَّمون منها نحو نابولي وروما وفينيسيا.

لم تكن تلك المخاوفُ بلا أساس؛ ففي الأول من أغسطس، كتب كافور مستقتلًا لرئيس وزرائه وصديقه الحميم كوستانتينو نجرا Costantino Nigra:

> إذا تمكَّن غاريبالدي من المرورِ إلى البر الرئيسي واستولى على نابولي، كما فعل بالنسبة لصقلية وباليرمو، فسوف يصبح سيدَ الموقف دون منازع ... سيفقد الملك فيكتور إيمانويل كلَّ مكانته تقريبًا، بالنسبة لمعظم الإيطاليِّين هو مجرد صديق لـ «غاريبالدي». سيحتفظ — ربما — بتاجه، ولكن هذا التاج سيلمع فقط من الضوء المنعكس الذي سيلقيه عليه مغامرٌ بطولي ... الملك لا يستطيع أن يتناول تاج إيطاليا من يدِ غاريبالدي ... لن يكون مستقرًّا على رأسه ... لا بد من أن نتأكد من سقوطِ حكومة نابولي قبل أن تطأ قدمُ غاريبالدي البرَّ الرئيسي. بمجرد ذهاب الملِك لا بد من أن نتسلم الحكم باسم النظام والإنسانية، بينما ننتزع من يدِ غاريبالدي قيادةَ الحركةِ الإيطالية كلها. هذا الإجراء الجسور الذي يمكن أن تصفه بالتهور، سوف يثير الفزع في أوروبا، سيخلق تعقيدات دبلوماسية خطرة، وربما ورَّطنا في مرحلة تالية في حربٍ مع النمسا؛ ولكنه ينقذ ثورتَنا ويحفظ للحركة الإيطالية صِفتَها التي هي مجدُها وقوَّتها، صفةَ الرابطة القومية والملكية.

كان كافور قد أقنع فيكتور إيمانويل فعلًا بأن يكتب رسميًّا لـ «غاريبالدي» يطلب منه ألا يقوم بغزو البر الرئيسي. فعلَ الملك ذلك، ولكنه أتبعَ رسالتَه رسالةً أخرى، مذكِّرة خاصة، ربما بتجاهل هذه التعليمات الرسمية. الآن كان يبدو أن تلك المذكِّرة الثانية لم يتم تسليمها — وعندما اكتُشِفت كان الخاتم ما زال عليها — ولكنَّ ذلك لم يكن له أهمية: كان تفكير غاريبالدي قد استقرَّ على أمرٍ ما. آنذاك، أرسل كافور عناصرَ تحريض agents provocateurs، لإثارةِ قلاقلَ في نابولي على أملِ إشعال ثورة تحررية، إلا أن نابولي (في تناقضٍ بيِّن مع باليرمو) كانت لا مبالية وفاترة الشعور. لم يكن هناك ما يمكن عمله ... سوى تركِ الأمورِ تسير في مجراها الطبيعي.

في الثامن عشر من أغسطس ١٨٦٠م، عبَر غاريبالدي ورجاله مضايقَ مسيني في أولى خطوات زحفهم على نابولي، وإذا كان ذلك قد سبَّب انزعاجًا لـ «كافور» فإن الملِك فرانسيس (٢٤ سنة) كان قد تملَّكه الرعب. كان فرانسيس الثاني[١٢] قد خلف والده فرديناند قبل عام. أفاد الدبلوماسي البريطاني أودو راسل Odo Russell الذي كان يخدُم آنذاك ضمنَ بعثةٍ في نابولي، أفاد في تقريرٍ له أن الملك، عندما دخل غاريبالدي باليرمو، «أرسل خمس برقيَّات تلغرافية في خلالِ أربع وعشرين ساعة يطلب المباركة من البابا»، كما أن «الكاردينال أنتونيلي Antonelli ... أرسل المباركات الثلاث دون الإشارةِ إلى قداسته، قائلًا إنه كان مفوَّضًا بذلك». كان فرانسيس الأول يعرف أن جيشه لم يكن قادرًا على المزيدِ من مقاومة القمصان الحُمر التي لا تُقهر، وأنه شخصيًّا، كان عاجزًا عن أن يجعل الحياةَ تدِب فيه. كان البديل الوحيد هو الفِرار. في السادس من سبتمبر استقلَّ السفينة إلى جاييتا. بعد أقلَّ من أربعٍ وعشرين ساعة دخل غاريبالدي نابولي.

كانت المسافة التي قطعها عبْر كالابريا بالغةَ السهولة بدرجةٍ مضحكة؛ حيث في مواجهة جنود نابولي البالغِ عددهم نحو ستة عشر ألف جندي في الإقليم، كانت طليعته مكوَّنة من ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي فحسب، ولكن بعد مقاومةِ ريجيو Reggio، لم تكن هناك أيةُ مقاومة أخرى، وكان أمام رجاله ثلاثمائة ميل أخرى تقطعها في حرارة الصيف الحارقة؛ ولكن بعد استسلام قوات البوربون الفوري، وتسليم أسلحتهم عندما اقتربوا، لم يكن هناك خوفٌ على سلامتهم. من جانبٍ آخرَ، كان شغوفًا على الوصول إلى نابولي بأسرعِ ما يمكن — لم يكن يثق بكافور إطلاقًا، كما كان يخشى ضربةً استباقية. لحسن الحظ، كان الملِك الراحل فرديناند قد بنى خطَّ سكةٍ حديد، فقام غاريبالدي بمصادرةِ كلِّ ما وجد من عرباتٍ وملأها بجيشه. هو نفسه مع ستةٍ من رفاقه، صعدوا إلى عربةٍ مكشوفة وتوجَّهوا إلى نابولي بعد ظهيرةِ يوم السابع من سبتمبر. في ذلك المساء، خاطبَ جمهورًا مبتهجًا من شرفة القصر الملكي، شاكرًا أهالي نابولي باسم كل إيطاليا «التي أصبحت أمةً أخيرًا بفضل تعاونهم». كانت كذبة وقحة — إذ إنهم يرفعون إصبعًا — إلا أنه كان يشعر، دون شك، أن قدرًا ضئيلًا من النفاق لن يكون ضارًّا في تلك المرحلة.

كانت نابولي أكبرَ مدن إيطاليا والثالثةَ في أوروبا؛ وعلى مدى الشهرين التاليَين حكمها غاريبالدي — مع صقلية — كحاكم مطْلَق. كان في الوقت نفسِه يخطِّط لعمليته التالية التي ستكون زحفًا فوريًّا على الدول البابوية ... وعلى روما. إلا أن تلك الخطوة لم تُتَّخذ قط. كافور، الذي لم يكن قادرًا على منع غزوه للبر الرئيسي، كان كلُّه تصميمًا الآن على

إيقاف مسيرته، مدركًا أن ترْكَه هكذا قد يعني الحربَ مع فرنسا، ولربما وجدت قواتُ القمصان الحمراء الفرنسيِّين المدرَّبين جيدًا، أمرًا مختلفًا تمامًا عن كلِّ ما واجهوه حتى الآن، بل ربما فقدَت إيطاليا كلَّ ما كسبته في العامين السابقين. كانت هناك، كذلك، اعتباراتٌ أخرى: كان غاريبالدي الآن — كما كان يخشى — أكثرَ شعبيةً من فيكتور إيمانويل نفسِه؛ كان جيش بيدمنتو حاقدًا على انتصاراته الأخيرة، وكان يلوح دائمًا خطرُ ماتزيني — الذي وصل إلى نابولي في السابع عشر من سبتمبر — وقد يقنع أتباعه غاريبالدي بالتخلي عن ملِك بيدمونت، وتبني القضية الجمهورية.

كان غاريبالدي يعي جيدًا عِداء كافور، مثلما كان واثقًا من دعم الملك الضمني؛ وبعد وصوله إلى نابولي بوقت قصير، تمادى لدرجةِ أن طلب استقالةَ رئيس الوزراء. بفعل ذلك، كان يبالغ في استخدام سلطاته؛ وعندما أدرك فيكتور إيمانويل أنه لم يَعُد يستطيع أن يوقِع بين الرجلين، وجد من الأكثر أمانًا قبول سياسة حكومته. لا شيء من ذلك، ولا أي عدد من الرسائل (بوحي من كافور) من شخصيات أجنبية بارزة، من الوطني المجري لاجوس كوسوت Lajos Kossuth، إلى الإصلاحي الاجتماعي البريطاني لورد شافتسبري Shaftesbury، لا شيء من ذلك كلِّه قلَّل من إصرارِ غاريبالدي على الزحف على روما. كانت الحُجة الوحيدة التي يمكن أن تكون مؤثِّرة والتي أدَّت إلى ذلك في آخرِ الأمر هي القوة القاهرة Force majeure.

فجأة، وجد جيشين قويين يصطفان ضده؛ جيش نابولي وجيش بيدمونت. استطاع الملك فرانسيس أن يُكوِّن جيشًا جديدًا في جاييتا، وبعد وقتٍ قصير من مغادرة غاريبالدي ورجاله نابولي في المرحلة الأولى من تقدُّمهم شمالًا، وجدوا قوةً من نحو خمسين ألف مقاتل مصطفَّة على امتداد شاطئ نهر فولتورنو Volturno. كان هنا أن لقوا أولَ هزيمة منذ رسوِّهم في صقلية خارجَ مدينة كايازو Caiazzo الصغيرة؛ وفي الغياب المؤقَّت للقائد حاول أحدُ جنرالاته عبورَ النهر وفشل، وفقد في هذه المحاولة نحو مائتين وخمسين مقاتلًا. في أول يوم من شهر أكتوبر، على أية حال، استطاع غاريبالدي أن يثأر لذلك. دارت المعركة بالقرب من كابوا Capua داخل وحَوْل قرية سان أنجلو S. Angelo الصغيرةِ في فورمز Formis.[١٣] كان انتصارًا باهظَ الثمن — راح فيه نحو ألف وأربعمائة قتيل وجريح — إلا أنه أنقذ إيطاليا.

في الوقت نفسِه، كان جيش بيدمونت يواصل زحفه. كافور، الذي كان مصرًّا على استعادةِ المبادرة من غاريبالدي، بدأ غزوًا خاصًّا به للأراضي البابوية في أومبريا Umbria

والمناطق الحدودية. بتركِه روما وعدمِ المساس بها، تفادى استعداء فرنسا وربما النمسا كذلك، كما فتح الطريقَ إلى الجنوب حيث — لأن غاريبالدي كان حاكمًا مطلقًا الآن — كان بإمكانه أن يدَّعي أن جيش بيدمونت كان مطلوبًا على عجلٍ لإنقاذ نابولي من قوى الثورة. الشيء الأهم، هو أنه أزال المانع الجغرافي الذي كان يقسِّم إيطاليا جزأين منفصلين ما دام موجودًا، ويجعل الوحدة أمرًا مستحيلًا. لم تكن الحملةُ نفسُها كبيرة ولكنها كانت مؤثِّرة. تغلَّب جيش بيدمونت على مقاومةٍ قوية في بيروجيا Perugia، حقَّق نصرًا صغيرًا على جيشٍ بابوي بالقرب من قريةِ كاستلفيداردو Castelfidardo الصغيرةِ بالقرب من لورنتو Lorento، ثم انتصارًا أكبرَ قليلًا في أنكونا Ancona بعد خمسة أيام، عندما استولى على مائة وأربعة وخمسين مدفعًا وسبعة آلاف أسير، بمن فيهم الجنرال الفرنسي كريستوف دي لامورسيير Christophe de Lamoricière، قائد القوات البابوية. كانت تلك نهايةَ الجيش البابوي، ومن ثَم لم تَعُد هناك متاعبُ أخرى أمامهم.

جاء الآن فيكتور إيمانويل تصحبه صديقته — طويلة الأمد — روزينا فيرسيللانا Rosina Vercellana (التي يقال إنها كانت في أبهى زينتها)، جاء ليتولَّى القيادةَ الشرفية لجيشه. منذ تلك اللحظة، بدأ نجم غاريبالدي يخبو. أقنعته معركةُ فولتورنو Volturno بأن الزحفَ على روما لم يكن ممكنًا، والآن والملِك نفسُه في الطريق، كان يرى أن حكمه في الجنوب لا بد من أن ينتهيَ. تأكَّد ذلك في آخرِ شهر أكتوبر، عندما أُجريت استفتاءات في مملكة نابولي وفي صقلية وفي أومبريا والمناطق الحدودية لاستطلاع رأي المصوِّتين، ما إذا كانوا يريدون أن تكون بلادهم جزءًا لا يتجزأ من إيطاليا تحت حكم فيكتور إيمانويل. كانت الأصوات المؤيدة لذلك كبيرة؛ ففي صقلية مثلًا كان عدد المؤيدين ٤٣٢٠٥٣ مقابل ٦٦٧ معارضًا.

رضخ غاريبالدي عن طيبِ خاطر، واتجه شمالًا مصحوبًا بحاشيةٍ كبيرة لمقابلة الملك، وفي السابع من نوفمبر دخلا نابولي جنبًا إلى جنب في العربة الملكية. لم يطلب سوى معروف واحد: أن يُسمح له بحكم نابولي وصقلية عامًا واحدًا كنائبٍ للملك، ولكنَّ رجاءه رُفض. كان، في آخرِ الأمر، راديكاليًّا خطرًا ومعاديًا للإكليروس، وكان ما زال يداعب خياله حُلم الاستيلاء على روما من البابا، ليجعل منها عاصمةً لإيطاليا. في محاولة لتحلية الدواء المر، عرض عليه فيكتور إيمانويل رتبةَ الجنرال بالإضافة إلى عزبةٍ ساحرة، ولكن غاريبالدي لم يحصُل على شيء من ذلك. ظل ثائرًا، وطوال الفترة، التي كانت فيها النمسا ما زالت تحتل الـ Veneto والبابا مستمرًّا كحاكم زمني في روما، كان مصمِّمًا على

الاحتفاظ لنفسه بحرية الحركة والتصرف. في التاسع من نوفمبر، أبحر متجهًا إلى مزرعته على جزيرة كابريرا Caprera الصغيرةِ بالقرب من ساحل سردينيا. كان يحمل معه مبلغًا صغيرًا — كان قد اقترضه؛ حيث لم يكن قد ادَّخر أيَّ أموال أثناء الأشهر التي قضاها في السلطة — وكيسَ بذور لحديقته.

يوم أحد الآلام،[١٤] السابع عشر من مارس ١٨٦١م، أُعلِنَ فيكتور إيمانويل الثاني ملِكًا على إيطاليا. يقال إن ماسيمو دازيجليو الكبير، سلفَ كافور كرئيس للوزراء، قال عندما سمِع الخبر: «لقد تم صُنْع إيطاليا، علينا الآن أن نصنع الإيطاليِّين.»[١٥] ولكن بالرغمِ من أنَّ نصفَ العبارة الأول كان صحيحًا — كانت دولة إيطالية قد خرجت إلى حيِّز الوجود وإن لم تكن كاملة — فإن النصفَ الثاني كان أكثرَ صحة. واصل فرانسيس الثاني مقاومته؛ كان البلد مقسَّمًا منذ نهايةِ الإمبراطورية الرومانية، وكان القليل من الشعب البالغ عدده اثنين وعشرين مليون نسمة تقريبًا هم الذين يعتبرون أنفسَهم إيطاليِّين. لم يكن هناك أيُّ شيء مشترَك بين الشمال والجنوب، مع مستوياتِ معيشةٍ مختلفة تمامًا (مثلما هو الأمر اليوم). كان لا بد من بناءِ طرقٍ وخطوط سكة حديد على نحوٍ عاجل. كان لا بد من إنشاءِ جيشٍ قومي، وبحرية جديدة، إلى جانب نظام قانوني، وإدارة خدمة مدنية، وإصدار عملة مشتركة. في الوقت نفسِه، لم يكن هناك بديلٌ عن تبنِّي مؤسسات بيدمنتو، ولكن ذلك الأسلوب الاضطراري كان يَلقى معارضةً شديدة، ولم يحقِّق الكثيرَ من أجل الوحدة. حتى قرار الملِك بالإبقاء على لقبه «الثاني» كان مصدرَ استياء. كملِك لإيطاليا، المؤكَّد أنه كان فيكتور إيمانويل الأول؛ فهل كان الـ «ريزورجيمنتو» بالفعل ميلادًا جديدًا ... بعثًا لإيطاليا، أم تُراه كان هزيمةً لإيطاليا على يد بيت سافوي؟

بعد أقلَّ من ثلاثة أشهر من الإعلان الملكي، مات كافور. كان قد أمضى الأسابيعَ الأخيرة من حياته في جدلٍ عارم حول مستقبل روما، التي (لا بد من أن نسجِّل هنا) لم تطأ قدمُه أرضَها مرةً واحدة. كانت كلُّ المدن الإيطالية الرئيسية الأخرى، كما كان يقول، بلدياتٍ مستقلة، كلٌّ منها تقاتل من أجل نفسِها؛ وحدَها روما، باعتبارها كرسي الكنيسة، هي التي ظلَّت فوق كلِّ تلك الخصومات. ولكن بالرغم من أن البابا لا بد من أن يُطلب منه التخلي عن سلطته الزمنية، لا بد من ضمانِ الاستقلال البابوي بأي ثَمن — «كنيسة حرة في دولة حرة». واجه قدرًا كبيرًا من المعارضة — كان أقواها من قِبَل غاريبالدي الذي انشقَّت كابريرا Caprera عنه في أبريل، وتقدَّم مندفعًا إلى المجلس، مرتديًا قميصه الأحمر وبونشو جنوب أمريكا الرمادي، ليطلِق سيلًا من السِّباب على ذلك الرجل الذي — كما

كان يرعد — باع نصفَ بلاده للفرنسيِّين، وبذل كلَّ ما في وسعه لمنع غزو الصقليتين. ولكنه نجح فحسب في تأكيد الرأي العام، بأنه بالرغم من كونه قائدًا عسكريًّا كبيرًا، فالمؤكد أنه لم يكن رجلَ دولة؛ بكل سهولة، فاز كافور في التصويت الذي تبِع ذلك. كان ذلك آخرَ انتصاراته السياسية. مات فجأةً في السادس من يونيو بأزمةٍ قلبية حادة. كان في الخمسين من العمر.

لو قُدِّر لكافور أن يعيش عَقدًا آخر، لشهد آخرَ قطعتين من الأحجية الإيطالية توضعان في مكانهما الصحيح في الصورة لتكتمل. بالنسبة لروما، فالوضع لم يُفِد شيئًا من غاريبالدي الذي قام بمحاولة غريبة — على نحوٍ ما — في ١٨٦٢م لتكرار انتصاره الذي كان قبل عامين. رافعًا شعار «روما أو الموت»، تمكَّن من جمْعِ نحو ثلاثة آلاف متطوع في باليرمو، استولى بهم على كاتانيا Catania الهادئةِ؛ ثم في أغسطس، بعد أن قام بقيادة سفينتين تجاريتين محليتين، عبَر برجاله إلى كالابريا Calabria، ليبدأ زحفًا آخرَ على روما. هذه المرة كانت القوات الحكومية مستعدة له. لم يكن قد وصل إلى أبعدَ من الجزء الرئيسي من جبال أسبرومونتي في أقصى جنوب كالابريا (حافر إيطاليا)، حتى هجموا عليه. أمر غاريبالدي رجالَه بعدم الرد بإطلاق النار خشيةَ اندلاع حربٍ أهلية، وبالرغم من ذلك كانت هناك بعض الخسائر، هو نفسه تحطَّم رُسغُ قدمه اليمنى. أُلقي القبض عليه وأُرسل إلى نابولي في قارب حربي؛ حيث أُطلِق سراحه فورًا. ظل بطلًا، ولم تجرؤ الحكومة على اتخاذ أي إجراء ضده.

في الوقت نفسِه، كانت الدبلوماسية الهادئة تبدو أكثرَ نجاحًا. كان البابا بيوس نفسُه يرفض التنازلَ عن أيِّ شيء؛ وعلى قدْرِ اهتمامه، كان يمسك بالولايات البابوية للعالَم الكاثوليكي، وكان ملزمًا بحكم قَسَم التتويج أن يسلِّمها لمن يخلفه. على النقيضِ من ذلك، كان نابوليون يصبح أكثرَ ميلًا، على نحوٍ مطَّرد، للتفاوض؛ وبموجبِ ما عُرف بمعاهدة سبتمبر الموقَّعة في الخامس عشر من الشهر عام ١٨٦٤م، وافق على سحبِ قواته من روما في غضون عامين. إيطاليا بدورها، تعهَّدت بضمان تأمين الأراضي البابوية ضد أي هجوم، كما وافقت على نقلِ عاصمتها من تورين إلى فلورنسا في غضون ستة أشهر.

لم تُحَسِّن المعاهدة، التي كان أن بقيت نافذةً لست سنوات، أُفُق أو احتمالات استيعاب روما في الدولة الإيطالية الجديدة مباشرة؛ والحقيقة أنها كانت تبدو — على الأقل مؤقتًا — ضامنةً للوضع القائم. من ناحية أخرى، بوضعِ نهاية للاحتلال الفرنسي

الذي دام خمس عشرة سنة، فإنها بتجميدها الوضعَ القائم في روما، مكَّنت الحكومة من توجيه اهتمامها إلى الضرورات المُلحَّة في تلك السنوات الأولى من عمر الدولة الإيطالية؛ أي استعادة الـ «فينيتو Veneto» (فينيسيا). فيما مضى، ولفترةٍ ما، كانت فكرة غزو البلقان تداعب خيالَ الملك فيكتور إيمانويل — ربما بقيادة غاريبالدي — لإثارة تمرُّد بين الشعوب التابعة للنمسا؛ وعندما تكون النمسا مشغولةً باستعادة النظام، سيكون من السهل احتلالُ الأراضي الإيطالية. لسوء الحظ، كان أن استخفَّ نابوليون الثالث بتلك الفكرة، وعليه تخلَّى عنها الملك. كان دعم نابوليون يمكن أن يكون شديدَ الأهمية.

الآن، وبضربةِ حظٍّ غير متوقَّعة، خرج فجأةً من القمقم، المارد الذي سيلقي بالمنطقتين المشتَهاتَين في حجر إيطاليا؛ كان ذلك هو المستشار البروسي أوتو فون بسمارك Otto Von Bismarck، الذي كان الآن في طريقه لتحقيق حُلمه بتوحيد الدول — الولايات الألمانية في إمبراطورية واحدة. كانت حجرَ العثرة الوحيدة هي النمسا، التي كان مصرًّا على القضاء على نفوذها في ألمانيا. وعليه، فقد تودَّد للجنرال لا مارمورا La Marmora، الذي كان قد أصبح رئيسًا لوزراء فيكتور إيمانويل مرةً أخرى، واقترح عليه تحالفًا عسكريًّا: يتم الهجوم على النمسا من جبهتين في الوقت نفسِه، بروسيا من الشمال وإيطاليا من الغرب. في حالِ الانتصار، ستكون فينيسيا هي المكافأة التي تحصُل عليها إيطاليا. وافق مارمورا عن طيبِ خاطر، كما لوَّح نابوليون الثالث بأنه لم يكن له أيُّ اعتراض على ذلك. تم توقيع الاتفاق في الثامن من أبريل ١٨٦٦م، وفي الخامس عشر من يونيو بدأت الحرب.

بعد ستة أسابيع، كانت قد انتهت. كانت معركة واحدة تكفي بالنسبة للبروسيِّين. وقعَت تلك المعركة في سادوفا Sadowa على بُعد خمسة وستين ميلًا تقريبًا شمال شرق براغ Prague، وشارك فيها أكبرُ عدد من القوات — نحو ثلاثمائة وثلاثين ألفًا — في تاريخ ميادين القتال في أوروبا — (كانت الأولى كذلك التي يتم فيها استخدام السكك الحديدية والبرق على نطاقٍ واسع). كان الانتصار البروسي كاملًا شاملًا، أدَّى إلى إفلاسِ الموارد العسكرية للإمبراطور النمساوي فرانز جوزيف الأول Franz Joseph I وفتْحِ الطريق إلى فيينا. حقَّق بسمارك ما كان يريده تمامًا، وكان سعيدًا بالموافقة على طلبِ النمسا عقْدَ هدنة.

لسوء الحظ، كان ما تحقَّق بالنسبة لإيطاليا أقلَّ من ذلك بكثير. هُزم جيشُها الرئيسي، بقيادة الملك ولامارمورا والجنرال إنريكو سيالديني Enrico Cialdini، عدةَ مرات في كاستوزا وحولها — وذلك لسوء حظ آل سافوي — كما دُمِّرت بحريتُها كلُّها

تقريبًا في البحر بالقرب من ليسا Lissa (الآن جزيرة فيز Vis الكرواتية). الأخبارُ الطيبة الوحيدة كانت تلك عن غاريبالدي، الذي لبَّى بكل سعادة دعوةً لقيادة قوة من خمسة وثلاثين ألف مقاتل على التيرول Tyrol. ورغم أنه لم يسجِّل انتصارًا كبيرًا، أحدَث الكثير من الارتباك للنمساويين. الحكومة الإيطالية، التي كانت مستقرة الآن في فلورنسا، بالرغم من استيائها إلى حدٍّ ما لعدم استشارتها حول شروط الهدنة، رحَّبت بها على الأقل بسببِ ما تقرَّر بشأن «فينيتو»؛ وحيث إن النمسا لم تكن قد اعترفت بعدُ بالمملكة الإيطالية الجديدة، تم اتباع نفس الأسلوب الذي كان قد سبق تطبيقه على لومبارديا قبل خمس سنوات: التنازل عن الإقليم لـ «نابوليون الثالث»، الذي قام بتسليمه لـ «فيكتور إيمانويل» على الفور. تم تأكيد التخلي عن الإقليم باستفتاءٍ كانت نتيجته قرارًا كان قد تم اتخاذه سلفًا. كان هناك قدْرٌ من خيبة الأمل؛ لأن المنطقة التي تم التخلي عنها لم تكن تتضمَّن تيرول الجنوبية South Tyrol (ما يُطلِق عليها الإيطاليون: ترنتينو Trentino) أو فينيزيا جيوليا Venezia Giulia التي كانت تضمُّ تريستا Trieste وبولا Pola وفيوم Fiume (ريكا Rijeka الحديثة)؛ بالنسبة لتلك المناطق، سوف تنتظر إيطاليا إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى. ولكنَّ فينيسيا أصبحت مدينةً إيطالية أخيرًا، وأصبح لإيطاليا أن تزهوَ بميناء جديد عظيم القيمة على الأدرياتيكي الشمالي. روما، فحسب، هي التي بقيت.

بنهاية العام ١٨٦٦م، كان آخر الجيش الفرنسي قد غادر روما. لم تكن جماعةُ المرتزقة المؤلَّفة من عناصرَ مختلفة، التي كان البابا بيوس قد جنَّدها، لم تكن لتمثل أيَّ خطر على أحد؛ وبحلول أوائل العام ١٨٦٧م كان المتآمرون القدامى قد استعادوا قوَّتهم. ماتزيني، الذي كان يلعب على مخاوفِ بسمارك من تحالفٍ فرنسي-إيطالي، كان يطلب أموالًا ومئونة ليقلب الحكومة في فرنسا؛ غاريبالدي — وليس للمرة الأولى — كان يجهِّز للزحف على روما، وتمادى في ذلك لدرجةِ أن أصدر نداءً يدعو فيه كلَّ محبي الحرية من أهالي روما إلى الثورة. وحيث إن معاهدة سبتمبر كانت ما تزال أمامها أربع سنوات تظل فيها سارية، لم يكن أمام الحكومة سوى أن تلقيَ القبض عليه وتعيده إلى كابريرا Caprera، إلا أنه سرعان ما تمكَّن من الهرب. كان الآن في الستين من العمر، وأعاد تجميعَ متطوعيه ليبدأ زحفَه الموعود.

كان قد أسقط الفرنسيين من حساباته. نابوليون الثالث، بعد أن أدرك أنه سحب قواته باكرًا، أرسل جيشًا جديدًا مجهزًا ببنادق «الشاسيبو Chassepot». رسا الجيش في

شيفيتافيكيا في الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر. لم يكن أمامَ المتطوعين، الذين كانوا أقلَّ عددًا وكفاءة، أيُّ فرصة. بعد يوم أو يومين، لقوا حتفَهم في «مينتانا Mentana». تمكَّن غاريبالدي من أن ينسلَّ عائدًا عبْر الحدود إلى داخل إيطاليا، ومن ثَم وقع في يد السلطات. أعادوه مرةً أخرى إلى كابريرا حيث سيبقى — هذه المرة تحت حراسة مشدَّدة — تحت الإقامة الجبرية؛ أما رجاله فكانوا أقلَّ حظًّا. وقع أكثرُ من ألف وستمائة منهم في الأسر.

مرةً أخرى، وبفضل سرعة تصرُّفه، أنقذ الإمبراطور نابوليون السلطةَ الزمنية للبابوية؛ لم يكن أحدٌ يتوقَّع أنه بعد أقلَّ من ثلاث سنوات، سيكون له دَور كبير في إسقاطها. كان المحرِّك الرئيسي، مرةً أخرى، هو بسمارك، الذي جرَّ رجل فرنسا بكل دهاء إلى حرب، عندما هدَّد بوضعِ أميرٍ من أسرة «هوهنزولرن Hohenzollern» البروسيةِ الحاكمةِ على عرش إسبانيا. تم إعلانُ ذلك — بواسطة فرنسا وليس بروسيا — في الخامس عشر من يوليو ١٨٧٠م. أسفر ذلك عن صراعٍ مرير؛ سيكون نابوليون في حاجة إلى كل جندي لديه للقتال القادم. وبنهاية أغسطس، لم يكن هناك جندي فرنسي واحد قد بقي في روما.

كان البابا بيوس على درايةٍ تامة بالخطر. لم يكن قد بقي لحمايته سوى جيشه الصغير المكوَّن من المرتزقة. بعد ثلاثة أيام من إعلان الحرب وأثناء أول اجتماع للفاتيكان،[١٦] وفي ذروةِ أعتى عاصفة رعدية قد يتذكَّرها أيٌّ من أهالي روما، حاول البابا أن يدعم مركزه بإعلانه مبدأ العصمة البابوية Papal Infallibility. كانت خطوةً جلبَت على قضيته من الأضرار أكثرَ مما جلبت من الفائدة،[١٧] ولكن كان هناك بعضُ الجدوى من مناقشتها: هزيمة نابوليون في «سيدان Sedan» في الأولِ من سبتمبر، أُعلِنت نهاية الإمبراطورية الثانية ودمارُ الآمال الأخيرة لـ «بيوس». كان الموضوع الوحيد الذي ما زال في حاجة إلى حسم، في رأي أعضاء الحكومة، هو مسألةَ التوقيت: هل يستطيع جيشهم احتلالَ روما فورًا، أم تُرى عليهم انتظار حدوث تمرُّد أو انتفاضة شعبية؟ كانت معاهدة سبتمبر على وشْك الانتهاء، وكانت إزالة أحدِ الموقِّعين عليها تعني أنها لم تَعُد ساريةَ المفعول.

في الوقت نفسِه، وجَّه فيكتور إيمانويل مناشدةً أخيرةً للبابا: «بكل حبِّ الابن، وإيمان الكاثوليكي، ووفاء الملك وروح الإيطالي»، مضيفًا أن الأمن الإيطالي وكذلك أمن الكرسي المقدَّس نفسه، كان يعتمد على وجود القوات الإيطالية في روما. هل يقبَل قداسته هذا الوقعَ الراسخ ويُظهِر تعاونه الكريم؟ من أسفٍ أن قداسته لن يفعل شيئًا مثل ذلك، سوف يرضخ، كما أعلن، للعنف فحسب، وحتى آنذاك سيقوم بقدْرٍ ضئيل من المقاومة على الأقل.

كان عند كلمته. عندما دخلت قواتٌ إيطالية روما صباح العشرين من سبتمبر ١٨٧٠م عن طريق «بورتا بيا Porta Pia»، وجدت في انتظارها مفرزةً من السفن البابوية. انتهى القتال بسرعة، ولكن ليس قبل أن يخلِّف تسعة عشر شخصًا، من أتباع البابا، وتسعة وأربعين إيطاليًّا، موتى في الشوارع.

في غضون الساعات القليلة التالية، كانت روما تعجُّ بالقوات الإيطالية، تاركةً الفاتيكان وكاستيل سان أنجلو فحسب، التي كانت ترفرف عليها الآن رايةُ الاستسلام البيضاء. توقَّفت المقاومة. انسحب البابا بيوس إلى داخل أسوار الفاتيكان حيث سيبقى طوال السنوات الثمانية الباقية من عمره. كانت نتيجة الاستفتاء الذي أُجري بعد ذلك بوقت قصير: ١٣٣٦٨١ صوتًا لصالح إدماج روما في مملكة إيطاليا، و١٥٠٧ أصوات ضد ذلك. الآن، كان أن أصبحت روما جزءًا من إيطاليا، ليس من خلال حقِّ الغزو، وإنما بناءً على رغبةِ شعبها وإرادته. كانت مدينة الفاتيكان فحسب، هي التي بقيت دولةً ذات سيادة.

لم يدخل فيكتور إيمانويل عاصمتَه الجديدة رسميًّا إلا في الثاني من يوليو ١٨٧١م. كانت الشوارع مزدانةً لهذه المناسبة عندما أبرق للعمدة، الأمير «فرانسيسكو باللافيسيني Francesco Pallavicini» لكي يوقفَ كلَّ مظاهر الاحتفال. وباعتباره كاثوليكيًّا ورِعًا، أصابه الخوف وليس الحزن فحسب، عندما صدر ضده حكمٌ بالحِرْم الكنسي. كتب المؤرِّخ البروسي فرديناند جريجوروفيوس Ferdinand Gregorovius، المتخصِّص في تاريخ روما في العصور الوسطى، كتب في مفكِّرته: «إن الموكب كان بسيطًا، بلا أبَّهة أو عظَمة أو فخامة … أو حيوية، وكأن ذلك هو ما ينبغي؛ حيث إن ذلك اليوم كان إعلانًا بنهاية حكم الباباوات الألفي لروما.» بعد الظهر، استحثوا الملِك على عبور النهر إلى «تراستيفير Trastevere»؛ حيث كان قد تم ترتيبُ احتفال صغير بواسطة الجماهير، الذين كان معظمهم من الطبقة العاملة. رفض الملك بشدة، مضيفًا، بلهجةِ بيدمونت، التي ربما لم يكن معظمُ مَن حوله يفهمون كلمةً منها: «إن البابا على بُعد خطوتين فحسب من هنا، وربما يؤذيه ذلك. لقد صنعتُ ما يكفي بالفعل بحق ذلك العجوز المسكين.»

هوامش

(١) في ذلك الوقت لم تكن تضم منطقةَ دوقيات سافوي القديمة بما في ذلك عاصمتها تورين فحسب، كانت هناك كذلك جزيرةُ سردينيا، وكونتية نيس، ومنذ ١٨١٥م كانت هناك مدينةُ جنوة Genoa.

(٢) كان معروفًا حتى في إنجلترا. في الرابع من سبتمبر ١٨٥٠م دخل مع صديقين له مصنعَ باركلينر للجِعة في لندن، وسرعان ما تعرَّف عليه العمال من شاربه الطويل الغريب، فهاجموه وألقوا عليه الرَّوث. طاردوه إلى أن لجأ إلى نُزل قريب حيث أنقذته الشرطة منهم في النهاية.

(٣) الـ «كارابنييري» Carabinieri: جنود القربينة (البندقية القصيرة). (المترجِم)

(٤) منطقة في الشمال الإيطالي. (المترجِم)

(٥) فيلقُ مشاة من حمَلَة البنادق. (المترجِم)

(٦) ذلك الجزء من روما الواقع غرب نهر التيبر.

(٧) Dovunque saremo, Colà sera Roma.

(٨) كان الأمير نابوليون قد استغلَّ سقوط المِلك لويس-فيليب في ١٨٤٨م، ليتم انتخابه في ديسمبر من ذلك العام نفسِه رئيسًا للجمهورية الفرنسية الثانية؛ وفي ١٨٥٢م تم تثبيتُه ليكون الإمبراطورَ نابوليون الثالث.

(٩) مربَّع القلاع. (المترجِم)

(١٠) لم يكن هناك ذكرٌ لـ «روماجنا Romagna، أو بارما Parma، أو بياكنزا Piacenza» التي لم يكن مسئولًا عن أيٍّ منها إمبراطورٌ بعينه.

(١١) لم يكن قد غفر لـ «كافور» كلماته القاسية بعد فيللا فرانكو، ولا اعتراضه — بنجاح — بعد موت المِلكة ماريا أديلاد Maria Adelaide في ١٨٥٥م وهي في الثالثة والثلاثين، على زواجِه من عشيقته.

(١٢) تصِفه دائرةُ المعارف الإيطالية Enciclopedia Italiana بأنه كان «جادًّا، قليلَ الكلام، سوداويًّا، خجولًا، أخرقَ، دائمَ الشك في نفسه وفي الآخرين».

(١٣) كان نجاة كنيسة سان أنجلو من الدمار أشبَه بالمعجزة، وهي أعظمُ أثرٍ في كامبانيا Campania، جدرانها مغطَّاة من الداخل برسوم جصية تعود للقرن الحادي عشر وما زالت بحالةٍ ممتازة.

(١٤) أحد الآلام Passion Sunday: الأحد الخامس من آحادِ الصوم الكبير. (المترجِم)

(١٥) L'Italia è fatta, restano a fare gli italiani.

(١٦) استدعى البابا المجلس في ١٨٦٨م لمناقشة عدة موضوعات لاهوتية وإدارية.

(١٧) خاطب ماتزيني الأساقفة السبعمائة الحاضرين: «العِلم يمضي في طريقه للأمام، غيرَ عابئ بمعتقداتكم، ولا باتهاماتكم أو مداولاتكم، ممزِّقًا مع كل اكتشاف جديد صفحةً أخرى من ذلك الكتاب الذي تدَّعون عصمتَه.»

الفصل التاسع والعشرون

المِلكات والكارليون

- الحروب الكارلية: ١٨٣٩م.
- ماريا كريستينا تعود إلى الوطن: ١٨٤٣م.
- الهجوم على قصر المِلكة: ١٨٥٤م.
- المناداة بـ «دون كارلوس ماركا»: ١٨٦٨م.
- انتهاء الحرب الكارلية الثانية: ١٨٧٦م.
- موت المِلكة إيزابيل: ١٩٠٤م.

* * *

في الثلاثين من سبتمبر ١٨٦٨م، استقلَّت «إيزابيل الثانية Isabel II» مِلكة إسبانيا قطارًا هي وأبناؤها من سان سيباستيان San Sebastian في طريقهم إلى المنفى. لم يكن رحيلُها نهايةً لحكمها فحسب، بل ربما لأكثر الفترات اضطرابًا في تاريخ البلاد.

كانت القصة قد بدأت بأبيها فرديناند السابع Ferdinand VII، الذي كان قد تنازل مع جَدها شارل الرابع Charles IV عن حقِّه في العرش.[1] كان من الواضحِ أن سقوط نابوليون جعل تلك التنازلات كأن لم تكن، وبعد أن ورِث فرديناند العرش في ١٨١٤م، حكمَ إسبانيا لمدة خمس عشرة سنة، كانت بعيدةً كلَّ البُعد عن الكفاءة، عندما ترمَّل في ١٨٢٩م للمرة الثالثة. مات كل أبنائه من زوجاته الثلاث في سنِّ الطفولة وكان شديد الرغبة في أن يكون له ابن، ورغم أن فرصةَ ذلك كانت تبدو شديدةَ الضآلة بسبب مرض النقرس ونوبات الصرع المتكررة، كان يرفض أن يفقدَ الأمل في الإنجاب. كانت المشكلة هي أن يجد الزوجةَ المناسبة. كان شقيقه الأصغر فرانسيسكو دي باولا Franciso de Paula متزوجًا من إحدى بنات فرانسيس الأول Francis I مِلكِ نابولي؛ وكانت قد عُمِّدت

باسم ماريا لويزا كارلوتا Maria Luisa Carlotta، إلا أنها كانت تُعرف في إسبانيا باسم كارلوتا Carlotta. كانت هي التي أرت الملكَ صورةً صغيرة — مرسومة — لشقيقتها ماريا كريستينا Maria Cristina ذاتِ الثلاثة والعشرين ربيعًا، فلم يَعُد فرديناند ينظر أبعدَ من ذلك. في الثاني عشر من ديسمبر ١٨٢٩م، تزوَّج من الأميرةِ الصغيرة في كنيسة السيدة العذراء في مدريد.

كانت كريستينا شديدةَ الجاذبية، عابثةً بلا حياء، ولديها طاقة هائلة على الاستمتاع بالحياة، وكانت مثلَ نسمةٍ رقيقة منعِشة هبَّت على البلاط الإسباني، لتبدِّد كآبته الخانقة. سرعان ما أسرَت قلوبَ الكل إلا قليلًا؛ حيث إن الزواج كان قد جاء ضربةً قاصمة لولي العهد دون كارلوس Don Carlos، الشقيقِ الأصغر للملك، كما كان أكثرَ من ضربة قاصمة لزوجته ماريا فرانسيسكا البراجانزية Maria Francisca of Braganza، كانا زوجين غير متجانسين. كان دون كارلوس قَزَمًا تقريبًا، برغم ذقنِه وأنفِه ذي الملامح البوربونية البشِعة، كان متدينًا بدرجةٍ مَرَضية شديدة التزمت، مستبدًّا، متعصبًا ... وضعيفًا. يصفه كاتب اليوميات الإنجليزي هنري جريفل بأنه كان «أبله ... شديدَ التعصب ... شاذًّا جنسيًّا ... شديدَ الجبن ... خاملًا ... ليس لديه ذرةٌ من موهبة.» على العكس من ذلك تمامًا، كانت ماريا فرانسيسكا جميلةً وجليلة وذكية وطموحة وصاحبة حضور طاغٍ. حتى ذلك الحين، كانت متأكدة من اعتلاء زوجها العرش، أما الآن فأصبحت هناك فرصةٌ لأن يضيع منه. القادم كان أسوأ. عندما أُعلِنَ بعد ثلاثة أشهر من الزفاف أن الملِكة كانت حاملًا، أعلن فرديناند عن تطبيق المرسوم الملكي القديم Pragmatic Sanction، الذي تم التخلي بموجبه عن القانون الصالي Salic Law،[٢] الذي كان يمنع تولي الإناثِ العرشَ بالوراثة. بمعنًى آخرَ، فإن المولود الذي كان قد طال انتظاره، ذكرًا جاء أو أنثى، سوف يرِث عرشَ إسبانيا.

أما المولود الذي كان قد طال انتظاره فكان طفلة، عُمِّدت في العاشر من أكتوبر ١٨٣٠م باسم ماريا إيزابيل لويزا Maria Izabel Luisa. الكارليون The Carlists — كما أصبح يُطلَق على الموالين لدون كارلوس — كان يمكن أن يشعروا بقدرٍ من الارتياح لذلك، ولكن بمرور الوقت، ومع تدهور صحة الملك بدأت فكرة أن تتولَّى ملِكةٌ الحكمَ تصبح مثيرة للقلق. بعد ذلك، أصيب فرديناند إصابةً جسيمة في حادث مركبة وهو في طريقه إلى قصره الصيفي في لاجرانجا La Granja في يوليو ١٨٣٢م، وبعد شهرين كان ما زال في النزع الأخير. الملِكة، التي كانت نادرًا ما تفارق موقعها بجوار فراشه طوال

الشهرين، استشارت أحد وزرائه الكبار، وأصابها الفزع عندما علمَت منه أن البلاد كلَّها سوف تتجمع حول دون كارلوس على الفور. من المؤكد أن تكون ماريا فرانسيسكا قد همست بتحذيرها الشديد، وتم إقناع الملك الذي لم يكن في كامل وعيه بضرورة إلغاء المرسوم الملكي القديم، إن كان له أن يتفادى حمَّام دم متوقَّعًا. على وجه السرعة، تم صياغة مرسوم وقَّعه بيدٍ مرتعشة. بعد قليل، أُعلِن عن وفاته، وكان ما يتراءى للكل هو أن دون كارلوس هو الملك.

إلا أنه لم يكن. فجأة، اكتشف الحانوتية الذين كانوا قد جاءوا لتجهيز الجثمان وجودَ دلائل على أنه كان ما زال حيًّا ... ثم بدأ فرديناند يفيق شيئًا فشيئًا. حتى بالرغم من ذلك، كان يمكن أن تظل الوثيقة التي وقَّعها، ولم يكن الحبر الذي كُتبت به قد جفَّ بعدُ، ساريةَ المفعول، لولا كارلوتا زوجة شقيقه. بمجرد أن وصلتها الأخبار في كاديز Cadiz، طلبتْ عربتها وانطلقتْ بأقصى سرعة لتقطع مسافةً أطول من أربعمائة ميل من الطرق الوعرة، متجهةً إلى لاجرانجا. لم تكن صحة الملك ذاتَ أهمية كبيرة بالنسبة لها، ولكنها كانت تكره دون كارلوس وزوجته، ولم يكن لديها النية أن تتركهما يحرمان ابنةَ أختها من تاجها المستحَق. بمجرد وصولها، ذهبت مباشرةً إلى الملكة ووبَّختها بعنف لضعفها، وطلبت أن ترى مرسومَ إلغاء القانون. وهم يُرونه لها، خطفته من يد المسئول ومزَّقته.

عاش فرديناند سنةً أخرى، رأس خلالها حفلًا في كنيسة لوس جيرونيموس Los Jeronimos القديمة في مدريد، كان مخصصًا لتدعيم حقِّ ابنته الصغيرة في خلافته. اصطفَّ كلُّ أعيان إسبانيا — مع استثناء واحد — وراحوا يُقبِّلون أيدي الملك والملكة والأميرة الصغيرة In Fanta — ذات العامين. في التاسع والعشرين من سبتمبر ١٨٣٣م، أصيب فرديناند بسكتة دماغية. هذه المرة لم يَعُد إلى الحياة، أما الأميرة الصغيرة، فأُعلِنت ملِكةً باسم إيزابيل الثانية Isabel II. اعترفت بها كلٌّ من بريطانيا وفرنسا والبرتغال؛ من ناحيةٍ أخرى فإن دون كارلوس الذي أعلن نفسه ملكًا باسم شارل الخامس Charles V، لقي تأييد روسيا والنمسا والبابا، أما الأكثر غرابةً فكان تأييد فرديناند الثاني ملِك نابولي شقيق ماريا كريستينا. أما بالنسبة لإسبانيا نفسها فقد انشطرت نصفين، كانت مدريد والجنوب بالإجماع مع إيزابيل؛ بينما هبَّ كثير من المدن والبلدات في الشمال على الفور يؤيدون دون كارلوس. بدأت الحروب الكارلية — آخرُ حروب التاريخ الأوروبي، التي تَقاتل فيها خصمان يدَّعي كلاهما أحقيَّته في العرش — وكان أن استمرت على نحوٍ متقطع على مدى ما يقرُب من نصف القرن، وربما أكثر من ذلك.

هناك مَن يرى أن القوميِّين Nationalists، في الحرب الأهلية الإسبانية، كانوا كارليِّين في حقيقة الأمر؛ حيث أصبحت الكارلية Carlism تعني ما هو أكثر من موالاة دون كارلوس، والاقتناع الراسخ بأنه كان الحاكم الشرعي لإسبانيا. كذلك فإنها كانت تمثِّل كلَّ التقاليد الإسبانية الرجعية: الكاثوليكية المتشددة، مع طاعةٍ عمياء للكنيسة، وربما الحنين لمحاكم التفتيش «ذلك المنبر المرعب الذي جاءت به الملائكة من السماء إلى الأرض»؛ والاستبداد السياسي تحت مِلك مُطلَق السلطة «وليس مِلكة تحت أي ظرفٍ من الظروف»؛ وتقشُّف وزهد كانا طويلًا من ملامح الشخصية الإسبانية. في مواجهة ذلك كله، كانت هناك موجة الليبرالية الهائلة التي اكتسحت أوروبا كلَّها في القرن التاسع عشر، وكانت تمثِّلها الآن إيزابيل الصغيرة ورعاياها المخلصون لها. لم يُعرف عن الأسرة الملكية الإسبانية أية آراء يسارية، إلا أنهم، مقارنةً بالكارليِّين، كانوا يعتبرون ثوريِّين متطرِّفين. كانوا على أية حال في حاجة لدعم ليبرالي، وهكذا أصبحوا ليبراليِّين على غيرِ رغبة منهم، وقد برهنوا على ذلك بإعادة دستور ١٨١٢م المعروف بملامحه الليبرالية الواضحة.[٣]

كانت إسبانيا الآن ممزقة بسبب الحروب الأهلية، والمعروف أن الحرب الأهلية هي أقسى الحروب وأكثرها ضراوةً. كان القتال عنيفًا في الشمال، مع ارتكاب كثير من الفظائع بحق الرجال والنساء والأطفال في كلا الجانبين. وأخيرًا، تفاوض الكارليون سرًّا في أغسطس ١٨٣٩م على اتفاق للاستسلام. عبَر دون كارلوس الحدودَ إلى فرنسا حزينًا؛ حيث احتفظ ببلاط غريب نوعًا ما مع زوجته الثانية[٤] وأبنائه الثلاثة في بورجيس Bourges. عاش خمس عشرة سنة أخرى، ولكنه لم يَعُد إلى إسبانيا قط.

بالقرب من نهاية أغسطس ١٨٤٠م، انطلقت ماريا، القائمة بالوصاية، إلى برشلونه، ظاهريًّا للاستشفاء في منتجع كالداس، والحقيقة أنها كانت تريد أن تلتقي ﺑ «بالدوميرو إسبارتيرو Baldomero Espartero»، أبرز جنرالات البلاد لتستشيره في كل الأمور. كان دستور ١٨١٢م قد منح درجةً كبيرة من الاستقلال لبلديات الدولة، وكان الكثير منها قد حصل على ما كانت هي تعتبره أكثر من الميزات التي مُنحت في الحرب الأخيرة. كان الأعضاء الأكثر محافظةً في الحكومة، حريصين الآن على تحجيم سلطات البلديات بواسطة ما عُرف ﺑ «قانون البلديات Municipal Bill»، وكانت ماريا كريستينا معهم في ذلك قلبًا وقالبًا، ومن ناحيةٍ أخرى كان الليبراليون مصرِّين على عدم تنفيذ ذلك. كان من الواضح أن هناك مشكلة كبيرة تختمر. وباعتبار أن قطالونيا لم تكن ممن يكنُّون حبًّا كبيرًا للأسرة

الحاكمة، إلا أن ماريا كريستينا فوجئت بالاستقبال الدافئ لها وكانت مسرورة لذلك؛ ولكنه لم يكن شيئًا مقارنةً بالاستقبال الرائع لـ إسبارتيرو بعد يومين، وعندما أبلغها الجنرال بمعارضته الشديدة للقانون، كانت شديدة الضيق والغضب لذلك، وقامت على الفور بتوقيعه نكايةً فيه.

في تلك الليلة، هبَّت برشلونة كلها احتجاجًا. أحاط العامة بالقصر يهتفون بحياة الجنرال والدستور، ويهدِّدون بقتل الوصية على العرش ووزرائها. في الواحدة ليلًا، كانت كريستينا تتوسَّل للجنرال مذعورةً لكي يطلب من الجماهير الانصراف، ولكنه رفض أن يفعل ذلك حتى تسحب موافقتها على القانون. فعلت ذلك، إلا أنها حاولت أن تغيِّر رأيها بعد أيام قليلة، ومرة أخرى دبَّت الفوضى. هربت ماريا إلى فالينسيا، إلا أن الشرارة كانت قد انطلقت؛ ففي الأول من سبتمبر، ثارت مدريد وندَّدت بالحكومة ... وسرعان حذت حذوها مدنٌ أخرى كثيرة. وبعد أن ابتلعت ما كان قد تبقى من كرامتها ودعت إسبارتيرو لتشكيل حكومة، عاد للبلاد قدرٌ من الهدوء. آنذاك، ألقت ماريا كريستينا قنبلتها. أعلنت تنازلها عن الوصاية على العرش، رجاها إسبارتيرو وطلب منها أن تعيد التفكير في الأمر، إلا أنها أصرَّت على موقفها. يقال إن آخر كلماتها له كانت: «لقد جعلت منك دوقًا (على موريللا Morella)، إلا أنني فشلت في أن أجعل منك شخصًا نبيلًا». ودَّعت الأميرتين الصغيرتين بعد ذلك (كانتا في العاشرة والثامنة على التوالي؛ حيث كانت الصغرى ماريا لويزا فيرناندا من مواليد ١٨٣٢م)، وفي السابع عشر من أكتوبر استقلَّت سفينة مع أسرتها الثانية، شبه السرِّية،[٥] حاملةً معها كلَّ ما في القصر من أموال ومجوهرات وفضيات ومفروشات.[٦]

ربما كانت الغنيمة التي حملتها معها ماريا كريستينا كافية لكي تجعلها تعيش هي وأسرتها في راحة ودَعة بقيةَ حياتهم، إلا أن تنازلها عن الوصاية كان قصيرًا. لقيت هي وأسرتها ترحيبًا واستقبالًا حارًّا في باريس، سافر الملك لويس فيليب إلى فونتين بلو Fintaineblean للقائهم، كما خصَّص لهم مسكنًا فخمًا في الباليه رويال. في ديسمبر قاموا بزيارةٍ لروما؛ حيث وقَّعت إقرارَ ندم وتوبة — مكتوبًا — عن كل القوانين المعادية للإكليروس التي كانت قد وافقت عليها. حصلت من البابا جريجوري السادس عشر Gregory XVI على غفران شامل، قبل أن تعود إلى باريس. ولكن، في الثامن من نوفمبر، أعلن أن الملكة إيزابيل الثانية، وكانت في الثالثة عشرة، كانت قد بلغت السن القانونية. الآن لم تكن هناك أي عقبات سياسية تحول دون عودة أمها إلى إسبانيا،

كانت المشكلات القائمة مشكلاتٍ مالية فحسب. طلب الليبراليون أن تدفع كريستينا أولًا تعويضًا عن كلِّ ما حملته معها عند مغادرتها إلى فرنسا. أدَّى ذلك إلى جدال قانوني طويل، وبخاصة بعد أن رفعت دعوى مضادة مطالبة بمعاش لم يُدفع لها؛ إلا أنه بعد تسوية الأمور، كان أن أصبحت أغنى من ذي قبل. وفي آخر الأمر، كانت مستعدةً للعودة إلى وطنها.

في كل مرحلة من مراحل رحلتها عبْر إسبانيا، كانت تلقى استقبالًا حارًّا. أظهرت هي كذلك أنها بعد خمسة عشر عامًا، وبرغم الزيادة الكبيرة في وزنها، لم تفقد شيئًا من سحرها وفتنتها الشبابية. بعد عودتها إلى مدريد، عاد للبلاط بهاؤه القديم. حدث ذلك بين عشية وضحاها. حفلات الرقص والاستقبال والعشاء ... توالت، كانت تطغى فيها ماريا بجمالها ورقي تصرُّفاتها على حضور ابنتها الجافة نوعًا ما، التي أصبحت أكثرَ جفافًا عندما أدركت أن أمها كانت أكثرَ رقيًّا. هذه الأحوال، على أية حال، ليست غريبة بالنسبة للمراهقات، ولكن إيزابيل تغيرت بسرعة.

في الثالث من أبريل ١٨٤٦م أرسل الكومت دي برسو Comte de Bresson، السفير الفرنسي لدى البلاط الإسباني، أرسل إلى وزير خارجيته فرانسوا جيزو Francois Guizot رسالةً موجزة محدَّدة: «الملكة بلغت سن الزواج لمدة ساعتين».[٧] لم يكن كثير من السفراء يمكن أن يهتم بمثل تلك الملاحظة، ولكن من الصعب القول إن ماريا كريستينا لم تكن تنتظر تلك اللحظة السعيدة. على مدى عدة شهور، كانت قد كرَّست وقتًا طويلًا للتفكير في أمر زواج ابنتها. لم يفكر أحدٌ في استشارة إيزابيل نفسها. هناك في بورجس Bourges، كان دون كارلوس يقوم بتدبير الأمور نيابةً عن ابنه كونت مونتمولا Count Montemolin، إلى درجة التنازل له عن العرش. كان من الواضح أن زواجًا مثل ذلك، يكفي لإنهاء قضية الكارليين إلى الأبد، إلا أنه كان يمكن أن يخفِّض الملكة إلى وضع الملكة المرافقة Queen Consort، وهو المنصب الذي كانت أمُّها قد رفضت أن تفكِّر به. في باريس، كان لويس فيليب يدعم ابنه دوق دي مونبنسييه Duc de Montpensier؛ بينما في لندن — حيث كانت فكرة الاتحاد الملكي بين فرنسا وإسبانيا أمرًا بغيضًا — كانت الملكة فيكتوريا واللورد بالمرستون Palmerston يضغطان من أجل ابن عم زوجة الأمير، ليوبولد Leopold، أمير كوبرج Coburg. كان ذلك بدوره غير مقبول بالنسبة لـ «لويس فيليب»، الذي أشار، بكل تهذيب، إلى أنه كان هناك بالفعل أمراء لـ «كوبرج» في بروكسيل

ولندن ولشبونة، وأن أربعة سيكون عددًا كبيرًا. اقترح ملك نابولي شقيقه كونت تراباني Count of Trapani، ولكن؛ حيث إنه كان يدرس في روما مع الجيزويت الذين كانوا محظورين آنذاك في إسبانيا، لم يأخذ أحدٌ اقتراحه على محمل الجِد.

في آخر الأمر، كانت ماريا كريستينا مضطرةً لتخفيض نظرتها، والبحث في إطار العائلة، وتم الاتفاق في النهاية على أن تتزوج إيزابيل، سيئة الحظ، من فرانسيسكو دي أسيس Francisco de Asis[٨] ابنِ عمها وابنِ خالتها كارلوتا Carlota التي كانت قد توفِّيت من وقت قريب. لم تكن التوقعات مبشِّرة؛ كان الزوج المستهدَف قصير القامة، شخصية غير جذابة، عالي الصوت بدرجة مزعجة، وكان الشائع عنه أنه شاذٌّ جنسيًّا وربما عنِّين؛ وكأن ذلك لم يكن كافيًا. ما زاد الأمر سوءًا، كان قرار أن تتزوج شقيقته الملكة الأصغر (والأجمل) لويزا Luisa من دوق دي مونبنسييه Duc de Montpensier، الأكثرِ جاذبيةً ووسامةً ورقيًّا، وكان المفترض أن يتم الزواج في الوقت نفسه.

تم الزواج الثنائي في العاشر من أكتوبر ١٨٤٦م، يوم عيد ميلاد إيزابيل السادس عشر. عندما تم إعلان فرانسيسكو دي أسيس (الذي كان يبدو، كما يقال، مثل فتاة صغيرة في ثياب جنرال) وإيزابيل زوجين، انخرط كلاهما في البكاء. بعد سنواتٍ سأل أحد الأصدقاء الملِكة عن ليلة زفافها. أجابت: «ماذا أقول عن رجلٍ كان يرتدي من اللاسيه أكثرَ مما كنت أرتدي؟» الحقيقة، أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أنها، حتى قبل زواجها، كانت قد عرفت أولَ عشَّاقها الكُثر. كان ذلك هو الجنرال فرانسيسكو سيرانو Francisco Serrano «أكثر الرجال وسامةً في إسبانيا»، ولكن عندما ظهرت عليها علامات الحمل في أواخر صيف ١٨٤٧م وأصبح التقارب الرسمي مع زوجها ضروريًّا، تم نقل سيرانو إلى غرناطة برتبةٍ أعلى. لم تأسف إيزابيل (حتى على انفراد) لرحيله؛ حيث كانت قد عرفت مطربًا شابًّا من الأوبرا.

عندما بلغت سن الزواج، كان دخول الحب حياتها عاملًا مهمًّا في التغيرات التي طرأت على شخصيتها. ذهبت عنها الفظاظة. صحيح أنها لم تكن جميلة، إلا أنها كانت تبدو الآن وريثةً لبعض دفء أمها، وبالرغم من نَهَمها الجنسي، كانت تقية وخيِّرة متسامحة وتراعي مشاعر الآخرين. في السنوات الأولى لها في الحكم، كان رعاياها يحبونها؛ ولكن تدريجيًّا بعد أن عرفت قافلةٌ طويلة — جنود وبحَّارة ومغنُّون وراقصون وموسيقيون وطبيب أسنان — طريقَها إلى حجرة نومها، انتشرت الشائعات، لدرجةِ أن أصبح سلوكها حديثَ كل أوروبا الغربية وليس إسبانيا وحدَها.

فشِلت أمها في تحسين سمعة العائلة. منذ زواجها الثاني، كانت حياة ماريا كريستينا العائلية لا غبار عليها، إلا أن اسمها أصبح الآن مرادفًا للفساد. رغم أن الثورة الصناعية الإسبانية كانت لا تزال صدًى هزيلًا للثورة البريطانية، كان ذلك عصر حقوق وامتيازات تجارية، وخاصة فيما يتعلَّق بالطرق والسكك الحديدية، وكان يسعدها دائمًا أن تستخدم نفوذها الكبير في عمليات ابتزاز وتحقيق مكاسب، كما اشتهرت بتعاملاتها الباطنة في البورصة. كان الفساد الذي تنتقل عدواه دائمًا قد انتشر الآن في الحكومة والإدارة، إلى أن أصبحت إسبانيا ناضجةً للثورة في صيف ١٨٥٤م. بدأت الاضطرابات الخطرة مساءَ السابع عشر من يوليو عندما قام العامة بهجوم منظَّم على قصر ماريا كريستينا لينهبوا كلَّ ما طالته أيديهم، وليدمروا كلَّ ما لم يستطيعوا حمله. لو لم تتمكَّن الملكة العجوز من الاختفاء هي وابنتها في اللحظة الحاسمة لما نجت في تلك الليلة.

اتخذت إيزابيل، التي كانت في حالة من اليأس، السبيلَ الوحيد الذي كان متاحًا أمامها: أرسلت تطلب حضور الجنرال إسبارتيرو. لم يكن هناك ودٌّ مفقود بينهما منذ تخلِّي أمِّها عن العرش، إلا أنها كانت تدرك أنها إذا كانت تريد أن تظل ملكة، فإن الجنرال كان هو الأمل الوحيد لكي يعيد الهدوء. الشرط الذي أصرَّ عليه — وهو أنها كان لا بد من أن تصلح حياتها الخاصة — جعلها تستشيط غضبًا، ولكنها كانت مضطرَّة للموافقة على ذلك. في الثامن والعشرين من يوليو دخل الجنرال مدريد. تم التخلص من كلٍّ ما لا لزوم له في البلاط، وبدت تلوح الفرصة لأن تظل إيزابيل محتفظةً بالعرش. من ناحية أخرى، ظلَّت ماريا كريستينا بمثابة مسئولية قانونية؛ وفي الساعات الأولى من صبيحة الثامن والعشرين من أغسطس، غادرت مدريد إلى منفاها الثاني — والدائم هذه المرة — يصحبها مونوز Muñoz وأبناؤهما.

كانت إيزابيل مذعورة، إلا أنها بقيت متماسكة إلى حدٍّ ما. سرعان ما نسيت التعهُّد الذي قدَّمته لإسبارتيرو؛ وقبل أن يمرَّ وقت طويل عرفت كارلوس مارفوري Carlos Marfori الشاب، الابن البطين لخباز فطائر إيطالي، الذي عيَّنته رئيسًا للشئون المنزلية الملكية. مع بداية ستينيات القرن التاسع عشر، كانت الكتابة قد ظهرت على الجدران مرة أخرى! جاء سقوطها الأخير على يد أحد مؤيديها السابقين ... كان جنرالًا يُدعى جوان بريم Juan Prim، وكانت أولى أفكاره أن يضع مكانها أختها لويزا Luisa وزوج لويزا الدوق مونبنسييه Duc de Montpensier، وكان مونبنسييه قد دفع له مبلغًا كبيرًا لتمويل تمرُّد لصالحهما؛ ولسوء حظه كان أن ارتكب الجنرال الخطأ الفادح بإبلاغ نابوليون الثالث الذي كان يأمُل في دعمه المالي كذلك. نابوليون، الذي كان الآن قد زرع لويس فيليب على

العرش الفرنسي، لم يكن لديه النيةُ للسماح لابن سلفه وابنة شقيقه أن يشغلا عرش إسبانيا، وهكذا ضاعت آمال الدوق.

في الوقت نفسه كان هناك تحدٍّ آخر من مصدر آخر هو الأدميرال جوان بوتستا توبيتي Juan Bautista Topete، قائد الأسطول الموجود في كاديز Cadiz. كان معه الجنرال سيرانو، عشيقُ الملكة القديم وسرعان ما انضم إليهما بريم. قامت ثورة أخرى في الثامن عشر من سبتمبر ١٨٦٤م، وسرعان ما انتشرت في أرجاء البلاد. كانت إيزابيل آنذاك في سان سيباستيان San Sebastian التي تبعُد عن الحدود الفرنسية بأميال قليلة. كانت رغبتها الأولى هي أن تعود فورًا إلى مدريد، ولكن قبل أن تفعل ذلك، جاءت الأخبار بأن سيرانو كان قد بدأ زحفه على العاصمة التي كانت قد ثارت ضدها. لم تتخلَّ عن العرش مثلما فعلت أمها من قبل، بل ذهبت بهدوء إلى محطة السكة الحديد مع زوجها وعشيقها وأطفالها، وفي التاسع والعشرين من سبتمبر ١٨٦٨م، استقلت القطار التالي إلى فرنسا. كانت لا تزال في الثامنة والثلاثين من عمرها، وكانت قد حكمت لمدة خمس وثلاثين سنة وستعيش بعد ذلك ستًّا وثلاثين أخرى. بصرف النظر عن شبقها المَرضي، لم تكن امرأة سيئة، لكنها كانت مِلكة لا أمل فيها ولا رجاء ... والمؤكد أن بلادها كانت أفضل بدونها.

لعل بلادها كانت تَعِد بذلك، إلا أن الكثير كان يتوقَّف على مَن يخلفها. بالنسبة لبناتها الأربع وابنها الوحيد، الذين يمكن أن نكون واثقين من أنهم جاءوا من آباء مختلفين، لم يكن هناك شكٌّ في شرعيتهم؛ حيث إنها ظلت متزوجة من فرانسيسكو. ابنها ألفونسو Alfonso، المولود في ١٨٥٨م، يُعتقد أنه كان نتيجةَ علاقة بمساعد طبيب أسنان أمريكي يُدعى مكيون McKeon، إلا أنه كان منذ مولده معترفًا به كوريث للعرش، ومُنح اللقب التقليدي أمير أستورياس Prince of Asturias. من المؤكد أن رحيل إيزابيل المفاجئ أعطى أملًا جديدًا للكارليين.

منذ نهاية الحرب الكارلية الأولى في ١٨٣٩م، كانوا قد حافظوا على مستوًى محدود من المشاركة العامة والظهور. الكونت مونتمولا، الذي كان دوق كارلوس (شارل الخامس) قد تنازل لصالحه في ١٨٤٦م، كان، مثل والده، شخصية باهتة، لا يترك انطباعًا حسنًا أو أثرًا جيدًا.[٩] عدة مرات في حياته، كان قد دعا الشعب الإسباني للثورة على مغتصبي العرش، لصالح الملك الشرعي، ولكنَّ أحدًا لم يكن ليهتم كثيرًا، وهو نفسه كان يختفي وقت الحاجة إليه. كان شقيقه دون جوان (الذي دون رغبة منه، أصبح المُطالبَ بالعرش

بعد موت مونتيمولا في ١٨٦١م، إلا أنه فضَّل أن يعيش في برايتون Brighton في هدوء) أكثرَ لا مبالاة، وكانت فرص الكارليِّين ضعيفة إلى أن ظهر دون كارلوس، الابن الأكبر لـ «دون جوان»، على مسرح الأحداث. كان فارع الطول، وسيمًا، فارسًا ممتازًا عاشقًا للجندية، وكان مقتنعًا تمام الاقتناع بعدالة قضية الكارليِّين، مصممًا على القتال في سبيلها إلى أن يعتلي العرش الذي كان من حقه. كان كذلك شديد الثراء، بفضل المهر الذي جاءت به زوجته الأميرة مارجريت أميرة بارما Margaret of Parma. لا عجب كثيرًا أن يعلن في أثناء اجتماع لمجلس الكارليين الأعلى — عُقد في لندن في صيف ١٨٦٨م — الشاب دون كارلوس (الذي كان في العشرين) ملِكًا بشكلٍ رسمي، وأن يهتفوا باسمه. بعد أسابيع قليلة، وقَّع دون جوان مرسومًا بالتخلي عن العرش لابنه.

المؤكَّد أن دون كارلوس سيكون ملِكًا رائعًا، وكان الظاهر الآن أنه ربما تكون له الأفضلية على ألفونسو أستورياس الصغير، الذي تبِع أمَّه إلى المنفى، وكان ما زال في العاشرة من عمره. بعد عامين، اقتنعت الملكة إيزابيل بالتنازل عن العرش لابنها ألفونسو؛ كانت الصعوبة الآن — بالنسبة لكلا المطالبَين بالعرش — أن لجنة طوارئ (كان قد تم تشكيلها بعد مغادرتها إسبانيا) قضت رسميًّا بأن البوربون كانوا قد فقدوا كل أحقية في العرش. بالرغم من ذلك، كانت إسبانيا ما زالت مملكة ... كل ما كانت تحتاجه الآن ... ملِكٌ.

ولكن كيف يمكن أن تجد ملكًا؟ عُرض التاج على ملك البرتغال، وعلى الأمير ليوبولد هوهنزولرن-سيجمارنجن.[١٠] Prince Leopold of Hohenzollern-Sigmaringen، وعلى دوق جنوة ... لم يقبله أيٌّ منهم. وفي النهاية تم إقناع أماديو Amadeo دوق أوستا Aosta ابن فيكتور إيمانويل بقبوله، ليدخل عاصمته الجديدة مزهوًّا يوم ٣١ ديسمبر ١٨٧٠م. كون هذا اليوم تحديدًا هو اليوم الذي شهد اغتيال الجنرال بريم صانع الملك، جعل من الواضح أنه برغم سعادة أماديو بقبوله إسبانيا، فإن إسبانيا كانت منذ اللحظة الأولى أقلَّ حماسة له. تنامى السخط، إلى أن دعا دون كارلوس في أبريل ١٨٧٢م إلى انتفاضة شاملة. في الثاني من مايو، دخل إسبانيا، من فرنسا، بصحبة مجموعة قليلة، ولكن بدلًا من أن يجد البلاد كلَّها مسلحة ومستعدة للقتال، كما كان يتمنَّى، لم يجد سوى نحو ألفين من جنود العصابات غير المدرَّبين وغير المجهَّزين. لم يكادوا أن يصلوا إلى قرية أوروكيتا Oroquieta الجبلية، الواقعة على بُعد أميال قليلة من الحدود، حتى هاجمتهم قوات حكومية وهزمتهم هزيمة منكرة. أُسِرَ منهم نحو سبعمائة، إلا أن دون كارلوس تمكَّن من الهرب ليعود إلى فرنسا.

ظل أماديو يناضل عدةَ أشهر أخرى، ولكنه كان يلقى مقاومةً شديدة سواء من الجمهوريِّين أو الكارليِّين — الذين كان يوجد عدد كبير منهم في البلاط — وأخيرًا اضطُر بدوره للتخلي عن العرش في فبراير ١٨٧٣م. أدَّى ذلك إلى مزيد من الفوضى. في آخر الأمر، أُعلنت إسبانيا جمهورية وانتهز الكارليون — غاضبين — فرصتهم. كان الكارليون دائمًا أقوياء في المناطق الشمالية — قطالونيا ونافار والباسك — ومرةً أخرى دعَوا إسبانيا لحمل السلاح دفاعًا عن الملَكية. كانوا هذه المرة أكثرَ نجاحًا منهم في العام السابق. كان القتال ضاريًا ووحشيًّا من كلا الجانبين، ولكن بحلول منتصف الصيف، كانت كل البلاد شمال إبرو Ebro، باستثناء عدد قليل من المدن، في أيدي الكارليِّين. لو أن دون كارلوس كان قد زحف مباشرةً على مدريد لكان قد حقَّق الانتصار النهائي. إلا أنه لسببٍ غير مفهوم فضَّل أن يضرب حصارًا على بلباو Bilbao، تاركًا مهمةَ التقدم جنوبًا لشقيقه دون ألفونسو كارلوس Don Alfonso Carlos ولزوجته البرتغالية القوية ماريا دي لاس نيفيس Maria de las Nieves، ذات التسعة عشر عامًا، التي كانت ترتدي زيًّا جنديًّا وتحارب إلى جوار زوجها. هذان الاثنان، على رأس جيشٍ مكوَّن من نحو أربعة آلاف رجل، استوليا على كوينكا Cuenca التي تبعُد عن العاصمة نحو ثمانين ميلًا من ناحية الشرق. نتج عن ذلك سفكُ دماء كثيرة، ما ألحق ضررًا بالغًا بسمعة الكارليِّين.

الآن، كان المد قد بدأ يغيِّر اتجاهه أخيرًا. في مايو ١٨٧٤م، رفع سيرانو الحصار عن بلباو. من الآن فصاعدًا سيصبح الكارليون في حالة دفاع، وفي نهاية العام، كانوا قد لقَوا ضربةً قاصمة: أصدر بريجادير صغيرٌ هو «أرسينيو مارتينيز كامبوس Arsenio Martinez Campos» بيانًا رسميًّا Pronunciamiento يدعو لعودة ألفونسو. كانت الاستجابة خارج الشمال الكارلي فوريةً وعامة. على الفور، انطلق ألفونسو من إنجلترا — حيث كان يدرس في كلية سان هيرست العسكرية الملكية — ليستقل سفينةً حربية إسبانية من مرسيليا، ويرسو في برشلونة، ويدخل مدريد في العاشر من يناير ١٨٧٥م، باعتباره الملك ألفونسو الثاني عشر، وسط ترحيب كبير. لقد استدعاه رعاياه واعترف به البابا، أما عدوُّه دون كارلوس فلم يكن قد بقي لديه ما يمكن الاعتماد عليه.

من أسف أن دون كارلوس لم يوافق على الفور، واستمر يقاتل على مدى العام التالي. لم يستسلم إلا بعد سقوط إستيللا Estella في التاسع عشر من فبراير ١٨٧٦م. في اليوم الثامن والعشرين عبَر الحدود الفرنسية. رغم أنه كان يهدِّد بالعودة، فإن الحرب الكارلية الثانية كانت قد انتهت. تحت الحكم الخيِّر لألفونسو الثاني عشر Alfonso XII، دخلت

إسبانيا ربعَ قرن من الحكم المستقر، أول ما عرفت منذ وفاة الملك فرديناند قبل ثلاث وأربعين سنة.

الآن، بعد تثبيت ابنها على عرش إسبانيا، عادت الملكة إيزابيل وبناتها إلى إسبانيا. لم يُسمح لهن على أية حال بالإقامة في مدريد، وبدلًا من ذلك خُصص لهن مقرٌّ لائق على بُعد خمسة وعشرين ميلًا، في قصر فيليب الثاني الضخم في الإسكوريال Escorial. كان ذلك إجراء وقائيًّا حكيمًا. طوال حياتها كانت إيزابيل متطفلة دائمًا، تتدخل فيما لا يعنيها، ولم تفلح سنوات المنفى في شفائها من ذلك الداء. بمجرد أن استقرت، دخلت في خلاف وجدال عقيم مع الخزانة حول المعاش المقرَّر لها؛ وقبل مرور وقت طويل، كانت قد بدأت من جانبها تخطِّط وتدبِّر المكائد مع البابا وتفتعل نزاعًا مع رئيس الوزراء، لينتقل هجوم الطرفين إلى الصحافة. كان من الواضح أنه لا بد من اتخاذ إجراءٍ ما. كان من الصعب نفيها مرةً أخرى، ولكن تقرَّر إبعادها عن العاصمة أكثرَ مما كانت، إلى القصر القديم في إشبيلية Seville. «وهكذا في غضون أشهر قليلة»، كما كتبت ابنتها إيولاليا Eulalia، «انتقلنا من الملل البارد لبلاط شمالي، إلى ظلم وضجر حرملك شرقي.»

لم يكن تغيير مكان الإقامة يكفي لكي تتوقَّف مكائد إيزابيل. كانت كل طاقتها الآن مكرَّسة لكي تجد عروسًا مناسبة لابنها. إلا أن ألفونسو استبق ذلك وبادر بأن أعلن بنفسه خبرَ خطوبته لمرسيدس Mercedes الفاتنة، ذات الستة عشر ربيعًا، ابنةِ خالته وابنة دوق دي مونبنسييه Duc de Montpensier. بذلت أمه قصارى جهدها لتثنيه عن ذلك، إلا أنه كان زواجًا مناسبًا، وعن حبٍّ حقيقي. وعندما أدركت أنها كانت عاجزة، عادت حانقة إلى باريس تاركةً بناتها خلفَها. تم الزفاف يوم الثالث والعشرين من يناير ١٨٧٨م؛ حيث أسرَت سعادة الزوجين الواضحة وجمال العروس وسحرها، كلَّ القلوب. بعد خمسة أشهر، ولم تكن العروس قد بلغت الثامنة عشرة بعدُ، ماتت على إثر حمًّى مَعِدية. في نهاية ١٨٧٩م، تزوَّج من ابنة كارل فرديناند أرشيدوق النمسا، وكانت تُدعى ماريا كريستينا كذلك، ولكنه ظل زواجَ مواءمة اجتماعية. هذه المرة وافقت إيزابيل العجوز، وعادت إلى إسبانيا لحضور الزفاف.

كانت حماة الملكة الجديدة وسَميَّتها قد ماتت في بيتها في سانت أدرس Sainte-Adresse، بالقرب من لي هافر Le Havres، بعد أقل من شهرين من وفاة مرسيدس، كما كان مونوز زوجها الثاني قد مات كذلك من زمن؛ وهكذا أعيد رُفاتها إلى إسبانيا

ليدفن بالقرب من رُفاة زوجها الأول فرديناند السابع في الإسكوريال. ثم في الخامس والعشرين من نوفمبر ١٨٨٥م، قبل ثلاثة أيام فقط من عيد ميلاده الثامن والعشرين، مات الملك ألفونسو بالسِّل. أصبحت ابنته الصغرى مرسيدس، ذات الخمسة أعوام، ملكةً على إسبانيا، ولكن ليس لفترة طويلة: كانت الملكة ماريا كريستينا التي كانت تحب زوجها جدًّا بالرغم من خياناته المتعددة، والتي لم تغادر مكانها إلى جوار سريره في أيامه الأخيرة، كانت حاملًا لها ثلاثة أشهر؛ وفي مايو ١٨٨٩م وضعت مولودًا ذكرًا — الذي وُلد ملكًا في الحكم لأول مرة في خمسة قرون. كان والده يريد أن يسميه فرناندو Fernando، إلا أن ماريا كريستينا كانت مصرَّة على غير ذلك. بعد خمسة أيام، وحول عنقه نموذج مصغَّر من وسام الصوف الذهبي، تم تعميده ألفونسو «الثالث عشر»؛ وكان فألًا سيئًا أن يحمل هذا اللقب.

في الوقت نفسه، كانت إيزابيللا الكبيرة، جَدة الوليد (كانت آخر ملكة فيما عدا اثنتين) ما تزال على قيد الحياة، وتتدخل في كل شيء كلما وجدت الفرصة، لدرجةِ أنها حاولت أن تنتزع الوصايةَ من زوجة ابنها. عندما فشلت تلك المحاولة، استسلمت للضغوط وعادت إلى باريس وإلى حياة الحفلات والولائم التي كانت تحبُّها. بقيت ميولها الأخرى كما هي، كانت الآن قد وجدت سكرتيرًا وأمينَ صندوق جديدًا. كان إنسانًا شريرًا بغيضًا يُدعى هولتمان Haltman وكان ملازمًا لها. ظلت مِلكة قلبًا وقالبًا. كانت تتراسل مع الملكة فيكتوريا Victoria، وزميلتها في المنفى الإمبراطورة أوجيني Eugenie أرملة نابوليون الثالث. والواقع أنه ربما يكون إصرارها على الانتظار في رواق به تيار هوائي شديد لاستقبال الإمبراطورة، ثم الإصرار على البقاء لوداعها، ربما يكون ذلك هو سبب وفاتها. السعال العنيف الذي أصابها انقلب إلى التهابٍ رئوي حادٍّ لتموت في التاسع من أبريل ١٩٠٤م. كانت في الثالثة والسبعين.

هوامش

(١) انظر الفصل الرابع والعشرين: التسوية الأوروبية.

(٢) مجموعة من القوانين عاش في ظلِّها الصاليون Salians، وهم قبيلة من الفرنجة سكنَت مناطقَ الراين الواقعة قرب بحر الشمال. (المترجِم)

(٣) كان دستور ١٨١٢م — المعروف بدستور كاديز — يقيِّد سلطات الملك، ويقرُّ برلمانًا من غرفة واحدة (مع عدم تمثيل خاص للنبلاء أو الكنيسة)، كما أدخل نظامًا حديثًا للإدارة يقوم على المقاطعات والبلديات.

(٤) بعد موت ماريا فرانسيسكا في ١٨٣٤م، تزوَّج من أميرة بيرا Princess of Beira، أخت زوجته.

(٥) بعد موت فرناند — وربما قبله — كانت قد اتخذت عشيقًا لها، كان عرِّيفًا في الحرس يُدعى فرناندو مونوز Fernando Monoz. تزوَّج الاثنان سرًّا في ٢٧ ديسمبر ١٨٣٣م، بعد ذلك أسمته ﺑ «عريس غرفة النوم Groom of the Bedchamber»، وبالرغم من إنجابهما أربعة أطفال، لم يُعترف بزواجهما علنًا حتى ١٨٤٥م عندما أصبح مونوز دوقًا على ريانسار Riansares.

(٦) بحسب رئيس الوزراء الفرنسي فرانسوا جيزو Francois Guizot، الذي كان يعرفها جيدًا، «لم تترك ستَّ ملاعق».

(٧) La Reine est nubile depuis deux heures.

(٨) Asis، هي بالإسبانية: Assisi.

(٩) في شبابه في لندن، كان خطيب الآنسة أدلين دي هورسي Adeline de Horsey، التي كانت بعد ذلك الزوجةَ الثانية لإيرل كارديجان Earl of Cardigan، قائد اللواء الخفيف في بالاكافا.

(١٠) قبِلَه في البداية ثم رفض. لو أنه كان قد رفض رأسًا لما وقعت الحرب الفرنسية البروسية؛ إذ إنها اندلعت لأن نابوليون الثالث لم يكن مستعدًّا للتفكير في تحالفٍ أسري بين بروسيا وإسبانيا. انظر الفصل الثامن عشر: كريت والبيلوبونيز.

الفصل الثلاثون

مصر والقناة

- مشكلات مالية: ١٨٧٠م.
- عزل الخديوي: ١٨٧٩م.
- حاشية: ١٩٥٦م.

* * *

قناة السويس الأولى حفرها الفرعون نيخو Necho في القرن السابع ق.م. هذا ما يقوله لنا، على الأقل، هيرودوتس Herodotus، الذي يضيف أن مائة وعشرين ألف مصري قضَوا في عملية الحفر تلك، وأن الرحلة في القناة كانت تستغرق أربعة أيام، وأنها كانت تتسع لمرور جيشين جنبًا إلى جنب. إلا أنه بعد مرور نحو خمسة قرون، لم يكن لها أثرٌ تقريبًا، عندما أمر نابليون بإجراء أول عملية مسح مفصَّلة للبرزخ، لينتهي كبير مهندسي المساحة لديه، جان-بابتست لوبير: Jan-Baptiste Le Pere (جان بابتست الأب) إلى أن مستوى طرفي أي قناة يتم حفرها سيكونان مختلفين، وقدَّر بالفعل أن يكون مستوى الطرف الجنوبي أعلى بنحو عشرة أمتار؛ ولكن سرعان ما أصبحت تلك نظريةً قديمة، وعندما قدَّم تقريره النهائي كان الفرنسيون قد رحلوا عن مصر، وكان الإنجليز الذين طردوهم مصمِّمين على الرحيل، هم كذلك، بأسرعِ ما يكون. مرة أخرى ذهبت الفكرة طيَّ النسيان، وظلَّت كذلك لمدة نصف قرن آخر.

في ١٨٥٤م منح خديوي مصر سعيد (والي السلطان العثماني)، الابن الرابع لمحمد علي، منح شابًّا فرنسيًّا حالمًا يُدعى الكونت فرديناند دي ليسبس Count Ferdinand de Lesseps، ممثلًا لشركته الفرنسية، حقَّ إنشاء قناة تمرُّ لمسافة مائة ميل تقريبًا عبْر البرزخ، من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر. بدأ العمل في ١٨٥٩م واستغرق

عشر سنوات بدلًا من الست التي قدَّرها دي ليسبس، وظهرت في وقتٍ باكر مشكلات تتعلَّق بالعمالة المصرية الكبيرة، وفي ١٨٦٥م كان انتشار الكوليرا يهدِّد بتوقف المشروع كله، إلا أنه تم التغلُّب على الصعاب في النهاية. اتضح أن مخاوف لوبير لم يكن لها أساس، ولم تكن هناك حاجة لعمل هويس؛ وفي الثامنة والنصف من صباح السابع عشر من نوفمبر ١٨٦٩م دخل اليخت الإمبراطوري الفرنسي The Aigle القناة من ناحية بورسعيد، حاملًا على متنه الإمبراطورة أوجيني Eugenie ودي ليسبس نفسه، وكان يتبعه خمس وخمسون سفينة أخرى تحمل الخديوي إسماعيل الذي كان قد خلَف سعيد ابن أخيه، وضيوفه الرسميِّين والسفراءَ الأجانب وغيرهم من كبار المدعوين. صباح اليوم العشرين، دخل اليخت Aigle البحر الأحمر على أنغام فرقته الموسيقية. هناك اعتقادٌ خاطئ شائع أن «عايدة» أوبرا فيردي Verdi، كانت قد كتبت خصِّيصَى للاحتفال بافتتاح القناة، والواقع أن فيردي لم يكن مباليًا بذلك الحدث التاريخي لدرجةِ أنه كان قد رفض كتابةَ لحنٍ افتتاحي للمناسبة، إلا أن عالِم المصريات الفرنسي أوجست مريت Auguste Marette، أرسل إليه في الأشهر الأولى من العام ١٨٧٠م سيناريو يعتمد على قصة متخيَّلة، تقع أحداثها في أحد العصور المصرية القديمة. راقت له الفكرة وعلى الفور كلَّفه الخديوي إسماعيل بكتابة أوبرا، فشرع بكل همَّة. بالرغم من أن العرض الأول كان مقررًا له أن يكون على مسرح الأوبرا الجديدة التي شيَّدها إسماعيل في القاهرة، تم الاتفاق على أن يتم إعداد المناظر والملابس في باريس، وكان قرارًا سيئ الحظ، حيث أدَّت الحرب الفرنسية البروسية وحصار المدينة إلى تأخير وصولها عدة أسابيع. وأخيرًا وصلت الديكورات والملابس وافتُتحت الأوبرا ليلة رأس سنة ١٨٧١م. لم يكن فيردي حاضرًا، ويبدو ذلك أمرًا غريبًا إلى حدٍّ ما، رغم أنه حضر العرض الأول لها في ميلان في أوائل العام التالي.

بالنسبة لأراضي وموانئ شرق المتوسط، كان شق قناة السويس بمثابة منحة سماوية — رغم أن أحدًا لم يدرك ذلك إلا بعد فترة. لم تَعُد معزولة، وأصبح من الممكن أن تستعيد وضعها القديم كمحطات توقُّف على طرق التجارة العالمية. حتى دول الشرق الأقصى أفادت منها؛ حيث أصبحت العلاقات التجارية بينها وبين الغرب أكثرَ قوة. غدا العالم مكانًا أصغر حجمًا.

إلا أنه منذ افتتاح القناة، كانت شركة قناة السويس أسيرةَ عدة مشكلات مالية. كان حَمَلة الأسهم، الذين كان دي ليسبس قد أقنعهم بأنهم كانوا يستثمرون في منجم ذهب، كانوا يريدون عائدًا سريعًا على أموالهم؛ ولكن أوروبا كانت بطيئةً في الاستفادة من

الإمكانيات الجديدة. في أول سنة من تشغيلها، كان عدد السفن التي تمر بها يوميًّا أقلَّ من اثنتين تقريبًا. كان دي ليسبس قد توقَّع دخلًا سنويًّا نحو عشرة ملايين فرانك، لم يحصل سوى على أربعة. بعد ذلك كان هناك جدال دولي حول الجوانب المالية، لم ينجح المؤتمر الذي دعا إليه الباب العالي في حسمه؛ وفي آخر الأمر هدَّد دي ليسبس الغاضب بإغلاق القناة كلية، بينما أرسل الخديوي — مدعومًا من الباب العالي — قوةً عسكرية إلى القناة، وسفينتين حربيتين إلى بورسعيد، مع تعليماتٍ بالاستيلاء على القناة في حالِ إصرار الشركة على موقفها. فرنسا، التي سبق أن دعَّمت دي ليسبس، سحبت دعمَها الآن، وكان عليه أن يعترف بالهزيمة.

إلا أن الحرب الفرنسية البروسية كانت قد وجَّهت للإمبراطورية الثانية الضربةَ القاصمة، وكان نفوذ فرنسا على القناة يزداد ضَعفًا. من ناحيةٍ أخرى كان نفوذ بريطانيا يتزايد. كانت حكومة اللورد بالمرستون والحكومات التي خلَفتها قد عارضت شقَّ القناة؛ إذ كانوا يرونه خطرًا استعماريًّا فرنسيًّا، ولكن بعد أن أصبح الفرنسيون بعيدين عن الأمر بالفعل، كان الرأي يتغيَّر بسرعة في إنجلترا. فجأة، اختُصرت المسافة إلى الهند إلى النصف، وانتعش ما كان يُعرف بالصناعة السياحية من بومبي إلى كالكوتا. في غضون عَقدين، كان التدفُّق السنوي على الهند من الشابَّات في سن الزواج، بحثًا عن أزواج — أو أسطول الصيد كما كان يُعرف — قد أصبح أشبه بالمؤسسة.[١] بدأت حظوظ قناة السويس نفسها في التحسُّن اعتبارًا من عام ١٨٧٣م، مع التحسُّن في الزيادة السنوية المطردة في عدد السفن التي تعبُرها. كان ثلثا تلك السفن بريطانيًّا، وقال الخديوي للوكيل البريطاني إنه لم يكن يسعده فحسب أن تكون القناة مِلكًا لشركة إنجليزية، بل إنه في حال تأسيس شركة كتلك، سيبذل كلَّ ما في وسعه لتسهيل عملية نقلها إليهم.

في الوقت نفسه، كانت مصر تغرق أكثر فأكثر في الديون، وبحلول نوفمبر ١٨٧٥م، وجد الخديوي نفسه في حاجة ماسة لنحو أربعة ملايين جنيه لمواجهة التزاماته. كان السبيل الوحيد أمامه هو أن يقوم ببيع أو رهن أسهمه في شركة قناة السويس. بدأت مجموعتان فرنسيتان منفصلتان من رجال البنوك تتجادلان مع بعضهما في باريس، ولكن لم تكن أيهما أسرع أو أكثر حسمًا من «بنجامين دزرائيلي Benjamin Disraeli»، الذي كان قد خلَف «جلادستون Gladstone» قبل وقت قصير رئيسًا للوزراء، والذي كان على علمٍ بما يجري بالضبط عن طريق صديقه «ليونيل دي روتشيلد Lionel de Rothschild»، الذي كان يتناول العشاء معه بانتظام مساء كل أحد. استمرَّت المفاوضات

فترةً، ولكن في الرابع والعشرين من نوفمبر ١٨٧٥م، تم الاتفاق على أن تشتريَ الحكومة البريطانية من خديوي مصر ١٧٧٦٤٢ سهمًا من أسهم قناة السويس مقابل أربعة ملايين جنيه إسترليني. كتب دزرائيلي للملكة: «لقد حصلت عليها يا سيدتي، لقد تفوقت على الحومة الفرنسية.» وردَّت المِلكة بأن ذلك كان بالفعل «حدثًا عظيمًا وبالغ الأهمية»، وأضافت ساخرة «العيب الوحيد هو ذلك المبلغ الكبير.»[٢]

إلا أن الأربعة الملايين جنيه كان لا بد من أن تُجمع. مرةً أخرى لجأ دزرائيلي إلى دي روتشيلد، الذي أرسل إليه سكرتيره الخاص مونتاجو لوري كوري Montagu Lowry Corry. في السنوات التالية كان يحلو لكوري أن يروي قصةَ ذهابه إلى مكتب روتشيلد وإبلاغه بأن رئيس الوزراء كان في حاجةٍ إلى أربعة ملايين جنيه: سأله روتشيلد: متى؟ فكانت الإجابة: غدًا، التقط روتشيلد بعضَ حبَّات من العنب ولفظ القشر وسأل: ومَن يضمنكم؟ قال: الحكومة البريطانية. ردَّ: حسنًا! ستحصلون على المبلغ. بعد أيام قليلة، تم تسليم الأسهم للقنصلية البريطانية العامة في القاهرة. تم عدُّها فوجدوها ١٧٦٦٠٢ سهم، أي إنها كانت أقل من العدد الذي كان قد تم التعاقد عليه بمقدار ١٠٤٠ سهمًا، وعليه تم تخفيض السعر إلى ٣٩٧٦٥٨٢ جنيهًا. لا بد من أن يكون ليونيل دي روتشيلد قد ساوره القلق.

لا بد من التأكيد أن بريطانيا لم تشترِ القناة، ولا حتى حق الرقابة عليها، إلا أنها بامتلاكها ٤٠٪ من الأسهم، منعت تلك الرقابة من أن تكون بكاملها في يد الفرنسيِّين لو لم تُقدِم على ذلك. كان من حقِّها الآن تعيينُ ثلاثة من أربعة وعشرين مديرًا في مجلس إدارة الشركة، وهو عدد سوف يرتفع إلى عشرة بعد سنوات قليلة. من بين كل حملة الأسهم، بالإضافة إلى ذلك، كانت هي الأقوى والأغنى.

هل كان شراء بريطانيا الأسهم، مقدِّمة لإعادة توطيد وجود بريطاني في مصر بدرجةٍ ما؟ كانت المعارضة الليبرالية ترى ذلك. يبدو في الواقع أن دزرائيلي لم يكن لديه اهتمام خاص بذلك. في الوقت نفسه، كان على نفس القدْر من الأهمية، أن تكون القناة محميةً جيدًا، وبينما كانت تلك الحماية تتم في الماضي من قِبل الحكومة العثمانية ونفوذ السلطان، كانت قد أصبحت الآن في يد الخديوي الذي أظهر أكثرَ من مرة تبذيره وعدم شعوره بالمسئولية، وأنه لا يمكن الثقة به، لدرجةِ أن الميزانية المصرية في ١٨٧٦م وُضعت تحت إشراف مراقبَين؛ أحدهما بريطاني والآخر فرنسي. هذه الرقابة الثنائية، كما أُطلق عليها، منعت الانهيار إلى حدٍّ ما، ولكن سرعان ما اتضح أن الخديوي كان لا بد من أن يذهب.

وجَّهت بريطانيا وفرنسا مناشدةً مشتركة للسلطان، وفي يونيو ١٨٧٩م تم خلعه. ابنه توفيق، الذي خلفه على الفور، وجد نفسه في مواجهة ثورة كبيرة من الوطنيين المصريين الذين قاموا بانقلاب في ١٨٨١م، ليقيموا ما كان بالفعل أشبهَ بديكتاتورية عسكرية، وتبِع ذلك بعد تسعة أشهر، أعمالُ شغب في الإسكندرية، قُتل فيها أكثرُ من خمسين أوروبيًّا.

آنذاك، كانت بريطانيا قد أرسلت أسطولًا بحريًّا إلى الإسكندرية، وهو ما ردَّ عليه المقدم أحمد عرابي (المعروف للغرب بـ «عرابي باشا») بالبدء في بناء تحصينات على الجانب المواجه للبحر. أمره الأدميرال البريطاني بالتوقُّف عن ذلك، وعندما رفض، قصف التحصينات ودمَّرها. رسَت القوات البريطانية باسم الخديوي، ومضت لاحتلال المدينة، إلا أن عرابي ردَّ هذه المرة بتهديد جديد: أن يغلق ترعة المياه الحلوة التي كانت تصل النيل ببرزخ السويس، وكانت المصدر الوحيد لإمداده بالماء العذب. مع التدهور السريع في الموقف، رست حملة عسكرية كاملة بقيادة الجنرال الشهير السير «جارنت ولسلي Sir Garnet Wolsely» في التاسع عشر من أغسطس في بور سعيد، بينما كانت قواتٌ أخرى في طريقها إلى السويس قادمةً من الهند. بعد شهر، في الثالث عشر من سبتمبر، لم يكن هناك صعوبةٌ في أن تُلحِق بعرابي هزيمة ساحقة عند التل الكبير على طرف الدلتا، وأن تحتلَّ القاهرة في اليوم التالي.

هنا، لا بد من أن نتساءل: وأين كانت فرنسا أثناء ذلك الوقت العصيب؟ كانت فرنسا قد أرسلت هي الأخرى أسطولًا إلى الإسكندرية، إلا أنه على الفور — ولسببٍ غير معروف — واصل إبحاره إلى بورسعيد، ولم يشارك في القصف أو إنزال قوات. لو أنه كان قد بقي واتبع النموذج البريطاني، لما اعترضت بريطانيا، بكل تأكيد، بل ربما كانت قد رحَّبت بمثل تلك المشاركة. يبدو أن الحكومة الفرنسية كانت قد فقدت اهتمامها آنذاك بالأمر. بفضل المعارضة الشديدة لـ «جورج كليمنصو Georges Clemenceau»، كما يقال، فشِلت في إقرار التمويل اللازم للتدخل العسكري؛ وهكذا بجرة قلم، ضحَّت بنفوذ فرنسا التقليدي في مصر، وأعطت منافسها البريطاني الفرصة للتصرُّف كما يحلو له. في آخر ١٨٨٢م، أُلغيت الرقابة الثنائية على قناة السويس.

عندما احتلَّت القوات البريطانية مصر في الماضي، كانوا يفكِّرون في الخروج منها بأسرعِ ما يستطيعون، إلا أنهم هذه المرة كان قد أصبح لديهم حبلُ نجاة يدافعون عنه. لعدة سنوات، كانت بريطانيا تزعم أن احتلالها مصر لم يكن سوى إجراء مؤقت. بالنسبة للضَّم الكامل، فإن الحكومات المتوالية كانت تحتجُّ بأن ذلك كان أبعدَ ما يكون عن

تصورهم؛ كانت مصر جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، وكان يسعدهم أن تظل كذلك. إلا أن القناة كان لا بد من حمايتها، وكانت مهمة بريطانيا هي أن تقوم بذلك، وإذا كانت تلك الحماية تستدعي احتلال مصر ... فلا بأس.

الآن، كانت بريطانيا قد ضمِنت لنفسها السيطرةَ الفعلية على القناة في حالِ نشوب حرب، إلا أنها كانت تدرك أن مثل ذلك القرار المتعجِّل لن يرضي القوى الأخرى. وهكذا فإن ممرًّا مائيًّا بهذه الأهمية الاستراتيجية يمكن، في آخر الأمر، حمايته بواسطة التحييد الكامل. كانت المفاوضات الدبلوماسية المطلوبة قبل التوصل إلى ذلك دقيقة ومعقَّدة؛ ولكن أخيرًا، في التاسع والعشرين من أكتوبر ١٨٨٨م، وقَّع ممثلو تسع دول في القسطنطينية اتفاقيةَ قناة السويس، التي أرست «نظامًا واضحًا، لا لبس فيه، لضمان استخدام كل القوى قناةَ السويس البحرية في كل الظروف»؛ وتقرَّر أن تكون القناة مفتوحة أمام كل السفن أيًّا كان مصدرها، في وقت الحرب كما في وقت السِّلم. لا تسد مداخلها ولا تقام على شواطئها أو على امتدادها أية تحصينات دائمة. لا يحق لأي سفن عسكرية متحاربة إنزال قوات أو مؤن في موانئها أو في أي مكان على امتدادها. تحت شروط الاتفاقية الأصلية الموقَّعة في ١٨٥٤م، تظل الاتفاقية سارية حتى ١٩٦٨م، أي بعد ٩٩ عامًا من افتتاح القناة. آنذاك فحسب، ستئول ملكيتها للحكومة المصرية.

ربما يكون هذا الفصل في حاجة إلى حاشية موجزة.

في نوفمبر ١٩١٤م، كانت بريطانيا قد أعلنت الحرب على الإمبراطورية العثمانية، وأعلنت الحماية على مصر مع إعادة الخديوي عباس — لم يَعُد لقب الوالي مستخدَمًا بالنسبة له — بلقب «سلطان». بعد أربع سنوات فحسب، مُنحت مصر الاستقلال الكامل (مع بعض تحفظات) لتصبح مملكة مستقلة. أول حاكم، الملك فؤاد الأول (السلطان سابقًا)، خلَفه ابنه فاروق على العرش في ١٩٣٦م، الذي حكم حتى ١٩٥٢م، عندما قامت مجموعة من ضباط الجيش بقيادة العقيد جمال عبد الناصر بقلب نظام الحكم الملكي وأعلنت مصر جمهورية. في ١٩٥٤م، وقَّعوا اتفاقيةً مع بريطانيا، تنسحب بموجبها كل القوات البريطانية من قناة السويس: بعد عامين، في السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦م — قبل اثني عشر عامًا من الموعد المحدَّد لعودة القناة لمصر كما سبق الاتفاق عليه — تم الاستيلاء على القناة وتأميمها. في نهاية شهر أكتوبر، وبعد أن فشِلت كل الاحتجاجات الدبلوماسية، قامت دولة إسرائيل، التي كانت قد أُنشئت حديثًا، بمشاركة

من بريطانيا وفرنسا، بغزو مصر بهدف استعادة القناة عَنوة. تم إنزال قوات بريطانية في بورسعيد تحت ستار من قصف بحري، بينما احتل الإسرائيليون سيناء بسرعة. زادت قوة الرفض الدولي للعملية — وبخاصة من قِبل الولايات المتحدة — لدرجةِ أن اضطُرت القوات الإنجليزية والفرنسية للانسحاب تاركةً عبد الناصر — برغم الخسائر العسكرية الكبيرة — منتصرًا، والقناة في أيدي المصريين. انتهى النفوذ البريطاني في مصر. عاد الأهالي إلى بورسعيد، وتم خلع تمثال دي ليسبس من قاعدته ... دي ليسبس الذي لولا رؤيته وعزيمته لما كانت قناة السويس. في قلوب الطغاة ... الوفاء عاطفة نادرة.

هوامش

(١) من النتائج المؤسفة لذلك أنَّ ضباط الجيش الهندي كانوا يتخلون عن زوجاتهم الهنديات ويجيئون بصديقاتهم من بريطانيا، وكثيرًا ما كان لذلك نتائجُ كارثية بالنسبة للعلاقات البريطانية الهندية.

(٢) الأكثر غرابةً كان ردَّ فعل أمير بروسيا، الذي أصبح فيما بعدُ القيصرَ «ولهلم الثاني Kaiser Wilhelm II» الذي قال مبتهجًا: رائع!

الفصل الحادي والثلاثون

حروب البلقان

- ارتقاء جورج الأول الهيليني العرش: ١٨٦٣م.
- «الفظائع البلغارية»: ١٨٧٩م.
- عبد الحميد الثاني: ١٨٧٦م.
- اليونان تعلن الحرب متأخرًا جدًّا: ١٨٧٨م.
- كريت وقبرص: ١٨٩٨م.
- قضية هيلين ستون: ١٩٠١م.
- عبد الحميد يعيد الدستور: ١٩٠٨م.
- الإمبراطورية العثمانية بعد عبد الحميد: ١٩٠٩م.
- هجوم القيصر ولهلم الودي: ١٨٩٨م.

* * *

ظلَّت اليونان في سنوات استقلالها الأولى بلادًا تعيسة. مِلكها الجديد، على نحوٍ خاص، كان خيبةَ أمل كبيرة. لم يكن هناك، كذلك، أملٌ كبير في أن يستطيع «أوتو Otto» ذو السبعة عشر ربيعًا، الذي لا ينطق بكلمة يونانية واحدة، وليس حتى عضوًا في الكنيسة الأرثوذوكسية، لم يكن هناك أملٌ كبير في أن يجعل نفسه محبوبًا من رعاياه ذوي البشرة الداكنة الذين روَّعتهم الحرب؛ كان «لودفيج الأول Ludwig I»، والدُ مِلك «بافاريا Bavaria»، قد قام باسم قوى مؤتمر لندن (بريطانيا وفرنسا وروسيا) بتعيين مجلس وصاية من ثلاثة كانوا كلهم بافاريين، واحد منهم فقط هو الذي كانت قدَمه قد وطئت أرضَ اليونان. لم يُبدِ أيٌّ منهم أيَّ شعور بالعادات أو التقاليد المحلية، أدخلوا أنظمتهم القانونية والتعليمية الخاصة، ألجموا الصحافة، فرضوا الضرائب الباهظة المجحفة،

واستمروا على ذلك النحو ثلاث سنوات – كانت تُعرف بـ «البافاروقراطية Bavarocratia»؛ ولكن حتى بعد أن بلغ أوتو من العمر عتيًّا في ١٨٣٥م، لم يكن هناك سوى تغيُّر طفيف. كان النفوذ البافاري قويًّا كما كان دائمًا، وكان يواجه معارضةً متزايدة، وكان اليونانيون يتساءلون ما إذا كان ذلك هو ما حاربوا من أجله ببسالة طويلًا. كان حكامهم الجدد أكثرَ سوءًا من الأتراك.

بلغَت الأمور ذروتها في ١٨٤٣م، عندما أجبر انقلاب عسكري أبيض أوتو على منح دستور، وكان ذلك يبدو وضعًا ليبراليًّا على الورق؛ لأنه كان يقدِّم — بين أمور أخرى — حقَّ الاقتراع العام لكل الذكور (رغم أنه كان على الإناث أن ينتظرن حتى ١٩٥٢م)، وفي الوقت نفسه تم طرد الوزراء البافاريين لتحل محلَّهم حكومةٌ جديدة مكونة من يونانيين على وجه الحصر، مع مجلس وطني يوناني. الواقع أن المجتمع اليوناني التقليدي — بفضل الاحتلال التركي الطويل — كان قد تطوَّر على نحو مختلف تمامًا عن مجتمعات أوروبا الغربية، ولم يكن الناس مهيئين لديموقراطية حديثة متطورة، وبالرغم من ذلك كان يبدو أن اليونان قد اتخذت خطوةً مهمة إلى الأمام، وكانت هناك أرضية تجعلهم يأمُلون في مستقبل أفضل.

من أسف أن تلك الآمال ضاعت هباء. كلُّ ما حدث أنه كان قد تم تنحية أوليجاركية[١] بافارية لصالح أوليجاركية يونانية، ولعلها كانت أحكمَ قبضة من سابقتها. عندما نشِبت حرب القرم في مارس١٨٥٤م، كان المتصور — بالتأكيد — أن يكون اليونانيون، عاطفيًّا، مع روسيا — التي كانت آنذاك القوة الرئيسية الأخرى الوحيدة التي لديها كنيسة أرثوذوكسية قومية — وأن يعارضوا الإمبراطورية العثمانية، التي كانت قد استعبدتهم قرابة خمسمائة عام. من ناحية أخرى، كانت حماقة شديدة تلك التي جعلتهم يقومون بغزوٍ فاشل لتيسالي Thessaly وإيبيريوس Epirus اللتين كانتا في أيدي الأتراك، الذي كانٍ من نتائجه أن قامت الأساطيل البريطانية والفرنسية باحتلال «بيرايوس Piraeus»، وإنزال وحدات من القوات الأجنبية لتبقى على الأراضي اليونانية حتى ١٨٧٧م. كان ذلك يبدو كثيرًا بالنسبة لوضع اليونان المستقل الذي كانت قد حصلت عليه أخيرًا.

في السنوات الأخيرة من حكمه، كان أوتو يبدي وطنيةً حقيقية تجاه وطنه بالتبني، وكان يسيطر عليه ما كان يُعرف بـ «الفكرة العظيمة» The Great Idea: في جوهرها، استئصال العثمانيِّين ليحل محلَّهم بيزنطة جديدة، إمبراطورية يونانية مسيحية عاصمتها — مرة أخرى — القسطنطينية. إلا أن أوتو لم يكن محبوبًا من رعاياه. في ١٨٦٢م، وفي

إحدى جولاته في البيلوبونيز، قام عصيان مسلَّح في القلعة الفينيسية القديمة في «فونتزا Vonetza»، وقبل أن يتمكَّن اليخت الملكي من العودة إلى أثينا، أعلنت الحكومة خلع ملِكها. عاد أوتو إلى ألمانيا ليستقر في «بامبرج Bamberg»، وليموت هناك بعد خمس سنوات.

قبِلت القوى طردَه دون اعتراض، وشرع رعاياه يبحثون عن خليفة له. استمر البحث عامين. وقع اختيارُهم الأول على الأمير ألفريد، الابن الثاني للملكة فيكتوريا، ولسوء الحظ أن كان من بين شروط اتفاقيتي ١٨٢٧م و١٨٣٠م ألا يشغل عرش اليونان أيٌّ من أعضاء الأسر الحاكمة في القوى الثلاث؛ ولذا تم إهمال ذلك الاقتراح. بعد ذلك، كانت هناك محاولة مع ابن «كريستيان التاسع Christian IX» ملِك الدانمرك (وكان في السابعة عشرة)، الذي كانت أخته ألكساندرا قد تزوجت حديثًا من أمير ويلز. كان اسمه «وليم» تفوح منه رائحة الشمال، وتقريبًا كان لا يمكن كتابته بحروف يونانية، إلا أنه كان سعيدًا بتغييره؛ وهكذا كان أن شغَل العرش باسم «الملِك جورج الأول الهيليني King George I of the Hellenes»، ليظل عليه لمدة نصف القرن، عندما اغتيل بينما كان يتمشى مساء الثامن عشر من مارس ١٩١٣م في «تيسالونيكا Thessalonica».

كان حكم الملك جورج قد بدأ بدايةً مبشِّرة، عندما تخلَّت بريطانيا طواعيةً — رغم المعارضة الشديدة من «وليم إيوارت جلادستون William Ewart Gladstone» — لليونان عن الجزر الأيونية التي كانت تحت حمايتها منذ ١٨١٥م.[٢] استمر ذلك بنجاح آخر: وُضع الدستور الجديد في ١٨٦٤م، وكان تحسينًا كبيرًا لدستور ١٨٤٤م. كانت شعبية جورج التي جاءت فيما بعد، تعود إلى حدٍّ كبير، إلى تبنيه مبادئَ مناقِضة لمبادئ أوتو؛ فبدلًا من محاولة فرض شخصيته وأسلوب قيادته، حاول أن يبقى رئيسًا صوريًّا لا يتدخل في شئون الحكم إلا قليلًا بقدر الإمكان، تاركًا لوزرائه مطلَق التصرف.

الآن، وبعد أن أصبحت الجزر الأيونية جزءًا من المملكة، كانت المشكلة التالية المتعلِّقة بالأرض هي كريت. كان لتلك الجزيرة تجربةٌ أطول مع السيطرة الأجنبية؛ فبعد أربعة قرون تحت فينيسيا، كانت على خلاف كورفو ومعظم قريناتها،[٣] قد عانت من البقاء تحت الحكم العثماني قرنين آخرين فكان حكمًا راسخًا. أيام تبعيتها لفينيسيا، كانت دائمًا إقليمًا للعصيان المسلَّح، كما أن حرب الاستقلال زادت من التهاب الشعور القومي بين السكان المسيحيِّين، لدرجةِ أن أهالي كريت لم يكونوا يضعون نُصب أعينهم طردَ الأتراك فحسب، وإنما كذلك الاتحاد مع المملكة اليونانية الجديدة. كانت كريت قد أوفدت

ممثلين إلى المجلس الوطني في آرجوس في ١٩٢٩م، ولكن في العام التالي — كما رأينا — كان السلطان محمود قد وهب الجزيرة لمحمد علي مكافأةً على خدماته له أثناء خصوماته الأخيرة. هذه الوحدة مع مصر، وأقلُّ ما يقال بشأنها أنها كانت غير طبيعية، لم تدُم أكثرَ من عشر سنوات؛ ففي ١٨٤٠م، قام السلطان باستردادها عندما غضب على واليه الذي تمرَّد عليه.

بالنسبة لأهالي كريت، لم يكن يهمهم كثيرًا، ما إذا كانوا تحت حكم الأتراك أو المصريين. كان مطلبهم هو الاتحاد enosis مع اليونان. استمرَّت الانتفاضات المسلَّحة التي كان أكثرها دمويةً تلك التي هبَّت في ١٨٦٦م. في هذا السياق، كان أن قام مانيسيس Maneses، رئيس دير أركاديون Arkadion، وأحد الأبطال العظام في تاريخ كريت، بتفجير مخزنٍ البارود بدلًا من أن يستسلم، رغم غرابة أن يكون هناك مخازن للبارود في الأديرة. حمَّام الدم الذي نجم عن ذلك، والذي قُتل فيه عدد كبير من النساء والأطفال بدم بارد، أحدثَ فضيحة عالمية؛ كانت الحكومة البريطانية على نحوٍ خاص، محلَّ لوم شديد عندما كشف النقاب عن أنها كانت قد أصدرت الأوامر للبحرية الملكية بإنقاذ المدنيين الكريت من جميع الأعمار، الذين كانت تهدِّدهم المذبحة، حتى لا يُنظر إلى تلك العمليات باعتبارها تخليًا عن الحيادية التي كانت بريطانيا مصمَّمة على الحفاظ عليها.

وأخيرًا، وجَّه السلطان، الذي كان قد ضاق ذرعًا بالدعم المكشوف الذي كانت الحكومة البريطانية تقدِّمه للمنتفِضين والمتمردين، وجَّه إنذارًا في ١٨٦٨م: على اليونان أن تتعهَّد في غضون خمسة أيام بالتوقف عن تجهيز السفن للعدوان على تركيا، وكانت هناك بنودٌ أخرى، إلا أنها لم تكن عملية. رفضت اليونان الإنذار. قطعت العلاقات الدبلوماسية، وهدَّد هوبارت باشا بمحاصرة البلاد. كان هوبارت باشا أحدُ قادة البحرية الملكية المتقاعدين وكان يعمل في خدمة السلطان، قائدًا للأسطول التركي. بدت الحرب وشيكة، ولكنَّ مؤتمرًا للسفراء الأوروبيين نجح في إقناع اليونانيين بقبول الشروط التركية، واستُؤنفت العلاقات في العام التالي. في مقابل ذلك منح السلطان كريت دستورًا يوفِّر لها قدرًا من الحكم الذاتي ويهدئ الخواطر ولو مؤقتًا.

في صيف ١٨٧٦م، انفجر الموقف في شبه جزيرة البلقان.[٤] بدأ الاشتعال عندما هبَّت جماهير الصرب الأرثوذوكس في البوسنة والهرسك ضد حكامهم العثمانيين، وسرعان ما هبَّت صربيا ومعتمدية مونتينيجرو Montenegro — وهي أرثوذوكسية وتتكلم الصربية كذلك — لمساعدتهم، ولم يكن من المتصوَّر ألا يتحرك البلغار وهم الشعب السلافي الوحيد

الآخر في شبه جزيرة البلقان. انطلق العصيان المسلَّح في ولاية الدانوب Vilayet of the Danube — كما كانت بلغاريا تسمَّى رسميًّا — في مايو ١٨٧٦م. كان العصيان في حد ذاته ضئيلًا نسبيًّا، إلا أن إخماده تم بطريقة غاية في الوحشية. في قرية باراك Barak التي استسلمت بعد مقاومة قصيرة، تم ذبح معظم الذكور من الأهالي، وتم اقتياد النساء والأطفال إلى كنيسة ومدرسة القرية ثم أُشعِلت فيهما النيران. فقدت باراك وحدَها نحو خمسة آلاف من سكانها البالغ عددهم سبعة آلاف نسمة، وقُدر عددُ مَن تم ذبحهم من المسيحيين في ذلك الشهر الواحد بما لا يقل عن اثني عشر ألفًا.

استقبل العالم المتحضِّر — وخاصة في روسيا — أخبارَ تلك المجزرة برعب شديد؛ حيث أعلن القيصر تضامنه فورًا مع شركائه في العقيدة. في لندن، كانت «الفظائع البلغارية» موضوعَ كتيِّب غاضب لمستر جلادستون Gladstone — الذي كان قد ترك منصبَه — الذي انتقد بشدة سياسةَ إدارة دزرائيلي الموالية للأتراك. الاستياءُ الشديد الذي تم التعبير عنه في كل مكان، كان له أثره حتى في القسطنطينية؛ حيث نظَّم نحو ستة آلاف من طلاب المدارس والمعاهد الدينية مظاهرةً حاشدة مطالبين بطرد الوزير الأول والمفتي الأكبر. رضخ السلطان عبد العزيز على الفور، ولكنَّ المتظاهرين — والشعب كله في الحقيقة — ظلوا غير راضين. منذ تلك اللحظة، كما يقول السفير البريطاني، «أصبحت كلمة «الدستور» على كل لسان».

في الوقت نفسه، كان الجيش التركي قد أوقع بالصرب هزيمةً ساحقة ويستعد للزحف على «بلجراد Belgrade». لولا تدخُّل القوى — التي كانت ألمانيا والنمسا قد انضمتا إليها الآن — في الوقت المناسب وأصرَّت على عقد هدنة. صاغ القيصر وإمبراطور النمسا معًا، تدعمهما ألمانيا، ما عُرف بمذكرة برلين Berlin Memorandum، للضغط على الباب العالي للقيام بإصلاحات جذرية، وطلبوا تعاون بريطانيا. رفض دزرائيلي الطلب تمامًا، مشيرًا إلى أن بريطانيا لم يتم استشارتها مسبقًا، كما رفض أن تشارك القوى الثلاث في «وضع سكين على رقبة تركيا». ولكي يدعم الروح المعنوية التركية أكثرَ من ذلك، أمر بأن تشارك مجموعة من السفن من الأسطول البريطاني في البحر الأبيض وتتخذ مواقعَها في مدخل الدردنيل؛ ومصرًّا على منع الحرب التي كانت روسيا قد عقدَت عزْمها عليها، دعا لمؤتمر للقوى الست يُعقد في القسطنطينية في شهر ديسمبر التالي.

لم يتحسَّن الوضع في المدينة برغم القلق المتزايد حول حقيقة الصحة العقلية للسلطان. كان عبد العزيز قد خَلَف أخاه غير الشقيق عبد المجيد في ١٨٦١م. كان أحد

السلاطين القلائل المرعبين الذين عرفتهم الأزمنة الحديثة. كان طوله نحو سبعة أقدام — ما زال سريره الذي يبلغ طوله ثمانية أقدام موجودًا في قصر دولما باشي — ولحية كثة سوداء وطباع وحشية، وكان ذلك كله يجعله يبدو في نظر الكثيرين في بلاطه من مخلَّفات أسوأ أيام القرنين السابع عشر والثامن عشر. في ١٨٧٦م، وكان ما زال في السابعة والثلاثين، دعاه نابوليون الثالث إلى فرنسا لحضور المعرض العالمي الكبير، وقام بزيارة فيينا ولندن في طريقه. كان بذلك أولَ سلطان في التاريخ العثماني يضع قدَمه سلميًّا على أرض أوروبا المسيحية، وبقيت الذكرى راسخةً في رأسه، مثبتة فيه إصرارًا على أن يكون لديه أسطولٌ من السفن الحربية الحديثة (رغم إصابته بدُوار البحر وهو يستعرض الأسطول الوطني مع الملكة فيكتوريا في سبتهيد Spithead)، كما تركت الزيارة لديه شغفًا بالسكة الحديد، التي استطاع أن يحقِّقها في القسطنطينية بعد ست سنوات. ولكن مع كل عام يمر، كانت نوبات الغضب المَرضية تزداد وطأةً وتصبح خارج السيطرة؛ وبحلول العام ١٨٧٦م، كانت الدولة قد أصبحت على حافة الإفلاس بسبب بذخه وتبذيره.

بعد تفرُّق طلبة اللاهوت وانصرافهم بفترة وجيزة، كان أن قام «حسين أفني Hüseyin Avni» قائد الجيش، في الساعات الأولى من يوم الثلاثين من مايو في ذلك العام الرهيب، بتطويق قصر دولما باشي بكتيبتين من جنود المشاة، بينما كانت قوة بحرية على أهبة الاستعداد في البوسفور. عندما دخل القصر، وجد نفسَه على الفور في مواجهة السلطان الذي كان يقف على السُّلم بملابس النوم وبيده سيف؛ وعندما قدَّم له قرار العزل، لم يبدِ عبد العزيز أيَّ مقاومة، وقام صاغرًا بالصعود إلى البارجة الرسمية التي كانت في انتظاره لتحمله إلى قصر طوبكابي Topkapi القديم. هناك، تم احتجازه ليلة، بكل فظاظة، في الغرفة التي كان سلفُه سليم الثالث قد قُتل فيها في ١٨٠٨م، قبل إرساله في اليوم التالي عبر البوسفور مرةً أخرى إلى مكانٍ أبعد وهو قصر سيراجان çirağan (الذي يوجد بجواره الآن أحدُ فنادق إسطنبول الفخمة) وبعد أربعة أيام، وجدوه ميتًا في مقر إقامته الجديد بعد أن كان قد قطع شرايينه بمقص. كانت هناك شائعاتٌ عن ما هو أكثر من مجرد عملية انتحار، إلا أن شهادة ثمانية أطباء بعكس ذلك، يبدو أنها قُبلت في النهاية.

يمكن أن يكون ذلك كله مثيرًا، إلا أن الدراما كانت ما تزال في بدايتها. بعد أسبوع، ماتت الشركسية الشابة زوجة عبد العزيز المفضَّلة أثناء الولادة، وكانت مأساةً تركت أثرًا كبيرًا على أخيها — الذي كان مسئولًا عن الإسطبل السلطاني — لدرجة أنه اقتحم اجتماعًا

لمجلس الوزراء يوم الرابع عشر من يونيو، وقتل قائد الجيش ووزير الخارجية، وكان لذلك التطور الأخير أثره كذلك على مراد الخامس، السلطان الجديد، الذي كان قد أغمي عليه عند سماعه خبر موت عمه، وظل يتقيأ لمدة ستٍّ وثلاثين ساعة؛ كما أدخلته أخبار الاغتيالات الأخيرة في حالة من الاكتئاب، فشل إدمانه للكحول في أن يخرجه منها. في آخر أيام أغسطس، كان أن قضى نحبه مثل عبد العزيز، ولكن لم يكن هناك مقصات في هذه المرة؛ كان قد بقي سجينًا في قصر سيراجان على مدى الثمانية والعشرين عامًا الأخيرة.

بالنسبة للسلطان عبد الحميد الثاني، يمكن أن نقول إنه كان أفضلَ من سابقيه؛ وإن بدرجةٍ ما. كان والده عبد المجيد قد أهمله بعد أن ماتت أمه الشركسية وهو في السابعة من عمره، فانسحب الطفل داخل نفسه بلا أصدقاء أو رفاق. كان شديد القسوة والدهاء كإنسان، ضعيفًا ومترددًا كحاكم، مع خوف شديد من الاغتيال طغى على حياته وقلَّل من ظهوره العام إلى أدنى حدٍّ ممكن. كان يكره قصر دولما باشي الخاص بوالده عبد المجيد بسبب موقعه المكشوف المعرَّض للخطر على البوسفور، وبنى لنفسه سراي جديدًا — مركزًا للحكم والسلطة — خلف الأسوار العالية المنيعة لبستانه في يلدز Yildiz أعلى التلال. من هنا كان ذلك الكيان الأحدب، المحني الكتفين، ذو الأنف المعقوف واللحية السوداء والبشرة الشاحبة — كان دائمًا ما يبدو وكأنه ينكمش مرتعدًا من منجل متخيَّل — من هنا كان ينسج خيوط مؤامراته ومكائده ويستقبل جواسيسه ومخبريه، ويدير بنفس الأسلوب إمبراطوريته المتهاوية.

لم يكن عبد الحميد، فيما أعتقد، من الحكام الذين يمكن أن يمنحوا رعاياهم دستورًا؛ إلا أنه كان فطنًا بما فيه الكفاية لكي يدرك أنه إن لم يمضِ على الأقل نحو تهدئة السخط العام إلى حدٍّ ما، فقد يصبح السلطان الثالث الذي يفقد عرشَه في غضون ذلك العام المشئوم. كان كذلك حريصًا على طمأنة المندوبين الأوروبيين في المؤتمر القادم؛ ففي آخر الأمر، إذا ظهر أن تركيا كان لديها مشروع خاص بها للإصلاح الدستوري، فأي دور يمكن أن تقوم به تلك الدول بعد ذلك؟ لم تكن مصادفةً بالتأكيد أن يصدر ويعلن مرسوم الدستور الجديد صبيحةَ يوم انعقاد المؤتمر، إلا أنه لا بد من أن يقال إن ممثلي الدول لم يقتنعوا. حتى رئيس الوفد البريطاني، ماركيز سالزبري Manquess of Salisbury الذي كان وزير الخارجية لشئون الهند في إدارة دزرائيلي، وكان لا بد أن يكون المتوقَّع أن يشارك رئيسه تعاطفه، حتى ماركيز سالزبري هذا لم يحاول أن يخفي استياءه. على خلاف زملائه، سُمِحَ له بلقاء السلطان عبد الحميد، إلا أنه وصفه فيما بعدُ بأنه كان

«إنسانًا بائسًا ضعيفًا، قال لي إنه لا يجرؤ على تقديمِ ما نطلبه منه؛ لأنه كان يخشى على حياته».[٥]

هكذا — إلى حدٍّ ما — بسبب الدستور الذي سرعان ما اتضح أنه لم يكن يساوي الورقَ الذي طُبع عليه وتم تعليق العمل به على أي حال — وإلى حدٍّ ما كذلك — وبسبب كون السلطان لم يكن لديه النية لمنح بلغاريا والبوسنة والهرسك حكمًا ذاتيًّا، لمجرد أن القوى الأوروبية كانت تريد ذلك، لهذه الأسباب فشل مؤتمر القسطنطينية فشلًا ذريعًا. كانت الحرب حتمية.

كانت روسيا أولَ دولة تتحرَّك؛ حيث عبَرت جيوشها الحدودَ الأوروبية والآسيوية لتركيا في الرابع والعشرين من أبريل ١٨٧٧م. بعد شهر، أعلنت رومانيا استقلالها وانضمت للمحاربين، وقبل أن يمرَّ وقت طويل، كانت تركيا تتراجع على كل الجبهات. وأخيرًا، في ٣١ يناير ١٨٧٨م وافق السلطان على هدنة. كان ذلك بالفعل استسلامًا، وبرغم ذلك لم ينجح كثيرًا في تهدئة الأوضاع أو حالة الذعر على البوسفور. كانت تبدو هناك إمكانية حقيقية لأن يتراجع الهلال أمام الصليب بعد أكثر من أربعة قرون.

إلا أن هذا الاحتمال لم يكن يروق كثيرًا للنمسا، التي كانت تضع الآن عينها على البوسنة والهرسك، كما لم يكن يرُق لبريطانيا؛ حيث كان دزرائيلي دائمًا صديقًا لتركيا، وحيث كان الشعب الذي كان ما زال يتذكَّر حربَ القرم يجأر بقوةٍ بالأغنية المعاصرة:

> لا نريد أن نحارب، إلا إذا كان من أجل المسيح؛
> لدينا السفن، لدينا الرجال، لدينا كذلك
> المال. لقد حاربنا الدبَّ من قبل، وبينما يظل
> البريطانيون صادقين، لن يستولي الروس على القسطنطينية.

لتأكيد هذا الأمر أكثرَ من ذلك، أمرت بريطانيا مجموعةَ سفن من أسطولها في البحر الأبيض، في منتصف فبراير، بعبور المضايق إلى بحرِ مرمرة، وبأن تردَّ النار بالنار إذا اقتضى الأمر ذلك، وبأن تحتل مواقعها أمام المدينة. أما إذا كان الهدف من ذلك تهدئةَ الأوضاع — كما كان من المرجَّح — فإن الهدف لم يتحقق، لم تفلح كل تلك الإجراءات. كان السلطان خائفًا أكثرَ منه في أي وقت مضى، بينما اعتبر الروس الإجراءات البريطانية عملًا عدوانيًّا وواصلوا تقدُّمهم نحو مرمرة ولم يتوقفوا إلا عند سان ستيفانو San Stefano (الآن موقع المطار الدولي يسلكوي: Yeşilköy). مع ميل بريطانيا وروسيا المتزايد نحو

الحرب، وافق «الدوق الأكبر نيكولاس Grand Duke Nicholas» — الذي كان يقود القوات الروسية — على عدم التقدُّم أبعدَ من ذلك، كما وافق السير «فيبز هورنباي Sir Phipps Hornby» من جانبه، على سحبِ سفنه إلى جزيرة الأميرات التي تبعُد نحو ثمانية أميال إلى الجنوب من القرن الذهبي.[٦]

بالنسبة لليونانيين، كانت الأحداث الأخيرة توحي بأن «الفكرة الكبرى The Great Idea» لم تَعُد أملًا كاذبًا كما كانت تبدو من قبل؛ رؤية العلم اليوناني يرفرف فوق كنيسة سان صوفيا St Sophia كانت تصورًا لا يمكن أن يقاومه أيُّ يوناني مخلص. كان هناك، كذلك الأمل الإضافي، وهو أن الأعمال العدائية الواضحة قد تشجِّع اليونانيين في الإمبراطورية العثمانية على الثورة، وقد قامت بالفعل انتفاضات في تيسالي Thessaly وإيبيريوس Epirus، ثم — حتمًا — في كريت، وهكذا دخلت اليونان الميدان. من أسف أن التوقيت كان في غاية السوء: أعلنت الحرب في الثاني من فبراير ١٨٧٨م، وليس لديها فكرة عن الهدنة التي كان قد تم التوصل إليها قبل ثمانٍ وأربعين ساعة. تم استدعاء الجيش اليوناني، الذي كان قد عبَر الحدود التركية بالفعل، لكي يعود على عجل، ولم يكن الأمر يخلو من ارتباك. عاد الهدوء بسرعة إلى إيبيروس، ثم إلى تيسالي، مع بعض أعمال قتال متقطع.

أدَّت الهدنة مباشرةً إلى معاهدة سان ستيفانو، التي وقَّعها ممثلو روسيا وتركيا في الثالث من مارس. كان اتفاقًا غير عادي، لم يُرضِ أحدًا سوى بلغاريا التي استعادت إمبراطوريتها التي كانت عظيمة ذات يوم في العصور الوسطى، كما وضع الاتفاق نهايةً لكل الطموحات اليونانية في مقدونيا. لا تعنينا موادُّ المعاهدة الأخرى ويكفي القول إنها ما كانت لتطبَّق. اجتمعت القوى الكبرى — التي كانت تضم الآن الإمبراطورية العثمانية كذلك — بعد ثلاثة أشهر في برلين حيث كانت مداولاتهم مُرضية لليونان بشكلٍ أكبر، إلا أن الحكومة التركية أخلفت وعودها، وظلَّت تماطل وتراوغ ولن يحصل اليونانيون على أي جزء مما أعطي لهم، قبل أن تمرَّ ثلاث سنوات أخرى. في آخر الأمر، كان عليهم أن يقنعوا بالحصول على تيسالي، وهي إقليم شديد الأهمية والقيمة، وكان قد بقي تركيًّا على مدى خمسة قرون، كما حصلوا على جزء من إيبيريوس بما في ذلك آرتا Arta.

ظلَّت كريت في يد الأتراك. في ذلك العام نفسه (١٨٧٨م) منحها السلطان ما كان بمثابة دستور تكميلي، تم بموجبه تشكيلُ مجلس تشريعي من ٤٩ مسيحيًّا و٣١ مسلمًا، كما قضى، بين أمور أخرى، بأن تكون اليونانية لغةَ المجلس والمحاكم، وبأن يُخصَّص

نصف العائدات السنوية لبناء المدارس والمستشفيات والموانئ والطرق ... التي لم يكن قد أُنفق عليها شيء منذ أيام الفينيسيين. هذا التدبير، جعل الجزيرة تنعم بالهدوء لمدة عَقد تقريبًا، إلى أن هبَّت انتفاضةٌ مسلَّحة جديدة في ١٨٨٩م تلتها انتفاضتان أخريان في ١٨٩٦م و١٨٩٧م، وكانتا من القوة والخطر، حتى إن الثانية أسفرت عن مذبحة للمسيحيين في شوارع كانيا Canea وإحراق الحي المسيحي في المدينة.

بعد هذه الفظائع، لم تبقَ اليونان ساكنة أكثرَ من ذلك. غادر الأمير جورج Prince George، الابن الثاني للملك، غادر سالاميس Salamis بأسطول صغير من قوارب الطوربيد، ليمنع عمليات إبرار تعزيزات تركية؛ وفي الخامس عشر من فبراير ١٨٩٧م رسا ١٥٠٠ يوناني بأسلحتهم بالقرب من «كانيا» — مع تذكارات بقمصان غاريبالدي الحمراء في صقلية لحفزهم — للاستيلاء على الجزيرة باسم الملك. ربما، حتى عند هذه النقطة، كان بالإمكان، عن طريق إجراء حازم منسَّق بين القوى الأوروبية، منع ارتكاب فظائع أخرى، وهو ما لم يكن يريده الملك أو السلطان؛ ولكنَّ إجراء كذلك لم يكن متيسرًا؛ وفي السابع عشر من أبريل، أعلنت تركيا الحرب.

كان الملك نفسه قد طمأن زائريه الأجانب إلى أن كل اليونانيين في إمبراطورية السلطان، سوف يقومون في حال الحرب على ظالميهم، وعلى أن معظم الجاليات المسيحية الأخرى سوف تحذو حذوهم. من أسف أن شيئًا من ذلك لم يحدُث، فحرب الثلاثين يومًا — كما أصبح يطلَق عليها — جاءت بسلسلة من الكوارث على اليونان. بحسب موسوعة كمبردج للتاريخ الحديث، فإن البحرية اليونانية التي كانت متقدِّمة عن بحرية الأتراك، لم تقُم بشيء سوى القصف غير المؤثِّر لـ «بريفيزا»، والاستيلاء على شحنة خضراوات في سانتي كوارانتا Santi Quaranta وسفينة أحد أعضاء البرلمان البريطاني من محبي الثقافة التركية. أما على البَر، فكان أداء اليونانيين أفضلَ قليلًا، كان من حسن حظ اليونان أن القوى، عندما تدخَّلت، أجبرت المتحاربين على الموافقة على هدنة. تم سحب كل المقاتلين اليونانيين من كريت، لتكون بعد ذلك تحت إشراف وحراسة قوة دولية. كان على اليونان، التي كانت قد أصبحت مفلسةً تمامًا، أن تدفع تعويضًا ضخمًا للسلطان، ومن ناحية أخرى، كان عبد الحميد مجبرًا في النهاية على الوفاء بوعده بالانفصال الرسمي لتيسالي، وكان ذلك عهدًا قطعه على نفسه قبل عشرين عامًا.

حينذاك فحسب، بذلت القوى جهدًا جادًّا لحل مشكلة كريت مرة وإلى الأبد. تم إقناع السلطان باتخاذ خطوة أبعد، وهي منح الجزيرة حقَّ الحكم الذاتي تحت السيادة

العثمانية. في نوفمبر ١٨٩٨م انسحبت آخر قوات تركية من كريت؛ واعتبارًا من نهاية العام، أصبح يحكم الجزيرة من كانيا «مفوَّضٌ سامٍ High Commissoner»، هو الأمير جورج، الابن الثاني للملك اليوناني، بينما كانت القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية والروسية، تحتل المدن الرئيسية. أصبح لليونان عَلَم ... وعُملة ... وطوابع بريد.

مرة أخرى، خفَّت قبضة عبد الحميد، وبالرغم من ذلك لم يكن يريد أن يرحل نهائيًّا. كان لا بد من مرور خمسة عشر عامًا أخرى قبل أن يحصل اليونانيون على مكافأتهم.

حدَث كذلك أن كان لمؤتمر برلين تأثيره على مصير جزيرة كبيرة أخرى من جزر المتوسط. كانت قبرص تحت الحكم العثماني منذ أن استولى عليها الأتراك من الفينيسيين في ١٥٧٠م. في البداية، كان هناك ترحيب كبير من أغلبية الشعب بتغيير الحكم. كان الأتراك قد سمحوا بإعادة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، التي تولَّى أسقفها دَور السفير لرعاياها، وليكون متحدثًا ووسيطًا مع الإدارة التركية. كان قد تم إلغاء النظام الإقطاعي وتحرير الأقنان؛ ومرةً أخرى أصبح بإمكان القبارصة تملُّك الأراضي، إلا أنهم كانوا — برغم ذلك — يدفعون الضرائب. كانوا أقلَّ سعادة لأنهم وجدوا نحو ثلاثة آلاف تركي يحصلون على أراضٍ ويقيمون على الجزيرة بشكل دائم، وهو التطور الذي سيكون له نتائجه الوخيمة إلى اليوم. ولأن المجتمعين كانوا مختلفين في اللغة والعقيدة، لم يكن هناك زواج مختلط ولا اندماج كبير. من البداية، كان القبارصة منقسمين بحدة ... وسيظلون كذلك.

مع نشوب حرب الاستقلال اليونانية، تنبَّه الحاكم التركي للجزيرة، بشدة، للخطر، استدعى رئيس الأساقفة كبريانوس Kyprianos وزعماءَ الكنيسة الآخرين — كان من بينهم أساقفة بافوس وكيتيوم وكيرينيا ورئيس رهبان دير كايكو Kykko — إلى نيقوسيا، لكي يتم قتلهم بدم بارد.[٧] أما الآخرون من رجال الكهنوت، فقد وفَّر لهم القناصل الأجانب أماكنَ آمنة في ليماسول، إلا أن سلطة القبارصة كانت تتآكل يومًا بعد يوم.

بحلول منتصف القرن، كانت الأوضاع قد بدأت في التحسُّن على الجزيرة. تعهَّد السلطان عبد الحميد بمعاملةٍ متساوية لكل رعاياه بصرف النظر عن العِرق أو المعتَقد، وألغى التطبيق الظالم لضرائب الأطيان.[٨] أمر كذلك بأن تكون الوظائف الحكومية بالتعيين بدلًا من بيعها لمن كان يستطيع أن يدفع أكثر، مثلما كان الوضع في السابق. ثم جاءت الأخبار المثيرة في ١٨٦٩م عن قناة السويس، التي أفادت منها قبرص كثيرًا بالنسبة

لتجارتها. كان بنجامين دزرائيلي من أوائل رجال الدولة الذين تنبَّهوا لذلك، واستطاع أن يتوصل مع تركيا إلى ما عُرف باتفاقية قبرص. بموجب هذه الاتفاقية تعهَّدت بريطانيا بالانضمام إلى السلطان للدفاع عن ممتلكاته في آسيا، في حال تعرُّضها لأي عدوان روسي. ولكي تتمكَّن من القيام بذلك على نحوٍ أفضل، خصَّص لها السلطان قبرص لكي تكون، كما عرف، «مكانًا للسلاح a place of arms» في الليفانت مقابل دفع إتاوة سنوية. حتى تلك اللحظة، كانت الصلة التاريخية الوحيدة بين بريطانيا وقبرص هي غزو ريتشارد قلب الأسد للجزيرة في ١١٩١م. الآن، رغم أنها ستبقى عمليًّا جزءًا من الإمبراطورية العثمانية حتى ضمها الرسمي لبريطانيا في نوفمبر ١٩١٤م، كانت بالفعل مرةً أخرى في يد بريطانيا. وحيث إنه كان لا بد من دفع عائدات كبيرة للقسطنطينية، كانت الجزيرة دائمًا مسئولية مالية؛ وبالرغم من ذلك، قبل وبعد الضم، وعلى مدى الثمانين عامًا التالية، كان لا بد من أن تقوم بريطانيا بضخ أموال فيها، وتحاول زراعتها، وتبدأ مشروعات طموحة بها، مع إنشاء الطرق والمرافق العامة. باختصار، لم تكن قبرص قد شهدت شيئًا من ذلك القبيل من قبل، رغم أن فكرة الوحدة enosis مع اليونان لم تكن مستبعدة قط.

في أحد أيام أواخر صيف ١٩٠١م، قام جماعة من الثوار المقدونيين باغتصاب مبشِّرة بروتستانتية أمريكية من بوسطن، هي السيدة هيلن ستون Helen Stone بينما كانت مسافرة بعربتها بالقرب من مدينة بانسكو Bansko. لم يكن معها سوى صديقة، كلُّ ما هو معروف عنها هو أن اسمها كان مدام تسيلكا Tsilka ولا شيء أكثر من ذلك. أحاط الثوار بالاثنتين وحملوهما إلى الجبال. آنذاك فقط، اكتشف الخاطفون أمرًا زاد تعقيدَ الموقف. كانت مدام تسيلكا حاملًا، فلم يكن أمامهم سوى أن يعاملوا الأسيرتين باحترام بقدر المستطاع، إلى أن وضعت تسيلكا مولودتها في قبو نبيذ بإحدى القرى المجاورة، في تلك الليلة العاصفة. كان الكل في حالة ابتهاج، شربوا في صحة الأم والمولودة، وعندما أغارت قواتٌ تركية على القرية فرُّوا جميعًا. ركبت مدام تسيلكا حصانًا وركب شخص آخر حصانًا حاملًا المولودة.

دفعت الحكومة الأمريكية الفدية (ما يوازي ٦٦٠٠٠ دولار) (بالرغم من أنه كان من الضروري الحصول على موافقة الرئيس ماكنلي McKinley، الذي كان آنذاك على فراش المرض، على إثر طلقة من إرهابي قبل أيام قليلة). حمل الدكتور هاوس Dr. House، رئيسُ إرسالية مس ستون Miss Stone الذهب بنفسه في صناديق خشبية إلى بانسكو،

إلا أنه علِم في الوقت المناسب أن الأتراك كانوا قد عقدوا النيةَ على الاستيلاء عليه عند تسليمه. بعد أن أبلغ المختطفين وحذَّرهم أولًا، قام بإخفاء المبلغ في مكانٍ كان قد تم إعداده من قبل، وملأ الصناديق ببعض الحديد الخردة. في الوقت المحدَّد، هجم الأتراك عليهم وعادوا بهم إلى سرس Serres قبل أن يكتشفوا الخدعة. في الوقت نفسه كان قد تم إطلاق سراح السيدتين في مدينة ستروميكا Strumica. كان يُعتقد أن الكل قد أحسنوا التصرُّف. كانت السيدة ستون، على نحوٍ خاص، سعيدة بالمعاملة التي لقيتها، لدرجةِ أنها عندما عادت إلى بوسطن، اعتبروها البطل الأمريكي الأول للمنظمة المقدونية الداخلية للثورة، والتي أصبحت تُعرف بـ «إيمرو Imro»: Internal Macedonian Revolutionary Organization.

في ذلك الوقت كانت مقدونيا جزءًا من الإمبراطورية العثمانية منذ أكثر من خمسة قرون. لم تكن قد سبَّبت لغزاتها أيةَ قلاقل حتى سنة ١٨٧٠م، عندما قامت روسيا بإقناع تركيا — في محاولةٍ لمد نفوذها في البلقان عن طريق العقيدة الأرثوذوكسية — بالسماح بإنشاء كنيسة بلغارية مستقلة، وكان لا بد من أن يثير ذلك غضبَ اليونان وصربيا. أعلن البطريرك اليوناني على الفور أن الكنيسة الجديدة كانت منشقة، وعارض اتساعَ النفوذ البلغاري في مقدونيا بشدة، سواء أكان نفوذًا قوميًّا أو ثقافيًّا أو إكليركيًّا. الصرب، رغم كونهم سلافًا كذلك، كانوا يشعرون بنفس الدرجة من الاستياء والرفض لجيرانهم البلغار — هكذا بدأ التنافس الثلاثي على الإقليم، الذي سرعان ما أصبح رباعيًّا بظهور المقدونيين الذين كانوا قد أسَّسوا IMRO كجمعية سرِّية في ١٨٩٦م، واختاروا لها عَلمًا أسودَ يحمل جمجمة، وعظمتين متصالبتين بلون قرمزي.

أعطى حادث هيلين ستون المنظمةَ الشهرةَ العالمية التي كانت في حاجة إليها. اتجهت أنظار القوى نحو مقدونيا ورضخت الحكومة العثمانية للتوبيخ القاسي المعتاد للسفراء الغربيين، عن أهمية المزيد من الإصلاحات في أراضي البلقان، وكان اللوم يتزايد مع زيادة الانتفاضات الغاضبة في تيسالونيكا وأماكن أخرى.[٩] كانت كل القوى، باستثناء واحدة مع استمرار الحكم العثماني؛ وحدها بريطانيا، كانت هي التي تريد انسحابًا كاملًا للقوات العثمانية من المنطقة.

لعل ما لم تفهمه القوى تمام الفهم هو أن السلطان كان أمامه هموم أخرى عاجلة، وأهمها جماعة سرية أخرى، كانت هذه المرة على عتبة بابه هي حزب «تركيا الفتاة». يبدو أن تلك الجماعة نشأت كذلك في العَقد الأخير من القرن — ويقال إن أول خلية فيها كانت مكوَّنة من طلبة الطب العسكريين في ١٨٨٩م — ورغم أن أعضاءها كانوا

كلهم من العسكريين، فقد كانوا كلهم من صغار الضباط. في تلك المراحل الأولى لم تكن جهودهم مكرَّسة لإسقاط الإمبراطورية العثمانية. كان كلُّ ما يريدونه هو الإصلاح وبخاصة الغربنة Westernization. ظلوا خطرًا قائمًا، وبمرور الوقت أصبحوا مصدرَ قلق متزايد لشرطة عبد الحميد السرية. كان جزءًا من هذا القلق أن أعضاء تركيا الفتاة كانوا قد وجدوا في شبه جزيرة البلقان أرضًا خصبة يجنِّدون منها موالين لهم، وبخاصة في مقدونيا، مضيفين بذلك عنصرًا جديدًا لمنطقةٍ كانت تتحول بسرعة لكي تصبح مرجلًا يغلي بالغضب والاضطرابات. هناك، أسَّس كثيرون منهم منظماتٍ أخرى خاصة بهم، كانت إحدى هذه المنظمات «الوطن The Vatan» أو «حركة أرض الآباء»، التي أسَّسها ضابط صغير (٢٥ سنة) كان من مواليد تيسالونيكا، ولكن نشاطه السياسي في مقدونيا كان قد أدَّى إلى إبعاده إلى دمشق. كان اسمه مصطفى كمال، الذي سيعرفه العالم فيما بعدُ باسم «أتاتورك»، أو أبو الأتراك.

كانت المنظَّمات الداخلية — مثل «الوطن» — سرِّية بالضرورة، أما خارج الإمبراطورية فإن «تركيا الفتاة» — على العكس من ذلك — كانت تريد أكبرَ قدْر من الذيوع والانتشار في العلن. دعَوا لأول مؤتمر لهم في باريس في ١٩٠٢م، وعقَدوا مؤتمرًا آخر في المدينة نفسها في ديسمبر ١٩٠٧م، وبعده مباشرة اتخذ القادة اسم «لجنة الاتحاد والترقي» Committee of Union and Progress (CUP)،[١٠] وأسَّسوا سكرتارية دائمة، كما استوعبت اللجنة الكثير من الجمعيات الأصغر — كان من بينها الوطن — قبل أن تخضع لقوًى طاردة عن المركز وتبدأ معارضة بعضها البعض.

كان أن بلغت الأمور ذروتها في ١٩٠٨م، عندما قام ماجور يُدعى أحمد نيازي بتمرُّد مسلَّح. كان نيازي متمركزًا بعمق في المنطقة الخلفية من مقدونيا بين موناستير Monastir وبحيرة أوكريد Ochrid. انضم عددٌ كبير من صغار الضباط من المواقع المقدونية الأخرى إليه، ومنحتهم «الاتحاد والترقي» دعمها، وبنهاية الصيف كان ما يُعرف الآن بشمال اليونان مستعدًّا للقتال. سرعان ما انتقلت الحالة النفسية السائدة للقوات التي تم إرسالها على عجل، عبْر الأناضول، ووجد عبد الحميد أنَّ عليه أن يتصرف بسرعة إن كان له أن ينقذ عرشه. في الرابع والعشرين من يوليو أعلن أن دستور ١٨٧٦م المعلَّق سوف يتم استعادته فورًا، وتبِع هذا الإعلان عفو عام عن السجناء والمنفيين السياسيين. وأخيرًا، صدر في الأول من أغسطس مرسوم سلطاني بإلغاء الشرطة السرية والاعتقال العشوائي، وسمح بالسفر إلى الخارج والمساواة بين مختلف الأجناس والعقائد، مع وعد بإعادة تنظيم كل الإدارات الحكومية في الإمبراطورية.

مستبقةً بردِّ فعل السلطان وبحجمِ ما قام به من إصلاحات، فقدَت «الاتحاد والترقي» توازنها، إلا أن باقي الرعايا كانوا سعداء. كانوا قد توقَّعوا أن يظل عبد الحميد متشبثًا بمبادئه الاستبدادية التي كان قد انتهجها على مدى الاثنين والثلاثين عامًا السابقة، وأن التنازلات — إن كان هناك تنازلات — كان لا بد من أن تُنتزع منه تدريجيًّا. الآن فجأة، ودون إطلاق رصاصة واحدة من أي مكان أقرب من مقدونيا، كان السلطان يقدِّم لهم — على طبق — أكثرَ مما كانوا يأملون فيه. في يوم الجمعة ذاك، كان يطوف شوارع القسطنطينية وسط الجماهير التي كانت تهتف باسمه، وهو ذاهب للصلاة في أيا صوفيا، التي كانت قد أصبحت مسجدًا منذ الغزو التركي في ١٤٥٣م. كانت تلك هي المرة الأولى في ربع قرن، التي يجرؤ فيها على عبور القرن الذهبي.

كان لا بد من أن يكون لمثل هذه التطورات الدرامية صداها خارج حدود الإمبراطورية العثمانية. في فيينا، كان القلق الرئيسي هو ذلك المتعلِّق بأراضي البوسنة والهرسك، التي رغم أنها كانت — واقعيًّا — تركية، كان النمساويون يعتبرونها إحدى مستوطناتهم: ماذا لو كان المطلوب إرسال نواب للبرلمان الجديد بمجلسيه التشريعيين، الذي كان سيتم افتتاحه بعد قليل في قصر سيراجان çirağan؟

لم تضيِّع حكومة الإمبراطور فرانز جوزيف Franz Joseph وقتًا؛ ففي السادس من أكتوبر ١٩٠٨م، وبعد أيام قليلة من مفاجأة السلطان المذهلة قامت النمسا–المجر بضم البوسنة والهرسك بمرسوم. قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة فحسب، في صوفيا، كان فرديناند أمير ساكس–كوبرج، الذي كان قد عيِّن أميرًا على بلغاريا في ١٨٨٧م، كان قد هزَّ السلطة العثمانية وأعلن نفسه «قيصرًا» على البلغار Tsar of the Bulgarians (وهو اللقب الذي كان تم إجباره على تخفيضه إلى «ملك»، مقابل اعتراف القوى به بعد أشهر قليلة). في الوقت نفسه، قامت كريت بمحاولةٍ أخرى نحو وحدتها المنتظرة، رغم أن وصول قوة بحرية بريطانية إلى مياه كريت كان بمثابة تذكِرة مفيدة بأن بريطانيا لن تشجع أيَّ نقل للسيادة أو الاستقلال إلى أن يحين الوقت لذلك.

في القسطنطينية، سرعان ما أصبح من الواضح أن الثورة السلمية كانت قد قطعت شوطًا كبيرًا ... وبسرعة كبيرة. المسلمون الأصوليون، بعد أن صدمهم منظر النساء غير المحجبات اللائي ظهرن فجأةً في الشوارع، بدءوا يشنون حملاتهم لإعادة تبني قيمِهم التراثية. لهذا الهدف تأسَّست جمعية الوحدة الإسلامية Society of Islamic Unity،

التي كان من بين أعضائها المؤسِّسين الابن الرابع للسلطان، وكانت هناك شائعات عن تلقيها دعمًا ماليًّا من يلدز، ولكن لم يثبت ذلك؛ ثم في أبريل ١٩٠٩م، كان أن قامت مظاهرة أخرى من طلبة اللاهوت، والغريب أنها كانت مدعومة من أفراد في الحاميات المحلية، تطالب بإقالة الحكومة، ليحل محلها نظامٌ إسلامي أصولي يحكم حسب الشريعة الإسلامية، ويؤكد سلطة السلطان في دوره الديني كخليفة للمسلمين. وافق عبد الحميد على تلك المطالب ... ويُعتقد أن موافقته كانت على مضض.

كان في ذلك حتفه، حدَث اضطراب فوري في البرلمان الجديد، وصدر بيان يُدين تصرفات السلطان، فانصاع مرةً أخرى، ولكن الوقت كان قد فات. لم يَعُد بالإمكان الثقة بحاكمٍ يحني رأسه لكل هبة هواء، لكي يكون أمينًا على حكم دستوري كذلك الذي كانت تنشده تركيا الآن. في السابع والعشرين من أبريل ١٩٠٩م تم عزل عبد الحميد. لم يكن واردًا أن يودِّع قصر سيراجان مثل سابقيه؛ فالقصر كان قد أصبح مقرًّا للبرلمان، ولذا تقرَّر نفيه، وعندما علِم بذلك خرَّ مغشيًّا عليه، أقرب إلى الميت، بين يدي كبير الأغوات. وفي تلك الليلة نفسِها وضعوه في قطارٍ مع أميرين وثلاث زوجات وأربع محظيات وخمسة أغوات وأربعة عشر خادمًا ... سيوصلهم القطار بعد نحو أربع وعشرين ساعة — ويا للمفارقة الساخرة — إلى تيسالونيكا، المدينة التي كانت قد بدأت منها كل متاعبه.

باختفاء عبد الحميد من المشهد، لن تعود الإمبراطورية العثمانية مثلما كانت. كان أخوه غير الشقيق، محمد الخامس (٦٤ سنة) الذي خلفه، كان قد أمضى معظمَ حياته في عزلة شبه إجبارية، لا يؤنسه سوى الشراب والجواري. لم يكن غبيًّا ولا جاهلًا، كان مطلعًا على الأدب الفارسي إلا أنه لم يكن كفئًا للحكم بالمرة؛ وهو عيب قليل الأهمية في الواقع؛ إذ لم يكن مطلوبًا منه ذلك. كانت السلطة الآن — على الأقل نظريًّا — في يد البرلمان، وكانت الإصلاحات تترى في كل مجال. بقيت هناك بعض مظاهر القمع، وبالرغم من ذلك كان يمكن أن تحقِّق الحكومة الجديدة الكثير، لو كان قد توفَّر لها سنوات قليلة من الهدوء والاستقرار.

من أسف أن ذلك لم يحدث. كانت الإمبراطورية القديمة منقسمة، وكانت أضخم من اللازم. كانت هناك أقليات قومية كثيرة يشعر أبناؤها بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية. ظلَّت مقدونيا جُرحًا مفتوحًا؛ ألبانيا ثارت في ١٩١٠م؛ في أرمينيا كانت هناك قلاقل خطرة؛ المسلمون في سوريا ولبنان شكَّلوا حركةً شبابية عربية على غرار «تركيا الفتاة»، بينما كان إخوانهم في شبه الجزيرة العربية والحجاز يحرِّضون على التمرد والعصيان،

مما كان يسبب قلقًا كبيرًا للحكومة في القسطنطينية، لدرجةِ اضطرارها لإرسال معظم حامياتها فيما يُعرف بليبيا إلى أماكن التوتر. أدَّى ذلك إلى إضعاف شديد للجزء الأخير من ساحل شمال أفريقيا، فكان من الصعب أن يظل تحت السيادة التركية، وكان الإيطاليون يجدون في ذلك فرصة لهم.

على مدى الثلاثين سنة السابقة على ذلك؛ أي منذ أن احتلت فرنسا تونس في ١٨٨١م، كان الإيطاليون ينظرون إلى ليبيا بعين الطمع. انسحاب جيش الاحتلال العثماني، فيما عدا قوة من ثلاثة آلاف جندي، أقنعهم بأن الوقت كان قد حان، وبأنهم إن لم يتحركوا بسرعة، فمن المحتمل جدًّا أن يقوم الفرنسيون بالغزو من الغرب، باسطين نفوذهم من مراكش إلى الحدود المصرية. بحلول صيف ١٩١١م، كان من الواضح أن القوات الإيطالية كانت تجهِّز للهجوم. كلُّ ما كان بوسع الحكومة التركية أن تفعله، هو ضمان أن يكون رجال القبائل المحلية مزوَّدين بالأسلحة والذخيرة.

عندما حانت اللحظة في ٢٧ سبتمبر ١٩١١م، تم اتباع الأسلوب القديم العقيم نفسه؛ إصدار إنذار يكيل اتهامات عدة، وغالبًا مُبالغ فيها، مع مطالبَ معروفٌ مقدَّمًا أنها لن تكون مقبولة؛ وبعد رفض الإنذار يتم إعلان الحرب على الفور. في الثامن والعشرين من الشهر، تم إبرار قوات إيطالية في طرابلس وبنغازي ودرنة وطبرق. كانت عمليات الإبرار تلك، مصحوبةً بأول غارات جوية في التاريخ بواسطة طيارين يقودون طائراتٍ ثنائية السطح[11] فوق الأهداف، ويلقون قنابلَ صغيرة بأيديهم. لم يكن باستطاعة الأتراك أن يفعلوا الكثيرَ في مواجهة مثل تلك القوات المتفوقة؛ أما على البر فكان الموقف عكس ذلك. لم يكن الغزاة الذين لا يعرفون شيئًا عن حرب الصحراء ندًّا لرجال القبائل، وفشلوا في التغلغل إلى الداخل. ولكن نجاحًا جزئيًّا كان يكفي؛ ففي الخامس من نوفمبر، أعلنت الحكومة الإيطالية ضمَّ تريبوليتانيا Tripolitania وكيرينايكا Cyrenaica رسميًّا؛ وبعد خمسة أشهر، في أبريل ١٩١٢م مضت شوطًا أبعد؛ إذ قامت وحدة من الأسطول الإيطالي بقصف الحصون التي تحمي مدخل الدردنيل. بعد أن فشلت في الدخول، عادت للاستيلاء على رودس وباقي جزر الدوديكانيز The Dodecanese، التي كانت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية طوال القرون السابقة.

لا شك في أن الإمبراطورية كانت تترنَّح آنذاك، فإذا كانت إيطاليا بعد أقل من أربعين سنة كدولة واحدة، قد تمكَّنت من أن تُنزِل بها ضررًا بهذا الحجم، فالمؤكد أن الطريق كانت

قد باتت مفتوحة أمام كل أعدائها الآخرين لكي يتحركوا ... كلٌّ بالأصالة عن نفسه. بنهاية الصيف، كانت الصرب واليونان وبلغاريا ومونتينيجرو تنحِّي خلافاتها جانبًا، ويكوِّنون معًا عصبةَ أمم البلقان Balkan League بهدف طرد الأتراك من القارة الأوروبية نهائيًّا. بدأت أعمال القتال في أوائل أكتوبر، وبعد أسبوع بعد أن ظهر التفوُّق العددي للعصبة بنسبةٍ أكبر من ١:٢، وقَّعت الحكومة العثمانية «صلح الجبناء» مع إيطاليا، اعترفت بموجبه بسيادتها على تريبوليتانيا وكيرينايكا، مقابل إعادة جزر الدوديكانيز، وهو الشرط الذي وافق عليه الطليان ولم يفوا به. بنهاية نوفمبر، كان البلغار قد اجتاحوا تراقيا Thrace، والصرب احتلوا كوسوفو Kosovo وموناستير Monastir وسكوبجي Skopje وأوكريد Ochrid — والأهم من ذلك كله — أن ميناء تيسالونيكا، أهم موانئ المتوسط، كان في أيدي اليونانيين.[١٢]

في ديسمبر، كان هناك توقُّف مؤقت للقتال، وافقت كلٌّ من بلغاريا وصربيا ومونتينيجرو على هدنة — رغم معارضة اليونان بشدة — وقبل عيد الميلاد بخمسة أيام، بدأ مؤتمر سلام أعماله في لندن. إلا أنه كانت هناك أعمال كثيرة لم يتم الانتهاء منها؛ وفي بداية فبراير ١٩١٣م، اشتعلت الحرب ثانيةً، ثم كانت هدنةٌ أخرى في منتصف أبريل وتم توقيع اتفاقية سلام في لندن في ٣٠ مايو. فقدَت تركيا كريت (كانت اليونان قد ضمتها رسميًّا في ١٣ سبتمبر) ومقدونيا وتراقيا وألبانيا ومعظم جزرها في بحر إيجه. كان كل ما تبقى من «تركيا في أوروبا» هو القسطنطينية ومنطقتها الخلفية — أكبر قليلًا من نصف المساحة التي تشغلها اليوم — كما أن الحدود الحالية خلف أدرنة مباشرة، هي نتيجة لما عُرف بحرب البلقان الثانية التي استمرت أسبوعًا أو أسبوعين. هذه الحرب أشعلها البلغار، الذين كانوا مستائين لمكاسب اليونان وصربيا في مقدونيا، فقاموا بهجوم مفاجئ في الساعات الأولى من صباح ٢٩ يونيو (في عام ١٩١٣م نفسه) على حلفائهم السابقين الذين انضمت إليهم رومانيا بسرعة فيما بعد. قرَّر الأتراك أن يتدخلوا، وقام ميجور يُدعى إنفر Enver (أنور باشا فيما بعد) — وكان أحد ملهمي تركيا الفتاة — بقيادة قوات الخيَّالة التابعة له وتقدَّم بسرعة رهيبة عبْر تراقيا الشرقية صوب أدرنة، ليستولي على المدينة دون إطلاق رصاصة واحدة. كانت مغامرة جسورة وناجحة، إلا أنها لم تستطِع أن تخفيَ حقيقةَ أنه في غضون أقل من سنة، كانت الإمبراطورية قد فقدت أربعة أخماس أراضيها الأوروبية وأكثر من ثلثي سكانها الأوروبيين.

لم يكن هناك خلاف على أن الجيش كان هو المسئول عن كل تلك الخسائر. كان من الواضح أنه كان في حاجة إلى إعادة تنظيم وإعادة بناء، كما كان الأفراد الذين لم

يحصلوا على رواتبهم من شهور في حاله معنوية رديئة، ثيابهم رثَّة ومعظمهم جائع. كان الأسطول كذلك متهالكًا وفي حالة مزرية. يقال إن الضباط الألمان الذين جاءوا لمساعدة القوات المسلحة لكي تقف على قدميها مرة أخرى، أصابهم الفزع لهولِ ما رأوا، وبخاصة عندما اكتشفوا أن اللغة التركية لا تعرف كلمة «الصيانة».

كان من الطبيعي أن يكون الألمان هم الذين يقومون بهذا العمل، فعلى مدى سنوات سابقة كان القيصر ولهلم الثاني يقوم بمساعٍ حميدة، وكان مثل القوى الأخرى قد سمِع بالاكتشافات الحديثة لكميات كبيرة من النفط في بلاد الرافدين، وكان يتوق للحصول على موافقة السلطان على مد خط السكة الحديد الموجود بين برلين والقسطنطينية حتى يصل إلى بغداد في الشرق. كان قد زار القسطنطينية لأول مرة على متن يخته هوهنزولرن Hohenzollern في ١٨٨٩م بعد عام من اعتلائه العرش، وفي زيارته الثانية في ١٨٩٨م عبر هو والسلطان عبد الحميد البوسفور ليفتتحا رسميًّا محطةً نهائية جديدة رائعة في «حيدر باشا». بعد ذلك، واصل رحلته البحرية إلى فلسطين؛ حيث دخل القدس في موكب رسمي (في ٢٩ أكتوبر ١٨٩٨م) وكانت تلك أولَ زيارة رسمية للقدس يقوم بها إمبراطور ألماني منذ زيارة فردريك الثاني في ١٢٢٩م. دخل ولهلم الثاني على حصان أسود مرتديًا زيًّا رسميًّا أبيضَ، يعلو خوذته نسر ذهبي. ربما يكون ذلك قد ترك أثرًا سيئًا، كما كتبت الإمبراطورة ماريا فيودوروفنا Fyodorovna Maria لابنها القيصر نيكولاس الثاني Tsar Nicholas، إلا أن ذلك جعل تلك الزيارة وصاحبها في الذاكرة. في الثلاثين في يونيو ١٩١٣م — نفس اليوم الذي قام فيه البلغار بهجومهم المفاجئ — قام القيصر بتعيين الجنرال أوتو ليمان فون ساندرز Otto Liman von Sanders قائدًا لبعثةٍ عسكرية ألمانية إلى القسطنطينية.

لن يعرف أحدٌ شيئًا عن مهام تلك البعثة هناك؛ وبعد سنة من ذلك اليوم، تقريبًا، سقط الأرشيدوق فرانز فرديناند Arehduke Franz Ferdinand مغتالًا برصاصة في سراييفو، واشتعلت الحرب في أوروبا كلها.

هوامش

(١) الأوليجاركية Oligarchy: حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة هدفها تحقيق المنافع الذاتية. (المترجِم)

(٢) انظر الفصل الرابع والعشرين: التسوية الأوروبية.

(٣) كانت «لوكاس – لوكاس Leucas» (لفكاس Lefkas) هي الوحيدة من بين الجزر الأيونية، التي بقيت تحت الحكم التركي فترةً طويلة.

(٤) لا بد من أن أسجِّل هنا أنني مَدين بالشكر للسيد آلان بالمر Alan Palmer الذي أفدتُ كثيرًا من كتابه: The Decline and Fall of the Ottoman Empire، أثناء كتابة هذا الجزء والأجزاء التي تليه.

(٥) ربما يكون رأيه قد جاء متأثرًا بقرارِ السلطان منْحَ زوجته ليدي سالزبري — التي كانت ترافقه — وسامَ الشرف من الدرجة الثالثة.

(٦) حدَث أن كان لويس، أميرُ باتنبيرج Prince Louis of Battenberg يخدم على السفينة الملكية «سلطان»، بينما كان شقيقه الأمير ألكساندر أحدَ ضباط جيش الدوق الأكبر. رحَّب قائد السفينة «سلطان» بألكساندر، وتصادف أن كان هذا القائد أيضًا هو الأمير ألفريد Prince Alfred دوق أدنبره، الابن الثاني للملكة فيكتوريا وزوج ابنة القيصر الوحيدة، التي كانت ما زالت على قيد الحياة.

(٧) كان البطريرك الأرثوذكسي جريجوريوس قد لقي مصيرًا مماثلًا في نفس الوقت تقريبًا في القسطنطينية (انظر الفصل الخامس عشر: البربر وآل بربروسا)، وكذلك المئات إن لم يكن الألوف من اليونانيين، سواء من رجال الدين أو العلمانيين، في أرجاء الإمبراطورية العثمانية.

(٨) الذي كان يسمح بأن يقوم أفرادٌ متنفذون بشراء حق جمع الضرائب من الحكومة، ويقومون هم بتحصيلها من الأهالي.

(٩) رُوعت أوروبا كذلك بمذابح السلطان لرعاياه الأرمن. كانت تلك المذابح قد بدأت في ١٨٩٤م، ويقال إنها بنهاية العام التالي، كانت قد أودت بحياة نحو ثلاثين ألفًا منهم.

(١٠) معروفة في الأدبيات العربية باسم «جمعية الاتحاد والترقي». (المترجِم)

(١١) Biplanes: طائرات ذات زوجين من الأجنحة يقوم أحدهما فوق الآخر. (المترجِم)

(١٢) هُرع عبد الحميد المسكين وأسرته إلى السفينة الألمانية Lorelei، عائدًا إلى إسطنبول ليمضي السنوات الست الباقية له في قصر بيلرباي Beylerbey على البوسفور.

الفصل الثاني والثلاثون

الحرب العظمى

- الدردنيل: ١٩١٥م.
- مصطفى كمال: ١٩١٥م.
- الرسو والإنزال في خليج سلفا: ١٩١٥م.
- كيز وكتشنر: ١٩١٥م.
- الإخلاء الأخير: ١٩١٥م.
- اجتياح مقدونيا: ١٩١٦م.
- اللنبي والـ E.E.F: 1917م.
- اللنبي يلتقي لورانس: ١٩١٧م.
- أطلال الإمبراطورية العثمانية: ١٩١٨م.

* * *

جرَت أحداث الحرب العالمية الأولى في الأساس، كما يعرف الكل، في خنادق الشمال الفرنسي وبلجيكا. لم تكن حربًا متوسطية بأي معنًى، إلا أنها امتدَّت ثلاث مرات إلى البحر الأبيض للتركيز على عدوِّها الشرقي ... الإمبراطورية العثمانية. في المرة الأولى، كانت الحملة سيئة الطالع على الدردنيل و«جاليبولي Gallipoli»، والثانية إنزال الحلفاء في سالونيكا، أما الثالثة فكانت في فلسطين.

في السابع والعشرين من ديسمبر ١٩١٤م، وجَّه «ونستون تشرشل Winston Churchill»، وكان آنذاك لورد أول البحرية، وجَّه على نحوٍ مميَّز رسالةً نصح لـ «هربرت هنري أسكويث Herbert Henry Asquith». قال إن الحرب كانت قد وصلت إلى طريق مسدود. كان الجيشان على أهبة الاستعداد، لدرجةِ أن التقدم عدة ياردات كان من

المرجَّح أن يسفر عن ضحايا بالألوف. كان المطلوب كسر طوق الحصار والخروج إلى مسرح جديد تمامًا للحرب. وتساءل تشرشل: «ألا توجد بدائل أخرى لإرسال جيوشنا لمضغ الأسلاك الشائكة في الفلاندرز؟» كان يرى بديلين. إحدى الأفكار كانت القيام بغزو «شلزويج-هولشتين Schleswig-Holstein» والاستيلاء عليها لتمكين الدانمرك من الانضمام إلى الحلفاء، وفتح البلطيق أمام سفن الحلفاء؛ حينذاك سيكون بمقدور الروس إنزالُ جيش على مسافة تسعين ميلًا من برلين. كان ذلك هو الخيار المفضَّل بالنسبة له.

إلا أنه عرض فكرةً أخرى، كانت أكثرَ طموحًا وأوسع خيالًا: غزو شبه جزيرة جاليبولي؛ حيث إن السيطرة عليها ستمكِّن البحرية الملكية من شقِّ ممر بالقوة عبر الدردنيل إلى بحر مرمرة؛ وبالرسو عند مدخل القرن الذهبي، يمكن أن تهدِّد بقصف القسطنطينية، وهو خطرٌ شديد في الواقع نظرًا للشوارع الضيقة والمنازل الخشبية الآيلة للسقوط في المدينة القديمة. كما أن تدمير جسر «جالاتا Galata» سيعزل «بيرا Pera» عن إسطنبول، كذلك فإن مَصنعَي الذخيرة الوحيدين في تركيا مُقامان على حافة الماء وسيكونان هدفًا سهلًا للمدفعية البريطانية. كل ذلك يمكن أن يرغم حكومةَ السلطان على التماس السلام، الذي لن تكون بعده صعوبة — كما كان تشرشل يعتقد — في إقناع اليونان التي كانت ما زالت محايدة، وكذلك رومانيا وصربيا وبلغاريا بأن تلقي بثقلها مع الحلفاء. كانت تلك فكرة نموذجية تمامًا تليق بتشرشل؛ وفي حال نجاحها كان يمكن أن تختصر أمد الحرب. إلا أنها لم تنجح؛ وعلى مدى قرن كامل، كان المؤرخون العسكريون يحاولون تحليل الأسباب التي جعلت فكرةً كتلك كانت تبدو واعدة، تؤدي إلى أسوأ كوارث الحرب.

يبدو أن المشكلة كانت تكمُن في عدم وجود خطة شاملة منسقة. كان تشرشل في الأساس قد تصوَّر عمليةً عسكرية وبحرية مشتركة؛ ففي منتصف يناير ١٩١٥م، كان يقود هجومًا بحريًّا فقط، بالرغم من المعارضة الشديدة من الأدميرال سير «جون فيشر John Fisher» لورد أول البحرية، صديقه الذي كان يخشاه في الوقت نفسه. بعد شهر، وقبل أقل من أسبوع قبل قيام المدفعية بقصف الدردنيل. تقرَّر إرسال قوات دعم. كان ذلك يعود إلى حدٍّ كبير إلى حقيقة أن تشرشل، الذي كان يبذل كل جهده وطاقته دعمًا لهذه الفكرة، كان مجرد وزير في الحكومة، ومسئوليته مقصورة على البحرية. لم يكن له سلطة على الجيش؛ لم يكن «اللورد كتشنر Lord Kitchener» وزير الدولة لشئون الحرب والمسئول عن الجيش، لم يكن متحمسًا للفكرة، وكذلك رئيس الوزراء. لو كان

تشرشل يمتلك السلطة التي ستكون بيده بعد خمس وعشرين سنة، فلربما كانت حملة جاليبولي قد انتهت نهاية مختلفة تمامًا.

أما بالنسبة للبحرية، فكانت له السيادة المطلقة عليها، وبفضله كان الأسطول الذي حشده البريطانيون والفرنسيون أكبرَ تجمُّع لقوة بحرية عرفها البحر الأبيض. بصرف النظر عن الطرادات والمدمِّرات والسفن الأصغر حجمًا، كان البريطانيون قد أسهموا بأربع عشرة سفينة حربية، كانت من بينها «كوين اليزابيث»، التي كان قد تم الانتهاء منها مؤخرًا والتي كانت تحمل مدافع من عيار ١٥ بوصة — التي لا توجد على أي سفينة — أخرى، وتجعل منها أقوى سفينة في البحر. كانت مدافع معظم السفن الأخرى من عيار ١٢ بوصة، ولكن هذه الأخيرة كذلك، كانت متفوقة على أي شيء يمكن أن يتباه به الأتراك في الحصون الأحد عشر — على جانبي المضايق — التي كانت تمثِّل دفاعاتهم الرئيسية. إلى هذه القوة الضاربة، أضاف الفرنسيون أربع سفن حربية أخرى وملحقاتها.

في الثامن عشر من فبراير ١٩١٥م، كان الأسطول المشترك قد اتخذ مواقعه، وعند الساعة التاسعة وإحدى وخمسين دقيقة من صباح اليوم التالي بدأ الهجوم، واستمر طول اليوم. كان الأسطول يتقدم ويقوم بقصف الحصون والقلاع من مسافة قريبة. في الوقت نفسه، كانت كاسحات الألغام تعمل لفتح الطريق إلى المضايق. بحلول المساء، لم يكن هناك نتيجةٌ حاسمة. قائد الحلفاء، نائب الأدميرال «ساكفيل كاردن Sackville Carden» وجد أنه لا يمكن تحقيق شيء مهم، إلا إذا اقتربت سفنه من أهدافها أكثرَ من ذلك؛ لسوء الحظ انقلب الطقس فجأة، وأصبح القصف الدقيق مستحيلًا بسبب البحر الهائج. استمرت الظروف الجوية السيئة لمدة خمسة أيام قبل أن تُستأنف المعركة. في اليوم الخامس والعشرين تقدَّم نائب الأدميرال «جون دي روبك John de Robeck» حتى المضايق نفسها، فانسحب المدافعون في اتجاه الشمال. في الأيام القليلة التالية، رست جماعات صغيرة من جنود البحرية على كلا الشاطئين الأوروبي والآسيوي، يدمِّرون كلَّ ما يجدونه في طريقهم من معدَّات، ولكن معظم المنطقة كان يبدو مهجورًا. في الثاني من مارس، أبرق كاردن إلى لندن بما يفيد أنه كان يأمل أن يكون في القسطنطينية في غضون أسبوعين، في حال وجود طقس جيد.

كم كان مخطئًا! سرعان ما اكتشف أن الدردنيل كان عبارة عن حقل ألغام كبير؛ وكاسحات الألغام لا تستطيع القيامَ بعملها بسبب المدفعية المعادية، والبحرية لا تستطيع إسكاتها حتى يتمكنوا من إزالة الألغام؛ وبعد أسبوعين، بدلًا من الرسو في القسطنطينية،

كان كاردن في طريقه عائدًا إلى لندن مصابًا بانهيار عصبي. خلَفه في القيادة دي روبك، الذي قاد هجومًا على المضايق في الثامن عشر من مارس؛ من أسفٍ أنه فشل بسبب خط ألغام لم يكونوا قد اكتشفوه، فأدَّى إلى غرق سفينة فرنسية وسفينتين بريطانيتين. لم يكن دي روبك يعرف — رغم أنه كان لا بد من أن يتوقَّع ذلك — أن مرابض المدفعية التركية كانت آنذاك تعاني من نقص كبير في الذخيرة، ولم يكن لديها أمل كبير في الحصول على المزيد منها. كان يعرف خسائره الفادحة فحسب، وأن القسطنطينية كانت تبدو بعيدة كما كانت دائمًا. أما بالنسبة للأتراك، فإن جنودهم البالغ عددهم نحو ستين ألفًا، الذين كانوا منتشرين ويقودهم بمهارة الجنرال «ليمان فون ساندرز Liman von Sanders»، فقد حققوا أولَ انتصار لهم منذ سنوات، على البحرية الملكية، التي كانوا يعتقدون، مثل كثير من باقي العالم، أنها لا تُقهر. لقد تم إنقاذ القسطنطينية من براثن بريطانيا. مرةً أخرى كانوا يستطيعون أن يمشوا مرفوعي الهامة.

والآن، كان قد أصبح من الواضح لمعظم الحكومة البريطانية أن البحرية لا تستطيع القيامَ بالاختراق بمفردها. كتب الأدميرال فيشر إلى «ديفيد لويد جورج David Lloyd George»: «لا بد من أن يقوم أحدٌ بالرسو في جاليبولي في وقتٍ ما». وفي منتصف مارس، وافق كتشنر على مضضٍ بأن يرسل الفرقة ٢٩ من إنجلترا — نحو سبعة عشر ألف مقاتل — مع فِرقٍ أسترالية ونيوزيلندية (ثلاثون ألفًا أخرى) كانت موجودة في مصر في انتظار التحرُّك. إلى جانب ذلك، كانت هناك فرقةٌ فرنسية أخرى (ستة عشر ألف مقاتل)، وفرقة البحرية الملكية (عشرة آلاف مقاتل)؛ وعيِّن «الجنرال سير إيان هاميلتون General Sir Ian Hamilton»، صديقه القديم منذ أيام «حرب البوير Boer war»، قائدًا عامًّا؛ وتم الاتفاق على تجميع الجيوش في جزيرة «ليمنوس Lemnos» لاستلام معدَّاتها وتموينها ووضع خطط الحملة القادمة.

في ليمنوس، كانت خيبة أمل أخرى تنتظرهم. كان قد تم تحميل سفن النقل من إنجلترا دون أن يكون لديهم أيُّ فكرة عن الجيش الذي سيستقبلها. وصلت الخيول والمدافع على سفينة، والسروج وعدة الخيل والذخيرة على سفينة أخرى، بينما نسوا تمامًا صنادل إبرار الجنود والعتاد؛ كما كان هناك عدد كبير من الشاحنات تم تحميلها، بالرغم من عدم وجود طرق على شبه جزيرة جاليبولي. إلى جانب ذلك كله، لم يكن لدى الجيش خرائط أو مخططات دقيقة للمنطقة التي سيحارب عليها. في آخر الأمر، تم اكتشاف أن معدَّات الإبرار وغيرها، وكذلك التجهيزات على جزيرة ليمنوس لم تكن كافية وربما لا وجود

لها، والنتيجة أنه كان لا بد من إعادة تحميل كل شيء مرة أخرى، والاتجاه بالسفن إلى الإسكندرية لكي يعاد تجميع الجيش بكامله وتجهيزه للمعركة. لم يكن هناك فرصة الآن لكي تكون القوة المشتركة جاهزةً قبل منتصف أبريل على أقل تقدير. سيعطي ذلك هاميلتون نحو ثلاثة أسابيع للتحضير والتخطيط لأكبر عملية برمائية وأكثرها طموحًا في تاريخ الحروب.

أما بالنسبة للبحرية، فقد كانت أفضل حظًّا من ناحية الإمداد. كان أسطولٌ جديد من المدمرات-كاسحات الألغام قد وصل مع ثلاث سفن حربية هيكلية، وهي سفن بسيطة، تمَّت كسوتها بشكلٍ متقن بهياكل ومدافع هيكلية لتكون بمثابة شِراك خداعية قد تغري الأسطول الألماني بالظهور للقتال. كان يمثِّل الطيران الملكي «كومودور الجوِّ تشارلز سامسون Air Commodore Charles Samson عند إخراج طائرته الثلاثين من الشِّحنة، وجدوا خمسًا وعشرين منها غير صالحة للعمل؛ وبالنسبة للباقي كان هناك عدد من القنابل التي سيلقي بها المراقب أو مساعد الطيار، كان أهم ما تقوم به الطائرات هو الاستطلاع والتصوير الجوي لمرابض مدفعيات العدوِّ ومواقع جنوده والمساحات الشاسعة من الأسلاك ... وهو ما ملأ هاميلتون بالغم والحزن.

الإبرار الذي تأخَّر طويلًا، تم في الساعات الأولى من صباح ٢٥ أبريل. نزل البريطانيون في «كيب هيليز Cape Helles» على الطرف الغربي من شبه الجزيرة، والأستراليون والنيوزيلنديون في خليج صغير — سيُعرف فيما بعدُ بـ «جون أنزاك Anzac Cove» الذي يبعُد نحو ثلاثة عشر ميلًا على امتداد الساحل الشمالي. في الوقت نفسه رسا الفرنسيون عند «كوم كاليه Kum Kale» على الساحل الجنوبي. المدافعون الأتراك، بالرغم من تفوُّق الحلفاء عددًا وعُدة، ورغم أنهم (الأتراك) كانوا معرَّضين للقصف المستمر من السفن، ظلوا يقاومون ببسالة، كما كانت قوات الحلفاء تقاتل ببسالة مماثلة، إلا أن مهمتهم كانت أصعبَ بسبب تفضيل هاميلتون ونائبيه (الجنرال «إيلمرهنتر-وستون: Aylmer Hunter-Weston» والجنرال «سير وليم بيردوود Sir William Birdwood» اللذان كانا يقودان البريطانيين والأنزاك The Anzacs على التوالي) البقاءَ في البحر أثناء الساعات الأولى الحيوية بعد الإبرار. وهكذا، عندما بدأت ترتيبات الإشارة في الإخفاق وانهارت الاتصالات بين قوات الحلفاء، كانت كل وحدة تتصرف حسب ظروفها دون علمٍ بما يدور على الشاطئ التالي لها. بنهاية اليوم الأول، وبعد خسائر ثقيلة في الجانبين، كانت القوات الغازية ما زالت على الشاطئ.

أي زائر لشبه جزيره جاليبولي لا بد أن تصدمه قسوة التضاريس والبيئة بشكلٍ عام. صحيح أن هناك كثيرًا من المناظر الجميلة مثل هضبة «تروي Troy» الممتدة جنوبًا إلى ما وراء الدردنيل ثم ترتفع عن البحر في الغرب، وهناك جزر «إمبروس Imbros وسامو تراقيا Samotrace»، ولكن الشواطئ نفسها، وهي مجموعة من الخلجان الصغيرة، ضيقةٌ ومليئة بالجروف الصخرية التي تبرز متعامدة تقريبًا على بُعد ياردات قليلة من الشاطئ، تشقها وهادٌ ضيقة شديدة التحدر تغطيها شجيرات وأجمات سرخس تجعل المرور متعذرًا في مواضع كثيرة. وهكذا كان الأتراك في مواقعهم على المرتفعات يستطيعون الاختفاءَ وسط النباتات الكثيفة، وأمامهم مجالٌ ملائم لإطلاق نيرانهم على القوات المحصورة على الشاطئ تحتهم، وكأنها في فخٍّ لا فِكاك منه.

هنا يحق لنا أن نتساءل ... كيف كان لدى مَن خطَّطوا لهذه العملية أي تصور لنجاحها؟ هاميلتون، وبعض كبار ضباطه، كانوا قد قاموا باستطلاع أولي، بأن أبحروا في مدمِّرة لمسافة أبعد قليلًا من الساحل وكان لديهم بعض الصور الجوية. لم يكن لدى أيٍّ منهم خريطة جيدة، كما كانت هناك بعض المناطق — وبخاصة جون أنزاك — التي لم تكن قد رُسمت لها خرائط بالمرة؛ وبالرغم من ذلك، عندما شقَّ الأستراليون والنيوزيلنديون طريقَهم إلى الشاطئ في الساعات الأولى من صباح يوم الأحد ذاك، كانوا يحاربون مثل النمور. استطاع بعضهم أن يشق ممرًّا عبر الشجيرات والعشب البري بواسطة حِرابهم؛ وبحلول الساعة الثامنة صباحًا، كان يبدو أن الاتراك قد بدءوا يفرون في أماكن متفرقة. في تلك اللحظة، وصل إلى موقع الأحداث أحدُ أبرز الرجال الستة الذين عرفهم القرن العشرون.

كان مصطفى كمال — الذي ظهر على نحوٍ خاطف في الفصل السابق — في الرابعة والثلاثين آنذاك، وكان قائد فرقة، تم استدعاؤه لكي يشتبك مع الغزاة بكتيبة صغيرة، فقام أولًا، وحدَه دون مساعدة، بإيقاف انسحاب مجموعة من الجنود الأتراك؛ واستطاع، معتمدًا على قوة شخصيته، أن يقنعهم بالعودة إلى القتال، وبعد أن أدرك أن المعركة كانت أكثرَ خطورة وأوسع نطاقًا مما كان يتصور، قام على مسئوليته، باستدعاء كتيبة تركية متفوقة بالإضافة إلى إحدى الوحدات العسكرية العربية. كان مصطفى كمال — بذلك — يتجاوز صلاحياته، إلا أنه أبلغ قيادته بذلك قبل حلول المساء. آنذاك، كان سير المعركة قد تحوَّل لصالحه، وعاد إلى وحدته وبيده السلطة المؤثرة في جبهة الأنزاك بكاملها.

حافظ على الضغط طوال اليوم وبدأت قوات الحلفاء في المنطقة، التي كانت قد تمكَّنت من التقدُّم لمسافة قصيرة، بدأت في التقهقر في اتجاه البحر. كان بيردوود قد

اكتشف — مرتعدًا — أنه قد أنزل رجاله على الشاطئ الخطأ. كان قد توقَّع أن يجد شريطًا ساحليًّا بطول ميل على الأقل، بدلًا من جون أقل من نصف ذلك، بين الماء والمنحدر الصخري. كان لا بد من إحضار كل شيء إلى هنا: المدافع والذخيرة ودواب الحمل — على وجه السرعة — ونقالات لحمل الموتى والجرحى. في تلك الليلة بعث برسالة إلى القائد الأعلى يطلب الإذن بالتخلي عن موقعه وإعادة رجاله إلى البحر.

ولكن هاميلتون رفض؛ إذ إن أي عملية لإعادة الرجال إلى السفن، كما أوضح، ما كانت لتستغرق أقلَّ من يومين. في الوقت نفسه، كانت قد وصلته تقاريرُ تفيد بأن غواصة أسترالية كانت قد عبرت المضايق ودخلت بحر مرمرة، حيث أغرقت زورقًا حربيًّا تركيًّا بطوربيد. لم يكن أمام الجنرال المسكين سوى أن يأمر رجاله بحفر الخنادق والبقاء في وضع الدفاع. كان يمكن أن تَهِن عزيمةُ بيردوود الذي كان مشغولًا بالأنزاك، لو أنه علِم بما حدث للقوات الأوروبية. كان الفرنسيون قد حققوا قدرًا من النجاح: كانوا قد رسوا بالقرب من مقبرة «أخيل Achilles» الشهيرة، واستولوا على قلعة كوم كاليه المهجورة واحتلوها، ومستعدين الآن للالتحاق بحلفائهم البريطانيين في كيب هيليز. إلا أن عمليات الرسو والإبرار هنا كانت كارثية. كان الأتراك قد حبسوا نيرانهم إلى أن اقتربت سفن النقل من الشاطئ وتم تحميل الأفراد، ثم قاموا فجأةً بإطلاق وابل من الطلقات القاتلة. لم تكن هناك حماية للقوات البريطانية، وفي لمح البصر، كما قال سامسون كومودور الجو، الذي كان يراقب المشهد من طائرته: «كان البحر الأزرق الهادئ قد اصطبغ بلون الدم على امتداد خمسين ياردة من الشاطئ ... كان المنظر مرعبًا»؛ وفي مناطق المياه الضحلة، كانت الأمواج الصغيرة قد استحالت قرمزية اللون. في غضون ثلاث ساعات، كانت ثلاثون جثة تقريبًا تغطي الشاطئ. كان الموقف أفضلَ كثيرًا في مواقع الرسو والإبرار؛ والمعروف أن خسائر الأتراك، كذلك، كانت كبيرة. بالرغم من ذلك كان تفاؤل هاميلتون المستمر مثيرًا للدهشة. كتب في ٢٦ أبريل:

> «بفضل الله الذي أسكن هياج البحر، وبفضل البحرية الملكية التي حملت زملاءنا إلى الشاطئ بهدوء وكأنها في سباق للزوارق، وبفضل الروح الجسورة التي أبداها الجميع، استطعنا إبرار ٢٩٠٠٠ جندي على ستة شواطئ في مواجهة مقاومة شرسة»؛ ولكن بحسب التقارير التي تسرَّبت إلى لندن، لا يمكن أن يكون هناك شكٌّ لدى أحد في أن تكلفة عملية جاليبولي في الأرواح وحدَها، كانت أكبر بكثير مما كان متوقعًا، وأن آفاقها بعيدة المدى كانت محلَّ شك كبير.»

بعد ثلاثة أيام، كان هناك هدوء مؤقت تبِعه ما يشبه الورطة. كان البريطانيون والأنزاك قد تمكنوا من التقدُّم لمسافة ميل أو ميلين تقريبًا في التلال وأن يحفروا لأنفسهم خنادقَ يتحصنون بها؛ ولم يستطِع الأتراك زحزحتهم. لفترةٍ ما، كان يبدو أن أعمال القتال لن تتحرك أبعدَ من خنادق شبه الجزيرة كما كان الوضع في الفلاندرز. في الوقت نفسه، كانت كل بوادر الضيق والقلق بين الحكومة البريطانية قد بدأت تظهر للعلن في لندن. أولًا: في الخامس عشر من مايو، استقال الأدميرال فيشر، أو بالأحرى انسحب احتجاجًا. ثانيًا: اضطُر «أسكويث Asquith»، رئيس الوزراء، لتشكيل حكومة ائتلافية — تم استبعاد ونستون تشرشل منها بكل إصرار — في أكبر انتكاسة درامية له في عمله السياسي حتى ذلك الحين.

بالنسبة للجنود على شواطئ جاليبولي وأقرانهم على المنحدرات الصخرية الشاهقة، كان صيفًا طويلًا. مع ارتفاع درجة الحرارة أصبح الذباب لا يطاق: الطعام، الجثث الملقاة في العراء، الجروح العديدة المتقيحة، قربهم من المراحيض … كل ذلك جعل الذباب يتكاثر بالملايين لتصبح حياة الجنود جحيمًا، ثم كانت الديزنطاريا. بحلول شهر يوليو كانت السفن تحمل أسبوعيًّا آلاف المرضى إلى لمينوس وغيرها من الجزر. إلا أنه كانت هناك أخبار طيبة وسط هذا الجو المأساوي: في يونيو، تم الاتفاق في لندن على إرسال خمس فرق إضافية ليصبح عدد قوات هاميلتون نحو مائة وعشرين ألف مقاتل. دي روبك كذلك، بعد أن كان فيشر قد انزاح من الطريق، حصل على تعزيزات كبيرة لأسطوله. مع هذه الظروف التي تغيَّرت تمامًا، كان هناك ما يوحي بعملية رسو وإبرار جديدة، وهذه المرة وقع الاختيار على «خليج سلفا Sulva Bay»، الواقع على بُعد أميال قليلة شمالي جون أنزاك. من هنا، كان المأمول هو التقدُّم بسرعة وقطع الأميال الأربعة المتبقية إلى المضايق، وعزل الجزء الرئيسي من الجيش التركي عند رأس شبه الجزيرة.

كان خليج سلفا يبدو في البداية مبشرًا بالوفاء بالغرض. على خلاف الأشكال الهلالية الضحلة في غيره من الخلجان، كان سلفا أشبه بحدوة الحصان، ومن ثَم كانت مياهه بمثابة مرسًى مثالي للأسطول. لم تكن هناك مرتفعات صخرية شاهقة يمكن السيطرة منها عليه، وربما لهذا السبب لم يكن يوجد به سوى قوة دفاع خفيفة — اتضح فيما بعدُ أنها كانت عبارة عن ١٨٠٠ جندي موزعين حول الخليج دون أي أسلاك شائكة أو مدافع ماكينة؛ كانت الأسلاك والمدافع حول لسان جون أنزاك فحسب، وكانت السيطرة عليه تعني إيواء جزء كبير من قوات الحلفاء المشتركة (الدومينيون)، للتخفيف من الكابوس

الذي تحمَّلوه طويلًا. بدأت عملية الإبرار تحت جنح الليل ليلة الرابع من أغسطس واستمرَّت حتى السادسة صباحًا. لم يكن الأتراك يتوقعون شيئًا مثل ذلك. بعد أن تم إبرار كل شيء، بدأت الأمور تنحو منحًى خطأ إلى حد الخطر. لم تكن القوات التي وصلت حديثًا مدرَّبة ولا منضبطة وكان قادتها من كبار السن، غير أكفاء، وغير قادرين على التأقلم مع الظروف البالغة الصعوبة المحيطة بهم. سرعان ما انهار التسلسل القيادي … كان هاميلتون بعيدًا ولا يمكن الاتصال به … كانت الأوامر تتغيَّر من النقيض إلى النقيض في اللحظات الأخيرة … كان قادة الوحدات يتصرفون، كلٌّ كما يشاء، ونادرًا ما كان يتم إخطار الجنود بما هو مطلوب منهم.

إلا أنه كانت هناك نجاحات قليلة مؤقتة. الهجوم البطولي للقوات الأسترالية على «لون باين Lone Pine» كلَّفهم أربعة آلاف قتيل، إلا أنه عاد عليهم بما لا يقل عن سبعة أوسمة من طبقة «صليب فيكتوريا Victoria Cross»، وأسفر عن الاستيلاء على خط الدفاعات التركية. النيوزيلنديون دمَّروا جزءًا آخرَ من الخط، ليجدوا أنفسهم أمام مؤخرة المواقع التركية. إلا أنه كانت هناك، مع كل نجاح، أوجهُ فشل كثيرة؛ ففي مساء الثامن من أغسطس أُجبر الحلفاء على العودة إلى خنادقهم بعد أن مُنوا بخسائرَ فادحة وفشلوا في تحقيق أيٍّ من أهدافهم الرئيسية. في آخر أغسطس، اعترف هاميلتون بفشله لكتشنر. قال إنه لم يكن باستطاعته أن يفعل أكثرَ مما فعل دون تعزيزات قوية؛ ذكر رقم ٩٥٠٠٠ مقاتل، إلا أن الفيلد مارشال هزَّ كتفيه استخفافًا. كانت حكومة الحرب — فيما يبدو — قد قرَّرت التركيز مرةً أخرى على الجبهة الغربية. هل كان المطلوب طي صفحة جاليبولي؟

في الأسبوع الأخير من سبتمبر، كانت هناك كارثةٌ أخرى أشد قسوة. بعد أن أعلنت بلغاريا التعبئة، كان من المؤكد أنها — في ظرف أسبوع على الأقل — ستدخل الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا، وتزحف معهما على صربيا. كان ذلك نذيرًا بتغيُّر الموقف برُمَّته في البلقان؛ ولذا قرَّر الحلفاء نقل فرقتين؛ فرقة فرنسية ثم أخرى بريطانية، من جاليبولي إلى «سالونيكا Salonica» حيث يمكنهما من هناك، الزحفُ شمالًا لمساعدة الصرب. كان يبدو آنذاك أن هاميلتون لا بد أن يكون مستعدًّا لتجنُّب سلفا Sulva تمامًا. كذلك كان هناك احتمالٌ آخر، ولعله كان مُوقِعًا للكآبة في النفس أكثرَ من ذلك: في الحادي عشر من أكتوبر أبرق كتشنر إلى هاميلتون يسأل: «ما تقديرك للخسائر المحتملة بين قواتك، في حال القيام بإخلاء شبه جزيرة جاليبولي؟ لم يتم اتخاذ أي قرار بهذا الخصوص بعد … إلا أنني أشعر بضرورة معرفة رأيك». ردَّ عليه هاميلتون فورًا؛ قال إن ٥٠٪ ربما يكون

تقديرًا واقعيًّا، وأضاف: «من ناحية أخرى، بوجود كل هذه القوات الخام قليلة الخبرة في سلفا، وكل أولئك السنغاليين في كيب هيلز، لا بد أنه ستكون هناك كارثة محقَّقة.» عندما وُضعت هذه الرسالة أمام لجنة الدردنيل في الرابع عشر من أكتوبر، تقرَّر مصير هاميلتون. بعد يومين ... تم الاستغناء عنه.

خليفة هاميلتون، الليفتنانت جنرال سير تشارلز مونرو Charles Monro جاء من الجبهة الغربية مباشرة. لم يخفِ منذ اليوم الأول له، أنه كان يعتبر حملة جاليبولي برُمَّتها فكرةَ خطأ. كان يعتقد أن الانتصار في الحرب يمكن أن يتحقَّق في فرنسا، وأن أي انحراف أو تحوُّل عن الهدف الرئيسي مرفوض. وحيث إن الأوامر الصادرة إليه كانت أن ينصح إما بإخلاء شبه الجزيرة أو بعدم إخلائها، فإن طبيعة استشارته كانت تبدو نهايةً مقررة سلفًا. كما أنه عندما وصل، لم يجد شيئًا يجعله يمكن أن يغيِّر رأيه. رغم أن برودة الجو كانت قد بدأت تتزايد، لم تكن ملابس الشتاء قد وصلت من لندن. لم يكن قد أُبقي من معظم القوات سوى نصف عددها تقريبًا، وربما أقل، وكانوا في حالة من الضَّعف والهزال شديدة. كانت الذخيرة قليلة ومُقنَّن المدافع قذيفتان في اليوم. عندما رأى مونرو خليج سلفا لأول مرة تأكَّدت مخاوفه. يقال إنهم سمِعوه يتمتم: «مثل آليس في بلاد العجائب ... أعجب ... وأعجب». في اليوم التالي أرسل توصياته إلى كتشنر.

بالرغم من ذلك، لم يكن كل شيء قد ضاع. كان «الكومودور روجر كيز Commodore Roger Keyes»، رئيس أركان الأدميرال دي روبك، كان يرى من المناسب أن يعترض. كانت خطته في غاية البساطة: أن يتم تجميع كل أسطول البحر الأبيض الذي كان موزَّعًا في أشهر الصيف في عدة مواقع في بحر إيجه، لكي يقوم بمحاولةٍ مخطَّطة لعبور المضايق، بينما يتم قصف بطاريات الأتراك الموجودة على الشاطئ بكثافة. كان يعتقد أن ذلك سيفاجئ الأتراك. وبمجرد أن يصبح الأسطول في بحر مرمرة، سيكون من السهل إغلاق البرزخ عند الحافة الشمالية لشبه الجزيرة، وعزل الفِرق التركية العشرين الموجودة هناك. كان دي روبك متشككًا، إلا أنه سمح لـ «كيز» بالعودة إلى إنجلترا ليدافع عن فكرته. وفعل.

تركت الفكرة انطباعًا جيدًا لدى كبار القادة العسكريين، وعلى لورد أول البحرية «آرثر بلفور Arthur Balfour»، وبالطبع على ونستون تشرشل.

لم يكن قد بقي سوى لورد كتشنر، الذي روَّعته سرعة وفحوى رد مونرو، وكان هو شخصيًّا الذي اختار هاميلتون لقيادة عملية جاليبولي، ولم يكن يسعده، بالتأكيد، أن

يرى صديقه ممتهنًا. على الفور، وافق على فكرة كيز. وطلب منه أن يحاول الحصولَ على تعهُّد محدَّد من البحرية، وبعد ذلك أعلن (لبيردوود وليس لمونرو) عن قراره بالذهاب، شخصيًّا، إلى الدردنيل في اليوم التالي. كانت آخر عبارة في رسالته «أرفض تمامًا توقيع قرار بالإخلاء، الذي سيكون، في رأيي، أكبرَ كارثة، وأن أحكم على نسبة كبيرة من رجالنا بالموت أو السجن. سيعيِّن مونرو لقيادة القوة المتجهة إلى سالونيكا». ثم انطلق، عبْر باريس — حيث كان الفرنسيون قد أكَّدوا معارضتهم للإخلاء — إلى مرسيليا، ثم إلى جاليبولي على متن السفينة الملكية «دارموث Darmouth».

لو كان كيز قد رافقه — كما طلب منه كتشنر إلا أن الرسالة لم تصل — فلربما كان قد نجح في تهدئة الفيلد مارشال، ولكن مناخ الآراء بين القادة كان قد تغيَّر على الفور إلى حدٍّ كبير منذ رحيل كيز، ليجد كتشنر نفسه محاطًا بمونرو ودي روبك وبيردوود، وكان ثلاثتهم مع فكرة الإخلاء. لم يتكلم أحد عن كيز ولا عن خطته. بعد يومين من النقاش خرج الفيلد مارشال في رحلة تفتيش على رءوس الجسور الثلاثة الرئيسية، وأصابه الحزن لِما رأى، إلا أنه كان أقلَّ من حزن مونرو. وفي الثاني والعشرين من نوفمبر، أبرق بتوصية إلى لندن بضرورة إخلاء سلفا وخليج أنزاك فورًا والاحتفاظ بكيب هيليز «مؤقتًا». بعد يومين أبحر إلى إنجلترا.

حتى ذلك الحين لم يكن أحدٌ من المعنيِّين بالعملية — من أعلى إلى أدنى مستوى — يشعر بغير الاشمئزاز من شبه جزيرة جاليبولي، إلا أنهم لم يروها في أسوأ ظروفها. في ٢٧ نوفمبر ضربتها أقوى عاصفة ثلجية على مدى أربعين سنة على الأقل. أربع وعشرون ساعة على الأقل من المطر الغزير، تبِعتها رياحٌ شمالية عاتية لإعصارٍ استوائي مع تساقط ثلوج كثيف، وليلتان من الصقيع. كانت السيول تنهمر كاسحةً من التلال حاملة معها جثثَ الغرقى من الجنود الأتراك. في جون أنزاك بخاصة؛ حيث كان كثيرٌ من الأستراليين ووحدة هندية صغيرة، ربما يرون الثلوج لأول مرة في حياتهم. لم يكن هناك أيُّ وسيلة للحماية من البرد القارس. لم يكن قد تم صرف ملابس الشتاء للجنود، ولم يكن أمامهم سوى الاحتماء بالبطاطين الغارقة بالماء، التي سرعان ما كانت تتجمَّد. استمر هذا العذاب ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، وعندما انتهى كان هناك مائتا قتيل بين غريق وميت من البرد، ونحو خمسة آلاف يعانون من قضمة الصقيع. كان كثير منهم قد عارض الإخلاءَ من قبلُ، مصرِّين على استمرار العملية حتى النهاية. الآن، وبالرغم من الأخطار الشديدة، لم يكن باستطاعتهم الخروجُ من هنا بسرعة.

كان من الواضح أن الإخلاء سيكون عمليةً طويلة وشاقة.[1] عن رأس جسر سلفا-أنزاك وحدَه، كان هناك نحو ثلاثة وثمانين ألف جندي، غير خمسة آلاف حصان وحمار وألفي مركبة ونحو ألفي مدفع وعدة أطنان من المواد التموينية. كان الأمل الوحيد هو الانسحاب سرًّا وفي هدوء في غضون أسبوعين أو ثلاثة. حتى آنذاك، كانت هناك مخاطرُ شديدة: القصف التركي المتواصل قد يجعل عمليةَ التحميل مستحيلة، الطقس السيئ والبحر الهائج قد يفسدان الخطط المعدَّة مهما كانت جيدة، كما أن انقلاب الشمس الشتوي كان قد اقترب. إلا أنه لم يكن هناك بديلٌ آخر. من الأسبوع الثاني في ديسمبر بدأت مجموعات صغيرة من البوارج والقوارب الصغيرة في التسلل إلى الخليج ليلًا لتغادر قبيل الفجر، محمَّلة عن آخرها بالأفراد والحيوانات والأسلحة. كان يتم تحميل المرضى والجرحى أولًا، وكان قد تم إعداد ستٍّ وخمسين سفينة مجهَّزة كمستشفًى بشكلٍ مؤقت. كان هناك ١٢٠٠٠ سرير في المستشفيات جاهزة في مصر. كانت الحياة أثناء النهار تسير كالمعتاد لدرء شكوك الأتراك: قوافل البغال مستمرة في رحلاتها من الشواطئ إلى الجبهة وبالعكس. الفارق الوحيد هو أن الأقفاص والصناديق التي كانت تحملها كانت فارغة. مع تقدُّم عملية الإخلاء أصبح الخداع والتمويه أكثرَ صعوبة: نفس الرجال والحيوانات كان لا بد من أن تواصل السيرَ جيئةً وذهابًا عدة مرات مثل جيش على خشبة مسرح. لم يكن هناك خيام، وكان لا بد من إشعال الألوف من مواقد الطهي كلَّ ليلة.

بعد أسبوع، تسارع معدَّل الحركة؛ في الثامن عشر من ديسمبر، كان نصف القوة — نحو أربعين ألف جندي — قد أقلع. إلا أنه لم يكن بالإمكان خداع العدوِّ أكثرَ من ذلك؛ تم الاتفاق على أن تغادر بقيةُ الجيش في الليلتين التاليتين. في بعض قطاعات الجبهة لم يكن يفصل بين خنادق الحلفاء وخنادق الأتراك أكثر من عشر ياردات (ما زال بعض الخنادق موجودًا إلى الآن)، وربما كان يبدو من المستحيل مغادرتها دون أن يتنبَّه العدوُّ لذلك، إلا أن ذلك حدث على نحوٍ ما. قبل بزوغ فجر اليوم الحادي والعشرين تحرَّكت آخر القوارب من الشاطئ. عند جون أنزاك، جُرح جنديان على إثر طلقات طائشة أثناء صعودهم السفينة؛ في خليج سلفا خرج كلُّ الرجال والحيوانات في سلام، كان آخر شيء فعلوه قبل مغادرتهم هو إشعال الفتائل التي كانت موضوعة على الشاطئ بعناية. بعد عشر دقائق كانوا يسمعون — بكل ارتياح — سلسلةَ الانفجارات المدوية في مستودعات الذخيرة.

ولكن ماذا عن البريطانيِّين؟ بالنسبة لِفرقهم الأربع — نحو ٣٥٠٠٠ جندي — عند رأس جسر هيليز كان الوضع يبدو خطرًا بالفعل. كان الأتراك قد تركوا الأنزاك يهربون من ناحية اليمين على مرأًى منهم؛ والمؤكَّد أنهم لن يرتكبوا الخطأ نفسَه مرة أخرى. بدلًا من ذلك، سيُلقُون بكل ثِقل جيشهم ضدهم؛ حيث لم يعودوا مقيَّدين في أنزاك وسلفا. لم يَعُد رفضُ الإخلاء ممكنًا، مونرو، وبيردوود، ودي روبك — الذي كان مريضًا في بلاده وعاد قبل عيد الميلاد — كانوا متفقين الآن: لا بد من الإخلاء مهما كانت صعوبته.

بدأت العملية يوم السبت الأول من يناير ١٩١٦م. غادر الفرنسيون أولًا، وبعد أسبوع كان عدد القوات البريطانية المتبقية قد انخفض إلى تسعة عشر ألف جندي. حتى ذلك الحين كان هناك قليلٌ من المقاومة من جانب العدوِّ، وهو أمرٌ كان يدعو للدهشة بالفعل. بعد ظهيرة اليوم السابع، بدأ الأتراك هجومَهم بقصفٍ متواصل استمر نحو أربع ساعات ونصف الساعة. بعد أن صمتت المدافع كان أن بدأ الهجوم المتعذَّر اجتنابُه. واجهه البريطانيون من خنادقهم بالمدافع والبنادق، ولكنهم فوجئوا بالمشاة الأتراك يقفون في أماكنهم رافضين التقدُّم، رغم ما كانوا يُعرفون به من شجاعة وانضباط. حتى حلول المساء، لم يكن جندي تركي واحد قد اخترق خطَّ الدفاع البريطاني. لم تكن هناك أيُّ متاعب على مدى الأربع والعشرين ساعة التالية، واستمرت عملية الإخلاء.

في الوقت نفسه كانت الحالة الجوية تزداد سوءًا. بحلول اليوم الثامن من يناير، كانت الرياح العاتية التي بلغت سرعتها نحو خمسة وثلاثين ميلًا في الساعة، تطيح بكل شيء. تحطَّم مشعلان ليرتطما بإحدى الدعامات المؤقتة، كان كل شيء يتحطَّم أثناء محاولات إصلاحه، ولم يكن العمل في الظلام سهلًا بينما البحر هائج. كانت الرياح والأمطار، كذلك، سببًا في بطء حركة الجنود الباقين وهم يقطعون الأميال الثلاثة أو الأربعة من خنادقهم إلى الشاطئ، إلا أنه في الرابعة إلا الربع صباحًا، كان آخر فرد قد صعد إلى آخر سفينةٍ مغادرةٍ. بعد عشر دقائق انفجرت مخازن الذخيرة في مشهد درامي أخير، كما حدث في أنزاك وسلفا من قبل.

لم يكن هناك ما يليق بعملية الإخلاء أكثر من نهايتها: من بين المساخر الكثيرة في قصة جاليبولي، أن تكون عمليات الإخلاء الأخيرة نموذجًا لدقة التنظيم والتخطيط، برغم الارتباك والفوضى التي اكتنفت العملية كلَّها من البداية. لم يكن هناك أيُّ خسائر تقريبًا ولم يتبقَّ أيُّ فرد في المكان. إلا أنه ربما تكون هناك سخرية أخرى: كانت الحملة الفاشلة، برغم ذلك كلِّه، فكرةً جيدة، كان ينبغي — وكان يمكن — أن تنجح. بعد الحرب

ببضع سنوات اعترف تقريرٌ رسمي لرئاسة الأركان العامة التركية بأن معركة ١٩ مارس البحرية كانت قد خلَّفتهم بلا ذخيرة، ولو أن دي روبك كان قد عاود الهجوم على الفور، فلربما كان قد تمكَّن من التقدم، دون عائق، إلى القسطنطينية عبر المضايق، وفي تلك الحالة فإن «الفِرق الثمانية التي كانت هناك، ما كانت لتستطيع الدفاعَ عنها». وفي حال احتلال القسطنطينية، فلربما لم يقدِم الروسي على توقيع صلح منفرد — ولربما لم تحدث الثورة الروسية. حتى بعد عمليات الإبرار، كان الانتصار ممكنًا؛ فالتقرير التركي يعترف كذلك بأن الحلفاء كان يمكنهم القيامُ باختراق دفاعاتهم أثناء الحملة مرتين (أثناء أول إبرار في أنزاك في شهر أبريل، وفي خليج سلفا في شهر أغسطس)، لولا الجاذبية الشخصية لمصطفى كمال.[٢] لو أنهم كانوا قد تمكنوا من ذلك، لو أن الحملة كانت قد نجحت — وكانت على وشْك تحقيق ذلك — فلربما كانت الحرب العظمى قد انتهت قبل نهايتها الفعلية بثلاث سنوات، ولما زُهقت ملايين الأرواح.

كان موقف اليونانيين من عملية إبرار القوات في سالونيكا غامضًا وملتبسًا. رحَّب رئيس الوزراء «إلفتيريوس فينيزيلوس Eleftherios VeNizelos» بالخطة سرًّا، بالرغم من أنه سجَّل اعتراضًا رسميًّا من باب التمسك بالشكليات. من ناحية أخرى كان الملِك «قسطنطين Constantine» (كان قد خلَف والده جورج قبل عامين وكان متزوجًا من شقيقة القيصر) معارضًا بشدة على أساس أنه حتى عبور الجيش البلغاري الحدودَ، فإن وجود قوات أجنبية على الأراضي سيكون انتهاكًا لحيادية اليونان. أما بالنسبة لليونانيين أنفسهم فكانوا إلى جانب الملِك تمامًا. لم يكن لديهم رغبة في وجود قوات للتحالف، ويشعرون أنهم أُجبِروا، على غير إرادتهم، على دخول الحرب. كانت النتيجة ما أصبح يُعرف بـ «الشقاق القومي National Schism»، وأُجبر فينيزيلوس على الاستقالة.

من الخطأ دائمًا أن تتدخل الملكيات الدستورية في السياسة الخارجية، وهذه المرة كان الخطأ كارثيًّا. الآن، فتح الملك قنوات محادثات سرية مع الألمان، وفي الثالث والعشرين من مايو ١٩١٦م، وبأوامرَ منه، سلَّم الجيش اليوناني قلعةَ «روبل Rouple» الأمامية، مما مكَّن القوات الألمانية والبلغارية من اجتياح مقدونيا الشرقية. كذلك صدرت الأوامر لـ «قولة Kavala» بالاستسلام، وأرسلت حاميتها إلى ألمانيا كأسرى حرب. كان فينيزيلوس، يصرخ في البرلمان «أين ... أين على الأقل الثلاثين قطعة فضة. التي حصلتَ عليها؟» ربما لم تكن تلك هي الملاحظة الأكثر دبلوماسيةً للمناشدة الأخيرة للملِك للانضمام إلى الحلفاء قبل أن يتأخر الوقت. وكما كان متوقَّعًا، تجاهل الملك الأمر تمامًا.

بالنسبة لقوة الحملة، كان الموقف يزداد صعوبة. منذ يوم وصولها، كان أن وجدت أنها لم تكن محلَّ ترحيب، واضطُرت لإقامة معسكرها بعيدًا عن المدينة بعدة أميال، بينما بقي قناصل العدوِّ في الداخل دون قيود عليهم. في ذلك الشتاء، ارتدَّ الصرب إلى الأدرياتيكي وتم احتلال صربيا. كان الحلفاء يتساءلون: ماذا يريدون؟ كان أن أخذ القائد الفرنسي في سالونيكا آنذاك — الجنرال «موريس سيريل Maurice Sarrail» — القانونَ في يده، وألقى القبض على قناصل العدوِّ وعملائه وسجنَهم في القلعة، بينما قام بالاستيلاء على قلعة أخرى تحمي مدخل الخليج. الآن، سقطت الأقنعة: طلبت قوات الحلفاء، رسميًّا، تسريحَ الجيش اليوناني وحلَّ البرلمان وطرْدَ الحكومة. في سبتمبر ١٩١٦م، تسلل فينيزيلوس إلى موطنه كريت؛ حيث قام بقيادة حركة تمرُّد على الملك. عاد بعد ذلك إلى اليونان ليشكِّل حكومةً مؤقتة في تيسالونيكا، اعترف بها الحلفاء بعد شهر.

في ديسمبر، قام البريطانيون والفرنسيون — الذين لم تكن مطالبهم قد تحقَّقت بعد — بإبرار قوات في بيرايوس Piraeus، في محاولةٍ لإجبار الملك على تسليم ما لديه من أسلحة وذخيرة. كان ذلك خطأً كبيرًا: ردًّا على ذلك قاتل اليونانيون، وقام الأسطول الفرنسي بقصف القصر الملكي. الملوم بالطبع — وإن بلا مبرِّر — هو فينيزيلوس الذي حرمه أساقفةُ أثينا كنسيًّا في السادس والعشرين من ديسمبر. فرض الحلفاء حصارًا على جنوب اليونان، وفي يونيو ١٩١٧م طلبوا تنحِّي الملك — ودعم الفرنسيون هذا الطلب بإنزال قوات في كورنتة. رفض قسطنطين التنحي، إلا أنه غادر البلاد مع ابنه الأكبر إلى سويسرة.

الآن، كان الموقف قد تغيَّر بين عشية وضحاها. في أثينا، التي كانت تتضور جوعًا بسبب الحصار، كما كانت بمثابة مدينة محتلة من الفرنسيين، خلَف الابن الثاني لقسطنطين أباه. بعد أيام قليلة عاد فينيزيلوس من سالونيكا بحكومته ليتم استقباله بحرارة ويصبح رئيس وزراء الملك الجديد ويحتفل بتعيينه بكلمةٍ استمرت تسع ساعات أمام البرلمان. الآن، كان الملكيون هم الذين يعانون، والحقيقة أنه تم تطهيرهم — من الحكومة والخدمة المدنية والجيش ... حتى الكنيسة. انقسم المجتمع اليوناني شطرين، وسيبقى كذلك على مدى جيل كامل على الأقل؛ وأخيرًا ... دخلت اليونان الحرب إلى جانب الحلفاء. جيشها الذي كان مكوَّنًا من مجنَّدين إلزاميين وغير مدرَّب، حارب ببسالة في مقدونيا. حارب مع البريطانيين وهزموا بلغاريا، ومع الفرنسيين والصرب وطردوا الألمان من صربيا، وفي آخر انتصار لها دخلت القوات اليونانية القسطنطينية لأول مرة منذ ١٤٥٣م. كانت تلك أسعد لحظات العمر بالنسبة لإلفيتيريوس فينيزيلوس.

كانت أخبار جاليبولي المثيرة وما خلَّفته الحملة من إحباط قد حجبت الأضواء عن مسرحٍ آخرَ للحرب: مسرح الشرق الأوسط. كان الشرق الأوسط — كذلك — يشكِّل جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، وشهد مسرحه الجيش التركي وهو واقع تحت ضغط مستمر من الحلفاء سواء في بلاد الرافدين أو فلسطين. كانت الحملة الفلسطينية — مرة أخرى — محاولة أخرى لرفع الروح المعنوية لبريطانيا التي أنهكتها الحرب: لإعطاء شعبها شيئًا تفكِّر به بدلًا من الهلاك المستمر في خنادق الفلاندرز، بينما تنزل ضربة قوية بالعدو في أضعف نقاطه. لم يكن المحرِّض الرئيسي عليها، على أية حال، هو ونستون تشرشل. كان ما زال خارج الحكومة بسبب كارثة جاليبولي — وإنما رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج، الذي خلَف أسكويث. كان يمكن تلخيص هدفه في ثلاث كلمات: «القدس قبل عيد الميلاد»، وكان الرجل الذي اختاره لتحقيق ذلك هو الجنرال سير إدموند اللنبي Edmund Allenby. لم يكن اللنبي شخصيةً محبوبة بين الجيش: طوله الفارع، وحضوره الطاغي، ومزاجه الغاضب دائمًا، وغطرسته ... كل ذلك جعلهم يطلقون عليه لقب «الثور» The Bull.[٣] والحقيقة أن عدوانيته كانت تطغى على عشق حقيقي لديه للطبيعة، وحب عميق للموسيقى والأدب والفلسفة.[٤] ولأنه كان جنديًّا قلبًا وقالبًا، والجندية في دمه، أصابه الحزن الشديد عندما صدرت له الأوامر بترك الخنادق والذهاب إلى فلسطين؛ لم يكن يعرف أن تلك النقلة التي لم يكن يرغب فيها، هي التي ستصنع اسمه وشهرته، وتأتي له بعصا المارشالية ورتبة فيكونت Viscount، ومنحة قيمتها خمسون ألف جنيه إسترليني.

كان معظم قوة الحملة المصرية[٥] — كما أُطلق عليها — من الأستراليين، وكانت موجودة أساسًا لحماية قناة السويس، مع احتمال المشاركة في قتال الأتراك. كانت القناة آمنة، أما بالنسبة للقتال ضد الأتراك فإنها لم تحقِّق الكثير، وذلك بالرغم من تفوُّقها عددًا وعُدة عن الجيش الذي كان يواجهها وراء شبه جزيرة سيناء. كتب لويد جورج يقول: «في فلسطين وبلاد الرافدين لم يكن شيء أو أحد يمكن أن ينقذ الأتراك من الهزيمة الكاملة في ١٩١٥م و١٩١٦م سوى أركاننا العامة.» لم يشهد ربيع ١٩١٧م أيَّ تحسُّن في الموقف. كانت هناك محاولتان هزيلتان للاستيلاء على غزة ... انتهت كلتاهما بالهزيمة. كانت مهمة اللنبي الأولى إذن عندما وصل إلى القاهرة في الثامن والعشرين من يونيو، هي بثَّ روح جديدة في ذلك الجيش المحبَط البائس، واستطاع أن يحقق ذلك في غضون أسبوع واحد. كان سلفه الجنرال «أرشيبالد موراي Archibald Murray»، قد فضَّل أن يكون مقر قيادته فندق «سافوي Savoy» بالقاهرة. نقله اللنبي إلى معسكر خيام رثَّة

وأكواخ بائسة خانقة من شدة الحرارة والرطوبة في مكانٍ متقدم خلف خط الجبهة في غزة، وقام على الفور بجولة تفقدية على كل الوحدات المتقدمة، كما أقام اتصالًا مباشرًا بضباطه وجنوده. كنا في ذروة الصيف؛ حيث تصل درجة الحرارة عند الظهيرة إلى ١٢٠ فهرنهايت والعواصف الرملية تكون متكررة وخانقة، ولكن لم يكن شيء من ذلك يمكن أن يمنع الجنرال الكبير من الجلوس بكامل زيه الرسمي منتصبَ القامة، بجوار سائق أسترالي صغير يرتدي قميصًا وبنطلونًا قصيرًا، في سيارة فورد قديمة، يجول بها الصحراء لتفقُّد الدفاعات وإمدادات المياه، يعطي الأوامر ويعبِّر بوضوح عن عدم رضائه. أينما حلَّ، كانت الروح المعنوية ترتفع إلى عَنان السماء.

كانت مهمة اللنبي المباشرة هي تكوين فكرة واضحة عن قواته، والمهمة التالية هي وضع خطة للحملة، وكان ذلك يتطلب تعزيزاتٍ كبيرة: فرقتان أخريان إلى جانب السبع الموجودة بالفعل في فلسطين. ولشرح خطته والدفاع عنها في وزارة الحرب، أرسل إلى لندن ضابطَ اتصال شابًّا هو الليفتنانت كولونيل أ. ب. ويفل A. P. Wavell (الفيلد مارشال فيما بعدُ في الحرب العالمية الثانية، ونائب الملك في الهند) بفضل قوة إقناع ويفل — إلى حدٍّ كبير — وسُمعته الطيبة التي كانت تتردد، حصل على كل ما يريد، مع مدفعية ووحدات أخرى من الطيران الملكي؛ وبعد وقت قصير كان ويفل هو الذي يشرح خطةَ اللنبي لرئيس الأركان العام الملكية ولحكومة الحرب. كانت الخطة باختصار تتكوَّن من التقدم باندفاع رئيسي إلى آبار «بيرشيبا Beersheba» الوافرة التي تبعُد نحو ثلاثين ميلًا تقريبًا، إلى الداخل من غزة، على أن يحمي ذلك الاندفاعَ هجومٌ خداعي على غزة نفسها. كالعادة، كانت استعدادات اللنبي شاملة: تم جمع ثلاثين ألف جمل لنقل الماء للقوات التي ستتقدَّم، مع بناء طرق جديدة وإعداد خرائط أكثرَ دقة — بفضل الاستطلاع الجوي الحديث — من تلك السابقة التي كان قد أعدَّها هـ. هـ. كتشنر في سبعينيات القرن التاسع عشر. في الوقت نفسه قرأ اللنبي كلَّ ما هو متوفر عن المنطقة منذ «هيرودوتس Herodotus» و«سترابو Strabo»، إلى تاريخ الحملات الصليبية، وآخر أوراق الجمعية الجغرافية الملكية.

أثناء فترة التحضير تلك في أواخر صيف ١٩١٧م، كان أن قابل اللنبي لأول مرة الضابطَ البريطاني الوحيد الذي سيفوقه شهرةً في المنطقة: الكابتن «تى. إي. لورانس T. E. Lawrence» الذي كان في التاسعة عشرة. لورانس، الابن الثاني بين أبناء خمسة لـ «بارونيت Baronet»[٦] إنجليزي-أيرلندي، كان قد خبر العالم العربي في ١٩٠٨م لأول

مرة، عندما قام بجولة في سوريا ولبنان ليسجل قلاعها الصليبية التي لم يكن يعرف أحدٌ عنها الكثير. ثم اشتغل بعد ذلك — باعتباره عالِم آثار — على حفريات المتحف البريطاني في سوريا حتى نشوب الحرب، ليجد نفسه في القاهرة برتبة ملازم أول في إدارة الاستخبارات العسكرية، ضمن قوة الحملة المصرية (EEF)، وكان يمكن أن يظل هنا، لولا الثورة العربية.

هبَّت الثورة العربية على الأتراك في العاشر من يونيو ١٩١٦م بقيادة الشريف حسين بن علي، حاكم مكة والحجاز. بعد ثلاثة أشهر خمدت الانتفاضة وهدأ التمرُّد بعد أن فشل المتمردون أكثرَ من مرة في طرد الأتراك من المدينة. كانت روحهم المعنوية قد انطفأت. كان لورانس قد التقى بقادة الثورة، وترك فيصل، الابن الثاني للشريف حسين بن علي انطباعًا جيدًا لديه، فوضعا خطةً للاستيلاء على العقبة، الميناء العثماني الرئيسي على الطرف الشمالي للبحر الأحمر. كانت حملتان بحريتان بريطانيتان قد فشلتا من قبل، إلا أن لورانس كان يعتقد أن بالإمكان الاستيلاءَ على العقبة عن طريق البر. في أوائل يوليو، وبعد مسيرة شهر تقريبًا، واجتياز نحو ثمانمائة ميل في الصحراء، وبواسطة قوة من البدو المحليِّين الذين كان قد تم تجنيدهم في الطريق كيفما اتفق، كان أن استسلمت الحامية التركية؛ وهكذا صنع لورانس اسمه.

لكم يتمنَّى المرء لو أنه كان هناك عندما دخل لورانس بخطًى مسرعة، وبحجمه الضئيل مرتديًا زيًّا عربيًّا كاملًا — كما كانت عادته — مكتبَ اللنبي الضخم وهو جالس في زيه الرسمي الأنيق. لا بد من أن يكون أكثر من ضابط قد طردوه لكي يخلع عنه ذلك الثوب الغريب ثم يعود للقاء الجنرال. كلُّ ما فعله اللنبي هو أن حملق فيه، ولكنه راح يستمع إليه، وهو يشرح كيف سينشر التمرد شمالًا عبر العقبة ضد دمشق، ويقوم بهجمات متواصلة على خط سكة حديد الحجاز الأحادي، الذي كان طريق المواصلات الوحيد من هناك إلى المدينة. ربما كان من الصعب احتمالُ أسلوبه المغرور المصحوب بالغطرسة الزائدة، إلا أن حججه كانت مقنِعة. قام الجنرال بترقيته على الفور، وجعله — هو وقوة فيصل — مسئولين أمامه مباشرة، كما وعده بتقديم كلِّ ما يستطيع من مساعدة.

المؤكد أن ذلك كان هو الطريق أمام اللنبي لتحقيق هدفه الرئيسي: تدمير الإمبراطورية العثمانية، وكان كذلك — كما كان يعلم — ضمانًا لمتاعب المستقبل. في ربيع العام السابق، كانت بريطانيا قد دخلت في اتفاق مع فرنسا وروسيا، يمكن بموجبه التوفيقُ بين

مطالب فرنسا فيما يتعلق بسوريا والتعهدات والوعود البريطانية للعرب. كانت روسيا قد خصَّصت للقسطنطينية بضعة أميال من الأراضي الخلفية على كلا جانبي البوسفور، مع جزء كبير من شرق الأناضول حتى القوقاز؛ وكانت فرنسا تطالب بمعظم سوريا ولبنان وجزء كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل في العراق؛ أما نصيب بريطانيا فكان يتكوَّن من بقية العراق الحديث — بما في ذلك بغداد والبصرة — وقطاع من فلسطين يضم موانئ حيفا وعكا. لو نجحت خطة لورانس للتقدم في اتجاه الشمال، لما كان من المحتمل — على أقل تقدير — أن تؤيد الجيوش العربية المنتصرة مثل ذلك الترتيب، إلا أنه سيكون هناك ما يكفي من الوقت لتناول مثل تلك المشكلات.

بدأ التقدُّم الرئيسي نحو غزة وبيرشيبا بالقرب من أواخر أكتوبر ١٩١٧م، وبالرغم من التحصينات القوية للخط بواسطة القائد الألماني الجنرال «كريس فون كرسنشتاين Kress von Kressenstein»، سقطت بيرشيبا في آخر يوم من الشهر ... وبعد أسبوع سقطت غزة. قرَّر اللنبي أن يحافظ على الزَّخم ولم يرحم نفسه ولا قواته التي لم يسمح لها بالراحة؛ في بعض الوحدات كانت الخيول تشرب مرةً واحدة في خلال اثنتين وسبعين ساعة، وتُستعجل لترمح بلا شفقة في اتجاه الشمال لمد خطوط الاتصال والتموين إلى أبعدِ مدًى. سقطت يافا في السادس عشر من نوفمبر، وتجمَّع الجيش المنهَك العطشان في تلال يهوذا استعدادًا للهجوم الأخير على القدس. كان إصرار اللنبي على ألا يكون هناك قتال في المدينة المقدسة، كان يتضمن مناورةً طويلة ومعقَّدة للقيام بتطويق المدينة. مما زاد الأمر سوءًا، رداءة الأحوال الجوية فكانت حوافر الخيل إما تغوص في الوحل أو تنزلق متعثرة على الصخور. بالرغم من ذلك استمر التقدم، وفي الأسبوع الأول من ديسمبر أبلغ الحاكم التركي دمشق بإخلاء المدينة قبل أن يقوم هو شخصيًّا بتحطيم آله التلغراف الخاصة به بمطرقة. المدينة نفسها استسلمت في التاسع من ديسمبر، وبعد يومين دخل اللنبي القدس رسميًّا. كان معه الجنرال ويفل والميجور لورانس في زيٍّ عسكري استعاروه له. قبل تسعة عشر عامًا، كان القيصر ولهلم قد دخلها على حصانه ... اللنبي، كما أعلن في كل مكان، دخلها على قدميه. بعد ٧٣٠ سنة، عادت القدس مرةً أخرى إلى أيدٍ مسيحية، ولكن — بأوامر منه — لم يُرفع عليها علمٌ رسمي. أصدر بيانًا قصيرًا، كانت سطوره الأخيرة تقول:

> حيث إن مدينتكم تحظى بتقدير كبير من أتباع الأديان الثلاثة العظمى في تاريخ البشرية، وحيث إن أرضها قد قدَّستها صلوات أو رحلات حجٍّ أعداد كبيرة من

> الأتقياء أتباع تلك الديانات الثلاث على مدى قرون عدة، أعلن لكم جميعًا: أن كل مبنًى مقدَّس، أو أثر أو بقعة مقدسة، أو هيكل، أو موقع تراثي، أو وقف أو إرث ديني، أو أي مكان معتاد للصلاة فيه أو أداء أي شعيرة تابعة لأيٍّ من الديانات الثلاث ... سيتم الحفاظ عليها وحمايتها، حسب العادات والأعراف القائمة لمن يقدِّسونها.

بعد الاستيلاء على القدس كانت هناك فترة توقُّف نحو عام، قبل استئناف الحملة. كان اللنبي يعرف أنه إذا كان لا بد من أن يتقدَّم حتى حلب، فسيكون في حاجة إلى قوةٍ أكبر مما لديه آنذاك. رفض أن يتحرك إلا بعد توفير تلك القوة له. ما حدث هو أن جيشه أُعيد تنظيمه بالكامل. غادرت بعض القوات إلى أوروبا، وجاءت أخرى من الهند وغيرها من الأماكن، إلى أن أصبح لديه قواتٌ من أكثر من ١٢ دولة ومستعمرة، من بينها سنغافورة وهونج كونج وجنوب أفريقيا ومصر وجزر الهند الغربية. كانت هناك — حتى — وحدة من راروتونجا Rarotonga في جنوب الباسيفيكي. كان من بين أفراد الكتائب اليهودية الثلاث التي جاءت على إثر إعلان بلفور Balfour Declaration، كان هناك ديفيد بن جوريون David Ben-Gurion، الذي سيصبح أولَ رئيس وزراء لإسرائيل.

وهكذا لم يطلِق اللنبي قوَّته الضخمة غير المتجانسة إلا في التاسع عشر من سبتمبر ١٩١٨م. كانت مكوَّنة من ١٢٠٠٠ جندي خيَّالة و٧٥٠٠٠ جندي مشاة و٥٤٠ مدفعًا. أطلقها على ١١ فرقة تركية قوامها ٤٠٠٠ جندي خيَّالة و٤٠٠٠٠ جندي مشاة و٤٣٠ مدفعًا. كانت القوة التركية تحتل جبهةً من يافا شرقًا إلى نهر الأردن بامتداد شاطئه الشرقي إلى البحر الميت. بعد ١٢ يومًا، وبعد واحدة من أشهر الحملات العسكرية، دخلت قوَّاته المتقدِّمة دمشق. سقطت بيروت في الثامن من أكتوبر، وطرابلس في الثامن عشر، وحلب في الخامس والعشرين من الشهر نفسه. في غضونِ ما لا يزيد عن ستة أسابيع، كان قد تقدَّم لمسافة ٣٥٠ ميلًا تقريبًا، ليدمِّر الجيش التركي في سوريا تمامًا، ويأسر ٧٥٠٠٠ جندي، ويستولي على المدافع الأربعمائة والثلاثين كلها وعلى كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة والمواد التموينية. بلغت الخسائر البريطانية نحو ٥٦٦٦ فردًا. فيما بعدُ سيكتب المؤرخ العسكري «ليدل هارت Liddell Hart» أن الحملة «كانت واحدة من أبرع حملات التاريخ؛ إذ إنها بلغت حدَّ الكمال في التنفيذ، كما في التخطيط لها.»

الآن، كان أن أصبحت الإمبراطورية العثمانية أطلالًا، وهي التي كان من المفترض أن تكون معبرًا ألمانيًّا إلى الخليج الفارسي وآسيا الوسطى. ضاعت أراضيها العربية، ليس

في فلسطين وسوريا فحسب، بل وفي بلاد الرافدين كذلك ... إلى جانب شبه الجزيرة العربية. سقوط بلغاريا في سبتمبر، فتح طرقَ المرور الغربية إلى القسطنطينية، بينما كانت القوات البريطانية والهندية تتقدم من الجنوب والشرق. وراء البحر الأسود، في اتجاه القوقاز، كان رعايا السلطان السابقون (الجورجيون والأرمن والأذربيجانيون والأكراد) يكافحون لإنشاء دولهم. في الثلاثين من أكتوبر، وعلى متن السفينة الملكية «أجاممنون Agamemnon» (وهو اسمٌ يليق بالظروف)، وبالقرب من جزيرة «مدروس Mudros» في بحر إيجه، كان ممثِّلو الإمبراطورية يتوسَّلون السلام.

هوامش

(١) يوجد وصفٌ رائع لعملية الإخلاء في الفصل السابع عشر من كتاب آلان مورهيد Alan Moorehead: جاليبولي Gallipoli وقد اعتمدت عليه كثيرًا في وصفي للحملة.

(٢) يقول المؤرخ البريطاني الرسمي ما هو أكثر من ذلك: «من النادر أن يكون هناك في التاريخ من بين قادة الفِرق مَن يستطيع أن يكون له مثل هذا التأثير على سير معركة، بل وربما على مصير حملة ومستقبل أمة ثلاث مرات.»

(٣) «خرَّ عقيدٌ من المهندسين العسكريين مغشيًّا عليه خارج مكتبه بعد لقاء معه، وسقط ضابط آخر في غرفته أمام مكتبه.» انظر: Brian Gardner, Allennby, p. 177.

(٤) أعتقد أنه لم يكن هناك ضباط كثيرون يكتبون من جنوب أفريقيا أثناء حرب البوير، يطلبون إرسال كتب إليهم، كما كان يفعل اللنبي.

(٥) EEF (The Egyptian Expeditionary Force).

(٦) البارونيت The Baronet: حاملُ رتبة وراثية أو درجة شرف تحت «البارون» وفوق «الفارس». (المترجِم)

الفصل الثالث والثلاثون

السلام

- الشرق الأوسط الجديد: ١٩٢٢م.
- الأبيض المتوسط.

* * *

في الثامن عشر من يناير ١٩١٩م، أي بعد شهرين وأسبوع من الهدنة، عَقدَ مؤتمر السلام في باريس جلستَه الافتتاحية. المثير للدهشة أنه كان يوم سبت، إلا أنه كان التاريخ الذي تم الإصرار عليه — بما يتضمنه ذلك من سخرية — من قِبل رئيس الوزراء الفرنسي جورج كليمنصو Georges Clemenceau؛ حيث كان يصادف الذكرى الثامنة والأربعين لتتويج ولهلم الأول Wilhelm I قيصرًا على ألمانيا. كانت المهمة الأولى أمام الوفود هي صوغ أوروبا جديدة ... وهكذا فعلوا. يمكن قياس درجة نجاحهم بحقيقةِ أنه بعد عشرين عامًا بالتمام والكمال، بدأت أوروبا الجديدة التي صنعوها — مثل القديمة تمامًا — تمزِّق نفسها بنفسها إربًا.

بالنسبة للبحر الأبيض، كانت الدول المصطفَّة على ساحله الجنوبي ما زالت تحت السيطرة الأجنبية: كانت مراكش والجزائر وتونس تتطلع إلى فرنسا، وليبيا إلى إيطاليا، ومصر إلى بريطانيا (التي أعلنتها محميةً protectorate، في ١٩١٤م). كل الدول على امتداد الساحل الشمالي — باستثناء واحد هو إسبانيا التي نجحت، إلى حدٍّ ما، في الحفاظ على حيادها — كانت متورطة في الأعمال العسكرية بدرجة أو أخرى؛ وكانت كلها قد حاربت على أراضيها. كانت الدول التي انتهى بها الأمر في الجانب المنتصر، تمنِّي نفسها بأن يعود عليها المؤتمر بفائدةٍ ما في البحر الأبيض أو عليه، والآمال كلها تتركَّز على حقيقة واحدة: تفكيك الإمبراطورية العثمانية. فرنسا، التي كانت قد فقدت نحو ربع سكانها من

الذكور بين الثامنة عشرة والثلاثين من العمر وأضعاف ذلك العدد من الجرحى، كانت منشغلةً بألمانيا قبل أي شيء آخر، إلا أنها كانت تضع عينها كذلك على سوريا ولبنان، وكانت تضع الخطط السياسية لذلك منذ فترة طويلة. إيطاليا، التي كانت سعيدة بسقوط عدوِّها القديم: النمسا-المجر، كان يقلقها ما يدور عبر الأدرياتيكي، وبخاصة احتمالُ قيام دولة متحدة بين سلاف الجنوب، تضم كرواتيا وسلوفينيا وصربيا ومونتينيجرو والبوسنة والهرسك وشمال شرق مقدونيا، التي كان يبدو من المرجَّح أن تحل محلَّ ممتلكات السلطان في البلقان. سيكون من الأفضل كثيرًا بالنسبة لها، أن تخرج من المؤتمر بالأراضي الممتدة من ترنتو Trento إلى تريستا Trieste، ومن ساحل دالماشيا حتى ألبانيا، وأخيرًا جزر الروديكانيز، وربما جزء صغير من أراضي الأناضول.

كانت اليونان، كما رأينا في الفصل السابق، في حالةِ فرح عندما انتهت الحرب، إلا أن طموحات فينيزيلوس، ربما كانت أعلى من تلك التي لدى رجال الدولة في باريس. كان تفكيره منصبًّا، كما كان طيلة حياته، على الفكرة الكبرى The Great Idea: بيزنطة مستعادة، مع آسيا صغرى يونانية، وأيا صوفيا عائدة إلى العقيدة الأرثوذكسية، وملك يوناني مرة أخرى على العرش في القسطنطينية. لم يكن، بالطبع، يستطيع الإفصاحَ عن مثل تلك المطالب بكلمات كثيرة في المؤتمر. كلُّ ما طلبه كان إيبيريوس الشمالية، وتراقيا، وعددًا قليلًا من الجزر، وقطعة كبيرة من آسيا الصغرى من بحر مرمرة إلى سميرنا Smyrna (إزمير Izmir)، ولم تتضمَّن مطالبه القسطنطينية، (رغم أنه، كما قال لأصدقائه وهو يضحك: بمجرد طرد الأتراك منها، فإن المدينة سوف تسقط في يد اليونانيين عاجلًا أو آجلًا). داخل وخارج جلسات المؤتمر التي عُقدت مكتمَلة النِّصاب، كان فينيزيلوس يترك انطباعًا جيدًا لدى الجميع. تأثير شخصيته جعل منه ألمعَ نجوم المؤتمر، أما سِحر حديثه فكان يتكفل بالباقي. لم تكن أوروبا الغربية قد رأت، أو سمعت رجلًا من هذا النوع. كان الدبلوماسي الشاب هارولد نيكلسون Harold Nicolson، يصفه مدهوشًا بأنه: «مزيج غريب من السحر واللصوصية والوطنية والشجاعة والأدب والدهاء السياسي، وفوق ذلك كله، فهو الرجل المبتسِم، المفتول العضلات، الذي يختلس النظر من خلف نظارته الطبية، وعلى رأسه قلنسوة مستديرة ضيقة، من الحرير الأسود.»

من ناحيةٍ أخرى، كان لا يمكن أن توصف بريطانيا، بأي حال من الأحوال بأنها دولة متوسطية؛ غير أنها كانت تمتلك من القواعد الشديدة الأهمية (في جبل طارق ومالطة وقبرص وجزئيًّا في قناة السويس)، ما يجعلها أكثرَ اهتمامًا بمصالحها الواسعة في مصر

والشرق وهكذا؛ حيث إنها كانت قد حصلت على الكثير مما كانت تريد (كانت البحرية الألمانية والتجارة البحرية الآن آمنةً في يدها، والمستعمرات الألمانية في أفريقيا استسلمت، وانهيار روسيا وضعَ نهاية لذلك الخطر على شمال الهند وما كان يسمَّى بـ «اللعبة الكبرى Great Game»)، كانت تستطيع الآن أن تركِّز كلَّ قوَّتها بعد ذلك على الحوض الشرقي من البحر الأبيض. في الركن الشمالي الشرقي منه، كانت مهتمة بمنع السفن الحربية المعادية من المرور عبر المضايق من وإلى البحر الأسود. كذلك كان قلقها يتزايد بخصوص حلفائها الفرنسيين. كانت الدولتان قد وقفتا معًا بكل إخلاص في الحرب، إلا أن السلام قد يأتي بضغوط وتوترات جديدة — ليس أقلها تلك الناجمة عن الحاجة لضمان الإمدادات النفطية من الموصل في شمال العراق ومن فارس، التي كانت تتزايد أهميتها. منذ العام ١٩١٦م، كان السير مارك سايكس Sir Mark Sykes، والمسيو جورج بيكو M. Gerrges Picot قد اتفقا سرًّا على أنه عندما يحين وقت تقسيم ممتلكات السلطان في الشرق، ستكون سوريا ولبنان من نصيب فرنسا، بينما تحصل بريطانيا، إلى جانب معظم العراق الحديثة، على الموانئ المتوسطية في عكا وحيفا؛ وبجوار هذين الميناءين يتم حجز مساحة (بحجم دولة إسرائيل الحالية تقريبًا) بسبب وضعها الخاص باعتبارها الأرض المقدَّسة، ليقوم فيها حكمٌ دولي خاص بها. كان من الواضح بالفعل أن التقسيم لن يكون سهلًا، كما أن دخول اللنبي القدس مؤخرًا، لم يفعل الكثير لطمأنة فرنسا الكاثوليكية. باختصار، لم تكن القوتان الأوروبيتان الرئيسيتان في الشرق الأوسط تثقان ببعضهما قيد أنملة — وكانت كلتاهما على حق في ذلك.

من ناحية أخرى، ارتكبت كلتاهما الخطأ نفسه: كانتا تسوِّيان حساباتهما دون اعتبار للعرب. وصول الأمير فيصل إلى المؤتمر (حيث قدَّمه لورانس، الذي كان يرتدي زيَّه العربي كذلك، بكل تقدير) سرعان ما غيَّر ذلك كله. كان فيصل هاشميًّا، ينتمي إلى واحدة من أكثر الأسر العربية أصالة؛ إذ يمتد نَسبُها — من جهة الذكور — إلى ابنةِ النبي. في عام ١٩١٥م، كان السير هنري مكماهون Sir Henry Mcmahon، المندوب السامي البريطاني في مصر، قد وعد شريف مكة (والد الملك فيصل) بأنه في حال قيام العرب بالثورة على الأتراك، سيمنحهم البريطانيون كلَّ ما يحتاجونه من مساعدة، وبعد نجاحها سوف يحصلون على الاستقلال.[1] بمساعدة لورانس، الذي كرَّر تلك الوعود — رغم أن ذلك كان على مسئوليته ولا أكثر — كان فيصل قد أوفى بنصيبه من الصفقة، وجاء الآن إلى باريس مطالبًا بالمكافأة الموعودة.

حصل فيصل على المكافأة بشكلٍ ما. في ذلك العام نفسه، عيَّنه اللنبي رئيسًا على إدارة عسكرية في دمشق. تولَّى الفرنسيون مسئولية الساحل واتخذوا من بيروت مركزًا لهم، بينما استولى البريطانيون على فلسطين؛ إلا أن ذلك لم يكن أكثرَ من ترتيبات مؤقتة. في مارس ١٩٢٠م، اجتمع مجلسٌ للنواب في دمشق ليعلن فيصل ملكًا على سوريا موحَّدة تتضمن فلسطين؛ وبعد شهر قرر مؤتمر الحلفاء في سان ريمو San Remo وضْعَ الاثنين تحت نظام انتداب Mandate جديد، وأن تكون سوريا تحت الانتداب الفرنسي. بدأ الفرنسيون كما كانوا يريدون أن يستمروا؛ ففي شهر يونيو أصدروا إنذارًا يطلبون اعتراف سوريا بسلطتهم الجديدة، ثم زحفوا بعده وطردوا فيصل؛ وأخيرًا وافقت عصبة الأمم The League of Nations في شهر يوليو ١٩٢٢م على الانتداب على سوريا ولبنان، التي أعلنت نفسها دولة مستقلة. في الوقت نفسه عيِّن فيصل مِلكًا على العراق، بينما تسلَّم شقيقه الأكبر عبد الله تاجَ شرق الأردن، التي ستُعرف فيما بعدُ (بدءًا من ١٩٤٩م) بـ «المملكة الأردنية الهاشمية».

بينما لا تهمنا هنا أيُّ تفاصيل عن الأردن أو العراق، إلا أن فلسطين مهمة. كان آخر وافد على مؤتمر السلام في باريس، الذي يستحق الذكر هنا، هو الدكتور حاييم وايزمان Dr. Chaim Weizmann الذي سيُعيَّن بعد وقت قريب رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية. وايزمان، الذي كان إلى حدٍّ كبير، مسئولًا عن إعلان بلفور Balfour Declaration خاطب المجلسَ الأعلى في السابع والعشرين من فبراير مع طلب مُلحٍّ لإقامة وطن يهودي في فلسطين، كما كان حاضرًا كذلك — كعضو مراقب — مؤتمرَ سان ريمو، الذي أكَّد الإعلان ومنح بريطانيا الانتدابَ على فلسطين. فيما بعدُ، في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، ستكون مهارات وايزمان التفاوضية موضعَ اختبار صعب، عندما تفقد بريطانيا حماستَها السابقة للصهيونية، وتحاول التملُّص من التزاماتها، وبعد أن تجد نفسها في مواجهة اضطرابات مدنية متزايدة، نتيجةً لحركة القومية العربية الناشئة. إلا أنه سينتصر في آخر الأمر ليصبح رئيسًا لدولة إسرائيل في ١٩٤٨م.

وضع مؤتمر باريس للسلام الذي عُقد في ١٩١٩م، واتفاقية فرساي التي تلته، وضعا نهايةً للعالم القديم وبداية للعالم الحديث في ١٩١٤م، كان هناك خمس إمبراطوريات عظمى تتمركز حول عواصم أوروبية. بعد خمس سنوات كانت ثلاث منها قد زالت — الألمانية، والنمساوية-المجرية، والروسية — أما الرابعة (العثمانية) فكانت على فراش الموت. الإمبراطورية الأخيرة (البريطانية) فحسب، هي التي بقيت، ومنذ ذلك اليوم، سيصبح العالم مكانًا مختلفًا.

وهكذا ... روينا قصتنا، على الأقل، حتى المرحلة التي هي موضعُ اهتمام هذا الكتاب. من الواضح أن صفحات تاريخ البحر الأبيض المتوسط لن تُطوى قبل أن يجفَّ البحر نفسه؛ ولكن بينما يمكن إكمال مرحلةٍ بعينها وصولًا إلى نهاية مُحكَمة، إلا أن مرحلةً تتخذ من منطقة معينة من العالم موضوعًا لها، يمكن أن تصل بنا إلى نهاية اعتباطية ... والقصة طويلة بالفعل. مع كل يوم يمر، تصبح الحياة أكثرَ امتلاء بالأحداث. لا يصبح التاريخ أطولَ فحسب، ولكنه يتحرك بسرعةٍ أكبر كذلك. في الفصول الأولى من هذا الكتاب، كان بالإمكان تغطيةُ قرن كامل في صفحة أو صفحتين، بالقرب من نهايته كان الفصل يستوعب، بالكاد، عَقدًا من الزمن. ولو أننا واصلنا مسيرتنا عبر الحرب العالمية الثانية ونتائجها حتى آخر الألفية الثانية، فلربما كنا قد أصبحنا أمام مجلَّد بضِعف هذا الحجم على الأقل، ولكان ذلك عبئًا كبيرًا على الكاتب والقارئ على السواء.

قبل ستة أو سبعة آلاف سنة، كان البحر الأبيض المتوسط قد تمخَّض عن الحضارة الغربية كما نعرفها. حجمه الصغير نسبيًّا، كيانه المحصور، اعتدال طقسه، خصوبة وتنوُّع تضاريس شطآنه الأوروبية والآسيوية ... كل ذلك ساعد على توفير بيئة حامية فريدة، لحياة وازدهار شعوبه. حتى الضوء له دور هنا ... بما يعطيه لهذه الشعوب من وضوح في الرؤية لا مثيل له في مناطق أخرى. لقد آمنت هذه الشعوب بالآلهة، يشهد على ذلك ما لا يقل عن ثلاثة أديان كبرى، ولكن في البحر الأبيض الذي يغمره ضوء الشمس، لم يكن هناك مكانٌ للأشباح أو الشياطين أو العفاريت أو الكائنات الخرافية التي تسكن الكهوف أو تقيم تحت الأرض، كما تظهر كثيرًا في فولكلور الشمال الكئيب الملبَّد بالضباب والغيوم. لذلك كله ولغيره نحن مَدينون بالكثير الكثير. يبقى سؤالٌ مهم يحتاج إلى إجابة: الآن وقد تمَّت المشاركة، إلى أي مدًى يظل المشارك مهمًّا؟ هل ما زال البحر الأبيض المتوسط يحتفظ بالأهمية التي كانت له عندما كان العالم صغيرًا؟

من أسفٍ أن الإجابة لا بد أن تكون: لا! عندما كان العالم صغيرًا كان بلا حدود، والآن انكمش على نحوٍ مؤسف ... ومعه انكمش البحر. اليوم، خوض حرب في العراق أو حتى في كوريا أسهلُ من نقل جيش من إنجلترا إلى إيطاليا أو إسبانيا قبل قرن. الطيران من جبل طارق إلى إسطنبول يستغرق أكثر قليلًا من ثلاث ساعات. طرق التجارة لم تَعُد موجودة. سفن النقل والشاحنات مستمرة في الحركة جيئةً وذهابًا من وإلى المحطات النهائية لخطوط أنابيب نفط الشرق الأوسط، إلا أن البحر تستولي عليه — باطراد — ظاهرةٌ مرعبة: سفن الرحلات الطوافة الضخمة التي تجوس، بلا انقطاع، من ميناء إلى

آخر، ومن جزيرة إلى أخرى، لتلقي على كلٍّ منها بأعداد من البشر لم تُعرف مثلها من قبل.

لذا، في مطلع الألفية الثالثة، يصبح أكثر وضوحًا كلَّ يوم، أن علة وجوده القديمة قد ضاعت إلى الأبد، وأن الهدف الرئيسي لمتوسط اليوم هو المتعة والترفيه، ربما لا يكون ذلك شيئًا سيئًا على إطلاقه؛ ويمكن أن يقال إن المياه التي كانت في أغلب الأحيان مختلطةً بالدم قد أصبحت رائقة وصافية. يميل الواحد منَّا كذلك إلى نسيان تعاسة الأيام السابقة في البحر، أيام كانت السياط تلهب ظهورَ عبيد المجاذيف على السفن الشراعية، أيام كان الطاعون يضرب السفنَ ويجبرها على البقاء بعيدًا عن الشاطئ حتى يهلك كلُّ مَن عليها، أيام كانت رياح صيفية مفاجئة بمثابة حكمٍ بالموت على طاقم سفينة بالكامل. ما يدعو للحزن هو ضياعُ تلك المنزلة النبيلة: أن يصبح أهمُّ صحنٍ مائي تاريخي في العالم ملوَّثًا، وألا يقضَّ ذلك مضجعَ أحد، أن يصبح الكثير من شطآنه مغطًّى بفضلاتِ لدائنٍ بلاستيكية قديمة فيهجرها الناس.

ربما يكون هناك سببٌ آخر لكي ينتهي الكتاب حيث ينتهي. لقد سرد كثيرًا من الكوارث في تسلسلها الزمني، وقدْرًا غيرَ قليل من المآسي، وتتبَّع البحر الأبيض وتحولاته من مهدٍ إلى لحدٍ، من رابطٍ إلى عائقٍ، ومن نعمة إلى نِقمة ساحة قتال. كم هو مؤسف أن نشهده وقد تحوَّل إلى ملعب، والموانئ القديمة إلى أحواض لليخوت، وبدلًا من السفن القديمة ثلاثية المجاذيف، قوارب التزحلق النفَّاثة. لكم كان من الأفضل لو أسدلنا الستارَ على الأبيض المتوسط الذي كان ... عندما كانت كلُّ موجة تروي قصةً، وكلُّ قطرة ماء تلمع بالنبل والكبرياء.

هوامش

(١) لم يُكشف النقاب قط عن اتساق هذا الوعد مع اتفاق سايكس-بيكو، ولا مع إعلان بلفور فيما بعدُ.

قائمة المراجع

ABULAFIA, D., *Frederick II: A Medieval Emperor*, London 1988.

______, (ed.), *The Mediterranean in History*, London 2003.

ABUN-NASR, J. M., *A History of the Maghrib in the Islamic Period*, Cambridge 1987.

ACTON, H., *The Bourbons of Naples (1734-1825)*, London 1957.

______, *The Last Bourbons of Naples (1825-1861)*, London 1961.

ALSOP, J., *From the Silent Earth: A Report on the Greek Bronze Age*, London 1965.

ANCELL, S., *A Circumstantial Journal of the Long and Tedious Blockade and Siege of Gibraltar*, Liverpool 1785.

ANTONIUS, G., *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*, London 1938.

ARMSTRONG, K., *Islam: A Short History*, London 2000.

ARONSON, T., *Royal Vendetta: The Crown of Spain 1829-1965*, London 1967.

ASPREY, R. B., *The Rise and Fall of Napoleon Bonaparte*, 2 vols, London 2000.

ATKINSON, W. C., *Spain: A Brief History*, London 1934.

BALBI DI CORREGGIO, F., *The Siege of Malta, 1565*, Trans. H. A. Balbi, Copenhagen 1961.

BARBER, M., *The New Knighthood: A History of the Order of the Temple*, Cambridge 1994.

BARKER, E., *Macedonia: Its Place in Balkan Power Politics*, London 1950.

BARNETT, C., *Bonaparte*, London 1978.

BARRACLOUGH, G., *From Agadir to Armageddon: Anatomy of a Crisis*, London 1982.

BERTRAND, L., *The History of Spain, Part I: From the Visigoths to the Death of Philip II*, Trans. W. B. Wells, London 1952.

BOWMAN, J., *Crete*, London 1970.

BRADFORD, E., *Mediterranean*, London 1971.

______, *The Sultan's Admiral: The Life of Barbarossa*, London 1969.

______, *The Shield and the Sword: The Knights of St John*, London 1972.

BRANTÔME, ABBÉ DE., *Oeuvres du Seigneur de Brantôme*, Paris 1740.

BRAUDEL, F., *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, 2nd edn., Paris 1966.

______, *Autour de la Méditerranée*, Paris 1996.

BREWER, D., *The Flame of Freedom: The Greek War of Independence 1821-33*, London 2001.

BRIGHT, J. F., *Maria Theresa*, London 1897.

BURN, A. R., *Minoans, Philistines and Greeks, BC1400-900*, London 1930.

BUSH, CAPT. E. W., *Gallipoli*, London 1975.

CAMBON, H., *Histoire du Maroc*, Paris 1952.

The Cambridge Illustrated History of the Middle Ages, Ed. R. Fossier, Cambridge 1989.

The Cambridge Medieval History, Planned by J. B. Bury, 8 vols, Cambridge 1911–32.

The Cambridge Modern History, Planned by Lord Acton, 13 vols., Cambridge 1902–12.

CARR, R., *Spain, 1808-1939*, Oxford 1966.

CARR, R. (ed.), *Spain: A History*, Oxford 2000.

CHAMBERLIN, E. R., *The World of the Italian Renaissance*, London 1982.

CHEYNE, A. G., *Muslim Spain: Its History and Culture*, Minneapolis 1974.

CHURCHILL, W. S., *World Crisis, 1911-1918*, 4 vols., London 1923.

COLLISON-MORLEY, L., *Naples Through the Centuries*, London 1925.

CONN, S., *Gibraltar in British Diplomacy in the Eighteenth Century*, New Haven 1942.

CORBETT, J. S., *England in the Mediterranean, 1603-1713*, 2 vols., London 1904.

DAKIN, D., *The Greek Struggle for Independence 1821-33*, London 1973.

Dizionario biografico degli Italiani, Rome, 1960–.

DODWELL, H., *The Founder of Modern Egypt: A Study of Muhammad Ali*, Cambridge 1931.

DRINKWATER, J., *A History of the Siege of Gibraltar*, London 1846.

DUFAYARD, C., *Histoire de Savoie*, Paris 1922.

EGGENBERGER, D., *A Dictionary of Battles*, London 1967.

ELGOOD, P. G., *Bonaparte's Adventure in Egypt*, London 1931.

Enciclopedia universal ilustrada Europeo-Americana, 70 vols., with appendices and annual supplements, Barcelona, Bilbao, Madrid 1909–.

The Encyclopedia of Islam, 4 vols., London and Leyden 1913–38.

EULALIA, HRH THE INFANTA OF SPAIN, *Court Life from Within*, London 1915.

______, *Memoirs*, London 1936.

EUSEBIUS, BISHOP OF CAESAREA, *A History of the Church from Christ to Constantine*, Trans. G. A. Williamson, London 1965.

FERMOR, P. LEIGH, *A Time of Gifts*, London 1977.

FINLAY, G., *A History of Greece from its Conquest by the Romans to the Present Time, B.C. 146-A.D., 1864*, 7 vols., Oxford, 1851–77.

FINLEY, M. and MACK SMITH, D., *A History of Sicily*, 3 vols., London 1968.

FISHER, SIR G., *Barbary Legend: War, Trade and Piracy in North Africa, 1415-1830*, London 1957.

FISHER, H. A. L., *A History of Europe*, London 1936.

FORSTER, E. M., *Alexandria: A History and a Guide*, Alexandria 1922.

FOSS, A., *Ibiza and Minorca*, London 1975.

GARDNER, B., *Allenby*, London 1965.

GEORGE, H. B., *Genealogical Tables Illustrative of Modern History*, 5th edn., Oxford 1916.

GHORBAL, S., *The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali*, London 1928.

GIBBON, E., *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, Ed. B. Radice, London 1983.

GILLINGHAM, J., *The Life and Times of Richard I*, London 1973.

GRANT, M., *Cleopatra*, London 1972.

______, *History of Rome*, London 1978.

______, *Julius Caesar*, London 1969.

GREEN, P., *A Concise History of Ancient Greece to the Close of the Classical Era*, London 1973.

GREGORY, D., *Minorca, the Illusory Prize: A History of the British Occupations of Minorca between 1708 and 1802*, London and Toronto 1990.

GSELL, S., Marçais, G. and Yver, G., *Histoire d’Algérie*, Paris 1927.

GUNN, P., *Naples: A Palimpsest*, London 1961.

HAMILTON, I., *Gallipoli Diary*, London 1920.

HARDEN, D., *The Phoenicians*, London 1962.

HASLIP, J., *The Sultan: The Life of Abdul Hamid*, London 1958.

HAZEL, J., *Who’s Who in the Greek World*, London 2000.

HEARDER, H. and WALEY, D. P. (eds.), *A Short History of Italy*, Cambridge 1963.

HILLS, G., *Rock of Contention: A History of Gibraltar*, London 1974.

HOOK, J., *The Sack of Rome*, London 1972.

HORDEN, P. and PURCELL, N., *The Corrupting Sea: A Study of Mediterranean History*, London 2000.

INALCIK, H., *The Ottoman Empire: The Classical Age 1300–1600*, Trans. N. Itzkowitz and C. Imber, London 1973.

JACKSON, G., *The Making of Medieval Spain*, London 1972.

JAMES, L., *Imperial Warrior: The Life and Times of Field-Marshal Viscount Allenby, 1861–1936*, London 1993.

JAMES, R. R., *Gallipoli*, London 1965.

JENKINS, R., *Churchill*, London 2001.

JOINVILLE, SIEUR DE, *Histoire de Saint Louis*, Ed. N. de Wailly, Paris 1874.

JULIEN, C.-A., *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris 1961.

JURIEN DE LA GRAVIÈRE, ADMIRAL, *Les derniers jours de la marine à rames*, Paris 1885.

______, *Doria et Barberousse*, Paris 1886.

______, *Les chevaliers de Malte et la marine de Philippe II*, 2 vols., Paris 1887.

______, *Les corsaires barbaresques et la marine de Soliman*, Paris 1887.

______, *La guerre de Chypre et la bataille de Lepante*, 2 vols., Paris 1888.

KANTOROWICZ, E., *Frederick the Second, 1194–1250*, Trans. E. O. Lorimer, London 1931.

KEYES, R., *The Naval Memoirs of Admiral of the Fleet Sir Roger Keyes*, London 1934.

KING, R., *Sardinia*, London 1975.

KINROSS, LORD., *Atatürk: The Rebirth of a Nation*, London 1964.

______, *Between Two Seas: The Creation of the Suez Canal*, London 1968.

______, *The Ottoman Centuries: The Rise and Fall of the Turkish Empire*, London 1977.

KNIGHT, W. S. M., *The History of the Great European War: Its Causes and Effects*, 10 vols., London 1914–20.

LANE, F. C., *Venetian Ships and Shipbuilders of the Renaissance*, Baltimore 1934.

______, *Venice and History*, Baltimore 1966.

______, *Venice, a Maritime Republic*, Baltimore 1973.

LANE FOX, R., *Alexander the Great*, London 1973.

LANE-POOLE, S., *The Barbary Corsairs*, London 1890.

LAVERY, B., *Nelson and the Nile*, London 1998.

LAWRENCE, T. E., *Revolt in the Desert*, London 1927.

LEO AFRICANUS, *The History and Description of Africa, and of the Notable Things therein Contained*, Trans. J. Pory, ed. R. Brown, 3 vols., London 1896.

LEWIS, B., *The Muslim Discovery of Europe*, London 1982.

LIVERMORE, H. V., *A New History of Portugal*, Cambridge 1976.

LLOYD, C., *The Nile Campaign*, Newton Abbot and New York 1973.

LUKE, SIR H., *Malta: An Account and an Appreciation*, London 1949.

MACBRIDE, M. (ed.), *With Napoleon at Waterloo, and other unpublished documents of the Waterloo and Peninsular Campaigns* (Includes extracts from the diary of Sgt. D. Nicol, *With Abercrombie [sic] and Moore in Egypt*), London 1911.

MACKAY, A., *Spain in the Middle Ages: From Frontier to Empire, 1000-1500*, London 1977.

MACKESY, P., *British Victory in Egypt, 1801*, London 1995.

MACMILLAN, M., *The Peacemakers: The Paris Conference of 1919 and its Attempt to End War*, London 2001.

MADELIN, L., *Histoire du Consulat et de l'Empire*, 16 vols., Paris 1937–52.

MANSEL, P., *Constantinople: City of the World's Desire, 1453-1924*, London 1995.

MARKHAM, F., *Napoleon*, London 1963.

MARKOE, G., *Phoenicians*, London 2000.

MASEFIELD, J., *Gallipoli*, London 1916.

MASSON, G., *Frederick II of Hohenstaufen: A Life*, London 1957.

MAUROIS, A., *A History of France*, London 1949.

MAZOWER, M., *Salonica, City of Ghosts: Christians, Muslims and Jews 1430-1950*, London 2004.

MELLERSH, H. E. L., *Chronology of the Ancient World*, Oxford 1994.

MILLER, W., *The Latins in the Levant: A History of Frankish Greece, 1204-1566*, London 1908.

______, *Essays on the Latin Orient*, Cambridge 1921.

MOOREHEAD, A., *Gallipoli*, London 1956.

MOUSSET, A., *Histoire d'Espagne*, Paris 1947.

The New Encyclopedia Britannica, 15th edn., Chicago 1998.

NICOLSON, H., *Peacemaking 1919*, London 1933.

NORWICH, J. J., *The Normans in the South*, London 1967.

______, *The Kingdom in the Sun*, London 1970.

______, *Venice: The Rise to Empire*, London 1977.

______, *Venice: The Greatness and the Fall*, London 1981.

______, *Byzantium: The Early Centuries*, London 1988.

______, *Byzantium: The Apogee*, London 1991.

______, *Byzantium: The Decline and Fall*, London 1995.

______, *Paradise of Cities: Nineteenth-Century Venice Seen through Foreign Eyes*, London 2003.

OMAN, C., *Nelson*, London 1947.

The Oxford Classical Dictionary, Oxford 1996.

The Oxford Dictionary of National Biography, 61 vols., Oxford 2004.

PALMER, A., *The Kaiser: Warlord of the Second Reich*, New York 1978.
______, *The Decline and Fall of the Ottoman Empire*, London 1992.
PARRY, J. H., *The Discovery of the Sea*, London 1975.
PASTOR, L., *The History of the Popes from the Close of the Middle Ages*, Trans. F. I. Antrobus and R. F. Kerr, London 1891–1953.
PETTIFER, J. (ed.), *The New Macedonian Question*, London 1999.
PICK, ROBERT, *Empress Maria Theresa*, London 1966.
PRESCOTT, W. H., *History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic*, 3 vols., Philadelphia 1864.
PRICE, W. H. C., *The Balkan Cockpit: The Political and Military Story of the Balkan Wars in Macedonia*, London 1915.
PROCOPIUS, *The Secret History*, Trans. G. A. Williamson, London 1966.
PRYOR, J. H., *Geography, Technology and War: Studies in the Maritime History of the Mediterranean, 649-1571*, Cambridge 1988.
READ, J., *The Moors in Spain and Portugal*, London 1974.
READ, P. P., *The Templars*, London 1999.
RICO, E., *Maria Cristina, la reina burguesa*, Barcelona 1994.
RODD, SIR R., *The Princes of Achaia and the Chronicles of Morea: A Study of Greece in the Middle Ages*, 2 vols., London 1907.
ROSSITER, S., *Crete* (Blue Guide), London 1974.
RUNCIMAN, S., *A History of the Crusades*, 3 vols., Cambridge 1951–4.
______, *The Sicilian Vespers*, Cambridge 1958.
RUSSELL, J., *Gibraltar Besieged*, London 1965.
RUSSELL, P. E., *San Pedro de Cardena and the Heroic History of the Cid, Medium Aevum*, vol. xxvii, no. 2 (1958).
SCHLIEMANN, H., *Troy and its Remains*, London 1875.
SHEPHERD, W. R., *Historical Atlas*, 8th edn., London 1956.
SPILSBURY, J., *A Journal of the Siege of Gibraltar, 1779-1783*, Gibraltar 1908.

SUETONIUS, *History of Twelve Caesars*, Trans. P. Holland, London 1930.
SWIRE, J., *Bulgarian Conspiracy*, London 1939.
TENENTI, A., *Piracy and the Decline of Venice, 1580–1615*, Trans. J. and B. Pullan, London 1967.
THIRY, BARON, *Les Années de jeunesse de Napoléon Bonaparte*, Paris 1975.
______, *Bonaparte en Egypte*, Paris 1973.
THUCYDIDES, *History of the Peloponnesian War*, Trans. and introd. R. Warner, London 1962.
TRAILL, D. A., *Schliemann of Troy: Treasure and Deceit*, London 1995.
TURNER, W., *Journal of a Tour in the Levant*, London 1820.
VAN DEN MEER, *Atlas of European Civilisation*, Eng. version by T. A. Birrell, Amsterdam 1954.
VILLARI, L., *The Republic of Ragusa: An Episode of the Turkish Conquest*, London 1904.
VILLEHARDOUIN, GEOFFREY OF, *La Conquête de Constantinople*, Ed. E. Faral, 2 vols., Paris 1938–9.
WARNER, R., *Men of Athens*, London 1972.
WAVELL, COL. A. P., *The Palestine Campaigns*, London 1929.
WHITMAN, C. H., *Homer and the Heroic Tradition*, Cambridge, MA 1958.
WILSON, SIR R., *History of the British Expedition to Egypt*, London 1803.
WRIGHT, J., *The Jesuits: Missions, Myths and Histories*, London 2004.
YOUNG, K., *The Greek Passion: A Study in People and Politics*, London 1969.
YOUNG, M., *Corfu and the other Ionian Islands* (Travellers' Guide), London 1977.
ZIEGLER, P., *The Black Death*, London 1969.

ملحق

THE HAPSBURGS OF AUSTRIA

ob. = died
ob. s. p. = died without issue
dau. = daughter
res. = resigned
dep. = deposed

MAXIMILIAN I = Mary, dau. of Charles the Bold.
1493–1519.

Philip, ob. 1506. = Joanna (the mad), heiress of Spain, ob.1555.

CHARLES V,
1519–1556, res.;
ob. 1558.

Ferdinand I, = Anne, heiress of Hungary and Bohemia.
1556–1564.

Don John.
ob. s. p. 1578.

Philip II of
Spain.

Mary = MAXIMILIAN II
1564–1576.

Mary = Charles D. of
Styria.

Mary Anne = FERDINAND II,
1619–1637.

FERDINAND III, 1637–1657. = Mary, dau. of Philip III of Spain.

LEOPOLD I = Margaret Theresa, dau. of Philip IV of Spain.
1658–1705.

JOSEPH I,
1705–1711.

CHARLES VI = Elizabeth Christina, dau. of Lewis Rudolf,
1711–1740. D. of Brunswick-Wolfenbüttel.

FRANCIS I, D. of Lorraine, = MARIA THERESA,
1745–1765. ob.1780.

1. JOSEPH II
1765–1790, ob. s. p.

2. LEOPOLD II, = Maria Louisa, dau. of
1790–1792. Charles III of Spain.

3. Maria Carolina = Ferdinand I
of Naples

5. Marie Antoinette, = Louis XVI of
executed 1793. France.

1. FRANCIS II, = Maria Theresa, dau. of
1792–1835. Ferdinand I of Naples.

FERDINAND
1835–1848, res.

Francis = Sophia, dau. of Maximilian I
of Bavaria.

FRANCIS JOSEPH = Elizabeth of Bavaria
1848–1916. (assassinated 1898)

KINGDOMS OF JERUSALEM AND CYPRUS

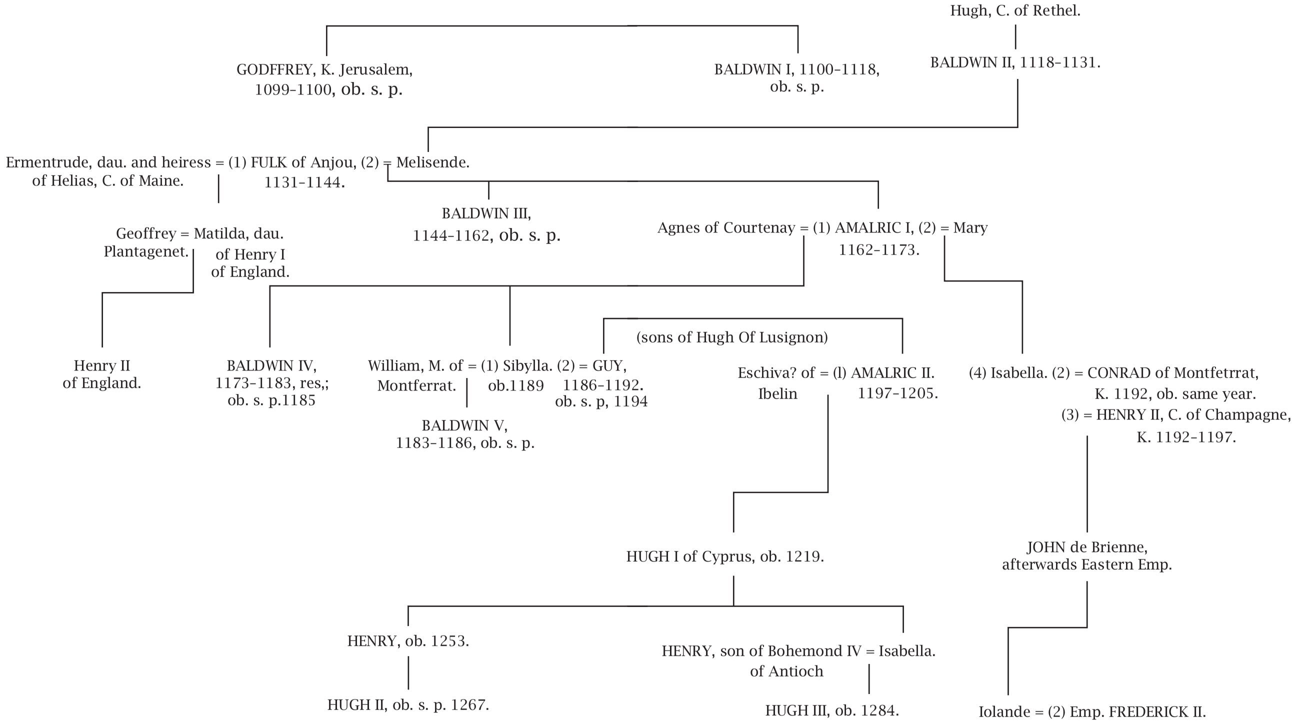

THE HAPSBURGS OF SPAIN AND THE BOURBONS OF NAPLES

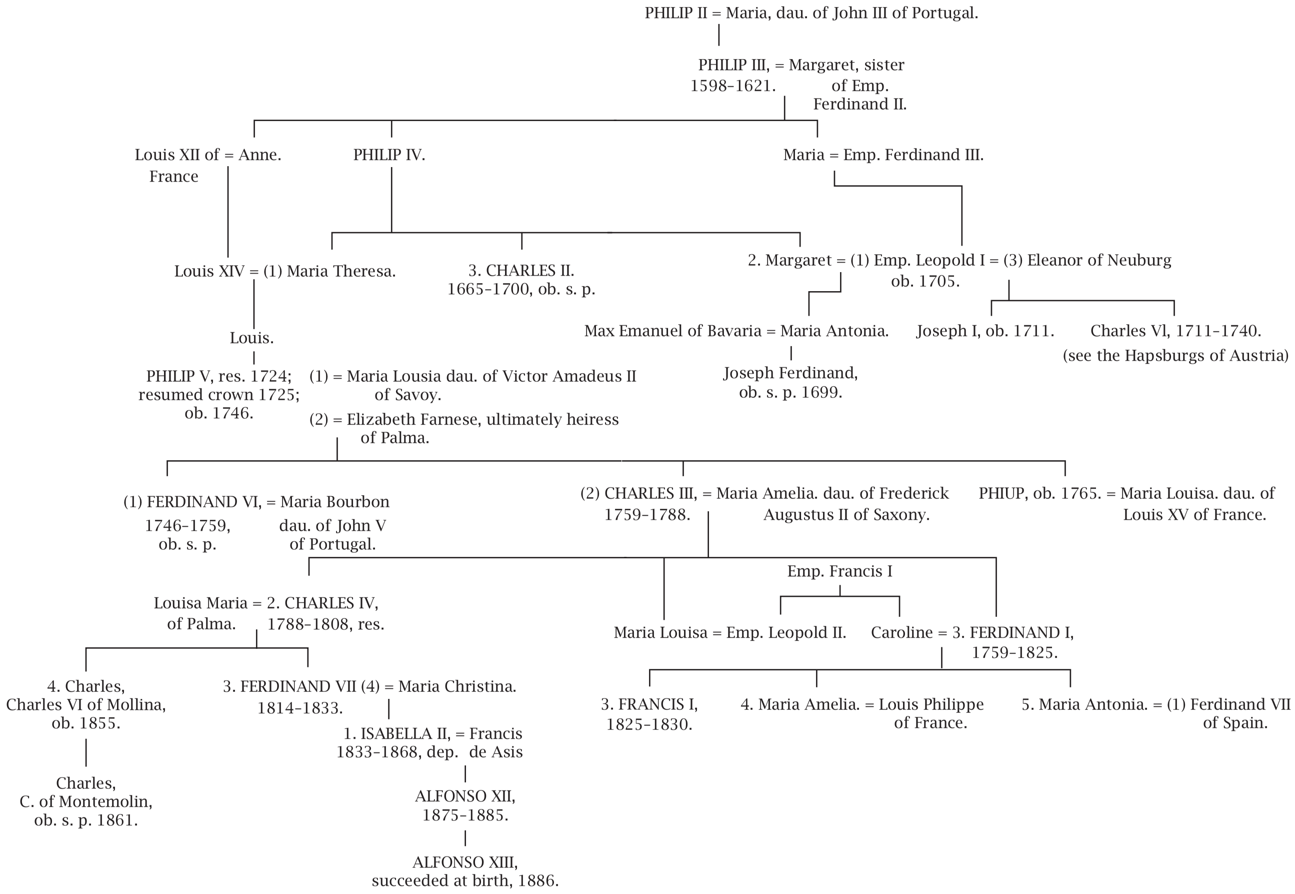

THE HOUSE OF HAUTEVILLE

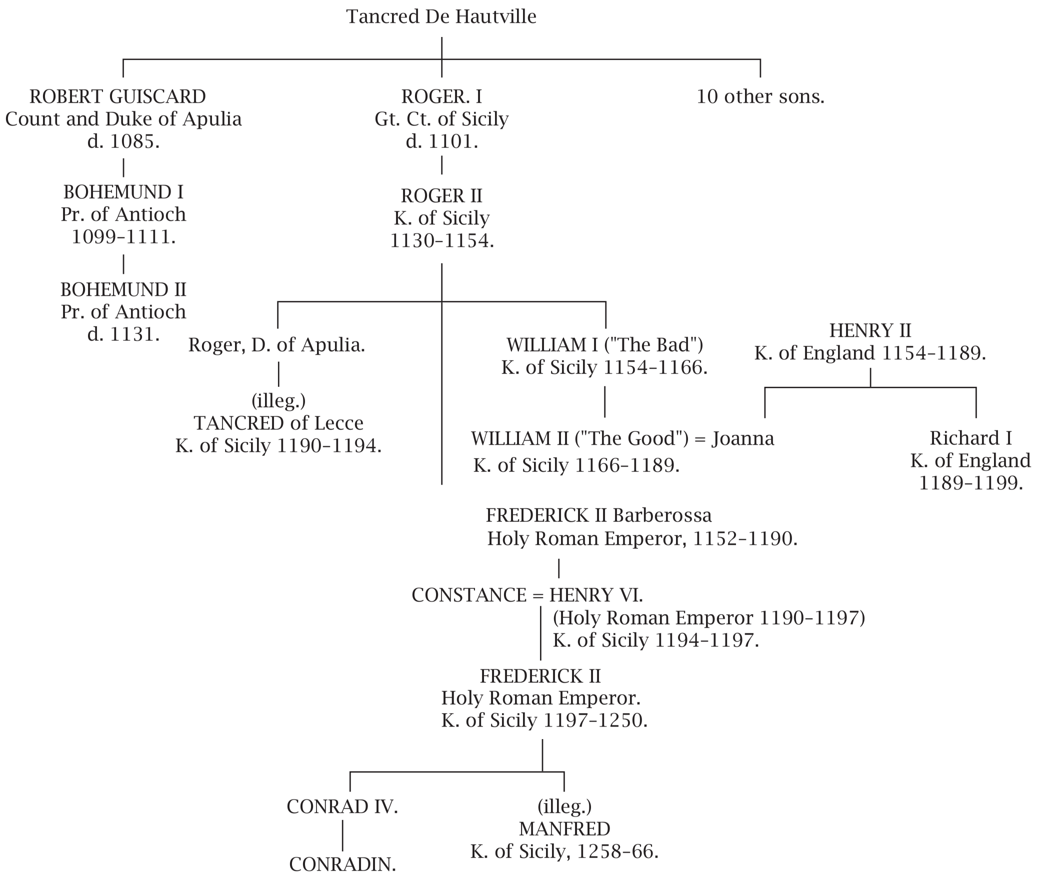

THE HOUSE OF SAVOY

Catharine, dau. of Philip II of Spain. = CHARLES EMMANUEL I, 1580–1630.

VICTOR AMADEUS I, 1630–1637. = Christina, dau. of Henry IV of France. d. 1663.

CHARLES EMMANUEL II, 1638–1675.

Anna Maria, dau. of Philip, D. of Orleans d. 1728. = VICTOR AMADEUS II, 1675–1730, res.; ob. 1732; K. of Sicily 1703; of Sardinia 1720.

CHARLES EMMANUEL III, 1730–1773.

VICTOR AMADEUS III, 1773–1796.

CHARLES EMMANUEL IV, 1796–1802, res.; ob. s. p. 1819.

VICTOR EMMANUEL I, 1802–1821, res.; ob. 1824.

Thomas Francis.

5 generations.

Theresa, dau. of Ferdinand III, D. of Tuscany. = CHARLES ALBERT, 1831–1849, res. and ob.

VICTOR EMMANUEL II, succeeded 1849; K. of Italy 1862–1878.

الخرائط[١]

[١] الخرائط بريشة رينالد يجوت Reginald Diggott.

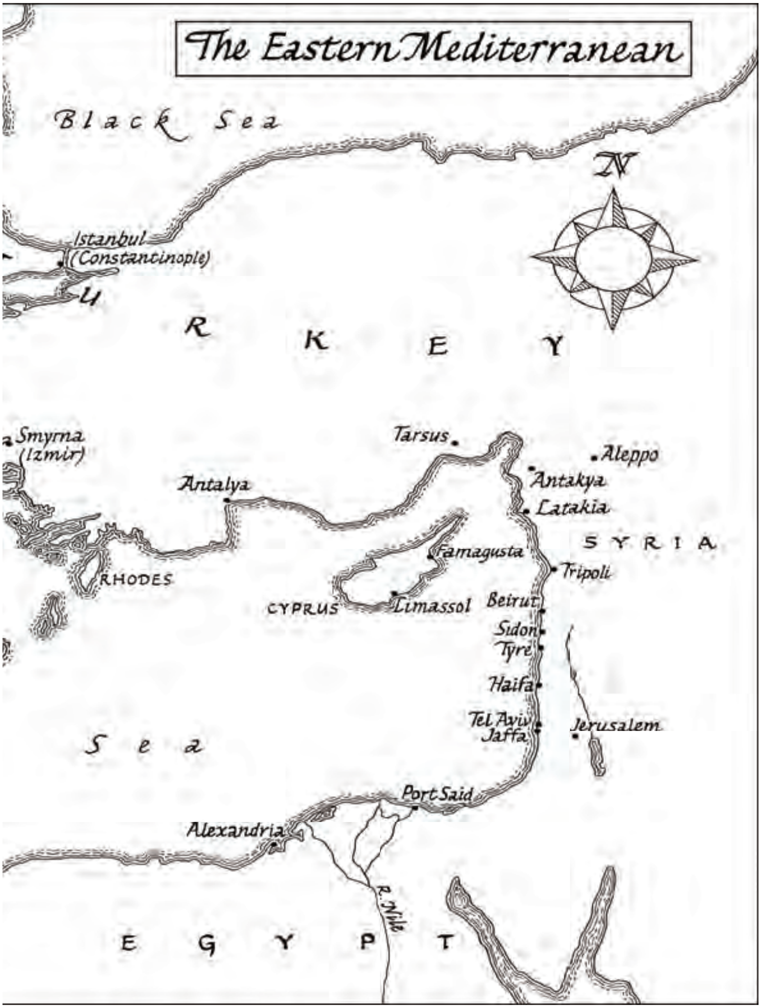
The Eastern Mediterranean
Black Sea
N
Istanbul
(Constantinople)
R K E Y
Smyrna
(Izmir)
Tarsus
Aleppo
Antakya
Antalya
Latakia
SYRIA
Famagusta
Tripoli
RHODES
CYPRUS
Limassol
Beirut
Sidon
Tyre
Haifa
Tel Aviv
Jaffa
Jerusalem
Sea
Port Said
Alexandria
R. Nile
EGYPT

0 100 200 300 miles
0 100 200 300 400 500 km
Trieste
Split (Spalato)
Dubrovnik (Ragusa)
Ancona
I T A L Y
Durres (Durazzo)
Thessalonica
Bari
Brindisi
Naples
Taranto
Lemnos
Lesbos
CORFU (Kerkyra)
Cotrone
LEUKAS (Lefkas)
EUBOEA
G R E E C E
Athens
CEPHALONIA
Corinth
Messina
Palermo
Reggio
ZANTE (Zakynthos)
Naxos
SICILY
Agrigento
Syracuse
Heraklion
CRETE
MALTA
Mediterranean
Tripoli
Benghazi
Tobruk
CYRENAICA
L I B Y A

C E
R. Rhône
Marseilles
Nice
MONACO
Genoa
I
Livorno
Florence
T
A
L
Y
Venice
Trieste
Ravenna
Ancona
R. Tiber
Rome
Naples
Bari
Brindisi
Taranto
Cotrone
Split (Spalato)
D A L M A T I A
Adriatic Sea
CORSICA
Ajaccio
SARDINIA
Cagliari
Minorca
Tyrrhenian Sea
r r a n e a n
Palermo
Messina
Reggio
SICILY
Agrigento
Syracuse
Pantellaria
MALTA
Sea
Bone
Tunis
TUNISIA
R I A
DJERBA
Tripoli
TRIPOLITANIA
N

The Western Mediterranean

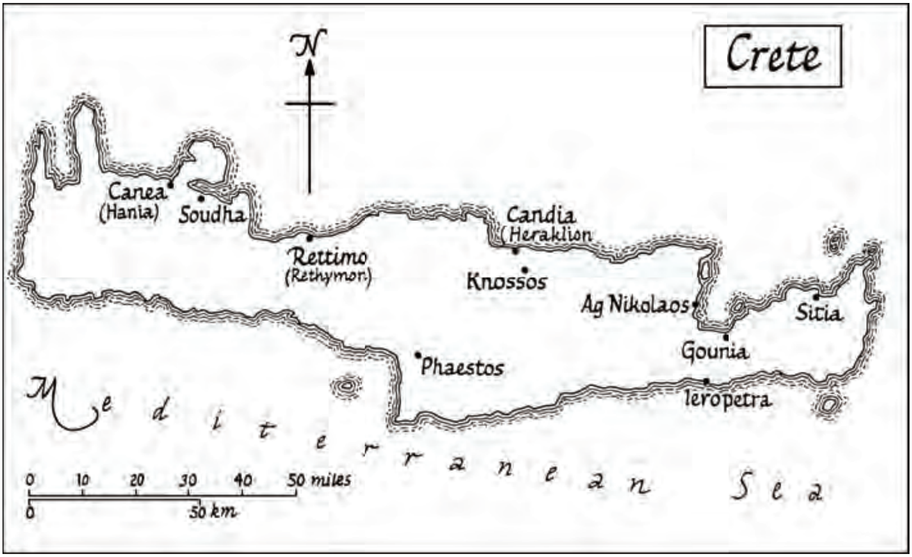

Crete
N
Canea
(Hania)
Soudha
Rettimo
(Rethymon)
Candia
(Heraklion
Knossos
Ag Nikolaos
Sitia
Gounia
Phaestos
Ieropetra
Mediterranean Sea
0 10 20 30 40 50 miles
0 50 km

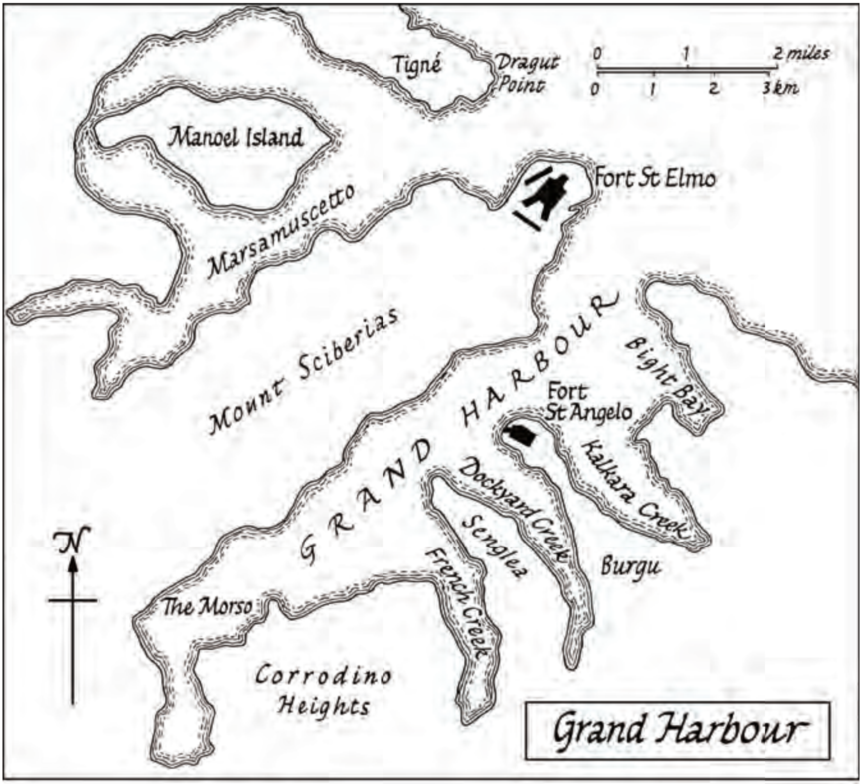

Grand Harbour
Tigné
Dragut Point
0 1 2 miles
0 1 2 3 km
Manoel Island
Fort St Elmo
Marsamuscetto
Mount Sciberias
GRAND HARBOUR
Bight Bay
Fort St Angelo
Kalkara Creek
Dockyard Creek
Senglea
Burgu
French Creek
The Morso
Corrodino Heights
N

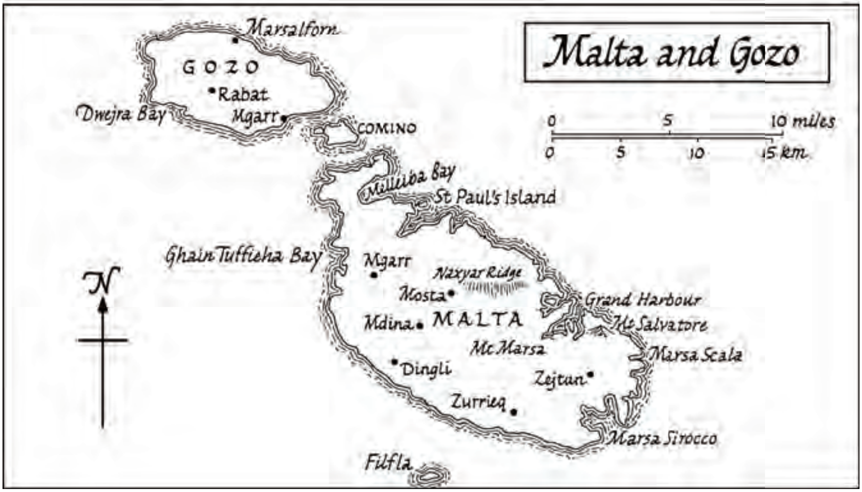

Malta and Gozo
Marsalforn
GOZO
Rabat
Dwejra Bay
Mgarr
COMINO
0 5 10 miles
0 5 10 15 km
Mellieha Bay
St Paul's Island
Ghain Tuffieha Bay
Mgarr
Naxxar Ridge
Mosta
Grand Harbour
Mdina
MALTA
Mt Salvatore
Mt Marsa
Marsa Scala
Dingli
Zejtun
Zurrieq
Marsa Sirocco
Filfla
N

Southern Italy and Sicily

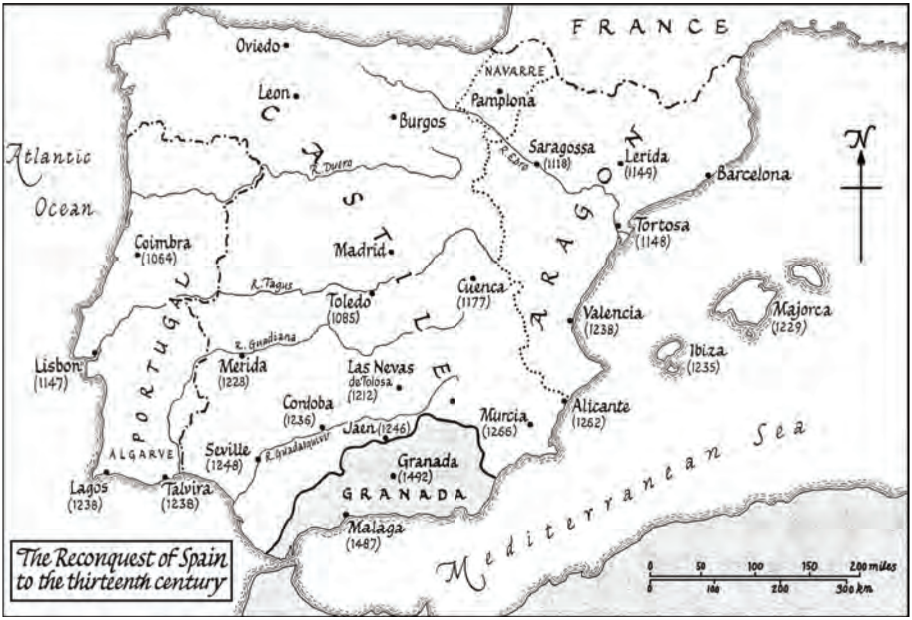
FRANCE
NAVARRE
Pamplona
Oviedo
Leon
Burgos
CASTILE
Atlantic Ocean
R. Duero
R. Ebro
Saragossa (1118)
Lerida (1149)
Barcelona
ARAGON
Tortosa (1148)
Coimbra (1064)
Madrid
R. Tagus
Toledo (1085)
Cuenca (1177)
Valencia (1238)
Majorca (1229)
Ibiza (1235)
PORTUGAL
R. Guadiana
Lisbon (1147)
Merida (1228)
Las Nevas de Tolosa (1212)
Cordoba (1236)
Murcia (1266)
Alicante (1262)
Jaen (1246)
Seville (1248)
R. Guadalquivir
ALGARVE
Lagos (1238)
Talvira (1238)
Granada (1492)
GRANADA
Malaga (1487)
Mediterranean Sea
0 50 100 150 200 miles
0 100 200 300 km
The Reconquest of Spain to the thirteenth century

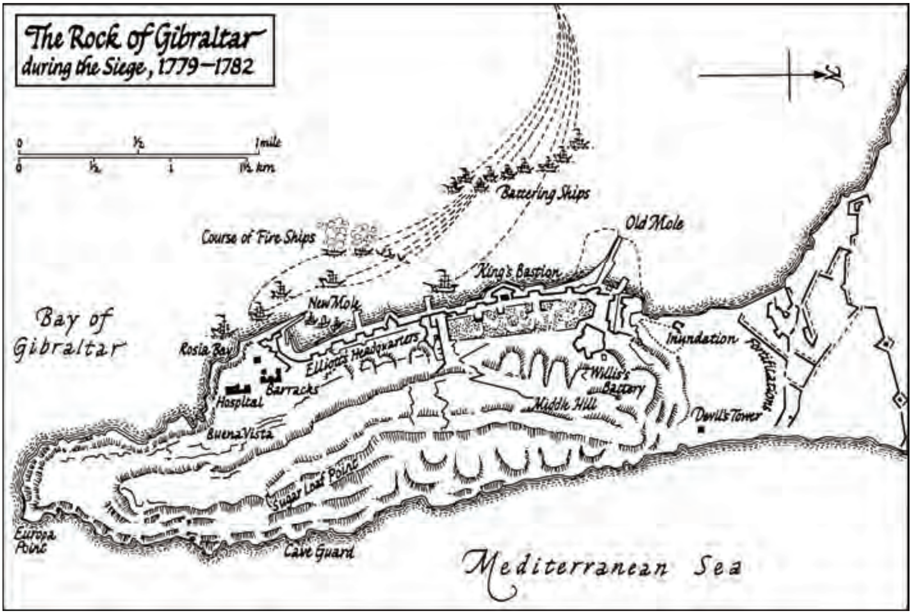
The Rock of Gibraltar
during the Siege, 1779–1782
0
½
1 mile
0
½
1
1½ km
Battering Ships
Course of Fire Ships
Old Mole
King's Bastion
New Mole
Bay of Gibraltar
Rosia Bay
Elliott's Headquarters
Inundation
Fortifications
Barracks
Hospital
Willis's Battery
Middle Hill
Devil's Tower
Buena Vista
Sugar Loaf Point
Europa Point
Cave Guard
Mediterranean Sea

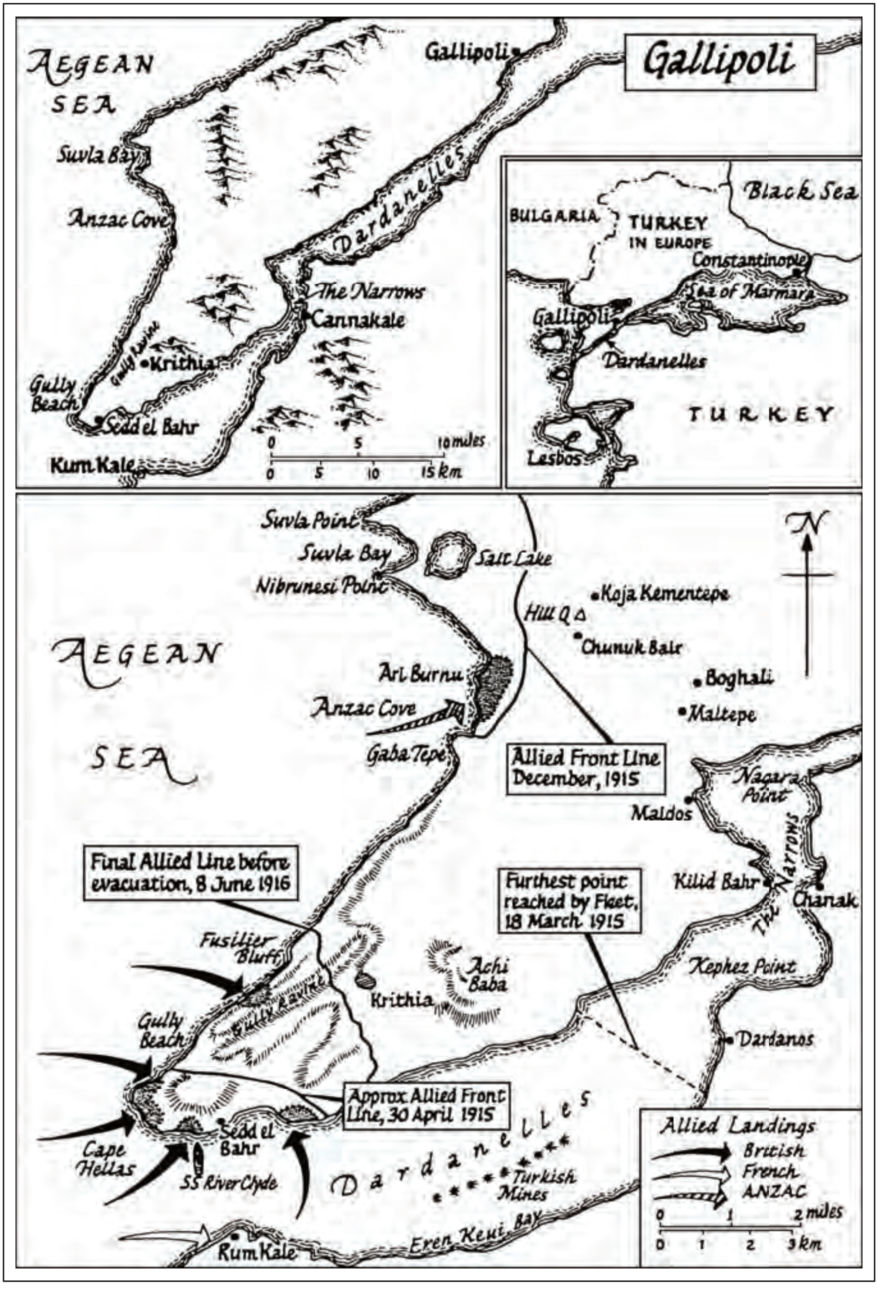
Gallipoli
Aegean Sea
Gallipoli
Suvla Bay
Anzac Cove
Dardanelles
The Narrows
Cannakale
Gully Ravine
Krithia
Gully Beach
Sedd el Bahr
Kum Kale
0 5 10 miles
0 5 10 15 km
Black Sea
BULGARIA
TURKEY IN EUROPE
Constantinople
Sea of Marmara
Gallipoli
Dardanelles
TURKEY
Lesbos
Suvla Point
Suvla Bay
Salt Lake
Nibrunesi Point
Koja Kementepe
Hill Q
Chunuk Bair
Aegean Sea
Ari Burnu
Boghali
Anzac Cove
Maltepe
Gaba Tepe
Allied Front Line December, 1915
Nagara Point
Maidos
Final Allied Line before evacuation, 8 June 1916
Furthest point reached by Fleet, 18 March 1915
Kilid Bahr
The Narrows
Chanak
Fusilier Bluff
Achi Baba
Kephez Point
Krithia
Gully Ravine
Gully Beach
Dardanos
Approx Allied Front Line, 30 April 1915
Dardanelles
Cape Hellas
Sedd el Bahr
SS River Clyde
Turkish Mines
Allied Landings
British
French
ANZAC
0 1 2 miles
0 1 2 3 km
Rum Kale
Eren Keui Bay

ملحق الصور

صوفيا شليمان تتقلَّد الحلي الذهبية والمجوهرات التي كان زوجها يعتقد — خطأً — أنها كانت تخص هيلين الطروادية.

ناووس، تابوت حجري، الإسكندر. العصر الهيليني، ٣٢٠ق.م. تقريبًا.

المسجد الكبير، قرطبة، ٧٨٥م تقريبًا.

بيركليس، نسخة رومانية عن الأصل اليوناني، ٤٤٠ق.م. تقريبًا.

كنيسة سان صوفيا، إسطنبول، ٥٣٥م تقريبًا.

رافينا، ضريح سان فيتالي، الإمبراطور جيستنيان، موزاييك، القرن السادس.

رافينا، ضريح جالايلا سيديا: الراعي الصالح، موزاييك، منتصف القرن السادس.

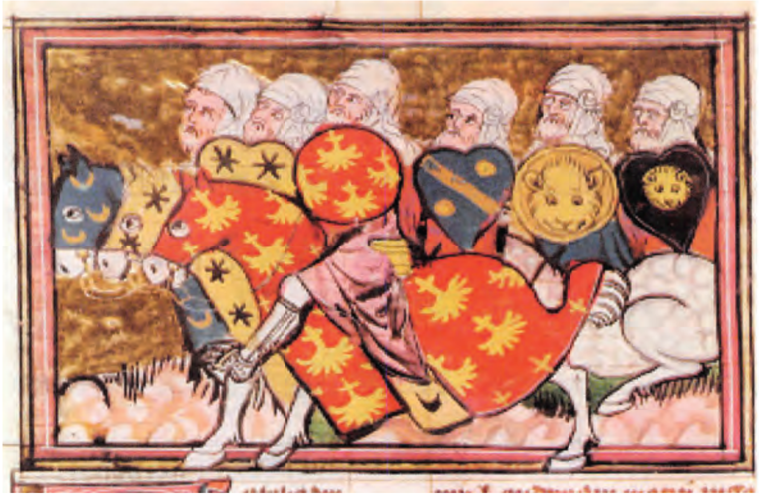

جيش صلاح الدين.

السلطان محمد الثاني، ألوان مائية، من الفن التركي، القرن الخامس عشر.

معركة ليبانتو، ٧ أكتوبر ١٥٧١م.

السلطان سليمان المعظَّم.

معركة النيل، تدمير السفينة «لورنيت»، الشرق lorient. أغسطس ١٧٩٨م.

معركة الأهرام، ٢١ يوليو ١٧٩٨م.

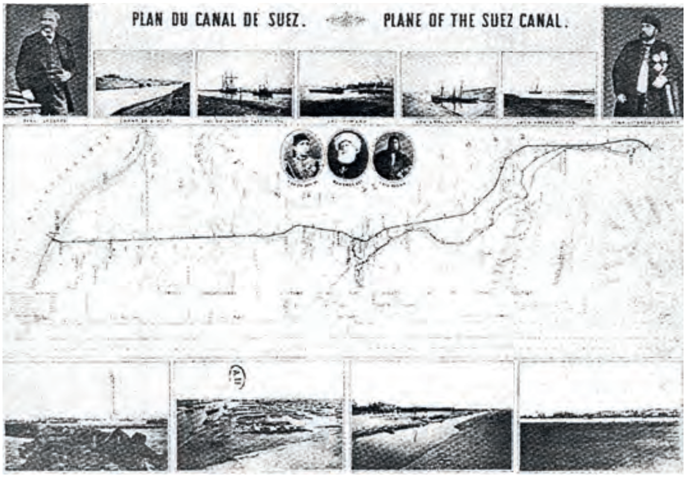

خريطة قناة السويس، ١٨٦٩م، مع صور لفردينان دي ليسبس والخديوي إسماعيل ولقطات من القناة.

كليمنصو وويلسون ولويد جورج، بعد توقيع اتفاقية فرساي.

هنداوي